التفسير الواضح

على

نهج السلف الصالح

الدار الأثرية للنشر والتوزيع
العبدلي - مقابل عمارة
جوهرة القدس - البريد الأردني
رقم الجوال: ٠٠٩٦٢-٧٩٠١٥٣٧٤٧
٠٠٩٦٢-٧٨٦٤٤٦٢٦٨
alatharya1423@yahoo.com
@ adaralathryaa

الخير
جمعية
الخير الإنسانية
00965-66533733
alkhair_kwt
www.alkhairkwt.org
info@alkhairkwt.org

دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع
دولة الكويت
فرع حولي : شارع المثنى
بجوار مجمع البدري
هاتف : ٩٦٦٩٩١٨٢
٠٠٩٦٥/٩٨٨٥٦٥٠٥
(دار وقفية دعوية)
المدير العام :
د . فرحان بن عبيد الشمري
falaslmi@gmail.com

وقفٌ لله تعالى

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٢/١١/٥٧٧٨)

٢٢٢
الرفاعي ، محمد نسيب
التفسير الواضح على نهج السلف الصالح/ محمد نسيب الرفاعي (ت١٩٩٢م)؛ تحقيق محمد كمال درويش الرمحي- ط٢؛ مزيدة ومنقحة .- عمان: الدار الأثرية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٢٢.
(٦٧٢) ص.
ر.إ: ٢٠٢٢/١١/٥٧٧٨.
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// العلوم القرآنية
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

(ردمك) ISBN 978-9957-554-41-5

الطبعة الثانية
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

وقف لله تعالى

التفسير الواضح

على

نهج السلف الصالح

للشيخ العلامة المفسر
محمد نسيب الرفاعي رحمه الله
صاحب كتاب تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير
قدم له فضيلة الشيخ
مشهور بن حسن آل سلمان حفظه الله
اعتنى به
محمد بن كمال الرمحي عفا الله عنه

مع ملحق بتخريج الأحاديث محلى بأحكام الشيخ الألباني رحمه الله

الدار الأثرية
الخيبر
دار إيلاف الدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان -حفظه الله-

إنّ الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، أمّا بعد ...

فهذه طبعة جديدة، منقّحة ومزيدة، من تفسير شيخنا العلامة المفسّر أبي غزوان محمد نسيب الرّفاعي -عليه من الله شآبيب رحمته ورضوانه-.

فرغ شيخنا من هذا التفسير في (١٦/ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٨هـ)، وكان قد سمّاه: (الصِّراط المستقيم في تفسير القرآن العظيم) ثم عدل عنه إلى (التَّفسير الواضح على نهج السّلف الصّالح) اعتمد فيه على الخلاصة الجليّة الهنيّة الواضحة المريّة، دونما خلل في معاني الآيات، واعتدّ فيه بأقوال السّلف بإجمالٍ، ودافع عن معتقدهم بإصرارٍ، فذكر آيات الأسماء والصّفات بلا تأويل، ولا تعطيل، ولا تكييفٍ، ولا تمثيل.

وسلك فيه سبيلًا وسطًا بين الإيجاز والإسهاب، فلا هو بالموجَز المُخِلّ، ولا المسهَب المُمِلّ.

وشيخنا العلامة الرّفاعي له عناية متميّزة في تفسير كتاب الله تعالى: دراسةً وتصنيفًا، وكان قد أخذ في شرح كتاب الله تعالى في دروسه في المساجد في عمّان، لما حلّ بها سنة ١٩٧٦م، وابتدأ بدروس التفسير في أوائل الثّمانينيّات، وكان لنا لحسن حظّنا نصيب منها؛ فقد درّس في مساجد المنطقة التي كنت أسكن فيها في تفسير القرآن الكريم، وكانت دروسه علمية تربوية سهلة ماتعة نافعة، وكان يدعو فيها إلى معتقد السّلف الصّالح بحماسٍ وأسلوبٍ فيه تشويقٌ وتحبيبٌ.

واختصر شيخنا الرّفاعي -عليه الرحمة- تفسير ابن كثير، وسمّى مختصره: (تيسير العليّ القدير في اختصار ابن كثير)، ووضع الله له القبول، وهو تفسيرٌ مختصرٌ مليحٌ، يسّر الله لي تدريسَه مرتين.

وتوثّقت صلتي به، وزرتُه مرّاتٍ وكرّات في بيته، وكان حريصًا على المعتقد السّلفي، ونشْره، وكان عفيفَ اللّسان، سليمَ الجنان، ولا يذكر أستاذه وأخاه العلامة الألبانيَّ إلا بثناءٍ وخيرٍ، ويقول عنه: «شيخنا وعالمنا، ولا يوجد من يوازيه أو يجاريه في علم الحديث النبوي وتخريجه».

نعم؛ ألّف كتاب (نوال المنى في إثبات عصمة نساء الأنبياء من الزنى) قرّر فيه عدم وقوع ذلك في سُنّة الله الشّرعية والكونيّة، وكان شيخنا الألباني ينازعه في قوله: «والكونية»، وهما متّفقان على عدم وقوع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الكبيرة، وهي ممتنعة في حقّهن، ومُتن -رضوان الله عليهن- وهنّ طاهرات عفيفات من مثل هذه القبائح والنّقائص.

وكانت علاقة شيخنا الألباني بأخرة حسنةً مليحةً معه، وركبتُ سيارته وذهبنا للصلاة عليه عند وفاته رحمه الله تعالى.

وكان شيخنا أبو غزوان يحبّ تفسيره هذا، ويتمنّى أن يراه مطبوعًا، وقرأتُ منه وهو بخطه الحسن المليح،

ومضت أعوامٌ كثيرةٌ تصل إلى خمسٍ وأربعين سنة وهو لم يُنشر، وعمل في السّنوات الأخيرة قبل وفاته -وكانت في ١١/ ١٢/ ١٩٩٢م- على تنضيده ومراجعته، ومات والتفسير جاهز للنّشر.

ثمّ يسّر الله عزّ وجلّ الكلام مع ورثة الشيخ؛ فأحبّوا نشره، ويسّروا ذلك؛ فجزاهم الله خيرًا.

ثم تواصلت مع بعض الإخوة المحسنين واهتبلتُ فرصة تأويل منامٍ لواحدٍ منهم، تدلّ على خيرٍ ينتظرهم في دنياهم ودينهم، فتحمّس لنشر الطبعة الأولى من هذا التّفسير. ثم ألقى الله تعالى الحماس في قلبي فقمتُ بتوزيع قرابة مئة نسخة منه، وتقصّدتُ وضعها بين يدي إخوة متحمّسين لنشر هذا التّفسير، ثمّ توالى المحسنون -جزاهم ربي خيرًا- على التبرع لنشر طبعةٍ ثانيةٍ منه.

وقام الأخ الدكتور محمد الرحمي على مراجعة مادة التفسير، وتوزيع التفسير حول الصفحة التي فيها الآيات، والعمل على تخريج الأحاديث بإيجازٍ في ملحقٍ خاصٍ آخر التفسير. وقام أخونا الشيخ الفاضل عصام هادي -حفظه الله- بكتابة ترجمةٍ للشيخ المؤلّف؛ فجزاهما الله خيرًا على ما قاما به من جهدٍ، وتقبّل من الإخوة المحسنين الذين بذلوا أموالهم في سبيل نشر هذا التفسير المليح المصفّى، الذي هو على منهج السّلف الصّالح.

والمرجو من الله تعالى أن ييسّر الله الأسباب لترجمته لأكثر من لغة، ولنشره طبعات عديدة، وأن يكون في بيت كلّ مسلم، وما ذلك بعزيزٍ. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

بعد عشاء يوم الأحد ٤/ ربيع الآخر/ ١٤٤٤هـ

الموافق ٣٠/ ١٠/ ٢٠٢٢م

مقدمة المعتني

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد...

فهذا (**التّفسير الواضح على نهج السّلف الصّالح**)؛ وهو تفسيرٌ مختصرٌ، سهلُ العبارة، قريبُ التناول، كتبه مصنِّفُه رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً على هامش المصحف الشَّريف؛ وقد امتاز -مع اختصاره- بمزايا مهمة؛ منها:

- العناية ببيان ترتيب نزول السورة، وبيان المكي والمدني، وعدد آيات كل سورة؛ في أول تفسير السورة.

- العناية بتفسير القرآن بالقرآن، وإيراد الآيات المبيِّنة للمعنى أو الإشارة إليها -أحيانًا- في سياق التفسير.

- العناية بتفسير القرآن بالسنة النبوية، وذكر ما يوضح معنى الآية وما دلَّت عليه من الأحكام من الأحاديث النبوية الشريفة؛ حيث اشتمل هذا التفسير -مع اختصاره- على نحو تسعمئة حديث نبويٍّ شريفٍ. وهذا ما قد لا يوجد عند أمثاله من كتب التفسير المختصرة.

- العناية بأسباب النزول، وسياق القصة بأسلوب مختصر سهل يُقرِّب معنى الآيات، ويوضح دلالتها.

- العناية بصحة الأحاديث التي يوردها، والحكم على كثير منها، والإشارة إلى الضعيف منها -غالبًا-، والتنصيص على حكم الشيخ الألباني رحمه الله على بعض الأحاديث.

- العناية بتحقيق الوارد في الآيات من التفسير، واعتماده الصحيح؛ فتجده يقول مثلًا: «فإن صحَّ شيء سوى ما ذُكر فنقول: سمعنا وأطعنا...».

- الاقتصار على الراجح من الأقوال، وربما ساق الأقوال على وجه الاختصار -أحيانًا-. وربما فسَّر الآية -أحيانًا- على أكثر من وجه بحسب ما قيل فيها.

- الإشارة -أحيانًا- إلى معنى الآيات بحسب القراءات القرآنية واللغة العربية.

- العناية بتقرير مسائل التّوحيد، والرّد على المشركين والمبتدعين، والتّركيز على مسائل الشّفاعة والتّوسل والغلوّ في الصّالحين.

- تقرير عقيدة السّلف في الصّفات والتّحذير من مخالفتها، لا سيما في صفة العلوّ والاستواء وكلام الله تعالى، والصّفات الخبريّة.

- الرَّد على اليهود والمستشرقين ومن تأثَّر بهم من المسلمين حيث سنحت الفرصة، وربما أطال في بعض المواضع.

- كتابة التفسير على هامش صفحة المصحف.

- ترويس الصفحة بذكر أهم ما ورد فيها.

وهاتان الميزتان الأخيرتان سبق بهما الشيخُ رحمه الله أهلَ عصره.

فهذا كله وغيره يبين أهمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

وكنا قد طبعنا الكتاب طبعةً سابقةً وقفيةً؛ تمّ إعدادها ومقابلتها على نسخةٍ مصفوفةٍ في حياة الشيخ رحمه الله؛ لم تخلُ من بعض التّحريفات والتّصحيفات

النّاتجة عن الصفّ، ثم يسّر الله الحصول على النسخة التي خطّها الشيخُ رحمه الله بيده، وهي -لا شكّ- أدقّ وأحسن من المصفوف؛ فأعدت مقابلة التفسير كاملًا على النّسخة المخطوطة؛ فتبيّنت بعض العبارات على وجهها الصحيح، واستدركت ما وقفت عليه من التحريف والتصحيف والسقط في الطبعة السابقة، وأظهرت النسخة المخطوطة بعض الفوائد؛ منها:

- ظهور بعض العبارات التي اختصر الشيخ ذكرها في المصفوف حرصًا على بقاء تفسير كل صفحة من صفحات المصحف حول الصفحة نفسها دون تجاوز.

- أنّ الشيخ رحمه الله ذكر عددًا من الأحاديث الضعيفة في المخطوط، تراجع عنها في المصفوف، واستبدل بها أحاديث صحيحة في النسخة المصفوفة.

وأهم ما تمّ من العمل في إعداد هذه الطبعة والعناية بها ما يلي:

أولاً: تنسيق التّفسير على صفحات المصحف تمامًا إلا في صفحات قليلة جدًّا؛ مراعاةً لطريقة المصنِّف التي قصدها وسطرها رحمه الله بيده.

ثانيًا: مقابلة النص على النسختين المخطوطة والمصفوفة، وإضافة الزيادات، واستدراك التصحيفات السابقة.

ثالثًا: تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا في ملحق آخر التفسير، مع ترقيم الأحاديث ترقيمًا متسلسلًا، واستغنيت بهذا عن العمل السابق الذي قام به بعض تلاميذ الشيخ حيث جعلوا الأحاديث مع الحكم عليها في جدولٍ في آخر التفسير؛ حيث إنّ الجدول لا يخلو من أخطاء في الحكم على الأحاديث، نتج من سقطٍ لبعض الأحاديث مع بقاء حكمه لغيره.

رابعًا: دفعني تراجع الشيخ رحمه الله في المصفوف عن بعض الأحاديث الضعيفة الواردة في المخطوط إلى الاستفادة من ملحق بدائل الأحاديث الضعيفة الذي ذكره في آخر الكتاب المصفوف، فنقلتُ عددًا من الأحاديث الصحيحة إلى أماكنها بدلاً من الأحاديث الضعيفة المذكورة.

ولعلّ المانع للشيخ من فعل ذلك بنفسه: صعوبة إعادة الصف في ذلك الزّمان، فاكتفى بذكر هذه البدائل في ملحق. والله أعلم.

خامسًا: أضفت ترجمةً مختصرةً للمؤلف رحمه الله بقلم تلميذه فضيلة الشيخ عصام بن موسى هادي حفظه الله.

وفي ختام هذه الكلمة الموجزة نتقدم بالشكر الجزيل لورثةِ المصنِّف حفظهم الله الذين أذنوا لنا بطبع الكتاب.

ولفضيلة الشيخ عصام بن موسى هادي حفظه الله الذي أعاننا في تحصيل الكتاب، ونسخته الخطية.

ولكل من ساهم في التنبيه على الأخطاء في الطبعة السابقة، ولكل من ساهم من المحسنين في إصدار هذه الطبعة الوقفية للكتاب.

فجزاهم الله جميعًا خير الجزاء.

ونسأل الله أن ينفع بهذا التفسير، وأن يكتب لمؤلفه عظيم الأجر والمثوبة، وأن يتغمّده بواسع رحمته.

والحمد لله رب العالمين.

المعتني

محمد بن كمال الرمحي

عفا الله عنه

عمّان؛ ليلة الأحد ٢٧/ ٣/ ١٤٤٤هـ

ترجمــة الشيخ العلامة محمد نسيب الرفاعي -رحمه الله-

بقلم تلميذه

الشيخ عصام بن موسى هادي -حفظه الله-

فهذه ترجمةٌ مختصرة لشيخي وأستاذي العلامة محمد نسيب الرفاعي رحمه الله عسى أن أفيه قطرةً من بحره الزخار المتدفق بالنعم والإحسان عليَّ **وقد بسطت أخباره في كتابي «صفحات من حياة العلامة محمد نسيب الرفاعي»**.

*** اسمــه ونسـبــه:**

«محمد نسيب» بن عبد الرزاق بن محي الدين الرفاعي.

ورأيتُ بخـط يــده: «فإنني الرفاعيُّ نسباً... والسلفيُّ عقيدةً ومذهباً».

*** مولـــده:**

قال شيخنا -ومن خطه أنقل-: «وقد ولدتُ بمدينة حلب الشهباء وذلك في التاسع من شهر رمضان سنة ١٣٣٢هـ الموافقة سنة ١٩١٥م».

*** نشــأتــه:**

نشأ شَيْخُنا -رحمه الله- في حلب وترعرع في بيت عُرِفَ بالتديّن والمحافظة، إذ ينتسبُ هذا البيتُ إلى الشيخ أحمد الرفاعي الذي تُنْسَبُ إليه الطريقةُ الرفاعيةُ الصوفيةُ، ثم التحق بالثورة السورية ضد الفرنسيين إبان احتلالهم سوريا، وصار شاعر الثورة، ألقي عليه القبض عدة مرات، وسجن من قبل المحتلِّ في معتقل «الميّه ميّه» و«قلعة راشيا» في لبنان مع جماعة من المجاهدين، منهم مرشد الإخوان المسلمين مصطفى السباعي، وفي سجنه قرأ كتاب «مجموع الرسائل والمسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكان الكتاب مع الشاعر الأديب عمر أبو النصر، فقلب الكتاب حياته وحوله من التصوف إلى عقيدة السلف الصالح وبدأ يشتري كتب ابن تيمية ويقتبس منها الحق والنور.

قال شيخنا: «ولما خرجتُ من السجن أخذتُ أدعو أهلي ومن حولي من قومي إلى العقيدة الصحيحة، وترك ما هم عليه من باطل من تصوّف واستغاثة بالمخلوق».

ثم التقى بشيخنا الألباني -رحمه الله- سنة ١٩٤٥م ومنه تعلم فقه الاتباع والدليل، ثم اتفق هو والشيخ ناصر وبهجت البيطار وحامد الفقي وخالد حوجه ومظهر العظمة أن لا تبقى الدعوة السلفية حبيسة دمشق بل تنتشر في سوريا كلها، واتفقوا على زيارات للقرى والمدن وأن يقيم الإمام الألباني -رحمه الله- مجالس في الدعوة السلفية في حلب كل شهر ثلاثة أيام وينطلق إلى إدلب وحماة والرقة والجزيرة وحمص وهكذا حتى عمت مدن سوريا كلها.

ثم ضيق عليه، وحبس وعذب في سبيل ذلك، ففر من حلب إلى بيروت سنة ١٩٧٢م، ومكث فيها يدعو إلى التوحيد، ثم ارتحل منها سنة ١٩٧٥ إلى السعودية، ومنها إلى عمان الأردن، مبعوثاً للدعوة والإرشاد من قبل الإمام ابن باز رحمه الله سنة ١٩٧٦م وبدأ بنشر دعوة التوحيد في مساجدها وأحيائها إلى أن توفاه الله تعالى.

شيوخـــه:

الإمام الألباني. قال شيخنا نسيب ومن خطه أنقل: «وهو شيخنا وعالمنا وقائدنا في الدعوة، وهو المحدث الذي قل أن يوجد له نظير في العالم العربي».

ومنهـم أيضاً سـماحة العـلامة محمـد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله جالسه ورافقه واستفاد منه كثيراً.

والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ.

والإمام عبد العزيز بن باز.

والشيخ عبد الله بن حميد.

والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة.

والتقى شيخنا -رحمه الله- بأئمة زمانه من كبار العلماء في كل مِصْرٍ من أمصار المسلمين، وكانت بينه وبينهم مراسلاتٌ ومُجالسات ومعاونة في الخير على نشر دعوة الكتاب والسنة، منهم: الداعية الإسلامي مصطفى السباعي، والعلامة المحدث أحمد شاكر، والشيخ سيد سابق، والشيخ حامد الفقي، والعلامة محب الدين الخطيب، والعلامة تقي الدين الهلالي، والعلامة خليل هراس، والعلامة عبد الرحمن الوكيل، وغيرهم كثير.

❊ ثنـاء العـلماء عليـه:

أثنى عليه جماعة من العلماء:

❊ الإمام عبد العزيز بن باز قال فيه: «أما بعد فقد أطلعني الأخ العلامة محمد نسيب الرفاعي على مختصره لتفسير الحافظ ابن كثير -رحمه الله-».

❊ الداعية الرحلة العلامة تقي الدين الهلالي حيث قال: «ولذلك كان سروري عظيماً بهذا الكتاب الذي حرره أخونا العالم السلفي المحقق الأستاذ الشيخ محمد نسيب الرفاعي رفع الله في الدارين درجته وأجزل فيهما مثوبته...».

❊ علامة الشام سماحة الشيخ محمد بهجة البيطار حيث قال: «وقد بدا للأستاذ العلامة السلفي المحقق الشيخ محمد نسيب الرفاعي أن يختصر هذا التفسير ...».

❊ قال شيخنا بالإجازة الشيخ المجاهد والداعية الكبير أبو بكر زهير الشاويش: «الشيخ نسيب الرفاعي العالم المجاهد ورائد السلفية في حلب».

وقال أيضاً: «كان نسيب الرفاعي في مدينة حلب الشهباء، مناراً للعقيدة الصحيحة والسلفية المبنية على العلم، وهو أول من أسس داراً للتوحيد في بلاد الشام، وهو أول دعاة السلفية بين عامة الناس في حلب».

• شيخنا الإمام الألباني: «وللأستاذ نسيب الرفاعي رسالة نافعة في تأييد ذلك اسمها «أوضح البيان فيما ثبت في السنـة في قيام رمضان» فننصح بالاطلاع عليها ...».

وقال أيضاً: «قلت: هذه المجموعة تأليف الشيخ محمد نسيب الرفاعي الحلبي -رحمه الله-، جرى فيها على المنهج السلفي، لكن أفسدها (الهدَّام) بتعليقه عليها».

• العلامة المحدث أبو إسحاق الحويني حيث قال: «ولقـلما رأت عيناي مثله في تواضعـه وأدبه وحسن خلقه ...».

❊ وفاتـــه:

توفي -رحمه الله- قبيـل فجـر الأربعـاء في ١١/ ١٢/ ١٩٩٢م على عمل صالح، وصلي عليه صلاة الظهر في مسجد التكروري في الهاشمي الشمالي، وحضر الجنازة جمع من العلماء على رأسهم شيخنا الإمام الألباني، ثم دفن في مقبرة الرصيفة.

نماذج من التفسير

بخط المؤلف الشيخ العلامة محمد نسيب الرفاعي -رحمه الله-

الصراط المستقيم
في
تفسير القرآن العظيم

المجلد الأول

تأليف

محمد نسيب الرفاعي

مؤسس الدعوة السلفية بحلب سوريا

أسسها ١٣٦٤هـ ١٩٤٤م

صورة غلاف الكتاب بخط المؤلف (رحمه الله)

الصراط المستقيم في تفسير القرآن العظيم

المجلد الأول

تأليف

محمد نسيب الرفاعي

مؤسس الدعوة السلفية بحلب - سوريا

أسسها

١٣٦٩هـ ١٩٤٩م

عليه من الرب عفواً ومغفرةً * وزاده منه في الدارين قربا

صفحة العنوان للمجلد الأول

ص

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من نزل عليه هذا الكتاب المبين وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه ونشروه في الآفاق فكانوا هداة العالمين

أقدم لابني الحبيب وولدي الأديب السيد الأستاذ عزوان الرفاعي حفظه الله ورضي عنه وأرضاه وجعله من المنفذين لأحكام هذا الكتاب الكريم في نفسه وأهله وسائر من يعولهم من البنين والبنات متمثلاً في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة....﴾ أصل هذا الكتاب الجليل الذي أتيت بتوفيق من الله على تفسيره بظرف أربع سنوات هجرية والحمد والشكر له على ما وفقني إليه جل وعلا

وأرجو منك يا ولدي الحبيب وابني الأديب أن تعطيه حقه ومستحقه من التأسي والاتباع والدعوة إليه وإلى أحكامه في كل مجال ولا تخف لومة لائم أجل لا تخف أحداً في سبيل الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وإنه أحسن ما تعتمد عليه في الاستعانة على فهمه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

إني وإن كنت فسرته مختصراً اختصاراً غير مخل ولكن اجتهدت ما استطعت أن تتوسع في فهمه فهماً غير ممل وأطلعني فيما أرجوه سبيلاً إلى الصراط المستقيم. عسى الله أن نلتقي في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين وفقك الله ورضي عنك وأرضاك وجعلك من المهتدين

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

أبوك

تقديم المؤلف الكتاب لولده ووصيته به

تفسير سورة الفاتحة

مكية وآياتها سبع ، نزلت بعد سورة المدثر

{ ١/الفاتحة/ ١ الحمد لله — ٧ ولا الضالين } (الله) علم على الرب ، (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة ، [illegible] في القرآن [illegible]

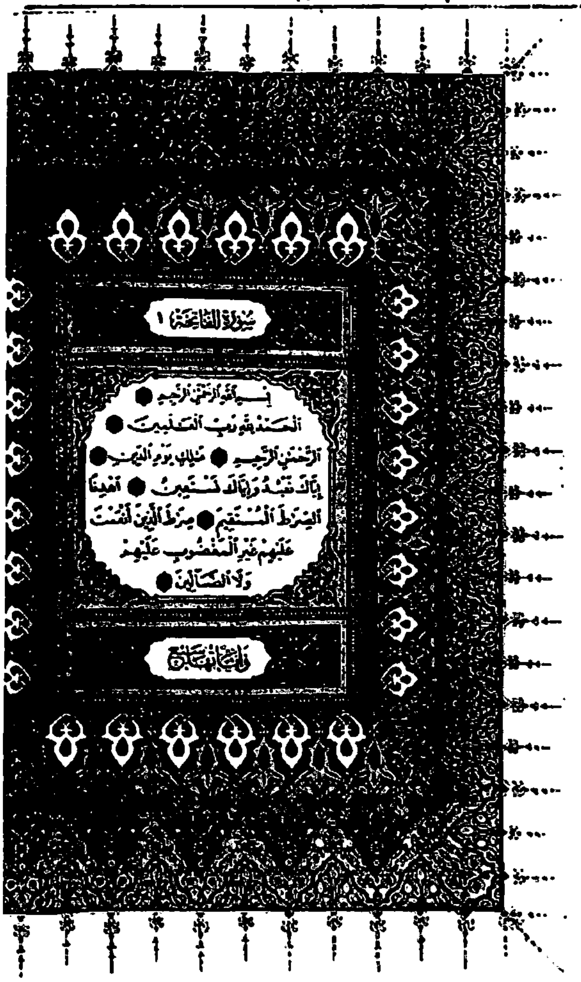

١ ﴿الحمد لله﴾ أي الحمد كله لله دون ما سواه بما
[illegible] كل ما برأ من خلقه بما أنعم الله
عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه . والأل
[illegible] مستغرقة جميع أنواع الحمد لله تعالى لحديث
[اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك
الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله] الحديث ..
﴿رب العالمين﴾ الرب : المالك المتصرف ولا
يعرف بالألف واللام إلا لله تبارك وتعالى
ولا يذكر في غيره إلا بالإضافة مثل :
رب الدار . والعالمين جمع عالم وعالم الأمر
يشمل كل مخلوق على الإطلاق .
٢ ﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة
على وجه المبالغة . والرحمن أشد مبالغة ..
والرحيم أي [illegible] مخلوقه ، ومعناه : يرحم جميع
المخلوقين مسلمهم وكافرهم . والرحيم خاص
بالمؤمنين يوم القيامة ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾
٣ ﴿مالك يوم الدين﴾ مالك ، وملك ، قراءتان
صحيحتان متواترتان . ويوم الدين أي يوم القيامة
أي هو المالك وحده ... ويوضح من [illegible]
بقوله تعالى : ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾
٤ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أي نخصك وحدك
بالعبادة والاستعانة . فلما حمد العبد ربه وأثنى عليه
... قرب منه فناسب أن يخاطبه بكاف
الخطاب ... فقال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾
٥ ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بعد أن توسل
العبد إلى ربه بالحمد والثناء والتمجيد ، وبإفراده
بالعبادة والاستعانة ... شرع بالسؤال فقال :
﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وهو الإسلام الحق .
٦ ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي الصراط
الذي أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾
٧ ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وهم اليهود ويشمل
من كان فيه شبه بهم ممن عرفوا الحق وانصرفوا
عنه إلى الباطل على علم ومعرفة . ﴿ولا الضالين﴾
وهم النصارى ويشمل كل من كان فيه شبه بهم في
الضلال عن الحق وعدم السلوك في طريقه ليهتدوا ويتعظوا ... ومما يتضح ما في هذه السورة المباركة من الحث على التوسل المشروع بأسماء الله وصفاته
وبأعمال المتوسل الصالحة . ومنها يفهم أن التوسل بذوات المخلوقين غير التوسل المشروع ولأنه من شعارات الجاهلية . وأما قول / آمين / بعد
الفاتحة فمعناه : اللهم استجب . ويتأكد ذلك في حق المصلي إماماً كان أو مأموماً أو منفرداً . كما يستحب ذلك لمن كان خارج الصلاة ، أو عند الدعاء أيضاً
لورود الحث على ذلك من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيحين وغيرهما (١) وقيل : إن تأمين المأموم في الصلاة على قراءة الفاتحة يقع بمنزلة
قراءتها . لقوله تعالى : ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ بينما الداعي موسى عليه السلام [illegible] وكان هارون عليه السلام يؤمن فقط . فيكون تأمينه [illegible]
بمنزلة الداعي [illegible] قال جل وعلا : ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ . والله تعالى أعلم . ولذا فإن المأموم لا قراءة عليه في الصلاة الجهرية .

(١) [illegible] / تيسير العلي القدير / [illegible] ج ١ [illegible]

تفسير سورة الفاتحة

تفسير سورة البقرة

وهي أول سورة نزلت في المدينة بعد سورة المطففين التي نزلت آخر سورة في مكة، إلا الآية/ ٢٨١/ فنزلت بمنى في حجة الوداع

(٢/ البقرة/) ١ الم – هم المفلحون (فضل سورة البقرة، القرآن هدى ورشد، وجوب الإيمان بالكتب كلها، الإيمان بالغيب [illegible]) ٥

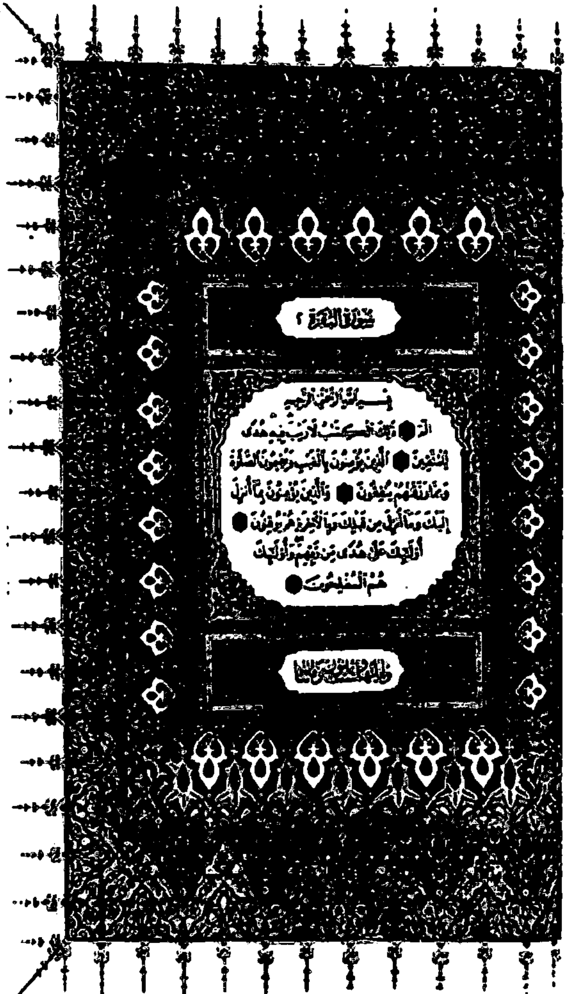

فضل تلاوة السورة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان] رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي. وفي مسند أحمد: [اقرؤوا البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة] أي لا تستطيع [illegible] سورة البقرة [illegible]

تفسيرها: بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿الم﴾ [illegible] وجميع فواتح بعض السور من الأحرف المقطعة ... إنما في جملة ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يستأثر بالعلم به [illegible] ولا شك أن لها معاني [illegible] [illegible] [illegible] فإن [illegible] من المعصوم شيء [illegible] [illegible] ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾

٢ ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ أي هذا الكتاب، لا شك أنه من عند الله تعالى، وهو بأجمعه هدى للمتقين أي نور للذين [illegible] اتقوا [illegible] والرهبة [illegible] وصفاته [illegible] بطاعته في كل أمر ونهي وهذا [illegible] في الآية التي بعدها والتي قبلها، صفات المؤمنين المتقين الذين وصفهم [illegible]

٣ ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي يصدقون بكل ما جاء [illegible] المعصوم من الغيب كالبعث والجنة والنار إيماناً حقيقياً [illegible] [illegible] إيمان وتصديق للنبي [illegible] ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها [illegible] مواقيتها ويقيمون أركانها المعروفة ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي [illegible] وكانت النفقة قبل فرض الزكاة نفقة الرجل على أهله وعياله [illegible] بعد فرضية الزكاة [illegible] كل [illegible] [illegible] في المصارف الثمانية [illegible] ذلك [illegible] الله [illegible] وحده لا شريك له [illegible] في ثواب [illegible]

٤ ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ أي القرآن [illegible] ﴿وما أنزل من قبلك﴾ أي جميع الكتب والصحف التي نزلت على الأنبياء والمرسلين كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وسائر ما نزل على الأنبياء والمرسلين ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي لا يخالجهم أدنى شك بالآخرة أي البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان. والآخرة [illegible] بالآخرة لأنها بعد الدنيا

٥ ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي هؤلاء المذكورون المتقدم وصفهم هم على هدى ونور من الله تعالى وبصيرة منه في عقائدهم الخالصة النقية [illegible] التي [illegible] فيها [illegible] نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم الصحيحة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الذين نجحوا في مفازتهم ففازوا [illegible] أعمال المتقين [illegible] أعد الله لهم [illegible] [illegible] من العقاب والعذاب [illegible]

الصفحة الأولى من تفسير سورة البقرة

١٨ (٢/البقرة/١٤-١) ٩٤ قل إن كانت لكم - ١٠١ كأنهم لا يعلمون. (الرسول وعداء اليهود إلى الملائكة ، من عادى الملائكة والأنبياء فقد عادى الله)

٩٤ ﴿قل﴾ يا محمد لليهود ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ أي الجنة ﴿عند الله خالصة﴾ أي خاصة بكم ﴿من دون الناس﴾ كما زعمتم ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ تعلق (بتمنوا) الشرطان على أن الأول قيد في الثاني . أي إن صدقتم في زعمكم أنها لكم ، ومن كانت له يؤثرها ، والموصل إليها الموت فتمنوه ... فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث : [لو أن اليهود تمنوا الموت ، لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً]

٩٥ ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ من كفرهم بما جاء من صفة نبيه في التوراة وتغييرها . قال ابن عباس : صفة النبي صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة : أكحل أعين ربعة ، جعد الشعر ، حسن الوجه ، فمحوه حسداً وبغياً . وقالوا نجده طويلاً أزرق ، سبط الشعر ، ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي الكافرين ، فيجازيهم ، ولو تمنوا الموت يوم قال لهم رسول الله ذلك ، ما بقي يهودي على وجه الأرض إلا مات .

سورة البقرة ٢ — الجزء الأول

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ
مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ
مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا
إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

٩٦ ﴿ولتجدنهم﴾ اللام لام القسم ﴿أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾ أي لتجدنهم أحرص الناس تمسكاً بالحياة بل ما فرض من المشركين عليها ، لأن المشركين منكرون للبعث ، ويرغبون في الحياة ، ليتمتعوا بها أكثر ... ولكن اليهود ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ ولو مصدرية بمعنى (أن) وهي بصلتها في تأويل مصدر مفعول (يود) لعلمهم الآتي بأن مصيرهم إلى النار . ﴿وما هو﴾ أي أحدهم ﴿بمزحزحه﴾ أي منجيه ﴿من العذاب أن يعمر﴾ أي أن تكون له طول العمر ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده فيجازي كلاً بعمله . وفي الحديث : [من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه] وسأل ابن صوريا النبي صلى الله عليه وسلم عن يأتي بالوحي فقال : جبريل فقال هو عدونا يأتي بالعذاب ولو كان ميكائيل لآمنا ، لأنه يأتي بالخصب والسلم فنزل في حقه :

٩٧ ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿من كان عدواً لجبريل﴾ فليمت غيظاً ﴿فإنه نزله﴾ أي القرآن ﴿على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه﴾ أي قبله من الكتب ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿وبشرى﴾ بالجنة ﴿للمؤمنين﴾ الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

٩٨ ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ وهذا من عطف الخاص على العام لزيادة البيان في الاختصاص لجبرائيل ، والمراد ميكائيل ، وقرن بينه الله وبين أنبيائه وقرن معه ميكائيل ليعلمهم أن من عادى واحداً منهم فقد عادى الآخر ، وعادى الله أيضاً ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ وفي الصحيح ٢٦ [إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب] وقع ٣ [تشكت خصمه خصمته .]

٩٩ ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ أي واضحات ، رد على ابن صوريا الذي قال : يا محمد ما جئتنا بشيء ، ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ ولا تكفروا بها .

١٠٠ ﴿أوكلما عاهدوا﴾ الله ﴿عهداً نبذه فريق منهم﴾ أي نقضه ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ بما عهد منه اليوم وينقضونه غداً .

١٠١ ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله﴾ أي التوراة ﴿وراء ظهورهم﴾ أي لم يعملوا بما فيها من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء وصفاتهم ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه .

الصراط المستقيم في تفسير القرآن العظيم

المجلد الثاني

تأليف

محمد نسيب الرفاعي

مؤسس الدعوة السلفية بحلب - سوريا

أسست سنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٤م

حباه ربُّ الورى عفواً ومغفرةً * وزاده منه في الدارين ترفيعا

نسخ بخط المؤلف

صفحة العنوان للمجلد الثاني

تفسير سورة السجدة ... آياتها ثلاثون ... نزلت بعد سورة المؤمنون

تفسير سورة الأحزاب ... آياتها ثلاث وسبعون نزلت بعد سورة آل عمران

تفسير سورة سبأ ... آياتها أربع وخمسون نزلت بعد سورة لقمان

تفسير سورة فاطر ... آياتها خمس وأربعون نزلت بعد الفرقان

تفسير سورة يس ... آياتها ثلاث وثمانون نزلت بعد سورة الجن

نموذج من فهرس الصفحات وما فيها من خلاصات

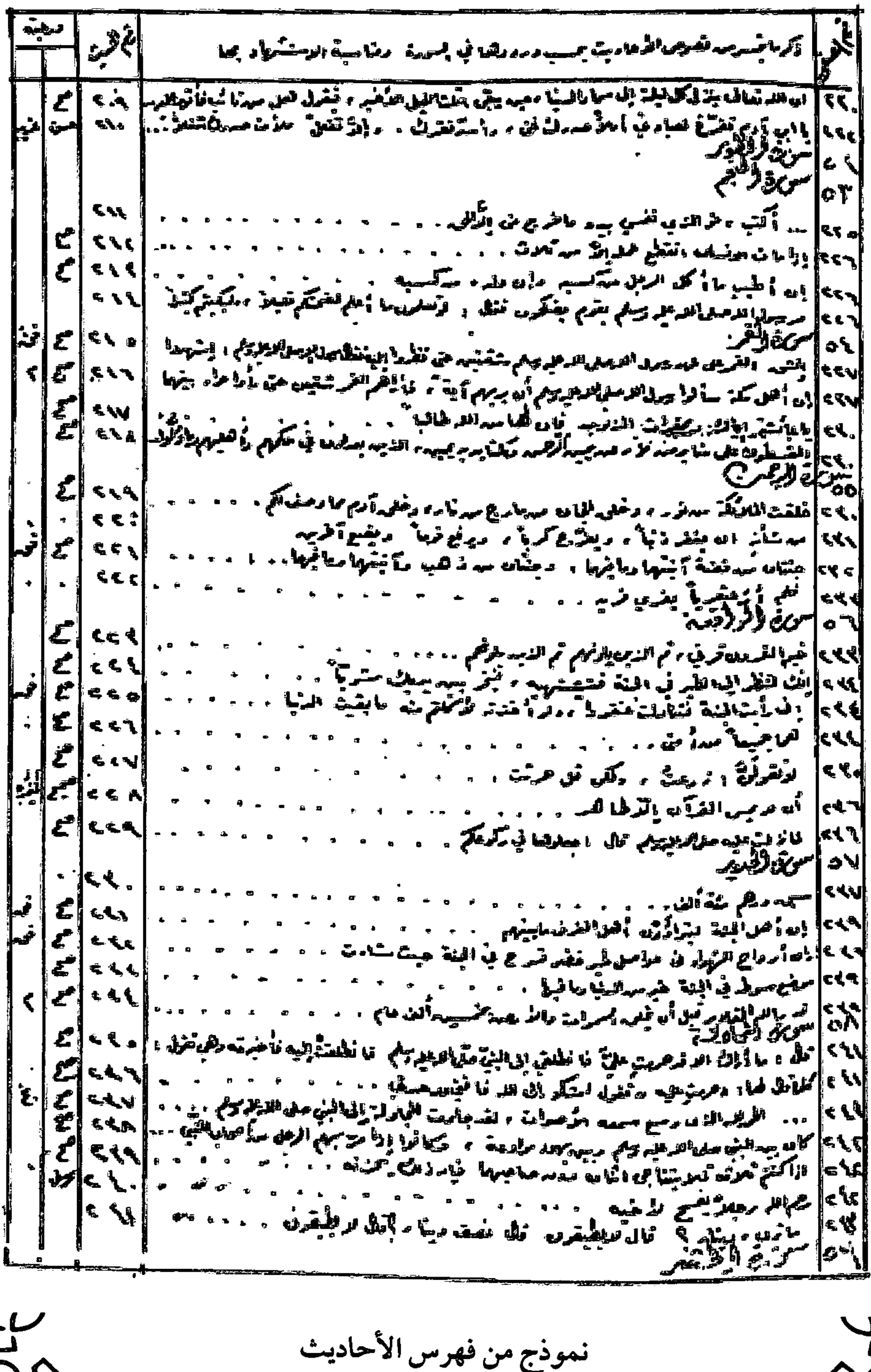

نموذج من فهرس الأحاديث

التفسير الواضح

على

نهج السلف الصالح

للشيخ العلامة المفسر

محمد نسيب الرفاعي رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

إنَّ الحمدَ لله، نحمَدُه ونستعينُه، ونستَهديه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفُسنا، ومن سيِّئات أعمالنا. مَن يَهدِه الله فَلا مُضلَّ لهُ، وَمَن يُضلل فَلا هاديَ لهُ.

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمّا بعدُ:

فَإنَّ خيرَ الحديث كلامُ الله، وخيرَ الهدي هَديُ محمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحدَثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكل بِدعةٍ ضلالَةٌ، وكلَّ ضلَالةٍ في النَّار.

أخي القارئ المسلم الكريم.

بعونٍ من الله تعالى، وبتيسير منه، وفضل ونعمة -ولجلاله الحمد والشكر والثناء الحسن- أضع بين يديك يا أخي الحبيب في الله، تفسيرًا لكتاب الله عز وجل، جهدت في تأليفه أربع سنوات، وحرصت أن يكون بتوفيق منه سبحانه: تفسيرًا جزيل النفع، كثير الفائدة، سهل العبارة، واضح الأدلة، بيِّن الحجَّة، مستقيم المحجَّة. وإنّ أملي وطيد بالله تعالى، أن أسير وإياك على نهجه القويم، وصراطه المستقيم، فنرقى به جميعًا إلى مستوى فهم السلف الصالح لكتاب ربهم جل جلاله: عقيدة وعبادة وعملا.

وما السلف الصالح -كما تعلم- إلاّ الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه الأبرار رضي الله عنهم وأهل القرون الثلاثة الخيرة، الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالخير... وكل من سار على محجّتهم البيضاء واقتفى آثارهم الزهراء، واقتدى بسيرتهم الهادية المهدية إلى يوم القيامة. مبتغين في ذلك وجه الله ذي الجلال والإكرام.

التفاسير يا أخي كثيرة، جزى الله أصحابها العالمين العاملين كل خير، ووفقهم في الدارَيْن بالرضوان والفلاح والنجاح. فقد نحا كل منهم نحوًا خاصًا في تفسيره وأخلص فيه النية والقصد، لينفع به المسلمين، ويبلغَ فيه عند الله العلي القدير درجة كريمة، تؤهّله لمرضات الله تعالى، وتُلحقُه بالصالحين.

فمنهم -رحمهم الله- من آثر في تفسيره التطويل، فاعتنى بالشروحات المفيدة، والاستطرادات الفريدة، والتبيينات والتفنيدات فأنار بها الأفهام، وغَذّى بها الأفكار والأحلام فصيّرها ثمارًا جنيّة، يانعةً شهيّة، وهذا ما أفرح قلوب العلماء، وأثلج صدور الفقهاء وحثّ خطى طلاب العلم على الاستزادة من البحث والاطّلاع، والحصول على وافر العلم، وجزيل الرّبح، وعظيم الانتفاع. لأن أمثال هذه التفاسير المطوَّلة لا ينتفع منها إلاّ العلماء والفقهاء، وأهل الاختصاص.

ومنهم -رحمهم الله- مَنْ آثر في تفسيره الاختصار، فقدّم الخلاصاتِ الجليّة، الهنيّة الواضحة المريَّة، دونما أي خلل في معانيها، أو تبديل في مبانيها، فاكتفى بها من لم توفر لهم العنايةُ أسباب طلب العلم والتعلّم، فانهمكوا بتحصيل الرزق بمزاولة: التجارة أو الزراعة أو الصناعة أو أي عمل آخر، إنما مع ذلك لم يَحرموا أنفسهم من الاطلاعات الشخصية والمحاولات الفردية، من الانتفاع بهذه المختصرات والتمتُّع بهذه الملخّصات، ففهموا بواسطتها مرادَ ربّهم مما أنزل على عباده من أوامرَ ونواهٍ، فقرنوا علمهم بالعمل، فأمنوا -بفضل الله- في حياتهم العلمية والعملية مزالق الزيغ ومعاطب الزلل تعلّموا فعلموا، وساروا في ركاب العلم، وكل من سار على

الدرب وصل. وكذلك طلاب العلم قد استفادوا من هذه الملخصات والمختصرات، فأروت غليلَهم، وشفَتْ عليلَهم، فكانت كالمراقي عليها يعرجون.

ومنهم -رحمهم الله- من غلب على تفسيره الاعتناءُ باللغة العربية، وقواعدها النحويّة، فحلّ إشكالاتها، وأوضح غوامضها فقرّب المفاهيم إلى الأفهام، وأنارَ النُّهى والأحلام. ومنهم من اشتغل بإعراب الآيات القرآنية، فأعان على تفهم النصوص وإحكام الأحكام. ومنهم من صاغ العباراتِ والجملَ الأدبيةَ وأظهر المعاني الخَفيّة وما في كتاب الله العظيم من النكات البلاغيّة، والإعجازات البديعيّة، والصيَغ البيانية، مما أذهل عقول البلغاء وأعجز ألباب الفصحاء، وأدهش جهابذة العربية، وألجأهم جميعًا إلى الاعتراف بأن هذا الكتاب الجليل: ما هو بقول البشر، ولا هو سحرٌ يؤثر، بل هو تنزيل العزيز العليم الحكيم، العلي الكبير الأكبر، سبحانه وبحمده وتبارك اسمه وتعالى جدّه ولا إلهَ غيرُه.

ومنهم... ومنهم... ومنهم... فجزى الله الجميع كلًّا بما هو أهله، وتجاوز عن الزلات والخطيئات بعفوه ومغفرته.

وليس خافيًا عليك يا أخي المسلم ما وقع من الاختلاف بين السلف والخلف وبخاصة في تفسير آيات وأحاديث صفات الله العُلَى، وأسمائه الحسنى؛ فالسلف الصالح أبقوا معاني آيات وأحاديث الصفات والأسـماء على ظاهرهـا... بلا تـأويـل، ولا تمثيل ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تكييف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وأما الخلف: فأوّلوها، وأخرجوها عن ظاهرها، وبدَّلُوها إلى معان أخرى لا تمت إليها بصلة!!! فأوّلوا مثلًا: معنى «الاستواء» إلى الاستيلاء!!! ومعنى «اليد» إلى القدرة أو النعمة!!! ومعنى «النزول» إلى نزول أمره تعالى وما شابه... مما أبعدوا معاني الصفات عن مقتضى مراد الله تعالى!!! زاعمين أنهم إذا أخذوا بالمعنى الظاهري للصفات والأسماء وقعوا في التجسيم!!!؟ ولكن خوفهم من التجسيم -ولا تجسيم- أوقعهم مع الأسف في التعطيل وفي إنكار الصفة ونفيها فوقعوا في مهاوي البدعة السحيقة في صفات الله وأسمائه والعياذ بالله من الضـلال والغي، مع العلم أن هذا الصنيع ما كان منهجًا ولا سنةً لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه رضي الله عنهم. ورحم الله من قال:

(وَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ
وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفْ)

أما أنا -العاجز- فقد التزمت في تفسيري هذا طريقةَ ومذهبَ السلفِ الصالح: عقيدةً، وعبادةً، وعملًا. فمنذ أن هداني الله جل وعلا إلى الحق في القول والعمل، وقدَّر لي اعتناق مذهب السلف الصالح رضي الله عنهم وأرضاهم واستقر في أعماق قلبي: وعيًا، ومعتقدًا، واتباعًا وسلوكًا، انكببت على كتب السلف دراسةً، وإدراكًا، وفهمًا، وسألت ربي سبحانه، أن يتم عليَّ نعمته، ويوجهني إلى خير عمل يرضيه، ويرضى به عني، فاستجاب -وله الحمدُ- دعائي بأن أكرمني ووفقني إلى تأليف هذا التفسير وإلى إخراجه لحيّز الوجود إلى مستوى اطّلاع المسلمين عليه داعيًا إلى الله سبحانه وتعالى أن يجنبني فيه مواطن الخطأ، ومزالق الزلل.

ولقد حرصت أن أسلك في هذا التفسير سبيلًا وسطًا بين الإيجاز والإسهاب، فلا هو بالمُوجَز المُخلّ، ولا المسهب الممل، ولقد اتخذت بين ذلك سبيلًا، أملًا أن يكون عند القرّاء الأعزّاء على مستوى الإقبال عليه، والإفادة منه في أسلوبه السهل للوصول إلى الغاية التي من أجلها كان هذا التأليف، وهو الاطلاع على مراد الله من تنزيله على رسول الله ﷺ، وتبليغه للناس كافة ليكون لهم بشيرًا ونذيرًا... يحلّون حلاله، ويحرمون حرامه، ويحكمون به لا يبغون عنه حولًا ولا بدلًا... ليكونوا به حقًا: خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. وقد جنّبته -بقدر الطاقة- الأحاديث الضعيفة[1] والموضوعة والمكذوبة، والباطلة التي لا أساس لها، والأخبار الإسرائيلية، واخترتُ أصحَّ الأحاديث المرويّة عن رسول الله ﷺ في الكتب الستة وباقي الصحاح. واكتفيت بذكر الراوي والصحابي، فأقول مثلًا: روى البخاري عن أبي سعيد الخدري، أو عن أبي هريرة وهكذا... إلى أي صحابي آخر رضي الله عنهم مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ.

وقد ذكرت آنفًا أن تفسيري هذا سبيل وسط بين الاختصار والتفصيل فأُوجزهُ أحيانًا في الأمور التي تكاد لا تخفى على القارئ وألجأ أحيانًا أخرى إلى الإسهاب، فيما

(١) إلاّ ما كان ضعفه يسيرًا هيّنًا، وفي غير العقائد والأحكام الفقهية.

يجب التفصيل فيه فأعطي نصيبًا لا بأس به من الشرح إلى درجة أقتنع معها بأني وفيت الموضوع حقه، أو بيان فكرة خافيةٍ على بعض دون بعض، أو يعرفونها على وجه غير الوجه الصحيح المؤيد بالكتاب والسنة، فأبين الصواب من الخطأ وأعالجها برفقٍ حتى يتبين وجه الحق.

وجعلت هذا التفسير جُزْأَين[١]: الأول من الفاتحة إلى آخر سورة الكهف، والثاني من سورة مريم إلى سورة الناس، وقد رقمت الآيات القرآنية أرقامًا متسلسلة لكل سورة. كما أنني اعتمدت التقسيمات التي قسمها القراء... وسجلتها: أجزاءً وأحزابًا وأجزاءَ أحزاب، وذكرت مواضع السجدات، كما رواها المحققون عنْ رسول الله ﷺ وذكرت أيضًا موضع كل سورة من ترتيب النزول، كأن أقول مثلًا: سورة كذا... نزلت بعد سورة كذا... وأيًّا منها مكية أو مدنية، مع ذكر عدد الآيات من كل سورة، وتسجيل أرقامها بالنسبة لتسلسل السور المرتب بأمر رسول الله ﷺ. كما وأنني لخصْت الصفحة في جملة، وجعلتها في رأس كل صفحة، وتكون هذه الخلاصة أهم ما ورد فيها[٢]، وجعلت من مجموع هذه الخلاصات فهرسًا للآيات المفسرة في آخر كل جزء[٣]. كما جعلت فهرسًا للأحاديث الواردة في كل مجلد من هذا التفسير ورتبتها حقولًا ذكرت فيها أرقام الصفحات وأرقام الأحاديث متسلسلة في كل مجلد[٤] ومطلع الحديث ليسترشد به من يحب الاطلاع على مكان وجود الحديث في كل سورة. كما جعلت حقلًا خاصًا أشرت فيه إلى درجة كل حديث جرحًا أو تعديلًا، وإن كنت حاولت ذكر الأحاديث الصحيحة فقط.

وجعلت النص القرآني في وسط الصفحة والتفسير على هامشها كما أنني اعتمدت «مصحف القراء» المرتب بشكل تكون الصفحة محتوية أول الآيات في أعلى الصفحة وآخر آية في آخر الصفحة وهكذا جميع صفحات القرآن من أوله إلى آخره.

(١) دمجنا بينهما؛ ليكون التفسير على هامش صفحات المصحف؛ بترقيم واحد. (المعتني)

(٢) جعلنا هذه الترويسات على جانب كلّ صفحة. (المعتني)

(٣) أغنى عن ذلك اعتماد ترتيب صفحات المصحف للتفسير. (المعتني)

(٤) قمت بتخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا في ملحق آخر التفسير كما مرّت الإشارة إليه. فأغنى عن هذا الجدول؛ مع عمل فهرسٍ للأحاديث. (المعتني)

وأسميته: «التفسير الواضح على نهج السلف الصالح»[٥].

هذه طريقتي في التفسير وفي ترتيب فهارس الآيات المفسرة وترتيب فهارس الأحاديث الواردة في كل سورة، وأسأله تعالى أن أكون قد وُفّقت إلى مرضاته تعالى، وهُديتُ في عملي هذا إلى خير عمل يحبّه ويرضاه ويرضى به عني، وأدعوه أن يتقبله مني خالصًا لوجهه الكريم، وأن يثقل به موازيني، وأن يغفر لي ذنبي، ويتجاوز عن خطئي، ويمحو به زلّاتي؛ إنه سميعٌ مجيبٌ قريبٌ.

اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليّها ومولاها. اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطئي وعمدي، وهزلي وجدي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير لا إله بحقٍ إلا أنت، ولا رب سواك.

وكان الابتداء في هذا التفسير (أول رجب الفرد سنة ١٣٩٤هـ والفراغ منه في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٨هـ).

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المملكة الأردنية الهاشمية -عمّان

[١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٨هـ].

مؤسِّس الدّعوة السّلفية وخادمها بحلب

محمد نسيب الرّفاعي (أبو غزوان)

نزيل عمان

(٥) كان الشيخ رحمه الله قد سمّى كتابه في النسخة الخطية: «الصراط المستقيم في تفسير القرآن العظيم» كما مرّ في صور المخطوط. (المعتني)

التعريف بسورة الفاتحة:

أسماؤها: فاتحة الكتاب، وأمّ الكتاب، وأمّ القرآن، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، والحمد، والصلاة، والرقْية، وأساس القرآن، والكافية، وسورة الصلاة، والكنز.

نزولها: نزلت سورة الفاتحة بمكة قطعًا، بدليل: أنها تقرأ في الصلاة في كل ركعة، والصلاة فرضت بمكة، إذًا؛ هي سورة مكية.

فضلها: إنها أعظم سورة في القرآن لقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها السبع المثاني» رواه أحمد [١]، وعند الترمذي: «وإنَّها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح [٢].

حكم قراءتها في الصلاة: فيه ثلاثة أقوال:

١- تجب قراءتها في الصلاة للإمام والمأموم والمنفرد، لحديث: «لا تجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن» [٣]، وهذا قول الشوافع والحنابلة.

٢- لا تجب قراءتها بالكلية على المؤتم لحديث: «من كان له إمام، فقراءة الإمام له قراءة» [٤]، وهذا قول الأحناف، ولكن هذا الحديث لم يصح، ولم يتفق على صحته.

٣- تجب قراءتها على المؤتم بالصلاة السريّة، ويجب الإنصات في الجهرية، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ولحديث: «إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كَبَّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا، ...» رواه مسلم [٥]، فدلّ على صحة هذا القول، وهذا مذهب المالكية، وقول قديم للشافعي رحم الله الجميع.

تفسير الاستعاذة وأحكامها:

إن معنى (أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم)، أي ألتجئ، وأستجير بجناب الله العظيم من الشيطان الرجيم، من أن يضرّني في ديني أو دنياي، أو يصدّني عن فعل ما أُمرت به، وترك ما نُهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفّه إلّا الله، لذا أمر الله بالاستعاذة منه به تعالى، وإن الاستعاذة تدرأ الشيطان، ودرء الشيطان واجب، وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب، وإن رسول الله ﷺ واظب عليها.

تفسير البسملة وأحكامها وفضلها:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، أي أبدأ بسم الله. والله: عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى. ويقال: إنه الاسم الأعظم، لأنه يوصف بجميع صفاته تعالى وتقدس. وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم. ومعنى الرحمن أي ذو الرحمة الشاملة عمّت المؤمنين والكافرين. والرحيم أي الراحم، وهو خاص بالمؤمنين يوم القيامة. قال عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وتستحب البسملة أول الوضوء، وعند الأكل، وقد أوجبها بعضهم عند الجماع، وقد اتفق العلماء على أنها بعضُ آية من سورة النمل. ثم اختلفوا في: هل هي آية من كل سورة، أم أنها آية من الفاتحة، أو أنها نزلت للفصل بين السور ... الراجح: هو القول الأخير لحديث: «أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى تنزل: بسم الله الرحمن الرحيم» [٦]. فمن رأى أنها آية من الفاتحة جهر بها في الصلاة الجهرية وهو مذهب الشوافع، ومن لم ير أنها آية من الفاتحة أسرَّ بها. وثبت الإسرار عن الخلفاء الأربعة، وطوائف من السلف والخلف، وهو مذهب الأحناف والحنابلة وكلاهما صحيح وثابت، أمّا المالكية فلا يرون قراءتها سرًا، ولا جهرًا!؟

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال عزّ وجلّ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي...» (الحديث). [٧].

قلت: وهذا دليل واضح بأن البسملة ليست من الفاتحة، ولو كانت منها لقال سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين... فلما بدأ سبحانه الفاتحة بالحمد لله رب العالمين دون أن يبدأ بالبسملة فُهم من ذلك أن البسملة ليست من سورة الفاتحة.

فضلها: روى الإمام أحمد في مسنده: عن عاصم قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي ﷺ(١): عثر بالنبي ﷺ فقلت: تعس الشيطان فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تصاغر حتى يصير مثل الذباب» [٨].

(١) هو أسامة بن عمير كما في رواية ابن مردويه، ذكره الشيخ أحمد شاكر في «مختصره» -رحمه الله-.

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

(١) سُورَةُ الفَاتِحَة

مكية وآياتها سبع، نزلت بعد سورة المدثر

﴿١﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الحمد له كله من دون سائر ما يعبد من دونه، ومن كل ما برأ من خلقه بما أنعم الله عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه. والألف واللام لاستغراق جميع أنواع الحمد لله تعالى لحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله...» الحديث ... [٩] ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: المالك المتصرف ولا يعرّف بالألف واللام إلاّ لله تبارك وتعالى ولا يذكر في حق المخلوق إلا بالإضافة مثل: رب الدار. و﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم عوالم، أي يشمل كل مخلوق على الإطلاق.

﴿٢﴾ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة. والرحمن: أشد مبالغة ويحرم أن يسمى به مخلوق، ومعناه: يرحم جميع المخلوقين مسلمهم وكافرهم. والرحيم خاص بالمؤمنين يوم القيامة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿٣﴾ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ مالك وملك قراءتان صحيحتان متواترتان. ويوم الدين: أي يوم القيامة، أي هو المالك وقتئذ ولا يملك معه أحد شيئًا لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿٤﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة. فلمّا حمد العبد ربَّه، وأثنى عليه ومجّده قرب منه فناسب أن يخاطبه بكاف الخطاب فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿٥﴾ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي بعد أن توسل العبد إلى ربه بالحمد والثناء والتمجيد، وبإفراده بالعبادة والاستعانة شرع بالسؤال قائلًا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو الإسلام الحق.

﴿٦﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي صراط ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

﴿٧﴾ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود ويشمل كل من كان فيه شبه بهم من معرفتهم الحق والعدول عنه إلى الباطل على علم ومعرفة ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم النصارى ويشمل كل من كان فيه شبه بهم في الضلال عن الحق وعدم السلوك في طريقه ليهتدوا ويتعظوا.

ولا يخفى ما في هذه السورة المباركة من الحض على التوسل المشروع بأسماء الله وصفاته وبأعمال المتوسِّل الصالحة ومن هنا يعلم أن التوسل بذوات المخلوقين هو التوسل الممنوع لأنه من شعارات الجاهلية.

ولقد بعث الله جميع أنبيائه ورسله من أجل تحريم التوسل الممنوع في جملة ما منعوه وحرموه في رسالاتهم حفاظًا على جناب التوحيد من أن يدنس بالشرك الرجيس النجيس.

وأما قول (آمين) بعد الفاتحة؛ فمعناه: اللهم استجب، ويتأكد ذلك من المصلي إماماً كان أو مأمومًا أو منفرداً؛ كما يستحب ذلك لمن كان خارج الصلاة، أو عند الدعاء أيضاً لثبوت صحة الحض على ذلك من قبل الرسول ﷺ في الصحيحين وغيرهما[1]. وقيل إن تأمين المأمومين في الصلاة على قراءة الفاتحة يقع بمنزلة قراءتها، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] بينما لما قام موسى عليه السلام يدعوا على فرعون؛ كان هارون عليه السلام يؤمِّن فقط، فوقع تأمين هارون عند الله بمنزلة الداعي تماماً، ولذلك قال جلَّ وعلا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والله تعالى أعلم. ولذا فإن المأموم لا قراءة عليه بالصلاة الجهرية.

(١) راجع كتابنا «تيسير العلي القدير» عند تفسير سورة الفاتحة، الجزء الأول.

(٢) سُورَةُ البَقَرَةِ

مدنية إلا الآية ٢٨١ فنزلت بمنى في حجة الوداع وآياتها مئتان وست وثمانون، وهي أول سورة نزلت بالمدينة

فضل هذه السورة

قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، لا يدخله شيطان»، رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي. [١٠] وفي بعض حديث رواه أحمد: «اقرأوا البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة» [١١]. أي لا تستطيع السحرة النفوذ إلى قارئها والله أعلم. رواه مسلم.

تفسيرها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿الٓمٓ﴾ هذه الآية وجميع فواتح بعض السور من الأحرف المقطعة إنها في جملة ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يستأثر بالعلم به وله المراد فيما يريد. ولا شك أن لها معاني، ولم ينزلها عبثًا وسدىً -وحاشاه جل جلاله من ذلك- فإن صح لنا عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

﴿٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي هذا الكتاب، لا شك أنه من عند الله تعالى وهو بأجمعه هدى للمتقين أي نور للمؤمنين الذين اتقوا الله بتوحيده في ربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته ويعملون بطاعته في كل أمر ونهي وهذا موافق للمعنى في الآية التي بعدها والتي فيها صفات المؤمنين المتقين الذين وصفهم الله بقوله:

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يصدقون بكل ما جاء به المعصوم عن ربه من الغيوب: كالبعث والجنة والنار إيمانًا حقيقيًا دون إبصار فيكون هذا شدة إيمان وتصديق للذي بلّغك ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها ويقيمون أركانها المعروفة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي يتصدقون ويزكون وكانت النفقة قبل فرض الزكاة نفقة الرجل على أهله وعياله ولكن بعد فرضية الزكاة صارت كما فرضها وحدد أنصبتها في المصارف الثمانية ولا يكون ذلك إلا لوجه الله وطاعةً له

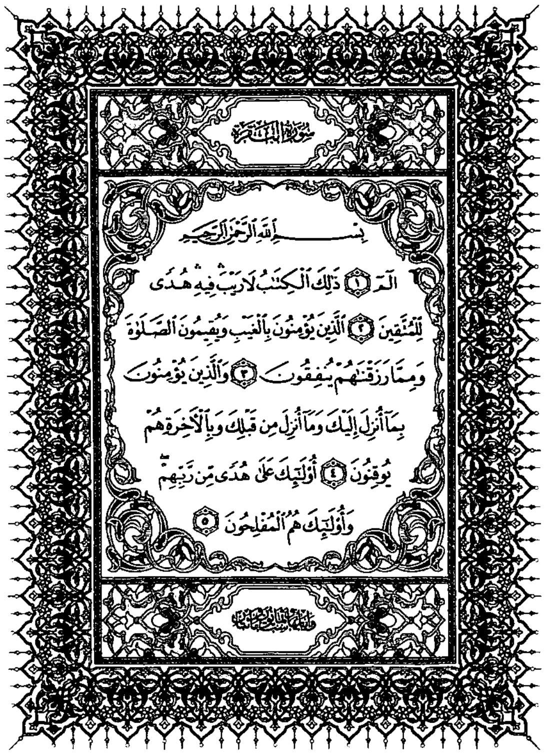

وحده لا شريك له، لا طمعًا في ثواب من مخلوق ولا خوفًا من عقابه.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي جميع الكتب وكل الصحف التي نزلت على الأنبياء والمرسلين كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وسائر ما نزل على الأنبياء والمرسلين ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي لا يخامرهم أدنى شك بالآخرة أي البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان. والآخرة إنما سميت بالآخرة لأنها بعد الدنيا.

﴿٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء المذكورون، المتقدم وصفهم هم على هدى ونور من الله تعالى وبصيرة منه في عقائدهم الخالصة النقية وأعمالهم التي يتبعون فيها سنة نبيهم محمد ﷺ الصحيحة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الذين نجحوا في مفازتهم ففازوا بالجنة التي أعدت للمتقين ونجوا مما أعد الله لأعدائه المشركين الكافرين من العقاب والعذاب اللّذين لا يطاقان.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٣

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كأبي جهل وأبي لهب وأمثالهما، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي استوت عندهم الحالان ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبما أنزل إليك، لأن الله تعالى قد علم منهم أنهم سيختارون الكفر على الإيمان فقدَّره وكتبه عليهم فلا تطمعْ يا محمد في إيمانهم.

(٧) ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي طبع عليها فلن يفقهوا الحق ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي لا ينتفعون بما يسمعون من الحق ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ أي غطاء فلا يرون الحق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي شديد مستمر، وفي الحديث: «إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكِتت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبُه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الرّان الذي ذكر الله تعالى ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾» [١٢].

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ وهم المنافقون ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقةً، إنما ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم.

(٩) ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يخدعون بزعمهم ليدرأوا عنهم حدَّ حكم الكفر في الدنيا ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ في الواقع ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأنهم عرَّضوها لغضب الله تعالى في الدنيا، ولعذابه في الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن خداعهم ذاك، إنما هو راجع عليهم.

(١٠) ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو الشك والرياء والرجس ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي زادهم شكًا ورياءً ورجسًا جزاءً وفاقًا من جنس العمل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم لا يحتمل ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي بما كانوا يقولون بأنهم آمنوا وفي الحقيقة يكذبون

(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا تغرُّوا المؤمنين بقولكم: آمنا فيصدقوكم فينتج عن ذلك فساد كبير ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي بين المؤمنين والكافرين. فردّ الله عليهم بقوله:

(١٢) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ بنفاقهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لجهلهم بأن الله يعلم ما يبطنون من الكفر.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي كما آمن أصحاب الرسول ﷺ ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي أنصبح وهؤلاء في منزلة واحدة!!؟ فردَّ الله عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون حالهم الدالة على ضلالهم، حتى يزدادوا ضلالًا وطغيانًا لأنهم على جهل بما يصنعون بأنفسهم فيكون الجزاء من جنس العمل.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ نفاقًا وتقيَّة وطمعًا بالمغنم ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي رؤسائهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي في الدين وما أنتم عليه من الكفر والشرك ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بأصحاب النبي ﷺ بإظهار الإيمان وإبطان الكفر.

(١٥) ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا من عصمة دمائهم وأموالهم بإظهارهم الإيمان وذلك على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي يستدرجهم ويملي لهم، كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نقمة ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في كفرهم يتحيّرون ويتردَّدون، والعمهُ: عمى القلب.

(١٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي اعتاضوا عن الهدى بالضلال وبذلوا الإيمان ثمنًا واشتروا به الكفر والضلال ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ولم يكونوا راشدين في صنيعهم ذلك، بل خسروها والنار مصيرهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ فيما فعلوه بأنفسهم من الضلال والكفر، باشتراء الغواية والتيه بالهدى والحق، فخرجوا من الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الجنة الخالدة إلى النار المؤبدة. وقانا الله منها وثبتنا على الصراط المستقيم.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

(١٧) ﴿مَثَلُهُمْ﴾ في نفاقهم ومخادعتهم ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي أوقدها ليستضيء بها في ظلمة الليل ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ وأبصر ودفئ وأمن ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وجمع الضمير لأن المعنى ذاهب إلى المنافقين ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم متحيرين وجلين. فكذلك هؤلاء آمنوا واكتسبوا نورًا ثم كفروا فتركهم الله في ظلمات الكفر لا يهتدون سبيلاً.

(١٨) ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ عن الحق لا يسمعونه ولا ينطقون به ولا يرون سبيله ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلال إلى إيمانهم الأول.

(١٩) ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أي كمطر ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي السحاب ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ جُمعت إشارة إلى انضمام ظلمة الليل إلى ظلمة السحاب ﴿وَرَعْدٌ﴾ اسم الصوت المنبعث من السحاب ﴿وَبَرْقٌ﴾ لمعان وهّاج خاطف يسبق صوت الرعد ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ وهكذا المنافقون عندما ينزل القرآن، فيه ذكر ظلمات الكفر، والوعيد عليه، المشبه بالرعد، والحجج البيّنة، المشبهة بالبرق يسدّون آذانهم كيلا يسمعوا الحق مخافة الميل إليه، هذا الحق الذي هو كالموت عندهم لأنه يُفضي إلى ترك دينهم ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بعلمه وقدرته عليهم.

(٢٠) ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي يستلبها بضوئه الباهر ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ أي في ضوئه ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي وقفوا وإنهم يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين، وهذا أظهر وأصح ما قيل في تفسير هذه الآية ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ كما ذهب ببصائرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء وإنه القادر على كل شيء. وقد وصف الله تعالى بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذّر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب سمعهم وأبصارهم لقدير.

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كافة ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ من العدم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي من أجل أن توحدوه فيقيكم عقابه، و«لعل» هنا للتحقيق لا للترجي، وذكر مَنْ قَبْلَهم أحوط في الحجة وأبلغ في التذكير.

(٢٢) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي مهدًا وبساطًا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفًا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من السحاب مطرًا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أنواعًا منوعة ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي شركاءَ معه في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الخالق والمنعم والمتفضل وحده فعلمكم هذا ملزم لكم بتوحيده في عبادته، وأنه المعبود لا شريك له.

(٢٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي في البلاغة وحسن النظم والإخبار بالغيب ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ أي آلهتكم وبلغاءكم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لتعينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأن محمدًا قد انتحله. وفي الحديث: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيتهُ وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» [١٣].

(٢٤) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي لم تستطيعوا ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي لن تستطيعوا أبدًا ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ أي آمنوا بأنه من عند الله وأنقذوا أنفسكم من النار ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي الكفار ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي أصنامهم التي عبدوها ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هيئت لهم وأسعرت بحرارة مفرطة ليخلدوا فيها أبدًا. واستدل كثير من الأئمة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن، لقوله ﷺ: «تحاجّت الجنة والنار» [١٤].

لا يعبد إلا الذي خلق، الله يتحدى الثقلين أن يأتوا بسورة من مثل القرآن

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ
رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ
وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا
فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن
رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾
كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ
ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾

٥

بشارة المؤمنين بالجنة، أيكفرون بالذي خلقكم، خلق الله الأرض ثم السماوات

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بإخلاص وصدق ﴿أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بين أشجارها، وقصورها ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا﴾ أي من الجنة ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي﴾ أي نطعمه اليوم في الجنة، مثلما ﴿رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي في الدنيا ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ أي بشكل ثمر الدنيا، ومختلفًا عنه في الطعم ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ﴾ من الحور ﴿مُّطَهَّرَةٞ﴾ من الحيض والنفاس وما يستقذر ﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ خلودًا بلا موت ولا خروج، وهذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع.

(٢٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾ أي لا يستنكف عن ﴿أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ صغيرًا كان أو كبيرًا ﴿بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ دقة أو عظمًا، ردًا على المنافقين الذين قالوا: الله أعلى وأجل من أن يضرب أمثالًا: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ [البقرة: ١٧] أو ﴿كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ فهو يضرب بما شاء من الأمثال، ولا يستصغر شيئًا يضرب به مثلًا، فكما أنه لم يستنكف عن خلقها، فكذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها، كما ضرب المثل بالعنكبوت والذباب، ويعلمون أنه الحق من لدن حكيم خبير ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ أي أيُّ فائدة في ضرب هذا المثل؟ فجاوبهم الله ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أي بهذا المثل ﴿كَثِيرٗا﴾ عن الحق لكفرهم به جزاءً وفاقًا ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ أي من المؤمنين لتصديقهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعته.

(٢٧) ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للفاسقين ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ أي يحلون ما عهد إليهم الله في القرآن فأقروا به ثم كفروا ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي توكيده عليهم ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾ أي يفصلون ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان برسول الله ﷺ والرحم والقرابة وأن لا يُفرَّق بين أحد من رسله ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالمعاصي والتعويق عن الإسلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الآخرة المؤبَّدون في النار.

(٢٨) ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ﴾ أي ويحكم كيف تكفرون ﴿بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ أي كنتم عدمًا ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ أي فأوجدكم بإقراركم في الأرحام ثم ينفخ الروح فيكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند انتهاء أجلكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تردون بعد البعث، فيجازيكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا. ولما أنكروا البعث قال مدللًا عليه:

(٢٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ أي لأجلكم للانتفاع والاعتبار ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي علا وقصدها، والاستواء هاهنا مضمّن معنى القصد والإقبال لأنه عُدِّي بـ«إلى» كما أن «ثم» تفيد الترتيب أي إن خلق الأرض كان قبل السماء، أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] لا يفيد أن الأرض خلقت بعد السماء، بل يفيد أن الأرض قدر فيها أقواتها بعد خلق السماء، وهذا مقرر في الآية نفسها ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١-٣٢]، والدحي يفيد إخراج ما كان مودعًا فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أنواعها وصفاتها وأصنافها وألوانها، وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ أي خلقهن سبع سموات طباقًا ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي لا يخفى على علمه شيء لا في الأرض ولا في السماء، أفلا يعتبرون أنَّ القادر على خلق السماوات والأرض وما بينهما ابتداءً قادر على إعادتهم من باب أولى. ولنا عودة لمعنى الاستواء إن شاء الله.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ
سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ
لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿وَإِذْ﴾ معناها: الوقت. فكأنه قال: ابتدأ خلقكم، إذ ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي اقصص يا محمد على قومك حين قال ربك للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي قومًا يخلف بعضهم بعضًا، جيلًا بعد جيل كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، وهذا هو الصواب في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾ لا قول من يقول: إن آدم وذريته خلائف الله في الأرض(١) ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قالوا ذلك لاستعلام وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض. وإن علمهم بفسادهم فيها وسفكهم الدماء، كان بتوقيف من الله. وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة أنهم قالوا: وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي ما الحكمة يا رب من هذا الخلق ولهم هذه الأوصاف ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي ننزهك ونعظمك. ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة في خلق آدم فسيكون منه المطيع والعاصي فيظهر العدل بينهم.

(٣١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء المسميات كلها جميعًا بأن علمه علمًا لا نعلم كيفيته ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي عرض هذه المسميات ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أني لا أخلق أعلم منكم، فقد قيل إنهم كانوا يظنون أن الله لا يخلق أعلم منهم، ولا أكرم لسابقتهم. وبما أنهم لا يعلمون، إلاّ ما علمهم الله.

(٣٢) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ إياه ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك.

(٣٣) ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ أي الملائكة ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي المسمّيات ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي فقد سمّى كل شيء باسمه ﴿قَالَ﴾ الله ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما تظهرون من قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا ...﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي ما كنتم تسرّون من قولكم: لن يخلق الله أكرم عليه منا ولا أعلم.

(٣٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ سجود تحية ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وهو أبو الجن وكان بين الملائكة ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي امتنع وتكبّر عن السجود ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بسبب تكبره، وعصيانه وتمرده على أمر الله تعالى. وفي الحديث: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر» [١٥].

(٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ﴾ تأكيد للضمير المستتر ليعطف عليه. ﴿وَزَوْجُكَ﴾ حوّاء ﴿ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ هنيئًا رزقًا واسعًا لا حجر فيه ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ شجرةً مّا، الله أعلم بها ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي العاصين.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي وسوس لهما، فأوقعهما في الزلل والخطيئة فأكلا منها ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ في الجنة من النعيم ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ آدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي إن ذرية بعضهم أعداء لبعض ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى أن تنقضي آجالكم التي كتبها الله لكم.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الكلمات هي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، لا كما يقول «بعضهم» إن آدم توسل إلى الله بمحمد ﷺ. وهذا لم يثبت بحديث صحيح لاسيما وأن التوسل بذوات المخلوقين من أسباب بعثة الأنبياء والمرسلين بمنعه كيلا يكون ذريعة إلى الشرك(٢) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي يتوب عليهم ويرحمهم.

---

(١) راجع كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» المجلد الأول، الصفحة (٣٩) واقرأ التعليق، ففيه تفصيل تام وهام عن هذه القضية.

(٢) راجع كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» المجلد الأول، الصفحة (٤٥)، وكتابنا: «التوصل إلى حقيقة التوسل» الصفحة (٢١٥) ففيهما تحقيق مهم.

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾
يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ
أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ
وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ
وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ
﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾
يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(٣٨) ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾ أي الجنّة ﴿جَمِيعًا﴾ أي آدم وحواء وإبليس ﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون (إنْ) الشرطية في (ما) الزائدة ﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي كُتُبٌ ورُسُلٌ ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ فآمن بي وعمل بطاعتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على الدنيا.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي كتبنا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص.

(٤٠) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي يا بني العبد الصالح، المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في طاعة الله ومتابعة الحق ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بإنجاء آبائكم من عبودية فرعون: الغرق، وفجر الحجر، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك... فلزم شكركم نعمتي بطاعتكم لي ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ الذي عهدته إليكم من الإيمان بمحمد ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ إن فعلتم أدخلتكم الجنة ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي فاخشوني وحدي ولا تنقضوا عهدي. فدعاهم بالرغبة والرهبة.

(٤١) ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة التي فيها نعت محمد ﷺ ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ من أهل الكتاب، لأن إثم من يتبعكم يقع عليكم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تكتموا ما في كتابكم من آياتي لقاء عرض دنيوي زائل ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي وحّدوني خافوني.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾ أي لا تخلطوا وتموّهوا ﴿ٱلْحَقَّ﴾ المنزل عليكم ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي تفترونه، ﴿وَ﴾ لا ﴿تَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي نبوة محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها مذكورة في كتابكم وتعرفون أنها حق كما تعرفون أبناءكم.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي صلوا جماعة مع محمد وأصحابه. وكان يقول علماؤهم لأقربائهم من المسلمين: اثبتوا على دين محمد فإنه الدين الحق فأنزل الله فيهم:

(٤٤) ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أي بالإيمان بمحمد ﷺ واتباع دينه ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تأمرونها به!!!؟ ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة. وفيها الوعيد على مخالفة القول للعمل. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سوء فعلكم فترجعون إلى الحق. فجملة النسيان في محل الاستفهام الإنكاري. وفي الحديث: «يجاءُ بالرجُلِ يَوْمَ القيامَةِ فيُلْقَى في النارِ، فتَنْدَلِقُ أقتابُهُ، فيدورُ بها في النار، كما يدورُ الحمارُ برحاهُ، فيُطِيفُ بهِ أهلُ النارِ، فيقولونَ: يا فلانُ! ما أصابَكَ؟ ألم تكُنْ تأمرُنا بالمعروفِ وتَنهانا عنِ المُنكَرِ؟ فيقولُ: بلى، قدْ كنتُ آمرُكم بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنهاكُم عَنِ المنكَرِ وآتيهِ» [١٦]، وليس المرادُ ذمَّهم على أمرهم بالمعروف مع تركهم له، بل على تركهم له مع علمهم به. قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: صدق، من ذا الذي ليس فيه شيء. قال ابن كثير: لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة، وفعل المعصية، لعلمه به ومخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث بالوعيد على ذلك بالعذاب على ما وصفه الحديث آنفًا.

(٤٥) ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ أي اطلبوا المعونة ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ عن محارم الله ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ المانعة من الفحشاء والمنكر. وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» [١٧]، والخطاب لليهود والحكم عام لهم ولغيرهم، فقد أمر الله الجميع بالصبر أي بالصوم لأنه يكسر الشهوة، والصلاة تورث الخشوع، وتنفي الكبر. ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي لثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي الساكنين إلى الطاعة.

(٤٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فيجازيهم بما يستحقون وفوق ما يستحقون.

(٤٧) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي اشكروها بطاعتكم لي ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالم زمانهم.

(٤٨) ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ هو يوم القيامة هذا اليوم الذي ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي لا تنفع نفس نفسًا بشيء أبدًا، وكلّ يقول: نفسي نفسي. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي ليس لها شفاعة فتقبل ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي يمنعون من عذاب الله لأنهم ماتوا كفارًا.

أخبر الله ببعث الأنبياء وتنزيل الكتب، فمن اتبع الحق نجا، الصلاة تعين على الصبر

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٨

امتنان الله على اليهود بإنجائهم من ذل فرعون، ثم عبدوا العجل!!!

(٤٩) ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ أي حين نجينا آباءكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يذيقونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي أشدّه. والجملة حال من ضمير نجيناكم ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بيان لما قبله ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين عامًّا دون عام ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ أي يستبقون ﴿نِسَآءَكُمْ﴾ للاستذلال والخدمة ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فنجاكم الله منه.

(٥٠) ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ فَرَقْنَا﴾ أي حين فلقنا ﴿بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ من أجلكم حتى دخلتموه هاربين من عدوّكم فرعون وجنوده ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي هو وقومه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى انطباق البحر عليهم، وتشتفون من عدوّكم.

(٥١) ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ أي حين واعدناه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نوحي إليه التوراة، لتعملوا بها ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا... ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد ذهاب موسى إلى الميقات ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أنفسكم، لأن الشرك ظلم للنفس عظيم.

(٥٢) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي غفرنا لكم ذنوبكم بعد توبتكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الشرك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمتنا عليكم بإفرادنا بالعبادة.

(٥٣) ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ كلاهما التوراة تأكيدًا وتفسيرًا لأن التوراة غير المحرّفة كتاب الله الذي يفرق بين الحق والباطل ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من الضلال، وتفرّقون بين الحلال والحرام.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا!!!؟ ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الذي خلقكم لعبادته وحده ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ كفارةَ عبادتكم العجل -بعد توبتهم- فأخذوا السكاكين، وجعل الرجل يقتل أباه وابنه وأخاه لا يبالي من قتل. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ الذي وفقكم إلى ذلك. قيل وأرسل عليهم سحابة سوداء لئلا يبصر بعضهم بعضًا فيرحمه حتى قُتِلَ نحوُ سبعين ألفًا ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي على القاتل والمقتول، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: وما يحزنك؟ أمّا من قُتِلَ فحيٌّ عندي يرزق، وأما من بقي فقد قبلت توبته، فسُرُّوا بذلك، فذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي التواب على عباده الطائعين، الرحيم بهم.

(٥٥) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ يوم ذهبتم مع موسى للاعتذار من عبادة العجل وسمعتم كلام الله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عيانًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فمتم فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي بسبب جريمتهم؟

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أي أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَنا بطاعتكم لنا.

(٥٧) ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة لأنه يغم السماء أي يسترها وهو السحاب الأبيض، ظُلِّلُوا به في التيه ليقيهم حرَّ الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ فالمن: قيل: إنه كالطلّ، ويشبه الرُّبَّ الغليظ، وقيل... وقيل... والظاهر والله أعلم أنه: كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كدّ. والمن المشهور إن أكل وحده كان طعامًا وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شرابًا طيبًا، وإن رُكّب مع غيره صار نوعًا آخر ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، لما في البخاري من حديث: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين» [١٨]، والسلوى: طائر يشبه السُّمانَى كانوا يأكلون منه، وقيل: بل هو السُّمانَى نفسه كان الرجل يذبح منه بقدر حاجته وإذا تعدى فسد ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ واشكروا فكفروا!!!! ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ومن ههنا تظهر فضيلة أصحاب محمد رضي الله عنهم على سائر صحب الأنبياء. وهنا نذكّر القراء الكرام بقول المقداد بن الأسود: (لا نقول لك كما قال اليهود لنبيِّهم: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون).

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ
اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا
وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ
اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لهم بعد خروجهم من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي رزقًا هنيئًا واسعًا. ولما فتحها الله عليهم عشية جمعة؛ أمرهم الله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي باب بيت المقدس ﴿سُجَّدًا﴾ أي منحنين ركّعًا وذلك شكرًا لله تعالى على نعمة الفتح والنصر، وإنقاذهم من التيه والضلال. وأمرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي مغفرةٌ يا رب عما صدر منّا من الذنوب اللهم فَحُطَّ عنا خطايانا. وفيه دليل على التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة. وذلك أن الله تعالى طلب إليهم أن يعترفوا بذنوبهم حتى يكون هذا الاعتراف وسيلة إليه لمغفرة الذنب ولا شك أنّ الاعتراف بالذنب عمل صالح يصلح أن يكون وسيلة إليه تعالى لقبول التوبة. هكذا طلب منهم أن يفعلوا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي إن فعلتم ما أمرناكم به ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ توفيقًا للطاعة وثوابًا عليها ولكنهم ما أطاعوا أمر الله.

(٥٩) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وقالوا: حبة في شعرة بدلًا مما أمرهم الله به: وقولوا حطة، ولم يدخلوا الباب سجدًا كما أمرهم، بل زحفًا على أستاههم ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ عذابًا طاعونًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب خروجهم عن الطاعة، فهلك منهم سبعون ألفًا بهذا العذاب.

(٦٠) ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي طلب السقيا من بعد عطشهم في التيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ هو حجر ما عُيِّن لموسى ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد أسباطهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي مكان شربهم. وقلنا لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها، والعثوُّ: أشد الفساد.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهو المنُّ والسلوى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن﴾ للبيان ﴿بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾ أي حنطتها فقد قال ابن عباس: إن الفُوم الحنطة بلسان بني هاشم. قال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل، كلها فوم. وقال آخرون: إن الفوم هو كل ما يختبز منه. ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي أخسّ ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي أشرف. والهمزة في ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ للإنكار. فأصروا على طلبهم فدعا موسى الله تعالى فقال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيه ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي ما طلبتم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي الهوان والفقر والخزي فلا منعة لهم، وكل من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصَّغار، وهم مع ذلك أذلاء في نفوسهم مستكينون بما أذنبوا، وقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجْبيهم الجزية ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ﴾ أي كان ضرب الذلة والمسكنة والغضب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وعدم اتباعهم، وقد انتقصوا حقهم لدرجة أن أفضى الحال إلى قتلهم بغير الحق بلا جرم فعلوه. فلا كفر أعظم، ولا أبلغ من ذلك. وفي الحديث: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة: رجل قتله نبيٌّ، أو قتل نبيًّا، وإمام الضلالة، وممثِّل من الممثّلين»(١) [١٩]. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وثمة علة أخرى في مجازاة اليهود بما جوزوا به وذلك بموجب فعلهم المعاصي وارتكابهم محارم الله واعتدائهم حدَّ ما نهوا عنه وتجاوزهم الحد بالمعاصي. وكرره للتأكيد، والله أعلم.

(١) أي يمثِّل بمن يقتلهم كأن يفقأ أعينهم أو يقطع آذانهم أو يجدع أنوفهم أو يفعل كلَّ ذلك.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم أمة محمد ﷺ وكل من آمن بالأنبياء من قبل ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ قوم عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ وهم قسمان: ١- حنفاء موحدون. ٢- صابئة مشركون عبدة النجوم. فالقسم الأول، هم الذين أثنى الله عليهم في هذه الآية كما أثنى على كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا. وهكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ منهم في زمنهم وفي زمن نبينا عليه الصلاة والسلام وعلى شريعته ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي أقام الفرائض طبق شريعة محمد ﷺ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي ثواب أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوه في الدنيا.

(٦٣) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي حين أخذنا عهدًا عليكم بالعمل بالتوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي جبل الطور في جنوب شبه جزيرة طور سيناء. فلما أبوا أن يطيعوا أمر الله، أمر الله الجبل أن يقع عليهم، وقد غشيهم كأنه ظلة، فتابوا فكُشِف عنهم. وقلنا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي اعملوا بالتوراة بجد واجتهاد ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار بما عملتم بالتوراة.

(٦٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أي أعرضتم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق عن الطاعة ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالتوبة وإرسال المرسلين إليكم، ﴿لَكُنتُم﴾ بنقض ميثاقكم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي الهالكين.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام لام القسم ﴿عَلِمْتُمُ﴾ ما أحل الله بأهل إيلة ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ بصيد السمك الذي ما كان يأتيهم إلا يوم السبت، فوضعوا له الشصوص والشباك في يوم السبت فلم يعد يستطيع الخروج، فيبقى ليوم الأحد فيأخذونه، زاعمين أنهم لم يصطادوه يوم السبت المحرَّم فيه العمل الذي منه الصيد. والواقع أن فعل الصيد وقع يوم السبت لأنهم حبسوه بالشباك ولولا ذلك ما استطاعوا أخذه يوم الأحد ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ بسبب احتيالهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فمسخهم الله قردة وهلكوا بعد ثلاثة أيام، ولم ينج إلا الذين نهوهم، أما الذين احتالوا والذين لم يحتالوا ولكنهم لم ينهوا المحتالين، مسخوا جميعًا قردة مسخًا حقيقيًا.

(٦٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾ أي القرية وأهلها عبرة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي وما حولها من القرى التي في زمانها وبعدها كيلا يعملوا مثل أعمالهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي ليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم وقد كان ذلك في عهد داوود عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وفي الحديث: قال الرسول ﷺ: «قاتَلَ الله اليهودَ، إنَّ الله لَّما حرَّم عليهم شحومها جَملوه ثمَّ باعوه فأكلوا ثمنَهُ» متفق عليه [٢٠].

(٦٧) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وقد قتل لهم قتيل لا يُعلم قاتله، وسألوه أن يدعو الله أن يُبيِّنه لهم. فدعا الله ثم أبلغهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ فتعجَّبوا ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي ما علاقة طلبنا بذبح البقرة!! ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ المستهزئين. فلما علموا أنه جادٌّ.

(٦٨) ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ أي ما سنّها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ ليست مسنّة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ ولا صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي متوسطة ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به من ذبحها.

(٦٩) ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي شديد الصفرة ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي تعجبهم لحسنها.

مسخ العاصرين من يهود إيلة والذين لم ينهوهم عن المعصية قردة، شددوا فشدد الله عليهم

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ (الحزب ٢)
يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا
وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

(٧٠) ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة أم عاملة ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته فلم نهتد إلى البقرة المقصودة ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وفي الحديث: «لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»(١) [٢١].

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ غير مذللة بالعمل ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ تقلبها للزراعة، والجملة صفة ذلول داخلة في النفي ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لا تسقي الأرض المهيأة للزراعة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا لون فيها غير لونها ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي نطقت بالبيان التام، المطابق للوصف الذي رأوه في بقرة الفتى البار بأمه. فاشتروها بملء جلدها ذهبًا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي كادوا أن لا يفعلوا. وفي الحديث: «لو ذبحوا أي بقرة كانت لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»(٢) [٢٢].

(٧٢) ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي صار كل واحد يدرأ عن نفسه الجريمة. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ أي مظهر ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي تخفون من أمرها.

(٧٣) ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة ففعلوا... فحيَّ القتيل وأخبر وقال: فلان قتلني فقبل منه قوله، ثم خرَّ ميتًا، وحُرم القاتل الميراث، وقتل به ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي فكما أحيا الله ذلك القتيل، كذلك يحيي الموتى، وفي الحديث عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مررت بواد مُمحل ثمَّ مررت به خضرًا؟» قال: بلى. قال: «كذلك النشور، أو قال: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾» [٢٣]. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي براهين قدرته على البعث ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتقتنعون بقدرة الله تعالى على البعث والنشور فتؤمنون به.

(٧٤) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي بعد طول الأمد صارت قلوبكم قاسية، بعيدة عن الموعظة ﴿فَهِيَ﴾ في قسوتها ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها. حتى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردَّى من رأس جبل، لَمِنْ خشية الله نزل بذلك القرآن. فهذه الحجارة ألين من قلوب بني إسرائيل لأنهم كذبوا بالحق بعد أن رأوه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل يعلمه وهو لمجازاتهم بالمرصاد كل آن.

(٧٥) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ ينقادوا لكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي أحبارهم ورؤساؤهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي يتأولونه على غير حقيقته ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه على الجليَّة فيخالفونه على علم وبصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يفترون على الله. وقد آيس الله المؤمنين من الطمع في إيمانهم فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؟ أي لا تطمعوا بإيمانهم بعدما أنكروا صفة الرسول ﷺ وحللوا الحرام وحرموا الحلال.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وإذا رأى منافقو اليهود الذين آمنوا ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بأن محمدًا نبيٌّ ولكنه إليكم خاصة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾ أي قال أحبارهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أتحدثون أصحاب محمد بما بيَّن الله في التوراة من أمر محمد ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي اجحدوه ولا تقروا به ولا تحدثوهم بهذا فإنَّكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي ألا تفهمون أن اعترافكم بما في التوراة من صفة محمد هو حجة عليكم، أتريدون أن يخاصموكم به عند ربكم، ويقيموا عليكم الحجة!؟ فردّ الله عليهم في الآية التي بعدها بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

(١) صحَّ موقوفًا عن ابن عباس.
(٢) قال ابن كثير: أحسنُ أحواله أنه من كلام أبي هريرة.

أكرهم عنادهم إلى شراء البقرة بملء جلدها ذهبًا، الحجارة ألين من قلوبهم

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١٢

(٧٧) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ الهمزة للتقرير والواو للعطف ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي ما يخفون من نفاقهم وكفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم برسالته وهم يجدون اسمه مكتوبًا عندهم في التوراة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الإيمان به نفاقًا.

(٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أي لا يقرأون ولا يكتبون ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ أي أكاذيب تلقوها من أحبارهم ورؤسائهم فاعتمدوها، ويتكلّمون بغير ما في الكتاب ويقولون: هو من الكتاب ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ في جحد نبوة محمد ﷺ ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظنًا مجردًا بلا علم. وفي الحديث: «ليس الإيمان بالتمنّي ولكن ما وقر في النفس، وصدقه العمل وإن قومًا قد ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا، ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل» [٢٤].

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل واد في جهنم ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي مختلقًا من عندهم، خاليًا من صفة النبي ﷺ، ويبيعونه من العرب، ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من البهتان والافتراء والكذب ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي مما أكلوا به من الرشاء والمال السحت.

(٨٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي لن تمسّنا إلا أربعين يومًا وهي عدة الأيام التي عبدوا فيها العجل ثم نخرج منها. فرد عليهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي ميثاقًا منه بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد الله ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ ولكن ما جرى مثل هذا العهد ﴿أَمْ﴾ أي بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كذبًا وافتراءً وبهتانًا. وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ سأل اليهود بعد فتح خيبر في جملة ما سألهم: ... مَن أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا فيها. فقال رسول الله ﷺ: اخسأوا والله لا نخلفكم فيها أبدًا» [٢٥].

(٨١) ﴿بَلَىٰ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم وتمنيتم بل ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ والسيئة هنا: الشرك ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه وأحدقت به، ومات على الشرك ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مؤبّدون لا يخفف عنهم العذاب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي من آمن بما كفرتم، وعمل بما تركتم فلهم في الجنة أبدًا وحياة مخلدة مخلدة، وعطاء غير مقطوع. وفي هذه الآية إخبار بأن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدًا بلا انقطاع.

(٨٣) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في التوراة ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي يفردونه بالعبادة وبهذا أمر جميع الخلق، ولذلك خلقهم. ثم يأتي بعده حق المخلوقين، وآكدهم حق الوالدين ولهذا قرن تعالى بين حقه وحق الوالدين، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلتُ: ثم أيّ؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [٢٦]. ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي أولو الأرحام واليتامى من كانوا دون الحلم، ومن أسكنه الفقر أن يحسنوا إليهم ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي مُرُوهم وانهوهم، وعاملوهم بالحلم والصفح والعفو ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فقبلتم كل ذلك. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن الوفاء به ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ بعد العلم به كما فعل آباؤكم من قبل.

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ
وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ
إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ
بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ
بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ
قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾

١٣

كذبوا الأنبياء وقتلوهم، قلوبهم غلف عن الحق، مغضوب عليهم ملعونون بكفرهم

(٨٤) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ أي العهود والمواثيق عليكم في التوراة ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾ بقتل بعضكم لبعض ﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي لا يضطر بعضكم لإخراج بعض من ديارهم ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ﴾ أي تعهدتم بتنفيذ ذلك العهد والميثاق ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أي تعترفون بما عاهدتم ثم نقضتم العهد.

(٨٥) ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي يقتل بعضكم بعضًا في الحرب التي تسعر ما بين الأوس والخزرج وبَعْضكم حلفاء الأوس والبعض الآخر حلفاء الخزرج ﴿وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي تخرجون المغلوب منكم من دياره ابتغاء عرَض الدنيا من أموالهم وأسلابهم ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ أي تتعاونون عليهم وتظلمونهم، وتعصون التوراة فيهم ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ من الأسر بالمال، وغيره من متاع الدنيا، وهو مما عهد إليهم وكانت العرب تعيّرهم بذلك... يقولون لهم: كيف تقاتلونهم وتفادونهم!؟ أجاب اليهود: إنّا أمرنا أن نفاديهم، وحرم علينا قتالهم. قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إننا نستحي أن تُستذلّ حلفاؤنا، والحقيقة هي ابتغاء الدنيا وعَرَضها ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ﴾ متصل بقوله: وتخرجون والجملة بينهما اعتراض. وإزاء هذه المفارقة في معاملة بعضهم بعضًا من حيث: المقاتلة والمفاداة، خاطبهم الله بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو الفِداء ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾!؟ وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة. وقد أرشدت هذه الآية إلى ذم اليهود والذين يؤمنون بالتوراة ويخالفون ما فيها وهم يعرفون ويشهدون بذلك، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يُصدَّقون فيما كتموه من صفة النبي ﷺ ومبعثه ومخرجه ومهاجره. مما أخبر به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واليهود -عليهم لعائن الله- يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ﴾ أي هوان وذل ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقد أخزاهم الله بقتل «قريظة» ونفي «النضير» إلى الشام وضرب الجزية ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي تشديد وتهديد ووعيد بما لا يخفى فإن الله لمّا كان عالمًا بما يعملونه، مطلعًا عليه، غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد.

(٨٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي باعوا الآخرة بما يصيبونه من الدنيا ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي لا ناصر لهم.

(٨٧) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا رسولًا بعد رسول ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ وهي المعجزات من: إحيائه الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي شددنا أزره بجبريل عليه السلام، يسير معه حيث سار، فلم تستقيموا. وروح القدس هو جبريل عليه الصلاة والسلام لا كما قيل إنه الإنجيل. بدلالة الحديث: «إن روح القدس نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» [٢٧]. ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عن اتباعه. جواب كلّما وهو محل استفهام، والمراد به التوبيخ ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ﴾ كعيسى عليه السلام ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية. بمعنى قتلتم. كزكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام وغيرهما.

(٨٨) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ أي مغلّف عليها بما امتلئ فيها من العلم بالتوراة، فلا يتسع لكلامك يا محمد. والحقيقة أنها ملئت بالكفر ﴿بَلۡ لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ وطردوا من الرحمة ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي القليل القليل آمن منهم كعبدالله بن سلام رضي الله عنه.

وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ
مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ
﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا
لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ
مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ
بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي قبل بعثة النبي ﷺ ﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ﴾ أي يستنصرون بمجيء نبيٍّ في آخر الزمان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي على أعدائهم المشركين من الأوس والخزرج إذا قاتلوهم. ويقولون لهم: إنه سيبعث آخر الزمان نبيٌّ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ من الحق أي من بعثة نبيّ آخر الزمان ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ وجحدوا حسدًا لأنه بعث من العرب. وكانوا ينتظرون أن يبعث منهم. وقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم!!! ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي طردوا من الرحمة وخلدوا في جهنم أبدًا، لا يخفف عنهم العذاب.

﴿٩٠﴾ ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي باعوا حظها من ثواب الإيمان برسول الله ﷺ. و(ما) نكرة بمعنى شيئًا تمييز لفاعل بئس والمخصوص بالذم ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن، ﴿بَغۡيًا﴾ مفعول له ليكفروا أي: حسدًا على ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ الوحي ﴿مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ للرسالة ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ ولا حسد أعظم من هذا ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖ﴾ قال ابن عباس في الغضب على الغضب: فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله فيهم فاستحقوا واستوجبوا واستقروا بغضب على غضب ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ قوبلوا بالإهانة والصَّغار والخزي جزاء كفرهم الذي كان سببه البغي والحسد

﴿٩١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على محمد ﷺ من القرآن ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ أي التوراة ﴿وَيَكۡفُرُونَ﴾ الواو للحال ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي بما بعده من القرآن ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ حال ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم بالإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بين أيديكم، والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم إن كنتم حقًا مؤمنين بالتوراة؟ والخطاب للأبناء الراضين بفعل الآباء.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات كالعصا واليد وفلق البحر ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي بعد ذهابه إلى الميقات ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسكم بالشرك بالله واتخاذ العجل معبودًا من دونه وأنتم تعلمون أنه لا معبود إلا الله.

﴿٩٣﴾ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي جبل الطور ليسقط عليكم حين امتنعتم من قبول التوراة وقلنا لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي بجد واجتهاد وعزيمة ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ ما تؤمرون به سماع طاعة وقبول ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وفي الحديث: «حبك الشيء يعمي ويصم»(1) [٢٨]، رواه أحمد وأبو داود، والمراد آباؤهم. ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي بسبب كفرهم وشركهم بالله ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا﴾ شيئًا ﴿يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي بئسما تعتقدون أنتم وآباؤكم من الكفر بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء وبئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل من دون الله ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالتوراة كما زعمتم ولكن لستم مؤمنين لا أنتم؛ لأنكم كذبتم بالتوراة التي تأمركم بالإيمان بمحمد ﷺ واتباع دينه خاتم الأديان، ولا آباؤكم؛ لأنهم عبدوا العجل من دون الله.

(1) صحّ موقوفًا من كلام أبي الدرداء.

كانوا يستفتحون بمحمد ولما بعثه الله من العرب كفروا به، إذا كنتم تؤمنون بأنبيائكم فلم قتلتموهم

الرسول دعا اليهود إلى المباهلة، من عادى الملائكة والأنبياء فقد عادى الله

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ
مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ
مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١٥

(٩٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لليهود ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أي الجنة ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي خاصة بكم ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تعلّق (بتمنّوا) الشرطان على أن الأول قيد في الثاني. أي إن صدقتم في زعمكم إنها لكم، ومن كانت له يؤثرها، والموصل إليها هو الموت فتمنّوه... فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ. وفي الحديث: «لو أن اليهود تمنوا الموت، لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا» [٢٩].

(٩٥) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من كفرهم بما جاء من صفة نبينا في التوراة وتغييرها. قال ابن عباس: صفة النبي ﷺ مكتوبة في التوراة: أكحل أعين ربعة، جعد الشعر، حسن الوجه، فمحوه حسدًا وبغيًا. وقالوا: نجده طويلًا أزرق، سبط الشعر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين، فيجازيهم ولو تمنوا الموت يوم قال لهم رسول الله ذلك، ما بقي يهودي على وجه الأرض إلّا مات.

(٩٦) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ اللام لام القسم ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي لتجدنهم أحرص الناس تمسكًا بالحياة بل وأحرص من المشركين عليها، لأن المشركين منكرون للبعث، يرغبون في الحياة، ليتمتعوا بها أكثر، ولكن اليهود ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ و﴿لَوْ﴾ مصدرية بمعنى (أنْ) وهي بصلتها في تأويل مصدر مفعول ﴿يَوَدُّ﴾ لعلمهم الأكيد بأن مصيرهم إلى النار ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي أحدهم ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ أي مُنْجيه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي أن يكون طويل العمر ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده فيجازي كلًّا بعمله. وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» [٣٠]. وسأل ابن صوريا النبي ﷺ عمن يأتي بالوحي فقال: جبريل. فقال: هو عدونا يأتي بالعذاب ولو كان ميكائيل لآمنا، لأنه يأتي بالخصب والسلم فنزل في حقّه:

(٩٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ فليمت غيظًا ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ أي القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي قبله من الكتب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالجنة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خير وشره.

(٩٨) ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام، لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وبين أنبيائه، وقرن معه ميكائيل ليعلمهم أن من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وفي الحديث: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب» [٣١]. وصحّ: «مَنْ كنتُ خصمَه خصمتُه» [٣٢].

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي واضحات ردًا على ابن صوريا الذي قال: يا محمد ما جئتنا بشيء ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ولقد كفروا بها.

(١٠٠) ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟﴾ الله ﴿عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي نقضه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعاهدون اليوم وينقضون عهدهم غدًا.

(١٠١) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي التوراة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لم يعملوا بما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتّباعه.

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (١٠٥)

(١٠٢) ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي ما تكذب الشياطين ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي على رعيّة سليمان، إذ كانت تسترقُ السمعَ وتضم إليه أكاذيب وتلقيه إلى الكهنة، فيدوّنونه وفشا ذلك، وشاع أن الجن تعلمُ الغيبَ، فجمع سليمان عليه السلام تلك المدوّنات فجعلها في صندوق، ودفنها تحت كرسيه، ولا يدنو شيطان منه إلا احترق. وقال سليمان عليه السلام: لا أسمع أحدًا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلاّ ضربت عنقه. فلما مات سليمان عليه السلام، دلّتِ الشياطين على تلك الكتب، واستخرجها الناس، فوجدوا فيها السحر. فقالت الشياطين: إنما ملككم سليمان بهذا السحر فتعلموه، ورفضوا كتب أنبيائهم!!! فبرأ الله سليمان مما نسب إليه، ورد على اليهود في قولهم: انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما هو إلاّ ساحر!!! فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي لم يعمل السحر، لأن السحر كفر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ الجملة حال من ضمير كفروا ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ (الواو) للعطف و(ما) نافية. أي ما أنزل السحر على الملكين أي جبرائيل وميكائيل. إذ كان يزعم اليهود أن السحر نزل به جبرائيل وميكائيل!!! فنفى الله عنهما ذلك. فيكون معنى الآية كما يأتي: وما كفر سليمان، وما أنزل الله على الملكين جبرائيل وميكائيل السحر. ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم جماعة من الناس ﴿بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ أي: رجلان، قال ابن عباس: هما ساحران كانا يعلمان السحر. فيكون هاروت وماروت بدلًا من الناس، ويعلّم هذان السحرَ للناس(١)، لا أن هاروت وماروت ملكان فحاشَ الملائكة أن تعلّم الناسَ السحرَ، وهو كفرٌ!!! ويعلمون أنه كفر. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي بتعلّم السحر فكانا من جهة ساحِرين ومن جهة أخرى ناصحَيْن. فما يعلّمان من أحد السحرَ إلا ويقولان له: إن تعلّم السحر كفر فلا تكفر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي الناس ﴿مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ بأن يبغّضوا كلًّا إلى الآخر ﴿وَمَا هُم﴾ أي السحرة ﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ أي بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وهو السحر الذي ذكره رسول الله ﷺ من السبع الموبقات ويقتل فاعله.

وفي الحديث: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [٣٣]. ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام لام القسم ﴿عَلِمُواْ﴾ أي اليهود ﴿لَمَنِ﴾ (اللام) لام ابتداء معلّقة لما قبلها و(مَنْ) موصولة. ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي استبدله بكتاب الله ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي من نصيب في الجنة ﴿وَلَبِئْسَ مَا﴾ شيئًا ﴿شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي باعوها ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ مبلغ عذابهم في الآخرة.

(١٠٣) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لأثابهم. واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ على تكفير الساحر. وقيل: لا يستتاب الساحر لحديث: «حد الساحر ضربةُ بالسيف»(٢) [٣٤]، ولا يُدفع السحر بمثله إنما بالمعوّذتَين الفلق والناس، وبآية الكرسي. والسحر في جميع أنواعه باطل.

(١٠٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ﴾ للنبي ﴿رَٰعِنَا﴾ وكان اليهود يقولونها يورّون بالرعونة، فنهى الله المؤمنين عن قولها، ولو أنهم لم يقصدوا مقصد اليهود بل ﴿وَقُولُواْ﴾ بدل ﴿رَٰعِنَا﴾: ﴿ٱنظُرْنَا﴾ أي اسمع لنا حتى لا تقع المشابهة ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي سمع طاعة ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم مؤبد.

(١٠٥) ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي من نبوّة حسدًا لكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي بنبوّته ﴿مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يدانيه فضلًا أحد غيره.

(١) راجع كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» المجلد الأول، ص٣٨-٥٨ تجد تعليقًا مهمًا في هذا الموضوع.

(٢) صحيح موقوفًا.

تركوا التوراة، وتعلموا السحر، واتهموا سليمان به، وبرأه منه وما أنزله الله على الملكين

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم
مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

(١٠٦) ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ النسخ: هو رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. ويكون إما بتثبيت الخط ورفع الحكم مثل: نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ. وإمَّا بتثبيت الحكم ورفع الخط. مثل: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة...) [٣٥] ولا يكون النسخ إلاَّ في الأوامر والنواهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. أما آيات التوحيد والأخبار فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ. ونزلت هذه الآية بسبب أن اليهود قالوا لما نسخت القبلة من بيت المقدس إلى استقبال المسجد الحرام بمكة: إن محمدًا يحل لأصحابه إذا شاء، ويحرم عليهم إذا شاء فنزلت: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي ما نستبدل حكمًا مكان آخر ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي نمحها من قلبك، أو نؤخرها. و(ما) شرطية، وجواب الشرط ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أنفع لمصلحة المكلفين: من تخفيف أو رخصة أو أمر أو نهي ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي في التكليف والثواب ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه إقرار ما يشاء على عباده، وتغيير ما يشاء من أحكام.

(١٠٧) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفعل ما يشاء فيها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يحفظكم من عذاب الله ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعه عنكم إن أتاكم.

(١٠٨) ﴿أَمْ﴾ بل ﴿تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم فقد سأله قومه: أرنا الله جهرة وغير ذلك... وسبب نزول هذه الآية: أن قريشًا سألت النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا. فقال: «هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم...» فأبوا[١] [٣٦]. ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي يتخذه بدلًا عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ضلّ الصراط المستقيم. وفي الصحيح: «إن أعظم المسلمين جرمًا، من سأل عن شيء ولم يحرم، فحرّم من أجل مسألته» [٣٧].

(١٠٩) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي تمنّى ﴿لَوْ﴾ مصدرية بمعنى (أن) ﴿يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ في شأن النبي ﷺ. وقيل: إنَّ سبب نزولها أن حُيَيَّ بن أخطب وأبا ياسر كانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام، كحذيفة وعمار ودَعَواهما إلى دينهما فأبيا فنزلت [٣٨]. كما كان عدو الله ورسوله كعب بن الأشرف رأس اليهود يهجو النبي ﷺ ويحرض الكفار عليه في شعره، فأمر الله نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فيهم من القتال. قال ابن عباس: فجاء الله بأمره في بني النضير بالجلاء والنفي، وبني قريظة بالقتل والسبي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي طاعة، كصلة وصدقة ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي تجدوا ثوابه ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازي كلًّا بعمله.

(١١١) ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ قال ذلك يهود المدينة، ونصارى نجران، لما تناظروا بين يدي النبي ﷺ، وكلٌّ ادَّعى دخولها دون الآخر ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي أمانيّ تمنّوها على الله بغير الحق. إن هي إلاَّ شهواتهم الباطلة ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي هاتوا دليلكم على ذلك!!!

(١١٢) ﴿بَلَىٰ﴾ يدخل الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي أخلص الانقياد بلا تردد ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي موحِّد متبع لرسول الله ﷺ فإن للعمل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده، والآخر: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة. فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُتقبلْ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد» [٣٩]، وإن كان العمل موافقًا للشريعة لكنه بدون إخلاص، فهو أيضًا مردود فإذا توفر فيه الشرطان فهو عمل مقبول. فمن كان عمله كذلك ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي ثواب ما عمل في الجنة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على الدنيا وما فيها.

(١) مرسل.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ
لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ
وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ
فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ
قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

١٨

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ معتدٍّ به، وكفرت بعيسى ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ معتدٍّ بـه، وكفرت بموسى ﴿وَهُمْ﴾ أي الفريقـان ﴿يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المنزل عليهم وإن كلًّا يتلو في كتابه تصديق من كفر به. والجملة حال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثلهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهـم المشركـون ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي قالوا أيضًا: ليس محمد على شيء ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيريهم عيانًا من يدخل الجنة أو النار. وأما الحكم فقد بينه لهم في الدنيا بما أقام من الحجج على الصواب.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ بالصلاة والتسبيح، وهم المشركون الذين صدوا رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن دخول المسجد الحرام حتى نحر هديه بذي طوى ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ فـأيّ خراب أعظم مما فعلوه؟ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ وهـذا خبر معناه الطلب. أي لا تمكنـوا هؤلاء من دخولها إلا غير آمنين ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ هوان بالقتـل والسبي ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يطاق ولا ينقضي.

(١١٥) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي مـلكـه ومـا بينهـما ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ وجوهكم في الصلاة إذا عمّيت الجهة عليكم فاجتهدتم في تحصيل جهة القبلة وتحرّيتموها ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي قبلته التي رضيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ الفضـل ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبير خلقه. وقيل في سبب نزولها أقوال عـدة... فلو تحرّى المصلي القبلة وصلّى إلى حيث أوصله اجتهاده، فصلاته صحيحة، ولو تأكد بعدها أنه صلى لغير القبلة، فلا إعادة عليه.

(١١٦) ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي أهل الكتاب والمشركون ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فأكذب الله الجميع، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي الكل خلقه وعبيده. والولد إنما يكون من شيئين متناسبين، والله ليس له نظير أو مناسب، فكيف يتولد الولد منه سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون مقرُّون بالعبودية، وفي الحديث: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: أن لي ولدًا فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا» [٤٠]، ألا إن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه، وَجَرْيِ أحكامه عليه. ومن معاني القنوت: إطالة القيام في الصلاة.

(١١٧) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما على غير مثال سابق ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي أراد إيجاده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي يقول له ﴿كُن﴾ مرة واحدة، فيوجد حالًا على مراده، جلّ وعلا.

(١١٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي مشركو العرب للنبي ﷺ ﴿لَوْلَا﴾ أي هـلَّا ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ ويخبرنا بأنك رسوله حقًّا ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ خارقة مما طلبناه منك ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ عتوًا وإصرارًا ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والعناد لأنبيائهم ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يؤمنون عن حق ويقين، ويعلمون أنها آيات فيؤمنون بها ويصدّقون.

(١١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن ﴿بَشِيرًا﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي لا نسألك عن كفر من كفر، وفي قراءة: (ولا تَسْأَلْ) نهيًا. وقد نهى الله نبيه محمدًا عن أن يسأل عن أصحاب الجحيم فلم يسأل عن أبويه أين هما؟ فما ذكرهما حتى توفاه الله لما علم أنهما في النار. وفي صحيح مسلم: أن رجلًا قال يا رسول الله، أين أبي؟ فقال: «في النار»، فلما قفّى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار» [٤١]، وفيه أيضًا: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يؤذن لي فاستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت» [٤٢].

عمارة المساجد بالصلوات لا بالزخارف. تبرؤ الرسول من أبويه لما علم أنهما في النار

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا
لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ
فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

نصف الحزب ٢

١٩

(١٢٠) ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي ما يرضيهم مما يزعمونه في دينهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي الذي بعثني به ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي الدين الصحيح ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي العلم من القرآن ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحفظك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعك من عقوبته. الخطاب للرسول والأمر له ولأمته.

(١٢١) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مبتدأ وهم أصحاب النبي ﷺ ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يتأولونه على غير تأويله. والجملة حال. و(حَقَّ) نصب على المصدر. والخبر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ حق الإيمان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ من اليهود والنصارى والمشركين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم. وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» [٤٣].

(١٢٢) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالم زمانهم.

(١٢٣) ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ أي خافوا ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾ أي لا تغني ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فداء ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي يمنعون من عذاب الله وعقابه الأليم.

(١٢٤) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾ أي حين اختبر ﴿إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ طاعة الله في فراق قومه، ومحاجته نمروذًا في الله وصبره على قذفه في النار، والهجرة من وطنه، وما أمر به من الضيافة والصبر عليها في نفسه وماله، وذبح بكره إسماعيل، وقيل: هي العشر التي من الفطرة، وقيل: إن الكلمات هي جميع الأوامر والنواهي ومهما تكن هي فإن الله تعالى قال عنها ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] ما ابتلاه ربُّه، فلما مضى على ذلك وعلمه الله منه أخلصه للبلاء و ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قدوة في الدين جزاءً على ما فعل وقام بالأوامر وترك الزواجر ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي اجعلهم أئمة ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى﴾ بالإمامة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين منهم لا يكونون أئمة.

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي يؤمّونه من سائر الأنحاء، لا يقضون منه وطر نفوسهم وشوق أفئدتهم، يأتونه ثم يرجعون منه ثم يعودون إليه كما قال الشاعر:

جعل البيت مثابًا لهمو ... ليس منه الدهر يقضون الوطر

﴿وَأَمْنًا﴾ أي مأمنًا حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه فلا يزعجه بشيء ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾ أي يا أيها الطائفون بالبيت صلوا بعد فراغكم من الطواف ركعتين خلف مقام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام لبناء الكعبة، وقيل فيه أقوال شتى وأصحها: أنه الحجر الذي ذكرناه آنفًا، يدل عليه ما ورد في حديث جابر رضي الله عنه: ... أن رسول الله ﷺ، رمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعًا حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلَّى خلفه ركعتين ثم قرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾ [٤٤]. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ عليهما السلام أي أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي طهرا بيتي من الأوثان للمقيمين والحجاج والمصلين.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ المكان ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي ذا أمن، فجعله آمنًا لا يسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد صيده، ولا يختلى خلاه ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين فحسب، ﴿قَالَ﴾ الله ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ بالرزق ﴿قَلِيلًا﴾ مدة حياته ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة.

لا يسمع بمحمد ﷺ يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن به إلا دخل النار

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

٢٠

(١٢٧) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي يبني أركانه ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ عطف على إبراهيم، ويدعوان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ عملنا هذا ويتوسلان به إلى الله تعالى أن يتقبل منهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للدعاء والمجيب له ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالإخلاص في العمل.

(١٢٨) ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي مستسلمَيْن منقادَيْن لأوامرك ونواهيك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي مستسلمة منقادة لأوامرك ونواهيك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي علمنا شرائع عبادتنا وحجنا ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهكذا نرى أن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام توسلا إلى الله تعالى ببناء بيته المحرم، وباسمَيْه تعالى السميع والعليم ثم باشرا بالدعاء أن يتقبل منهما عملهما وأن يجعلهما مسلمين مستسلمين ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة مستسلمة له وأن يعلمهما المناسك ويتوب عليهما، ومراد الله من ذلك إعلامنا بعملهما والاقتداء بهما في توسلهما المشروع وترك التوسّل بذوات المخلوقين الذي كان من شعارات الجاهلية، وحضَّ المرسلون على منعه.

(١٢٩) ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي في ذريتنا أي من ولد إسماعيل ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أنفُسهم وأنفَسهم، وقد استجاب الله لهما فبعث فيهم محمدًا ﷺ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ أي آيات كتابك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ما فيه من الأحكام التي بيَّنها عليه الصلاة والسلام في سنته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي ويطهرهم من الشرك والكفر ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يعجزه شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

(١٣٠) ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي بتركها وعدم العمل بها، ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي إلاَّ من ظلم نفسه، وأي سفه أعظم من سفه من يترك دين إبراهيم، ويتبع طرق الضلالة والغواية ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي اخترناه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالرسالة والخلّة لأنه أتمَّ ووفَّى ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم الفوز بالجنة والدرجات العلى.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي أخلص لي الدين ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي ربّى جميع العالمين بنعمته ولا رب لهم سواه، فكان بذلك إمامًا للناس.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ﴾ أي بملته ودينه ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ وكذلك أوصى يعقوب بنيه فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي دين الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي الزموا الإسلام، فإذا أدرككم الموت صادفكم عليه. وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت ديننا واحد» [٤٥]. وفي حديث آخر: «فالأنبياء إخوة بنو علّات أمهاتهم شتى» [٤٦]. أي دينهم واحد وشرائعهم شتى.

(١٣٣) ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وسبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه يوم مات باليهودية؟ فنزلت هذه الآية: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي بعد موتي ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عدَّ إسماعيل من الآباء تغليبًا، ولأن العم بمنزلة الأب ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدل من (إلهك) ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. و(أم) من قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ...﴾ بمعنى همزة الإنكار، أي: ألم تحضروه وقت موته، فكيف تنسبون إليه ما لا يليق!؟

(١٣٤) ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما، وأُنّث لتأنيث خبره ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي سلفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء إذا لم تفعلوا خيرًا كما فعلوا، فإن لكم أعمالكم ولهم أعمالهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا يسألون عن أعمالكم.

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ والقائلون: هم اليهود والنصارى ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن كل الأديان إلى الدين القيّم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ردٌّ على اليهود والنصارى والمشركين الذين قالوا: نحن على دين إبراهيم، مع أنه لم يكن مشركًا وهم مشركون، فليسوا إذًا على دينه ولا ملّته.

(١٣٦) ﴿قُولُوٓا۟﴾ يا أيها المؤمنون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ من الصحف العشر ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلًا، ولد لكل رجل منهم أمة من الناس، والمراد بالأسباط ههنا، قبائل بني إسرائيل وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الكائنين منهم. أما أبناء يعقوب بالذات، فليس فيهم نبيٌّ إلّا يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام، والباقون ليسو أنبياء، إذ لا يوجد أي دليل على ذلك. ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ من الكتب والصحف ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ ونؤمن بالجميع ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي متبعون دين الإسلام. وفي الحديث: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم و﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾» [٤٧].

(١٣٧) ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ أي أهل الكتاب والمشركون ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ إلى الحق ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان به ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي خلاف معكم ومنازعة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ شرورهم وآثامهم بأن ينصرك عليهم ويظفركَ بهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ولقد كفاه إياهم بنصره على بني قريظة وقتلهم، ونفي بني النضير، وضرب الجزية عليهم.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، ونصبه بفعل مقدّر أي صبغنا الله، وقيل الزموا صبغة الله التي فطر الله عليها، وقال بعضهم: بدل من (مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ) والمراد دين الله الذي فطر الناس عليه، لظهور أثره على صاحبه كالصبغ في الثوب. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحد أحسن صبغة منه. وصبغة تمييز ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي مطيعون كما أمر بصدق وإخلاص.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ يريد يهود المدينة، ونصارى نجران أي أتخاصموننا أن اصطفى الله نبيًا من العرب ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا بما يشاء وله أن يصطفي من يشاء ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي نحن برآء من أعمالكم وأنتم بُرآء من أعمالنا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي في العبادة والتوجه، وهمزة أتحاجوننا للإنكار.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فقد ادعى اليهود والنصارى أن الأنبياء من بني إسرائيل كانوا على دينهم ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي بلغهم يا محمد ذلك أي الله أعلم منكم فقد برأ إبراهيم من أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، والمذكورون من الأنبياء تبع له وهو أبوهم وهم على دينه. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرأون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين الإسلام. وإن محمدًا رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، ثم كتموا الشهادة شهادة الله عندهم من ذلك ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد شديد، أي إن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه بما تستحقون جزاءً وفاقًا.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة لهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله، واتباع رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين، لاسيما بخاتم الرسل والأنبياء نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما مجرد الانتساب بلا متابعة بالعمل، لا ينفع إلا بما انتفع به ابن نوح الذي كان من المغرقين.

مجرد الانتساب للأنبياء بلا متابعة لا ينفع إلا بما انتفع به ابن نوح الذي كان من المغرقين

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

٢٢

(١٤٢) ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ وهم مشركو العرب وأحبار اليهود والمنافقون هؤلاء جميعًا لأن الآية عامة ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ أي ما صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس الذي كانوا يستقبلونه، وقد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال بيت المقدس منذ كان بمكة فكان يصلي بين الركنين فيضع الكعبة بينه وبين بيت المقدس، أي يقف في الجهة الجنوبية من البيت فيما يسمى اليوم (باب الوداع) ويتجه شمالًا إلى بيت المقدس فتكون الكعبة بين يديه. فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس معًا فاستقبل بيت المقدس بأمر الله، وهذا ما قاله ابن عباس والجمهور ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ ويعني الجهات كلها وله تعالى أن يأمر بالتوجه إلى أية جهة يشاء دون اعتراض عليه ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى الطريق الحق.

(١٤٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خيارًا، كما يقال: محمد وسط في قومه أي أشرفهم نسبًا. والله جعل أمته خيارًا وعدولًا ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يوم القيامة بأن الرسل جميعًا بلغوا أممهم رسالاتهم ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أنه بلغكم أن الرسل جميعًا قد بلغوا أممهم الرسالات. وفي الحديث: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: الوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم» [٤٨]. ومن حديث لأحمد بزيادة: «... فيدعى محمد وأمته فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاء نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا...» [٤٩]. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ أي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي ليظهر حال ﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ أي يطيعه، ويستقبل معه القبلة حيثما توجه. ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي يرتد عن دينه. وقد ارتد لذلك جماعة ﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي وإنها ﴿كَانَتْ﴾ أي التولية إليها، ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي عظيمة في النفوس ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وسبب نزولها أن المسلمين قالوا: يا رسول الله أرأيت إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فنزلت هذه الآية [٥٠] ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ أي بالمؤمنين ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في عدم إضاعة أعمالهم.

(١٤٤) ﴿قَدْ﴾ للتحقيق ﴿نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ متطلعًا إلى نزول وحي باستقبال الكعبة لأنها قبلة إبراهيم ولأنه أدعى لإسلام العرب ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي تحبها ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ في الصلاة ﴿شَطْرَهُ﴾ أي إلى جهته ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي التوجه إلى الكعبة، لذكر ذلك في كتبهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من إنكار ما في كتبهم من أمر القبلة. وقد وصف رسول الله ﷺ الذين سمعوا بتغيير القبلة إلى الكعبة وتحولوا فورًا إليها وهم في الصلاة بقوله: «... أولئك قوم يؤمنون بالغيب» [٥١]، من حديث نويلة بنت مسلم عن ناس كانوا في مسجد بني حارثة. وهو الآن مسجد القبلتين.

(١٤٥) ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ على صدقك ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ عنادًا ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ لأمر الله بتحويلها إلى المسجد الحرام. وقد يكون المعنى: ما أنت تابع دينهم ولا هم تابعون دينك ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي اليهود والنصارى لا يتبعون قبلة بعض ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الخطاب للرسول والمراد أمته.

الأمر باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، محمد وأمته يشهدون للأنبياء بتبليغ رسالاتهم

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ
فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ
أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

٢٣

(١٤٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي يعرفون محمدًا ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي ما في كتبهم من صفات رسول الله ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

(١٤٧) ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ما جئت به هو الحق لا مرية فيه ولا شك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكين وهو معصوم من ذلك، ولكن كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥] فهل يشرك؟ الجواب: مستحيل عليه ذلك ولكن على فرض وقوع المستحيل يكون الجزاء إحباط العمل، فإن وقع ذلك من أمته فيكون إحباط العمل من باب أولى، ومن المعلوم: أن الشرط لا يفيد الوقوع، وقيل: لا تكونن يا محمد في شك من أن الكعبة قبلتك وقبلة الأنبياء قبلك.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي لكل أهل دين قبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ وجهه في صلاته ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي بادروها ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يجمعكم يوم القيامة فيجازي كلًّا بعمله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على جمعكم وإن تفرقت أجسادكم.

(١٤٩) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ لسفر أو غيره ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مهما اختلف نوع العمل.

(١٥٠) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ كرره للتأكيد، وليحسم طمع أهل الكتاب في رجوع المسلمين أبدًا إلى قبلتهم وليكون الأول: لمن يشاهد الكعبة، والثاني: لمن هو في مكة، والثالث: لمن هو في بقية البلدان ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي لأهل الكتاب والمشركين ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي احتجاج، ولا يكون لأحد عليكم كلام ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي المشركون الذين قالوا: لماذا يرجع عن توجهه إلى بيت المقدس وهو على ما يزعم على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه؟ والجواب: أن رسول الله ﷺ مطيع لله في جميع أحواله، فلما أمره بالتوجه إلى بيت المقدس فأطاع ولما أمره بالتوجه إلى الكعبة؛ فأطاع، وأمته تابعة له ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ بامتثال أمري ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ بالهداية إلى معالم دينكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق الذي ضلت عنه الأمم وهديناكم إليه وهو استقبال الكعبة وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها ولله الحمد.

(١٥١) ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ متعلق بـ(وَلِأُتِمَّ) أي إتمامًا كإتمامها بإرسالنا. ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ محمدًا ﷺ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي آيات القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي يطهركم من دنس الشرك إلى طهارة التوحيد ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي السنّة الصحيحة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ من العلوم النافعة في الدنيا والآخرة.

(١٥٢) ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بجميع التكاليف، مقابل النعم التي أنعمتها عليكم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ أي اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي. وفي الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» [٥٢]. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ نعمتي بطاعتي ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بالمعصية فإنها جحود للنعمة. وفي الحديث: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه» وفي رواية: «على عبده» [٥٣].

(١٥٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟﴾ على الطاعات وتحمل المصائب ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ على فعل الطاعات والقربات توسلًا بها إلى الله أمل استجابة الدعاء. وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى» [٥٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بالعون والغوث والاستجابة وهو السميع المجيب.

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

٢٤

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم ﴿أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَآءٌ﴾. وسبب نزول هذه الآية: أن المؤمنين كانوا يقولون: مات فلان ببدر، مات فلان بأحد، فنزلت. ورُفع (الأموات) بإضمار مكنًى من أسمائهم. أي لا تقولوا: هم أموات. وإنهم وإن كانوا أمواتًا من حيث خروج الأرواح من أجسادهم، إلا أنهم أحياء عند ربهم يرزقون. كما جاء في صحيح مسلم: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من خلقك ثم عاد عليهم بمثل هذا... فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يَسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى -لما يرون من ثواب الشهادة- فيقول الرب جلَّ جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون» [٥٥]. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي لا تحسّون بما هم فيه من حياة وقرة أعين.

(١٥٥) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ من العدو ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ القحط فإن الجائع والخائف يظهر عليهما ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ أي ذهاب بعضها ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع، فمن صبر أثابه، ومن قنط أحلَّ به عقابه. ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي على البلاء بالجنة.

(١٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ تسلّوا بأن ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي إنهم عبيده يفعل بهم ما يشاء وراجعون إليه في الآخرة فلا يضيع لهم مثقال ذرة.

(١٥٧) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي مغفرة ونعمة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ إلى الحق والصواب. قال عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم، وزيدوا أيضًا.

(١٥٨) ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ هما الجبلان اللذان في أول المسعى وآخره يسعى بينهما في العمرة والحج هما ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ وإنهما من أركان الحج، للحديث: «اسعوا فإن الله قد كتب عليكم السعي» [٥٦]. ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي يسعى بينهما سبعًا ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي من يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، قاله الرازي. فيثيبه الله على القليل بالكثير.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ على الناس ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ كآية الرجم، ونعت محمد ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يطردهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي الملائكة والجن والإنس ودواب الأرض.

(١٦٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي رجعوا عن ذلك ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي عملهم ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ أي ما كتموا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي أقبل توبتهم.

(١٦١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ حال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وإن أهل دينه يلعنونه أيضًا في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

(١٦٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة في الدنيا والآخرة أي في جهنم ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ طرفة عين ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون لتوبة.

(١٦٣) ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قال ابن عباس: إن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فنزلت هذه الآية وسورة الإخلاص. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والإله: معناه المعبود، أي لا معبود في الأرض ولا في السماء بحق إلا الله، ويخطئ من يفسره بغير ذلك.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ
بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِذْ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ (١٦٥)
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ
أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ (١٦٧)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

المخلوقات تدل على الخالق، لا أضل ممن يدعو من لا يستجيب له

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما وما بينهما من المخلوقات ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ جيئة وذهابًا وطولًا وقصرًا، وتعارضهما في ذلك صيفًا وشتاءً ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ سابحة جارية عائمة ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من المعايش ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي تنبت بعد اليبس ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي ونشر فيها الدواب من كل نوع، يعلم مستقرها ورزقها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ في كل جهة، رحمة أو عذابًا ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ بإذنه تعالى يسير حيث يشاء ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي عائم في الفضاء ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ ناطقة بموجد هذه المخلوقات، تدل على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يتدبرون، ويفهمون ويطبقون، وإن قريشًا سألت رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا... فنزلت هذه الآية التي تنطق بأشياء هي أعظم من أن يجعل الصفا ذهبًا، وهم يعلمون أن الذي خلق هذا هو الله وحده، ومع ذلك لم يوحّدوه!

(١٦٥) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أي أمثالًا له، وفي الحديث: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك» [٥٧]. ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي يسوُّون بين الأصنام وبين الله تعالى في المحبة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من المشركين الذين أشركوا به ولو أخلصوا الحب لأفردوه بالعبادة كالمؤمنين الذين وحّدوه ولم يعبدوا معه أحدًا. ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾ أي أشركوا ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة كلها لله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ لمن اتخذ من دونه أندادًا. و(أنّ) وما بعدها سدَّت مسدَّ مفعولي (يرى)، وجواب (لو) محذوف. أي لو علموا في الدنيا عذاب الله لما اتخذوا من دونه أندادًا.

(١٦٦) ﴿إِذْ﴾ بدل من (إِذْ يَرَوْنَ) ﴿تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا﴾ أي رؤوس الكفر ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ أي غوغاؤهم الذين أنكروا إضلالهم ﴿وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطف على (تَبَرَّأَ) ﴿بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ من مودة ورحم كانت في الدنيا.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ عودة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي من القادة ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ في الآخرة و(لو) للتمني، و(نتبرأ) جوابه ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ كذلك يريهم الله سيئاتهم تلهفاتٍ وندامات على ما فرّطوا في الدنيا من الكفر والشرك، فكان مصيرهم إلى الخلود في قرار الجحيم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أبدًا.

(١٦٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي حلالًا، حال، وطيبًا صفة. أي رزقًا ليس فيه سحت ولا ربا، وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إن كل مالٍ منحته عبادي، فهو لهم حلال -وفيه- وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم» [٥٨]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي ما يسوِّله لكم ويزينه في نفوسكم كالذبح والنذر لغير الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، ونزلت هذه الآية في بني ثقيف وخزاعة وبني عامر بن صعصعة فيما حرَّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام وحرّموا البحيرة والسائبة والواصلة والحام.

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إنما يأمركم عدوُّكم الشيطانُ بالأفعال السيئة وأغلظ منها الفاحشة كالزنا، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضًا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

٢٦

الطعم الحلال سبب لتقبل الدعاء، والحرام بالعكس • من اضطر فلم يأكل ثم مات دخل النار

(١٧٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي الكفار: ﴿ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من التوحيد، وتحليل الحلال وتحريم الحرام ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي ما وجدناهم عليه من عبادة الأوثان، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أيتبعونهم في أخطائهم وافتراءاتهم، والهمزة للإنكار.

(١٧١) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ أي يصيح ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ كمثل البهائم يصيح بها الراعي ولا تفقه ما يقول ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم في تركهم قبول ما يسمعون بمنزلة الذي لا يسمع ولا يجيب ولا يرى فلا يعقل ما يقال له.

(١٧٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ لأن أكل الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الحرام يمنع ذلك القبول. وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «أيها النّاس إنّ الله طيّبٌ، لا يقبلُ إلّا طيبًا، وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمرَ به المرسلين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، ثم ذكر الرجُلَ يطيلُ السَّفرَ، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديهِ إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ! ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذيَ بالحرام، فأنّى يُستجابُ لذلك» رواه مسلم [٥٩]. ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما أحلَّ لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي توحدونه في عبادتكم ولا تشركون به شيئًا.

(١٧٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي أكلها وهي ما لم يذكَّ شرعًا ﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح. أما الذي يبقى في خلل اللحم بعد الذبح وما يبقى في العروق، فهو مباح ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ والمراد جملته وخصّ اللحم لأنه معظم المقصود ذكرًا وأنثى[1] ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما كانوا يفعلونه لآلهتهم وما يفعله بعض الجهال في زمننا هذا، فيهلون ذبائحهم لأصحاب القبور من الصالحين بغية الشفاء ورد الغائب وقضاء الحاجة مما هو من الشرك الأكبر والعياذ بالله تعالى، وإننا نهيب بالعلماء أن يركزوا في مواعظهم ودروسهم على هذه الناحية من حماية العقائد من الفساد وليعلم أن الجهل ليس عذرًا عند الله وسكوت العلماء مفسدة للجهلة، ومظنة منهم أن هذا العمل جائز ولولا جوازه ما سكت العلماء عنه والسكوت إقرار... وفي الحديث: «لعن الله من ذبح لغير الله» [٦٠]، لأنه أشرك الشرك الأكبر وصاحبه مخلد في النار ولا ينفع معه أي عمل صالح. كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير خارج على الشريعة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي ولا متعد حدود الشرع بذلك ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فيما أكل من هذه المحرمات لأنه مضطر بدافع الجوع وما يشبهه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمتمسّكين بشريعته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بأهل طاعته. قال مسروق: من اضطر فلم يأكل فمات دخل النار، ولا يجوز له الشبع.

(١٧٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في اليهود، كتموا اسم النبي ﷺ وغيّروه في كتابهم ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي ما يصيبونه من أتباعهم من عرض الدنيا ﴿أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي أن ما يأكلونه في مقابل كتمان الحق، نار تأجج في بطونهم يوم القيامة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لغضبه عليهم لكتمانهم الحق بعد العلم به ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا يثني عليهم بل يعذبهم عذابًا أليمًا.

(١٧٥) ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي اعتاضوا بالضلالة عن الهدى ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي اختاروا العذاب على المغفرة ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي ما أجرأهم عليها!!!؟

(١٧٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه بكتمانه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي الذين قالوا: إنه سحر أو شعر أو إنما يعلمه بشر ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي في خلافٍ بعيد عن الحق.

(١) باستثناء إهابه -أي جلده- لقوله ﷺ: «أيّما إهاب دُبغ فقد طهُر».

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى
بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ
بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

٢٧

العدل في القصاص، لا يقتل مسلم بكافر، تقتل الجماعة بالواحد، يقتل من قتل بعد أخذه الدية

(١٧٧) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي ليس في التَّوجُّه نحوهما برٌّ ولا طاعة إن لم يكن ذلك عن أمر الله وشرعه ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي الكتب المنزلة جميعًا ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي وهو راغب فيه. وفي الصحيحين: «أفضل الصدقة، أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر» [٦١]. ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ أي قرابة المتصدق. وفي الحديث: «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة» [٦٢]. فهم أولى الناس بك وببرّك وعطائك. ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي المنقطع في السفر ﴿وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي مكاتبين يُعانُون بها يُعتقون، أو أنهم عبيد يُشترون بهذا السهم ويُعتقون ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ فريضة وتطوعًا ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ الله والناس ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نصبت على المدح ﴿فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي في الفقر والمرض ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت شدة القتال في سبيل الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي صدقوا ربهم في جميع أعمالهم وماتوا وهم على ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي المتقون لمحارم الله والطائعون له.

(١٧٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ أي فُرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ وهو مقابلة الفعل بمثله ﴿فِي الْقَتْلَى﴾ صفةً وفعلًا: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ أي يقتل به ولا يقتل بالعبد ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ وروى أبو مالك أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وما دونها، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد كذلك... وكما أن السنَّة بينت أن الذكر يقتل بالأنثى وأبقت المماثلة في الدين فلا يقتل مسلم ولو عبدًا بكافر ولو حرًا. لحديث: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» [٦٣]. ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي من دم أخيه ... أي أعفوه من القتل، ورضوا بالدية منه، وفي ذكر أخيه دلالة على أن القاتل لم يخرج عن الإسلام، و(من) من قوله (فمن) مبتدأ شرطية أو موصولة. والخبر ﴿فَاتِّبَاعٌ﴾ أي فعلى العافي اتباع القاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي مطالبته بالمعروف ولا رهقة فيها ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي المطالَب بأن لا يبخس ولا يماطل ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي تسهيل منه بكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بكم حيث وسَّع ولم يحتم كما حتَّم على أهل الكتابين. ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ أي ظلم القاتل بأن قتله ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العفو وأخذ الدية ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم في جهنم أو في الدنيا بالقتل. وفي الحديث: «لا أعافي رجلًا قتل بعد أخذ الدية»(١) [٦٤]. وكذلك يقتل الجماعة بالواحد، وهو مذهب الأئمة.

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أي إذا علم الرجل أنه إذا قتل قُتل، أمسك عن القتل، فكان في ذلك حياة للأمة جميعًا ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي يا ذوي العقول المستقيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل، مخافة الله ثم القَوَد.

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ قبل أن تنزل آية المواريث كانت الوصية ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي إن ترك مالًا. ورُفعت الوصيةُ بـ(كُتِبَ) ومتعلق بـ(إذا) إن كانت ظرفية، ودال على جوابها إن كانت شرطية ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل، وهذا منسوخ بآية الفرائض التي جعلت المواريث فريضة من الله لأهلها حتمًا من غير وصية ولا تحمُّل منَّة الموصي، وفي الحديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقَّه، فلا وصية لوارث» [٦٥]. وقيل: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث. فالوالدان يرثان قطعًا فلا وصية لهما بنص هذا الحديث، لأن الله قد أعطى كل ذي حق حقَّه، بقي الأقرباء الذين لا يرثون فيستحب أن يوصي لهم من الثلث استئناسًا بآية الوصية وشمولها، وقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي فرضًا على الذين يرجون ثواب الله ويخافون عقابه.

(١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ ما لم يكن في الوصية جور أو مخالفة للشرع فتبدل بحسب الشرع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بقول الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعل المبدِّلين.

---

(١) فيه ضعف.

(١٨٢) ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ أي ميلًا عن الحق خطأ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بأن تعمد زيادة الوصية عن الثلث أو قصر عن الحق أو أوصى لوارث شيئًا ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي فأصلح الوليُّ بين الوصي والموصى له بأن رد الوصية لكتاب الله وسنة نبيه ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تغيير وتبديل الوصية إلى الحق والعدل، وهذا ليس من التبديل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي الحديث من الصحيحين: يا رسول الله إنّ لي مالًا ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا»، قال: فبالشطر؟ قال: «لا»، قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكفَّفون الناس» [٦٦].

(١٨٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي فرض عليكم ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تكفُّون الأنفس عن الشهوات والمفطرات، لأن في الصوم تزكية البدن.

(١٨٤) ﴿أَيَّامًا﴾ أي كتب عليكم الصيام أيامًا ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي ذات عدة قليلات، فقد كان الصوم في ابتداء الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي، وقد كان مفروضًا عليهم في هذه الأيام إذا صلى أحدهم العشاء ونام حَرُم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي أن المريض والمسافر يفطران ويقضيان بعدّة ذلك أيامًا أخر، وأما الصحيح المقيم، فإن شاء صامَ، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ ولكن بجهد كبير وفي غاية الطاقة، لكبر أو مرض ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي قدر ما يأكله في يومه وهو مدّ من غالب قوت البلد لكل يوم. وكانوا مخيّرين في أول الأمر بين الصيام والإطعام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي زيادة على قدر الإطعام المعلوم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟﴾ مبتدأ وخبره: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإفطار والفدية هذا كله متعلق بصيام الأيام المعدودات الثلاثة من كل شهر في أول الأمر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم نسخ صيام الأيام بقوله تعالى:

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ﴿هُدًى﴾ حال؛ أي هاديًا من الضلالة ﴿لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ﴾ أي آيات واضحات ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي مما يهدي إلى الحق من الأحكام وما يفرق بين الحق والباطل ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ أي رأى، أو حضر ﴿مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي عليه صيامه وهذا هو الناسخ لما جاء في الآية السابقة. فالنسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، وأما الشيخ الفاني الهرم،

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ
يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ
لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

٢٨

فيفطر ويفدي عن كل يوم إطعام مسكين. ويلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فله أن يفطر، وعليه عدة ما أفطره. ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي إنما رخَّص بالفطر في حالة المرض والسفر مع تحتّمه في حق المقيم الصحيح تيسيرًا عليكم ورحمة بكم ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي عدة صوم رمضان. ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عند إكمالها ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أرشدكم لمعالم دينه وهداكم إليها. وفي الصحيح: «إذا دخل رمضان فُتّحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسُلسلت الشياطين» [٦٧].

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ منهم بعلمي ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ بالطاعة ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ ويستقيموا على ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي يكونون أصحاب رشد وحكمة، وهذا إرشاد إلى الدعاء كما في الحديث، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعواتٍ مستجاباتٌ: دعوةُ الصَّائم، ودعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر» رواه البيهقي [٦٨].

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ
وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ
إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم
بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ
أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ
بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ
وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

(١٨٧) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي أحل لكم بعد الإفطار من كل يوم جماعهن وكان قبلًا إذا صلى العشاء حُرِّم عليه الطعام والشراب والنساء إلى الليلة القابلة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي كل منهما يخالط الآخر ويماسُّه ويضاجعه فناسب أن يُرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تجامعونهن وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي الولد ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الليل كله ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي إلى أن يتبيَّن ضياء الصبح من سواد الليل وليرتفع الالتباس. ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ﴾ من الفجر ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكمًا شرعيًا ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي مقيمون بنيَّة الاعتكاف في المساجد. فقد كان المعتكفون في المساجد، يخرجون منها ويجامعون نساءهم إن شاؤوا حتى نزلت هذه الآية، فمُنعوا من ذلك ليلًا أو نهارًا حتى يقضوا اعتكافهم ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الذي بينّاه وفرضناه هو حدود شرعه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي فلا تتجاوزوها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي أحكامه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يهتدون إلى الحق والنور فيتقون محارمه. وفي الحديث: إنه كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ ثم اعتكف أزواجه بعده. أخرجاه [٦٩].

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي يكون على الرجل دين وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكّام، وهو يعرف أنه مبطل. وفي الصحيحين: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضيَ له فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هي قطعةٌ من نار فليحملها أوْ ليذرها» [٧٠]. ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ رشوةً إليهم ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ متلبسين ﴿بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون إنما تأكلون حرامًا وستَصْلَون يوم القيامة نارًا، فدلّت الآية والحديث على أن حكم الحاكم لا يغيّر الشيء في نفس الأمر فلا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، وإنما هو ملزم في الظاهر فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلاّ فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره.

(١٨٩) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال، أي عن أحوالها أيام الشهر تتقلب من وضع إلى وضع، ولا تكون على حالة واحدة كالشمس ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يعلمون بها أوقاتهم وعِدَد نسائهم، وصيامهم، وإفطارهم ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ أي بها يُعلم وقت الحج، فلو استمرت على حال واحدة لم يعرف ذلك ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وكانوا في الجاهلية إذا أحرموا أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله هذه الآية. وكانوا يزعمون ذلك برًا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الله بترك مخالفته ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تفوزون وتنجحون بدخولكم الجنة.

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ وهذه أول آية نزلت في القتال في المدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كفَّ عنه ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ كما في صحيح مسلم: «اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع» [٧١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي المتجاوزين ما حدَّ لهم وأما الكف عمن لم يقاتلنا فمنسوخ بـ ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] و﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ
فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ
ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ
بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ
عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ
وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ
فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ
ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ
مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ
فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ
إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي
ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

(١٩١) ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي وجدتموهم ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ أي من مكة ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ أي الشرك ﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ أي أعظم منه ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي في الحرم كله، لتحريم القتال فيه، إلاَّ ساعة رَخَّصَ الله فيها لرسوله فَحسب يومَ الفتح، ولا يحل القتال من بعدُ في الحرم إلى يوم القيامة ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ فيه ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ فيه ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قتلًا وإخراجًا.

(١٩٢) ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الشرك والقتال وأسلموا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي يغفر لهم، ويرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء.

(١٩٣) ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي حتى يَمَّحي الشرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي تكون العبادة خالصة له ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي عن الشرك ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن من وحَّد ليس بظالم فلا عدوان عليه. وفي الصحيحين: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم على الله» [٧٢].

(١٩٤) ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي دخولكم الحرم(١) كان في ذي القعدة بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه عام الحديبية وهو ذو القعدة ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ أي كما صدوكم في ذي القعدة اقتصصت لكم منهم فأدخلتكم الحرم في ذي القعدة ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي في الحرم أو الشهر الحرام ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ إنما سُمي اعتداءً بالمقابلة وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي لا تبدأوهم بقتال في الحرم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالنصر.

(١٩٥) ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أموالكم في الجهاد ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ أي ترك الجهاد والنفقة في سبيل الله تهلكة لكم، وتقوية لأعدائكم. وليس خوض القتال ولو بمفرده تهلكة ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي إن الله يحب المنفقين في سبيله ويثيبهم على إحسانهم.

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾ أي لوجهه تعالى ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ أي منعتم من إتمامها ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ وهو ذبح شاة ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي لا تتحللوا حتى تفرغوا من أعمال الحج والعمرة، وذلك لمن كان قارنًا، أو من فعل أحدهما إن كان مفردًا أو متمتعًا؛ لما في الصحيحين عن حفصة قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلّوا من العمرة ولم تَحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إني لبَّدتُ رأسي وقلَّدتُ هديي فلا أحل حتى أنحر» [٧٣]. ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ كقمل أو صداع فحلق في الإحرام ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ﴾ أي ثلاثة أيام ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ بثلاثة أصوع من غالب قوت البلد على ستة مساكين ﴿أَوۡ نُسُكٖ﴾ أي ذبح شاة، ومتعمد الحلق والاستمتاع بالطيب واللبس أولى بالكفارة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ أي من العدو أو لم يكن ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ أي في أشهر الحج ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ وهو شاة، يذبحها في منى أو مكة. ووقت نحر الهدي يبدأ يوم العاشر من ذي الحجة ويومان أو ثلاثة أيام بعده، ولا يجوز قبل أو بعد أيام النحر لأنه عبادة معينة الزمان والمكان وقيل: شهر ذي الحجة كله.

ولا شك أن التمتع أفضل من القران والإفراد إن لم نقل أنه واجب كما قال ابن عباس وابن عمر وغيرهما من السلف والخلف، فنحن إلى قولهم أميل لحديث سراقة بن مالك: يا رسول الله، أرأيت عمرتنا هذه ألِعامنا هذا أم لأبد الأبد؟ فقال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة لا بل لأبد أبد، لأبد أبد، لأبد أبد. وشبك بين أصابعه» [٧٤]. ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ هديًا لفقده أو فقد ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ في العشر أو أيام التشريق ﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ إلى أوطانكم ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي ليس من سكانه، أما سكّانه فلا دم عليهم ولا صيام وإن تمتعوا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره.

(١) أي يوم فتح مكة.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن
تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ
عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ
لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

الإحرام بالحج في أشهر الحج، الرفث والفسوق والجدال فيه حرام

(١٩٧) ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ وهي: شوال وذو القعدة وعشر ليال من أول ذي الحجة. وقيل: كل ذي الحجة. فلا ينعقد إحرام بالحج إلا في أشهر الحجّ كميقات الصلاة فكما أنّ الصلاة لا يصحُّ أداؤها إلا بدخول وقتها فكذلك لا يصح أداء الحج إذا لم يدخل وقته أو إذا خرج ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي أوجب بإحرامه حجًا ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي لا جماع، ولا ما دونه مما يؤدي إليه من لمس جسد أو كلام فاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي معاص ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ أي خصام ﴿فِي الْحَجِّ﴾ أي إبّان الحج ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أيًا كان نوع هذا الخير ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي يعلمه وسيجزي فاعله أوفر الجزاء. وقد نزلت هذه الآية في أهل اليمن وكانوا يحجون بلا زاد فيكونون كَلًّا على الناس ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أمر منه تعالى بحمل الزاد للحج ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ لما أمرهم بزاد الدنيا أرشدهم كذلك إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها. ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي احذروني وتجنبوا موجبات غضبي وعذابي يا ذوي العقول والأفهام، وعذابي إنما هو لمن خالفني.

(١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي رزقًا بالتجارة بالحج. وعن أبي صالح مولى عمر قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أكنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلاّ في الحج؟! ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ أي عند المزدلفة، وفي الحديث: «إنه ﷺ وقف به يذكر الله ويدعو حتى أسفر جدًا» [٧٥]. ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ لمعالم دينه، ومناسك حجه. ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ﴾ أي قبل هداه ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن هذه المناسك. وهذا تنبيه لهم على ما أنعم الله عليهم به من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج ومعرفتها.

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ يا قريش لأنها كانت تترفع على الناس فلا تفيض من عرفة بل من المزدلفة ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي أفيضوا من عرفة مكان إفاضة الناس ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من ذنوبكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمؤمنين المتقين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ أي فرغتم من ﴿مَّنَاسِكَكُمْ﴾ أي رميتم جمرة العقبة. وطفتم بالبيت وعدتم إلى منى ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالحمد والثناء والتكبير والتهليل ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ أي كما كنتم تفاخرون بآبائكم عند الفراغ من الحج، فقد كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، ويحمل الديات. ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على رسوله محمد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. و﴿أَوْ﴾ ههنا بمعنى (بل) ﴿أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ من ذكركم آباءكم ثم أرشد تعالى إلى دعائه بعد كثرة ذكره، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي حسنة دنيوية، فيُؤتى منها ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي من نصيب؛ لأنه طلب حسنة دنيوية، ولم يردها أخروية.

(٢٠١) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي إن هذه الدعوة جمعت كل خير في الدنيا وصرفت كل شر فيها بإذنه تعالى، وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى من ذلك جميعًا وهي دخول الجنة بعد الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب وقد وردت السنَّة بالترغيب بهذا الدعاء الجامع الشامل.

(٢٠٢) ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي عملوا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي في محاسبته للخلائق، قيل: في قدر نصف نهار من أيام الدنيا. وإن هذه الآية جاءت جوابًا من الله للذين قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فقال الله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي يعطي كل ذي حق حقه، ويزيد المؤمنين خيرًا كثيرًا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ من النعيم المقيم.

۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي
يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ
عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ
رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا
فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ
مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

(٢٠٣) ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات، وعند رمي الجمرات، وعند ذبح الهدي والأضاحي ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق: يوم النحر وثلاثة بعده وعليها دلّ ظاهر الآية ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر أي من استعجل بالنفر من منى في يومين أو من تأخر حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره فلا إثم عليه في ذلك وهو مخير، والمبيت ليلة الثالث أفضل، لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الله في حجه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي واتقوا حرماته لأنكم ملاقوه يوم القيامة.

(٢٠٤) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نزلت في نفر من المنافقين، تكلموا في خُبيب وأصحابه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧] الآية... وقيل: هما عامتان في المنافقين والمؤمنين. وأن الآية قد تنزل في الرجل، ثم تكون عامة فيها بعد ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه مؤمن صادق، وفي الحقيقة أنه كاذب ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي شديد الخصومة لك ولأتباعك، وهو الأخنس بن شريق فأكذبه الله تعالى.

(٢٠٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فقد مرَّ الأخنس بزروع وحمر لبعض المسلمين فأحرق الزروع، وعقر الحمر. وكان الأخنس منافقًا، حلو الكلام للنبي ﷺ يحلف أنه مؤمن ومحب له ولكن الله تعالى فضحه وأكذبه. وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [٧٦]، وروى البخاري عن عائشة مرفوعًا: «إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» [٧٧]. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ ويشمل كل أنواع الفساد دنيا وآخرة.

(٢٠٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي إذا قيل لهذا الفاجر ووعظ: ارجع إلى الحق ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي امتنع وأبى وحملته الأنفة والحمية على العمل بالإثم الذي أُمِرَ باتقائه ﴿فَحَسْبُهُ﴾ أي تكفيه ﴿جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي المثوى هي، عقوبة له.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ أي يبيع ﴿نَفْسَهُ﴾ أي يبذلها في طاعة الله. قال ابن عباس وجمع من التابعين: نزلت في صهيب بن سنان الرومي. وذكر مقاتل أن صهيبًا قال للمشركين: أنا شيخ كبير، لا يضركم إن كنت معكم أو عليكم، ولي عليكم حق لجواري، فخذوا مالي غير راحلة، واتركوني وديني، فاشترط أن لا يمنع عن صلاة ولا هجرة فأقام ما شاء الله، ثم ركب راحلته فأتى المدينة مهاجرًا، فلقيه أبو بكر، فبشَّره وقال: نزلت فيك هذه الآية [٧٨]. وروى سعيد بن المسيب: «فلما رآه النبي ﷺ قال: ربح البيع أبا يحيى» [٧٩]. ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي بغية رضائه والفوز بثوابه.

(٢٠٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي ادخلوا في الإسلام وأطيعوا أوامره جميعًا ما استطعتم إلى ذلك سبيلًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ اجتنبوا ما يزينه لكم من الأوامر الشيطانية، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي أغشُّ عباد الله لعبيد الله الشيطان وهو ذو عداوة ظاهرة بينة.

(٢٠٩) ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما ظهر لكم وقامت عليكم حججه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه ونقضه وإبرامه.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني يوم القيامة، والمعنى: هل ينتظر تاركو الدخول في الإسلام حتى يوم القيامة، وإتيان الله صفة من صفاته العلى، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، مجيئًا حقيقيًا بلا كيف ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي تمَّ هلاكهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازي كلًّا بعمله.

التكبير بعد الصلوات وعند الرمي والذبح، ربح صهيب، متى يؤمن الكفار، إلى قيام الساعة

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ
فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ
أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ
مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

(٢١١) ﴿سَلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تبكيتًا ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ كم: أي استفهم منهم كم أوليناهم من النعم الظاهرة الجليَّة حينما كانوا في صحراء التيه، ثم سلهم أيضًا كم شاهدوا مع موسى ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ أي معجزة واضحة كالعصا والغمام، والمن والسلوى والبحر. ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ما أنعم به عليهم من الآيات لأنها سبب الهداية، ولكنهم كفروا بهذه النعمة، وأعرضوا عن الهداية ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

(٢١٢) ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والمراد أهل الكتاب والمشركون، فقد أخبر تعالى أنه زين لهم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ التي رضوا بها، واطمأنوا إليها، وأحبوها ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الذين أعرضوا عن الدنيا وزخرفها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوه ابتغاء وجهه الأعلى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مكانة ورزقًا واسعًا فاستقروا في الدرجات العلى وخُلد الكافرون في الدركات في أسفل سافلين ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاءً لا تعداد له في الدنيا والآخرة، والله لا يشاء في الآخرة رزقًا لأحد إلا إذا كان من المؤمنين الصادقين، أما الذين كفروا فما لهم في الآخرة إلا العذاب المقيم الذي لا يفتر ولا ينتهي جزاءً بما كفروا وسخروا من إيمان المؤمنين.

(٢١٣) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي على الإيمان، من آدم إلى قوم نوح عليهما السلام، فاختلفوا فتغالوا في صالحيهم فصوّروا صورهم وتوسلوا بهم إلى الله ثم عبدوهم بأن دعوهم في النائبات ليكشفوها عنهم وهم عن دعائهم غافلون ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي الأنبياء المرسلين وأولهم نوح عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى الأرض ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بأنزل ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من الدين وتصحيح مفاهيمهم نحو الدين الصحيح على مراد الله الذي أنزله ورضيه دينًا لعباده ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ فآمن بعض وكفر بعض ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم. وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض، و(مِنْ) متعلقة بـ(اختلف)، وهي ومابعدها مقدَّم على الاستثناء في المعنى. وهناك من استهدى الله تعالى باستبانة الحق في تلك الحجج وآمن بأحقيتها ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي كان الذين آمنوا من هذه الأمة على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، وفي هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن. وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بعلمه بهم وبماذا سيختارونه من الهدى أو الضلال ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من خلقه الذين رأوا الحق حقًا واتبعوه فشاء لهم الخير وثبَّتهم عليه، وهداهم: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يضل من سلكه ولا يشقى. وفي الصحيحين عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [٨٠].

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ أي مضوا من قبلكم فتُبتلُوا كما ابتلوا ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي شدة الفقر والمرض والنوائب ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ أي خُوفوا من الأعداء ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج من الضيق والشدة ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي كما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها، ويكون الفرج قريبًا.

(٢١٥) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي عما ينفقون وعلى من ينفقون ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ بيان شامل للقليل والكثير ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما جاء في الحديث: «... أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك» [٨١]. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم أحدًا أبدًا لأنه قد حرَّم الظلم على نفسه.

المؤمنون فوق الكفار والعاقبة لهم، لا بد من الابتلاء فالصبر حتى النصر

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟
شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ
وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ
أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

٣٤

فرضية الجهاد، القتال بالشهر الحرام كبير، والشرك والصدُّ عن المسجد الحرام أكبر

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي مكروه إلى طبائعكم لمشقَّته، والجهاد أوجبه الله تعالى على المسلمين ليكفُّوا شر أعداء الإسلام، وثبت في الصحيح: «من مات ولم يغزُ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية» [٨٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيَّة، وإذا استُنفِرتم فانفروا» [٨٣]. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك وهو أخبر بما فيه صلاحكم في الدارين، فاستجيبوا لأمره تعالى.

(٢١٧) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ لقد أمَّر رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش على سرية هي أول سراياه ﷺ فقاتلوا المشركين، وقتلوا ابن الحضرمي آخر يوم من جمادى الآخرة، والتبس عليهم برجب فعيَّرهم الكفار باستحلاله فسألوا الرسول ﷺ عن القتال في الشهر الحرام ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي عظيم الوزر ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دينه ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بالله ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي مكة ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا رد من الله تعالى على الكفار الذين استعظموا القتل في الشهر الحرام. أي: إن كنتم قَتَلْتُم في الشهر الحرام فقد صدُّوكم عن دين الله وكفروا به وصدوكم عن المسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله. ألا إن ما فعلوه ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ قَتْلِ مَنْ قتلتُم منهم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي فتنتهم لكم عن دينكم أكبر عند الله من قتلكم إياهم، أي إنَّ ذنبهم أعظم من ذنبكم ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ أي الكفار ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ إلى الكفر ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الصالحة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلا يعتدُّ بها وليس لهم ثواب عليها، والتقييد بالموت على الكفر، يفيد أنه لو رجع إلى الإسلام قبل الموت لم يبطل عمله السابق، فيثاب عليه ولا يعيده كالحج والصلاة والزكاة مثلًا، فإنها تعود في صفحته ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي الذين يظلون مرتدين، ويموتون كذلك، فإنهم خالدون في النار.

(٢١٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ أي فارقوا أهلهم وأوطانهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله ونصر دينه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي ثوابه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لذنوب المؤمنين، رحيم بهم، أكثر من أنفسهم. ولما تأكد عبدالله بن جحش وأصحابه أنهم سلموا من الإثم طمعوا في الأجر أيضًا وقالوا: يا رسول الله! أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطى فيها أجر المجاهدين؟ فنزلت هذه الآية جوابًا على سؤالهم.

(٢١٩) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ما حكمهما؟ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فِيهِمَآ﴾ أي في تعاطيهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي عظيم، فالخمر شربها ينقص الدين، ويؤذي الناس، ويوقع العداوة والبغضاء، وفيه تغطية العقل الذي يقع به التمييز، وأما الميسر أي القمار فيشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة، ويدعو إلى الظلم ومنع الحق ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أما الخمر ففيه منفعة البيع والربح، مع اللذة في النفس، وأما الميسر فإصابة المال من غير تعب ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي هذه المصالح لا توازي مضرتها ومفسدتها، وهذه الآية ممهدة لتحريمهما ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي ما قدره؟ ﴿قُلِ﴾ أنفقوا ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ أي ما يفضل عن حاجة الأهل. وفي الحديث: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» [٨٤]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في مصالحكم الدنيوية والأخروية.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾
وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ
يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

(٢٢٠) ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة فاجعلوا الأولى مطية للآخرة وآثروا الآخرة على الأولى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ وما يلقونه من الحرج في شأنهم، فإن واكلوهم يأثموا وإن عزلوا ما لهم من أموالهم، وصنعوا لهم طعامًا وحدهم فحرج، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم، لأن شأن الإخوان أن يتخالطوا ولا حرج عليكم في ذلك ولا بأس ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ من قصده ونيته بالمخالطة أيريد الإصلاح أم يحتال على أكل مال اليتيم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي يضيّق عليكم وشدّد بتحريم المخالطة، ولكنه وسع عليكم وخفّف عنكم بمخالطتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه فلا يضع الأحكام إلاّ في محالّها، ولا يصنع إلاّ خيرًا.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ هذا تحريم من الله عزّ وجلّ على المسلمين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، في حالة كونهنّ من عبّاد الأوثان والأصنام، إلا إذا انخلعن عن الشرك فآمنّ وأسلمن فأصبحن مسلماتٍ فلهنّ حكمهنّ من حيث جواز نكاحهنّ ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي خير من حرة مشركة، لأن سبب نزولها عيبهم على من تزوج أمة، والترغيبُ في نكاح حرة مشركة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لجمالها ومالها، وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [المائدة: ٥]، قال رسول الله ﷺ: «نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا»(١) [٨٥]، وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه فالقول به لإجماع المسلمين عليه ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ لماله وحسبه وشرف نسبه ولو كان رئيسًا سريًّا ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي يدعونكم للدخول في دينهم فتدخلون النار ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو﴾ على لسان رسله ﴿إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتّعظون ويعملون بما يوعظون.

(٢٢٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أي ماذا يفعل بالنساء في الحيض ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي قذر ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي اتركوا جماعهن في الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي ينقطع دم الحيض ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ بالاغتسال أو بالتيمم بشروطه ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي من الفرج ولا تتعدَّوه إلى غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي التوابين عما سلف المتنزهين عن الأقذار والأذى.

(٢٢٣) ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي الحرث موضع الولد ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة، ولكن في صمام واحد، أي الفرج. وفي الحديث: «مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج» [٨٦]، وفي الحديث أيضًا: «ملعون من أتى امرأته في دُبرها» [٨٧]. وكل ما نسب من إباحة ذلك إلى بعض السلف، فهي أخبار مكذوبة، موضوعة عليهم، ولقد استقصاها الذهبي رحمه الله في جزء جمعه وردَّ عليها ردًا مفحمًا ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ العمل الصالح وترك المحرمات ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم جميعًا ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين يتقون الله بَشِّرْهم بالجنة.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ أي مانعة لكم من البرّ وصلة الرحم، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منه بالتكفير ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لا تحلفوا بالله أن لا تبرّوا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنواياكم وأحوالكم. وفي الصحيح: «إذا حلف أحدكم على يمين ثم رأى خيرًا منها فليكفّر عن يمينه وليفعل الذي هو خير» [٨٨].

(١) فيه ضعف، ولكن عدم وجود نص في الآية على حل نسائنا لأهل الكتاب لدليل واضح على حرمتهنّ عليهم وهذا يقوي جانب احتمال صحة الحديث فيكون الحديث مفسرًا للآية.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ
فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ
فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ
بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٣٦

(٢٢٥) ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي لا يعاقبكم على الأيمان اللاغية وهي التي لا يقصد الحالف فيها الحلف كما في الصحيح عن عائشة: «اللغو في اليمين، هو كلام الرجل في بيته: كلاّ والله، وبلى والله»[(١)] [٨٩]، وكما في قوله عليه السلام: «لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الرب عزّ وجلّ، ولا في قطيعة رحم، ولا فيما لا تملك» [٩٠]، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي لا يعاقب على اللغو في اليمين فهو الغافر للغو، والحليم الذي لا يستفزه الغضب فيعجل.

(٢٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ الإيلاء: الحلف. فإذا حلف الرجل ألّا يجامع زوجته، فلا يخلو أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها: فإن كانت أقلّ فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالعودة إلى الجماع. فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة الحق في مطالبة زوجها أن يجامع أو يطلّق، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي ليس للزوج أن يمتنع أكثر من ذلك من حين الحلف ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي رجعوا إلى الجماع ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما أتوه من ضرر المرأة بالحلف ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم. والإيلاء يخص الزوجات دون الإماء.

(٢٢٧) ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ فيه دليل على أن الإيلاء لا يعدُّ طلاقًا بمجرد مضيّ الأربعة أشهر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لقولهم حين عزموا الطلاق عليم بعزمهم.

(٢٢٨) ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي ينتظرن فلا يتزوجن قبل المكوث ثلاثة قروء، والحرة والأمة سواء في العدة لتوافق الجبلّة والفطرة بينهما (وحديث القرأين) للأمة فهو من كلام القاسم بن محمد، والقرءُ بفتح القاف قيل الطهر وقيل الحيض، وهذا في المدخول بهن، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن، وفي غير الآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر، والحوامل: فعدتهن أن يضعن حملن. والقول بأن القَرْء هو الحيض أحوط، إذ لا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة وهذا مرويٌّ عن أكابر الصحابة وفيهم الخلفاء الأربعة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الحمل والحيض ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي بمراجعتهن ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ بينهما لا إضرارًا بالمرأة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١] على صحة الرجعة ﴿وَلَهُنَّ﴾ على الأزواج ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ من الحقوق كالطعام والكساء ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي المعاشرة الحسنة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي فضيلة نفقة المهر والإعاشة. قالت ابنة سعيد بن المسيّب: ما كنّا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة.

(٢٢٩) ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ وهذا بعد أن كان الرجل أحقّ برجعة زوجته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي بلا إضرار ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي محسنًا إليها ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي تضايقونهن ليرجعن لكم مهورهن ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي حقوق كل منهما للآخر ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ نفسها فلا حرج عليه أن يأخذه، ولا عليها بإعطائه ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي أحكامه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم ومُرْدوها العذاب.

(٢٣٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ بعد الطلقتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي بعد الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي شرعيًا لا محلِّلا، ويطأها، لا بمجرد العقد ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ إلى نكاح الأول بعد نهاية عدة الثاني ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي الحقوق بينهما ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ويطبقون.

(١) صح وقفه.

أكثر الإيلاء أربعة أشهر، معنى القروء، لا خلع إلا في نشوز، الخلع فسخ لا طلاق

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ
وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ
ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٣٧

(٢٣١) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن أن تنتهي عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي راجعوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بلا ضرر ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي بإحسان إليهن على أن يقضين عدتهن في منازلكم ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ أي بالرجعة ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ أي إذا قارب انقضاء عدة المرأة راجعها زوجها ضرارًا لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، وهكذا تطول عليها عدتها ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بمخالفته أمر الله وتعريض نفسه إلى انتقامه سبحانه وتعالى منه ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي لعبًا. وفي الحديث: «ثلاثٌ جدهنَّ جد، وهزلهن جد: الطلاق والنكاح والرجعة» رواه أبو داود والترمذي [٩١]. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ في إرساله رسوله إليكم ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي السنة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي يأمركم وينهاكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي فيما تأتون، وفيما تذرون ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ولتعلموا علمًا يقينًا بأن الله لا يخفى عليه سركم ولا جهركم.

(٢٣٢) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي يا أيها الأولياء لا تمنعوهن من ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ المطلقين لهن. وفيه دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وأنه لا بد لها من وليّ ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بالنكاح الصحيح ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الموعظة للأولياء وحتى لا يمنعوا الزوجات من العودة إلى أزواجهن، وترك الحميّة في ذلك ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي الخيرة فيما تأتون وما تذرون ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فاتبعوا ما تؤمرون.

(٢٣٣) ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي عامين تامين، وذلك ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ ولا اعتبار لزيادة الرضاعة بعد ذلك. وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، وفي الحديث: «لا يُحرِّمُ مِنَ الرضاعة إلاّ ما فتقَ الأمعاء في الثّدي، وكان قبلَ الفطَام» [٩٢]. ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي إطعام الوالدات ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ على الإرضاع إذا كُنَّ مطلقات ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بقدر طاقته وبما يستطيع ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي بدفعه عنها، لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللباء، الذي لا يعيش بدونه غالبًا، وتدفعه عنها إذا شاءت على أن لا تكون مضارة لأبيه ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ كما لا يحل للأب انتزاعه منها لمجرد الضرار بها. قاله جماعة من التابعين وغيرهم ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ أي وارث الوالد وهو الصبي أي على وليّه في ماله ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي الذي على الأب للوالدة من الرزق والكسوة كذلك على الأب للولد من الرزق والكسوة ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي الوالدان ﴿فِصَالًا﴾ أي فطامًا له قبل الحولين ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ ورأيا في ذلك مصلحة للولد ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك ولا ينبغي انفراد أحدهما بذلك دون الآخر من غير مشاورته ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ هذا خطاب للآباء ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ مرضعاتٍ غير والداتهم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في ذلك ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إليهن ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ أي سلمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بحسب الحال الذي عليه الأب من القدرة المحدودة أو السعة وعن طيب نفس ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم، ولا أقوالكم.

لا هزل في الطلاق والعتاق والنكاح، الرضاع بعد الحولين لا يحرم

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

٣٨

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي بعد موتهم ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي ينتظرن ويعتددْن أربعة أشهر وعشر ليال، أي يمتنعن عن النكاح فيهنَّ أما الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن، قيل: إن عدة الأمَة على نصف عدة الحرة قياسًا على حد الزنى أي لما كانت الأمَة على النصف من الحرة في الحد، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدَّة أي شهران وخمس ليال، ولكن فيما يبدو أن الحرائر والإماء سواء في هذا المقام لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليقة وهل العبودية تغيّر الخلق؟ وقد أيّد هذا القول بعض من العلماء والظاهرية، ويبدو أنهم محقّون، والله تعالى أعلم ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ أي تتزين وتتصنع وتتعرض للخُطَّاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الشرع ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي يعلم أحوالكم ظاهرًا وباطنًا ويستفاد من هذه الآية وجوب الإحداد على المتوفَّى عنها زوجها مدة عدّتها، ولما ثبت في الصحيحين: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشرًا» [٩٣]. ولا يجوز التزيّن على إطلاقه ولكن ليس للحداد لباس معين فتلبس ثيابها العادية أما لبس السواد فحرام؛ لأنه شعار أهل الكتاب.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المتوفَّى عنهن أزواجهن، والتعريض: أن يقول: إني أريد الزواج، فإذا انقضت عدتك فلا تعدي أحدًا بالزواج قبل إعلامي وكذلك المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها كذلك، أما المطلقة طلاقًا رجعيًا فلا خلافَ في أنه لا يجوز لغير زوجها أن يعرض بخطبتها أو يصرح، فزوجها أحق برجعتها. ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ في أنفسكم فرفع عنكم الحرج في ذلك ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ كقوله: إنني عاشق وعاهديني ألاّ تتزوّجي غيري... في عدتها فنهى الله عن ذلك ﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ كما تقدّم آنفًا من إباحة التعريض ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي لا تعقدوا العقدة بالنكاح ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي حتى تنقضي العدة. وقد أجمع العلماء على عدم صحة العقد في مدة العدة. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أن يعاقبكم إذا عقدتم النكاح في العدة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يغفر لمن يخافه ويؤخر العقوبة عن مستحقها، فلم يؤيسهم من رحمته.

(٢٣٦) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهنّ ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي مهرًا، أي لا تبعة عليكم في الطلاق -زمن عدم المسيس والفرض- بإثم ولا مهر فطلقوهن ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن ما يتمتعن به ﴿عَلَى الْمُوسِعِ﴾ الغني منكم ﴿قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ القليل الرزق ﴿قَدَرُهُ﴾ ولا ينظر إلى قدرة الزوجة ﴿مَتَاعًا﴾ تمتيعًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعًا صفة (متاعًا) ﴿حَقًّا﴾ صفة ثانية أو مصدر مؤكد. ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ المطيعين. والمتعة للتي لم يفرض لها صداق، ولم يدخل بها، وجوبًا.

(٢٣٧) ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي يجب لهنّ نصف المهر ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ أي الزوجات فلا يجب لهن عليهم شيئًا ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الزوج فيترك لها الكل ﴿وَأَن تَعْفُوا﴾ مبتدأ وخبره ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من الزوجين من يعفو ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي أحسنوا بينكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بما تستحقون.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ
قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ
فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً
لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن
مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ
بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

٣٩

(٢٣٨) ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي الصلوات الخمس في أوقاتها وأداء أركانها والصلاة الوسطى هي صلاة العصر، لحديث: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا، ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء» [٩٤]. ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَٰنِتِينَ﴾ أي خاشعين مستكينين بين يديه تعالى، وفي الحديث: «كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت» رواه الجماعة سوى ابن ماجه [٩٥].

(٢٣٩) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عدوًا وما يشبه ... ﴿فَرِجَالًا﴾ أي على أقدامكم وهي حال التحام الحرب صلُّوا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب، أي كيفما أمكن مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها إيماء بالركوع والسجود. قال ابن عباس: يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجليه. وعنه أيضًا قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعًا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة» [٩٦]. ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ من الخوف من عدوٍّ أو غيره ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي صلوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ والكاف من (كَمَا) بمعنى مثل و(مَا) مصدرية أو موصولة.

(٢٤٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ فليوصوا ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ أي متعوهن سنة ابتداءً من موت أزواجهن، والمراد نفقة السنة وكسوتُها وسُكناها ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ من مساكنهن. فأما إذا انقضت عدتهن أو وضعن حملهن واخترن الخروج من ذلك المنزل فلا يُمنعْنَ من ذلك، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ شرعًا كالتزين وترك الإحداد وقطع النفقة عنها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه. والوصية منسوخة بآية الميراث، وتربص الحول، بآية أربعة أشهر وعشرًا السابقة، المتأخرة في النزول أي آية (٢٣٤).

(٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ﴾ يُعطينه ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بقدر الإمكان ﴿حَقًّا﴾ نصب بفعله المقدر ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي المتقين الله تعالى كرره ليعمَّ الممسوسة أيضًا.

(٢٤٢) ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي في إحلاله وتحريمه، وفروضه وحدوده، ووضَّحه لكم في وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آياته أي تفهمونها وتتدبَّرونها.

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام تعجب وتشويق إلى استماع ما بعده، أي: ألم تعلم أو ألم ينته علمك ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فرارًا من الطاعون ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، ففروا ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ بدعاء نبيِّهم فعاشوا دهرًا، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَم الله في دينهم ودنياهم، والقصد من ذكر هؤلاء تشجيع المؤمنين على القتال.

(٢٤٤) ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لنصرة دينه وإعلاء كلمته ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم فمجازيكم بحسبها.

(٢٤٥) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي ينفق ماله في سبيل الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ لوجهه تعالى عن طيب قلب ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ وفي الحديث: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة»(١) [٩٧] ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ﴾ يمسك الرزق ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾ يوسعه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

---

(١) ضعيف.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

٤٠

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ﴾ أي الجماعة ﴿مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ إلى عهد قصتهم وخبرهم هذا ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ شمويل كما سمته أمه كذلك، فقد كانت تدعو أن يهبها الله غلامًا يكون نبيًا لبني إسرائيل بعد انقطاع النبوة فيهم زمنًا، فاستجاب الله دعاءها ووهبها غلامًا فسمته شمويل أي سمع الله دعائي فأنبته ربُّه نباتًا حسنًا، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمرهُ بالدعوة إلى التوحيد ﴿ابْعَثْ﴾ أي أقِمْ ﴿لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ﴾ معه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تتوحّد به كلمتنا ونرجع إليه ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بالفتح والكسر ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ خبر عسى والاستفهام لتقرير التوقيع بها ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد وقتلت، وقد فعل بهم هذا قوم جالوت، أي لا مانع من القتال في سبيل الله، مع وجود مقتضيه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ عنه وجبنوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فمجازيهم بما يستحقون. وسأل نبيهم إرسال ملك عليهم فأجابه الله إلى إرسال طالوت.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وكان من أجنادهم، ولم يكن من سبط يهوذا ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ يستعين به على إقامة الملك، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف فأجابهم النبي قائلًا: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ والله أعلم به منكم ولست أنا الذي عيَّنتُه، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأشد قوة وصبرًا في الحرب ومعرفة، ومن ههنا ينبغي أن يكون الملِكُ ذا علم، وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ بحكمته أن يؤتيه الملك إيتاء لا اعتراضَ عليه ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليم بمن يستحق الملك، ممن لا يستحقه.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ لما طلبوا منه آية على ملكه... الآية: العلامة. أي علامة تمليك الله لطالوت عليكم ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الذي كان قد أخذ منكم. فقد كان العمالقة غلبوهم عليه، وأخذوه منهم لما عصوا أنبياءهم، فسلّطهم الله عليهم وأخذوا التابوت منهم. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي فيه وقار وجلالة وما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه أي تطمئن به قلوبكم ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال ابن عباس: عصاه ورضاض الألواح. أي ما تكسر من الألواح، وزاد عكرمة: والتوراة. وزاد أبو صالح: وقفيز من المنّ الذي كان ينزل عليهم في التيه. وقال ابن عطية: والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى. والمراد بآل موسى وآل هارون: أي موسى وهارون ذاتها. وقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون فآمنوا بنبوة شمويل -وقيل شمعون- وأطاعوا طالوت. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أي علامة تدل على تمليك طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله الذي بعث فيكم شمعون رسولًا وطالوت ملكًا فأقرّوا بملكه، وتسارعوا إلى الجهاد وخرجوا مع طالوت في مائة ألف مقاتل من شبابهم، لقتال جالوت.

لما رأى اليهود الملائكة تهبط بالتابوت إلى طالوت أطاعوه وآمنوا بشمعون

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾
وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٤١

(٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي خرج بهم من بيت المقدس وكان جيشه ثمانين ألفًا والله أعلم، وكان الحر شديدًا، وطلبوا منه الماء ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ أي مختبركم ﴿بِنَهَرٍ﴾ هو نهر الشريعة بين الأردن وفلسطين، وذلك ليختبرَ المطيع من العاصي ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ أي من مائه ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليس من أتباعي فلا يصحبني ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من جنودي وأتباعي ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فاكتفى بها فلا بأس عليه ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي من اغترف غرفة منه بيده رُوي. ومن شرب منه لم يروَ، فشرب منه عدد كبير جدًا من جيشه، ولم يبق معه إلا ثلاثمئة وبضعة عشر، وروى البخاريُّ عن البراء بن عازب قال: «كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمئة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوزه معه إلاّ مؤمن» [٩٨]. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين اقتصروا على الغرفة الواحدة ﴿قَالُوا﴾ أي الذين شربوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي جبنوا عن قتالهم ولم يجاوزوه ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ قالوا للذين رجعوا ونكلوا ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي كم من جماعة قليلة انتصرت بإذن الله على جماعة كثيرة ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي بالنصرة والغلبة والإعانة وهم الذين صدقوا الحملة وصبروا على لقاء الجنود الذين يفوقونهم في العَدد والعُدد أضعافًا مضاعفة ولكن الله غالب على أمره وسينصر حزبه وجنده.

(٢٥٠) ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ولما تقابل جند طالوت القليلو العدد والعدة والمتوكلون على الله وحده وبرزوا لجالوت وكان أمير العمالقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أي اصبب وأنزل ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي في لقاء الأعداء، وجنّبنا الفرار والعجز ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين كفروك وجحدوك.

(٢٥١) ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ أي فآل الملك إلى داوود عليه السلام، ولذا قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة بعد موت شمويل وطالوت. ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي العلم الذي اختصه به ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ من الناس ﴿لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب المساجد ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي ذو مَنٍّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا كما دفع الله المشركين بالمسلمين وله الحكمُ والحكمةُ، والحجةُ البالغة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله.

(٢٥٢) ﴿تِلْكَ﴾ أي هذه الآيات ﴿آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي نقصّها عليك يا محمد من أخبار المتقدمين الذين ذكرنا أخبارهم أي كما كان عليه الأمر الواقع، المطابق لما عند أهل الكتاب وما بين أيديهم من التوراة التي يعلمها علماؤهم ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ تأكيدًا لرسالته بأنه رسول الله حقًا وصدقًا وذلك ردًا على قول الكفار الذين يقولون فيه: بأنك لست مرسلًا، ولكنك برغمهم لمن المرسلين الذين حكمك حكمهم فمن صدّقك فسبيله سبيل من صدّقهم، ومن عصاك فسبيله حتمًا سبيل من عصاهم يقودهم إلى النار الخالدة المؤبدة ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] أعاذنا الله منها.

عدد جنود طالوت عدد المؤمنين يوم بدر، تولى داود النبوة والملك

(٢٥٣) ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ نعت أو عطف بيان. والخبر: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعني موسى ومحمدًا وكذلك آدم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء، حين رأى النبيُّ ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب منازلهم وتفاوتها عند الله عزّ وجلّ وأن أفضلهم محمد ﷺ وهو أعظمهم درجة بكونه رسول الله إلى الناس كافة، وكل نبي أو رسول كان لأمته وقومه خاصة وبختم النبوات والرسالات به ﷺ، وبتفضيل أمته على سائر الأمم وبالمعجزات المتكاثرة، والخصائص العديدة الثابتة له عليه أفضل الصلاة والسلام. أما قوله ﷺ: «لا تفضّلوني على الأنبياء...» [٩٩]، فالمقصود منه هو التفضيل المبني على عصبية مجردة حاصلة بمجرد كون النبي المفضل هو من قوم ذلك الشخص، أو أن هذا الشخص من أتباع ذلك النبي، أما التفضيل إذا كان مبنيًا على النصوص الشرعية الثابتة بالقرآن والسنة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فهذا التفضيل إنما هو من قبيل الواقع المدعوم بالنصوص الشرعية، لا على العصبية المجردة. ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي الحجج والدلائل القاطعة على صحة ما جاء به بني إسرائيل من أنه عبدُ الله ورسوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي بجبريل عليه السلام يسير معه حيث سار ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدى الناس جميعًا و﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي الأمم من بعد رسلهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ لاختلافهم، وتضليل بعضهم بعضًا ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ أي ثبت على إيمانه ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ كالنصارى بعد المسيح وكلٌ ممّن آمن أو كفر كان باختياره، وبعد أَخذٍ وردٍّ فيما بينه وبين نفسه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ولكن لتقوم عليهم الحجة باختيارهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي إنَّ المؤمن آمن بإرادة الله ومشيئته والكافر كذلك، إذ لا يكون في الكون إلا ما يريد، والإرادة غير الأمر كما هو معلوم ومقرر.

(٢٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ﴾ أي فداء ﴿فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي ولا صداقة تنفع ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ بغير إذنه يوم القيامة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله أو بما فُرض عليهم ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوضعهم أمر الله بغير محله.

(٢٥٥) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي لا معبود بحق في الأرض ولا في السماء إلاّ الله الدائم البقاء القيّوم على تدبير خلقه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي نعاس ولا نوم ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ
مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

٤٢

جميعًا عبيده ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي لا أحد ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي من أمر الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يعلمهم به بإخبار الرسل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي، إلاّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإنَّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» [١٠٠]. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يثقله بل ذلك سهل عليه وهو القائم على كل نفس وكل شيء ولا يغيب عنه شيء ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ علوًا حقيقيًا معلومًا ومجهول الكيفية فهو عليٌّ على خلقه بائن عنهم ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا أعظم ولا أكبر منه أحد.

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ على الدخول فيه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ أي ظهر بالآيات البينات أن الإيمان رشد والكفر غيٌّ. وقد نزلت بحق أنصاري تنصّر ابناه وأراد أن يكرههما على الإيمان ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كل ما عبد من دون الله برضاه ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي بأقوى سبب ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي لا انقطاع لها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقال ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُفعل.

آية الكرسي مشتملة على عشر جمل مستقلة، طريقة السلف الطريقة المثلى في فهم الصفات والأسماء

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ
أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى
بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى
كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ
عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ
فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى
ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

(٢٥٧) ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ناصرهم ومؤيدهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمات الشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي نور التوحيد والإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي يحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي أبدًا لا يخفف عنهم العذاب لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان، والشرك على التوحيد وهذا جزاء الكافرين.

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ هو ملك بابل نمروذ بن كنعان فقد حاجّ إبراهيم في وجود ربه ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ وقد جحد وجود الرب وما حمله على هذا إلاّ تجبره وطول مدته في الملك ﴿إِذْ﴾ بدل من (حاجّ) ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ بعد أن طلب النمروذ من إبراهيم دليلًا على وجود الرب الذي يدعو إليه إبراهيم فأجابه: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي يحدث الأشياء من العدم ويعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة، لأنها لم تحدث من نفسها ﴿قَالَ﴾ أي النمروذ ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ أي أن النمروذ يدّعي الربوبية عنادًا ومكابرةً، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي إن كنت حقًا ربًا كما تدعي فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف وحده في الوجود والشمس جزء صغير من هذه المخلوقات. وهي تطلع كل يوم من المشرق فإن كنت ربًا كما تدّعي، فأت بها من المغرب واجعلها تشرق منه ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: تحيّر وخرس وانقطع وقامت عليه الحجة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين اختاروا الظلم لأنفسهم أي الكفر، فهؤلاء يقابلهم الله بأن يدعهم في غيهم يعمهون ولا يهديهم سبيلًا جزاءً وفاقًا لأنهم هم الذين اختاروا الكفر على الإيمان، وقد ظل النمروذ معاندًا فلم يؤمن فسلط الله عليه وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم ودماءهم، ودخلت واحدة منها في منخري النمروذ عذّبه الله بها فكان يضرب برأسه بالمرازب والنعال حتى هلك. إن هذا الذي يدّعي أنه يحيي ويميت لم يستطع أن يميت بعوضة أهلكته، وإماتتها ممكنة، فكيف إذا كُلف بأن يُحييها؟!

(٢٥٩) ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهنا قال: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى﴾ أي وهل رأيت الذي مرَّ على قرية ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ القرية هي بيت المقدس، والذي مرّ عليها هو العُزير، وذلك بعد خرابها من قبل (بختنصر) وقتل أهلها فأصبحت خاوية لا يسكنها أحد، وليس فيها حجر على حجر ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي مستبعدًا عودتها لعمرانها ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ بعد أن مضت عليها تلك المدة، فعمرت البلدة، وتكامل ساكنوها، وليريه كيف عادت إلى سابق عهدها ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي كم مكثت، وذلك بواسطة الملك ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنه لما مات كان ذلك أوّل النهار ولما بعثه بعد مائة عام كان ذلك آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي لم يتغير ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فرآه ميتًا وعظامه بيض تلوح أي انظر إليه كيف يحييه الله عزّ وجلّ وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ أي حجة على البعث ﴿لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ من حمارك ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي نحييها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ بعد تفرقه، فنظر إلى ذلك كله ونفخ في الحمار الروح فنهق ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ذلك بالمشاهدة ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ علم مشاهدة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد رأيت ذلك عيانًا.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ
تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾
مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ
لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ
أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ
صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

٤٤ — الحزب ٥

(٢٦٠) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ﴾ تعالى له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بقدرتي على الإحياء، سأله مع علمه بإيمانه بذلك، ليجيبه بما سأل فيعلم السامعون غرضه ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ إنني مؤمن ولا أشك ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي أحب أن يرتقي من علم اليقين إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك معاينة ومشاهدة، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال، وفي هذا قطعٌ بأنه لم يسأل لشك لأنه قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولم يقل: هل تحيي الموتى؟ ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بكسر الصاد وضمّها، أي أوثقهن واذبحهن وقطعهن واخلط بعضهنَّ ببعض، فلما فعل ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله تعالى أن يدعوهن فدعاهن فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: وأتينه يمشين سعيًا، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وأقدم كل طائر ليأخذ رأسه من يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدّم له غير رأسه أباه، وإذا قدم رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء ولا يُعجزه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

(٢٦١) ﴿مَّثَلُ﴾ صفة نفقات ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعته ومرضاته ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، ففيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله تعالى كما ينمي أحدنا زرعه في الأرض الطيبة. وعن أبي مسعود: أنّ رجلًا تصدّق بناقة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتُأْتَيَنَّ يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة» رواه أحمد ومسلم والنسائي [١٠١]. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بحسب إخلاصه في عمله وموافقة الشرع ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فضله أوسع من خلقه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق المضاعفة.

(٢٦٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ على مَن أعطوه لا بقول أو فعل ﴿وَلَآ أَذًى﴾ أي لا يفعلون مكروهًا بمن أحسنوا إليهم فيحبطون به ما سلف من إحسان. ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلَّفوا وراءهم من بهجة الحياة الدنيا.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي عفو لسائل عن إلحاحه في مسألته ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ بالمنّ والتعيير بالسؤال ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي يحلم ويصفح. وفي صحيح مسلم: «ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» [١٠٢].

(٢٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ أي أجورها ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي خطيئة المن والأذى ما تفي ثواب الصدقة بل تفوقها وتبطلها ﴿كَٱلَّذِي﴾ أي كإبطال نفقة الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مراءاة الناس ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي كالذي ينافق ولا يؤمن ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ أي مطر شديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي قاسيًا يبسًا لا شيء عليه ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ استئناف لبيان مثل المنافق ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي لا يجدون عليه ثوابًا لما عملوا في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الذين اختاروا الكفر على الإيمان.

اطمئنان إبراهيم برؤية إحياء الموتى، المنّ بالصدقات يبطلها

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم
بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

٤٥

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلُ﴾ نفقات ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ لوجهه تعالى ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تحقيقًا للثواب عليه، ومتحققون يقينًا أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا المعنى في الحديث الصحيح المتفق عليه: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه» [١٠٣]. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي مثل نفقات المؤمنين المتحققين من ثواب ربهم كمثل جنَّة بربوة، أي بستان مرتفع ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ﴾ أي أعطت ﴿أُكُلَهَا﴾ أي ثمراتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي بالنسبة لغيرها من الجنان ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي المطر الخفيف يصيبها فيكفيها لارتفاعها، ومعنى هذا المثل: أن صاحب هذه الجنة لا يخيب، وكذلك نفقة المؤمن المخلص قلّت أو كثرت تزكو عند الله تعالى وتثمر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمالكم شيء فيجازيكم عليها بأحسن ما يجزي به عباده المخلصين.

(٢٦٦) ﴿أَيَوَدُّ﴾ أي أيحب ﴿أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ أي بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ فضعف من الكبر وقعد عن الكسب ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أي أولاد صغار ضعاف ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي الجنة، أحرق ثمارها وأباد أشجارها فأي حال يكون حاله؟ وكذلك حال الكافر يكون يوم القيامة. وعن ابن عباس: الرجل غنيٌّ يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله. وفي هذا القول كفاية لتفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولًا ثم انعكس سيره فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه من صلاح ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعتبرون.

(٢٦٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟﴾ أي زكّوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من المال الحلال الجيد، لا من رذالة المال ودنيئه ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الحبوب والثمار ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي تقصدوه ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ بالزكاة ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي لو أُعطيتموه ما أخذتموه، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، نزلت في جماعة من الأنصار كانوا يتصدقون برديء التمر ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم، لم تأخذوه بحساب التمر الجيد حتى تنقصوه، فكيف ترضون لربكم ما لا ترضون لأنفسكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن نفقاتكم وإنه وإن أمركم بالطيب منها فهو غنيٌّ عنها ﴿حَمِيدٌ﴾ أي محمود على كل حال في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

(٢٦٨) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي ويأمركم أيضًا بالمعاصي والمآثم والمحارم، ومخالفة الخلّاق ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلًا﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمنفق. وحديث قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إنّ إبليس يضع عَرشه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعت شيئًا، ويجيءُ أحدهم فيقولُ: ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين أهله، فيدنيه منه، ويقولُ: نعمَ أنت!» رواه مسلم [١٠٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الشيطانَ قد أيسَ أن يعبده المصلُّون ولكن في التحريش بينهم» رواه مسلم [١٠٥].

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ الحكمة: الإصابة بالقول، ووضع الشيء في محله، وعن ابن مسعود مرفوعًا: «رأس الحكمة مخافة الله» [١٠٦]. وفي الحديث المتفق عليه: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمةً فهو يقضي بها ويعلمها» [١٠٧]. ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لمصيره إلى السعادة الأبدية ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي أصحاب العقول.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟
ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ
وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ
لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم
بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

٤٦

(٢٧٠) ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ أي أديتم من زكاة أو صدقة ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ النذر هو: ما أوجبه الإنسان على نفسه مطلقًا أو معلقًا بشرط، فوفيتم به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فيجازيكم به إذا كان خالصًا لوجهه تعالى، ومنطبقًا على ما شرع. وقد توعّد الله من خالف أمره، وكذّب خبره، وعبَد معه غيره، فقال جل وعلا: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ينقذونهم يوم القيامة من عذاب الله ونقمته.

(٢٧١) ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي تظهروها ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي فنعم الشيء هي ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي تسرُّوها ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي المحتاجين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي إن إسرار الصدقة خير من إظهارها، لأنها أبعد عن الرياء، إلا إذا قصد اقتداء الناس به فذلك أفضل. والأفضل في الأصل الإسرار، لما ثبت في الصحيحين من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله «... ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [١٠٨]. وفي حديث آخر: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرُّ بالقرآن كالمُسرِّ بالصدقة» [١٠٩]. وهذا عام في المفروضة والمندوبة، ولكن تفسير ابن عباس لهذه الآية يقول: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفًا. ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بالياء والنون، مجزوماً بالعطف على محل (فهو)، ومرفوعاً على الاستئناف أي إن الله تبارك وتعالى بما أنفقتم في سبيله يَمحو ﴿عَنكُم مِّن﴾ بعض ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي مقابل الصدقات، لا سيما السرية، فترفع الدرجات وتكفّر السيئات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه وسيجزيكم عليه.

(٢٧٢) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلّا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ...﴾ فأمر بالصدقة على كل من سألك من كل دين» [١١٠]. أي ليس عليك هدي الناس إلى الدخول في الإسلام إنما عليك البلاغ، والله سبحانه هو مقلّب القلوب وهاديها ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ ثوابه ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي إن المتصدق إذا تصدّق ابتغاء وجه الله تعالى، فقد وقع أجره على الله سبحانه إن أصاب البَرَّ أو الفاجرَ فهو مثاب على قصده ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يوفّ إليكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون منه شيئًا، والجملتان تأكيد للأولى.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي الصدقات ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله ورسوله وسكنوا المدينة ولم يكن لهم شيء يغنيهم. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي سفرًا للتسبب في طلب المعاش لاشتغالهم بالجهاد ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وفي هذا المعنى الحديث المتفق عليه: «ليس المسكين بهذا الطوّاف، الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفّف. اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾» [١١١]. ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي لا سؤال لهم أصلًا فلا يقع منهم إلحاف، أي إلحاح ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وسيجزي عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

(٢٧٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله دائمًا حتى النفقة على الأهل تدخل في ذلك لحديث: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها، كانت له صدقة» متفق عليه [١١٢].

تصدق لوجه الله، ولا تسل في أي يد وقعت صدقتك

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ
مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ
فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ
أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ
ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

٤٧

(٢٧٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الربا في اللغة: الزيادة. والمعنى: إن الذين يأكلون الربا أي يأخذونه زيادة على الأصل، نقودًا أو مطعومات في القدر والأجل ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ أي من الجنون، وهذا الوعيد الشديد يشمل آكل الربا والعامل به، وإنّما خصّ الآكل بالذكر؛ لأنه معظم المقصود. وفي الصحيح: «لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه» [١١٣]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا العقاب الآنف الذكر ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي بسبب أنهم جعلوا البيع والربا شيئًا واحدًا، أي: إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل، كالبيع بزيادة عند حلوله. فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي إن الله أحل البيع وحرّم نوعًا من أنواعه، وهو: البيع المشتمل على الربا ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي من بلغته من الله هذه الموعظة الزاجرة ... ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ أي فامتثل وانزجر عن أكل الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي ما تقدم من أكله، فلا يؤاخذ به، ولا يسترد منه لأنه فعلَهُ قبل أن يبلغه التحريم. وقوله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أمر المرابي إلى الله تعالى في تثبيته على الانتهاء لإخلاصه فيه، أو رجوعه إلى أكل الربا والتعامل به. ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ إلى أكله، والقول: إنما البيع مثل الربا، بعد علمه بالتحريم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: إنه يكفر بهذا القول فيستحق الخلود في النار باستحلاله الربا، أما من عاد غير مستحل له، فيكون معنى الخلود مقصودًا به طول المكث. والمصير إلى هذا التأويل واجب، للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحِّدين من النار.

(٢٧٦) ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي ينقصه حتى يضمحل ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي ينمّيها ويضاعف ثوابها. وفي البخاري: «من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه، حتى يكون مثل الجبل» [١١٤]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مستَحِلّ أكل الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ متمادٍ بالإثم، مصر عليه، لأن المرابي لا يرضى بالحلال، بل يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بربهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تقربًا إليه وإلى رضوانه وانتهوا عن الأعمال الخبيثة ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على أنفسهم وعلى من يعولون ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أخرجوها من أموالهم وأموال من يعولون ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من نعيم الدنيا بالارتحال عنها إلى الله الذي سيكرم مثواهم.

(٢٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي اتركوا ما لكم على الناس من الربا بعد هذا الإنذار ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بما شرع لكم من حل البيع وحرمة الربا، وقد نزلت في ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية فانتهت ثقيف عن أخذ الربا وقد وضع رسول الله ﷺ أول ما وضع ربا العباس.

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أي ما أمرتكم به ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي اعلموا عن يقين بحرب من الله ورسوله. ويقال للمرابي عندما يحشر: خذ سلاحك للحرب. ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ أي أصولها ﴿لَا تَظۡلِمُونَ﴾ بزيادة عليها ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ بنقص منها.

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ أي إذا كان المديون معسرًا فيجب تأجيله إلى حين يسره ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ عليه بإعفائه من الدين بالكلية ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ وفي الحديث: «من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثله صدقة» [١١٥].

(٢٨١) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص شيء من أعمالهم.

ملعون آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

(٢٨٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم﴾ أي تعاملتم ﴿بِدَيْنٍ﴾ كسلم وقرض ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى أجل معلوم ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد أنزلت هذه الآية في السَّلم إلى أجل معلوم. قاله ابن عباس، وقال أيضًا: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمًّى أن الله أحلَّه وأذن فيه. وعنه في الصحيحين: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم» [١١٦]. والكتابة كانت واجبة، فنسخ الوجوب بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي بالقسط والحق، ولا يجُر في كتابته على أحد ولا يَزِد في المال والأجل ولا ينقص ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ أي يمنع من ﴿أَن يَكْتُبَ﴾ أي إذا سئل ذلك منه ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي كما علمه الله ما لم يكن يعلم فلا يبخل بالكتابة. والكاف متعلقة بـ (يأبَ) ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ أي فليتصدّق على غيره ممن لا يحسن الكتابة، كما في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق» [١١٧]. ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي وليُمل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في إملائه. ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ أي لا ينقص ولا يكتم ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ قلَّ أو كثُر ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي محجورًا عليه بتبذير ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ لصغر أو جنون ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ إما لعيّ أو خرس أو جهل باللغة أو بموضع الصواب ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ من والد ووصي وقيِّم ومترجم ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي شاهدَيْن بالغَيْن مسلمَيْن حرَّيْن ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ ولم يرد به إن لم يوجد رجلان ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي أن يكون الشاهد عدلًا مرضيًا ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني المرأتين أي أن تنسى إحداهما الشهادة ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ الناسية ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ إلى تحمُّل الشهادة وأدائها. والتحمل: الدعوة لشهادة واقع حال. والأداء: تأديتك الشهادة بما رأيت من تلك الواقعة التي دعيت إليها ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي لا تملّوا عن الكتابة ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ أي وقت حلوله ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي أثبت للشاهد إذا رأى خطه تذكر به الشهادة لاحتمال الشك في قدر الحق والأجل، ودفعًا للنسيان وأقربُ إلى عدم الارتياب، فيرجع عند التنازع إلى الكتاب الفيصل.

﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ أي أن تكون الأموال تجارة أي بيعًا حاضرًا يدًا بيد ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور من تركها ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ عليه، فإنه أدفع للاختلاف، وهذا أمر ندب لا وجوب ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قال ابن عباس: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنّا على حاجة فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا فليس له أن يضارهما وهناك قول آخر: أن معناه: النهي للكاتب أن يضارَّ من يكتب له، بأن يكتب غير ما يُملي عليه، والنهي للشاهد أن يشهد بما لم يستشهد عليه. قاله الحسن وطاووس وغيرهما، واحتج الزجّاج على صحته بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ وقال: ولا يسمَّى من دعا كاتبًا ليكتب له وهو مشغول، أو شاهدًا: فاسقًا، إنما يسمى من حرّف الكتاب، أو كذب في الشهادة فاسقًا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أي مصالح أموركم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(٢٨٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي مسلّمة في يد صاحب الحق، ويجوز الرهان في السفر والحضر لما ثبت في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقًا من شعير رهنها قوتًا لأهله» [١١٨]. وفي هذا الحديث دليل على الرهن في الحضر. وهناك أمر خطير واقع في زماننا لا بد أن نذكره وهو تحويل مفهوم الرهان أو الرهن الشرعي إلى احتيال على الشرع، لاستحلال الربا بأدنى الحيل ويسمونه رهنًا؟! وصورته: أن ترهن دارك أو أرضك أو غير ذلك عند زيد على مبلغ معلوم بشكل تصبح العين المرهونة في حوزة المسترهن يستعملها سكنًا، وإسكانًا بلا أي عوض مدة الرهن مع بقاء المبلغ كاملًا في ذمة الراهن، لا ينقص منه شيء، فعوضًا عن أخذ الربا نقدًا، أخذه أجرة وسكنًا وهذا هو الربا، ولا عبرة بتغيير اسمه من ربا إلى رهن أو بيع بالوفاء، كما أفتى بحله متأخرة الأحناف وسموه تلك الأسماء!!!

ومن المعلوم أن الرهن المشروع: أن ترهن الدار أو الأرض دون أن يستثمر المسترهن المرهونَ، وإن فعل فللراهن أجر المثل يقتطع من أصل المبلغ حتى يستوفَى؛ لأن الرهن الشرعي ما هو إلاّ ضمانة للدين حتى إذا لم يدفع المدين، يصار إلى بيع المرهون، هذا إذا كان الراهن قادرًا على الدفع وإلاّ ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، هذا هو الرهن الشرعي، أو فالربا لا شك فيه ولا ريب. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي الدائنُ المديَن على حقّه فلم يرتهن، ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ أي المدين ﴿أَمَانَتَهُ﴾ أي دَيْنه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في أدائه، وعن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها، أي إذا ائتمن بعضكم بعضًا فلا بأس من أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا. وفي الحديث: «على اليد ما أخذت حتى تؤدِّيه»(١) [١١٩]. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي لا تخفوها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وخصَّ القلب بالذكر لأنه محل الشهادة ولأنه إذا أثم تبعه غيره فيعاقب عليه معاقبة الآثمين ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي لا تخفى عليه خافية.

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من السوء ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ والفعلان بالجزم عطف على جواب الشرط. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه محاسبتكم وجزاؤكم، وقد شقت المحاسبة على حديث النفس على الصحابة ففاتحوا الرسول بذلك، فقال ﷺ: قولوا سمعنا وأطعنا.

(٢٨٥) ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ أي صدّق محمد رسول الله ﷺ ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ من القرآن العظيم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف عليه ﴿كُلٌّ﴾ تنوينه عوض من المضاف إليه ﴿آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ جميعها ﴿وَرُسُلِهِ﴾ ويقولون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ أي نؤمن بالجميع دونما تفرقة بينهم ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فنسألك ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فإنهم لم يسألوه المغفرة قبل أن قدّموا بين يدي دعائهم توسّلا إليه تعالى بسمعهم وطاعتهم لأوامره، فاستجاب لهم وخفّف عنهم بقوله:

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من شر ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي الصواب في العمل ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أي عبئًا ثقيلًا ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ من الأمم الماضية ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا﴾ فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ فلا توقعنا في ذنب آخر. وقيل: إن المذنب محتاج إلى: عفو الله فيما بينه وبينه، والستر عن عباده فلا يفضحه بينهم، وأن يحفظه فلا يوقعه في نظيره من الذنب ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ أي ولينا ونصيرنا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين جحدوا دينك، وأشركوا بك غيرك. وفي صحيح مسلم: «قال الله: قد فعلت»(٢) [١٢٠].

تم تفسير سورة البقرة ولله الحمد والمنّة

(١) ضعيف.
(٢) راجع كتابنا «التوصل إلى حقيقة التوسل» (ص٦٨).

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مدنية وآياتها ٢٠٠، نزلت بعد الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓ﴾ تقدم الكلام على ﴿الٓمٓ﴾ في أول سورة البقرة بما يغني عن إعادته، كما تقدم الكلام أيضًا على قوله تعالى:

(٢) ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي إخبار بأنه المتفرد بالألوهية لجميع الخلائق، والحي في نفسه الذي لا يموت أبدًا، القيِّم لغيره ولا قيام للموجودات بدون أمره تعالى.

(٣) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ﴾ نزل عليك يا محمد القرآن بالحق الذي لا شك ولا ريب فيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله التي بشّرت به وبما فيها من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى عليه السلام ﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ على عيسى ابن مريم عليهما السلام.

(٤) ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا القرآن ﴿هُدًى﴾ حال ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والفرقان هاهنا هو القرآن العظيم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوها وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجانب ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ ممن عصاه.

(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كائن ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ﴾ أي لا يعزب عن علمه شيء فيهما وهو فوق سبع سماواته عليٌّ على خلقه.

(٦) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ وهذا تعريض بنصارى نجران الذين قدموا على النبيِّ ﷺ في ستين راكبًا فيهم العاقب، والسيد، فخاصموه في عيسى، فقالوا: إن لم يكن ولد الله، فمن أبوه؟ فنزلت فيهم صدر (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية منها. والمعنى أنه الخالق المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق كسائر البشر، لأن الله صوّره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهًا كما زعمته النصارى!!!؟ وقد تقلّب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود يعبد بحق في الأرض ولا في السماء إلا الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي المنيع في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

(٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أي: واضحات لا التباس فيها على أحد مثل الناسخ والحلال والحرام والحدود والأحكام والأوامر والنواهي. وهي من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى الآية [١٥٣]، ومن ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى الآية [٣٩] منها. ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وهن حجة الرب وعصمة العباد ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ كأوائل السور ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي

الجزء الثالث — سورة آل عمران

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ — ترتيبها ٣ — آياتها ٢٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن
قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ
شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ
فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ
الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ
مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ
وَالرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ
النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

٥٠

ميل عن الحق، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي فتنة جهّالهم، لوقوعهم في الشبهات ﴿وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي تحريفه على ما يريدون، وفي الحديث: «... فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم» [١٢١]. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ أي تفسيره ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده، وهنا وقفٌ أي على لفظ الجلالة ﴿وَالرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي المحكم والمتشابه كل من عند ربنا ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي يتعظ ﴿إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول القويمة والفهوم المستقيمة، وإنهم توسلوا إليه تعالى بإيمانهم وبأن المحكم والمتشابه من عند الله، ثم سألوه قائلين:

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين زاغوا واتبعوا ما تشابه من القرآن ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيقانًا وإيمانًا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ أي الذي يجود بالعطاء من غير استثابة، وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يدعو: يا مقلّب القلوب ثبتْ قلبي على دينك» [١٢٢].

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه فستجمعهم في ذلك اليوم العظيم وتفصل بينهم، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزي كلًّا بعمله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي موعده بأنه سيبعث من في القبور.

اسم الله الأعظم، القرآن فارق بين الهدى والضلال، الخالق هو المستحق للعبادة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ
لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ
يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ
الحزب ٦ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

٥١

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ﴾ أي لا تجدي ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من عذابه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي حطبها الذي تسعرُ به.

(١١) دأبهم ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كعادتهم ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي إن الكافرين لا تجديهم كثرة الأموال ولا الأولاد، بل سيهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ولمن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي شديد الأخذ، أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، وهو الفعال لما يريد.

(١٢) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اليهود ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتاء والياء، أي ستغلبون في الدنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية وقد وقع ذلك، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي بئس جهنم من فراش تمكثون فيها خالدين. نزلت هذه الآية في اليهود، بعد انتصار المسلمين ببدر، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ وآله، لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق قينقاع، قال: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشًا». قالوا: يا محمد: لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله إن قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس وإنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾»(١) [١٢٣].

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي عبرة. وذكر الفعل للفصل ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي طائفتين ﴿الْتَقَتَا﴾ للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون في بدر ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي المشركون وقتئذ ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي يرى الكفارُ المسلمين مثليهم، أي أكثر منهم وكان المشركون نحو ألف والمسلمون نحو ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا رؤية ظاهرة بأعين الكفار أنهم ألفان مع قلتهم في الحقيقة ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لذوي الأبصار أفلا تعتبرون يا أيها اليهود فتؤمنوا؟ ولما التحم الجيشان وكان المشركون في أعين المسلمين قليلين. قال ابن إسحاق عن عبدالله بن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا منهم رجلًا فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا. [١٢٤] أما المشركون فرأوا المسلمين مثليهم، ليحصل الرعبُ والخوف والجزع والهلع في قلوبهم أي ألفين ... وهكذا يُعزُّ الله المسلمين ويُذلُّ الكافرين، وفي ذلك عبرةٌ لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي ما تشتهيه الأنفس في هذه الدنيا من أنواع الملاذ ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهنَّ أشدُّ. كما في الصحيح: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» [١٢٥]. فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب ومرغوب فيه، مندوب إليه، قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة» [١٢٦]: «إن نظر إليها سرّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله» [١٢٧]. وخصّ البنين دون البنات لأنهم أحب عادة وبهم يبنون العائلة ويحفظ النسل ويبقى، وتكون بهم المنعة وحفظ شرف القبيلة، والذود عن حياضها. ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي الحسان ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم ﴿وَالْحَرْثِ﴾ أي الزرع ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفاني ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي المرجع، وهو الجنة.

(١٥) ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها إذا دخلوها ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي يعطي كلًّا ما يستحق.

(١) ضعيف.

ليعتبر اليهود بوقعة بدر، النساء والبنون والأموال والأنعام زينة

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ
ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

٥٢

(١٦) ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت أو بدل من (الذين) قبله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك، أي بسبب إيماننا هذا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهذا توسل مشروع، لأنه توسل بالأعمال الصالحة، وأي عمل أصلح من الإيمان بالله وكتابه ورسوله، ويكاد أن يكون هذا التوسل في زماننا منسيًّا! فقد هجره أكثر المسلمين، واعتاضوا عنه بالتوسل الممنوع، الذي هو التوسل بذوات المخلوقين الذي ما نزل بمشروعيته كتاب ولا سنّة بل هو الذي كان من شعارات الجاهلية، إن هو إلاّ الزلفى الممنوعة التي لم يقبلها الله. ومن أجل مَنْعِها وغيرها بعث الله الرسل جميعًا. ويا ليت المسلمين يعودون إلى التوسل المشروع الذي أمر به الله ورسوله ﷺ، فاستغنوا به عن توسل هو أقرب إلى سخط الله من رضاه، اللهم ردّهم إليك ردًّا جميلًا.

(١٧) ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على طاعته وترك معاصيه ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بإيمانهم ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الخاضعين ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ المتصدقين ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ في أواخر الليل، وفي الصحيحين: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائلٍ فأعطيه؟ هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من مستغفرٍ فأغفر له» [١٢٨]. ونزول الله صفة له سبحانه، وإنه ينزل حقيقة بلا كيف، ولا يشبه نزول المخلوقين في شيء، وأما ما قيل عن شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله أنه قال: ينزل ربكم إلى السماء الدنيا كنزولي هذا... ونزل من على منبر مسجد بني أمية درجتين، فهذا من الإفك المفترى افتراه عليه ابن بطوطة عليه من الله ما يستحق[١].

(١٨) ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ وهو أصدق الشاهدين ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق سواه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شهدوا بذلك ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ من الأنبياء والعلماء ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل بتدبير خلقه، ونصب (قائمًا) على الحال والعامل فيها، معنى الجملة أي تفرد بالقسط ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره تأكيدًا ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ المقبول ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الذي هو دين المرسلين جميعًا المبعوثين به حتى محمد ﷺ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهود والنصارى في الدين بأن وحّد بعضٌ وكفر بعضٌ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بالتوحيد الخالص لله وحده ﴿بَغْيًۢا﴾ أي مخالفة وتحاسدًا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أهل الكتاب ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وسيجازيهم بما يستحقون من العذاب الذي لا ينتهي.

(١) عن عمر ابن بطوطة: أنه دخل مسجد بني أمية بدمشق يوم الجمعة ٦ رمضان سنة ٧٢٦ وسمع الخطيب ما زعم سماعه آنفًا. ولما سأل عن الخطيب قيل له: ابن تيمية!!! بينما أودع ابن تيمية السجن في ١٥ شعبان سنة ٧٢٦ ولم يخرج منه إلا ميّتًا سنة ٧٢٨ فتأمّل!!! والله حسيب الكذابين.

(٢٠) ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي على ديني ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ أي مشركي العرب ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ استفهام تقرير يتضمن الأمر: أي أسلموا ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ من الضلال ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي تبليغ الرسالة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي بصير وعليم بأحوالهم.

(٢١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوها ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم اليهود، وقد روي أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيًّا فنهاهم مائة وسبعون من عبّادهم فقتلوهم من يومهم، فهم الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في هذه الآية ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم. وذكرُ البشارة تهكم بهم، ودخلت الفاء من (فبشرهم) في خبر (إنّ) من ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لشبه اسمها الموصول بالشرط. وإنما وُبّخ بهذا اليهودُ بزمنه ﷺ لأنهم تولّوا أولئك ورضوا بفعلهم فَبَشِّرْهُم.

(٢٢) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي بطلت بجميع ما عملوا من خير على اختلاف أنواعه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلا يعتد بأعمالهم السابقة لأنها حبطت ومحيت من صحائفهم بما أسلفوا من كفر ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي مانعين من العذاب.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ
اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ
فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ
مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ
فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ
تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي حظًا من التوراة ولكن لم ينتفعوا بذلك، وذلك أنهم ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وهو التوراة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ عن أحكامها ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبول ما فيها من طاعة الله تعالى واتباع محمد ﷺ، وهذا غاية في ذمهم لمخالفتهم وعنادهم.

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي بسبب قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي الأيام التي عبدوا فيها العجل ثم تزول عنهم ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ثبتهم على باطلهم ما خدعوا به أنفسهم بأن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودات، وهذا اختلاق.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة أمام الله ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي عملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني من أعمالهم شيئًا بنقص حسنة أو زيادة سيئة.

(٢٦) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ أي يا الله ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، لك الملك كله في الدنيا والآخرة ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أي أنت المعطي والمانع، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ نزعه من خلقك، وقيل: بتحويله النبوة من بني إسرائيل إلى النبيّ العربي القرشي المكي خاتم الأنبياء ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ بعزك إياه ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ بنزع العزّ منه ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ اليد صفة له سبحانه ونؤمن بأن له يدًا حقيقة بلا كيف لا هي قدرته ولا هي نعمته، إنما هي يده التي بها الخير. أي بيدك الخير لا بيد غيرك، وذكر الخير دون الشر لأن الخير بفضل محض، بخلاف الشر فإنه يكون جزاء لعمل وصل إليه، وهذا الجزاء هو خير بحدّ ذاته، لأنه جزاء على عمل شر عمله العبد، وهذا ولا شك عدل، والعدل خير والله لا يفعل إلاّ خيرًا، وفي الحديث: «... الخير كله بيديك والشر ليس إليك» [١٢٩]. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء.

(٢٧) ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي تدخله فيه أي تأخذ من طول هذا، فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان وهكذا في فصول السنة الأربعة ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي الزرع من الحب، والنخلة من النواة، والمؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي الحب من الزرع، والنواة من النخلة، والكافر من المؤمن، ويجري هذا المجرى في جميع الكائنات ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي تعطي من شئت، وتقتر[١] على من شئت طبق إرادتك وحكمتك ومشيئتك.

(٢٨) ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي نهى الله سبحانه أن يتولّى المؤمنون أحدًا من الكافرين يسرّون إليهم بالمودّة ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي يواليهم ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي فإنّ الله بريء منه ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي أن يتقيهم بظاهره فحسب، دون باطنه ونيته. وعن ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان. وهذا قبل عزة الإسلام، ويجري فيمن هو في بلد ليس قويًا فيه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يخوفكم منه أن يغضب عليكم إن واليتموهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب، ليجازي كلًا بعمله.

(٢٩) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي إن كل ما يضمره العبد أو يظهره، فهو عند الله معلوم لا يخفى عليه منه شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك فيهما ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا تنبيه منه لعباده ليتّقوه ويخشَوْهُ فلا يرتكبوا ما يبغضه منهم فهو عالم بما يفعلون، وقادر على معاجلتهم بالعقوبة، وهو العزيز المقتدر.

(١) الأولى: التعبير بالمنع والتضييق. (المعتني).

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ وهو يوم القيامة يجد الإنسان أعماله حاضرة في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها خيرًا كانت أو شرًا، ولذا قال: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي محضرًا أيضًا. فإن خيرًا سرَّه، وإن شرًا ساءه ﴿تَوَدُّ﴾ أي النفس التي عملت السوء ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي غاية قصوى تجنبًا للعذاب الذي ينتظرها، ولهذا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وهذا تهديد عظيم على ذكر منهم ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ دليل على أن هذا الوعيد الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفًا بهم.

(٣١) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي قل يا محمد ردًّا على من يقول: ما نعبد الأصنام أي أصحابها التي نحتت على صورتهم من الصالحين إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى. قل يا محمد لهؤلاء إن كنتم حقًا تدّعون حب الله ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فاتبعوا رسوله الذي أرسله بالدين القويم، عندها يحببكم الله. كما ثبت في الصحيح: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ» [١٣٠]، وإن كل محب لله على غير الطريقة المحمديَّة فهو كاذب، حتى يتبع الشرع المحمدي في كافة أقواله وأفعاله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر ذنوبكم ويرحمكم عندما تتبعون رسوله.

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من توحيده، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن الحق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وإن ادعوا وزعموا أنهم يحبون الله، فإنه لا يحبهم حتى يتبعوا رسوله.

(٣٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي اختار ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنهم رسلٌ ومنهم الرسل فهم خير العالمين.

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ (ذرية) نصبت على البدل. والمعنى أنهم ذرية بعضها من بعض في التناصر والدين لا التناسل ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأحوالهم ونواياهم.

(٣٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ وهي أم مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليهما السلام: يا ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ﴾ أن أجعل ﴿لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ أي عتيقًا خالصًا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للدعاء ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالنية.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أنثى، وكانت تودّ أن يكون غلامًا ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي في القوة للعبادة وخدمة المسجد الأقصى. ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي واحفظها بحفظك ونسلها من

الجزء الثالث — سورة آل عمران

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

٥٤

الشيطان اللعين، فاستجاب الله لها دعاءها، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مسّه إياه إلاّ مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [١٣١].

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أي قبل مريم من أمها نذيرة لخدمة بيت المقدس ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي بأن قرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين، فلهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ عليه الصلاة والسلام، أي جعله كافلًا لها، لتقتبس منه علمًا نافعًا وعملًا صالحًا لكونه زوج أختها لا خالتها كما ذكرها البعض... وفي الصحيح من حديث الإسراء والمعراج: «... فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة...» [١٣٢]. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي طعامًا من فاكهة في غير أوانها. وفيه دلالة على كرامة الأولياء، وفي السنّة لها نظائر كثيرة. ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي من الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل إن زكريا قال: من يرزقك من الجنة قادر أن يرزقني من العاقر ولدًا.

أوقف الله محبته عن عباده حتى يتابعوا نبيه محمداً ﷺ

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ
يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ
كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر
رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى
وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

(٣٨) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي لما حصل له رجاء الولد وإن كان كبيرًا، وامرأته عاقرًا، وكان أهل بيته قد انقرضوا ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي ولدًا صالحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي سميع لدعائي، مجيب له ولا شك أن دعاء الأنبياء مستجاب بإذن الله.

(٣٩) ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي خاطبته وأسمعته وهو قائم يصلي في المحراب، أي في المسجد وليس المحراب هو الفجوة التي في داخل جدار القبلة من المسجد، كما هي مصنوعة في مساجد المسلمين اليوم، فهذه الفجوة بدعة مستحدثة لم تكن في زمن رسول الله ﷺ ولا في زمن صحابته رضي الله عنهم، إنما هي مأخوذة من كنائس النصارى، ويقال لها عندهم «المذبح» فتأمل!!! ويروى عنه ﷺ أنه قال: «اتقوا هذه المذابح» [١٣٣]. يعني المحاريب. وقال ابن مسعود: «اتقوا هذه المحاريب»، وكان إبراهيم -أي النخعي- لا يقوم فيها. [١٣٤]. وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مصدقًا بعيسى عليه السلام المخلوق بكلمة من الله وهي (كُن) وليس عيسى هو كلمة (كُن) إنما هو مخلوق بكن فكان. وإن يحيى هو أول من صدَّق به وكان على سنته ومنهاجه.

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي سيدًا معصومًا وليس كما قيل (عنينًا) إذ هذا نقص لا يليق بنبي. ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذه بشارة ثانية لزكريا بنبوة يحيى، وكانت الأولى بشارة الملائكة له بولادته.

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ أي ولد ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي بلغت نهاية العمر ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ أي عجوز لا تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، ويفعل ما يريد.

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي لا تنطق مع أنك صحيح ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي إشارة مع استطاعتك على الذكر والتسبيح في هذه الحال، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي صلِّ مساءً وصباحًا.

(٤٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾(١) أي اختارها لكثرة عبادتها وطهرها من الأكدار والوساوس عامة ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والاصطفاء الثاني لجلالتها على نساء العالمين. وفي الصحيحين: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» [١٣٥].

(٤٣) ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ قال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها. والقنوت هو: الطاعة في خشوع وطول قيام ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي صلي جماعة مع المصلين.

(٤٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي نقصُّه عليك يا محمد إنما هو ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي أخبار ما قد غاب عنك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي ما كنت مخلوقًا بعد ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ يعني بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام، وكانوا سدنة بيت المقدس ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ابتغاء الأجر، فقرعهم زكريا عليه السلام وكان مع ذلك كبيرهم وعالمهم وإمامهم ونبيَّهم صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي حين كانوا يقترعون.

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي بولدٍ يكون وجوده بكلمة من الله أي يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي له وجاهة ومنزلة عند الله في الدنيا بما يوحيه إليه من شريعته، وينزل عليه الإنجيل وغير ذلك مما منحه الله به. وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) ولا حجة بهذه الآية لمن ذهب زاعمًا نبوة مريم بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

المحراب هو المسجد كله وليس الفجوة في جدار القبلة وهي بدعة

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ
أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ
وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ
هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ
ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾

نصف الحزب ٦

﴿٤٦﴾ ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ المهد: مضجع الصبي في رضاعه. فقد كلَّم الناس في هذه الحال مُبرِّئـًا أمه من الدنس الذي رماها به اليهود، وداعيًا إلى عبادة الله ومقرًا بعبوديته له سبحانه، ومخبرًا بنبوته وبركته ﴿وَكَهۡلٗا﴾ فقد أوحي إليه في الثلاثين وبدأ يدعو إلى الله وإلى عبادته وحده لا شريك له ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. وفيما بين طفولته إلى كهولته انتقال من حال إلى حال، فلو أنه إله لم يتغيّر حاله.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ أي كيف ألد ولست بذات زوج!؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي إن الأمر من عند الله ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وهذا دليل على أن عيسى مخلوق، ولم يقل يفعل لئلا تبقى لمبطل شبهة، وأكّد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، مرةً واحدةً لا مثنوية فيها فيكون بأسرع من لمح البصر، جلّت وتباركت قدرة الله.

﴿٤٨﴾ ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الكتابة ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي الصحة في الحكم ووضع الأشياء في محالّها. وإن تحرّي الحقائق العلمية، والفقه في الدين لمعرفة مراد الله من أحكامه هي الحكمة البالغة ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ أي الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام ﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي الكتاب الذي نزل على عيسى عليه السلام، وقد كان عيسى يحفظ الاثنين.

﴿٤٩﴾ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ويقول لهم بعد أن يوحى إليه: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ﴾ أي بمعجزة تكون دليلًا على صدقي ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وربي الذي خلقني وخلقكم ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإرادته وأمره ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ الذي يولد أعمى، وهذا أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ هو من يصيبه داء البرص، وإنه والأكمه داءان أعيا الأطباء ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وبعث عيسى عليه السلام وقد غلب علم الطب على العلوم الأخرى فجاء عيسى بمعجزاته تلك بما لا قبل لأهل زمانه به ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ أي مما لم أعاينه فكان يخبر الشخص بما أكل وما سيأكل وما بقي في بيته مدّخرًا. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما سبق ذكره ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ أي دلالة على صدقي فيما جئتكم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي مصدقين.

﴿٥٠﴾ ﴿وَ﴾ جئتكم ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي مقررًا لها ومثبتًا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي بحجة دالة على صدقي فيما أقول لكم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له سبحانه، والاستكانة إليه جل وعلا ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي هذا الذي آمركم به هو المنهج الحق. فكذّبوه ولم يؤمنوا به.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ أي لما تيقن منهم التصميم على الكفر، والاستمرار على الضلال والتكذيب ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أعواني في الدعوة إلى الله تعالى حتى أنصر دينه وأعلي كلمته ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ الحواريون: جمع حواري وهو الناصر، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لكل نبيّ حواري وحواريَّ الزبير» [١٣٦]. ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أعوان دينه وكانوا اثني عشر رجلًا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي اشهد لنا يوم القيامة بذلك، والإسلام هو دين الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

قال الله (يخلق ما يشاء) ولم يقل (يفعل ما يشاء) لئلا تبقى لمبطل حجة

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ
ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ
فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾
ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ
أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ
ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

٥٧

مسئولية تحريض اليهود على صلب المسيح قائمة ولو كان المصلوب غيره

(٥٣) ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ من الإنجيل ﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ عيسى عليه السلام ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ولرسولك بالرسالة، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم بأنهم اتبعوا الحق، وعن ابن عباس قال: «فاكتبنا مع أمة محمد ﷺ» بإسناد جيد.

(٥٤) ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي كفار بني إسرائيل بعيسى، إذ قرروا أن يفتكوا به، فوشوا به إلى ملك ذلك الزمان -وكان كافرًا- بأن هنا رجلًا يضل الناس، ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا عليه، وهذه دائمًا حجة أهل الباطل ليَستعدُوا وليَّ الأمر على خصومهم من أهل الحق؛ لأنهم سقطوا أمام حجة الحق ولم يستطيعوا أن يُدْحِضُوها بالحجة والبرهان، فأوهموا وليَّ الأمر أن هؤلاء ضده ويفسدون عليه رعاياه ليجعلوا من ولي الأمر طرفًا في النزاع، فينكل بأهل الحق، وهذا ما يعانيه الداعون إلى الله في هذا الزمان؛ لأن وسائل أهل الباطل واحدة في كل زمن، هكذا مكر كفار بني إسرائيل بعيسى وحوارييه، وكان الله أسبق منهم ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم بأن ألقى شبه عيسى على غيره. إن مكر الله صفة له سبحانه ولكنَّ مكره جل وعلا غير مكر المخلوقين، لأن أصل المكر: الاغتيال والخدع -حكاه ابن فارس- وعلى هذا لا يسند إلى الله سبحانه، وكذلك من المعلوم أن المكر بالشخص لا يكون إلا في حالة عدم علمه وهو لا يدري ما يحاك له بالخفاء. أما الله فلا يُمكرُ به لأنه يعلم أسرار خلقه ونواياهم فلا يجري عليه مكر خلقه، أما مكره بهم أي استدراجه لهم فلا يدري به خلقه، فيستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم ينزل بهم عقابه الذي لا يفلتون منه، لذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي أقواهم مكرًا وأنفذهم كيدًا وأقواهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب. وفي هذه المناسبة لا بد لنا أن نقول إن اشتقاق الاسم من الصفة ليست قاعدة مضطردة، وليس دائمًا يُشْتَقّ لله اسمٌ من صفته فلا يجوز أن نسمي الله (ماكرًا) نعوذ بالله، ولكن نقول: ﴿خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، والقاعدة الصحيحة: أن لا نسمي الله إلا بما سمّى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ.

(٥٥) ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهذا من المقدَّم والمؤخَّر وتقديره: إني رافعك ومتوفيك، يعني بعد ذلك، وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم. كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وفي الصحيح: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا...» [١٣٧]. وعلى هذا يكون الرفع حصل في حال نومه، والله أعلم. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي صدّقوا بنبوّتك من المسلمين والنصارى ﴿فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بك وهم اليهود ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين والاختلاف فيه من حيث عبودية عيسى أو ألوهيته.

(٥٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل والسبي والجزية ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يمنعونهم منه.

(٥٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أي يوفي أجور المؤمنين في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وسيعاقبهم بما يستحِقُّون.

(٥٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أمر عيسى ﴿نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي الدالّات على صحة نبوتك ورسالتك ﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي القرآن الكريم الذي قصصنا عليك فيه من أمر عيسى عليه السلام: من ميلاده وحياته كلها إلى أن رفعه الله إليه ثم يتابع هذا القرآن من أمره ويقول:

(٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فإذا جاز ادّعاء بنوّة عيسى أو ألوهيته لأنه بلا أب فآدم أولى بذلك، لأنه بلا أب ولا أم وبما أن هذا متفق على بطلانه، إذًا فالدعوى بألوهيَّة عيسى أشد بطلانًا.

(٦٠) ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي هذا هو في شأن عيسى، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

(٦١) ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وهذه مباهلة يعلمها الله تعالى لرسوله ﷺ ليباهل بها نصارى نجران. إن سبب نزول هذه المباهلة، وما قبلها

من أول السورة إلى هنا كان في وفد نصارى نجران، فإنهم لما قدموا جعلوا يحاجّون في عيسى عليه السلام ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية فأنزل الله صدر هذه السورة ردًا عليهم. ويحتجون في قولهم: (هو الله) بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخبر بالغيوب. وفي أنّه (ابن الله) لأنه لم يكن له أب يُعلم وقد تكلم في المهد. وفي أنه (ثالث ثلاثة) بقول الله تعالى: فعلنا، وأمرنا وقضينا... فلو كان واحدًا ما قال إلاّ فعلتُ وأمرت وقضيتُ وخلقتُ... ولما أتى من الله الأمر بمباهلتهم دعاهم رسول الله ﷺ إليها فاستمهلوه ثم انصرفوا عنه، وخلَوْا بالعاقب، وكان صاحب رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبيٌّ مرسل ولقد جاءكم بالخبر الفصل في صاحبكم -أي عيسى- ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قوم نبيًا قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه، [فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم،] فأتوا النبي ﷺ، وقالوا: يا أبا القاسم لا نلاعنك، ونتركك على دينك ثم انصرفوا، وصالحوه على الجزية. وقال الزهري: كان أهل نجران أول من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ [١٣٨].

(٦٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك في شأن عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

(٦٣) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي يعلم بفسادهم فيجازيهم بما يستحقون.

(٦٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، هذه الكلمة هي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا وثنًا ولا صليبًا ولا طاغوتًا ولا نارًا بل نفرد الله بالعبادة وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن التوحيد ﴿فَقُولُوا۟﴾ أي قولوا ذلك لهم ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ موحدون.

(٦٥) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي بزعمكم أنه على دينكم ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعده بزمن طويل ومن بعد ذلك حدثت اليهودية والنصرانية، فكيف تدّعون أن إبراهيم كان يهوديًا ونصرانيًا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما تقولون.

(٦٦) ﴿هَٰٓ﴾ للتنبيه ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ. يا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ والخبر هو ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ من أمر عيسى وموسى بزعمكم الذي تزعمون ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ من شأن إبراهيم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كل شيء ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقال تعالى مبرئًا إبراهيم:

الجزء الثالث | سورة آل عمران

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٦٣)
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ (٦٤) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)

٥٨

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أي مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا طرفة عين.

(٦٨) ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي أحقهم به ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه في حينه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ أي محمد ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أصحابه وسائر أمته فهؤلاء هم الذين ينبغي أن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم وحافظهم. وفي الحديث: «لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عزّ وجلّ إبراهيم عليه السلام. ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ ...﴾» [١٣٩].

(٦٩) ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ نزلت لما دعا اليهود معاذًا وحذيفة وعمارًا إلى دينهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، أي وما يشعرون بأنهم لا يضلون إلا أنفسهم.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لِمَ يا أيها اليهود تكفرون بمحمد وما أنزل عليه من القرآن ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بما في التوراة التي بين أيديكم من نعت محمد ﷺ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به ولا تشهدون على أن الدين عند الله الإسلام، وليس لله دين غيره.

نصارى نجران أول من دفع الجزية إلى رسول الله ﷺ

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ
بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ
عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا
مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ
سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا
خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

كذب الله اليهود في دعواهم بأنه أحل لهم أكل أموال العرب

(٧١) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ﴾ أي تخلطون ﴿ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بالتحريف والتزوير ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ أي تكتمون صفة محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بأن محمدًا رسول الله حقًا، وتعلمون أنكم تكتمون هذا الحق، وتحرفونه وتزوّرونه!!!؟

(٧٢) ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اليهود قالوا لبعضهم ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي القرآن ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أوله ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي إذا جاء آخر النهار ارتدوا ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي لعل المؤمنين يرجعون عن دينهم، إذ يقولون ما رجع هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه -وهم أولو علم- إلا لعلمهم ببطلانه.

(٧٣) ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ أي تطمئنوا، أو تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين من التوراة من ذكر محمد فيها، ولزوم اتباعه، فيحتجّون عليكم فلا تظهروه إلاّ لأهل ملّتكم ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان والإسلام وما عداه ضلال ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ أي خشية أن يساووكم بالعلم ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ أي يتخذوه حجةً عليكم في الدنيا والآخرة فلا تظهروه ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي تحت تصرفه، وهو المعطي والمانع، يمنُّ على من يشاء بالإيمان والعلم، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، بما صرف عن الحق وله الحجة التامة والحكمة البالغة، فمن أين لكم أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي كثير الفضل وعليم بمن هو أهل لهذا الفضل.

(٧٤) ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختص بالنبـوة من يشاء، أي اختصكم يا أيها المؤمنون بهذا الفضل وهداكم إلى أكمل شرع وجعلكم أتباع أشرف نبيّ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يؤتيه من يشاء.

(٧٥) ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اليهود ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ أي بمال كثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ لأمانته، كعبدالله بن سلام الذي أسلم ﷺ ﴿وَمِنۡهُم﴾ أي الخونة ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ لخيانته ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ أي بالمطالبة الملحّة في استخلاص حقك. وإذا كان هذا صنيعه في الدينار ففيما فوقه أولى ألا يؤديه إليك ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ أي إن اليهود يقولون: ليس علينا في ديننا من حرج في أكل أموال الأميّين وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة فإن الله حرم عليهم أكل الأموال، إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهت. وفي الحديث: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ هاتين إلاّ الأمانة، فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر» [١٤٠].

(٧٦) ﴿بَلَىٰ﴾ إن الأمانة مؤداة إلى صاحبها برًا كان أو فاجرًا، وإنَّ اليهود في دعواهم لكاذبون ولكن ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي منكم يا أهل الكتاب حقَّ التقوى، وآمن بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك واتقى محارم الله وأطاعه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي يثيبهم.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ أي يستبدلون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ إليهم في الإيمان بمحمد ﷺ واتباع شريعته، وذكر صفته للناس وبيان أمره، ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الكاذبة ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ من أجل عروض دنيوية فانية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ برحمته ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مؤلم خالد لا يخفف عنهم أبداً.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٦٠

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أي أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ يحرفون الكلم من مواضعه ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك وينسبونه إلى الله كذبًا عليه وافتراء، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يكذبون ويفترون.

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي لا ينبغي ولا يستقيم لبشر ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي الفهم للشريعة، وأن يكون نبيًا مرسلًا ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى﴾ وهذا ردّ على وفد نصارى نجران أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يتخذوه ربًا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن﴾ يقول: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ أي علماء عاملين حكماء فقهاء أهل عبادة وتقوى، فإذا كانت دعوى الربوبية لا تصلح لنبي ولا مرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، وذلك أن أهل الكتاب كان يعبد بعضهم بعضًا، يعني أحبارهم ورهبانهم. وفي الحديث: أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» [١٤١]. فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم. ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي تُفهمون الناس معانيه، وتعلمونهم أحكامه وأوامره ونواهيه لا أن تحفظوا ألفاظه فحسب.

(٨٠) ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالرفع استئنافًا، أي الله، والنصب عطفًا على (يقول) أي البشر ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ كما اتخذت الصابئةُ الملائكة، واليهود عُزيرًا والنصارى عيسى ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي لا يأمر النبيُّ بالكفر ولا عبادة غير الله، والأنبياء إنما يأمرون: بالإيمان والتوحيد لا بالكفر والشرك.

(٨١) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾ أي حين ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي عهدًا من كل نبيّ بعثه من لدُن آدم عليه السلام إلى عيسى عليهم السلام ﴿لَمَآ﴾ بفتح اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق، وكسرها متعلقة بأخَذَ، و(ما) موصولة على الوجهين أي للذي ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ أي لمها أعطيتكم ﴿مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ وبلغ أي مبلغ ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتاب والحكمة ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قال عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهم: ما بعثَ الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمدًا ﷺ، وهو حيٌّ ليؤمننَّ بـه ولينصرنَّه، وأممهم تبع لهم في ذلك ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بذلك ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي عهدي ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي على الأنبياء جميعًا وعلى أممهم جميعًا.

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن الطاعة. وفي الحديث: عن جابر: «إنّ عمر بن الخطاب أتى النَّبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي ﷺ، فغضب، فقال: أمُتهوّكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى ﷺ كان حيًا ما وسِعَهُ إلا أن يتبعني» رواه أحمد والدارمي وغيرهما [١٤٢].

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أي المتولون عن الميثاق والعهد ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي انقاد واستسلم ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ أي بلا إباء ﴿وَكَرْهًا﴾ أي مرغمًا حين رأى بأسَ الله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يؤوبون.

ولا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا...

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟
أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٤) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي من الصحف والوحي ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل -وهو يعقوب- الاثني عشر، وكان فيهم أنبياء ورسل ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا يعُمّ جميع الأنبياء ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بل نؤمن بهم جميعًا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، يصدقون بالجميع ولا يكفرون.

(٨٥) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي من سلك طريقًا سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ومصيره إلى النار المؤبدة عليه. وفي الحديث: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ» [١٤٣].

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا﴾ هذا الاستفهام معناه الجحد، أي لا يهدي الله قومًا إلى الحق، وقد ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاء به الرسول ووضح لهم الأمر. ثم ارتدوا إلى ظُلمة الشرك فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا بالعماية ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد وضوح فظلموا أنفسهم.

(٨٧) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المرتدون ﴿جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه أجمعون.

(٨٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ساعة واحدة ولا يمهلون ولا يؤجلون بل عذاب دائم مؤبد.

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي استثنى الله، أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ بالإسلام ما كان أفسدوه من دينهم بالردّة. وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصًا وحسن إسلامه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم. وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته بخلقه أنَّ من تاب؛ تاب الله عليه.

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ أي استمروا على ذلك حتى ماتوا ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا تابوا عند الغرغرة أو ماتوا كفّارًا ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]. وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغِر» [١٤٤].

(٩١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي من مات كافرًا لن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان يُقري الضيفَ، ويفكّ العاني، ويُطعمُ الطعامَ لا ينفعه ذلك ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة. وفي الحديث: سئل النبي ﷺ عن عبدالله بن جدعان، وكان يُقري الضيف، ويفك العاني، ويُطعمُ الطعامَ، هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا... إنه لم يقل يومًا من الدهر: رَبِّ اغفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» [١٤٥]. وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهبًا ما قُبل منه، ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

٦٢

﴿٩٢﴾ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ أي ثواب البر من الله تعالى، وهو الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي تتصدقون من أنفس ما تحبون من الأموال الطيبة الحلال. جاء في الصحيحين: أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله، لم أصِبْ مالًا قط، هو أنفس ما عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: «حبّس الأصل وسبّل الثمرة» [١٤٦]. وهذا الحديث هو أصلٌ في شرعية أوقاف الخيرات. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيجازي على القليل بالكثير أضعافًا مضاعفة من واسع فضله وفيض بركاته.

﴿٩٣﴾ ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي خصَّ نفسه دون غيره بهذا التحريم وهو لحومُ الإبل وألبانها وقاءً من مرض عرق النسا (بالفتح والقصر) وكان ذلك ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وهذا ردٌّ منه تعالى على اليهود الذين قالوا: إنهم حرموا على أنفسهم من الأطعمة ما حرّم إسرائيل على نفسه واتباعًا له، مع أن التحريم هذا كان عقابًا لهم من الله تعالى على ظلمهم وبغيهم لا اتباعًا لما حرّم إسرائيل على نفسه، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ...﴾ [النساء: ١٦٠]، وقد كانوا يدّعون أن تحريم ما زعموا منزّل في التوراة، فردّ الله عليهم ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنكم حرمتموها اتباعًا لإسرائيل فبُهتوا، ولم يأتوا بها.

﴿٩٤﴾ ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد إحضار التوراة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا أظلم ممن افترى على الله الكذب، لأن الكذب على الله ليس كالكذب على غيره.

﴿٩٥﴾ ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ فيما أخبر به بشأنكم ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي اتبعوا ملة الإسلام.

﴿٩٦﴾ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ مسجدًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الأرض ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بالباء، لغة في (مكة)، يعني الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام. وهذا كذلك رد على اليهود لما ادعوا أن بيت المقدس قبل الكعبة وأفضل ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لأنه قبلتهم. وعن أبي ذر: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» متفق عليه [١٤٧].

﴿٩٧﴾ ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي ظاهرات بأنه بناء إبراهيم ولذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم لبناء البيت وفيه أثر قدميه ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أي من دخل حرم مكة يأمن من كل سوء إلا حدًّا من حدود الله فيقام عليه الحد في الحرم. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي إيجاب وإلزام عليهم أن يحجوا البيت مرة في العمر ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي إذا ملك الزاد والراحلة. وسئل رسول الله ﷺ عن معنى السبيل، فأجاب: «الزاد والراحلة»(١) [١٤٨]. والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي يكفر من جحد فرضيته، وفي الحديث: «إن الله فرض عليكم الحج فحجُّوا» [١٤٩].

﴿٩٨﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي القرآن ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وسيجازيكم على أعمالكم بما تستحقون.

﴿٩٩﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دين الإسلام ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ دعت اليهود حذيفة وعمارًا إلى دينهم، فنزلت الآية ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ميلًا عن القصد ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي مع علمكم بصدق رسولي ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وسيوقع فيكم أنكل العذاب وأشده.

﴿١٠٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ حسدًا لما صار بين الأوس والخزرج من الوئام والمحبة في الله.

(١) صح من كلام الحسن البصري.

الكعبة أول بيت وُضع على الأرض لعبادة الله وحده

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ
وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ أي حاشاكم من الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي القرآن ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ تتنزَّل عليه آيات الله ليلًا ونهارًا، كما جاء في الحديث: عن أبي جمعة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، أأحد خيرٌ منا؟ أسلمنا وجاهدنا معك، قال: «نعم، قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني» رواه الدارمي وأحمد، وصححه الألباني [١٥٠]. ثم قال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هما العمدة في الهداية، ووسيلة إلى الرشاد، وإلى طريق السداد.

(١٠٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال ابن مسعود: أي أن يطاع فلا يُعصى، وأن يذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي موحدون مستسلمون.

(١٠٣) ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ أي تمسكوا بالقرآن ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي آمركم بالجماعة وأنهاكم عن التفرقة، وفي صحيح مسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، وذكر منها قوله: وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا» [١٥١]. وقد ضمنت لهذه الأمة العصمة من الخطأ عند اتفاقهم وإجماعهم ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ في الدين متحابين في الله متواصلين فيه ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي على حافة حفرة من النار ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ الله ﴿مِّنْهَا﴾ أي بواسطة دخولكم في الإسلام، واتباعكم رسول الله ﷺ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما بيّن لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي تزدادون هداية وتقوى.

(١٠٤) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي إلى الدين الحق وهو الإسلام ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن علم بهما، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد بحسبه، كما في الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» [١٥٢]. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالجنة والناجون من النار.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وهم اليهود والنصارى الذين بدّلوا وغيّروا فيما أنزل الله، واختلفوا فيه فلا تختلفوا مثلما اختلفوا ﴿وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما اقترفوا من الشر.

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي وجوه المؤمنين الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يختلفوا، وظلُّوا متمسكين بما أنزل إليهم ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي وجوه الكافرين الذين كفروا بما أنزل إليهم، وبدلوه وحرفوه حسب أهوائهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ يقال لهم في النار: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وهم المنافقون ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا بحقِّ كل كافر عامة.

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وهم المؤمنون أهل السنة والجماعة، المتمسكون بالمحجة البيضاء لا يزيغون عنها والذين يدْعون الناس إلى سلوكها ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني الجنة لا يبغون عنها حولًا. وفيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهي حق وعدل وصدق ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لا يأخذهم بغير جرم.

حق التقوى: أن يُطاع الله فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ
حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ
فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

الحزب ٧

٦٤

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما جميعًا ملك وخلق وعبيد له تعالى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه ترجع وتصير وتؤول.

(١١٠) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الصحابة هم المعنيُّون بهذا الخطاب أولًا؛ ثم هو عام في كل من كان على مثل ما كان عليه الصحابة من أمة محمد أجمعين إلى يوم القيامة. وهذه الخيرية مشروطة بصفات ثلاث ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فإذا زالت هذه الصفات عنهم زالت هذه الخيرية، وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير النّاس للنّاس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» [١٥٣]. ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ ولكنّهم لم يفعلوا ذلك إلا قليل ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبدالله بن سلام رضي الله عنه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الكافرون.

(١١١) ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ باللسان من سب ووعيد ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهكذا وقع؛ فإن اليهود أذلّهم الله في خيبر وغيرها وأرغم أنوفهم، وكذلك النصارى في الشام كسرهم الصحابة وسلبوهم ملكهم، ولكن المسلمين اليوم إلاّ من عصم الله قد أضاعوا الصلاة والزكاة بل وأضاعوا الإسلام والحكم به لا في الشام فحسب بل في أكثر بلاد العرب والإسلام، حتى توزعوا أتباعًا بين «الشرق والغرب» إلاّ من رحم ربك فمن البدهي أن لا ينصرهم الله لأنهم لم ينصروه ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. والله نسأل أن يعود المسلمون إلى ما كان عليه سلفهم الصالح الذين صنعوا (خيبر) و(اليرموك) و(حطين) بإذن الله، فهل نحن فاعلون؟

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي حيثما وجدوا؛ فلا أمان لهم ولا اطمئنان ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم بضرب الجزية عليهم ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو عهدهم إليهم بالأمان ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي أُلزِمُوها قدرًا وشرعًا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كبرًا وحسدًا وبغيًا، فأعقبهم الذلة والصَّغار والمسكنة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي حلّ بهم ذلك جزاء عصيانهم واعتدائهم، وبتجاوز الحلال إلى الحرام، وقتل الرسل والنبيين...

(١١٣) ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ أي ليس هذا الذم يشملهم جميعًا ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ كعبدالله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شعبة وغيرهم فهم قائمون مستقيمون على الحق ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي طوال ساعاته ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يقومون الليل صلاة وتلاوة للقرآن وتفكرًا وذكرًا.

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي ألحقوا بالخيرية المشروطة بهذه الصفات الجليلة. ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يبادرون إليها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي معهم ومنهم.

(١١٥) ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي وأي شيء يفعلونه من الخير من الأعمال الصالحة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي لن يُحرَمُوا ثوابه بل يجازون عليه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم بأحسن ما كانوا يعملون.

ما أعز الله العرب إلّا بالإسلام، فإذا تركوه ذلّوا

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي
صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨
هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ
وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ
مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩
إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ
بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ
إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي لن تردَّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أرادهم به، وقد خصّ الأموال والأولاد بالذكر؛ لأن من فطرة الإنسان أن يدفع عن نفسه تارة بالأموال وبالأولاد تارة أخرى، هذا في الدنيا أما في الآخرة فلا تجدي الأموال ولا ينفع الأولاد فلا مناص من العقاب، ولذلك قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في العذاب المقيم.

(١١٧) ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي فيها برد شديد ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُ﴾ أي فأحرقته، وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه؛ فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا فلا يبقى لهم عمل لأنهم بنوا أعمالهم على كفر، أي على غير أصل وأساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ما ظلمهم الله لأن الله لا يفعل ظلمًا ولكن الظلم كان منهم لأنفسهم لأنهم كفروا بالله فعاقبهم بما يستحقون.

(١١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ﴾ أي: أصفياء تطلعونهم على أسراركم ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي غيركم من اليهود والنصارى والمنافقين ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ نصب بنزع الخافض، أي لا يقصِّرون بأي عملٍ يقومون به ليوقعوا الشرّ بكم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي تمنوا أذيتكم وحرجكم وما يشق عليكم ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بالوقيعة فيكم. قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنَّ هاهنا غلامًا من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبًا، فقال: (قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين) ولذا لا يجوز استعمال أهل الذمة في أمور المسلمين. ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾ مما ظهر على ألسنتهم من فلتات، وما ظهر على وجوههم من معاني اللؤم والكيد مما لا يخفى على لبيب. ولهذا قال تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ذلك فلا توالوهم.

(١١٩) ﴿هَا﴾ للتنبيه ﴿أَنتُمۡ﴾ يا ﴿أُوْلَآءِ﴾ المؤمنين ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾ لقرابتهم منكم وصداقتهم ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ لا باطنًا ولا ظاهرًا ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي بالكتب كلها ولا يؤمنون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ تقية ونفاقًا ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق لما يرون ائتلافكم ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾ أي ليقتلكم غيظكم فسوف يعلي الله كلمته ويظهر دينه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تضمرون وسيجازيكم بخزيكم، ونصرهم في الدنيا ولكم عذاب الحريق في الآخرة خالدين فيه أبدًا.

(١٢٠) ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ﴾ كنصرٍ أو غنيمة ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾ تحزنهم ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ كهزيمة أو جدب ﴿يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ وهذا من شدّة العداوة للمؤمنين ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله فتمتنعوا عن موالاتهم ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي لا يصلكم كيدهم لأنكم في حفظ الله ورعايته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ وسيجازيهم عليه في الدنيا والآخرة. ومن توكل على الله كفاه.

(١٢١) ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ أي من المدينة ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾ وذلك يوم أحد، أي تنزل المقاتلين المؤمنين منازلهم، أي تجعلهم ميمنة وميسرة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. فقد خرج النبي ﷺ بتسعمائة وخمسين رجلًا والمشركون ثلاثة آلاف، وكان ذلك يوم السبت في السابع من شوال سنة ثلاثة من الهجرة، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وسوّى صفوفهم، وأجلس جيشًا من الرماة، وأمّر عليهم عبدالله بن جبير بسفح الجبل، وقال: «انفحوا الخيل عنا ولا نؤتينَّ من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم» [١٥٤]. وكان عدد الرماة خمسين رجلًا.

(١٢٢) ﴿إِذْ﴾ بدل من (إذ) قبله ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكانتا جناحي العسكر يوم أُحد، ومعنى أن تفشلا أي أن تجبنا عن خوض المعركة وذلك بعد رجوع عبدالله بن أُبي بن سلول بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوب المؤمنين، فلم يرجعوا وذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي ناصرهما ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليفوّضوا الأمر إلى الله ثقةً بحسن تدبيره.

(١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي قليـل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العَدد والعُدد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تقومون بطاعته.

(١٢٤) ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ (نَصَركم) ﴿تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مطمئنًا ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ﴾ الإمداد: إعطاء الشيء بعد الشيء ﴿رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السماء.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ﴾ على لقاء عدوكم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي تطيعوا أوامري ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ أي المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي من ساعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وأول الإمداد كان ألفًا كما في سورة الأنفال ثم صار ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف. ومسوَّمين أي مُعلَّمين بعلامة الحرب. وكان سيما الملائكة عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم. وسيما خيولهم الصوف الأبيض في أذنابها ونواصيها.

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد وأعلمكم به ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي بالنصر على أعدائكم وإلاّ فإن النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه من غير احتياج إلى قتالكم لهم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي تسكن فلا تجزع من كثرة العدوّ وقلّتكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يؤتيه من يشاء لا بكثرة الجند، ولا قوة العتاد.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ أي جماعة منهم ويهلكهم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ أي غير ظافرين بمطلبهم وآمالهم عائدين بالحزن والغيظ والذل.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ نزلت لما سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: «اللهم العَنْ فلانًا وفلانًا، اللهم العَنْ الحارث بن هشام، اللهم العَنْ سهيل بن عمرو، اللهم العَنْ صفوان بن أمية». فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ
مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ
(١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ
(١٣١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)

٦٦

شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فتيب عليهم كلهم [١٥٥]. ونسخ القنوت في الفجر وصار بعد العشاء أو آخر قيام الليل.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لأوليائه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بأهل طاعته.

(١٣٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ وكـانوا يقولون إذا حلَّ أجلُ الدَّين: إما أن تقضي وإما أن تربي فإن قضاه وإلاّ زاد في المدة، وزاده الآخر بالقدر ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بعدم المضاعفة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون.

(١٣١) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي اتقـوا الربـا الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار فتجنبوا ما يفعله الكفار في معاملاتهم.

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الله والرسول في كل أمر ونهي، رجاء الرحمة من الله عزّ وجلّ.

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا
فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ
مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ
فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ
وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

٦٧

(١٣٣) ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ أي بادروا ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي إلى ما يوجب المغفرة من الطاعات ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي كعرضيهما ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي الذين يدفعون سخط الله برضاه، وعقوبته بمعافاته.

(١٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي في الشدة والرخاء لا يشغلهم أمر عن طاعة الله والإنفاق في مرضاته ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ مع قدرة إمضائه ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي الذين يسامحون من أغاظهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي ويحسنون إلى من ظلمهم وأغاظهم. وفي الحديث: «ليس الشديد بالصُرعَة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» متفق عليه [١٥٦]. وفي الحديث أيضًا: «إذا غَضِب أحدُكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهبَ عنه الغضب وإلاّ فليضطجع» رواه أحمد وأبو داود [١٥٧]. وكذلك جاء في الحديث: «ثلاث أقسم عليهنّ: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا، ومن تواضع لله رفعه الله» [١٥٨].

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ كالزنى ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالذنوب ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي تـذكروا أن الله يسمـع ويـرى ويـعلم ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي استغفروا الله لها وأتبعوا الذنب بالتوبة والاستغفار. وفي الحديث: «قال إبليس: يا رب وعزّتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهـم مـا استـغـفـروني» [١٥٩]. ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه. وفي الحديث: إن النبي ﷺ أتي بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي ﷺ: «عرف الحق لأهله» [١٦٠]. ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ أي تابوا ولم يصرُّوا على ما فعلوا من المعصية ولم يستمروا عليها، وما أصرّ على الذنب من استغفر منه ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنه ذنب، وأن من تاب؛ تاب الله عليه.

(١٣٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من الله تعالى ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي أن الجنة هي أجر العاملين.

(١٣٧) ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ هذه مواساة من الله لعباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أُحد، وقتل منهم سبعون، أي قد جرى نحو هذا على أتباع الأنبياء قبلكم فكانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تحزنوا لما أصابكم.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ جميعًا ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي وعبرة لهم.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما أصابكم بأُحد... ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ بالنصر والغلبة على المشركين ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حقًا، فلا تهنوا ولا تحزنوا، بل أبشروا بالظفر والعز والتمكين.

(١٤٠) ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾ إنْ يصبكم جرح وقتل ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾ أي فـقـد أصـاب المشـركين ﴿قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ أي جـرح وقتـل مثـل ما أصبتم به، فقد قتلتم منهم في بدر كثيرًا من دهاقينهم ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يوم لكم ويوم عليكم ليحصل الاتعاظ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي علمًا وجوديًا كونيًا شرعيًا منفذًا لعلمه القدريّ الأوّل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أخلصوا في إيمانهم ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ يُقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فاتخذوا ربًا غيره وإلهًا سواه.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ
وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

٦٨

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يبتليهم وينقّيهم من الذنوب ويكفرها عنهم. هذا إن كانت لهم ذنوب وإلاّ رفع درجاتهم بحسب ما أصيبوا به ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يهلكهم ويفنيهم بعد أن يستدرجهم من حيث لا يعلمون.

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي أظننتم أن تدخلوا الجنة دون أن تمتحنوا بالقتال والشدائد ويرى الله منكم المجاهدين الصامدين في سبيله والصابرين في مقاومة الأعداء، وأن الله عليم بما سيكون منكم من ثبات أو هزيمة من قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام، ولكن لتشهدوا على أنفسكم بواقعها الذي سيكون منها من خير أو شر.

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي قد كنتم تتمنون لقاء العدو وتودُّون مناجزتهم فها قد حصل لكم الذي طلبتموه، فدونكم وقاتلوا وصابروا. وفي الصحيحين: «لا تتمنَّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» [١٦١]. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي القتال، وتتأمّلون الحال فيه فلِمَ انهزمتم؟ ونزل في هزيمتهم لما أُشيع أن النبي قتل، وقال لهم المنافقون: إن كان قتل فارجعوا إلى دينكم الأول.

(١٤٤) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة، وفي جواز وقوع القتل عليه ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي تقهقرتم ورجعتم إلى الكفر، والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكاري ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وإنما يضر نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الذين قاموا بالطاعة وقاتلوا عن دينه واتبعوا رسوله حيًا وميتًا.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بقضائه ﴿كِتَٰبًا﴾ أي كتب الله ذلك ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ مؤقتًا لا يتقدم ولا يتأخر، وإن الإقدام والإحجام لا يزيدان في العمر ولا ينقصانه ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي من عمل لها، ينال ما قدّره الله له وما له في الآخرة من نصيب ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي من ثوابها وما قسم له في الدنيا ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي سنعطيهم في الدنيا والآخرة بحسب عملهم وطاعتهم، وما الشكر إلا الطاعة.

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ﴾ أي وكم من نبيٍّ ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي جموع كثيرة ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ أي ما جبنوا ولا ضعفوا عن الجهاد ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من الجراح وقتل أنبيائهم وأصحابهم ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن الجهاد ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ أي ما خضعوا لعدوّهم، كما فعلتم حين قيل قُتِلَ النبيُّ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الصامدين في المعركة ويثيبهم على ذلك الأجر العظيم، فإن عاشوا فأعزةً في الدنيا، وإن ماتوا فسعداءَ في الآخرة.

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ عند قتل نبيّهم مع ثباتهم وصبرهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾ أي تجاوُزَنا الحد ﴿فِىٓ أَمْرِنَا﴾ إيذانًا بأن ما أصابهم لسوء فعلهم، وهضمًا لأنفسهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بالقوة على الجهاد ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي نصرًا عزيزًا ماحقًا، يمحق الكفر وأهله.

(١٤٨) ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب ذلك ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة والعزة والمجد ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة جعلنا الله والمسلمين من أهلها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمال الدنيا والآخرة.

لا يلزم من قتل القائد انهزام الجيش بل يقاتل حتى النصر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ
مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ
غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

نصرهم الله لما صدقوا الحملة على المشركين، ولما خالفوا الرسول هزمهم

(١٤٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم، بعد أن قيل قُتِلَ محمد، فإن تطيعوهم في هذا ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يخرجوكم من دين الإسلام إلى الكفر ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة.

(١٥٠) ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي ناصركم ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ أي لا ينصركم من دونه أحد، فأطيعوه دونهم. ثم بشرهم بقوله:

(١٥١) ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي الخوف والفزع والهلع وذلك أن المشركين، بعد وقعة أُحد، ندموا ألا يكونوا استأصلوا المسلمين، ولما همُّوا بالعودة من أجل ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، فرجعوا عما همّوا به ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ أي بسبب أنهم مشركون ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي حجة وبيانًا وبرهانًا على إشراكهم، أي لا حجة لهم بذلك. ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والنار بئس المثوى لهم. وفي الصحيحين: «أُعطيت خمسًا لم يُعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلت لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا، وأحلّت لي الغنائم، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة» [١٦٢]. وفي الحديث أيضًا: «إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفًا، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب» [١٦٣].

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أيدكم بالنصر. لما رجع النبي ﷺ وأصحابُه من أحد، قال قوم منهم من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله بالنصر؟ فنزلت هذه الآية. نعم؛ لقد وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر بأُحد فنصرهم لما صدقوا الحملة على المشركين، فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ هُزموا جزاء ما فرّطوا. وقال ابن عباس: ما نُصر رسول الله ﷺ في موطن ما نُصر في أُحد، فأُنكرَ ذلك عليه فقال: بيني وبينكم كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ فأما الحسُّ، فهو القتل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي جبنتم عن القتال ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي ما كان من مخالفة بعض الرماة لأمر رسول الله ﷺ ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمره، فتركتم مواقعكم طلبًا للغنيمة ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم﴾ الله ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر. وجواب (إذا) دل عليه ما قبله: أي منعكم نصره ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ فنهض للغنيمة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فثبت حتى قتل كعبدالله بن جبير ومن بقي معه ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾ عطف على جواب (إذا) المقدّر. أي ردّكم للهزيمة ﴿عَنْهُمْ﴾ أي الكفار ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي يختبركم وهو أعلم بكم منكم ولكن حتى يظهر لكم المخلصُ من غيره ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ ما ارتكبتموه ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالعفو والصفح.

(١٥٣) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي تبعدون في الجبل هاربين وأنتم ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ من الدهش والخوف ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أي من ورائكم، يقول: «إليّ عباد الله» [١٦٤]. ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا﴾ بالهزيمة ﴿بِغَمٍّ﴾ أي على غم لغمّكم رسول الله بمخالفته ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الغنيمة التي ما فاتتهم أخيرًا إلا بمعصية أمر الله وخلاف أمر رسول الله ﷺ ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الجراح والقتل والهزيمة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، سبحانه وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا
قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٤) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾ أمنًا ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل. وروى البخاري عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط فآخذه، ويسقط فآخذه. ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عزّ وجلّ سينصر رسوله وينجز له مأموله. ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف على أنفسهم وظنوا أن الشرك سينتصر وأن الإسلام قد باد وأهلـه، وأن النبي قتـل، أو أنه لا ينصر ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا﴾ أي ما لنا ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي خرجنا مكرهين فرد الله سبحانه عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وليس لكم ولا لعدوكم منه شيء. فالنصر بيده والظفر منه ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يضمرون فيها النفاق ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي لو كان الاختيار إلينا لم نخرج ولم نقتل لكن أخرجنا كرهًا ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ وفيكم من كُتب عليه القتل ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي هذا قدر قدّره الله عزّ وجلّ فلو كنتم قاعدين في بيوتكم، لم يكن بد من خروج من كُتبَ عليه القتل إلى هذه المصارع التي صرعوا فيها. ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص أو النفاق وهو سبحانه أعلم بها ولكن ليظهر أمر المؤمن من المنافق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي يميز ما فيها من الخبيث والطيب ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بما في القلوب، لا يخفى عليه شيء وإنما يختبر ليظهر للناس ما فيها.

(١٥٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ عن القتال ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المسلمين وجمع الكفار بأُحد وهم الرماة إلا اثني عشر رجلًا ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب، وهي مخالفة أمر النبيّ ﷺ ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي غفور للمؤمنين وحليم لا يعجل على العصاة لعلهم يتوبون فقد عفا الله عنهم مما كان منهم من الفرار.

(١٥٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لا تشابهوا الكفار الذين فسدت عقائدهم ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الذين ماتوا في الأسفار ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أي كانوا في الحروب ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ أي لو كانوا في بلدهم لما أصابهم ما أصابهم في السفر أو الغزو، أي لا تقولوا كقولهم ذلك ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي خلق ذلك الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم. ثم ردّ الله تعالى عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، فلا يحيا أحد ولا يمـوت إلاّ بمشيئته وقـدره، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلاّ بقضائه وقدره. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي علمه وبصره نافذ ومحيط في جميع مخلوقاته، وهو فوق سبع سماواته، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

(١٥٧) ﴿وَلَئِن﴾ لام قسم ﴿قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي ولئن ذهبتم إلى الجهاد في سبيل الله أو متم على أي وجه كان حسب تعلق الإرادة الإلهية، فإنه ولا شك وسيلة لمغفرة الله ورحمته وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني. واللام ومدخولها جواب القسم وهو في موضع الفعل مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا الفانية.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
(١٦٢) هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)
لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤)
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

(١٥٨) ﴿وَلَئِن﴾ اللام لام القسم ﴿مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ هذا أو ذاك ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة سادٌّ مسدَّ جواب الشرط. والمعنى: ستحشرون إلى الله الواسع المغفرة لا إلى غيره.

(١٥٩) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي برحمة من الله عليك يا محمد ألان قلبك على أمتك إذ خالفوك بأُحد. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لو كنت قاسيًا عليهم لتركوك ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي تجاوز عن أخطائهم، واستغفر الله لذنوبهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي احرص على مشورتهم، في أمورك المهمة وذلك فيما لم ينزل به الوحي ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على فعل شيء ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في فعله لا على مشورتهم. وفي الحديث: «حق المسلم على المسلم ستٌّ: إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له،...» [١٦٥]. وفي الحديث أيضًا: «إذا استشار أحدكم أخاه فليشرْ عليه»(١) [١٦٦]. وجاء أيضًا: «المستشار مؤتمن» [١٦٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي يحب المتوكلين عليه في كل الأمور فهو الكافي وحده.

(١٦٠) ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يعنكم على عدوكم كيوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يغلبكم ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي يترك نصركم كيوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي لا أحد يستطيع نصركم إن خذلكم الله. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليحسنوا التوكل عليه، والتفويض إليه وعدم الاعتماد على غيره.

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي لا يصح منه ذلك لتنافي الغلول والنبوّة. والغلول: أخذ شيء من مغانم المعركة وإخفاؤه عن الغير. وفي هذه الآية تنزيه أكيد للأنبياء عن الغلول لأنهم معصومون منه ومن كل منقصة. هذا على القراءة بالبناء للفاعل. وعلى القراءة بالبناء للمفعول: فالمعنى: ما صح لنبيّ أن يغلَّه أحدٌ من أصحابه، أي يخونه في الغنيمة، وفيها نهي للناس عن الغلول في المغانم ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يحمله على ظهره كما صح ذلك عنه ﷺ فيفضحه بين الخلائق ويطلع عليها أهل المحشر. وفي الحديث: قال عمر بن الخطاب: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلا إني رأيته في النار في بردة غلَّها أو عباءة». رواه أحمد ومسلم [١٦٨]. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي ما عملت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وحاشا الله أن يظلم أحدًا من خلقه. وهذا عام في كل من كسب خيرًا أو شرًا ويدخل تحتها الغالّ دخولًا أولويًا لكون السياق فيه.

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فلم يغل شيئًا وأطاعه في الأمر والنهي ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رجع بسخطه وغضبه ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي لا يستويان فليتبع المؤمن مراضي ربه.

(١٦٣) ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إنهم على منازل متباينة، هؤلاء في ضوافِ من الرضى، وأولئك في سخط ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بعدله.

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي إنه عربي مثلهم، لسانه لسانهم ونسبه نسبهم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فيفقهون قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من أرجاس الكفر والشرك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل بعثته ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي واضح لا يخفى على ذوي العقول السليمة.

(١٦٥) ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ بقتل سبعين منكم بأُحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: هذا الخذلان ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ لمخالفتكم الرسول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قدير على نصركم وخذلانكم.

(١) ضعيف.

المجاهد لا يغلّ، والغلول عار ونار وشنار يوم القيامة

وَمَا أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ
فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ (الحزب ٨)
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

٧٢

﴿١٦٦﴾ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بأُحُد وفراركم ووقوع القتل والجرح والهزيمة ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإرادته وقضائه وقدره ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المؤمنين حقًا الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا. والله سبحانه عليم بكل شيء إنما أراد إظهاره للناس ليقيم الحجة عليهم.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ عطف على ما قبله، والمرادُ بالمنافقين: عبدُ الله بن أُبي ابن سلول وأصحابه الذين نكلوا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ لما انصرفوا عن القتال ﴿تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ عن أنفسكم فأبوا ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ أي إنه سيكون قتال ﴿لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ وقاتلنا معكم، ولكنه لا قتال هنالك، فقال تعالى مكذبًا لهم: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي إنهم لأهل الكفر يومئذٍ أقرب نصرةً منهم لأهل الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والعداوة للمؤمنين.

﴿١٦٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ (الذين) بدل من (الذين) قبله، والمعنى: الذين قالوا لإخوانهم المنافقين ﴿وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ أي لو أطاعنا الذين قتلوا مع محمد في القعود وعدم الخروج ما كانوا قتلوا في المعركة. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين في دعواكم هذه

﴿١٦٩﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ نزلت في الشهداء، قيل شهداء أُحد، وقيل شهداء بدر، وقيل شهداء بئر معونة، فإنها وإن نزلت في سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتشمل كل شهيد في المعركة ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ حياةً حقيقية في الجنة. وقد ثبت في الحديث حقيقةُ هذه الحياة، ويرزقون من أثمار الجنة ويتنسمون رائحتها وينعمون في نعيمها الخالد.

﴿١٧٠﴾ ﴿فَرِحِينَ﴾ حال من ضمير (يرزقون) ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي من النعمة والغبطة. وفي الحديث: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرُّها أن ترجعَ إلى الدنيا إلاَّ الشهيد، فإنه يسرُّه أن يرجعَ إلى الدنيا فيقتلَ مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة» [١٦٩]. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم المؤمنين ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي إنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم من الدنيا.

﴿١٧١﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي سُرُّوا بما عاينوا من وفاء الموعود من قبله تعالى وجزيل الثواب والكرامة وزيادة عليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يأجرهم بأحسن ما عملوا في الدنيا من الأعمال الصالحة الخالصة لوجهه المطابقة لشرعه.

﴿١٧٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي بأُحد. وهذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك لما أراد أبو سفيان الكرَّ على المسلمين مرة ثانية بعد أُحد، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب المسلمين للخروج لقتال أبي سفيان ولكن ألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان لما علم بقدوم محمد وأصحابه إليه فقفل راجعًا إلى مكة يبتغي العافية. وخبر المبتدأ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة.

﴿١٧٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي نعيم بن مسعود الأشجعي الذي قال للنبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي المشركين ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ ليستأصلوكم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فلم يأبهوا بل أخلصوا لله ﴿فَزَادَهُمْ﴾ إخلاصُهم ﴿إِيمَٰنًا﴾ فيه دليل على أن الإيمان يـزيد وينقص ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي يكفينا وهو سبحانه خير من نتولَّاه ونتكل عليه ونسلم أمورنا إليه جلَّ وعلا.

إذا كان ترك الجهاد يدفع الموت، فادفعوه عنكم أيها القاعدون

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا
لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

٧٣

يوم أحد ظهر إيمان المؤمنين وفضح الله المنافقين

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ أي رجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي بعافية، وتجارة رابحة ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ من قتل أو جرح ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بطاعته وطاعة رسوله في الخروج ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ على أهل طاعته بدفع المشركين عن المؤمنين.

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ إذ لا يخاف من الشيطان وأوليائه إلاّ من تولاّهم ﴿وَخَافُونِ﴾ فإني كافيكم وناصركم فلا تخالفوا أمري ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بي حقًا وصدقًا.

(١٧٦) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ وهم الكفار جميعًا على اختلافهم، أي لا يحزنك مسارعتهم إلى المخالفة والعناد والشقاق ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بفعلهم إنّما يضرون أنفسهم. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار يوم القيامة.

(١٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم ﴿شَيْـًٔا﴾ قليلًا كان أو كثيرًا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم خالد مخلّد.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ بطول الأعمار وتأخيرهم ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ أي خير يعود عليهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ أي نمهلهم ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ بكثرة المعاصي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ذو إهانة في الآخرة.

(١٧٩) ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ أي يدع ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الاختلاط فيما بينكم وبين المنافقين ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي حتى يفرّق بين الخبيث المنافق والطيب المؤمن حقًا، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين فظهر فيه إيمانهم وثباتهم وهتك أستار المنافقين، فظهرت خيانتهم لله ولرسوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي إنكم لا تطلعون على الغيب حتى تعلموا المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختار منهم من يشاء فيطلعه على بعض غيبه، كما أطلع نبيه ﷺ على حال المنافقين. فإن ذلك كان بتعليم الله له، لا بكونه يعلم الغيب، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ...﴾ [الجن: ٢٧]، ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ جميعًا، وخاصة برسول الله ﷺ واتبعوه فيما يبلّغُكم عن الله، وافعلوا الإيمان المطلوب منكم، ودعوا الانشغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ بما ذكر ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ربكم فتتركوا معاصيه ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ عند الله فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي لا يحسبن البخلاء أن جمعهم للمال دون تأديتهم زكاته ينفعهم ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي مضرة لهم في دينهم لأنهم عصوا الله، وإنهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ومعنى التطويق هنا: أن يكون ما بخلوا به من المال طوقًا من نار في أعناقهم. وفي البخاري: «ومن آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثّل له شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه، يعني بشدقيه ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ...﴾» [١٧٠]. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقدموا من أموالكم ما ينفعكم في معادكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم به، أي بعملكم.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

٧٤

(١٨١) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وهم اليهود، قالوا: يا محمد، أفتقر ربك فسأل عباده القرض؟ وذلك لما نزلت آية ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فأجابهم الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي من غير ذنب يجنونه سوى أنهم يدعون إلى الله وتوحيده وطاعته، هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسله، وسيجزيهم على ذلك شر الجزاء ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ويقال لهم ذلك تقريعًا.

(١٨٢) ﴿ذَلِكَ﴾ أي العذاب الذي تذوقونه اليوم هو ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وحاشاه سبحانه من الظلم.

(١٨٣) ﴿الَّذِينَ﴾ نعت لـ (الذين) قبله ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ﴾ قد ﴿عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فلا نؤمن لك حتى تأتينا به، وهو ما يتقرب به إلى الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي بنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام؟ الخطاب لليهود زمن نبينا ﷺ لأنهم راضون عن فعل أجدادهم وهو قتل الأنبياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل!!!

(١٨٤) ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ، أي لا تبتئس إنما شأنك معهم شأن الرسل الذين كذبهم أقوامهم من قبلك، وقد ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات والحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي كصحف إبراهيم ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الواضح الجلي المضيء، وقيل: هو القرآن.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الجن والإنس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرًا، كما كان أولًا. ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي إذا انتهت البرية أقام الله القيامة، وحاسب الخلائق حسابًا عدلًا. ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ أي من جُنِّبَ النار ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي أفلح ونجح ونال غاية المطلوب الذي يؤمله ويرتجيه ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بما فيها من لذائذ وشهوات ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي الباطل الذي يغترٌّ به فيتمتع به قليلًا ثم يفنى. وهذا ولا شك تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها. وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بما يرجع إليه» [١٧١]. وقال قتادة في وصف الدنيا: هي متاع متروكة أوشكت والله أن تضمحل عن أهلها.

(١٨٦) ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده وأهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ وهذه تسلية للرسول ﷺ ولأمته عما سيلقونه من الكفار ليُوطِّنوا أنفسهم على الثبات والصبر على المكاره، ويأمرهم أن يقابلوه بالصبر والصفح حتى يأتي الفرج من عند الله، ولذلك قال لهم مسليًا: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ومن حديث أسامة: «كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى. قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم» [١٧٢]، أي وكانت غزوة بدر.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

٧٥

(١٨٧) ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوِّهوا بذكره في الناس، حتى إذا أرسله الله تابعوه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أي تظهروا لهم ما في الكتاب الذي هو التوراة، ولا تبطنون أمره ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي أنهم ما اكتفوا أن لا يظهروه للناس بل طرحوه وأهملوه وجعلوه وراء ظهورهم ولم يعملوا به ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ﴾ أي استبدلوه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي بالدون الطفيف من الحظ الدنيوي من سفلتهم ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي لبئست الصفقة والبيعة، من الجاه والرياسة بغضب الله وسخطه.

(١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا﴾ أي فعلوا من إضلال الناس ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ كما جاء في الصحيحين: «من ادعى دعوى كاذبة ليتكثَّر بها لم يزدْهُ الله إلاَّ قلة» [١٧٣]، وفي الصحيحين أيضًا: «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبَي زور» [١٧٤]. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ﴾ أي بمنجى ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ في جهنم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم خالدٌ لا يخفف ولا ينتهي.

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهابوه ولا تخالفوه واحذروا غضبه ونقمته.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بارتفاع هذه وانخفاض هذه وما فيهما من سيارات وثوابت وبحار وقفار، وحيوان ونبات ومعادن ومنافع عامة ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما من طول وقصر وزيادة ونقصان ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلالاتٍ ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي أصحاب العقول السليمة.

(١٩١) ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لما قبله أو بدل ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي لا يفترون عن ذكر الله وتذكُّره في جميع حالاتهم في أعمالهم وفي بيوتهم وعند اضطجاعهم ونومهم بأنه يراهم ويراقبهم وسيحاسبهم فيذكرونه بالدعاء والتمجيد والتعظيم، وكذلك فإن الصلاة ذكر أيضًا في كل حالاتها كما ثبت في الصحيحين: «صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنبك» [١٧٥]. وليس الذكر كما يفتعله أهل الطرق بحركاتهم الإيقاعية على المكاء والتصدية والدف والصنج والناي، بحركات خالية من أي معنى من معاني الخشوع والسكينة المطلوبة في الذكر، إنما هي بالرقص أشبه. عدا عن الأناشيد الشركية التي ينشدونها في حلقاتهم:

(يا شيخي يا رفاعي... أدركني بالفرج... فإذا لم تدركني... فإلى من ألتجي؟) والعياذ بالله من الشرك وسوء المنقلب، وهم يظنون بفعلهم هذا أنهم يتقربون به إلى الله، فلا يستغفرون ويموتون على ما يقولون. أما الذاكرون حقًا فهم الذين وصفوا آنفًا أول الآية، وكما في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ...﴾ [الأعراف: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي والتفكر ذكر أيضًا[1]. والرفاعي بريء من المشركين.

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي باء بالخسران ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي إنَّ الكافرين ما لهم من يمنعهم من عذاب الله.

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ أي المنادي هو محمد ﷺ ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ وهذا توسل بالإيمان وهو أعظم الأعمال الصالحة ﴿رَبَّنَا﴾ فبسبب إيماننا بك وبه ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي تجاوز لنا عنها ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ واقبضنا إليك في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنتهم من المغفرة والنصر على الأعداء ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأنَّ وعدك الحق وحاشاك أن تخلفه.

---

(١) كما في رسالتنا «حقيقة الذكر»، تحت الطبع.

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟
وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

٧٦

(١٩٥) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إن المؤمنين لما سألوا [ما سألوا] متوسلين إليه تعالى بالإيمان الذي دعا إليه محمد رسول الله ﷺ أن يتقبل دعاءهم، ويستجيب لهم سؤلهم بمغفرة ذنوبهم وتكفيرها عنهم وأن يتوفاهم مع الأبرار، فعقَّب على توسّلاتهم المشروعة بالاستجابة. وفي الحديث عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾» [١٧٦]. أي كلكم من آدم وحواء وجميعكم في ثوابي سواء ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ أي هجروا دار الشرك إلى دار الإيمان ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي بمضايقة من المشركين فألجأوهم إلى الهجرة ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ لأنهم آمنوا بي وبرسولي ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده، ويعفّر وجهه بدمه وترابه. وفي الصحيحين: أن رجلًا قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفِّر اللهُ عني خطاياي؟ قال: «نعم، إلاّ الذي قاله جبريل آنفًا». وفي لفظ مسلم والترمذي والنسائي: «... إلاّ الدَّيْن فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك» [١٧٧]. ولذلك قال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي أحسن الجزاء لمن عمل صالحًا ورضيهُ منه.

(١٩٦) ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي لا يغرك يا محمد ظاهر حال الكفار من الترف والنعمة، إنما هو استدراج، وسيزول هذا كله عنهم، ويصبحون مُرتَهَنين بسيئاتهم. نزلت هذه الآية لما قال المسلمون: أعداءُ الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد! فنزلت تسليةً لهم.

(١٩٧) ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ للكفار في الدنيا ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي بئس الفِراشُ هي، وبئس المثوى.

(١٩٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ بالطاعات ابتغاء مرضاته ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في الهناءة والرغد ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي لا يخرجون منها أبد الآبدين ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي ضيافة آبدة من لدنه تعالى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي خير مما عند الكفار من الترف في الدنيا، وفي هذا تمام التسلية. وفي الحديث: «إنما سمُّوا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقًا كذا لولدك عليك حقٌ»(١) [١٧٨].

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي من القرآن، كعبدالله بن سلام وأصحابه، والنجاشي ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل المبشّرة بمبعث محمد رسول الله ﷺ ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي خاضعين ﴿لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي عندهم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كفعل غيرهم من الأحبار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين آمنوا من أهل الكتاب ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي يؤتونه مرتين. وفي الصحيحين: «ثلاثة يؤتَوْن أجرهم مرتين -فذكر منهم- رجلًا من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي» [١٧٩]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي في حسابه للخلق، وهو أسرع الحاسبين.

(٢٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ أي اصبروا على دينكم وطاعة أوامره وصابروا الأعداء وجاهدوهم ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أي المرابطة لحفظ ثغور المسلمين، وصيانتها عن دخول الأعداء بلاد المسلمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تفوزون بالجنة وتنجون من النار.

آخر تفسير سورة آل عمران ولله الحمد والمنّة

---

(١) ضعيف.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا
زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ
بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ
وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ
فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ
ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ
هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ
قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ
ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ
إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ
غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا
دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾

٧٧

(٤) سورة النساء

مدنية وآياتها ١٧٦، نزلت بعد الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يا أيها الناس﴾ أي: يا بني آدم ﴿اتقوا ربكم﴾ أي اعبدوه وحده لا شريك له ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ أي من آدم ﴿وخلق منها زوجها﴾ أي حواء التي خلقت من ضلعه الأيسر. وفي الحديث: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها، استمتعت بها وفيها عوج» [١٨٠]. ﴿وبث منهما﴾ أي نشر من آدم وحواء عليهما السلام ﴿رجالا كثيرا ونساء﴾ أي كثيرة، في أقطار الأرض ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾ كقول أحدكم: أسألك بالله ﴿والأرحام﴾ أي لا تقطعوها بينكم، وبرّوها وصلوها. ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾ أي لا تفلتون من رقابته وشهيدًا على أعمالكم. وفي الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [١٨١]. وهذا أمرٌ منه تعالى للتحقق بمراقبته.

(٢) ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي ردّوها إليهم إذا بلغوا، وفي الحديث: «... ولا يُتْم بعد احتلام» [١٨٢]. وهذا خطاب للأولياء والأوصياء، ولكنه مقيّد بالرشد كما سيجيء بعد قليل في الآية رقم (٦) ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ أي لا تأخذوا من مال اليتيم الطيب، وتعوضوه بالرديء من مالكم ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى﴾ أي مع ﴿أموالكم إنه﴾ أي أكلها ﴿كان حوبا كبيرا﴾ أي إثمًا عظيمًا، وهذا منسوخ بالآية (٢٢٠) من سورة البقرة: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ أي لا بأس.

(٣) ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا﴾ أي تعدلوا ﴿في اليتامى﴾ أي اليتيمة تكون في حجر وليّها تشركه في مالها، ويعجبه مالها وجمالها، فيرغب في زواجها دون إعطائها مهر المثل، فنهى الله عن ذلك ... إلا أن يعدلوا في المهر، ويبلغوا أعلى ما هو لهنّ من المهر، وإلاّ ﴿فانكحوا﴾ غيرهنّ من ﴿ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ لغيلان الثقفي الذي أسلم وتحته عشر نسوة: «اختَر منهن أربعًا» [١٨٣]. والآية والحديث نصّان في تحريم الزيادة على الأربع، وقد أخطأ مَنْ فهم مِنَ الآية جواز نكاح التسع!!! ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ أي ألاّ تعدلوا فيما بين أكثر من زوجة في النفقة والقَسْم فاكتفوا بنكاح واحدة ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ من الإماء فإنه لا يجب قسم بين الإماء إنما يستحب ذلك ﴿ذلك أدنى﴾ أي أقرب إلى ﴿ألا تعولوا﴾ أي تجوروا وتظلموا.

(٤) ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ أي آتوهن مُهورهنّ عطية عن طيب نفس ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا﴾ أي وهبنه لكم عن طيب نفس ﴿فكلوه هنيئا مريئا﴾ محمود العاقبة. وقد نزلت هذه الآية ردًّا على من كره ذلك.

(٥) ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ أي لا تؤدُّوا للسفهاء أي المبذِّرين من الرجال والنساء والصبيان أموالهم التي هي في أيديكم ﴿التي جعل الله لكم قياما﴾ أي تقيم أودكم وتغنيكم عما في يد الغير ﴿وارزقوهم فيها﴾ أي أطعموهم منها ﴿واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أي قولوا لهم: سنعيد لكم أموالكم عند الرشد.

(٦) ﴿وابتلوا اليتامى﴾ أي اختبروهم في بلوغهم وحسن تصرفهم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ أي الحُلم ﴿فإن آنستم منهم رشدا﴾ في حالهم وإصلاحًا في أموالهم ﴿فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا﴾ أي بغير حق ﴿وبدارا أن يكبروا﴾ أي مبادرين إلى أكله قبل بلوغهم ﴿ومن كان غنيا﴾ من الأولياء ﴿فليستعفف﴾ عن أخذه أجرة كفالتهم ﴿ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ بقدر أجرة عمله ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ أنهم قبضوها كاملة تامة ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ عليكم يوم القيامة.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً
فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا
ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى
بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

٧٨

﴿٧﴾ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي للذكور كبارًا كانوا أو صغارًا حِصَّةٌ من إرثهم من والديهم وأقربائهم المتوفَّين، وكذلك أيضًا ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي للنساء نصيب كالرجال تمامًا صغارًا أو كبارًا ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ من الله تعالى لا بد من تسليمه إليهم قلَّ أو كثر، بحسب قرابة الوارث من المورِّث، وكانوا في الجاهلية لا يُورِّثون النساء والأطفال، فأنزل الله هذه الآية فورَّثهم، أي إن الجميع مستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا استحقاقًا.

﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ للميراث ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ممن ليس بوارث ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي أعطوهم شيئًا قبل القسمة ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ﴾ إذا كان الورثة صغارًا ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي جميلًا فاعتذروا إليهم بأنكم لا تملكون المال وإنه للصغار، وعن ابن عباس: أن هذه الآية منسوخة ونسختها آية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وكان سابقاً معمولًا بها قبل نزول آية الفرائض التي أعطت كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه. وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم، وبقي حكمها للندب المرغَّب فيه، صدقةً وإحسانًا وجبرًا.

﴿٩﴾ ﴿وَلْيَخْشَ﴾ أي الأوصياء على اليتامى ﴿ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي بعد وفاتهم ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ أي أولادًا صغارًا، وسيصبحون أيتامًا بعدهم و﴿خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ الضياع ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في اليتامى الذين هم تحت وصايتهم، فكما تحبون أن تعامل ذراريكم من بعدكم فعاملوا ذراري الناس الذين هم تحت وصايتكم كذلك ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ لمن يُحتضَرُ. ولينصحوهم بألاَّ يوصوا بأكثر من الثلث كيلا يتركوا ورثتهم عالةً على الناس، وقد أوصى رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في مرضه ألاَّ يوصي بأكثر من الثلث، وقال: «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» [١٨٤].

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ أي بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي نارًا تؤجج عليهم يوم القيامة، وقد ذكر في الصحيحين في جملة السبع الموبقات: «وأكل مال اليتيم» [١٨٥].

﴿١١﴾ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي إرث الذكر مثلُ إرث البنتين، وإذا اجتمعتا معه فله النصف ولهما النصف، فإن كان معه واحدة فلها الثلث، وله الثلثان، وإن انفرد حاز المال ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ فقط ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المورث، وكذا الاثنتان لأنه للأختين بقوله: ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، فهما أولى، لأن البنت تستحق الثلث مع الذكر، فمع الأنثى أولى. و(فوق) قيل لدفع توهُّم زيادة النصيب بزيادة العدد لما فهم استحقاق البنتين الثلثين، من جعل الثلث للواحدة مع الذكر ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ منه ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى. ونكتة البدل، أنهما لا يشتركان فيه، وألحق بالولد ولد الابن، وبالأب الجدُّ ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فقط أو مع زوج ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي ثلث ما يبقى بعد إرث أحد الزوجين، والباقي للأب ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ أي اثنان فصاعدًا ذكورًا أو إناثًا ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ والباقي للأب ولا شيء للإخوة، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث، ويحجبها ما فوق ذلك ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي هذه السهام إنما تقسم بعد الوصية والدين، وقد أجمع علماء السلف والخلف على تقديم الدَّين على الوصية، لأن رسول الله ﷺ قضى بذلك، ثم لأن الدَّين حق عليه، والوصية حق له. وهما جميعًا مقدمان على حق الورثة، ثم إن (أو) لا توجب الترتيب، إنما تدل على أن أحدهما إن كان، فالميراث بعده أو بعدهما ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ في الدنيا والآخرة، إنما العالم هو الله تعالى ففرض لكم الميراث ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي هو عليم بالأشياء قبل خلقها، وحكيم فيما يقدره، ويُمضيه منها.

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن
لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ
فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم
مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ
رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ
أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيركم ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالإجماع ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ أي الزوجات حتى الأربع ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ منهن أو من غيرهن ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ وولد الابن في ذلك كالولد إجماعًا ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ أي لا والد له ولا ولد ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ تورث كلالة ﴿وَلَهُۥٓ﴾ أي للموروث كلالة ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي من أم كما هو قراءة بعض السلف منهم: سعد بن أبي وقاص، وكذا فسرها أبو بكر الصديق ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ مما ترك ﴿فَإِن كَانُوٓا۟﴾ أي الإخوة والأخوات من الأم، ﴿أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي أكثر من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ يستوي فيه ذكرهم وأُنثاهم، وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه: أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم. والثاني: إن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء. والثالث: لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن. والرابع: إنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور، بأن يحرم بعض الورثة، أو ينقصه أو يزيده. ولذا فقد ورد في الحديث: «الإضرار في الوصية من الكبائر»[1] [١٨٦]. وروي موقوفًا على ابن عباس، ووقفه أصح من رفعه. وفي الحديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقّه فلا وصية لوارث» [١٨٧] ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

(١٣) ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة آنفًا بشأن الميراث هي ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فلا تجاوزوها بزيادةٍ أو نقص ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما حكم به ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في النعيم المقيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي لا موت ولا خروج ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا يضاهى.

(١٤) ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ أي ما حدّ من الشريعة الكاملة التامة فتعداها إلى غيرها مما تواضع عليه الكفرة من الحكم بغير ما أنزل الله بإعطاء الأنثى كالذكر تمامًا، وغير ذلك من إيقاف الحدود وإبدالها بأحكام أخرى من وضع المخلوقين وفضّلها على الحكم بما أنزل الله ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله ﴿نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ لأنه كفر بما أنزل على محمد ﷺ بتفضيله حكم الكفار ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لأنه غيَّر أحكام الله، وضاهَى الله في شرعه. فلهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم. وليس الترغيب والترهيب الواردان في هاتين الآيتين الكريمتين خاصين فقط في أحكام الإرث بل عامّان في كل أحكام الله تعالى التي لا يجوز تعدّيها إلى الأحكام الوضعية ومن يستبدل الطيب بالخبيث إلا من سفه نفسه؟!!! فيا ليت قادة المسلمين يتعظون ويعتبرون فيعودوا إلى الله وإلى أحكام الله.

---

(١) ضعيف.

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ
عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي
ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا
﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا
وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ
قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ
لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ
مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ
أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

٨٠

(١٥) ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي الزنى ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ أي اسمعوا شهادة أربعة رجال من المسلمين ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عليهن بالفاحشة ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ أي احبسوهن فيها ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ أي حكمًا آخر وكان هذا أول الإسلام، ثم نسخ بما سيأتي من ذكر الجلد والرجم.

(١٦) ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال، قيل: هذا الحكم في الرجال الزناة، والحبس للمرأة خاصة ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ أي ارفعوا عنهما الأذى، فالتوبة تقبل منهما. وقيل أيضًا: هذا في الرجلين يعملان عمل قوم لوط، على أن الأذى والحبس نُسخا بما جاء في سورة النور من الجلد مائة، وبما جاء في الحديث من تخصيص الجلد بالبكر والرجم بالثيب. فقد روى أحمد ومسلم وأهل السنن: «خذوا عني قد جعل الله لهنّ سبيلًا: الثيب بالثيب، والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة»، واللفظ لأحمد [١٨٨]، وإنّ رجم ماعز والغامدية واليهوديين دون جلدهم دليل على نسخ الجلد بحق الثيب الزاني.

(١٧) ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي التي كتب الله على نفسه قبولها فضلًا منه ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي يعملون المعصية، والجاهل هنا هو أن العاصي حال قيامه بالمعصية فهو جاهل، وكل ذنب أصابه عبدٌ فهو بجهالة ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ أي ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي يقبل توبتهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٗا﴾ في صنعه بهم. وفي الحديث عند أحمد: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [١٨٩]، وروى أحمد: «قال إبليس: يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» [١٩٠].

(١٨) ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي المعاصي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي الاحتضار ﴿قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ فلا ينفعه ذلك ولا يقبل منه ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ إذا تابوا أيضًا عند النزع فلا تقبل منهم كما تاب فرعون وآمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل حين عاين ملك الموت عند الغرق، ولكن لم تقبل توبته ومات على كفره، ومن عجب أن بعضًا ممن يدعون الانتماء إلى الإسلام يقولون بنجاة فرعون!! رغم ما جاء في الآيات البينات من تقرير كفره. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي فرعون وأمثاله من الكفار ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ أي أعددنا وهيّأنا ﴿لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي موجعًا شديدًا مقيمًا.

(١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ أي إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته تزوجًا منها، أو تزويجًا لها وأخذ مهرها، أو إعضالها حتى تفتدي بما ورثته، أو تموت فيرثوها فنهُوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ أي تحبسوهن عندكم مع عدم رغبتكم فيهن؛ ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ من المهر ليفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم مع كراهتكم لهن ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ جاز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتموهن ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي بما عرف في هذه الشريعة من حسن المعاشرة من النفقة والمبيت ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ لسبب من الأسباب من غير ارتكاب فاحشة ولا نشوز ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أي يؤول الأمر إلى ما تحبون من ذهاب الكراهة، وتبدلها بمحبة، فيكون في ذلك خير كثير من استدامة الصحبة، وحصول الأولاد، واستقامة الحياة الزوجية.

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

٨١

المحرمات من النسب والرضاع، لا تحرم إلا الخمس رضعات

(٢٠) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي إذا أراد أحدكم مفارقة زوجته، والزواج من غيرها، ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي الزوجات ﴿قِنطَارًا﴾ أي مالًا كثيرًا صداقًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لا تستردوا منها شيئًا من المهر، وهذا دليل على المهر الكثير وجوازه. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي ظلمًا وذنبًا بيِّنًا ظاهرًا. ونصب (بهتانًا) و(إثمًا) على الحال.

(٢١) ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ هذا استفهام للتوبيخ وللإنكار. أي بأيِّ وجه من الوجوه تأخذونه؟! ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾ أي وصل ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالجماع إذ إن الصداق في مقابلة البضع ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ وهو ما أمر الله به من إمساكهنّ بمعروف أو تسريحهنّ بإحسان. وقوله ﷺ: «... واستوصوا بالنساء خيرًا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» [١٩١].

(٢٢) ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لا تتزوجوا زوجات آبائكم مكرمةً لهم وإعظامًا واحترامًا أن توطأ... حتى أنها تحرم على الابن بمجرد عقد الأب عليها، وهذا أمر مجمع عليه. وقد كانوا في الجاهلية لا يحرمون نكاح زوجة الأب من بعده، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي ما مضى من فعلكم على أن هذا الأمر حرام في هذه الأمة، مبشع غاية التبشيع، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ أي نكاح زوجة الأب بعده كان أمرًا قبيحًا جدًا ﴿وَمَقْتًا﴾ وهو أشدّ البغض ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس هذا السبيل المقيت. وهذه صفات ثلاث تدل على أنه أشدُّ المحرمات وأقبحها، وقد كانت الجاهلية تسميه (نكاح المقت). إذ يؤدي إلى مقت الابن أباه، فمن تعاطاه بعد هذا التحريم فقد ارتد عن دينه. وعن البراء بن عازب قال: «مرَّ بي عمي الحارث بن عمير، ومعه لواء قد عقده له النبيّ ﷺ، فقلت له: أي عم، أين بعثك النبي؟ قال: بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه» [١٩٢].

(٢٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ أن تنكحوهن وشملت الجدات من قبل الأب والأم ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وشملت بنات الأولاد وإن سفلن ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ من جهة الأب والأم ﴿وَعَمَّـٰتُكُمْ﴾ أي أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿وَخَـٰلَـٰتُكُمْ﴾ أي أخوات أمهاتكم وجداتكم ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ويدخل فيهن أولادهن ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ قبل استكمال الحولين خمس رضعات، كما بينه الحديث الصحيح: «لا تحرّم الرضعة أو الرضعتان» مسلم [١٩٣]، والحديث الآخر: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن، ثم نسخن بخمس معلومات...» مسلم [١٩٤]، وفي الحديث فيما يتعلق بما يحرّم: «لا يُحرِّمُ مِنَ الرَّضاعة إلاّ ما فتقَ الأمعاء في الثّدي، وكان قبلَ الفِطام» رواه الترمذي وغيره [١٩٥]، ولا تحرِّم الرضاعة بعد الفطام؛ للحديث الصحيح: «لا رضاع بعد فصال ولا يُتم بعد احتلام» أبو داود [١٩٦]. ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾ ويلحق بذلك بالسنة البنات منها وهن من أرضعتهن موطوءته، والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت منها، لحديث: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب» أخرجاه [١٩٧]. ﴿وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ﴾ وهي بنت الزوجة من غيره ﴿ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح بناتهن إذا فارقتموهن قبل الدخول بهن ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾ بخلاف من تبنَّيتموهم فلكم نكاح أزواجهم بعدهم؛ كزواج النبي ﷺ من زينب بعد زيد ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ من نسب أو رضاع بالنكاح، ويلحق بهما بالسنة الجمع بينها وبين عمتها أو خالتها، ويجوز نكاح كل واحدة على الانفراد، وملكهما معًا ويطأ واحدة دون الأخرى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ في الجاهلية من نكاحكم، فإذا كان الرجل عنده من نكاح الجاهلية شيء فليعدّله بما جاء في الإسلام. وعن الضحاك بن فيروز الديلمي رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، إن تحتي أختين، قال: طلّق أيّهما شئت» [١٩٨]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟
بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ
مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ
ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ
بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ
أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ
ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿٢٤﴾ ﴿وَ﴾ حرمت عليكم، ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ وهن المزوجات ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أن تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن إن كن حرائر مسلمات أو لم يكنّ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الإماء بالسبي، فإنه يحل لكم وطؤهنّ بعد الاستبراء. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري: «أصبنا سبيًا من سبي أوطاس، ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ فاستحللنا فروجهن» ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ومسلم في صحيحه [١٩٩]. ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ نصب على المصدر، أي كتب ذلك ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي سوى ما حرم عليكم من النساء ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي، متزوجين لا زناة ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموهن محصنين غير مسافحين ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهنّ، قيل: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بنهي رسول الله ﷺ عن متعة النساء. وهذا تكلف لا يحتاج إليه، لأن النبي ﷺ أجاز المتعة، ثم منع منها، فكان قوله منسوخًا بقوله. ﴿فَرِيضَةً﴾ من الله تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ من حطها أو بعض منها، أو زيادة عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي مؤونة النكاح ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي الحرائر ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هو جريٌ على الغالب فلا مفهوم له ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ ينكح ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ إذ إن لكم الظاهر، ورُبَّ أمة تفضل حرة ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي كلكم سواء في الدين، فلا تأنفوا من نكاحهن، بل ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: أوليائهنّ ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ عفائف غير زوان ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي أخلاء فاجرين ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي زُوِّجن ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي الحرائر الأبكار إذا زنين ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي من الحد، أي خمسين جلدة وتغريب ستة أشهر، لأنه لا رجم على الإماء أصلًا ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي إثم الزنى وعقوبته، وخرج بقوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الكافرات، فلا يحل زواج الأمة الكافرة، ولو عدم المال وخاف العنت ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾ عن نكاح المملوكات ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لئلا يصير أولادكم منهن أرقاء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالتوسعة في ذلك.

﴿٢٦﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء في التحليل والتحريم وطرائقهم الحميدة لتتبعوهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الإثم والمحارم، ويرجع بكم عن معصيته التي كنتم عليها إلى طاعته ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكم ومطّلع على سرائركم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي في شرعه وقدره، وأفعاله وأقواله، لا إله غيره ولا رب سواه.

تحريم أمهات الزوجات وبناتهن، تنكح الأمة بإذن سيدها أو ولي سيدتها

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا
وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ
عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ
وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ
وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ
نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي يريد أن يدلكم على ما يكون سببًا لتوبتكم ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي يريد أتباع الشيطان من اليهود والنصارى والزناة ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ عن الحق إلى الباطل فتكونوا مثلهم والعياذ بالله تعالى.

(٢٨) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾ أي يسهّل عليكم ما كلّفكم به من شرائعه، وأوامره ونواهيه، ولهذا أباح الإماء، أي تزوجهن ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ في صبره عن النساء، فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وعزمه وهِمّته.

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي بأنواع المكاسب المحرمة، كأنواع الربا والقمار، ومن أنواع الربا في زمننا هذا ما هو مشهور تعامله: كالبيع بالتقسيط دينًا فيزيد عليه من أساس السعر مقابل التأجيل، والبيعتين في بيعة بأن يبيع بالحاضر بعشرة مثلًا ولأجل باثني عشر وما أشبه، وكذلك عمل اليانصيب المعروف فهو قمار صرف والعياذ بالله. إلى غير ذلك من صنوف الحيل العديدة التي يحتالون بها، والله عليم بحيلهم ولا تخفى عليه منهم خافية. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ ضمن ما شرع الله وكم من مُستَحِلٍّ حرمات الله في البيع والشراء محتجًا بقوله تعالى: ﴿...عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾، والمقصود بالتراضي ضمن حدود ما شرع تعالى، لا أن نحتال -إنما الحيلة في ترك الحيل-. وروى ابن جرير عن ميمون بن مهران، قال: قال رسول الله ﷺ: «البيع عن تراض، والخيار بعد الصفقة، ولا يحل لمسلم أن يغش مسلمًا» [٢٠٠] مرسل، وميمون تابعي. ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرّقا» [٢٠١]. ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بارتكاب ما يؤدي إلى هلاكها بشكل عام، ومن ذلك ما يفعله بعض أهل الطرق من ضرب نفسه بحديدة (الشيش)، أو يتحسى سمًا ويدعي أن هذا من الكرامة!! والكرامة حق على ألا تكون في معصية الله ولا أن تكون على وجه التحدي، ألا وإن الله يكرم من يشاء بما شاء. وفي الحديث: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالدًا مخلدًا أبدًا، ومن قتل نفسه بسمّ فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا» [٢٠٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ في منعه لكم من ذلك.

(٣٠) ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا﴾ تجاوزًا للحلال -حال- ﴿وَظُلۡمٗا﴾ تأكيد ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

(٣١) ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ في الشرع من المحرمات، ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ الصغائر بالطاعات ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ هو الجنة.

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في الدين والدنيا دفعًا للحسد والبغضاء ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَ﴾ كل بحسبه من الطاعات والعمل المرضي. ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ ما احتجتم إليه يعطكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ ومنه محل الفضل والسؤال. قيل: نزلت هذه الآية لما قالت أم سلمة: (ليتنا كنا رجالًا فجاهدنا وكان لنا مثل أجر الرجال).

(٣٣) ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ أي من الرجال والنساء جعلنا ورثة يُعطَوْن ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ لهم من المال ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ ممن عاهدتموهم في الجاهلية على النُصرة والإرث، وكذلك العهد بين المهاجريِّ والأنصاريِّ من الإرث بالتآخي أول الهجرة ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ أي من النصرة والنصيحة والرفادة لا من الإرث الذي ردّه الله إلى مستحقّيه بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ أي مطّلعًا ورقيبًا.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ
قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ
وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن
يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا
﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

(٣٤) ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي قائمون بالولاية عليهن بطاعة الله في أنفسهن وأزواجهن وبيوتهن وأولادهن وهم المشْرفون على سائر أمورهن بالعدل والحق، لا بالتسلّط والظلم إنّما يوجّهونهن للعمل الصالح، والصدق في النصيحة، وذلك ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي بما ميّز الله خَلق الرجل عن المرأة، فجعله من نواحي أعقل منها، وأشدَّ صبرًا في الملمات وأحزم في الأمور وأبصر بالعواقب، وهي من جهة أخرى أرق عاطفة على الأولاد، وأصبر على تربيتهم، وأحذق في أمور المنزل وصيانته وإدارته الداخلية. وكل واحد منهما يتمم الآخر، ليكون البيت كاملًا في مقوماته، وهذه حكمة الله تعالى الذي أحسن كل شيء خلقه، تبارك وتقدّس ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فإن الرجل هو المنفق عليها بالمهر والمعاش والسكن والكسوة وعلى أولادها. وليست هي مكلفة بشيءٍ من هذا ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أي المحسنات إلى أزواجهن، والعاملات بالطاعة ﴿قَانِتَاتٌ﴾ أي مطيعات لأزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي المحفوظ من حفظه الله. وفي الحديث: «خير النساء امرأة إذا نظرتَ إليها سرّتْك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبتَ عنها حفظتْك في نفسها ومالك». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾» [٢٠٣]. ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ الناشزة: المترفّعة الناكرة لأمره، المعرضة عنه، العاصية لنصائحه ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي خوّفوهن من الله ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ألاّ يجامعها ويضاجعها على فراشه ويوليها ظهره ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا غير مبرّح، أي لا تكسر عظمًا ولا يؤثر فيها ضربك. هذه مراحل في التأديب تعالج فيها زوجتك الناشزة ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فليس له سبيل إلى ضربها أو هجرانها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فاحذروا عقابه إن ظلمتموهن.

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي تحول النشوز إلى النفور من الطرفَيْن ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي حكمان حكيمان ثقتان، يفعلان ما يريانه من المصلحة للطرفين ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي بين الزوجَيْن من إصلاح أو فراق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿خَبِيرًا﴾ أي بالبواطن والظواهر.

(٣٦) ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من خلْقه ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي برًا ولينًا وخفضَ جناح لهما ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي أولي الرَّحم، كما جاء في الحديث: «الصدقةُ على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة» [٢٠٤]. ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي قرابة نسب ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي بعيد عنك في الجوار والنسب ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ أي الزوجة ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المنقطع في سفره ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الأرقاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبرًا ﴿فَخُورًا﴾ على الناس بما أوتي، ويرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير وهو عند الله حقير. وفي الحديث: «إياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة والله لا يحب المخيلة» [٢٠٥].

(٣٧) ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بالزكوات والصدقات ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي من العلم والمال وهم اليهود وأمثال اليهود. فالبخيل جَحود لنعمة الله فلا تظهر لا على نفسه ولا على غيره ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ والكفر هو الستر، فالبخيل يستر نعم الله فهو كافر لها، وفي الحديث: «إياكم والشح، فإنّه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» [٢٠٦]. والكفر بمعنَيَيْه: الجحود بالنعمة والجحود بالإيمان إذا اجتمعا كان صاحبهُما كافرًا مستحقًا للعذاب المهين الخالد المخلّد في النار.

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

﴿٣٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: رياء لهم وسمعة. وفي الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن عبدالله بن جُدعان: هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يومًا من الدهر: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [٢٠٧]. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي لم يفردوه بالعبادة ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي بالبعث. والشيطان هو الذي سوّل لهم ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾ أي خليلًا مقارنًا ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ له في الدنيا والآخرة.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي وما ضرهم ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي عبدوه وحده، ولم يراءوا في أعمالهم ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي صدقوا بيوم القيامة ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ابتغاء مرضاته، ولوجهه الكريم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي بنواياهم وأعمالهم الصالحة والفاسدة.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لأنه حرّم الظلم على نفسه، وإن الظلم صفة نقص منزَّه سبحانه عنها، فلا يبخس عباده أعمالهم ولا مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي أضعافًا مضاعفة، ومن حديث لأبي هريرة: والله بل سمعت نبيَّ الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفَيْ ألف حسنة» [٢٠٨]. ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي أجرًا لا حدَّ له.

﴿٤١﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ أي بنبيٍّ من كل أمة يشهد أنه بلّغها الرسالة ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ أي على كفار قريش، فكيف يكون حالهم؟ وهذا الاستفهام معناه التوبيخ والتقريع. وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ»، فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾. فقال: «حسبك الآن»، فإذا عيناه تذرفان [٢٠٩].

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي يتمنون حينها لو تنشق بهم ويسيخُون فيها مما يرون من أهوال الموقف ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي لا يستطيعون كتمانه وإخفاءه.

﴿٤٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ أي حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، ولذا قال: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ أي تفهموا ما تقرأون في الصلاة ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي ولا تقربوا محالَّ الصلاة وهي المساجد حال الجنابة إلا اجتياز طريق ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ بالماء ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وهذا يدل على التيمم من الحدثين الأصغر والأكبر عند فقد الماء سفرًا أو حضرًا، ومعنى ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي جامعتموهن، والمقصود الجنابةُ إن بالجماع أو الاحتلام أو غير ذلك بفعل يُخرج المنيَّ. والتيمم الشرعي هو كما ورد في الحديث، قوله: «إنما كان يكفيك، وضرب النبي ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه» [٢١٠]. وروى أحمد عن عمار: أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضربة للوجه والكفين» [٢١١]. ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ كما بينه رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي عفا عنكم ورحمكم بالترخيص لكم بالتيمم في الحالات المذكورة وغفر لكم.

﴿٤٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود لعنهم الله ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ بالهدى ويعرضون عن القرآن ويتركون ما جاءت به التوراة من صفة محمد ﷺ ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تكفرون بما أتاكم من الهدى.

لا تنفع الصالحات مع الشرك، مضاعفة الحسنات، التيمم ضربة واحدة، الملامسة: الجماع

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ
وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا
لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا
مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ
ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا
مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

٨٦

اليهود يحرفون الكلم، الشرك أعظم الظلم، المغفرة للموحدين، الطاغوت ما عبد من دون الله برضاه

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم، والجملة اعتراضية ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ أي وليًا لمن لجأ إليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ أي نصيرًا لمن استنصره، فلا تتولَّوا غيره ولا تستنصروا بسواه وهو حسبكم ونعم الوكيل ونعم الولي والنصير.

(٤٦) ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي اليهود و(من) هنا لبيان الجنس ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي يتأوَّلونه على غير تأويله، ويدخل في مشابهة اليهود في هذا الباب جماعة في زماننا هذا يؤوّلون صفات الله تعالى على غير مراد الله هربًا على زعمهم من التجسيم -ولا تجسيم-، فيقعون بالتعطيل ونفي الصفات والعياذ بالله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي اليهود ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي سمعنا قولك يا محمد وعصينا أمرك، ولا نطيعك فيه ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ أي اسمع لا سمعت ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك، ويقصدون الرعونة، سبًّا للنبي ﷺ ﴿لَيَّۢا﴾ أي فتلًا ﴿بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ أي يلوونها عن الحق ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي يقولون لو كان نبيًّا لعلم أنّا نسبُّه فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ أي قولك ﴿وَأَطَعۡنَا﴾ أي أمرك ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ ما نقولُ ﴿وَٱنظُرۡنَا﴾ أي لو قالوا هذا بدل قولهم (راعنا) ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ مما قالوه ﴿وَأَقۡوَمَ﴾ أي أولى من قولهم الأول ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يسلكوا الأحسن والأولى، ولهذا ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فلا ينفعهم هذا الإيمان لأنه إيمان ببعض دون بعض.

(٤٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي يصدق بما معكم من التوراة والإنجيل اللذَيْن بشّرا بمبعث الرسول ﷺ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ أي بردِّ الوجوه إلى وراء بما فيها من البصر والفم والأنف فيمشون القهقرى، وهذا أبلغ في العقوبة. وهذا مثلٌ ضربه الله في صرفهم عن الحق وردِّهم إلى الباطل، وقد ذُكر: أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية. ثم جاء بأهله من اليمن مسلمين ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾ الذين احتالوا على اصطياد السمك فمُسخوا قردة ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ أي لا يُخالَف ولا يُمانَع.

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أي لا يغفر لعبد لقيه مشركًا ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون الشرك ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي لعصاة المؤمنين فهم إن شاء عذبهم ثم أخرجهم إلى الجنة أو غفر لهم برحمته دون عذاب ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ أي ذنبًا عظيمًا لا يُغفَرُ إذا مات عليه.

(٤٩) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ نزلت بشأن اليهود والنصارى، وإنما هي عامة في كل من يزكّي نفسه أو غيره. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يثني على رجل فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك» ثم قال: «إن كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة، فليقل أحسبه كذا ولا يزكّي على الله أحدًا» [٢١٢]. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ بالإيمان ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي لا يُنقصون ﴿فَتِيلًا﴾ أي بقدرِ القشرة التي في شق النواة، أي: نواة التمر.

(٥٠) ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي في تزكية اليهود والنصارى أنفسهم ودعواهم أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي بهذه التزكية ﴿إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ أي ذنبًا ظاهر الإثم بتزكيتهم أنفسَهم بالباطل.

(٥١) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي بالأصنام والكهانة والسحر والطاغوت، وهو كل ما عُبِدَ من دون الله برضاه ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي حكم اليهود بأن المشركين أهدى من المسلمين، وهذا يدل على كفرهم بالتوراة التي تدعو إلى توحيد الله تعالى، فقولهم: المشركون أهدى من المسلمين كفر بالتوراة.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا
آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ
لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ
اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

٨٧

اليهود يحسدون العرب على نبوة محمد ولا يؤمنون به، الرسول يرد مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة

(٥٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ﴾ أي من يلعنه الله، أي يطرده من رحمته ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي مانعًا يمنعه من عذابه.

(٥٣) ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ الاستفهام للإنكار، أي ليس لهم نصيب من الملك، ولو جعل لهم نصيبًا فيه ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ النقير: هو النقرة في ظهر نواة التمر، أي لا يعطونهم ولا هذا النقير، لبخلهم الشديد.

(٥٤) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ أي النبي عليه السلام وأصحابه ﴿عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من النبوة والنصر ومنعهم الحسدُ من الإيمان به لأنه من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، فردَّ الله عليهم: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ كموسى وداوود وسليمان ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة ﴿وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ كملك سليمان الذي ما يكون مثله لأحد من بعده، وهذا إلزام لليهود بما يعترفون به، فما آتى الله محمدًا وصحبه ليس بدعًا حتى يحسدوهم عليه.

(٥٥) ﴿فَمِنْهُم﴾ أي اليهود ﴿مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بمحمد ﷺ ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي أعرض، وقيل: فمنهم من آمن بأنبيائهم ومنهم من صدَّ عنهم، وهم من جنسهم، فكيف بك يا محمد ولست من جنسهم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي نارًا مسعَّرة لمن لا يؤمن بما أنزل الله وأرسل.

(٥٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ كالمشركين واليهود والنصارى ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي سوف نحرقهم بنار تنفذ إلى كل ذرة من أجسامهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي احترقت ولم يبق منها عليهم شيء ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي أعدناها جديدة غير محترقة بيضًا أمثال القراطيس. وفي الحديث: وقرأ رجل عند عمر هذه الآية، فقال عمر: أعدها عليَّ، فأعادها. فقال معاذ بن جبل: عندي تفسيرها يتبدّل في ساعة مائة مرة. فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ(١) [٢١٣]. ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي ليقاسوا شدته وحدّته وحرقته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ أي لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمًا﴾ بخلقه.

(٥٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي حققوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ حياة بلا موت ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي من كل ما يستقذر كالحيض والنفاس وغيرهما ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي لا تنسخه شمس وهو ظل الجنّة أو ظل العرش. وفي الحديث: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد» [٢١٤].

(٥٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ أي يأمر تعالى بأداء الأمانات التي عندكم إلى أصحابها وهو يعمُّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان. وقد نزلت لما أخذ عليّ رضي الله عنه مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة حاجب الكعبة فأخذه رسول الله ﷺ منه، وقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر» [٢١٥]. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ من تأدية الأمانة والحكم بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي سميعًا لكل ما يقال، بصيرًا بما يفعله عباده، لا تخفى عليه منهم خافية سبحانه وتعالى.

(٥٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وهم الأمراء والعلماء. وطاعة الله فيما أنزل من كتابه وطاعة رسوله باتباع سنته، وطاعة أولي الأمر واجبة فيما ليس بمعصية لله ولرسوله، وفي الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [٢١٦]. ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي إن اختلفتم ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي إلى الكتاب والسُّنة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فمن لم يتحاكم إليهما فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي ذلك التحاكم إليهما خير وأحسن مآلًا وعاقبة وجزاءً.

(١) ضعيف جدًا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا
فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن من ربك ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي الكتب والصحائف التي نزلت على النبيين قبلك ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كل ما عبد من دون الله برضاه ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ وهذا تناقض فكيف يحتكمون إلى الطاغوت ويزعمون أنهم مؤمنون بالله لا سيما وقد أمرهم الله أن يكفروا بالطاغوت فإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت نقض لإيمانهم بالله ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وهم يعلمون ذلك فقد استسلموا إليه فضلوا ضلالًا بعيدًا. وإنَّ حكم الآية عام في كل من يفضِّل على حكم الله حُكمًا سواه، وإن كانت قد نزلت في بعض المنافقين في عهد رسول الله ﷺ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ليحكم بينكم ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي يعرضون ﴿عَنكَ صُدُودًا﴾ أي إلى غيرك، ويقال: إنه كعب بن الأشرف لعنه الله.

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي، فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك معتذرين لما صدر منهم من تحكيم الطاغوت ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي بالتحاكم إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي إلا مداراة ومصانعة، لا اعتقادًا منَّا بصحة الحكومة، أي بالتقاضي لدى الطواغيت!؟

(٦٣) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي من النفاق، وكذبهم في عذرهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بلا تعنيف ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم، بكلام بليغ رادع لهم عن النفاق.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم بأمره وتوفيقه تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بنفاقهم والتحاكم إلى غيرك يا محمد ﴿جَآءُوكَ﴾ أي تائبين من نفاقهم ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي دلُّوا على توبتهم من نفاقهم بأن جاؤوك واستغفروا الله في مجلسك وأمامك ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي سأل لهم المغفرة من الله تعالى لهم بالإضافة إلى استغفارهم ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وكاف الخطاب في (جاؤوك) تدل على أن طلب المغفرة من النبي ﷺ، إنما يشرع في حياته ﷺ لا بعد وفاته؛ لانقطاع العمل بعد الوفاة كما أخبر بذلك عليه السلام، فأين هذا من فهم الذين يجيزون طلب الاستغفار منه عليه السلام بعد وفاته؟ ولو أنهم أمعنوا النظر في معنى الآية لرأوا أنه ينقصهم عنصر هام، وهو استغفار الرسول لهم وهذا غير ممكن وقوعه اليوم، إذ كيف يستغفر لهم عليه السلام بعدما التحق بالرفيق الأعلى وانقطع عمله بوفاته؟! إن عنصر الشفاعة الذي كان قائمًا حال حياته، لم يعد قائمًا بعد وفاته ﷺ، والقياس بينهما قياس مع الفارق. أما حديث العتبي الذي يستدلون به، فهو حديث موضوع، راجعه في كتابنا[1].

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور. فما حكم به فهو الحق الذي يجب وجوبًا الانقياد إليه باطنًا وظاهرًا. فما بعد الحق إلا الضلال ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي فضمَّ إلى التحكيم شيئًا آخر، وهو عدم وجود الحرج في صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافيًا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان، وانثلاج قلب، وطيب نفس. ثم لم يكتف بهذا كلِّه، بل ضمَّ إليه قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي يذعنوا وينقادوا ظاهرًا وباطنًا. وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده، والناس أجمعين» متفق عليه [٢١٧].

(١) «التوصل إلى حقيقة التوسل»، (ص٢٧٤-٢٨١).

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن
دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ
بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن
لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ
فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

لمن يطع الله ورسوله الجنة، إن قُتل المجاهد فله الجنة وإن عاد فبالأجر والغنيمة

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم﴾ كما كتبنا ذلك على بني إسرائيل، أي لو أمر بالقتل والخروج من الديار على هؤلاء المنافقين أو الموجودين من اليهود لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر. وقد قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لو فعل ربنا لفعلنا، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال: «للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي»(١) [٢١٨]. ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وفي الحديث: لما تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية، أشار رسول الله ﷺ بيده إلى عبدالله بن رواحة، فقال: «لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل»(٢) [٢١٩]. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من اتباع الشرع وتركوا ما يُنهوْن عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من ارتكاب النواهي ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي تصديقًا وتحقيقًا لإيمانهم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا حدّ له وهو الجنة.

﴿٦٨﴾ ﴿وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به ونهيا عنه ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بدخول الجنة ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ أي المبالغين في الصِّدق ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ من ثبتت لهم الشهادة ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي أهل الأعمال الصالحة ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي رفقاء في الجنة في الرؤية، والتزاور والحضور معهم وإن كان المقر في الدرجات العلى.

﴿٧٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي ذلك المقام تفضل به عليهم سبحانه، لا أنهم نالوه فقط بطاعتهم وكفى بالله سبحانه عليمًا بما يخبر به من نعيمه وجناته، ولا ينبئك مثل خبير.

﴿٧١﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي من عدوكم وتيقظوا منه ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ﴾ أي جماعة بعد جماعة ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد كلكم.

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي ليتخلفنّ عن الجهاد، ويبطِّئ غيره كفعل (ابن سلول) قبّحه الله، ولهذا يخبر تعالى عن المنافق قوله: ﴿فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي قتل أو استشهاد وغلبكم العدو لحكمة يعلمها الله ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي حاضرًا، يعدُّ ذلك -يا شقاه- من نعم الله عليه، ولم يدرِ ما فاته من الأجر في الصبر والشهادة.

﴿٧٣﴾ ﴿وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي نصر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ أي كأنه ليس منكم -يا معشر المؤمنين- ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي توجب الفرحَ لإخوانه المؤمنين بالغنيمة وإن لم يكن معهم، بل يقول هذا المنافق: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ﴾ من الغنيمة ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي بنصيب وافر منها، إذ ليس همُّ المنافق إلا الغنيمة الدنيوية فحسب ولهذا أمر هؤلاء بالإخلاص في الجهاد مع المؤمنين، فقال عزَّ من قائل:

﴿٧٤﴾ ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي فليُخلص في القتال أولئك الذين يبيعون الآخرة بالدنيا وليكونوا مثل المؤمنين يبيعون الدنيا بالآخرة؛ لأنها هي الدار الباقية الخالدة، ويسعَوْن لها بالإخلاص في الجهاد في سبيل الله ولوجهه الكريم، ثم يعرِّف الله عاقبة من يخلص قلبَه لله، فيقول جلَّ وعلا: ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي من أجل مرضاته جلَّ وعز لا من أجل الغنيمة، بل إخلاصًا لوجهه الكريم وأملًا في الثواب والأجر منه سبحانه لا من سواه ﴿فَيُقْتَلْ﴾ في سبيله تعالى مخلصًا قلبه إليه ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ أعداء الله وينتصر عليهم بإذن الله في المعركة ويرجع إلى أهله منصورًا مع ما يناله من العلوّ في الدنيا والغنيمة ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كما في الصحيحين: «وتكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة» [٢٢٠].

---

(١) ضعيف.
(٢) ضعيف.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ
ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟
هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(٧٥) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي وما يمنعكم من القتال في سبيل الله، ومن أجل المستضعفين لتخليصهم مما كانوا يلاقونه في مكة من إذلال المشركين لهم، فتخليصهم من أسرهم هو من الجهاد في سبيل الله، فقد كان يدعو لهم رسول الله ﷺ: «اللهم أَنْجِ الوليدَ بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة والمستضعفين» [٢٢١]. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالكفر والشرك ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ أي ناصرًا يتولّى إنقاذنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي يمنع عنا هواننا ويخلصنا من أسرنا. وقد استجاب الله دعاءهم، فمنهم من هاجر إلى المدينة، ومنهم لم يستطع، فبقي في مكة إلى أن فُتحت، وولّى النبي عليها عتّاب بن أُسيد فأنصف مظلومهم من ظالمهم.

(٧٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلك بيان لهدف المؤمنين من القتال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الطاغوت هنا الشيطان الذي أجابه الكفار إلى عبادته بطاعة أمره، واتخاذه وليًا لهم من دون الله. ولذا حثّ الله المؤمنين على قتالهم، فقال جل وعلا: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ تغلبوهم لقوّتكم بالله، ولأنكم جندُه وحزبُه ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي بالمؤمنين ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي واهيًا واهنًا لا أثر له.

(٧٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ عن قتال المشركين في ابتداء الإسلام ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي الزكاة غير ذات النصاب مكتفين بذلك دون الجهاد الذي كانوا يتشوّقون إليه ولكن كان رسول الله ﷺ يقول لهم: «إني أُمرت بالعفو، فلا تقاتلوهم» [٢٢٢]. لأنهم في البلد الحرام، ولقلة عدد المؤمنين وضعف عُددهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي في المدينة ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ أي قسم ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من الذين كانوا يرغبون في الجهاد ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي خافوا من القتال خوفًا شديدًا وفرقًا من هول القتل ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي هلاّ أخرتنا إلى مدة أخرى ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي لا يلبث إلاّ وينتهي ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ أي من الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي اتقى الشرك وسائر المحرمات. وفي الحديث: «إنّ موضع سَوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها» [٢٢٣]. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا بقدر قشرة نواة التمر، بل تنالون أجوركم كاملة.

(٧٨) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ حتّى ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي عالية محصّنة إذن فلماذا الجبن؟ وهذا ترغيب وحثٌّ على القتال، وترهيب شديد لمن تركه. ثم عقب بذكر المنافقين، فقال جلّ وعلا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي يعني الخصب في الزرع والرزق الوفير في الثمار ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي جدب وقحط ونقص في الثمار ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ يا محمد، أي بسبب اتّباعنا لدينك أصابنا هذا البلاء ﴿قُلْ﴾ أي أعلمهم يا محمد ﴿كُلٌّ﴾ أي من الحسنة والسيئة ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي بقضائه وقدره وإنّه نافذ في الجميع البرِّ والفاجر، منكرًا على هؤلاء المنافقين قلة فهمهم وعلمهم، فقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ توبيخًا لهم.

(٧٩) ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من فضله ورحمته وكرمه ومنّه، وبما قدّمت من خير ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي فمن قِبَلك، وبما اقترفتَ -يا أيها الإنسانُ- من شر في حق نفسك فكان الثواب والعقاب من جنس العمل جزاءً وفاقًا ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ تبلّغهم شرائع الله من أمر ونهي ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي على أنك رسولُهُ إلى الناس كافة، وشهيدًا بينك وبينهم بأنّك قد بلّغت.

تمنى المؤمنون القتال فلما كتب عليهم جزعوا فثبتهم الله، القعود عن الجهاد لا يدفع الموت

مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا
فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ
أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي
الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾
فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ
عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ
نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

٩١

إطاعة الرسول إطاعة لله، اعملوا بما عرفتم من القرآن وما جهلتم منه ردوه إلى الله

(٨٠) ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ فيما أمر ونهى ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه رسوله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن طاعته ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي حافظًا لأعمالهم، إنما عليك البلاغ وقد نسخ هذا بآية السيف، وفي الحديث: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيبُ أنت، قل: ومن يعصِ الله ورسوله» قال ابن نمير: فقد غوِي. رواه مسلم [٢٢٤].

(٨١) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المنافقون ﴿طَاعَةٌ﴾ أي إذا كانوا عندك يقولون طاعة أي أمرنا طاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أي خرجوا ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي استسروا ليلًا فيما بينهم ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي بغير ما أظهروه لك ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي عالم بما يسرّون من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه بعد إظهار الطاعة وسيعاقبهم على ذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي اصفح واحلم ولا تكشفهم، ولا تخف منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي ثق بربك أنه سينصُرك، وكفى به معينًا وناصرًا ووكيلًا.

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي أما يتأملون في ما أنزل الله فيه من الآيات البينات، فلو تدبروه لوجدوه مؤتلفًا غير مختلف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي تضادًا كثيرًا ولكنه سالم من الاختلاف، مُحكمه ومُتشابهه حقٌ، لأنه من عند الله.

(٨٣) ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ هذا إنكار على من يبادر إلى إفشاء الأمور قبل تحقُّقها، وفي الحديث: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع» [٢٢٥]. وفي الصحيحين: «بئس مطيةُ الرجل زعموا» [٢٢٦]. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يذيعها أو يكونَ أولو الأمر منهم هم الذين يتولّون ذلك، لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يُفشى وما ينبغي أن يُكتم، ويقال: إن سبب نزول هذه الآية، أنه أُشيع أن رسولَ الله ﷺ طلّق نساءه وبدأ الناس في المسجد يتكلمون في ذلك فسمعهم عمر بن الخطاب فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: أطلقتَ نساءَك؟ فقال: «لا». قال عمر: فقمتُ على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلقْ رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية... فكنتُ أنا استنبطت ذلك الأمر، كما في صحيح مسلم [٢٢٧]. ومعنى يستنبطونه، أي يستخرجونه. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لاتبع المنافقون الشيطان إلاّ المؤمنين. قاله ابن عباس.

(٨٤) ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ في اللفظ، وفي المعنى له ولأمته ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله: (عسى) فيه وعد منه تعالى، وإطماع للمؤمنين بكفِّ الذين كفروا عنهم، ووعده كائن لا محالة. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي بالكافرين فهو قادر عليهم في الدنيا والآخرة.

(٨٥) ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير، كان له نصيب منه ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي وزر منها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي حفيظًا وشهيدًا وحسيبًا.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي زيادة عليها ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي مثلها؛ فالمماثلة مفروضة، والزيادة مندوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ قيل: محاسبًا، وقيل: كافيًا وحفيظًا.

(٨٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالألوهية لجميع المخلوقات ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم بأنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه، وخبره ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه وهو أصدق القائلين.

(٨٨) ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي على قولين، وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها لتنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد» [٢٢٨]. وكان عبدالله بن أُبي ابن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش وكان الجيش ألفًا، فبقي النبي في سبعمائة. ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي ردَّهم إلى الكفر ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أركسهم بسبب ما كسبوا من الكفر ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجعُ فيه هداية البشر ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا إلى الهداية والخير.

(٨٩) ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي تمنّوا لكم الكفر والضلالة لتستووا وإياهم فيها، ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي فلا تتولوا منهم أحدًا حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي إذا قدرتم عليهم فاقتلوهم حيثما كانوا في الحل والحرم، ولا تتخذوا منهم أولياء تتولونهم، ولا تستنصروهم على عدو.

(٩٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي الذين يلجأون إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكم من لجأ إليهم كحكمهم ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ أي ضاقت صدورهم عن قتالكم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي لا يهون عليهم أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أي من لطفه بكم أن كفَّهم عنكم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي المسالمة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا فلا يحل لكم قتلُهم ولا أسرُهم ولا نهبُ أموالهم، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك ويحرّمه أي يحرّم الاستسلامُ أن تؤذوهم بشيء.

الجزء الخامس — سورة النساء

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ
مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

٩٢

(٩١) ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي يأمنوكم بإظهار الإيمان عندكم، ويأمنوا قومهم بالكفر إذا رجعوا إليهم، فيعبدون أصنامهم، وهم في الباطن مع قومهم الكافرين ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ أي دعاهم قومهم إلى الشرك وطلبوا منهم قتال المسلمين أجابوهم إلى ذلك جميعًا، ولذلك يقول تعالى: ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أي قُلبوا فيها ورجعوا إلى قومهم وقاتلوا المسلمين، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي يستسلمون لكم، ويدخلون في عهدكم، وينسلخون عن قومهم ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي حُجة واضحة تتسلطون بها عليهم، وتقهرونهم بها، بسبب ما في صدورهم من الغدر واللؤم والفتنة.

لا تولوا المنافقين ولا تستنصروهم على الأعداء واقتلوهم حيثما وجدتموهم

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟
لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة، أخي أبي جهل لأمه، وكان عياش مسلمًا، ويعذبه على الإسلام أبو جهل والحارث بن يزيد الغامدي، فأضمر عياش للحارث السوء، فأسلم الحارث وهاجر، وعياش لا يدري، فلما كان يوم الفتح رآه عياش فظنَّ أنه ما يزال مشركًا، فحمل عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآية [٢٢٩]. والمعنى أنه لا يحق لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن. كما ثبت في الصحيحين: «لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة» [٢٣٠]. وليس لأحد أن يقتله إلا الإمام أو نائبه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ قالوا: هو استثناء منقطع ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة وهي عتق رقبة وشرطها: أن تكون مؤمنة فلا تجزئ الكافرة، والمؤمنة تجزئ صغيرة كانت أو كبيرة، وفي مسلم وغيره عن معاوية السلمي: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: رسول الله ﷺ. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» [٢٣١]. وقولها: «في السماء» أي فوق السماوات عالٍ على خلقه بائن عنهم علوًا مطلقًا، معلوم الحقيقة، مجهول الكيفية لا يشبه مخلوقاته في شيء، فإذا علم هذا انتفى أن يكون الله في كل مكان تعالى وتقدّس عن ذلك، أو أن يكون لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف، ولا هو في هذا الكون ولا هو في خارجه، وهذه صفات المعدوم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. ولا شكَّ فالفكرتان من دسائس اليهود أدخلوها في صفوف بعض من يدَّعون الإسلام، والإسلام منهم براء، والحمد لله على نعمة الإسلام، كما جاء في الكتاب والسُّنة بدون تحريف، وقوله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هذا الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل، وتجب على عاقلة القاتل، لا في ماله، والعاقلة: هي عصبة القاتل أو قرابته من قبل الأب. وقد بيّنتها السُّنة أنها مائة من الإبل مقسمة أخماسًا: عشرون بنت مخاض، وعشرون بنو مخاض ذكورًا، وعشرون بنت لبون، وعشرون جذعة وعشرون حقَّة. وإذا أخطأ الإمام فقتل مؤمنًا خطأً أو نائبه يتحمله بيت المال؛ كما أدّى رسول الله ﷺ ما أخطأ فيه خالد من بيت المال. وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي يعفو أهل القتيل عن الدية فلا تجب ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمنًا، وأولياؤه كفارًا أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ كأهل الذمة ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ وهي ثلث، وقيل نصف دية المؤمن. ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فلا تجزئ الكافرة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ لا إفطار بينهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس، استأنف أي أعاد الصيام من أوّله ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي قبولًا لتوبتكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بخلقه، حكيمًا في أقواله وأفعاله.

(٩٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وهذا لمن يستحلّه، وإلاّ فله توبة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، إمّا بعد استكمال عذابه، أو أن الله يفي عنه حقَّ القتيل، كما يشاء سبحانه، ما دام يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(٩٤) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ أي تثبتوا ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ نزلت في جماعة من المسلمين، لحقوا برجل في غنيمة له فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي غنيمته ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ غيرها ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي مثله تعصمون دماءكم بالشهادة ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بشهر الإيمان ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أن تقتلوا مؤمنًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وهذا تهديد ووعيد منه تعالى، والعياذ به من عذابه وعقابه.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨)
فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)
۞ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)﴾

٩٤

(٩٥) ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد روى البخاري عن البراء، قال: لما نزلت: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) دعا رسول الله ﷺ زيد ابن ثابت فكتبها... فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [٢٣٢]. فلما أنزل بوحي سريع ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجًا لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض. ففُهم أنَّ القاعدين من المؤمنين بعذر الضرر مستوون مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. كما ثبت في صحيح البخاري: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ، إلا وهم معكم فيه». قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله!؟ قال: «نعم، حبسهم العُذرُ» [٢٣٣]. إنما هذا التساوي هو من جهة النية فيعطون أجر المجاهدين من غير تضعيف، فيفضلهم المجاهدون بالتضعيف لأجل المباشرة في المعركة. ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي لا يستوي القاعدون والمجاهدون، بل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ أي أولي الضرر ﴿دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي كلا وعدَ الله الجنّة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي على القاعدين غير أولي الضرر درجاتٍ عديدةً، ولهذا قال تعالى:

(٩٦) ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ يتفوقُ بها المجاهدون على القاعدين غير أولي الضرر ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ بما فضّلهم به من الدرجات في غرف الجنان إحسانًا منه وتفضيلًا وتكريمًا. وفي الصحيحين: «إنّ في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجة كما بين السماء والأرض» [٢٣٤].

(٩٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بترك الهجرة ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي وما مكوثكم هاهنا، وتركتم الهجرة ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ضعفاء مقهورين، لا نقدر على الخروج من البلد ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ والمقصود عموم اللفظ لا خصوص السبب، أي: والمراد كل أرض تصلح الهجرة إليها. والأرض الأولى: كل أرض ينبغي الهجرة منها ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا دليل على أنّ المخاطَبين كانوا يستطيعون الهجرةَ ولم يفعلوا.. ويدل كذلك الاستثناء في قوله تعالى:

(٩٨) ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ حقًا ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين لا يقدرون على الإفلات من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا سلوك الطريق. ولذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا يوصلهم إلى بلد الإسلام.

(٩٩) ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي الذين تركوا الهجرة ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ و(عسى) من الله موجبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾ عن الذنب ﴿غَفُورًا﴾ له.

(١٠٠) ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ من الأمكنة يتحوّل إليها ويهاجر فيها ﴿وَسَعَةً﴾ في الرزق ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي حصل على أجر المهاجرين. كما في الصحيحين: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله» [٢٣٥]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي غفورًا لذنوب عباده المؤمنين، رحيمًا بهم رحمة واسعة.

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي تجعلوا الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا ما كانوا يخافون منه غالبًا في أسفارهم، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له. وفي البخاري: «صلّى بنا رسول الله ﷺ آمنَ ما كان بمنى ركعتين» [٢٣٦]. وفي الصحيحين عن عائشة: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر، فأُقِرَّت صلاة السفر، وزيدت في الحضر» [٢٣٧]. وعن عمر رضي الله عنه: «صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ» [٢٣٨]. ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي أعداءً ظاهري العداوة.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟
فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ
وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ
كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا۟
فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا (١٠٤) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)

صلاة الحضر أربع، والسفر ثنتان، والخوف واحدة، وللإمام ركعتان، لا تجوز الصلاة بعد فواتها

(١٠٢) ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد حاضرًا ﴿فِيهِمْ﴾ وأنتم تخافون العدوّ ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي إذا صليت بهم إمامًا أو صلى بهم غيرك ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ وتتأخر طائفة ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟﴾ أي الطائفة التي قامت معك ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ أي صلوا ﴿فَلْيَكُونُوا۟﴾ أي الطائفة الأخرى ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يحرسون إلى أن تقضوا الصلاة. وتذهب هذه الطائفة تحرس ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم إلى أن تقضوا الصلاة. وقد فعل ﷺ كذلك ببطن نخل. رواه الشيخان [٢٣٩]. ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ إذا قمتم إلى الصلاة ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي بأن يحملوا عليكم فيأخذوكم، وهذا علة الأمر بأخذ السلاح. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ فلا تحملوها، وهذا يفيد إيجاب حملها عند عدم العذر، وقيل: إنه سُنّة... ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي بحيث تكون على مقربة منكم وتكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي ذا إهانة. وفي الحديث عن سماك الحنفي قال: «سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر في صلاة المخافة. فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلي الإمام بطائفة ركعةً، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلّي بهم ركعة فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة» [٢٤٠]. وحديث ابن عمر هذا له حكم المرفوع، إذ ليس له أن يقول فيه برأيه، أما عند المسايفة فتجزئ ركعة واحدة تومئ بها إيماءً، وقيل: تكفي تكبيرة واحدة، فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه يعني بالنية. رواه سعيد بن منصور. ولا يجوز تأخير الصلاة في الجهاد استنادًا إلى تأخيرها من قبل رسول الله ﷺ يوم الأحزاب؛ فهذا منسوخ بصلاة الخوف؛ فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، وهذا هو الصواب، والله أعلم.

(١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بالتهليل والتسبيح ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي مضطجعين وفي كل حال ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي أمنتم وذهب الخوف ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي فأتموها وأقيموا أركانها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ أي مفروضًا بوقت معلوم إذا فات من غير عذر كالنوم أو النسيان لا يجزئ قضاؤها عنها لخروج وقتها. وقوله تعالى:

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم. نزلت لما بعث ﷺ في طلب أبي سفيان وأصحابه لما رجعوا من أُحد فشكوا الجراحات ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ من جراحاتكم ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ ومع ذلك لا يجبنون عن قتالكم إنما تفوقونهم أنتم بأنكم مؤمنون ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من النصر والثواب ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهذا ما يدعو ويرغب في جهادهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في أقواله وأفعاله.

(١٠٥) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي هذا القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي هو حق من الله ويتضمن الحق في كل شيء ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ واحتجّ بعض العلماء بهذه الآية، بأنه ﷺ كان له أن يحكم بالاجتهاد ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ نزلت في رجل سرق درعًا واتّهم بها بريئًا، وحلف أنه ما سرقها، فسأل قومهُ النبيَّ ﷺ أن يجادل عنه، ففعل وبرأه أمام الناس، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾ إلى قوله: ﴿خَصِيمًا﴾ [٢٤١].

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

﴿١٠٦﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أمر رسوله ﷺ أن يستغفر مما حاجج وخاصم عن الذي ظن أنه بريء، وهو في الحقيقة سارق خائن، وفي الحديث: «ألا إنّما أنا بشر وإنما أقضي بنحو ما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها» رواه الشيخان [٢٤٢].

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي يخونونها بالمعاصي، لأن وبال خيانتهم عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ والخوّان: أي كثير الخيانة، والأثيم: كثير الإثم، وعدم المحبة: كناية عن البغض، والمعنى أن الله يبغض الخوان الأثيم.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يستترون منهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يستترون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي بعلمه فهو عالم بما هم فيه، وحالهم لا يخفى عليه، فكيف يستخفون منه ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ أي يديرون الرأي بينهم ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ من عزمهم على الحلف بنفي السرقة عن طعمة بن أُبَيْرق الذي سرق الدرع، ورمى البريء بها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي محيطًا علمًا بهم حين دبروا أمرهم واتهموا البريء، وبرّأوا المجرم.

﴿١٠٩﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ أي عن طعمة وذويه ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي في هذه الحياة، ولكن ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ... أي فمن سيجادل عنهم غدًا يوم القيامة عند تعذيبهم بذنوبهم ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي من ذا الذي يتوكل لهم يومئذٍ في ترويج دعواهم؟ أي: لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلًا ولا مدافعًا.

﴿١١٠﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي ذنبًا يسوء به غيره كرمي طعمة لذلك البريء ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي اقتحم على الإثم ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي استغفارًا تامًّا يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على ألّا يعود ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذا وعد بالمغفرة والرحمة وما دام قد وعده بذلك، فإنه تعالى لا يخلف وعده.

﴿١١١﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ أي إثمًا من الآثام بذنب يذنبه ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي عاقبته عائدة عليه والكسب ما يجرّ به الإنسان إلى نفسه نفعًا أو يدفع به ضررًا، ولهذا لا يسمى فعل الرب كسبًا. قاله القرطبي. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ به ﴿حَكِيمًا﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامه.

﴿١١٢﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ أي ذنبًا صغيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي ذنبًا كبيرًا ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ أي يتهم بذنبه ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ كما اتهم بنو أُبَيْرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح، وهو لبيد بن سهل وقد كان بريئًا، وهم الظلمة الخونة. وهذا عام وإن كان السبب بني أبيرق ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ والبهتان من البهت وهو أشد الكذب على البريء، والإثم المبين: الواضح.

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، فقد نبّهه الله فيه على الحق في قصة بني أُبَيْرق ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن الحق ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وبال ذلك عائد عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأن الله عاصمك من الناس، ولا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي علمه الله بيان الدنيا والآخرة بين حلاله وحرامه ليحتج بذلك على خلقه ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ لا حدّ له.

الرسول يحكم بالظاهر ولا يعلم ما في القلوب، التوبة كفارة للذنوب، من يرم بريئًا بإثم

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن
يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا
﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ
مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

٩٧

(١١٤) ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ النجوى: السرّ بين الاثنين أو الجماعة. والمعنى: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ كما جاء في الحديث: «كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ذكر الله عزّ وجلّ، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر»(١) [٢٤٣]. والصدقة: الظاهر أنها صدقة التطوّع. والمعروف: لفظ عام يشمل جميع أنواع البر. ومنه الحديث: «كل معروف صدقة، وإنّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق» [٢٤٤]. والإصلاح بين الناس عام في الدماء والأعراض والأموال، وفي كل شيء يقع التداعي فيه. وفي الحديث: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين». قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة» رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح [٢٤٥]. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة، لأن فعلها أقرب إلى الله من مجرد الأمر بها ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي مخلصًا محتسبًا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثوابًا جزيلًا واسعًا.

(١١٥) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي ومن يعادي ويخالف رسول الله ﷺ بعد أن علم صحة رسالته ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي غير دين الإسلام ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أي نحسّنها في صدره ونزيّنها له استدراجًا ثم ندخله النار ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي مرجعًا ومنقلبًا ومثوى.

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي إن من مات على الشرك فلا يغفر ذنبه، ومن مات على ذنوب هي دون الشرك فعلى المشيئة: إن شاء الله عذّبه أو شاء غفر له، والمغفرة مؤمَّلة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي أهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة؛ لأن الشرك شر الذنوب.

(١١٧) ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال المشركون: الملائكة بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، أي وسيلة إليه ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك فأطاعوه فيما سوّل لهم فعبدوه بذلك، والمريد: الخارج عن الطاعة. بينما الوسيلة المشروعة هي: بذات الله وأسمائه وصفاته وبالعمل الصالح.

(١١٨) ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده من رحمته. ﴿وَقَالَ﴾ أي إبليس ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي معيَّنًا مقدرًا معلومًا.

(١١٩) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق بالوسوسة ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي ألقي في قلوبهم طول الحياة، بأنه لا بعث هناك ولا حساب ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي ليقطعُنَّ آذان الأنعام، يعني تشقيقها وجعلها سمةً وعلامة للبحيرة: وهي التي يمنع درُّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: وهي التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، والوصيلة: هي الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل، تثني بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. وكل هذا موجود في زماننا هذا وينذرونها للأولياء والصالحين، وينحرونها على قبورهم، إلا من رحم ربك، هدانا الله وإياهم صراطه المستقيم. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ هو الخصاء وفقء الأعين وقطع الآذان وما شابه ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي من يطيع الشيطان يخسر الدنيا والآخرة.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي يعدهم المواعيد الباطلة ويمنيهم الأمانيَّ الكاذبة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يغرهم بأنه نافع وهو ضرر محض. كأن يعدهم بأنهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا ويخوفهم إذا جاهدوا في سبيل الله بالقتل، مع أن الإنفاق والجهاد من أعظم القربات إلى الله.

(١٢١) ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي المستحسنون وعد الشيطان مآلهم إلى النار ولا يرون منها مخلصًا إلا إليها وساءت مصيرًا.

(١) ضعيف.

من يبتغ غير هدي الرسول جزاؤه النار، جعلوا لله بنات وعبدوها تقربًا إلى الله وزلفى!

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ
ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا (١٢٢) لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٢٣) وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا (١٢٤) وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ
مُّحِيطٗا (١٢٦) وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ
فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ
بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا (١٢٧)

(١٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي صدّقت قلوبهم بجميع أركان الإيمان، وعملت جوارحهم بالأوامر، وتركت المناهي ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أي بلا زوال ولا انتقال بما آمنوا وعملوا ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ أي واقع وفاؤه لا محالة. ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ أي وهل هناك أصدق من الله قولًا أي خبرًا، وكان ﷺ يقول: «إن أصدق الحديث كلام الله» [٢٤٦].

(١٢٣) ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ أي إن الدين ليس بالتمني، ولكن بما وَقَر في القلوب وصدقه العمل، فكل من عمل سوءًا أيًا كان فهو مجزيٌّ به. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ فكل سوء عملناه جُزينا به؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟» قال: بلى. قال: «فهو ما تجزون به» [٢٤٧]. ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ إلا أن يتوب إلى الله، فيتوبَ الله عليه.

(١٢٤) ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي يكون مؤمنًا لأن الإيمان شرط لقبول العمل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المؤمنون العاملون ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ أي لا يُنقصون من حقوقهم ولا بقدر النقطة في نواة التمر.

(١٢٥) ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا﴾ أي لا أحدَ أحسنُ دينًا ﴿مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ﴾ أي نفسه ﴿لِلَّهِ﴾ أي أخلص العمل لربه عزّ وجلّ إيمانًا واحتسابًا ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ وهو يوقن مطمئنًا بأن الله يراه وأعماله، متبعًا في عمله ما شرعه الله له، وما أرسلَ به رسولَه من الهدى ودين الحق. والإخلاصُ والاتباعُ شرطان لا يصح عملٌ بدونهما فإذا فُقِد الإخلاص كان منافقًا، وإذا فُقِدَ المتابعة كان ضالًا جاهلًا. ومتى أخلصَ واتبعَ كان عمله عمل المؤمنين الذين يتقبلُ الله منهم أحسنَ ما عملوا ويتجاوزُ عن سيئاتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الموافقة لملة الإسلام ﴿حَنِيفٗا﴾ أي مائلًا عن الأديان إلى دين الحق، وهو الإسلام. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ أي صفيًّا خالصَ المحبة له. وفي الحديث: «إن الله اتّخذني خليلًا كما اتّخذ إبراهيم خليلًا» [٢٤٨].

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو وحده المتصرِّف بهم بالحق، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلًا لطاعته لا لحاجته، ولا للاعتضاد بمخاللته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ أي نافذ علمه في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده.

(١٢٧) ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ﴾ أي يطلبون منك -يا محمد- الفتوى ﴿فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ وما يتعلق بأحكامهن في الميراث وغيره، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ أي يبين لكم حكم ما سألتم. وهذه الآية رجوع إلى ما فتحت به سورة النساء، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا، فقيل لهم: ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اعملوا بما أفتاكم الله به في كتابه ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي هو الرجل تكون عنده يتيمة تحلُّ له، فيرغب فيها ويكره أن يزوِّجها رجلًا يشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فحرّم الله ذلك ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورِّثون الصغار فيفتيكم الله أن تعطوهم حقوقهم ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي بالعدل بالميراث والمهر ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ تحريضًا على فعل الخيرات وامتثالًا للأوامر وسيجزي عليه أوفر الجزاء.

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ
الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا
بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا
مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ
اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

تسقط المرأة حقها إن خافت نشوزًا من بعلها، والعدل في المحبة مستحيل وفي المعاملة ممكن

(١٢٨) ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ أي توقعت ﴿مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي أيَّ نفور أو تباعد، أو عدم أنس بها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ بأن تترك له بعض حقوقها بغية استمرار الزوجية، فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ولا عليه في قبوله منها ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي الصلح وبقاء الحياة الزوجية خير من الفراق. وفي الصحيحين عن عائشة قالت: «لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ، يقسم لها بيوم سودة» [٢٤٩]. لأن سودة رضي الله عنها خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ فتحرم من صحبته في الجنة فوهبت يومها لعائشة رضي الله عنها. ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ إخبار من الله تعالى بأنَّ الشحَّ موجود في كل واحدٍ منهما، وجعل كأنه حاضر في النفوس لا يغيب عنها بحال من الأحوال، والمعنى أن المرأة تكاد تبخل بنصيبها من زوجها، والرجل يكاد أن يبخل بنفسه عليها إذا أحب غيرها ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ أي عشرة أزواجكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله فيهن وتعدلوا بالقسم بينهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي لا يخفى عليه من بواطنكم شيء فيجازيكم يا معاشر الأزواج بما تستحقُّونه.

(١٢٩) ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي لن تستطيعوا المساواة في المحبة والرغبة فإن ميل القلوب ليس في يد العبد، ولا بمقدوره تحويله من شأن إلى شأن، إنما هذا بيد الله تعالى. وروى الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة، قالت: «كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم مِن مَكثِه عندنا، وكان قلّ يوم، إلاّ ويطوف علينا جميعًا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي هو يومها، فيبيت عندها...» [٢٥٠]. ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أي إلى التي تحبونها في القسم فيما تملكون، أما الأخرى ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ لا هي أيم، ولا هي ذات بعل ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ بالعدل بالقسم. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الجور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لما سلف من الجور بالقسم، ﴿رَحِيمًا﴾ بكم.

(١٣٠) ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أي بالطلاق ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين المتفارقين ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ من رزقه الواسع ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أي واسع الفضل على خلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في كل شيء.

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي مالكها والحاكم فيها. مما يستلزم تدبير ملكه وحده لا شريك له وتصرفه فيه قدرًا وشرعًا، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي التقوى المتضمنة للأمر والنهي وتشريع الأحكام ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ جميعًا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي كلها ملكه وعبيده وفيها منهم من هو خير منكم وأكثر، كلهم مطيعون له خاضعون لأمره ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ لا يضره كفركم وهو الغني المحمود جل جلاله.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يفيد هذا التكرار: التأكيد، ليتنبه العباد على سَعة ملكه وينظروا فيه، فيعلموا أنه غني عن خلقه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي قائمًا على كل نفس بما كسبت وحفيظًا ورقيبًا وشهيدًا على كل شيء. ولا يكفي لهذه الوكالة إلا هو سبحانه.

(١٣٣) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي هو قادر على إذهابكم ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أي يبدلكم بهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي مقتدرًا.

(١٣٤) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الدنيا ولا همّ له سواه ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي فليعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته مِنْ هذه وهذه أعطاك وأغناك. فلا يقتصرنَّ أحد على السعي للدنيا فقط، بل لتكنْ همَّته ساميةً إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، وإن مرجع كل ذلك إليه تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لمن يدعوه ﴿بَصِيرًا﴾ بدخائل القلوب.

۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا
أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن
تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ
عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

١٠٠

(١٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أن إيمانكم الخالص، يلزمكم بأن تكونوا قائمين دائمًا بالعدل قولًا وفعلًا ولا تأخذكم بالجهر به بين الناس لومةُ لائم ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي تشهدون بالعدل لوجه الله، حتى ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي ولو جلبت هذه الشهادة المضرّة عليكم أو على والديكم والأقربين، فاشهدوا بالحق، فإن الله تعالى سيجعل لكم فرجًا من كلِّ ضيق. فإذا كان حرصكم على الشهادة بالحق على أنفسكم أو الوالدين والأقربين شديدًا، فيكون الحرص على الشهادة بالحق على الأجانب أشد وأولى وأوجب ﴿إِن يَكُنْ﴾ الذي تشهدون عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلا تراعوه لغناه ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا تشفقوا عليه لفقره ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ أي فلا يحمِلنّكم الهوى على عدم الشهادة بالحق والعدل ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ ألسنتكم فتحرّفوا الشهادة ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أي تمتنعوا عن أدائها وتكتموها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إن كانت شهادتكم حقًا أو باطلًا وسوف يجزيكم بها تستحقون. وفي الحديث: «خيرُ الشهداء الذي يأتي الشهادة قبل أن يُسألَهَا» [٢٥١].

(١٣٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي زيدوا إيمانكم بالله ورسوله، واثبتوا عليه واستمروا ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي وبالقرآن الذي نزّله الله منجمًا على رسوله ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل الكتب المتقدمة التي كان ينزل كل كتاب منها دفعة واحدة. وهذا هو الفارق بين قوله: (نزّل) و(أنزل). ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي خرج عن طريق الحق، إلى متاهات الباطل.

(١٣٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أي اضطربوا متردّدين بين الإيمان والكفر، واستقرّوا على الكفر ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ على كفرهم ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ من سبل الإيمان، لأنه علم منهم أنهم لم يخلصوا في إيمانهم وكانوا متلاعبين، فقد قدّر عليهم أن لا يغفر لهم ولا يهديهم، جزاءً وفاقًا لاختيارهم الكفر على الإيمان والنفاق على الإخلاص، وسيعاقبهم الله بما يستحقون.

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي في الدرك الأسفل من النار وفي أشد العذاب وآلمه وأطوله.

(١٣٩) ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ينصرون الكافرين على المؤمنين ويوالونهم ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ أي يودّون بعملهم هذا ﴿عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ وهذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ، فإن كانوا يودّون العزة عند الكافرين، ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي هو مالكها وحده لا شريك له، وفي حديث أبيّ بن كعب قال: انتسب رجلان على عهد رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدَّ تسعة، فمن أنت لا أمّ لك؟! قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام، قال: فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار، فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هـذا المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة» [٢٥٢].

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ من قِبل الكافرين والمنافقين والمشركين ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ أي قوموا من مجلسهم حالًا ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي حديث غير حديث الكفر والاستهزاء، أي كما ذكر الله تعالى ذلك أيضًا في سورة الأنعام [٦٨]: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي إذا بقيتم جالسين في مجلس الكفار الذي يستهزأ فيه بآيات الله ... إذًا أنتم منهم لرضائكم بسماع الاستهزاء منهم، فيكون الحكم عليكم كالحكم عليهم، وهو: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي أن الله سيجمع المنافقين والكافرين في قرار الجحيم، فإذا رضيتم البقاء في مجلسهم حال الاستهزاء بآياته، فسيجمعكم معهم في جهنم.

اشهد الحق ولو على نفسك أو الوالدين والأقربين، إذا استهزئ بآيات الله فقوموا من المجلس

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ
نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ
عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ
وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ
دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ
إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾

١٠١

الثابتون على إيمانهم لا يسلط الله عليهم الكافرين • التخلف عن المساجد إثم كبير

(١٤١) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ أي الذين ينتظرون زوال دولتكم، وظهور الكفار عليكم، وذهاب دينكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فتح عليكم بنصر وغنيمة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ أي قال لكم المنافقون متودِّدين: ألسنا معكم في الاتِّصاف بظاهر الإسلام والتزام أحكامه ﴿وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ﴾ أي نصيب الغلبة والظفر ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قال المنافقون للكافرين: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ساعدناكم باطنًا واستولينا عليكم وقدرنا على أخذكم وقتلكم فأبقينا عليكم ومنعناكم من المؤمنين أن يظفروا بكم بتخذيلهم عنكم، ومراسلتكم بأخبارهم، فلنا عليكم المنّة ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ وبينهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ما داموا عاملين بالحق، غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهي عن المنكر، حاكمين بما أنزل الله في جميع شؤونهم.

(١٤٢) ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ باعتقادهم الفاسد أن أمرهم يروج عند الله كما روّجوه عند الناس بنفاقهم ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويحول بينهم وبين الوصول إلى الحق جزاء نفاقهم في الدنيا ويطلع نبيّه على نفاقهم، ويعاقبهم في الآخرة على ذلك. ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مع المؤمنين ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين لا نيّة لهم فيها ولا إيمان ولا خشية ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ تقيةً لهم ومصانعة بصلاتهم التي يتخلفون عنها كثيرًا. وفي الحديث: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا...» [٢٥٣]. ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ فيها ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ رياءً.

(١٤٣) ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ مترددين بين الكفر والإيمان ﴿لَآ﴾ منسوبين ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الكافرين ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي المؤمنين. وفي الحديث: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنَمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تدري أيّها تتبع» [٢٥٤]. ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ أي طريقًا يوصله إلى الحق، أي صرفه الله عنه جزاءً وفاقًا لاختيارهم النفاق على الإخلاص.

(١٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وذلك بمصادقتهم وإسرار المودة إليهم وإفشاء أحوال المؤمنين إليهم، وهذا تحذير من الله للمؤمنين من أن يفعلوا ذلك ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي تريدون أن تجعلوا لله عليكم حجةً بيِّنة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم جريمة موالاة الكافرين، أي لا تكونوا كالمنافقين في موالاتهم الكفار، فتعاقبوا مثلهم.

(١٤٥) ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي يُجعلون في توابيت من نار تطبق عليهم في أسفل درك من نار جهنم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ أي ينقذهم من أليم العذاب، والخطاب لكل من اتصف بصفتهم إلى يوم القيامة.

(١٤٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي من المنافقين ﴿وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي أصلحوا ما أفسدوا من أحوالهم والتجأوا إلى الله في جلب منافعهم، ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ فينفعهم العمل الصالح. وفي الحديث: «إنما ينصرُ الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم» رواه النسائي [٢٥٥]. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين تابوا من النفاق ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي في زمرتهم ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ جزاء إيمانهم وتوبتهم أجرًا لا حدّ له.

(١٤٧) ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ أي: فأيُّ منفعة له في عذابكم ﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ أي إن أصلحتم أحوالكم وآمنتم بالله ورسوله حق الإيمان، فإن الله غني عن العالمين لا ينفعه شيء ولا يضره شيء، إنما التعذيب لمجازاة العصاة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ لمن يطيعه ويثيبهم ﴿عَلِيمٗا﴾ يعلم ما في قلوب خلقه، فيعاملهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب، وبفضله أو بعدله.

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

(١٤٨) ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي لا يحب أن يدعو أحد على أحد إلاَّ أن يكون مظلومًا، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وإن صبر فهو خير له ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع ما يصدر منه، ويعلم به. وفي الحديث: أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارًا يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق»، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكلُّ من مرَّ به قال له: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم اخزه، قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، والله لا أوذيك أبدًا. [٢٥٦]. وهذا حجة لمن يجيز لعن المعيّن.

(١٤٩) ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير، قولي أو فعلي، ظاهر أو باطن ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ أي عمَّن أساء إليكم فتسمحوا عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ عن عباده ﴿قَدِيرًا﴾ عليهم. فإنْ تعفوا مع القدرة فإنَّ ذلك مما يقربكم عند الله تعالى.

(١٥٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ من اليهود والنصارى لما كفروا ببعض الرسل، كان ذلك كفرًا بالله ورسله جميعًا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فإن كفرهم ببعض وإيمانهم بالبعض الآخر كان ذلك تفريقًا بين الله ورسله ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ﷺ ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي يتخذوا بين الإيمان والكفر دينًا متوسطًا بينهما مع أنه ليس هناك دينٌ وسطٌ، كما يزعمون.

(١٥١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به لعدم شرعيته، ولو كانوا مؤمنين به حقًا، لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلًا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لكفرهم بمن كفروا به بعد علمهم بنُبُوَّته أو لإعراضهم عما جاءهم به بدون نظر وتحقيق.

(١٥٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ فإنهم يؤمنون بكل كتاب وكل رسول ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ على ما آمنوا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لأوليائه ﴿رَّحِيمًا﴾ بأهل طاعته.

(١٥٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جملة واحدة، كما نزلت التوراة مكتوبة، وذلك تعنتًا فإن استكبرت ذلك ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟﴾ أي آباؤهم ﴿مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أعظم ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي بكفرهم ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي المعجزات المفصحات عن وحدانية الله تعالى ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ ولم نستأصلهم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي حجة عليهم وهي الآيات التي جاء بها وقهرهم بسلطانها، ومن ذلك أمر الله سبحانه أن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم. ففعلوا وانكشف هذا القتل عن سبعين ألف قتيل ومن جملة قهرهم أيضًا:

(١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ وذلك حين امتنعوا عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلًا ثم ألزموا العمل فالتزموا وسجدوا ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجدًا ويقولوا: (حطّة) أي حطّ عنا ذنوبنا، فلم يقولوا. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ من التزام ما حرّم الله عليهم من صيد السمك يوم السبت فاحتالوا بحيلتهم المعروفة فمسخوا قردة وهم أهل أيلة ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ على عدم فعل ما حرّم عليهم في السبت فنقضوه، وسمي غليظًا لأنه عهد مؤكد باليمين.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

(١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ الباء للسببية متعلقة بمحذوف، أي لعناهم بسبب نقضهم ميثاقهم الذي هو العمل بالتوراة ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بالتوراة التي حرّفوها ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وذنبهم أنهم كانوا يدعون إلى الحق ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي مغلقة على علم من التوراة لا حاجة لهم معه إلى غيره. وغرضهم رد حجة الرسل ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ليس عدم قبولهم للحق بسبب كون قلوبهم كما ادعوا أنها مملوءة بعلم التوراة، بل لأن الله طبع عليها، أي ختم عليها بسبب كفرهم جزاءً وفاقًا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إيمانًا قليلًا، أو إلا قليلًا منهم كعبدالله بن سلام وصحبه رضي الله عنهم.

(١٥٦) ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ أي وبسبب كفرهم المتكرر واتهامهم مريم بالبهتان العظيم، أي بالزنى. والبهتان: الكذب المفرط.

(١٥٧) ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ مفتخرين ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الذي يَدّعي أنه رسول الله قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، وإلا فإنهم لا يعترفون بأنه رسول الله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي ردّ الله على ادعائهم بأنهم قتلوه وصلبوه بأنهم كاذبون؛ فما قتلوه وما صلبوه، إنما ألقى الله شبهه على أصغر أصحابه الذي أجابه عندما قال لأصحابه: (أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في الجنة)؟ فقام هذا الشاب وقال: أنا. ثلاث مرات؛ أي كلما انتدب عيسى أصحابه ينتدب هذا الشاب نفسه لفداء عيسى، فأُلقي عليه الشَّبه، ورُفع عيسى إلى السماء وأعين أصحابه تنظر إليه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي في قتله، ولهم كلام طويل في ذلك بالنسبة إلى فرقهم، واختلاف ظاهرٌ فيه ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ الذي تخيّلوهُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي إن الذي قتلوه إنما هو شبههُ وليس هو عيسى، وإن ظنّهم بأنهم قتلوه ليس يقينًا لأنهم لم يتبينوه.

(١٥٨) ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي أنقذه منهم ورفعه إلى السماء، وهذا هو حق اليقين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي منيع الجناب وله الحكمة البالغة في جميع ما يقدّره ويقضيه.

(١٥٩) ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي بعد نزوله عليه السلام إلى الأرض وعودته، ونزوله أمر يقينيٌّ صحيح، فقد جاء في الصحيحين: «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، يقتلُ الدَّجال، ويقتل الخنزير، ويكسرُ الصليب، ويضعُ الجزية، ويفيض المال، وتكون السجدةُ واحدةً لله رب العالمين». قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: موت عيسى ابن مريم، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات [٢٥٧]. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بالغلوّ فيه، حتى قالوا: إنه الله، وابن الله، وثالث ثلاثة.

(١٦٠) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي فبسبب ظلم عظيم ارتكبه اليهود من الذنوب الكبيرة، حرّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم، لا بسبب ما زعموا أنها كانت محرمة على من قبلهم ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي صدوا أنفسهم كما صدّوا الناس كثيرًا عن الإيمان برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق.

(١٦١) ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ في التوراة، فاحتالوا عليه بأنواع الحيل والشبه. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ كالرشوة والسحت ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ادخرنا لهم عذابًا شديد الألم دائمًا أبدًا، لا ينتهي ولا يخفف منه شيء.

(١٦٢) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبدالله بن سلام ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جميعًا ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ونصب على المدح ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي يوم القيامة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ
وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ
وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ
الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

١٠٤

(١٦٣) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن وما فيه من الشرع ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ أي مثلما أوحينا إلى من سبقك من الأنبياء وهذا متصل بالآية المتقدمة ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ -رقم ١٥٣ من هذه السورة- ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ أي كما أوحينا أيضًا ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أي بني يعقوب الاثني عشر إخوة يوسف وليسوا هم المعنيين هنا، لأنهم ليسوا أنبياء سوى يوسف عليه السلام، إنما المقصودون هنا هم الأنبياء الذين تناسلوا من الأسباط وتوالدوا منهم ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ والزبور: الكتاب الذي أنزله الله على داود عليه السلام. والزبور في اللغة: المزبور أي المكتوب.

(١٦٤) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي لم يُذكروا في القرآن ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي بلا واسطة.

(١٦٥) ﴿رُّسُلًا﴾ بدل من (رسلًا) قبله ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾ بالثواب مَنْ آمن ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب من كفر ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ يحتجون بها ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي بعد إرسال الرسل إليهم، فبعثناهم قطعًا لإعذار الناس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي منيع الجانب، فلا يغالبه مغالب ﴿حَكِيمًا﴾ أي في أفعاله.

(١٦٦) ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا القرآن المعجز ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي متلبسًا بعلمه الذي لا يعلمه أحد غيره من كونك يا محمد أهلًا لما اصطفاك له من النبوة وما أنزله عليك من ال قرآن ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي بصدق ما جاءك وما أوحي إليك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي تكفي شهادة الله لك بأنك رسولُه حقًا بما أيّدك به من المعجزات الباهرات، الدالة على صدق نبوّتك.

(١٦٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿وَصَدُّوا﴾ أي صدوا الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن دين الإسلام بإنكارهم نبوة محمد ﷺ، ووجود خبرها في كتبهم ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي بعدوا بعدًا عظيمًا شاسعًا، لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق.

(١٦٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بجحدهم ﴿وَظَلَمُوا﴾ أي غيرهم بصدِّهم عن السبيل ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي بعملهم وكفرهم جازاهم الله بأن لا يغفر لهم بما فرّطوا جزاءً وفاقًا، فقد تعذّرت المغفرة، لشركهم واستمرارهم فيه، فطبع الله على قلوبهم، وسدَّ عليهم طرق الهداية، وقال: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ جزاء كفرهم وظلمهم وشركهم.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ لكونهم اقترفوا باختيارهم ما أوجب لهم ذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي في جهنم، لا يغفر لهم حتى يخرجوا منها، ولا يخفف عنهم العذاب، ولا يفتَّر ولا يؤجَّل؛ ذلك بما أشركوا، وماتوا وهم كفار مشركون، فقد أعدّ الله لهم نارًا وَقودها الناس والحجارة، مغلّقة أبوابها أبدًا ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ التعذيب المقيم الأبدي ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي سهلًا هينًا، فهو الذي لا يصعب عليه شيء، كيف وهو الرب العظيم الذي يقول للشيء: (كن)؛ فيكون.

(١٧٠) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يخاطب الله الناس جميعًا آمرًا لهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بهذا القرآن المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿فَآمِنُوا﴾ بهذا الرسول وبالحق الذي جاءكم به من عند ربه ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي يكن هذا الإيمان خيرًا لكم ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يضره كفركم، فمن كان خالقًا لها ولكم، فهو قادر ولا شك على مجازاتكم وعقابكم على قبيح فعالكم. وإنّ في هذه الآية وعيدًا لهم مع إيضاح البرهان بما يوجب الإذعان ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما تستحقون ﴿حَكِيمًا﴾ في شرعه وقدره.

الزبور كتاب الله نزل على داود، والله يشهد وملائكته بما أنزل على محمد ﷺ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ
قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤)
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

١٠٥

غلو النصارى بعيسى خلق بكلمة (كن) وليس هو (كن) والفرق ظاهر

(١٧١) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ المعنيون بهذا النداء هنا النصارى، أي لا تتجاوزوا الحق والحدّ في دينكم؛ ولكنّهم تجاوزوا الحدّ في عيسى عليه السلام، فرفعوه من مرتبة العبدية والنبوة إلى أن اتخذوه إلهًا يعبدونه مع الله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبةً وولدًا. وفي صحيح البخاري: «لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبدُ الله ورسوله» [٢٥٨]. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي عبد من عباده تعالى، ورسول من جملة رسله الذين أرسلهم الله إلى خلقه ليوحّدوه ويعبدوه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ والكلمة هنا هي (كن) أي: قال له: كن فكان. فعيسى عليه السلام كان بكلمة (كن) وليس هو كلمة (كن) فهو إذن مخلوق بكلمة (كن) التي أرسل بها جبريل إلى مريم ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي من خلقه، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. أي من خلقه ومن عنده وبأمره ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي فصدّقوا بأن الله واحدٌ أحد، وأن رسله اختارهم من عباده ليبلّغوا عنه أوامره ونواهيه لخلقه، ولا تغلوا فيهم فتجعلوا بعضهم آلهةً ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي لا تقولوا آلهتنا ثلاثة: أب وابن وروح القدس ﴿انْتَهُوا﴾ أي انتهوا عن التثليث، ويكون انتهاؤكم عن ذلك ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ من التثليث، فالله تعالى واحد أحد لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي إنه منزه عن أن يكون له ولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه وعبيده، فكيف يكون العبد شريكًا أو ولدًا؟ سبحانه وتعالى عمّا يشركون ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي يوكل الأمر إليه.

(١٧٢) ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أي لن يأبى المسيح أن يكون عبدًا لله تعالى أو يتكبّر أو يأنف ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح أي لا يستنكفون أن يكونوا عبادًا لله تعالى، فما دام المسيح يُقرُّ بعبوديته لله تعالى، فما بالكم تؤلّهونه ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي سيحشر المستنكفَ وغيرَه إلى يوم الحساب، وسيحاسبهم بما يستحقون.

(١٧٣) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي المرضيُّ عنها ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ كاملة ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادته وطاعته ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ شديدًا مؤبدًا ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنعهم من عذاب الله أو يدفعه عنهم، كما كانوا ممتنعين ومستكبرين.

(١٧٤) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي الذي أنزله من كتبه، والذين أرسلهم الله إليكم من رسله وما جاءوا به بأمر الله من المعجزات الباهرات ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أي ضياءً واضحًا على الحق، وهو القرآن.

(١٧٥) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل عليه تعالى في جميع أمورهم وآمنوا واعتصموا بالقرآن، أي أحلوا حلاله وحرّموا حرامه وحكّموه فيما شجر بينهم ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ أي يرحمهم الله فيدخلهم الجنة ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي يزيدهم من فضله ثوابًا عظيمًا، ورفعًا لدرجاتهم ومضاعفةً لها من فضله وإحسانه ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن أجل الوصول إلى رحابه تعالى يوم القيامة سيهديهم ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي طريقًا يسلكونه إليه لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو التمسك بدين الإسلام وترك غيره من الأديان. وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على طريق الاستقامة وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى الروضات والجنات العاليات.

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي في الكلالة ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ والكلالةُ فسّرها أكثر العلماء: «بمن يموت وليس له ولد ولا والد»، وهذا قول الجمهور وما قاله أبو بكر الصديق ﷺ: (أنه الذي لا ولد له ولا والد) ويدلّ على ذلك، قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ أي مات ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئًا، لأنه يحجبها بالإجماع. فدلَّ على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل، لأن الأخت لا يفرض لها النّصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكليّة. ﴿وَهُوَ﴾ أي الأخ ﴿يَرِثُهَآ﴾ أي يرث جميع مالها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي ليس لها ولد ولا والد، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئًا. وإن سقوط الأخ مع الأب فقد تبين بالسُّنة، كما ثبت في الصحيحين: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر» [٢٥٩]. والأب أولى من الأخ ﴿فَإِن كَانَتَا﴾ أي الأختان ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي فصاعدًا، لأن الآية نزلت في جابر وقد مات أبوه عن أخوات ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الأخ ﴿وَإِن كَانُوٓا﴾ أي الورثة ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ تعصيبًا، وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي فرائضه ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ أي لئلاّ تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفّى، والله أعلم.

تمّ تفسير سورة النساء ولله الحمد ١٧/ ١١/ ١٣٩٥

(٥) سُورَةُ المَائِدَة

مدنية إلا آية ٣ فنزلت بعرفات في حجة الوداع

وآياتها ١٢٠، نزلت بعد الفتح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ روى ابن أبي حاتم، أن رجلا أتى ابن مسعود فقال: أعهدْ إليّ. فقال: إذا سمعتَ الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ فأرعها سمعَك، فإنه خير يأمرُ به، أو شر ينهى عنه. وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ قال ابن عباس: يعني العهود. والعهود: يعني ما أحلّ الله وما حرّم، وما فرض وما حدَّ في القرآن كله. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، أكلا بعد الذبح وجنين كل إذا وجد ميتًا في بطن أمّه. لما جاء في الحديث: قلنا: يا رسول الله نَنحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة، في بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم فإنّ ذكاته، ذكاةُ أمّه» [٢٦٠].

الجزء السادس — سورة المائدة

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ
لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ
وَإِن كَانُوٓا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ المَائِدَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ
ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ
وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ
ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

١٠٦

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من تحريمه فيما سيأتي ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي وأنتم محرمون فلا يحلّ لكم إذا كان صيدًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي مهما أراده تعالى حكم به حكمًا موافقًا لحكمته من التحليل والتحريم، ولا اعتراض على الحكيم العليم.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي معالم دينه بالصيد في الإحرام ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه ﴿وَلَا ٱلْهَدْيَ﴾ أي ما أهدي إلى الحرم من النّعم بالتعرُّض له ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي تكون في أعناقها لتتميز به عمّا سواها من الأنعام ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي ولا تتعرضوا لقاصديه بقتال ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ أي رزقًا ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بالتجارة ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ منه فلا تصدوهم عن الحج، ويُمنع من يقصده بإلحاد وشرك ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَٱصْطَادُوا﴾ أمر إباحة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي ولا يحملنكم بغضُ قوم لأجل ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عام الحديبية ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ عليهم بالقتل وغيره ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ﴾ أي على فعل الخير ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي ترك الشر ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾ أي المعاصي ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي التعدّي على حدود الله ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أي خافوا عقابه بأن تطيعوه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالفه وعصاه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي
مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم
مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ
لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ أي أكلها، لما فيها من المضرة باستثناء السمك والجراد. ﴿وَالدَّمُ﴾ أي المسفوح. وفي الحديث: «أُحل لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد. وأما الدمان: فالكبد والطحال» [٢٦١]. ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ أي إنسيّه ووحشيّه، ويعني باللحم جميع أجزائه(١). ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ما ذبح لغير الله من وثن أو قبر أو طاغوت، إلى غير ذلك من سائر المخلوقات. وفعله شرك، وفاعله مشرك الشركَ الأكبر، يستتاب وإلاّ قُتِل. ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي تخنق فتموت ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي تضرب بشيء ثقيل غير محدّد فتموت ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تقع من شاهق فتموت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ المقتولة بقرن ولو أدماها من مذبحها ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي قتلها أحد سباع البهائم أو الطير ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلاّ ما أدركتموه حيًا مما ذكر فذبحتموه ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي ذُبِحَ لها وهي حجارة كانوا يشرحون عليها اللحم حول الكعبة، ومثله الذبحُ على القبور ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي طلب ما يُقسم ويُقدّر بها وهي ثلاثة أحجار صغيرة مكتوب على أحدها: افعلْ، والثاني لا تفعلْ، والثالث غفلٌ لا كتابة فيه، فإذا همَّ بأمرٍ أجال هذه الأحجار وأخذ أحدها أمضى ما كتب فيه وإن أخذ الذي لا كتابة فيه أعاد، حتى يخرج أحد الحجرين المكتوبَيْن، فيعمل به، فحرم الله ذلك على المؤمنين وعوضهم بالاستخارة الشرعية المعروفة ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي خروج عن طاعة الله. وفي الحديث: «لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائرًا» [٢٦٢]. أي متطيرًا. وكان الجاهليُّون يستعملون الأزلام في الاستخارة والقمار تارة وتارة. ومن ذلك (اليانصيب) المستعمل في زماننا، فإنه قمارٌ صرف، ولا عبرة للجهة الخيرية التي يزعمونها فيه. ونزل يوم عرفة عام حجة الوداع: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ أي أن ترتدّوا عنه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي لا تخافوهم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ أي وخافوني أنصرْكم عليهم وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي أكملت لكم أحكامه وفرائضه فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فلا يحتاج أحد بعده إلى دين غيره ولا إلى أية مُحدَثة أو بدعة وما بعد الحقِّ إلاّ الضلال. فبيّن الحلالَ والحرامَ ثم قال تعالى مبيّنًا حالَ من يضطر إلى أكل شيء مما حرّم آنفًا: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي في مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي غير مائل إلى معصية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ له ما أكل مما ذكر من المحرمات ﴿رَّحِيمٌ﴾ به فيما أباح له.

(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ من الطعام ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني الذبائح الحلال ﴿وَ﴾ صيد ﴿مَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي الكلاب والطير ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي الطيور تكلّب الصيد بمخالبها كما تكلّبه الكلاب لا فرق بينها في الصيد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ أي تؤدّبونهن ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من آداب الصيد ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وإن قتَلتْهُ بأن لم تأكل منه بخلاف غير المعلّمة، فلا يحل صيدها لأنها تأكل من الصيد، وأما الطيور فلا يحرم أكل ما أكلت منه، فإنها لا تعلّم إلا بأكلها من الصيد، فيعفى من ذلك، ولأن الطيرَ لا تُعلّم بالضرب كما تعلّم الكلابُ ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حال إطلاق الكلب أو الطير أو السهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لمن عصاه.

(٥) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني الذبائح الحلال ﴿وَ﴾ كذلك ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ذبائحهم ﴿حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي حلال وإن لم يذكروا اسم الله عليه، فسموا أنتم وكلوا، وفهم أن ذبائح غيرهم من أهل الأديان لا تحلّ ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي ذبائحكم حلال لهم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أحل لكم أن تنكحوهن ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي متزوجين ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي زانين بهن ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي ذوي عشيقات ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أي يرتدّ عنه ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصالح فلا يعتدّ به ولا يثاب عليه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا إذا مات على الكفر والعياذ بالله تعالى من الخزي والخذلان وسوء المنقلب.

(١) باستثناء جلده إذا دبغ، لقوله ﷺ: «أيُّما إهاب دُبغ فقد طَهُرَ».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ
وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ
أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا
فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم
بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ
شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ
أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

١٠٨

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي بقصدها ونيتها لا تصح إذا كنتم محدثين ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بالماء، والفم والأنف من الوجه لما صح عنه ﷺ: «الأذنان من الرأس» [٢٦٣]. فثبت وجوب غسل الفم والأنف، أي المضمضة والاستنشاق، وحدُّ الوجه من منبت شعر الرأس إلى أسفل الذقن طولًا، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي واغسلوا أيديكم مع المرافق ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ جميعها. لما جاء في الصحيحين: «... ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه» [٢٦٤]. وصح في أحاديث أخرى نحوه، وفيه دلالة على وجوب ذلك. وكذلك مسحُ الأذنين واجب لما تقدم من قوله آنفا: «والأذنان من الرأس». فوجب مسحهما مع الرأس بدون ماء جديد. ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أي وغسل أرجلكم ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ أي معها غسلًا لا كما فهمه الشيعة. لما جاء في الصحيحين: «أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار» [٢٦٥]. وثبت عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: «اغسلوا القدّمين إلى الكعبين كما أُمِرْتُم» [٢٦٦]. فمن قال بمسح الرجلين فقد ضلّ وأضل. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ أي اغتسلوا بالماء عند وجوده أو القدرة عليه، وبعد أن ذكر التطهير من الحدثيْن باستعمال الماء، قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ أي لا تقدرون على استعمال الماء ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي كنتم مسافرين ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي انتقض وضوؤه بأحد نواقض الوضوء ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي جامعتموهن، فوجب عليكم الغُسل ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ تغتسلون به أو تتوضأون منه من بعد تحرِّيه ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي ترابًا طاهرًا أو ما بحكمه شرعًا[1] عندها: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ أي من التراب الطاهر بضربة واحدة تمسحون بها وجوهكم وأكفّكم لما جاء في حديث عمار رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضربة للوجه والكفين» [٢٦٧]. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي من ضيق في عبادتكم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الأحداث والذنوب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ببيان الشرائع من دينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه العظيمة.

(٧) ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ من متابعة رسوله على دينه، ومناصرته في الدعوة إليه ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي التزمتم بالسمع والطاعة له ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ميثاقه أن تنقضوه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر، وما لم يمرّ بالخواطر بعدُ.

(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي كونوا قائمين دائمًا بالحق لوجه الله، لا لأجل الناس والسُّمعة شهداءَ بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي لا يحملنَّكم بُغضُ قوم ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ أي على ترك العدل فيهم ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من تركه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي تجنَّبوا سخطه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾ بما في قرارة نفوسكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولا يخفى عليه مما تعملون شيءٌ. وسيجازيكم بحسب ما تستحقون. وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلًا فقالت أمي عمرةُ بنتُ رواحة: لا أرضى حتى تُشهدَ رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: «أكُلَّ ولدك نحلتَ مثله؟» فقال: لا. فقال: «اتقوا الله في أولادكم. قال: إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبي فردّ تلك الصدقة [٢٦٨]. وهذا الحديث قاعدة جليلة في العدل بين الأولاد في العطية.

(٩) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ابتغاء مرضاتِ الله ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم التي فعلوها ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي خلود في الجنة.

---

(١) راجع كتابنا «تيسير العلي القدير» (ص٣٩٤-٣٩٥)، الجزء الأول، سورة النساء: الآية ٤٣.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ (١٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ
إِنِّى مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ
وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا
نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا
ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣)

لا يمنع بغض قوم عن العدل بهم، آية العفو والصفح منسوخة بآية القتال

(١٠) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي لم يؤمنوا بما أنزلنا من البينات وكذبوا بها وبمن نزلت عليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وهذا العقاب أي نار جهنم الخالدة من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه، وهو الحكم العدل الذي حرم الظلم على نفسه.

(١١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ كم هي عظيمة وكبيرة ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ أي حين أراد قوم من العرب وأرسلوا أحدًا من الأعراب وهو غورث بن الحارث أن يَفتك بالنبي ﷺ، ولذا قال: ﴿أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ وقد جاء في الحديث الصحيح تفصيل هذه الحادثة: عن جابر: أنّ النبيّ ﷺ نزل منزلًا وتفرّق الناس في العضاه -وهي شجر عظيم وله شوك- ويستظلّون تحتها، وعلّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابيٌّ إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلّه ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله» فشام الأعرابي سيفه -أي أغمده- فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جانبه ولم يعاقبه [٢٦٩]. وأخرج الحاكم وصحّحه بنحوه، وذكر: أنه لما قال النبي ﷺ: «الله» سقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك مني؟» قال: كن خير آخذ. قال: فشهد أن لا إله إلا الله. [٢٧٠]. وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ثم قال الله للمؤمنين ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي استعينوا بتقوى الله وبالتوكل عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتخذوه وكيلًا في جميع شؤونهم، ويتبرؤوا من حولهم إلى حوله.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعدما أمر الله الناس بالوفاء بعهده وميثاقه، والشهادة بالعدل، وذكر نعمه بهدايتهم للحق؛ شَرَعَ ببيان ما أخذ على بني إسرائيل من المواثيق، فقال تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي عرفاء على قبائلهم وأسباطهم الاثني عشر بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي مؤيّدكم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيما ينبغي لها من الخشوع والمحافظة عليها ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستحقّيها ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي وصدقتموهم وآزرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالتصدّق والإحسان على الفقراء من مكسب طيّب ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي أمحو ذنوبكم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم واندفاع المكروه بتكفير السيئات ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي عن عمدٍ وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالّون من حرمان الثواب وحصول العقاب وقد كفروا.

(١٣) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فبسبب ما نقضوا ما عاهدوا عليه ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي طردناهم عن الهدى جزاءً وفاقًا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ فلا يتعظون لغِلَظها وقساوتها ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي تصرّفوا بآيات الله وتأوّلوها على غير ما أنزلت، وقالوا على الله ما لم يقل عياذًا بالله تعالى من ذلك، وكل من يؤوِّل كلام الله تعالى إلى غير مراده فيكون فيه شبه باليهود ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي رغبوا عن العمل الذي أُمروا به وآلوا إلى أسوإ حال فلا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمة ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني مكرهم وغدرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ممن أسلم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ أي لم يؤمر بعد بقتالهم فأمره الله أن يعفوَ عنهم ويصفحَ وهذا منسوخٌ بقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالعفو والصفح.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ
فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ
وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ
قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا
كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن
كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ
مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ
سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ
ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ
أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾

١١٠

(١٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ لعيسى ابن مريم وزكّوا أنفسهم بالإيمان بالله تعالى، ورُسُله وما جاءوا به، ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ على ذلك، فنقضوا العهد كما فعل اليهود قبلَهم ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي نسُوا من العهد والميثاق المأخوذ عليهم في الإنجيل ببشارة عيسى لهم برسول يأتي من بعده وهو نبينا محمد ﷺ، نسوا حظًا أي نصيبًا وافرًا مما ذُكِّروا به في الإنجيل عقب أخذه عليهم ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ أي سلطنا بعضهم على بعض، أي إن طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون على اختلاف ومتعادين متباغضين يُكفِّر بعضهم بعضًا، ويتلاعنون فيما بينهم، والعداوةُ والبغضاء قائمتان فيهم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وهذا أمر مشاهد بين طوائفهم إلى يومنا هذا ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعيد لهم على ما ارتكبوه من الإثم وما كذَبوا به على الله من جعلهم له صاحبةً وولدًا، تعالى الله عما يقوله الظالمون علوًا كبيرًا، سبحانه تبارك وتقدّس فهو الواحد الأحـد الفـرد الصمـد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

(١٥) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمدٌ الذي بشّركم به نبيّكم عبدُ الله ورسوله عيسى ابن مريم ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي التوراة والإنجيل من نبوّة محمد ﷺ، وآية الرجم، وقصة أصحاب السبت الممسوخين قردةً ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أي ويترك بيان ما لا تقتضيه الحكمةُ ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ وهو القرآن يستضاء به في ظلمات الجهالة، وعماية الضلالة، ومحتوٍ على كلِّ ما يحتاج الخلق إليه في أمور دينهم ودنياهم من العلم والعمل.

(١٦) ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي بهذا القرآن ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي اجتهد وحرص على بلوغ مرضاته تعالى يهديه سبل السلام التي يسلم صاحبها من العذاب وتوصله إلى الجنة ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلماتِ الكفر والبدعة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ نور الإيمان والسُّنة ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ ومشيئته ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي الطريق السوي الذي هو أقرب طريق إلى الحق وأبين مسلك إلى الخير وأهدى سبيل، وهذه الهداية جزاءً وفاقًا لمن اتبع هذا القرآن الهادي.

(١٧) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ وكيف لا يكفرون!!؟ وقد جعلوا المخلوق المولودَ هو الله الخالق الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وكل حجتهم شبهة عرضَتْ لهم من أنه ولد من غير أب؟! بينما هم على علم حقيقيّ أن آدم ليس من دون أب فحسب، بل هو من دون أب ولا أم، فكان أحرى من عيسى ابن مريم بالألوهية على ما يزعمون ... وهم يعلمون أن الله خلق آدم كذلك، فالذي خلق آدم من غير أم ولا أب أيعجز أن يخلق عيسى بلا أب؟! ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ أي من يستطيع أن يحول دون إرادة الله ﴿إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾ بل ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ فالذي يقع عليه الهلاك هو وأمه وأهل الأرض جميعًا، ولم يستطع أن يمنع عن نفسـه أيصحّ أن يكون إلهًا؟! لا إله إلا الله وحـده لا شريك له، ولا ربّ سواه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿وَلِلَّهِ﴾ الواحد الأحد ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ يتصرف فيهم بحُكمه وحِكمَته وهم مملوكون ومربوبون له تعالى لا يشاركه في ذلك أحد ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي إن شاء من أب وأم، أو من أب بلا أم، أو من أم بلا أب، أو من لا أب ولا أم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وهذا ردٌّ مفحم على النصارى.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ
فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا
مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا
وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ
فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ
وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا
فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

١١١

(١٨) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ادعاءً منهم، والدعوى تبقى دعوى إذا لم يؤيدها البرهان والدليل، والظاهر أنهم لم يقصدوا البنوّة الحقيقية، فهذا ليس من مذهبهم إلا في المسيح عليه الصلاة والسلام وعزير، إنما يعنون بالبنوّة أي أنهم أحباؤه؛ فردّ الله عليهم ردًّا مفحمًا ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فلو كنتم أحباءه كما تدّعون ما عذبكم، والمراد أن الله ينفي هذه المحبة من أصلها؛ لأنه لا يحب إلا من سعى إلى مرضاته ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ كأمثالكم من سائر بني آدم وتجري عليكم أحكامه عدلًا أو فضلًا ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ كل بحسب عمله الموجب للعذاب أو المغفرة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وأنتم من جملة ذلك الخلق ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المآب.

(١٩) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ ما شرعه الله لعباده في القرآن ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي على انقطاع من الرسل قبل بعثه ﷺ مدةً من الزمن، وهذا ما يدعو للإيمان به وبخاصة فإنه بيّن لهم الأحكام الشرعية. وفي البخاري: «أنا أولى الناس بابن مريم؛ لأنه ليس بيني وبينه نبيّ» [٢٧١]. فكانت النعمة بمحمد ﷺ أتمّ النعم، والحاجة إليه مُلحّةٌ حتى يهديَ به إلى سبيل الرشاد، وقد قطع الله بذلك ما يحتجُّون به ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ حتى نتبعه ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ وهو: هذا النبي الكريم والرسول العظيم يبشر وينذر ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يستعصي عليه شيء.

(٢٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم، فإنّ ذكرها داع إلى محبته تعالى وطاعته ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ أي كلما قُبض نبيٌّ قام فيكم نبيٌّ ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ وكان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سُمِّيَ ملكًا؛ لا سيما وقد زال عنكم استعباد فرعون لكم فصرتم تملكون أمركم، وتقيمون دينكم ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنهم في ذلك الزمان، كانوا أشرف الناس وخير الخلق.

(٢١) ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أي المطهرة وهي بيت المقدس التي كانت بأيديهم في زمن أبيهم يعقوب، ثم ارتحل وبنوه وأهله إلى مصر أيام يوسف عليه السلام، وظلوا فيها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قومًا جبّارين من العمالقة قد استحوذوا عليها وتملّكوها، فحرّض موسى عليه السلام بني إسرائيل على جهاد العمالقة واسترجاع بيت المقدس منهم، فنكلوا وعصَوا. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أي لا تنكلوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ في سعيكم في الدنيا والآخرة.

(٢٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ذوي قوة وبأس ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ وهذا منتهى الجبن وغايةُ الخور وقلةُ اليقين، وإلاّ فإنهم لو توكّلوا على الله حق التوكّل لقوّاهم عليهم، وكيف يخرج الأعداء من بلد ليس في أهلها من يدافع عنها، بل هم في خوف ورعب من أعدائهم؟!

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ مخالفة أمر الله ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ وهما يوشعُ بنُ نون، وكالبُ بنُ يوفنا وكانا من الاثني عشر نقيبًا المذكورين آنفًا ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي باب بلد الجبارين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ أي إذا أنتم دخلتم باب مدينتهم سوف تغلبونهم بإذن الله وينهزمون ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الرجلين دعواهم لأمضى سلاح وهو التوكل على الله ولكنهم ذلّوا وجبنوا، ولم يعلم بنو إسرائيل أنّ الجبارين الذين فزعوا منهم وملئوا رعبًا، وجبنوا عن قتالهم هم في الحقيقة أخوف منهم وأشد رعبًا ولكنهم خافوا.

قطف: الله يبعث محمد ﷺ حجة من سيقول: (ما جاءنا من نذير)

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ
أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ
يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ
﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا
فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ
مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ
لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي
سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا
ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

١١٢

(٢٤) ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ وكان هذا القول منهم فشلًا وجبنًا، أو عنادًا وجرأة على الله وعلى رسوله ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ قالوا هذا تهكمًا واستهانة واستهتارًا وكفرًا بالله ورسوله ﷺ ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ أي لا نبرح أمكنتنا، فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم به لنبيّهم في هذا المقام الحرج! وبهذا الموقف وأمثاله منهم يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ، حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ، حين شاورهم في القتال يوم بدر مع أنه لم يُحتّم عليهم الجهادُ، قالوا: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلّف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون [٢٧٢]. فلما رأى موسى عُتُوَّهم عليه:

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي﴾ أي ليس أحـد يطيعني منهم، فيمتثل أمر الله، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي اقض بيننا وبينهم.

(٢٦) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي حرّم عليهم الأرض المقدسة لعصيانهم وامتناعهم عن قتال الجبارين ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جزاءً لهم واستجابةً لدعاء موسى عليه السلام، ومعنى التيه: التحيّر. فالمعنى يتحيَّرون في الأرض، يسيرون دائمًا ولا يهتدون للخروج منها ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وهذا تسلية لموسى عليه السلام، أي لا تأسف عليهم فيما حكمتُ فإنهم مستحقون ذلك لفسوقهم. وقد حصلت لهم أمور عجيبة: من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وتفجير الماء من حجر يضربه موسى بعصاه، إلى غير ذلك من المعجزات. وهناك نزلت التوراة وشرعت الأحكام، ثم كانت وفاة هارون وموسى، وأقام الله يوشع بن نون نبيًا وخليفة عن موسى عليهما السلام، وهلك أكثر بني إسرائيل هناك، ثم أمر الله يوشع بمحاصرة بيت المقدس فخرج بمن بقي منهم، وبالجيل الثاني، فحاصر البلد ثم فتحها الله عليه بعد عصر الجمعة؛ إذ حبس الله له الشمس حتى انتصر ودخل بيتَ المقدس بفضل الله.

(٢٧) ﴿وَٱتۡلُ﴾ يا محمـد ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على هؤلاء البغاة والحسـدة من اليهود وأمثالهم ﴿نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ قابيل وهابيل ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالصدق ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ إلى الله، وهو كبش من هابيل وزرع من قابيل ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا﴾ هابيل ﴿وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ قابيل، فغضب وأضمر الحقد في نفسه ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾ لتقبُّلِ قربانك دوني ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لا من غيرهم.

(٢٨) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا تعليل لعدم مقابلته بالمثل.

(٢٩) ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي بإثم قتلك لي، وبإثمك الذي قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلي ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ولا أريد أن أبوءَ بإثمك إذا قتلتك فأكون منهم. قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين يظلمون بغير حق.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ﴾ أي سهّلت له ﴿قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي بقتله، وبحمل وزر كلِّ قتيلٍ يقتلُ إلى يوم القيامة.

(٣١) ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ينبش التراب بمنقاره ورجليه ويثيره على غراب ميت معه حتى واراه ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ أي جثته ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ﴾ أي أدفن ﴿سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتل أخيه.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ
نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ
جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ
لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ
لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

١١٢

(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الذي فعله قابيل ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي قتلها ظلمًا ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾ أي من غير فساد أتاه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من كفر أو زنى أو قطع طريق أو نحوه ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأنه بفعله هذا يحرض غيره على القتل فتفشو هذه الفعلة بين الناس ويفشو القتل ويكون هو سبب هذه السنّة السيئة، فكأنه هو القاتل لكل من يقتل بعده ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بالامتناع عن القتل، فلم يقتل أحدًا وحال دون تفشي سنة القتل في الناس، فيبقى الناس أحياء بسببه ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ بعدم تفشي سنة القتل ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي لبني إسرائيل ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات وما شرعه الله من الأحكام التي من جملتها أمر القتل ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد تلك الشرائع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي مجاوزون للحدّ بالكفر والقتل.

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ إن هذه الآية تعم المشرك وغيره ممن ارتكب ما تضمنته من فساد، ولا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ، وقد نزلت في جماعة من عرينة أو عكل؛ كما في الصحيحين: إن نفرًا من عكل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك. فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبوا من أبوالها وألبانها». فقالوا: بلى. فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحّوا. فقتلوا الراعي، وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهم فأُدركوا، فجيء بهم، فأمر فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا [٢٧٣]. ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن إمام المسلمين فيهم بالخيار، إن شاء قتل، أو شاء صلب، أو شاء قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو شاء نفى من الأرض. وهذا في كـلّ من شهر السلاح، وأخاف السبيل ثم ظفر به إمام المسلمين وقدر عليه. فالقتل لمن قتل فقط، والصلب لمن قتل وأخذ المال، والقطع لمن أخذ المال ولم يقتُل، والنفي لمن أخاف فقط. ويلحق بالنفي ما أشبهه في التنكيل من الحبس وغيره، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ﴾ أي ذل ﴿فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب النار، وهو خاص بالمشركين إذا لم يسلموا.

(٣٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي من المحاربين وقطاع الطريق المسلمين، فإذا تابوا قبل أن يقبض عليهم وسلّموا أنفسهم لإمام المسلمين أو نائبه ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ويسقط عنهم جميع ما ورد في الآية من القتل والصلب والقطع والنفي.

(٣٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوه وأطيعوه ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ التي تقربكم إليه تعالى من التوسلات المشروعة؛ كالتوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وبالأعمال الصالحة، وبدعاء المؤمن لأخيه المؤمن ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والمفهوم من هذه الآية الكريمة أن الوسيلة إليه تعالى هي بتقوى الله وطاعته وبالجهاد في سبيله، أما التوسل بذوات المخلوقين، فهو في جملة ما بُعث المرسلون بمنعه.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله، ودُّوا يوم القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي لو أن لهم كل ذلك ﴿لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ليفدوا أنفسهم به من العذاب ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ أي ما تقبل الله منهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي موجع دائم خالد.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟
أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ
لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿٣٧﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ولو كانوا مخلصين لهذه الإرادة لعملوا لها في الدنيا، أما أن يخرجوا من النار بعدما ماتوا على الشرك ... فهيهات ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ ولو أرادوا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي عذابهم دائم مستمر، لا خروج لهم منه، ولا محيد لهم عنه. وفي الصحيحين: «يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقال له: يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع. فيُقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبًا؟ قال: فيقول: نعم ربِّ. فيقول الله تعالى: كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار» [٢٧٤].

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي اقطعوا يمين كلٍّ منهما، أما نصاب السرقة فثلاثة دراهم. كما في الصحيحين: «أنّ رسول الله ﷺ قطع في مجنٍ ثمنه ثلاثة دراهم» [٢٧٥]. ومن قال أن نصاب السرقة ربع دينار لما في الصحيحين: «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا» [٢٧٦]. قالوا: وحديث ثمن المجن وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهمًا، فهي ربع دينار. فإن عاد إلى السرقة قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، وإن عاد فاليد اليسرى وإن عاد قطعت رجله اليمنى ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا ترْثوا لهم وترقوا رحمةً بهم، فإنه أمر الله الذي أمر به ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على أمره، حكيم في خلقه.

﴿٣٩﴾ ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي رجع عن السرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عملَه فتاب توبةً نصوحًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي من تاب من بعد سرقته، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردّها إليهم أو بدلها، نزلت هذه الآية في المخزومية التي سرقت وقطع رسول الله ﷺ يدها اليمنى: «... فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: نعم، أنتِ اليوم من خطيئتك كيوم ولدتْك أُمك. فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]» [٢٧٧].

﴿٤٠﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو المالكُ الحاكم فيهما ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه بما فرط ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له بما أصلح من العمل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن قدرته التعذيب والمغفرة.

﴿٤١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ أي لا يدخل عليك الحزن ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي الذين يقعون في الكفر بسرعة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي اليهود ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي الذين يقبلون كذب رؤسائهم المحرِّفين للتوراة ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهم جماعة من المنافقين واليهود كانوا يتجنّبون مجالس رسول الله ﷺ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ وكانوا قد بدّلوا حكم التوراة القاضي برجم الزاني بدّلوه بالجلد مائة والتحميم، يقولون: إن حكم لكم محمد بالجلد فخذوا حكمه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ أي لم يحكم بالجلد بل حكم بالرجم ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾ أي من قبوله واتِّباعه ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلا تستطيع دفع ذلك عنه، ولا تقدر على نفعه وهدايته ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي من أرجاس الكفر والنفاق، كما طهّر قلوبَ المؤمنين ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ بظهور نفاقهم وتحريفهم ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يحتمل.

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ
فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ
وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ
بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن
لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

١١٥

(٤٢) ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي يسمعون منه من رؤسائهم ويقبلونه ويعملون به، وكرره أيضًا تأكيدًا لقبحه ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي المال الحرام المهلك المستأصل كحلوان الكاهن والرشوة وهو عام في كلِّ مال حرام ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ هذا التخيير منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ [المائدة: ٤٩] الآية، فيجب الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا وبخاصة مع مسلم فيجب إجماعًا ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

(٤٣) ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ أي لو كانوا مؤمنين عاملين بإيمانهم، لم يحرّفوا حكم التوراة ويصدفوا عنه لكن أملًا أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم وإلا فإنهم غير مؤمنين بك ولا بما جئت به ﴿فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ بالرجم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد ما حكّموك ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليسوا بالمؤمنين الذين يخافون الله فينزلون عند حكمه.

(٤٤) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وهذا مدح للتوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام، فوصفها بأن فيها هدى ونورًا يستضاء به في الأحكام وفي التبشير بمحمد ﷺ وإيجاب اتباعه ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ من بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أي انقادوا لله ولأوامره، فإذا كان النبيون وهم أعظم الخلق يحكمون بالتوراة، فما بال هؤلاء الأراذل من اليهود يعرضون عنها ويحرفونها!! وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي يحكم النبيون بالتوراة لهم أو عليهم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي العلماء والفقهاء منهم ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي بما استُودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يُظهروه ويعملوا به ولكن لم يعملوا بها استؤمنوا عليه وبدّلوه ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ﴾ أي على الكتاب ﴿شُهَدَاءَ﴾ بأنه حق وصدق ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ يا رؤساء اليهود ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ أي لا تخافوا منهم وخافوا مني أن تكتموا ما أنزلتُ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تأكلوا السحتَ على كتابي فتكتموه... ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي كفر دون كفر إذا كان لا يستحل ذلك وإلاّ فهو كافر الكفرَ البواحَ.

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي أن النفس تُقتَلُ بالنفس التي قتلتها، ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ أي من فقأ عينَ أحد تُفقَأُ عينه، ﴿وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ﴾ أي من جَدَعَ أنفَ أحد تجدعُ أنفُه، ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ أي من قطعَ أُذُنَ أحد فتُقطَعُ أُذُنه، ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ أي ومن قلع سِنَّ أحد تُقلع سِنّه، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذوات قصاص. وقد ذكر أهل العلم أن لا قصاص في الجروح التي يخاف عليها التلَف، ولا فيما كان لا يعرف مقداره عمقًا أو طولًا أو عرضًا إلا بعد أن يعرف، وما تقدَّم من حدود يستوي فيه أحرارُ المسلمين فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس، ولا يقتل مسلم بكافر، لما جاء في الصحيحين: «لا يقتل مسلم بكافر» [٢٧٨]. وهناك قواعدُ في الجراح وقصاصِها يرجع فيها إلى كتب الفقه من شاء ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أي من تصدّق أي صاحب الحق، فهو كفّارة للجارح وأجر للمجروح المتصدِّق، والتصدُّق هنا، أي الإعفاء. وفي الحديث: «من تصدّق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت» [٢٧٩]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ظلموا أنفسَهم بما عَرضوها لشديد عذاب الله وأليم عقابه.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

١١٦

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أتبعنا على آثار أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ الكتاب الكريم المتمِّم للتوراة ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي إن الإنجيل الذي أوتيه عيسى حال كونه مشتملًا على الهدى والنور ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي إن الإنجيل مصدق أيضًا للتوراة ومتمم لها ﴿وَهُدًى﴾ لمن اتبعه ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي زاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم للذين يتقون الله ويخافونه.

(٤٧) ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي الذين آمنوا به ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ من البينات، ومنها البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه، وتصديقه إذا بعث ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي بجميعه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم إلى عصيانه.

(٤٨) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي هذا القرآن قائمًا بالحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي من الكتب التي قبله من التوراة والإنجيل ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي مشتملًا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الكتب السابقة ومقررًا لما فيها مما لم ينسخ، وناسخًا لما خالفه منها، وحافظًا لما فيها من أصول الشرائع ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي أهواء أهل الملل السابقة من اليهود والنصارى، عادلًا ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي جعلنا لليهود والنصارى لكلٍّ شرعة ومنهاجًا يحكمون بها من قبل أن ينزل هذا القرآن، وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي بشريعة واحدة وكتاب واحد ورسول واحد ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي ليختبركم ويرى المطيع منكم والعاصي وهو أعلم بكم، ولكن ليقيم عليكم الحجة من أعمالكم ومبلغ اتباعكم لما آتاكم من الشرائع ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي إلى تنفيذ ما أمرتم به وترك ما نُهيتم عنه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي معادكم ومآبكم إليه جميعًا ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجزي المصدّقين ويعذب المكذبين، ويظهر أهل الحق على أهل الباطل.

(٤٩) ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية هي التي نسخت التخيير له ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها، ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم الباطلة ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ومع أن الله عصمه ﷺ من الفتنة هذه، ولكن لشدة الحرص على أن يبقى دائمًا متنبهًا إلى ما يحاول اليهود أن يعمل أو يحكم بها يوافق ما يتمنّون ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي فإن تولوا عن اتباع حكمك الحق فذلك لأن الله يريد أن يعاقبهم بتولّيهم وانصرافهم عن الحق ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله ﷺ، والتمرّد على قبول الحق، والتولّي عن الإنصاف.

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: أيعرضون عن حكمك إلى حكم الجاهلية؟ ويتولّون عما أنزل الله إلى ما حرفه رؤساؤهم؟ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين والإيمان.

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» لا أحسن من الله حكما

سورة المائدة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)
وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ
إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

١١٧

(٥١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا الأولى بأن يكون الخطاب لكل من يتصف بالإيمان، فيدخل المسلم والمنافق، ويؤيد هذا الآيةُ بعدها: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والاعتبار بعموم اللفظ. والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ تعليل للنهي، والمعنى: أن اليهود أولياء لبعضهم والنصارى كذلك، وليس المراد أنهم جميعًا أولياء فيما بينهم، لا؛ فهم في عداوة وشقاق فيما بينهم إلى يوم القيامة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي هذا التولي يجرُّ صاحبه إلى أن يكون منهم، فالتولي القليل يجر إلى الكثير، وهذا تهديد ووعيد شديدان، يراد بهما النهي الباتُّ عن تولِّيهم الذي يؤدي إلى الكفر، والعياذ بالله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي بموالاتهم التي هي ظلم للنفس، وهل أعظم ظلماً للنفس من أن يدفعها إلى الخلود في العذاب الأليم، ويقذفها في الدرك الأسفل منه.

(٥٢) ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك وريب ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يتعلّلون بأن هذه الخشية هي الحاملة على موالاتهم، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى إذا ما ظفروا بالمسلمين فينفعهم ذلك!! ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أي بالنصر لنبيه بإظهار دينه ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم، ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من موالاة الكفار ﴿نَادِمِينَ﴾ على ما فرّطوا من موالاتهم ومناصرتهم.

(٥٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي تعجب المؤمنون منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك فبان كذبهم وافتراؤهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ أي بطلت أعمالهم وخسروا الدنيا بالفضيحة والآخرة بما سيعاقبون به من العقاب الأليم.

(٥٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ أي من تولّى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ أي يحبهم الله ويحبون الله، وهذا يشتمل على غاية المدح، ونهاية الثناء ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي عاطفين حانين على المؤمنين وشديدين غليظين مترفعين على الكافرين ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم وبأقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي يقدمون رضى ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عظيمه، وعليم بمن يستحقه فيعطيه إياه.

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولمّا نهى الله عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم وما هو مآل من يتولاهم أخبر تعالى عمن يجب توليه، فحصر الولاية فيه تعالى وفي رسوله والمؤمنين ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يحافظون على صلاتهم ويؤدون زكاة أموالهم ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي خاشعون لله متذللون له حال القيام بهذين الركنين.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي من يجعلهم أولياءه وأنصاره ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فقد صار من حزب الله الذي لا يغلب، وإن هذه الآيات كلّها نزلت في عبدالله بن أُبي ابن سلول الذي والى الكفار، وفي عبادة بن الصامت الذي تبرأ من موالاتهم وتولّى الله ورسوله والمؤمنين.

(٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء، والمراد بالكفار: المشركون. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي تجنبوا مساخط الله أن تُوالوا من اتخذوا دينكم هزوًا إن كنتم تؤمنون به أنه الحق.

من يتخذ أولياء من دون المؤمنين فهو منهم • رسول الله والمؤمنون هم حزب الله وإنهم الغالبون

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟
بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ
وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

(٥٨) ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي دعوتم إليها بالأذان ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي هزأةً وسخرية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي يعملون هذا العمل ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يفهمون معاني عبادة الله وشرائعه، لأنهم أهل سفه وخفةٍ وطيش.

(٥٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي تسخطون وتعيبون ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ معطوفًا عليه عطف علّة على علة. والتقدير: وما تنقمون منا إلاّ لأننا آمنا بالله وكتبه وبأن أكثركم فاسقون، أي خارجون عن الصراط المستقيم. وهذا ولا شك ليس فيه مطعن علينا ولا عيب ولا مذمة لنا.

(٦٠) ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي بلغهم وقل يا محمد: هل أخبركم بما هو أولى بالشر والعيب والتسخّط والذم والعقوبة عند الله، ولفظ (مثوبة) وُضِع هنا موضع العقوبة، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وهي منصوبة على التمييز من (بِشَرٍّ) أي بشرٍّ من كلٍّ ذلك، هو ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده وطرده من رحمته، وهم الذين (اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا) ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضبًا لا يرضى بعده أبدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ وهم أصحاب السبت ﴿وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ وهم كفار مائدة عيسى. وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: «إنَّ الله لم يهلك قومًا أو قال: لم يمسخ قومًا فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» رواه مسلم [٢٨٠]. ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي وَمَنْ عبد الطاغوت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي هم أشر وأضل من غيرهم عن الصراط المستقيم.

(٦١) ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي أظهروا الإسلام ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لم يتأثروا بسماعهم منك، أي دخلوا به وخرجوا به ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والكفر.

(٦٢) ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ أي يسرعون إليه، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي في الاعتداء على الناس ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي المال الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي من الإثم والعدوان والسحت.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي علماؤهم ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي هلاّ نهوهم عن هذه الذنوب؟ ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس صنيع علمائهم بهم، فإنهم لم ينصحوهم ولم يأمروهم ويرغبوهم بالخير، وينهوهم عن الشر.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي بخيلة ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي أبعدوا وطردوا من رحمته بسبب قولهم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يداه صفة له تعالى حقيقةً لا مجازًا، وكلتا يديه يمين، معلومتا الحقيقة، مجهولتا الكيفية. ولا يجوز أبدًا أن نقول: يده أي نعمته، أو قدرته فنكون قد عطلنا صفة اليد ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ منها، وفي الصحيحين: «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ أن خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، قال وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض -أو القبض- يرفع ويخفض. وقال: يقول تعالى: أنفقْ أُنفقْ عليك» [٢٨١]. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ أي اليهود والنصارى ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي حسدًا وتكذيبًا وفسادًا ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لا تجتمع قلوبهم ولم يزالوا متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ أي لحرب الإسلام وأهله ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بالمعاصي والدعوة إلى باطلهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وسيجازيهم على إفسادهم بما يستحقون.

يداه تعالى كلتاهما يمين وهما صفة له معلومتا الحقيقة مجهولتا الكيفية سبحانه وتعالى

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا
لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

١١٩

لو اتبع أهل الكتاب كتابيهم كما نزلا لقادهما إلى العمل بمقتضى شرع محمد ﷺ

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي آمنوا بالله ورسوله ﷺ، وتركوا ما كانوا يقترفونه من المآثم والمحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي غفرنا لهم ذنوبهم مهما كانت كبيرة وكثيرة شركًا أو جحودًا بمحمد ﷺ ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي وكانت خاتمتهم في الآخرة طيبة، وجازيناهم ثوابًا عليها بجنات النعيم.

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولو عملوا بما في التوراة والإنجيل بلا تحريف والموصوف فيهما رسول الله ﷺ ثم آمنوا به، وبهذا القرآن ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء من المطر والنابت لهم من الأرض ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ وهم مسلمة أهل الكتاب من آمن بالنبي ﷺ كعبدالله بن سلام وصحبه، أي رغبوا بالدين بلا غلو فيه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس الذي يعملونه مما هم عليه من الكفر.

(٦٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي يأمر الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه الصلاة والسلام وقام به أتم قيام. وفي البخاري عند تفسيره هذه الآية: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من حدثك أن محمدًا كتم شيئًا من ما أنزل الله عليه فقد كذب وهو يقول عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾». هكذا رواه مختصرًا [٢٨٢]، وقد أخرجاه في مواضع من صحيحيهما مطولًا [٢٨٣]. وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناس إنكم لمسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: «اللهم هل بلغت؟» [٢٨٤]. ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي إذا لم تؤدِّ إلى الناس ما أرسلتك به، فما بلغت رسالته، أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع. ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي بلِّغ أنت رسالتي، وأنا حافظك من الناس، وناصرك ومؤيدك على أعدائك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي بلِّغ أنت، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

(٦٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يا أيها اليهود والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي من الدين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي حتى تعملوا بما فيهما ومما فيهما الإيمان بمحمد ﷺ والأمر باتباعه ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي هذا القرآن ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي إن الذين استمروا على الكفر منهم ما يزيدهم هذا القرآن إلا كفرًا فوق كفرهم وطغيانًا إلى طغيانهم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم.

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ الصابئون نوعان: حنفاء موحدون وصابئة مشركون، فالأولى منهم هم المعنيُّون ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي كل فرقة من هؤلاء آمنت بالله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي ولا يكون العمل صالحًا مقبولًا إلا إذا كان خالصًا لوجه الله ومطابقًا لشريعة محمد ﷺ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من النار في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على السمع والطاعة لله ولرسوله ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يتوالون عليهم بالدعوة والإرشاد، ولكن ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ من الحق ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ أي بما جاءهم به رسلهم ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي ويقتلون فريقًا آخر من أنبيائهم.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا
يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ
ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾
لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ
إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ
ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ
ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ
يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

١٢٠

(٧١) ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي هل ظنوا أنه لا يترتب على ما فعلوا شرٌّ بهم جزاء ما صنعوا، بل حصل هذا كله ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الحق، أي أعماهم الله عنه ﴿وَصَمُّواْ﴾ فلا يسمعون حقًا ولا يهتدون إليه ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لما تابوا ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ ثانيًا ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي عمي وصمّ كثير منهم وبقي القليل على توبتهم وإيمانهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله خيرًا كان أم شرًا.

(٧٢) ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ والعياذ بالله من هذه المقالة الشنعاء، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، فكيف يقولون ذلك، وقد كانت أول كلمة نطق بها وهو في المهد: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، ولم يقل إني أنا الله؟ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوّته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي فيعبد غيره معه ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ وذلك لأنه سوّى بين الخالق والمخلوق بالعبادة ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي ما لهم عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ يدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار.

(٧٣) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ نزلت في جعلهم المسيح وأمّه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي ليس في الوجود إلا إله حق يعبد، وهو الله تعالى وتقدّس ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لئن لم يتوبوا إلى الله ويرجعوا إلى توحيده لسوف ينزل بالذين كفروا منهم عذاب عظيم مؤلم خالد.

(٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾ وهذا تهديد ثان إذا لم يتوبوا ويستغفروا الله من كفرهم، ورحمة بهم من جهة أخرى بفتح باب التوبة لهم وهذا من كرمه ورحمته بخلقه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بمن تاب إليه واستغفره وأناب إليه.

(٧٥) ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾ أي من جنس الرسل الذين هم عباده ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلاّ رسول كمن كانوا قبله من الرسل ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ أي مؤمنة به ومصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها فدلّ على أنها ليست نبيةً كما زعم ابن حزم وغيره من نبوة سارة أم إسحاق ونبوّة أم موسى، ونبوّة أم عيسى استدلالًا بخطاب الملائكة لهن. ولا نبيّ إلا من الرجال[1]. ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ كغيرهما من الناس، ومن كان كذلك لا يكون إلهًا لتركيبه وضعفه وما يلزم من أكله للطعام من البول والغائط ﴿ٱنظُرۡ﴾ متعجبًا ﴿كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على وحدانيتنا ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي انظر كيف نبين لهم الآيات الدالاّت على الوحدانية لله تعالى البينات الظاهرات، ثم انظر بعد هذا كيف يسلكون طريق الضلال؟!

(٧٦) ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد أتعبدون من غير الله سبحانه من المخلوقين الفقراء المحتاجين الذين لا يستحقون شيئًا من العبودية ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أي إن كنتم تخافونهم فإنهم لا يملكون أي ضرر أو أذية لكم، وإن كنتم ترجون منهم النفع فإنّهم لا يملكون إيصال أي نفع إليكم، لأنهم لا يملكون ذلك ولم يخلق الله فيهم هذه الاستطاعة والقدرة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي هو السميع لأقوال عباده، فإذا جاؤوا بالدعاء إليه فهو السميع وهو من فوق سبع سماواته، والعليم بكل شيء من حاجات عباده، فهو القادرُ على نفعهم وضرِّهم، فلِمَ تعدلون عنه إلى من لا يملكون لكم ضرًا ولا نفعًا؟

(١) بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [يوسف: ١٠٩].

ليس عيسى هو الله، ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، بل هو عبدُ الله ورسوله ﷺ

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟
كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى
ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾
وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ
﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ
وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٧) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: لا تغلوا أي لا تتجاوزوا الحد في دينكم، والزموا ما أُنزل إليكم من ربكم، ولا تُطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه من عبوديته ونبوّته إلى مقام الألوهية كما فعلتم وصنعتم بالمسيح الذي هو عبدُ الله ورسوله، فجعلتموه إلهًا من دون الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي لا تتبعوا ضلالات أحباركم ورهبانكم، رؤوس الضلال الذين سبقوكم بهذه الضلالات، وهم سلفكم الذين ضلوا قديمًا ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من الناس قبلكم بدعوتهم إلى تأليه العزير والمسيح عليهما السلام ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي إلى الغواية وتركوا سلوك الصراط المستقيم.

(٧٨) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي طُردوا وأُبعدوا من رحمة الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي من دهر طويل فيما أنزله على داود وعيسى عليهما السلام، أي إنهم لعنوا في التوراة والزبور والإنجيل والفرقان ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقه، ثم بيّن لهم ما كانوا يعتدونه في زمانهم، فقال:

(٧٩) ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي كان لا ينهى أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب ما ارتكبوه فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي بئس ذلك السكوت على المنكر الذي كانوا يقترفونه، لأنه تشجيع على فعله وارتكابه، وتزيين للمعصية في نفوس العاصين. وفي الحديث: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيرًا، فإذا كان من الغد، لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾». ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمُرنَّ بالمعروف، ولتَنهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد المسيء، ولتأطِرُنَّه على الحق أطرًا، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم»[1] [٢٨٥]. والأحاديث في ذلك كثيرة[2].

(٨٠) ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني بذلك المنافقين ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي من موالاتهم للكافرين التي كانت سببًا في: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أخبرهم أنهم ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ في جهنم التي لا يخفف عذابها ولا يهدأ.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي لو كانوا يؤمنون بالله ورسوله حقًا لما والوا الكافرين وعادوا المؤمنين، وعادوا ما أنزل من القرآن ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لما نزل عليه من الحق.

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ وما ذاك إلاّ لأن كفر اليهود كفر عناد، وجحود ومباهتة للحق وممالأة للمشركين على قتال رسول الله وهم يعلمون أنه على الحق، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. وفي الحديث: «ما خلا يهودي بمسلم إلاّ هم بقتله»[3] [٢٨٦]. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن الحق والإيمان به. ونزلت هذه الآية بحق وفد النجاشي الذين بعثهم إلى رسول الله ﷺ فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا ثم رجعوا فبلغوا النجاشي فأسلم. ولما مات النجاشي صلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب [٢٨٧].

(١) ضعيف.
(٢) ولعل منها هذا الحديث الصحيح: «إنّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشكَ أن يعُمَّهُمُ الله بعقاب منه» رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وصححه الألباني.
(٣) ضعيف.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

١٢٢

(٨٣) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ ثم آمنوا بالرسول، فقال لهم: «لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم» فقالوا: لن ننتقل عن ديننا هذا [٢٨٨] (١) ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ بصحة دين الإسلام والمؤمنين به.

(٨٤) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي ولماذا لا نؤمن بالله ورسوله وما نزل عليه من الحق مع وجود ما يقتضي له ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي ونطمع أن يدخلنا ربنا الجنة مع المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان من صحابة محمد ﷺ.

(٨٥) ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ﴾ أي كان ثواب إيمانهم جنات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ لانقيادهم للحق.

(٨٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي هم أهلها والداخلون الخالدون فيها.

(٨٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الطيبات هي المستلذات مما أحلّه الله لعباده، فقد نهى الله الذين آمنوا عن أن يحرموا على أنفسهم شيئًا مما أحلّه الله لهم. كما يقع من كثير من العوام بقولهم: حرام عليَّ الطعام الفلاني أو الملبس الفلاني ظنًا منهم أن في ذلك طاعةً لله أو تقربًا إليه زهدًا في الدنيا بلا دليل، وجاء في الصحيحين: أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا لكنّي أصوم وأفطر، وأنام وأقوم وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [٢٨٩]. ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا تضيّقوا على أنفسكم بتحريم المباحات، فإن هذا اعتداء منكم على التشريع، وليس لكم أن تحلوا ما حرّم الله أو تحرموا ما أحلّ، إن الله لا يحب الذين يعتدون على حرماته فيحلّون ويحرمون كما يشاؤون.

(٨٨) ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي غير محرم ولا مستقذر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه ولا تجب أي كفارة على من حرّم على نفسه شيئًا ما، إلا إذا حرّم بعض نسائه فعليه كفارة يمين، وليعُدْ إلى معاشرتهن.

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وهو اليمين من غير قصد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي بما صممتم عليه منها وقصدتموها ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إطعام عشرة من الفقراء كالخبز واللحم أو الخبز والسمن أو اللبن أو الزيت، بحسب الحال أكلةً واحدة أو كسوة أدناها ثوب، وأعلاها ما شئت أو عتق رقبة، وهو أي الحانث مخيّر بين هذه الأصناف الثلاثة. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي فمن لم يستطع إحدى الكفارات الثلاث ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ لا يجب فيها التتابع ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي هذه هي كفارة اليمين الشرعية ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي لا تتركوها بدون تكفير، إذا رأيتم فعل ما هو خير مما حلفتم عليه، فكفّروا عن أيمانكم وافعلوا الذي هو خير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي المبينة للحلال والحرام، الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله الذي علمكم وبيّن لكم الأحكام الشرعية فنفذتموها كما أمركم.

(١) ضعيف.

تحريم مآكل ومشارب وملابس بلا دليل بدع خبيثة يجب تركها، لغو اليمين لا اعتبار له

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ
مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ
وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ
أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ
ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ
وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ
يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ
مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا
سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

لعن في الخمر عشرة وتحريم النرد والشطرنج وكل مسكر خمر وكل خمر حرام

(٩٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ﴾ وهو كل ما خامر العقل وستره سائلًا كان أو جامدًا على اختلاف أسمائها، ويشمل الحشيش والأفيون والكوكائين وما يتفرع أو يشتق منها. وفي الحديث: «لعنت الخمرة على عشرة أوجه: لعنت الخمرة بعينها، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها» [٢٩٠]. ﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ أي القمار. وفي الحديث: «إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان، اللتان تزجر زجرًا فإنهما ميسر العجم» [٢٩١]. وهما ما تُسميان في زماننا: (زهر الطاولة) والطاولة هي النرد. وفي الحديث: «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله» [٢٩٢]. والشطرنج كما قال علي بن أبي طالب: الشطرنج من الميسر. وقال ابن عمر: الشطرنج شرٌّ من النرد. ﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾ هي حجارة كان المشركون يذبحون عندها قرابينهم لآلهتهم ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ وهي قداح كانوا يستقسمون بها، والقدح سهم الميسر، وما يسمى في زماننا بـ(اليانصيب) وهو ميسرٌ صرفٌ، ومما يؤسف له: أن الدولة، والجمعيات الخيرية تتعاطاه في أعمال البر (زعموا)، على أن الحرام حرام وليس لأحد أن يستحله مهما كانت الأسباب(١) ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أي لا تقربوه، وإن النهي عن القرب من الشيء، يفيد تحريمه من باب أولى ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي باجتناب فعل ما نهيتم عنه وتفوزون بالجنة التي أعدت للمتقين.

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بتزيين هذه المحرمات لكم ﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ لأن في الخمر ذهاب العقل مما يؤدي إلى أخطر الأعمال، وإن في الميسر من أخذ المال من صاحبه بلا مقابل ما يحدث العداوة والبغضاء ﴿وَيَصُدَّكُمۡ﴾ أي الشيطان ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي عن أن تتذكروا نعمته وغضبه ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي عن القيام بها ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي بيَّنت لكم ما في هذه المحرمات من المفاسد، ما تدعوكم عقولكم إلى الانتهاء عن فعلها فورًا. فهل ستنتهون عنها أم لا؟ وفي هذا تهديد ووعيد لمن لم ينته عنها؛ أفلا يستدل بما تقدّم على حرمتها؟ بلى وقد قالوا: انتهينا.

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾ من مخالفة الله ورسوله. ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن الطاعة وعما نهيناكم عنه ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي إن رسولنا محمدًا بلغ البلاغ الواضح من أوامرنا ونواهينا ولن تضروا بمخالفتنا إلا أنفسكم فتوردوها النار التي لا تُحتمل.

(٩٣) ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أي سابقًا من المحرمات المذكورة آنفًا قبل تحريمها وتابوا منها إلى الله ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ أي ظلوا مجتنبينها إلى الأبد ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ أي أيدوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ازدادوا منها ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ﴾ أي وثبتوا على التقوى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي ويثيبهم على إحسانهم ويزيدهم من فضله.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي سيختبركم وهو أعلم بكم ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ وكانوا مُحرمين وقتئذ بالحديبية ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ أي كانت هذه الطيور والوحوش في متناول أيديهم ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فيجتنب الصيد ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد النهي ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

(٩٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ أي أثناء الإحرام ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي شبههُ في الخلقة ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي يحكم بالشبه رجلان عدلان مسلمان ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ أي واصلًا إلى الحرم ويفرّق لحمه على مساكينه ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي إذا لم يجد المثل، فطعام مساكين، وعددهم ستة، لكل مسكين نصف صاع(٢) ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ أي ثلاثة أيام، عن كل صاع صيام يوم ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾ أي عقوبة صيده في الإحرام ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ قبل التحريم ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ أي إلى الصيد في الإحرام بعد التحريم ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُ﴾ جزاء انتهاكه حرماتِ الله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن تعمّد عصيانه.

(١) إلا أسبابًا ذكرها الله في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

(٢) ومن استزاد فعليه بكتب الأحكام.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

صيد البحر: ما أُخذ منه حيًا، وطعامه ما لفظه ميتًا. النهي عن سؤال يسوء سائله

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أن تأكلوه حلالًا كنتم أو محرمين. وهو ما لا يعيش إلّا فيه كالسمك، بخلاف ما يعيش فيه وفي البر، كالسرطان[1] ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي البحر، ما يقذفه ميتًا ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي منفعة وقوتًا لكم وللمسافرين، وقد استدلّ الجمهور على حل ميتة البحر من هذه الآية الكريمة. وفي الحديث: «أُحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال» [٢٩٣]. وفي الحديث: أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته» [٢٩٤]. ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين بحج أو عمرة، فلو صاده حلال فللمحرم أكله ما لم يكن قد صيد له أو أعان على صيده ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي اتقوا الله فيما نهاكم عنه الذي ستحشرون إليه يوم القيامة فيحاسبكم، وفيه مبالغة في التحذير.

(٩٧) ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ يقوم به أمر دينهم بالحج إليه، ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له، وجبي ثمرات كل شيء إليه ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ بمعنى الأشهر الحرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب؛ قيامًا لهم بأمنهم من القتال فيها ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي جعلهما أيضًا قيامًا للناس، والقلائد أي ذوات القلائد من الهدي ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن ذلك مصالحكم الدينية والدنيوية.

(٩٨) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأعدائه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لأوليائه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم ويثيبهم بأحسن أعمالهم.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ لكم بما أنزل عليه من ربه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي تظهرون من العمل ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي ما تخفون منه فيجازيكم به.

(١٠٠) ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أي قل يا محمد لا يستوي الحرام والحلال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أي سرّك كثرته ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة التي تميزون بها بين الخبيث والطيب. وفي الحديث: «ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى» [٢٩٥]. فاكتفوا بالطيب القليل ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تفوزون.

(١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ نزلت لما أكثروا سؤاله ﷺ، أي نهاكم تعالى عن السؤال عن أشياء لا فائدة فيها، لأنها إن ظهرت لهم ساءتهم وشقّت عليهم. وفي الحديث: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» [٢٩٦]. ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء حين نزول الوحي تبيّن لكم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عما كان منكم من كثرة السؤال قبل ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لكم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة، إنما يُمْهِل.

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي بسببها مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة، فأصبحوا بها كافرين.

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ أي تجدع أذن الناقة والشاة ويمنع درُّها للطواغيت ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ كانوا يسيبونها لآلهتهم ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ وهي الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تثنّي بعد بأنثى وكانوا يسيِّبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ﴿وَلَا حَامٍ﴾ وهو فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه دعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل وسمّوه الحامي ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لم يشرع الله هذه الأشياءَ ولا هي عنده من القربات ولكن المشركين هم افتروا ذلك فكان وبالًا عليهم.

(١) لا يجوز أن يأكل منه المحرمُ، لأنه حيوان بريٌّ، لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ
لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ
أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ
اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ
مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ
أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿١٠٤﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي إلى حكم القرآن وبيان رسول الله ﷺ بشأن تحليل ما حرّمتم ﴿قَالُوا حَسْبُنَا﴾ أي يكفينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين والشريعة ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي هل يتبعون آباءهم ولو كانوا لا يعرفون حقًا ولا يهتدون إليه لجهلهم، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟!

﴿١٠٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بإلزامها بفعل الخيرات والصلاح ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم ضلال أهل الكتاب والمشركين إذا كنتم مهتدين ومتمسكين بأحكام دينكم، وليس معنى هذا القعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ففي الحديث: «إنّ الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيّرونه يُوشِك الله عزّ وجلّ أن يعمَّهم بعقابه» رواه أحمد عن أبي بكر مرفوعًا. [٢٩٧]. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي ستحشرون إليه يوم القيامة جميعًا ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٠٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي أسباب الموت ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي يشهد الوصية اثنان من المسلمين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير المسلمين ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفرٍ، وأن يكون في وصية ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي بعد صلاةٍ مّا، اجتمع المسلمون فيها بحضرتها ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي يحلفان به تعالى ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم بأمانتهما ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أي بأيماننا ﴿ثَمَنًا﴾ أي لا نعتاض عنه بعِوَض الدنيا الفانية ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المشهود عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي قريبًا لنا لا نحابيه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي إنْ حرّفنا أو كتمنا شهادتنا فنحن إذًا من الذين ارتكبوا الإثم.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي خانا وكذبا بشهادتيهما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أي متى تحققت خيانة الشاهدين الأولين فليقم اثنان آخران من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أوْلى من يرث ذلك المالَ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ أي لَقولُنا أنهما خانا، أحقُّ وأصحّ وأثبتُ من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن كنا قد كذبنا عليهما. وهذا التحليف للورثة، ويؤخذ بقولهما، وعن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري، وعديّ بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته، فقدوا جامًا من فضة مخوصًا بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعديّ. فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتُنا أحقُّ من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم، وفيهم نزلت الآية. [٢٩٨].

﴿١٠٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أي شرعية هذا الحكم على الوجه المرضي ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إن رُدّت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدَّعون، ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ كلام الله وأطيعوا ونفذوا ما يأمركم به ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعته وعن متابعة ما أنزل من شريعته.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ
لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ
الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ
جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي
وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

(١٠٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي ماذا أجابكم الذين بعثتم إليهم ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي قالوا: لا علم لنا إلا علمٌ أنت أعلم به منا. ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله، فإنهم وإن كانوا أجيبوا وعرفوا من أجابهم، ولكن هذا اطلاع على علم ظاهر منهم، ولا علم لهم بباطنه، إنما الله هو العليم بظاهر الأمور وبواطنها، ولذلك أوكلوا العلم إليه تعالى، لأنه هو وحده علاّم الغيوب، لا إله غيره، ولا رب سواه.

(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ أي في خلقي إياك من أم بلا أب، وجعلي إياك آيةً على كمال نعمتي على كل الأشياء، وحيث جعلتك برهانًا على براءة والدتك مما نسبه الظالمون إليها من الفاحشة. ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي تدعو إلى الله في صغرك وكبرك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ اللذين أنزلتهما من لدُنّي ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي تُصوِّره على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي بإذن الله تعالى ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أي تبرئ الذي يولد أعمى وهو الأكمه وتبرئ الأبرص -معروف- بإذن الله، وإن جَعلَ المولود أعمى بصيرًا أبلغُ في المعجزة وأقوى بالتحدّي ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته. فكل معجزة هي في الحقيقة لله تعالى، إنما يظهرها على يد من يشاء من رسله وأنبيائه وله وحده الأمر والخلق ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالبراهين الساطعة على نبوتك ورسالتك إليهم ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي كذّبوك واتّهموك بالسحر وسعَوْا في قتلك وصلبك فنجّيتك منهم ورفعتك إليّ حيًا، وهذا يدلُّ على أن هذا الامتنان واقع يوم القيامة، وعبّر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطْلَعَ عليها نبيّه محمدًا ﷺ.

(١١١) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي أمرتهم على لسانك ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ المسيح ابن مريمَ ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي بك وبرسولك المسيح ابن مريم ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي اشهد وأنت خير الشاهدين بأننا مسلمون مؤمنون.

(١١٢) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وقرأ آخرون: (هل تستطيعُ رَبَّكَ). أي هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، وعلى القراءة الأولى أنهم قالوا ذلك قبل أن تستحكم معرفتهم بصفات الله وقدرته، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي لا تشكّوا في قدرة الله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقيل: معناها لا تسألوا الله هذا فعساه أن يكون فتنة بكم.

(١١٣) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ثم لتطمئن قلوبنا إذا شاهدنا نزولَها رزقًا لنا من السماء، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي ونزداد إيمانًا بك ويقينًا وعلمًا برسالتك بأنك رسولُ الله حقًا يقينًا مشاهدًا ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي ونشهد أنها آيةٌ من عند الله ودلالةٌ وحجةٌ على نبوّتك وصدقِ ما جئتَ به ونكونَ عليها من الشاهدين عند من لم يحضرها من سائر الناس. ولما رأى عليه السلام ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ
وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ
يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿١٢٧﴾

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدًا نعظمه نحن ومن بعدنا من ذرارينا وغيرهم ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ أي دلالة وحجة واضحة على كمال قدرتك، وعلى إجابتك لدعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي أعطنا رزقًا هنيئًا بلا كلفة ولا تعب نستعين به على عبادتك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ بل لا رازق في الحقيقة غيرك ولا واهب سواك.

(١١٥) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي هذا وعد من الله بتنزيلها ووعده حقٌّ وهو لا يخلف الميعاد، فمن يكفر ويكذب بها بعد ما يشاهد هذه الآية الباهرة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحدًا من العالمين أي عالمي زمانهم، وقيل: جميع العالمين، وفي هذا من التهديد والترهيب ما لا يقادر قدره. وفي الحديث: «نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغدٍ فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير»[1] [٢٩٩]. رواه ابن أبي حاتم عن عمار. ورويت هناك أخبار أخرى وكلها تدل على أن المائدة قد نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم إجابةً من الله لدعوته، كما دلّ ظاهر سياق الآية: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا هو الصواب، والله أعلم.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، وقيل: لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيّروا بعده وادعوا عليه ما لم يقله. ﴿قَالَ﴾ عيسى وقد أرعد ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك عما لا يليق بك من الشريك وغيره ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي إن كان صدر مني هذا، فقد علمته يا رب ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ هذه الجملة في حكم التعليل لما قبلها: أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي تعلم كافة المغيبات ولا يخفى عليك شيء منها، وهذا نصٌّ في أن لله نفْسًا حقيقة بلا كيف.

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ من إبلاغ الرسالة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي هذا الذي قلت لهم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت أشهد عليهم ما دمت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي لما رفعتني إلى السماء وغبتُ عنهم ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي العالم بهم والشاهد عليهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي مالكهم والمتصرف فيهم كيف شئت ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي لمن آمن منهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي القادر على ذلك، وأنت الغالب على أمره والحكيم في أفعاله. وهذا الكلام يتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله ندًا وصاحبةً وولدًا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

(١١٩) ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي يوم ينفع الموحدين توحيدُهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما عملوه من الطاعات الخالصة له ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما جازاهم به ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي برضاء ربهم وعفوه ومغفرته وجنته الخالدة.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو الخالق للأشياء، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته، وفي مشيئته؛ فلا نظير له، ولا وزير ولا عديل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، ولا إله غيره ولا ربَّ سواه.

آخر تفسير سورة المائدة ولله الحمد والمنّة

(١) ضعيف.

سُورَةُ الأَنْعَامِ (آياتها ١٦٥) (ترتيبها ٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

١٢٨

(٦) سُورَةُ الأَنْعَامِ

مكية إلا الآيات ٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ فمدنية وآياتها ١٦٥، نزلت بعد الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ يحمد الله تعالى نفسه الكريمة على خلق السماوات والأرض قرارًا لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده أيضًا في ليلهم ونهارهم. فجمع لفظ (الظلمات) ووحّد لفظ (النور)؛ لكونه أشرف. ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يشركون به غيره ويساوون به سواه.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يعني خلق أباكم آدم من طين وهو أصلكم ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ تموتون في نهايته ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي معلومٌ ﴿عِندَهُۥ﴾ لبعثكم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تعلمون بأنه خلق لكم كل هذه النعم وهي الشاهدة على وجوده وقدرته الكاملة ثم أنتم به تشركون، وبقدرته على بعثكم تشكون وتمترون.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو المدعوُّ بهذا الاسم العظيم من أهل السماوات وأهل الأرض ويقرّون له بالعبادة، ويعبده ويوحده أهلهما جميعًا. كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزُّخرُف: ٨٤]. أي هو المعبود من أهل السماء والأرض. وهذا يدل على بطلان قول من يقول: إن الله في كل مكان. لا سيما إذا علمنا أن هذا القول مسرَّبٌ إلينا من اليهود لعنهم الله. فهو قول متلقًّى عن الجهم بن صفوان، عن الجعد بن درهم، عن أبان بن سمعان، عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله ﷺ. وإن القول بأن الله في كل مكان يفيد حلول الله في كل مكان، وهذا كفر صراح بل إن الله كما وصف نفسه: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير أو شر وهو على عرشه فوق سبع سماواته.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي كلما أتت الكفار حجةٌ ومعجزة على وحدانية الله، وصدق رسله ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي يعرضون عنها ولا يبالون بها ولا بعواقب ذلك.

(٥) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ على ألسنة رسله يبلغهم أنه هو المستحق للعبادة وحده فكذبوا الحق ومن جاء به ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي سيعلمون عواقب ما كذبوا وليذوقنَّ وبال ما كانوا يسخرون منه، وهذا تهديد عظيم.

(٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي ممّن سلفهم من أهل الأزمنة المتقدمة من الكفار ما حلّ بهم من النكال والوبال ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم مالاً وأولادًا واستعلاءً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي أكثرنا عليهم أمطارَ السماء، وينابيعَ الأرض استدراجًا وإملاء لهم، ومع ذلك لم يرعووا ولم يؤمنوا ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنوبهم وكفرهم ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي جيلًا آخر لنختبرهم ونحن أعلم بهم، فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا مثلهم، فحذار من أن يصيبكم ما أصابهم، وإنكم لستم أعزّ منهم على الله فينزل العقاب بكم مثلهم وأشد.

(٧) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك من شدة عنادهم ومكابرتهم للحق، فإنهم لو رأوا الكتاب ينزل من السماء، ولمسوه بأيديهم متحققين منه لكذّبوا به وزادهم عنادًا ومكابرة وجحودًا وكفرًا ومنازعة في الحق الأبلج.

(٨) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي هلاَّ أنزل مع محمد ملك يصدقه ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ أي كما طلبوا فلم يؤمنوا ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي لعجلنا لهم العقوبة والعذاب وأهلكناهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يؤخرون ولا يمهلون لتوبة أومعذرة لأنهم لن يؤمنوا ولو أوجدنا لهم ما اقترحوا وجودَه كإنزال الملك ... لكذَّبوا، واقترحوا غير ذلك عناداً ومكابرة.

القول بأن الله في كل مكان ضلال وكفر دسّها اليهود على المسلمين

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا
يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ
وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

١٢٩

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي الملك على صورة رجل ليتمكنوا من رؤيته إذ لا قوة للبشر على رؤية الملك ﴿وَ﴾ لو أنزلناه رجلاً ﴿لَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: لالتبس عليهم الأمر أيضًا ولظنوه بشرًا ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ ولقالوا كما قالوا سابقًا: ما هذا إلا بشر مثلكم.

(١٠) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ في تكذيب من كذّبه من قومه ووعدٌ له وللمؤمنين بالنصر في الدنيا والآخرة، ونزل بالكافرين ما كانوا به يستهزئون ويكذبون.

(١١) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين: سافروا في الأرض ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما كانوا فيه من النعيم وما حلّ فيهم من الخراب والدمار والموت، فأنتم بهم لاحقون، وبعد هلاكهم هالكون.

(١٢) ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي إن له ما في السماوات والأرض فإن أقرّوا اعترافًا أو بإقامة الحجة عليهم فإن الله ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي وعد بها تكرمًا منه تعالى، وفيه تلطف منه في دعوتهم إلى الإيمان. وفي الصحيحين: «أن الله لما خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي» [٣٠٠]. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده إلى يوم القيامة وهو يوم لا يشك فيه المؤمنون، أما الجاحدون ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة.

(١٣) ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي كل دابة وكل شيء فهو ربه وخالقه ومالكه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يُقال ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُفعل.

(١٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لا أتخذ وليًا ولا نصيرًا إلا الله خالق السماوات والأرض ومبدعها ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي يطعم مخلوقاته ولا يأكل، ويرزُق هو ولا يُرزق. ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل: إني نهيت عن الشرك، وهو معصوم منه ﷺ، إنما هذا من قبيل التكليف.

(١٥) ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي عذاب يوم القيامة، فهو ﷺ أشد الناس خوفًا من الله وخشية منه. وفي الحديث: «أنا أخشاكم لله وأخوفكم منه» [٣٠١].

(١٦) ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي من يُصرف عنه عذاب القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي نجّاه وأنعم عليه وأدخله الجنة ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي من صرف عنه العذاب ورحمه الله فقد فاز فوزًا ظاهرًا عظيمًا.

(١٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو سبحانه مالك الضر وحده وهو يكشفه وحدَه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي من رخاء وعافية ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإذا كان الله تعالى هو منزل الضر وهو كاشفه، وهو منزل الخير من كل شيء وهو على كل شيء قدير، فما بال هؤلاء الذين يدْعون غير الله هل يستطيعون كشفَ الضرِ عنهم أم هم عن دعائهم غافلون؟ أموات غير أحياء والله هو الحي الذي لا يموت، أفيدعون الأموات الذين لا يقدرون على شيء، ويتركون الحيَّ القيوم الذي هو على كل شيء قدير؟!

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي هو سبحانه وتعالى الذي خضعت له الرقاب وعنت له الوجوه، ودانت له الخلائق وهو فوقهم عليٌّ عليهم بائن عنهم ولجلاله وذاته العلية العلو المطلق على خلقه وهو فوقهم حقيقة بلا كيف، والفوقية صفة له تعالى بلا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل، فوق عرشه عالٍ عليه وعلمه وسع كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله يضعها حيث تقتضي حكمته ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بما يفعله عباده من خير أو شر المطلعُ على السرائر والضمائر وخفايا أمور عباده ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. وفي هذه الآية دليل أيضًا على علوّ ذات الله على خلقه: فوق سماواته وفوق عرشه حقيقة بلا كيف.

الله فوق عباده حقيقة بلا كيف، والفوقية صفة له بلا تأويل ولا تعطيل

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

١٣٠

(١٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي أعظم شهادةً، نزلت لما قالت قريش للنبي ﷺ ائتنا بمن يشهد لك بالنبوة، فإن أهل الكتاب أنكروك ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي إن الله هو الذي تولّى الإجابة، فقال: قل يا محمد الله يشهدُ لي برسالته وهو شهيد بيني وبينكم على صدقي بالنبوة ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي إن القرآن هذا نذير لكم ولكل من بلغه، فكل من بلغه القرآن، فكأنما رأى النبي ﷺ، وكلمه به. وفي الحديث: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به»، رواه ابن عباس [٣٠٢]. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ فإن شهد المشركون بأن معه آلهة أخرى ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي هو المعبود الواحد الحق ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ معه من الأنداد والأوثان، تعالى الله عنها علوًا كبيرًا.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي يعرفون محمدًا بصفاته في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ أي يعرفونه بصفاته حقيقةً مثلما يعرفون أبناءهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالذي جاءت به وبشرت بمبعثه الأنبياء فخسروا أنفسهم بهذا، أي بكفرهم وشركهم.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي ادّعى النبوة وهو ليس بنبيّ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي كذّب النبيَّ الذي جاء بآيات الله حقيقةً ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالتكذيب، أي لا يفلح المفتري ولا المكذِّب بآيات الله وحججه وأنبيائه ورسله.

(٢٢) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ للتقريع والتوبيخ، وأضاف الشركاء إليهم، لأنها لم تكن شركاء لله حقيقةً، بل لما سمّوها شركاء أضيفت إليهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونها شركاء، أي: أين هي؟ لِمَ لَم تكن معكم وتشفع لكم؟! كما كنتم تزعمون.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارًا عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فكانوا كاذبين في الدنيا بتكذيبهم الأنبياء، وكاذبين في الآخرة على الله بإنكارهم الشرك الذي كانوا عليه في الدنيا. وهذه الفتنة من الله كانت جزاءً وفاقًا.

(٢٤) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ باعتذارهم الباطل ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ما كانوا يشركون أي لم يكن معهم شركاؤهم الذين زعموا، ولم ينقذوهم من الله.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُم﴾ أي قريش ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي يجيئون إليك ليستمعوا قراءتك ولكن لا تجزي عنهم شيئًا ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ أي علم الله منهم أنهم سيكونون كذلك فكانوا، وأعرضوا عن الحق فعلًا، فكان من الله أن جعل على قلوبهم أغطية وفي آذانهم صممًا يسمعون ولا يفقهون وينكرون كل معجزة ولا يؤمنون بها. كل هذا جزاءً وفاقًا من الله كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ مكابرين معاندين: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيبهم وأباطيلهم.

(٢٦) ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي ينهون الناس عن اتباع الحق ويبعدون هم أيضًا عن اتباعه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم ولا يعود وبالُه إلا عليهم وهم لا يشعرون بما سيلاقونه من الهلاك يوم القيامة.

(٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾ أي حين يقفون ﴿عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهل تنفع يومئذٍ ليت!!!؟

يودّ الكفار أن يرجعوا إلى الدنيا فيؤمنوا ولكن هيهات ... ولو ردّوا لعادوا إلى كفرهم

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ
نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

١٣١

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي بل ظهر لهم يوم القيامة ما يخفون من الكفر في أنفسهم من قبل في الدنيا ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي ما طلبوا العودة إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفًا لما عاينوا من العذاب، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في وعدهم بالإيمان، ولو رُدّوا لعادوا إلى كفرهم السابق.

(٢٩) ﴿وَقَالُوا﴾ بعد عودتهم كما كانوا يقولون في الدنيا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي كما كانوا يقولون أول مرّة.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي حين يلاقون ربهم يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ لهم ربهم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي يوم البعث والحساب الذي كنتم تنكرونه؟ أليس هو حقًا؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه لحقٌّ ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بقيام القيامة والبعث.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي بيوم الحساب ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ أي على الذنوب الكبيرة من الكفر وغيره، ولذا قالوا: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي في الدنيا من الأوزار ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ما يحملون من الأعمال الخبيثة على ظهورهم، وتركَبُهم كما ركبوها في الدنيا.

(٣٢) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ اللعب معروف، واللهو هو كل ما يشغلك ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي هي خير للذين يتقون الشرك والمعاصي. أفلا يستعملون عقولهم فيؤمنون بالله واليوم الآخر؟

(٣٣) ﴿قَدْ﴾ للتحقيق ﴿نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم لك، وحزنك وتأسّفك عليهم وعلى الخاتمة المرذولة التي سيصلون إليها من جرّاء كفرهم بك وبما أرسلتَ به، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ولكنهم يعاندون الحق، كما قال سفيان الثوري عن علي ﷺ: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذبُ ما جئت به [٣٠٣]. فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي يكذّبون. وقد خلا الأخنس بن قيس بأبي جهل ليلة بدر، فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدًا لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قُصيٍّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة فماذا يكون لسائر قريش؟! [٣٠٤] فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له فإن له بصبر المرسلين قبله أسوة حسنة، ولقد جاءه من أنبائهم كيف نصرهم الله وأيدهم على من كذبهم، فإن لك فيهم يا محمد أسوة، ولك بهم قدوة وسينصرك الله كما نصرهم.

(٣٥) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي شقّ عليك ذلك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ النفق: السرب في الأرض فتذهب ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: بمعجزة أو تجعل لك سلّمًا في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بمعجزة أفضل ... فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ولكنه لم يشأ ذلك ولله الحكمة البالغة، لأن ذلك أي إيمانهم أمر تكليفي يترك إلى اختيارهم ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فإن الله لا يعجزه شيء ولكن لا يفعل حتى يكونوا مسئولين أمام الله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي فلا تتعجّل بإيمانهم وفوّض الأمر إلى الله.

يسلي الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا
مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ
تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ
﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا
نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

١٣٢

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ دعوتك لهم سماع تفهُّم واعتبار ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني بذلك الكفار، لأنهم موتى القلوب فشبّههم بموتى الأجساد، وهذا دليل على أن الأموات لا يسمعون وإلا لما صحّ التشبيه بهم، أي بالأموات الذين لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعملون ولا يعلمون.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي معجزة منه تعالى، كالناقة والعصا والمائدة ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ أي معجزةً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن نزولها -إذا لم يؤمنوا بها- يكون وبالًا عليهم لوجوب هلاكهم إذا جحدوها.

﴿٣٨﴾ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يدبُّ عليها ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواء ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في تدبير رزقها وخلقها وأحوالها ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي ما تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يعني في كتاب عنده تعالى مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها وحاصر لحركاتها وسكناتها، والظاهر -والله أعلم- أنه أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، لا القرآن الذي بين أيدينا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لا يوجد في اللوح المحفوظ من شيء لم نكتبه ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي جميع من خلق يحشرون إليه ويقضي بينهم، ويقتص للجمّاء من القرناء، ثم يقول لغير المكلفين من خلقه كونوا ترابًا فيكونوا ترابًا كما أراد.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي القرآن ﴿صُمٌّ﴾ عن سماعها سماعَ تفهم وقبول ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق والإقرار بالحق ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي في ظلمات الكفر ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ جزاء تصامِّه وعدم فهمه وإعراضه ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ جزاء سماعِه وطاعته وعملِه بما أُمِرَ ونُهي.

﴿٤٠﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ أي في الدنيا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي يوم القيامة بغتةً ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي إنكم في ذلك الوقت لا تدعون غير الله لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الأصنام والآلهة من دون الله تنفعكم؟

﴿٤١﴾ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ في الشدائد ولا تدعون أحدًا سواه وتنسون أصنامكم ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أن يكشفه عنكم من الضر ونحوه ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أن يكشفه، لأن الاستجابة موكولة إلى مشيئته، ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فلا تدعونهم.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلًا فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي بالمصائب في الأموال والأبدان ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي يدعون الله بضراعة، أي بتذلل وخشية وخوف منه تعالى وتقدّس.

﴿٤٣﴾ ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي فهلاّ تضرعوا لما حلت بهم البأساء والضراء والمصائب في الأبدان والأموال فآمنوا وسألونا بذلٍّ وخشية وانكسار أن نرفعها عنهم ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يومئذٍ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي حسَّن الشيطان لهم ما كانوا يعملون من الكفر والعِناد وتكذيب الأنبياء والرسل. حسَّن الشيطان لهم ذلك في أنظارهم فاستحسنوها فأصرُّوا عليها.

﴿٤٤﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من الرجوع إلى الله والإيمان به وبرسله فلم يتعظوا، جاءت الفتنة والعياذ بالله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأموال والأولاد والتمكين في الأرض والعمران والنعم استدراجًا لهم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ فرح بطر ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة غير مترقبين لذلك وعلى حين غرة ومن غير إنذار، لأن الإنذارات جاءت قبلُ ولم يتّعظوا بها وأصروا على حالهم تلك ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون حزينون لما نزل بهم من سوء الحال والمآل الذي آلوا إليه من نقمة الرب وغضبه والعياذ به تعالى.

شبه الله الكفار بالموتى لأنهم موتى القلوب، عطاء الله للعاصي استدراج

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

١٣٣

إذا أتى عذاب الله لا يُهلك به إلا الكافرون، الرسول لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله

(٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي استُؤْصلوا عن آخرهم وأهلكوا ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على هلاكهم وانتصار رسل الله، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه تعالى عند نزول النعم التي من أجلِّها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فإنهم أشد على عباد الله من أشد المصائب. اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين واقطع دابرهم، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم.

(٤٦) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أي أصمكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ أي طبع عليها فلا تعرفون شيئًا ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي فمن يأتيكم بذلك المأخوذ ويردُّه إليكم؟ أي لا يقدر على ذلك أحد إلاّ الله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نُبيِّنها ونوضِّحها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون عن الحق، ويَصدُّون الناس عنه.

(٤٧) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي فجأة من غير توقع ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ قيل: بغتة أي بالليل، وجهرة أي بالنهار ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ما يُهلك إلاّ القوم الكافرون الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي يبشرون الطائعين المؤمنين بالجنة، وينذرون العاصين الكافرين بالنار ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي آمن بما جاءت به الرسل وأصلح نفسه بفعل ما يدعونه إليه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من النار في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوا من الدنيا. هذا حال من آمن وأصلح فلهم البشرى، أما حال المكذبين:

(٤٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي أنزلناها على رسلنا وكفروا بها ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي ينالهم عذاب لا قِبلَ لهم به ويذوقونه شر مذاق خالدين فيه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي يخرجون عن طاعة الله بتكذيب رسله وما نزل عليهم من الآيات البينات الباهرات.

(٥٠) ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أمره تعالى بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه بأن يفعل معجزات تضطرهم إلى الإيمان، أمره أن يقول إنني لا أتصرف بخزائن الله ولا أملكها، وهذا ردٌّ مفحم على من يخاطب رسول الله في هذا الزمان ويقول له أو يخبر عنه بما خاطبه الله تعالى، وينظمونه شعرًا ويقولون:

«خزائن رحمتي ونعيم ملكي ... بحكمك فاقض فيها ما تشاء»

ويسمعها أكثر العلماء ولا ينهون المنشدين عن إنشادها، وهي كفر صراح مخالف لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ثم يقولون من قصيدة البوصيري:

«فإنَّ من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم»،

والله يأمره أن يقول: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي مما لم يوحَ إليَّ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ من الملائكة. بل يقولون أعظم من ذلك إنهم يقولون: إن الله قطف قطفة من نوره وقال: كوني محمدًا، فكانت محمدًا. ولم نر أحدًا من العلماء نهاهم عن هذه الأقوال المخالفة للقرآن، والتي تجعل محمدًا ﷺ في مرتبة أشبه بمرتبة الألوهية والعياذ بالله، والله يأمر رسوله أن يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي من عند الله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي لا يستويان ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك وتؤمنون بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ.

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لأن الإنذار يؤثر بالمؤمنين الذين يؤمنون بلقاء الله، وهذا رد على من يزعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، وهم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، وهم المشركون ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، ويقلعون عما هم فيه من الشرك إلى الإيمان والتوحيد.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي يعبدونه ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يبتغون بعبادتهم وجه الله ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي كلٌّ يحاسب عن عمله ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ وكان المشركون يطلبون من النبي ﷺ طرد هؤلاء المستضعفين المؤمنين ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هذا تعليم له ولأمته، وإلاّ فإنه ﷺ حاشاه من ذلك، وإنه لمعصوم من فعل ما لا يرضي الله تعالى.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا
بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾
قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ
أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾
۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي الشريف بالوضيع، والغني بالفقير، وذلك أن الرسول ﷺ لما عرض دعوته على الجميع استكبر منهم الأشراف والأغنياء إلا قليل، وعزَّ عليهم ترك دين آبائهم ودخول الدين الجديد، فعاقبهم الله عقابًا من جنس العمل على استكبارهم هذا ... بفتح باب استكبار جديد لهم، بأن جعل المستضعفين من العبيد والإماء والفقراء يسبقون الأشراف والأغنياء بالإيمان والدخول في الدين الجديد ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾ أي الأشراف والأغنياء ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي المستضعفون ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي أهؤلاء أكرمهم الله بإصابة الحق دوننا؟! لو كان ما هم عليه هدى ما سبقونا إليه، فجعل الله عاقبة استكبارهم الأول استكبارًا جديدًا باعثًا لهم على عدم دخولهم في دين الإسلام، فكان ذلك جزاءً وفاقًا من جنس العمل، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠]. ولما قالوا قولهم ذلك ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ له فيهديهم؟ بلى وقد هداهم.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم الذين نهاه الله عن طردهم، وهم المستضعفون من المؤمنين ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ من الله ومني. وهذا أمر من الله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب ذلك على نفسه إيجاب فضل وإحسان وأمر رسوله أن يبلغهم ذلك ويبشرهم برحمته الواسعة الشاملة ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي عمل ذنبًا عن جهل[1] ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ إلى الله منه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد ما علم أنه حرام ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أن الله تعالى غافر لذنبه رحيم به وبعباده.

(٥٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي نبينها ليظهر الحق فيعمل به ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي لتظهر طريقهم فتُجتنب.

(٥٦) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي صرفه الله عن عبادة ما يعبدون ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي لا أتبع مسلككم الضال عن الحق وما طلبتم مني من طرد المستضعفين؛ فلو فعلتُ ذلك ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي لو فعلت ما تريدون فإني إذًا ضال عن الطريق الذي أدعُوكم إليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي لست على هدى.

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي إنني على يقين من ربي بأنني على الهدى، وكذبتم أنتم به سبحانه ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من المعجزات التي تقترحونها عليَّ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في هذا ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي إن حكم كل شيء هو في يد الله ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يقضي بالحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ بيني وبينكم وبين الحق والباطل.

(٥٨) ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لو أنَّ ما تستعجلونه من المعجزات أو العذاب في مقدوري وفي قبضتي لدعوت الله أن يوقعه بكم ويقضي الله الأمر بيني وبينكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أين هم وأعلم بالوقت الذي ينزل فيه عذابكم، وبما تقتضيه مشيئتُه سبحانه من تأخيره استدراجًا لكم.

(٥٩) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي عنده الغيب كله ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يعلم مفاتح الغيب إلاّ هو تبارك وتعالى، وفي الحديث: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]». [٣٠٥]. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي ما فيهما من مخلوقات ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي كتب فيه مقادير كل شيء. ودلّت هذه الآية على علمه المحيط بجميع خلقه.

(١) الجهل في العقيدة ليس عذرًا، ولولا ذلك لما أمر بالتوبة منه.

رحمة الله سبقت غضبه، التعذيب لله وحده، الغيب كله لله تعالى وحده

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ
رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ
أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ
ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا
مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم
بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

النوم موت مؤقت، المشركون يوحدون في الضراء ويشركون في السراء

(٦٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ أي هو الذي يتوفَّى عباده في منامهم بالليل، والنوم وفاة، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي الذي كسبتم بجوارحكم من خير أو شرٍّ ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أي في النهار يعني اليقظة، وهذا من دلائل إحاطة علمه تعالى بخلقه ليلًا ونهارًا، حركة وسكونًا ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيكم بحسبه.

(٦١) ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي عالٍ على خلقه بائن عنهم حقيقة لا مجازًا، وفوقية الله صفة له معروفة الحقيقة مجهولة الكيفية بلا تأويل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل، وكذلك سائر صفاته العُلى ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ أي ملائكة جعلهم الله حافظين لكم، أي يحفظون عملكم ويحصونه ويكتبونه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ أي أعوان ملك الموت ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون فيما يؤمرون.

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ﴾ يعني الخلائق كلهم يوم القيامة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الثابت العدل ليحكم بينهم ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي القضاء النافذ فيهم ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم.

(٦٣) ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي من ينجيكم من شدائدهما العظيمة ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ أي بتذلل وصوت خفي، وقيل: تدعونه جهرًا وسرًّا ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي المؤمنين الموحدين.

(٦٤) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ أي بعد ذلك تدعون معه حال الرفاهية آلهة أخرى!!

(٦٥) ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا﴾ أي بعد إنجائه إياكم ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ أي من السماء كالحجارة والصيحة ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ كالخسف، ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾ أي يجعلكم مختلفي النحل والآراء ويجعلكم فرقًا وأحزابًا متفرقة ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ من قتل وأسر ونهب وعذاب ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ أي: يفقهون الحقيقة، فيعودون إلى الحق الذي بيناه لهم، وفي الحديث: «... سألت ربي ثلاثًا: سألت أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألاّ يهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» [٣٠٦]. وفي حديث آخر: «ليكوننَّ في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ» [٣٠٧]. وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة.

(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي هو القرآن ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي لست عليكم بحفيظ حتى أجازيكم عليها إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمعُ والطاعةُ فمن تبعني سعد، ومن خالفني شقي، وهذا قبل الأمر بالقتال.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ أي لكل خبر وقت يقع فيه، وهذا وعيد من الله للكفار؛ لأنهم كانوا لا يقرُّون بالبعث ﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك يومَ حصوله ونزوله بكم، كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبي ﷺ يتوعَّدُهم به، وقد حصل.

(٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء والردّ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي بترك المجلس الذي هم فيه ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يصلح له، أي فارقهم حتى يتكلموا في حديث مغاير له ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أن تقوم عنهم وتعرض عن مجالسهم ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ والنسيان أمر يجري على رسول الله ﷺ، كما في الحديث: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني» [٣٠٨]. أي لا تقعد بعد تذكرك ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مع الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها. إنَّ الجلوس في مجالس أهل البدع فيه من المفسدة أضعاف ما فيه من المصلحة.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي ما على الذين يتقون الله إن هجروا مجلس الذين يخوضون في آيات الله من حساب الخائضين من شيء من الإثم، فكلٌّ له عمله وكلٌّ عليه حسابه ﴿ولكن ذكرى﴾ أي تذكيرًا للخائضين الذين يهلكون أنفسهم بما يخوضون فيه ﴿لعلهم يتقون﴾ عندما يرون المؤمنين فارقوهم أن يتعظوا ويكفوا عن الخوض في آيات الله، ويتقوا ذلك.

(٧٠) ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا﴾ أي أعرض عنهم، وأمهلهم قليلًا، فإنهم صائرون إلى العذاب العظيم؛ لأنهم اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ بنعيمها الفاني، وآثروها على الآخرة، وأنكروا البعث ﴿وذكر به﴾ أي ذكِّر الناس بالقرآن ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أي خشية أن تهلك نفس بما عملت ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي لو بذلت هذه النفس كل مبذول فداءً لها؛ ما قبل منها ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا﴾ أولئك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، هم الذين سلّموا للهلاك أنفسهم بما عملوا من شرٍّ ﴿لهم شراب من حميم﴾ يشربونه فيقطّع أمعاءهم ﴿وعذاب أليم﴾ أي موجع وخالد ﴿بما كانوا يكفرون﴾ به تعالى.

(٧١) ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ أمره الله سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة للتوبيخ، أي كيف ندعو من دون الله أصنامًا لا تضر ولا تنفع ونرجع إلى الضلالة التي أخرجنا الله منها؟! إذًا يكون مَثَلُنا ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾ أي متحيرًا تائهًا لا يدري كيف يصنع ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي دين الله الذي ارتضاه لعباده هو دين الإسلام، وهو الهدى الذي ما بعده إلاّ الضلال، ولا يقبل من أحدٍ غيره ﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ أي نُخلص له العبادة ونستسلم لأوامره.

(٧٢) ﴿وأن أقيموا الصلاة﴾ بجميع أركانها وشروطها وسننها في وقتها، فلا تؤخر عن وقتها إلا بعذر مشروع، وليس لها من عذر سوى النوم أو النسيان. لقوله ﷺ: «من نسي صلاةً أو نام عنها فليصلّها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك» [٣٠٩]. أي إذا استيقظ من نومه، أو تذكرها فليقم حالًا وليصلّها أداءً، لأن ذلك وقتها. حتى إذا تلهّى عنها فيكون قد ضيّع وقتها عامدًا متعمدًا، ولا يصبح معذورًا لتفريطه بها. ولا يستطيع قضاءها، وإن صلاها لا تجزي عنه؛ لأنه خرج وقتها ودخل وقت غيرها إلا أن يتوب توبةً نصوحًا، فالله يتوب على من تاب[1] ﴿واتقوه﴾ أي في ما أحل لكم وحرّم عليكم وتقربوا إلى جنابه بفعل الحلال واتقاء الحرام ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ فكيف تخالفون أمره!!؟

(٧٣) ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل، فهو خالقها ومالكها، فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة وتذرون خالق السماوات والأرض ﴿ويوم يقول كن فيكون﴾ هو يوم القيامة، يقول للخلق قوموا فيقوموا. وقوله هذا هو: ﴿قوله الحق﴾ الصدق الواقع لا محالة ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ أي القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام. وقد تظاهرت الأخبار عنه ﷺ: «إن إسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر، فينفخ» رواه مسلم [٣١٠]. ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي هو عالم بما خفي عن العيون وما هو مشاهد ﴿وهو الحكيم﴾ في جميع ما يصدر عنه تبارك وتعالى ﴿الخبير﴾ بكل شيء لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

---

(١) وليكثر أيضًا من النوافل، لقوله تعالى للملائكة يوم القيامة: «انظروا هل له من تطوّع».

اهجروا المجلس الذي يكذب فيه بآيات الله، من يهده الله فلا مضل له

۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ
أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا
رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ
أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ
سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾

(٧٤) ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ وهذا نص في أن آزر أبوه، لا عمه كما يزعم «البعض» لأن الله أخبر أنه أبوه، وخبر الله حق وصدق. أما لماذا يلجأ هذا «البعض...» لهذا التأويل؟ فمعروف؛ ولكن لا أعتقد أن هنا مجال الأخذ والرد فيه ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها من دون الله، والاستفهام للإنكار ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي بيّن واضح.

(٧٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خَلْقِهما، على وحدانية الله عزّ وجلّ، في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فقد كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على خطئهم، وإذا كان لدى الداعية الدلائل على صحة ما يدعو إليه، من الحجج والبراهين على ذلك، وقارن بين ما اتضح له وبين ما عليه قومه، تيقّن أنه على حق، وقومه على الباطل.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي اشتد ظلامه وتغشّاه وستره ﴿رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ أي نجماً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي قال لقومه متنحلاً شخصيتهم في عبادتهم للأصنام: هذا ربي؛ ليصل معهم إلى نتيجة يثبت لهم فيها الحق الذي اتضح له ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ لأن الأفول تَدَنٍّ إلى حالة نقص، فأنف أن يكون هذا الآفل ربًا يستحق أن يعبد ولفت أنظار قومه إلى أن الأفول نقص لا يليق بالرب.

(٧٧) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ أي طالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي عاد متنحلاً شخصية قومه ليثبت لهم فساد عقيدتهم بربوبية القمر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي صار مصيره مصير الكوكب الآفل، فخليق أن يأخذ حكمه. أي لا يصلح أن يكون ربًا ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فبيّن لهم أن هناك ربًّا له غير أربابهم، فذلك هو الذي يهديني وإياكم، إلى إيضاح الحق الذي خفي عليكم.

(٧٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ﴾ أي طالعةً مشرقةً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ لأن الكبر في نظر قومه شيء موجب لإلفات النظر، وبدأت الشمس الأكبر تتنقل في السماء حتى أفلت أيضاً ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ وطرأ النقص عليها، وبيَّن ذلك لقومه بأن الناقص لا يصلح للألوهية والربوبية، عندها: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي تشركون هذه الكواكب بالله تعالى وهي كلها فانية زائلة، فكيف تعبدونها وتذرون الذي خلقها وبرأها من العدم.

(٧٩) ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ في عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي لمن هو أعظم ... بل للذي خلقهما جميعًا ﴿حَنِيفٗا﴾ أي مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بالله غيره، وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مناظرًا لقومه، فقد دعوه إلى عبادة أصنامهم والكواكب والشمس والقمر فناظرهم وبيَّن لهم بطلان عبادتهم لغير الله، وكيف يقول إبراهيم عليه السلام للكواكب هذا ربي وهو نبيٌّ مرسل قبل هذا ... والله يقول: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢]. إذًا فهو نبي قبل أن يدعو أباه وقومه، لذلك فإنه كان مناظرًا لقومه عندما حاجّوه... والمحاجة التي كانت قائمةً بينه وبين قومه تدلّ عليها الآية التالية:

(٨٠) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ أي ناظروه بشُبه من القول ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِ﴾ أي تجادلونني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه؛ فإنه جعلني نبيَّه ورسوله، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي لا أخاف أصنامكم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ أي لا يضر ولا ينفع إلاّ الله وحده ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ أي أحاط علماً بكل شيء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ما ذكّرتكم به بأن آلهتكم باطلة، فتنزجروا عن عبادتها.

(٨١) ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ أي أصنامكم ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي حجة ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ أي أنا أم أنتم ﴿أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ﴾ من العذاب يوم القيامة ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي أيُّ الطائفتين أحق بالأمن من عذاب الله.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ
﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

١٣٨

(٨٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي الذين آمنوا بالله تعالى ووحَّدوه ولم يخلطوا توحيدهم بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي هؤلاء الموحدون المخلصون هم الآمنون يوم القيامة ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى الصراط المستقيم. وفي البخاري: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لم يظلِمْ نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] [٣١١]. وفي الحديث أيضًا: «من أُعطي فشكر، ومُنع فصبر، وظَلم فاستغفر»، وسكت. قال: فقالوا: يا رسول الله ما له؟ قال: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾» [٣١٢] (١). أي إذا أعطاه الله شكرَه بفعل الطاعات، وإذا مُنع الرزق لم يضجر وصبر، وإذا ظلم غيره ردَّ ظلامته واستغفر الله، فأولئك هم الآمنون.

(٨٣) ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي جعلناه يقيم الحجة عليهم، يعني بذلك قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ إلى ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي بالعلم والحكمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله، عليم بمن يهديه أو يضلُّه.

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنه وابن ابنه ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي هديناه إلى الصراط المستقيم في علمه وعمله ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي ذرية إبراهيم ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي كل هؤلاء من ذرية إبراهيم إلا لوطًا فهو ليس من ذرية إبراهيم إنما هو ابن أخيه وذكر في الذرية تغليبًا، وكذلك عيسى فهو من ذريته بأمه مريم عليها السلام، وفيه دليل على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، وكل من ذكر فَهُم أنبياء ورسل وفضلوا على العالمين، أي على عالم زمانهم عليهم الصلاة والسلام.

(٨٧) ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ذكر أصولهم، وفروعهم، وذوي طبقتهم ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي اصطفيناهم أنبياء ورسلًا وسلكناهم الطريق القويم والدين الخالص وهو دين الإسلام.

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الهدى الذي هديناهم إليه هو ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي الهداية والتفضيل والاجتباء ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الله ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الذين وفَّقهم الله للخير واتباع الحق ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾ أي هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله تعالى ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لأن الشرك محبط للعمل، أي مُذهِبٌ له، موجب للخلود في النار؛ فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا -وحاشاهم- لحبطت أعمالهم فغيرهم ولا شك أولى بإحباط العمل إن أشركوا.

(٨٩) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي هم الأنبياء المذكورون الذين أنزلنا عليهم الكتب ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي الحكمة ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي الرسالة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي قريش، فكفرت بالكتاب والحكم والنبوة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي بهذه الثلاثة المذكورة ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ قيل: هم المهاجرون والأنصار الذين يؤمنون بها جميعًا ولا يجحدونها، والأنبياء أولى والمهاجرون والأنصار تَبَعٌ لهم.

(٩٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ وهم الأنبياء الذين سبق ذكرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء والمرسلين لا إلى المهاجرين والأنصار إذ لا يصح أن يؤمر النبي ﷺ بالاقتداء بهداهم!!! بل بهدي الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، وفي ذلك دليل على أنه مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء والمرسلين فيما لم يَرِدْ فيه نص ينسخه ﴿قُل﴾ يا محمد لقريش: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي القرآن، لا أسألكم على إبلاغه إليكم ﴿أَجْرًا إِنْ هُوَ﴾ أي هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إلى الإنس والجن ليتذكروا به، فيرشدوا من العمى إلى الهدى والغي إلى الرشاد.

(١) ضعيف.

القصد بالظلم الشرك. الأنبياء دعوتهم واحدة. الدعوة ليس عليها أجر إلا من الله

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ
قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ
تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ
أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ
أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ
وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ
مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

١٣٩

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته، ولا عظموه حق عظمته ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ أي حين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وهم اليهود الذين أنكروا إرسال الله للرسل وإنزاله للكتب. وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجةً لا يطيقون دفعها، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وهم يعترفون بذلك ويذعنون له ولا مفرّ لهم من الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال الله على البشر وهم الأنبياء من الرسالات والكتب، فبطل جحدهم وإنكارهم ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ليهتدوا بها من ظلم الشبهات ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ أي الكتاب ﴿قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ أي تظهرون ما تودُّون إظهاره ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ منها، كصفة رسول الله ﷺ ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ أيها اليهود من القرآن ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من التوراة ببيان ما التبس عليكم، واختلفتم فيه ثم أُمِرَ رسول الله ﷺ بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذي ألزمهم فيه حيث قال: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي أجبهم بأنه أنزله الله ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي دعهم في باطلهم يلعبون كما يلعب الصبيان، حتى يأتيهم اليقين، أي الموت، فيعلمون عاقبتهم.

(٩٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ هذا من جملة الرد عليهم في قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى وعقبه بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني على محمد ﷺ، فكيف تقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ والمبارك كثير البركة ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل، أي شديد التصديق لهما، فإنه أي الكتاب المبارك وهو القرآن يوافقهما في الدعوة إلى الله وإلى توحيده وإن خالفهما في بعض الأحكام ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي من سائر بلاد الناس من عرب وعجم. وقد جاء في الصحيحين: «أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من قبلي» -وذكر منهن- «وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت للناس عامة» [٣١٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي كل من آمن باليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك، ولأن التصديق بالآخرة هو قبول لمن يدعو للإيمان بها، كما يدعو إلى العمل بما ينال به خيرها، ويندفع به ضرّها. ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يداومون عليها وعلى حفظ أركانها وشروطها ووقتها كما أمر تعالى.

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهم المستهزئون الذين قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المذكورون ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي سكراته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ إليهم بالضرب والتعذيب ويقولون لهم تعنيفًا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي أخرجوا أرواحكم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بدعوى النبوّة والإيحاء كذبًا ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بها وعن اتباعها وتصدون الناس عنها حتى أتاكم اليقين وأنتم على ذلك.

(٩٤) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ أي منفردين عن الأهل والمال والولد ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي حفاة عراة غُرلًا ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أي ما أعطيناكم من الأموال ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي تركتموها في الدنيا، ويقال لهم توبيخًا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ لله!!! تزعمون أنهم يستحقون العبادة ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم الاتصال ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا شفاعتهم وحيل بينكم وبينهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟
بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه. أي أن الله يشق الحب فيخرج منه النبات والحبوب والثمار على اختلاف أنواعها ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وهذا تفسير لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت، وقيل: يخرج الدجاجة من البيضة وبالعكس، وقيل: يخرج الولدَ الصالحَ من الفاجر وعكسه، وكل ذلك جيد، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فاعلُ كل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان، وتَعدِلون عن الحق إلى الباطل، فتعبدون مع الله غيره ممن لا يقدرون على ذلك.

﴿٩٦﴾ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي شاقّ عمود الصبح وهو أول ما يبدو من النهار ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي تسكن فيه الخلق وتستريح من التعب ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي حسابًا للأوقات يتعلق به مصالح العباد ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي تقدير الغالب القاهر والعليم الوافر العلم جل جلاله وعزَّ سلطانه.

﴿٩٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ في الأسفار. قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: إن الله جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ويُهتدى بها في ظلمات البر والبحر. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي بيّناها بيانًا مفصلًا لتكون أبلغَ لقوم يعلمون ما في هذه الآيات من الدلالة على قدرته وحكمته.

﴿٩٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي آدم عليه السلام، وهذا نوع آخر من بديع صنعه وعظيم خلقه الدال على كمال قدرته ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي مستقر في الأرحام ومستودع في الأصلاب ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي بيّناها ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي يفهمون كلام الله ومراده منه بدقة وإمعان.

﴿٩٩﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي مطرًا مباركًا وهذا نوع آخر من عجائب خلقه، فأخرج بهذا الماء رزقًا للعباد وغياثًا للخلائق ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي كل صنف من أصناف النبات ثم فصل هذا الإجمال ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي كل شيء رطب من النبات ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي متراكبًا بعضه فوق بعض كالسنابل ونحوها ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي أعذاق دانية، والعذق هو عنقود النخل المليء بالتمر ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي بساتين العنب ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضًا في بعض أوصافه ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي ولا يشبه بعضه بعضًا في البعض الآخر ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي فكروا بقدرة خالقه من العدم وانظروا نظرة اعتبار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ استدلالًا بعجائب مخلوقاته.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ وبعد علم المشركين بكل هذه النعم التي خلقها الله جعلوا له شركاء من الجن وهو الذي خَلَقَهم وخلقَ الجن وخلق كلَّ شيء ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ أي اختلقوا وكذبوا ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ أي إن له بنين وبنات وحاشاه سبحانه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي جعلوا له شركاء وبنين وبنات عن جهل وإفك وتخرُّص وضلال، تنزّه الله سبحانه وتعالى عن قولهم الباطل الذي وصفوا به ربهم الذي خلقهم.

﴿١٠١﴾ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما على غير مثال سابق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي كيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي من كان خالق كل شيء كيف يكون له ولد وهذا هو المستحيل ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية سبحانه وتعالى.

النجوم زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، هداية في الليل، المخلوقات دالة على الخالق

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾
قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ
فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا
جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي هذا الذي له تلك الصفات المتقدمة هو الله ربكم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حفيظ وقريب يدبّر خلقه ويكلأهم ويرزقهم.

(١٠٣) ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الإدراك: الإحاطة. والمنفيُّ هو هذا الإدراك، لا مجرد الرؤية. والمقصود: رؤية الله في الآخرة التي ستكون بلا إحاطة، أما في الدنيا فمعلوم أن الرؤية غير ممكنة. كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿...لَن تَرَىٰنِى...﴾ ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه لأنه هو الذي خلقها. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي الرفيق بعباده، والخبير بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء.

(١٠٤) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي: نور القلب. والمراد بها هنا: الحجة البينة والبرهان الواضح التي اشتمل عليها القرآن والسنة ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي فمن تعقّل الحجة وأذعن لها نفع نفسه لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من عمي عن الحجة ولم يتعقّلها ولا أذعن لها أضر بنفسه، وتعرّض لغضب الله في الدنيا والآخرة ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي برقيب إنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي.

(١٠٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نبيّنها في كل موطن بما فيها من التوحيد والعظات والعبر ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي وليقل المشركون: دارست مَنْ قبلك مِنْ أهل الكتاب وتعلّمت منهم ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي لنوضحه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه.

(١٠٦) ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي لا تلتفت إلى ما يقولون وما عليك إلا أن تقتدي وتعمل بما أوحيَ إليك من ربك بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا معبود غيره، واصفح واحتمل أذاهم.

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ لأنه لا يكون في الكون شيء إلا بمشيئته وإرادته ولكن المشيئة شيء والأمر شيء آخر، فإنه أمرهم بالتوحيد فاختاروا الشرك بمحض إرادتهم وعلم الله منهم أنهم سيختارون الشرك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام فقدّره عليهم وكتبه، وهكذا فإن اختيارهم من خلقه لا من أمره، وكذلك فإنه شاء وما أمر كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي رقيبًا ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ إنما مبلّغ.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تسبّوا المشركين وآلهتهم ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي مقابل ما سببتم آلهتهم، يسبُّون إلهكم وهو الله لا إله إلا هو. وهذا يدلّ على ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها. وفي الصحيح: «ملعون من سبّ والديه» قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه. قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمّه فيسب أمّه» [٣١٤]. ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي لما عملوا الشرّ عاقبناهم في الدنيا عليه بأن زيّناه لهم فيعملون شرًا آخر جزاءً وفاقًا، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠]: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يوم القيامة يخبرهم بأعمالهم التي اقترفوها ويعاقبهم عليها بما يستحقون من العذاب الأليم.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي حلف المشركون أيمانًا مؤكدة ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي ليصدقنّها ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إن المعجزات مرجعها إلى الله، إن شاء جاءكم بها أو ترككم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما يدريكم بأنها إذا جاءتهم يكفرون بها؟

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي لا نجعلها تثبت على شيء عقابًا لهم على كفرهم بما جاءهم أول مرة، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من تفسير الآيتين (١٠٧، ١٠٨)، وفي الحديث: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [٣١٥]. ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتردّدون جزاء كفرهم.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

(١١١) ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ فخاطبوهم ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي ولو أحييناهم فكلموهم ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي ولو جمعنا لهم كل شيء أمامهم من الملائكة والموتى ثم شهدوا جماعات جماعات، بأن الرسول الكريم هو رسول الله إليهم حقًا وصدقًا، كما اقترحوا بقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، يشهد له برسالته، فلو كل ما ذكر قد حصل، وشهد الجميع بصدق رسالته ﷺ ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي يصدقوا بالرسالة ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلاّ أن يشاء الله هدايتهم، لأن الهداية ليست إليهم إنما هي من خصائص الله حصرًا فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يلزم من مشيئة الله إجبارهم على الكفر، معاذ الله، إنما علم الله منهم من الأمر الأول أنهم سيختارون الشرك على التوحيد، فقدره عليهم، وشاءه لهم وكتبه، ولما عُرضَ عليهم التوحيد والإيمان في الدنيا كان منهم ما علمه الله من اختيارهم الشرك والكفر على الإيمان والتوحيد. فما شاء لهم إلاّ ما أرادوه باختيارهم الذي خلقه الله فيهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ فحال هذا الجهل دون وصولهم إلى الحق والصواب.

(١١٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ وهذه تسلية له ﷺ، أي كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء قبلك بمثلهم، فلا يحزنك هذا، وقوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ بدل من (عدوًا) أي للأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ﴾ أي شياطين الجن ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إلى شياطين الإنس ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي القول يزيّنونه ويُموّهونه بظاهر من الحق! فيغرون به ضعفة العقول غرورًا ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ولو علم منهم أنهم سيختارون الإيمان على الكفر لشاء لهم الإيمان ولم يشأ لهم الكفر، ولكن وافق الوجود الكوني للوجود العلمي الموافق للمشيئة، ففعلوه ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عليك، فالله كافيكهم وناصرك عليهم.

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ولتميل إلى القول المزخرف قلوب الكفار ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي يحبوه ويريدوه، فإذا تركتهم وما يفترون من زخرف القول، وقعوا بما يؤدي بهم إلى العذاب الأبدي الخالد ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ من هذه الأعمال ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي وليكتسبوا من الآثام ما هم مكتسبون، وإنه لتهديد شديد.

(١١٤) ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي قل يا محمد لهم: كيف أبتغي غير الله حَكَمًا بيني وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي مبيّنًا ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ذلك بما في كتبهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكّين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزّل من عند الله بالحق، كما هو أمر لأمته بأن لا يشكّوا بذلك.

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي صدقًا فيما قال وعدلًا فيما حكم ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا مغيّر لما حكم به ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لما يقال والعليم بما يُفعل.

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ من الإنس والجن ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن الضلال هو الغالب على أكثريتهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ بأن معبوداتهم تستحق أن تعبد ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يقدرون الأشياء على غير حقيقتها.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي لا أحد أعلم منه بمن يضل عن الصراط المستقيم ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي ولا أحد أعلم منه تعالى بالذين سلكوا الطريق إلى الحق واهتدوا إليه، وفي الحديث: «ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك» [٣١٦].

(١١٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي عند ذبحه خلافًا للمشركين الذين يذبحون لآلهتهم ويذكرون أسماءهم عليها ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي موقنين ومصدقين ومتبعين لها ومنفذين.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ
بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾
وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾
أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى
ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ
ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٤٣

(١١٩) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه، بعد أن أذن لكم بذلك ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي بيَّن لكم ما حرم عليكم بيانًا مفصلًا يدفع الشك ويزيل الشبهة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ...﴾ [الأنعام: ١٤٥] وما جاء بعدها في سورة المائدة وما جاء في الأحاديث، ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فإنه يباح لكم ما وجدتم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهم المشركون الذين كانوا يحرّمون البحيرة والسـائبة ونحوهما جهلًا منهم وتبعًا لأهوائهم وضلالاتهم، فيضلّون الناس بغير علم؛ ليتّبعوهم ظانين أن هذا هو الحق والصواب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي هو أعلم باعتداءاتهم وافتراءاتهم وأكاذيبهم الباطلة، ولذا يجب التأكد من صحة كل ما يُقال قبل العمل.

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي علانية الإثم وسرَّه. وفي الحديث عن النواس بن سمعان: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع الناس عليه» [٣١٧]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي سواء كان الإثم ظاهرًا أو باطنًا وخفيًا، فإن الله تعالى سيجزيهم به.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ والمقصود التسمية على الذبيحة، فإذا نسي المسلم أن يسمي على ذبيحته لم يضر، لحديث: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» [صحيح]. وإن تركها عمدًا لا تحل الذبيحة، أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ فإنه محمول عند بعض الأئمة على ما ذبح لغير الله، لقوله تعالى في الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقالوا: إن ترك أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، لا يكون فسقًا بل هذا هو المطلوب، أما الذبح لغير الله أي ذكر اسم غير الله عليه فهو الفسق. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ أي يوسوسون إلى أوليائهم الكفار في التحيّل على أكل الميتة ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بذلك ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في تحليل ما حرم الله، أي اتبعتم شرعهم وتركتم شرع الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن الله هو المشرع، فإن اتخذتم مشرعًا غيره تكونوا قد أشركتم بصفة التشريع التي هي لله وحده، وأعطيتموها لغيره، وهذا هو الشرك بعينه لأن الشرك بالصفة كالشرك بالذات.

(١٢٢) ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ المراد بالميت هنا الكافر ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي أحياه الله بالإسلام ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ والنور عبارة عن الهداية والإيمان ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي يتبصَّر به الحق من غيره ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي كمثل من يكون في ظلمات الجهالة والضلال، و ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ بحال من الأحوال؟ ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي حسَّنَّا لهم ضلالهم جزاء وفاقًا لكفرهم الذي اختاروه وما كان ليضلهم وهم مهتدون.

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي وكما جعلنا في مكة كفارًا يخالفونك يا محمد، فإن الرسل قبلك كانوا كذلك مبتلين بمثل هؤلاء ولكن العاقبة لرسله ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ مثل ما يمكر أهـل مكـة بالصـدّ عن الإيـمـان ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ في الحقيـقـة ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال هذا المكر والتحيّل لا يعود إلاّ على أنفسهم هم لأن الله سبحانه سيجازيهم ويعاقبهم جزاء مكرهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك لفرط كفرهم وجهلهم وعنادهم.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ على صدقه ﷺ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى يكونوا أنبياء، فأجابهم الله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي أعلم عند من يجعل رسالته وقد اختار أن يجعلها في محمد ﷺ، ثم توعدهم: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ بقولهم ذلك ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ذل ومهانة في قرار جهنم ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ فيها ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ أي بسبب مكرهم وتحيّلهم وشدة كفرهم.

نسيان التسمية على الذبيحة لا يضر، وتركها عمدًا يحرم الذبيحة

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ
أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ
فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ
وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا
يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم
مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ
أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا
بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ
رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ
يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا
وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ
أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

١٤٤

(١٢٥) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ إن من يُعرض عليه الإسلام، ثم رغب مخلصًا في فهمه، وفتح قلبه لمعرفة الحق فإن الله تعالى يعينه على ذلك بإرادة الهدى له ويهديه السبيل، ثم ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ أي يقلّب قلبه مما كان عليه من الكفر، ويقذف في قلبه نورًا فينفسح له ويثبته على ذلك، كما في الحديث: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يشرح صدره؟ قال: «يُدخل فيه النور فينفسح». قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت»[1] [٣١٨]. ولهذا الحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضًا، والله تعالى أعلم. ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ جزاء عزوفه عن الدعوة إلى الإسلام، وإغلاق قلبه دونه ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ والحرج أشد الضيق، أي يجعل صدرهُ شديد الضيق، فلا يتسع لدخول الإسلام فيه ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي يزداد ضيقه وحرجه كمن يتصاعد في السماء فيخف عليه ضغط الهواء، ويزداد الضغط الداخلي فيشعر كأنما قلبه يريد أن يقف من شدة الضيق، وهكذا يشبّه الله تعالى ضيق صدر الكافر بالإسلام ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي وهكذا يجعل الله العذاب في الدنيا والآخرة على الذين صدّوا عن الحق.

(١٢٦) ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ منصوب على الحال، أي إن هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد هو الصراط المستقيم وحبل الله المتين ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فيه وبيناها ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتعظون بهذه الآيات ويعقلونها ويطبقونها.

(١٢٧) ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي مدّخرة لهم عنده ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي حافظهم وناصرهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي بما أسلفوا من طاعات مقبولة عنده.

(١٢٨) ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي يبعثهم من قبورهم ويجمعهم، يقول لهم: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أي الذين والوهم وأطاعوهم ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ أي انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات، وانتفع الجن بطاعة الإنس لهم وقولهم قد سدنا الإنس والجن ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا﴾ وهو يوم القيامة يوم حسرتهم على ما فرطوا في الدنيا ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي مأواكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ أي حكيم بصنعه، عليم بخلقه.

(١٢٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس والجن، كذلك نفعل بالظالمين بأن نسلط ونهلك بعضهم ببعض جزاء بما كانوا يعملون من الظلم والبغي.

(١٣٠) ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أي يخاطبهم يوم يحشرهم: يا جماعة الجن والإنس ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ وهذا استفهام تقرير، أي ألم أرسل إليكم رسلًا منكم، وظاهر الآية أن الرسل من فريقي الإنس والجن، ولكن لم يخبرنا الله تعالى عن أنبياء من الجن؛ لا سيما وإن نبينا هو رسول الله إلى الإنس والجن، وعلى هذا فإن الرسل من الإنس، ومن الجن نُذر كما في قوله تعالى: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ أي يتلونها عليكم ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أي إنه كائن لا محالة ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أي أقررنا بما بلغونا ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزخارفها حتى أنستهم لقاء الله تعالى ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وهذه شهادة أخرى على أنفسهم ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بالرسل والآيات وماتوا على ذلك.

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾ أي بشرك ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي لا يهلكهم قبل إنذارهم وتبليغهم، فإن أنذروا ولم يطيعوا أهلكوا.

(١) ضعيف.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ
أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ
نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ
فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ
سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

(١٣٢) ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي لكل من كفار الجن والإنس درجات متفاوتة بحسب أعمالهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بالحق والعدل على أعمالهم الخبيثة، يوم يلقونه ويعودون إليه.

(١٣٣) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي إن ربك يا محمد هو الغني عما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي لا يكون غناه عنهم مانعًا لرحمته لهم، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم، هي غاية التفضل والتطول ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضي إلى الهلاك ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي ما يشاء من خلقه ممن هم أطوع منكم ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي كما أنه ذهب بالقرون الأولى وأتى بمن بعدها، كذلك هو قادر على إذهابكم، والإتيان بغيركم ولكنه أبقاكم رحمة بكم ولطفًا.

(١٣٤) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ به من البعث والحساب والعذاب ﴿لَأٓتٍ﴾ لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بفائتين عما هو نازل بكم، فإنكم محشورون إليه وسيعيدكم بعد أن صرتم ترابًا، وفي الحديث: «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إنما توعدون لواقع وما أنتم بمعجزين» [٣١٩].

(١٣٥) ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي استمروا على طريقتكم التي أنتم عليها من الشرك، فإني غير مبال بكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي ثابت على ما أنا عليه، ومستمر على طريقتي ومنهجي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي فسوف تعلمون من هو على حق ومن هو على باطل، وهذا وعيد لهم بأن عاقبة الدار ليست لهم، فالعاقبة هنا هي العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة، وقد أنجز الله موعده لرسول الله ﷺ، واستقر أمره في الجزيرة العربية بما فيها اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته عليه الصلاة والسلام، وحكّمه في نواصي مخالفيه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وكانت العاقبة المرذولة المخذولة في الدارين لأعدائه الذين كفروا به وبدعوته ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم فاختاروا الشرك على التوحيد فأردوها حتفها في الدنيا ثم إن لهم في الآخرة العذاب المقيم الخالد في قرار الجحيم.

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشركًا، وجعلوا لله شركاء من خلقه وهو خالق كل شيء ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أي الزروع والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أي جزءًا وقسمًا ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي إن ما يحصل عند المشركين من الزروع والثمار جعلوه بين الله والوثن، وإذا اختلط هذا بهذا أعطوه جميعًا للوثن، وقالوا: هذا فقير، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي في إيثار آلهتهم على الله.

(١٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ ورفع (شركاؤهم) على أنه فاعل (زيّن) أي زيّن شركاؤهم لهم، أي الشياطين حسنت إليهم قتل أولادهم من الذكور كما فعل عبدالمطلب، والمقصود هنا وأد البنات وهو دفنهن على الحياة، مخافة السبي والحاجة ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي فعل الشياطين ذلك ليهلكوهم ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي يخلطوا الحرام بالحلال من دينهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ لأنه نهاهم عن فعل ذلك، فلا يمكن أن يجبرهم على فعل الشر مع قدرته على منعهم من فعله، ولكن ما منعهم إلا ليختبرهم وهو أعلم بهم هل يطيعونه فلا يقتلون أولادهم، ولذلك لم يشأ أن يمنعهم ليكونوا مختارين في فعل الخير والشر، ويكونوا مستحقين نعيمه أو عذابه، بما اختاروا من عمل، ولذلك قال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي دعهم وما هم فيه فسينتقم الله منهم في الدنيا والآخرة.

وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن
نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ
خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن
مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ
سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ
قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ
حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

١٤٦

(١٣٨) ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي ممنوع ومحرم ذبحها أو حصادها أو جنيها إلا لآلهتهم، وهذا التحريم والمنع كان عليهم من الشياطين ولم يكن ذلك من الله تعالى ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ من سدنة الأوثان وغيرهم، ولا حجة لهم بذلك ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهي البحيرة والسائبة والحام، وقيل: إن هذا القسم الثاني مما جعلوها لآلهتهم، والقسم الثالث: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وهي ما ذبحوها لآلهتهم، يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ أي على الله، وكذبًا منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله، فإنه لم يأذن لهم بذلك ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ عليه تعالى أشياء من بدعهم وترَّهاتهم ما أنزل الله بها من سلطان.

(١٣٩) ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ يعنون ما في بطون البحائر والسوائب من الأجنّة، ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي لرجالنا، أي حلال لهم ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي على نسائنا، ويدخل الزوجات والأخوات والبنات ﴿وَإِن يَكُن﴾ أي وإن يكن الذي في بطون الأنعام ﴿مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ أي يأكل منه الذكور والإناث. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي سيجزيهم قولهم الكذب، فهو حكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، عليم بأعمال عباده من خير أو شر، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

(١٤٠) ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي خسروا أولادهم أي بناتهم بالوأد الذي كانوا يعملونه عن طيشٍ وجهلٍ وخفةٍ ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأنعام التي سموها بحائر وسوائب، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي كذبًا عليه ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ في الدنيا طريق الصواب وخسروا أولادهم وأنعامهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ في أعمالهم التي ابتدعوها، وفي الآخرة سيصيرون إلى أسوأ العذاب بكذبهم وكفرهم.

(١٤١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي مرفوعات على الأعمدة كالكرم ونحوه، وغير معروشات أي غير مرفوعات على الأعمدة كالمقاتي والبطيخ وما شابه ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي كله في محل واحد ويشرب من ماء واحد ومختلفًا في الطعم، وخص الله تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعهما، لكثرة منافعهما ولكونهما القوت لأكثر الخلق ﴿وَ﴾ أنشأ تعالى ﴿ٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ في شجره ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في الثمر والطعم ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي النخل والزرع ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي إذا أينع واستوى ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي أخرجوا زكاته. قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة، وقيل: هذا قبل فرض الزكاة، أي يعطي من حضره يومئذ ما تيسر وليس بالزكاة، وقال آخرون: كان واجبًا ثم إنه فصل بيانه وبيَّن مقدار المُخرَج وكميته. والراجح والله أعلم: أن هذا كان قبل أن تفرض الزكاة، ولما فرضت حدَّدها رسول الله ﷺ بالحنطة والشعير والتمر والزبيب -وفي رواية- الذرة، ولا بأس من الصدقة من كل ما تنبت الأرض كالقبضة ونحوها، ويقال: إنه لم يصح حديث بغير ما ذكر من الحنطة والشعير والتمر والزبيب والذرة، فإن صحّ شيء من سوى ما ذكر، فسنقول: سمعنا وأطعنا ونعمل بها أمرنا به ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي في كل شيء، وخاصة في الأكل لما فيه من ضرر في العقل والبدن ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وفي الحديث: «كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة» [٣٢٠].

(١٤٢) ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ الحمولة: ما تركبون. والفرش: ما تأكلون وتحلبون، وتتخذون من صوفها لحافًا وفراشًا ولباسًا ومتاعًا، وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي من الثمار والزروع والأنعام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في معصية الله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة.

الأمر بالصدقة على كل ما تنبت الأرض كان قبل فرض الزكاة

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا
ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٧

(١٤٣) ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ نصبت (ثمانية) على البدل من (حمولة وفرشًا) والمراد من ثمانية أزواج، أي ثمانية أفراد، وإنما سمِّي الفرد زوجًا في هذه الآية، لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ أي الغنم ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ أي ذكرًا وأنثى، ونصبت (اثنين) لأنها بدل من (ثمانية) ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ عطف على ما قبله، وكذلك يعني ذكرًا وأنثى. وقد بيّن الله حال الأنعام وتفاصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحًا للامتنان بها على عباده، ودفعًا لما كانت الجاهلية تزعمه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحريمهم الذكور مما حملت أرحامُ هذه المحرمات على نسائهم، وتحليلها لرجالهم، فإنه تعالى لم يحرم شيئًا منها ولا من أولادها، إنما كان تحريمهم وتحليلهم تقوّلًا عليه سبحانه وافتراءً ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني لم أحرم شيئًا من ذلك ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي وهل يشتمل الرحم إلا على ذكر وأنثى، فلم تحرّمون بعضًا وتحلّون بعضًا ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أي عن علم لا عن جهل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تدعون من التحريم والتحليل.

(١٤٤) ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي ذكرًا وأنثى ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي ذكرًا وأنثى ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ أي الله ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ استفهام للإنكار، أي ما حرّم شيئًا ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فلم تحرمون وتحللون بأهوائكم! ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي حاضرين ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي أمركم بهذا التحريم؟ والمراد تبكيتهم وإلزامهم الحجة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضل الناس بافترائه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الظالمين أنفسهم بالشرك، وبالتحريم والتحليل على أهوائهم. وإن أول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي وأدخل الشرك إلى جزيرة العرب، هو عمرو بن لحي بن قمعة الذي غيّر دين الأنبياء وعَبَدَ الصنم وحمل العرب على عبادة الأوثان، وسيحمل أوزاره وأوزار من أضلهم.

(١٤٥) ﴿قُل﴾ يا محمد لهم: ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ في هذا القرآن ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي آكل يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي جاريًا، وما بقي في العروق وكالكبد والطحال فمعفوٌّ عنه ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ أي إنسيّه ووحشيّه، ويعني باللحم جميع أجزائه(١) ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي نجس حرام ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي ذُبح لغير الله. وقد نزل بعد هذه الآية في سورة المائدة زيادة على هذه المحرمات: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، وصحّ عنه ﷺ تحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك، فتكون هذه الزيادة في القرآن والسنة رافعة لمفهوم هذه الآية من انحصار المحرمات فيها لأنها مكية، ونزلت المائدة في المدينة المنورة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي غير متلبس ببغي أو عدوان ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ له ﴿رَّحِيمٌ﴾ به، وهكذا فإن الله ردّ على المشركين فيما حرموه على أنفسهم ولم يحرمه الله تعالى، فما حرّمه الله سبحانه فهو المحرم فقط، وما أحل فهو الحلال، وليس هذا لغيره.

(١٤٦) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي اليهود، فبعد أن ذكر الله ما حرّم على المسلمين، شرع سبحانه ببيان ما حرم على اليهود، فقال: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو ما لم تفرّق أصابعه كالإبل والنعام، وما تفرّق أكلوه ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي الشحم الذي على المعدة والأمعاء وشحم الكليتين ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي ما علق بالظهر من الشحوم، والإلية مما حملت ظهورهما ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ جمع حاوية وحَويَّة وهي بنات اللبن والمباعر ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي إلا ما اختلط من الشحوم بعظم كالعصعص وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين فهو حلال. ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي هذا التضييق إنما ألزمناهم به مجازاة لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في كل ما نخبر به، ومن جملة ذلك هذا الخبر، وهو موجود عندهم في التوراة.

---

(١) ما عدا جلده، لقوله ﷺ: «أيما إهاب دُبغ فقد طهُر».

آية المائدة رقم (٣) رافعة لمفهوم آية الأنعام رقم (١٤٥)

(١٤٧) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فيما جئتهم به ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم بابتغائها، واتباع رسوله ﷺ، ومن رحمة الله بكم عدم معاجلتكم بالعقوبة في الدنيا، وأن أمهلكم ورحمكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، فإن الله لا يرد بأسه، أي عذابه عن المجرمين لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(١٤٨) ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ وهذه شبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا وزعموا أن فعلهم حق، ولو لم يكن حقًا لأرسل الله إلى آبائهم المشركين الذين ماتوا على الشرك، وعلى تحريم ما لم يحرمه الله، رسلًا يأمرونهم بترك الشرك وترك تحريم ما لم يحرمه الله، وهو قادر على أن يحول بينهم وبين الكفر، فلم يفعل فدلّ على أنه بمشيئته وإرادته، ورضاه منّا ذلك؛ فرد الله عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي بهذه الشبهة قد ضل من ضل قبل هؤلاء وهذه حجة داحضة باطلة، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ فلو كانت حجتهم صحيحة لما أذاقهم الله بأسه وعذابه، ودمر عليهم وأذاقهم أليم انتقامه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي فتظهروه لنا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي الوهم والخيال، والاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي تكذبون على الله فيما ادَّعيتُموه، إنما هي دعوى مجردة عن الدليل.

(١٤٩) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فإن الله أرسل لكم ولآبائكم الرسل والنذر وأقام عليكم الحجة البالغة فلم تتبعوا ولم تؤمنوا، فلو فعلتم لشاء لكم الهدى أجمعين و(لو) حرف امتناع لامتناع، فلما امتنع الإيمان منكم امتنعت المشيئة بهداكم من قِبَل الله، جزاءً وفاقًا.

(١٥٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: هاتوهم وأحضروهم ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي السوائب والوصائل ونحوهما مما حرّمتم بأهوائكم ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإن اجترأ أحد أن يشهد زورًا وكذبًا فلا تصدقهم ولا تسلّم لشهادتهم فإنهم كاذبون مزوِّرون على الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنهم رأس المكذبين بآياتنا ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فلا تتبع أهواءهم ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يشركون به غيره ويجعلون له مثيلًا من مخلوقاته والعياذ بالله.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٨

(١٥١) ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي أخبركم بما حرّم ربكم عليكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي البر بهما وامتثال أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ لما ذكر حق الوالدين على الأولاد شرع بذكر حق الأولاد على الوالدين، وهو ألا يقتلوهم من أجل الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي رزقكم ورزقهم على الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي المعاصي كالزنى والربا ما أُعلن به منها وما أُسرَّ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا بما يوجبه الحق قصاصًا[1] ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي هذا الذي أوصيتكم به نفِّذوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ على الله أمره ونهيه فتفعلوا ما أمركم به، وتنتهوا عما نهاكم عنه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾» [٣٢١]. وفي الحديث أيضًا: «لا تشركوا بالله شيئًا وإن قطّعتم أو صُلبتم أو حُرقتم» [٣٢٢].

(١) النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ
وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا
وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ
ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ
أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ
رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ
عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ
فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ
يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي ولا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلاّ بالحال التي تصلح بها أموالهم وينتفعون بها ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ ويرشد ويحسن التصرف، وفيه دلالة على أن اليتيم قبل البلوغ محجور عليه ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي بالعدل في الأخذ والعطاء في كل شيء ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ أي طاقتها في كلّ من التكاليف ومنه إيفاء الكيل والميزان، فلا يـلام بما لا يمكن الاحتراز منه ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ في أي خبر أو شهادة، أو جرحٍ أو تعديل، وتحرّوا الصواب والمساواة بين الناس في الشهادة ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي صاحب قرابة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ أي أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم، ولو أنه بين الأقربين فالله قد أمر بالوفاء بالعهود جميعًا ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي ما تقدّم ذكره ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي أمركم به أمرًا أكيدًا ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون وتنتهون.

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي هذا دين الإسلام فاتبعوا أوامره، فهو طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ إنما وحّد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبلَ لتفرقها وتشعبها. وفي الحديث: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيمًا» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلاّ عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾» [٣٢٣]. وقوله تعالى: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي عن دين الإسلام، أما السبل فتعم كل دين غير دين الإسلام وسائر أهل البدع والأهواء ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي تتركون ما نهاكم عنه.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة، وإن (ثم) هاهنا لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب كما قال الشاعر:

قُل لِمَن سادَ ثُمَّ سادَ أَبوهُ ... ثُمَّ قَدْ سادَ قَبلَ ذَلِكَ جَدُّه

وهاهنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ أي تمامًا كاملًا جامعًا على من أحسن قبوله والقيام به ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ أي لكل ما يحتاج إليه في الدين، وهدى ورحمة لبني إسرائيل ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ أي بالبعث ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ أي يصدِّقون فيعملون بما جاء في كتابهم من الحق.

(١٥٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ وهو القرآن يزيد من اتبعه هدى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾ مخالفته والتكذيب بما فيه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي يرحمكم الله إن اتّبعتموه ونفذتم أحكامه.

(١٥٦) ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ أي لأن لا تقولوا ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي التوراة والإنجيل ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ وهم اليهود والنصارى ولم ينزَّل علينا كتاب ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ أي تلاوة كتبهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ أي لا ندري ما فيهما لأنهما ليسا بلُغتنا. ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباعهما بعدم الدراية منهم والغفلة عن معناهما.

(١٥٧) ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ وقطعنا عذركم وتعللكم بأن تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى من اليهود والنصارى إلى الحق ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ أي فها قد جاءكم القرآن من ربكم يبين لكم الحلال والحرام، فمن اتبعه كان له هدى ورحمة ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أي لا أظلم ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَا﴾ أي أعرض ونأى عنها ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي آلمه وأدومه ﴿بِـ﴾ سبب ﴿مَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ أي يعرضون عنها ولا يؤمنون بها.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

١٥٠

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر المكذّبون ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ملائكة الموت لتقبض أرواحهم!؟ عندئذ لا ينفعهم إيمانهم شيئًا ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ حقيقة، والإتيان هنا صفة لله نجريها على ظاهرها مع العلم بحقيقتها والجهل بكيفيتها صفة تليق بجلاله لا تشبه في شيء صفات المخلوقين، ولا نؤوّل إتيانه تعالى بإتيان أمره أو عذابه فنكون قد وقعنا بالتعطيل، أي تعطيل صفة الإتيان لله تعالى. ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي بعض علامات الساعة ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ كطلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ ما ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ظهور شيء من أشراط الساعة ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي طاعة، أي لا تنفعها توبتها بعد رؤية شيء من أشراط الساعة والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وهذا تهديد شديد للكافرين، ولمن لم يتب من معاصيه.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ كأهل الأهواء والنحل والضلالات ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي لا يلزمك مما هم فيه شيء من المسؤولية. وفي الحديث: «من غشّنا ليس منّا» [٣٢٤]. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجازيهم بمقتضى مشيئته ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ أي يخبرهم يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ من السيئات والموبقات.

(١٦٠) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي تضاعف الحسنة إلى عشر حسنات ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يعاقب فاعل السيئة إلا بعقاب سيئة واحدة، هذا إذا لم يتب منها ولا ينقص المحسن ولا يزاد على المسيء شيئًا.

(١٦١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي أرشدني ربي إلى الطريق القويم ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي لا عوج فيه قائمًا ثابتًا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الحنيف المائل إلى الحق. وكان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين» [٣٢٥].

(١٦٢) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ أي ذبحي ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ أي ما أعمله في حياتي من أعمال الخير ﴿وَمَمَاتِى﴾ أي ما أوصي به من الصدقات والمبرّات بعد الموت، كل ذلك ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالصًا لوجهه تعالى لا أشرك بذلك أحدًا من المخلوقين.

(١٦٣) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي بكل ما تقدم أمرتُ من قبل ربي أن أفعله ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أول المسلمين من أمته عليه الصلاة والسلام، وكان إذا قام من الليل قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» [٣٢٦].

(١٦٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ الاستفهام للإنكار، أي كيف أبغي عبادة رب غير الله ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي ليس من شيء موجود مخلوق إلاّ وهو ربّه وخالقه ومليكه، أأعبد المملوك وأدع المليك؟!!! ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي كل كسبها للشر عليها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمّل أحدٌ خطيئة أحد، وهذا من عدله سبحانه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلكم خلائف يخلف جيل جيلًا وقرن قرنًا، وقد أخطأ من قال: إن النوع الإنساني خلفاء الله في الأرض؛ لأن الله لا يحتاج إلى خليفة يخلفه، فهل مات أو اعتزل أو غاب حتى يكون له خليفة؟! بل هو الحي الباقي، بل هو الخليفة لا المخلوف ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي فيما أعطاكم أين صرفتموه ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ﴾ للمؤمنين ﴿رَّحِيمٌۢ﴾ بهم.

آخر تفسير سورة الأنعام

ولله الحمد والمنّة ومنه العون والتيسير

سورة الأعراف | ترتيبها ٧ | آياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحزب ١٦

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

١٥١

(٧) سُورَةُ الأَعْرَافِ

مكية إلا من آية ١٦٣ إلى غاية آية ١٧٠ فمدنية وآياتها ٢٠٦، نزلت بعد ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿الٓمٓصٓ﴾ الله أعلم بمراده بذلك، وقد تقدّم القول في سورة البقرة فيما يتعلق بالأحرف المقطعة فليرجع من شاء إليه.

﴿٢﴾ ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي لا يكن في صدرك ضيق حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك، فاصبر فإن الله تعالى ناصرك وما أنزل إليك هذا الكتاب إلا لتنذر به المشركين والكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرة وبشارة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به.

﴿٣﴾ ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الخطاب للعالم أجمع. أي آمنوا واتبعوا أحكام الكتاب الذي أنزل إليكم من ربكم ورب كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي لا تتبعوا من دُون الله تعالى أولياء تقلدونهم في دينكم وتعبدونهم وتجعلونهم شركاء لله ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكروا ولو قليلًا.

﴿٤﴾ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي أردنا إهلاكها ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي فجاءها العذاب ليلًا ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي مستريحون وقت القيلولة وهو وقت نوم نصف النهار، وقت الدعة والاستراحة.

﴿٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي قولهم ﴿إِذْ﴾ حين ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ أي عذابنا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي اعترفوا بذنوبهم عند مفاجأة العذاب الذي هم حقيقون به.

﴿٦﴾ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي فإن الله تعالى سيسأل الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل عما أجابوا الرسل فيما أرسلهم به ويسأل الرسل عن إبلاغ رسالاته. وفي الحديث: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده» [٣٢٧].

﴿٧﴾ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي لنخبر عن علم بما وقع بين الرسل والمرسل إليهم عند الدعوة ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن إبلاغ الرسل والأمم الخالية فيما عملوا، وهو سبحانه الشهيد على كل شيء، لا يغيب ولا يغفل، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

﴿٨﴾ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الحساب هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لا يظلم تعالى أحدًا ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالحسنات والعمل المقبول وزنًا حقيقيًا، وتقلبُ الأعمال يوم القيامة أجسامًا. كما جاء في الحديث: «إن سورتي البقرة وآل عمران، يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة» [٣٢٨]. ومن حديث البراء في قصة سؤال القبر: «... فيأتي المؤمن شابٌ حسن اللون، طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح» [٣٢٩]. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون الذين أفلحوا ونجحوا ودخلوا الجنة.

﴿٩﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالسيئات التي اجترحها في الدنيا، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ بتصييرها إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي يجحدونها فلم ينقادوا لها ولم يعملوا بها، بل كفروا بها وأرْدَوا أنفسهم وخسروها خسرانًا مبينًا.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يا بني آدم وجعلنا لكم فيها أمكنة تتمكنون من البناء عليها وحرثها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي هيأنا لكم فيها أسباب العيش مما يخرج من الأشجار والنبات ومعادن الأرض وأنواع الصنائع والتجارات ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على هذه النعم الوارفة، وما شكره إلاّ طاعته فيما أمر عباده من الخير والحق والهدى وما نهى عباده عنه من الشر والباطل والضلال.

﴿١١﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي أحسَنَّا صوركم والمقصود آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ فامتثلوا الأمر ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لأنه كان منفردًا بينهم ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي عصى الله سبحانه ولم يسجد كما سجد الملائكة طائعين غير مستكبرين.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

١٥٢

(١٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي قال الله لإبليس: ما الذي اضطرك إلى عدم السجود لآدم حين أمرتك بذلك؟ ﴿قَالَ﴾ أي إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي قدم اجتهاده الخاطئ على أمر الحكيم العليم. وزكّى نفسه بادعاء الأفضلية على آدم، ونفى العدل والحكمة عن الله فيما أمره من السجود لمن هو دونه فضلًا وخيريَّة، فأبى على الله أن ينفذ أمره واستكبر عن ذلك، ومن هنا يتضح عظم الجريمة التي أنزل اللعين نفسه فيها. ثم علل هذه الأفضلية والخيرية بأن قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ زاعمًا أن النار أشرف من الطين، وهذا قياس فاسد، وبمثل هذا النوع من القياس عبدت الآلهة من دون الله. وأوضح دليل على فساد قياس إبليس: ترجيح رأيه على أمر الحكيم العليم. والواقع المشاهد أن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، وهو محل النبات والنمو والإصلاح. بينما النار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، فظهر فساد قياس إبليس اللعين.

(١٣) ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من المنزلة الرفيعة في الجنة، لأن التكبر على أوامر الله يناقض رفعة المنزلة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي لا ينبغي لك أن تتكبر في محل الطاعة ﴿فَٱخْرُجْ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ تعليل للأمر: أي إنك من أهل الصغار والذل والهوان وهذا جزاء المتكبرين، فمن تكبر أهانه الله.

(١٤) ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أجل موتي إلى يوم القيامة.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي من المؤجلين إلى اليوم المعلوم.

(١٦) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي فبما يسرت لي طريق الغواية والضلال لأقطعن على ذرية هذا الذي طردتني بسببه طرق الهداية إلى صراطك المستقيم. نعم إن الله يسر لإبليس طريق الغواية والضلالة جزاء استكباره على أمره، فكان جزاءً وفاقًا من جنس العمل، وغواية الله لإبليس بأن فتح له جزاء استكباره بابًا جديدًا من الاستكبار عن التوبة؛ فبدلًا من أن يتوب إلى الله، أقسم بأن ينتقم فيضل كل ذرية آدم فجازاه جزاء وفاقاً من جنس العمل كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠]. وقد يسره للعسرى ولا يزال إلى يوم القيامة.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم﴾ أي أجيئهم ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي من كل جهة إلا مِنْ فوقهم ما قدّر الله أن يذكرها؛ لأنها جهة مهبط الرحمة ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي موحدين وطائعين ومؤمنين.

(١٨) ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي معيبًا مقصيًا ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من أضللتهم من بني آدم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي من الجِنة والناس.

(١٩) ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي كلا من أيّ ثمر من أثمار الجنة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هي شجرة مَّا في الجنة، ولا يضرنا الجهل بمعرفتها ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي تقعان في مخالفة أمر الله تعالى فتكونا من الذين أوقعوا أنفسهم بالظلم أي ظلموها بما سيلقون من جزاء المخالفة.

(٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا﴾ أي ليظهر لهما ما ستر وغُطي عنهما ﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي من عوراتهما المستورة عنهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ أي في الجنة ولو أنكما أكلتما منها لكنتما مَلكيْن وخُلدتما فيها.

(٢١) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي أقسم لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فإني من قبلكما هاهنا وأعلم منكما به، حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن.

(٢٢) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي حطّهما عن منزلتهما بغروره وإغرائه ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي أكلا منها وطعماها ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي يستتران بورقها ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ألم أحذركما من الشيطان وأقل لكما إنه عدو مبين ظاهر العداوة لكما؟

أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا
يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ
الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا
فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ
أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا
هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بمعصيتنا ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فبعد أن اعترفا بذنبهما، وهذا ولا شك عمل صالح وتابا منه، وهذا أيضًا عمل صالح، فتوسَّلا بالاعتراف بالذنب والتوبة منه، أن يغفر لهما ويرحمهما مخافة أن يكونا من الخاسرين. وإن هذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه (راجع تعليقنا على الآية (٣٧) من سورة البقرة من كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير»، وكتابنا «التوصل إلى حقيقة التوسل» (ص٢١٥) ففيهما تحقيق مهم). ومما يجب إلفاتُ النظر إليه أن طبيعة آدم المخلوق من طين دفعته إلى التوبة، وطبيعة إبليس المخلوق من نار دفعته إلى طلب النظرة ليتسع له المجال للانتقام من ذرية آدم بإضلالهم عن الصراط المستقيم، فأين هذه الخيرية التي ادعاها بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؟ إنها طبيعة الشر التي استولت عليه فأدت به إلى غضب الله عليه في الدنيا والآخرة.

(٢٤) ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي آدم وحواء، وإبليس ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي استقرار عليها ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تمتع بالحياة إلى أجل.

(٢٥) ﴿قَالَ﴾ أي الله سبحانه ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي تعيشون على الأرض وتموتون وتدفنون فيها، ثم منها تخرجون وتبعثون.

(٢٦) ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ يفسر هذه الآية الحديث: قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «... ومَن لَبسَ ثوبًا جديدًا، فقال: الحمدُ لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حوْلٍ منّي ولا قوَّة؛ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر» [٣٣٠]، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وحسَّنه الألباني. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ وفي مناسبة اللباس، يذكِّر الله تعالى المؤمنين بأن لباس التقوى، أي العمل الصالح المرضيّ عنه خير من اللباس للتجمل، أي بمعنى اذكروا عند لباسكم للتجمل لباس التقوى حتى تضيفوه إلى اللباس الأول فتفوزوا بالفضيلتين، ولهذا يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي نعمه المادية ونعمه المعنوية.

(٢٧) ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي لا يوقعكم في الفتنة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ أي كما فتن أبويكم آدم وحواء فأخرجهما من الجنة ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ أي فتنهما بنزع لباس التقوى بالمعصية التي سببت لهما نزع ثياب التجمل من عليهما، حتى بدت لهما سوآتهما، وأخرجتهما من النعيم المقيم والحياة الخالدة ﴿إِنَّهُ﴾ أي إبليس ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ وهذا يفيد الحذر من هذا الذي لا تراه إذ يكون كيده أمكر بك ممن تراه وترى كيده ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ أي إبليس وقبيله الذين لا ترونهم على حقيقة خلقتهم الشيطانية؛ جعلهم الله ﴿أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أعوانًا وقرناء ونصراء للذين كفروا وأطاعوهم في معصية الله.

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ كالشرك أو كطوافهم عُريًا بالبيت ويتأوّلون ذلك: بأنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله فيها ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي تذرعوا بذريعتين وكلاهما في غاية البطلان، أمّا تقليدهم لآبائهم في الفحشاء لا يسوغ لهم فعلها بمجرد تقليد الآباء. وأما ادعاؤهم بأن الله أمرهم بها فمردود بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتُسْنِدُون إلى الله ما لا علم لكم به.

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل لا بالفحشاء ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي لله ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل صلواتكم إلى القبلة ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي مخلصين عبادته من الشرك ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ من العدم ﴿تَعُودُونَ﴾ أي تبعثون.

(٣٠) ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ﴾ وهم الذين آمنوا ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي أضلّهم الله بسبب كفرهم ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وفي الحديث: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها» [٣٣١]. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ رغم أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دونه.

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ
اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

١٥٤

(٣١) ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والزينة: اللباس. وهو ما يواري السوأة، ويستحب التجمل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب والسواك من تمام الزينة، وخير الثياب البياض ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: كلوا واشربوا مما أحلَّ الله لكم ولاتسرفوا فيها، وفي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان فاعلًا لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسِه» [٣٣٢]. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المعتدين الظالمين لأنفسهم بالاجتراء على تحريم الحلال وتحليل الحرام.

(٣٢) ﴿قُلْ﴾ إنكارًا عليهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ كان المشركون الذين يطوفون بالبيت عراة يحرِّمون الوَدَك أي الدسم من اللحم والشحم، بابتداعهم وآرائهم الفاسدة؛ فنزلت هذه الآية تبين أنه ليس من أحد حرّم زينة الله وهو اللباس، والطيبات من الرزق، أي اللحم والشحم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإن أشركهم فيها الكفار حسيًّا في الدنيا، إنما هي ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ للمؤمنين في الجنة، ولا يزال بعض المتصوفة يحرمون على أنفسهم بعض اللباس والمآكل، ولا ندري إذا كان هذا جهلًا منهم أو تقليدًا لأهل الجاهلية ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبيّنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يتدبّرون الحلال وينتفعون منه، والحرام فيجتنبونه.

(٣٣) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي المعاصي سرّها وعلانيتها ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي الخطيئات والتعدي بلا مُبَرِّر، وكذلك حرم الشرك، ولذا قال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا، ونحو ذلك.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي إن للأمم آجالًا كالأفراد، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وقت نهايتهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدمون عن موعدهم المعلوم.

(٣٥) ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ الخطـاب لكافة المكـلفين ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ﴾ أي يتلون ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ فأطيعـوهم ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ المعاصي ﴿وَأَصْلَحَ﴾ نفسه باتباع الرسل وإجابتهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من نعيم الدنيا الزائل الذي عُوِّضوا عنه بنعيم لا يبلى.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي يقصها ويتلوها عليهم الرسل ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي عن الإيمان بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أبد الآبدين ودهر الداهرين لا يخفف عنهم العذاب ولا يفتر طرفة عين جزاء كفرهم وتكذيبهم بآياتِ الله تعالى التي أرسل بها المرسلون.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي افتـروا عليـه بأن قالوا هو الذي أمرنا أن نطوف عريًا وبأن نشرك به، وحاشا الله من ذلك وتعالى علوًا كبيرًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ولم يؤمن بها ولا بمن نزلت عليهم من المرسلين، الجواب: لا أحد أظلم من هؤلاء لأنفسهم فإنهم أرْدَوْها هلاكها في قرار النار الخالدة ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي مما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الرزق والأجل وغير ذلك ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي ملائكة الموت ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي يقبضون أرواحهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قالت لهم الملائكة وهي تعالج أرواحهم تقريعًا وتوبيخًا: أين الآلهة التي كنتم تدعونها وتعبدونها من دون الله لماذا لم يكونوا معكم يدافعون عنكم!!!؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي اعترفوا ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ بآيات الله.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا
جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١٥٥

رؤوس الكفر والبدعة يحملون أثقالهم وأثقالاً من أضلوهم

(٣٨) ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ أي ادخلوا في جملة أمم قد مضت ودخلت قبلكم من الجن والإنس في جهنم ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي سبقتها إلى النار، ومعنى (أختها) أي في الضلالة ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تكامل جمعهم فيها ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أي التابعون للمتبوعين الرؤساء ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي هؤلاء رؤساؤنا أضلونا عن الهدى فاتبعناهم ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي بسبب ما أضلونا ضاعف عليهم العذاب ﴿قَالَ﴾ الله لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلًّا بحسبه ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بما لكل نوع من العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وفيه دليل بأن المتبوعين يسبقون تابعيهم إلى النار.

(٣٩) ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ أي قال الرؤساء للتابعين ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي نحن سواء في الكفر ضللتم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي بما كنتم تكفرون بالله وتعصون أوامره. والواقع أنهم ليسوا كما قالوا، أي ليسوا سواء في العذاب بل إنّ كلّ مُضِلٍّ يحمل وزره وأوزارًا مثل أوزار من أضلوهم عن الهدى والحق.

(٤٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي كفروا بها ولم يصدقوها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي لا نفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم حين يموتون أبواب السماء، وفي الحديث: «إن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء فيصعدون بها، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾» [٣٣٣]. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي فكما أن من المحال دخول الحبل الغليظ في ثقب الإبرة، فكذلك محال دخول الكافر الجنة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي وهكذا نجزي الذين اجترحوا جرم الكفر.

(٤١) ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي لهم فيها فراش من نار، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ الغواشي جمع غاشية، أي نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي وهكذا نجزي الظالمين أنفسهم بما اختاروا الكفرَ على الإيمانِ والشركَ على التوحيد، فكان لهم سوء الخاتمة.

(٤٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم أعقب الله بذكر المؤمنين وما سيؤولون إليه في الآخرة وما سيجزون جزاء إيمانهم الصحيح وعملهم الصالح المرضي عنه ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لم نكلفهم من الأعمال أكثر مما يستطيعون فقاموا بجهدهم المستطاع؛ مخلصين دينهم لله عقيدةً وعبادةً وعملًا ﴿أُولَٰئِكَ﴾ العباد الطائعون العاملون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي هم وأمثالهم من المؤمنين وارثو الفردوس ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي مؤبدون فيها فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم.

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي من حسد وبغض، كما جاء في الحديث: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدُّنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدلُّ منه بمسكنه الذي كان في الدنيا» [٣٣٤]. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تحت قصورهم الأنهار ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ أي إلى الأسباب التي يسَّرها لهم من الأعمال لدخول الجنة ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ إليها ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي لولا رحمة الله بالهداية ما كنّا لنتهدي ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي إن ما وصلوا إليه من النعيم بسبب ما تقدّم منهم من تصديق الرسل برسالاتهم الحقة ﴿وَنُودُوا﴾ أي ناداهم الله ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي الصحيحين: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل» [٣٣٥]. ولا شك أن العمل الصالح من رحمته تعالى وفضله وتوفيقه، ولكن هل يوازي العمل نعم الله على عباده؟ لا، لا اللهم لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا
فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن
لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا
عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ
رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ
لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ (نصف الحزب ١١)
أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ
وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ
ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ
﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ
لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

﴿٤٤﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ تقريرًا وتبكيتًا، ولإيقاع الحسرة في قلوبهم ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقّٗا﴾ أي وها نحن في بحبوحة لا توصف من الأجر العظيم ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ من العذاب والهوان والخلود في النار التي لا يطاق حرّها وإحراقها؟ ﴿قَالُواْ نَعَمۡ﴾ لقد وجدنا ذلك ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾ أي نادى منادٍ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي بين الفريقين ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مستقرة عليهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وصف هؤلاء الظالمين بأنهم كانوا يصدّون أنفسهم وغيرهم عن دعوة الحق وعن السبيلِ الموصل إليه ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي يصدفون عن طريقة الله المستقيمة التي أمروا بسلوكها إلى طريقتهم المعوجة غير المستقيمة ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي مكذّبون.

﴿٤٦﴾ ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞ﴾ أي بين الفريقين حجاب حاجز ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ والأعراف: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ وهي بياض وجوه أهل الجنة وسواد وجوه أهل النار ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي نادى رجال الأعراف أهل الجنة ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي سلموا عليهم ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ أي سلّموا عليهم وهم بعدُ لم يدخلوا الجنة ولكنهم يطمعون بدخولها؛ لأنّهم يؤمّلون بكرم الله ورحمته وعفوه ورضاه.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي إذا نظروا إليهم وعرفوهم من سواد وجوههم ورأوا منازلهم في النار ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم فأوردوها النار.

﴿٤٨﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ وهم رجال تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجُعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، فنادى الأعراف رجالًا من صناديد المشركين ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ أي كثرتكم ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي وما أغنى عنكم تكبركم الذي لم يفدكم، ولا أفادتكم كثرتكم من عذاب النار الخالدة.

﴿٤٩﴾ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي قال الله لأهل النار: أهؤلاء أي أهل الأعراف ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ يا أيها الكفار في الدنيا أن ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ فقال الله لأهل الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي برغم أنوف الكافرين، ويقول حذيفة رضي الله عنه بعد أن يذكر استشفاع أهل الأعراف بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى، ثم بعيسى ثم بمحمد فيعتذرون إلا محمدًا ﷺ فيقول: «... فيأتوني فأضرب بيدي على صدري ثم أقول: أنا لها». قال حذيفة: فيشفع بهم ثم يقول عليه الصلاة والسلام: «فآتي بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال نهر الحيوان، حافتاه قصب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصباؤه الياقوت، فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة، وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدريّة...» [٣٣٦]. وهم آخر من يفصل بينهم من العباد.

﴿٥٠﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يخبر الله تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي إن شراب الجنة وطعامها حرام على الكافرين.

﴿٥١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ وهنا يذكر الله أسباب تحريم الجنة عليهم، فإنهم اتخذوا دينهم الذي كان يجب عليهم العمل به، والدخول فيه لعبًا ولهوًا، أي استهزاءً به وتندّرًا على أهله، أو أن دينهم الذي كانوا عليه إنما هو لهو ولعب ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ وما كانوا عليه من النعم ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي نعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء، أي نهملهم لإنكارهم الساعة ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي يكذبون ويكفرون.

وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ
قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا
وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ
وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا
وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ
ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا
ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٢) ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ وهو القرآن ﴿فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي بيّناه بما فيه من الوعد والوعيد عالمين كونه ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ به، ويطبقونه.

(٥٣) ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ أي هل ينتظرون إلاّ تأويله عمليًا بهم في الدنيا حتى يؤمنوا به؟ ويروا وعيده منفذًا بهم ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي يوم القيامة، عندها: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي أهملوا العمل به في الدنيا ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي كانوا حقًّا صادقين بما جاءوا به فيتحققون عندئذٍ أن العذاب واقع بهم لا محالة ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ مما صرنا إليه ﴿أَوۡ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ فيها من الشرك والمعاصي؟ ولكن هيهات هيهات ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ خسارة محققة فما من شفعاء يشفعون، ولا هم إلى الدنيا يُردّون ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يؤمّلون في شفعائهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله أنهم سينقذونهم!!

(٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أي خلقهما وأوجدهما من العدم ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ استواءً حقيقيًا بلا كيف، لا استواء مجازيًا مؤوّلًا إلى تأويلٍ ما أنزل الله به من سلطان. فلا نقول: استوى بمعنى استولى، فالاستواء هو علوُّ ذات الله على خلقه علوًّا معلوم الحقيقة، مجهول الكيفية، نؤمن به، ولا نتكلف تأويله، لأن التأويل مفضٍ إلى التعطيل، أي تعطيل صفات الله، وإن استواء الله يجلُّ عن استواء المخلوقين، إنما هو استواء يليق بجلال الله وعظمته، وإن رسول الله ﷺ وصحابته ﷺ لم يؤوّلوا أي صفة من صفات الله، ولا سألوا عنها، لأن السؤال إنما يكون عن المجهول لا عن المعلوم، لكنهم أوكلوا العلم بالكيفية إلى الله تعالى، أفلا يسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وصحابته الكرام؟ ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ وكل يطلب الآخر سريعًا ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ وأمره (كن) فيكون ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ أي له الإيجاد من العدم وله الأمر فيها وحده، فيسخرها كيف يشاء ويسيرها كيف يشاء ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وفي الحديث: «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كلّه، وأعوذ بك من الشر كلّه»[1] [٣٣٧].

(٥٥) ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي هذا الذي سبق ذكر بعض صفاته من الخلق والملك والتصرف والأمر، هو وحده يستحق أن يدعى ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ أي تذللًا واستكانةً وخفوت صوت وخشوع قلب ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي يعتدون على حقوقه، فيدعون غيره ويعبدون غيره، وينسون العمل بكتابه إهمالًا، ويتخذون من دونه شفعاء، هؤلاء هم المعتدون.

(٥٦) ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي لا تفسدوها بالكفر والمعاصي، بعد أن أصلحها الله بإنزال الكتب وإرسال الرسل ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أي خائفين من عذابه، طامعين برحمته وبإجابة الدعاء. أي يجب الجمع بين الخوف والرجاء فلا يخافُ إلا منه، ولا يرتجى إلا هو ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الموقنين بمراقبة الله لهم.

(٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ أراد بالرحمة المطر، أي قدام رحمته مبشِّراتٍ بالغيث ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ أي مجدب ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ من السحاب بالبلد المجدب ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي هكذا نضرب الأمثال، أي كما نحيي الأرض بعد موتها بالمطر، كذلك قادرين على بعث الأموات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعلمون قُدرة الله على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات. وهذا كثير في القرآن يضرب المثل بإحياء الأرض على البعث.

(١) ضعيف.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ
لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

١٥٨

(٥٨) ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي التربة الصالحة الطيبة تخرج نباتها بإذن الله وتيسيره إخراجًا حسنًا تامًا وافيًا ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: والتربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدًا، أي لا خير فيه. وهذا مثل ضربه الله لقلب المؤمن، فشبه قلبه القابل للوعظ بالبلد الطيب، وشبه قلب الكافر النائي عن الوعظ بالبلد الخبيث. ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي نبيّنها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي يشكرون نعمه الظاهرة والباطنة، بالطاعات والعمل الصالح الحائز على رضاء الله وهو الخالص لوجهه تعالى والمطابق تمامًا لما أمر سبحانه.

(٥٩) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده، فلا يُعبد أحد بحقٍّ إلا هو، وإنكم إن تماديتم في عبادة آلهتكم الباطلة التي تعكفون عليها ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخوف ما أخاف عليكم هو عذاب يوم القيامة الذي أعدّه الله للمشركين به غيره، ذلك العذاب المؤبّد الذي لا قِبلَ لكم به، ولا تحتملونه، وقوم نوح هؤلاء هم أول من أشرك بالله على الأرض، ذلك بأنهم تغالوا بقوم صالحين منهم؛ ماتوا، فصوروا صورهم بقصد الذكرى والتأسي بهم ثم جعلوا تصاويرهم مجسدة إلى أن عبدوها وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين: ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وقد أرسل الله نوحًا عليه السلام، ليرجعهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(٦٠) ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي أشرافهم؛ ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في متاهة بينة ظاهرة عن الصواب، فكيف نترك ما كان يعبد آباؤنا؟ وهكذا حال الفجار: عُمْيٌ عن ضلالهم، ويحسبون الأبرار في ضلال.

(٦١) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي أنا لست ضالًا ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي من رب كل شيء ومليكه.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ أي ما أرسلني به ربي من الحق إلا لتعودوا إلى عبادته وحده ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ناصحًا لكم ودالًا على خير الأشياء لكم، وعندي علم من الله تعالى لا تعلمونه أنتم.

(٦٣) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي وحي منه تعالى ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ به ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ترحمون رحمة واسعة من الله إن اتبعتم ما آمركم به من الحق.

(٦٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذّبوا ما جاءهم به من الإنذار ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي أنجيناه وسائر من كان معه في السفينة من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ واستمروا ولم يرجعوا إلى الله بالتوبة إليه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عميًا عن الحق لا يهتدون إليه.

(٦٥) ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد رجلًا منهم، هو هود عليه السلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوا الله وحده ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي تخافون عذابه وتجتنبون نقمته بأن تفردوه بالعبادة ولا تعبدوا معه سواه؟

(٦٦) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي كذبوه ولم يستجيبوا له ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي في طيش وخفة ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما تدّعيه من النبوة والرسالة. وهكذا فإن كل نبي ورسول ومصلح أتى قومه بالهدى والخير والحق لينقذهم وينير لهم السبيل يعاديه كبار قومه خوفًا على منزلتهم من الضياع والتلاشي ولهذا يقفون ضده، وضد ما يدعو إليه من الحق والهدى.

(٦٧) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ ولا ينبغي لي ذلك ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن الحكيم العليم لا يضع رسالته عند سفيه أحمق.

أنجى الله نوحًا والمؤمنين به وأغرق الكافرين جزاءً وفاقًا

أَبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

كذبت عاد فاستأصلها الله إلا هودًا ومن آمن معه

(٦٨) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي لست كما تزعمون، إنما جئت أبلغكم ما عهد الله إليّ من تبليغ الرسالة إليكم، وأنصحكم النصح الخالص، وأخلص النية في التبليغ والأمانة عليه لا أزيد ولا أنقص. والنصح والأمانة من الصفات البارزة للرسل.

(٦٩) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لا تعجبوا من إرسال وحي إليكم من ربكم ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي على لسان رجل منكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذلكم ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي جعلكم الله من ذرية من آمن من قوم نوح تخلفونهم على الأرض ﴿وَزَادَكُمْ﴾ الله ﴿فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي جعلكم طوالًا ضخام الأجسام ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه عليها بالإيمان به ومتابعة رسوله فيما يأمركم به لعلكم تنجحون فتدخلون الجنة بتوفيقه.

(٧٠) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي أتيتنا لتدعونا لعبادة الله وحده ونترك ما كان عليه آباؤنا من عبادة آلهتهم؟! ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي إذا كنت تهددنا بعذاب يأتينا إذا لم نترك ما كان يعبد آباؤنا، فأتنا بهذا العذاب الذي تتوعدنا به إن كنت حقيقة من الصادقين فيما تقول، وقد كان لهم أصنام يعبدونها، فصنم يقال له: (صمد)، وآخر يقال له: (صمود)، وآخر يقال له: (الهنا)، ولهذا...

(٧١) ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي وجب عليكم بمقالتكم هذه سخط من الله وغضب ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي أتحاجوني في هذه الأصنام الجمادات التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها من حجة ولا دليل؟ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ وهذا تهديد بليغ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي المرتقبين.

(٧٢) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي الذين آمنوا به وصاروا معه من حزبه من العذاب الذي نزل بأولئك الكافرين المعاندين، وذلك ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي برحمة منه تعالى ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بما أنزلنا على هود من الوحي ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ لا بربهم ولا برسولهم، وهذا جزاء الكافرين. فقد قطع دابرهم واستأصلهم بما أرسل عليهم من الريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فيتكسّر رأسه حتى تُبينه من جثته ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وكانوا يسكنون باليمن بين عُمان وحضرموت، وصاروا عبرة للمعتبرين.

(٧٣) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم صالحًا رسولًا، أي أخوهم في النسب. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي ليس لكم معبود تعبدونه بحق إلا الله وحده لا شريك له، أما هذه الآلهة التي سميتموها آلهة فهي باطلة ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي معجزة ظاهرة جلية ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي هي المعجزة الظاهرة الواضحة، فقد سأل قوم ثمود صالحًا أن يخرج لهم ناقة من قلب الصخرة، فدعا الله تعالى أن يخرجها لهم لعلهم يؤمنون فأخرجها الله معجزة ظاهرة من قلب الصخرة كما طلبوا ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي دعوها تأكل ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوؤها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو جواب النهي، أي إذا لم تتركوها ومَسَسْتُموها بسوءٍ ما أخذكم الله بعذاب أليم، أي شديد الألم لا تطيقونه وتندموا من حيث لا ينفعكم الندم.

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ
ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن
قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ
مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ
أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾

(٧٤) ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ أي استخلفكم في الأرض من بعد عاد ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي جعل لكم فيها مباءةً وهي المنازل التي تسكنونها ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا﴾ وهذه الآية مبيّنة لقوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. وكانوا ينحتون قلب الجبل ويجعلون منه بيوتًا لهم عدا عن القصور التي يبنونها في سهول الأرض ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي تذكروا نعم الله عليكم ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي لا تقابلوا نعم الله بالإفساد في الأرض وأعظمه الشرك.

(٧٥) ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ أي قال الذين استكبروا عن الإيمان بصالح للذين آمنوا به من الضعفاء ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي هل لكم علم بأن صالحًا مرسل من الله؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي أجابوهم نعم، نشهد أنه رسول الله، ونحن مؤمنون بما أُرسل به من إفراد العبادة لله وحده لا شريك له.

(٧٦) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم رؤساء القوم وأكابرهم ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قالوا هذا تجبرًا وعنادًا وإلاّ فإن رسالة صالح واضحة مكشوفة لا غموض فيها، وذلك من وضوح الحق الذي دعا إليه وهو توحيده تعالى ومن المعجزة العظيمة، وهي خروج الناقة من الصخرة بل من صخرة هم عينوا خروجها منها بناءً على اقتراحهم وطلبهم، وهكذا أكابر مجرميها يفعلون عنادًا وتجبرًا واستكبارًا.

(٧٧) ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي ذبحوها وكانت تسرح في تلك الأودية وكان الماء قسمة بينها وبينهم لها يوم تشرب الماء فيه وهم في هذا اليوم يشربون لبنها ولهم يوم يشربون فيه، يملأون من الماء أوعيتهم وأوانيهم. ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أي استكبروا عن أمر ربهم عندما أوصاهم صالح بألا يمسوها بسوء، فكيف وقد ذبحوها ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي ها نحن يا صالح ذبحنا الناقة وها قد ماتت؛ فأتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت حقيقة مرسلًا ونبيًّا، يتحدّونه أن يأتي بالعذاب، فلما رأى ما فعلوا بالناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ [هود: ٦٥].

(٧٨) ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي أخذتهم الزلزلة وكانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم فأصبحوا لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ميتين لا حراك فيهم، وهذا جزاء الظالمين. وكانت ديارهم ومساكنهم بين الحجاز والشام وهي باقية إلى الآن. وفي الحديث: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لئلا يصيبكم مثل ما أصابهم» [٣٣٨]. والعياذ بالله تعالى.

(٧٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ أي أنا عملت بما أمرني ربي فبلغتكم الرسالة ومحضت لكم النصيحة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أما أنتم فلم ترعووا عن غيّكم وعتوّكم عن أمر ربكم وعصيتموه برغم نصيحتي لكم، لأنكم لا تحبون الناصحين.

(٨٠) ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي كانوا يأتون الذكور شهوةً دون الإناث بالإضافة إلى شركهم الذي كانوا عليه، فدعاهم لوط إلى الله عزّ وجلّ وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر الذي يأتونه ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي كانوا أول من ابتدع هذه البدعة الشنيعة وما سبقهم إليها أحد من العالمين. وكانوا ساكنين في سدوم وما جاورها من القرى على البحر الميت.

(٨١) ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهنّ إلى الرجال؟! ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ طاغون.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ
مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ
فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

١٦١

حد عمل قوم لوط: قتل الفاعل والمفعول به

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي كان جوابهم أن همُّوا بإخراجه ونفيه ومن معه أي الذين آمنوا معه من بين أظهرهم. لكن الله تعالى قد أخرجه بمن معه سالمين، وأهلك الكافرين الفاجرين في أرضهم صاغرين مهانين. على أن التطهر من الفاحشة والتورع منها كان في نظر قوم لوط معرةً وعيبًا وهكذا فقد عابوهم بغير عيب.

(٨٣) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ والأهل هنا معناها الذين آمنوا معه فهؤلاء هم أهله، والمعنى أن الله أنجاه والذين آمنوا ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الأصل أن تكون امرأته من أهله وامرأةُ أيِّ أحدٍ أهله. ولكن الله أخرجها من الأهل، لأنها لم تعد أهله لأنها ما كانت على دينه بل ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي كانت على دين قومها تمالئهم عليه، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على من تبقى من قومه الكافرين ﴿مَّطَرًا﴾ أي مطرًا من سجيل مسوّمة، أي حجارة من سجيل أمطرهم الله بها بعد أن اقتلع جبريل عليه السلام أرضهم ورفعها بهم إلى السماء الدنيا ورجم بهم الأرض وأعقبهم ذلك المطر، أعاذنا الله من عقابه ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يجترئون على محارم الله، ويكذبون رسوله وتلك عاقبة الكفرة الفجرة. وفي الحديث: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» [٣٣٩].

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم أي رجلًا من أنفسهم وهو شعيب عليه السلام، ومدين هذه تطلق على القبيلة والمدينة وموقعها بقرب بلدة (معان) من طريق الحجاز ﴿قَالَ﴾ أي شعيب: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئًا ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فإنه وحده هو المعبود بحق، وما من معبود سواه ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي شريعة من ربكم، توضح لكم الخير من الشر ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، لأنهم كانوا أهل معاملة بهما، وكانوا لا يوفُّونهما ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي حقوقهم خفية وتدليسًا ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالشرك والكفر ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ببعث الرسل ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن ترك المعاصي امتثالًا لأمر الله وتقربًا إليه خيرٌ وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الله تعالى المؤدّي إلى العذاب الخالد.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾ للناس ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ فقد كانوا يقطعون الطرق حسيًّا ومعنويًا، أما الحسيّ: فكانوا يقطعون الطرق ويسلبون الناس أشياءهم ويتوعدونهم بالقتل إن لم يعطوهم أموالهم. وأما المعنوي: فواضح من قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي من أراد الاهتداء بها وتحولون بينهم وبين القدوم على شعيب عليه السلام ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي معوّجة تناسبُ أهواءكم ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ أي مستضعفين لقلتكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالنسل والذُّرية ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم الخالية، وما حل بها من النكال، باجترائهم على الكفر والمعاصي عياذًا بالله من عذابه ونقمته.

(٨٧) ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ يقول شعيب عليه السلام: أي إذا اختلفتم عليّ فطائفة آمنت وطائفة لم تؤمن ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وليس معناه أن اصبروا على الكفر بل على نصر المحقّين على المبطلين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ للحق وأهله.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ
(٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا
أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ
آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾

١٦٢

(٨٨) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي رؤساؤهم الذين هم أشد كفرًا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ وهذا شأن أهل الضلال في كل زمن، يهددون أهل الإصلاح بالنفي من بلدهم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أو ترجعون إلى ديننا ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ لذلك.

(٨٩) ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ أي نكون قد كذبنا على الله بقولنا لكم إن الله أوحى إلينا بدعوتكم إلى التوحيد في العبادة إذا رجعنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله من الشرك الذي أنتم عليه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ أي لا ينبغي لنا ذلك. ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا تأدب مع الله بردّ المشيئة إليه تعالى، ولكن ما دام الله سبحانه منزه عن أن يُضِل قومًا بعد أن استحبوا الهدى على الضلال بل يثبتهم على هداهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، أي من باب التعليق بمحال ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي لا على أحد سواه ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ بالعدل فتنصرنا على أعدائنا.

(٩٠) ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ أي قال بعضهم لبعض: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أي هدّد بعضهم بعضًا بأن من يتبع شعيبًا سيخسرون أنفسهم، وما دَرَوْا أن الخسارة هي بعدم اتباعه، وهذا ما وقعوا فيه.

(٩١) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي أخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا ميتين وهم باركون على ركبهم، وهكذا عاقبهم الله من نوع تهديدهم لشعيب وأشد وأعظم؛ فقد هددوه بالنفي ومن معه من مدينتهم فنفاهم الله إلى الأبد واستأصلهم بما كانوا يكفرون.

(٩٢) ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأنهم لم يقيموا فيها ولم يسكنوها ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي أصبح الخسران الذي هددوا به قومهم إن آمنوا بشعيب واقعًا بهم لأنهم كذبوه ولم يؤمنوا به، فحلّ بهم الخسران العظيم في الدنيا والآخرة، وهذا جزاء الظالمين.

(٩٣) ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ أي أعرض عنهم بعدما أصابهم العذاب، وقال لهم موبخًا: إنني قمت بما وجب عليّ نحوكم من تبليغ رسالات الله تعالى إليكم ولكنكم كفرتم بها وكذبتم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بأن تؤمنوا ولا تكذبوا بها فما رعيتم حق نصحي ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أي فلا آسف عليكم ولا على ما حلّ بكم من النكال، وكيف أتأسف على مصير قوم كفروا بالله؟

(٩٤) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي وما أرسلنا نبيًا من الأنبياء إلى جماعة ولم يؤمنوا به إلاّ ابتلاهم الله سبحانه بما يضرهم في أبدانهم من الأمراض، والفقر والحاجة أملًا أن يؤمنوا ويؤوبوا إلى رشدهم ويرجعوا إلى الحق والهدى.

(٩٥) ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ لما لم يؤمنوا بما ابتلاهم الله من البأساء والضراء والشدة، ابتلاهم بالرخاء أي بدّل بأْساءهم بالرخاء والدَّعة والنعمة لعل هذه النعم تؤثر فيهم فيؤمنون، ولكن ما كان لهم الأثر الحسن حتى عفوا، أي حتى كثرت أموالهم وأولادهم ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي: مسّنا ما مسّ آباءنا من السراء والضراء من قبل ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي دون أن يتنبهوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاءً لهم، بخلاف المؤمنين الشاكرين دائمًا أبدًا. وفي الصحيحين: «عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيرًا له: إن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له» [٣٤٠].

قوم شعيب كانوا الخسرون الخسران؛ من آمن نجا ومن كفر أخذته الصيحة

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ
﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٦٣

(٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي لو صدقت قلوبهم بما جاءت به الرسل، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قطر السماء، ونبات الأرض ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المآثم والمحارم.

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أفأمن أهل مكة، والقرى التي حولها أن يحل بهم عذاب الله ليلًا وهم نائمون لا يشعرون إلا وقد باغتهم، ولا ينفع وقتئذ ندم ولا توبة.

(٩٨) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي حال عملهم وشغلهم وهم غافلون عما سيحيق بهم من العذاب.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ مكر الله صفة له سبحانه تليق بجلاله وعظمته، ومكر الذي يراك ولا تراه وتحسب أنك في مأمن يكون أشد وأوقع وأنكى، فبينما يكونون باستدراج من النعمة والدعة والهناءة، إذ يبغتهم عذاب الله الذي لا يُرد ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي عذابه وبغتته ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين أفرطوا في الخسران، ولذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن، ولا يخفى ما في هذه الآيات من التهديد والوعيد والعياذ بالله.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي ألم يتبين للذين يُستخلفون في الأرض من بعد إهلاك من كان قبلهم عليها، فساروا سيرتهم، وعتوا على ربهم ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أخذناهم بكفرهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي نختم عليها ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيرًا بسبب عصيانهم وإصرارهم على الكفر جزاءً وفاقًا.

(١٠١) ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ المذكورة آنفًا من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ أي نخبرك ما كان من أمرها حين كفرت وطغت وبغت كيف أهلكها الله وأنجى المؤمنين. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي أنهم جاءتهم رسلهم بالحجج على صدقهم فيما يدعونهم إليه فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم أول مرة لما عرض عليهم الإيمان، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الكافرين ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي كفار قريش وكل من كفر وأصرّ على الكفر من قبل ومن بعد؛ لأنَّ جزاء الاستقرار على الكفر هذا الطبع.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي ما وجدنا لكفار الأمم الماضية أو الكفار إطلاقًا من عهد، فهم يعدون وينكثون ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي وجدنا شأن أكثر الكفار خارجين عن الطاعة خروجًا شديدًا.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي من بعد من ذكر من الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بعث الله موسى بالبينات والمعجزات رسولًا إلى فرعون وقومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعجزات العديدة كالدم والجراد والقُمّل وغيرها، وكذبوا بها ظلمًا وعنادًا ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كانت عاقبة فرعون وقومه المفسدين، وكيف أنهم أُغرقوا بكفرهم وظلمهم وعنادهم. ومن عجب أن نرى من بين بعض المسلمين من يزعم أن فرعون هذا الذي قال: (أنا ربكم الأعلى)، أنه ناج، ويقولون بإيمانه؛ بينما الآيات متضافرة في القرآن ومجمعة على كفره، وكونه في النار هو وقومه.

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخبر موسى فرعون أنه مرسل إليه من رب العالمين، من أجل أن يقلع عن الكفر وادعاء الربوبية.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

(١٠٥) ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي واجب عليَّ وحقٌّ: أن لا أخبر عن الله إلاّ الحق والصدق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بحجة قاطعة من الله بما يتبيَّن به صدقي بما أقول من أني رسول الله إليكم ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلق أسرهم ودعهم يخرجون معي.

(١٠٦) ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي معجزة ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فهاتها إن كنت صادقًا بادِّعائك أنك رسول الله.

(١٠٧) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الثعبان هو الذكر من الحيّات، فلما ألقى عصاه على الأرض وإذ تحولت إلى ثعبان مبين، أي ثعبان ظاهر لا لَبس فيه، واضعًا فكه على الأرض وفكه الآخر على سور القصر، ثم توجّه نحو فرعون، فأحدث وصاح: خذها قد آمنت.

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي أخرج يده من درعه تتلألأ من غير برص ولا مرض ثم أعادها إلى كُمِّه فعادت طبيعية.

(١٠٩) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي قال الأشراف من قومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي كثير العلم بالسحر.

(١١٠) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وهذا قول فرعون، أي يريد موسى أن يخرجكم من وطنكم مصر، ويسكن فيها وقومه حتى يروا في خصومته مصلحة لهم، فماذا تأمرون؟ أي ماذا تبرمون من الأمر، فعزموا على أن:

(١١١) ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخِّره وأخاه هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي وابعث في المدائن من يجمع السحرة من سائر البلاد ليبطلوا سحر موسى وأخيه.

(١١٢) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ماهر في فنون السحر.

(١١٣) ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ أي لبَّوا دعوته ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي اشترطوا على فرعون أن لهم عطاءً جزيلًا إن كانوا هم غالبين موسى بسحرهم.

(١١٤) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم فرعون بالعطاء الجزيل ولسوف يجعلهم من المقربين المحظوظين عنده.

(١١٥) ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي قال السحرة لموسى ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما عندك من السحر ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ قبلك، وأراد موسى عليه السلام أن يرى الناس صنيعهم ويفرغوا من بهرجهم.

(١١٦) ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ فإذا ألقوا جاء أمام الناس بالحق الجلي ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي خيلوا إلى الأبصار أن فعلهم حق، وأدخلوا الرهبة في قلوبهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أي أصبحت عصيّهم وحبالهم حيّاتٍ كالجبال فاختطفوا بسحرهم أعين الناس وموسى وفرعون.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي وأمرنا موسى أن يلقي عصاه ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تأكل حيّات السحرة وتلتقمها جميعًا ولم يبق شيء منها.

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ظهر الحق وزهق الباطل وتبيّن بطلان ما كانوا يشعوذون من السحر وعلموا أن ما جاء به موسى ليس شعوذةً ولا باطلًا كما يفعلون، إنما هذا شيء من السماء ليس بسحر إنما هو الحق الذي دحض باطلهم.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أي أذلاء منهزمين أمام قدرة الله التي أيّد بها رسوله موسى عليه السلام.

(١٢٠) ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي وخرُّوا جميعهم ساجدين مؤمنين بالله وبرسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وكفروا بفرعون وبربوبيته الكاذبة، فصار صغيرًا حقيرًا بأعينهم، وعلموا أن فرعون ليس برب ولا إله، وما الرب وما الإله إلا خالق السماوات والأرض وخالق كل شيء، ويا ليت كل من يرى الحق أبلج أن يسجد لله كما سجد السحرة لرب العالمين.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ
فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا
مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

١٦٥

(١٢١) ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي علموا أن الذي أتى بالمعجزة على يدي موسى هو الله تعالى، فقالوا آمنا برب العالمين.

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لا شك أن الله رب الجميع، ولكن الناس كانوا اتخذوا فرعون ربًا؛ فإذا قالوا رب موسى وهارون عُلِم أنه الله.

(١٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن تستشيروني فأصدر إذني لكم بذلك، ثم قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي العمل الذي عملتموه ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي اتفاق سريّ بينكم وبين موسى وتواطأتم معه على هذا العمل ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي لتخرجوا أهل المدينة من ديارهم وتسلموها لموسى وقومه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جزاء مؤامرتكم ما سأفعل بكم من العقاب.

(١٢٤) ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي الرجل اليمنى واليد اليسرى أو بالعكس، ثم لم يكتف عدو الله بهذا، بل قال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي على جذوع النخل، إفراطًا في تعذيبهم.

(١٢٥) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي هذا لا يهمنا وإنَّ عذابك أهون من عذاب الله الذي كان ينتظرنا لو لم نكن مؤمنين وسيجزينا ويثيبنا ربنا على صبرنا على عذابك جنات النعيم.

(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ أي إن تهديدك بتنكيلك فينا ما هو إلا انتقامٌ منك؛ لأننا عرفنا الحق لأهله وعلمنا أنك تدّعي الربوبية زورًا وكذبًا وافتراءً، فعدلنا عنك إلى رب العالمين نعبده ونطمئن بعبادته، لأنه وحده هو المستحق لذلك، ثم سألوا الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على عذاب فرعون ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي متابعين لموسى عليه السلام، وإن هذه الحياة الدنيا فانية وما عند الله خيرٌ للمؤمنين وهكذا، فقد كانوا أول النهار سحرة كفرة فصاروا آخره شهداء مسلمين بررة.

(١٢٧) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي أشرافهم ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يفسدون الأرض بعبادتهم ربهم دونك؟ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي كان يأمرهم أن يعبدوا كل بقرة حسناء، والمعنى أتتركه يترك آلهتك ويفسد رعيتك عليك ويرغبونهم بعبادة ربهم؟ وهكذا، فإنَّ المقربين من الملك، إذا أرادوا أن يحولوا دون المصلحين يؤلبون عليهم الملك بحجة مقبولة عنده، وهي اتهامهم بأنهم يفسدون عليك رعيتك، ويعلمون أنهم كاذبون مفترون، ولكن هكذا تُقضى مصلحتهم، وهذا موجود في كل زمن، وما أكثره في زماننا!! ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي نتركهن على قيد الحياة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي مستعلون عليهم بالقهر والغلبة، وإنهم تحت أيدينا، نفعل بهم ما نشاء أن نفعله.

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ أي أمرهم بالصبر على ما سيلقون من فرعون ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ أي ملكه وتحت تصرفه ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي يملّكها لمن يشاء من عباده ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لا لأمثال فرعون وقومه، وسيورثكم أرضهم.

(١٢٩) ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي قبل رسالتك وبعدها ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فعسى هنالك أن يقدِّر الله تعالى هلاك عدوكم ويجعلكم خلفاء من بعدهم فيها ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ وهنا بدأ الله بالانتقام من فرعون وقومه كما وعد موسى عليه السلام فامتحنهم، أي امتحن قوم فرعون بسنيّ الجوع ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل: كانت النخلة تحمل ثمرة واحدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتذكرون أن لهم ربًّا خلقهم وخلق أرزاقهم، وأنه هو المعبود وحده بحق ولا معبود سواه، وأنه يمتحنهم بتقتير الأرزاق عليهم، لعلهم يرجعون عن الكفر به إلى الإيمان به.

قطع فرعون أيدي وأرجل السحرة المؤمنين وصلبهم وهم صابرون

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ
لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ
ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن
كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ
يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٦٦

أرسل الله على فرعون وقومه: الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي الخصلة الحسنة من الخصب بكثـرة المطر، وصلاح الثمرات قالوا: إن هذه أُعطيناها باستحقاق ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي وإن أجدبوا وقحطوا يتشاءمون بموسى والمؤمنين، وهذا القول هو قول فرعون وقومه؛ فردّ الله عليهم بأن ما قالوا ليس صحيحًا، وموسى لا يستطيع أن يقدم أو يؤخر من الحسنة ولا السيئة، ولذا قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إنّ رخاءهم وشدتهم ويسرهم وعسرهم إنما هو من الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك جهلًا منهم.

(١٣٢) ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا تمرد من فرعون وقومه وعتوٌّ وعناد للحق، وإصرار على الباطل وهكذا فقد كذبوه ونسبوا كل ما يأتيهم من الحق والآيات والمعجزات إلى السحر والخيال وأنهم لا يؤمنون به ولا برسالته.

(١٣٣) ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ الطوفان كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، والجراد يؤكل، لما في الصحيحين عن عبدالله بن أبي أوفى قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد» [٣٤١]. وقد أرسله الله على فرعون وقومه فأكل الشجر والثمر والزروع، وكذلك أرسل الله عليهم القُمّل حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، وكذلك الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، وكذلك الدم فاختلط بالماء، فلا يغترفون من إناء إلّا عاد دمًا خالصًا، كل هذه الآيات الظاهرات أرسلها عليهم ليؤمنوا ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ أي ترفعوا عن الإيمان فكانوا مجرمين في حق أنفسهم وحق غيرهم من الذين يصدونهم.

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ أي العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من الدعوة المستجابة ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي لئن رفعت عنا العذاب لنؤمن بك ونطلق بني إسرائيل ونرسلهم معك؛ فيدعو موسى ربه فيكشف عنهم العذاب.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ أي يغدرون ولا يوفون بوعودهم، وينقضون ما عقدوه.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي ولما نكثوا بوعودهم أنزلنا بهم انتقامنا الذي لا يرد، فأغرقناهم جميعًا في البحر ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بسبب تكذيبهم موسى الذي جاءهم بالآيات المتقدمة ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي عن النقمة التي نزلت بهم وهم لا يدرون بأنهم سيُستأصلون عن بكرة أبيهم، وهكذا فإن الله تعالى يمهل الكافرين لعلهم يؤمنون، ثم ينزل بهم نقمته وعذابه.

(١٣٧) ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ أي يمتهنون بالخدمة لفرعون وقومه أورثناهم ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ أي أورثنا بني إسرائيل أرض مصر والشام التي بارك الله فيها بإخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي وعده تعالى بنصر الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم الوارثين ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بسبب ما أصيبوا من فرعون وقومه من الذلة والمهانة ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ أي وخرَّبنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ أي يرفعون من البنيان ويتطاولون فيه، وهذا جزاء كفرهم وعنادهم واستمرارهم عليه.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ
مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(١٣٨) ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي لما اجتاز بنو إسرائيل البحر، بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه ﴿فَأَتَوْاْ﴾ أي فمرّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قيل: إنهم الكنعانيون ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أي صنمًا نعبدُه كما لهم أصنام. والظاهر أن بني إسرائيل لم يكن الإيمان متمكنًا من قلوبهم، إذ لا يطلب هذا المطلب مؤمن، لا سيما بعد ما شاهدوا من آيات الله ما يزجرهم عن عبادة الأصنام ولكن بني إسرائيل أشد خلق الله عنادًا وجهلًا وتلونًا ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزّه عنه من الشريك.

(١٣٩) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي إن هؤلاء الذي أعجبكم منهم عبادة الأصنام، إنَّ هذا الدين الذي هم عليه مدمَّر لا يتم منه شيء ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي ذاهب مضمحل. وفي الحديث عن أبي واقد الليثي: -إن المسلمين- خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حُنَين قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون أسلحتهم بها يقال لها: ذات أنواط، قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾» [٣٤٢].

(١٤٠) ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ. أي كيف أبغي لكم الكفر والشرك بالله الذي أرسلني إليكم رسولًا لأهديكم إلى الله وحده لا شريك له. ثم كيف أنتم تجيزون لأنفسكم أن تجعلوا لكم إلهًا غير الله؟ وهو الذي نجاكم من فرعون وفضّلكم على العالمين أي عالم زمانكم؛ فبدلًا من أن تشكروا نعمه التي أسبغها عليكم، تكفرون به وتشركون؟

(١٤١) ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يذيقونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي أشده وهو: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يستبقونهن ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي ما كنتم فيه من أسر فرعون بلاء واختبار من ربكم عظيم أي أتكفرون أم تشكرون، أفلا تتّعظون فتنتهون عما قلتم من الكفر؟

(١٤٢) ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ أي ومن جملة النعم عليكم يا بني إسرائيل أننا واعدنا موسى ثلاثين ليلة نكلمه عند انتهائها بأن يصومها وهي ذو القعدة فصامها ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ أي من ذي الحجة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي فتمّ وقت وعده بتكليمه، أي كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام. وفيه أكمل الله لمحمد ﷺ الدين كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلما أتمّ الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي كن خليفتي أثناء غيابي في بني إسرائيل ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وصّاه بالإصلاح فيهم وعدم الفساد، وهذا من قبيل التذكير، وإلا فهارون كذلك نبي معصوم.

(١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي للوقت الذي واعدنا فيه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطة ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي اجعلني أراك ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ (ولن) هنا لنفي الرؤية في الدنيا فقط، أما في الآخرة فإنَّ المؤمنين يرون ربهم في الجنة كما في سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ أي انظر إلى الجبل الذي هو أقوى منك، فإن استطاع أن يتحمّل رؤيتي ويثبت مكانه ولم يتزلزل عند رؤيتي فيمكن أن تراني بعد ذلك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي إلى الأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي مغشيًا عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من الصَّعق ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزهك وأنا أول من آمن بأنه لن يراك أحد.

قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟
بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ
فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

(١٤٤) ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ أي اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك أن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم النبيين والمرسلين كلهم، وبعدهُ بالشرف والفضل إبراهيم عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام. ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي من المناجاة والكلام ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل. وشكر الله: طاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى، علاوة على الشكر اللساني.

(١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي من كل ما يحتاجه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم، وهذه الألواح هي التوراة المفصّلة للحلال والحرام ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي بجدٍّ ونشاط وعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بأشد ما فيه من عزيمة ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدّمار.

(١٤٦) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي سأمنعهم فَهْمَ الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي، وسأصدُّ قلوب المتكبرين عن طاعتي وعلى الناس ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي كما استكبروا بغير حق حتى أذلهم الله بالجهل جزاءً وفاقًا ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ لأنهم تكبروا عليها أول ما عُرضت عليهم ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي لا يسلكوه ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي يسلكوه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي بسبب ما تكبروا عن الإيمان بآيات الله لما جاءتهم وتجنبوا سبيل الرشد، وسلوكِ سبيل الغي ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ وبسبب غفلتهم فلا يعملون بما في تلك الآيات، فكان ذلك الصرف جزاءهم.

(١٤٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ أي إن هؤلاء الذين كذبوا بما أنزلنا من البينات وباليوم الآخر بطلت أعمالهم التي صُورتُها صورةُ طاعة كالصدقة والصلة، لأنها ما كانت مؤسسة على التوحيد، لأن الله لا يقبل عملًا إلا إذا كان خالصًا لوجهه وموافقًا لشريعته ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي عملوا بها في حياتهم الدنيا؛ إن خيرًا فخير أو شرًا فشر، وكما تدين تدان.

(١٤٨) ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد ما ذهب إلى الميقات ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي مما كان عندهم من الحليّ الذهبية، وقد اتخذ السامري من حليّهم فأذابها وشكّل لهم من الذهب عجلًا، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلًا له خوار، والخوار صوت البقر. ويقال: أنهم لما صوّت لهم العجل ورقصوا حوله وافتتنوا به قالوا: هذا إلهكم وإله موسى ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي ألم يعتبروا بأن هذا الذي عبدوه من دون الله لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير؟ ولكن عمى الجهل غطّى على بصائرهم. وفي الحديث: «حبك الشيء يعمي ويصم»(١)[٣٤٣]. ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي إلهًا ﴿وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ كيف لا وقد ظلموا أنفسهم وأردوها في قرار الجحيم، وأظلم الظلم أن تجعل لله ندًا ومثيلًا، ومن يجعل البقر آلهة له فهو أضل منها سبيلًا.

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا وتحيروا، ويقال للنادم المتحيِّر: قد سُقط في يده ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ أي تبين لهم أنهم قد أخطأوا طريق الهدى ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي من الهالكين. وهكذا فإنّ التوبة إلى الله هي وسيلة للمغفرة.

(١) ضعيف.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي
نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ
مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي
مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أخبر الله موسى بما كان من قومه في غيابه من عبادة العجل، فلما رجع إليهم كان غاضبًا متأسِّفًا شديد الحزن ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي بئس الذي صنعتموه في غيابي وتأخري ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي انتظار ميعاده الذي وعدنيه ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي طرحها حين اعتراه الغضب حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل. وفي الحديث: «يرحم الله موسى ليس المعاين كالمُخبر، أخبره ربه عزّ وجلّ أن قومه فُتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح» [٣٤٤]. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ بكلتي يديه لائمًا مؤنبًا لتقصيره بالخلافة عنه ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ إن هارون أخو موسى من أبيه وأمه، ولكنه قال (ابن أمّ) لأنها كلمة لين وعطف، ثم قال معتذرًا عن تقصيره لأمرين: استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تفعل بي ما يكون سببًا لشماتتهم، ولا تسقني مساقهم؛ لأنني حاولت ردعهم فكادوا أن يقتلوني.

(١٥١) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ طلب موسى المغفرة لأنه تعجّل لومه قبل أن يعلم السبب، وطلب المغفرة لأخيه إن كان وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الإنكار عليهم، ثم طلب إدخاله مع أخيه في رحمة الله تعالى وهو أرحم الراحمين.

(١٥٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الغضب الذي نالهم هو أنه تعالى لم يقبل توبتهم حتى قتل بعضهم بعضًا، كما تقدم في سورة البقرة [الآية: ٥٤] عند قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾. وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًّا وصغارًا في الحياة الدنيا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي نعاقب بذلك كل مفترٍ بدعةً، وكل من افترى على الله سيناله غضب من الله وذلة.

(١٥٣) ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مهما كانت ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ عنها ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد عملها ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ورسوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي كثير الغفران للذنوب وكثير الرحمة للتائبين.

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ ولما سكن عن موسى عليه السلام غضبه على قومه بني إسرائيل ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي الألواح التي ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرةً وغضبًا لله ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي فيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ الهدى ما يهتدون به من الأحكام، والرحمة هي الرحمة والسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها، وهذا الهدى وهذه الرحمة ما هي إلاّ ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلاّ عتوًّا ونفورًا وتقوم عليه الحجة.

(١٥٥) ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلًا، فاختارهم من أخير بني إسرائيل وقال لهم: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم من عبادة العجل وسلوه التوبة على مَنْ تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقَّته له ربه ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة لأنهم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أي قبل خروجي بهم ليعاين بنو إسرائيل هلاكهم ولا يتهموني ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ استفهام استعطاف، أي لا تعذبنا بذنب غيرنا ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي الفتنة التي وقع فيها السفهاء من عبدة العجل ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي اختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ إضلاله جزاءً بما لم يؤمن ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ منهم وهم الذين آمنوا ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ وهذا توسل إلى الله بصفاته العلى وأسمائه الحسنى بطلب المغفرة والرحمة، وهذا من أنواع التوسل المشروع الذي يستجيب الله به الدعاء إن شاء، وهو خيرُ مَن غَفَرَ الذنوب.

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

١٧٠

(١٥٦) ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فالذي تقدم من الدعاء لدفع المحذور، وهذا أي ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ لتحصيل المقصود، أي أوجب لنا فيها حسنة من لدنك، ووفقنا في الدنيا للأعمال الصالحة، وبإفاضة النعم من العافية والرزق ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي واكتب لنا في الآخرة الجنة من فضلك وإحسانك ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي إنا تبنا إليك وأنبنا ورجعنا عن الغواية إلى الهدى ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي ليس هذا إليك يا موسى، بل ما شئتُ كان وما لم أشأ لم يكن. والظاهر أنَّ العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب، ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولًا أوليًا ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء من المكلفين وغيرهم. وفي الحديث: «إن لله مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة» أخرجه مسلم [٣٤٥]. والظاهر أن هذه الرحمات المائة الواردة في الحديث المتقدم ليست الرحمة التي هي صفته تعالى، إنما هي والله أعلم رحمات مائة مخلوقة خلقها ليرحم بها عباده، لأن صفة الرحمة التي هي صفته تعالى ليست محدودة بعدد ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي للذين يتقون الشرك والعظائم من الذنوب، ويؤتون زكاة أموالهم، ويحتمل أن تكون عامةً في كل زكاة، أي زكاة المال وزكاة النفس، والذين هم بآيات الله يؤمنون ويصدّقون ويطبّقون.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ أي يتبعون محمدًا ﷺ الذي يجدون صفته عندهم في التوراة والإنجيل وهما مرجعهم في الدين، وهذا الكلام مع موسى من قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبي بأنه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي يأمرهم بكل الحلال الذي أحله الله وينهاهم عن كل محرم ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام مما كانوا ضيّقوا على أنفسهم به، ويحرم عليهم الخبائث كلحم الخنزير وسائر المحرمات من المأكولات(١) والمعاملات ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد في الحديث من طرق: «بعثت بالحنيفية السمحة»(٢) [٣٤٦]. وقوله ﷺ لأميريْه معاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا» [٣٤٧]. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي آمنوا به ووقّروه ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي القرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون.

(١٥٨) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا خطاب عام للأحمر والأسود والأبيض والعربي والأعجمي، أن رسول الله محمدًا ﷺ هو رسول الله إلى الناس جميعًا، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ وأنه خاتم النبيين، وفي بعض من حديث: «لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحدٌ من قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه» [٣٤٨]. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي لكونه تعالى له الملك جميعًا وهو يحيي ويميت فلا يكون معبودًا إلا هو ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي كل ما نزل على الأنبياء والرسل من الصحف والكتب ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى دين الإسلام خير الأديان وخاتمها.

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي هم الذين آمنوا منهم بمحمد ﷺ وما نزل عليه، وبه يحكمون ويتحاكمون عليهم الرضوان.

(١) وقد استنبط العلماء من هذه الآية تحريم شرب الدخان، لأنه خبيث الرائحة ومضر. كما اتفق الأطباء في العالم على أنه سبب قوي لنشوب مرض السرطان. ولنا كتاب تحت الطبع «الخمر والدخان طريقان إلى السل والسرطان» وفقنا الله لطبعه.

(٢) ضعيف.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

(١٦٠) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم، لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون بين الناس في الحكم، والمعنى: صيَّرناهم قطعًا مختلفة متفرقة حتى صاروا أسباطًا، كل سبط معروف على انفراده ولكلٍّ نقيب كما في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]، وأراد بالأسباط القبائل وسماهم أممًا لأن كلَّ سبط صار منه جماعة كثيرة العدد مختلفو الآراء ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد الأسباط لكل سبط عينٌ يشربون منها ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي عينهم المختصَّة بهم التي يشربون منها ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ من حرِّ الشمس يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ المن ليس نوعًا واحدًا، إنما هو أنواع، ومن أنواعه «الكمأة». في الحديث: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين» [٣٤٩]. أما السلوى: فهي طير السماني، وكان الرجل يذبح منها بقدر ما يكفيه يومه ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي من المستلذَّات التي رزقناكم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي يظلمونها بمخالفتهم وكفرهم وعنادهم.

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي بيت المقدس ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي من المأكولات الموجودة فيها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي في أي مكان شئتم ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: مغفرة يا رب عما صدر منا من الذنوب، اللهم فحطَّ خطايانا، وفيه دليل على التوسل بالأعمال الصالحة إلى الله تعالى، وذلك بأن الله تعالى طلب إليهم أن يعترفوا بذنوبهم حتى يكون هذا الاعتراف الذي هو عمل صالح وسيلةً للمغفرة منه، ولهذا قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم طالما اعترفوا بذنوبهم، ولكن لم يفعلوا ما أمرهم ولا قالوا: ﴿حِطَّةٌ﴾. وفي الحديث: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا: حبَّة في شعرة» رواه البخاري ومسلم [٣٥٠]. ولذا قال:

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي قالوا: (حبة في شعرة) كما تقدّم في الحديث المتفق عليه، ولذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي فبسبب ما عصوا أمر الله تعالى، أنزل الله عليهم عذابًا من السماء، والرجز أيضًا الطاعون. للحديث: «الطاعون رجز، عذاب عُذِّب به من كان قبلكم» [٣٥١]. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يظلمون أنفسهم بالمخالفات.

(١٦٣) ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي واسألهم يا محمد عن البلدة التي كانت ميناءً على البحر، أي واسأل اليهود الذين هم بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله تعالى ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واحتيالهم في المخالفة، وحذِّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحلَّ بهم ما حلَّ بآبائهم وأجدادهم وسلفهم الطالح، وهذه القرية هي (إيلة) بجانب العقبة اليوم ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر الله ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي تأتيهم أسماكهم شرعًا، أي ظاهرة على الماء من كل مكان ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم في اليوم المحرم عليهم وبإخفائه عنهم في اليوم الحلال ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي بما كانوا يخرجون عن الطاعة وباحتيالهم على انتهاك محارم الله بما تعاطوه من الأسباب التي معناها تعاطي الحرام. وفي الحديث: «قاتَلَ الله اليهود، إنّ الله لما حرَّم عليهم شحومَها جَملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنَهُ» [٣٥٢]، متفق عليه. وهكذا فإن رسول الله ﷺ ينهانا عن تقليد اليهود فيما ارتكبوه؛ فإنهم أي اليهود صاروا يحتالون على ما حرّم الله بالحيل فمسخوا قردة.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ
الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ
أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

١٧٢

الذين ما نهوا عن المعصية والذين اقترفوها مُسخوا قردة حقيقة

﴿١٦٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ يخبر تعالى أن أهل هذه القرية، صاروا ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على صيد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا﴾ أي المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلعل المذنبين يتوبون إليه تعالى، فلا يعودون إلى اقتراف الذنب فيتقون عذاب الله.

﴿١٦٥﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد، وهذا نص بنجاة الناهين وهلاك الظالمين، والذي يفهم من النص: أنّ الذين لم يصطادوا ولم ينهوا كانوا من المعذّبين أيضًا؛ لأن سكوتهم جرأ الفاعلين وهؤلاء أيضًا من الظالمين، لأنهم مأمورون أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر فلم يفعلوا، ولعلّ الفاعلين للذنب يرتدعون؛ فقد ظلم الساكتون أنفسهم بعدم النهي وسببوا بذلك تمادي المذنبين ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ باحتيالهم على المعصية، وسكوتهم على اقترافها.

﴿١٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ من اقتراف الذنب والسكوت عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فكانوا قردة حقيرين.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعلمَ وأمرَ أنه ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي بسبب عصيانهم أوامر الله واحتيالهم عليها، ويقال: أن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج ثلاث عشرة سنة ثم قهرهم اليونان، والكلدان بقيادة (بختنصر) ثم الروم ثم العرب والمسلمون يؤدّون إليهم الجزية والخراج ثم يكون آخر أمرهم أن يكونوا مع الدّجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى عليه السلام آخر الزمان، أما اليوم فإنهم يتجمعون في فلسطين كما أخبر رسول الله ﷺ، وما يزالون فيها حتى يقتلهم المسلمون بإذن الله تعالى، فما بالك بأمة غضب الله عليها ولعنها؟؟!! ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ بأعدائه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن يرجع إلى الصواب ويتخذ الإسلام دينًا، ولن يقبل منه غيره.

﴿١٦٨﴾ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي فرقًا ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ الذين ما بدّلوا التوراة وآمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي بقوا على ما هم عليه من الكفر والخبث ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي اختبرناهم ونحن أعلم بهم بالرّخاء والشدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم ومعاصيهم.

﴿١٦٩﴾ ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ من متاع الدنيا يتعجّلون مصالحها بالرشوة والسحت في مقابل تحريفهم الكتاب، أي التوراة ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي يتمنّون على الله الأماني ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ بعد استغفارهم دون أن يرتدعوا، ويمنّون أنفسهم بالتوبة، وكلما لاح لهم عرض آخر وقعوا به ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي أخذ الميثاق عليهم ألاّ يقولوا إلاّ الحق ودرسوا ما فيه وتعلموه، ومع ذلك خالفوه عن علم، وذلك أشد ذنبًا ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليس لهؤلاء الذين باعوا ما عند الله بعرض الدنيا الزائل عقل يردعهم عن الاجتراء على محارمه تعالى؟ ثم أثنى على من تمسكوا بالكتاب، فقال عزّ من قائل:

﴿١٧٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي يتمسكون بالتوراة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ الذين أصلحوا وعادوا إلى أحكام التوراة المبشرة بمحمد ﷺ، وآمنوا به وبرسالته وأصلحوا أعمالهم فإنا لا نضيع أجر المصلحين.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا
فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

١٧٣

قطع الله حجة من يشرك به متعللاً بغفلته عن الحق

(١٧١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، لما أبوا أن يأخذوا أحكام التوراة جميعها ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ قال لهم موسى عليه السلام: ألا تسمعون ما يقول ربي عزّ وجلّ: لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، فخرَّ كل رجل ساجدًا على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفًا من أن يسقط عليه ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي اعملوا بما أنزلنا عليكم من التوراة بقوة وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي في كتاب التوراة وخذوا ما فيه من الأحكام بعزيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما نُهيتم عنه وتعملون بما أمرتم به.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي أشهدهم على أنفسهم أنه الله تعالى ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو الذي فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ على أنفسنا بذلك ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ أي لئلا تقولوا: إنا كنا عن التوحيد غافلين. وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة -وفي رواية: على هذه الملة- فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» [٣٥٣].

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل زماننا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ لا نهتدي للحق، ولا نعرف الصواب ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا.

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبينها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحق ويتبعونه ويهتدون به ويتركون الباطل ويهجرونه وأهله. وفي الحديث: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم» [٣٥٤].

(١٧٥) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ هو بلعام بن باعوراء، والظاهر أنه من الكنعانيين، وكان مؤمنًا مستجاب الدعوة ويعرف الاسم الأعظم، ولكنه ارتدّ إلى الكفر وانسلخ من دينه، وقيل: كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها وهذا مستحيل، لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وإن الله يعلم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، ويعلم أن هذا سينسلخ من النبوة، فكيف يعطيها إياه؟ هذا مستحيل. هذا الرجل جاءه قومه الكنعانيون يريدون منه أن يدعو على موسى وجيشه فكان لسانه لا يدعو إلا على قومه دون إرادته، ولكنه أشار عليهم أن يرسلوا نساءهم إلى جيش موسى ويوصونهن بألاّ يمتنعن من أحد يريدهن ففعلوا، ولما دخلت النساء المعسكر فشا الزنى فيه كما فشا فيه الطاعون، ودخل فنحاص من ذرية هارون على خيمة رجل يضاجع إحدى النساء الكنعانيات فانتظمهما بحربته ورفعهما إلى السماء، وقال: (اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك) ورفع الطاعون، فبلغ عدد الهالكين سبعين ألفًا هكذا كان حال بلعام ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ المتمكِّنين بالغواية.

(١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ولكن لم نشأ ذلك بسبب انسلاخه عن استعمال الاسم الأعظم في محله ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فدعا على موسى وجيشه ولكن الله جعل لسانه يدعو على قومه ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي أنـه لا يرعوي عن المعصية سواء وعظ أم لم يوعظ ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرّفوا وبدلوا وكتموا صفة الرسول ﷺ، وكذّبوا بها ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويتعظون، فينزجرون عن الضلال ويقبلون الصواب، وهذا الاتعاظ الذي عناه الله يشمل الكفار جميعًا.

(١٧٧) ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فشبهوا بالكلاب لأنهم خرجوا من حوزة العلم والهدى ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ بإعراضهم عن اتباع الحق.

(١٧٨) ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ ولا مضلَّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي فقد خاب وخسر وضلّ لا محالة، لأنه اختار ذلك لنفسه.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا
هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

١٧٤

الكفار أضل من الأنعام، الساعة لا تأتي إلا بغتة ولا يعلم موعدها إلا الله

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي خلقناهم لها لأنه تعالى علم ما سيختارون من العمل فكتب ذلك عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. كما في صحيح مسلم: «إن الله قدَّر مقادير الخلق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» [٣٥٥]. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وهذا نص على أن العقل الذي هو آلة الفقه والفهم هو في القلب، لا كما يقول بعض الناس أنه في الدماغ ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي لهم هذه الجوارح، ولكن لا ينتفعون بها لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي هؤلاء الذين لا يستعملون قلوبهم في الفهم ولا أعينهم في البصر ولا آذانهم في السمع، هم: ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي كالحيوانات، لأنهم لا يعون الحق ولا يبصرونه ولا يسمعونه ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الدواب، لأنها قد تستجيب لراعيها إذا دعاها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به تعالى، ولهذا فإن من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتمّ منه ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عما خلقوا لأجله.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ والحسنى، أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمًّى ثم أمرهم بأن يدعوه بها ويتوسلوا إليه عند الحاجة بها، كان ذلك أقرب إلى الإجابة، ومن أسبابها. وفي الصحيحين: «إن لله تسعةً وتسعين اسمًا مئة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» [٣٥٦]. ومعنى أحصاها، أي حفظها، وتحقق في معناها، وأعطاها حقها من الفهم والعمل، ومات على ذلك، دخل الجنة، وليس المقصود مجرد حفظها أو تغييبها عن ظهر قلب فحسب ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي يشركون بها أو يغيِّرونها أو يخترعون أسماء لله ما سمَّى بها نفسه، أي اتركوا هؤلاء ودعوهم ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعيد نزول العقوبة بهم، وقيل: إنها منسوخة بآيات القتال، أي يجب قتالهم.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعملون، وقد جاءت الآثار أن المراد هو هذه الأمة المحمدية.

(١٨٢) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولم يؤمنوا بها ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي بالسعة بالرزق أو بأي شيء آخر ليغتروا بما هم فيه؛ ولذا قال تعالى:

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي أطيل لهم مدة الاستدراج. والكيد: المكر، أي إن مكري متين شديد قوي.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي جنون بزعمهم، أي ليس فيه شيء من ذلك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي بل هو رسول الله حقًّا، وظاهرٌ ذلك لكل عاقل واعٍ.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ملك الله العظيم، فينظروا في مخلوقاته حتى يهتدوا بذلك الإيمان إلى خالقها سبحانه وتعالى وتقدّس ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ فيهما، أي في السماوات والأرض، كائنًا ما كان من العظائم والدقائق ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي إذا كانوا يجوِّزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون في هذا الملكوت لعلهم يتفكرون ويعتبرون ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي، فأي تحذير بعد تحذير رسول الله ﷺ يؤمنون ويصدقون إن لم يصدقوا بهذا الذي جاء به الرسول من عند ربه تبارك وتعالى.

(١٨٦) ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أي لا أحد يستطيع هدايته ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يترددون في ضلالتهم ويتحيّرون.

(١٨٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى قيامها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يظهرها لوقتها غيره ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خفي علمها عن أهلهما ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي كأنك عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد يعلم وقتها إلا الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن حديث جبريل: «... ما المسؤول أعلم بها من السائل...» [٣٥٧].

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ
أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم
مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ
أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ
يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ
يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

١٧٥

(١٨٨) ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لا أملك جلب النفع ولا دفع الضر، إلا ما شاء الله من ذلك الجلب والدفع ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي لجلبته إلى نفسي، وتوقَّيت السوء، إنما أنا عبد لا أدري حتى ولا ما قضاه فيّ وقدّره لي أو عليَّ ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي ولحذرت عنه وتوقَّيته حتى لا يمسَّني ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ من العذاب ﴿وَبَشِيرٞ﴾ للمؤمنين بالجنّات ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي يصدقون بما جئت به من الحق. وهذه الآية تؤكد عدم علمه بالساعة، لأنها من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

(١٨٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ أي خلق الجميع من آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي خلق من آدم زوجه حواء، ثم انتشر الناس منهما. ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ أي ليألفها ولأجل أن يأنس بها ويطمئن، وكان هذا في الجنة، ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي فلما جامعها ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ أي علقت به بعد الجماع، فكان الحمل خفيفًا لا تجد منه ثقلًا كما تجد الحوامل أول الأمر ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾ أي استمرت بحمله خفيفًا تقوم وتقعد وتعمل ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ أي كبر الحمل في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي دعا آدم وحواء ربّهما ومالك أمرهما ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ أي ولدًا صالحًا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك إنعامَك وتفضلَك.

(١٩٠) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ أجاب دعاءهما ورزقهما ولدًا صالحًا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ وهنا يذكر المفسرون آثارًا عن أهل الكتاب، تدور كلها حول أنَّ اللّذين جعلا له شركاء هما آدم وحواء، وأما نحن فنقول: ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك: المشركون من ذريتهما، ولهذا قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وهذا يدُلُّ على أن المراد هم: المشركون؛ لتحوّل الضمير من التثنية إلى الجمع، فلو أن المراد آدم وحواء لقال: عما يشركان. فعُلم المراد بأنّه ذرِّيتهما؛ لا سيما وأن آدم نبيٌّ ورسول معصوم من الشرك، وهو مستحيل عليه.

(١٩١) ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ للتقريع والتوبيخ. أي كيف يجعلون له شريكًا لا يخلق شيئًا بينما يعلمون أن الله هو خالقٌ لهم ولشركائهم، فكيف يؤلهونهم؟!

(١٩٢) ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ أي إن الشركاء لا يستطيعون نصرًا لعابديهم، حتى ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ فكيف يُعبدون!!!؟

(١٩٣) ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ هذا خطاب للمشركين: أي وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم لا يجيبوكم إلى ذلك، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب المنافع ودفع الضر والنصر على الأعداء ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه، سواء لديهم لا فرق بينهما لأنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولا يجيبون.

(١٩٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي إن الذين تنادونهم لكشف الكربات من دون الله تعالى ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ أي هم مخلوقون لله تعالى كما أنتم مخلوقون فلا يستطيعون إجابتكم ومن أجل أن تتأكدوا مما نقوله لكم... ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي هيَّا ادعوهم واطلبوا منهم ما يريدون، فإن استجابوا لكم، فهذا هو المطلوب، وإذا لم يستجيبوا لكم ولن يستجيبوا فاعلموا أن دعاءهم لا يفيدكم شيئًا؛ بل ويؤدي بكم إلى العذاب الأليم الذي لا قبل لكم به.

(١٩٥) ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي إنَّ الذين تدعونهم من الموتى أو أصنامهم التي على صورتهم هل لهم هذه الجوارح حتى يجيبوكم؟ ادعوهم إلى هلاكي، ولا تمهلوني إن كانوا يستطيعون، وهذا تحدٍّ بالغ من الحق للباطل، ولعل أهل الباطل يعقلون.

الغيب لله وحده أتعبدون مالا يخلق وما ظلكم بأرباب خلقها عابدوها!؟

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ
أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ
وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ
بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ
فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ
لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ
قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ
فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ
فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ
وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ۩ ﴿٢٠٦﴾ سجدة

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي كيف أخافكم أو أخاف أصنامكم، وهو نصيري الذي أرسلني إليكم بهذا الكتاب لأهديكم به إليه تعالى ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي هو حسبي ويتولّى كل صالح في الدنيا والآخرة، ما داموا قد توكلوا عليه في كل أمورهم.

(١٩٧) ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ في المُلمَّات والشدائد ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ لعجزهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ ممن أرادهم بسوء، فكيف تؤملون منهم النصرة لكم؟! وكان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما يجيئان صنمًا لعمرو بن الجموح ليلًا فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو فيغسله ويطيبه، ويضع عنده سيفًا ويقول له: انتصر!!! ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضًا حتى أخذاه مرَّةً فقرناه بكلب ميت، ودلَّياه بحبل في بئر هناك، فلمّا جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك: فَعَلِمَ أن ما كان عليه من الدين باطل، ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل في أُحد شهيدًا ﷺ وأرضاه.

(١٩٨) ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أي ينظرون إليك بأعين مركبة فيها الجواهر المصنوعة وهم في الحقيقة جماد لا يبصرون، وكذلك المشركون عطلوا أسماعهم وأبصارهم عن سماع الحق فتراهم كأصنامهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون.

(١٩٩) ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي اعف عمَّن ظلمك ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أي بالمعروف ويشمل الطاعات كلها ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي اصفح عنهم ولا تقابلهم بإساءاتهم بل أقم عليهم الحجة وذرهم، وقيل: إن هذه الآية نسخت في ما نسخ بآية السيف.

(٢٠٠) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ أي وسوسة تحملك على مجازاتهم ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي فالتجئ إليه من هذه الوسوسة ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ أي لما يجهل الجاهل عليك ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم معك، وبصبرك عليهم، وباستعاذتك منهم.

(٢٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي إذا همُّوا بالذنب ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أن الله رآهم ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ أي أبصروا الحق، وعملوا به، واستقاموا عليه.

(٢٠٢) ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ إن الضمير هنا يعود إلى الشيطان المذكور آنفًا، أي إخوان الشياطين من الكفار ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ أي لا يفترون عن إغوائهم على المعصية فينزلقون فيها لا كما تبصَّر المتقون، واستقاموا على الحق.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ مما اقترحوا عليك ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ أي أنشأتها من قبل نفسك ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ وليس لي أن آتي بشيء من عند نفسي ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي حجج منه ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي هو هدى يهدي القلوب إلى الحق، ورحمة لمن آمن به وعمل بمقتضاه، واتخذ أحكامه حكمًا له في سائر شؤونه.

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ جهرًا في الصلاة وغيرها ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ لتفهموه وتعملوا به ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ جزاء ما نفَّذتم أحكامه عليكم.

(٢٠٥) ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ أي سرًا ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ أي تذللًا وخشية منه تعالى ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي ذكرًا خفيًا ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي صباحًا ومساءً ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكره سبحانه.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يعبدونه طائعين ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ أي ينزهونه عن النقص ويعظمونه، ويفردونه بعبادة السجود، وإنما ذكرهم لنقتدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم وتسبيحهم. وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجودُ بالإجماع.

آخر تفسير سورة الأعراف ولله الحمد والمنة والفضل وعليه التكلان

سُورَةُ الأَنفَال — ترتيبها ٨ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

١٧٧

(٨) سُورَةُ الأَنفَال

مدنية إلا من آية ٣٠ إلى غاية آية ٣٦ فمكية وآياتها ٧٥، نزلت بعد البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أصل النَّفَل: الزيادة، والنافلة: التطوع، لأنها زائدة على الواجب. وروى أحمد عن أبي أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: «فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين» [٣٥٨]. ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي اتقوا الله في أموركم ولا تخاصموا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي في قَسمه بينكم على ما أراد الله تعالى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فمن ليس بمتّقٍ ولا مطيع فليس مؤمنًا.

(٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أي إذا ذكر وعده ووعيده وصفاته العلى وأسماؤه الحسنى وما خلق من بديع صُنْعِه ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي آيات كتابه ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي زادتهم تصديقًا، وهذا يدل على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، ويتوكلون على ربهم لا يرغبون إلا إليه.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يحافظون على مواقيتها وأركانها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ويشمل الزكوات وسائر حقوق العباد من واجب ومستحب، والمال ما هو إلا وديعة توشك أن تفارقه يا ابن آدم، فأنفقه فيما يرضيه تعالى.

(٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ كقولك: فلان سيّد حقًا وفي القوم سادة ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وفي الحديث: «إن أهل عليّين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين» [٣٥٩]. ولهم المغفرة والرزق الكريم.

(٥) ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خروجه إلى بدر ﷺ مع المؤمنين بقصد التعرض لتجارة أبي سفيان والاستيلاء عليها دون حرب المشركين، ولكن الله قدّر الجهاد ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي ما كانوا يريدون الجهاد، ولكنه تعالى قدّره عليهم ونصرهم.

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنك لا تفعل إلاّ ما أمرك الله ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي إلى الموت كارهين ظانين أنهم لن يقدروا على الكفار، ولكن النصر لا يكون إلا بإذن الله تعالى وتوفيقه وبإرادته وتقديره جلَّ جلاله.

(٧) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ أي إما عير التجارة أو الظفر على الأعداء في الحرب، وهم الذين جاؤوا لينقذوا التجارة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي إما العير أو النفير تكون لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي تريدون غير ذات القوة والبأس تستولون عليها لقلة عددها وعُددها بخلاف النفير ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي ينصر دينه وأهله ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة ووعده بالظفر، أي لينصر الإسلام والمسلمين ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي آخرهم ويستأصلهم جميعًا، وكلُّ هذا الذي أراده الله من حرب المشركين...

(٨) ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وهو الإيمان والإسلام والتوحيد ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي الشرك وأهله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركون وجميع طوائف الكفار.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١٧٨

(٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وقف النبي ﷺ يدعو يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، فما زال يستغيث ﷺ فنزلت: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [٣٦٠].
وعن ابن عباس قال: وأمدَّ الله نبيّه والمؤمنين فكان جبريل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة، وفي الحديث: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم، قال: «من أفضل المسلمين» قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة. [٣٦١].

(١٠) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلاّ بشرى واطمئنانًا لقلوب المسلمين ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لا من عند غيره، وليس للملائكة أثر في ذلك، فهو الناصر على الحقيقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله.

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي إن الله ألقى عليهم النعاس أمانًا أمّنهم به من خوفهم الحاصل من كثرة عدوّهم وقلة عددهم، وهذه نعمة أنعم الله بها عليهم سكّن الله بها قلوبهم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وقد كان بين المسلمين والمشركين كثيب من الرمل المتجمّع وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الوسوسة بأن المشركين غلبوكم على الماء، فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب عنهم وسوسة الشيطان، كما ثبّت الرمل حين أصابه المطر وثبّت عليه الأقدام، كما ثبّت الله الأقدام بالصبر على مجالدة الأعداء فلا ينهزمون.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي بالعون والنصر، قاتلوا معهم وكثّروا سوادهم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يقوّي أنفسهم كأن يقول الملك: سمعت المشركين يقولون: والله إن حملوا علينا لننكشفن فيحدّث المسلمون بعضهم بعضًا، فتقوى أنفسهم ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي الخوف والذلة والصغار ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي اضربوا الرؤوس ففلّقوها واقطعوا أصابعهم فلا يقووا على حمل السيوف فيظلوا بلا عدّة فينهزموا.

(١٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي خالفوا وساروا في شقّ وتركوا الشرع والإيمان به في شق آخر ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه.

(١٤) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب الشديد ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أي هذا العذاب والنكال في الدنيا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة.

(١٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي زاحفين إليكم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي لا تخافوا منهم وتنهزموا، أي يحرم تحريمًا قاطعًا أن ينهزم المسلم في الحرب، وهذا خطاب للمؤمنين في كل زمن؛ كيلا يفروا من الزحف، لأن الفرار من الزحف من الكبائر.

(١٦) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي يفر مكيدةً لخصمه يوهمه أنه فرَّ فيتبعه ثم يكرُّ عليه فيقتله فلا بأس، أو تحيز إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك، فمن لم يكن فراره سببه هذان العذران ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقيل: هذان التحرّف والتحيز باقيان وإن كانا قد نزلا في حق الصحابة، فإنّ الفرار من الزحف حرام لأنه من الكبائر. وفي الصحيحين: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [٣٦٢].

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ
وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي ما قتلتموهم بحولكم ولا قوتكم، بل الله تعالى هو الذي قتلهم بما يسّره لكم من الأسباب الموجبة للنصر ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي حين رميت ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي يوم رميت يا محمد بالقبضة من التراب في وجوه المشركين يوم بدر، وقلت: «شاهت الوجوه» [٣٦٣]. فقد أوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله. ما أنت الذي أوصلتها إنما الله هو الذي أوصلها ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي ليعرِّف المؤمنين بنعمه عليهم، من النصر على الأعداء واكتساب المغانم منهم، وإن الذي نصرهم هو الله لا كثرة العدد، وليعرفوا حقهُ عليهم فيشكروا نعمه العديدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لدعائهم عليم بما يعملون، وبمن يستحق النصر والغلب منه تعالى، ويجزي كلًا بحسب نيته وعمله.

(١٨) ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذه بشارة أخرى علاوةً على ما قدّر الله من النصر، فقد أعلمهم سبحانه أنه مُضعِف كيد الكافرين في المستقبل، ومصغِّرٌ أمرهم.

(١٩) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وهذا خطاب للمشركين، فقد قال أبو جهل يوم بدر: اللهم أيّنا كان أقطع للرحم، وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحًا منه فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟...﴾. ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عمّا أنتم فيه من الكفر بالله، والتكذيب برسوله ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى قتال محمد ﷺ ﴿نَعُدْ﴾ إلى تمكينه من النصر عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي مهما جمعتم من الجموع لا ينفعكم ذلك شيئًا، فالله لا غالب له ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي اقطعوا أملكم بالنصر على المؤمنين، لأن الله معهم.

(٢٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي إن الله تعالى يحرِّض المؤمنين على دوام طاعتهم وأن لا يتركوا طاعة رسوله بعدما علموا ما دعاهم إليه من الحق.

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ وهم المشركون والمنافقون، ولكن لم يسمعوا سَمْعَ فهم واستجابة فوصفهم الله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي كالذين لم يسمعوا أصلًا لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا.

(٢٢) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن فهمه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ مما سمعوا شيئًا فهؤلاء هم شر الدواب، أي شر البرية، ولذلك وصفهم الله بهذا الوصف الحقيقي لأنهم لا فهم لهم، ولا قصد صحيح.

(٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم، وتقدير الكلام: ﴿وَ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عنادًا وجحودًا.

(٢٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا ما تضمنه القرآن والسنة من أوامر ونواهٍ، ففيها الحياة الأبدية، وقيل: الجهاد الذي أعزكم الله به بعد الذل والضعف والقهر، وكله صحيح. وفيه دلالة على وجوب العمل بقول الله وقول رسوله، وتركِ ما يخالفهما من الأقوال كائنًا ما كان ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي إذا لم يستجب العبد جازاه الله بأن يحول بينه وبين قلبه بما يناسب عدله. وفي الحديث: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» [٣٦٤]. ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وسيجازيكم على أعمالكم بحسبها خيرًا كانت أم شرًا.

(٢٥) ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي إن الله أمر المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمّهم الله بالعذاب ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وعظيم المغفرة لمن اتقاه، أمّا المحنة فتُصيب الجميع، أما الصالحون منهم فيصيرون إلى مغفرة الله.

لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، الاستجابة لله وللرسول، المعاصي سبب تعميم العذاب

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم
مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا
اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا
هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ
أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(٢٦) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مهانون ضعفاء ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ أي يأخذونكم بسرعة، أي فارس والروم، فما كان قبيلٌ من حاضر أهل الأرض يومئذ أشرَّ منهم منزلًا ﴿فَآوَاكُمْ﴾ أي إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ أي قوّاكم ونصركم يومَ بدر بالملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي رزقكم من المغانم أموال الأعداء لعلكم تشكرون الله بطاعته ولا تشركوا به شيئًا.

(٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ هذه الآية عامة وإن صحّ أنها وردت في سبب خاص، فقيل: إنها نزلت في أبي لبابة الذي أشار إلى بني قريظة بيده إلى حلقه، أي إنه الذبح، وقيل: إنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ وقصتا أبي لبابة وحاطب معروفتان. وإن الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والخيانة تعمُّ الذنوب ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأمانة: الأعمال التي ائتمن عليها العباد، أي لا تخونوا الله ورسوله بترك الطاعة وفعل المعصية.

(٢٨) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنةً يختبر الله بها عباده، وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فآثروا حقَّه على أموالكم وأولادكم. فإن حبَّ الله ورسوله ﷺ، مقدَّم على الأموال والأولاد. وفي الحديث: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر، بعد إذْ أنقذه الله منه» [٣٦٥].

(٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي فصلًا بين الحق والباطل ونجاةً ومخرجًا ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي يسترها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ما اقترفتم من الذنوب ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

(٣٠) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ فقد اجتمعت قريش للمشاورة في شأن رسول الله ﷺ وتبادلوا الرأي بالوَثاق والحبس أو القتل قتلة رجل واحد ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ المكر: تدبير الأمر بخفية، والمعنى أنهم يخفون ما يُعدُّونه لرسول الله ﷺ من المكايد ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي يجازيهم ويردّ كيدهم في نحورهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لأنه يعلم نواياهم وما يدبرون من المكايد، وهم لا يعلمون ولا يشعرون ما يدبر الله من إنجاء نبيه.

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي سمعنا هذا القول ولكن لو أردنا لقلنا مثل هذا الذي يأتينا به محمد ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقيل: إن النضر بن الحارث هو الذي قال هذا القول وقد أسر يوم بدر وأمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرًا بين يديه، وفيه نزلت الآية.

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم. وكان الأولى أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، ولكنهم استعجلوا العذاب والعقوبة.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي جعل الله لهذه الأمة أمانَيْن لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم: فأمان قبضهُ الله وهو وفاة رسول الله ﷺ، وأمان بقي في الأمة، وهو استغفارهم الله تعالى.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ
فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ
ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

١٨١

(٣٤) ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بالسيف بعد خروجك والمستضعفين من مكة، وقد عذَّبهم الله ببدر ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون النبي ﷺ والمسلمين ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وما يمنع من تعذيبهم وقد صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام؟ كما وقع منهم عام الحديبية ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي ما كان المشركون أهل المسجد الحرام، إنما أهله هم: النبي ﷺ وأصحابه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وما هم إلا الرسول ﷺ وصحبه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم على البيت.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ وقد كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، وكانوا يطوفون بالبيت على الشمال وإنما كانوا يصنعون ذلك، ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي والأسر والذل.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلك يوم بدر وأُحد والأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ليصدوا عن طريق الحق ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي لا تجديهم شيئًا لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يدحرون في الحرب كما وعد الله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، فإن أحد من الكفار أسلم فيغفر له، وأما الكافرون فسيحشرون إلى جهنم وبئس المصير خالدين فيها أبدًا.

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي ليفرق ويفصل بين الخبيث وبين الطيب، ويميز أهل السعادة من أهل الشقاء في الدنيا والآخرة. والمعنى: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها من أجل أن نفرق بين أهل الحق وأهل الضلال ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي يجمعه متراكمًا متراكبًا ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ جميعًا مؤبدًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة.

(٣٨) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي إن ينتهوا عمَّا هم فيه من الكفر والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر الله لهم ما قد سبق من خطاياهم. وفي الحديث: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» [٣٦٦]. وفي الحديث أيضًا: «الإسلام يجُبُّ ما قبله، والتوبة تجُبُّ ما كان قبلها» [٣٦٧]. فما أحلمه تعالى وما أكرمه ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ أي يستمروا على ما هم عليه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على ذلك نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

(٣٩) ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي كفر وشرك. وفي الحديث: «... قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يفتن عن دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثُر الإسلام فلم تكن فتنة» [٣٦٨]. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وحده لا يعبد غيره ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر والشرك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على أعمالهم بما يستحقون.

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان والتوحيد ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أمركم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هو ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي الناصر لكم. وفي الصحيحين: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقِّها وحسابهم على الله عزّ وجلّ» [٣٦٩].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

١٨٢

(٤١) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ نزلت في الغنائم وهي المال المأخوذ من الكفار، بتسيير الخيل يوم الزحف على العدو. فجعلت هذه الآية كون سهم الله وسهم رسوله ﷺ واحدًا هو الراجح والتخميس في كل قليل أو كثير حتى الخيط والمخيط. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾ [آل عمران: ١٦١]، ويصطفي الرسول ﷺ لنفسه ما شاء من الخمس، وهو من خصائصه. وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال الفيء. وقال ابن تيمية رحمه الله: وهو أصح الأقوال. ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم وبني عبد المطلب ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم وهم فقراء ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسدُّ مسكنتهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو مريد السفر إلى مسافة وليس له ما ينفقه في سفره، وسيأتي ذلك في سورة التوبة الآية (٦٠) ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ عليكم أن تقسموا الغنائم هكذا لكل خمس الخمس(١)، والأخماس الأربعة الباقية للجيش، إن كنتم تؤمنون بالله ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ من القسمة في الغنائم ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر الفارق بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك يوم الجمعة في سبع عشرة مضت من رمضان. وفي الصحيحين من حديث وفد عبد القيس: «... وآمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله -ثم قال- هل تدرون ما الإيمان؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم...». الحديث بطوله ... [٣٧٠] فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان.

(٤٢) ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي القربى -بضم العين- من المدينة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي البُعدى من المدينة، أي المشركون ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي عير أبي سفيان مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي أنتم والمشركون ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ وبلغكم كثرة عددهم ما لقيتموهم. ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في علمه وهو نصر الإسلام وأهله ومحق الكفر وأهله ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي ليكفر من كفر بعد قيام الحجة ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي يؤمن من آمن عن حجة بينة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لدعائكم واستعانتكم، عليم باستحقاقكم النصر.

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي جبنتم ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي أمر القتال ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي سلّمكم من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما في قلوبكم وضمائركم.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ أي بين سبعين أو مائة، وهذا من لطفه تعالى بهم مما دعا إلى الجرأة عليهم ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ أي جعلكم في أعينهم قليلين؛ أي حضَّض بعضهم على بعض، كيلا يرجعوا عن قتالكم وهذا قبل التحام الحرب، فلما التحم أراهم إياهم مثليهم، كما في آل عمران، الآية (١٣) ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي مقدرًا عنده ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي تصير إليه.

(٤٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم ولا تنهزموا. وفي الحديث: «... يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف...» [٣٧١]. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وفي الحديث: «يقول الله تعالى: إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»(٢) [٣٧٢]. أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي.

(١) أي للرسول وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

(٢) ضعيف.

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

١٨٣

الصمت في الحرب ولو صخب الكفار • نزول الملائكة وهرب الشيطان • خروج أرواح الكفار قسرًا

﴿٤٦﴾ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي قوتكم ودولتكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على شدائد الحرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ويا حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رُزِقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة. وهكذا فقد كان الصحابة ممتثلين للأوامر بما لم يسبقهم إلى ذلك سابق من قبل ومن بعد، وظهر دينهم على سائر الأديان، فامتدّت ممالكهم في الشرق والغرب في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي مضادة للحق ومفاخرة وتكبرًا ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يضلونهم ويحولون بينهم وبين طرق الهداية ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي لا تخفى عليه من أعمالهم خافية، وسيجازيهم عليها شر الجزاء.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي حسّن الشيطان لهم أعمالهم، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير لكم وأدافع عنكم وكان في صورة سراقة بن مالك سيد بني مدلج ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي المسلمة والكافرة، ورأى الملائكة، وكانت يده في يد الحارث بن هشام ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ وانتزع يده ثم ولّى مدبرًا وشيعته، فقال له الحارث: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار! قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ من الملائكة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن يهلكني ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وتلك عادة عدوّ الله لمن أطاعه حتى إذا التقى الحق والباطل تبرّأ منهم عند ذلك.

﴿٤٩﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ أي قال المنافقون واليهود: غرّ هؤلاء دينهم حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش، وذلك عند خروج المسلمين إلى بدر، لما رأوه من قلة عددهم وعُددهم، فردّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي على جنابه العظيم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه وهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضعها إلاّ في مواضعها فينصر المؤمنين الموحّدين ويخذل المشركين.

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت هائلًا من الأمر، إذ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ هذه الآية ولو كان سببها وقعة بدر ولكنها عامة في حق كل كافر، فإن الملائكة تبشر الكفار بما سيؤولون إليه من العذاب الشديد فتستصعب أرواحهم، وتمتنع من الخروج من الأجساد، فتضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم بمقامع من حديد، ويقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، فيستخرجونها كما يخرج السّفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والأعصاب ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ بما كفرتم بالله الذي خلقكم.

﴿٥١﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعذيب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في دنياكم فجازاكم الله عليها في آخرتكم هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنّ إلاّ نفسه...» [٣٧٣].

﴿٥٢﴾ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي إن هؤلاء المشركين، فعلوا كما فعل آل فرعون ومن قبلهم من الكافرين، ففعلنا بهم كما فعلنا بأمثالهم من المكذبين ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسببها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من كفر به.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟
مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم
مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾
وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟
لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

١٨٤

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي تعذيب الكفرة ما كان إلاّ لأن الله تعالى لا يبدل نعمةً بنقمةٍ على قوم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي حتى يبدلوا نعمتهم كفرًا كتبديل كفار مكة إطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف، وتبديل نعمة بعث النبي ﷺ إليهم بالكفر والصدّ عن سبيل الله وقتال المؤمنين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ ما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

(٥٤) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كصنيع آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي كفروا بها وجحدوها ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي استأصلناهم بسبب كفرهم ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي هو وقومه في جوف البحر ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأمم المكذبة ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ نزلت في بني قريظة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي هذا شأنهم لا يؤمنون أبدًا وجعلهم شرَّ الدواب لا شر الناس إيماءً إلى انسلاخهم عن الإنسانية لعدم استعمالهم عقولهم فيما فيه رشادهم، وهم:

(٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي أخذت منهم عهدهم ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله في عهودهم ومواثيقهم.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي أينما تجدهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي فرِّق بقتلهم والتنكيل بهم مَنْ وراءهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتعظون بهم.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمهم بأنك علمت بخيانتهم الناقضة للعهد، ولذا فإنك نقضت لأنهم هم الذين بدأوا بالنقض فيكون العلم بنقض العهد مستويًا به أنت وهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي إذا لم تعلمهم وهجمت عليهم يكون غدرًا بهم ويتهمونك بأنك أنت الذي غدرت بهم وختنهم.

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي أفلتوا من أن يظفر بهم. وهم الذين أفلتوا يوم بدر ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي أنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزًا من إدراكهم فإنهم تحت قهرنا وقدرتنا وفي قبضة مشيئتنا.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي هيئوا لهم ما أمكنكم، ولا تدخروا قوةً مهما كانت من الآلات الحربية التي تختلف باختلاف الزمن، وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» [٣٧٤]. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وهي الخيل التي ترتبط في سبيل الله بإزاء العدو. وإن القوة التي فسّرها الرسول ﷺ بالرمي أي الرمي بالنبال حينئذ، أما الآن فالرمي بالبندق والقذائف والقنابل والصواريخ والذرّة. كل هذا مما أوجب الله تعالى على المسلمين اقتناءه؛ لأن القوة يدخل تحتها كل أنواع القوة في أي زمن. وكذلك رباط الخيل فليس معناه مقتصرًا على الخيل فقط، إنما يدخل كل أنواع المراكب البرية والبحرية والجوية في كل زمن ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي العدوّ الظاهر، والباطن من المنافقين وغيرهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فيجازيهم بما يستحقون ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي يجب الإنفاق على تصنيع الأسلحة في بلاد المسلمين لا استيرادها من أعدائهم!! وإن كل نفقة يوفيها الله لكم عزًّا في الدنيا وسعادة في الآخرة.

(٦١) ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي مالوا للسلم عن صدق وإخلاص فمِلْ إليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كل أمورك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع للقول والعليم بالنوايا جلَّ جلاله ولا إله سواه.

الخيانة حرام حيث كانت، حشد الطاقات جميعها، إن أرادوا السلم فاستجيبوا

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ
بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ
مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ
صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ
ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا
غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

١٨٥

(٦٢) ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ أي يريدون بالصلح خديعتك ليتقوّوا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي كافيك وناصرك وحده ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي لأنه هو الناصر وحده ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بسبب جهاد المؤمنين واجتماعهم على طاعتك ومناصرتك.

(٦٣) ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وبسبب ما ألّف الله بين قلوبهم على محبته تعالى ومحبة رسوله ﷺ، وجمعها على الإيمان بك، فقد كان بين الأنصار حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حدٍّ لا يمكن دفعه بحال من الأحوال. ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتمّ له ما طلبه من التأليف ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بعظيم قدرته. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالًا فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي». كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنّ [٣٧٥]. ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ الجناب ﴿حَكِيمٞ﴾ الأفعال.

(٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي يكفيك ما يؤيدك الله به ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يكفيك ويكفي من اتّبعك من المؤمنين بنصره لكم جميعًا.

(٦٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ أي حثّهم على القتال فكان عليه الصلاة والسلام يحرضهم على العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض...» [٣٧٦]. ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي كل واحد بعشرة ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي يقاتلون على غير بصيرة، ومن يكون هكذا فهو مغلوب لا سيما وقد كان فرضًا على المسلمين ألاّ ينهزموا أبدًا، ثم جاء التخفيف...

(٦٦) ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ على قتال عشرة أمثالكم ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ فإذا كانوا على النصف من عدوّهم لم يسغ لهم أن يفرُّوا من عدوّهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحوّزوا عنهم، والغلبة دائمًا لا تكون إلا بإذنه تعالى ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي ينصرهم ويعينهم إذا صبروا وثبتوا.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي ما يصحُّ للنبيّ أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين فأخبر تعالى أن قتل المشركين ببدر كان أولى من أسرهم وفدائهم، وهذه الآية نزلت بعد استشارة الرسول ﷺ فأشار أبو بكر باستبقائهم، وأشار عمر بضرب أعناقهم، وكان أمر الرسول ﷺ بفداءٍ أو ضربة عنق [٣٧٧] ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ أي ثوابها بقتلهم ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿حَكِيمٞ﴾ في أفعاله.

(٦٨) ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي في أم الكتاب: أن الغنائم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ من الفـداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ لأجل ما أخذتم.

(٦٩) ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ وهـذا يشهـد لما في الصحيحين: «... وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ من قبلي...» [٣٧٨]. فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء. وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمئة» [٣٧٩]. وقد استمر الحكم على تخيير الإمام بقتل الأسرى أو فدائهم أو مبادلتهم بأسرى من المسلمين أو استرقاقهم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي محارمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لكم ﴿رَّحِيمٞ﴾ بكم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ
فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ
ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ
وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ
بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ
بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥

براءة الرسول من كل مسلم يعيش بين المشركين، إرث أولي الأرحام ناسخ لإرث الإخاء

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ نزلت في العباس وكان في جملة أسرى بدر لما ادَّعى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول، فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا. فافتدِ نفسك وابن أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمر أخي ابن الحارث بن فهر...». ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه [٣٨٠] ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي يغفر لكم ما قد سلف من ذنوبكم والله غفور لذنوبكم رحيم بكم.

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ أي إن كانوا يريدون خيانتك بما أظهروه من الأقوال، فقد خانوا الله قبلُ بالكفر ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾ أي بالأسر يوم بدر. وإن هذه الآية عامة في العباس وفي غيره ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله بهم.

(٧٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ النبيَّ ﷺ ومن معه من المهاجرين ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ الدين ومن جاء به من عند ربه وهؤلاء هم الأنصار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي المهاجرون والأنصار وقد آخى بينهم الرسول ﷺ، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله ذلك بآية المواريث. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ فلا إرث بينكم وبينهم وهم مؤمنو أهل البوادي ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي فإن تركوا بواديهم وتحوّلوا إلى دار الهجرة، فإن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما عليهم ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ أي فانصروهم وذلك واجب، لأنهم إخوانكم في الدين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي عهد إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم مع الذين عاهدتم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي لا تخفى عليه أعمالكم.

(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ أي إن الله قد قطع الموالاة بينكم وبين الكفار. وفي الصحيحين: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» [٣٨١]. ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ إن لم تجانبوا المشركين ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مفسدة من اختلاط المؤمنين بالكافرين. وفي الحديث: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين» ثم قال: «ولا يتراءى ناراهما» [٣٨٢]. ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ وهو التباس الأمر بين المؤمنين والكافرين من الاختلاط فيما بينهم.

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي آووا مَن هاجر إليهم ونصروهم، وهم الأنصار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ أي أولئك المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حقًا، وهذه شهادة من الله لهم بحقيقة الإيمان ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي للمهاجرين والأنصار مغفرة من الله لذنوبهم وصفح عنها في الدنيا ولهم في الجنات رزق كريم بشكل دائم لا ينقطع، ولا ينقضي.

(٧٥) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي من بعد السابقين من المهاجرين والأنصار ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ أي هاجروا وتركوا دار الكافرين إلى دار المؤمنين ﴿وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ في جهاد الكفار جهادًا في سبيل الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾ أي صار لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ أي أهل القرابات والنسب ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ بالإرث من التوارث بالإيمان والهجرة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في القرآن الذي فيه حكمه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من الأشياء، ومن جملة ذلك ما تضمَّنته هذه الآيات.

آخر تفسير سورة الأنفال ولله الحمد والمنّة والشكر

سورة التوبة — ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ
فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ
وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

١٨٧

(٩) سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنية إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان وآياتها ١٢٩، نزلت بعد المائدة

(١) ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي تبرُّؤ من الله جلّ وعلا ومن رسوله ﷺ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وكان المسلمون قد عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإذن من الله ورسوله ﷺ وقد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع مِنْ نقض الكفار لها فصار النبذ بعهدهم واجبًا من المسلمين، وإن أول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهمَّ بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون هذا الموسم على عادتهم ويطوفون عراة، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرًا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم، ويُعلم المشركين ألاّ يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي بالناس: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ليكون مبلغًا عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له.

وعن ابن عباس أنه سأل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن عدم الفصل بين سورتي الأنفال والتوبة، بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال عثمان: كانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة من القرآن، وكانت براءة من آخر ما نزل منه، وكانت قصتها شبيهةً بقصتها وخشيت أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم». وكذلك لم يأمر رسول الله بذلك.

(٢) ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هذه الآيــة لذوي العهود غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان مؤقتًا، فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي فائتي عذابه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

(٣) ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ أي إعلام منهما وإنذار إلى الناس يوم النحر ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم فيه من الشرك ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم واستمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ بل أنتم في قبضته وتحت قهره ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وعن عليّ رضي الله عنه: «بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع: ألاّ يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشركٌ بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنّة إلاّ نفس مؤمنة» [٣٨٣].

(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ أي لم ينقضوا عهدهم ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي ولم يعينوا عليكم أحدًا من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ التي عينت، ولهذا حرَّض الله تعالى على الوفاء بذلك العهد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهــدهم فلا ينقـضونه ولا يخفرونه.

(٥) ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ والمــراد بها هي التي وقّتــها الله لهـم ورسوله، وسميت حُرُمًا لأن الله حرَّم فيها على المسلمين دماء المشركين والتعرّض لهم. والمعنى: فإذا انسلخت هذه الأشهر الأربعة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي في أي مكان وزمان. والمشهور تخصيص تحريم القتال في الحرم إلاّ إذا قاتلوكم فاقتلوهم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ إن شئتم قتلًا أو أسرًا ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ في قلاعهم وحصونهم ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي ترصدوا لهم في كل مكان واضطرّوهم إلى الإسلام أو القتل ﴿فَإِن تَابُوا﴾ أي خلعوا عبادة الأوثان ووحّدوا ربهم وأفردوا له العبادة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي اتركوهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم مهما بلغت ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم رحمة واسعة جزاء توبتهم وعملهم الصالح.

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي طلب الأمان منك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي أمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي القرآن تقرأه عليه، وأقم عليه الحجة ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي أوصله إلى دار قومه إذا لم يؤمن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي شرعنا لهم هذا الأمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فلا بد من التبليغ ليعلموا، ثم يعملوا...

العهد لأقل من أربعة أشهر والمطلق نهايتها أربعة أشهر، والموقت إلى مدته، من استأمن أمّنوه

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا
وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟
أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ
﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟
بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

لم عليكم المشركون ما راعوا فيكم قرابة ولا عهداً • تحريض المسلمين على قتال المشركين وأن لا يخافوهم

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ أي لا يكون لهم عهد وهم كافرون بهما غادرون!!!؟ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، وهم قريش المستثنون من قبل ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي ما وفّوا لكم بالعهد، فوفُّوا لهم به، واستقيموا لهم على العهد الذي عاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أنّ الوفاء بالعهد من التقوى.

(٨) ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي كيف يكون لهم عهد؛ وإن يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا﴾ أي لا يراعوا فيكم قرابةً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي عهدًا ولا حلفًا ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بكلامهم الحسن ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الوفاء به ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ناقضون للعهد والوعد، فكيف يكون لهم عهد، أو ذمة!!؟؟

(٩) ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي إن المشركين اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من حطام الدنيا ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي فصدُّوا عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس العمل الذي كانوا يعملونه من صرف الناس عن الحق.

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا قرابة ولا عهدًا ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي هؤلاء ﴿هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ أي المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد والباقون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى.

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ مما هم عليه من الشرك، وصد الناس عن الحق الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على أنفسهم وعلى من يعولون بجميع شروطها وأركانها ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أدوها إلى مستحقيها المعروفين الذين ذكر الله صفاتهم في كتابه العزيز ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي في دين الإسلام لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نبينها ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونها، وخصّ أهل العلم لأنهم المنتفعون بها. اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون.

(١٢) ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ أي إن نقضوا مواثيقهم التي أبرموها مع المسلمين ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ من بعد ما وثّقوا عهودهم تلك وضموا إلى ذلك الطعن في دين الإسلام، والقدح فيه، وعابوه وانتقصوه ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي قاتلوا صناديد المشركين، وأهل الرئاسة فيهم على العموم ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي ليسوا من أهل الأيمان حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم، فقتالهم صار واجبًا على المسلمين، فقاتلوهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي عن كفرهم وعنادهم وضلالهم ونكثهم للعهود وطعنهم في الدين.

(١٣) ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ وهذا تحريض على قتال المشركين وإغراء بهم، الناكثين بأيمانهم التي قطعوها ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة يوم مكر به الكفار ليسجنوه أو يقتلوه ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي نقضوا العهد الذي أبرموه يوم الحديبية، وقاتلوا مع حلفائهم بني بكر أحلافَ رسول الله ﷺ، فما يمنعكم من قتالهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتخافونهم؟ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ أي إن الله تعالى هو أحق بالخشية منهم، فإنه الضار النافع بالحقيقة، ومن لوازم خشيتكم له أن تقاتلوا مَنْ أمركم جلّ جلاله بقتالهم ومجاهدتهم، حتى ينتصر الحق، ويزهق الباطل، ثم علّق الإيمان على مقاتلتهم فقال عزّ من قائل: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن قضية الإيمان توجب عليكم قتالهم وتلزمكم بذلك إلزامًا.

قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ
عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ
غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ
مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ
أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ
أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ
ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

(١٤) ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي يعذبهم الله بأيديكم بالقتل والأسر ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ أي ويذلهم ويقهرهم ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي تغلبونهم فيكتب الله لكم النصر، وعليهم الخذلان والقهر ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي يتشفى المؤمنون بخذلان الكافرين.

(١٥) ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ وهم المؤمنون الذين نالهم من الكفار ما أوقع في قلوب المؤمنين من الغيظ وحرج الصدر، فلما يروا أن الله قد نصرهم على الذين أغاظوهم وظلموهم، يذهب غيظ قلوبهم ويتشفّون بهم ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وهذا إخبار من الله بما سيكون من إيمان بعض الكفرة وحصول التوبة لهم من الله تعالى. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح لهم ويصلحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله.

(١٦) ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أي ظننتم يا أيها المؤمنون أن تهملوا فلا نختبركم بما يميز أهل العزم الصادق من الكاذب ولا نتبين المخلص في جهاده منكم من المنافق ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ أي ويعلم أنهم لم يتخذوا بطانة ودخيلة من المشركين من دون الله ولا رسوله، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، والعلم هنا ظهور حقائقهم بما هي عليه ليجازيهم عليها خيرًا كانت أو شرًا. وهو العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من قبل أن يكون عملكم ظاهرًا لكم.

(١٧) ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ أي ما ينبغي للمشركين بالله تعالى ولا يصح لهم أن يعمروا مساجد الله وهم يشهدون على أنفسهم إذا سألتهم عن دينهم لأجابوك بواقعهم ولا يخفون كفرهم ومقرّون به، فكيف يعمرون مساجد الله التي بنيت على اسمه تعالى وحده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي بطلت بكفرهم ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم ماتوا على الكفر والشرك.

(١٨) ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فمن كان جامعًا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد لا من كان كافرًا بها، ومعنى العمارة هنا يشمل عمارتها بالصلاة وعمارتها ببنائها حتى تكون محلًا للصلاة والعبادة كلها ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون في هذه الآية وهم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ولا يخشون إلا الله، ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ وهذا حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم. وكل عسى في القرآن واجبة، وهي من الله حق.

(١٩) ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد كمثل من آمن بالله وآمن باليوم الآخر؟ ثم صرّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين فقال: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا تساوي سقايةُ الحاج وعمارةُ المسجد عند الله الإيمانَ بالله واليوم الآخر، ودلّ سبحانه بنفي المساواة على نفي الفضيلة التي يدّعيها المشركون ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم باختيار الكفر على الإيمان وإصرارهم عليه حتى الموت.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ فبعد أن أشار إلى الفريق المفضول صرّح بوصف الفريق الفاضل بالإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، فمما لا شكّ فيه أن هؤلاء المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عند الله تعالى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المتصفون بالصفات المذكورة ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أي المختصون بالفوز بالجنة عند الله تعالى.

المشركون لا يعمرون مساجد الله وما يعمرها إلا المؤمنون بالصلاة فيها وبالإيمان والتقوى

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

﴿٢١﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي أولئك الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا يستحقون أن يبشرهم الله بالرحمة ﴿وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ أي ومنحهم الله الرضا عنهم وعن أعمالهم التي قدموها إليه تعالى ﴿وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم مستمر لا يفارق صاحبه.

﴿٢٢﴾ ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي في الجنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي أعطاهم الله هذه الأجور العظيمة لكون الأجر عنده عظيمًا لا ينفد.

﴿٢٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ينهى الله سبحانه عن موالاة الكفار حتى ولو كانوا آباءهم وإخوانهم ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي اختاروه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي ظلموا أنفسهم إذ كيف يتخذونهم أولياء ونصراء وقد حادّوا الله ورسوله فاستحبّوا الكفر على الإيمان، ثم توعّد الله من يوادُّ من حادَّ الله ورسوله ويتولاهم ويتخذ منهم أنصارًا بقوله تعالى:

﴿٢٤﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي إنَّ كلَّ هؤلاء وهم الغوالي من الأهل والعشيرة ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها من الأخذ والعطاء والبيع والشراء ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي عدم نفاقها لفوات أوان بيعها بالهجرة، ومفارقة الأوطان ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي المنازل التي تعجبكم وتميل إليها أنفسكم، إن كان كل هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ أي في سبيل الله تعالى ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي فانتظروا ما سيحلّ بكم من عقابه ونكاله ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ فيكم ما تقتضيه مشيئته سبحانه، وفي هذا وعيد شديد، ويؤكده إبهام هذا الأمر لتذهب النفوس كل مذهب وتتردّد بين أنواع العقوبات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعته الذين يفضلون أنفسهم على الله ورسوله. وفي الحديث: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» [٣٨٤].

﴿٢٥﴾ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يذكر الله فضله وإحسانه على المؤمنين بنصرهم في غزوات كثيرة كبدر وقريظة، والنضير ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أي ظننتم أنكم ستنصرون بكثرتكم ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ هذه الكثرة ولم تجد ﴿عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي ما أفادتكم شيئًا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي رغم سعتها فقد ضاقت عليكم من الخوف والوجل ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي انهزمتم إلا قليلًا منكم ثبتوا مع رسول الله ﷺ وهم مائة من أصحابه كان فيهم: أبو بكر، وعمر، والعباس، وعليّ، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان عليه الصلاة والسلام ينادي: «إليّ عباد الله، إليّ أنا رسول الله» [٣٨٥]. ثم أمر عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته: «يا أصحاب الشجرة» [٣٨٦]. ويقول تارة: «يا أصحاب سورة البقرة» [٣٨٧] فجعل المسلمون يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه وتركه، ورجع إلى رسول الله ينادي: يا لبيك، يا لبيك [٣٨٨].

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزل عليهم ما يسكّن روعهم ويذهب خوفهم، ويستبسلوا بالقتال ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة حاربوا مع المؤمنين والرسول يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» [٣٨٩]. وكان يسوق بغلته البيضاء نحو المشركين، ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» [٣٩٠]. ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي كسرهم كسرةً شنيعةً، ونصر المسلمين عليهم بروحٍ منه تعالى نصرًا عزيزًا مؤزرًا.

النصر من عند الله لا لكثرة العدد والعُدد، ولما اعتمدوا على الله نصرهم

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن
شَآءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُوا۟ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا۟
الْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَـٰرَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ
يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ
اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ
لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ممن هداهم للإسلام مثل ما تبقى من قبيلة هوازن فأسلموا ولحقوا برسول الله ﷺ عندما قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بعشرين يومًا، فعند ذلك خيرهم رسول الله ﷺ بين سبيهم وأموالهم، فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فردَّ سبيهم، وقسّم أموالهم بين الغانمين، ونفّل أناسًا من الطلقاء تألفًا لقلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل. وكان من جملة مَن أعطى مائة: مالك بن عوف النصري واستعمله على قومه أميرًا كما كان من قبل. بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أحلمك وأكرمك وما أبعد نظرك، نعم الرسول أنت، ونعم القائد صلى الله وسلّم عليك تسليمًا كثيرًا كثيرًا.

﴿٢٨﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي إنهم نجس دينًا لأنهم مشركون ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ وذلك سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا بصحبة أبي بكر رضي الله عنه عامئذ، وأمره أن ينادي بالمشركين ألاّ يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ نزلت بسبب أن الناس قالوا: لتقطعنَّ عنا الأسواق، ولتهلكنَّ التجارة وليذهبنَّ عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ...﴾ والمعنى: إنه إذا خشيتم من منع المشركين عن المسجد الحرام ﴿عَيْلَةً﴾ أي فقرًا، فإن الله يعوضكم ويغنيكم من فضله ﴿إِن شَآءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بما في صدوركم حكيم بأقواله وأفعاله.

﴿٢٩﴾ ﴿قَـٰتِلُوا۟ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَـٰبَ﴾ هذه الآية الكريمة هي أول آية تأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا. أمر الله رسوله بقتال اليهود والنصارى، وكان ذلك سنة تسع وجهّز الرسول ﷺ جيشًا من ثلاثين ألف مقاتل لقتال الروم، فخرج بهم يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك فنزل بها وأقام عشرين يومًا، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع لضيق الحال وضعف الناس ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ إذا لم يسلموا فعليهم دفع الجزية عن قهر لهم وغلبة وهم ذليلون حقيرون مهانون. وفي الحديث: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه» [٣٩١]. وكتاب نصارى الشام إلى عمر بن الخطاب مشهور.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَـٰرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ولهذا كذّب الله الطائفتيْن فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم... ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ أي يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم من الأمم عبدة الأوثان في قولهم: اللات والعزى ومناة والملائكة بنات الله ﴿قَـٰتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل ويضلون عنه وهو ظاهر، وهذا القول يدل على بطلانه أدنى تفكّر، إنما له سبب وهو أنهم:

﴿٣١﴾ ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾ أي علماءهم وعُبّادهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي أطاعوهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام واتبعوهم في ذلك، فطاعتهم واتباعهم لهم في التحريم والتحليل عبادة لهم من دون الله؛ لأنهم اتخذوا لأنفسهم صفة التشريع، وهذه الصفة إنما هي لله وحده ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ وهو الله سبحانه، أي ليطيعوه وحده فيما يحل ويحرّم ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزّه وتقدّس عن النظراء والأنداد والأعوان والأولاد والشركاء.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ
عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

١٩٢

(٣٢) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم، فمثلهم كمن يريد أن يطفئ نور الشمس بنفخة!!! وهذا لا سبيل إليه، فكذلك الإسلام لا بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي أبى الله تعالى إلا أن ينصر دينه ويعلي كلمته برغم أنوف الكافرين رضوا أو لم يرضوا، كرهوا أو لم يكرهوا.

(٣٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي على سائر الأديان. كما في الحديث: «ليبلغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاَّ أدخله هذا الدين يُعِزُّ عزيزًا ويُذِلُّ ذليلًا، عزًا يُعِزُّ الله به الإسلام، وذلًا يُذِلُّ الله به الكفر» [٣٩٢]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي شاء المشركون أم أبوا.

(٣٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يحذر الله المؤمنين مما يعمل الأحبار وهم علماء اليهود والرهبان، وهم عبّاد النصارى من أكل أموال الناس بالباطل ومن التشبّه بهم، وذلك كالرشوة مقابل الشهادة للمشركين بأن دينهم خير من دين محمد وهم يعلمون أن دين محمد هو دين التوحيد، وكفار العرب مشركون، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يصدّون العرب عن الإيمان بالله وبرسوله لقاء ما يأخذون من الأموال، وهذه الآية عامة في كل من يفعل فعلهم في كل آن وزمان وكل من شابههم. قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهؤلاء صنف ثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العبّاد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، وأما الكنز: فهو الذي لا تؤدّى زكاته، وأما ما أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين. وفي الحديث: «... إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم...»[1][٣٩٣]. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم بما ينتظر الذين لا يدفعون الزكاة؛ بعذاب أليم.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي على الأموال التي لم تزكّ ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ويقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ﴾ أي عذاب ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ كما في الحديث: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله، إلاّ جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيُكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» [٣٩٤].

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ إن هذه الاثنا عشر شهرًا هي الأشهر العربية الإسلامية: المحرم إلخ. والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. ولا عبرة بما عند العجم والروم والقبط من الشهور ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي كون هذه الشهور كذلك ومنها أربعة حُرُم هو الدين المستقيم والحساب الصحيح ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي في هذه الأشهر الحرم؛ لأنها آكد في الإثم من غيرها ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي قاتلوهم جميعًا كما يقاتلونكم جميعًا، وفيه دليل على أنّ القتال فرض ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ينصرهم ويثبتهم ويجعلهم الغالبين.

(١) ضعيف.

سيعم الإسلام الأرض • المال المزكى ليس كنزًا، قاتلوا المشركين كافة

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ
إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ
فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا
غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ
يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

النسيء: تحريم صفر بدل المحرم، التخلف عن الجهاد يؤدي إلى العذاب، ما ظنك باثنين الله ثالثهما

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ كانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم حرموا بدله صفر. فالنسيء هو هذا التأخير ووصفه الله تعالى أنه زيادة في الكفر لأنهم يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي أنَّ الذي سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالّين بهذه السنة السيئة، ويحلون النسيء عامًا ويحرمونه عامًا، ليوافقوا عدّة الأشهر الحرم الأربعة، فتبقى على عددها أربعة ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ من الأشهر الحرم ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ أي زيّن الشيطان لهم النسيء ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي المصرّين على كفرهم المستمرّين عليه.

(٣٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما لكم إذا دُعيتم إلى الجهاد تكاسلتم وملتم إلى المُقام والدَّعة ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي أرضيتم بالدنيا بدل الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة إلا متاع قليل وحقير. وفي الحديث: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليمِّ فلينظر بما ترجع، وأشار بالسبابة» [٣٩٥]. ثم توعّد الله من ترك الجهاد بقوله تعالى:

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ أي إن لم تنفروا إلى الجهاد في سبيله تعالى ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي شديد الألم. قال ابن عباس: «استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا عنه؛ فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم» [٣٩٦]. ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي لنصرة نبيّه وإقامة دينه ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا تضروا الله تعالى شيئًا بتولّيكم عن الجهاد وبتثاقلكم عنه ولا تضروا كذلك رسوله بترك نصره والجهاد معه في سبيل الله، فإنَّ الله ناصر دينه سواء أمتثلتم أمره أو ألقيتموه وراءكم ظهريًا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء وهو لا شكَّ قادر على نصرة نبيّه من الأعداء بدونكم. وكل هذا نزل في المتخلّفين يوم تبوك.

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي إنْ لم تنصروا نبيّكم محمدًا بالجهاد معه ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ وهو المتكفل به، فقد نصره ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي المشركون ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي أحد اثنين يوم الهجرة، أي هو ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ حين كان معه في الغار ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي بعلمه وتأييده ونصرته. وفي الحديث من رواية أبي بكر ﷺ: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه، لأبصرنا تحت قدميه(١). قال: فقال: «يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما» أخرجاه [٣٩٧]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي على رسول الله ﷺ بتسكين جأشه وتأمينه، أو هي عصمته من حصول سبب من أسباب الخوف ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ وهي الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰ﴾ أي جعل الله كلمتهم وهي الشرك جعلها السفلى المغلوبة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ أي هي المنصورة التي لا غالب لها، وهي «لا إله إلا الله». وفي الصحيحين: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حمية ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» [٣٩٨]. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي بانتقامه وانتصاره ويمنع من لاذ به ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

(١) وهذا دليل على كذب قصة العنكبوت والحمام...

(٤١) ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ شبابًا وشيوخًا وأغنياء ومساكين وفي العسر واليسر. ولما نزلت هذه الآية الكريمة اشتد على الناس، فنسخت بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ إلى قوله ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]. ثم رغب الله في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته، فقال جل وعلا: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تغرمون في النفقة قليلًا فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة. وفي الحديث: «تكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنة أو يردَّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة» [٣٩٩].

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي غنيمة قريبة وسفرًا متوسط البعد ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أي لخرجوا معك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي بعدت المسافة إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي سيحلفون لكم بالله إذا رجعتم إليهم لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي بجرم الحلف الكاذب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي حانثون في أيمانهم.

(٤٣) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وليس أحسن من هذا العتاب!!! نداء بالعفو قبل المعاتبة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي وهلاَّ تأنَّيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه، وكذب من هو كاذب منهم في ذلك، فإنهم كانوا مصرِّين على القعود عن الجهاد، أذنت لهم أم لم تأذن.

(٤٤) ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد، بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقُّفٍ ولا ارتقابٍ منهم لوقوع الإذن منك فضلًا عن أن يستأذنوك في التَّخلف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من التقوى، ومن علمه بالمتقين أنه أخبر أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد، ولا يعتذرون عنه.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إنما يستأذنك في القعود عن الجهاد والتخلف عنه المنافقون الذين ما انشرحت قلوبهم بالإيمان بالله واليوم الآخر، فكيف يجاهدون في سبيل شيء لم يؤمنوا به بعد؟! ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكَّت في صحة ما جئتهم به ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ أي في شكِّهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي يتحيرون.

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)
لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)
عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم
مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)

١٩٤

(٤٦) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي لكانوا تأهَّبوا له بما يحتاج له المجاهد من العدة والسلاح والزاد والراحلة ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدرًا ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي أخَّرهم وحبسهم عنه. ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي قدَّر أيضًا قعودهم عن الجهاد خذلانًا لهم فكانوا مع أولي الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان.

(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلُّف المنافقين، أي إنهم لو خرجوا معكم لأفشوا في صفوفكم الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: لأسرعوا خلال صفوفكم بذلك الفساد؛ يبغون من وراء ذلك الفتنة في إفساد ذات البين ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي مستحسنون لحديثهم، سمَّاعون لفتنتهم؛ لأنهم لا يعلمون من حقيقة كراهيتهم لكم شيئًا ولا يعلمون نفاقهم فتقع الفتنة. ولذلك ثبطهم الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي ما يكون منهم، فحبسهم عن الجهاد معكم.

المجاهد إن عاش فسعيد، وإن مات فشهيد، علم الله كيد المنافقين فحبسهم عن الجهاد

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

١٩٥

(٤٨) ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي لقد أعملوا أفكارهم في الكيد لك ولأصحابك، وإخماد دينك. وذلك أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة، رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي لما نصره الله ببدر وأعلى كلمته. قال عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه: هذا أمر قد توجّه [٤٠٠]. فدخلوا الإسلام ظاهرًا ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم وهم كارهون مجيء الحق وظهور أمر الله وانتصار رسول الله ومن معه.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي ومن المنافقين من يقول لرسول الله ﷺ: ائذن لي في التخلف عن الجهاد، ونزلت هذه الآية في الجد بن قيس وهو من أشراف بني سلمة وسيدهم. قال للرسول: ائذن لي بالتخلّف ولا تفتنّي بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم [٤٠١] ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي في نفس الفتنة سقطوا وهي فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصًا، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال، وكان بنو سلمة ملّوا سيادة الجد بن قيس عليهم لبخله فسوّد رسول الله ﷺ بشر بن البراء بن معرور كما ثبت في الصحيح [٤٠٢].

(٥٠) ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ وهذا إخبار من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين بعظيم عداوتهم لهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ أي وإن تصبك نازلة من خيبة أو انهزام ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي يرجعون إلى أهلهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين فلما قالوا هذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيبهم:

(٥١) ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي في اللوح المحفوظ، ونحن تحت مشيئته وقدره، وإن الإنسان تهون مصيبته عليه عندما يعلم أن ما أصابه إنما هو قَدر قدّره الله عليه ولا بد منه ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي سيدنا وملجأنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي عليه وحده متوكلون وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(٥٢) ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي وهل تنتظرون بنا إلاّ أن ينصرنا الله عليكم ويظفرنا بكم، أو نموت شهداء في سبيله، وكلاهما مما يحسن لدينا ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي إما أن يصيبكم الله بنازلة من السماء فيسحتكم بعذابه، أو بنصرنا عليكم بالقتل والسبي والأسر ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ انتظروا ما يسرنا من الظفر أو الشهادة وإنا ننتظر بكم ما يسوؤكم من ظفرنا بكم قتلًا وسبيًا وأسرًا.

(٥٣) ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين لن يتقبل الله نفقتكم منكم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وهذا تعليل لعدم تقبل الله منهم نفقاتهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وفيه الإشعار بتساوي الأمرين، لأنهم قوم فسقوا عن أمر الله تعالى فكان فسقُهم هذا مانعًا من قبول نفقاتهم مهما أنفقوا من نفقة طائعين أو مكرهين.

(٥٤) ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي جعل الله المانع من القبول ثلاثة أمور: الأول: الكفر. والثاني: أنهم لا يصلّون في حال من الأحوال إلا في حال الكسل. والثالث: إنهم لا ينفقون أموالهم إلّا وهم كارهون. وفي الحديث: «إن الله لا يمل حتى تملّوا» [٤٠٣]، «وإن الله طيب لا يقبل إلاّ طيبًا» [٤٠٤]. ولهذا لا يتقبل الله منهم، إنما يتقبل من المتقين.

هربوا من فتنة النساء فوقعوا في فتنة الكفر، عاقبهم الله بألّا يتقبل منهم نفقة ولا عملًا

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ
قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ
أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ
فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ
لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ
فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أي لا تستحسن ما استدرجناهم فيه من الأموال والأولاد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما يحصل لهم من التعب الشديد في تحصيلها، ثم بما يتأتى لهم من الغم والهم والحزن عندما يغنمها المسلمون منهم، وبما يأخذونه منهم زكاة ونفقة في سبيل الله، ولا يدفعونها إلا كرهًا، فلا تكون لهم فيها نية صالحة بل نفاقًا للمؤمنين ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي ثم يموتون على الكفر.

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي إنهم مؤمنون مثلكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي وليسوا في حقيقتهم مؤمنين ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي إنما حملهم خوفهم منكم أن تفعلوا بهم كالمشركين فيحلفوا لكم زورًا وكذبًا أنهم منكم ومعكم ليدفعوا عنهم العذاب وذلك تقيةً ونفاقًا.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي لو أنهم يستطيعون أن يجدوا حرزًا لهم في الجبال يلجأون إليه أو مغارات يدخلون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي سربًا في الأرض أو نفقًا يَلجُون فيه ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ أي لخفوا سراعًا إليه وودُّوا أنهم لا يخالطونكم ولا يعيشون معكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون إليه جموحًا كالخيل ولكنهم لا يخالطونكم إلا كرهًا، ويغتمُّون لعزِّكم ونصركم ورفعتكم.

(٥٨) ﴿وَمِنْهُم﴾ أي من هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يعيب عليك في تفريق وتقسيم الصدقات، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا﴾ أي من الزكاة بقدر ما يريدون ﴿رَضُوا۟﴾ أي أعطاهم رسول الله ﷺ فلا يعيبونه. ذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي يغضبون لأنفسهم. وفي الحديث: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ، والله يعطي...» [٤٠٥]. أي الله وحده هو الذي يعطي وهو الذي يمنع.

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ما فرضه الله لهم، وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي كفانا الله وسيعطينا من فضله، ويعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه وما نؤمله ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أي في فضله وجواب (لو) لكان خيرًا لهم مما فعلوه من اللمز.

(٦٠) ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ أي يقتصر دفع الصدقات للفقراء الذين لا يجدون كفايتهم ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي الذين لا يجدون غنىً يغنيهم، ولا يفطن لهم أحد ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم كل من يتألفهم الإمام ليسلم هو وأتباعه في حالة ضعف المسلمين ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي لشراء العبيد وعتقهم ولإعانة المكاتبين، أي لإعطائهم إعانة على عتقهم ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ وهم من تحمل حمالةً، أو ضمن دينًا، أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لتجهيز جيش المسلمين في سبيل الله والنفقة عليه ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المنقطع في سفره ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فرض منه تعالى وذلك لما لمز المنافقون رسولَ الله ﷺ في قسمة الصدقات، فقد تولّى الله تعالى تقسيمها بنفسه ولم يكل قسمها لأحد غيره، فجزأها كما تقدم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يعمل عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ بأفعاله. وفي الحديث عن زياد بن الحارث ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: «إن الله لم يرضَ بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»(١) [٤٠٦].

(٦١) ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي كل من قال له شيئًا صدَّقه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي يعرف الصادق والكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدقهم إذا حدثوا ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي الذين أظهروا الإيمان فلم يكشف أسرارهم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي بهذه الأقوال التي قالوها فيه من لمزه بالصدقات ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي شديد الألم، موجع لا يحتمل.

---

(١) ضعيف.

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ
أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ
مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم
بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ
بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ
إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

١٩٧

(٦٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ وسبب نزولها، كما في الحديث: ذكر أن رجلًا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقًا، لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين، فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت»؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدّق الصادق وكذّب الكاذب، فأنزل الله هذه الآية[1] [٤٠٧]. ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي أحق بذلك من إرضاء المسلمين بالأيمان الكاذبة فإن كانوا حقًا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله.

(٦٣) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يشاقفهما ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي مؤبدًا فيها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾ أي الخذلان ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أي الذل والشقاء الكبير.

(٦٤) ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي يخافون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ أي تنزل على المؤمنين سورة ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي تنبئ المؤمنين بما في قلوب المنافقين من النفاق وهم مع ذلك يستهزئون ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ وهذا أمر تهديد بما سيحيق بهم من العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ من ظهوره من النفاق.

(٦٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في الدين والاستهزاء وثلب المؤمنين وهم سائرون معك إلى تبوك ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ معتذرين ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ في الحديث لنقطع به الطريق، ولم نكن في شيء من المسّ بك أو بالمؤمنين ﴿قُلْ﴾ أي أجبهم يا محمد: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

(٦٦) ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به، فقد قالوا وهم سائرون إلى تبوك: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنّا بكم غدًا مقرّنين بالحبال. إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين، فلما اعتذروا، قال: لا تعتذروا فقد كفرتم بعد إيمانكم ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ وهم من تاب وأخلص الإيمان وترك النفاق، مثل: مخشي بن حمير الذي عفي عنه وسماه رسول الله عبدالرحمن. وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم مكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ أخرى من الذين لم يتوبوا ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرِّين على النفاق والاستهزاء والإرجاف بين المؤمنين.

(٦٧) ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي متشابهون في الدين كأبعاض الشيء الواحد على غير صفات المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإن المنافقين على العكس منهم تمامًا فهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعات ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي عن كل خير ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي تركوا ما أمرهم به ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي من رحمته وفضله وتوفيقه فعاملهم معاملة الناسي لهم المهمل لشأنهم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق إلى طريق الضلالة.

(٦٨) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي بسبب صنيعهم من الكفر وإضمار العداوة للمؤمنين ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مخلدين فيها خلودًا ليس له انتهاء ولا انقضاء ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة فيها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينفكُّ عنهم ولا ينتهي، وهذا جزاء نفاقهم وكفرهم بالله سبحانه وتعالى.

(١) ضعيف، مرسل عن قتادة.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ
كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَالَّذِي خَاضُوٓا أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ
نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(٦٩) ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هنا التفت من الغيبة إلى الخطاب، أي وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم، وأصاب هؤلاء المنافقين ما أصاب من قبلهم في الدنيا والآخرة ﴿كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ﴾ أي بنصيبكم ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي انتفعتم به كما انتفعوا به، والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع، وهذا نهاية في المبالغة بالتشبيه بين الفريقين بالذَّم ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا﴾ أي طعنتم في الدين كما طعنوا، وبتكذيب نبيكم كما كذبوا أنبياءهم، فاستمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا ﴿أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي بطلت أعمالهم، والمراد بالأعمال: ما عملوه مما هو في صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا، فإنها من المعاصي؛ ففي الدنيا الذل بدل العزّ، والفقر بدل الغنى، والضعف بدل القوة، وأما في الآخرة فيصيرون إلى عذاب النار ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة بفوات الثواب وحصول العقاب، وهذا هو التمكن من الخسران التام.

(٧٠) ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم يأت المنافقين خبر من كان قبلهم من الأمم المكذِّبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصاب مكذبيه من الغرق ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح لما كذّبوا هودًا عليه السلام ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة كما كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام، كيف نصره الله عليهم وأيّده بالمعجزات وأهلك ملكهم نمروذ الكنعاني لعنه الله ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلّة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام، وكانوا يسكنون سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم جميعًا بتكذيبهم رسلهم عليهم الصلاة والسلام ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي بإهلاكه إياهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بتكذيبهم الرسل، ولأن الله لا يظلم أحدًا؛ لأنه حرّم الظلم على نفسه ولكنهم خالفوا الحق فصاروا إلى العذاب والهلاك والدّمار، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم فصاروا بسببه إلى ما صاروا إليه.

(٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي يتناصرون. كما جاء في الحديث: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر» [٤٠٨]. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي بعكس المنافقين والكفار الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ أي يؤدُّون الصلاة ويحسنون إلى خلقه بالزكاة ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ في إسكانهم الجنة بما عملوا من البر والتقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته لكلٍّ من المؤمنين والمنافقين.

(٧٢) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار، كما في الصحيحين: «جنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن» [٤٠٩]. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضاء الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم المقيم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بالجنات الوارفات والرضاء من الله تعالى رضاءً لا يسخط بعده أبدًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

١٩٩

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، وجهاد المنافقين باللسان والحجة، ومن لم يستطع فليكفهرَّ في وجهه. والغلظة ضد الرأفة، وهي شدة القلب وخشونة الجانب. قيل: وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصفح والصلح ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وفي النهاية لا تأويهم إلا جهنم، وبئس المصير ذلك المأوى.

(٧٤) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ أي يحلف المنافقون بالله أنهم ما قالوا السباب التي بلغت رسول الله ﷺ ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام وإن كانوا كفارًا في الباطن من الأساس ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قيل: هو همُّهم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ أي وما للرسول عندهم من ذنب ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي كانوا فقراء مُعْوِزين فأغناهم الله لما قدم عليهم رسول الله ﷺ وصارت لهم أموال، ولو تمت عليهم السعادة لآمنوا حق الإيمان ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي إن يتوبوا عن النفاق ويؤمنوا فهو خير لهم، لأن التوبة تدخلهم الجنة ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ أي يعرضوا عن الإيمان ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسلب الأموال ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ﴾ يواليهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم وينجدهم ولا يدفع عنهم شرًّا.

(٧٥) ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ومن المنافقين من أقسم لئن أغناه الله من فضله ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي لَيَصَّدَّقَنَّ من ماله ويكون من العباد الصالحين الشاكرين أَنْعُمَ الله بالطاعة.

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فلما رزقه وأغدق عليه أموالًا طائلة لم يفِ ولا صدّق فيما ادّعى ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي وتولى عن طاعة الله وأعرض عمّا عاهد الله عليه فلم يتصدق أو يتزكَّ، وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا الذي عاهد الله بذلك هو ثعلبة بن حاطب الأنصاري، ولكن لم يثبت هذا فإن في حديثه رجلًا اسمه علي بن يزيد وهو شديد الضعف.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي فأعقبهم الله بسبب الذي وقع منهم والإعراض نفاقًا كائنًا في قلوبهم متمكنًا منها مستمرًا فيها إلى يوم القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي بإخلافهم وعودهم بالتصدّق، وبتكذيبهم لرسول الله ﷺ.

(٧٨) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي إنـه تعـالى أعلم بسرِّهم وضمائرهم من أنفسهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء.

(٧٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي هؤلاء المنافقين يعيبون المتبرعين من أموالهم وما أخرجوا من الصدقة؛ يقولون عن هؤلاء المسلمين المتصدقين: إنهم ما فعلوا هذا إلاَّ رياءً ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فإن جاء أحد بمالٍ جزيل قالوا: هذا مراءٍ، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فلا يسلم أحد من عيبهم ومن سخريتهم، كما في البخاري: «لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ...﴾» [٤١٠]. ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عاملهم معاملة من سخر منهم انتصارًا للمؤمنين في الدنيا، وأعـدّ للمنـافقين في الآخـرة عـذابًا أليمًا، لأن الجزاء من جنس العمل.

المنافقون: هموا بقتل الرسول، يخلفون بالوعد، لمازرون، عيابون

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا
مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ
﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

٢٠٠

(٨٠) ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لما نزل وعيد اللّمازين قالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت» [٤١١]. والمعنى إن استغفرت لهم يا محمد أو لم تستغفر لهم فكله سواء ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي إنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفارًا بالغًا في الكثرة، وقيل: إن التقييد بسبعين يفيد قبول الزيادة لقوله ﷺ: «لأزيدنَّ على السبعين» [٤١٢]. ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وإنَّ استغفار رسول الله لهم إنما كان على ظاهر إسلامهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن الطاعة.

(٨١) ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلّفوا عن الجهاد وقعدوا عن غزوة تبوك مخالفين رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بسبب الشحّ بالأموال وبسبب عدم الإيمان فضنّوا بأنفسهم، فصرفهم ذلك عن الجهاد ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي قال ذلك بعضهم لبعض لشدة الحر وعند طيب الظلال والثمار ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي نار جهنم أشدّ حرًّا، فكيف تفرّون من حر الدنيا اليسير إلى نار جهنم التي هي أشد حرًّا من حرّ تبوك، فلو كانوا يفقهون ذلك ما تخلّفوا عن الجهاد.

(٨٢) ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ وهذا تهديد ووعيد من الله تعالى، أي إنهم ضحكوا اليوم قليلًا في الدنيا بتخلفهم عن الجهاد فسيبكون في الآخرة كثيرًا، وهذا كناية عن العذاب الذي سيلقونه في الآخرة من النار العظيمة. وفي الحديث: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع، فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أنَّ سُفُنًا أزجيت فيها لجرت» [٤١٣]. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يكسبون من المعاصي.

(٨٣) ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي ردَّك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي ممن تخلّف منهم بالمدينة من المنافقين ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لما في استصحابهم من المفاسد، وتعزيرًا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي في تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي الفاسدين الذين تخلفوا عن الجهاد.

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أي إذا مات أحد منهم لا تصلّ عليه أبدًا ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ ونزلت هذه الآية في المنافق عبدالله بن أبيّ بن سلول، أي لا تصلِّ على أحد منهم، وكان الرسول صلَّى على عبدالله بن أبيّ متأوّلًا، فنزلت هذه بالمنع من الصلاة على المنافقين بعد هذا المنافق ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

(٨٥) ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وقد سبق تفسيرها عند الآية (٥٥)؛ فليعد من شاء إليها.

(٨٦) ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي إذا أنزل الله سورة، قيل: هذه السورة (براءة)، وفيها الأمر بالإيمان بالله ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ في غزواته كلما دعا الداعي إلى ذلك إعزازًا لدين الله ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي ذوو الغنى ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي قال القادرون على الجهاد اتركنا نظل مع القاعدين من النساء والأولاد والمرضى، أي رضوا أن يكونوا مع هؤلاء.

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ
الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ
مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ
مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى
الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

٢٠١

لا يعذر الأغنياء الأصحاء عن الجهاد بخلاف الذين لا يجدون ما يحملون عليه

(٨٧) ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي مع النساء والشيوخ والصبيان والمرضى والعجزة ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بسبب تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله وبما أضمروا من النفاق في قلوبهم، فطبع الله عليها بالنفاق الأبدي فلا يؤمنون أبدًا ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما فيه صلاحهم أو مضرتهم.

(٨٨) ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي وصحابته رضي الله عنهم ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي إن تخلّف المنافقين عن الجهاد لا يضر؛ فإن رسول الله وصحابته قد قاموا بأوامر الله تعالى وقاموا بفريضة الجهاد وأخلصوا النية وقدَّموا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ في الدار الآخرة بعد خيرات الدنيا ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالفردوس والدرجات العلى.

(٨٩) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري الأنهار من تحت قصورها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها بحياة خالدة لا موت فيها ولا انتهاء ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهل أعظم من هذا الفوز بالمغفرة والرضوان والفلاح في الجنات العلى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟

(٩٠) ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي أهل العذر الذين يسكنون البوادي جاءوا يبيّنون لرسول الله ﷺ ما فيهم من الأعذار وعدم القدرة على الخروج وهم أهل الأعذار الحقيقية ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي وقعد آخرون وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولا صدقوا ولم يجيئوا للاعتذار كما جاء أولئك ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم وكذبهم وجرأتهم على الله ورسوله لأنهم تخلفوا بغير عذر وإظهار علة لتخلفهم عن تبوك.

(٩١) ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهذا بيان للأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر الضعف في التركيب كالعمى والعرج، وهذا لازم في الشخص لا يبرأ منه، ثم ذكر ما هو عارض كمرض يمكن برؤه وفقر لا يقدر معه على تجهيز نفسه للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا أخلصوا النية فلم يُرجفوا بالناس ولم يثبِّطوهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ في حالهم ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ أي لا حجة لكم عليهم إذا لم يخرجوا معكم إلى الجهاد بسبب أعذارهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بإسقاط التكليف بالجهاد عن هؤلاء لعلمه تعالى بصدقهم.

(٩٢) ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي تعطيهم راحلة ليركبوها ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ليس لديَّ من الرواحل ما أحملكم عليها ﴿تَوَلَّوا﴾ أي ذهبوا من عندك والحزن يستولي على قلوبهم لأنك ما عندك ما تحملهم عليه ليجاهدوا في سبيل الله ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ أي ذهبوا عنك وأعينهم باكية لحرمانهم من الجهاد ووسائله من الرواحل ليركبوها ويستعينوا بها على الوصول إلى العدو الكافر، وذلك حزنًا على حالهم التي هم فيها من الفقر والحرمان ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ من المال ليقضوا به حوائج الجهاد. وفي الصحيحين: «إنَّ بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا، ولا سِرْتُم سيرًا إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر» [٤١٤].

(٩٣) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي إنما المؤاخذة والحجة قائمة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي لكن الحجة قائمة على الأغنياء الذين عندهم ما ينفقون على مستلزمات الجهاد من السلاح والراحلة ثم يستأذنونك بالتخلف عن الجهاد في سبيل الله ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي مع النساء وذوي الأعذار المبينة آنفًا ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي الختم عليها بالكفر جزاءً وفاقًا، لأنهم استحبوا الكفر على الإيمان ورضوا بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ﴿فَهُمْ﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما فيه مصلحتهم حتى يختاروه ويعملوا به.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا
لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا
حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ
لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٢٠٢

(٩٤) ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي سيعتذر المنافقون للمؤمنين عن تخلفهم عن الجهاد ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لا يجدي اعتذاركم فلن نصدقكم؛ لأننا ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي لقد أخبرنا الله بأحوالكم وحقيقتكم بما أوحاه إلى نبينا ﷺ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي ما ستفعلونه من الأعمال، أتبقون عليها أم تقلعون عنها؟ وسيظهر الله ما تبطنون منها للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو الله جل جلاله ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال خيرها وشرها سرها ومعلنها.

(٩٥) ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي عن تأنيبهم وتوبيخهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقارًا لهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ إشارة إلى نجاسة بواطنهم واعتقاداتهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي مأواهم جهنم بما يكسبون من الآثام والخطايا والذنوب.

(٩٦) ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ بيّن الله أن مقصدهم بهذا الحلف هو إرضاء المؤمنين عنهم ولكن الله لا يرضى عنهم وعلى المؤمنين ألا يرضوا عنهم تبعًا لمرضاة الله في عدم الرضا عن أولئك المنافقين الفاسقين الخارجين عن طاعة الله تعالى، فمثل هؤلاء لا يرضى عنهم المؤمنون.

(٩٧) ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أخبر تعالى أن في الأعراب كفارًا ومنافقين ومؤمنين، وإن كفرهم ونفاقهم أعظمُ من غيرهم وأشدُّ ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي إنهم أحرى أن لا يعلموا حدود الله لأنهم أقسى قلوبًا، وأغلظ طباعًا وأجفى قولًا، وأبعد عن سماع كتاب الله. والأعراب هم سكان البوادي، فإذا قلت لأعرابي: يا عربي فَرِح، وإذا قلت للعربي: يا أعرابي غضِبَ، لأنهم سكان المدن والقرى، والأعراب سكان البوادي فمن كانت هذه صفاتهم، فأحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله في كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بمن خلق، حكيم في صنعه بهم. وفي الحديث: «من سكن البادية جفا» [٤١٥].

(٩٨) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي ومنهم من يرى أن الإنفاق في سبيل الله غرامة وخسارة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي يرتقب بكم المصائب أن تحل ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي هي منعكسة عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعاء عباده وما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه خيرًا كان أو شرًا.

(٩٩) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهذا هو النوع الثاني من الأعراب، أي يصدّق بوجود الله تعالى وأنه وحده هو المعبود. ويصدق باليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي يجعل ما ينفقه في سبيل الله تعالى ﴿قُرُبَاتٍ﴾ أي لحصول التقرب منه تعالى ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي تدخر عنده ودائع يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي دعواته لهم. وفي الحديث: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفَى» [٤١٦]. ثم بيَّن الله سبحانه بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقربًا إلى الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي أخبر الله سبحانه بقبولها عنده، وهي القربات، أي النفقات والصلوات والدعوات منه ﷺ كل ذلك يؤكد قبولها منه سبحانه، ووعده سبحانه وتعالى بأنه ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي سيدخلهم في جنته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لأهل طاعته وتقاه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم لأنهم أهل لمغفرته ورحمته.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ
لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ
مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ
نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٖ ١٠١ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢
خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ
ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦

(١٠٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ وإن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون ثم البدريون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي إلى يوم القيامة، فساروا على سيرتهم وتمسكوا بهديهم، فكان جزاؤهم أن ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ أي قَبل طاعاتهم وتجاوز عن سيئاتهم، ولم يسخط عليهم ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بما أعطاهم من فضله ومع رضاه عنهم فقد زادهم من فضله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي من تحت قصورها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الخالد المؤبد. وأي فوز أعظم من الفوز بالجنة!؟

(١٠١) ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ أي يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي لم ينثنوا عنه واستمروا عليه ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡ﴾ لأنهم مهروا في النفاق حتى خفي أمرهم على رسول الله ﷺ، فكيف على سائر المؤمنين، والمراد عدم علمه بأعيانهم لا من حيث الجملة، فقد يعرف قسمًا منهم توسُّمًا بما وصفهم الله تعالى في الآيات الأخرى ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾ لأنه يعلم ما تخفي الضمائر وما تنطوي عليه السرائر. ثم توعَّدهم فقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ وفي الحديث: «قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: اخرج يا فلان فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق. فأخرج من المسجد ناسًا منهم فضحهم» [٤١٧]. قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني: عذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ في الآخرة وهو الخلود الأبدي في النار.

(١٠٢) ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي أقروا بها فيما بينهم وبين الله، ولهم أعمال أُخَر صالحة خلطوها بتلك، فهم تحت عفو الله وغفرانه ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ والمراد بالعمل الصالح ما تقدّم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن. والمراد بالعمل السّيء هو تخلفهم عن غزوة تبوك وقد أتبعوا هذا العمل السيء عملًا صالحًا وهو الاعتراف به والتوبة منه ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ وعسى في كلام الله سبحانه يفيد تحقيق الوقوع وهو أكرم الأكرمين ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر الذنب ويرحم.

(١٠٣) ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وهذا عام في كل من يخلط عملًا صالحًا بآخر سيء. والتطهير: إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب. والتزكية هي المبالغة في التطهير، والمعنى أن تأخذ يا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ادعُ لهم بعد الصدقة ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ أي رحمة لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لدعائك عليم بمن يستحقُّه منك. ويُروى أن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجلَ وولده وولدَ ولده [٤١٨]، أي يرحم الله تعالى بها كل هؤلاء والحمد له.

(١٠٤) ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه. وفي الحديث: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتكون مثل أُحُد» [٤١٩]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والتَّواب صيغة مبالغة في التوبة والرحيم كذلك، وفي هذه الآية البشرى لتوبة الله تعالى ورحمته بهم.

(١٠٥) ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وذلك يوم القيامة كائن لا محالة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو الله تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي يخبركم بما سبق من أعمالكم في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ويتفضّل على من يشاء من عباده.

(١٠٦) ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ وهم الثلاثة الذين خلّفوا عن التوبة وقعدوا عن غزوة تبوك لا شكًّا، وإنما كسلًا وميلًا إلى الدعة والظلال، فأرجئ هؤلاء عن التوبة لأمر الله تعالى ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق العقوبة أو العفو ﴿حَكِيمٞ﴾ في أفعاله وأقواله.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

٢٠٤

(١٠٧) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي مضارّةً للمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله والمباهاة لأهل الإسلام ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الذين اتخذوا هذا المسجد أرادوا ألاّ يحضروا مسجد قباء فتقلّ جماعة المسلمين ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الراهب الذي أبى أن يؤمن وهرب إلى قريش ثم إلى هرقل وحرّضه على قتال المسلمين. وبُني مسجد الضرار معقلًا ومرصدًا لأبي عامر الراهب الذي أرسل إلى المنافقين ببنائه بجوار مسجد قباء بانتظار قدومه إليهم بجيش من هرقل، ولما فرغوا من بناء المسجد أتوا رسول الله ﷺ وسألوه أن يصلي فيه، فقال: «إنّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» [٤٢٠]. وفي عودته من تبوك وعلى مسافة بعض يومٍ من المدينة نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما عزم بانوه من الكفر وتفريق المسلمين، فبعث رسول الله ﷺ من هدمه قبل وصوله المدينة ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي إلاّ خيرًا ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما حلفوا عليه من الكذب.

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وهذا نهيٌ له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي فيه أبدًا، ثم حثّه على الصلاة بمسجد قباء، بقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث: «صلاة في مسجد قباء كعمرة» [٤٢١]. وفي حديث آخر: «أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا» [٤٢٢]. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ أي من الغائط فيغسلوا فروجهم بالماء ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ من الطهارتين: الحسية كإزالة النجاسات، والمعنوية كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة. وإذا كان مسجد قباء هو أول مسجد أسس على التقوى فمسجد رسول الله أولى وأحرى وأفضل وأعظم.

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي كان على نية صالحة وإخلاص وموافقة لأمره تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ أي أفضل ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ لا شك أن من أسس بنيانه على تقوى من الله أفضل وأخير ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يهدي من اختار الكفر على الإيمان وظلم نفسه.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكًا وريبًا ماكثًا في قلوبهم ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي كناية عن موتهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم بما يستحقون.

(١١١) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ أي اشترى أرواحهم وأموالهم بالجنة ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي إنه تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم مقابل مقاتلتهم الكفار في سبيله فيقتلون الكفار ويقتلُهم الكفارُ ولهم جزاء ذلك الجنة التي عرّفها لهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكان ذلك منه تعالى ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي أحق سبحانه على نفسه الكريمة هذا الحق وذكره وأنزله على رسله في كتبه التي أنزلها وهي أكبر الكتب المنزلة، وهي التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد في العالمين إطلاقًا أوفى فيما وعد من الله تعالى ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ أي فيما تبايعتم به مع الله من البيع والشراء، فأبشروا بالجنة التي وعدكموها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي دخولكم الجنة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الفلاح والنجاح والنعيم المقيم.

التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ
وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن
يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ
﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ
مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

٢٠٥

(١١٢) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ التائبون من الذنب إذا أذنبوا والعابدون الله كما أمر وبإخلاص لوجهه الكريم ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ ربهم في السراء والضراء ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ والمراد به الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهذا هو المراد بالسياحة هاهنا كما وصف أزواج النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ [التحريم: ٥]، وإنَّ للسياحة معنى آخر وهو الجهاد في سبيل الله، ففي الحديث: إن رجلًا قال: يا رسول الله ائذن لي بالسياحة، فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» [٤٢٣]. وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه البعض: السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا أيام الفتن والزلازل في الدين ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهم المصلون ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي القائمون بأمر الناس بما هو معروف في الشريعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: القائمون بالإنكار على من فعل منكرًا ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ في تحليله وتحريمه علمًا وعملًا، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، أي بَشِّرْ مَنْ هذه صفاته وسجاياه مع الإيمان بالجنة.

(١١٣) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ أي ما ينبغي للنبي ولا للذين آمنوا أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ولو كانوا من أقرب القربى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي من بعدما تبين لهم أن الذين يطلبون المغفرة لهم من الله تعالى هم من المشركين الذين ماتوا على شركهم واستحقوا النار. وفي الحديث عن قتادة مرفوعًا: «قد أوحى الله إليَّ كلمات فدخلن في أذني، ووَقَرْنَ في قلبي -إلى قوله-: أمرت ألّا أستغفر لمن مات مشركًا»(١) [٤٢٤]. فلا يجوز بعد هذا أن يستغفر مؤمن لمشرك.

(١١٤) ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي إن إبراهيم عليه السلام ما استغفر لأبيه إلّا بعد ما وعده أبوه أنه سوف يؤمن ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ أي ولما تأكد إبراهيم أن أباه معادٍ لله تبرأ منه. وعن قتادة أيضًا مرفوعًا: أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبيَّ الله، إنَّ مِن آبائنا مَنْ كان يحسن الجوار ويصل الأرحام، ويفكُّ العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال ﷺ: «بلى والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾، ثم عذر الله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ...﴾ الآية(٢) [٤٢٥]. فنهاه الله عن الاستغفار لأبيه فتبرأ منه كما تبرأ إبراهيم من أبيه. وهكذا فإنَّ كلَّ مَنْ مات على الشِّرك فهو في النَّار.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ أي ما كان ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يتقدم إليكم بالنهي فتتركوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ بمَنْ منهم مستحق الإضلال، أو مستحق الهداية.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ هذا تحريض من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين، وأن يثقوا بنصر الله مالك السماوات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا وليّ لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه.

(١١٧) ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ أي يوم غزوة تبوك، فقد كانوا في أشد العسر ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي عن الحق ويشك ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي رزقهم الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه إنه رؤوف بعباده المؤمنين، رحيم بهم.

---

(١) مرسل.
(٢) مرسل.

سورة التوبة

نهى الله رسوله أن يستغفر لأبويه، لا يقضي الله بالإضلال إلا بعد إقامة الحجة

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ
بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم
مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ
عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ
وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ
ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ
فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

٢٠٦

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي وتاب على الثلاثة الذين خلّفوا وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بقبولها منهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ من إثم التخلف عنه ﷺ وإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من قبل أحد لأنه ﷺ نهى الناس أن يكالموهم، وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديبًا لهم لينزجروا ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي وعلموا ذلك ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي قَبِلَ توبتهم ورحمهم ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ في المستقبل، عن أية ذنوب تفرط منهم ويرجعوا إلى الله فيها ويستقيموا فلا يرجعوا إلى ما يبطلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على من تاب.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين يكون بعد قصة الثلاثة الذين خلفوا، فيه الإشارة إلى أن هؤلاء حصلت لهم التوبة من الله بالصدق، وظاهر الآية أن الأمر فيها للعموم. وفي الحديث: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذّابًا» أخرجاه في الصحيحين [٤٢٦].

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعاتب الله المتخلفين عن غزوة تبوك عامة ورغبتهم بأنفسهم عن الجهاد، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي عن نفس رسول الله ﷺ، بل كان يجب أن يجاهدوا معه ويواسوه فيما حصل من الشدة والمشقة، فإنهم حرموا أنفسهم من الأجر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ أي عطش ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ أي تعب ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ أي مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي تقربًا إليه ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي ينزلون منزلًا يرهب عدوّهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ أي ظفرًا عليه ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ أي ثواب على ذلك كله، فضيّعوا على أنفسهم هذا الثواب الذي لا يقدّره إلّا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين يعملون لوجهه الكريم وفي سبيله وحده.

(١٢١) ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ أي قليلًا ولا كثيرًا من الأموال في سبيل الله، وهذا عطف على ما قبله من العمل ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي نحو الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ أي كتب لهم كامل الأجر، فلو أن المتخلفين خرجوا إلى الجهاد لأصابهم من الأجر ما أصاب الذين جاهدوا ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاءً مما عملوا من الأعمال، ولكن المتخلفين حرموا أنفسهم من هذا الأجر العظيم، عدا عما سينالهم من العقوبة.

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾ وسبب نزولها: أن رسول الله ﷺ أرسل سريّة بعدها، فنفر الناس جميعًا، فنزلت، والمعنى: أنه لا يصح أن ينفر المؤمنون كافة ويتركوا المدينة خالية ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ﴾ أي فهلّا نفر ﴿مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ ويبقى من عداهم ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي طائفة تخرج إلى الغزو وطائفة تبقى واقفة نفسها لطلب العلم ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي ويعلّمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ من الوقوع بالتفريط فيما يجب فعله فيترك، أو ما يجب تركه فيفعل، والله أعلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ
إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ
ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سورة يونس — ترتيبها ١٠ — آياتها ١٠٩

٢٠٧

(١٢٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ من بعد أن استقر الإسلام في الجزيرة العربية ودخل الناس في دين الله أفواجًا، شرع في قتال أهل الكتاب، وأقرب من يلي المسلمين منهم هم الروم، فتجهز رسول الله لقتالهم، فبلغ تبوك ثم عاد للجهد الذي بلغ الناس وقتئذ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم التحق بربه بعد حجته بواحد وثمانين يومًا، فخلفه أبو بكر فكان لزامًا عليه أن يكمل الخطى التي بدأها رسول الله بتجهيز جيش أسامة بن زيد، وهكذا توالى الفتح في كل عهود الخلفاء الراشدين ومن بعدهم منفذين أمر الله في قتال من يلونهم من الكفار؛ الأدنى فالأدنى ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي في القتال، لأن الحرب لا تقتضي الرحمة بالمقاتلين بخلاف غير المقاتلين من الشيوخ والنساء والصبيان، فالرحمة بهم أوجبها الإسلام. ففي الحديث: «أنا الضحوك القتّال» [٤٢٧]. أي الضحوك في وجوه المؤمنين والضعفة غير المقاتلين، والقتّال لهامات عدوّه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وهذه بشرى بالنصر على الكافرين، لأن الله مع المتقين بنصره وتأييده، أي إن الله معكم إذا اتّقيتموه.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ أي يقول بعضهم لبعض: أي آية من هذه الآيات زادتكم إيمانًا وتصديقًا بها؟! ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إلى إيمانهم، وهذا نص في زيادة الإيمان ونقصه ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يستبشرون بهذه الآيات بنزول الوحي وما فيه من المنافع.

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي نفاق وكفر ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي خبثًا إلى خبثهم وشكًّا إلى شكّهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي مستمرون على كفرهم.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي ما بال هؤلاء المنافقين: ألا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة ينافقون ثم يؤمنون وينافقون مرة بعد أخرى ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم فيؤمنوا ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتذكرون فيتوبوا مما هم فيه.

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي من القرآن ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي تلفتوا يمنة ويسرة ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ يريدون الهرب من دون أن يراهم أحد. ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أي خرجوا من المكان الذي هم فيه معوّلين على الاستمرار في عداوة رسول الله ﷺ ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي صرفها عن الإيمان جزاءً وفاقًا من جنس العمل ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون وهم في شغل في نفاقهم عن دعوة الحق.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي منكم وبلغتكم ومن أنفس نسب فيكم. وفي الحديث: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح؛ من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يمسني من سفاح الجاهلية شيء» [٤٢٨]. وهذا يفيد أن الأنبياء معصومون من أن ينحدروا من زنى، فلزم أن تكون أمهاتهم معصومات من الزنى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعزُّ عليه الشيء الذي يشقُّ على أمته. وفي الحديث: «بعثت بالحنيفية السمحة»(١) [٤٢٩]. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على هدايتكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ذو رأفةٍ بكم ورحمة.

(١٢٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عما جئت به من الحق ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي يكفيني وحده ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي أوكلت جميع أموري إليه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه وربُّه وربُّ العالمين.

آخر تفسير سورة التوبة ولله الحمد والمنّة والفضل

وينتهي بذلك الثلث الأول من هذا التفسير، وذلك عصر يوم الثاني عشر من جمادى الأولى عام ألف وثلاثمئة وست وتسعين للهجرة. نسأل الله أن يعيننا على الوصول به إلى نهايته. إنه سميع مجيب.

---

(١) ضعيف.

(١٠) سُورَةُ يُونُسَ

مكية إلا الآيات ٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦ فمدنية وآياتها ١٠٩، نزلت بعد الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

(١) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أما الحروف المقطعة فقد تقدم الكلام عليها في أول سورة البقرة ﴿تِلْكَ﴾ أي هذه آيات القرآن الحكيم.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أي ليعجبون ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ هو محمد ﷺ ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي خوفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بك يا محمد ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي لهم جزاء موفور وثواب مذخور بما قدموا وأسلفوا من العمل الصالح ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي فهو عنده مدخر لهم، فبعد أن تعجبوا من إرسال رسول منهم ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا﴾ أي محمدًا ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ساحر ظاهر السحر سحرهم بما نزل عليه من الآيات البينات البالغات.

(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن الله الذي له قدرة خلق السماوات والأرض ومن فيهن وما بينهن، فكيف يكون إرسال رسول من جنسهم محلًا للتعجب منه؟! مع أن الكافرين يعترفون بهذه القدرة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا عليه استواء حقيقيًا معلومًا في حقيقته، مجهولًا في كيفيته ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ من السماء إلى الأرض ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ من مخلوقاته يشفع ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي لا أحد يشفع لأحد إلا من بعد أن يأذن له الله بالشفاعة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي هذا الذي خلق كل ما تقدم هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم بنعمه وأغدق عليكم من رزقه ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي كما أنه خلق وأنعم ورزق وحده، لزم أن تعبدوه وحده لا شريك له في جميع أنواع العبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه هو الرب وحده والمنعم وحده والمتفضل وحده، وكل ذلك تعلمونه تمامًا فلمَ لا تعبدونه وحده؟ بل تشركون به ما تهوون من خلقه؟!

(٤) ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ لا يبدَّل ولا يغيَّر ولا بدَّ كائن ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الفناء كما كان ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والفضل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ماء بالغ نهاية الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي وعذاب موجع لا يطاق خالد مؤبد بسبب ما كانوا يكفرون بآيات الله تعالى التي أنزلها على رسوله ﷺ.

(٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ أي ضياءً من ذاتها ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي نورًا مستفادًا من ضياء الشمس ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي قدّر القمر منازل ينزل كل ليلة منزلًا لا يتخطّاه ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فبجريان الشمس والقمر تعرف الأيام والشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لم يكن ذلك عبثًا، بل لحكمة بالغة ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي يبيّنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يستدلون بآياته عليه، ويعني بالشهور: أي الأشهر العربية الإسلامية التي أولها المحرم ... إلخ.

(٦) ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بالمجيء والذهاب والطول والقِصر ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات التي لا تعدُّ ولا تحصى في السماوات والأرض وما بينهما من الكائنات ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي لدلائل على عظمته تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ عقابه وعذابه.

عجب الكفار أن يكون الرسول بشرًا، أتعبدون غير الله وتعلمون أنه المتفرد بالخلق

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ
ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ
ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟
لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ
خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي الذين كفروا بالبعث ولقائه تعالى يوم القيامة ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي هذه الحياة الزائلة الفانية ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أي سكنت أنفسهم إليها وفرحوا بها. ثم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أي لا يعتبرون بها ولا يتفكرون.

(٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتقدم ذكرهم ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مكان إقامتهم جهنم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في دنياهم من الكفر والآثام.

(٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره إيمانًا تامًّا راسخًا في القلوب ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وحققوا الإيمان بالعمل فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجوا البيت مع الاستطاعة، وجاهدوا في سبيل الله، ودعوا إلى دينه، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وصبروا على الدعوة في سبيله ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المنضم إليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت قصورهم وبساتينهم وسررهم المرفوعة ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ التي لا تفنى ولا تنقضي ولا تزول.

(١٠) ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي دعاؤهم في الجنة. وفي الحديث: «إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم» [٤٣٠]. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي تحيتهم فيما بينهم أو تحية الله لهم في الجنة: سلام عليكم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين. أي هو مستوجب الحمد كله ومستوفيه. وفي الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتمجيد كما يلهمون النفس» [٤٣١]. فلا إله إلاّ هو ولا ربَّ سواه.

(١١) ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ أي لو يستجيب لهم دعاءهم على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي بقدر استجابته لهم بالخير، لأهلكهم، ولهذا جاء في الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة، فيستجيب لكم» [٤٣٢]. فلا ينبغي الدعاء على النفس والولد والمال، وقوله تعالى: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي لاستجاب لهم دعاءهم على أنفسهم وأميتوا. ولكن لا يعجّل لهم الشر ولا يقضي إليهم أجلهم ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي نتركهم ونمهلهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في تطاولهم وتكبرهم وفي عمى قلوبهم يتردَّدون ويتحيَّرون استدراجًا منه وخذلانًا.

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي مضطجعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي على كل حال ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ أي ما كان يشكو منه ﴿مَرَّ﴾ أي استمر على كفره ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي كأنه لم يدعنا من أجل رفع ضرّه ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي حلّى في نظرهم ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من كفر وإعراض.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي لما ظلموا أنفسهم بالكفر ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الآيات الباهرات ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي ما كانوا ليصدِّقوا بها ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما أننا أهلكنا أولئك، فكذلك نفعل بكم كما فعلنا بهم.

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأولئك الأقوام الذين أهلكناهم بكفرهم وإعراضهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي نحن نعلم ماذا ستعملون ولكن لنقيم عليكم الحجة من أعمالكم خيرًا كانت أو شرًا ونجازيكم عليها.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي
أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا
عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا
فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ
النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

(١٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات الحجج والدلالة ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي بدِّله إلى وضع آخر، ذلك لما سمعوا من هذا الكتاب ذم عبادة الأوثان وقد تولَّى الله الرد عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد قل لهم: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ أي ما ينبغي لي أن أبدله ﴿مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قبل الله تعالى من غير تبديل ولا تحريف ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بتبديل كلامه أو تحريفه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي عذاب يوم القيامة.

(١٦) ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما قرأته عليكم ولا بلغتكم إياه، فالأمر كله منوط بأمره ومشيئته، ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي ولا أعلمكم به ولا أخبركم، وإنكم لتعلمون أمانتي وصدقي ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزول القرآن لا أحدثكم بشيء ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تُجرُون عقولكم على عدم تكذيبي، فلو كنت أريد أن أكذب عليكم لفعلته من قبل. كما قال هرقل إلى أبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا. فقال هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله!! [٤٣٣].

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي لا أحد في العالمين أظلم ممن يفتري على الله بأنه أوحي إليه وهو لم يوحَ إليه شيء، وكذلك من كذَّب بالوحي المنزل من الله على من يشاء من عباده، أي لا أحد أظلم منه أيضًا ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذان الصنفان من الناس: مدَّعي النبوة، ومكذِّب النبي الصادق، هم المجرمون ولن يفلحوا أبدًا، أي لا يدخلون الجنة. وفي الحديث: «أعتى الناس على الله رجل قتل نبيًا أو قتله نبي» [٤٣٤].

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع ولا يملك شيئًا ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي يشفعون لنا عند الله، وهذا غاية الجهل منهم إذ ينتظرون الشفاعة ممَّن لا يضر ولا ينفع، ويتوسَّلون بهم لإصلاح حالهم عند الله، وفي الواقع أنه لا يقع شيء مما يزعمون ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أتخبرون الله بأنَّ له شركاء أو شفعاء بغير إذنه والله سبحانه لا يعلم أن له شريكًا أو شفيعًا بغير إذنه من جميع مخلوقاته العلوية والسفلية ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي يتنزه الله تعالى عما يشركون به.

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي كانوا جميعًا على الإسلام أي من آدم إلى نوح ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ أي ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي لولا سبق في حكمه تعالى أنه لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وأنّه قد أجل الخلق إلى أجل معلوم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإقامة الساعة عليهم.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني المشركين ﴿لَوْلَا﴾ أي هلَّا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي يحوِّل لهم الصفا ذهبًا أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا مع أنهم شاهدوا من معجزاته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة البدر فانشق فرقتين ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي نزول الآية غيب وهو المختص به ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لقضائه تعالى بي وبكم.

ليس للرسول أن يبدل القرآن من عنده، شفعاؤكم لا ينفعونكم، أتخبرون الله بما لا يعلم؟!

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ
ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ
وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ
ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾
إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ
زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ
أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ
بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ
يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾

٢١١

(٢١) ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ عافية وسرورًا وخصبًا ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ من مرض وفقر وبلاء وجدب وقع بهم ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي فعلوا مقابل رحمة الله والنعمة العظيمة مكرًا في آيات الله، أي نسبوا تلك النعم التي أفاءها الله عليهم إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر وطعنوا في آياته سبحانه، ومكروا بها وقد تولّى الله الإجابة، فقال عزّ من قائل: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهم: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ بكم، أي أعجل عقوبة وأسرع انتقامًا، والمكر صفة لله تعالى، يدبر لهم الانتقام وهم لا يعلمون، بينما مكرهم لا يخفى على الله تعالى، ولذا فإنّ مكر الله أسرع وأوقع بهم، وهكذا فإنّ مكر الله لا يشبّه بمكر خلقه ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ أي إن الملائكة يكتبون مكركم ولا يخفى عليهم ذلك المكر، فكيف يخفى على الله تعالى وهو العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا إله غيره ولا رب سواه[1].

(٢٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أما تسييرهم بالبر فبما خلق لهم من الدواب وغيرها، وأما تسييرهم في البحر فبإلهامهم عمل السفن التي يمخرون بها في لجج البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ أي ليست بريح عاصفة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ أي واطمأنوا للينها ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ أي ريح شديدة مدمّرة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي من جميع جهات البحر ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي وتحققوا أنهم دنوا من الهلكة وأشرفوا على الموت ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي لا يشركون به أصنامهم لعلمهم أنهم لا ينجيهم من هذا الكرب إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ولكن هناك طوائف في المسلمين يعتقدون بالأموات!!! فإذا جدّ لهم في البحر أو البر خطر وأشرفوا على الهلاك يدعون أمواتهم لكشف ما بهم من ضر ولا يدعون الله تعالى؛ لدرجة أصبحوا فيها أضل من مشركي الجاهلية الذين كانوا يشركون في السرّاء ويوحّدون في الضراء، أما مشركو زماننا فيشركون في السراء والضراء، فلا حول ولا قوة إلا بالله ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ أي يدعو الكفار الذين هم في الفلك وينادون الله: لئن أنجيتنا من هذه الكربة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لنفردنّك بالعبادة ولا ندعو معك أحدًا ونطيعك في ما تحب وترضى من العمل.

(٢٣) ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي إذا هم يعودون إلى شركهم الأول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي الوبال عليها ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي إنما لكم متاع الحياة الدنيا فحسب ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي معادكم بعد الموت ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي فنخبركم بأعمالكم ونجازيكم عليها بما تستحقون من العقوبة.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مثلها في سرعة ذهابها فشبّهها بمطر اختلط بنبات الأرض، واشتبك بعضه ببعض ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ من الحبوب والثمار والتبن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي حسنت بما يخرج منها من الزهور والألوان والمعادن من الذهب والفضة والمعادن المختلفة ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أي وأيقن أهل الأرض أنهم قادرون على التحكم بها متمتعون بخيراتها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ فأهلكناها، فأصبحت ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي فعاد الذي كان كأن لم يكن ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي نبيّنها ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل.

(٢٥) ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي إلى الجنة ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ عن حكمة وعدل وفضل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مخرج من الضلالات والشبه إلى الحق واليقين.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. فلا يشتق من صفة المكر اسمًا لله فيقال: الله ماكر، بل يقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ
كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ
ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدَۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ
ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ
فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ
فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

٢١٢

الحسنى: الجنة، والزيادة: رؤية الله فيها، براءة المعبودين من العابدين

(٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي إن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، الحسنى في الدار الآخرة. والزيادة على الحسنى هي النظر لوجه الله الكريم، وهذا مرويٌ عن أكابر الصحابة. وفي الحديث: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ» [٤٣٥]. وفي الحديث الآخر: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن يُنْجِزَكُمُوه فيقولون: وما هو... ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ -قال-: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه. فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم» [٤٣٦]. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي لا يغشى وجوههم سواد ولا قتام ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي ولا هوان ولا ذل أو خضوع أو انكسار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي المتقدم ذكرهم هم أصحاب الجنة الخالدون.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي يجازى سيئة واحدة، بسيئة واحدة لا يزاد عليها أبدًا. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي وتعلوهم ذلة من معاصيهم خوفًا منها، وهوان وخزي ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يمنع عنهم أو يقيهم من عذاب الله ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي ألبست وجوههم قطعًا من الليل المظلم لسوادها العالق عليها من دخان جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي المتقدم ذكرهم هم أصحاب النار والذين هم فيها -أي في جهنم- ماكثون أبدًا بعذاب مقيم.

(٢٨) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميع أهل الأرض من أولهم إلى آخرهم وإنسهم وجنّهم وعابد منهم ومعبود ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم عابدين ومعبودين ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي فرّقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا. ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي ما كنا نعلم بعبادتكم لنا، ولا دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك. هذا ما يقوله المعبودون الذين ما دعَوا ولا أمروا ولا رضوا أحدًا أن يعبدهم من دون الله.

(٢٩) ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أننا ما كنا نعلم بعبادتكم إنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ والمراد بالغفلة عدم الرضا بما فعله المشركون من عبادتهم.

(٣٠) ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي تخبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها خيرًا كان أو شرًا ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي معبودهم الحق الذي كان يجب أن يعبدوه وحده فيحكم بينهم بالعدل، فيدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ذهب وتخلّى عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ على الله في عبادتهم لهم من دون الله، سبحان الله عما يشركون.

(٣١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من ينزل المطر فيخرج به الحب والزرع والثمر ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي من وهبكم سمعكم وأبصاركم ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي من يخرج الثمر من النواة، والنواة من الثمر والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ من السماء إلى الأرض ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فتعبدونه وحده.

(٣٢) ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي فهذا الذي اعترفتم له بالخلق والتدبير هو ربكم الحق، لا أولئك المعبودون بالباطل ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي فكل معبود سوى الله باطل وكل عبادة لغيره هي الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تنصرفون عن عبادته إلى غيره وأنتم تعلمون أنه ربكم وحده.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي على الذين هم اختاروا الخروج عن طاعة الله ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جزاءً وفاقًا لهم على اختيارهم الباطل على الحق.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ
إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن
يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ
فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾
بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾
وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

﴿٣٤﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي قل لهم يا محمد: هل فيمن تعبدون مِنْ دون الله مَنْ يخلق كخلق السماوات والأرض ثم يفنيهما ثم يعيدهما من جديد؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وحده ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الضلال وأنتم تعلمون.

﴿٣٥﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا: لا ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ دون غيره وأنتم تعلمون ذلك، وأنه لا يهدي الحيارى، ولا يقلب القلوب من الغي إلى الرشد إلا الله وحده لا شريك له ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي أفيتبع من يهدي إلى الحق، ويبصّر من العمى أم يتبع الذي لا يهدي إلى شيء، إلا أن يُهدى من قبل غيره؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي كيف سويتم بين الله وبين خلقه؟ فكيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله؟

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي مجرد الظن والتخمين ولم يكن ذلك عن بصيرة، بل عن تخيُّل وتوهُّم ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ لأن أمر الدين إنما يُبنى على العلم، وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يدرك به الحق، ولا يغني عنه شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على فعلهم بما يستحقون.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وكيف يصح أن يكون مفترى، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القومُ الذين هم أفصح العرب لسانًا وأدقهم أذهانًا؟ ﴿وَلَٰكِن﴾ كان هذا القرآن ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمنًا عليها، ومبيّنًا لما وقع فيها من التحريف والتبديل ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لا شك ولا مرية فيه أنه من رب العالمين، فيه بيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا.

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم والتقريع والتوبيخ، أي يدّعون أنه اختلقه محمد من عند نفسه فردّ الله تعالى عليهم متحديًا ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي فهيا وعارضوا سورة من مثله ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ واستعينوا بمن استطعتم من إنس وجن وادعوهم لأن يأتوا بسورة مثله. وفي الحديث: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا» [٤٣٧].

﴿٣٩﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبّروه ويحصلوا على ما فيه من الهدى ودين الحق جهلًا وسفهًا ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من سوء العاقبة وما حلّ بهم.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي سيؤمن به، أي بالقرآن والمقصودون قريش ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ فيموت على ذلك ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وإنه سبحانه الذي يعلم ما في الصدور، يعلم المفسد منهم من المصلح وسيجازي كلًّا بما يستحق وهو العادل الذي لا يجور.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي أصروا على تكذيبك واستمروا عليه ﴿فَقُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، وقد نسخت هذه الآية آية السيف ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أنتم تبرأون مما أعمل من الإيمان بالله تعالى وأنا أبرأ إلى الله تعالى مما تشركون به من الأنداد. وهذا أيضًا قبل نزول آية السيف.

﴿٤٢﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ولكن لا يسمعون في الحقيقة سماع فهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي كأنهم الصمُّ ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فكيف يسمعون أو يعقلون؟

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ
ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

٢١٤

(٤٣) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ومن الكفار مَنْ ينظر إليك ببصره ولكن كراهيته وبغضه لك صار كالأعمى، فأعمى الله قلبه عن الحق وسلبه التوفيق إليه جزاءً وفاقًا، فمن كان حاله هكذا أفتستطيع أن تهديهم إلى الصراط المستقيم.

(٤٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ حاشاه سبحانه وتنزه وتقدّس عن الظلم. وفي الحديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا -إلى قوله- يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه» رواه مسلم بطوله [٤٣٨]. ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين يظلمون أنفسهم بكفرهم.

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الله يوم القيامة ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي كأن لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار لاستقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي هو تعارف التوبيخ، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني، لا تعارف شفقة ورأفة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأردوها مقاتلها بعدم إيمانهم بالبعث وتكذيبهم به ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق لجهلهم بما ينجيهم.

(٤٦) ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي إما نريك انتقامنا منهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي وإما لا نريك انتقامنا منهم في الدنيا ولكن ننتقم منهم في الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ بعدك فيحصي عليهم أعمالهم ويحاسبهم عليها يوم القيامة ويجازيهم عليها بما يستحقون.

(٤٧) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أرسله الله إليها يبلّغهم الحق في الدنيا ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير أو شر ويُقضى بينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فتيلًا.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي وعد الانتقام بالعذاب في جهنم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي إن كنت يا محمد وأتباعك صادقين بذلك، وكأنهم يستعجلون ما يوعدون!!

(٤٩) ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لا أقدر على جلب نفع ولا دفع ضر عن نفسي، فكيف أقدر أن أملك ذلك لغيري ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما شاء الله من ذلك كان، وفي هذه الآية أعظم زاجر لمن ينادي رسول الله ويستغيث به بما لا يقدر على تحصيله إلاّ الله، وهو الذي أمره الله أن يقول: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فهذا شأن رسول الله، فكيف بمن دونه من الصالحين الذين يستغاث بهم من قبل الجهال بلا تمييز بين حقوق الله وحقوق خلقه؟ و﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي موعد محتوم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخر موعدهم ولا يتقدم إنما يأتي في موعده الذي لا يعلمه أحد في الأرض ولا في السماء إلا الله.

(٥٠) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ أي قبل يوم القيامة ﴿بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي أثناء الليل أو في النهار ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي أيُّ بشارة تستعجلونها!!! يا أيها المجرمون المشركون؟! إنه العذاب الذي لا تطيقون فلا تستعجلوه في الدنيا ولا في الآخرة.

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي لا ينفعكم الإيمان إذا أتاكم العذاب، والعاقل لا يطلب أن ينزل به العذاب.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الذي لا ينقضي أبدًا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي بما كسبت أيديكم من الآثام.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي العذاب الذي تعدُنا به ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي أخبرهم بحتمية وقوعه بهم، ولن يعجزوني.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

٢١٥

﴿٥٤﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي لو أن كل نفس كافرة لها كل ما في الأرض ملكًا لافتدت به يوم القيامة من عذاب الله تعالى بكل ما تملك، ولكن هيهات ﴿وَأَسَرُّوا۟ النَّدَامَةَ﴾ أي بدت في وجوههم أسارير الندامة على ما فرّطوا من جانب الحق، وذلك ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ الْعَذَابَ﴾ أي حين رأوه ماثلًا أمامهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يجازون إلاّ بما يستحقون.

﴿٥٥﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مالكها والمتصرف بها ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي كائن لا محالة وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجًا أوليًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أين يكون صالحهم من طالحهم.

﴿٥٦﴾ ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو الذي يحيي الأجساد بعد فنائها وهو الذي يميتها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تعودون.

﴿٥٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جاء ما فيه موعظة، أي القرآن العظيم الذي به يتعظ ويتذكر مَنْ يتخذه واعظًا له يُرغِّب بالخير والجنة ويُرهب من الشر والنار يعظكم به ربكم أن تنتهكوا حرماته وتتعدوا حدوده ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ من الأمراض القلبية التي هي الشكوك والريب والشرك والعقائد الفاسدة، إن هذه الأمراض الفتاكة يشفيها القرآن بما فيه من العظات، ويعيد الصدر خاليًا مما كان فيه ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين يتبعون هداه وينفذون أحكامه ولا يتخذون سواها حكمًا فيقودهم إلى الجنة.

﴿٥٨﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أي فليفرحوا بما تفضل الله عليهم من الإسلام ونعمة القرآن، وذلك ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من حطام الدنيا الذاهبة.

﴿٥٩﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ في هذه الدنيا ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ من عند أنفسكم ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أي بهذا التحريم والتحليل، وقد نزلت هذه الآية إنكارًا على المشركين فيما كان يحلّلون ويحرِّمون من البحائر التي يمنع درُّها للطواغيت فلا يحلبها الناس، والسوائب: هي ما كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، والوصايل: وهي جمع وصيلة وهي الناقة البكر، تبكّر في أول نتاج الإبل إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر. والمعنى: هل هذا التحريم أمركم الله به؟ ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي تكذبون فتتقوّلون عليه ما لم يقل؟! اللهم ارزقنا العلم والإنصاف والصواب والهدى.

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ أي ما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة؟ لا شك أنه سيعذبهم بما يستحقون ومع ذلك فإنه يرزقهم في الدنيا ويتفضل عليهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث لم يعجّل عليهم العقوبة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تفضّله وإنعامه عليهم. وشكره: طاعته فيما أمر.

﴿٦١﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ فيخبره تعالى أنه يعلم جميع أحواله وشؤونه ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي وما تتلو من القرآن في أي شأن من شؤونك، ثم خاطب الله الأمة جميعًا: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ في جميع أحوالكم ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إلاّ ونراكم في أي عمل من أعمالكم تعملونه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ﴾ أي ولا يغيب أو يبعد عن علم الله مثقال ذرة لا في السماوات ولا في الأرض وما بينهما ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ من مثقال ذرة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي كل ذلك مسطر عنده في اللوح المحفوظ، فكيف تغيب عنه أعمال المكلفين. كما في الحديث عن الإحسان: «... فإن لم تكن تراه فإنه يراك...» [٤٣٩].

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ
(٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٦٤) وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ
ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٦٥) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ (٦٧) قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا
لَا تَعۡلَمُونَ (٦٨) قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
لَا يُفۡلِحُونَ (٦٩) مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ (٧٠)

٢١٦

(٦٢) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي خلّص المؤمنين الذين تقربوا إلى الله بطاعته واجتناب معاصيه وهم أنصار الله ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما تركوا خلفهم من نعيم الدنيا؛ لما سيلقونه في الآخرة من السعادة الأبدية.

(٦٣) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وهذا تفسير من الله تعالى لمعنى الولي والأولياء: وهم الذين آمنوا حقًّا بالله وملائكته وكتبه ورسُله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، والتقوى: أن يعلموا الحلال كله ويعملوا به ويعلموا الحرام كله ويجتنبوه خوفًا من عذاب الله وطمعًا برحمته.

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مثل الرؤيا الصالحة يرونها هم أو تُرى لهم أو عند مفارقة الحياة فتبشرهم الملائكة بالجنة ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يبشرهم الله بالجنة والرضوان وما أعدّ لهم فيها من النعيم المقيم ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تبديل لما وعد الله في كتابه من البشرى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي ما تقدم من البشارة بالجنة وهو الفوز العظيم.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾ يا محمد ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ أي قول المشركين في الطعن به وتكذيبه والقدح بدينه تسليةً له ﷺ من ربه ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي إنَّ الغلبة والقهر له وليس لغيره ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

(٦٦) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا نعي على عبّاد البشر والملائكة والجمادات، لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك!! ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي إن هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله ليسوا في الواقع شركاء، إنما هي أسماء لا مسميات لها، وما يتبعون إلا الظن والظن لا يغني عن الحق شيئًا ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ أي يقدّرون تقديرًا خاطئًا ويكذبون، ويأفكون ويفترون مدفوعين بأهوائهم.

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي ليستريحوا من تعبهم وحركتهم في النهار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أي مضيئًا لمعاشهم وسعيهم وليحصلوا ما هم بحاجة إليه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في هذا الجعل ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويتبعون ما جاء فيها ويوقنون ويؤمنون.

(٦٨) ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ يدّعون أن الله اتخذ له ولدًا تنزّه وتعالى وتقدّس عن الولد، وكيف يكون له ولد وهو الغني عما سواه ولا حاجة له بالولد وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد لا سيما وإنّ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وكل شيء فيهما هو عبد ومملوك له ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾ أي أعندكم حجة وبرهان بهذا القول الذي تقولونه؟ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ له حجة ولا دليل فهو إذًا باطل وليس هو من العلم في شيء، وفي هذه الآية إنكار على من يقول هذا القول ووعيد وتهديد لأنهم تقوّلوا على الله بلا علم، ولهذا قال:

(٦٩) ﴿قُلۡ﴾ أي بلغهم يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ أي إن الذين يكذبون على الله لا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة، وتكون الجنة حرامًا عليهم، ومأواهم النار خالدين فيها أبدًا، لا يخفّف عنهم العذاب ولا يؤجلون فيه، بل عذاب مستمر.

(٧٠) ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي لهم حياة قليلة في الدنيا يتمتعون بها ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ أي مآبهم ومردهم ومعادهم ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ الذي لا يطاق ولا ينتهي ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم الحاصل من كذبهم وافترائهم.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم
مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ
أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ
إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ
أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ
٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٧٥
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾

٢١٧

(٧١) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي اقصص يا محمد عليهم خبر نوح عليه السلام مع قومه الذين كذبوه ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ أي مقامي فيكم ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي دعوتي إليكم إلى الدين الخالص ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي لا أقابل ذلك إلا بالتوكل على الله فهو حسبي ونعم الوكيل ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي فاستعدوا وهيئوا أنفسكم واستعينوا بشركائكم الذين دعوتموهم من دون الله ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي غير واضح بل بينوا حالكم معي ومهما قدرتم فافعلوا ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ثم اقضوا ما أنتم قاضون عليَّ ولا تؤخروني إن زعمتم أنكم على حق؛ فإني لا أخافكم أو أخاف شركاءكم وأنا بريء مما تشركون.

(٧٢) ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فإن أعرضتم عما أدعوكم إليه من الحق فإني لم أطلب منكم على دعوتي أجرًا إنما أجري على الله وحده ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي الذين يُسلّمون أمرهم إلى الله ويتوكلون عليه، وهذا هو معنى الإسلام وإن كل الأنبياء كانوا عليه. وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد» [٤٤٠]. أي هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوّعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: أولاد علات: إخوة من أمهات شتى والأب واحد.

(٧٣) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذّبه قومه ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي ومن كان معه على دينه ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي من كان معه في السفينة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي جعلهم سبحانه خلفاء بعضهم يسكنون الأرض التي كانت لمن قبلهم من المغرقين وخلفوهم فيها ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من الكفار المعاندين لنوح عليه السلام ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ فيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد للمشركين وتهويل عليهم.

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي من بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ مثل هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالآيات والحجج والأدلة ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾ أي قبل بعث الرسل إليهم ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء بسبب تكذيبهم، كذلك يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم من مشركي العرب، وهذا إنذار للمشركين الذين كذّبوا سيد الرسل وخاتمهم ﷺ.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي استكبر فرعون وقومه عن قبولها ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ باستكبارهم عن اتباع الحق.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي فلما جاء فرعونَ وقومَه الحقُّ وهو المعجزات لم يؤمنوا بها بل كابروا وقالوا: إن هذا الذي أتى به موسى لسحر ظاهر مكابرةً وعنادًا لما جاءهم من الآيات الباهرات.

(٧٧) ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡ﴾ إنه سحر؟! ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ وقد أفلح من أتى به وأبطل سحر السحرة ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير، بينما أنا قد أفلحت لما أتيت بالمعجزات التي رأيتموها وسميتموها سحرًا مكابرةً فهي إذًا ليست سحرًا كما تدّعون.

(٧٨) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يكون لكما الملك في بلدنا ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا﴾ أي لموسى وهارون ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بمصدقين ومتبعين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ
وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

٢١٨

(٧٩) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أراد فرعون أن يبهرج على الناس بعد أن رأى اليد البيضاء والعصا التي انقلبت إلى ثعبان، فاستدعى السحرة من أرجاء بلاده ليعارض بسحرهم ما جاء به موسى عليه السلام من البينات والمعجزات الباهرات الساطعات.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ قال لهم موسى ذلك؛ لأنهم لما اصطفُّوا وقد وعدهم فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل، أراد موسى أن تكون البداءة منهم، ليرى الناسُ ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده، فيرفع باطلهم ويبطله.

(٨١) ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ أي حبالهم وعصيَّهم ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ أي إن الذي جئتم به هو السحر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي سيمحقه بما سيظهره الله على يديَّ من المعجزات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيدخلُ فيهم السحر والسحرةُ دخولًا أوليًا.

(٨٢) ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي يوضحه ويبيّنه بكلماته التي أنزلها في كتبه على رسله لاشتمالها على الحجج والبراهين برغم المجرمين من آل فرعون وفرعون، أو المجرمين على العموم، فيدخل فرعون وآله دخولًا أوليًا لأنهم رؤوس الإجرام والمجرمين والإثم والآثمين.

(٨٣) ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي من قوم فرعون وهم قليلون وقد أبعد من قال: إن المقصود بالذرية هم بنو إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي عاتٍ متكبّر متغلّب على أرض مصر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المتجاوزين الحد بادّعاء الربوبية والألوهية وفعل الظلم والبغي من القتل والصلب وإيقاع أنواع العقوبات ببني إسرائيل.

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي أن يسلموا أنفسهم لله فيجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها. لأن التوكل على الله لا يجيز التوكل على غيره، فإن الله كافٍ من توكّل عليه. وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك.

(٨٥) ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سُلّطوا علينا لأنهم على حق ونحن على الباطل، وهذا توسل بالتوكل على الله وهو عمل صالح يتوسلون به إلى الله تعالى كيلا يجعلهم فتنة للغير ولا أن يفتتنوا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي نجنا متوسلين إليك برحمتك وهذا توسل أيضًا بصفة من صفاته تعالى كي ينجيهم وينقذهم من القوم الكافرين فرعونَ وقومِه.

(٨٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي اتخذا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي أسكنوهم فيها ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمراد أن يجعلوا بيوتهم مكانًا ليقيموا الصلاة فيها سرًا لئلا يصيبهم أذى فرعون ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر.

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ يعني آل بهم هذا المال الكثير إلى الضلال لافتتانهم به فضلوا وظلموا وبغوا ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أفقدهم إياها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعلها قاسيةً مطبوعة ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم معاينةً جزاءً وفاقًا.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ
فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

٢١٩

(٨٩) ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي أجيبت دعوة موسى وهارون مع أن الداعي كان موسى ولم يكن هارون إلّا مؤمِّنًا على دعاء موسى عليهما السلام، فالجواب: أن منزلة المؤمِّن على الدعاء كمنزلة الداعي وهذا احتجاج قويّ لمن يقول إن التأمين على قراءة الفاتحة بمثابة قراءتها خلف الإمام ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن دعوتكما بدمار فرعون وآله قد أجيبت، فاستقيما ولا تسلكا سبيل الجاهلين.

(٩٠) ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى تخطّوْه إلى الشط، لأن الله جعل البحر يبسًا ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي لحقهم ظلمًا وعدوانًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ ورأى الذي كان يكفر به عيانًا ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، لأن الذي كان يكفر به غيبًا عاينه شهادةً.

(٩١) ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي أفي هذا الوقت تؤمن! وقد عصيت من قبل! وما ينفعك إيمان بعد أن بلغت الغرغرة؟! وهذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع له ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الباغين في الأرض فسادًا والمستعْلين بغير الحق ولا تزال فئة ممن ينتمون للإسلام يشفقون على فرعون، ويزعمون أنه بقوله: (آمنت) عند الغرغرة فهو من الناجين؛ جهلًا منهم أو تعمدًا؛ فعلى كل من يقول مثل هذا القول أن يتوب منه، وإن أصروا فندعو الله أن يحشرهم معه أينما كان.

(٩٢) ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ تحققًا لبني إسرائيل من موته فقد لفظه البحر على نجدة من الأرض ورآه بنو إسرائيل وشفوا غيظهم منه ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أي علامة لبني إسرائيل على موتك ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أي لا يعتبرون ولا يتعظون ومع ذلك لم يتعظ بنو إسرائيل من هذه الحادثة فيما بعد فاختلفوا على أنبيائهم بما هو معروف منهم. وكان غرق فرعون وجنوده وهلاكهم يوم عاشوراء. وفي الحديث: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموه» [٤٤١].

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي أسكناهم مساكن أعدائهم بمصر ورزقهم الله الرزق الحلال ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي علم التوراة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في أحكام كتابهم التوراة.

(٩٤) ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لا أشك ولا أسأل»(١) [٤٤٢]. ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هذا القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي استمر على ما أنت عليه من اليقين وانتفاء الشك وإن هذا النهي لِمَنْ دونه أولى.

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهـذا أوقـع لـلـنهي لأمتـه عن ذلك حتى لا يكونوا من الخاسرين.

(٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني إذا كان قد علم الله منهم أنهم لن يختاروا الإيمان ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يستحيل أن يؤمنوا.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ أي مهما رأوا من آيات الله والمعجزات الباهرات فإنهم لن يؤمنوا بها ولن يصدقوها أبدًا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ حتى يكشف الغطاء عنهم فيروا الغيب الذي كانوا يكفرون به شهادة، ويروا العذاب حاق بهم فهناك لا ينفع الإيمان.

(١) ضعيف.

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، أي كشف عنهم العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وإن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وقد أنذرهم بأنه سيحل بهم عذاب إذا لم يؤمنوا وعيّن لهم موعدًا من الله سيأتيهم فيه العذاب، ثم خرج من بينهم، فلما فقدوه، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين الأم وولدها وبين السخلة وولدها وخرجوا يضجّون بالدعاء إلى الله وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب في الحياة الدنيا ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي لحين انتهت آجالهم. وتمامها في الصافات، آية (١٤٨).

(٩٩) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى وهو العليم الحكيم ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم حتى يؤمنوا فليس هذا عليك ولا إليك بل لله الأمر من قبل ومن بعد.

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإذنـــه القـدري والشرعي. فالقدري أي الموافق لما علم الله من هذا المكلف بأنه سيختار الإيمان فقدره الله تعالى عليه. أما الشرعي أي الذي جاء به التكليف بالشرع ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ويجعل الضلال على الذين لم يحكّموا عقولهم ولم يستعملوها فلم يعقلوا حجج الله وأدلته فضلوا السبيل إلى الحق وعَشَوْا عنه.

(١٠١) ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما فيها من المصنوعات الدالة على الصانع سبحانه وتعالى من كمال قدرته ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ﴾ أي الحجج القائمة والبراهين الدامغة ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ جمع نذير وهم الرسل ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي علم الله منهم أنهم لن يختاروا الإيمان بعد أن يعرض عليهم فأي شيء يجدي مع هؤلاء حتى يؤمنوا، أي لا شيء يغني ويجدي وينفع فيهم.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار الذين حلَّ بهم انتقام الله جلَّ وعزَّ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي تربصوا حتى ينزل الله عليهم عذابه وهذا تهديد شديد.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا حقٌّ أحقّه الله على نفسه أن ينجي النبي ﷺ وأصحابه من العذاب.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ
جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٢٢٠

(١٠٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي إن كنتم يا أيها الناس ترتابون في الدين الذي جئتكم به من ربي وهو عبادةُ الله وحده ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي بريءٌ مما تعبـدون في حـال من الأحوال ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي أفرده بالعبادة وهو الذي وحده يميتكم، وفي هذا تهديد لهم بالموت، ويدل أيضًا على الخلق أولًا وعلى الإعادة ثانيًا، ولكن الموت أشد مهابة في القلوب ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن البديهي أن يكون النبي من المؤمنين ما دام هو الذي يدعو إلى الإيمان، فإن الأمر بالإيمان والعمل شامل للمكلفين جميعًا.

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وأمرت أن أخلص العبادة لله وأن أنحرف عن الشرك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي ما لا يقدر على نفعك ولا على مضرتك، فكيف تدعوه وهو لا يقدر على شيء ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي إن دعوت غيرَ الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكل هـذه الآيـات له وللتعـريـض بغيره من أمته.

ما من أمة آمنت كلها إلا قوم يونس، لا تدْعُ من لا ينفعك ولا يضرك

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

(١٠٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن الله سبحانه وتعالى إن أنزل بعبده ضرًا لا يستطيع أحد من الخلق أن يكشفه عنه كائنًا من كان، بل هو الذي يكشفه عنه لأنه هو الذي أنزله به ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أي وإن أرادك بخير ونفع فلا يستطيع أحد أن يدفعه عنك، بل إن شاء يزدك من فضله أكثر مما تستحق على عمل عملته لوجهه الكريم ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي الحديث: «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرَّضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم»(١) [٤٤٣]. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وزلاّتهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن تاب من ذنوبه.

(١٠٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن ﴿مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي ينفعها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي يرديها حتفها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ لست موكلًا على هدايتكم، إنما هي من الله تعالى.

(١٠٩) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي تمسك بما يوحيه الله إليك من هذا القرآن ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على مخالفيك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبينهم: في الدنيا؛ بالنصر عليهم، وفي الآخرة؛ بالعذاب الأليم لمن مات على الشرك والكفر ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بالحق والعدل.

آخر تفسير سورة يونس ولله الحمد والمنّة وله الفضل وعليه الاتكال ومنه التوفيق

(١١) سُورَةُ هُودٍ

مكية إلا الآيات ١٢، ١٧، ١١٤ فمدنية وآياتها ١٢٣، نزلت بعد يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أما الأحرف المقطعة فسبق قولنا فيها كما تقدم في أول سورة البقرة. ثم إن هذا الكتاب آياته محكمة في ألفاظها، مفصلة في معانيها، أحكمت وفصلت ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي الحكيم في أقواله وأفعاله الخبير بعواقب الأمور وخواتيمها، وهو الله تعالى.

(٢) ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وأنواع العبادة هي: الدعاء والاستعانة والاستغاثة والتوكل والخوف والرجاء والإنابة والنذر والذبح والحلف، كل ذلك عبادة ولا تصرف إلا لله تعالى وحده لا شريك له، فمن صرفها لغيره فقد نقض كلمة التوحيد ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ نذير من العذاب وبشير بالثواب. وفي الحديث: «يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تصبحكم ألستم مصدقيّ» فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» [٤٤٤].

(٣) ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي وإنني آمركم بالاستغفار إلى الله والتوبة من ذنوبكم إليه، واستمروا على ذلك ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ في الدنيا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت معلوم عنده ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي وإن أعرضوا وكذّبوا بما جاءهم، فإن عذاب يوم القيامة ملاقيهم لا محالة، وهو العذاب الكبير الغليظ المؤبد.

(٤) ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مآبكم يوم القيامة ومرجعكم إلى الله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ أي إذا مرَّ رسول الله ﷺ ثنوا صدورهم عنه لئلا يسمعوا منه ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يُغطّون فيها رؤوسهم لئلا يراهم رسول الله ويسمعهم دعوته، أفلا يتذكرون بأنّ الله ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بالنيات والضمائر الخفيات في الصدور.

(١) ضعيف.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا
وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ
عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ
إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ
مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾
وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ
وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ
وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

٢٢٢

(٦) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أي إنه تعالى متكفل بأرزاق المخلوقات في البر والبحر والجو ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ أي أنه يعلم أين تأوي وأين تموت وأين مستودعها بعد الموت، وإن جميع ذلك ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي عنده في اللوح المحفوظ.

(٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ أي إن الله من قدرته أنه خلق السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك. وفي الصحيحين: «كان الله ولم يكن شيء معه» وفي رواية: «قبله»، وفي رواية: «غيره». «وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض» [٤٤٥]. ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أي ليختبركم -وهو أعلم- ولم يقل: أكثر عملًا بل قال: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ ولا يكون العمل حسنًا ومقبولًا حتى يكون: ١- خالصًا لله عزّ وجلّ. ٢- على شريعة رسول الله ﷺ؛ فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط العمل، فلا يكون حسنًا، ولا يكون مقبولًا ومرضيًا ﴿وَلَئِن قُلۡتَ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي إن من الابتلاء أنكم تؤمنون بأنكم ستبعثون بعد الموت ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي هذا القول بالبعث بعد الموت ﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي سحر ظاهر.

(٨) ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ أي إلى أجل معلوم ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ تكذيبًا واستعجالًا: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ أي وما يؤخره وما يمنعه؟ استهزاءً، فأجابهم سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ أي ليس محبوسًا عنهم بل واقع بهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاءً منهم مستبعدين وقوعه.

(٩) ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ أي إذا أذقنا الإنسان نعمة ثم استرجعناها منه ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ أي آيس من الرحمة شديد القنوط عظيم الكفران، لا يرجو عودها، ولا يشكر ما سلف عليه من النعمة.

(١٠) ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ أي إذا أذاق الله تعالى العبد نعماءه من الصحة والعافية والسلامة والغنى بعد أن كان في مرض وفقر وخوف ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ أي لم يعزُ ما حلّ به من النعمة بعد الفاقة إلى الله ولا شكره سبحانه على ذلك، بل صار كثير الفرح بطرًا وأشرًا، وكثير الفخر على الناس والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم.

(١١) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهنا قد استثنى من النوع الإنساني الذين صبروا في الضراء وشكروا في السراء ثم ثابروا على عمل الصالحات وهؤلاء المؤمنون من كل أمة وخاصة أمة محمد ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عما سلف من ذنوبهم وذلك لصبرهم وشكرهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ بسبب تلك الأخلاق الإيمانية التي نتج عنها الصبر في الضرّاء والشكر في السرّاء.

(١٢) ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ أي هذا أمر من الله، فلا يضيق صدرك يا محمد لقولهم: ﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ أي هلا أنزل عليه كنز من السماء أي مال ينتفع به ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ أي يصدقه ويبين لنا صحة رسالته ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾ أي ليس عليك إلّا التبليغ والإنذار بما أوحي إليك، وليس عليك حصول طلباتهم وإن لك أسوةً بإخوانك الأنبياء قبلك، فقد أوذوا وصبروا حتى أتاهم نصر الله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ فإنه شهيد وحافظ على كل شيء من أقوالهم وأفعالهم.

لم يقل الله: أيكم أكثر عملًا، بل قال: أيكم أحسن عملًا، والعبرة بحسن العمل

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ
وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

٢٢٣

(١٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل يقولون تقوَّل محمد هذ القرآن من عند نفسه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: إذا كان يمكن هذا القرآن أن يفترى ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ كما تزعمون وتدّعون بل ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من قدرتم على الاستعانة به من الإنس والجن من غير الله سبحانه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمون من استطاعة أحد أيًّا كان أن يفتري مثل هذا القرآن.

(١٤) ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أي فإن لم يستجب الذين دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على أن يفتروا عشر سور من القرآن ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ إذن أن هذا القرآن ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي متضمنًا علمه وأمره ونهيه وإعجازه الخارج عن طَوْق كلِّ مخلوق في الأرض أو في السماء ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا أيضًا أنه لا معبود في السماوات ولا في الأرض بحق إلا هو سبحانه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي فهل أنتم بعد هذا العجز منكم داخلون في الإسلام ومؤمنون بهذا القرآن ومتبعون أحكامه، ومقتدون بشرائعه ومستجيبون لهداه؟

(١٥) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي من كان يريد بعمله حظَّ الدنيا بما فيها من زينة، وحسن، وصحة، وأمن، وسعة رزق، وارتفاع حظ نكافئه بذلك ويحصل له جزاؤه الدنيوي ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي لا ينقصون من جزائهم بحسب أعمالهم، وكما يظهر أن الآية وإن كان لفظها عامًّا، إنما المقصودون بها هم الكفار لقوله تعالى:

(١٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ لأنهم لم يريدوا بأعمالهم الآخرة بشيء ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟﴾ أي وحبطت أعمالهم الظاهرة بأنها خير ﴿فِيهَا﴾ أي في الدنيا وكان لها صورة الطاعات فأفسدوها بعدم الإرادة بها الدار الآخرة ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من تلك الأعمال، وقيل: إنها نزلت في المرائين.

(١٧) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي هي القرآن ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي هو الإعجاز الكائن في القرآن، أو هو المعجزات التي ظهرت لرسول الله ﷺ فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن، وقيل: الشاهد هو الإنجيل الذي فيه البشارة ببعثته ﷺ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا﴾ وكذلك يشهد برسالة محمد ﷺ، فإن هذه التوراة من آمن بها حقًّا قاده هذا الإيمان إلى الإيمان بالقرآن فالتوراة ولا شك كما قال تعالى: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي إمامًا لبني إسرائيل ورحمة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين آمنوا بكل ما في التوراة بدون تحريف ولا تبديل التي فيها البشرى برسالة محمد ﷺ أولئك هم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي المتحزّبون على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ لا محالة ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك ﴿مِّنْهُ﴾ أي القرآن، والمقصود أمته ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي حق من الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار» [٤٤٦]. وظاهر الحديث أن السماع برسول الله حجة قائمة على السامع، وعليه أن يبحث عن الحق حتى يؤمن به. فإن مات وهو يبحث عن الحق بإخلاص فهو ناج. والله تعالى أعلم.

(١٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أظلم منهم أي بأن يسوّوا أصنامهم بالله، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي تعرض أعمالهم عليه ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي الملائكة والنبيون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد استحقوا اللعن لكذبهم عليه تعالى.

(١٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أولئك هم الذين يصدون الناسَ عن الحق ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويسلِّكونهم طريقةً غيرَ معتدلة ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي غير مصدِّقين بها ولا مؤمنين.

أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ
ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً
مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

(٢٠) ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا إن أراد عقوبتهم فيها ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله بهم من العقوبة وإنزال البأس بهم. وفي الحديث: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه، لم يفلته» [٤٤٧]. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني الرؤساء الصادين عن سبيل الله، وذلك لإضلالهم أتباعهم ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ لفرط تعاميهم عن الصواب فلم يستفيدوا مما جعل الله لهم من السمع والبصر فكانوا صمًّا عن سماع الحق ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي كأنهم لا أبصار لهم يبصرون بها سواء السبيل.

(٢١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ لأنهم كفروا فأُدخلوا نارًا حامية ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ على الله من دعوى الشريك الباطلة، وإن أولئك الذين كانوا يعبدونهم من دون الله لم يكونوا معهم يوم القيامة ليشفعوا لهم أو ينقذوهم، بل تبرأوا منهم وممَّا كانوا يعبدون من دون الله.

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ لأنهم اشتروا عبادة الأوثان والأصنام والآلهة التي ما أنزل الله بها من سلطان بعبادة الله، فلا شك أنهم الأخسرون في شرائهم هذا والعياذ بالله. وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بكل ما يجب الإيمان به وبما أنزل الله من البينات والآيات كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيْرِهِ وشرِّه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمور بها، وانتهوا عن فعل المنكرات ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي وجَّهوا خوفهم، وخشوعهم، وإخلاصهم إلى ربهم واطمأنوا إليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي هؤلاء المذكورون هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي هم الذين ورثوها بجميع ما فيها من النعيم المقيم والنظر إلى وجه الله الكريم ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مقيمون أبدًا.

(٢٤) ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي السعداء والأشقياء الذين مرَّ وصفهم ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فالكافر أعمى عن وجه الحق، أصم عن سماعه فلا ينتفع به، وأما المؤمن ففطن ذكي، بصير بالحق سميع للحجة فلا يروِّجُ عليه الباطل فهل يستوي هذا وهذا؟ ﴿مَثَلًا﴾ أي هل يستويان حالًا وقياسًا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في عدم استوائهما، أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء.

(٢٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ وكان عليه الصلاة والسلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين وعبدة الأوثان، وقال لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غيره.

(٢٦) ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن استمررتم على كفركم وعبدتم غير الله تعالى إني أخاف عليكم أن يعذبكم الله في النار عذابًا أليمًا خالدًا أبدًا لا يخفف عنكم.

(٢٧) ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ كأنهم يظنون أنه لا ينبغي أن يكون الرسول بشرًا، فكيف أوحي إليك من دوننا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ على دينك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ كالباعة والحاكة والأساكفة الذين لا رأي لهم ولا فكر ولا نظر ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ في خَلق أو خُلق أو رزق ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدَّعونه من الصلاح والعبادة والسعادة في الآخرة.

(٢٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي على يقين ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي نبوّة صادقة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي خفيت عليكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنا لا أستطيع أن ألزمكم باتباعها إلزامًا إنما هذا إلى الله تعالى ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا سيما وأنتم كارهون لها، فهذا قطعًا إلى الله.

الضعفاء غالبًا هم أتباع الحق والكبراء والأشراف غالبًا هم مخالفوه

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ
قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ
أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ
جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ
نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ
هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ
قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ
فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا
وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾

٢٢٥

(٢٩) ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا﴾ أي أجرة آخذها منكم إنما أبتغي الأجر و﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنهم طلبوا إليه إبعاد المستضعفين عنه، أَنَفَةً منهم فقال: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ أي لا أطردهم خوفًا من أن يخاصموني يوم القيامة إن طردتُهم وإن فعلت إنما أكون قد ظلمتهم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أي تطلبون مني مطالب تجهلون نتائجها فلن ألبّيها أبدًا لكم.

(٣٠) ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ أي لا يمكنني طردهم ومن يمنعني من الله ومن يجيرني من عذابه وانتقامه إن طردتهم؟ فإن طردهم ظلم عظيم لا يقع من أنبياء الله، ثم كيف أطردهم وهم أيَّدوا دعوتي إلى الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنكم مخطئون بطلب طردهم.

(٣١) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ وليس لي أن أتصرف فيها لأنها ملك لله وحده، وليست هي ملكي ولا بتصرفي ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ لأن علم الغيب هو لله ولا يشاركه فيه أحد ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تقولوا لي: ما نراك إلّا بشرًا مثلنا ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ أي هم المستضعفون الذين تحتقرونهم والذين هم مؤمنون بالله تعالى لا أقول: إنهم ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ بل آتاهم الله الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه، وإنه سوف يثيبهم على ذلك في الآخرة ولهم جزاء الحسنى ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من الإيمان والإخلاص له تعالى، وليس لي أن أطلع على ما في نفوسهم فأقطع عليهم بشيء إنما لي الظاهر ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن فعلت ما تريدونه بهم أكون لهم من الظالمين ظلمًا عظيمًا أستنزل به نقمة الله عليَّ وغضبه، فلن أفعله إذًا أبدًا.

(٣٢) ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ ولما انقطعت حجتهم قالوا: قد خاصمتنا ودفعتنا بكل حجة فإننا لن نتبعك ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من إيقاع عذاب الله بنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بأنك نبيٌّ ورسولٌ حقًا وأن العذاب سيأتينا حقًا كما تدّعي.

(٣٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي إن المجيء بالعذاب ليس لي إنما ذاك لله تعالى إن شاء وقضت حكمته ذلك ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي وما أنتم تعجزون الله وتمنعونه من ذلك فهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إنما يقول للشيء كن فيكون.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ إن كان الله يريد أن يضلكم جزاء ما عاندتم وأبيتم الحق، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ أي يهلككم بعذابه بما غويتم ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي هو ربكم الذي بيده كل شيء وسوف ترجعون إليه يوم القيامة فيجازيكم بما كنتم تعملون.

(٣٥) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلّا الأنبياء عن ربهم، فلما شرع الله في قصها على رسوله وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه في رسالته ذكر تكذيب قومه له فقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي يقول كفار مكة: إن محمدًا ﷺ افترى القرآن من عند نفسه ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ أي إن كنت قد افتريته فعليَّ إثم إجرامي ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ فأنا بريء من هذا الافتراء، الذي تختلقونه عليّ.

(٣٦) ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ وإنهم مستمرون على كفرهم لا يؤمن منهم إلّا من سبق[1] إيمانه ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي فلا تحزن ولا تبتئس بسبب أنهم لا يؤمنون، وما آمن معه إلا قليل، وقيل: ثمانية!

(٣٧) ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي تحت بصرنا ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ أي لا تسألني ولا تراجعني في إنجاء أحد منهم، فإنهم كفروا بالله تعالى ولا بد ولا محالة أنهم سيغرقون جزاء كفرهم.

(١) في علمه تعالى.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا
مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا
فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ
أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

(٣٨) ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ أي وطفق يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي استهزأوا به لعمله السفينة، ووجه سخريتهم: أنه يعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي إن تستهزئوا منَّا بسبب صُنعنا للسفينة -اليوم- فإنا نسخر منكم ونستهزئ بكم -غدًا- عند الغرق، وتلك سخرية متحققة واقعة لا محالة كما تسخرون منا اليوم، ثم هدَّدهم بقوله:

(٣٩) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وهو عذاب الغرق في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهو العذاب الدائم في الآخرة.

(٤٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي جاء أمرنا بعذابهم وإهلاكهم بالغرق الذي ابتدأ بإغراق الأرض بالماء من كلِّ جنباتها نبعًا منها، وجعل المطر ينزل من السماء كأفواه القرب بماء منهمر. والفور: الغليان حتى بلغ الماء التنانير التي هي مكان النار وفار منها، وهذا قول الجمهور سلفًا وخلفًا ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فحينئذٍ أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات، أي ذكر وأنثى، وكذلك من النباتات ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ ومعنى أهلك أي أهل بيتك وكل من آمن منهم ومن غيرهم بك ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي من قومك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي النزر اليسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين، وقيل: إنهم كانوا ثمانين نفسًا، منهم نساؤهم، والأقرب أنهم ثمانية، ومعنى ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، أي من تقدم الحكم عليه أي حكم الله بأنه من المغرقين منهم امرأته وابنه يام، وقيل كنعان اللذان لم يؤمنا به، أما الذين كانوا معه من أهله فهم أولاده الثلاثة، وهم: سام وحام ويافث وأزواجهم وزوجة يام، والله تعالى أعلم.

(٤١) ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي قال نوح عليه السلام: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي أمرهم أن يسمّوا بالله تعالى وقت جريها ووقت إرسائها ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده ومن رحمته إنجاؤهم.

(٤٢) ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ والموج هو ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح وشبَّه الموج بالجبال لارتفاعها ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ يام أو كنعان ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي في معزل عن دين أبيه وأبوه لا يدري: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ أي دعاه إلى الركوب مع المؤمنين في السفينة ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ فعصى أباه وأبى أن يركب في السفينة.

(٤٣) ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ معتقدًا أنَّ الماء لن يبلغ الجبال ﴿قَالَ﴾ أبوه نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي لا معصوم من الغرق إلا من رحم الله من الذين آمنوا ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ الكافرين.

(٤٤) ﴿وَقِيلَ﴾ أي قال الله تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ يا أرض توقفي عن الفوران ويا سماء توقفي عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي ابتلعته الأرض ويبس سطحها ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي وقضى الله أمرهُ في أهل الأرض فأهلكهم بكفرهم وعنادهم فلم يبق ديّار ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ورست السفينة على أعلى جبل الجودي ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم.

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ أي دعا نوح عليه السلام ربه سبحانه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي وعدتني بنجاة أهلي وإن ابني من أهلي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أي الذي لا يُخلف فكيف غرق!!!؟ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي وأنت أحكم من كل حكيم وحاكم، وهذا تسليم من نوح لحكم ربه كما هو نصٌّ في أن نوحًا عليه السلام كان لا يعلم بكفر ابنه حتى أخبره الله كما سيأتي.

الطوفان طبق الأرض جميعًا، فقضى الله أمره فنجّى المؤمنين وأغرق الكافرين

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ
مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا
تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ
مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ
مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ
أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ
مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ
بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٢٢٧

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم لأنه كافر، وإن كان من أهلك من حيث القرابة؛ وهكذا فقد أخرجه الله من الآل نهائيًا لأنه ليس من أهله الذين هم على دينه، أما لو كان من أهل قرابته وعلى دينه فيكون قد حاز الفضيلتين كإخوته الثلاثة الباقين على دين أبيهم نوح عليه السلام، ثم علل الموجب لإخراجه من الآل بإيضاح أن المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده، وقد نصّ أكثر من واحدٍ من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية. قال ابن عباس وغير واحد من السلف: «ما زنت امرأة نبيّ قط» [٤٤٨]. وهذا الحديث له حكم المرفوع لأن ابن عباس لا يمكن أن يقول ذلك من عنده، وقول ابن عباس هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبيّ من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا عائشة أم المؤمنين زوج النبي بالفاحشة ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٥]. وهكذا فقد أخرج الله ابن نوح من الآل وعلل ذلك بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ أي عمل عملًا غير صالح وهو كفره وتركه لمتابعة أبيه ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ أي ما كان يعلم نوح أن معنى القرابة والآل إنما هو القرابة في الدين لا بالنسب وحده، بل كان يعلم أن الآل هو قرابة النسب فحسب ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي إن مقامك عندي أرفع من أن تكون جاهلًا بمثل هذه الأمور ولا بأس من ذلك، فالنبي لا يعلم إلاّ ما علمه الله تعالى، فهذا جهل لا يضر النبي.

(٤٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي أعوذ بك من أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي إن لم تغفر لي خطيئتي وترحمني برحمتك الواسعة أخسر أعمالي ولا أربح.

(٤٨) ﴿قِيلَ﴾ أي قال الله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ أي بسلامة وأمن من الله تعالى ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ أي وزيادة سلامة وأمن منه تعالى، فقد جعله الأب الثاني للبشر جميعًا لأن جميع الخلق من نسله ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يريد من ذراري مَنْ معك من المؤمنين ﴿وَأُمَمٞ﴾ من الكافرين ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي موجع دائم لا قبل لهم به.

(٤٩) ﴿تِلۡكَ﴾ أي يقول الله لنبيه محمد ﷺ هذه القصة وأشباهها هي ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ السالفة التي لا يعلمها إلاّ الله ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ﴾ ننزلها عليك بالقرآن ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ أي ما كان أحد يعلمها لا أنت ولا قومك من قبل أن ننزلها عليك ونخبرك بها بهذا القرآن ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي اصبر على أذى قومك، فإن الخاتمة الطيبة هي للمتقين أمثالك وأمثال من معك من المؤمنين.

(٥٠) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد رسولًا منهم وهو هود ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي أفردوه بالعبادة ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي ليس لكم من معبود تعبدونه سواه ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ أي تفترون على الله باستحلالكم عبادة غيره معه وهو المعبود بحق وحده.

(٥١) ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي على نصحي وتبليغي ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ أي خلقني وخلقكم ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بأنه لا معبود إلا الخالق وحده سبحانه لا شريك له.

(٥٢) ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي اطلبوا منه المغفرة ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ مما أشركتم به غيره ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ جزاء استغفاركم وتوبتكم ﴿وَيَزِدۡكُمۡ﴾ من فضله ﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ التي أنتم عليها فآمنوا به تعالى وَوَحِّدُوه في عبادته ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ أي تعرضوا وأنتم كافرون.

(٥٣) ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ أي بحجة واضحة ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ أي سنظل لها عابدين ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بمصدقيك بدعوتك، ولا تاركي آلهتنا لما تدعوننا إليه.

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

(٥٤) ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي ما نظن إلا أنّ بعض آلهتنا قد أصابك بجنون لأنك تعيبها وتسبُّها وتنهانا عن عبادتها ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ عليَّ ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أنتم عليَّ أيضًا ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي من جميع الأوثان والأصنام التي تعبدونها من دون الله.

(٥٥) ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله تعالى ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أي أوقعوا الضرر بي أنتم وآلهتكم التي تعتقدون أنها تستطيع ضرري ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تؤجلوا إيقاع الضرر بي ولا تمهلوني بل عاجلوني بذلك، واصنعوا ما بدا لكم، وفي هذا تحدٍّ ظاهر لهم ولأصنامهم.

(٥٦) ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ فهو الذي يردّ عني كيدكم وعاصمني منكم، فمن توكل على الله فهو حسبه وكافيه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي مخلوق في الأرض ولا في السماء ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي هي تحت سلطانه وقهره وهو آخذ بنواصيها، أي في قبضته فلا يخرجون ولا يفلتون منها ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هو على الحق والعدل لا يجورُ في حكمه، وهو أشفق من الوالدة على ولدها، بينما الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر، وفي هذا حجة بالغة على بطلان عبادة الأصنام.

(٥٧) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا واستمروا في كفرهم وإعراضهم ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ من وجوب عبادة الله وحده لا شريك له وقامت الحجة عليكم بتحقيق إبلاغي لكم رسالة الله ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يحلُّون في دياركم ويتمتعون في أموالكم ومساكنكم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم وإعراضكم ولا تقدرون على كثير الضرر ولا حقيره، بل هو الذي يقدر عليكم ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم وسيجزيهم عليها بما يستحقون من خير أو شر.

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي ولما جاء عذابنا بإهلاك عاد نجّينا هودًا ومن آمن معه ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لأنه لا يستحقها إلا المؤمنون ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي شديد وهو الريح العاتية التي لا تبقي ولا تذر.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أي قوم عاد ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي كفروا بها وأنكروا المعجزات ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ أي عصوا رسل الله جميعًا؛ فمن كفر برسول واحد كفر بهم جميعًا ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي تركوا أمر نبيهم واتباعَ رسولهم الرشيد، واتبعوا كل جبار طاغية لا يذعن للحق ولا يأتمر به، والعنيد هو المصر المستمر على مخالفته للحق.

(٦٠) ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي إبعادًا من الرحمة والطرد من الخير وإن هذه اللعنة لا تفارقهم في الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وأتبعوها أيضًا يوم القيامة فلعنوا ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي بربهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي لا زالوا مبعدين من رحمة الله تعالى ومطرودين منها.

(٦١) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود رسولًا من قبيلتهم اسمه صالح ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي ما لكم من معبود يستحق العبادة إلا الله تبارك وتعالى، ثم طفق نبيُّهم صالح يعدِّد نِعَم الله عليهم، فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقكم منها ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عمّارها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ مما أذنبتم معه من الشرك به ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ لمن يدعوه مؤمنًا به.

(٦٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي كنّا نرجو أن تكون فينا سيدًا مطاعًا ننتفع برأيك قبل أن تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام وادعائك النبوة ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي ينكرون عليه ترك ما كان يعبد آباؤهم من الأوثان ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي نحن في شك من نبوتك ودعوتك وفي عدم اطمئنان من صحتها، فكيف نترك عبادة أصنامنا ونعبد إلهك!!!

نجّى الله هودًا والمؤمنين به، دعوة صالح لقومه ثمود

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي
مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ
فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ
عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا
وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا
لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ
سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ
قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ
فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾

٢٢٩

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي كيف أنتم إذا كنت على حجة وبرهان من ربي بصدق دعوتي إليكم ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ أي النبوة ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعني من الله ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته إليكم وقعدت عن أداء دعوته ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بصرفكم إياي عن الدعوة ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ أي فلو تركت الدعوة لما نفعتموني بشيء ولما زدتموني إلا خسارة عند الله.

﴿٦٤﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ أي معجزة ظاهرة الإعجاز ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي اتركوها تأكل من الأرض بدون أن تتعرضوا لها بأي شيء يؤذيها ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ أي سريع بعد أذيتها مباشرة ولا يمهلكم الله منه.

﴿٦٥﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي ذبحوها ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ أي بالعيش ثلاثة أيام فقط ثم يأتيكم العذاب الموعود ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ أي وعد محقق لا مرية فيه ولا شكَّ ولا ريب.

﴿٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي عذابنا الذي وعدناهم به، أي بعد يومهم الثالث أتتهم الصيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة فقطعت قلوبهم في صدورهم وتزلزلت بيوتهم فوق رؤوسهم ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي فكما أن الله تعالى أنزل العذاب الشديد بمن كفروا به، كذلك نجّى المؤمنين من عقابه وأنزل عليهم رحمةً منه رحمهم بها من العذاب ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ الذي أصاب الكفار ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿٦٧﴾ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ التي أنزلها الله عليهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي موتى ساقطين على وجوههم قد لصقوا بالتراب. وهذا جزاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعناد.

﴿٦٨﴾ ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ أي كأنهم لم يكونوا فيها ولم يقيموا ولم يرزقوا فيها بشيء ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ أي إن ما قامت به ثمود من الكفر والجحود والعناد كان سببًا بما حلَّ بثمود من الدمار والهلاك ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ أي ألا سحقًا لهم من قوم كفروا بربهم فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا والآخرة.

﴿٦٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي تبشره بإسحاق يأتيه من زوجته سارة بعد عقم وشيخوخة ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي سلموا عليه أي الملائكة، فردّ إبراهيم عليهم السلام ولكن لم يدر أنهم ملائكة، إنما ظنهم -أول الأمر- ضيوفًا أضافوه ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي أسرع ودخل يهيء لهم الطعام ﴿أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ أي أسرع وقدّم لهم عجلًا مشويًّا.

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ أي لا يمدونها إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ أي رآهم على غير عادة الضيوف الذين يزورونه، فإن الضيوف عادة يأكلون من طعام المضيف، فلما رآهم لا همة لهم إلى الطعام فاستنكر منهم ذلك بقلبه ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أي خاف منهم؛ لأن العادة المعروفة إذا قدم الطعام للضيف ولم يأكل فمعنى ذلك أنه يضمر في نفسه شرًّا ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ أي لا تخف منا إنما نحن ملائكة، وقد أرسلنا الله إلى قوم لوط لنهلكهم بما كفروا وبما عصوا الله بإتيانهم الرجال شهوة من دون النساء، وهم أول من ابتدع هذا الفعل الشنيع.

﴿٧١﴾ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ أي كانت امرأة إبراهيم سارة قائمة وراء الستر تسمع تحاور الملائكة مع إبراهيم بشأن إهلاك قوم لوط ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ أي أصابها السرور بذلك فضحكت استبشارًا بهلاكهم، فلهذا جوزيت بالولد ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ أي بأنها ستلد ولدًا اسمه إسحاق ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ وهذه بشارة ثانية بولادة ولد لإسحاق اسمه يعقوب. ويستدل من هذا أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، وهذا من أحسن الاستدلال[1] وأحكمه. وإلا فما علينا إلا أن نتصور يعقوب ولد من أبيه إسحاق الذي ذبحه أبوه إبراهيم طفلًا صغيرًا!!؟؟

(١) راجع تعليقنا على هذا... في كتابنا «تيسير العلي القدير» (ج٢ سورة هود، الآية ٧١).

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ
قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٢٣٠

(٧٢) ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ أي تعجبت جدًا كيف تلد وهي عجوز كبيرة السن بلغت التسعين من عمرها ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ أي لا سيما وأن بعلها هذا أصبح شيخًا يبلغ المائة من عمره لا تحمل منه النساء ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي بالغ بالعجب بالنسبة لسنة الله.

(٧٣) ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الملائكة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي كيف تعجبين من أمر الله وأنه سبحانه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي لا تعجبي من ذلك، فإن الرحمات والبركات منزلة عليكم أنتم آل بيت إبراهيم من الله الحميد المجيد؛ فلا عجب، وإنه سبحانه فعال لما يريد جلّ جلاله وعزّ في علاه.

(٧٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي فلما ذهب عنه الخوف ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد وولد الولد، أي إسحاق ثم يولد منه يعقوب ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي يجادل الملائكة الذين أرسلهم الله إليه بالبشرى ثم إلى قوم لوط بالهلاك خوفًا منه على لوط ابن أخيه وعلى المؤمنين الذين آمنوا معه أن يصيبهم الهلاك والدمار المنتظر.

(٧٥) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ أي لا يعجل في أموره، كثير التأوّه، رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار.

(٧٦) ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ أي أعرض عن الجدال في قوم لوط، فإن لوطًا ومن آمن معه لا شك أن الله سينجيهم إلا امرأته الكافرة فسيصيبها ما سيصيبهم ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكهم وتدميرهم ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي لا بدّ ولا محالة أنه سيأتيهم عذاب لا يرد عن القوم المجرمين الذين كفروا بالله وهتكوا حرمات الله.

(٧٧) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي ولما جاءت الملائكة التي أرسلها الله في صورة غلمان حسان مردًا، أي ساء لوطًا مجيئُهم إليه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي خشي أن يصيبهم من قومه مكروه ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وكان لا يعلم أنهم ملائكة، فخاف عليهم وعرّض بكلامه أن ينصرفوا عنه وأنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، وكرّر ذلك القول مراتٍ عليهم لعلهم ينصرفون فلا يسوؤنه في ضيفه.

(٧٨) ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يهرولون إلى بيت لوط بقصد الاعتداء على ضيفه ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يأتون الرجال شهوة من دون النساء!!! ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي هؤلاء نساؤكم وزوجاتكم هنَّ أطهر لكم لأنهن حلال لكم، ووصف نساءهم بأنهن بمنزلة بناته، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أي اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه.

(٧٩) ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي إنـك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهنّ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي ليس لنا غرض إلاّ في الذكور، وأنت تعلم ذلك فلا فائدة في نصيحتك.

(٨٠) ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي قبيلة تشد أزري ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي لو أن لي ذلك لحُلْتُ بينكم وبين المعصية النكراء.

(٨١) ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ﴾ أي قالت الملائكة يا لوط ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي نحن ملائكة أرسلنا الله إليك فلا تخف ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ أي إن قومك لن يصلوا إليك بسوء ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي بمن معك من المؤمنين جميعًا ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ والسُّرى لا يكون إلا في الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إلى ورائه أبدًا عندما يسمع نزول العذاب بالقوم الكافرين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ لا تسري معكم في الليل ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي لا بد أن يصيبها من الهلاك ما سيصيبهم منه ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي إنَّ موعد هلاكهم هو الصبح ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ وموعده ساعات قلائل.

تشفع إبراهيم في قوم لوط بسبب أن فيهم مسلمين ولو واحدًا

فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ
شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ
وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ
وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ
أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم
بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن
نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ
إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ
أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ
مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

٢٣١

﴿٨٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي مدينة سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾ أي نكسناها رأسًا على عقب ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أي من طين متحجّر قوي شديد كبير ﴿مَّنضُودٖ﴾ أي متلاصق بعضها ببعض في نزولها عليهم.

﴿٨٣﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلّمة كل حجر عليه اسم صاحبه، نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين من القرى، فتبعتهم الحجارة حتى أهلكتهم فلم تبق منهم أحدًا، وذلك بعد أن اقتلعها جبريل هي والقرى التي حولها واحتواها بجناحه حتى بلغ بها أعلى السماء، ثم قلبها فأهلكها الله وما حولها من القرى ثم أمطر عليهم حجارةً من سجيل ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبّه بهم في ظلمهم ببعيد. وفي الحديث: «من وجدتموه يعمل عملَ قومِ لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» [٤٤٩]. وذهب الإمام الشافعي في قوله عنه وجماعة من العلماء: أن اللائط يقتل سواء كان محصنًا أو غير محصن عملًا بهذا الحديث. وذهب أبو حنيفة: أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿٨٤﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين رسولًا منهم وهو شعيب ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ أي ما لكم من معبود بحقّ إلا هو سبحانه فلا تشركوا به شيئًا ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ فقد كان أهل مدين مع كفرهم يطفّفون الميزان ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي تمتلكون مالًا كثيرًا وثروة واسعة فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته، والإضرار بعباده بتطفيف الميزان والمكيال، أي تنقصونها عليهم، فالنعمة التي أنتم فيها تغنيكم عن هذا التطفيف ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ أي محيط بكم لا تستطيعون الإفلات منه، وهو عذاب يوم القيامة فلا تلْقوا الله فيه وأنتم كافرون.

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي لا تنقصوهم من حقّهم شيئًا ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ وقد كانوا أيضًا يقطعون الطريق فنهاهم الله تعالى عن ذلك أيضًا على لسان نبيهم ﷺ.

﴿٨٦﴾ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي إن ما يفضل لكم من الربح من بعد وفاء الكيل والميزان هذه البقيّة خير لكم من أكل أموال الناس بالباطل ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ولا ينتفع بالانتهاء عما تقدّم إلا المؤمنون، أو بمعنى إن كنتم مصدقيّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي لست عليكم رقيبًا إنما الرقيب هو الله تعالى، فافعلوا الخير لمرضاته لا لغيره.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ أي هل صلاتك ودينك يا شعيب ﴿تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أي أن نتخلّى عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا وأجدادنا ونترك دينهم لنتبع دينك الذي أنت عليه ونعبد إلهًا واحدًا فحسب!!!؟ ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ أي أصلاتك تأمرك أن نفعل نحن في أموالنا ما تشاؤه أنت وندع ما نشاؤه نحن وما يجري التراضي بيننا ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ على طريقة الاستهزاء، أي إن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك من الحلم والرشد.

﴿٨٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ أي لم أكن أنهاكم عن أمر ثم أرتكبه ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ أي إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي ما صرت موفقًا هاديًا نبيًا مرشدًا إلا بتأييد من الله سبحانه، وعليه توكلت في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم، وإليه أفوّض أمري فيما يختاره لي وأنيب راجعًا إليه تعالى.

من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به، دعوة شعيب قومه لعبادة الله وحده

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ
قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم
بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ
ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ
مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ
سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ
كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾

٢٣٢

(٨٩) ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ أي لا تحملنّكم عداوتي على ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ أي ما أصاب هؤلاء الأقوام من العذاب والنقمة كالطوفان والغرق والريح والصيحة وما حلّ بقوم لوط ليس بعيدًا عن أذهانكم أسبابه.

(٩٠) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ مما سلف من ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي ارجعوا إليه وأقلعوا عن الذنوب ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ أي عظيم الرحمة للتائبين إليه، وبليغ المودة بمن يحبه ويطيع أوامره وينتهي عن نواهيه، فيلطف به ويسوق الخير إليه ويدفع الشرَّ عنه.

(٩١) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي تأتينا بأمور لا نفهمها، ولا خبر لنا بها إلاَّ منك من الأمور الغيبية كالبعث والنشور ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا﴾ أي واحدًا ذليلًا لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أي ولولا أن قومك أعزاء علينا لرجمناك بالحجارة، وأما أنت فلست عزيزًا علينا.

(٩٢) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتتركوا قتلي مراعاةً لهم ولا تحفظوني مراعاة لله وإجلالًا له سبحانه ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ أي نبذتموه خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تراقبونه ولا تعظمونه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ بكم في جميع صفاته العُلى وسيجازيكم على أعمالكم بما تستحقون من العقوبة المتكافئة معها.

(٩٣) ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي اعملوا مكنتكم وما تستطيعونه من التمكن البالغ ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ كذلك أعظم ما أتمكن منه من العمل ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ أي يقهره ويذله ويهينه ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ أي وسوف تعلمون أيضًا من هو الكاذب منا أو منكم ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ أي وانتظروا ماذا سيحل بكم من نقمة الله تعالى، وإنني منتظر لما يقضي الله به بيننا من الحق.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي وقع بهم ما كانوا يوعدون ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي أنقذنا حزبنا شعيبًا والذين أجابوا دعوته برحمة منا أمالت قلوبهم من الكفر إلى الإيمان الثابت ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي ظلموا أنفسهم بإبائهم للإيمان ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ التي صاح بها جبرائيل عليه السلام حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، واقتلعت قلوبهم من صدورهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي هامدين ميتين لا حراك بهم.

(٩٥) ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ أي كأن لم يقيموا فيها ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ أي ألا سحقًا لمدين قوم شعيب كما سُحقت ثمودُ قومُ صالح، وكانوا جيرانهم في الدار وأشباههم بالكفر وقطع الطريق، وكانوا أيضًا عربًا مثلهم، أي متقاربين في الدار والكفر والجنس.

(٩٦) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ أي لقد أرسلنا موسى إلى فرعون بالمعجزات التسع التي تقدم ذكرها في أكثر من موضع في هذا التفسير، والسلطان المبين هي معجزة العصا فهي وإن كانت من التسع المشار إليها إنما كانت أبهرها وأعظمها.

(٩٧) ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي أرسلنا موسى إلى فرعون وقومه فلم تنفعهم تلك الآيات ولا المعجزات الباهرات، فضربوا بها جميعًا عرض الحائط ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي طريقته التي كان عليها من الغي والضلال والزور والبهتان وادعائه الربوبية، وكذلك ادعائه الألوهية والعياذ بالله تعالى ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي ليس ما كان عليه فرعون أمرًا رشيدًا راشدًا ولا مرشدًا، إنما هذه الصفات كانت لموسى عليه الصلاة والسلام فهو الرشيد الراشد المرشد، وأراد أن يهدي فرعون سبيل الرشاد ولكنه اختار طريق الغيّ والفساد.

حل بقوم شعيب كما حل بثمود، ولم ينفع رشد موسى غواية فرعون

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ
ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ
ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ
ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى
ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

(٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي يتقدم قومه يوم القيامة سابقًا لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي إنه لا يزال يتقدمهم وهم في أثره حتى يدخل وإياهم النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ لأن الوارد إلى الماء إنما يرده ليطفئ حر العطش ويذهب الظمأ، والنار على ضد ذلك، وإن لفرعون الحظ الأوفر من هذا الورد والعذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزّمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢١-٢٦]. فماذا يقول الذين يعتقدون بإيمان فرعون ونجاته من النار؟ نعم ماذا يقولون بهذه الآيات المتقدمات التي تؤكد دخوله النار، وأذاقه الله نكال الآخرة والأولى، فإن استغفروا وإلا فنذعُوه تعالى أن يحشرهم مع فرعون أينما كان، ويحشرنا مع موسى في أعلى الجنان.

(٩٩) ﴿وَأُتْبِعُوا۟﴾ أي فرعون وقومه ﴿فِى هَـٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ أي طردًا من الرحمة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي وأُتبعوا يوم القيامة لعنةً أيضًا؛ فتلك لعنتان، هذا عطاؤهم يوم القيامة ورفدهم وبئس الرفد المرفود، أي بئس اللعنة رفدهم المرفود، أي عطاؤهم المعطى لهم من اللعنات الباقيات ويشاركهم في ذلك من يقول بنجاته.

(١٠٠) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي هـذا الذي ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ يا محمد هو من أنباء البلاد السالفة ﴿مِنْهَا﴾ أي من تلك البلاد ما هو ﴿قَآئِمٌ﴾ أي عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها هالك.

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ما ظلمهم الله، لأن الله تعالى يستحيل عليه الظلم. وفي الحديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا...» [٤٥٠]. ولكن ظلموا أنفسهم بكفرهم فأردوها مهالكها ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي إن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لم تنقذهم ولا منعت عنهم العذاب لما جاءهم من الله ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي غير هلاك ودمار وخسران.

(١٠٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ أي هكذا يأخذ الله أهل القرى الكافرة ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي عظيم الألم، شديد الوقع.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي إن في ذلك الأخذ لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي لمن خشي عذاب الله في الآخرة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ أي يوم عظيم ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يحشرهم الله تعالى فيه ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ تشهده الخلائق جميعًا.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي معلوم معدود.

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي ذلك اليوم ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي أهل المحشر ﴿شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي كل بحسب عمله... الخوف والهول والهلع.

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي كفروا بما جـاء به الأنبياء ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ مصيرهم و﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أي ترديد النفس من شدة الخوف.

(١٠٧) ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي باق دائم أبدًا، والعرب كانوا يصفون الشيء الدائم: هذا دائم دوام السماوات والأرض يعنون بذلك: أبدًا. فخاطبهم الله بما يتعارفون عليه بينهم من التعابير ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وهذا الاستثناء لعصاة الموحدين ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي لا يردّه عن مـراده أحد، ولا يريد شيئًا إلاَّ طبق الحكمة الموصوف بها سبحانه وتعالى وتقدّس.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ أي علم الله منهم أنهم سيختارون أسباب سعادتهم، وهي الإيمان والعمل الصالح، فكتب ذلك وقدّره عليهم فكانوا من السعداء ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ليعلم أن تنعيمهم ليس واجبًا بذاته عليه، بل هو التفضل والكرم والمنة ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير منقطع بل هو دائم أبدًا.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ
﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ
فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي بلا حجة ولا برهان إلاّ اتباع الآباء في الجهالات ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أي كما وفيناآباءهم من العذاب لا ينقص من عذابهم من شيء.

(١١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فمن مؤمن به ومن كافر ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي لولا أن قدّر الله بأن يؤجل العذاب إلى أجل معلوم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين قومك يا محمد وبين قوم موسى فأُثيب المحق وعُذب المبطل، فلا يغيظك تكذيب قومك لك فلك أسوة بالأنبياء قبلك، فلقد كُذِّبوا كما كذَّبكَ قومك ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن المكذبين بالقرآن لفي ريب منه.

(١١١) ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ وإنَّ كل المختلفين ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ أي إلاّ ليوفينّهم ﴿رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وسيجازيهم عليها بما يستحقون من الثواب أو العقاب ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعًا خيرها وشرها ظاهرة كانت أو باطنة.

(١١٢) ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي على العمل بما أمر ربك، ولا يكون العمل مستقيماً إلا إذا كان خالصًا لوجه الله وطبق ما أمر الله ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي وكل من آمن بك وترك الكفر فعليه أيضًا أن يستقيم؛ لأن الخطاب عام للأمة ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ أي لا تتجاوزوا الحد الذي شرعه الله لأن الغلو والإفراط في الطاعة والخروج عن الحد الشرعي منهيٌّ عنه. وفي الحديث: «... أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [٤٥١]. وفي الحديث أيضًا: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» [٤٥٢]. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي بصير بأعمال عباده وهو فوق سبع سماواته لا تخفى عليه خافية منهم.

(١١٣) ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي هم الذين طغوا عن الحد الشرعي، فلا تميلوا إليهم ولا تستهويكم أعمالهم وتعتمدوا عليهم، وهذا عام في كل ظالم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بسبب الركون إليهم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ليس لكم ما ينقذكم منه ولا ناصر يخلِّصكم من عذابه وأليم عقابه؛ لأنه سبق ونهاكم عن ذلك.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ وهي صلاتا الفجر والعصر، ولعلّها نزلتا قبل فرض الصلوات الخمس، فقد كانت الصلاة صلاتين: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وهذه صلاة الليل كانت فرضًا عليه ﷺ وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ﷺ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة. كما جاء في الحديث: «يا معاذ: أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلقٍ حسن» [٤٥٣]. ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء والعافية والبلاء.

(١١٥) ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم بل يضاعفها لهم أضعافًا مضاعفة إلى ما شاء الله.

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي فهلّا كان من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المراد به النفي، أي ما كان فيهم ذلك ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا فنجوا ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالفساد وترك النهي ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ من الملك والتجبر في الأرض وترك الحق ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ بتجبرهم ومعاصيهم وبعدم إنكار أحد منهم حتى فاجأهم العذاب.

(١١٧) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي ما كان الله سبحانه لينزل بأسه وعذابه بقرية ويهلكها ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي مؤمنون.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ
ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ
فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ — ترتيبها ١٢ — آياتها ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ
بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

٢٣٥

(١١٨) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ على أديان شتّى.

(١١٩) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي باستثناء من رحمهم من الخلف والاختلاف، ورحمهم باتباع الأنبياء والرسل الذين تمسكوا بما أنزل الله من الدين القويم والصراط المستقيم، فكانوا من الفرقة الناجية وهم على مثل ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ذلك اليوم ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي ما خلقهم إلاّ للرحمة، فإن أهل رحمته لا يختلفون ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي سبق في علمه تعالى فتمت كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لا بد من أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، ممن يستحقون العذاب، ولا يظلم ربك أحدًا من خلقه.

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَاءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي المتقدمين وأممهم وما قاسى الأنبياء من التكذيب والأذى، وما كان من نصره تعالى للمؤمنين الذين هم حزبه وأهل طاعته، وخذلان أعدائه الكافرين، كل هذا من ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ليكون لك أسوة بالأنبياء ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي هذه السورة ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ تردع الكافر ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تذكرهم فيتعظون بها.

(١٢١) ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا ما هو باستطاعتكم وما أنتم عاملوه ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ ما سيرضي ربنا مما أمرنا به من الدعوة إليه إلى أن يقضي الله أمره.

(١٢٢) ﴿وَٱنتَظِرُوٓا﴾ ما يعدكم الشيطان ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما يعدنا ربنا من النصر لدينه والغلبة والقهر لكل من يعاديه.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم غيبها ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي معاد الأمور إليه فيقضي بين عباده بالعدل ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي أخلص العبادة له والتوكل عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى ما عليه مُكذّبوك يا محمد، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

آخر تفسير سورة هود ولله الحمد والمنّة والثناء الحسن

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ

مكية إلا الآيات ١، ٢، ٣، ٧ فمدنية
وآياتها ١١١، نزلت بعد هود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓر﴾ هذه الأحرف المقطعة خير ما يقال فيها: كما قيل في أول سورة البقرة ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي هذه الآيات آيات القرآن المظهر للحق من الباطل والمبيِّن حلاله وحرامه وإعجازه فلا يعارض.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ ذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأشرفها، ولهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة في أشرف الأمكنة وأشرف شهر وليلة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهمونه وتطبقونه.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وقد ورد في سبب نزول هذه السورة حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [٤٥٤]. ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي بوحينا إليك هذا القرآن ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل تنزيله عليك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن علم خبر يوسف وما صنع به إخوته.

(٤) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ أي حين قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ أي في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء حق. وتأويلها: أنَّ الأحد عشر كوكبًا هم: إخوة يوسف، والشمس والقمر: أبوه وأمه، ساجدين سجود تحيةٍ له.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ
يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ
بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ
أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

(٥) ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ أي يحتالون في هلاكك حسدًا، لعلمهم بتأويلها فأشفق أبوه عليه من حسد إخوته، وأوصاه ألاّ يقصص رؤياه على إخوته ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة. وفي الحديث: «إذا رأى أحدكم[1] ما يحب: فليحدِّث به، وإذا رأى ما يكره: فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من شرّها، ولا يحدِّث بها أحدًا، فإنها لن تضره» [٤٥٥]. ومن هذا.. يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر. كما ورد في الحديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كلَّ ذي نعمة محسود» [٤٥٦].

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي يختارك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي تعبير الرؤيا وهو بيان ما يؤول أمر المنام إليه ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي بالإيحاء إليك وبعثك بالرسالة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي أهل بيته ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أي كما أتمها عليهما بالنبوة والرسالة وبإنجاء إبراهيم من النار واختياره لبناء بيته العظيم بمكة وبناء بيت المقدس بعده ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته ﴿حَكِيمٌ﴾ بأفعاله.

(٧) ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي في خبر يوسف وقصة إخوته عِبَر لمن سأل عنها، وقد قيل: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فأخبرهم بها كما في التوراة فعجبوا من ذلك مما دلّ على صدق محمد ﷺ في رسالته حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم ولا نظر في الكتب لأميّته، ومع ذلك فإن أكثرهم لم يؤمنوا به.

(٨) ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ أي بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي كيف أحبَّ أبونا يوسف وأخاه بنيامين -وكان شقيقه- ونحن جماعة كثيرة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خطأ ظاهر في هذا التفضيل.

(٩) ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي اجعلوه في أرض فلاة تأكله السِّباع ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي تصفو محبته لكم ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد يوسف ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي بالتوبة من بعد قتله، ومن هنا يعلم أنَّ إخوة يوسف ليسوا أنبياء كما ظن البعض؛ لأن هذه السجايا من محاولة القتل والكذب وقطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرحمة لا تتفق مع ما للأنبياء من سجايا مثالية كريمة.

(١٠) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي أحدهم ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ غيابة الجبِّ: أي قعره، فاتفقوا على ذلك وتوقعوا أن تلتقطه السيارة من القوافل المارّة فيأخذوه.

(١١) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي قائمون بمصالحه ونرعاه ونعتني به.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى النزهة في الصحراء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي ينشط ويركض ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي نحفظه ونحوطه.

(١٣) ﴿قَالَ﴾ أي يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي يشقُّ عليَّ مفارقته لحين رجوعه لفرط محبته ليوسف ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي أن تسهوا عنه فيأكله الذئب وأنتم تسرحون وترتعون وتلعبون، وكانت أرضهم كثيرة الذئاب.

(١٤) ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي لئن عدا الذئب عليه واستطاع أخذ يوسف منا وافتراسه؛ ونحن هكذا عصبة قوية وجماعة كثيرة ثم لا نحميه منه، ولا نذودُ عنه ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي إنّا إذًا لخاسرون صفة الرجال، وعاجزون وهالكون.

(١) أي رأى رؤيا.

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ
دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

أمر العزيز امرأته أن تكرم مثوى يوسف فراودته عن نفسها!!!

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ أي بيوسف من عند أبيه بعد مراجعتهم له بذلك ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي اتفقوا جميعًا على إلقائه في أسفل البئر، ولما أخذوه من عند أبيه وهم يظهرون له الإكرام شرحًا لصدره، وما أن تواروا عن عين أبيه إلاَّ وشرعوا يؤذونه شتمًا وضربًا ثم ربطوه بحبل ودلّوه في الجبِّ، فكان إذا لجأ إلى واحدٍ لطمه وشتمه وإذا تشبَّث بحافة البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة في وسطه فقام فوقها ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ فسبحان من يُنجد عبده بلطفه ورحمته، وينزل اليسر حال العسر فقد أوحي إلى يوسف تطبيبًا لقلبه وتثبيتًا له: لا تحزن مما أنت فيه وسينصرك الله عليهم ويعلي درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم إذ ذاك لا يعرفونك ولا يشعرون بك أنك يوسف.

(١٦) ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ خداعًا لأبيهم بعد ما ألقوا يوسف في أسفل الجبِّ فقد رجعوا ليلًا يبكون وقد اختاروا العتمة؛ ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار بالكذب، وتنفيقًا لمكرهم وغدرهم فلما سمع أبوهم أصواتهم بالبكاء فزع وقال: ما أصابكم!!؟ أين يوسف!!؟

(١٧) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي يسابق بعضنا بعضًا ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي ما أنت بمصدِّقنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي نحن نعلم أنك لا تصدقنا ولو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟

(١٨) ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مفترًى، فقد أخذوا جديًا فذبحوه ثم غمسوا قميص يوسف في دمه وأتوه به وليس فيه خرق، فقد نسوا أن يخرّقوه فلم يتقنوا أكذوبتهم التي لم تنطلِ على أبيهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فعلتموه به ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فسأصبر صبرًا جميلًا لا جزع فيه ولا شكوى إلى الناس ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ من الكذب والاحتيال والنِّفاق.

(١٩) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي فجاءت قافلة فأرسلوا مَنْ يَرِدُ الماء ليستقي للقوم ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي أرسلها ليملأها ماءً فتشبَّث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه، ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ فنظر إليه قال: غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقال لأصحابه: البشرى. فقالوا: ما وراءك؟ قال: هذا غلام في البئر ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي وأسرَّ الواردون عن بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضّعناه من أصحاب الماء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بما فعله إخوة يوسف ومُشترُوه، والله قادر على تغيير ذلك وله الحكمة البالغة فيما قضى وقدّر، وهو اللطيف الخبير.

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي باعه إخوته ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وادَّعوا أنه عبدهم وقد أبق فباعوه بعشرين درهمًا وحلَّة ونعلين إلى السيارة التي أخرجته من البئر ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي كان إخوته فيه من الزَّاهدين، أي غير الراغبين فيه.

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ومن ألطاف الله بيوسف أن قدَّر أن يكون مشتريه عزيزَ مصر حتى يعتني به ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في بلاد مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي تعبير الرؤيا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي لا يمانَع بل هو الغالب لما سواه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون حكمته وفعله لما يريد.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي ولما بلغ الحلم، أي صار رجلًا ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني النبوّة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كان محسنًا في عمله يراقب الله فيه، ولا شكَّ أنَّ مرتبة الإحسان من أولى أخلاق الأنبياء، فلا يفتُرُ النبي عن الشعور بمراقبة الله له.

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ
وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا
ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ
قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ
أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ
هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

٢٣٨

(٢٣) ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي دعته إلى نفسها وذلك لأنها أحبّته حبًا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجمّلت له ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ عليه ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ هي لغتهم ذلك الزمان بمعنى أنها تدعوه لوقاعها ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعتصم بالله من فعل ما لا ينبغي فعله من نبيٍّ مثلي ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ جل جلاله ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ أي أنقذني من الجبّ وهيأ لي مثوىً كريمًا في بيت العزيز ثم بعثني رسولًا فكيف أقابل إحسانه بمعصيته!!؟ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بفعل المعاصي.

(٢٤) ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ أي دعته لوقاعها ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ الذي شرّفه به، وهو النبوة، فقد كان نبيًا رسولًا قبل أن تدعوه لنفسها؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي مبلغ الرجال في بيتها ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾، أي النبوّة، فلما وجد البرهان امتنع الهمُّ لأنه نبي، وسليل الأنبياء، فهو الكريم يوسف، ابن الكريم يعقوب، ابن الكريم إسحاق، ابن الكريم إبراهيم خليل الرحمن عليهم جميعًا وعلى نبيِّنا الصلاة والسلام ولذا قال يوسف فورًا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ واستبق الباب هاربًا منها. فلم يَدَعْ أيَّ مجال للهمّ بها قطعًا ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ في جميع أموره ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي المُجْتَبَيْنَ المطهّرين المختارين المُصطفَيْنَ الأبرار. فمن كانت هذه سجاياه الكريمة لا يفحش، ولا يقع منه الهمُّ بها ولا بغيرها لعصمته، هذا ما استنبطتهُ من سياق الآية بأن البرهان هو معرفته المتحقَّقة بأنه نبيٌّ، فلا يليق به إجابتها إلى ما دَعته إليه، والحمد لله على توفيقه.

(٢٥) ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ أي وخرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته وتشبَّثت بقميصه من دُبُر فقدَّته ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾ أي وبينما هي في أثره؛ إذ فاجأها زوجها عند الباب، فغيّرت موقفها فورًا بمكرها وكيدها متنصِّلة أمام زوجها وقاذفةً يوسف بدائها ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ أي فاحشةً ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي إلا أن يحبس أو يضرب ضربًا شديدًا، ويؤدَّب تأديبًا غليظًا.

(٢٦) ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ أي هي التي دعتني إلى نفسها، وأنا الذي استعصمتُ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ وهو صبيٌّ في المهد، أنطقه الله، روي عن عدة من الصحابة والتابعين. وفي الحديث: «وتكلم أربعة وهم صغار، فذكر فيهم شاهد يوسف»(١) [٤٥٧]. وشهد هذا الشاهد وقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي إن كان القميص قدَّ من أمام: فصدقت في ادّعائها وكذب في تبرئة نفسه مما رمته به.

(٢٧) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ أي من خلف: ﴿فَكَذَبَتۡ﴾ بادعائها عليه ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما برأ به نفسه.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ زوجها ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ أي من خلف وتأكد من براءة يوسف ﴿قَالَ﴾ أي زوجها ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ أي إن هذا البهتان الذي رميت به يوسف من جملة كيدكنَّ يا معاشر النساء، إن كيدكن ومكركن عندما يصدر عنكن، إنه لكيدٌ عظيم.

(٢٩) ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ أي لا تذكره لأحد قطّ ثم التفت إلى زوجته وقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ الذي وقع منك بإرادة السوء بيوسف بما قذفته به وهو بريء من كل ذلك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ أي إنك أنت التي أخطأت وأثمت بمحاولتك الفاجرة.

(٣٠) ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي نساء الكبراء في مصر يتحدثن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي أنها حاولت فعل الفاحشة مع غلامها الذي ملك عليها شغاف قلبها حبًا وتعلقًا به ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي إنها ضلّت في فعلتها طريق الرَّشاد.

رأى يوسف البرهان فامتنع منه الهم، والبرهان هو تحققه بمقام النبوة

(١) روى ابن جرير بإسناد صحيح عن ابن عباس أنّ شاهد يوسف «كان رجلًا ذا لحية».

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
(٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧)

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي قلن ذلك القول فيها ليتوصلن إلى مشاهدته لما سمعن بحسنه وبهائه، عندها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي تدعوهنَّ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي مفارش ومخاد وطعامًا فيه ما يقطع بالسكاكين كالفاكهة ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ تريد أن تمكر بهنَّ بمكر أعظم من مكرهنَّ ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فخرج ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي أدهشهُنَّ حسنُه ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أثناء قطعهن الفاكهة ولم يشعرن لدهشتهن بحسن يوسف ويظنَّن أنهن يقطِّعن الفاكهة، بينما هنّ يحززن السكاكين بأيديهنَّ، فلما أحسسن جعلن يولولن ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ وتستعمل للتبرئة وهنا بمعنى أن هذا بريء من أن يكون بشرًا نظرًا لحسنه وبهائه، فقالت امرأة العزيز لهن: أنتن من نظرة واحدة إليه قطعتن أيديكن ولم تشعرن فكيف أُلام أنا؟ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعدما رأينا. وفي الحديث: أنّ رسول الله ﷺ مرّ بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أُعطيَ شطر الحُسْن» [٤٥٨].

(٣٢) ﴿قَالَتْ﴾ أي امرأة العزيز ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول هذا معتذرةً إليهنّ بأنَّ هذا حقيق أن يُحَبَّ لجماله وكماله ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي فامتنع وهكذا اجتمع في يوسف جمال الخَلق والخُلق، أي كان جميلًا مستعصمًا ثم قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ من الفاحشة ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فقلن له: أطع مولاتك، فاستعاذ يوسف من شرهنَّ وكيدهنَّ ومكرهنَّ بالله سبحانه.

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي من الفاحشة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي إن لا تكن منك أنت القُوة والمنعة والعصمة، لا تكن مني ولا عندي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي أخشى أن أقع وأكون من المذنبين. وفي الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله: إمام عادل -إلى أن قال-: ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله» [٤٥٩].

(٣٤) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي فاستجاب الله دعاءه بصرف كيدهن ومكرهن عنه وعصمه منهن؛ إنه سبحانه السميع للقول العليم بما في صدر يوسف من الإخلاص لربه.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي ظهر لهم، والضمير عائد للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر له ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي الدالات على براءة يوسف لا سيما اعتراف امرأة العزيز بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إيهامًا منهم للناس أنه هو الذي راودها عن نفسها، وسترًا للإشاعة، وقيل للحيلولة بينه وبين امرأة العزيز.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي في المنام ﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ أي ذلك في المنام أيضًا ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لما اشتهر في السجن بالجود والأمانة والصدق، وحسن السَّمْت وكثرة العبادة ومعرفة تعبير الرؤيا والإحسان إلى أهل السجن.

(٣٧) ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ أي جعل هذا الكلام مقدمة قبل تعبيره بيانًا لهما أنه يعبِّر عن علم ويقين حتى يكون عندهما ثقة بكلامه ولما سيدعوهما إليه من الإيمان ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ أي بما أوحاه إليَّ وألهمني إياه، وذلك بسبب ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي اجتنبت دين قوم كفروا بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا.

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ
ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ
مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ
﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ
سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾

(٣٨) ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ أي كانت لي العناية من الله لما تركت ملة الكفر، أي ما دنت بها يومًا ولكنني اتبعت ملة الأنبياء آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أي ملة الإسلام التي لا يقبل الله من عباده دينًا إلّا بها ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي لا ينبغي لنا أن نشرك بالله بعد إذْ هدانا واجتبانا ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي تفضل علينا بالوحي والنبوة وتفضل على الناس بجعلنا دعاةً لهم إلى دينه الذي ارتضاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم واتباعهم فيما أمروهم به من التوحيد ونهوهم عنه من الشرك.

(٣٩) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ومما يلفت النظر من أسلوب يوسف عليه السلام: أنه ما أجابهما إلى ما سألاه من تعبير رؤياهما، بل قدّم على إجابتهما لَفْتَ نظرهما إلى ما هو أهمُّ من تعبير الرؤيا وهو دعوتهما إلى دين التوحيد لما في ذلك التقديم من الأهمية العظمى، لا سيما وأن من أولى مهماته الدعوة إلى الله تعالى، فأقبل عليهما يخاطبهما: يا رفيقيَّ في السجن أيعبد الإنسان آلهة متعددة أم أنه يخلص فقط للإله الحق الواحد القهار؟ أي الذي ذلّ له كلُّ شيء وعنا كلُّ مخلوق لعزِّ جلاله وسلطانه.

(٤٠) ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي أنتما وقومكما ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي أنتم وآباؤكم الذين سميّتموها آلهة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي من دليل وحجة وبرهان على أنها آلهة، ثم أخبر ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي إن الحكم في ذلك، أي في العبادة بصحتها أو عدم صحتها هو لله وحده لا شريك له، فإنه قد ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي حكم أن تفردوه وحده في العبادة ولا تشركوا معه فيها أحدًا ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي المستقيم الصحيح الذي يحبُّه الله ويرضاه وأنني أدعوكما إليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولهذا كان أكثرهم مشركين. ولما فرغ من دعوتهما بدأ يفسّر الرؤيا.

(٤١) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ أي الذي رأى أنه يعصر خمرًا ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ أي الملك ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ وهكذا فإنه عليه السلام لم يعين كل واحد على حدة لئلاّ يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ فلما ذكر الصلب وأبهم صاحبه قالا: ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ وحاصله إن تحلّم بالباطل فإنه يُلزَمُ بتأويله، والله أعلم. وفي الحديث: «الرؤيا على رِجل طائر ما لم تعبّر فإذا عبرت وقعت» رواه أحمد. [٤٦٠].

(٤٢) ﴿وَقَالَ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ أي ساقي الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند الملك فيذكّره بشأنه وقصته ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي أنسى الشيطانُ ساقيَ الملك أن يذكر يوسف عند الملك ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: إن الله تعالى قدّر أن يُنسيَ الشيطانُ الساقيَ ذكر يوسف عند الملك، لأن يوسف نسي أن يطلب الفرج من الله وطلبه من الملك، فجوزي بأن قدّر له مكثه في السجن مدةً لا نعلم كم هي بالضبط، ولكن (البضع) هو ما بين الثلاثة إلى التسع، والله أعلم.

(٤٣) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ فقد قدّر الله في هذه الرؤيا التي رآها الملك السبب في خروج يوسف عليه السلام من السجن، معززًا مكرمًا، وقد هالت الملك هذه الرؤيا، وتعجب من أمرها فجمع الكهنة وكبار الدولة فقصّها عليهم وطلب تعبيرها فاعتذروا إليه.

قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى
بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ
ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٤) ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي أخلاط أحلام لا حقيقة لها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي حتى لو كانت صحيحة، لا معرفة لنا بتأويلها.

(٤٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي نجا من القتل وهو ساقي الملك ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي تذكر بعد حين وصية يوسف ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فابعثوني إلى يوسف الصِّدِّيق لأقصّ عليه هذه الرؤيا وأرجع إليكم بتأويلها الصحيح المستند إلى العلم.

(٤٦) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي فلما جاءه قال: يا يوسف يا أيها الرجل الكثير الصدق ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي أخبرنا بما تعلم مما علمك الله من تعبير هذه الرؤيا ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي كي أرجع إلى الملك ومن عنده من الناس فيعلموا فضلك ومعرفتك لفنِّ تعبير الأحلام، عندها بدأ يوسف يعبر له الرؤيا، من غير عتاب لنسيانه الوصية التي أوصاه بها ولا تعنيف، وهكذا أخلاق الأنبياء الصديقين.

(٤٧) ﴿قَالَ﴾ أي يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي متوالية متتابعة يأتيكم فيها الخصب والمطر، ففسّر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التي تستغلّ منها الثمرات والزروع وهنّ السنبلات الخضر ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي فالذي تحصدونه في كل سنة من السنين فاتركوه في سنبله ولا تفصلوه منها حفظًا له من الآفات إلا قليلًا مما تأكلون في تلك السنين، فلا بد من فصله عن سنبله لطحنه وخبزه وليكن ذلك قليلًا مقننًا.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سبع سنين مجدبة قاحلة ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي من تلك المخزونة والمتروكة في سنابلها، أي يأكل الناس مما ادّخرتم إبّان الأعوام الخصبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي تحبسون من الحبِّ لبذره، لأنَّ في استبقاء البذر تحصين الأقوات وبقاء لأنواع الحبوب.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي يأتي بعد السنين المجدبة ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي سنة فيها يغاث الناس بالمطر فيعود الخصب ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي يعصرون العنب والزيتون والسمسم وعصر الألبان من الضروع وما إلى ذلك، مما يغيث الله به عباده بالخصب بعد الجدب.

(٥٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أي بيوسف ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي جاء يوسف ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ أي رسول الملك امتنع يوسف من الخروج من السجن و﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى سيدك الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي فاسأل الملك أن يتعرّف ما شأن تلك النسوة وحالهن ليعلم صحة براءتي. ولا أريد أن يراني الملك بعين مشكوكٍ في أمري أومتَّهم بالفاحشة، وما أحب أن يراني إلا بعد استقرار براءتي عنده ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي إن الله عليم بكيدهن، ولقد استحسن نبينا ﷺ حزم يوسف، وصبره عن التسرع إلى الخروج من السجن، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو لبثت ما لبث يوسف ثم جاءني الداعي لأجبته» [٤٦١].

(٥١) ﴿قَالَ﴾ الملك بعد أن جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي هل وجدتن منه ميلًا إليكن ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وكانت امرأة العزيز حاضرة بينهن ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ظهر واتضح ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي في قول يوسف عليه السلام: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ أي ليعلمَ زوجي ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ إنما اعترفت بهذا على نفسي، أي أني راودته فقط، ولكن لم يقع المحذور الأكبر وبقي الأمر مجرد مراودة لهذا الشاب، لكنه امتنع واستعصم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي لا يرشد من خان أمانته.

(٥٣) ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ فالنفس عادة تتحدّث وتتمنّى، ولهذا راودته عن نفسه ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ من حيث هي نفس ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ وإن (ما) هنا بمعنى (مَن) أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم. ويقول ابن كثير في تفسيره: وكون هذا الكلام كلامها هو الأشهر والأليق، والأنسب لسياق القصّة ومعاني الكلام. وقد حكاه أيضًا الماوردي في تفسيره. كما وقد نصره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة. وقد قيل: إنه كلام يوسف عليه السلام، يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الآيتين، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن السياق يدل على أنه من كلامها بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام حاضرًا بل كان وقتئذٍ في السجن. وقد يجاب عن صدور كلامها الإيماني إمّا أنها قد آمنت أو أنها كانت تؤمن بتوحيد الربوبية كما كان يؤمن أكثر الأقوام به ويكفرون بتوحيد الألوهية.

(٥٤) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ لأنه تحقق من براءته وعفته، فأحبّ أن يستخلصه لنفسه معينًا ومشيرًا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي خاطبه وعرف فضله وبراءته ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي ذو مكانة وأمانة، فماذا ترى أن نفعل؟ فأشار يوسف بادخار محصولات السنين الخصبة في سنبلها إلى السنين المجدبة، قال: ومن لي بهذا؟

(٥٥) ﴿قَالَ﴾ يوسف للملك ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي ذو حفظ وعلم بها ويفهم منه أن المرء الواثق من نفسه يجوز له تزكيتها.

(٥٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هذا التمكين والقوة، هما من الله تعالى في الحقيقة ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي وَلِّيَ مكان العزيز ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ما أضعنا أجر صبر يوسف على أذى إخوته وعلى السجن.

(٥٧) ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حق الإيمان ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ حق التقوى، وهذا وصف حق لأوليائه تعالى وهذا إخبار بأن ما ادخره ليوسف أعظم مما خوّله في الدنيا، وقيل: إنّ الملكَ أسلم على يديه وزوّجه امرأة العزيز، والله أعلم.

(٥٨) ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ وكانت السنون المجدبة قد وافت فجاء إخوة يوسف يمتارون كبقية الناس فدخلوا عليه ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي لم يعرفوه، فسألهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم إلى بلادي؟ فقالوا: للميرة، فقال: لعلكم عيون. قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيّ الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر فهلك أصغرنا في

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ
ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجْرُ
ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧ وَجَآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ
أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣

البرية وكان أحبنا إلى أبينا وبقي شقيقه عنده ليتسلى به عنه، فأمر بإكرامهم وضيافتهم.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أوفى كيلهم ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ وهو (بنيامين) لأعلم صدقكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي المضيفين.

(٦٠) ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي وإن عدتم بدون أخيكم فليس لكم ميرة عندي ولا تأتوني بدونه أبدًا.

(٦١) ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي سنحاول إقناع أبيه ليسمح بسفره معنا وإننا سنفعل ذلك إجابة لما تطلبه منا.

(٦٢) ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ أي لغلمانه ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أي هي ثمن الميرة وكانت دراهم ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي في أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفرّغوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلينا لأنهم لا يستحلّون إمساكها.

(٦٣) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ بعد هذه المرة إن لم ترسل أخانا إليه كما وعدناه ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي نُعطَ الميرة بسببه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي محافظون.

استخلص الملك يوسف مشيرًا له لقاء إخوته به دون أن يعرفوه

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

٢٤٣

(٦٤) ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي كما قلتم يوم يوسف ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ولم تحافظوا عليه والآن تقولون ذلك من أجل سفر بنيامين ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فأخاف أن يكون مصير بنيامين كمصير يوسف ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي حفظ الله خير من حفظكم.

(٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي لما فتحوا أوعيتهم وجدوا فيها ثمن بضاعتهم رُدَّ إليهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي ماذا نريد بعد هذا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ وقد أوفى لنا الكيل ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نأتي بالطعام لهم ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أي نحافظ عليه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا، لأن يوسف كان يعطي كل رجل حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي سهل على الملك لسخائه.

(٦٦) ﴿قَالَ﴾ أي يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حتى تعطوني عهدًا ومواثيق بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ أي ببنيامين ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا أن تُغلبوا كلكم فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين أو يهلكوا دونه ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي لما أعطوه المواثيق والعهود على ذلك ﴿قَالَ﴾ أي يعقوب ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي مطلع رقيب لا يخفى عليه خافية، فهو المعاقب لمن خانَ في عهده وفجر في الحلف به، والحسيب عليه.

(٦٧) ﴿وَقَالَ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ إن يعقوب عليه السلام أوصى بنيه الذين جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أمرهم ألّا يدخلوا من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة خشية من أعين الناس التي قد يقدِّر الله فيها الإصابة، فإن العين حقٌّ تستنزل الفارس عن فرسه، وذلك أنهم كانوا إخوة أحد عشر وكانوا ذوي جمال وبهاء وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فإذا دخلوا من باب واحد فقد تصيبهم أعين بعض الحاسدين، أما إذا دخلوا من أبواب متفرقة فلا يلفتون النظر، وهذا من باب تعاطي الأسباب ولا يدفع قدر الله إذا قدره سبحانه، ولذا قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي لا أدفع عنكم ضررًا ولا أجلب إليكم نفعًا بتدبيري هذا ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي إن حكم الله لا يشاركه فيه أحد إنما أتوكل عليه وحده، وإن الحذر لا يدفع القدر، وأمر أولاده أن يتوكلوا على الله وعليه فليتوكل المتوكلون.

(٦٨) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب متفرقة ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي إن هذا التدبير لا يغني شيئًا، بل إن قدر الله هو الغالب ولا يغلبه شيء ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي شفقته على أولاده ومحبته لسلامتهم، أظهرها لهم ووصاهم بها غير معتقد بأن لتدبيره تأثيرًا في دفع ما قضاه الله عليهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي وإن يعقوب لصاحب علم، لأن الله علمه بما أوحاه له أن الحذر لا يدفع القدر وما قضاه كائن لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بذلك كما ينبغي، ومع ذلك فإن أخذ الأسباب مندوب إليه كتناول الدواء للمريض مع الاعتقاد الجازم بأن الشفاء من الله وحده لا شريك له، وأخذ الدواء إنما هو أسباب قد يقدر الله فيها الشفاء وقد لا يقدر، وله المراد فيما يريد.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي دخل إخوته عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وذلك أن يوسف أمر بإنزال كل اثنين في غرفة فبقي أخوه بنيامين منفردًا، فضمه إليه ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف، وذلك سرًا دون أن يطّلع عليه إخوته ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بالذي كانوا صنعوه بي وأمره بكتمان ما سيدبره من العمل بما يؤول إلى إبقائه عنده.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

٢٤٤

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي حمّل إبلهم طعامًا ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي أمر غلمانه أن يضعوا صاع الملك في متاع بنيامين، من حيث لا يشعر أحد، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أي ونادى مناد: يا أصحاب العير إنكم لسارقون، وما كان يدري المنادي بما دبَّره يوسف من وضع الصاع في متاع أخيه بنيامين فنسَبَ المنادي السرقة إليهم، فكان غير كاذب في قوله لجهله بالمكيدة.

(٧١) ﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ أي حال كونهم مقبلين على من نادى ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي ما الذي فقدتموه؟

(٧٢) ﴿قَالُوا﴾ أي جماعة الملك ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي صاعه الذي يكيل به، وهو السقاية يشربون به ويكيلون به، وقيل: إنه من ذهب ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة، والمراد: ما يحمله البعير من الطعام جزاء لمن يردُّه ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمانة والكفالة، أي وإنني أكفل إعطاء من ردَّه حملَ بعير من الطعام.

(٧٣) ﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي إنكم لمتحقِّقون بأننا لم نأت لنفسد في أرض مصر ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ في يوم من الأيام.

(٧٤) ﴿قَالُوا﴾ أي فتيان الملك ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي ما جزاء من سرق إن وجدنا الصُّواع مع أحد منكم.

(٧٥) ﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي من وجد في رحله يُسلَّمُ إلى المسروق منه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي هكذا نحكم على السارقين في شريعتنا، وهذا ما يريد يوسف الإجابة عليه منهم.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل، ثم فتّش وعاء أخيه ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي استخرج السقاية من متاع أخيه، فقبض عليه واستاقه معه بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزامًا لهم بما يعتقدون، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي مثل ذلك الكيد علمناه ليوسف، وهذا من الكيد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ أي ما كان يحقُّ له أن يأخذ أخاه ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي في شريعته ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إنما كان ذلك في شريعة إبراهيم عليه السلام التي يدين بها إخوته، كما أنه ليس ليوسف أن يحكم في شريعة الملك، إنما يحكم بشريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولهذا مدحه الله تعالى بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ عالياتٍ ﴿مَّن نَّشَاءُ﴾ من عبادنا ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود.

(٧٧) ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي إن سرق هذا، فليس بدعًا في ذلك فقد سرق أخٌ له من قبل ويعنون يوسف عليه السلام، وهذا هو محض الافتراء ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي كتم الإجابة عن الكلام في نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، ﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ولم يقلها بلسانه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ والله أعلم بما تكذبون ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاهم بنيامين ليكون معهم فيرجعوا به إلى أبيهم لما تقدّم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردّوه.

(٧٨) ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي إن أباه شيخ كبير لا يقدر على فراقه، وكان يتسلّى به عن أخيه فيكون له بفراقه أيضًا حزن مضاعف أضعافًا كثيرة فيهلك حزنًا وأسىً فخذ أيًّا شئت منّا مكانه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي عاملتنا بالإحسان والإكرام، فأتمم إحسانك بأن ترد أخانا إلى أبيه وخذ منّا مَنْ شئت.

نجح يوسف بمكيدته واستبقى أخاه بنيامين عنده...؟

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ
ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٢٤٥

(٧٩) ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي نعوذ بالله معاذًا من أن نأخذ إلا من وجدنا صواعنا عنده ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده نكون ظالمين في دينكم وما تقتضي فتواكم التي استفتيناكم بها من قبل.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي لما يئس إخوة يوسف من إقناع يوسف لاسترداد أخيهم بنيامين بسبب الموثق الذي قطعوه لأبيهم برده إليه ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي انفردوا ﴿نَجِيًّا﴾ أي يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو الذي أشار بإلقاء يوسف بالجبِّ دون أن يقتلوه ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتردُّنَّه إليه ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي ما تقدَّم من إضاعته عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الخروج منها، ذلك أنه يستحي من أبيه أن يعود إليه وليس معه أخوه بنيامين ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ أي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنَّ أحكامه لا تجري إلّا على ما يوافق الحق ويطابق الصواب.

(٨١) ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ أي يخبرون أباهم بما قد وقع عسى أن يعذرهم ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي ما كنا ندري بأن بنيامين يسرق شيئًا، إنما سألنا العزيزُ: ما جزاء السارق؟ فقلنا: أخذه بحسب شريعتنا وشريعة آبائنا من قبل.

(٨٢) ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أي أهلها ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي أصحاب العير الذين رافقناهم عن صدقنا ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأُخِذ بسرقته، أي قولوا هكذا إلى أبيكم لعلّه يصدقكم.

(٨٣) ﴿قَالَ﴾ أي يعقوب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي قال لهم هذا كما قاله لهم يوم فقدانه يوسف وجاءوه بدم كذب! والصبر الجميل إنما هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى، بل يفوِّض أمره إلى الله ويسترجع ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي يوسف وبنيامين وروبيل ولده الأكبر الذي بقي في مصر كما تقدّم. قال هذا؛ لأنه راجح عنده أن يوسف لم يمت ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بما يقضي به في أفعاله وقضائه وقدره.

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم وقطع الكلام معهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي تأسَّف حزنًا على يوسف، وكأن غياب ولديه في مصر جدَّد له حزنه على يوسف ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي عمي من كثرة البكاء والحزن وهو ساكت يكظم الشكوى ولا يرفعها إلا إلى الله تعالى.

(٨٥) ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي قال بنوه له: إنك والله لا تفتأ تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مشرفًا على الهلاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي يؤثر فيك الحزن والغم حتى يُخشَى أن تكون من الهالكين فعلًا، أي يقتلك الحزن والغم والهم والبكاء.

(٨٦) ﴿قَالَ﴾ أي يعقوب ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ﴾ أي ما أشكو ولا أبث شيئًا من همي وحزني إلاَّ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له، وإنني أعلم من لطف الله وإحسانه وثوابه على المصيبة ما لا تعلمونه أنتم. فإنه يعلم أن يوسف حي ولا بد أن الله تعالى الذي يجيب المضطرين سوف يجيب ما يبغيه من جمع الشمل به وبأخويه على أحسن حال، وكما يشاء الله ويرضى.

عرف يوسف إخوته بنفسه وأرسل قميصه لأبيه الذي وجد ريحه من مصر

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا
وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

(٨٧) ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي اذهبوا فتعرّفوا على أخبار يوسف وأخيه ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من فرجه ورحمته ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله وعظيم صنعه، وخفيِّ ألطافه.

(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي مسّنا وأهلنا الجوع والحاجة والجدب وقلة الطعام. والبضاعة المزجاة هي البضاعة الرديئة المردودة في الأسواق كما يقول أبو حامد الغزالي: «بضاعتي في الحديث بضاعة مزجاة» ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي تمامًا رغم بضاعتنا التي لا تساوي تمام الكيل ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ أي تصدَّق علينا بتمام الكيل الذي لا تساويه بضاعتنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما يجعل لهم من الثواب في الآخرة، وقيل: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ أي بردِّ أخينا إلينا.

(٨٩) ﴿قَالَ﴾ أي يوسف: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ أي أتذكرون ما فعلتم بيوسف من المعاملة الرديئة حين كنتم جاهلين عِظَمَ ما أنتم فاعلون؟ أما ما فعلوه بأخيه هو ما جرّوه على بنيامين من الهم والغم لفراق أخيه يوسف، أما أبوه فقد ناله منهم بسبب إضاعة يوسف ما قصّه الله فيما سبق من صنوف الأذى ولم يذكر أباه تعظيمًا لقدره ورفعًا له.

(٩٠) ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي إخوة يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي عرفوه لما ذكرهم بما فعلوا به فعلموا أنه لا يسألهم عن ذلك إلاّ هو ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ أي أنا يوسف الذي فعلتم به كذا وكذا، لكنه لم يقل هذا بل قال: أنا يوسف، وسكت؛ ليعلم من سكوته كل هذه المعاني ﴿وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾ أي باللقاء بعد الغيبة الكثيرة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ أي من يتق الله ويصبر على قضائه وقدره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المتقين الصابرين جزاء تقواهم وصبرهم على المصائب والنكبات.

(٩١) ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي فضلك علينا بما لقيت منّا وما صبرت على الأذى ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي اعترفوا بخطئهم استجلابًا لصفحه وعفوه.

(٩٢) ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي لا ألومكم ولا أعاتبكم ولا عليكم من شيء اليوم إنما أصفح وأسامح. ثم زادهم بالدعاء لهم ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي دعا الله لهم أن يغفر لهم ما فعلوه ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي لا يوجد في العالمين أرحم منه، بل هو أرحم الراحمين.

(٩٣) ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي يعود بصيرًا لا ضُرّ فيه ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي بجميع من في بيت يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ لمن بقي عنده من أهله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي إني لأشم رائحة يوسف، أي أن الريح حملت إليه رائحة يوسف من قميصه المرسل إليه ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا مخافتي من قولكم لي: أنني مسّني الكبر والخرف، لقلت لكم: إنني والله لأشم رائحة يوسف ولكن أخشى أن تُسفِّهوا قولي.

(٩٥) ﴿قَالُواْ﴾ أي الذين بقوا عنده من أهله ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي والله إنك ما زلت بدافع من محبتك ليوسف تخطئ تقدير الأمور أحيانًا، فتحكم عليها حكمًا خطأ، وقد تكون معذورًا لفرط حبك ليوسف فتجد ريحه في كل شيء.

• بقاء بنيامين بمصر جدد حزن يعقوب، فظل يبكي حتى عمي •

فَلَمَّا أَن جَاءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟
لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ
رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

(٩٦) ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ البشير هو يهوذا الذي جاء بقميص يوسف مُلطَّخًا بدم كذب، فأحبَّ أن يغسل ذلك بهذا؛ فجاء بقميص يوسف فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا، كما قال تعالى: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ كأن لم يكن به ضر ﴿قَالَ﴾ أي يعقوب عليه السلام لبنيه ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن الله سيردُّه إليَّ وتقر عيني بلقياه.

(٩٧) ﴿قَالُوا۟﴾ أي إخوة يوسف: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي أخطأنا خطأً كبيرًا فادع الله واطلب لنا منه المغفرة.

(٩٨) ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أي سوف أطلب لكم من الله المغفرة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي من تاب إليه تاب عليه.

(٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي فلما هاجر يعقوب وبنوه وأهله جميعًا من بلاد كنعان إلى مصر، وخرج يوسف والملك والأمراء وأكابر الدولة لتلقيهم ودخلوا جميعًا على يوسف ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي ضمَّهما إليه وأنزلهما عنده ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي اسكنوا مصر آمنين مما كنتم فيه من الجهد والقحط إذ قدر الله دخولهم في السنين المجدبة.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي أجلسهما معه على السرير ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكان السجود سائغًا وجائزًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير سجدوا له، ولم يزل هذا جائزًا إلى شريعة عيسى عليه السلام، ولكن حرّم السجود في ملتنا وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه. وفي الحديث: إن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يُسجدَ لك يا رسول الله. فقال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقِّه عليها» [٤٦٢]. والغرض: أن سجود التحية كان جائزًا في شريعتهم، ولهذا خرُّوا له سجّدًا فعندها قال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي بوقوع تأويلها كما رأيتها حقًا، أي صحيحةً وصدقًا ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ أي لطف بي محسنًا، وأعرض عن ذكر إخراجه من الجب؛ حتى لا يغمز إخوته ثم لأن إخراجه من السجن أكبر منّةً ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي من البادية، وكانوا أهل مواشٍ وبريَّة ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي إذا أراد أمرًا قيّض له أسبابًا وقدّره ويسّره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل شأن.

(١٠١) ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعني ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي بعضها وهي تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومدبرهما ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أي نصيري ومعيني ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي سأل من الله الوفاة على الإسلام حين يتوفَّاه وأن يلحقه بالصالحين. وهم إخوانه من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به من القصص يا محمّد هو ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي نخبرك به ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي ما كنت يا محمد مع إخوة يوسف حين اتفقوا على المكر بأخيهم، ولا لقومك علم بذلك، لولا أن أخبرناك.

(١٠٣) ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن قومك مهما حرصت على إيمانهم واعتبارهم فإنّ أكثرهم لا يؤمنون ولا يعتبرون.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ
إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

٢٤٨

الأنبياء رجال ومن أهل المدن، يظن الرسل أن أتباعهم كذبوهم لتأخر نصر الله

(١٠٤) ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على القرآن وإبلاغه لهم وعلى نصحك وإرشادك، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحًا لخلقه ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن وما فيه من نصح وإرشاد وعظة واعتبار بأخبار الأوّلين ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي يتذكرون به في الدنيا والآخرة.

(١٠٥) ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي وكم من آية تدلهم على توحيد الله تعالى إن كانت هذه الآية في السماوات وما فيها من الكواكب والسيارات والأفلاك الدّائرة، وما في الأرض من بحار وجبال وقفار وحيوان ونبات وثمرات ينظرون إليها دون تفكر واتعاظ واعتبار وتأمل ويمرّون عليها مرًّا بلا أية عبرة أو استدلالات، يشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي لا يتفكرون فيها.

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي يؤمنون بأنه الخالق الواحد ولا خالق غيره ولكن يشركون معه غيره في العبادة. وفي الصحيحين: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» [٤٦٣]. أي كيف تجعل لله مثيلًا وأنت تعلم أن الله هو الذي خلقك وهذا المثيل المزعوم لم يخلقك؟ فكيف يستويان في المثلية، وتتخذه ندًا ومثيلًا؟ ولهذا كان الشرك أعظم الذنوب على الإطلاق والعياذ بالله.

(١٠٧) ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي ما يغمرهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم كالصواعق والزلازل ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة على غير موعد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إلا وقد باغتتهم الساعة حيث لا ينفع الندم ولا تنفع التوبة أو أي عمل آخر.

(١٠٨) ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي طريقي ومسلكي وسنتي، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين وبرهان عقلي وشرعي ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي أدعو إلى الله أنا ومن آمن بي واتبعني على ما جئت به من الهدى ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي وأنزه الله عن أن يكون له شريك أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير، تبارك وتقدّس وتنزّه وتعالى ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لست ممن يشركون بالله شيئًا وإنني أبرأ إلى الله من الشرك وأبرأ إليه من المشركين.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي إن كل من أرسله الله نبيًا رسولًا إنما كان من الرجال لا من النساء، إذ ليس في النساء نبيّات قط، ولكن فيهن صدّيقات كمريم ابنة عمران أم عيسى عليه السلام، أما ما وجد منهن من كلمتهن الملائكة فلا يلزم منه أن يكن نبيّات. وكذلك لم يرسل أحدًا من أهل البوادي نبيًا رسولًا، ولكن أرسلوا من أهل المدن فإن أهل البوادي جفاةٌ طباعًا وأخلاقًا ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أهل مكة والمشركون ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كيف دمّرهم الله ونجّى المؤمنين ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فنجاهم الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون كيلا يصيبكم ما أصابهم من الدمار في الدنيا، وما ينتظرهم في الآخرة من العذاب.

(١١٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان مَنْ كذّبهم من قومهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ من أتباعهم من طول انتظار نزول العذاب بالمكذبين ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي جاء الرسول والمؤمنين نصرُنا ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين استحقوا العذاب الخالد بكفرهم بربهم الذي خلقهم.

(١١١) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي الرسل مع أقوامهم ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول المستقيمة ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي يُختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أوامر ونواهٍ ﴿وَهُدًى﴾ في الدنيا ﴿وَرَحْمَةً﴾ في الآخرة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله واليوم الآخر.

آخر تفسير سورة يوسف ولله الحمد والمنّة

سُورَةُ الرَّعْدِ — ترتيبها ١٣ — آياتها ٤٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾
۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

٢٤٩

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ

مدنية وآياتها ٤٣، نزلت بعد محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات القرآن ثم عطف على ذلك عطف صفات، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي وهذا الكتاب الذي أنزل إليك هو الحق وما بعده إلا الضلال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يؤمنون بهذا الحق مع بيانه ووضوحه.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي ارتفاعًا عن الأرض لا يدرك مداه وبلا دعامة تمسكها وما تشاهدونه يغنيكم عن إقامة الدليل عليه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الاستواء معناه العلو، واستواء الله على العرش استواء حقيقي بلا تكييف ولا تأويل ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، فهو سبحانه عليٌّ على خلقه بائن عنهم لا يشبه في علوّه واستوائه وسائر صفاته أحدًا من خلقه، والاستواء صفة حقيقية من صفاته العلى، وليس معنى استوى أي استولى، فالاستيلاء غير الاستواء، ولا يجوز الاستيلاء أن يكون صفة للخالق بل هو من صفات المخلوقين، وتعالى الله وتقدّس وتنزّه عن صفات المخلوقين، واستواء (بشر على العراق) استواء مخلوق، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذلّلهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إنهما يجريان إلى وقت معلوم عند الله تعالى لا يعلمه إلا هو. وجميع الكواكب والنجوم مسخرات أيضًا من طريق الأولى والأحرى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ من السماء إلى الأرض، أي يصرِّفه بحكمته وقدرته ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي يبينها تمام البيان ويوضحها بكامل التوضيح ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي تتيقنون أنه ولا شك لكم لقاء مع ربكم في يوم يحاسبكم فيه، وذلك بعد بعثكم من القبور وإعادتكم كما كنتم في الحياة الدنيا، إنه يعيدكم كما بدأكم أول مرة.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي جعلها ممتدة متسعة طولًا وعرضًا ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالًا شامخات ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي وأجرى فيها الأنهار بالماء العذب لتنبت الأرض بالأشجار والأعشاب ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي من كل زوج ذكرًا وأنثى ليحصل به التلاقح وعقد الثمر ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطي الله الليل بظلمته النهار ويطلب الواحد منهما الآخر حثيثًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في تصريفه لمخلوقاته على الشكل المتقدم لدلائل واضحات لمن يستعمل فكره.

(٤) ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ ولكن هذه خصبة، وهذه مجدبة، وهذه سبخة، وبيضاء وحمراء وصفراء وسوداء، والكل متجاورات ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي وبساتين من أعناب، وزرع متوسط بين العنب والنخيل الذي هو متماثل وغير متماثل، كل ذلك ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ إنما تختلف في الثمر ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي في الطعوم والألوان والأشكال، وكلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تدل على خالقها تعالى.

(٥) ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إن تعجب يا محمد من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من الآيات الباهرات على قدرته؛ مع أنهم معترفون بأنه هو الذي بدأ الخلق من العدم. فإن إعادة الخلق من وجودٍ أسهل من خلقه من عدم، اعترفوا بما هو أعظم وكذبوا بما هو أسهل، وهذا لما يثير العجب، فإن تعجب من شيء فعجب قولهم: أإذا أفنتنا الأرض وأصبحنا ترابًا أيمكن أن يرجعنا الله!!!؟ أو يقدر على ذلك؟ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي بربهم ذي القدرة التي يقرّون بها في ابتداء الخلق ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي تُغلّ بها ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي لا يموتون فيها ولا يحيون.

استواء الله على عرشه حقيقة بلا تكييف ولا تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ
الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

﴿٦﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ويستعجلك المكذبون بالعقوبة من الله استهزاءً وتحدِّيًا كأنهم لا يؤمنون بإمكانية نزول العذاب أو يستبعدونه ولا يطلبون الحسنة التي هي العافية والسلامة المتأتية عن الإيمان، وكل هذا لشدة إنكارهم وتهالكهم على الكفر ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي وقد مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي تجاوز وعفو ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ إذا تابوا من هذا الظلم الذي هو الكفر والشرك وتركوه إلى الإيمان والتوحيد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تمادى في المعصية.

﴿٧﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين استعجلوا العذاب ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ أي معجزة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ يقولون هذا: كفرًا وعنادًا واستكبارًا ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بتبليغها، وما عليك أن تنزل الآيات فهذا لله وحده يفعله حين يشاء ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي رسول يبلّغهم أوامر الله ونواهيه، ومعنى الهادي هنا: أي الدال على الطريق الصحيح، أما هداية القلب وتغييره من حال إلى حال فهو لله تعالى وحده لا شريك له.

﴿٨﴾ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من البشر أو الحيوانات وسائر المخلوقات المتوالدة ذكرًا أو أنثى ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي ويعلم ما ينقص بالسقط الناقص ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي بالولد التام ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي كل شيء جاء على قدره الذي قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عن ذلك شيء، علمَ كلّ شيء فقدّره تقديرًا.

﴿٩﴾ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو الله جل جلاله الذي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد أو يغيب عنهم ولا يخفى عليه شيء منه ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي أكبر من كل شيء وأعلى من كل شيء، عليٌّ على خلقه أجمعين، بائن عنهم.

﴿١٠﴾ ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ أي يسمع كل الأصوات سريةً كانت أو جهرية، لا يخفى منها صوت ولا يشغله صوت عن آخر. وفي حديث عائشة: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]» [٤٦٤]. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي مستتر في قعر بيته في ظلام الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ومن هو متصرف في حوائجه بالنهار.

﴿١١﴾ ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي إنَّ للعبد ملائكة حرسًا بالليل وحرسًا بالنهار يحرسونه ويحفظونه من الحادثات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يسلب الله قومًا نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير، ولا يغير ما فيهم من الشر حتى يغيروه إلى خير، ويتوبوا إليه سبحانه ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ بما كسبت أيديهم ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي لا يستطيع أحد ردَّه ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ أي ناصر.

﴿١٢﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ أي مما فيه من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ بالمطر ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ بالماء الذي يحيي به الأرض.

﴿١٣﴾ ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أي إن صوت الرعد هو تسبيح لله سبحانه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي وتسبحه الملائكة خوفًا منه ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ من عباده المستحقِّين لذلك ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي ينزل مَكره بمستحقه من حيث لا يشعر. وفي الحديث: كان عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما إذا سَمِعَ الرَّعدَ تركَ الحديث، وقال: سُبحانَ الذي يُسبِّحُ الرَّعدُ بحمدِهِ، والملائكةُ من خِيفته. [٤٦٥].

الله أعلم وأكبر وأعلى، لا يخفى على علم الله شيء سرًا كان أم علنًا

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى
ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ
لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

٢٥١

سورة الرعد

من يدعو غير الله كمن يدعو الماء العميق أن يصعد ويبلغ فاه ليرتوي؟!

(١٤) ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي هي لله الذي تقدّم ذكر صفاته وأفعاله في الآيات المتقدمة. ودعوة الحق هي: لا إله إلّا الله. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي يدعوهم المشركون من دون الله من الأصنام والأوثان التي هي تماثيل لرجال صالحين مضوا، وما مَثَل هؤلاء الذين يدعونهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي إلا كظمآن يمد يديه إلى الماء العميق يدعوه ليصعد إلى فمه ليشرب!! فهل يستجيب الماء لهذا الداعي وهل يروي ظمأه؟ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي إن دعاءهم ذلك يذهب ضياعًا، كذهاب دعاء ذلك الظمآن الأحمق تمامًا، لأن المدعُوِّين لا يسمعون ولو سمعوا ما استجابوا.

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ وهم المؤمنون، أي الملائكة ومن أسلم من الإنس والجن سجودًا حقيقيًّا بوضع جباههم على الأرض إذ لا يثقل عليهم ذلك ﴿وَكَرْهًا﴾ وهذا له معنيان: معنى حقيقي، أي أنهم يسجدون حقيقةً كالمنافقين الذين يسجدون إكراهًا وخوفًا من المسلمين. أو سجود معنوي: أي انقيادًا في كل شؤون حياتهم الدنيوية طبق إرادة الله بالحياة والموت وبالصحة والمرض، والفقر والغنى وهكذا فإنّ الكافرين يسجدون سجودَ انقيادٍ في كل شؤونهم وذلك رغمًا عنهم وإكراهًا، والمؤمنون يسجدون طواعية عن رغبة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي يسجدون وتسجد ظلالهم معهم تبعًا لأجسادهم ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي في الصباح والمساء بحسب تنقّل الظل في الوقتين.

(١٦) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من خالقها ومربيها بنعمته ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد مجيبًا عنهم: ﴿ٱللَّهُ﴾ لأنهم يقرون بذلك ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي فما دمتم مقرين بأنه الخالق المسدي للنعم، فكيف تتخذون عند غيره النصرة والولاية، وهؤلاء الأولياء من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ فضلًا عن أن يملكوا لكم ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وإنكم لتعلمون ذلك. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي الأعمى في دينه: وهو الكافر، والبصير فيه: وهو المؤمن؟ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي كيف يكونان مستويين وبينهما تفاوت لا يخفى؟ أي إن الكافر الأعمى عن الحق في ظلماتٍ والمؤمن البصير في النور يمشي على هُدًى، وقد وحَّد النور؛ لأن طريق الحق واحد، وجمع الظلمة؛ لأن طرائق الباطل لا تقع تحت حصر ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي هل لشركائهم خلق كخلق الله فتشابه عليهم خلق الله وخلق الشركاء؟ أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه الأمر عليهم ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كما يعلمون ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي المنفرد بوحدانيته وقهره.

(١٧) ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ فأخذ كلُّ وادٍ بحسب اتساعه من الماء، وهكذا القرآن نزل فعمّ نفعه القلوب بقدر سعتها وضيقها ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ وهو الغثاء والرغوة. هذا مثل، ومثل آخر: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي وكما يسبك في النار من ذهب وفضة حليةً، أو من نحاس كأوانٍ له أيضًا زبد مثل زبد السيل ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ مثل ﴿ٱلْحَقَّ﴾ ومثل الباطل ﴿وَٱلْبَٰطِلَ﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من كلا المثَلَيْن ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي يذهب ويتفرّق ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يبقى فيها ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وسائل للفهم وأساليب للإيضاح.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي استجابوا بعد فهم وإدراكٍ فلهم الجنة جزاءً منه تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ رغم ضرب الأمثال المقرّبة للفهم فإن لهم الخاتمة المرذولة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ مثل ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ أنفسهم من النار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي أولئك الكافرون لهم أسوأ حساب عند الله وسوف لا تُؤويهم إلاّ جهنم الخالدة، ولهم فيها بئس الفرش والسُّررُ التي يستقرون عليها في النار المؤبدة.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ
﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

٢٥٢

(١٩) ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي هل الذي يعلم ويؤمن بأن الذي نزل عليك من الله هو ولا شك حق وصدق وهو القرآن الذي لا شك فيه ولا اختلاف ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ في دينه وشكِّه وريبه يتخبَّط في ظلمات كفره وشركه، وحياته كلها متاهات في متاهات هل يستويان!!!؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي لا يتعظ ويعقل ويعلم ويؤمن إلّا ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول السليمة.

(٢٠) ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ وهذه صفة للمتذكرين المتعظين من أولي الألباب والفهوم المستقيمة، أي أنهم يوفون بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم التي قالوا فيها: ﴿بَلَىٰ﴾ يوم قال ربهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وكذلك العهود التي قطعها المؤمن على نفسه بأن يأتمر بأمر الله وينتهي عن نواهيه ولا ينقض ما أبرمه، ويؤكدها بالقول والعمل حتى يلقى الله تعالى.

(٢١) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أي يصلون كل ما أمر الله بصلته، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولًا أوليًّا ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشية تلزمهم بفعل ما أوجب عليهم، واجتناب ما لا يحلُّ لهم فعله ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في الآخرة، ولهذا كان أمرهم على السداد والاستقامة ومن حق هذه الخيفة: أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويعملوا لذلك اليوم الذي تشيب الولدان من أهواله.

(٢٢) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي على الأذى في سبيل الله ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي مخلصين في أعمالهم كلها لـه سبحـانه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركـانها وما يجب لها على أنفسهم وعلى مَنْ يعولون في بيوتهم أو شعوبهم وأممهم ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي صدقةً أو زكاة في السر والجهر ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون السيئة بالحسنة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي لهم الجنة جزاءً والعاقبة المرضية مآلًا.

(٢٣) ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي يجمع الله بينهم وبين من ذكر من أهليهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجنة مسلّمين قائلين:

(٢٤) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي يقولـون لهم مهنـئين: سلام عليكم وهنيئًا لكم بهذه العاقبة الطيبة في هذه الدار الخالدة.

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا حال الأشقياء الذين نقضوا عهودهم التي قطعوها لله فلم يفوا بها ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من القيام بالأوامر والانتهاء عن المناهي. وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [٤٦٦] وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [٤٦٧]. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي المختلفة والذنوب العديدة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي سوء العاقبة والمآل.

(٢٦) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي يوسعه على من يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويقتّر على من يشاء بحكمة وعدل ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فرح الكفار بمباهج الحياة الدنيا وما فيها من نعيم زائل استدراجًا لهم وإمهالًا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي متاع قليل بالنسبة إلى الآخرة.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على رسول الله ﷺ ﴿آيَةٌ﴾ أي معجـزة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ أي ﴿قُلْ﴾ لهـم يا محمد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ أي إن من يختار طريق الضلال فإنّ الله يضله جزاءً وفاقًا ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي يهدي من يرجع إليه بالتوبة والاستغفار.

(٢٨) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لا تزداد الذنوب كما يقول بعض «الجهلة...!!!؟» من أحلاس «وحدة الوجود» و«الاتحاد» و«الحلول» أعاذنا الله منهم ومن سوء المنقلب يوم العرض عليه تعالى.

المؤمن بما أنزل الله: مصلٍّ، منفق، خاشع، صابر، محسن لمن أساء إليه

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ
مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ
لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ
قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

٢٥٣

(٢٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي آمنوا بكل ما يجب الإيمان به وأكثروا من العمل الصالح ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي فرح وقرة عين وطوبى هي شجرة في الجنة. وفي الحديث: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلِّها مائة سنة اقرأوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]» [٤٦٨].

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت وانقرضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبلغهم رسالة الله التي هي القرآن والسنّة الصحيحة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي بمن هو كثير الرحمة بهم، وأهمها: إرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم ومع كل ذلك يكفرون به ويجحدون. وفي الحديث: «إن أحبَّ الأسماء إلى الله عبدالله وعبدالرحمن» [٤٦٩]. ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في السماوات والأرض بحق إلاّ هو وحده لا شريك له ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي أتوب إليه ولا يستحقُّ أن يتوب أحد إلا إليه، وإنَّ من تاب إليه تاب عليه.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي لو كان في الأمم السابقة كتاب من الكتب الماضية قبله تسير به الجبال عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي تصدّعت فصارت قطعًا قطعًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي صاروا أحياء بقراءته عليهم وفهموه كما يفهمه الأحياء وإن هذا القرآن أولى الكتب اتصافًا بذلك لإعجازه الإعجاز الذي لا مزيد عليه فلو كان هذا القرآن له كل تلك الصفات فما كان قومك ليؤمنوا به إلا أن يشاء الله ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ لا لغيره فلا يؤمن إلا من علم منه الله تعالى من الأمر الأول أنه سيختار الإيمان فكتب ذلك عليه وقدّره، ولا يكون إلاّ ما تقتضيه حكمته ومشيئته ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي ييأسوا من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكن ما شاء؛ لأنه سبق بعلمه أن من سيختار الهدى على الضلالة سيهديه، والعكس بالعكس ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي الذين استحبُّوا الضلالة على الهدى ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر والضلالة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي مصيبة ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي أن تنزل أنت يا محمد محاصرًا لهم آخذًا بمخانقهم كما وقع منه ﷺ لليهود وأهل الطائف ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي بفتح مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصر والتأييد.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ في تكذيب مَنْ كذبه، أي إنَّ لك بمن قبلك من الرسل أسوة فقد كُذّبوا بمثل ما يكذبك قومك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي فاستدرجتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذةً رابيةً شديدةً ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي لو تعلم كيف كان عقابي شديدًا بمن استهزأ بالرسل، وما قومك إلاّ أشد استحقاقًا من أولئك بالعذاب والعقاب.

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله والذين لا يقدرون على القيام حتى ولا على أنفسهم، والمراد ولا شك إنكارُ المماثلة بين الله وشركائهم ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي ومع عدم وجود المماثلة اتخذوهم أندادًا وشركاء يدعونهم ويعبدونهم من دون الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي اذكروا أسماءهم حتى يعلم أهم يماثلون الله في صفاته ليصحَّ أن يسمَّوا آلهة ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الشركاء التي ابتدعتموها ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بل تسمونهم بالآلهة ظاهرًا ولا حقيقة لها بل هي باطلة ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أي حسّن لهم كفرهم ومكرهم بعد أن اختاروا ذلك ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق لأنهم هجروه متعمِّدين بعد أن علموا أنه هو الحق ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي من يضلّه الله جزاء كفره ومكره ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه غير الله سبحانه وتعالى.

(٣٤) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما يصابون به قتلًا وأسرًا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المدخر لهم ﴿أَشَقُّ﴾ بكثير من عذاب الدنيا ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي في الآخرة ﴿مِن وَاقٍ﴾ يقيهم من شديد عذابه وأليم عقابه.

يسوون الله الحفيظ العليم بأصنام صم بكم عمي يسمونها آلهة ويعبدونها!!!

(٣٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي صفتها أن الأنهار تجري من تحتها، أي سارحة في أرجائها يصرفونها كيف شاءوا ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع لها ولا فناء. وفي الصحيحين: قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: «إني رأيت الجنة -أو أُريت الجنة- فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» [٤٧٠]. وكذلك ظلها دائم لا يزول ولا يقلص ولا تنسخه الشمس ﴿تِلْكَ﴾ أي تلك الجنة ﴿عُقْبَى﴾ أي عاقبة ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ المعاصي، ومنتهى أمرهم ومصيرهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي وعاقبة الذين كفروا النار بما قدمت أيديهم.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم مَنْ أسلم من اليهود والنصارى كعبدالله بن سلام وأصحابه ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي بما أنزل الله إليك من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ وهم من لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي بعض القرآن ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلي، ولهذا: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أي أدعوا إلى سبيله الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي إليه مرجعي ومصيري يوم القيامة.

(٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي محكمًا لا يأتيه الباطل بلغة عربية معربة فيه عن أصول الشرائع وفروعها ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي ما يرضيهم بترك دينك واتباع دينهم ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بما نزل عليك من ربك ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من عذاب الله وهذا على فرض المستحيل؛ لعصمته ﷺ، فكيف إذا فعل ذلك أهل العلم من أمته؟ فإن عقابهم العظيم يكون حتمًا من باب أولى.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي إنهم من البشر ويأكلون ويتناسلون، كما هو حالك تمامًا فلا تتنافى النبوة مع هذه الصفات البشرية ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أيًا كان ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمره إن كانت الآية خرقًا للعادة أو آية تقرأ فلا يأتي بها الرسول ﷺ إلا بأمره تعالى ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ينزله على عباده متى شاء وعلى من شاء، وله أجل أي وقت معلوم، فمتى نزل كتابٌ غيره وجب اتباعه واتباع من نزل عليه.

(٣٩) ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تلك الكتب أي التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَيُثْبِتُ﴾ هذا الكتاب، أي هذا القرآن ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهي اللوح المحفوظ، وقد نزلت هذه الآية ردًا على قول اليهود: لو كان نبيًا حقًا لما نسخ الشرائع التي كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾
وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

٢٥٤

كِتَابٌ﴾ إلى قوله: ﴿...وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التي هي علم الله الذي لا يتبدل.

(٤٠) ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي نرينك يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي قبل أن نريك ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم وقد فعلت ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي علينا حسابهم.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي ننقص بلاد الكفار بلدًا بلدًا ونورثها للمسلمين ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي ليس لأحد أن يتعقب حكم الله فيردَّه كما يتعقب أهل الدنيا حكم بعضهم فيرده، فإنَّ شأن الله أعظم وأجل ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سيحاسب مَن يردُّ أحكامه.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي مكر الكفار الذين من قبل كفار العرب برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي إنه عالم بالسرائر والضمائر وسيجزي كلًا بعمله ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي لمن تكون العاقبة والخاتمة الطيبة في الآخرة، هي ولا شك للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

أم الكتاب لا تتغير ولا تتبدل ليس لأحد أن يرد حكم الله لقول أحد مهما كان

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ (ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي يكذبك الكفار هؤلاء ويقولون ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي إنَّ الله تعالى ما أرسلك نبيًا ولا رسولًا، وإنما تدعي ذلك دعوى ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي تكفيني شهادة الله لي بأنني عبده ورسوله وهو سبحانه الشاهد عليَّ وعليكم، شاهد عليَّ فيما بلغت عنه الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه عليَّ من البهتان. ﴿وَ﴾ كذلك يشهد لي بالنبوة والرسالة ﴿مَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ويشمل ذلك علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة النبي محمد ﷺ في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿... ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك.

آخر تفسير سورة الرعد ولله الحمد والمنّة
وعليه التكلان

(١٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مكية إلا آيتي ٢٨، ٢٩ فمدنيتان
وآياتها ٥٢، نزلت بعد نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ قد تقدّم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة البقرة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ كافةً ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمات الشرك والكفر والضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي نور التوحيد والإيمان والهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره فإنه هو الهادي بواسطة رسوله المبعوث عن أمره ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي ليهديهم صراط الله الذي لا يُمانَع، والمحمود في جميع أفعاله وأقواله.

(٢) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي المتصف بملكيتها والمتصرف بها وحده لا شريك له ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهذا وعيد لمن لا يعترف بربوبيته بعذاب شديد مؤلم مؤبد لا قبل لهم به، وهذا جزاء الكافرين به تعالى.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يؤثرونها على الآخرة تهاونًا بأمر الآخرة ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس من الدخول في دينه القويم الذي ارتضاه لهم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون لها زيغًا وميلًا لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ﴾ أي ضياع عن الحق ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الصواب، إشارة إلى الموصوفين بهذه الصفة.

(٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي بلغتهم، وهذا من لطفه تعالى بخلقه. وفي الحديث: «لم يبعث الله عزّ وجلّ نبيًا إلا بلغة قومه» [٤٧١]. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليوضح الله مراده إلى خلقه بلغتهم ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي من يشاء الله إضلاله بعد استحقاق لأنه أبى الهدى ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي من يشاء الله هداه بعد استحقاق ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز، أي الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والحكيم في أقواله وأفعاله.

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي المعجزات التسع التي منها العصا واليد والدم والجراد والقُمل والضفادع، وغير ذلك ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي من ظلمات الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي إلى نور الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي بنعمه عليهم في تحررهم من أسر فرعون وفلق البحر والمن والسلوى وغير ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما تقدم من النعم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي لعبرةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ في الضراء ﴿شَكُورٍ﴾ في السرّاء. وفي الحديث: «إنَّ أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرًا له» [٤٧٢].

تكفي لك شهادة الله تعالى بأنك يا محمد نبيه ورسوله

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي
ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم
بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

٢٥٦

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا إنعام الله عليكم حين أنقذكم من فرعون وقومه الذين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ من الذل والهوان وتسخيركم لخدمتهم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي يذبحون البنين ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ويؤجلون نساءكم من الذبح حتى يقمن بخدمتهم في البيوت ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ﴾ أي اختباركم بهذه النعمة إذ نجاكم من كل ذلك ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي هذا الاختبار بالنعمة هو من ربكم: أتشكرونه بالطاعة على ما أنعم عليكم من الإنقاذ من الذل والهوان أم تكفرون؟

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ إيذانًا بليغًا تنتفي عنه الشكوك وتنزاح الشبه، وهذا في شدّته كأنه القسم ... يقسم الله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم بالمزيد من طاعتكم لي لأزيدنّ لكم من النعمة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي جحدتم نعمتي، أي ما قدمتم طاعاتكم لي بل عصيتموني في أوامري مقابل نعمتي عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ في الدنيا بسلب النعم وبالآخرة بالعذاب الأليم المقيم.

(٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي إن تكفروا نعمته تعالى عليكم أنتم وجميع الخلائق في الأرض ولم تشكروها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي لا يضرُّ اللهَ كفرانكم وإنه لأغنى الأغنياء، إن كفرتموه كفران نعمة أو كفرتموه بالتوحيد الخالص له، فهو غنيٌّ عن خلقه أجمعين، وهو المحمود في أفعاله ومستوجب الحمد لذاته، وكثرة إنعامه، وعظيم أفضاله على خلقه.

(٩) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وشرع سبحانه يقصُّ أنباء الأمم السابقة لتحصل بهم العظة والعبرة مما فعلوا من الكفر بما جاءت به الرسل إليهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ الذين كذبوا بالذي دعا إليه نوح قومه وما دعا به هود عادًا وما دعا صالح قومَه ثمود من توحيد الخالق ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي أقوام جاءوا من بعد أقوام نوح وهود وصالح ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات من الله تعالى، والحجج والدلائل الواضحات الباهرات، ولا يحصي عدد أولئك الأقوام إلا الله تعالى ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي حاولوا أن يسكتوا الرسل بوضع أيديهم على أفواههم ليحولوا بينهم وبين ما يدعون إليه من الحق ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي لا جواب لكم على ما جئتمونا به من ادعائكم برسالة الله إلاّ أن نقول لكم: كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي نحن في شكٍّ عظيم من صدقكم بادعائكم بالنبوة موجبٍ للريب في أمركم، ومعنى قولهم: إنهم كافرون بهم أي إن كانوا صادقين أو كاذبين.

(١٠) ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي لا شكَّ في الله، أي في توحيده ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما وموجدهما من العدم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إن الله تعالى يدعوكم إلى الإيمان به، فإن فعلتم غفر لكم ذنوبكم السالفة، لأن الإيمان يجبُّ ما قبله ويدعها كأن لم تكن ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فلا يعاجلكم بالعذاب ويثبتكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل فلم يدعُكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم. فردوا على رسلهم ردَّ السفهاء الجاهلين: ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة؟ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فكيف نطيعكم ونترك ما كان عليه آباؤنا ثم طلبوا أن يأتوهم بسلطان فقالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بمعجزات باهرات ظاهرات على أنّكم مرسلون إلينا من قبل الله تعالى.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ
﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن
وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ
أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

أعمال المشركين كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف فلم يبق منه شيئا

(١١) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي حقًا نحن بشر مثلكم كما ذكرتم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي يتفضل الله على من يشاء بالرسالة والنبوة من عباده ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بحجة من الحجج ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إلاّ بأمره ومشيئته وليس لنا أن نأتي ذلك من قبل أنفسنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في جميع أمورهم وحده لا شريك له، وهذا أمر منه تعالى للمؤمنين بأن يفردوه بالتوكل عليه وحده لا شريك له.

(١٢) ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي وأيُّ عذر لنا إن لم نتوكل عليه سبحانه ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي لا سيما وقد تفضّل علينا بأن سلّكنا خير طريق يوصل إلى رضاه ورحمته، وهو: ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ على ما وقع منكم من التكذيب لنا والاقتراحات الباطلة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في دفع شر الكفار وأذاهم وسفاهتهم عنهم.

(١٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وهذا شأن الأمم الكافرة مع رسلهم أو مصلحيهم وهو التهديد بالإخراج من الأرض والنفي من بين أظهرهم؛ لأنهم عجزوا عن أن يقرعوا الحجة بالحجة فلجأوا إلى العنف، وهذا دليل على اندحارهم مع باطلهم وإلاّ لما طلبوا من الرسل الخروج من أرضهم أو يعودوا إلى ملتهم الكافرة!!! ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسل فكانت عاقبتهم الهلاك والدمار والاستئصال، فنصر الله عبده وهزم الأحزاب وحده.

(١٤) ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرض هؤلاء البائدين الكفار الذين توعّدوكم بالإخراج منها أو العود إلى دينهم، هؤلاء أورثناكم أرضهم وأسكنّاكم فيها بعدهم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي لمن خاف قيامي عليه، ومراقبتي له، وخاف وعيدي بالعذاب لمن خالفني.

(١٥) ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي استفتح الرسل واستنصروا ربهم على أقوامهم الكفرة الذين يئسوا من إصلاحهم وخسر بعد ذلك الاستنصار كلُّ جبارٍ متكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقًا، والعنيد الذي عدل عن القصد، الشامخ بأنفه؛ فقد خسر وهلك كل من كان متّصفًا بذلك.

(١٦) ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أي من وراء الجبار العنيد ﴿جَهَنَّمُ﴾ أي النار التي لا تخمد ولا تفنى ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي من الماء الصديد الذي يسيل من جلود أهل النار، وهو دم مختلط بقيح. وفي الحديث: «يخرج عنق من النار يوم القيامة [له عينان يبصر بهما، وأذنان يسمع بهما، ولسان ينطق به، فيقول: إني وُكِّلتُ بثلاثة:][1] بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر» [٤٧٣].

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ التجرع: التحسّي، أي يتحسّاه مرةً بعد مرةٍ لا مرةً واحدة لمرارته وحرارته، ولا يستسيغه أي يتقبله. وفي الحديث: «وإنّ عندَ الله عهدًا لِمَن يشـرب المسكرَ أن يسقيهُ من طينة الخَبال». قالوا: يا رسول الله! وما طينة الخَبال؟ قال: «عرَقُ أهل النار أو عُصارةُ أهل النار» [٤٧٤]. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي تأتيه أسباب الموت من كل جهة من الجهات، أي ما من نوع من أنواع العذاب يأتيه إلا وفيه حتفه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ إنّما عذاب مؤبد لا ينقضي؛ ليخلد في دوام العذاب والنكال ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي عذاب آخر غليظ مؤلم أغلظ مما قبله وهكذا... «ويا أهل النار خلود بلا موت» [٤٧٥].

(١٨) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي مثل هؤلاء الكفار الذين عبدوا مع الله غيره وكذّبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، إذا طلبوا ثوابها من الله، وكانوا يحسبون أنهم على شيء؛ فلم يجدوا شيئًا بل هو كأنه الرماد عصفت به الريح فلم تُبق منه شيئًا، لأنه كان لغير الله ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي ضاعت أعمالهم وهم أحوج ما كانوا إليها.

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل. (المعتني)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَا
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ
لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ
فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

٢٥٨

﴿١٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي ألم تعلم، والخطاب لرسوله ﷺ بأن الذي قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بهن ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي قل للكفار: إن شاء الله أذهبكم، فالذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ غيركم وهو أهون عليه، فيهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه من خلقه، وهو على كل شيء قدير، ولا يعجزه أحد، وله المراد فيما يريد.

﴿٢٠﴾ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي وما إذهاب الخلق وإهلاكهم وخلق خلق جديد ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ليس بممتنع وهو الأحق أن يرجى ثوابه ويخاف عقابه.

﴿٢١﴾ ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي برزت الخلائق كلّها برّها وفاجرها ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لله الواحد القهار جميعًا من قبورهم، وظهروا لا يستتر منهم أحد كما كان يستتر عند فعله المعاصي ﴿فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي قال الضعفاء للرؤساء الأقوياء سادتهم وكبرائهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي فهل تدفعون عنّا شيئًا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنّوننا ﴿قَالُوا﴾ أي القادة: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ والهداية هدايتان: هداية دلالة على الحق، وقد هداهم الله إليها وأمرهم بها؛ فلما لم يأخذوا بدلالته لم يهدهم الله هداية تثبيت لقلوبهم على الحق، بل أضلهم عنها جزاءً وفاقًا، وكان الضعفاء تبعًا لهم فلما أمروهم بالضلال استجابوا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي ما لنا من خلاص مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا، وهذه المحاجّة بينهم في النار بعد دخولهم فيها وإيقانهم بالحق الذي جحدوه في الدنيا.

﴿٢٢﴾ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لما دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي بالبعث والحساب ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي وعدتكم بأن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، فأخلفتكم وغررتكم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما كان لي على ما قلته لكم من دليل ولا حجة ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، بينما أقامت الرسل الحجج والأدلة على صدقهم فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾ فإنّ الذنب ذنبكم لأنكم خالفتم البراهين والحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمنقذكم من عذابكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي بمنقذي من العذاب والنكال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي إني كفرت بشركم بي مع الله تعالى ﴿إِنَّ الظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم في إعراضهم عن الحق ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا الكلام داخل النار.

﴿٢٣﴾ ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ وهذا جزاء الإيمان والعمل الصالح لوجه الله تعالى والموافق لما شرع سبحانه، ذلك جزاؤهم حيث ساروا وأين توجّهوا في الجنة فهم في رحمة من الله وفضل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره ومشيئته ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي تحية الملائكة في الجنة سلام، يسلمون على أهلها كلما دخلوا عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

﴿٢٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ في قلب المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي لا إله إلا الله ثابتة في قلب المسلم ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ﴾ أي يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وفي الصحيحين عن ابن عمر: كنا عند رسول الله ﷺ فأتي بجُمّار فقال: «مِنَ الشجر شجرة مثلُها مثل الرجل المسلم»، فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» [٤٧٦].

النخلة: شعار المسلم أصلها التوحيد الخالص وفرعها العمل الصالح

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

٢٥٩

(٢٥) ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي تعطي ثمرها في كل وقت بأمر الله تعالى، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار كاملًا حسنًا طيبًا مباركًا ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد، وفي ضرب الأمثال تصوير للمعاني.

(٢٦) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي كلمة الشرك والكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي شجرة الحنظلة، ويقال لها الشِّرْيان. وفي الحديث: «﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: هي الشريان». [٤٧٧]. وفي الحديث الآخر: «﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي: الحنظلة» [٤٧٨]. ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء، وكلمته لا حجة فيها ولا ثبات لها ولا خير.

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بالحجة الواضحة. وفي الحديث: المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾. أخرجاه [٤٧٩]. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت؛ لأنهم ماتوا وهم كفار جزاء ما قدّمت أيديهم من الكفر ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وما يشاء إلاّ الحكمة والعدل والحق في التثبيت أو الخذلان.

(٢٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ نزلت في كفار مكة، والمعنى يعمُّ جميع الكفار، أي أتتهم نعمة الله وهي الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفرًا ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ وذلك بتكذيبهم محمدًا ﷺ فأحلوا قومهم: الدمار والموت في بدر فقتل فيها دهاقين الكفر ومن ورائهم جهنّم.

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ وهذا العذاب في الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل؛ فإنّ النار يصلونها أبدًا لا تفتّر عنهم وبئس قرارهم ومستقرهم فيها فهي دائمة خالدة لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك ليضلوهم عن سبيل الله ويوقعوهم في الهلاك ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي تمتعوا فيما أنتم فيه من الشهوات في الدنيا وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعمة، وإضلال الناس عن الصراط المستقيم؛ فإن نهايتكم ومصيركم في الآخرة إلى النار ما دمتم على كفركم وإضلالكم.

(٣١) ﴿قُل﴾ لهم يا محمد، أي ﴿لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي بلغ المؤمنين أن يداوموا على إقامة الصلوات، أي يأمروا أنفسهم ومن يعولون بإقامة الصلوات، وبالإنفاق سرًا من الصدقات وعلانية من الزكوات لوجه الله تعالى طمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي لا فدية فيه ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي ولا صداقات ولا صُحْبان.

(٣٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أوجدهما من العدم بقدرته ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من السحاب ﴿مَآءً﴾ أي مطرًا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المتنوعة في الشكل والنوع والطعم ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تقتاتون به ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى آخر لجلب وتبادل السلع والتجارات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ سفرًا وسقاية للأراضي وشربًا، وغير ذلك من المنافع الدنيوية.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي ليلًا ونهارًا للضوء والدفء، وما يصلح فيه النبات ولتعلموا حسابكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ للسكون والعمل.

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ
فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦
رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ
فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩
رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ٤١ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ٤٢

٢٦٠

(٣٤) ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي هيَّأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألون بحالكم وقالكم ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي لا تستطيعون لها حصرًا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وفي الحديث: «اللهم لك الحمد غير مكفيّ ولا مودَّع ولا مستغنى عنه ربَّنا» [٤٨٠]. ولكن الإنسان الكافر ظلم نفسه بعدم شكر هذه النعم بالإيمان بموليها والعمل بطاعته.

(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ دعا إبراهيم عليه السلام لمكة بالأمن، وقد استجاب الله له فجعله حرمًا لا يسفك فيه دم إنسان، ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد صيده، ولا يختلى خلاه ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي باعدني وباعد بنيَّ عن عبادتها، ولذا ينبغي لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، وإن الله قد استجاب دعاء إبراهيم في بنيه فلم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنمًا.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي إن كثيرًا من الناس قد افتتنوا بالأصنام ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وليس في هذا الدعاء أكثر من الردّ إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك ولا الدعاء بالمغفرة لمن مات مشركًا! ولذلك تبرأ إبراهيم من أبيه، ومحمدٌ من أبويه.

(٣٧) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي أسكن إسماعيل وأمّه وهو أول ولد من ذريته، لأن ذُرِّية الولد ذرية للوالد، لا سيما وأن الدعاء هنا خاص بذرية إسماعيل، وهذا مفهوم من قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ وليس لإبراهيم ذرية أسكنها هناك إلا ذريته من إسماعيل، ومما يؤكد أن مراده ذريةُ إسماعيل قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي ليعبدوك بهذا الفرض العظيم وهو الصلاة. فقد وصفهم بصيغة الجمع لما يؤمَّل من وجود ذرية إسماعيل في المستقبل، ولا شكَّ أنَّ هذا الدعاء مُلهَمٌ به من قِبل الله إن لم يكن مأمورًا به منه تعالى ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ بالمحبة والشوق. وقوله من الناس، أي اختص به المسلمين. ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وقد استجاب الله لخليله هذا الدعاء، وها إن الثمرات تجبى إليهم من كل شيء من أنحاء المعمورة، اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك بطاعة أوامرك وهجر معاصيك.

(٣٨) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عليم بهما وخبير.

(٣٩) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي استجاب لي فيما سألته من الولد رغم كبر سنّي وعقم زوجتي وكبر سنها!!!

(٤٠) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي مقيمًا لحدودها محافظًا عليها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي؛ لأنه علم من الله أنَّ بعضًا من ذريته مَنْ لا يقيمها ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي وتقبل دعائي فيما سألتك فيه كله، إنك أنت السميع لدعاء خلقك وليس غيرك من يجيب دعاء السائلين، إنك سميع مجيب.

(٤١) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي﴾ أي طلب من الله تعالى أن يغفر له ما وقع منه مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيرًا؛ لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ ثم طلب أن يغفر لوالديه، وقد قيل إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوّان لله سبحانه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لكافة المؤمنين في كل زمن ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي حين تقوم القيامة وتجمع الخلائق من أجل الحساب.

(٤٢) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ليس هو غافلًا عنهم مهملًا لهم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من هول يوم القيامة.

المسلمون هم الذين تهوي أفئدتهم إلى الحرم الحبيب، لن يفلت الظالمون من عذاب الله

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

٢٦١

تكاد السماوات أن يتفطرن من الشرك وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا

﴿٤٣﴾ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين إلى المحشر ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من الفزع والخوف مديمين النظر إلى السماء ولا يطرفون طرفة واحدة من الهول والمخافة مما سيحل بهم. عياذًا بالله العظيم من ذلك الموقف ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي إن قلوبهم ليس فيها شيء من العقل لفزعهم ودهشهم ولكثرة الخوف والوجل، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ:

﴿٤٤﴾ ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي أجّلنا وارجعنا إلى موعد قريب ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ التي جاء بها الأنبياء ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فلا نكذبهم ونؤمن بهم وبما جاءوا به من الحق. فقال الله تعالى لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا بأنه ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي من دار الدنيا ولا بعث ولا نشور، وكنتم تكذبون بيوم القيامة!!!

﴿٤٥﴾ ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والشرك، أي وسكنتم مساكنهم وأنتم تعلمون ما حلّ بهم من النكال والدمار ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي وظهر لكم وأخبرتم ما أنزلنا فيهم من البأس ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ بهم فما اعتبرتم ولا اتعظتم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي مكر المكذِّبون بالرسل مكرهم الذي وصلت إليه إرادتهم وقدروا عليه ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي محيط بهم علمًا وقدرةً، وقد عاد مكرهم عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ من شدة قوته، لكن الله ردّ كيدهم في نحورهم ويدخل في هذا كل مَنْ مكر من المخالفين لينصر باطلًا أو يبطل حقًا، والقصد أن مكرهم لم يغنِ عنهم شيئًا ولم يضروا الله شيئًا وإنما ضروا أنفسهم.

﴿٤٧﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي ليس من شأنه إخلاف المواعيد لأحد ما، فكيف يخلف رسله وهم خيرته وصفوته من خلقه!؟ فلا شك أنه لا يتخلّى عن نصرتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي إنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به.

﴿٤٨﴾ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ وفي الحديث، قال عليه الصلاة والسلام: «يُحشرُ الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصةِ النَّقي، ليس فيها مَعلمٌ لأحد» متفق عليه [٤٨١]. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرّقاب وخضعت له القلوب.

﴿٤٩﴾ ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وترى يا محمد يومئذ المجرمين الذين كفروا بالله وجحدوه مشدودين بجعل بعضهم مقرونًا مع بعض أو مع قرنائهم من الشياطين بالأصفاد والقيود، جعلت أيديهم مقرونة بأرجلهم.

﴿٥٠﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي ثيابهم من قطران وهو الذي تُطلى به الإبل، أو هو النحاس المذاب ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تعلو وجوههم النار وتضربها. وفي الحديث: «النائحة إذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار وسرابيلها من قطران وتغشى وجهها النارُ» [٤٨٢].

﴿٥١﴾ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من المعاصي، أي جزاء موافقًا لما عملت من خير أو شر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي ينجز حساب الجميع كالواحد.

﴿٥٢﴾ ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي ليخوّفوا به من كفر بالله من يوم تشيب من هوله الولدان، وعذاب أليم مؤبّد خالد لا تهدأ ناره، ولا تنطفئ جحيمه، لعلهم يرجعون إلى الله ويؤمنون بما أنزل على رسله ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي يستدلّون بهذا القرآن وما فيه من الحجج والبراهين على وحدانيته تعالى ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول السليمة.

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام
والحمد لله تعالى على منّه وإحسانه

(١٥) سُورَةُ الحِجْرِ

مكية إلا الآية ٨٧ فمدنية، وآياتها ٩٩، نزلت بعد يوسف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ الحِجْرِ (ترتيبها ١٥) (آياتها ٩٩)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ
وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا
مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ
ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ
إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي
قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ
﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾

٢٦٢

(١) ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي آيات القرآن ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ عطف بزيادة صفة، أي مظهر للحق من الباطل بأحسن لفظ وأوضحه وأدلّه على المقصود، وهذا مما يوجب اتباعه.

(٢) ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ويتمنَّون ﴿لَوۡ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ وذلك عند الاحتضار والغرغرة ولكن هيهات هيهات.

(٣) ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي دعهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم ويتمتعوا في دنياهم التي يظنون أنها دائمة لهم ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ عن اتباعك ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم ووبال خاتمتهم التي تنتظرهم.

(٤) ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ إلا بعد قيام الحجة عليها ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي أجل مقدّر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه، معلوم عند الله لا يتغير ولا يتبدل ولا يتخلف عن ميقاته المعيَّن.

(٥) ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي ما تسبق أمة أجلها المسجَّل في اللوح المحفوظ، أي لا يأتي هلاكها قبل حلول أجلها المضروب ولا يتأخر عن ميعاده وميقاته.

(٦) ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ أي وقال المشركون: يا أيها الذي تدَّعي بأنه نزل عليك الذكر، أي القرآن إنك لمجنون في دعوتك إيانا إلى اتباع دينك ونبذ دين آبائنا وأجدادنا من قبل وما وجدناهم عليه.

(٧) ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي هلّا تأتينا بالملائكة فيشهدون لك بصحة ما جئت به أو يعاقبونا على تكذيبنا لك، إن كنت صادقًا في دعوتك.

(٨) ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالقرآن أو بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ أي لو أنزلنا الملائكة لعاجلناهم بالعقوبة وما أجلناهم عن ميعاد هلاكهم ولا لحظة.

(٩) ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ أي هذا القرآن على رسولنا محمد ﷺ بالحق ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي ونحن لهذا القرآن لحافظون من كل تغيير أو تبديل أو رفع وتصحيف وتحريف أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك.

(١٠) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي إنه تعالى أرسل من قبله في الأمم الماضية رسلًا كُذِّبوا كما كذَّب بك قومك، وهذه تسلية لرسوله ﷺ.

(١١) ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي كانت أمم كل رسول تسخر من رسولها وتستهزئ به ولا تتبع ما يدعوهم إليه.

(١٢) ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي كما أن المجرمين المكذبين استهزأوا وكذَّبوا برسلهم كذلك ندخل الضلال إلى قلوبهم جزاء ذلك.

(١٣) ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم أن يهلكهم جزاء تكذيبهم.

(١٤) ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي يخبر الله تعالى عن شدة معاندتهم ومكابرتهم واستحالة إيمانهم بالحق: أنه لو فتح الله لهم بابًا من السماء ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ أي فجعلوا يصعدون فيه إلى السماوات لما صدقوا بذلك أبدًا وأصروا على تكذيبهم بالحق.

(١٥) ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ أي برغم ما لو وقع معهم من الإلزام والتصديق بمشاهدة المعجزات، لقالوا ليس الذي شاهدناه حقيقة، بل سكِّرت أبصارنا، أي أغلقت عن الرؤية ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ أو يمكن أن يكون الذي شاهدناه خيالًا وسحرًا لا حقيقة له.

لما يعرض الكفار على النار يودون لو كانوا مسلمين وهيهات

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ
فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا
مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ
لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ
بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ
مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن
رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

٢٦٢

(١٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي وجعلنا في فضاء السماء الدنيا بروجًا، أي منازل للشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب والأفلاك، فإنها جميعًا في فضاء السماء الدنيا، وليست داخلها بدليل قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ إذًا فالنجوم والكواكب هي زينة السماء الدنيا لا السماء الدنيا، ولا هي في داخلها. وكلُّ ما علاك فهو سماك كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [المؤمنون: ١٨]، بينما ينزل المطر من السحاب، وسمي سماءً لعلوّه.

(١٧) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أي حفظنا السماء الأولى بالشهب حرسًا لها من مردة الشياطين لئلاّ يسمعوا إلى الملأ الأعلى.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي إلا من تقدَّم منهم لاستراق السمع ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي أدركه شهاب مبين فأتلفه، والشهب هذه مشاهدة منظورة من الناس.

(١٩) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي مدَّها ووسَّعها وبسطها وجعل فيها الجبال رواسي كيلا تميد ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي وجعلناها منبتةً بالزروع والثمار المتناسبة والمعادن النفيسة مقدَّرة بقدر.

(٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب والتصرف بأسباب الرزق ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ كالمماليك والخدم والأولاد الذين هم في الحقيقة مرزوقين من الله هم وجميع الخلق قاطبة مما يراه الإنسان وما لا يراه وما لا يعلمه سواه.

(٢١) ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء في هذا الكون إلا وعندنا خزائنه ومكنونه من الأرزاق والأقوات والمستلزمات جميعًا وهي موجودة ومكنونة عنده تعالى ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلا بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته تعالى بمقدار حاجة العباد إليه بقدر معلوم عنده تعالى.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي تلقح الشجر والأزهار فيعقد الثمر وكذلك الزروع أيضًا، وتلقح السحاب فتذرُّ المطر ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي من السحاب مطرًا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي جعلناه لسقياكم وشرب مواشيكم وأرضكم ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي ليست خزائنه عندكم، بل نحن الخازنون له من أجلكم عند الحاجة إليه.

(٢٣) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ وهذا إخبار عن قدرته تعالى على الإحياء والإماتة والبعث وأنه تعالى هو الذي يرث الأرض ومن عليها وإليه المآب.

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي الذين مضوا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ أي الذين سيأتون إلى يوم القيامة. وعلمنا ما عملوا وما سيعملون من خير أو شر.

(٢٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي سيبعثهم بعد موتهم، وهو القادر على ذلك وسيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ بجميع أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع خلقه، لا إله إلا هو.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي خلقنا آدم أصل النوع الإنساني من طين يابس كالفخار أسود منتن متغيّر.

(٢٧) ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ أي وخلقنا الجانّ، أي أصل الجن وهو إبليس من نار السموم، وذلك قبل خلق آدم عليه السلام، وفي الحديث: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلقت الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم» [٤٨٣]. أي من طين -ماء وتراب-.

(٢٨) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي إن الله تعالى أخبر الملائكة بأنه سيخلق بشرًا مما وصف...

(٢٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي خلقته وعدلت صورته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي هذه الروح التي يحيا بها الإنسان، أي من أمري بكلمة (كُنْ) وأضافها إليه تشريفًا لآدم ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي سجود تحية.

(٣٠) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ امتثالًا لأمر ربهم جلَّ وعلا، وقوله ﴿كُلُّهُمْ﴾: أزال به احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد.

(٣١) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ حسدًا وكفرًا وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل، وخروجًا على أمر ربه وفسوقًا.

قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن
لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ
فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ
مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ
ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾
۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

٢٦٤

(٣٢) ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أي ما منعك ألا تكون مع الذين امتثلوا أمري وسجدوا لآدم كما أمرتهم؟

(٣٣) ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ﴾ أي لا ينبغي لمثلي أن يسجد لبشر خلقته من طين يابس أسود متتن.

(٣٤) ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فغضب الله عليه وطرده، وقال له: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم، وأُخرِجَ من الملأ الأعلى.

(٣٥) ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي عليك الطرد، والإبعاد من رحمة الله إلى يوم القيامة، ولا يستلزم انقطاعها بعده.

(٣٦) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي أخّرني وأمهلني ولا تمتني إلى يوم القيامة وبَعْثِ آدم وذريته؛ فاستُجيب له.

(٣٧) ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ أي من المؤجلين في تأخير وفاتهم وبقائهم أحياء إلى أجل مسمى عند الله.

(٣٨) ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ أي هو الوقت القريب من يوم القيامة، فعند ذلك يموت وينتهي أجله.

(٣٩) ﴿قَالَ﴾ أي إبليس ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يا ربِّ أقسم بإغوائك لي، وإن إغواء الله له لم يكن كإغواء المخلوقين، لكن الله تعالى علم من نفس إبليس ما حدث فيها من تكبر واستعلاء على آدم حينما أمر الملائكة بالسجود له فجازاه على ذلك جزاءً وفاقًا من جنس عمله، فأقسم إبليس بهذا الإغواء أنه ليُحسِّننَّ إلى ذرية آدم المعاصي ويوقعنَّهم فيها ويصدنَّهم عن أوامر الله ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ عن طريق الهدى والخير والفلاح ولأحملنَّهم على المنكرات حملًا.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي الذين استخلصتهم من عبادك فكانوا على ما تحب وترضى من الانقياد والطاعة.

(٤١) ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ أي مرجعكم كلكم إليَّ ولا بد من لقائكم بي فأجازي كلًّا بعمله خيرًا أو شرًّا.

(٤٢) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ أي ليس لك عليهم أيُّ تسلُّط ولا قدرة ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ عن طريق الهدى وسبيل الحق السالكين طريق الغواية والضلال، والذين استحبوا اختيار الكفر على الإيمان.

(٤٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي موعد جميع من اتبع إبليس واستجاب لدعوته الباطلة وسبيله المعوّجة.

(٤٤) ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ أي لكل باب من هذه الأبواب السبعة جزء من أتباع إبليس يدخلونه إلى جهنم جزاء ما اتبعوه واتخذوه دليلًا.

(٤٥) ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي في بساتين وأنهار.

(٤٦) ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ أي من كل خوف وإخراج وفناء.

(٤٧) ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ أي لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدره من غلّ فتبقى صدور المؤمنين سالمة من كل غلٍّ وحسد ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ متكئين على فرش من اللؤلؤ.

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ أي أدنى مشقة أو تعب أو أذى ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ كما جاء في الحديث: «يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحّوا فلا تمرضوا أبدًا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدًا» [٤٨٤].

(٤٩) ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي بأني أنا الغفور لذنوبهم وأنا الرحيم بهم فليستغفروني ولا ييأسوا من رحمتي.

(٥٠) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ وكما أني غفور رحيم، فكذلك إن عذابي الذي أعذب به الكافرين والعاصين عذاب أليم لا يطاق.

(٥١) ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وأخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم الذين جاؤوه ليبشروه بإسحاق في طريقهم إلى قوم لوط لإهلاكهم.

إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ
﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

٢٦٥

جاء الملائكة بالبشارة بمولد إسحاق، وبالإخبار بما سيحل بقوم لوط من الهلاك

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي سلموا عليه وهم الملائكة ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفون لما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ.

(٥٣) ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تخف منا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي نبشرك بإسحاق يولد لك من زوجتك سارة يكون كثير العلم، كثير الحلم.

(٥٤) ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي قال متعجبًا من كبره وكبر زوجته: فبم تبشروني فإن البشارة لا تصح بما يستبعد عادةً.

(٥٥) ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو الحق الحقيق ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي من الآيسين من ذلك، فإن الله على كل شيء قدير.

(٥٦) ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي أجابهم إبراهيم بأنه ليس قانطًا، ويرجو من الله الولد رغم كبر سنّه وسنّ زوجته.

(٥٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي فما أمركم وشأنكم، وما الذي جئتم به وكأنه أحسّ بأنّ لهم شأنًا آخر أرسلوا من أجله.

(٥٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي ارتكبوا جرمًا عظيمًا ما سبقهم إليه من أحد من العالمين، فاستحقُّوا النقمة.

(٥٩) ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي مَنْ كان من آل لوط، أي من اتبعوهُ على دينه الذي نزل عليه فإننا منجُّو كلٍّ من آمن به من العذاب الذي جئنا لتنفيذه بهم.

(٦٠) ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي إنهم لن ينجّوا امرأة لوط ولو أنها من أهله من حيث القرابة والزوجية القائمة بينهما، إنّما هي مشركة على دين قومه فأخرجت من أهله، وما آل الأنبياء إلا الذين يتبعونهم على دينهم.

(٦١) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي لما وصل الملائكة إلى لوط بصورة شبان حسان الوجوه فدخلوا عليه داره.

(٦٢) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي قال لوط عليه السلام لهم: إنكم قوم لا أعرفكم من أنتم؟ وما شأنكم؟ وماذا تريدون؟

(٦٣) ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي جئناك بعذاب قومك وهلاكهم ودمارهم، هذا العذاب الذي كانوا يشكّون به.

(٦٤) ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد وهو العذاب الذي لا محالة نازل بهم جزاء كفرهم وشذوذهم الذي ما سبقهم إليه أحد.

(٦٥) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي بقومك المؤمنين بك ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي بعد مضي جانب منه ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي امش وراءهم ليكون أحفظ لهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا نحوهم أبدًا، واتركوهم فيما حلّ بهم من العذاب ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل إلى الجهة التي أمروا أن يتوجّهوا إليها.

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي إهلاك قومه ثم فسّره: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي قومه ﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي هالك صباحًا.

(٦٧) ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة سدوم التي فيها قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بضيوف لوط الحسان الوجوه بأن يأخذوهم منه.

(٦٨) ﴿قَالَ﴾ أي لوط عليه السلام ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذي ترونهم عندي هم ﴿ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي لا تخزوني فيهم، وذلك قبل معرفتهم بأنهم رسل الله وملائكته.

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ضيفي، وكان يعلم ما يريدون منهم من الفاحشة بهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ في ضيوفي، فإن للضيف كرامة بأن لا يُهان، وكيف وأنتم تريدون منهم الفاحشة، فماذا يكون موقفي بالنسبة إليهم؟ أليس هو الذل والهوان يلحقان بي من عملكم.

(٧٠) ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قومه الكافرون الفاجرون ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ أي أما نهيناك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس، إذا قصدناه بالفاحشة، ومعنى ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي منعناك أن تنهانا عن أحد من العالمين إن أردنا به الفاحشة!!؟

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

٢٦٦

لعمرك قسم بحياة محمد وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته تشريفًا له

(٧١) ﴿قَالَ﴾ أي لوط عليه السلام ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ ويعني نساءهم اللاتي هنَّ حلال لهم فهنَّ بناتُه لكون النبي بمنزلة الأب لقومه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم، وما أحل الله لهم منهنَّ.

(٧٢) ﴿لَعَمْرُكَ﴾ هذا خطاب لمحمد ﷺ، وقسم بحياته، وما أقسم تعالى بحياة نبيٍّ قط إلا بحياة محمد، وذلك تشريفًا له إذ ما برأ نفسًا أكرم عليه منه ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في ضلالتهم يترددون في عمى القلب، غافلين عما أحيط بهم من البلاء بسبب ما هم فيه من العمى والعمه[1].

(٧٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ وهذه صيحة جبريل عليه السلام فيهم عند إشراق الشمس، وهي صيحة قاصمة قاصفة هائلة مريعة مفزعة.

(٧٤) ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي عالي قراهم ومدينتهم سدوم سافلها إذ اقتلعها جبريل من الأرض ورفعها إلى عنان السماء ثم قلبها بهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي من السماء ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي من طين متحجّر رجموا بها وكأنها المطر تنصبُّ عليهم بأمر الله انتقامًا منهم على ما اقترفوا من الآثام.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الانتقام ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي لدلالات وعبرة للمعتبرين الذين يتعظون بما انتهى إليه المجرمون.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي بلادهم ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ على طريق الذاهب من المدينة إلى بلاد الشام، وما زال الاعتبار بها قائمًا والعظة بما حلّ بها ناطقةً للمتعظين المتبصرين إلى يومنا هذا، وهي مكان بحيرة لوط.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي حلّ بهم ﴿لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يدفع بأصحابه إلى العظة والاعتبار.

(٧٨) ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أي أصحاب غيضة الشجر بالقرب من مدين ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ بتكذيبهم نبيَّهم شعيبًا بما جاء به من التوحيد وأمرهم بعدم إنقاص الكيل والميزان.

(٧٩) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي بلاد لوط وشعيب ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ على طريق ظاهر للمسافرين إلى بلاد الشام متقاربة زمانًا ومكانًا، ولذا لما أنذر شعيب قومه قال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]. أي مكانهم.

(٨٠) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ أي قوم ثمود والحجر اسم بلادهم ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ومن كذّب رسولًا واحدًا فقد كذّب الرسل جميعًا لأن رسالاتهم واحدة، والمرسل واحد.

(٨١) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ كالناقة التي أخرجها الله تعالى بدعاء رسولهم صالح عليه السلام من الصخرة ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا﴾ أي عن هذه المعجزة المقترحة من قبلهم ﴿مُعْرِضِينَ﴾ عن تصديقها.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ بزعمهم من العذاب ركونًا منهم إلى قوتها ومتانتها، ولكن لم تغنهم شيئًا.

(٨٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي وقت الصباح.

(٨٤) ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي لم يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله حينما حلّ بهم ما كانوا يكسبون من الأموال والثمار والزروع والحصون في الجبال. وقد مرَّ رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقنّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم» [٤٨٥]. لأن من نزل عليهم العذاب من السماء ما ينفكُّ الغضب نازلًا في منازلهم.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي هو العبادة له وحدهُ ليجزي كلًا بعمله ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ لا محالة ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ وهذا قبل الجهاد.

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الخلاّق لكل شيء والعليم بكل شيء.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ يعني الفاتحة ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أي هذا الكتاب الكريم.

(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا تتطلّع إلى الدنيا وأصحابها واستغن بالقرآن العظيم عما هم فيه من المتاع الفاني ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا لم يؤمنوا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كناية عن التواضع ولين الجانب.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله.

(٩٠) ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل: إنهم اليهود والنصارى، وقيل المشركون، والكل صحيح، فقد تقاسموا القرآن استهزاء وسخرية.

(١) العَمَهُ: عمى القلب.

ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

٢٦٧

(٩١) ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي أصنافًا متفرقة، فمن قال: سحر، ومن قال: كهانة، ومن قال: أساطير الأولين، فذلك هو العضين.

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا غرّك مني بي؟ ابن آدم ما عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين. وهذا له حكم المرفوع، لأن ابن مسعود لا يقول ذلك برأيه لا سيما وقد أقسم على ذلك. وفي الحديث: «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» [٤٨٦].

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شرٍّ، ولا يظلم ربُّك أحدًا، وكقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

(٩٤) ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي أظهر ما تؤمر به، وأظهر دينك ولا تبال بالمشركين، ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة، ولا يهمك أحد منهم، وهذه بشارة منه تعالى.

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أي لا تخفهم فإن الله كافيك إياهم.

(٩٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن اتخذ مع الله إلهًا آخر وأشرك به غيره والعياذ بالله ولم يتب من ذلك حتى مات.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك، فلك أسوة بالمرسلين من قبلك.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قل: سبحان الله وبحمده ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي فإنَّ الصلاة تذهب ضيق الصدر بإذن الله.

(٩٩) ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي داوم على العبادة لا تفتر عنها حتى يأتيك اليقين وهو الموت.

آخر تفسير سورة الحجر ولله الحمد والمنّة وعليه التكلان

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ

مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية وآياتها ١٢٨، نزلت بعد الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لما استبطأ المشركون العذاب نزلت هذه الآية. ومعنى أتى، أي سيأتي لا محالة وهو دنو القيامة واقتراب الساعة فلا تستعجلوه فلا بدَّ أنَّ له أجلًا معينًا محتومًا، ثم نزّه تعالى نفسه عما يشركون به غيره.

(٢) ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ وحيًا ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهم الأنبياء والمرسلون ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي أعلِموا الناس بأن الله لا معبود بحقٍّ إلا هو سبحانه فاعبدوه وحده.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي لأجل إفراده بالعبادة وحده ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فمن كان مستقلًا بخلق السماوات والأرض وحده استحقَّ وحده العبادة وجل وتنزّه وتعالى عما يشركون به غيره من الأنداد، فلا معبود غيره ولا إله سواه.

(٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من منيّ، فنقله أطوارًا إلى أن كملت صورته ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فلما خرج ودرج واستقلَّ إذا هو يخاصم ربه ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خُلق ليكون عبدًا لا ضدًّا، وشاكرًا لا كافرًا.

(٥) ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، أي لأجلكم ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها لباسًا وفراشًا ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ وهي درّها وركوبها ونتاجها والحراثة بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون من لحومها ولحوم أولادها.

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي تجمّل وتزيّن عند الناظرين إليها ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي وقت تسريحها إلى المرعى وحين رجوعها منه.

أقسم الله بسائل عباده عما عملوه صغيرًا كان أو كبيرًا

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ
وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ
شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم
بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ
مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾

٢٦٨

(٧) ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أي أحمالكم الثقيلة ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ أي واصلين إليه ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ أي بجهدها ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ بكم، أي إن الله تعالى لشديد الرأفة بكم وعظيم الرحمة حتى أنه أرحم بكم من أي راحم سواه.

(٨) ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها وإلاّ فهي للتحميل أيضًا ﴿وَزِينَةٗ﴾ أي لتتزينوا بها، ولكن الزينة غير مقصودة لذاتها، إنما هي داخلة في جملة المقاصد، وإن أهل الهمم العالية لا تلتفت إليها؛ لأنها تورث العجب، ولحوم الخيل تؤكل، والحمر الأهلية والبغال لا تؤكل. للحديث: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل [٤٨٧]. ولحديث آخر: عن أسماء بنت أبي بكر: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة [٤٨٨]. ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي ما لا تحيطون بعلمه.

(٩) ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي هو وحده الموفق إلى طريق الحق، فقد أخبر الله أن ثم طرقًا تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلاّ طريق الحق وما عداها تهجر. ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ أي حائد زائغ عن الحق، وهي الطرق غير المشروعة فكل طريق غير طريق الحق مسدودة، والأعمال فيها مردودة ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ولكن ما شاء؛ ليجعل عباده على الاختيار: فمن اختار طريق الحق نجا وسلم، ومن اختار طريق الباطل هلك.

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم﴾ أي أنزل من جهة السماء، أي من السحاب ماءً، أي مطرًا، فبعد أن ذكر نعمه على الناس مما خلق لهم من الحيوانات للانتفاع بها شرع يذكر ما أنعم عليهم في إنزال المطر ﴿مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ أي جعله عذبًا سائغًا صالحًا للشرب ولم يجعله ملحًا أجاجًا ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرًا ترعون فيه أنعامكم.

(١١) ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ينبت بسبب المطر بإذنه، أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف طعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي دلالةً وحجة على أنه لا إله إلاّ الله، أي لا يستحق أن يُعْبَدَ وحده إلاّ هذا الذي أسدى النعم وحده.

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي صيَّر لكم الليل والنهار نافعين بحسب اقتضاء المصلحة يتعاقبان طولًا وقصرًا، وكذا الشمس والقمر والنجوم، فإنها تجري على نمط مُتَّحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات، ويعلمون عدد السنين والحساب، وليهتدى بها في الظلمات، وكلٌّ يسير في فلكه المخصص له بلا زيادة أو نقصان، والجميع تحت قهره وتقديره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أي دلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ عن الله كلامه فيعونه ويطبقونه على أنفسهم ومن يعولون.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وما خلق فيها من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ أي على اختلاف ألوانها وأشكالها ومنافعها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ آلاءه فيشكرونه على ما سخر لهم من تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى، وما شكره إلا طاعته فيما أمر ونهى، فيأتمرون بأمره وينتهون عما نهى على هدىً من شرعه الذي ارتضى لهم.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ ويمتنُّ الله على عباده بتسخير وتذليل البحر لعباده لأكل ما فيه من الأسماك والحيتان ذات اللحم الطري اللذيذ حيًا كان أو ميتًا، وفي الحل والإحرام ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ كاللآلئ وغيرها وتسهيل استخراجها حليةً من لؤلؤ ومرجان للرجال والنساء ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وهو الذي أرشد عباده إلى صناعتها إرثًا عن أبيهم نوح عليه السلام، ويسيرون فيها من قُطر إلى قُطر، ويجلبون من كل قُطر وإليه ما هم بحاجة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي من رزقه ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ نعمه وإحسانه.

لحوم الخيل حلال، سخر الله نعم البر والبحر للإنسان ليعبده وحده لا شريك له

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

(١٥) ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي وألقى في الأرض الجبال الشامخات الثابتات كيلا تضطرب بأهلها ليهنأ عيشهم عليها ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وجعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر. وجعل فيها أيضًا طرقًا تسلك من بلاد إلى بلاد، يهتدون بها إلى مقاصدهم.

(١٦) ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي دلائل من جبال وآكام يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في ظلمات الليل طرقهم.

(١٧) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ وهنا نبّه الله عباده بعدما ذكر ما خلق وما أوجد من النعم المشاهدة التي لا تحصى ولا تستقصى، وبيّن قدرته العظيمة على خلق مخلوقاته جميعًا في الأرض والسماء وما فيهما وما بينهما والأنعام والخيل وما يركب، والنباتات والثمار وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والمعادن والجمادات والبحر والمواخر فيه وما فيه من المخلوقات والجبال والأنهار. كلُّ هذا من مخلوقات الله التي يقول لها: كوني فكانت، ثم لفت أنظار الناس الذين اتخذوا آلهةً غير الله، فقال لهم: أفمن يخلق كل هذه المخلوقات مثل من لا يخلق شيئًا وهم مخلوقون لله وهم من جملة مخاليقه. فكيف تعبدونها وهي مخلوقة!!؟ وتتركون الخلّاق العظيم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تستدلون بها على مستحق العبادة فتوجهونها إليه وحده وتفردونه بها كما يُحبُّ ويرضى.

(١٨) ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لكثرتها اللامتناهية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض تلك النعم إذا تبتم وأنبتُم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم فلا يعذّبكم بعد الإنابة والتوبة والرجوع إليه سبحانه.

(١٩) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي إنه سبحانه يعلم السرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كلًّا بعمله خيرًا أو شرًّا.

(٢٠) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي هم مخلوقون من جملة المخاليق التي خلقها الله من العدم.

(٢١) ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يعلمون متى يبعثون من قبورهم، وهذا يدل على أن المعنيين بهذه الآية هم أصحاب هذه الأصنام التي نحتت على صورتهم وهيئتهم لا الأصنام ذاتها، إنما كان المشركون يتوسلون بهم ليقربوهم إلى الله زلفى بزعمهم، والله لا يقبل واسطة إليه إلا بما شرع وأمر.

(٢٢) ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي معبودكم الذي يستحق العبادة وحده هو واحد وهو الله الخالق المنعم المتفضل لا أولئك المخلوقين العاجزين الأموات المقبورين الذين ما يدرون متى يبعثون ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أنه لا إله إلا الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته وحده مع إنكار قلوبهم لتوحيده.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي حقًا إن الله يعلم سرَّهم في أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن توحيد الله تعالى وعن إفراده بالعبودية.

(٢٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المكذبين المستكبرين: ماذا أنزل الله؟ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أباطيلهم وترّهاتهم.

(٢٥) ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يحملون خطيئاتهم وضلالاتهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ويحملون أيضًا مثل أوزار من أضلُّوهم وخطيئات من أغووهم. وفي الحديث: «من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» [٤٨٩]. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئسما يحملون من الآثام والأوزار.

(٢٦) ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي اجتثّه من أصله ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي فنزل السقف فوقهم فأهلكهم جميعًا، لأن بعد سقوط قواعد البناء لا بد أن يسقط السقف، وبغتوا بالموت من حيث لا يشعرون إلاّ وفاجأهم.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

٢٧٠

منهج الكفر واحد في كل الأمم وكلهم يتبعون فيه أسلوبًا واحدًا

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يظهر فضائحهم، ويجعل سرهم علانيةً. وفي الصحيحين: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان» [٤٩٠]. هكذا يفضحهم الله ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي أين أولئك الشركاء الذين كنتم تزعمون نصرهم لكم، أين هم؟ لمَ لا يُخلّصونكم وينقذونكم مما أنتم فيه!!!؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي أهل الحق في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي الخذلان وسوء المنقلب والفضيحة ﴿وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي إن أسوأ العذاب محيط بهم ولا يُفتَّرُ عنهم طرفة عين جزاءً وفاقًا بما كفروا نعم الله والهدى الذي حمله رسل الله إليهم، وجحدوا المرسِلَ والرسول.

(٢٨) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي ظلموها بالشرك وأوردوها معاطبها ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي استسلموا وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ بحسب ما كانوا يظنون ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ردّ الله عليهم بأنهم كانوا يعملون السوء، وأنه عليم بأعمالهم التي كانوا يقترفونها في الدنيا، ويعلم شركهم وما كانوا يفترون.

(٢٩) ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي بسبب ما قد أسلفتم من الشرك والكفر بالله سبحانه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها بعذاب لا ينتهي ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي عن الإقرار بالإيمان والتوحيد فبئست نهايتهم ومأواهم في قرار الجحيم.

(٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي الذين اتقوا الشرك والمعاصي وهم المؤمنون السعداء الذين سُعدوا بما أسلفوا من العمل الصالح بعد إخلاص التوحيد لله، وقيل لهم: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به فقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي يكافأون في الدنيا بما عملوا من إحسان مكافأة طيبة ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي وإن المكافأة في الآخرة خير بكثير من مكافأة الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ما أنعمها من دار ينال المتقون فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ جزاء إيمانهم وتوحيدهم وأعمالهم الخالصة لوجهه تعالى.

(٣١) ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إن دار المتقين هي جنات عدن ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي يقيمون فيها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من النعيم المقيم ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ وكما ذكر الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ماذا حلّ بهم، كذلك ذكر الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، وما سيكون من حالهم في جنات النعيم من الهناء والرضا.

(٣٢) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي تقول لهم الملائكة عند الاحتضار: سلام عليكم أي أمان واطمئنان من النار عليكم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يبشرونهم بالجنة بسبب ما أسلفوا من العمل الصالح.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي هل ينتظرون أي الكفار ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أو تقوم الساعة بأمره تعالى، وهم مستمرون ومصرّون على الكفر؟! ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار الذين سبقوهم بالكفر من الأمم قبلهم. ولا شك أن الكفر منهج واحد، والكفار قديمًا وحديثًا يسلكون ذات المنهج في كل زمن ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ وهذا لا ينبغي أن يكون لله، لأن الظلم حرّمه على نفسه، والمعنى أن معاقبتهم بالنار والعذاب المقيم الخالد فيها إنما هو ظلم أوقعوه في أنفسهم بكفرهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وكيف لا وقد علموا أن عاقبة الكفر هو هذا العذاب المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي كما حصل بمن قبلهم فقد أصابهم هذا العذاب بسبب ما عملوا من السيئات من تكذيب الرسل وتكذيبهم بما جاءوا به من الحق ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به ويستبعدون وقوعه بهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ
كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

٢٧١

• لا حجة بالمشيئة الكونية إذا كانت تتعلق بالمشيئة الشرعية، الهجرة إلى الحبشة •

(٣٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ من البحائر والسوائب والوصائل، وغير ذلك مما ابتدعوه من عند أنفسهم، محتجين بمشيئة الله، أي إن الله شاء لهم عبادة غيره معه، وشاء لهم أيضًا ما حرموه من دونه، زاعمين أنه راض عن عملهم وإلّا لأنكره عليهم بإنزاله فيهم عقوبته، فخلطوا بهذا الزعم بين معنيي المشيئة والرضا! ولا شك في أنه لا يكـون في الكـون شيء إلّا بمشيئته. فالكافر مثلًا، ما كفر إلّا بمشيئته، وكذلك المؤمن ما آمن إلّا بمشيئته أيضًا، وإلّا لكان هناك غالب لله على ما يشاء وهذا مستحيل. أما الرضا منه تعالى، فلا يكون إلّا بناءً على عمل العبد الذي أخلص فيه النية لله تعالى وكان عمله أيضًا مطابقًا أمر الله وشريعته، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فتبين أنّ الكفر لا يرضاه، والفحشاء لا يأمر بها، إنما يشاؤهما، ومن هنا يتبين الفارق بين معنى صفتي المشيئة والرضا، وفساد الخلط بين معنى الصفتين. ولهذا ردّ الله تعالى على المشركين بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ قد أشركوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليس كما زعمتم، بل إن الله أنكر عليكم عبادتكم غيره أشد الإنكار.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ والطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله برضاه. فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾؟ فمشيئته الشرعية منتفية عنهم لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة الرسل، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا حجة لهم فيه، إذ ليست مجبرة لهم بأخذ الكفر عقيدة، لأن العقيدة من الأمور التكليفية التي جعل الله للإنسان فيها الاختيار المطلق، وليكون مستحقًا للثواب أو للعقاب[1] ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي ثبّت قلبه على الحق جزاء إيمانه به ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فثبّت قلبه على الشرك جزاء كفره وشركه ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ من الأمم السابقة.

(٣٧) ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي من يضله الله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينقذونهم من عذابه ووثاقه.

(٣٨) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي حلفوا على نقيض ما أخبرهم الرسل مكذبين ما بلغوهم إياه ﴿بَلَىٰ﴾ أي نعم سيكون البعث ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي لا بد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل.

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي ليظهر الله الحق فيه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في جدالهم وإنكارهم البعث!!

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد كون شيء وإيجاد أمر فإنما يأمر مرة واحدة فيكون كما يشاء، فلا يحتاج سبحانه إلى تأكيد، ولا يمانع ولا يخالف، فقد قهر سلطانه وجبروته كلّ شيء.

(٤١) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ نـزلت هـذه الآيـة والله أعلم فيمن هاجر إلى الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى هاجروا إلى الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم وكانوا ثمانين رجلًا وامرأة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لننزلنّهم منزلًا في الدنيا حسنًا في المدينة ورزقًا طيبًا فيها، خيرًا مما كانوا فيه، وهكذا فقد وقع، فقد مكّن الله لهم في البلاد وصاروا أمراء وحكامًا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي أكبر من أن يعلمه أحد من أهل الدنيا، فلو كان يعلمه أحـد من المتخلفين ما تخلّف عن الإيمان والهجرة أحد إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

(٤٢) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي صبروا على الأذى في سبيل الله تعالى من قومهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يتوكلون على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

(١) راجع كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» واقرأ التعليق في (ج٢ سورة النحل، الآية ٣٦).

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ
يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ
ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ
إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

(٤٣) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي إن الأنبياء الذين مضوا قبلك ما كانوا إلا رجالًا، أي بشرًا مثلك ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي أهل الكتاب العلماء منهم، عما إذا كان الأنبياء الذين بعثوا إليهم هل كانوا رجالًا من البشر أم كانوا ملائكة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

(٤٤) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي إن كنتم لا تعلمون بالبينات من الحجج والدلائل وما جاء في الزبر، وهي الكتب التي نزلت قديمًا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم بما أراك الله، لتفصّل للناس معاني القرآن وتحل منه ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يُعملون فكرهم في فهمه وتطبيقه على أنفسهم وعلى من يعولون، فيهتدون جميعًا ويفوزون بالنجاة في الدارين.

(٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي أصار الماكرون المكرات السيئات من حمل الناس على دعاء غير الله وسعوا في أذية الرسول وأصحابه بالخفية آمنين من ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسف الله بقارون الأرض ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي في حال غفلتهم فجأة من حيث لا يتوقعون، وقيل: يريد يوم بدر؛ فإنهم أهلكوا من حيث لا يحتسبون.

(٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في أسفارهم أو في أثناء تقلبهم في حياكة حيلهم فيحول دونهم ودونها بفجأة الهلاك ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله في أخذهم على أية حال.

(٤٧) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي في حال توقعهم الأكيد من أخذه لهم ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أنه لا يعاجل فيمهل إيقاع العقوبة فإنه بالتائب والراجع عن الذنب لرؤوف رحيم به فيجنبه نقمته التي ستحصل أو تقع به لولا توبته وإنابته ورجوعه إلى ربه وإذا لم يَرْعَوِ أخذه أخذ عزيز مقتدر. وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]» [٤٩١].

(٤٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي إن كل خلق الله ساجدين له تعالى بظلالهم عند شروق الشمس وزوالها وعند غروبها، إذ ليس من ذي ظل إلا ساجدًا بظله لله تعالى.

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته والسجود له، أي وله يسجد كل ما في السماوات وما في الأرض من دابة تدبُّ على الأرض كبيرة أو صغيرة، والملائكة لا يستكبرون عن عبادته.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ والفوقية صفة لله تعالى، فهو سبحانه فوق عباده حقيقة لا مجازًا، وليست كفوقية المخلوقين إنما فوقية معلومة الحقيقة مجهولة الكيفية تليق بجلاله وعظمته ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا وصف للملائكة خاص بهم لأنهم وحدهم المعنيّون بذلك.

(٥١) ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ لأنه ثبت من بيانه سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له خاضعة لجلاله، فلزم ألا يتخذ عباده إلهًا من دونه ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي معبود واحد لا شريك له ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي فلما ثبتت لي العبودية وجبت لي الرهبة وحدي.

(٥٢) ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كل شيء ملك له وفي تصرفه ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي خالصًا دائمًا ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي وهل يُتقى غير هذا الإله؟

(٥٣) ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ لا من غيره ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أي المصائب ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ تستغيثون وهكذا كان المشركون يوحدونه في الضراء.

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ أي المشركون ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يوحدون في الضراء ويشركون به في السراء، أما مشركو زماننا فمشركون في السراء والضراء والعياذ بالله، كقول شاعرهم: (وعند الضيق نادِ عبدالقادر هو شيخي وسيدي) وقوله: (يا شيخي يا رفاعي أدركني بالفرج... فإذا لم تدركني فإلى من ألتجي؟!) والجيلاني والرفاعي بريئان من الشرك والمشركين.

الجاهليون يشركون في السراء ويوحدون في الضراء • ومشركو زماننا يشركون في السراء والضراء

لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن
قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

(٥٥) ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي ليكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر التي قابلوها بالعودة إلى الشرك والإصرار عليه بالجحود والكفر، فوضعوا الكفر موضع الشكر! ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ بما أنتم فيه من الشرك والعناد والكفر في الحياة الدنيا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما سيحل بكم من العذاب والنكال، وترون عاقبتكم السيئة يوم القيامة.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي أقسم الله بذاته العلية ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وليجازينَّهم عليه أوفر الجزاء.

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي إنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه، سبحانه: أي تنزّه وتعالى عن قولهم وإفكهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من الأولاد الذكور، ويأنفون البنات التي نسبوها إلى الله، أي أعطوه أخسَّ القسمين وهم لا يرضونها لأنفسهم!

(٥٨) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي كئيبًا من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ساكت من شدة الحزن والهم والغم.

(٥٩) ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي يكره أن يراه الناس من عار ما أخبر به من ولادة الأنثى ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ فإن أبقاها مُهانةً لا يورثها ولا يعتني بها ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي يدسُّ مولودته حيَّةً في التراب كما كانوا يصنعون في الجاهلية ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه من الولد وما جعلوا لأوثانهم نصيبًا مما رزقهم، وما أعطوه من أخسِّ القسمين من الأولاد وهو البنات وهم يأنفونه لأنفسهم.

(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي من الجهل والكفر بالله، والتنقص له ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب فلا يضره نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله.

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي لو يؤاخذ الكفار أو جميع العصاة بالعقوبة ويعاجلهم بها بما كفروا أو ظلموا ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي يعم أهلها بالهلاك ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي أجل معلوم عنده سبحانه وهو منتهى حياتهم أو أجل عذابهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة؛ منها: الإعذار إليهم، وحصول من سبق بعلمه من أولادهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الذي سمّاه حقّت عليهم كلمة الله ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وفي الحديث: «إذا أراد الله بقومٍ عذابًا أصاب العذاب مَنْ كان فيهم ثم بعثوا على نيّاتهم» [٤٩٢].

(٦٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي من البنات، وهذا تكرار لما تقدّم بقصد التأكيد، ولزيادة التقريع والتوبيخ ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ وهذا نوع آخر من قبائحهم، وهو قولهم: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي في الدنيا، وإن كان ثمَّ معاد ففيه أيضًا لهم الحسنى، فجمع هؤلاء بين عمل السوء، وتمنّي الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسنًا وهو مستحيل. وذُكِرَ أنَّ حجرًا وجد في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون السيئات وتجزون الحسنات؟! أجل .. كمن يجتني من الشوك العنب!!! ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي حقًّا إنَّ لهم النار بدل ما ظنوا لأنفسهم الحسنى ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجلون إلى النار ومخلدون فيها دائمًا أبدًا.

(٦٣) ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي لا يزعجك يا محمد تكذيب قومك لك فقد كذب أمم من قبلك رسلَهم أيضًا ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي حسّنها لهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا ولكن ما تنفعهم هذه الولاية ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة؟!

(٦٤) ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن، ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ من التوحيد وأحوال البعث، فالقرآن فاصل في هذا ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يتمسكون بهديه فيفلحون وينجحون.

• تعملون السيئات وتجزون الحسنات؟! أجل كمن يجتني من الشوك العنب

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا
فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ
أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

٢٧٤

(٦٥) ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي كما أنزل القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك أنزل من السماء ماءً، أي مطرًا ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بجميع أصناف النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي بعد يبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإحياء ﴿لَءَايَةً﴾ أي لدلالة على أن الله تعالى قادر كذلك على إحياء الموتى وبعثهم وحسابهم ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبّر وفهم، فيعلمون ويستدلّون على أنّ هذا الخلّاق العظيم هو وحده الذي يستحق أن يُعبد.

(٦٦) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لدلالة على قدرة خالقها وحكمته ورحمته ولطفه ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ أفرده هنا عودًا على معنى النَّعم. والنَّعم والأنعام، واحد يذكر ويؤنث ولهذا تقول العرب: (هذه نعَم وارد) بدلًا من (وردت) فرجع الضمير إلى لفظ (النَّعم) ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ الفرث: هو ما في الكرش في باطن الحيوان فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى الخارج، وكلٌّ منها لا يخالط الآخر بعد انفصاله عنه ولا يتغيّر به. وقوله: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي لبنًا خالصًا سائغًا، أي لا يغصّ به أحد يشربه لذيذًا هنيئًا، وفي ذلك دلالة على حكمة الخلّاق العليم.

(٦٧) ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ ثم ثنّى بما يتخذه الناس من الأشربة من عصارات التمر والعنب وما كانوا يصنعون منه المسكر قبل تحريمه. ممتنًّا عليهم بذلك، فدلّ على إباحته شرعًا قبل تحريمه ممتنًّا وتحريم ما يتخذ من الحنطة والشعير والذرة والعسل، لقوله: ﴿سَكَرًا﴾ فالسكر ما حُرّم من ثمرتيها والرزق الحسن ما أُحل من ثمرتيها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا بسبب ما في هذه الأشربة من ضياع العقل فحرّمها على هذه الأمة.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ أي ألهم ﴿رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي خلايا لها. وكذلك ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي اتخذي خلايا أيضًا.

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من أزهارها ونوْرها فيتحوّل هذا النَّور إلى عسلٍ لذيذٍ حلوٍ ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي مُذلّلةً لك فلا تضلي عن العود منها وإن بعُدت ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي عسل في ألوان مختلفة بحسب المرعى ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي قدّر الله في هذا الشراب الشفاء للناس من بعض الأدواء الباردة، وكثيرًا ما يستخرج الأطباء من العسل، أو مما في إبر النحل من الأدوية للأدواء المستعصية كوجع المفاصل وغيرها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي مما ذكر ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذه الأمثلة فيستدلون على حكمة وقدرة هذا الخالق العظيم الذي خلقهم وخلق أفكارهم وعقولهم وخلق أرزاقهم المختلفة.

(٧٠) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي يميتكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي حتى يدركه الهرم فيحصل ضعف القوى والخرف، وسوء الحفظ ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي بعدما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من علمه بسبب الخرف. وفي البخاري: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر....» [٤٩٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بتدبير خلقه ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريد.

(٧١) ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ أي الأغنياء المالكين ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي ليسوا بمشاركي عبيدهم في أموالهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي حتى يتساووا مع عبيدهم في الرزق؛ فما لا ترضاه لنفسك كيف ترضاه لربك ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي يكفرون!!؟

(٧٢) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فخلق حواء من آدم، وسائر النساء من نطف الرجال والنساء ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أي بنين وبني بنين ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الرزق الحلال ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالأصنام والأوثان ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فلا يعبدون من أنعم عليهم؟!

إذا أبيت مشاركة مملوكك بمالك، فالله أحق منك بذلك

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

٢٧٥

﴿٧٣﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ بعد أن عدّد الله تلك النعم المتقدمة أنها منه وحده أنعم بها على عبيده الذين خلقهم؛ فبدلًا من أن يفردوه وحده بجميع أنواع العبادات إذا بهم يعبدون من دونه ما لا يـرزقهم شـيئًا ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك أبدًا ... أيخلقهم ويعبدون غيره؟؟! ويرزقهم ويشكرون سواه!!!؟

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي لا تجعلوا لله الأنداد والأشباه وتشركونها به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا إله إلا هو ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فتشركون به مع أن الله خلق لكم عقولًا وأفهامًا لو تستعملونها لعلمتم، ولكنكم عطلتموها فحق عليكم القول، وقامت الحجة.

﴿٧٥﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي لعدم ملكه شيئًا ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي هو من الأحرار الذين يملكون رزقًا كثيرًا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي ينفق دائمًا ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ في حاليهما؟ وهذا مثل مضروب للوثن وللحق سبحانه، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق ظاهرًا واضحًا لا يجهله إلا غبيّ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على قوة هذه الحجة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿٧٦﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي أخرس لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء أصلًا، بل ولا يقدر على شيء ﴿وَهُوَ﴾ مع ذلك ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي عالة على سيده في كل شيء وهو بحاجة إليه في جميع شؤونه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي أينما أرسله سيده ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي لا ينجح مسعاه أبدًا ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ مَنْ هذه صفاته ﴿هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي بالحق الذي ما بعده إلا الضلال ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي مقاله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان؛ فكذلك لا يستوي من عُبِدَ مِنْ دون الله، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئًا منها، فكيف يكون هذا كفؤًا أو ندًا لمن لا يقول إلا الحق ولا يفعل إلا ما يحمد عليه، وهو الله لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يختص ذلك به، لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به، فلا أحد يطلع على غيبه إلَّا أن يطلعه الله على ما يشاء ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يوم القيامة ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي كالنظر بسرعة ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة، بل هو كلام في غاية الحقيقة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء، ولا يمانعه أحد. وإن الساعة لقادر سبحانه على أن يأتي بها متى شاء، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم؛ فلا يستغرب على قدرته شيء.

﴿٧٨﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي أخرجكم من الأرحام أطفالًا لا تعلمون شيئًا مما أنتم بحاجة إلى معرفته إطلاقًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي آلة السمع وآلة البصر ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي العقول، لأن العقل مركزه القلب على الصحيح، فجعل لكم كلَّ هذه الحواس لتحصلوا بها على العلم الذي كان مسلوبًا منكم عند ولادتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون نعم الله عليكم التي علمتموها فتعملوا بموجب ذلك العلم من الشكر للمنعم المتفضل والقيام بحقوقه، وتصرفون كل آلة فيما خلقت له، لا أن تستعملوها في معصية الرب الذي أحسن إليكم، فلا يليق بالإحسان إلا الشكر عليه، وما الشكر إلا الطاعة بإخلاص إليه وحسن اتباع لما شرع.

﴿٧٩﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي مذللات للطيران بما خلقَ لها من الأجنحة ومن رقة الهواء فتصعد في الهواء المتباعد ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي ما يمسكهن عند قبض أجنحتهن وبسطها أن يقعن على الأرض إلا الله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التسخير على تلك الصفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ ظاهرات تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون بالله جلّت قدرته، وبما أرسل من الرسالات والرسل الذين بعثهم الله بالحق ليطاعوا فيما يأمرون بإذنه.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ
﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ
قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ
فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا
إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

٢٧٦

(٨٠) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي تأويكم وتستركم وتنتفعون بها. وهذا أيضًا من جملة تعداد نعم الله على النوع الإنساني ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي يخفُّ عليكم حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي يوم سفركم ويوم نزولكم لا تثقل عليكم في الحالين ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي أصواف الأنعام من الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي من الماعز ﴿أَثَاثًا﴾ أي مالًا ﴿وَمَتَاعًا﴾ وثيابًا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى أجل مسمًّى، ثم تفنى، ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام أو أبنية يستظل بها، فقال سبحانه:

(٨١) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ أي كالشجر وغيره ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي حصونًا ومعاقل ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي الثياب ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد والزرد وغير ذلك مما يتغير استعماله في كل زمن بحسب الحاجة. ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تسلمون أنفسكم إلى هذا المنعم المتفضِّل وتوحِّدونه وتتركون ما تعبدون من دونه من الأنداد.

(٨٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا بعد هذا البيان والامتنان فلا عليك منهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدَّيته إليهم.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي يعرفون أنَّ هذه النعم التي لا تُعدُّ ولا تحصى وأنها مسداة إليهم من الله سبحانه ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي ومع هذا لا يفردون العبادة لهذا المنعِم المتفضِّل بل يعبدون معه غيره، ويسندون الرزق والنصر إلى سواه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي عبّر بالأكثر عن الجميع، أي كافرون بالله الذي خلقهم وأنعم عليهم.

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي نبيَّها يشهد عليها بما أجابته فيما بَلَّغها تصديقًا أو جحودًا ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في الاعتذار، إذ لا حجة لهم ولا عذر ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم الرجوع إلى ما أمر الله به؛ لأن الآخرة دار الأجر لا دار التكليف.

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي إذا رأى الذين أشركوا العذاب الذي يستحقونه ماثلًا أمامهم، وهم يعانونه، فيتمنَّون أن يخفَّف عنهم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ذلك العذاب الأليم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يمهلون حتى يتوبوا؛ إذ لا توبة هنالك؛ إنما الحساب بالحق المستحق وبالعدل الذي لا يجور.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا كالشياطين، والطواغيت هم: الذين عُبدُوا مِنْ دون الله برضاهم، والأصنام والأوثان ﴿قَالُوا﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ وقصدهم إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللًا؛ مع أنهم متأكدون أنَّ العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن كتشبُّث الغريق ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي أجابهم المعبودون الشركاء، وقالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي كذَبتم؛ ما نحن أمرناكم بعبادتنا، وفيما تزعمون من إحالة الذنب علينا، وإنا لسنا شركاء لله في العبودية حتى تعبدونا من دون الله، وتبرأوا منهم، وهكذا فإن كل من عُبد من دون الله يتبرأون من عابديهم يوم القيامة، ويكفرون بشركهم، ويسقط في أيدي العابدين، فيندمون ولكن لا ينفعهم الندم، ولا يفيدهم الاعتذار ولا التوبة، فقد كان لهم في الدنيا سعة ليتوبوا ويرجعوا إلى الله فلم يفعلوا فذاقوا العذاب الأليم.

(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي ذلّوا واستسلموا لله ولعذابه الذي يستحقون، وانقادوا لحكمه فيهم، وتأكدوا من صدق المرسلين الذين أنذروهم عذاب هذا اليوم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل قولهم: أنها تشفع لهم وظهرت الحقيقة ولكن في وقت لا ينفعهم فيه شيء.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ
ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ
أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ
وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ
وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ
﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ
بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ
غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا
بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ
ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٢٧٧

(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الذين لم يؤمنوا وكذبوا المرسلين، ثم صدوا الناس عن سبيل الله تعالى وحرضوهم على الكفر؛ هؤلاء ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي عذابًا أول على كفرهم بربهم، وعذابًا آخر فوق عذابهم ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ أي يصدون الناس عن الحق والإيمان.

(٨٩) ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم﴾ أي اذكر يا محمد ذلك اليوم وهوله، وفيه نبعث في كل أمة نبيّها يشهد بما أجابته أمته ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي من نفس أمتهم وجلدتهم ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي على قومك ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي بيانًا واضحًا كثيرًا لكل ما فيه من آيات التوحيد والأحكام والأخبار، وإن السنّة شارحة له. وفي الحديث: «... أوتيت القرآن ومثله معه» [٤٩٤] أي السنّة. ﴿وَهُدٗى﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ للعباد ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي إن الهدى والرحمة والبشرى تخصُّ المسلمين وحدهم؛ لأنهم هم الذين انتفعوا بهذا القرآن الكريم، فكان لهم هدى ورحمة وبشرى.

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ العدل هو الإنصاف، وأنصفُ الإنصاف أن تنصف مع الله وتقرَّ بأنه لا إله إلا هو. أما الإحسان فأحسنه أن يكون لله، فتعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ كما عرفه رسول الله ﷺ، ومن كان كذلك تكون سريرته أحسن من علانيته ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي إعطاؤهم ما يحتاجون إليه، فإنَّ حقَّ ذي القربى آكد من حقوق الآخرين ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي المحرمات ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ ما ظهر منها من فاعلها، وكل ظاهر منها وباطن محرم ﴿وَٱلۡبَغۡيِ﴾ هو الكبر والظلم وتجاوز الحد. وفي الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» [٤٩٥]. ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ أي يأمركم سبحانه بالخير وينهاكم عن الشر ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي حق الله عليكم وعظمه فلا تخالفوا ما أمركم به ولا تفعلوا ما نهاكم عنه، واتقوه يثبكم ويغفر ذنوبكم.

(٩١) ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ وهذا أمر من الله بالوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة عليها ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ أي تشديدها وتغليظها وتوثيقها، بخلاف لغو اليمين، وليس هنا المراد الأيمان التي تقسم على حثّ أو منع، والخاضعة للتكفير عنها، إنما المراد الداخلة في العهود والمواثيق كحلف الجاهلية. ويؤيده الحديث: «لا حلف في الإسلام، وأيّما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلاّ شدةً» [٤٩٦]. ومن ذلك نقض بيعة الإمام إلا إذا كفر كفرًا بواحًا ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ أي شهيدًا رقيبًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك، ثم أكد تحريم النقض.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ أي تحلّه بعد فتْل، وهذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي مكرًا وخديعة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ أي لا تغدروا بقوم لقلّتهم وكثرتكم، أو قلّتكم وكثرتهم؛ فتحلفون للناس إذا كانوا أكثّر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فقد نهى الله تعالى عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى. وإذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكّن والقدرة بطريق الأولى ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي يختبركم بأمره إياكم، بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير أو شر.

(٩٣) ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي لوفّق بينكم، ولما جعل اختلافًا ولا تباغض بينكم ولا شحناء، ولجعلكم جميعًا موفَّقين للحق ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ لعلمه الأوّل بأن عبده سيختار الضلالة فكتبها عليه وشاءها له وقدّرها ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ لعلمه الأول بأن عبده سيختار الهدى فكتبه عليه وشاءه له وقدّره ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي وليسألنكم الله عن أعمالكم في الدنيا خيرًا كانت أو شرًا؛ لأنكم عملتموها باختياركم وسيجازيكم عليها بحسبها.

يأمر الله بالوفاء بالعهود، والعهد حال الضعف لا يبرر الغدر حال القوة

(٩٤) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي خديعةً ومكرًا بينكم ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ وهذا نهي للذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ونصرة الدين عن نقض العهد فتزل أقدامكم وتتردَّوْن في الهاوية بعد أن كانت ثابتة بالإيمان ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي بنقضكم العهد وصدودكم عن سبيل الله التي كنتم عليها ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب لا يقاس بعذاب آخر لعظمه ودوامه وخلوده في النار جزاء نقضكم للعهود وتبديلها بالصدود عن الحق الأبلج، إلى الباطل اللجلج.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي بعرض الحياة الدنيا وزينتها ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الدنيا بحذافيرها ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون ما ادَّخره الله لمن لا تغرُّه الدُّنيا وما فيها، ويهجرها بحذافيرها لما عند الله من الخير فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٩٦) ﴿مَا عِندَكُمۡ﴾ من زهرة الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ أي ينقضي ويزول ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النعيم المقيم والجزاء الحسن ﴿بَاقٖ﴾ أي خالد لا يفنى ولا ينقضي ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ وهذا قسم من الله يُقسِمُ به أنه ليثبتن الذين صبروا على حفظ العهود وظلوا باقين على الحق ولم يغيروا طاعةً لله واتباعًا لرسوله ﷺ ﴿أَجۡرَهُم﴾ أي لنجزينهم أجرهم ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي لنجزينهم بحسب أحسن أفراد عملهم لا بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بل الحسن بالأحسن.

(٩٧) ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي فيه دليل على أن العمل الصالح في حد ذاته ليس شيئًا إذا لم يقترن بالإيمان والتوحيد والكفر بالطاغوت، فمن اقترن عمله الصالح بالإيمان والنية الخالصة لله والمطابقة لشرع الله ذكرًا كان أو أنثى ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ وتشمل جميع أنواع النعم التي تسرُّ في الدنيا والآخرة. وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنَّعه الله بما آتاه» [٤٩٧]. ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي يجزي الحسن بالأحسن والأحسن بأحسن منه.

(٩٨) ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين والخطاب لرسوله ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، لأنه لا يقدر على الإعاذة منه إلا الله تعالى لئلا يلبِّس على القارئ قراءته ويمنعه من التدبر والفهم.

(٩٩) ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان اللعين ﴿لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ أي سلطة وسيطرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله تعالى وبكلِّ ما نزل من عنده ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي متوكلون في كلِّ شأنٍ من شؤونهم عليه تعالى، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ
مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ
أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ
أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ
﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

٢٧٨

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ أي إنما ينحصر سلطانه وسيطرته ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي يجعلون من الشيطان وليًا ونصيرًا لهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ أي أشركوه في عبادة الله بسبب طاعتهم له، لأن الطاعة بحد ذاتها عبادة، فإذا أطعت الله وعصيت الشيطان فقد عبدت الله، وإذا عصيت الله وأطعت الشيطان فقد عبدته.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من ناسخ ومنسوخ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ على الله، أي قال الكافرون له ذلك ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحكمة التي اقتضت نسخ آية وإحكام أخرى، ولو آمنوا لعلموا.

(١٠٢) ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ردًا على هؤلاء الكفرة الذين لا يعلمون: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي نزله جبريل عليه السلام ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي نزله بأمر الله تعالى على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيصدقوا بما أنزل من ناسخه ومنسوخه وتطمئن له قلوبهم، وبخاصة إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح، ثبتت أقدامهم على الإيمان ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي هدى لقلوبهم وبشرى لهم، إن استقاموا عليه.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ
ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ
﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟
وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

٢٧٩

(١٠٣) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ﴾ أي المشركون ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أي إن محمدًا ﷺ يعلمه القرآن بشرٌ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ وكان المشركون يشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم لا يعرف العربية إلا يسيرًا؛ أي إن هذا الذي تدَّعون أنه يعلمه أعجميُّ اللسان لا يعرف العربية، وهذا القرآن الذي تزعمون أنه يلقَّنه من الأعجمي كلام عربي، ولذا قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة من رجل أعجمي؟!! لا يكاد يعرف شيئًا من العربية؛ أفيقول هذا عاقل؟

(١٠٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا عين العدل وكيف يهديهم ما داموا قد كفروا بآياته تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هذا الحكم كان جزاءً وفاقًا ولا شكَّ أنَّ الذين لا يؤمنون بما أنزل الله لا يهديهم في الدنيا طريق الحق ولهم في الآخرة عذاب شديد أليم موجع.

(١٠٥) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي فكيف يقع الافتراء من رسول الله ﷺ وهو رأس المؤمنين بها والداعين إلى الإيمان بها وكان أصدق الناس ولا يشك في ذلك أحد، وكان يدعى بينهم بالأمين، ولهذا لما سأل هرقلُ أبا سفيان فيما سأله عنه ﷺ: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عزّ وجل ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي إن الكذب نعت لازم لهم إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيات الله تعالى، فهذا أعظم الكذب. وقد فعلوه واستحبوا الكفر على الإيمان.

(١٠٦) ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فلا إثم عليه، كما في الحديث: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئنًا بالإيمان. فقال النبي ﷺ: «إن عادوا فعُد»[1] [٤٩٨]. ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي اطمأن به ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه إلى الكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أليم عظيم في الآخرة.

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي فضَّلوا الحياة الدينا واطمأنوا إليها وباعوا آخرتهم بدنياهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وكيف يهديهم وقد أقدموا على الردة من أجل الدنيا، بل يحجب هدايته عنهم جزاءً وفاقًا.

(١٠٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم فلم يفقهوا بها الحق، وأغلق سمعهم عنـه، وأعمى أبصارهم فلم يبصروه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عما يراد بهم فلا يفكّرون بالتوبة، ولا تخطر على بالهم، بل استحوذت الغفلة على وجودهم كله، فلا يفقهون ولا يسمعون ولا يبصرون.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي حقًّا من كانت هذه صفاته في الحياة الدنيا واستسلم إليها فظن أن نعيمها دائم وغرَّته ببهرجها الزائل لا بد أن ينال جزاءه الأوفى في الآخرة، فيلاقي من العذاب ما لا قبل له به، ولا قدرة له على احتماله، فكان خاسرًا في دنياه؛ لأنها لم تدم له كما كان يتصور، وكان في الآخرة في العذاب المقيم والنار الخالدة، وذلك هو الخسران المبين.

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ وهؤلاء هم المستضعفون الذين بقوا في مكة فوافقوهم على الفتنة بالسكوت، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله تعالى وغفرانه، فانتظموا في سلك المهاجرين في المدينة ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ أي واشتركوا مع المؤمنين في الجهاد وصبروا على لقاء الأعداء ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

---

(١) ضعيف.

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا
وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ
أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

٢٨٠

كفر أهل مكة بمحمد فبدل الله أمنهم خوفًا ورغدهم جوعًا وفقرًا

(١١١) ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي تدافع عن ذاتها لا يدفع عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي ما عملت من خير أو شر تجد كل ذلك محصيًا في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص ثوابهم ولا عقابهم.

(١١٢) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ أي هي مكة، وكانت آمنة بأمن الله وجعلها حرمًا، ومن دخلها كان آمنًا على نفسه بينما كان الناس يتخطَّفون من حولها وهي مستقرة هانئة ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي هنيئًا مريئًا من كل جهة فبدلًا من أن تشكر لله هذه النعم العظيمة والتي من أعظمها نعمة بعثة الرسول الأعظم ﷺ منها وفيها ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي لم تؤمن به، بل كذبته وأهانته وأصحابه وشدَّدت عليهم الخناق، فضاقوا ذرعًا فدعا الرسول ﷺ على أهلها بقوله: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف» [٤٩٩]. ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي فابتلوا بالقحط والجوع، حتى أكلوا العظام والعِلهِز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه، وبدّل أمنهم الذي كانوا فيه خوفًا من رسول الله ﷺ وسراياه وجيشه حتى دخل مكة ظافرًا مؤيّدًا معزّزًا منصورًا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي بما كفروا فبدّل أمنهم خوفًا وذعرًا.

(١١٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من قومهم ويتكلم بلغتهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما جاء به عن ربه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي أخذهم عذاب الله على يدي رسول الله ﷺ في حروبه وغزواته العديدة.

(١١٤) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما كان حلالًا طيبًا ليس فيه أي أثر من غصب أو أي مال حرام ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ بالإيمان والطاعة والعمل الصالح بنيةٍ خالصةٍ ومطابق للشريعة ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، فإنَّ مَنْ أنعم وحده لزم أن يُعبد وحده.

(١١٥) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي التي مـاتت من غير ذبح باستثناء الجراد والسمك ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي الدم المسفوح. أما ما تبقى من أثره في العروق واللحم فلا يضر ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ لنجاسته وعظيم ضرره[1] ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾ أي ذبح ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أو على غير اسمه تعالى كالذبح للأوثان وأصحاب القبور، فإن جميع ذلك شرك أكبر بالله تعالى ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي متعدٍّ الحلال إلى الحرام ومتجاوز لما زاد على قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن يُطيعه ﴿رَّحِيمٌ﴾ به.

(١١٦) ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي هذه الميّتة حلال، وهذه البحيرة حرام ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ فتحرمون وتحللون لأجل قول تنطق به ألسنتكم بلا حجة ولا برهان ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ويدخل في ذلك كلُّ ما ابتدعوه وحلّلوه وحرَّموه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكيف يفلحون وقد أحلّوا ما حرّم وحرَّموا ما أحلّ.

(١١٧) ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي إن تمتعهم في الدنيا مهما طال فهو قليل الزمن ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخـرة لا ينتـهي أمره ولا ينقضي مداه.

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي ما ذكر في سورة الأنعام (الآية: ١٤٦) ككل ذي ظفر وشحوم الأنعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بما حرمناه عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين ظلموا أنفسهم بفعل أسباب التحريم عقوبةً لهم.

(١) أما جلده إذا دُبغ فيطهر، لقوله ﷺ: «أيُّما إهاب دُبغ فقد طهر».

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(١١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي كانوا يجهلون أن عملهم عمل سوء كما يجهلون عاقبته عند الله ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ ثم علموا أنَّ أعمالهم كانت سوءًا فتابوا ورجعوا إلى الله تعالى نادمين على ما فرط منهم، ثم أصلحوا أعمالهم بإقبالهم على الطاعات وأخلصوا فيها النية لله تعالى، وكانت مطابقةً لما شرع سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد تلك التوبة النصوح ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، ويتضح من هذه الآية أن الجهل ليس عذرًا وخاصة بالعقيدة، فلا يُتذرّع به حجة عند الله ليفلت من المسؤولية، بل قد يكون جهله معصيةً مستقلةً من معاصيه تلك، إنما هذه المغفرة وهذه الرحمة من أجل التوبة من المعصية ومن الجهل معًا على أن لا يعود لمثلها ويعزم على ذلك.

(١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي إمامًا قدوةً جامعًا لخصال الخير وإنهُ أمة وحده، أي يعادل الأمة كلها لأنه على الحق، وليس الحق يعرف بالكثرة، فقد يكون الحق مع واحد فقط ويكون الباطل مع الكثرة، ولهذا فإنَّ إبراهيم كان أمةً والواحد عندما يكون الحق معه فهو يعدل الأمة كلها ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ أي مطيعًا لله تعالى، مائلًا قصدًا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان إمام الموحِّدين.

(١٢١) ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي قائمًا بشكر نعم الله، وشكرُه طاعته ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي اختاره للنبوة واختصه بها ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى طريق صحيح رضي الله أن يسلكه عبادُه إليه لأنه أقرب الطرق للوصول إلى رضائه تعالى.

(١٢٢) ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي جمعنا له خير الدنيا الذي يوصله إلى خير الآخرة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الذين لهم الدرجات العلى في جنات النعيم.

(١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ مع علوّ درجتك ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دين إبراهيم في جميع شريعته إلاّ ما نُسخ منها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد بأنه لم يكن أبدًا من المشركين ولا لحظة واحدة من عمره المديد.

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وكان الله شرع لليهود يوم الجمعة يجتمعون فيه للعبادة، فعدلوا عنه إلى يوم السبت فألزمهم الله به في التوراة ووصّاهم أن يحافظوا عليه، وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة أي للمسلمين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي من أمره بأن يُثيب الطائع ويعذب العاصي لانتهاك حرمته، وكان عيسى ﷺ محافظًا على يوم الجمعة إلى أن رُفع، ولكن قسطنطين[1] بدّله بيوم الأحد. وفي الحديث: «أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة» [٥٠٠]. وهو يوم معظم عند الله تعالى.

(١٢٥) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من الزواجر والأوامر ليحذروا بأس الله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ناظرهم برفق ولين وحسن خطاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن الضلال والهدى هما إلى الله وليسا لأحدٍ سواه نتيجة لاختيار العبد أحدَيهما.

(١٢٦) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ يأمر تعالى بالعدل في القصاص، والمماثلة في استيفاء الحق ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي ولئن صبرتم عن الانتقام وعفوتم لهو خير لكم.

(١٢٧) ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي واصبر على ما أصابك وما صبرك إلا بتوفيق الله وتثبيته، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ ثم نهاه عن الحزن، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على مَنْ خالفك، فإنَّ الله قدّر ذلك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي في غم وحزن ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإنَّ الله كافيك وناصرك ومؤيِّدك بروح منه.

(١٢٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي معهم بتأييده ونصره، وهذه معية خاصة، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي يعبدونه كأنهم يرونه جلَّ جلاله[2].

آخر تفسير سورة النحل والله الموفّق

(١) ملك الروم.
(٢) وهذه مرتبة الإحسان.

(١٧) سُورَةُ الإسْرَاءِ

مكية إلا الآيات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ومن آية ٧٣ إلى آية ٨٠ فمدنية، وآياتها ١١١، نزلت بعد القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أي في الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس الذي هو بالقدس ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل يسير ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْبَصِيرُ﴾ بهم، ولقد أُتِيَ رسول الله ﷺ بالبراق وهو دابة أبيض يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبه وسار به حتى أتى بيت المقدس فدخله وصلّى فيه ركعتين، ثم خرج وأتاه جبريل عليه السلام بلبن وخمر فاختار اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، ثم عرج به إلى السماء فرأى في الأولى آدم، وفي الثانية عيسى ويحيى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم وهو مستند إلى البيت المعمور عليهم جميعًا وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ثم ذهب إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله ما غشيها، فتغيرت فما لأحدٍ أن يصفها من حسنها، فأوحى الله إليه ما أوحى، وفرض عليه وعلى أمته في اليوم والليلة خمسين صلاة، فسأل التخفيف حتى صارت في العدد خمسًا وفي الأجر خمسين، ومن همَّ بالحسنة ولم يعملها كُتِبَت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بالسيئة ولم يعملها لم تكتب شيئًا، وإذا عملها تكتب سيئةً واحدةً. هذه خلاصة الحديث الذي في الصحيحين لخَّصْناه لضيق المكان، وكان إسراؤه ومعراجه حقيقة لا خيالًا، ويقظة لا منامًا، ولو كان منامًا لما كذَّبته قريش، وإنه كلم ربه دون أن يراه، ورأى الجنة والنار ثم رجع إلى مكانه قبل الفجر، بعد أن صلّى في الأنبياء إمامًا في بيت المقدس. فحديث الإسراء والمعراج أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

(٢) ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي هاديًا لهم ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي وليًّا ولا نصيرًا، ولا معبودًا من دوني، لأنني واحد أحد لا شريك لي.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره يا ذرية من نجَّينا مع نوح في السفينة تشبَّهوا بأبيكم نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ إنما سُمي عبدًا شكورًا؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله وشكره.

سُورَةُ الإسْرَاءِ — ترتيبها ١٧ — آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢)
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)
وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦)
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)

(٤) ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي أوحينا لهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض الشام بالمعاصي ﴿مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي يتجبرون ويطغون ويفجرون.

(٥) ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أول الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب قوة في الحرب وبطش شديد ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي تملَّكوا بلادهم وسلكوا خلال بيوتهم ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي واقعًا لا محالة، وكائنًا لا محيد عنه، فبعث عليهم جالوت وجنوده فقتلوهم وسبوهم وخربوا بيت المقدس.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الدولة والغلبة وقتل داود جالوت ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي عشيرة وعددًا.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أي أفعالكم على الوجه المطلوب منكم تكونوا قد ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثواب ذلك عائد إليكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أفعالكم وأقوالكم ﴿فَلَهَا﴾ أي تعود إساءتكم لأنفسكم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي جاء ميعاد الإفسادة الآخرة بقتل يحيى وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي يحزنوكم بالقتل والسبي ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ ويخربوه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وخرَّبوه ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أي يهلكوا ما غلبوكم عليه وأخذوا من بلادكم ويدمروها تدميرًا. ويروى أن (بختنصَّر) سباهم وخرَّب بيت المقدس.

الإسراء والمعراج وقعا حقيقة ويقظة بالروح والجسد، هلاك بني إسرائيل

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ
الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

القرآن يهدي لأقوم الطرق، يجمع عمل الإنسان في كتاب يكون عليه حسيبًا

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم في المرة الثانية ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ للثالثة ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، ثم إنهم عادوا إلى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد ﷺ، فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدي المسلمين، فجرى على بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والإجلاء، وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرب الذلة والمسكنة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي محبسًا ضيقًا.

(٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي لأقوم طريق، وأوضح سبيل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي يوم القيامة في جنات عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتقين.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي يوم القيامة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي مؤلمًا موجعًا لا قبل لهم به.

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، أي بالموت والهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه. وفي الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة فيستجيب فيها» [٥٠١]. وما يَحمل ابن آدم على هذا الدعاء إلا عَجلته، ولذا لا يجوز للمؤمن أن يدعو على نفسه.

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي تدلان على قدرة الصانع عزّ وجلّ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي طمسنا نورها بالظلام لتسكنوا فيه ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعل فيه الشمس مضيئة تُبصر فيها الأشياء ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي للتصرف في وجوه المعاش وابتغاء الأرزاق وقضاء الحوائج ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي عدد الأعوام والشهور والأسابيع والأيام، وتعرفوا الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ لكل ما تحتاجون إليه في أمر دينكم ودنياكم بيّناه تبيينًا واضحًا لا لبس فيه فتنزاح العلل، وتزول الأعذار.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي كل ما كتب عليه في الأمر الأول بما هو نصيبه من العقل والعمل والرزق والعمر والسعادة والشقاوة، وعلم من الجميع ما سيكون منهم وماذا سيختارون؛ فكتب ذلك عليهم ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي هذا كتابه الذي فيه ما عمل في حياته يلقاه مفتوحًا ويعطاه بيمينه إن كان سعيدًا، أو بشماله إن كان شقيًا؛ ليقرأه ويطلع على ما عمله في حياته من خير أو شر.

(١٤) ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي هذا كتاب أعمالك منشور بين يديك، فاقرأه وحاسب نفسك على ما عملت، ولقد عدل معك من جعلك حسيب نفسك.

(١٥) ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فيكون قد فعل الخير لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي ومن ضلّ عن الحق فإنما يجني على نفسه أيضًا ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وهذا عدل من الله، أي لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه؛ فقد يكون رسولًا نبيًا أو مبلغًا شرع الرسول، وكلهم حجة؛ على من يتبلّغون منهم الدعوة(١).

(١٦) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي أمرناهم بالطاعات ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي ففعلوا المناهي والفواحش في تلك القرية ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتحقّق عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي تدميرًا عظيمًا مبيدًا.

(١٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ وهذا إنذار لكفار قريش لئلاّ يحلّ بهم ما حلّ بالمكذبين رسلهم من بعد نوح ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي لا تخفى عليه منها خافية.

---

(١) راجع كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» (ج٣، ص١٦) تجد تعليقًا مهمًا جدًا في هذا الموضوع.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ
سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ
رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾
۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

٢٨٤

(١٨) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ من عرض الدنيا من البسط أو التقتير ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ هلكته بسبب اختياره الكفر. فما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه؛ بل إنما يحصل لمن أراد الله ومما يشاء سبحانه، وفي هذا ذم لمن يريد بأعماله ذلك ولا يناله إلاّ ما يشاء الله له ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي يدخلها حتى تغمره مذمومًا من سوء تصرفه وصنيعه؛ لأنه اختار الفاني على الباقي ومدحورًا أي مبعدًا من رحمة الله تعالى، مكبًا على وجهه في النار، مرذولًا مخذولًا لأنه آثر الدنيا على الآخرة.

(١٩) ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي من أراد بعمله وجه الله والدار الآخرة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وذلك في متابعة رسول الله ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي بشرط الإيمان الصحيح؛ لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم﴾ أي عملهم ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي مقبولًا، ولا يكون العمل مقبولًا إلا إذا كان خالصًا لله ومطابقًا لشرعه جلَّ جلاله.

(٢٠) ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كلا الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، فإنَّ الرزق يعمُّ المؤمن والكافر، أما الآخرة فهي للمتقين خاصة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي ممنوعًا عن أحدٍ دون أحد إنّما هو للجميع والله المحاسب.

(٢١) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي انظر يا محمد، كيف فضلنا من العطايا العاجلة بعض العباد على بعض في الغنى، والفقر، والحسن والقبح، والعمل الصالح والعمل الطالح ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي لتفاوتهم في الدار الآخرة؛ فمن يكون في دركات جهنم وأغلالها ومن يكون في الدرجات العلا ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون، كما أهل الدرجات يتفاوتون؛ فإن الجنة مائة درجة وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء» [٥٠٢].

(٢٢) ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أي لا تجعل في عبادتك لله معبودًا آخر غيره، وذلك في جميع أنواع العبادات، بل أفرده وحده في عباداتك كلها من صلاة وزكاة وصوم وحج ودعاء واستعانة واستغاثة وخوف ورجاء وتوكل ونذر وذبح وحلف، إلى غير ذلك، وإن أشركت به غيره فتقعد مذمومًا على إشراكك به مخذولًا منه تعالى، فلا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدته معه وهو لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا. وفي الحديث: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلًا وإما غنىً عاجلًا» [٥٠٣].

(٢٣) ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي أمر الله بإفراده بالعبادة ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ وهذا يدل على مقامهما عند الله، فذكر الإحسان لهما مباشرة بعد إخلاص العبادة له ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي ولا حتى التأفف، وما أشد من ذلك يكون أشدّ حرمة وعقابًا ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي قولًا لينًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم وتؤثرهما على نفسك.

(٢٤) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع وتذلل لهما بفعلك رحمةً بهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا﴾ أي جزاء ما ﴿رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ وفي الحديث: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب» [٥٠٤].

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ من إضمار البر بهما أو العقوق ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ﴾ أي طائعين وتائبين من الذنب، فلا يضرّكم الذنب الذي تبتم منه ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ أي للرجّاعين إلى الله من ذنوبهم والمستغفرين منها، كان الله لذنوبهم غفورًا. والأوّاب: من يذنب سرًا ويتوب سرًا.

(٢٦) ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي ذوي الرحم حقّه من الصلة، وكذلك ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ من الزكاة والصدقة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ في غير وجوه الخير.

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ﴾ في غير طاعة الله ﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ أي إخوانهم بالتبذير والسفه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ للنعمة والطاعة.

قرن الله عبادته ببر الوالدين وحق الأم أكبر، لا تبذر وصل الأقرب فالأقرب

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟
أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى
ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ
إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

٢٨٥

لا تقتل ولدك، لا تزن، لا تقتل النفس البريئة، لا تعتد مال اليتيم، أوف الكيل، لا تتكبر

(٢٨) ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي عن أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أملًا أن يرزقك شيئًا فتعطيهم ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي عِدهُم بالعطاء بسهولة ولين كقولك مثلا: إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله.

(٢٩) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن بخيلًا لا تعطي أحدًا شيئًا ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أي قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير أي تقف عن النفقة، وتندم؛ حسرةً على ما فرطت يداك، ولا ينفع الندم.

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبارٌ بأنه تعالى هو الرازق القابض الباسط، فيغني من يشاء ويفقر من يشاء بحسب حكمته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي بمن يستحق الغنى أو يستحق الفقر. وفي الحديث: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدتُ عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلّا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه» [٥٠٥].

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ أي: فقر، وفي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد مخافة الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي رزقهم ورزقكم علينا لا عليكم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي ذنبًا عظيمًا جدًا، والعياذ بالله.

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي ينهى الله تعالى عن الزنى وعن مقاربة أسبابه ودواعيه كالنظرة والقبلة. وفي الصحيحين: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» [٥٠٦]. فإن الزنى ذنب عظيم، وبئس الزنى طريقًا ومسلكًا وخاصة بحليلة جارك المؤمِّل أن تجنِّبه بوائقك.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وفي الصحيحين: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة» [٥٠٧]. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لوليِّ الدم ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ أي تسلطًا على القاتل ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ أي فلا يسرف ولي المقتول بأن يمثل بالقاتل أو يقتل غيره ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي إن الله نصره بإثبات القصاص له وتمكينه من القَوَد فلا حاجة إلى الإسراف.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بما يحفظه ويُربحه إلى أن يكون قويًا على التصرف به، وقادرًا على توجيهه في الوجهة الصالحة، فإذا بلغ هذه المرحلة من رجولته فادفعوا إليه ماله ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي مسؤولًا عنه من الله تعالى.

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي من غير تطفيف وقت كيله للناس ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي بالميزان الصحيح ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي مآلًا.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي لا تقل: رأيت ولم ترَ، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ أي إن هذه الجوارح وما يصدر عنها من خير أو شر ﴿كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي سيسأل الله صاحبها عنها يوم القيامة ويجازيه بما يستحق.

(٣٧) ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي اختيالًا وتجبّرًا وتبختُرًا ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ في مشيتك المتجبرة المتغطرسة ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ في ترفعك على الناس وكبريائك عليهم. وفي الحديث: «ما من آدمي إلّا في رأسه حَكَمَةٌ بيدِ مَلَك، فإذا تواضع قيل للملَك ارفع حَكَمَتَه، وإذا تكبَّر قيل للمَلك: دع حَكَمَتَهُ» [٥٠٨]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «... وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله» [٥٠٩]. ورأى ابن عمر رجلًا يخطر في مشيته فقال: إن للشياطين إخوانًا.

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي كل هذا الذي ذكرناه من هذه الصفات سيئةٌ عند الله تعالى وقبيحةٌ مكروهةٌ مبغوضةٌ.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم
بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾
قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا
﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ
ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا
مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا
﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ
إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ
كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾
وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾

٢٨٦

حتى الجمادات تسبح الله حقيقة، حال الله بين الكفار وبين فهم القرآن جزاءً وفاقًا

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي أمرنا به هو ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي من الكلام المحكم والأحكام المحكمة لتأمر به الناس ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فقد كرر النهي عن الشرك تأكيدًا وتنبيهًا على أن التوحيد عمدة الدين ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ والخطاب لجميع الأمة وإلا فالرسول ﷺ معصوم من أن يجعل مع الله إلهًا آخر.

(٤٠) ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ أي هل اختصكم الله بالذكور ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات!!! إنكم لتأنفون أن يكنّ البنات لكم وربما وأدتموهن على الحياة. وهذا ردٌّ على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله وهم عباده ومخاليقه، ثم شدّد الإنكار عليهم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ أي بالغًا جدًا في الجرأة على الله تعالى وتقدّس، لا يقادرُ قدرُه ولا يُدرك مداه.

(٤١) ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي بيّنا فيه أنواع القول من الأمثال وغيرها ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي ليتعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ عن الحق.

(٤٢) ﴿قُل﴾ يا محمد لهم: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي كما يزعم المشركون ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ لمانعته وإزالة ملكه، أو سبيلًا إلى رضاه، لأنهم دونه وكما يقولون: لتقربهم إليه وتشفع لديه ... إنّما هؤلاء الذين تعبدونهم هم أنفسهم يعبدون الله ويبتغون إليه الوسيلة بالعمل الصالح، أفلا عبدتم من يعبده الذين تدعونهم من دونه، ولا حاجة لكم بهذه الواسطة التي تزعمونها، فإنه سبحانه وتعالى وتقدّس لا يحب ذلك ولا يرضاه بل نهى عنه أشد النهي، لأنها عبادة لغير الله.

(٤٣) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ أي تنزّه وتعالى وتقدّس عما يقول المشركون علوًّا عظيمًا كبيرًا.

(٤٤) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي والأرضون السبع ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات، أي تنزهه وتقدسه وتعظمه وتكبره. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما رجع ليلة أُسري به، قال: «سمعت تسبيحًا في السماوات العلى مع تسبيح كثير، سبحت السماوات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلوّ بما علا سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى»[1] [٥١٠]. ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي كل مخلوق حتى الجمادات، تسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ لأنه بخلاف لغاتكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ أي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمرَّ على كفره أخذه أخذ عزيز مقتدر.

(٤٥) ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ أي يحجب قلوبهم عن الهدى جزاء عنادهم واستكبارهم بغير الحق.

(٤٦) ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ أي أن يفهموه ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ ثقلًا فلا يسمعونه سماع تدبر، وذلك جزاء إعراضهم عنه وكفرهم به ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي بدون ذكر آلهتهم ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿نُفُورٗا﴾ أي هربوا نافرين من الحق وقد أبى الله إلا أن يعلي كلمته وينصر دينه ويؤيد نبيّه.

(٤٧) ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ بسببه من الهزء ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ أي إلى قراءتك ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ أي يتحدثون بينهم سرًا ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي المشركون بعد أن صغُوا إلى قراءة رسول الله ﷺ سرًا في الليل ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ أي مختلطًا.

(٤٨) ﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد افتراءات قومك ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ بالسحر والكهانة والاختلاط والشعر ﴿فَضَلُّواْ﴾ أي تاهوا بمتاهات ضيّعتهم عن طريق الهدى ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ إلى ذلك الهدى لتناقض كلامهم ولا إلى الطعن به بما تقبله العقول.

(٤٩) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ أي ترابًا وغبارًا ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ أي يوم القيامة بعد البلاء والعدم يستبعدون ذلك[2].

---

(١) قال الذهبي: منكر.

(٢) كتب الشيخ في أسفل الصفحة: ١/ ٧/ ١٣٩٦.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن
يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ
عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ
وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)
وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾

(٥٠) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ يخبر تعالى عن الكفار المستبعدين وقوعَ المعاد والمستنكرين حدوثه أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ويستبعدون إرجاعهم بعدما صاروا رفاتًا فأمر رسوله محمدًا ﷺ أن يقول لهم: لو كنتم حجارة أو حديدًا -إذ هما أشد امتناعًا من العظام والرفات- لأحياكم الله متى شاء.

(٥١) ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد أو لو استحلتم إلى الموت نفسه لبعثكم أحياء ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي إذا كنا كذلك ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي الذي خلقكم من عدم أول مرة هو الذي يعيدكم من وجود وهو أهون عليه ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يحركونها استهزاءً متعجِّبين ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي البعث والإعادة سخريةً منهم ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ذلك الموعد الذي كنتم تسخرون وتستبعدون.

(٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الله تعالى إلى الحشر ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي تقومون إجابةً لأمره وله الحمد ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ما لبثتم في الدار الدنيا إلا قليلًا من الأيام لهول ما ترون.

(٥٣) ﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾ المؤمنين ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا يتكلموا إلا الكلام الحسن والكلمة الطيبة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوسوس ويحرك الشرَّ والمخاصمة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة.

(٥٤) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ ولا يشاء إلا عن حكمة، فمن اختار لنفسه الطريق القويم يشاء الله له الرحمة بتوفيقه إلى طاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بسبب ما اخترتم من المعصية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي ما أوكلناك في منعهم عن الكفر وقسرهم على الإيمان، وما جعلناك كفيلًا فتؤخذ بهم، إنما أرسلناك نذيرًا: فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة من غيره وبمن يستحق مزيد الخصوصية بكثير فضائله، وإن الرسل أفضل من الأنبياء، وأولي العزم منهم أفضل، وأفضلهم عامةً نبيّنا محمد صلى الله عليه وعليهم جميعًا وسلم تسليمًا كثيرًا ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ تنبيهًا أيضًا على فضله وشرفه عليه الصلاة والسلام.

(٥٦) ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله تعالى ﴿فَـ﴾ إنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي لا يستطيعون كشف ما بكم من الضر ولا يستطيعون تحويله إلى غيركم، فهذا من خصائص الله تعالى وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر ... ومن عجب أن هؤلاء يدعون وينادون من يعلمون أنهم أموات غير أحياء وقد تحولت أجسامهم إلى رفات وذرات، ويتركون دعاء الله الحي القيُّوم السميع البصير الذي هو على كل شيء قدير.

(٥٧) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يدعونهم من دون الله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وقد نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجنيّون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم. والوسيلة هي القربة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ عملًا إليه تعالى ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ إذ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكفُّ عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي ينبغي أن يحذر منه، ويخاف وقوعه وحصوله عياذًا بالله تعالى منه.

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ كفرت بالله ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ إلا وقد قضينا بإهلاكها وأهلها جزاء كفرهم وشركهم ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي في الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وغيره، بسبب كفرهم ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي مسجَّلًا في اللوح المحفوظ.

الذين تعبدونهم من دون الله قد أسلموا ... فلا تعبدون ما يعبدون؟!

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ
وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ
فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ
مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

٢٨٨

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ التي اقترحها أهل مكة على رسول الله ﷺ بأن يجعل لهم الصفا ذهبًا. وفي الحديث: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون»؟ قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربّك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. فقال: «بل باب التوبة والرحمة». فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [٥١١]. أي إن الأوّلين من الأمم الماضية أرسل الله إليهم الآيات والمعجزات فكذبوا بها فأهلكهم الله، ولو أرسل سبحانه الآيات التي اقترحتها قريش لكذّبت بها واستحقّت الهلاك، لذا قد حكم الله أن يمهل قريشًا ليتم أمر رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي معجزة ظاهرة دالة على مَنْ خلقها وأنه الواحد الأحد ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي كفروا بها ظالمي أنفسهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ أي المعجزات ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لعلهم يعتبرون ويرجعون تائبين إلى الله تعالى.

(٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي قد عصمك منهم فالكل في قبضته وتحت قهره وغلبته ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ روى البخاري عن ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به» [٥١٢]. من مكة إلى بيت المقدس، وقد رجع أناس من المسلمين عن دينهم بعدما كانوا على الحق، لأنه لم تتحمل قلوبهم معجزة الإسراء، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتًا ويقينًا للآخرين. ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي اختبارًا وامتحانًا ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ هي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، كانت فتنة أيضًا وامتحانًا. والإجماع الحجة من أهل التفسير على ذلك، أي في الرؤيا والشجرة ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي تماديًا في الكفر والضلال، وعنادًا في الباطل، وذلك من خذلان الله لهم.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ طاعة لله ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي استكبر إبليس عن السجود قائلًا: أأسجد لهذا الذي خلقته من طين؟

(٦٢) ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي من هذا الذي فضلته عليّ وأنا خير منه ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أقسم اللعين لئن أخرت موتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستولينّ عليهم بالإغواء إلا قليلًا.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ أي اذهب بما طلبت من الإنظار، ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي فمن اتبعك من ذرّيّة آدم فإنّ جهنم هي جزاؤكم وعقابكم جميعًا أنت ومن اتبعك، فإنّ فيها لكم عقابًا وافرًا مكمّلًا لا ينقص.

(٦٤) ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أي استخفّهم ﴿بِصَوْتِكَ﴾ داعيًا لهم إلى معصية الله ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي أجمع عليهم من استطعت ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي من خيّالتك ومشاتك من جنودك ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي فيما حرّموه من أنعامهم من البحائر والسوائب وشاركهم في الأولاد. وفي الصحيحين: «لو أنّ أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضرّه الشيطان أبدًا» [٥١٣]. ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي باطلًا واستخفافًا.

(٦٥) ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي تسلط ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي حافظًا ومؤيدًا.

(٦٦) ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي يسيّر لكم السفن ﴿فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ في التجارة من إقليم إلى إقليم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ومن رحمته بكم.

لو سمى المؤمن عند الجماع، وقدر له ولد، لا يضره الشيطان

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ
أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِن كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ
تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ
الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)

(٦٧) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي إذا هاج البحر وماج وخشي ركاب السفن من الهلاك، ذهب عن قلوبهم كل ما كانوا يعبدون من دون الله واتجهوا جميعًا إلى الله وحده. كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًّا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا فركب البحر إلى الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلّا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعنَّ يدي في يد محمد، فلأجدنَّه رؤوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ وأرضاه ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم، وهكذا فإنَّ الإنسان من سجيَّته أن ينسى النعم إلّا من عصم الله.

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي أظننتم أنكم إذا وصلتم إلى البر لا يستطيع الله أن يخسفه بكم؟ أو يرسل عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي حافظًا ونصيرًا يمنعكم من بأس الله تعالى.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي أن يعيدكم لركوب البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ يقصف الصواري، ويغرق المراكب ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي تابعًا يطالبنا بما فعلنا بكم ويثأر لكم.

(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وإن تكريم بني آدم عامة من حيث الخلقة والعقل وتسليطهم على سائر المخلوقات وتسخيرها لهم، وهيأنا لهم مراكب في البر والجوّ والبحر ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي على سائر المخلوقات(١). وقد استدّل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، أي خاصة مؤمني البشر على خاصة الملائكة وعامة مؤمني البشر على عامة الملائكة.

(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بنبيّهم، فيقال: يا أمة محمد، يا أمة عيسى، وهكذا، فيتقدمون وفيهم الصالح والطالح ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فمن أعطي كتاب أعماله بيمينه فيا هناءته ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي كل واحد منهم يقرأ كتابه فرحًا مسرورًا بما أسلف من العمل الصالح ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ والفتيل: هو القشرة التي في شق نواة التمرة.

(٧٢) ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا أعمى عن حجة الله ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي أضل مما كان في الدنيا عياذًا بالله تعالى من العمى عن الحق في الدنيا والآخرة.

(٧٣) ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي قاربوا أن يخدعوك فاتنين، وذلك فيما سألوه مخالفةً لحكم القرآن ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي لتقول شيئًا يوافقهم ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي والوك وصافوك وهذا مطلب منهم ولكن النبي لم يوافق مطلبهم.

(٧٤) ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي أدركناك بالعصمة ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي تميل إليهم لولا أن أدركناك بالعصمة من الزلل، وهذه منّة عظمى من الله تعالى وفضل، وإنه سبحانه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليّه وحافظه وناصره ومؤيده ومظهر دينه.

(٧٥) ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي لو ركنت إليهم لعذّبناك ضعف عذاب الدنيا ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي وضعف عذاب الآخرة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي ينصرك ويدفع عنك العذاب؛ على أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها أو الإقدام عليها، ولا يطعن هذا في عصمته ﷺ.

(١) أي المخلوقات العجماوات.

وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ
الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ
قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ
نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن
لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا
﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ
سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

٢٩٠

(٧٦) ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي قاربوا أن يحرجوك، فيخرجوك من أرض مكة، ولكنَّ الله كفهم حتى أمرك هو بالخروج منها ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو أنهم هم الذين أخرجوك لا يسكنونها بعدك إلاّ زمنًا يسيرًا عقابًا لهم، وقد وقع ذلك فعلًا فقد جمعهم الله ببدر، فأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم، وذاع ذلك بين العرب، فهابوه ورأوا أنَّ أمره قد توجّه.

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي هذه عادتنا فيمن كفروا برسلنا وآذوهم وأخرجوهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغييرًا وتبديلًا.

(٧٨) ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي وقت صلاة الظهر. ثم صلاة العصر ممتدةً ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وفيه صلاتا المغرب والعشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الصبح، فهذه خمس صلوات ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي من ملائكة الليل، وملائكة النهار. وفي الحديث: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربّهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون، وتركناهم وهم يصلّون» أخرجاه [٥١٤].

(٧٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ فهي بحقه فريضة، ولأمته تطوّع ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهو الشفاعة العظمى في الخلائق عامة. وفي البخاري: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاءً، كل أمة تتبع نبيَّها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي إلى محمد، فذلك يوم يبعثه الله مقامًا محمودًا» [٥١٥]. وفي البخاري أيضًا: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته حلّت له شفاعتي يوم القيامة» [٥١٦].

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي بالمدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني من مكة. وقد علم ﷺ أنه سيقيم حكم الكتاب في المدينة، فسأل الله تعالى قائلًا: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي على هذا الأمر الجليل لإقامة حكم كتابه.

(٨١) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي جاءت دولة الحق والقرآن وزهق حكم الباطل والأوثان واضمحل وهلك ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي هالكًا لا ثبات له مع الحق ولا حياة.

(٨٢) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ لأمراض القلوب المعنوية كالشرك والشكّ والنفاق والزيغ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يقرأونه فيفهمونه ويطبقون أحكامه فتشفى قلوب المؤمنين وصدورهم من تلك الأمراض ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أما الظالمون أنفسهم بكفرهم وإعراضهم عن القرآن لا يزيدهم سماعه إلا خسارةً في الدنيا والآخرة، وبعدًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن.

(٨٣) ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ الكافر ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي ولّى ظهره بعدًا عن الطاعة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ أي قانطًا من الخير.

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي أخبرهم يا محمد أنَّ كلًّا منّا ومنكم ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أي على دينه وطريقته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي بمن هو أقرب للحق وأهدى إليه سبيلًا، ويوم القيامة يؤتي كل ذي حق حقه في الثواب أو العذاب.

(٨٥) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي يسألك اليهود عن الروح بواسطة كفار قريش ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي إنَّ العلم بها مما استأثر ربي به، والروح هاهنا هي التي تقوم بها حياة الجسد ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ما أطلعكم الله في التوراة من علمه إلاّ على القليل.

(٨٦) ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لرفعنا هذا القرآن من السطور والصدور، وإن الله مهما شاء فعل ولكنه ما شاء، والشرط لا يقتضي الوقوع ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي ولا يستطيع أحدٌ يدفعنا عن رفعه، وقيل: يكون هذا آخر الزمان، والله أعلم.

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل
لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ
ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ
فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

الإنس والجن لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن • من رحمته تعالى أن بعث في كل قوم رسولاً منهم

(٨٧) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكنَّ الله رحمك فأثبت القرآن في قلبك وقلوب المؤمنين، وإن هذه الرحمة من الله تمنع أن تُسلَب القرآن ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ حيث جعلك رسولًا، وأنزل عليك الكتاب، وصيّرك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود، أي الشفاعة العظمى التي يغبطك عليها النبيّون.

(٨٨) ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ واتفقوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنزل من عند الله الموصوف بكمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ ثم أوضح الله تعالى عجزهم عن المعارضة منفردين أو مجتمعين ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي عونًا ونصيرًا.

(٨٩) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأخبار الأولين، والجنة والنار والقيامة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحودًا به وبمن أنزله، وبمن نَزل عليه، بعد قيام الحجة عليهم.

(٩٠) ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي كفار مكة وهم المعنيون بقوله: ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ أي من غير انقطاع.

(٩١) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي يكون لك بستان يحتوي على أشجار النخيل، وأشجار العنب ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي تخرّ مياه الأنهار من بينها وتفجرها تفجيرًا.

(٩٢) ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي قطعًا، وعجّل لنا العذاب الذي تعدنا به يوم القيامة من انشقاق السماء وتدلّي أطرافها فأسقطها الآن قطعًا كما تزعم ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي معاينة، أو قبيلًا يأتي بعد قبيل يشهد لك بالرسالة.

(٩٣) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي تصعد في السماء في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ ولن نصدق بأنك رقيت السماء ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ موجهًا إلى كلٍ منّا باسمه ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي أنزهه عن أن يتقدم أحد بشأن من شؤونه تعالى، كل هذا القيل قيل له من أكابر قريش بعد أن أرسلوا إليه، وقالوا: إن كنت تطلب مالًا جمعناه لك حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطبِّ حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: «ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولًا وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» [٥١٧]. ثم انصرف رسول الله ﷺ حزينًا آسفًا لما فاته مما كان يطمع فيه من إيمانهم وإجابتهم دعوته، ولما رأى من مباعدتهم.

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي إنَّ الذي منع الناس أن يأخذوا بالهدى لما جاءهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي إلاّ استعجابهم من بعثه من البشر رسلًا! لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون نبيًا أو رسولًا من البشر، وهذا من وسوسات الشيطان.

(٩٥) ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي لو ثبت أن في الأرض ملائكة مستوطنين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي أنزلنا عليهم ملكًا رسولًا من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة، ولكنه بعث الرسول من جنسكم لتفقهوا عنه ويفقه عنكم.

(٩٦) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى بالله وحده شاهدًا على إبلاغي إليكم رسالته، وتغني شهادته تعالى عمّا طلبتم مني من المعجزات فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني أشدَّ الانتقام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي عليمًا بمن يستحقُّ الإنعام والإحسان ممن يستحق الشقاء والإضلال بما قدمت يداه.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ الحزب ٣٠
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

٢٩٢

(٩٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يهده الله فلا مضلَّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي لن يجدوا من يهديهم إلى الحق من دونه تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لأنهم هم الذين اختاروا الضلال على الهدى لما عرض عليهم فثبَّتهم الله عليه جزاء اختيارهم ذلك، فمن العدل أن يحشروا يوم القيامة عميًا وبكمًا وصمًّا، لأنهم اختاروها في الدنيا ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وهكذا فإن مصيرهم الذي يأوون إليه جهنم، كلما أطفئت أو قربت من ذلك زدنا أولئك الضالين نارًا وأجّجناها عليهم من جديد.

(٩٨) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي هذا العذاب جزاؤهم الذي أوجبه الله عليهم واستحقُّوه بسبب أنهم اختاروا الكفر بآيات الله على الإيمان بها ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي بالية نخرة بعد الموت والبلى ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي هل نعود خلقًا جديدًا كما كنا؟

(٩٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ وهنا لفت الله أنظارهم إلى قدرته التي يقرّون بها بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم وبعثهم أسهل عليه وأهون فكيف تجحدون؟ ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا لن يُخلفوه ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعناد ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ بعد إقامة الحجّة عليهم.

(١٠٠) ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ التي لا تنفد ولا تبيد ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله، ولكنَّ الإنسان مطبوع على الشُّحِّ والبخل ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ وهذا عام فيه إلاّ من وفقه الله.

(١٠١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر عمَّن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدّم آيات مفصّلات ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أي حين جاءهم موسى، والمقصود من بني إسرائيل: المؤمنون منهم كعبدالله بن سلام وأصحابه ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي مع كل هذ المعجزات الباهرات، نسب فرعون موسى إلى السحر، أي بمعنى ساحر، وهو يعلم أنها معجزات من الله تعالى.

(١٠٢) ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي ما أنزل هذه المعجزات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي حججًا ودلالات على صحة ما جئتك به ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي هالكًا مغلوبًا ملعونًا.

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أن يخرجهم، أي موسى وبني إسرائيل من أرض مصر، ويبعدهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فوقع عليه وعلى قومه الهلاك والغرق ولم يبق منهم أحد جزاءً ونكالًا بما كفروا بالله وبمن أرسله إليهم ليخرجهم من عبودية فرعون وظلامها إلى نور عبادة الله وحده لا شريك له.

(١٠٤) ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد فرعون ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض مصر، أي أورثهم إيَّاها بعد فرعون ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي جاء موعد يوم القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جميعًا أنتم وأعداؤكم ليرى كلٌّ ما يستحق. وما أشبه قوم فرعون وما فعلوا، بقوم مكة المشركين وما فعلوا؛ فإنَّ قوم فرعون رغم المعجزات الباهرات التي أتى بها موسى رماه فرعون بالسحر، وكذلك قريش فبرغم كل معجزات محمد ﷺ لم يؤمنوا واتهموه أيضًا بالسحر، وهمُّوا كذلك بإخراجه من مكة فنصره الله عليهم، ودخل مكة فاتحًا ظافرًا منصورًا.

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾
قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
سجدة خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

ترتيبها ١٨ — آياتها ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ
فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

٢٩٣

(١٠٥) ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي بالأمر الثابت والدين المستقيم، فهو حق ونزوله حق وما تضمَّنه حق ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي بالوعد والوعيد والأمر والنهي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاع الله ربّه بالعزّ والتمكين في الدنيا والسعادة في الآخرة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاه، بالعقاب العاجل والآجل.

(١٠٦) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أي فرقنا فيه بين الحق والباطل، وبيّنا حلاله وحرامه. هذا على قراءة التخفيف، أما على قراءة التشديد، أي أنزلناه متفرقًا منجمًا على الوقائع في ثلاث وعشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لتبلّغه لهم وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على مهل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ شيئًا بعد شيء.

(١٠٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي سواء أصدقتم به أم لم تصدقوا، فهو حق أنزله الله ونوّه بذكره في الكتب المتقدمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي إن العلماء الذين قرأوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبدالله بن سلام ﴿إِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي يسقطون على وجوههم ساجدين لله تعالى شكرًا على ما أنعم عليهم من المعرفة بهذا الكتاب العظيم الذي ختم الله به كتبه.

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ تنزيهًا وتعظيمًا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي وعده ببعثة محمد ﷺ وعدًا منجزًا وقد تحقّق.

(١٠٩) ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن ﴿يَبْكُونَ﴾ خشية من الله وخضوعًا له ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي سماعُ القرآن لينَ قلب ورطوبةَ عين.

(١١٠) ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أي ادعوه بما شئتم ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي فكل أسمائه حسنى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك كيلا يسب المشركون القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك حتى يأخذوا عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي وسطًا بينهما.

(١١١) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ بل هو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي لا يشاركه أحد في ملكه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي ليس ذليلًا ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي وعظّمه ومجّده وأجلّه.

آخر تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمنّة

(١٨) سُورَةُ الْكَهْفِ

مكية إلا الآية ٣٨ ومن آية ٨٣ إلى آية ١٠١ فمدنية وآياتها ١١٠، نزلت بعد الغاشية

فضلها: فقد جاء في الحديث: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن». أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به [٥١٨]، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير. وفي الحديث الآخر: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، عصم من الدجّال»، رواه مسلم وأحمد والنسائي [٥١٩].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ له الحمد جلَّ جلاله على نعمه. وأعظمها إنزال هذا الكتاب الكريم الذي لا اعوجاج فيه ولا زيغ ولا ميل، بل:

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيمًا ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي لينذر الكافرين بأسه الشديد وعذابه الذي عنده في الآخرة ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بإخلاص له تعالى ومطابقة لشرعه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي مثوبة من عند الله وأجرًا كريمًا، في جنات النعيم لا ينتهي ولا ينقضي.

(٣) ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ﴾ أي في هذا الأجر الكريم في الجنة ﴿أَبَدًا﴾ أي دائمًا لا يزول. كما جاء في الحديث: «... يا أهل الجنة خلود بلا موت...» [صحيح].

(٤) ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وإن المقصود في هذه الآية كل من قال هذا القول في أي أمة من الأمم وإن كان نزولها من أجل المشركين العرب لما قالوا: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله!!! وكذلك النصارى الذين قالوا ذلك في المسيح بأنه ابن الله، وكذلك اليهود الذين قالوا في العزير كذلك؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ادعوا الله بما شئتم من أسمائه • العشر الأواخر من آيات الكهف عصمة من الدجال

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى
ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

٢٩٤

(٥) ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بهذا الافتراء والإفك من علم ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي ولا لأسلافهم آباءً وأجدادًا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ والمراد بهذه الكلمة قولهم: (اتخذ الله ولدًا) أي إنها كلمة عظيمة بالغة الإجرام تخرج من أفواههم سهلةً ولا يأبهون لها لجهلهم، ولا مستند لهم بها إلا مجرد قولهم ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ على الله تعالى وعلى الملائكة وعلى المسيح ابن مريم وعلى العزير عليهم جميعًا الصلاة والسلام. فقد أوفدت قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وفدًا يسألونهم عن محمد؛ فسألوهم عنه فأجابهم الأحبار: سلوه عن ثلاث: عن فتية كان لهم حديث عجيب، وعن نبأ رجل طاف المشارق والمغارب، وسلوه عن الروح فإن أخبركم فهو نبيّ مرسل، فعاد الوفد وأخبروا قريشًا؛ فجاءت قريش محمدًا وسألته عن ذلك فقال لهم ﷺ: «أخبركم غدًا عما سألتم عنه». ولم يستثن، أي لم يقل: إن شاء الله، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه جبريل بالوحي حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا، وها هو إلى اليوم، ولا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وشقّ عليه ﷺ ما يقوله أهل مكة وحزن حزنًا شديدًا، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عزّ وجلّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبةٌ على حزنه عليهم لعدم إيمانهم، وخبر ما سألوه عن أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية [الإسراء: ٨٥]. [٥٢٠].

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي لا تهلك نفسك أسفًا وحزنًا عليهم إن لم يؤمنوا، بل بلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي إنّا جعلنا الدنيا دارًا فانية، مزينة بزينة زائلة، وهي دار اختبار لا دار قرار، ولنمتحن أهذا أحسن عملًا أم ذاك.

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي وإنا لمفنوها وجاعلو زينتها غدًا ترابًا بلقعًا ونحوّلها إلى خراب ودمار.

(٩) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي أم ظننت أنّ أصحاب الغار في الجبل، والرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف... أظننت قصتهم شيئًا عجيبًا بالنسبة لقدرتنا؟ ليس الأمر كذلك، فإن خلق السماوات والأرض وغير ذلك من الآيات الدالة على قدرته تعالى أعجبُ من أخبار أصحاب الكهف.

(١٠) ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ وهم الفتية الذين فرّوا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم؛ فقالوا حين دخلوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة تسترنا عن قومنا واجعل عاقبتنا رشدا.

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات المانعة من النوم وضربنا الحجاب عليها ﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي أنمناهم في الكهف سنين عديدة.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي أيقظناهم من رقدتهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي ليظهر علمنا علم مشاهدة ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي الفريقين ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي أعلم بمدة مكوثهم.

(١٣) ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي شباب ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص.

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قوّيناهم بالصبر ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ أمام ملكهم الكافر ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي باطلًا وكذبًا وبهتانًا.

(١٥) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي أشركوا به آلهة أخرى ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي هلّا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا صحيحًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفتري على الله الكذب.

الشباب أقبل للدعوة الحق من بعض الشيوخ الذين انغمسوا بالباطل • الإيمان يزيد وينقص

وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ
يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا
(١٦) ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ
ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ
مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن
يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا (١٧) وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا
وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم
بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ
فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ
لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا
يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ
طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ
بِكُمۡ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ
أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا (٢٠)

(١٦) ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي اعتزلتموهم واعتزلتم آلهتهم التي يعبدونها ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي ما عدا الله، أي الاعتزال وقع منهم، على قومهم وعلى ما يعبدون من دون الله فحسب. كقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزُّخرُف: ٢٦-٢٧]. أي أتبرأ منكم ومما تعبدون ما عدا الذي فطرني فلا أتبرأ منه فإنه سيهدين، وهكذا فإنَّ هؤلاء الفتية اعتزلوا قومهم وآلهتهم ما عدا الله ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ أي بعد أن اعتزلتموهم فالجأوا إلى هذا الكهف البعيد عن الأنظار ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ ما يستركم عنهم ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ ترتفقون به من غداء وعشاء.

(١٧) ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي مالت عن كهفهم يمينًا ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي في متسع منه داخلًا بحيث لا تصيبهم الشمس ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي دلائل قدرته ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ أي هو الذي هداهم من بين قومهم ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ أي ومن يضلّه الله جزاء اختياره الكفر فلا يستطيع أحدٌ هدايته من دون الله تعالى.

(١٨) ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ أي تظنهم منتبهين، وفي الحقيقة هم نيام، فقد شاء الله أن تبقى أعينهم مفتحة وهم رقود ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي نلهمهم أن يتقلبوا في نومهم تارةً على جنوبهم اليمنى وتارةً على جنوبهم اليسرى حتى لا تأكل الأرض أجسادهم ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾ أي ربض كلبهم على الباب مربوطًا ونائمًا مفتّحة عيناه ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ أي ألقى الله عليهم المهابة حتى لا يجرأ أحد أن يدنو منهم ولا تمسّهم يدُ لامس إلى أن يقضي الله فيهم أمره وتنقضي رقدتهم لما له من الحكمة البالغة.

(١٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ من رقدتهم صحيحة أبدانهم، وأشعارهم وأبشارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي ليقع التساؤل فيما بينهم في مدة المكوث ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ أي كم رقدتم ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ لأنه كان رقودهم في أول النهار واستيقاظهم آخره ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ في رقادكم، وهذا شأن المؤمنين المتوكلين أن يردوا كلَّ شيء إلى الله تعالى، لأنه الفعَّال المطلق، ثم قالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي بعملتكم الفضية هذه، وكانوا قد اصطحبوا معهم دراهم ليستعينوا بها في قضاء حوائجهم ﴿إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي أرسلوا أحدهم إلى المدينة التي خرجوا منها ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ أي أطيب طعامًا إذ كان أكثر أهل بلدهم كفارًا يذبحون للطواغيت، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم، أي يأتي لهم بالطعام أي باللحم من ذبح المؤمنين، فهو الطعام الزكي الطيب، وهذا شأن الموحّدين الحذرين من أن يأكلوا طعامًا ذُبح لغير الله ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ أي من هذا الطعام الزكي الطيب ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أي يدقق النظر حتى لا يُعرف ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ أي لا يدع أحدًا من الناس يشعر بوجودنا في هذا المكان.

(٢٠) ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي الكفار أهل البلد ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي إن يعلموا مكان وجودكم هذا يأتوكم ويقبضوا عليكم ويأخذوكم إلى الملك ﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ أي إما أن يرجوكم فيزهقوا أرواحكم ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ أي أو يردُّوكم إلى دينهم دين الشرك والوثنية، ذلك الدين الذي كنتم عليه قبل أن يهديكم الله إلى دين التوحيد والإيمان وعبادة الله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ أي إذا عذبوكم عذابًا شديدًا فوافقتموهم على دينهم الشركي الخبيث وعدتم إلى الوثنية وعبادة غير الله، فلن تفلحوا أبدًا، أي لن تريحوا رائحة الجنة، ولن تدخلوها لأنها محرّمة على الكافرين، ثم لا مأوى لكم في الآخرة إلّا النار.

أهل الكهف مفتحة أعينهم من رآهم في جنبهم يفر منهم ممتلئًا رعبًا

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا
ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢٩٦

(٢١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم: أنّ وعد الله بالبعث حق بطريق أن القادر على إنامتهم هذه المدة الطويلة وإبقائهم على حالهم بلا غذاء، قادر على إحياء الموتى. قيل: وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث وكان سبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذي بعثوه بالورق -وكانت من ضربة ملك زمانهم، وقيل: إنه دقيانوس- إلى السوق ولما اطلع عليها أهل السوق، اتهموه بأنه وجد كنزًا، فذهبوا به إلى الملك فقال له: من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعت بها أمس شيئًا من التمر، فعرف الملك صدقه، ثم قصّ عليه القصة، فركب الملك وأصحابه حتى وصلوا الكهف ودخلوا عليهم ورأوهم واعتنقوهم، وقيل: إن الملك قد أسلم ففرحوا به ثم ودّعوه، وعادوا إلى مضاجعهم وتوفّاهم الله عزّ وجلّ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي وليعلموا أن القيامة لا شك في حصولها، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي أمر يوم القيامة، فمن مثبت لها ومنكر ﴿فَقَالُوا﴾ أي المسلمون منهم ﴿ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي سدّوا عليهم باب الكهف ببنيان وذروهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ تفويضًا للعلم إلى الله سبحانه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وليس هذا القول محمودًا، لأنه مخالف لقوله ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا. [٥٢١]، وملة الإسلام واحدة من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي هذان القولان بلا علم ثم حكى القول الثالث وهو: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وسكت عليه فدلّ على صحة القول الأخير هذا ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا إرشاد إلى أنّ الأحسن ردُّ العلم إلى الله تعالى وما يعلم عدَّتهم إلا قليلٌ من الناس ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي سهلًا هينًا ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ من الخائضين فيهم من الذين سألوك عنهم من المشركين بتحريض من اليهود.

(٢٣) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ وهذا إرشاد منه تعالى لرسوله ﷺ أن يرد كل ما سيفعله في المستقبل إلى مشيئته تعالى، كما سبق في أول السورة من ذكر أسباب نزولها، وقوله ﷺ: «أخبركم غدًا...».

(٢٤) ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهذا أمر بالاستثناء، أي لا تقل لشيء: سأفعله غدًا إلّا وقل بعده: إن شاء الله تعالى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي وإذا نسيت أن تقول إن شاء الله، فقل ذلك متى تذكرت لما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمور وتسهيلها، وحصول البركة فيه ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي من خبر أهل الكهف في الدلالة على نبوّتي، وقد فعل الله ذلك.

(٢٥) ﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ أي على الحساب الشمسي ﴿وَٱزْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي تسع سنين على الحساب القمري الذي يزيد كل مائة عام ثلاثة أعوام. وهذا هو التقويم الإسلامي الذي يجب أن نؤرخ به دائمًا مستغنين به عن أيِّ تقويم سواه.

(٢٦) ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي في رقادهم في الكهف ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يعلم غيبهما إلا هو سبحانه ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي لا أحد أبصر من الله ولا أسمع منه ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ ينصرهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه وله الخلق والأمر. وهذا دليل على عدم جواز أيّ حكم يحكم فيه بغير ما أنزل سبحانه وتعالى.

(٢٧) ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأ وبلِّغ ما نزل عليك من القرآن للناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا قادر على تبديـلها وتغييرها أحدٌ إلّا هو سبحانه ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ وإن لم تفعل ما أمرك من تبليغه فلن تجد أحدًا سواه تلتجئ إليه فهو عصمتك وملجؤك، ولا ملجأ منه إلا إليه، تبارك وتعالى وتقدّس.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَاضْرِبْ
لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ
تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

٢٩٧

أمر الله نبيه ﷺ أن يجلس مع الضعفاء ويدنيهم منه

(٢٨) ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ قد تقدّم في سورة الأنعام نهي الله لنبيه ﷺ عن طرد فقراء المؤمنين، بقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢]. وأمره سبحانه هنا بأن يحبس نفسه معهم ويجالسهم ووصفهم بأنهم يذكرون الله، ويهللونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشيًا. وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص، قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾. رواه مسلم [٥٢٢]. وفي الحديث أيضًا: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الآية، فخرج يلتمسهم فوجد قومًا يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم» [٥٢٣]. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ منشغلًا بالدنيا ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي تكون أعماله وأفعاله سفهًا وتفريطًا، فلا تكن محبًّا له ولا لطريقته.

(٢٩) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي أخبرهم بأن الذي جئتكم به هو الحق المنزل من الله تعالى ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن﴾ به ﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ به ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي إنا أعددنا للذين ظلموا أنفسهم بالكفر نارًا أحيطوا بسورها ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي كعكر الزيت أسود منتن غليظ حار ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ من حرّه ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ هذا الشراب ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي وساءت النار منزلًا ومقيلًا.

(٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي يرضى الله عنها ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فبعد الفراغ من ذكر حال الكافرين ثنّى بذكر المؤمنين وأخبر أنه تعالى لا يضيع أجور أعمالهم الحسنة المرضية، التي عملوها طاعة لله وابتغاء مرضاته.

(٣١) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المؤمنون العاملون ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جزاؤهم جنات الخلود ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي ألبسة داخلية من رقيق الحرير رهيفة ناعمة، وألبسة خارجية من غليظ الديباج البراق ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي متكئين على المساند اللينة، نعم ذلك الثواب الذي هم فيه وحسنت الجنة الخالدة منزلًا ومقرًا ومقيلًا ومستقرًا.

(٣٢) ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي ضرب الله مثلًا بين الكفار من قريش والمستضعفين المؤمنين برجلين: أحدهما كافر غني رزقه الله جنتين من كروم متنوعة وأحاطهما بنخل مثمر وجعل بين الجنتين زرعًا، فجمعتا بين الأقوات والفواكه المتنوعة الشهية للأكل.

(٣٣) ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي وكل جنة أعطت ثمارها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم ينقص شيء من ثمارها وآتتها على أكمل وجه ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ وكان نهر يمشي متخللًا الجنتين ويسقيهما بمائه، وتتفرق جداوله فيهما هاهنا وهاهنا.

(٣٤) ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ أي للأخ الكافر ﴿ثَمَرٌ﴾ أي ثمار ناضجة ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يجادله مفتخرًا ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي أنا أغنى منك في المال والمزارع والأملاك، ولديّ من الأولاد والخدم والحشم ما يجعلني أعزّ منك نفرًا.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٢٩٨

(٣٥) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي ظالم لها بكفره وتمرده وعناده وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي ما أظن أن هذه الجنة تفنى، أو تهلك أبدًا؛ لاغتراره بما تزهو به من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المتدفقة فيها، ذلك لفرط غفلته وضعف يقينه.

(٣٦) ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي ولا أعتقد أن هناك بعثًا ولا قيامة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ وعلى فرض أن هناك ما تزعمه من القيامة والرجعة والمرد إلى الله ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي أظن أن سيكرمني ربي بأحسن مما أنا فيه من الحظ الوافر، ولولا كرامتي عليه ما رزقني.

(٣٧) ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي يناقشه ويجادله ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي هل استجرّك اغترارُك بالدنيا والركون إلى زخرفها الزائل أن تكفر بالذي خلقك من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي صيّرك إنسانًا ذكرًا وعدل أعضاءك؟ وهذا إلفاتُ نظر إلى أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة.

(٣٨) ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ لكن أنا لا أقول بما قلت، وأعترفُ أنه سبحانه ربي الذي خلقني وربّاني بنعمته فلا أكفره ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أحدًا من خلقه كائنًا من كان.

(٣٩) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي وهلّا حين دخلت جنتك وأعجبتك ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا قوة لشيء إلا بالله تعالى، ثم حمدت الله تعالى على أنعمه عليك، ثم لما علمه الإيمان بالله والتفويض إليه تعالى إجابة على تفاخره بالمال والرجال عليه، فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فما المال والولد باللذين يقربان إلى الله تعالى إلّا مع الطاعة والعمل الصالح.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لن تبيد ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي مرامي من عذابه كبردٍ أو حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي بلقعًا أملس مستويًا تزل عنه الأقدام فلا يبقى فيها شجرة قائمة، أو نبات.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي يصبح الماء غائرًا في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي لردّه إلى ما كان عليه.

(٤٢) ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي أبيد ثمره وجنته جميعًا وهي التي كان يظن أنها لن تبيد أبدًا، وإذ أصبح يضرب بكفٍّ على أخرى ندمًا على ما أنفق عليها من الأموال ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة دعائمها التي كانت تعرش عليها وتهدمت أبنيتها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ وتمنّى أن لا يكون مشركًا بربّه أحدًا من خلقه، وعلم أنَّ هذه عقوبة منه تعالى.

(٤٣) ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لم تكن فرقة وجماعة ينتصر بها ويلتجئ إليها، ولا نفعه النفر الذي كان يفتخر به ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وكيف يكون منتصرًا والله هو محاربه! فأين المال والخدم والحشم الذين كان يشمخ بهم على صاحبه المؤمن؟

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي يوم القيامة كل أحد مؤمنًا كان أو كافرًا يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع إليه سبحانه ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي هو خير من يثيب، وثوابه أعظم من أي ثواب ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي كل عمل مخلص لله تعالى خير وعاقبته كذلك خير.

(٤٥) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن مثل الحياة الدنيا كالمطر الذي يروي الأرض فينبت ما فيها من الحب فيشب فيحسن وبعد أن علاه الزهر والنضارة ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي تفرقه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي قديرًا لا يغالبه غالبٌ ولا يمانعه ممانعٌ جلّ جلاله وعزّ علاه.

كثرة الرزق للكافر استدراج، وإيمان المرء وعمله خير من ماله وولده

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

٢٩٩

(٤٦) ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء، فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يُتزيَّن به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة إلّا ما جعله منها للآخرة كالزكاة والتصدق وتربية الأولاد تربية صالحة وتنشئة طيبة، فيكون ذلك له ذخرًا ورصيدًا في الآخرة ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ هي كل عمل صالح مخلص طبق الشريعة من ذكر وصلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد في سبيل الله وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وصبر على الأذى في سبيل الله وصلة الأرحام وغير ذلك من الأعمال التي ترضيه تعالى. إن هذه الباقيات الصالحات إنما هي باقيات عند الله وهي خير ثوابًا مما هو زينة في الدنيا من الأموال والأولاد وأفضل ما يؤمله العبد من ربه من الثواب.

(٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي نزيلها وهو يوم القيامة، فلا يبقى على الأرض جبلٌ ولا وادٍ، وتكون الأرض سطحًا مستويًا ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لا يواري شيء فيها أحدًا فهي بادية ظاهرة ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي فلم نترك أحدًا من الأولين والآخرين إلاّ وجمعناهم يوم الحساب، يوم يرى كلٌّ أعماله حاضرة لا تخفى.

(٤٨) ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي كل أمة مصفوفة على حدة صفًا صفًا، ويقول سبحانه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي مثلما خلقناكم فرادى عدتم إلينا كذلك بعد أن فنيتم في الأرض وتبعثرت ذراتكم فيها أعدناكم كما كنتم فرادى ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ ترجعون فيه إلى الله، وظننتم أن لا بعث ولا معاد ولا قيامة ولا حساب، فها أنتم أولاء أمامنا قائمين متأكدين مما كنتم تُنكرون وبه تكفرون.

(٤٩) ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهو صحائف الأعمال فيها الجليل والحقير ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي خائفين مما فيه من الذنوب والأعمال السيئة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المجرمون ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي إنه أحصى ذنوبنا دقيقها وجليلها ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي وجدوا أعمالهم الخيرة والشريرة ماثلةً أمام نواظرهم بحذافيرها، وحاشا أن يظلم الله أحدًا من خلقه.

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور. وفي الحديث: «خلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم» [٥٢٤]. فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، فإنه قد توسّم أخلاق الملائكة وتشبه بأفعالهم في تعبده وتنسكه، ولكن خانه الطبع عند الحاجة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ أي يا بني آدم أفتتخذون إبليس اللعين وليًا لكم من دوني ﴿وَهُمْ﴾ أي هو وذريته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي أعداء ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ إبليس وذريته.

(٥١) ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لو كان أولئك الذين اتخذتموهم أولياء من دوني شركاء لي كما تزعمون لشهدوا خلق السماوات والأرض، ولكن ما أشهدتهم ذلك ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي حتى ولا خلق أنفسهم ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي أعوانًا ومساعدين.

(٥٢) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي يوم القيامة، يقول الله تعالى للمشركين: نادوا من كنتم تشركونهم معي في العبادة ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي نادى المشركون آلهتهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فضلًا عن أن ينفعوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي لا سبيل لأحد إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم.

(٥٣) ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ أي رأوها رأي العين ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي فتحققوا أنهم داخلوها لا محالة ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بدّ لهم منها. وفي الحديث: «إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة» [٥٢٥].

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ
ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينّا للناس في هذا القرآن الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ فإن الإنسان كثير المجادلة، وعن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلةً، فقال: «ألا تصليان»، فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول: «وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلًا» أخرجاه في الصحيحين [٥٢٦]. وقيل: إن هذه الآية نزلت في أُبَيّ بن خلف حين أتى بعظم قد رمَّ فقال: أيقدر الله على إعادة هذا؟

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي أهل مكة ما منعهم أن يؤمنوا بالله ورسوله وأن يستغفروا ربهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنتنا فيهم وهي الإهلاك المقدّر عليهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي مقابلةً وعيانًا قتلًا بالسيف ببدر.

(٥٦) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي مبشرين الطائعين بالجنة والرضوان، ومنذرين المكذبين بالنار والسخط من الله تعالى ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليضعفوه على زعمهم ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ أي اتخذوا القرآن وما جاء فيه من الوعيد سخرية واستهزاءً والعياذ بالله تعالى، وهذا أشد التكذيب.

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي لا أحد من الناس أظلم لنفسه ممن ذُكِّر بآيات الله فتناساها ولم يتدبرها وأعرض عنها ولم يلقِ لها بالًا ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من السيئات فبسبب ذلك عاقبناهم في الدنيا عقابًا من جنس أعمالهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي غشاوات ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي تحول دون تفهم القرآن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صممًا معنويًا عن الرشاد ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي إلى درجة إن دعوتهم إلى الحق فلن يهتدوا إليه أبدًا جزاء إعراضهم وتناسيهم ما أنزل إليهم من الحق والخير.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي وربك يا محمد هو الذي يغفر الذنوب ويرحم عباده رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أي فمن رحمته بهم أنه لم يعاجلهم بالعقوبة لعلهم يتوبون فيقبل توبتهم إلّا من يستمر على ضلالته ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي ملجأ يلجأون إليه من دونه سبحانه، وليس لهم عنه محيص ولا محيد.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ كديار عاد وثمود لما كفروا بدين الله وبأنعمه التي توجب الطاعة له سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي جعلنا هلاكهم إلى مدة معلومة، وكذلك أنتم يا أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعزَّ علينا منهم فخافوا عذابي ونذري.

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشع بن نون ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال سائرًا ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي دهرًا طويلًا حتى أبلغه. وقيل في مكان مجمع البحرين أقوالٌ شتّى، وما في تعيينه كبير أهمية، فليكن أيًا ما كان إنما المهم أن يحصل اللقاء في ذلك المكان ليلتقي مع عبد من عباد الله عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه ليعلم هذا العلم وهذا مما يفيد الحض على تجشم السفر الطويل في طلب العلم.

(٦١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي موسى ويوشع عليهما السلام ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه قد أمر موسى بحمل الحوت بمكتل فحيثما فقد الحوت هناك الرجل ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي صار مثل السرب وهو الشق الطويل لا نفاد له، وأن الماء صار مثل الطاق على الحوت.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

• لا يجوز لأحد أن يدعي اتباع شريعة الخضر فشريعة محمد نسخت كل الشرائع •

(٦٢) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه بمرحلة ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ أي خادمه يوشع بن نون ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ أي الذي جاوزا منه المكان ﴿نَصَبًا﴾ أي تعبًا وإعياءً فإنهما لم يجدا التعب إلّا في ذلك دون ما قبله!

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ أي يوشع بن نون ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي حين نزلنا هناك ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي نسيت أن أخبرك خبره ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لك، وكيف أنه وثب من المكتل ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وأكل شقُّه ثم يثب في البحر ويبقى أثر جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر. وهذه معجزة تلفت نظر موسى للعودة إلى مكانهما.

(٦٤) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي إنَّ الرجل الذي نحن بصدد اللقيا معه هو في مكان ما نسيت الحوت ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي رجعا يتقفّيان آثار خطاهما لئلا يخطئا طريقهما.

(٦٥) ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وهو الخضر عليه السلام ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي نبوةً ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي علمناه من قِبلنا علمًا وهو ما علّمه الله سبحانه من علم بعض المغيبات. ونستدل من فعل موسى عليه السلام من طلب العلم وهو من جملة الأنبياء والرحلة في ذلك على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه، فلما انتهيا، أي موسى ويوشع في رجعتهما إلى الصخرة فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلّم عليه موسى فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم.

(٦٦) ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي هل تأذن لي بأن أتبعك لتعلمني مما علّمك الله من الرُّشد.

(٦٧) ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم علّمكه الله لا أعلمه.

(٦٨) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي وستنكر عليَّ ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطّلعت على حكمته ومصلحته التي اطلعت عليها أنا دونك، فمن المؤكد أنك لن تصبر على ذلك.

(٦٩) ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي على ما أرى منك ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي ولا أخالف لك أمرًا قط، فعند ذلك.

(٧٠) ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي مهما رأيت مني من الأمور لا تعترض حتى أنا أخبرك بخبره.

(٧١) ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي خرقها الخضر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي جئت شيئًا منكرًا، فذكّره الخضر بالشرط:

(٧٢) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي إنني فعلتُ ذلك قصدًا، وهو من الأمور التي اشترطتُ عليك، فكانت الأولى من موسى نسيانًا، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلّا مثل ما أنقص هذا العصفور من هذا البحر!!! وهذا يدل على أن علم الخضر جزء يسير من علم الغيب لا كل المغيبات كما يدّعي الباطنيون (أهل علم الباطن) الباطل.

(٧٣) ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ أي لا تضيق عليَّ ولا تشدّد ولا تؤاخذني بما نسيت في أول مرة، فجمع بين الإقرار بذنبه والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك يا أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر ثم خرجا من السفينة.

(٧٤) ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ أي الخضر ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي لما رأى موسى ما فعله الخضر من قتل الغلام، قال: أأقدمت على قتل نفس بريئة لم تعمل حنثًا ولا إثمًا بلا سبب، لقد أذنبت ذنبًا ظاهر النكارة.

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

(٧٥) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي أكد أيضًا التذكير بالشرط الأول، وهو ألا يسأل موسى الخضر شيئًا قبل أن يخبره الخضر بخبره.

(٧٦) ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي فإنك معذور إن فارقتني. وفي الحديث: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾» [٥٢٧].

(٧٧) ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي سألاهم الطعام والضيافة ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي كانوا قومًا لؤماء بخلاء فلم يضيّفوهما!!! ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ أي يكاد أن يسقط، فأقامه الخضر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي ما دُمْنا قد استضفناهم فلم يضيّفونا؛ فلم تقيمُ جدارهم؟ فلو أنك أخذت منهم أجرًا على إقامته.

(٧٨) ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي حق الفراق بيني وبينك، لأنك أنت اشترطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهذا فراق بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سأخبرك بتفسير ما لم تستطعْ أن تصبر عليه حتى أخبرك بتفسيره فيما بعد.

(٧٩) ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي يشتغلون فيه ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعل فيها عيبًا ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فعبتُها حتى يزهد فيها الملك فلا يغتصبها من أصحابها المساكين.

(٨٠) ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي إن الغلام الذي قتله الخضر طُبعَ يوم طُبعَ كافرًا فخشينا أن يحملهما حبُّه على متابعته على الكفر. وفي الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاءً إلاَّ كان خيرًا له...» [٥٢٨]. أي إن المؤمن لا يقضي الله له إلاَّ خيرًا.

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي أن يرزقهما الله ابنًا خيرًا منه ﴿زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي يكون ابنًا طاهر العقيدة زكيًّا في دينه، واصلًا لرحمه وخاصة لأبويه.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي إن هذا الجدار إنما أصلحتُه لأنه كان مُلكًا لغلامين يتيمين في المدينة، وفي هذا دليل على جواز إطلاق القرية على المدينة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ﴾ أي تحت الجدار ﴿كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي تحته مالٌ دفين لهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن صلاح الرجل يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقرَّ عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السُّنَّة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي أن يكبرا ويبلغا الحُلُم، وأسند الإرادة لله تعالى، لأن بلوغ أشدهما من خصائص صفات الربوبية ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ أي فيتيسر لهما استخراجه، وذلك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بهذين اليتيمين ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ أي هذا الذي فعلته كلُّه، ما فعلته ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ بل عن أمر الله تعالى الذي أوقفني عليه، وفيما تقدّم دلالة على نبوّة الخضر عليه الصلاة والسلام. وليس هو كما يزعم البعض حيًّا إلى يوم القيامة!! بل هو ميت مات عندما انقضى أجله إذ ذاك، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. وقوله ﷺ: «لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته عينٌ تطرف» [٥٢٩]. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي هذا هو تفسير ما شاهدتَه مني ولم تستطع صبرًا عليه. هذا ما يتعلق بقصّة الخضر مع موسى. أما قصة ذي القرنين، فكما يلي:

(٨٣) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أي عن خبره، وقد تقدّم أنّ المشركين سألوا رسول الله عن رجل طوّاف في الأرض ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ أي شيئًا من خبره وهو:

لم يصبر موسى على الخضر فتفرقا، الخضر نبي وأنه قد مات وأخبار حياته موضوعة

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا
لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ
مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ
سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ
وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ
قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا
﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾

(٨٤) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أعطيناه ملكًا عظيمًا ممكّنًا فيه كلَّ التمكين. ملك المشارق والمغارب من الأرض، وقد ظنّ بعضهم أنه رومي، وهذا غير صحيح، لأن هذا الذي زعموه وثني كافر يوناني واسمه الإسكندر المقدوني من مقدونا، أما ذو القرنين فهو موحّد مؤمن عربيّ من ملوك اليمن، أدرك إبراهيم عليه السلام، وطاف البيت معه أول ما بناه وآمن واتّبعه وقرّب إلى الله قربانًا ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ أي من كل أسباب فتح الأقاليم وكسر الأعداء وإذلال أهل الشرك.

(٨٥) ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي منزلًا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب، وسُمي بذي القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها فتحًا وملكًا ونشرًا للتوحيد.

(٨٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي إلى آخر البرّ من الغرب ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ سوداء، أي رأى الشمس بنظره تغرب في البحر المحيط الأطلسي. وهذا شأن من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ أي خيّره بين القتل والفداء.

(٨٧) ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي استمرّ على كفره وشركه بربّه ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا. وفي هذا إثبات للمعاد والجزاء.

(٨٨) ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي مَنْ تابعنا على ما ندعوه إليه مِنْ عبادة الله وحده لا شريك له، وعمل عملًا صالحًا مقبولًا ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي الجنّة في الدار الآخرة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ أي معروفًا في الدنيا.

(٨٩) ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقًا رجع بها من المغرب إلى المشرق.

(٩٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾ أي أمة ﴿لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ أي ليس لهم بناء يكنّهم ولا أشجار تظلّهم وتسترهم من حرّ الشمس ولا لباس يسترهم، بل هم حفاة عراة.

(٩١) ﴿كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾ أي لا يخفى علينا من جميع أحواله شيء، وما عنده من الآلات والجند والأسلحة.

(٩٢) ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقًا جديدًا في مشارق الأرض.

(٩٣) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا﴾ أي حتى إذا بلغ منتهى بلاد الترك مما يلي المشرق، أي بلاد الصين وهما جبلان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج، وجد قومًا ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ أي لا يفهمون كلام غيرهم، لأنهم لا يعرفون إلاّ لغتهم.

(٩٤) ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ أي قالوا له بواسطة ترجمان ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾ هم أقوام من ولد يافث كثيرو العدد ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أقوام متوحّشون يهلكون الحرث والنسل، وللمؤرخين أقوال مختلفة في صفاتهم ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ أي مالًا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ﴾ أي بينهم وبين يأجوج ومأجوج ﴿سَدّٗا﴾ أي يمنعهم من الوصول إليهم فيأمنون شرورهم وبغيهم.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾ أي ذو القرنين ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ أي إن الذي بسطه لي ربي من القدرة والملك خير من الذي تجمعونه لي من المال ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بعملكم وآلات البناء ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ أي سدًّا منيعًا ممن تحذرونهم.

(٩٦) ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ أي قطع الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي حاذى بالبناء أعلى الجبلين من هذه الزبر الحديدية ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ﴾ أي أجّجوا عليه النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ أي صار جميعه نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ أي أفرغ عليه النحاس المذاب حتى صار جبلًا صلدًا من حديد ونحاس مزيجين فسدّ بذلك الثغرة التي كان منها ينفذ أقوام يأجوج ومأجوج.

(٩٧) ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ أي ما استطاعوا ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أي ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يصعدوا عليه لعلوّه وامتداده ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أي وما استطاعوا أن يوجدوا في أسفله ثغرة أو نقبًا يخلُصون منه إلى تلك البلاد.

ذو القرنين ليس هو الإسكندر المقدوني الوثني الكافر بل هو مؤمن موحد عربي من ملوك اليمن وفيه عظة ثبوتية

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي
أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

٣٠٤

(٩٨) ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي فبعد أن انتهى من بناء السدّ، قال: هذا رحمة من ربي بالناس، حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من الفساد في الأرض ورحمةٌ بي؛ لأنه وفّقني للقيام بهذا العمل ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي جاء يوم القيامة واقترب موعده ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي هدّمه ودكّه إلى الأرض، إن وعد الله كائن لا محالة، فيخرج قوم يأجوج ومأجوج من المشرق إلى المغرب، ثم يقضي الله عليهم في بلاد الشام.

(٩٩) ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يأجوج ومأجوج يضطربون ويختلطون في مسيرتهم نحو المغرب ويعيثون في الأرض فسادًا إلى أن يُقضى عليهم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي وأمرنا إسرافيل بالنفخ بالصور، فجمعنا الأولين والآخرين جمعًا ليوم الحساب. وفي الحديث: «كيف أنعم... وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، واستمع حتى يؤمرَ»؟ قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» [٥٣٠].

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي أظهرنا لهم جهنم حتى إذا شاهدوها ورأوا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم فيها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمِّ والحزن إليهم.

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي تعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق الذي جاء في القرآن ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي لا يسمعون سماع فاهم متدبر بصير، إنما كان كرههم لرسول الله ﷺ يجعلهم أن لا يسمعوا منه ولا يعقلوا من كلامه شيئًا ولا يعُوه.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ كالملائكة والمسيح ابن مريم والأصنام والشياطين معبودين من دوني أو يظنون أن هذا ينفعهم؟! هيهات هيهات ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي هيأنا لهم جهنم يحلّون فيها نزلاء إلى أبد الأبد، إلى أبد الأبد!!

(١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي قل يا محمد لهم: هل نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أي أعظمهم خسرانًا يوم القيامة وأصغرهم شأنًا.

(١٠٤) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي الذين ضاع سعيهم وكان منحرفًا عن طريق الحقّ في حياتهم الدنيا ويعملون الباطل ويمعنون فيه ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ظانين أنهم على الحق الذي ما بعده إلّا الضلال!!! ولكنهم في أعماق الضلال غارقون.

(١٠٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي كفروا بما أنـزل من القرآن وكفروا بالبعث ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت كلّها ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ لأنهم خالون من الخير.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي جـزاءً كفئًا لهـم ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ أي بسبب كفرهم ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ وبسبب اتخاذهم آيات الله ورسله موضع استهزائهم وسخريتهم، ويحسبون أنهم في ذلك على الحق!!

(١٠٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ لما ذكر منازل الكافرين في جهنم ناسب أن يذكر منازل المؤمنين في جنات الفردوس.

(١٠٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي مقيمين فيها لا يختارون عنها غيرها، ولا انتقالًا منها، ولا ظعنًا ولا رحيلًا ولا بديلًا.

(١٠٩) ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي يُكتبُ به كلمات الله ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ أي جفّ ماء البحر ونفد ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ أي قبل أن يفرغ القلم من كتابة كلمات الله ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ لنفد أيضًا هذا المدد قبل نفادها.

(١١٠) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الخلق وإنما أختلف عنكم بالخُلق بأنني ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شـريك لـه ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي يؤمن بالبعث والحساب ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مقبولًا ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ويموت على ذلك.

آخر تفسير سورة الكهف ولله الحمد والمنّة والفضل

من كان يؤمن بأن له لقاءً مع ربه، فليلقه ولا يشرك بعبادته أحدًا

سورة مريم — ترتيبها ١٩ — آياتها ٩٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

٣٠٥

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ

مكية إلا آيتي ٥٨، ٧١ فمدنيتان، وآياتها ٩٨، نزلت بعد فاطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ لقد سبق أن تكلمنا عن الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة وغيرها من السور المتقدمة، وأن خير قول فيها: أنَّ الله أعلم بمراده منها.

(٢) ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي هذا الذي نتلوه عليك، هو ذكر رحمة الله لعبده ونبيه زكريا عليه الصلاة والسلام، وذلك بإجابته حين دعاه وسأله أن يهبه ولدًا على الكبر، وقد كان زكريا عليه السلام نبيًا من أنبياء بني إسرائيل، ذا آثار صالحة، وكان نجارًا يأكل من عمل يده.

(٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ أي لأنه أحبُّ إلى الله الذي يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي، ويكون أبعد عن الرياء.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أي هذا الكلام هو الذي نادى به زكريا ربَّه، وذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، فإذا وهن العظم خارت قوى البدن كله ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي انتشر الشيب فيه كانتشار شعاع النار في الحطب. وهذا من أحسن الاستعارات ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم أكن بدعائي إياك خائبًا فيما مضى، فلا تخيِّبني فيما يأتي.

(٥) ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ أي خفت الأقارب من بعدي أن يضيِّعوا الدِّين، ويتصرفوا في الناس تصرفًا سيئًا كما يفعل بنو إسرائيل عادةً مِنْ ترك الدين وتغييره. وليس مراده الخوف على ماله أن يرثه أقاربه من بعده، فهذا مردود بقوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» [٥٣١]، ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي لا تلد ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي ولدًا يليني من بعدي بالنبوة ويسوس الناس بما يوحى إليه من الوحي.

(٦) ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ﴾ أي هَبْ لي الذي يكون وارثي، ووارث آل يعقوب بن إسحاق في العلم والنبوَّة ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي مرضيًا عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك، في دينه وخُلقِهِ.

(٧) ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ أي ناداه الله تعالى مبشرًا إياه بغلام يولد منه ومن زوجته، اسمه يحيى ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يسم أحدٌ بهذا الاسم من قبله. وهاتان فضيلتان اختص الله بهما نبيه يحيى، الأولى: أنه تعالى هو الذي تولى تسميته بهذا الاسم. والثانية: أنه سمَّاه باسم لم يوضع لغيره من قبل وهذا يدل على تشريفه وتعظيمه.

(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبُشِّر بالولد ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي كيف يولد لي غلامٌ وامرأتي لا تلد! لا سيما وقد بلغت من كبر السن حـدًّا كبيرًا و﴿عِتِيًّا﴾ أي نحـل عظـمي فلا لقاح ولا جماع.

(٩) ﴿قَالَ﴾ أي الملك مجيبًا زكريا عما استعجب منه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كما قيل لك ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ بأن أرد إليك قوتك ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي لا تتعجب من خلق يحيى من زوجين عاقرَيْن فقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا مذكورًا؛ فإن كلَّ فرد من البشر له حظٌّ من إنشاء آدم من العدم.

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ﴾ أي دليلًا على وعدك ليطمئن قلبي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي تحبس عن تكليمهم من غير مرضٍ ولا علَّةٍ.

(١١) ﴿فَخَرَجَ﴾ أي زكريـا ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي من المسجد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي قـال لهم بالإشـارة والإيماء: ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ أي صلوا لله ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي صباحًا ومساءً.

• من خلقك من العدم قادر أن يهبك الغلام رغم الهرم...

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

نصف الحزب ٣١

٣٠٦

(١٢) ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي خذ التوراة وتعلمها بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي آتيناه الفهم والعلم والجد والعزم ليفقه الأحكام الدينية، وقيل: الحكم هو النبوة ومعنى صبيًا أي في سن الصبا، أي آتاه الله كل ذلك في سن مبكرة وقيل في السابعة.

(١٣) ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي آتيناه هذه النعم العظيمة رحمةً من عندنا ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي وتطهيرًا له من الدنس والآثام والذنوب.

(١٤) ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي قولًا وفعلًا، لطيفًا بهما، محسنًا إليهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن متكبرًا ولا عاصيًا لربه ولا لوالديه.

(١٥) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ فإنّ أوحش ما يكون المرء في هذه المواطن الثلاثة، ولكن فإن ليحيى الأمان والسلام في هذه المواطن.

(١٦) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فبعد أن ذكر الله تعالى قصة زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجه ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا عطف بذكر مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام من غير أب؛ فإنّ بين القصتين مناسبة ومشابهة دلالة على قدرته وعظمته، فقال جل وعلا ذاكرًا مريم ابنة عمران من سلالة داود عليه السلام وكانت أشهر العابدات، وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في هذه السورة من هذا الكتاب حين تنحّت وتباعدت نحو الشرق من دار أهلها إلى شرقي المسجد الأقصى، وقيل: من أجل أن تطّهر من حيضها.

(١٧) ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي يحجبها لتغتسل ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي صاحب وحينا وهو جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي على صورة إنسان تام كامل لا ينقصه من نعوت البشر شيءٌ.

(١٨) ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ أي إني ألتجئ إلى الله منك ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي إن كنت تتقي الله تعالى فارجع عني؛ لأنه دخل عليها في سترها وظنت أنه يريدها على نفسها فخوّفته بالله تعالى.

(١٩) ﴿قَالَ﴾ أي جبريل عليه السلام: ليس الأمر كما ظننت ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ وأمِرْتُ ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي أرسلني سبحانه ليهب لك، وجعل الهبة من قِبَلِ جبريل بصفته سببًا فيها لكونه مخبرًا لها أو من جهة كون النفخ قام به في الظاهر ليخلق بإذنه تعالى غلامًا زكيًا أي نبيًّا طاهرًا مجبولًا على العفّة والنّزاهة.

(٢٠) ﴿قَالَتْ﴾ أي مريم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي لست ذات زوج ولا أنا فاجرة، ومثلي بفضل الله تعالى ومنّه وكرمه لا يُتصوّر منها الفجور.

(٢١) ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أي مجيء غلام لك وحملك به دون أن يمسّكِ بشرٌ هذا هيِّن على الله ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي دلالة لهم على قدرته التي لا يعجزها شيء فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وهذا أعجب ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي نجعله نبيًا يدعو إلى عبادة الله فيرحم الناس به وبدعوته ﴿وَكَانَ﴾ ما قدّره ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي لابدّ من حصوله.

(٢٢) ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ فاستسلمت لقضاء الله فنفخ جبريل في جيب درعها نفخة ولجت بطنها فحملت به ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وضاقت ذرعًا بحملها وذكرته لأختها امرأة زكريا التي حملت بيحيى أيضًا، وأخبرتها بما كان من شأنها، والمشهور أنها حملت به تسعة أشهر، ولما ظهر حملها وقربت ولادتها اعتزلت إلى مكان قصيّ.

(٢٣) ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي فاضطرّها الطلق إلى جذع النخلة في بيت لحم وهو المكان القصيّ، فوضعت هناك ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ عندها قالت متمنّية أن تكون قد ماتت قبل أن يحلّ بها هذا الابتلاء فلا تعانيه وتكون منسيةً مع من ينسى.

(٢٤) ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ أي جبريل من أسفل الوادي ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي نهرًا صغيرًا تشربين منه وترتوين... ثم قال:

(٢٥) ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وكان الجذع يابسًا ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فهزّته إليها كما أُمرت فتساقط عليها الرطب منه وهو خير ما ينفع النفساء.

حمل مريم تسعة شهور كالمعتاد، إيجاد الرطب من الجذع اليابس إثبات للكرامات.

فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ
إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا
فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ
أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي
ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي
نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي
جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ
وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ
ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ
فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ
بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ
وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾

(٢٦) ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾ أي كلي من الرطب واشربي من النهر الصغير الذي جعله الله تحتك ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ أي طيبي نفسًا ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي مهما رأيت من أحدٍ من الناس وكلَّمكِ في أمر ما تحملين من الولد ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي صمتًا عن الكلام ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ أي قولي إيماءً وإشارة بأنك صائمة عن الكلام ولن تكلمي اليوم إنسيًا أي أحدًا من الإنس، وإنما تكلم الملائكة وتناجي ربّها بالدعاء والاستغفار.

(٢٧) ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ﴾ أي بولدها عيسى عليه السلام ﴿قَوۡمَهَا﴾ أي عائدة إلى قومها ﴿تَحۡمِلُهُۥ﴾ أي تحمل وليدها فلما رأوها تحمل وليدًا لها ﴿قَالُواْ﴾ مستنكرين ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ أي ما هذا يا مريم؟! كيف تلدين؟ ومن أين يكون لك الولد ولست متزوجة!!!؟ لا بد إنك جئت أمرًا عظيمًا لا يليق بك وأنت التي تتدرّعين ثياب الطهر والعفاف والعبادة والتبتل وخدمة المسجد الأقصى.

(٢٨) ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي يـــا شبيهــة هــارون في العبـــادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ أي كيف تبغين وأبوك كان من أطهر الناس وما كانت أمك فاجرة حتى تفجري؟ فأنت من بيت العبادة والتقوى فكيف صدر هذا منك؟

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ أي قالت لهم بالإيماء والإشارة: اسألوا هذا الطفل وكلّموه فهو يجيبكم ﴿قَالُواْ﴾ مستغربين!!! ومستنكرين: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ كيف تحيلينا بالإجابة على طفل ولد اليوم وهو ما يزال في المهد وليدًا صبيًّا!!!؟

(٣٠) ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي أول ما تكلم نفى عن نفسه أن يكون الله أو أن يكون ابنَ الله أو أن يكون ثالثَ ثلاثة، إنما قال: إني عبد الله ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ أي قضى الله أنه يؤتيني الكتاب (الإنجيل) ويجعلني نبيًا فيما قضى.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ أي آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر حيثما كنت ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ أي أوصاني بهذين الركنين الركينين ما دمتُ على قيد الحياة.

(٣٢) ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ أي لا أعصي أمرًا لها، ومن فضله عليّ أنه لم يجعلني جبارًا متعظمًا لأن هذه الصفة لا تليق إلا لله تعالى، ولا شقيًّا عاصيًا له سبحانه.

(٣٣) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ فأثبت لنفسه صفات العبودية لله تعالى بأنه مخلوق كسائر المخلوقين: يحيا ويموت ويبعث حيًّا عليه من الله تعالى أطيب الصلوات والتسليمات.

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من خبر عيسى هو الحق ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي يختلف فيه المبطلون والمحقّون ممّن آمن به أو كفر به. ثم نزّه تعالى نفسه فقال:

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يليق بالله أن يكون له ولد وهو منزَّهٌ سبحانه عن ذلك، ولماذا يتخذ ولدًا وهو الذي من صفاته العظيمة إن أراد شيئًا فإنما يأمر فيصير حالًا كما يشاء فلا يعجزه شيء في جميع ملكه؟

(٣٦) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي دعاء مصرحًا بعبوديته وعبودية الآخرين لله تعالى وأمرهم بإفراده بالعبادة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الطريق القويم.

(٣٧) ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ أي اختلف أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام؛ فقال جمهور اليهود عنه: إنّه ابن زنية، وقال آخرون: هو ابن الله، وقال غيرهم: إنه عبد الله ورسوله. ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي الويل لمن كفر بعيسى، وهذا تهديد عظيم لمن كذب على الله وافترى.

(٣٨) ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم ﴿يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ﴾ أي يوم القيامة فقد كانوا في الدنيا صمًّا عن الحق، عميًا عن رؤيته واتباعه، ولكنهم يوم القيامة يعرفون ويقرُّون بكلِّ ما أنكروه ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي في صممٍ وعمى عن الحقّ الأبلج.

ليس عيسى هو الله ولا ابنه ولا ثالث ثلاثة بل هو عبده ورسوله

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
٣٩ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٤٠ وَٱذْكُرْ
فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠
وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ٥١

٣٠٨

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وخوّف الكفار من عذاب يوم القيامة وفصلٍ بين أهل الجنة والنار فيتحسّر الكفار أهل النار على عدم إيمانهم ويتمنَّون لو كانوا مؤمنين ﴿وَهُمْ﴾ أي اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به من عذاب يوم الحسرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به وفي الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار يُجاءُ بالموت كأنه كبشٌ أملحُ فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيقال: يا أهلَ النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمرُ به فيذبح. قال: فيقال: يا أهل الجنة خلودٌ بلا موت ويا أهل النار خلودٌ بلا موت»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار بيده، ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا» رواه أحمد والشيخان [٥٣٢].

(٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات فلا يبقى من يَدَّعي ملكًا ولا تصرفًا بل هو الوارث لجميع خلقه، ويردّون جميعًا إليه تعالى فيجازي كلًّا بعمله.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي اذكر خبر إبراهيم عليه السلام وهو الجامع لوصفَي (الصِّدِّيق) أي الكثير الصدق و(النبيّ) أي الذي اختاره الله لهداية خلقه.

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يسمع قولك الذي تدعوه به، ولا يُبصر ما تفعله من عبادتك له، ثم لا يغني عنك شيئًا، فلا يجلب لك نفعًا ولا يدفع عنك ضرًا، فكيف تعبده؟! وتُوليه كمال الذل وتمام العبوديّة وأنت تعلم حاله؟

(٤٣) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي إن الله أطلعني على علم منه لم تعلمه ولا جاءك منه شيء، فاتبعْني على ما جاءني، أدلّك على طريق قويم موصل به إلى النجاة والنجاح.

(٤٤) ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي لا تطعْهُ في عبادة الأصنام ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي ترك ما أمره من السجود لآدم، ومن أطاع العاصي فهو عاصٍ.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي في الآخرة على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ فمن تولاّه كان معه في قرار النار.

(٤٦) ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي أتظلُّ تاركًا عبادتها يا إبراهيم وستبقى صادًّا عنها؟ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن عيبها وشتمها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي بالشتم وبالحجارة ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي اجتنبني طويلا.

(٤٧) ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أي أمّا أنا فلا ينالك مني مكروهٌ لحرمة الأبوّة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي سأسأله أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي لطيفًا بي رحيمًا بارًّا يجيب دعوتي ولا يخيّبني.

(٤٨) ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أتنحّى عنكم وأتنحّى عمّا تدعون من الأصنام من دونه تعالى ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّي﴾ أي وأعبده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ و(عسى) هنا موجبة أي أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة أصنامكم التي أدخلتكم النار.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي أبدله الله خيرًا ممن اعتزلهم بأنبياء صالحين من صلبه.

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ أي من نعمتنا النبوّة والكتاب والمال والولد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل يثنون عليهم ويمدحونهم ويذكرونهم.

(٥١) ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي واقرأ عليهم يا محمد في القرآن خبر ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي أخلصناه لنا ﴿وَكَانَ﴾ أي موسى ﴿رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي جمع الله له النبوة والرسالة.

وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن
رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ
إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ
وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ
وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾

(٥٢) ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ أي وكلمنا موسى من جانب الطور الذي كان عن يمينه وقتئذ وأدنيناه وناجيناه، وفيه إثبات لكلام الله.

(٥٣) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ أي وأجبنا سؤله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبيًّا، وما شفع أحد شفاعة أعظم من شفاعة موسى.

(٥٤) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي في القرآن خبر ﴿إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ بن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على إسماعيل عليه السلام وهو والد ربيعة ومضر كلهم، بأنه كان صادق الوعد لأنه قال لأبيه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصدق في ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ أي وكان رسولًا إلى قوم جرهم، وفي هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوّة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وفي الحديث: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وذكر تمام الحديث. رواه مسلم [٥٣٣].

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي كان يأمر قومه بالصلاة والزكاة، ويشمل هذا أهل بيته، وفي الحديث: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات» [٥٣٤]، ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ أي رضيًّا عند الله، وصالحًا وزكيًّا.

(٥٦) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي في القرآن خبر ﴿إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ وهذا أيضًا ثناء من الله تعالى على إدريس عليه السلام بأنه كان كثير الصدق وأكرمه الله بالنبوّة، ويقال: إنه جدّ أبي نوح عليهما السلام.

(٥٧) ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ومن حديث الإسراء: «... ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحّب بي ودعا لي بخير؛ قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ثم عرج بنا...» [٥٣٥] ولم يثبت رفعه حيًّا كما رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام. والله أعلم.

(٥٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ أي هؤلاء المذكورون آنفًا من النبيين من ذرية آدم كإدريس ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي إسماعيل وإسحاق ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي ومن ذرية يعقوب، كيوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا﴾ من ذراريهم ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ أي ممن جعلناهم أنبياء، فهؤلاء جميعًا صفتهم ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه العظيمة ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ أي سجدًا لله تعالى باكين من خشيته والخوف منه تعالى.

(٥٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي فخلف بعد الأنبياء ومن اتبعهم على دينهم خلف ضيَّعوا مواقيت الصلاة واتبعوا شهواتهم المحرمة فسوف يَلْقون خسرانًا وعذابًا في سحيق السعير.

(٦٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وقد استثنى من هذا العذاب والغي الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

(٦١) ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ الذين يؤمنون به ولا يرونه لشدة تصديقهم له ولرسله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تأكيدًا للحصول عليه يوم القيامة.

(٦٢) ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿لَغۡوًا﴾ أي كلامًا تافهًا ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ أي أمانًا واطمئنانًا ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أي دائمًا لا ينقطع.

(٦٣) ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ أي هذه الجنة التي وصفناها، نورثها من كان من أهل التقوى من عبادنا الصالحين.

(٦٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ هذا جواب لسؤال رسول الله ﷺ لجبريل: «وما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزلت [٥٣٦] ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ أي هو المحيط بكلِّ شيء ولا تخفى عليه خافية ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ أي لم ينسك؛ وإن تأخر عنك الوحي، فلا جفاك ولا قلاك.

من أضاع الصلاة فهو لسواها أضيع ومن إضاعتها إضاعة مواقيتها

رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن
كَانَ فِي الضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى
وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

(٦٥) ﴿رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها وقم عليها أتم القيام ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي ليس له مثيل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، وليس أيضًا أحد يسمّى بأسمائه؛ فإنَّ غيره وإن سُمِّيَ بشيءٍ من أسمائه فلله سبحانه وحده حقيقة ذلك الاسم والوصف؛ فإنَّ أسماءه وصفاته كاملة.

(٦٦) ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي يقول الإنسان الكافر ذلك، أي أنّه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته وفنائه!!!

(٦٧) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئًا أفلا يعيده وقد صار شيئًا، وفي الحديث القدسي: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني. أما تكذيبه إيَّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني! وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولدًا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» [٥٣٧].

(٦٨) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ وهنا يقسم الرب تعالى بنفسه الكريمة أنه لا مناص من حشرهم، ولنسوقنّهم وشياطينهم الذين عبدوهم من دوني، ثم لنحضرنَّهم أي العابدين والمعبودين برضاهم حول جهنم جلوسًا على ركبهم أذلاء خانعين خائفين من هول الموقف العظيم وروعة الحساب.

(٦٩) ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني من كل أمة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي أيهم كان أعصى لله وأعتى مبتدئًا بهم بالأكابر فالأكابر جرمًا، حتى إذا اجتمعوا طرحهم جميعًا في قرار جهنم.

(٧٠) ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي إنه تعالى أعلم بمن يستحق أن يكون أولى أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها وهم الذين أشدُّ على الرحمن عتيًّا فهم أولى بصليهم في النار؛ لأنهم أشد كفرًا وعنادًا وعصيانًا للذي خلقهم وأنعم عليهم.

(٧١) ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي جهنم، وفي الحديث: «لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾»(١)[٥٣٨]، وفي الصحيحين: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة أولاد فتمسّه النار إلاّ تحلة القسم» [٥٣٩]، ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي دخول جميع العباد برّهم وفاجرهم جهنم ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي قسمًا واجبًا.

(٧٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي إذا مرَّ الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة، ونجّى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم التي كانت في الدنيا ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثيرًا منها بحسب ما في قلوبهم من الإيمان حتى أنهم يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ﴿وَّنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ على ركبهم خالدين فيها أبدًا.

(٧٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي ظاهرة الدلالة ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي افتخروا عليهم مدّعين أنهم أحسن منازل، ونواديهم أعمر وأكثر واردًا من الذين هم مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم أي المسلمون؛ فردَّ الله عليهم:

(٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي وكم من أمة خلت من المكذبين أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا.

(٧٥) ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَٰلَةِ﴾ أي منّا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي يمهله فيما هو فيه ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ تأتيه بغتة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ على هداهم جزاء ما صغوا إلى الحق واتبعوه ﴿وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي كل عمل صالح مخلص مطابق للشريعة ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي عاقبة على صاحبها.

(١) إسناده ضعيف.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا
﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

الكافرون المؤملون بالنجاة بآلهتهم يصبحون عليه ضداً

(٧٧) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وروى أحمد عن خبَّاب قال: كنتُ رجلًا قينًا وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ، حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا متُّ ثم بعثتُ، جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ورواه الشيخان من وجه آخر عن الأعمش [٥٤٠].

(٧٨) ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أي أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ أي أم له عهد وموثق بأنه سيؤتيه ذلك.

(٧٩) ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه، وسننتقم منه انتقام من كُتِبَتْ معصيتُه، وسنزيده عذابًا فوق عذابه، بما جمع من الكفر والاستهزاء بهذا الدين الذي جاءهم من الله ليجعلهم خير أمة.

(٨٠) ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي نسلبه ماله وولده وكلَّ ما كان له في الدنيا ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي دون ما ذكر من المال والولد؛ لأننا سنحول بينه وبين ما يتمنّى ويلاقينا فردًا ما معه أحد من أهله ولا ماله ولا ولده إلا عمله.

(٨١) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي اتخذ كفار مكة من دون الله آلهة يعبدونها ويعتزُّون بها ويستنصرونها، ويمتنعون بها من عذاب الله تعالى.

(٨٢) ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي ليس الأمر كما توهموا؛ بل إن هذه الأصنام سيكفر من نحتت على صورتهم بعبادتهم يوم القيامة؛ لأنهم لم يأمروهم بعبادتهم، إنما هم الذين اتخذوهم آلهة يعبدونهم مع الله ولهذا فإن المعبودين بغير إرادتهم سيكفرون بهذه العبادة ويتبرأون من أصحابها فصاروا لهم أضدادًا وخصماء ألدّاء.

(٨٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تطغيهم طغيانًا جزاء ما تنكّبوا عن طرق الحق، ونسلّطهم عليهم فيسوّلون لهم المعاصي، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق ولو توكلوا على الله لعصمهم منهم.

(٨٤) ﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي نؤخرهم لأجل محدود ونستدرجهم حتى يصيروا إلى عذاب الله لا محالة ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم جزاء وفاقًا.

(٨٥) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ أي يوم يجمع الذين خافوه يدعوهم إلى جنته ركبانًا على نجائب من نور وافدين على الرحمن جل جلاله وهو خير موفود إليه إلى الدار الآخرة.

(٨٦) ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أما الذين أجرموا بحق أنفسهم فكذبوا الرسل وخالفوهم فيساقون إلى النار عطاشًا.

(٨٧) ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض؛ إذ لا يشفع إلا من اتخذ عند الله عهدًا وهي شهادة ألاّ إله إلا الله متبرئًا من الحول والطول.

(٨٨) ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ سبحانه وتعالى وتقدّس عن ذلك.

(٨٩) ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ أي قولًا عظيمًا شديدًا ثقيلًا جدًا.

(٩٠) ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي يتصدّعن منه ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ من سماعهن هذه المقالة الشنيعة الهائلة.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ أي نسبوا له ولدًا.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي لا يليق بجلاله وعظمته أن يتخذ له ولدًا سبحانه.

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ أي كلهم بيده مربوبون له خاضعون لعظمته.

(٩٤) ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي علم عددهم منذ أن خلقهم إلى يوم القيامة.

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي لا ناصر له ولا مجير إلاّ الله وحده.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم
مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طه — ترتيبها ٢٠ — آياتها ١٣٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ
لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ
فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ
ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا
فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ
أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إنَّ عباد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات مخلصين فيها لله وموافقين فيها الشريعة هؤلاء ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي حبًّا ومودةً في قلوب عباده الصالحين من دون أن يطلبوا ذلك، كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب منهم. وفي الحديث عند أحمد: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبّه؛ قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبُّوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبدًا دعا جبريل قال: يا جبريل إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض» ورواه مسلم والبخاري من طرق أخرى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه [٥٤١].

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي الذين يتقون حرمات الله ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ أي عوجًا شديدي الخصومة لا يستقيمون، صمًّا وفجّارًا.

(٩٨) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذَّبوا رسله ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ أي هل ترى منهم من أحد أو تسمع لهم من صوت حتى ولو كان خفيًا؟

آخر تفسير سورة مريم ولله الحمد والمنّة والفضل

(٢٠) سُورَةُ طه

مكية إلا آيتي ١٣٠، ١٣١ فمدنيتان، وآياتها ١٣٥، نزلت بعد مريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿طه﴾ الله أعلم بمراده، وليس طه اسمًا من أسماء الرسول ﷺ.

(٢) ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ أي ما جعله شقاءً فتشقى به وتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا بك وبما جئت به من عند ربك من الحق.

(٣) ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ أي ما أنزلنا القرآن إلا تذكرةً ليتذكر بها من يخشى الله الذي بيّن في كتابه حلاله وحرامه.

(٤) ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أي وهو ولا شكَّ تنزيل من الله الذي خلق الأرض والسماوات العُلى وما بينهما.

(٥) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي استواءً حقيقيًا معلومًا في حقيقته مجهولًا في كيفيته، ولا نقول: (معنى استوى): استولى كما يقول المعطّلة، فهو عليٌّ على خلقه بائن عنهم لا يشبه باستوائه استواء المخلوقين، استواءً يليق بجلاله بلا تأويل ولا تعطيل ولا تكييف.

(٦) ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي إن الجميع ملكه وتحت تصرفه وفي قبضته ومشيئته وإرادته وحكمه.

(٧) ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ الجهر: رفع الصوت ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ أي إن جهرت أو أسررت فهو سميع لصوتك على حالي الجهر والسرّ وأخفى من السّرّ.

(٨) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحق أن يعبد إلا هو وحده لا شريك له ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي كل اسم من أسمائه حسن وكل أسمائه حسنى.

(٩) ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي خبره وقصته، وكيف كان الوحي إليه، وتكليم الله إياه تكليمًا، وذلك بعد أن سار بأهله قاصدًا بلاد مصر وزوجته.

(١٠) ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ﴾ أي لزوجته ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أي أقيموا مكانكم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ حتى آتيكم منها بجذوة نصطلي بها ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ أي أجد من يدلُّني إلى الطريق فآتيكم بما توقدون بها.

(١١) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي أتى النار ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي سمع مناديًا.

(١٢) ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي إنَّ الذي يكلِّمك هو ربُّك ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ أي اخلع نعليك تعظيمًا للبقعة المقدسة، وهي وادي طوى.

استواء الله على عرشه استواء معلوم الحقيقة مجهول الكيفية

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

٣١٢

فهم لا إله إلا الله أول واجب على المكلفين، المعجزتان أثبتتا لموسى حقيقة لقائه مع الله

(١٣) ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ نبيًا رسولًا ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي لما أوحيه إليك من العلم.

(١٤) ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي لا معبود بحقٍّ في الأرض ولا في السماء إلا أنا ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ أي قم بعبادتي وحدي من غير شريك ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ أي متى ذكرت أنَّ عليك صلاة، وفي الصحيحين: «من نام عن صلاة أو نسيها فكفّارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلاّ ذلك» [٥٤٢]. ولا عذر لإخراج الصلاة عن وقتها إلا في حالتين: النوم والنسيان.

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي إن الساعة قائمة لا محالة وقد أخفيتها عن كل مخلوق، ولم أعلم بموعدها أحدًا وأكاد أخفيها حتى على نفسي[1]! والحكمة من ذلك: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي من أجل أن أجزي كل عامل بعمله فأكافئ المحسن بإحسانه، وأعاقب المسيء بإساءته.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي لا يصرفنّك عن الإيمان بها أي صادٌّ ممن لا يؤمنون بها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ أي فتهلك. والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فإنما المعنيون به أفراد أمته.

(١٧) ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي ما هي هذه التي تقبض عليها بيمينك؟ وهو أعلم بها إنما هو استفهام تقرير ليقول: هي عصاي.

(١) مبالغة في شدة الإخفاء وهذا معروف من لغة العرب. وإلا فإن الله تعالى لا تخفى عليه خافية.

(١٨) ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي أضرب أغصان الشجر فيتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي مقاصد ومنافع وحاجات أخرى.

(١٩) ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ليريه ما جعل فيها من المعجزة.

(٢٠) ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي فما ألقاها إلا وانقلبت ثعبانًا عظيمًا يتحرَّك بسرعةٍ عظيمةٍ فخاف منها وولّى هاربًا ولم يلتفت.

(٢١) ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي قال الله لموسى: خذها ولا تخف منها، وطمأنه بقوله: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي سيعيدها عصًا كما كانت فاطمأنَّ فأخذها فإذا هي عصاه.

(٢٢) ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي ضع يدك تحت عضدك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي تخرج ساطعة متلألئة من غير عيب كبرص وغيره ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي معجزة ثانية.

(٢٣) ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أي فعلنا ذلك لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى الدالة على رسالتك.

(٢٤) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر وأعظم ملوك الأرض حينئذ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحدَّ في العصيان والكفر والتجبّر.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أي فيما بعثه من الأمر العظيم.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي إن لم تكن عوني فلا طاقة لي بذلك.

(٢٧) ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ أي أطلق عن لساني العقدة التي فيه.

(٢٨) ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ أي من أجل أن يفهم فرعون وقومه قولي.

(٢٩) ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ أي ليعينني في أمري.

(٣٠) ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ أي اجعل أخي هارون معينًا لي.

(٣١) ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي واجعله ظهيرًا لي وقوِّني به.

(٣٢) ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي في النبوّة معي بأن تجعله نبيًا مثلي أقوم وإياه بالدعوة إليك وننصر دينك ونعلي كلمتك ونقدسك.

(٣٣) ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ أي نتقرب إليك بالتسبيحات التي تنزهك عن الشرك وعن النِّدِّ والمثيل والشبيه، وندعو عبادك إلى ذلك.

(٣٤) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي ندعو إليك ونذكرك بصفاتك العلى التي لا تليق أن يوصف بها غيرك أو يدّعيها سواك كما فعل فرعون عدوّك.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة. وإن هذا التقديس والتمجيد لله سبحانه قدَّمه موسى توسلًا لاستجابته تعالى.

(٣٦) ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي قد استجبت لك دعاءك ورغبتك. فحلَّ عقدة لسانه، وجعل هارون نبيًّا، ثم شرع يذكره بنعمه السالفة:

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي شرع يذكر نعمه عليه ومننه الوافرة العظيمة، ويعدّدها له واحدة إثر واحدة ونعمة بعد نعمة.

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ
فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا
فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ
أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

٣١٤

(٣٨) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ أي أمرناها ما أمرناها به بواسطة مّا، اطمأنت إليها بأن هذا الأمر هو من الله، إنّما ليس وحيًا كوحي الأنبياء.

(٣٩) ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي اطرحيه فيه ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي اطرحيه في البحر أو النهر الكبير ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أي فليقذفه البحر بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ أي يلتقطه عدوّ لي وله وهو فرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي عند عدوّك فجعلته يحبُّك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ والعين صفة لله تبارك وتعالى معلومةٌ في حقيقتها، مجهولة في كيفيتها، لا تشبه عيون المخلوقين، والمعنى: ولتربّى تحت رؤيتي وبصري تنعم كما ينعم الملوك.

(٤٠) ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي حين أبيت المراضع بتحريمها عليك من قبلنا، فجاءت أختك تمشي إليهم وتقول لهم: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة؟ فقالوا لها: ومن هي؟ قالت: أمي ترضعه مع أخي هارون، وكان هارون أكبر من موسى بسنة، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله ففرحوا واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل. ولهذا جاء في الحديث: «مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» [٥٤٣] وقال الله هاهنا: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ عليك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني القبطي ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي الغم الذي حصل بسبب عزم آل فرعون على قتله ففرَّ منهم هاربًا إلى حيث يقدّر الله ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي خلصناك مرةً بعد مرة مما وقعت فيه من المحن ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فارًّا من فرعون وقومه ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ أي رجعت من عند شعيب ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأجعلك نبيًّا قبل أن أخلقك.

(٤١) ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أي اخترتك رسولًا ونبيًا كما أريد وأشاء.

(٤٢) ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي بمعجزاتي: العصا واليد والآيات التسع ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا عن ذكري ليكون ذلك الذكر عونًا لكما على ما سأرسلكما إليه من الأمر.

(٤٣) ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي تمرّد وعتا وتجبر على الله وعصاه.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وفي هذه الآية عبرة عظيمة في أسلوب الدعوة في اللين والملاطفة والكلمة العذبة لعلّه يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى ربه فيؤمن به.

(٤٥) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي: يعنيان من قولهما: أنهما يخافان من أن يبطش بهما ويعتدي عليهما.

(٤٦) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ إن السمع والبصر صفتان لله حقيقيتان أي له سمع وله بصر يسمع بها ويبصر، وهما كبقية صفاته العلى تليق بجلاله وعظمته، لا تشبه قط أيّ صفة من صفات المخلوقين، تعالت وتباركت صفاته وتقدّست أسماؤه، والمعنى: أنه لا يخفى عليّ من أمركما شيء. واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفّس ولا يبطش إلاّ بإذني، وبعد أمري، وأنا معكما بجميع صفاتي فكيف تخافانه وإني معكما أسمع وأرى؟

(٤٧) ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أي اذهبا إليه ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي أخبراه أنّ له ربًّا وإنه ليس ربًّا كما يدّعي ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أرسلهم معنا وفكّهم من أسرك ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتسخيراتك وخدماتك ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي بمعجزة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي خلقك ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي والسلام عليك إن أجبتنا إلى الهدى.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ أي من ربنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بآيات الله تعالى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عنها معرضًا عن طاعته وليس منزجرًا عن معاصيه.

(٤٩) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي ومن ربُّكما هذا؟ وهل لكما ربّ سواي؟

(٥٠) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ الذي يصلح له ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كلًّا لمصلحته.

(٥١) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي الذين لم يعبدوا الله فما حالهم وما شأنهم؟ وهذه مغالطة من فرعون، حتى يصرف موسى عما أرسل به إليه.

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

تواعد موسى وفرعون يوم الزينة ونصح السحرة وخوفهم من الله بألا يفتروا عليه

(٥٢) ﴿قَالَ﴾ أي موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي علم القرون الأولى عند الله، فإنهم وإن لم يعبدوه تعالى فإن أعمالهم مضبوطة عليهم وسيجزيهم عليها ﴿فِي كِتَٰبٍۖ﴾ أي محفوظة أعمالهم في كتاب وسيحاسبهم بالعدل ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغيرًا كان ولا كبيرًا.

(٥٣) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي قرارًا تستقرون عليها ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طرقًا سهّلها لكم تمشون في مناكبها ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي مطرًا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أي أنواعًا منوّعة ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي من أشجار مثمرة وزروع ذات أصناف شتّى.

(٥٤) ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ﴾ أي كلوا من الثمار والفاكهة والخضار، وأطعموا أنعامكم مما أنبت لكم من الكلأ خضرًا ويابسًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي إن في هذا الذي تقدّم ذكره من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى لدلالاتٍ وبراهين لأولي العقول السليمة على عظمة الخالق.

(٥٥) ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي خلقناكم من تراب هذه الأرض ثم نعيدكم إليها إذا متم وبليتم، وصرتم ترابًا ثم نبعثكم منها ونخرجكم ليوم الحساب. وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضةً من التراب فألقاها في القبر وقال: «منها خلقناكم»، ثم أخذ أخرى وقال: «وفيها نعيدكم»، ثم أخرى وقال: «ومنها نخرجكم تارة أخرى»[1][٥٤٤].

(٥٦) ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أي قامت على فرعون الحجج والبراهين ورأى جميع المعجزات وهي الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والدم، والضفادع. وعاين ذلك وأبصره فكذب تلك الآيات وكفر بها، وأباها عنادًا وبغيًا واستعلاء واستكبارًا وظلمًا.

(٥٧) ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي بعد أن رأى فرعون معجزَتَي العصا واليد ورغم ذلك قال له: هذا سحر جئته لتسحرنا، وتستولي على الناس بإيهامهم أنك نبي وتتوصل بذلك إلى أن تغلبنا على أرضنا وتخرجنا منها!!! يريد بهذا القول أن يبعد الناس عنه وينفرهم منه فلا يؤمنوا به!!

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي نحن على استعداد بأن نأتيك بسحر يقومُ به سحرتنا يكون مثله ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي واعدنا بوعد معين ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي لا نخلفه، ونعيّن زمانه ومكانه حتى نكون جميعًا حضورًا فيه.

(٥٩) ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيد لهم يتفرَّغون فيه من العمل، ومن عادتهم أن يحشروا في مكان معين فضرب لهم ذلك المكان ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ ثم عين الزمان أيضًا وهو وقت الضحى.

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي شرع في جمع سحرته.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي بعدما اجتمع السحرة في الزمان والمكان المعيَّنَيْن جاء موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون فنصح السحرة وخوفهم من الله بأن لا يفتروا على الله بسحرهم الكاذب ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ﴾ أي يهلككم بعذابه تعالى ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي خاب وخسر من افترى على الله كذبًا.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ فقالوا: إن كان ما جاء به موسى سحرًا فسنغلبه وإن كان من عند الله فسيتّبعونه على دينه.

(٦٣) ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ أي قال السحرة: إن موسى وهارون إن هما إلا ساحران ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ أي يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم ويستوليا على الناس ويقاتلا فرعون وجنوده ويخرجاكم من أرضكم ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ فتنتهي إليهما الرئاسة.

(٦٤) ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ أي أحكموه إحكامًا قويًا ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي صفًا واحدًا وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي نجح من تفوّق.

---

(١) إسناده ضعيف.

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

٣١٦

(٦٥) ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ أي خيّر السحرة موسى في إلقاء عصاه أولًا أو هم يلقون عِصِيَّهم قبله.

(٦٦) ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أي أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب لما أصابها حرّ الشمس، وخيّل إلى موسى أنها تسعى من سحرهم ومخرقتهم وظن أن ذلك باختيارها وإنما كانت حيلةً أدخلت عليه حتى صار الوادي مليئًا بالحيّات.

(٦٧) ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ خاف كما يخاف كل بشر عند مشاهدة ما يخشى منه كما أنه خاف أيضًا على الناس أن يفتتنوا بها.

(٦٨) ﴿قُلْنَا﴾ أي قال الله تعالى ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ﴾ أي يا موسى ﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي المستعلي عليهم بالظفر والغلبة فلا تخف مما يأفكون.

(٦٩) ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا﴾ أي ألقِ عصاك التي في يمينك تبتلع ما صنعوا من الدجل والتمويه من الحبال والعصيّ ولا تبقي منها شيئًا ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ أي إن الذي صنعوه من الدجل ما هو إلا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ أي تمويه ودجل مما يصنعه الساحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي لا يفوز ولا يسعد حيثما كان. وفي الحديث: «إذا أخذتم الساحر فاقتلوه، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: لا يأمن حيث وجد»(١) [٥٤٥].

(٧٠) ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أي فلما شـاهد السحرة ما وقـع لعصيهم وحبالهم من عصا موسى التي تحولت لما ألقاها إلى تنّين عظيم هائل وجعلت تتبع تلك الحبال والعصيّ حتى لم تُبق منها شيئًا. وعلموا أن الذي فعل ذلك بإفكهم إنما هو الذي يقول للشيء كن فيكون؛ لذلك فقد آمنوا به سبحانه وتعالى وخروا سجدًا ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فكانوا أول النهار سحرة وصاروا آخر النهار شهداء بررة. وذكر أنَّ عددهم سبعون رجلًا، وقيل: إنهم رأوا منازلهم تبين لهم في سجودهم، قال هذا أكثر من واحد.

(٧١) ﴿قَالَ﴾ أي فرعون للسحرة التائبين المؤمنين ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي دون أن آمركم بذلك ثم بهت وكذب عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي هو معلمكم الذي علمكم هذا واتفقتم معه على نصرته وخذلاني ثم أخذ يتهدّدهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي على جذوعها ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي هل أنا أشدُّ عذابًا لكم أم رب موسى، ومعنى ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي وأدوم.

(٧٢) ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي لن نختـارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحات كاليد، والعصا ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي لا نؤثرك على الذي خلقنا وهو الله سبحانه، ولا نختارك على الذي أنشأنا من العدم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي افعل بنا ما شئت ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إن ملكك في هذه الحياة الدنيا فحسب لا في الآخرة فإنه لا سلطان لك عليها، إنما تسلطك علينا لا يتعدى هذه الحياة الزائلة، ونحن ما نرغب إلا في دار القرار.

(٧٣) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ التي سلفت منا من الكفر والشرك ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي الذي أجبرتنا عليه ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ثوابًا منك.

(٧٤) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ أي يلقاه يوم القيامة مشركًا ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، وفي الحديث: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناسًا تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتةً حتى إذا صاروا فحمًا وأذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل...» وأخرجه مسلم [٥٤٦].

(٧٥) ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات والمساكن الطيبات.

(٧٦) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي جنـات إقـامة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي طهرَّ نفسه من الدَّنس والخبث والشرك واتبع المرسلين.

(١) إسناده ضعيف.

الله أكبر: كانوا أول النهار سحرة وصاروا في آخره شهداء بررة

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا
فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ
وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن
قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ
رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم
مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ
أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

٣١٧

(٧٧) ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ أي أمر الله موسى أن يسير بقومه ليلًا عندما أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، فخرج موسى بقومه أجمعين فغضب فرعون غضبًا شديدًا، وأرسل يجمع الجند ثم ساقهم في طلب بني إسرائيل عند شروق الشمس، فصار البحر أمامهم وفرعون وراءهم، فأوحى الله إلى موسى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ فضرب البحر بعصاه، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ولم يعد موسى ولا بنو إسرائيل يخافون أن يدركهم فرعون، ولا أن يخشوا الغرق في البحر ما دام الله سبحانه معهم بتأييده ونصره.

(٧٨) ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ أي لحقهم فرعون بجيشه فعلاهم من البحر ما علاهم وأصابهم مما هو معلوم من السور المتقدمة.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي فأضلهم في حياته بأن منعهم من الإيمان بموسى، وقادهم إلى الغرق حتى الموت وأوردهم النار في الآخرة. فما قول المشفقين على فرعون والقائلين بنجاته وإيمانه بعد قيام الحجة على كفره وموته على الكفر؟! اللهم اهدهم صراطك المستقيم.

(٨٠) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ أي فرعون ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ وهو المكان الذي كلم الله عليه موسى، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ﴾ أي حلوى كانت تنزل عليهم من السماء ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أي طائر يسقط عليهم فيأخذون حاجتهم منه.

(٨١) ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي من المن والسلوى ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أي لا تأخذوا منه أكثر مما تحتاجون إليه ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ أي يلزمكم غضبي، وينزل بكم، وتجب لكم عقوبتي. ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ أي صار إلى الهاوية.

(٨٢) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي كل من تاب إلى الله تعالى تبت عليه من أي ذنب ﴿وَءَامَنَ﴾ أي بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وعمل عملًا صالحًا خالصًا لله مطابقًا للشريعة واستقام على ذلك حتى أتاه الموت، وهو على ما هو عليه من اليقين.

(٨٣) ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي ما حملك يا موسى على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم، وكان قد خرج بوجوه قومه فسار بهم ثم عجل من بينهم شوقًا إلى ربه.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي هم ورائي قادمون وتابعون لأثري ثم قال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي تركتهم وعجلت إلى لقائك لترضى عني بمسارعتي إليك.

(٨٥) ﴿قَالَ﴾ الله ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي أخبر الله نبيه موسى بما كان بعده بأنه قد اختبر قومه وألقاهم في فتنة ومحنة بعبادتهم العجل ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي عمل لهم السامري عجلًا أي صنعه لهم وكان من قوم يعبدون البقر فأدخل عليهم الشرك وعبادة البقر، فعبد العجل بنو إسرائيل بعد أن رأوا من المعجزات ما يكفي لأن تستيقن قلوبهم بالحق ولا يميلوا عنه إلى الباطل.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ أي رجع بعد انتهاء زمن الميقات وإخبار الله له بما وقع لقومه بعده، عاد غضبان غاية الغضب وحانقًا عليهم أعظم الحنق لعبادتهم غير الله تعالى ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ أي وعدًا صادقًا بإعطائكم التوراة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ أي أنسيتم ما سلف من نعمه تعالى عليكم؟ وما بالعهد من قدم ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي بل أردتم أن يقع عليكم غضبه تعالى ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ أي عهدي على ألا تشركوا بالله إن أنقذكم من فرعون.

(٨٧) ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ أي باستطاعتنا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي من حليّ قوم فرعون ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي طرحناها في النار، ثم ألقى السامري عليها من أثر حافر فرس جبريل.

بدلًا من أن يشكر اليهود الله على نعمه... عبدوا العجل!!!

فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا
يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ
يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ
أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ
أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ
إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ
قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ
بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ
عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾

٣١٨

(٨٨) ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ ولما قذف بنو إسرائيل الحليّ بأمر هارون في النار، قصد هارون عليه السلام ذلك حتى تذوب الحليّ وتجتمع قطعة واحدة حتى إذا رجع موسى عليه السلام من الميقات رأى فيه ما يشاء، ثم جاء بعد ذلك السامريّ فألقى عليها القبضة التي أخذها من أثر الرسول أي جبريل عليه السلام فأخرج السامري عجلًا ذهبيًا مجوّفًا ليس فيه روح ولا خوار؛ إنما كانت الريح تدخل في دبره، وتخرج من فيه، وكان الخوار من ذلك ﴿فَقَالُواْ﴾ أي ضُلّال بني إسرائيل بما فيهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ فعكفوا عليه وأحبوه حبًّا لم يحبوا شيئًا مثله قط ﴿فَنَسِيَ﴾ أي ترك السامري ما كان عليه من الإسلام سابقًا وأضل بني إسرائيل فقال الله تعالى ردًا عليهم وتقريعًا لهم وبيانًا لفضيحتهم وسخافتهم:

(٨٩) ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ﴾ العجل ﴿قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أي أفلا يرون أن العجل لا يجيبهم إذا سألوه، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا!!!؟

(٩٠) ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الذي خلق كل شيء ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ أي في عبادة ربكم الرحمن لا العجل.

(٩١) ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ عابدين فلا نترك عبادته ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ أي حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا هارون في ردعه لهم عن عبادة العجل وحاربوه بل كادوا أن يقتلوه!!

(٩٢) ﴿قَالَ﴾ موسى لأخيه هارون عليهما السلام ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ أي ما كان يمنعك حين عبدوا العجل وضلوا بعبادته.

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي ألا تلتحق بي فتخبرني بما صنعوا ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ فيما أمرتك به من أن تخلفني في قومي وتصلحهم ولا تتبع سبيل المفسدين، فما بالك لم تفعل ما أمرتك به؟ وأخذ موسى بلحية أخيه وبرأسه وجرّه إليه غاضبًا حانقًا عليه لما رأى من تقصيره في المهمة التي أوكلها إليه في غيابه.

(٩٤) ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ﴾ أي قال هارون يا ابن أمي ترقّق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓ﴾ أي لا تشدني من شعر لحيتي وشعر رأسي ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا اعتذار من هارون لأخيه موسى في سبب تأخره عنه بأن لو اتبعه لاتبعه منهم ناس مؤمنون ولتخلّف عنهم آخرون فقد يقتتلون ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ أي ما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي ما شأنك وما حملك على ما صنعت من تحبيذ الشرك؟

(٩٦) ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي رأيت جبريل حين جاء هلاك فرعون ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من تراب حافر فرس جبريل عليه السلام ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ أي: في الحليّ المذابة المسكوبة عجلًا ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ أي زينته لي.

(٩٧) ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ﴾ أي قال موسى: اذهب من بيننا واخرج عنّا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ أي طوال حياتك ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي لا أحد يمسك ولا تمس أحدًا. وكان إذا ماسّه أحد حُمّ الماس والممسوس، فجعل يهيم على وجهه في البرية مع السباع والوحش لا يجد أحدًا من الناس يمسه حتى صار كمن يقول: لا مساس لبعده ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾ أي إن لك موعدًا تعذّب فيه يوم القيامة ولا يخلف الله وعده ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ العجل الذهبي ﴿ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗا﴾ أي الذي أقمت على عبادته ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ أي سحله بالمبرد وألقاه في النار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي لنقذفنه في النهر ﴿نَسۡفًا﴾ أي تأكيدًا لنسفه في اليمّ ومحق ذراته، وجرفها مع ماء النهر فتذهب فيه بددًا.

(٩٨) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ إنّما الله هو معبودكم ﴿ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا هو ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ أي لا يغيب عن علمه شيء أبدًا.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ
فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ
فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ
لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا
﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ
قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ
حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

٣١٩

(٩٩) ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي من الأخبار السابقة ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي وقد أعطيناك وأنزلنا عليك من عندنا قرآنًا عظيمًا لا يأتيه الباطل، والذي لم يعط نبيّ كتابًا مثله ولا أكمل منه ولا أجمع لخيري الدنيا والآخرة.

(١٠٠) ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي من كذب به ولم يتبعه ونشد الهدى في غيره فسيحمل في الآخرة إثمًا عظيمًا.

(١٠١) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي في الوزر لا محيد لهم عنه ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي بئس الحمل يوم القيامة وبئس الوزر وزرهم.

(١٠٢) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي في القرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفي الحديث: «إنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام» [٥٤٧]، ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي نحشر المشركين الكافرين يوم ينفخ في الصور زرقًا عيونهم، سودًا وجوههم.

(١٠٣) ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتسارون فيما بينهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أي عشرة أيام فقط.

(١٠٤) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي بما يتسارّون بينهم من القول ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي حين يقول أعقلهم وأكملهم رأيًا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي ما بقيتم في الدنيا إلا يومًا واحدًا. ونسبة القول إلى أمثلهم، لكونه أدلّ على شدة الهول؛ لا لأنه أصدقهم قولًا فهو ليس صادقًا في قوله لأنهم بقوا في الدنيا أيامًا وسنين، ولكن من شدة الفزع.

(١٠٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي إذا سألك المشركون عن مآل الجبال ومصيرها يوم القيامة ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي يقلعها قلعًا من أصولها، ثم يصيّرها رملًا يسيل سيلًا، ثم يسيّرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ثم كالهباء المنثور في الفضاء..

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي الجبال كالكثيب المهيل في مكانها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي أرضًا ملساء لا نبات فيها ولا بناء.

(١٠٧) ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي لا ترى في الأرض جبلًا ولا واديًا بل كلها مستوية سهلة.

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الهائل المفزع ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ أي داعي الله إلى المحشر، حيثما أمروا بادروا إليه ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي لا محيد لهم عن الاستجابة إليه ولا يقدرون إلا أن يتبعوا، ولو بادروا إلى الاستجابة في الدنيا إلى داعي الحق والهدى، لكان أنفع لهم وأجدى ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي سكنت الأصوات فلا تسمع أصوات الكلام إلا أصواتًا خافتة خفية، ولا وقع الأقدام إلا في سكون وخضوع وخوف وخشية.

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي عنده تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي إلا شفاعة من أذن الله له أن يشفع ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي رضي قوله في الشفاعة.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما يشاهدون من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما اقترفوه من أمور ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ بذاته تعالى ولا صفاته، إلا ما علمهم الله

(١١١) ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي ذلت وخضعت للحي الذي لا يموت وللقائم أبدًا بالخلائق جميعًا ولا قوام لهم إلا به ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ يوم القيامة. أي شركًا، وفي الحديث: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» [٥٤٨]. والخيبة كل الخيبة لمن لقي الله وهو به مشرك.

(١١٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي كان تقيًا يعمل الأعمال الصالحة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله تعالى، والإيمان أساس قبول الأعمال ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لحقوقهم.

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي صنوفًا من التهديد بالعذاب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ حرماته تعالى ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي عبرة واتعاظًا.

الخيبة والخسران لمن يلقى الله وهو به مشرك، والشرك أظلم الظلم

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن
يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ
إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

٣٢٠

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق في وعده ووعيده، وجلَّ عن إلحاد الملحدين، وعما يقوله المشركون في صفاته وأسمائه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي يتم إليك وحيه، بل أنصت فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي سل الله تعالى أن يزيدك علمًا بهذا الكتاب، ومن أدعيته ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وعمل لا يرفع، ودعاء لا يسمع» [٥٤٩].

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ أي لقد أمرناه ووصَّيناه من قبل زمنك يا محمد فنسي ما أمرناه وعهدناه إليه فلم يعمل به ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي صبرًا على التحفظ عن المعصية حتى يسلم منها فقد أمر ألّا يأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها لكنه لم يصبر فأكل.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي سجود تحية وتشريف وتكريم ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي امتنع واستكبر وعصى أمر ربه.

(١١٧) ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ أي إبليس ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي حواء عليهما السلام ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي فتتعب في تحصيل المعاش بينما تعيش هنا في الجنة بلا كلفة ولا مشقَّة وعيشك فيها رَغيد من أعظم ما يكون.

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ أي تنعم بأنواع النعيم من المآكل الشهية والملابس البهية ونفى عنه الجوع والعري.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي لا تعطش في الجنة ولا يصيبك فيها شيء من حرِّ الشمس إذ ليس في الجنة شمس.

(١٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي زيَّن له المعصية وحسَّنها في نظره و﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي هل أهديك إلى طريق الخلود فكل من هذه الشجرة فإنك إن أكلت تخلد ولا تموت ويكون لك مُلكٌ لا يفنى.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي عوراتهما جزاء ما خالفا أمر الله تعالى وأطاعا وسوسة الشيطان ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي وأقبلا ينزعان من ورق شجر الجنة ويستتران به ويجعلانه على سوآتهما ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ أي عصاه بالأكل من الشجرة، فضلّ عن الصواب أو عن مطلوبه وهو الخلود الذي خدعه به إبليس وأقسم له أنه من الناصحين حتى دلَّاه بغرور فأكل وعصى.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي اصطفاه ربه فعلمه كيف يتوب إليه هو وزوجه ﴿قَالَا﴾ أي كلاهما ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وهذا ما تلقاه آدم من ربه كما أخبر تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] أي توسَّلا إلى الله باعترافهما بذنبهما أي بظلمهما نفسيهما ثم طلبا المغفرة فتاب عليهما وغفر لهما ما اقترفاه من الخطيئة.

لا أنهما توسَّلا إلى الله بمحمد ﷺ كما يزعم البعض! فاخترعوا حديثًا ولفَّقوه، فتمسك به أهل البدعة وشنشنوا به كما هو معلوم[١].

(١٢٣) ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي آدم وذريته وإبليس وذريته ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي الأنبياء والمرسلون والكتب ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي فمن تبع هدى الله الذي أنزله في كتبه على لسان أنبيائه، لا يضلُّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي عن أمري الذي أنزلته على رسلي واتبع غيره ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ في الدنيا ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصر والبصيرة فقد عمّى الله عليه كلّ شيء إلا طريق جهنم، وقيل: المعيشة الضنك هي عذاب القبر. «يسلط الله عليه فيه تسعًا وتسعين حيةً ينهشن لحمه حتى تقوم الساعة»[٢] [٥٥٠].

(١٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي يسأل هذا الذي حشره الله أعمى يوم القيامة: يا رب لأيِّ سبب حشرتني أعمى وكنت في الدنيا بصيرًا؟!

(١) راجع كتابنا «التوصل إلى حقيقة التوسل» (ص١٢٥)، ففيه بحث مفصل في هذا الموضوع وعن هذا الحديث خاصة.
(٢) إسناده ضعيف.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ
لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

٣٢١

من أعرض عن الله في الدنيا أعرض عنه في الدنيا والآخرة؛ ألا يتعظون بمن قبلهم...

(١٢٦) ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أي لما تناسيت آيات الله وأعرضت عنها بعد أن بُلِّغْتها وأغفلتها في الدنيا ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي وكذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك فكما أنك تعاميت عن آياتنا وأعرضت عنها، فنحشرك الآن أعمى إلا عن طريقك إلى النار جزاءً وفاقًا؛ لأن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص.

(١٢٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي من أشرك معه إلهًا آخر مسرفًا في عداوة رسول الله ﷺ وكذّبه بما قال يجزيه كذلك في الدنيا عميً عن الحق، وبعدًا عن التصديق به ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وفي الحديث: «إنّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» [٥٥١].

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي أفلم يتبين للكفار بمكة كم أهلكنا قبلهم من الأمم المكذبين بالرسل ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي كانت قريش تتجر وترى مساكن عاد وثمود وفيها علامات الهلاك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في مشاهدة تلك الآثار ﴿لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لأولي العقول المتَّعظة.

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ولولا أنّ الله قدّر في سابق علمه الأول أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لكان العذاب لازمًا لهم في الدنيا ولفوجئوا به بغتة، ولكن قدر الله تعالى أن يؤجلهم إلى أجل مسمى.

(١٣٠) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي من تكذيبك من قبلهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ والمراد الصلوات الخمس كما يفيد قوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي صلاة العصر؛ كما في الصحيحين: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية [٥٥٢]. ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي وفي ساعات الليل فصلِّ، وحمله آخرون على صلاتي المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي صلاة الظهر لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي ترضى ثواب ربك الذي أعده الله لك والذي سيعطيكه. وفي الحديث: «يقول الله تعالى: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: إني أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» [٥٥٣].

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي ولا تطيلن النظر إلى ما أعطينا هؤلاء المترفين من النعيم؛ فإنها زهرة زائلة ذابلة لنختبرهم بها أعطيناهم ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي ورزقه المدَّخر لك من قبل الله تعالى يوم القيامة في الجنة خير مما عند أولئك وأبقى لأنه نعيم خالد لا يزول.

(١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي وأمر قومك ومن على دينك بالصلاة ويدخل في هذا أهل بيته ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي على الصلاة ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي لا نطلب أن ترزق نفسك أو غيرك فنحن نرزقك وإياهم ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي وحسن العاقبة لأهل التقوى المصلين.

(١٣٣) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي بمعجزة دالة على صدقه، فردَّ الله عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ألم يأتهم في القرآن أخبار ما في الكتب الأولى.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبله ﷺ ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ أي لاحتجُّوا وقالوا: هلا أرسلت لنا رسولًا حتى نتبع ما أنزلت عليه من الآيات من قبل أن ينزل بنا عذابك ونذل به ونخزى، ولكن لما جاءهم الرسول كذبوه وعاندوه.

(١٣٥) ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي كل منا ومنكم منتظر ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ أي من هم أصحاب الطريق القويم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي نحن أم أنتم.

آخر تفسير سورة طه ولله الحمد والمنّة

(٢١) سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

مكية وآياتها ١١٢، نزلت بعد إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ أي كادت أن تقوم الساعة وكاد أن يحين للناس أجل حسابهم على ما فعلوا وما قدمت أيديهم، أفلا يتوب الكفار إلى الله تعالى مما جنَوْا فيعملون لآخرتهم ويستعدّون، بل هم في غفلة معرضون عما ينقذهم.

﴿٢﴾ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي ما ينزل عليهم من القرآن من ربّهم محدث أي جديد إنزاله وكلام الله صفة له تعالى أوليّ النوع محدث النزول ونعني (بأوليّ) نسبة لصفة (الأولية) لله تعالى فهو أول وصفاته جميعًا تابعة له تعالى، ولم نستعمل صفة القدم لعدم ثبوتها لله جل وعلا والله ليس قديمًا ولا صفاته قديمة ولا ينسب للقدم؛ لأن القدم صفة المخلوق والله هو الأول فما قبله شيء وهو الآخر فما بعده شيء ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ أي استمعوا القرآن استماعًا بلا فهم ولا تدبر ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي يستمعونه وهم يستهزئون.

﴿٣﴾ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي حين استماعه ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي تناجَى الظالمون أنفسهم فيما بينهم وهم كفار قريش قائلين في سرٍّ: ﴿هَلْ هَٰذَا﴾ يعنون محمدًا ﷺ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي لا يتميز عنكم بشيء ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ أي أفتقبلون السحر ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي أفتسحرون وأنتم هكذا راضون ويتم ذلك تحت سمعكم وبصركم.

﴿٤﴾ ﴿قَالَ﴾ أي محمد ﷺ مجيبًا لهم: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه قول قائل ما في السماء أو في الأرض، أي سمع نجواكم التي تناجيتم بها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لكل ما يقال فهو سميع له وعليم به.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي تارةً يقولون عن القرآن: إنه أضغاث أحلام وهي الأشياء المختلطة تُرى في المنام، وتارة يقولون: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ أي تقوّله على ربه وتارة أخرى يقولون: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي يعنون رسول الله ﷺ ويقولون: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ أي بمعجزة ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ من الرسل قبله.

﴿٦﴾ ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي كل من أهلكنا من أهل القرى الكافرين قبلهم لم يؤمنوا إذ جاءتهم المعجزات ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هؤلاء الكفار من قريش لا يؤمنون أيضًا ولو أنزلنا إليهم المعجزات التي يريدونها.

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ — آياتها ١١٢ — ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ
﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ
الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

٣٢٢

﴿٧﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ يقول تعالى رادًا عليهم إذ أنكروا أن يكون الرسل بشرًا: أنه ما أرسل من قبلك الرسل إلا رجالًا من البشر. وهذا نص في نفي أن تكون الرسل نساءً ﴿نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي لم يكونوا ملائكة بل من البشر كما تحبون أن يكونوا، ومع ذلك ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي أهل الكتابين التوراة والإنجيل ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فسيجيبونكم بأنَّ رسلهم بشر أيضًا.

﴿٨﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي بل كانوا أجسادًا يأكلون الطعام لا أجسادًا بلا أرواح ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ بل يموتون.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي بإنجائهم وإهلاك مكذبيهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ وهم مصدقوهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المكذبين المشركين.

﴿١٠﴾ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ أي هذا القرآن هو آخر الكتب وهو بلغتكم ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيه شرف لكم لأنه نزل بلغتكم وأنزل على رجل منكم يبلغكم أمر دينكم، ويذكركم بما يعود عليكم بالخير، وينفركم من الشر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتكم به، وما يعود عليكم من الخير والنفع.

القرآن أوليّ النوع مُحدث التنزيل وليس القدم صفة لله ولا الكتاب

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

هل آلهتهم تحيي الموتى حتى اتخذوها أندادًا لله؟! جميع الرسالات دعت إلى التوحيد

(١١) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي من أهل قرية كانوا ظالمين أي كافرين بالله مكذبين بآياته، والقصم: كسر الشيء ودقُّه فقد قصمهم الله فدقهم دقًّا أي أهلكهم واستأصلهم ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي أمة أخرى بعدهم أحدثناها بعد إهلاك أهلها.

(١٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ أي تيقنوا من وقوع العذاب بهم ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ أي من قراهم ﴿يَرْكُضُونَ﴾ أي يهربون منها راكضين بدوابهم.

(١٣) ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي قيل لهم لا تركضوا هاربين من العذاب استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ أي لا تفرّوا من مساكنكم التي كانت لكم وارجعوا إليها وإلى ترفكم الذي كنتم فيه وهذا استهزاء بهم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن ترفكم وقتل نبيكم!!!.

(١٤) ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي كنا ظالمي أنفسنا بكفرنا وتكذيب نبينا، قالوا ذلك لما قالت الملائكة لهم: (لا تركضوا) أي إلى أين المفر؟ فاعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف شيئًا.

(١٥) ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي قولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين أي ما زالت تلك مقالتهم يرددونها ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي حتى حصدناهم حصدًا، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا لا حراك بعده بما جنت أيديهم.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي لم نخلقهما عبثًا ولا باطلًا بل بالعدل والقسط ليجزي كلًّا بعمله والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها.

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ اللهو بلسان أهل اليمن: المرأة. والمراد باللهو هاهنا الولد، وهذا والذي قبله متلازمان لاتخذناه من الحور العين أي مما عندنا من المخلوقات كالحور العين ولكن الله منزه عن اتخاذ الولد والصاحبة مطلقًا ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي إن كنا ممن يفعل ذلك.

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي بل نسلط الحق وهو القرآن على الباطل وهو كذبهم أي يكسره فإذا هو زائل ذاهب، أي نبطل كذبهم بما نبيّن من الحق حتى يضمحلَّ الباطل ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ أيها القائلون إنَّ لله ولدًا ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي تفترون وتقولون مالا تعلمون.

(١٩) ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا وملكًا وهو مالكهم ورازقهم، فكيف يمكن أن يكون له منهم شركاء ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ يعني الملائكة ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يملّون عبادته.

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يتوقفون أيّة فترة بل يسبحون بحمده ليلًا ونهارًا دائبون في عبادتهم مفطورون على الطاعة المطلقة.

(٢١) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي أهم يحيون الموتى؟ أهم ينشرونهم من الأرض؟ أي ليست آلهتهم كذلك ولا يقدرون على شيء من هذا؛ فكيف إذًا جعلوها آلهةً واتخذوها أندادًا لله وعبدوها معه وهم يعلمون؟.

(٢٢) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ﴾ متعددة ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ما سوى الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي لفسدت السماء والأرض ولاستقلَّ كل إله بمن خلق وتنافسا ولعلا بعضهم على بعض ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزّه الله عما يصفه به المشركون.

(٢٣) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي لا يفعل إلَّا خيرًا فلا يسأل لم فعلت الخير، ولا يفعل شرّا قط فلا يسأل عن شيء لم يفعله: لِمَ لَمْ تفعله؟ وسواه يسأل عما يفعل.

(٢٤) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ولن تستطيعوا ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يعني أمتي وهو القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ أي من الأمم وهو الكتب السماوية المتقدمة فهي تنكر ما تقولونه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه لأن الإنسان عدوُّ ما يجهل.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ
بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ
جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ
ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ
ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

٣٢٤

(٢٥) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي إن كل رسول من قبلك أوحي إليه بأن لا إله إلا الله ويكلّف من قبل الله تعالى أن يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة.

(٢٦) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ أي تنزه وتعالى وتقدس أن يكون له ولد من الملائكة ﴿بَلۡ﴾ هم ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي كرّمهم الله بالطاعة المحضة.

(٢٧) ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا يتقدّمون بين يديه بأمر بل يبادرون إلى فعل أوامره، وهو محيط بهم ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أي مطيعون كل الطاعة.

(٢٨) ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي ما عملوا ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي وما سيعملون ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ أي لا يتقدّمون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ أي من خشيتهم منه خائفون وجلون، يرتعدون. والخشية: الخوف مع التعظيم، والإشفاق: الخوف مع الحذر.

(٢٩) ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي وإن كل من ادعى منهم أنه إله مع الله ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي نجزي كل من قال ذلك وندخله جهنم، وهذا على سبيل الفرض والتقدير وإلا فإن الشرط لا يلزم وقوعه لا سيما وإن الملائكة معصومون من الذنوب وبخاصة ادعاء الألوهية بل هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل هذا نجزي المشركين.

(٣٠) ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ أي أنهما كانتا ملتصقتين ففتقهما فجعل من الأولى سبع سموات ومن الأخرى سبع أرضين ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال قلت: أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة. قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام»[1] رواه أحمد [٥٥٤]. ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عيانًا وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المطلق.

(٣١) ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ أي جبالًا ثوابت أرسى الله الأرض بها وقرّرها وثقّلها لئلا تميد بهم أي تضطرب وتتحرّك بالناس فلا يحصل لهم قرار عليها ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾ أي في الجبال مسالك وثغورًا يسلكون فيها طرقًا من قُطرٍ إلى قُطرٍ ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ إلى مصالح معاشهم وحاجاتهم التي يحتاجون إليها في حياتهم الدنيا.

(٣٢) ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ أي هي للأرض كالسقف محفوظًا بالشهب من أن تنفذ إليها الشياطين ﴿وَهُمۡ﴾ أي مشركو مكة ﴿عَنۡ ءَايَٰتِهَا﴾ أي شمسها وقمرها ونجومها وكواكبها الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق في السماوات، ولا يتعظون.

(٣٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ أي يدورون كما يدور المغزل في الفلكة.

(٣٤) ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ﴾ أي ما جعلنا يا محمد لبشر من قبلك الخلود في الحياة الدنيا فلا يموت أبدًا وفي هذا دليل واضح على بطلان قول من يقول: إنَّ الخضر والياس عليهما السلام حيان إلى الآن ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ لا بل الجميع ميتون فانون.

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ لا بد لكل نفس أن تموت ولن يخلد أحد ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ أي نختبركم بما تحبون لننظر كيف شكركم، وبما تكرهون لننظر كيف صبركم، وهو في الحالين أعلم بهم، وبأحوالهم، قبل الاختبار ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ فنجازيكم بما تستحقون.

(١) إسناده ضعيف.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ
هُمۡ كَٰفِرُونَ (٣٦) خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ
ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ
بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ (٤١) قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ
ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ (٤٢) أَمۡ
لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ
أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ (٤٣) بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي
ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤)

٣٢٥

(٣٦) ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك المشركون ما يتخذونك إلا مهزوءًا بك ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي أهذا الذي يسبُّ آلهتكم ويسفِّه أحلامكم ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي ويكفرون بالله وبما أنزله رحمةً لهم.

(٣٧) ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ أي جعل لفرط استعجاله كأنه خلق من العجل، ونزلت في قريش لأنها استعجلت العذاب لما قال النضر بن الحارث: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ... ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ أي سأريكم نقمي كيف أحلها بكم فلا تستعجلوني.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي يستعجل المشركون إيقاع العذاب بهم تكذيبًا وجحودًا وعنادًا ويقولون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ...﴾.

(٣٩) ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي حين لا يستطيعون أن يردوا النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم، أجل لو تيقنوا ذلك وأنهم لا ناصر ينصرهم من الله لما استعجلوا العذاب ولا كفروا ولا كذبوا ولكنهم استبعدوا وقوعه وكذبوا به فحاق بهم ما كانوا يكذبون.

(٤٠) ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم﴾ النار ﴿بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ أي فجأة فتذعرهم ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يستطيعون صرفها عنهم، ولا يمهلون لتوبة واعتذار.

(٤١) ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي ما أنت يا محمد أول رسول استهزأ به قومه فإن سائر الرسل الذين أرسلوا قبلك استهزئ بهم كذلك وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ أي حاق بالكفار قبل قومك الذين استهزأوا بأنبيائهم ورسلهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي فأحاط بهم جزاء الذي كانوا يستحقونه على فعلهم من السخرية والتكذيب والتحدي وكذلك فإن قريشًا سيحلُّ بهم ما حل بأسلافهم المستهزئين، فاصبر كما صبر الرسل قبلك حتى يأتيك نصر الله عليهم، ثم شرع سبحانه وتعالى بتذكير كفار قريش بنعمه التي لا تحصى لعلهم يتذكرونها بعد نسيان فيعودوا إلى الحق.

(٤٢) ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم﴾ أي من يحفظكم ويحرسكم ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة؟ أي لا أحد يحفظكم منه ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي عن كلامه ومواعظه معرضون فلا يذكرونه ولا يخطرونه ببالهم بل يعرضون عنه وينفرون.

(٤٣) ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي أم لهم آلهة سوانا ترد عنهم بطشنا؟ ثم وصف آلهتهم بأنهم ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي هؤلاء الآلهة التي يزعمون أنها تحميهم وتمنعهم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن أن يستطيعوا نصر غيرهم ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ أي ولا هم منَّا يجارون أي لا يجيرهم من عذابنا أحد لأن المجير صاحب الجار، والعرب تقول: صحبك الله أي أجارك، ثم بين تعالى أن اغترار قريش بإمهاله لهم هو الذي حملهم على أن يعتقدوا أنهم على شيء، وظنوا أن الضلال الذي هم عليه هو الحق فتمادوا فيه!!! ولم يدروا أن هذا إمهال لا إهمال وأنَّ هذا الرزق وإطالة العمر بالنعم إنما هو استدراج لهم فلا يمنعهم منه أحد ولهذا قال:

(٤٤) ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كفار مكة بما أنعم عليهم ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ من قبل كذلك ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ بهذه النعم الوافرة، ثم وعظهم فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآ﴾ أفلا يعتبرون بأنا ننقص أرضهم بالظهور عليها فنفتحها بلدًا بلدًا ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أم المسلمون هم الغالبون؟.

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ
﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

٣٢٦

(٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أي إن ما أنذرتكم به إنما هو الوحي من الله تعالى ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي من أصم الله سمعه، وختم على قلبه فجعله مغلق الفهم، وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء ولا يجدي الإنذار بالعذاب مَنْ أعمى الله بصيرته.

(٤٦) ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي ولئن مسَّهم شيء قليل من العذاب يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين لها باختيارهم الشرك على التوحيد والكفر على الإيمان والضلال على الهدى.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي نضع الموازين التي تزن بالعدل ليوم القيامة، والميزان واحد، إنما جمع لتعدد الأعمال الموزونة فيه ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وزن حبة من خردل ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي أحضرنا هذه الحبة من الخردل، وجئنا بها للمجازاة عليها وبها ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أي محصين. وفي الحديث: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلًا كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظَلَمكَ كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب قال: أفلك عذر أو حسنة قال: فبهت الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. قال: ولا يثقل شيء مع لا إله إلا الله» [٥٥٥].

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني التوراة لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام ﴿وَضِيَآءً﴾ أي إنهم استضاءوا بها في ظلمات الغواية ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي عظة لهم.

(٤٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي يخشون عذابه دون أن يروه تعالى وهم خائفون من القيامة.

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ ويعني به هذا القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي على عبدنا محمد ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي أتنكرونه وهو جليٌّ واضح.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ بأنه أهل لذلك والله أعلم حيث يجعل رسالته، وقد ألهمه الحق والحجة على قومه منذ صغره.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهذا نص في أن قوله موجه لأبيه لا لعمه كما يزعم «البعض!!» ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ أي كانت دعوته لأبيه خاصة ولقومه عامة ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فقد أنكر على قومه منذ صغره عبادة الأصنام وهذا هو الرشد أوتيه وكان بعد صغيرًا ودعاهم إلى عبادة الله وحده.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ وهذه حجة المشركين من أولهم إلى آخرهم يحتجون بفعل آبائهم ولو كان آباؤهم في ضلال مبين.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم عليه السلام: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهكذا فقد أسقط لهم هذه الحجة ودحضها وسفهها.

(٥٥) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ الظاهر أن هذه المناقشة كانت أول نبوته حتى قالوا له: أجادٌّ في قولك أم هازل!!!؟

(٥٦) ﴿قَالَ﴾ أي أجابهم إبراهيم ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي مالكم رب سواه ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي وأنا أشهد أيضًا

(٥٧) ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أي إنني جادٌّ وغير هازل ولا لاعب، لأكيدن أصنامكم وأقسم بالله لأكسرنّها وأحطمنّها لأول فرصة ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وبرّ إبراهيم بقسمه فلما خرجوا لعيدهم انهال على الأصنام بالتكسير، غضبًا للحق، وإزهاقًا للباطل وأهله.

كتب الله واحدة في مبادئها وغاياتها لأن مُنزلها واحد...

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

٣٢٧

لما قذف إبراهيم في النار قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» فجعل الله النار بردا وسلاما

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أي حطامًا متناثرة ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي واستثنى كبير الأصنام وجعل الفأس في عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ بالتهمة.

(٥٩) ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي في صنيعه هذا فكيف يجرؤ أحد على تكسيرها وتحطيمها على هذا الشكل الشنيع المريع!

(٦٠) ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي سمعنا شابًا يذكرهم بسوء، وهذا القائل هو الذي سمع إبراهيم يقول: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ فجاء يخبرهم بما سمع وإن هذا الفتى الشاب يقال له أي يسمى إبراهيم وكلهم يعلم ويعرف هذا الشاب بعداوته للأصنام ودعوته لعبادة الله.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي على مرأى من الناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يرون العقاب الذي سينزل فيه ويكون عبرة لغيره.

(٦٢) ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي أنت الذي حطّمت أصنامنا وفعلت هذه الفعلة النكراء بآلهتنا يا إبراهيم!!!؟

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي الذي تركه ولم يكسره وقال هذا القول ليستخلص منهم إنكارهم أن يكون كبير الأصنام يستطيع ذلك فيلزمهم بالحجة ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وبذلك يعترفون بأنهم لا ينطقون وأنّ هذه الأصنام لا تحمي نفسها فكيف تحمي غيرها!!!؟

(٦٤) ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي فرجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتفطّن بصحة حجة خصمه، المراجع لعقله وانتهوا إلى أن من لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، والإضرار بمن فعل به ما فعله، يستحيل أن يكون مستحقًا للعبادة ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات، وليس الظالم إبراهيم إذ نسبتم إليه الظلم بقولكم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٦٥) ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي انقلبوا على إبراهيم ورجعوا إلى عنادهم ومكابرتهم فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أي إن النطق ليس من شأن هذه الأصنام.

(٦٦) ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي هنا قامت حجة إبراهيم فقال مبكتًا لهم ومزريًا عليهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾.

(٦٧) ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تبًا وقبحًا لكم ولما تعبدون من دونه سبحانه أفلا تدركون ما أنتم فيه من الضلال والكفر. فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ...﴾ [الأنعام: ٨٣].

(٦٨) ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ وهكذا شأن أهل الباطل حين تدحضهم حجة أهل الحق فيلجأون إلى استعمال القوة ليغطوا بها عجزهم عن قرع الحجة بالحجة!! فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا، وأضرموه نارًا لم توقد نار قط مثلها أبدًا وقذفوا إبراهيم فيها وما كان قوله إلا ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(٦٩) ﴿قُلْنَا﴾ أي قال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ أي كوني ذات برد وسلام ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي حتى لا يؤذيه بردها فكانت سلامًا.

(٧٠) ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي أراد النمرود وقومه بإبراهيم كيدًا يكيدونه فيه فيقتلونه ويحرقونه بالنار، ولكن الله سبحانه نصر عبده عليهم بإنجائه من النار وجعلهم الأخسرين المغلوبين الأسفلين المرذولين وأنقذ نبيه ورسوله ونصره وأعزّه.

(٧١) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ أي نجاه الله من النار، ثم تزوج ابنة عمه سارة وخرج بها مهاجرًا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها فسكن فيها ثم التحق به ابن أخيه لوط عليه السلام مؤمنًا به وسكن بلاد سدوم ثم بعث رسولًا لأهلها.

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ النافلة ولد الولد يعني أن يعقوب ولد إسحق ﴿وَكُلًّا﴾ أي الجميع ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي أهل خير وصلاح.

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي أئمة يقتدى بهم ويدعون إلى الله بإذنه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ...﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي أن يفعلوا الخيرات أي بشرائع النبوات ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي فاعلين لما يأمرون الناس به بأن يقيموا الصلاة ويؤدوها ويعطوا زكاة أموالهم لمستحقيها ويفردوا الله وحده بالعبادة لا شريك له.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي بعثه نبيًا رسولًا إلى سدوم وأعمالها ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: يأتون الرجال شهوة دون النساء فنهاهم عن ذلك فخالفوه وكذبوه فأهلكهم الله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعته.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي بإنجائنا إياه من القوم الفاسقين ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى أي الرحمة والسعادة.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم وبنيه فقد نادى أي دعا دعاءه المعروف على قومه بالهلاك ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي فاستجبنا دعاءه بإهلاكهم ونجيناه وقومه المؤمنين ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي من الشدة والتكذيب والإيذاء فقد عاش ألف سنة بينهم إلا خمسين عامًا ما كان فيها إلا هدفًا لشدتهم وتكذيبهم وإيذائهم.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي ونجيناه منتصرًا على القوم المكذبين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لم نترك منهم أحدًا صغيرًا أو كبيرًا بسبب إصرارهم على الذنب.

(٧٨) ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ وكان ذلك الحرث كرمًا قد تدلت عناقيده ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي أفسدته، فحكم داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي لحكمهما وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين.

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي الحكومة التي حكم بها سليمان كانت بوحي من الله تعالى ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهكذا فقد أثنى الله على سليمان ولم يذمّ داود أي كلًا أعطيناه علمًا كثيرًا، ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك ذكر ما يختص بكل واحد منهما فبدأ بداود فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ أي تسبيحًا حقيقيًا ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

أي وكذلك الطير يسبحن مع داود ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ للتفهيم وإيتاء الحكم والتسخير، وقد مرَّ ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان صوته طيبًا جدًا فوقف واستمع لقراءته وقال: «لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود» قال: يا رسول الله لو علمتُ أنك تستمع لحبرته لك تحبيرًا [٥٥٦].

(٨٠) ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي صنعة الدروع ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتقيكم ضرب السيوف وطعن الرماح في الحرب ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه هذه الصنعة المتقنة من أجلكم حتى تتحصنوا بها من عدوكم في القتال.

(٨١) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ يعني بأمر سليمان تمتثل أمره بإذن الله ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي بتدبير كل شيء، ويقال: إنه كان لسليمان عليه السلام بساط يوضع عليه ما يحتاج من أمور المملكة ثم تحمله الريح وتظلله الطير تقيه حيث يشاء من الأرض. كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

هجرة إبراهيم من العراق إلى فلسطين، صحح الله حكم داود بما أفهمه لسليمان من الحكم

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا
دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ
وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ
فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي
كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ
مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا
لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

٣٢٩

(٨٢) ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار يستخرجون منه ما يأمرهم باستخراجه من الجواهر واللآلئ وما يشبه ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ من بناء المساجد والأبنية وغير ذلك مما يشتهيه ويأمرهم به ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي يحرسه الله من أن يناله أحد من الشياطين بسوء وكان حاكمًا فيهم.

(٨٣) ﴿وَأَيُّوبَ﴾ أي النبي أيوب عليه السلام ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي واذكر أيوب حين نادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وكان عليه السلام أصابه من البلاء في ماله وولده ومنازله، فذهب كل ذلك عن آخره، ثم ابتلي في جسده بالجذام سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله تعالى، وفي الحديث: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل» [٥٥٧] فكان أيوب عليه السلام في منتهى ما يستطيعه الإنسان من الصبر، وبصبره صار يضرب المثل وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ لا ينافي الصبر لأن الشكوى إلى الله، وإنما المذموم من الشكوى أن تكون إلى الخلق لا إلى الخالق، فالصابر هو الذي لا يشتكي إلا إلى الله.

(٨٤) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي لما اشتكى إلى الله وحده وتوسل باسم من أسمائه تعالى وهو ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ أي أذهبنا ما به من مرض ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ وكان قد مات أهله جميعًا إلا امرأته فعوضه عنهم مثلهم في الدنيا ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من عندنا ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي عظة واعتبارًا لكل من يصاب ببلاء، وليذكر: أن الله تعالى قد أصاب أيوب بأكثر مما أُصِبْتُ وهو خير مني.

(٨٥) ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ أما إسماعيل وإدريس فهما نبيان رسولان أما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي على طاعة الله سبحانه، وترك معاصيه وما زجر عن فعله.

(٨٦) ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآ﴾ أي في الجنة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين أدخلهم الله برحمته بصبرهم وصلاحهم.

(٨٧) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ هو يونس بن متى عليه السلام نبي الأشوريين بمدينة نينوى بالموصل، وذا النون لقبه أي صاحب الحوت أي واذكر عبدنا ذا النون بالذكر الجميل والثناء الحسن ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ أي ترك قومه غضبًا منهم لأنهم لم يستجيبوا لما دعاهم إليه من الإيمان، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، ثم خرج من بين أظهرهم حانقًا عليهم، فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم وخافوا الغرق فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم ليخف حمل السفينة فوقعت القرعة عليه ثلاثًا فتجرد من ثيابه وألقى نفسه في البحر ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي لما ألقى نفسه في البحر التقمه الحوت. (ظن) بمعنى تحقق أن الله تعالى لن يضيق عليه في بطن الحوت ولن يقدر عليه الموت، وهذا حسن ظن منه بالله تعالى وسينجيه كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير لا بمعنى القدرة فإن العرب تقول: قَدَرَ وقدَّر بمعنى واحد ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمة بطن الحوت وظلمة الليل وظلمة البحر ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي الحديث: «دعوة ذي النون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربَّه في شيء قط إلا استجاب له» حديث حسن [٥٥٨].

(٨٨) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ الذي كان فيه أي في بطن الحوت، هذا عندما توسل إلى الله تعالى بكلمة التوحيد الطيبة، وباعترافه بذنبه، وتوبته من خطيئته ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إذا دعونا منيبين.

(٨٩) ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي لا تذرني فردًا ولا ولد لي ولا وارث بعدي في الدعوة متوسلًا باسمه: خير الوارثين.

(٩٠) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ أي من العقر فولدت. ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي من ذكرنا من الأنبياء ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي الطاعات ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ أي رغبًا في الجنة ورهبًا من النار ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي متذللين له سبحانه فيجب أن يكون حال المؤمن دومًا بين الخوف والرجاء.

(٩١) ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يذكر الله قصة مريم وابنها عليهما السلام وهي إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر مقرونة بقصة زكريا وابنه عليهما السلام وهي إيجاد ولد من شيخين طاعنين في السن ولا شك أن قصة مريم أعجب فقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الدنس وهي مريم ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أضاف سبحانه الروح إليه بينما النافخ هو الملك أي أمرنا جبريل أن ينفخ فيها كلمة (كن) فكان عيسى وليس عيسى هو كلمة (كن)، بل كان بكلمة (كن)، وهذا واضح في قوله تعالى في سورة آل عمران (٥٩): ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وبهذا يكون معنى (روحنا) أي أمرنا وبهذا أيضًا نقطع الطريق على من يستدل بهذه الآية على أن عيسى حل فيه شيء من الله تعالى الله وتقدس عن ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي مريم وابنها عيسى ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي لما كان شأنهما واحدًا، كانت الآية فيهما آية واحدة، وهي ولادة أنثى من غير فحل.

(٩٢) ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ و(هذه) اسم إنَّ، و(أمتكم) خبر إنَّ. أي لما ذكر الأنبياء أراد أن يبين أنهم كلهم أمة واحدة وعلى شريعة واحدة ونصبت أمة على الحال ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي وحدوني وأفردوني فلا إله بحق في الأرض ولا في السماء إلا أنا.

(٩٣) ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلهم فهذا مصدق وهذا مكذب ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ وسيحاسبون يوم القيامة كل بحسب عمله إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر ولا يظلم أحد.

(٩٤) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته وكتبه، ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره لأن الإيمان شرط لقبول العمل ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا يضيع الله أجرًا قط فلا يظلم مثقال ذرة ولا يجحد عمله ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي لسعيه حافظون.

(٩٥) ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي أهلكنا أهلها ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا أي لا يمكن رجوعهم بعد إهلاكهم.

(٩٦) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي فتح السد عنهم وهم قبيلتان من الإنس، يقال: إنهما من سلالة نوح من أولاد يافث أبي الترك ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي من كل مرتفع يسرعون ويعيثون في الأرض فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل.

(٩٧) ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني موعد يوم القيامة، فإذا حصلت هذه الأهوال والزلازل أزفت الساعة واقتربت ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من شدة هذه الأهوال العظيمة، وتصبح الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولد ليلًا أو نهارًا ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي يقولون يا ويلتنا من هذا المصير المحتوم

الجزء السابع عشر | سورة الأنبياء

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ
هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

٣٣٠

المشؤوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي كنا ظالمين أنفسنا بعدم اتباع الرسل ولا ينفع الندم.

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا خطاب لأهل مكة من المشركين ومن دان بدينهم من عبدة الأوثان، أي أنتم والذين تعبدون من دون الله برضاه ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي وقودها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي داخلون فيها وخالدون لا تخرجون منها.

(٩٩) ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ﴾ المعبودون ﴿آلِهَةً﴾ أي حقًا آلهة ﴿مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ما دخلوا النار وخلدوا فيها مع عابديهم.

(١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ الزفير خروج النفس والشهيق دخوله والمعنى أن هؤلاء الذين دخلوا النار أنينًا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لشدة غليان جهنم.

(١٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي أحسن الخصال وهي السعادة والتوفيق والرحمة من الله تعالى. فهؤلاء الذين يحملون هذه الخصال الحميدة والموصوفون بتلك الصفات ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي مبعدون عن النار وأهوالها لأنهم قد صاروا في الجنة بسبب إيمانهم بالله ورسوله وما أسلفوا من الأعمال الصالحة في الدنيا. فكما أحسنوا في العمل في الدنيا، أحسن الله لهم الثواب في الآخرة، ونجاهم من العذاب الأليم.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا
لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ
رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الحَجِّ — ترتيبها ٢٢ — آياتها ٧٨

٣٣١

﴿١٠٢﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي لا يسمعون حركتها ولا صوت حريقها في الأجساد إذا نزلوا منازلهم في الجنة ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ فسلموا من المحذور، وحصل لهم المطلوب، فأولئك يمرون على الصراط مرًّا هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثيًا وخرج بذلك من عُبدَ بغير رضاه كالملائكة والعزير وعيسى ابن مريم وغيرهم ممن عُبِدُوا وهم غير راضين ويبرأون إلى الله تعالى من ذلك؛ ولهذا فقد عرَّف العلماء الطاغوت: هو كل ما عبد من دون الله برضاه ولا يجوز أن نقول كما قال البعض!!! (الطاغوت طاغوتان: طاغوت برضاه وطاغوت بدون رضاه)؛ لأن الطاغوت صفة ذم لا يجوز أن تلصق بمن يعبد بدون رضاه.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي حين النفخة الآخرة عندما يقوم الناس من قبورهم وهذا أصح الأقوال ويدل على صحته قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مبشرين ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي كان الله يعدكم به لتنالوا فيه ما يسركم في جنة عرضها السماوات والأرض.

﴿١٠٤﴾ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي يوم نطوي السماء كما يطوى السجل على الكتاب بمعنى المكتوب وفي الحديث: أن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه[1] البخاري [٥٥٩].

(١) وكلتا يديه يمين.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم، وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلًا كذلك نعيدهم يوم القيامة. وفي الحديث: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا كما خلقوا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» أخرجاه [٥٦٠]. فكما بدأهم من العدم هو أقدر على إعادتهم من وجود ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي إن إعادتهم أمر كائن لا محالة وإنا كنا قادرين على فعل ما وعدناكم به.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ الزبور هو الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام، ولكن معنى الزبور ههنا هو جميع الكتب التي نزلت على الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، والذكر ههنا أم الكتاب الذي عند الله تعالى والمعنى لقد كتبنا أي أنزلنا في جميع الكتب والصحف التي نزلت على الأنبياء من التوراة والزبور والإنجيل والقرآن وفي الصحف الأولى من بعد أم الكتاب: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ من كل الأمم المؤمنة بالله تعالى فإنه سبحانه يكفل لهم السعادة والمجد والحكم والفتح في الدنيا، أما في الآخرة فيورثهم أرض الجنة وما فيها من النعيم المقيم.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي هذا القرآن ﴿لَبَلَاغًا﴾ أي كفاية ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي عابدين الله بما شرع لهم وأطاعوه.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي يا محمد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فمن قبل هذه الرحمة سعد في الدارين ومن جحد خسر الدارين، وفي الحديث: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعّانًا وإنما بعثت رحمة» [٥٦١] فمن بعث رحمة للعالمين فهو لا شك أفضلهم عند الله وأعظمهم.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي معبودكم هو واحد وهو الذي خلقكم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي متبعون مستسلمون؟

﴿١٠٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا ولم يؤمنوا ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي أعلمتكم بأنني وإياكم على حرب ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ بعذابكم.

﴿١١٠﴾ ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي إنه سبحانه يعلم ما تجهرون به لرسوله ﷺ «متى هذا الوعد» وما تسرون من استبعادكم للعذاب.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ وما أدري ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي لعل تأخير العذاب عنكم فتنة لكم ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تستمتعون بالحياة إلى أجل مسمى.

﴿١١٢﴾ ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بما يستحقون من العذاب؛ فحكم عليهم بالقتل في يوم بدر، وفيما بعده من الأيام. والمعنى على هذا: أي افصل بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ﴾ هو وحده ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ أي الذي أستعين به ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي على ما تفترون.

آخر تفسير سورة الأنبياء ولله الحمد والمنّة

(٢٢) سُورَةُ الحَجّ

مدنية إلا الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥ فبين مكة والمدينة، وآياتها ٧٨، نزلت بعد النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحزب ٣٤

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ
عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ
سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ
﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ
وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي
رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ
وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن
بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

٣٣٢

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي احذروا عقابه وخافوه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلة شدة الحركة أي هي أمر عظيم، وخطب جليل، وحادث هائل، ويحصل فيها للناس رعب مريع وفزع أكبر وتكون قبيل القيامة، ومعنى شيء عظيم أي شيء لا يوصف لعظمه وكبير شأنه.

(٢) ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ يعني الزلزلة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها وهو وليدها ورضيعها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ أي ترى الناس سكارى من شدة الخوف والهلع وما هم بسكارى من الشراب ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ أي خوفهم من عذاب الله تعالى أدهش نفوسهم وأذهل عقولهم فيبدون وكأنهم سكارى.

(٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث فإنه كان كلما نزل شيء من القرآن كذبه. وإنها وإن تكن قد نزلت فيه فإنَّ حكمها باقٍ يشمل كلَّ من كان حاله كحاله أو ما يشبهه فإن كل هؤلاء يجادلون بغير علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أي متمرد على الله تعالى وهو العاتي من شياطين الإنس والجن الذين يعيثون فسادًا.

(٤) ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي على كل من يجادل في الله أي في شأنه وقدرته سبحانه وتعالى بغير علم ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي كل من يتولى كلًّا من هؤلاء الشياطين ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن طريق الحق في الدنيا ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ أي يقوده في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي إلى عذاب جهنم التي لا يطاق حرها، ولا تحتمل نارها، ولا يقوى مخلوق على ألمها. وبعد أن قدم الله هذه المقدمة من هذه السورة قال:

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ عامة، وخاصة منهم أهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ أي إن كنتم في شكٍّ من بعث الأجساد بعد فنائها في القبور، أي منكرين للمعاد وقيام الأرواح في الأجساد ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي كان خلق آدم من تراب ثم تناسلتم منه. أي إن كنتم في شكٍّ من بعثكم فتدبَّروا أمر خلقكم أول مرة كيف جعل الله من آدم سلالة من ماء مهين ولذا قال تعالى ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من منيّ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وذلك إنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يومًا ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث أيضًا أربعين يومًا ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي وهي قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ الماضغ مشكّلة مستبينة الخلق أي رأس ويدين وصدر وبطن وفخذين ورجلين وتارة غير مشكلة فتسقطها المرأة قبل التشكيل وذلك ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي لنبرهن لكم أن البعث حق ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي نقر في الأرحام ما قدرنا أن يبقى فيها إلى وقت معلوم أي تسعة أشهر ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ عند الولادة ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي يتكامل شبابكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي حال شبابه وقوته ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الشيخوخة والهرم والخرف، ولهذا قال سبحانه ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي ينسى ما علم من الكبر والخرف ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي أتى الله بدليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة أي القاحلة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات وفنون الثمار ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من كل جنس حسن يبهج النفوس.

أطوار خلق الإنسان والنبات دليل من الله تعالى على القدرة والبعث بعد الموت

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي
ٱلْقُبُورِ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي
ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُواْ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ (١٣)
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ
يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥)

(٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي ذكر سابقًا، من بدء خلق الإنسان إلى إحياء الأرض بعد موتها هو الدال دلالة واضحة على أن الذي خلق كل ذلك وهو الله تعالى يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ولا يتخذ أحد من دونه أولياء ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي كما أنه أوجد الخلق من عدم كذلك يستطيع أن يعيد الموتى كما كانوا أحياءً، بل ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء؛ كيف لا وإنه يقول للشيء كن فيكون.

(٧) ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي كائنة لا محالة، ولا شك ولا مرية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي يحييهم من جديد، ومن حديثٍ عن لقيط بن عامر: ... قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادٍ ممحلًا؟» قلت: بلى، قال: «ثم مررت به يهتز خضرًا؟» قلت: بلى، قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه» [٥٦٢].

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي أنه يخاصم في قدرة الله فيزعم أنه غير قادر على البعث، وهذا ما يقوله الدعاة إلى الضلال ورؤوس الكفر والبدعة يجادلون بغير علم ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي بلا بيان ولا حجة ولا عقل صحيح ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى.

(٩) ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ لاوي عنقه معرضًا عن الذكر مستكبرًا عما يدعى إليه من الحق ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي غرضه هو الصد عن سبيل الحق والهدى ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي ذلٌّ وصغار بما يناله من العقوبة المعجَّلة كالقتل كما وقع في بدر ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار المحرقة الخالدة التي لا تطاق ولا تحتمل.

(١٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا العذاب سيكون له ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي يقال له هذا تقريعًا وتوبيخًا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي إنه تعالى لا يعذب عباده بغير ذنب، وإن الله تعالى لا يظلم أحدًا، إنما المذنب هو الذي ظلم نفسه.

(١١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على شكٍّ وقلق وغير يقين، وقيل: على شرط فكان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا، ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولا نتجت خيله قال: هذا دين سوء ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي ارتد كافرًا ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ فلا هو حصل من الدنيا على شيء وأما الآخرة فهو في غاية الشقاء والإهانة لكفره ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الخسارة العظمى، والخيبة الظاهرة.

(١٢) ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ أي من لا يجلب له نفعًا ولا ضررًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق.

(١٣) ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي ضرره في الدنيا ساقه إلى الكفر، وفي الآخرة ساقه إلى النار ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي إن هذا الوثن الذي جرَّه إلى كلِّ هذه النكبات في الدنيا والآخرة، يقول له الذي عَبَدَهُ: بئس الولي أنت وبئس المخالط والمعاشر.

(١٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذا ولما ذكر أهل الضلالة والشقاوة عطف بذكر الأبرار والسعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بالعمل الصالح فقد أورثهم الجنات الخالدات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بحسب حكمته وعدله.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي من كان يظن أن الله لن ينصر محمدًا ﷺ لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي إلى سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي فليختنق به ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي هل يذهب كيده غيظه.

من يعبد الله على شرط خسر خسرانًا ظاهرًا، من يغيظه انتصار محمد ودينه فليشنق نفسه

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ
(١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا
فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ
وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا
أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ
(٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)

ربع الحزب ٣٤ — سجدة

(١٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات ظاهرات الدلالة وهُنَّ حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة التامة، والحجة القاطعة، لا معقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب.

(١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالله وبرسوله وما نزل من الآيات البينات ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ أي عُباد النجوم ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ وهم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ وهم الذين يعبدون النار ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي الذين يعبدون الأصنام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يقضي ويحكم فيما بينهم بأن يدخل الذين آمنوا الجنة، والذين كفروا النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي إنه تعالى شهيد على أفعالهم وأقوالهم وسرائرهم، فإنه سبحانه لا تخفى عليه منهم خافية.

(١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي من الملائكة في أقطار السماوات، ومن في الأرض في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة ﴿وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾ فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أي الحيوانات كلها، وفي الحديث: «نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ ظهور الدواب منابر[1] فربَّ مركوبة خيرٌ، أو أكثر ذكرًا لله تعالى من راكبها» [٥٦٣]. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني الموحدين الذين يسجدون لله عن إيمان ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي لأنهم أبوا السجود لله تعالى فحق عليهم العذاب ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي فمن شاء الله إهانته فلا يستطيع أحد أن يكرمه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي له مشيئته ولا يشاء إلا خيرًا وفي الحديث: «الخير كله بيديك والشر ليس إليك» [٥٦٤]. وفي الحديث أيضًا: «إذا قرأ ابن آدم السجدة، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة. وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» رواه مسلم [٥٦٥].

(١٩) ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ هذه الآية وإن كانت نزلت في حمزة وعلي وعُبيدة من المسلمين وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة من الكافرين؛ فلا يمنع أن تكون عامة في المؤمنين والكافرين، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرين يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي فصلت لهم ثياب من النار ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي يصب ملائكة العذاب من فوق رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم والعياذ بالله.

(٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي يذاب بذلك الحميم ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، وفي الحديث: «إن الحميم لينصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان»[2] [٥٦٦].

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي يضربون بها فيقع كل عضو حياله.

(٢٢) ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ أي مما هم فيه من الغم ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي إن النار يدفعهم لهبُها وتردهم مقامعها ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي إنهم يهانون بالعذاب قولًا وفعلًا.

(٢٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تترقرق تحت أشجارها وقصورها ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي في أيديهم أساور الذهب واللؤلؤ ولباسهم الحرير إستبرقه وسندسه.

(١) إلى هنا صحيح والشطر الثاني في إسناده ضعف.

(٢) إسناده ضعيف.

ما من مخلوق في الأرض ولا في السموات إلا ويسجد لله تعالى

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ
﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ
وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى
شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ
مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣٣٥

﴿٢٤﴾ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي أرشدوا إلى الكلمة الطيبة وهي: لا إله إلا الله ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو صراط الله الموصل إلى الجنة.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي مع كفرهم يصدون عن دين الله تعالى ويصدون المؤمنين كذلك عن المسجد الحرام يوم الحديبية ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي جعلناه للمقيم والبادي الذي يأتيه من غير أهله سواءً، لا فرق بينهما في السكن فيه، وقد اختُلِفَ في جواز التملك بمكة أي تملك الدور فيها وتوريثها وتأجيرها فذهب بعضهم إلى جواز ذلك كله واحتجوا بحديث أسامة بن زيد: قلت يا رسول الله أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع». ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر» أخرجاه [٥٦٧]. وبثبوت شراء عمر بن الخطاب دارًا من صفوان بن أمية بمكة فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم. وذهب آخرون منهم: إلى أنها لا تملك ولا تؤجّر. وتوسط آخرون فقالوا: تملك وتورّث ولا تؤجّر جمعًا بين الأدلة. والله أعلم ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن عملًا سيئًا في الحرم ليس كعمله في أي مكان دونه والله تعالى يعاقب عليه بما يناسب حرمة الحرم حتى إن مجرد إرادة عمل السوء وإن لم يعمله يجازيه الله عليه. وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب على مجرد الهمّ بالعمل السيء عقابًا يتناسب مع حرمة ذلك المكان المعظم، ولعل هذه الآية مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به نفسها تعظيمًا لحرمة حرمِهِ.

﴿٢٦﴾ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي أرشدنا إبراهيم إلى مكان البيت وأذنّا له ببنائه، ومكنّا له في ذلك بمعرفة ابنه البكر إسماعيل عليهما السلام ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ أي من الشرك ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي الذين يطوفون حوله والذين يصلون إليه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد إشارة إلى هذين الركنين العظيمين من الصلاة ودلالة على عظم شأن هذه العبادة.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي نادِ في الناس داعيًا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا ربِّ كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: نادِ وعلينا البلاغ، فنادى: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجّوه. فكان إبراهيم المنادي والله المبلغ حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسْمَعَ من في الأرحام والأصلاب ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي ركبانًا على الخيول والإبل ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي من كل طريق بعيد ومن سائر جهات الأرض.

﴿٢٨﴾ ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي منافع الدنيا والآخرة أما منافع الدنيا فيما يصيبون الذبائح والتجارات، أما منافع الآخرة فرضوان الله ومغفرته ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ وهي أيام العشر، وفي الحديث: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» [٥٦٨]. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ أي شديد الفقر.

﴿٢٩﴾ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي يضعوا إحرامهم ويغسلوا أوساخهم ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ أي نذور الحج وهداياه ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي طواف الإفاضة.

﴿٣٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذه الطاعات هي من حرمات الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي لا يتعداهن وهن ما وجب القيام بهن وحرم التفريط فيهن فمن راعاهن فله على ذلك الثواب الجليل ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ جميعها بلا استثناء ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مما حرمها الله كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ فقرن الشرك بقول الزور لأن كليهما رجس ونجس.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ
(٣١) ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ
(٣٢) لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ
ٱلۡعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ
ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ
فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ
قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا
رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣٥) وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ
جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا
لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٣٧) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ (٣٨)

٣٣٦

(٣١) ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ أي منحرفين عن الباطل إلى الحق ومخلصين الدين لله وحده لا شريك له ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ أي وإنَّ مثلَ من يشرك بالله تعالى كمن يخرّ من السماء إلى الأرض فيصير إربًا إربًا ثم تهوي فوقه الطير تقطع لحمه بمخالبها ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ أي تقذفه وترمي به في مكان بعيد مهلك، وهذا مثل آخر للمشرك لأنه انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر، وإن بعده عن الله تعالى كبعد ما خرَّ من السماء أو هوت به الريح في مكان بعيد وفي الحديث: إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحًا من هناك، ثم قرأ هذه الآية... [٥٦٩].

(٣٢) ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الذي ذكرناه هو شأن المشرك، أما المؤمن الذي يعظم شعائر الله أي الهدي والأضاحي، فلا يذبحها إلا لوجه الله تعالى؛ لذلك ينبغي أن تستسمن الهدي والأضاحي، وكان الصحابة وقتئذٍ يسمنون هديهم وأضاحيهم وفي الحديث: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن[1] وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء» [٥٧٠]. أما المقابلة فهي التي قطع مقدَّم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها، والشرقاء: ما قطعت أذنها طولًا، وأما الخرقاء: فهي التي خرقت السمة أذنها خرقًا مدورًا والله تعالى أعلم ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ أي تلك الشعائر وتعظيمها ناشئ من أفعال القلوب التقية التي تخشى الله تعالى وتتقصَّى مرضاته.

(٣٣) ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي البدن المعدَّة للهدي والأضاحي لكم فيها منافع: الركوب عليها، وفي لحومها وألبانها وأوبارها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي إلى وقت أن تذبح لوجه الله وهو يوم النحر ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي الكعبة حيث يحل ذبحها إما في مكة أو في منى من يوم النحر إلى نهاية أيام التشريق.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ أي إنَّ ذبح المناسك مشروع في جميع الملل ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ وفي الصحيحين: «أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر ووضع رجله على صفاحهما» [٥٧١]. ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ أي إنَّ معبودكم جميعًا معبود واحد وهو الله تعالى فاستسلموا له بقلوبكم وجوارحكم ولحكمه وطاعته. والمخبتون هم الذين جاء وصفهم في قوله تعالى:

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته أمامهم ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ خوفًا وخشية منه سبحانه ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ من مصائب الدنيا في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بأركانها خضوعًا وخشوعًا لله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ زكواتٍ وصدقاتٍ لوجهه سبحانه، وهذا كله تفسير ووصف للمخبتين. اللهم اجعلنا جميعًا منهم.

(٣٦) ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾ أي إن البُدْن من شعائر الله تُهْدَى إلى بيته الحرام وهي الإبل والبقر، والخير هنا معناه ثواب الآخرة ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ أي سَمُّوا واذبحوها قيامًا على ثلاثةٍ معقولة يدها اليسرى ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ أي ماتت ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ استحبابًا ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ﴾ أي الفقير المتعفف ﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ الذي يتعرض لك ولا يسألك ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ سبحانه وتعالى على ما رزقكم.

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ أي إن هذه الأضاحي والهدايا لا ينال الله منها شيء من لحومها ولا من دمائها فإنه تعالى هو الغني عما سواه، ولكن يناله التقوى والعمل الصالح منكم ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ لدينه وشرعه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عملهم لوجهه تعالى.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ به وأنابوا إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ أي لا يحب كل من خان العهود وجحد النعم ولم يعترف بها.

(١) إلى هنا حسن، وشطره الثاني ضعيف.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ
كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ وهذه أول آية نزلت في القتال، ذلك بأن مشركي مكة كثرت أذيتهم لرسول الله ﷺ، وأصحابه ﵃ الذين شكوا إليه ما يلقونه منهم فقال: «اصبروا فإني لم أؤمَرْ بالقتال» [٥٧٢]. ولما هاجروا جميعًا إلى المدينة نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وهو قادر على نصرهم بلا قتال، إنما أراد أن يبذلوا جهدهم في طاعته تعالى تحقيقًا لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

(٤٠) ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم محمد ﷺ وأصحابه، أخرجوا من مكة بدون حق ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي إلا من أجل أنهم وحدوا الله تعالى وعبدوه مخلصين له الدين ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي لولا أن شرع الله الجهاد للأنبياء ومن معهم من المؤمنين من أجل قتال أعدائهم المشركين ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ للرهبان ﴿وَبِيَعٌ﴾ أي كنائس للنصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ أي كنائس لليهود ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ أي للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وظاهرٌ بأن المذكورين هم من المؤمنين من الأمم المذكورة الذين يجاهدون في سبيل الله دفاعًا عن دينه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي كتب الله على نفسه أنه لا بد من أن ينصر من ينصرُ دينه ويعلي كلمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فمن يتقوّى به لا يُغلب، ومن يعتزّ به لا ينال حماه أحد، وإنه المنصور وعدوّه المقهور.

(٤١) ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الذين إن نصرناهم على أعدائهم الكافرين ومكنّاهم في الأرض بتأسيس الدولة الربانية، فإنّ عليهم واجباتٍ هي شروط لتمكين الدولة في الأرض وهي قوله: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عليهم وعلى رعيتهم ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أمروا بأدائها لبيت مال المسلمين ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بالإيمان من أعلاه وهو: لا إله إلا الله إلى أدناه وهو إماطة الأذى عن الطريق ﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ابتداءً من الكفر إلى النهي عن أقل بدعةٍ أو معصية، هذه هي شروط التمكين في الأرض، وكل ذلك مسؤول عنه ولي الأمر ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إن خيرًا فخير أو شرًا فشر، فإما عاقبة مرضية عزيزة يكلؤها الله أو عاقبة مرذولة خائبة يلعنها الله، ويستبدل الله أمينًا على الأمة خيرًا من هذا الذي خان الأمانة وغشّ الأمة.

(٤٢) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد فلا تبتئس ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ وهذه تسلية كريمة من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ كيلا يبتئس.

(٤٣) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ كذلك فقد كذّبهما قومهما.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ أي قوم شعيب كذلك كذّبوا شعيبًا ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ من قِبَلِ فرعونَ وقومِه ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أخّرتهم واستدرجتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت جميع هؤلاء بالعذاب أخذًا وبيلًا ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف كان انتقامي منهم، وكيف كان إنكاري عليهم وعلى ما فعلوه من التكذيب والجحود والعناد، وما أوقعت فيهم من العذاب الشديد.

(٤٥) ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وكم من أهل قرية ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي سقطت سقوفها وانهارت بمن فيها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ وكم من بئر لا يُستَقَى منها، وكم من قصر منيع لم يمنع أهله بأس الله.

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أهل مكة فيعتبروا بآثار الماضين من المعذبين ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ لأن مركز العقل هو القلب ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي أخبار ما حلّ بالمكذبين من النكال فيسمعون الأخبار ويرون الآثار ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي ليس العمى عمى الأعين ولكنه عمى البصيرة والعقول التي في الصدور.

(٤٧) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يا محمد تحديًا واستكبارًا ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي بإنزال العذاب بهؤلاء المكذبين: في الدنيا بنصر المسلمين على أعداء الله كما حصل في بدر، وفي الآخرة بالانتقام لأوليائه من أعدائه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي لا يعجل سبحانه فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر وأنه لا يفوته شيء وإن أجّل.

(٤٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين لأنفسهم قد أمهلتهم حينًا واستدرجتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي ثم أخذتها أخذ عزيز مقتدر هي وأهلها. وإن مرجع الجميع إلي، ومصير حكمهم إلى حكمي، ولن يستطيعوا أن يفلتوا من أخذي لهم.

(٤٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة وللناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاتعظوا بما حلّ بمن قبلكم من الأمم وآمنوا بما أدعوكم إليه تفلحوا.

(٥٠) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ برسولي وما أنزلت عليه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خالصة لوجهي وطبق شريعتي ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومضاعفة الحسنة الواحدة إلى حسناتٍ عديدة، ولهم الرزق الخالد في الجنة.

(٥١) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي ظانين أن يعجزوا الله بتثبيط الناس عن متابعة رسوله ﷺ وأن يفوتوا قدرته عليهم فلا يعذبهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي هم أهل النار وأصحابها خالدون فيها أبدًا لا يخفف عنهم العذاب.

(٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي إن كل نبي قبلك تمنى ما تمنيت من إيمان قومك واستجابتهم لرسالتك. فكانوا يتحدثون إليهم كما تتحدث أنت إلى قومك، وتنوع لهم أسباب الهداية فيلقي الشيطان في مسامع قوم ذلك النبي مثل ما ألقي في مسامع قومك حديثًا منه غير قراءتك، فيوهمهم أن ما ألقاه إليهم ليس إلا ما تقرأه عليهم فيوافقونك لا على ما تقرأه عليهم، إنما على ما سمعوه من الشيطان ولا يعلمون إلا أنه حديثك أنت، وهذه الموافقة منهم تظنها أنت أيضًا موافقة لقراءتك عليهم، فتحصل لك أمنيتك التي تمنيت بظاهر هدايتهم، كسجودهم الذي سجدوه في آخر سورة النجم، وذلك لأنك لا تعلم ما ألقى الشيطان في أسماعهم أما الله المطلع على الحقيقة التي وقعت فيعلم ما ألقى الشيطان على مسامعهم من البهتان والضلال، والغي، والخسران المبين، والعياذ بالله. ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي يبطله ويظهره ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ التي أنزلها عليك وبلغتها تامة كاملة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما سيكون وما هو كائن لا تخفى عليه من خلقه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، وقد علل لماذا قدّر ذلك فقال:

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

٣٣٨

(٥٣) ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي المشركون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم اليهود ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في ضلال وعناد وبُعد عن الحق والصواب، فكم نوّع عليه الصلاة والسلام لهم أسباب الهداية فلم يهتدوا، فمكر الله بهم ليزيدهم ضلالًا على ضلالهم جزاءً وفاقًا.

(٥٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي المؤمنون بالله ورسوله الذين يفرقون بين الحق والباطل ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك وقد حرَسَهُ الله من أن يختلط بما ألقاه الشيطان إلى المشركين ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي يزداد المؤمنون إيمانًا به ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخضع وتذل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يتعهد حفظهم من الزلل بسبب إيمانهم ويهديهم جزاء ذلك إلى الصراط المستقيم القائد إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في شك من القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة وهكذا يتبين أن قصة الغرانيق التي يجترّها المستشرقون أعداء الإسلام دائمًا، ويشنشنون بها لا أساس لها من الصحة، وقد رد الله كيدهم في نحورهم.

الرسول معصوم من إمكانية إدخال الشيطان عليه شيئاً غير كلام الله تعالى

ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ
لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ
﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن
دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ
مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

(٥٦) ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أي إن الملك في ذلك اليوم العقيم الذي هو يوم القيامة هو لله وحده لا شريك له لا يملك يومئذ معه أحد ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي يقضي بين عباده بالحق والعدل ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي آمنوا بالله حقًا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خالدين فيها.

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي جحدوا الحق ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بما أنزله على رسله من البينات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ بما استكبروا عن الحق.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أفرد الله تعالى المهاجرين بالذكر تخصيصًا لهم بمزيد الشرف، أي هاجروا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى دار الإسلام تاركين دار الكفر، أو هاجروا للجهاد في سبيل الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ في المعركة ﴿أَوۡ مَاتُواْ﴾ في طريقهم إلى بلد هجرتهم ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ وهو نعيم الجنة الخالد الذي لا يبلى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي يرزق بغير حساب، ولا رازق سواه ولا معطي غيره.

(٥٩) ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾ أي هو الأقرب إلى مطلبهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ أي عليم بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، حليم أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم وجهادهم.

(٦٠) ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي مَن جازى الظالم بمثل ما ظلمه ولم يزد عليه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ أي ظُلِم بإخراجه من منزله ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ على الباغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعًا من المشركين في شهر المحرم فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام ويأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ونصرهم الله عليهم، وإن الله لعفوٌّ عن ذنب قتالهم في الشهر الحرام، غفور لهم لأنهم قاتلوا دفاعًا لا ابتداءً.

(٦١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النصر الذي نصر الله به المسلمين على المشركين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على كل شيء ومن قدرته تعالى أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي تارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بهم لا يخفى عليه منهم خافية.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي ذلك الذي فعل من نصر المؤمنين يدل على أنه تعالى هو الحق، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي كل ما عبد من دونه تعالى فهو الباطل؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا لأحد ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي هو العظيم الذي لا أعظم منه، والكبير الذي لا أكبر منه والعلي الذي لا أعلى منه، عليٌّ بذاته على خلقه بائن عنهم تعالت صفاته وجلت أسماؤه.

(٦٣) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وهذه أيضًا من الأدلة الظاهرة على قدرته تعالى بأنه ينزّل من السماء ماءً أي مطرًا ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها أصبحت بعد المطر ذات خضرة وبهجة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي يصل علمه إلى كل دقيق فيرزق العباد ويخرج النبات ﴿خَبِيرٞ﴾ أي بما في الأرض من حَبٍّ فيوصل إليه الماء مهما كان دقيقًا.

(٦٤) ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي ملكًا وتصرفًا وجميعًا بما فيهما من خلق ... هم عباد له يتصرف فيهم بحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد معه شيء من الملك ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ بذاته عمن سواه فلا يحتاج أحدًا من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومهما أعطى لا ينقص من غناه شيء ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي المحمود في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله لا يحصي العباد ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ
فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ
فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

٣٤٠

(٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذه نعمة أخرى ذكرها الله تعالى فأخبر عباده بأنه سخَّر لهم كلَّ ما في الأرض من حيوان ونبات وجماد وجعل ذلك لمنافعهم ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي سخر لكم السفن تمخر في البحر للركوب والأحمال، والله هو الذي يسَّرها وسيرها بأمره وإذنه سبحانه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي فمن لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تسقط على الأرض، ولو شاء لأذن للسماء أن تقع على الأرض فتهلك بمن فيها ولكن الله سبحانه أخبر ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مع أنهم ظالمون لأنفسهم بعبادة غيره؛ فإنه رؤوف بهم أي كثير الرأفة بهم وعظيم الرحمة بعباده فيهيء لهم كل أسباب الحياة ليعبدوه وحده.

(٦٦) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ من العدم وخلقكم على غير مثال سابق ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي عند انقضاء أعماركم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي يبعثكم يوم القيامة للحساب ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جاحدٌ نِعَمَ الله التي لا تعدُّ ولا تحصى.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي لكل أمة طريق هم سالكوه واعتادوا المضيَّ فيه، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتردد الناس إليها ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ أي المشركون أي لا تتأثر بمنازعتهم لك ومجادلتهم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أي في أمور هذا الدين فقد جادل المشركون رسول الله ﷺ في أمر الذبيحة فقالوا: كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله يعنون الميتة ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى أمر ربك ودينه وشريعته ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي غير زائل عن محجة الحق والصواب في نسكك الذي جعله الله لك ولأمتك فاسلكه رغم مخالفتهم أمر الله الذي أنزله عليك.

(٦٨) ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ أي خاصموك في أمر الذبيحة وسواها ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لهم.

(٦٩) ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي هو الحكم العدل وسيحكم بين المسلمين والكافرين ويقضي ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي من أمر الدين فيظهر حينئذٍ الحق من الباطل، والخطأ من الصواب.

(٧٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قد علمت يا محمد وتيقَّنت أن الله يعلم ما هو موجود في السماء وما في الأرض ومن جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون مع المشركين والمنافقين؛ فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ كتبه عنده، فيه كل شيء، وفي الحديث: «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» [٥٧٣] وفي الحديث: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» [٥٧٤]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي يسير عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء.

(٧١) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي إن حال المشركين أقبح حال وأنه لا مستند لهم على ما يفعلونه من عبادة غير الله، إنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين بدون حجة تدل على صحة فعلهم إلا مجرد تقليدهم ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ليس لهم به علم من الله بل بمجرد الهوى والتقليد الأعمى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب الذي لا يطاق ولا يحتمل.

(٧٢) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي يبين بها الحق من الباطل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ أي يستنكرون ما في آيات الله من الحق، وهكذا شأن أهل البدع في زماننا إذا رأوا ما يخالف بدعهم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي يكادون يبطشون بمن يتلو عليهم آيات الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي من غيظكم على المؤمنين ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئس المقيل فيها والمستقر.

الله الذي سخر لكم كل شيء ويحيي ويميت ويخلق ويرزق، فكيف تعبدون غيره...؟!!

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ
وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ
ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟
سجدة رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾
وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ — آياتها ١١٨ — ترتيبها ٢٣

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي ضرب مثل لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به فأنصتوا له وتفهَّموه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى تدعونهم وتنادونهم في الملمات ليكشفوا عنكم الضر ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لن يقدروا على خلق ذبابة واحدة ولو اجتمع كل آلهتكم وتعاونوا وكان بعضهم لبعض ظهيرًا لما استطاعوا خلق ذبابة كما في الحديث: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرةً، فليخلقوا شعيرةً» [٥٧٥] ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي إن هذه المعبودات لا تستطيع أن تستنقذ من الذباب ما أخذه منها، والذباب في حدِّ ذاته من أضعف مخلوقاته تعالى وأحقرها ولهذا قال تعالى ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي ضعف هذا المعبود الزائف أن يسترجع من الذباب ما سلبه منهم. اللهم نعم فقد ضعف الطالب والمطلوب.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عرف هؤلاء العابدون قدر الله وعظمته حين عبدوا غيره لا سيما وأنَّ غيره ظهر لهم عجزه عن ردِّ أقل فعل يفعله به أقلُّ مخلوق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ وكيف لا وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، فهو على كل شيء قدير فلا يمانَع ولا يغالَب جلَّ جلاله.

(٧٥) ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يصطفي من الملائكة رسلًا كجبريل وميكائيل وإسرافيل فيما يشاء من شرعه وقدره، ويختار من الناس رسلًا لإبلاغ شرعه إلى سائر الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده، بصير بمن يختار من خلقه رسولًا. قيل: إن هذه الآية نزلت حين قال المشركون: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا...﴾ [ص: ٨] فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي يعلم ما قدموا من الأعمال التي بعثوا بها للناس من تبليغ وتحمل وصبر على الأذى في سبيل ما بعثوا إليه، وإليه تعالى ترجع أمور عباده فهو رقيب عليهم شهيد على ما يقولون.

(٧٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ إن هذه السجدة مشروعة لحديث: «فضلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[1] [٥٧٦] ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لأن فعل الخيرات سبب للفلاح.

(٧٨) ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي فضلكم وخصكم بأشرف رسول وأكمل شرع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي فيما كلفكم من هذا الدين ما جعل في تنفيذكم له شيئًا من الضيق كما في الحديث: «بعثت بالحنيفية السمحة» [٥٧٧] ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي على ما كان عليه إبراهيم عليه السلام ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي الله عز وجل هو الذي سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي في القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي تقبل شهادتكم على الناس في تبليغهم رسالة رسلهم إليهم يوم القيامة ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي قابلوا هذه النعمة بشكرها فأدوا حق الله عليكم بأداء الصلاة والزكاة ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي التجئوا إليه واطلبوا التأييد منه والاستعانة به وحده دون غيره ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي حافظكم وناصركم على أعدائكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نعم الولي والناصر على الأعداء سبحانه وتعالى.

آخر تفسير سورة الحج ومن الله وحده التوفيق
وله المنّة والفضل ٧/ ١٠/ ١٣٩٦

(١) إسناده ضعيف.

(٢٣) سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

مكية وآياتها ١١٨، نزلت بعد الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فازوا بالجنة، وحصلوا على رضائه تعالى، ونجوا من النار؛ ذلك إذا كانوا متصفين بالصفات الآتية:

(٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أي خاشعو القلوب مطرقو الأبصار، خافضو أجنحة الذل لله تعالى، لا تتجاوز أعينهم مكان سجودهم فتكون صلاتهم راحةً لهم وقرة أعين. كما في الحديث: «... قم يا بلال فأرحنا بالصلاة» [٥٧٨] أي لأن المصلي عندما ينتهي من صلاته يشعر براحة روحية فائقة لأنه أدى ما عليه لربه سبحانه، وكما في الحديث أيضًا: «حبب إليَّ الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة» [٥٧٩].

(٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي مبتعدون عن كل باطل من القول والعمل، كالشرك والمعاصي، وما لا فائدة فيه.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي هم الذين يؤدون زكاة أموالهم، ويزكون أنفسهم من الشرك والدنس، فالمؤمن الكامل هو الذي يزكي نفسه مالًا وقلبًا.

(٥) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ والفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة، أي ممسكون لها بالعفاف عما لا يحلُّ لهم والمراد هنا الرجال دون النساء بدليل قوله تعالى:

(٦) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي يجب حفظ الفرج إلا على زوجاتهم أو إمائهم فإن اكتفوا بذلك فإنه لا تثريب عليهم ولا يلامون على ذلك مطلقًا.

(٧) ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي ومن أراد أن يتعدى هذه الحدود إلى ما عدا الزوجات والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المجاوزون إلى ما لا يحل لهم من الحرام كالزنى واللواط ونكاح المتعة، والاستمناء باليد، كل ذلك يعد من ابتغاء ما وراء ذلك.

(٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا وإذا عاهدوا لم يغدروا، ولكنهم محافظون على الأمانة والعهد.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي على أوقاتها فلا يخرجونها عنها وقد افتتح تعالى هذه الصفات بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها. فهذه الصفات هي للمؤمنين الفالحين.

(١٠) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الذين يستحقون أن يوصفوا بقوله:

(١١) ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي أعلى الجنة. وفي الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» [٥٨٠]. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي يدومون فلا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ
خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ
لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ أي خلق جوهر الإنسان من طين أولًا، ثم تناسل بنو الإنسان من آدم عليه السلام.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ أي نطفة من مني في قرار الرحم.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي صارت على شكل العلقة من دم ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي قطعة لحم غير مخلقة ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ أي شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أي أنبتنا على العظم لحمًا ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي نفخنا فيه الروح فتحرك فصار خلقًا آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي أتقن الصانعين المقدرين تبارك وتعالى وتقدس أهل الثناء والحمد.

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي من القبور وتعود الأرواح إلى الأجساد وتساقون إلى المحشر والحساب والجزاء.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي سبع سموات طباقًا واحدة فوق واحدة ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ بل نعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ونعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ
بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن
طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي
الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧)

(١٨) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بقدر الحاجة لا كثيرًا فيفسد، ولا قليلًا فلا يكفي ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلناه مستقرًا وجعلنا في الأرض قابلية له، وتشربه فيتغـذى به ما فيها من الحب والنوى ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي لو شئنا ما أنزلناه، أو جعلناه مالحًا لا يُنتفع به، فكما قدرنا على إنزاله، فنحن قادرون كذلك على إذهابه، ولا يخفى ما في هذه الآية من التهديد والوعيد.

(١٩) ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وهذا ما كان يألفه أهل الحجاز ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي لكم في هذه الجنات فواكه كثيرة من غير العنب والنخيل، وخاصة في الطائف والمدينة ففيهما فواكه زيادة على النخيل والأعناب كالكمثرى والطلح وغيرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

(٢٠) ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهي شجرة الزيتون، وطور سيناء هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي بالزيت ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ أي أدم للآكلين وفيه ما ينتفعون به كما في الحديث: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» [٥٨١] وكل أُدْم يؤتدم به، فهو صبغ وصباغ.

(٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي فيها عـبرة للمعتـبرين ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من اللبن المنصب إلى ضروعها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من لبس أصوافها وأوبارها وصنع البيوت من أشعارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من لحومها وشحومها وأولادها.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي على الأنعام أي على الإبل فيها. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: تحملون على الإبل أنتم وأثقالكم إلى البلاد النائية، وكذلك تحملون على الفلك التي تجري في عرض البحار حاملة أنفسكم وأرزاقكم وتجاراتكم إلى أقطار بعيدة، ومن رحمته ولطفه بعباده أيضًا فقد هيأ لعباده ويسر ركوب الأجواء في الفلك الهوائية كالطيارات والصواريخ في زماننا هذا تقطع المسافات الطويلة السحيقة بساعات قليلة!!! وكل ذلك من منّه تعالى وكرمه فهو الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي يخبر سبحانه أنه أرسل نوحًا عليه السلام رسولًا نبيًا إلى قومه وقال لهم: اعبدوا الله وحده ودعوا هذه الأصنام التي تشركون بها رب العالمين ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي ليس لكم من معبود تعبدونه في الأرض ولا في السماء بحق إلا هو سبحانه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافونه وتخشون عذابه؟

(٢٤) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وهم السادة والكبراء ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهذه حجة الكفار في كل زمن ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يترفع عليكم بدعوى النبوة حتى تنقادوا له ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لاختار من الملائكة رسـولًا يبلـغ أمره ولم يرسـل بشرًا مثلنا ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بمثل دعوى نوح هذه!!! وهو الأمر بعبادة الله وحده، أي ما سمعنا هذا في الأعصر الخالية والأمم الماضية.

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي ما هو إلا رجل به جنون ويزعم أنه نبي ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي اصبروا عليه حتى يموت أو يشفى.

(٢٦) ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فلما يئس منهم ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ونوع لهم أسباب الهداية فلم يؤمنوا عندها دعا أن ينصره عليهم.

(٢٧) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أي أمرناه بواسطة جبريل أن اصنع السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تحت بصرنا ومرأى منا، إن البصر صفة لله تعالى يرى به عباده لا يخفى عليه منهم أحد وهو فوق عرشه وفوق سبع سمواته ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي وأمرنا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي فارت الأرض وتفجرت عيونها وبلغ الماء التنانير(١) ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي من كل صنف ذكر وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي هم الذين آمنوا معك لأن أهل كل نبي هم المؤمنون به من أقربائه وسائر قومه ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي إلا الذين كفروا كزوجته وابنه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي لا تسألني الرحمة بالذين كفروا فإنني سأغرقهم لا محالة.

(١) أي إذا بلغ الماء تنانير الخبازين وتفجر منها الماء كان ذلك إيذانًا لنوح عليه السلام بأن يشرع بتحميل سفينته.

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّىٰنَا
مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ
الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا
مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
الظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

٣٤٤

(٢٨) ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ أي من المؤمنين من أهلك وأتباعك راكبين على الفلك ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ أي حال بيننا وبينهم وخلصنا منهم ومن كفرهم فالحمد لله سبحانه على ما قدر من الخير لعباده المؤمنين، ثم أمره سبحانه أن يسأله:

(٢٩) ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي وقل عند نزولك من الفلك: رب أنزلني منزلًا مباركًا، كما حمده عند النجاة من القوم الظالمين الكافرين ومن الغرق سأل الله تعالى أن ينزله منزلًا مباركًا على الأرض بعد أن استوت السفينة على الجودي ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ هذا ثناء على الله جل جلاله.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي إن في هذا الصنيع من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي دلالات واضحات ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: مختبرين -وهو أعلم بخلقه- للعباد بإرسال المرسلين إليهم، هل يصدقونهم فيما جاءوا به؟ وهذه الآيات من الله دلائل على صدق أنبيائه فيما أرسلهم به.

(٣١) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي من بعد إهلاك قوم نوح الكافرين أنشأ الله تعالى بعدهم قرنًا وهم عاد.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي هودًا ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده واتركوا هذه الأصنام ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي ليس لكم معبود بحقٍّ إلا هو سبحانه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخشون عقابه من أجل شرككم به، إذًا فخافوه وآمنوا به وبرسوله.

(٣٣) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وهذا وصف لصفات قومه وهي: الكفر بما جاء به هود عن ربه، وتكذيبهم بالبعث وما في الآخرة من الجنة والنار؛ كل ذلك بسبب غناهم وترفهم وتعلقهم بالحياة الدنيا ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي قال قومه المترفون: ما هذا الذي يدعي النبوة فيكم إلا بشر كما أنتم بشر ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي يلزمه من الأكل والشرب ما يلزمكم! وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم فكيف أوحي إليه من دونهم بالرسالة والنبوة وهو مثلهم!!! شأنهم في ذلك شأن من قبلهم.

(٣٤) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي مغبونون.

(٣٥) ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي مبعوثون من قبوركم أحياءً كما كنتم؟ وإنكم كما ترون أنَّ متقدميكم صاروا ترابًا، ومتأخريكم عظامًا. ولم يخرج من أحد بعد موتهم!

(٣٦) ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي ما أبعد ما يعدكم به عن الحقيقة! وإنه لمستحيل الوقوع، وإنه لوعد غير مبرور.

(٣٧) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فقط ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموت نحن ويحيا أولادنا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ كما يدعي هو ويفتري من الوعد.

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي هود عليه السلام ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كذب على الله بادعائه النبوة وبوعده ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقيه فيما يقوله من الكذب والافتراء.

(٣٩) ﴿قَالَ﴾ أي هود عليه السلام ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ أي فبعد أن يئس من قومه طلب النصر من الله عليهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب ما كذبوا برسالتك.

(٤٠) ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي من الزمن ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ أي سيأتيهم العذاب ويصبحون نادمين على تكذيبهم لك.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي باستحقاقهم ذلك العذاب بما كفروا برسوله وتكذيبهم له وإنكارهم للبعث بعد الموت ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَاءً﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل الهالك البالي ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ أي بعدًا لهم من الرحمة، لأنهم قوم ظلموا أنفسهم بالشرك وإنكار البعث وتكذيب الرسول. فليحذر الذين نزل عليهم القرآن وسمعوه أن يكذبوا رسولهم كيلا يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك، ويتذاكروا فيما بينهم، فتنفعهم الذكرى.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ أي أنشأنا بعد إهلاكهم أممًا، قيل: هم قوم صالح ولوط وشعيب وبنو إسرائيل وآخرون من غيرهم.

كلما أرسل الله رسولًا للكفار... استهزأوا به وكذبوه!!!؟

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

٣٤٥

(٤٣) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي ما تتقدم كل أمة آجالها المكتوبة لها في الهلاك ولا تتأخر عنها، بل يقبضون بحسب علمه تعالى خلفًا بعد سلف.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي من بعد ذلك أرسلنا من نختارهم لرسالاتنا بصورة متتابعة ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوه بما جاء به عن ربه ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي أهلكناهم أمةً بعد أمة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخبارًا يرويها الناس فيعتبرون ويتعظون ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سحقًا لقوم كذبوا أنبياءهم ورسلهم، فما أشقاهم، وتعسًا لهم ما أخسر صفقتهم في الدنيا والآخرة.

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بالمعجزات الباهرات، والسلطان المبين هو: الآيات التسع إلى فرعون.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي فاستكبروا عن اتباعهما وتصديقهما، وتعالوا عليهما بالباطل قاهرين للناس بغيًا وظلمًا.

(٤٧) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي نصدق رجلين مثلنا من البشر، وذلك مثل ما قالت الأمم قبلهم ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي مطيعون لنا منقادون لأمرنا كانقياد العبيد.

(٤٨) ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ أي فأصروا على تكذيبهما فأهلكناهم بالغرق في البحر وكفيناهما شرورهم.

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي وأنزلنا التوراة على موسى فيها أحكامنا وأوامرنا ونواهينا لعل قوم موسى أي بني إسرائيل يهتدون بها إلى الحق ويعلمون شرائعها.

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي عيسى ابن مريم ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ أي مريم ﴿ءَايَةً﴾ أي حجة قاطعة للناس على قدرته تعالى على كل شيء ومن جملة ذلك خلقه آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ أي عيسى وأمه ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي إلى ربوة مرتفعة وفيها من النبات أحسنه وفيها ماء جار، وقيل أقوال شتى في تعين هذا المكان، ولكن بيت المقدس هو الأظهر والأصوب، والله تعالى أعلم.

(٥١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي المال الحلال ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي بالصالح من الأعمال وفي الحديث: «إن داود كان يأكل من كسب يده» [٥٨٢] وفي الحديث الآخر: «ما من نبي إلا رعى الغنم»، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم فأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» [٥٨٣]. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ولا يخفى عليه منها شيء وإنه مجازيهم عليها.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة إلى التوحيد الحق ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم مني.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي قطعًا كقطع الحديد أي جعلوا دينهم مع اتحاده قطعًا متفرقة مختلفة ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي بما فيه من الضلال فرحون به ومعجبون. ثم قال متوعدًا:

(٥٤) ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي دعهم مغمورين في جهلهم وعمايتهم وغيِّهم وضلالهم حتى يحين أوان إهلاكهم.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أي ما نعطيهم من الأموال والبنين.

(٥٦) ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي أتظنون ذلك خيرًا لهم؟ كلا ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي نستدرجهم من حيث لا يعلمون.

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفون من الله مع إحسانهم وعملهم الصالح.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بكل ما نزل إليهم من ربِّهم من أوامر ونواهٍ وأحكام.

(٥٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي لا يدعون غيره ولا يستعينون ولا يستغيثون إلا به، ولا يتوكلون إلا عليه ولا يذبحون ولا ينذرون إلا له سبحانه وتعالى.

الأنبياء في صغرهم يرعون الغنم وفي كبرهم يرعون الأمم...

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ
﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ
﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن
ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

٣٤٦

﴿٦٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي يعطون الذي يعطونه وهم خائفون أن لا يتقبل منهم، وفي الحديث عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل» [٥٨٤] ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي يخافون لقاء الله تعالى يوم القيامة، وهم وجلون من أن يكونوا قد قصروا تقصيرًا يجعلهم أمام الله تعالى في موقف يخجلون فيه منه تعالى.

﴿٦١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يخافون الله ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يتسابقون إليها ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي سابقون الناس لأجلها.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف الله نفسًا تكاليف إلا بما تطيق ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ أي كتاب الأعمال ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ليس مسجلًا فيه إلا الحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي بنقص ثواب أو بزيادة عقاب، ولا يظلمون شيئًا قليلًا كان أو كثيرًا.

﴿٦٣﴾ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ والضمير للكفار أي بل قلوب الكفار في غمرة أي تغمرها الغفلة عن كتاب الله وأحكامه ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي لهم خطايا غير شركهم أخطؤوها، علم الله بأنهم سيعملونها في الدنيا فكتبها عليهم.

﴿٦٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي أخذنا المنعَّمين في الدنيا الذين غفلوا عن الآخرة، فإذا عذبناهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي إذا هم يصرخون ويستغيثون من شدة الألم والعذاب المؤبد.

﴿٦٥﴾ ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا تستغيثوا فلن يجيركم أحد من الله فلقد وجب العذاب ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي لا أحد ينقذكم منَّا.

﴿٦٦﴾ ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي عندما كنتم تدعون إلى الحق تأبون مستكبرين، وكنتم على أدباركم تولُّون فلا تسمعون للحق ولا تصغون إليه.

﴿٦٧﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي متكبرين على الناس بأنكم أنتم عمرتم البيت وأنتم أهله تتسامرون بينكم بهُجر القول تسبّون النبي ﷺ ومن اتبعه، وتقولون للكتاب الذي نزل عليه: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة، فكل هذا باطل، بل هو الكتاب الجليل نزل من ربٍّ جليلٍ إلى رسولٍ كريم جليلٍ.

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أفلم يفهموا القرآن فيعرفوا ما فيه من الدلالات والعبر على صدق رسولهم؟ أليس قد أرسل الأنبياء إلى أممهم كما أرسل محمد ﷺ فإنه ليس بدعًا من الرسل.

﴿٦٩﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي ألا يعرفون محمدًا وصدقه وأمانته وشهدوا له بذلك.

﴿٧٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالقرآن ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لتعصبهم للباطل.

﴿٧١﴾ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي لو أنزل ما في القرآن مناسبًا لأهوائهم أي الشرك ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي لفساد أهوائهم واختلافها(١) ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بما فيه شرفهم وفخرهم وهو القرآن ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي تولوا عما جاءهم من الشرف.

﴿٧٢﴾ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي أم يزعمون أنك تسألهم أجرًا ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي أجر ربك المدَّخر عنده خير من أجورهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من أعطى.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي تدعوهم لخير القول والعمل، وإلى طريق واضحة مستقيمة غير معوجَّة. وسمي الدين صراطًا لأنه يؤدي إليه.

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي لا يؤمنون بالله واليوم الآخر الذي فيه بعث الأجساد والأرواح والقيام من القبور لرب العالمين ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي عن الطريق المستقيم لمنحرفون زائغون، وعما ينجيهم من عذاب الله لغافلون تائهون.

---

(١) ولخرجت عن نظامها لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدد الحاكم. كقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

يفتخر المشركون بعمارة البيت ثم يكفرون برب البيت!!!

۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٣٤٧

(٧٥) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي ولو أنزلنا بهم رحمتنا وكشفنا عنهم ما أنزلناه بهم من عذاب ﴿لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لساقهم عنادهم وكفرهم وطغيانهم إلى زيادة في إصرارهم، وتمادوا في ضلالهم يترددون ويتذبذبون ويتخبطون ولم يقابلوا النعم بالشكر.

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي ما خشعوا وما دعوا إليه متضرعين.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي حتى إذا جاء يوم القيامة فجأة، وقيل: يوم بدر، أو يوم الفتح، وأخذهم من عذاب الله مالا يحتسبون أو يتوقعون ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي متحيرون لا يدرون ما يصنعون، يائسون من كل خير، وانقطع أملهم من كل راحة.

(٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي كل ذلك تفعلون من العناد والكفر وهو سبحانه الذي خلق لكم الأسماع والأبصار والعقول نعمًا لا يعد ولا يحصى شكرها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي وأنتم ما تشكرون هذه النعم، لا قليلًا ولا كثيرًا!!!

(٧٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنشأكم الله في كافة أقطار الأرض على اختلاف أجناسكم ولغاتكم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم إليه.

(٨٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي يحيي بنفخ الروح في المضغة ويميت الأجساد باسترداد الأرواح منها عند الوفاة ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في السواد والبياض والطول والقصر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي تعقلون قدرة الله فتؤمنون به وتوحِّدونه.

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي بل سلك المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث واستبعدوه غاية الاستبعاد، وقالوا:

(٨٢) ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا﴾ أي هلكنا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي صار متقدمونا ترابًا ﴿وَعِظَامًا﴾ أي ومتأخرونا عظامًا أي بَلِيَ اللحم وبقي العظم ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ خلقًا جديدًا بعد فنائنا؟!

(٨٣) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ أي ما زلنا نوعد بأن البعث كائن نحن وآباؤنا، ولم نره ولم يأت بعد ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي قصص الأولين وأسمارهم التي يلهون بها وليس لها حقيقة، وكذَّبوا قبَّحهم الله ولكن الله أراهم من آياته ما هو أكبر من البعث ومثله كخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس؛ فقال جلَّ وعلا:

(٨٤) ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي من خلق الأرض ومن عليها؟ إن كنتم تعلمون فأخبروني.

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي يعترفون بأن الخلق كله لله، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا له.

(٨٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي مَنْ خالق العالم العلوي ومن هو خالق العرش العظيم؟ والعرش هو سقف المخلوقات كما في الحديث: «شأن الله أعظم من ذلك، إن عرشه على سمواته هكذا، وأشار بيده مثل القبة» [٥٨٥]. والعظيم صفة للعرش أي الكبير المتناهي في الكبر.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي هو رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تحذرون عاقبة شرككم؟

(٨٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ملك كل شيء ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدًا، لا يخفر جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتئت عليه فكيف بخالق الخلق وسيدهم الأعظم تبارك وتعالى؟

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعترفون لله بأنه السيد الأعظم الذي يجير ولا يجار عليه ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فكيف تذهب عقولكم وتعبدون معه غيره؟!

لا جوار لأحد بجوار سيد القوم فكيف بجوار رب العالمين

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ
فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

(٩٠) ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه: لا إله إلا الله وهذا هو الأمر الواضح الذي يحق اتباعه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما ينسبون لله تعالى من الشريك والولد.

(٩١) ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ أي ليس له ولد ولا ينبغي له ذلك سبحانه وتعالى وتقدس عن ذلك ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي لو فرض تعدُّد الآلهة وهذا مستحيل ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لانفرد كل إله بخلقه واستبدَّ به، ووقع بينهم التطالب والتحارب ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي غلب قويُّهم ضعيفَهم وقهره وأخذ ملكه فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق بل وَلا يستطيع أن يكون إلهًا فإذا تقرر عدم المشاركة وأنه لا يقوم بالألوهية إلا واحد، تعين أن يكون هذا الواحد هو الله تعالى وتقدس، وهذا الدليل على نفي الشريك يدل نفسه على نفي الولد؛ لأن الولد ينازع أباه في ملكه ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتعالى وتقدس عما تصفه به ألسنة الظالمين المعتدين بالشريك والولد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

(٩٢) ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي هو عالم الغيب والشهادة وحده وهو أعظم وأجل وأعلى من أن يشرك به سبحانه.

(٩٣) ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي إنْ عاقبتهم وأنا حي.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تجعلني معهم، وفي الحديث: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون» [٥٨٦].

(٩٥) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أي على ما نعدهم من النقم لقادرون على ذلك، ولكن إن أخَّرناه فلحكمة نحن نعلمها.

(٩٦) ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ أي فلا تقابل المسيء إليك إلا بالصفح لتستجلبه إليك فتعود عداوته صداقة ومحبة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يقولون من الكفر والشرك.

(٩٧) ﴿وَقُل﴾ يا محمد داعيًا: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي أمره أن يستعيذ به تعالى من الشياطين لأنها لا تنفع معها وسيلة الإحسان والمعروف ولا تنفع إلا الاستعاذة بالله منهم.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي في شيءٍ ما. وفي الحديث: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» [٥٨٧]. وفي حديث آخر: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت» [٥٨٨]. أي حال الاحتضار.

(٩٩) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أي إذا جاء أحدَ الكفار أو المفرطين في أوامر الله تعالى الموتُ أي عندما تبلغ الروح الحلقوم ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أي إلى الدنيا ليصلح ما أفسد.

(١٠٠) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي فيما مضى من عمري فأعمل عملًا صالحًا ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي لا نجيبه إليها ولا نقبلها منه. وما أحسن ما قيل: (لِيُنْزِلَنَّ أحدُكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله سبحانه) ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة فلن يمكَّن من العودة أبدًا.

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي نفخة النشور ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لا تنفع الأنساب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي آن ذاك ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي ولا يجيب الوالد سؤل ولده ولا ولد سؤل والده، ولا يلتفت أحد إلى أحد ولا يحمل عنه وزن جناح بعوضة من وزر!!!

(١٠٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي أفلحوا ونجحوا ودخلوا الجنة.

(١٠٣) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي خابوا وهلكوا ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ وهؤلاء هم الكفار والمشركون؛ لأنه لا يخلد في النار إلا المشركون الذين جعلوا مع الله إلهًا آخر فأولئك هم في النار خالدون.

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تلفحهم لفحةً تسيل لحومهم على أعقابهم ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أي شمرت شفاههم السفلى عن أسنانهم، ويقال لهم:

وليفترض أحدكم أنه احتضر وطلب إرجاعه للدنيا فأرجع... فليعمل صالحًا...

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سُورَةُ النُّورِ — ٢٤ — آياتها ٦٤

(١٠٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي يقال لهم ذلك توبيخًا وتقريعًا لأنه تعالى أرسل لهم الرسل وأنزل الكتب وأزيلت الشبه ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

(١٠٦) ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي لذائذنا وشهواتنا فشقينا بها ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ فضللنا عن الحق، وتركنا طريق الصواب.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي من جهنم واردنا إلى الدنيا لنعمل صالحًا ولا نشرك بك شيئًا ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى ما سلف ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ مستحقون للعقوبة.

(١٠٨) ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي ابعدوا في النار صاغرين أذلاء، مهانين ولا تكلموني في سؤالكم بالرجعة إلى الدنيا فإنه لا جواب لكم عندي.

(١٠٩) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ أي المؤمنين بي ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي بك وبملائكتك وكتبك ورسلك وباليوم الآخر وبالقدر أي يتوسلون إلى الله تعالى بهذا الإيمان ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي بسبب ما آمنا؛ اغفر لنا ذنوبنا وارحمنا بالتوبة، وأنت خير من يرحم وأرحم من كل راحم.

(١١٠) ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي فسخرتم منهم ومن إيمانهم وكنتم تستهزئون من دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي حملكم بغضكم إياهم، والاشتغال بالاستهزاء بهم على نسيانكم ذكري وحملكم على الكفر فكفرتم بي وبرسولي وآياتي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي تستهزئون وتتندرون من صنيعهم وعبادتهم، وتلمزونهم بالمر من الكلام.

(١١١) ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ على استهزائكم وسخريتكم ولمزكم لهم في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي جزيتهم بنوال مطلوبهم أي أدخلتهم الجنة التي صبروا من أجلها، ونجيتهم من النار التي دخلتموها عقابًا لكم على كفركم واستهزائكم.

(١١٢) ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا التي ضيَّعتم فيها أعمالكم وكم لبثتم فيها من السنين.

(١١٣) ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي لبثنا يومًا أو أقل من يوم ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ أي العارفين بالحساب.

(١١٤) ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ما مكثتم في الدنيا إلا مدة قليلة يسيرة ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولكنكم آثرتم الفاني على الباقي فاستحققتم من الله سَخطَهُ في تلك المدة اليسيرة.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي لغير ما سبب؟ ولا قصد ولا حكمة؟ إنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامرنا فظننتم أنكم خلقتم لتعبثوا ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي لا تحشرون فها قد حشرتم وحوسبتم وعوقبتم بما تستحقون من النار.

(١١٦) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي تقدس وتنزّه عن أن يخلق الخلق عبثًا فهو المنزّه عن ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا هو ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ والكريم صفة للعرش أي هو الكريم الحسن المنظر البهي الشكل.

(١١٧) ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي بلا دليل ولا حجة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي سيحاسبه الله على دعائه غير الله حسابًا عسيرًا ونارًا خالدةً ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لا يدخلون الجنة ولا يفلحون ولا ينجحون، وهذا دليل على أن الذي يدعو من دون الله أحدًا إنما هو كافر مشرك فلا يشمّ ريح الجنة.

(١١٨) ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي امح ذنوبنا واسترها عن أعين الناس ووفّقنا في الأعمال والأقوال وأنت خير الراحمين.

آخر تفسير سورة المؤمنون ولله الحمد والمنّة والشكر

الدعاء هو العبادة فمن دعا غير الله فقد كفر وأشرك...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦)
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ
عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

٣٥٠

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ

مدنية وآياتها ٦٤، نزلت بعد الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أنزلناها رحمةً للعباد وفرضنا فيها الأحكام، وبيَّنا فيها الحلال والحرام وألزمناكم بالعمل بها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات الدلالة على مدلولها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون بأحكامها وتعملون بها وتطبقونها.

(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ أي المطاوعان للزنى لا المكرهان، الحران البالغان البكران ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي إذا كانا غير محصنين كما في الحديث: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئةٍ والرجم» [٥٨٩] ولكن لم ينقل عنه ﷺ أنه جلد قبل الرجم، ولعل الجلد للزاني الثيب قبل رجمه منسوخ والله أعلم. إنما بقي عليه الرجم فقط ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي رأفة تحمل الحاكم على ترك الحد. وفي الحديث: «حَدٌّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا» [٥٩٠] ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يتركُهُ من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يقام الحد عليهما علنًا أمام الناس لتحصل العظة والاعتبار ويدعو الناس لهما بالتوبة والرحمة، وإظهارًا وإعزازًا للشرع.

(٣) ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾ أي لا يتزوج ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ في حالة عدم توبتها ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ لأنها لا تعتقد حرمة الزنى ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا﴾ أي لا يتزوجها ﴿إِلَّا زَانٍ﴾ لم يتب ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي مشرك بالله لأنه لا يعتقد حرمة الزنى ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فلا يجوز لمؤمنٍ أن يتزوج زانيةً لم تتب ولا مؤمنة أن تتزوج زانيًا لم يتب فذلك حرام عليهم.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي العفيفات بالزنى ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ رأوا فعل الزنى رؤية شرعية.. ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ وهو حدُّ القذف ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي في أي شيء ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي خرجوا عن طاعة الله فقذفوا المحصنات دون أن يثبتوا ذلك.

(٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي تابوا عن قذف المحصنات وأصلحوا أعمالهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور عن ذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا توبة نصوحًا

(٦) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي أربعة وليس لديهم ﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ أي إنهم رأوا أزواجهم في حالة زنى مع غيرهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ أي فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله أي أربع مرات في مقابل أربعة شهداء ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فيما رماها به من الزنى.

(٧) ﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ أي الشهادة الخامسة يقول فيها: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ عندها تبين منه بهذا اللعان وتحرم عليه أبدًا ويعطيها مهرها، ويتوجَّب عليها حد الزنى ويدرأ عن نفسه حد القذف.

(٨) ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي حدّ الرجم ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي يحلفها الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى.

(٩) ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ أي الشهادة الخامسة تقول فيها: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى ويفرق بينهما. وخصها الله هنا بالغضب للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادته، ولأن النساء يكثرن اللعن، والغضب له في قلوبهن موضع كبير.

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتشريعه اللعان وحصول الستر به لنال الكاذب عذابٌ عظيم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ يقبل التوبة وحكيم في شرعه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ
خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ
كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا
جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ
وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ
قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾

٣٥١

لو لم تكن عائشة لما كان هينًا فكيف وهي زوجة الرسول الأعظم ﷺ!!

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ والإفك هو أسوأ الكذب وأقبحه ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ أي جماعة منكم وهم الذين بهتوا عائشة أم المؤمنين وافتروا عليها، وإن الذي بدأ بهذه الفرية عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين لعنه الله، حتى أدخلها في أذهان بعض من المسلمين كحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش فخاض هؤلاء في هذا الإفك، والحقيقة هي: أن عائشة رضي الله عنها في العودة من إحدى الغزوات وعلى مقربة من المدينة خرجت من هودجها تلتمس عقدًا لها انقطع، فرحل الجيش وهم يظنون أنها في هودجها، فلما رجعت وجدت الجيش قد ارتحل والهودج معهم، فأقامت في ذلك المكان حتى مرَّ بها صفوان بن المعطّل وكان قد وضعه رسول الله ﷺ في ساقة الجيش، فأناخ صفوان راحلته وحملها عليها، فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا حتى نزل القرآن ببراءتها والحمد لله وحده ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ وعائشة وصفوان تسلية لهم، ووجه كونه خيرًا لهم: أنه يحصل به ثواب عظيم مع بيان براءة أم المؤمنين، وصيرورة قصتها شرعًا عامًا فهو إذًا ليس شرًا لهم بل هو خير لهم في الدارين ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي من الوزر فكان لكل من حسان ومسطح وحمنة إقامة حد القذف عليه ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي إذاعة وإشاعة ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي في الآخرة، وهو ابن سلول الذي لم يقم عليه الحدُّ ليبوء بالعذاب العظيم جزاء إفكه.

(١٢) ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ أي هلّا يا أيها المؤمنون حين سمعتم حديث الإفك فعلتم كما فعل أبو أيوب الأنصاري الذي سألته امرأته عن حديث الإفك فقال: هذا إفك مبين، أكنت يا أم أيوب فاعلته؟ قالت: معاذ الله! قال: فعائشة والله خير منك، هذا إفك ظاهر [٥٩١].

(١٣) ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وهـذا تحـدٍّ من الله تعالى لهـم؛ لأن ما قالوه يعلمه الله أنه إفك فمن أين يأتون بأربعة شهداء على أمر لم يقع البتة!!؟ ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ ولن يأتوا بهم أبدًا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أي كاذبون حقًّا؛ لأنه يعلم الحقيقة بأنهم هم المفترون الأفّاكون.

(١٤) ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي إنه علم بأنكم ستتوبون مما اقترفتم من الإفك، فقدّر ذلك عليكم ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ من إذاعة الإفك بين الناس ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا طاقة لكم بتحمله يوم القيامة، ولكن سبقت رحمته فأقيم عليكم الحد وحصلت التوبة منكم فكان ذلك كفارة لكم.

(١٥) ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ أي من التلقي، ولكن عائشة كانت تقرأها ﴿تَلِقُونَه﴾ أي من ولق اللسان يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، وكلتا القراءتين ثابتتان ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾ أي وتحسبون هذا الكذب والافتراء والبهت هينًا في أنفسكم ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ أي إثم هائل وجرم كبير مريع.

(١٦) ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ أي وقتئذٍ ﴿قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ نحن المؤمنين المسلمين ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ أي بهذا الكلام الذي لا أصل له، أي لا يجوز أبدًا التجرؤ بالكذب على زوجة رسول الله، وحليلة خليله، ولو لم تكن عائشة لما كان هينًا فكيف وهي هي زوجة الرسول الأعظم!!؟

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي يحذركم الله ويتوعّدكم أن يقع منكم مثل هذا الإفك في المستقبل إن كنتم حقًّا من المؤمنين.

(١٨) ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي يوضح لكم فيها الأحكام الشرعية والحِكَم القدرية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وفي قدره.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي تفشو وتنتشر ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فسلّموا الأمر إليه.

(٢٠) ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بقبول توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، لكان له معكم في الآخرة شأن آخر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ﴾ بعباده المؤمنين ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم.

الحزب ٣٦
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي
مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ
وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ
ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾
يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ
ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ
وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ
وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

٣٥٢

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي بما يزينه لكم من قذف عائشة الطهور رضي الله عنها ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ أي إن الذي يتبعه، لا يتبعه إلا بما يأمر من الفحشاء والمنكر، إذ إن كل معصية هي من خطوات الشيطان ومن مسالكه الخبيثة ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ أي لولا أن رزقكم التوبة وزكّى نفوسكم من شركها لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرًا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ من خلقه أي يطهره بالتوبة والمغفرة والتفضل عليه بالرحمة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده التائبين إليه ﴿عَلِيمٞ﴾ بما حصل في نفوسهم من الندامة.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ أي لا يحلف أهل الصدقة والغنى ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه حين حلف أن لا يصل مسطح بن أثاثة وكان يصرف عليه وهو ابن خالته بعد أن قال ما قال في عائشة التي برأها الله تعالى، فأمره الله تعالى ألا يقطع صلته وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ أي عما تقدم من الإساءة. ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ فقال الصديق: بلى والله وإنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم أرجع إلى مسطح صلته وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا؛ رضي الله عنه وعن ابنته عائشة الطهور ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ للمستغفرين التائبين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم لتوبتهم.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذا وعيد شديد لكل من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بوجه عام، وأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، لا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة التي طهرها الله وسائر أزواجه ﷺ تطهيرًا وأذهب الرجس عنهن، فمن كنّ كذلك يستحيل أن يقعن في الفاحشة لعصمتهن منها تبعًا لعصمة أزواجهن الأنبياء من أن يكونوا أزواج بغايا وزوان. وفي الحديث: «قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة»[(١)] [٥٩٢]، ولا شك أن قذف المحصنات من السبع الموبقات ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي مؤلم موجع هذا إذا لم يتب وأصرّ على القذف.

(٢٤) ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بما قالوا وعملوا من الخطايا والذنوب والآثام.

(٢٥) ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي حسابهم العدل ومن ذلك قوله ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الحساب. ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي هو الحق الثابت في صفاته وأسمائه وأفعاله ووعده ووعيده، وحسابه هو العدل لا جور فيه.

(٢٦) ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾ من الرجال أي مختصات بهم، وكذلك ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ من النساء مختصين بهن ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ من النساء أي كل مختص بمن يساويه، ولا يليق إلا به. فإذا كانت امرأة خبيثة كان قرينها خبيثًا. ولما كان النبي ﷺ أطيب من كل طيب لزم أن تكون أزواجه وخاصة عائشة أطيب من كل طيبة، ولهذا عظم القول فيمن قذف عائشة ولولا ما على الزوج من ذلك العيب ما حصل هذا التغليظ، ولهذا قال السلف: «ما بغت امرأة نبي قط» [٥٩٣] ولهذا لا يمكن لنساء الأنبياء أن يزنين، وإلا لأمكن أن يكون الأنبياء أزواج زوان، وهذا مستحيل عليهم ومعصومون عنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ أي عائشة وصفوان ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي في الجنة.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي تستأذنوا أهلها ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ أي وتسلموا عليهم. وفي الحديث: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف» [٥٩٤] ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي الاستئذان ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الدخول بلا استئذان ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون فتتنفذون.

لا يمكن زنى نساء الأنبياء وإلا لأمكن أن يكونوا أزواج زوان وهذا مستحيل

(١) صحيح لغيره.

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٣٥٣

(٢٨) ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن. والاستئذان يكون ثلاثًا كما في الحديث: إن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليكم ورحمة الله»، فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يُسْمِع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثًا ورد عليه سعد ثلاثًا ولم يُسْمِعه، فرجع النبي ﷺ، فأتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أُسْمِعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة... [٥٩٥]. ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ أي قبل الإذن أو بعده ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي أطهر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي لا تخفى عليه أعمالكم الظاهرة والباطنة.

(٢٩) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ كالبيوت المعدة للضيوف إذا أذن لكم فيها أول مرة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من أعمالكم.

(٣٠) ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عما حرم الله وفي الحديث عن جرير البجلي ﷺ: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري. [٥٩٦]. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ ويكون منع الفرج تارة من الزنى، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما في الحديث: «احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» [٥٩٧] وهذا أطهر لقلوبهم، وأنقى لدينهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي لا يخفى عليه مما يصنع عباده من شيء.

(٣١) ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ أي عن النظر إلى الرجل الأجنبي، ولو كان أعمى؛ للحديث: عن أم سلمة: إنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب؛ فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه»، فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوعمياوان أنتما ألستما تبصرانه؟»[1] [٥٩٨]. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الفواحش وما يؤول إليها من نظر أو غيره ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي ما تتزين به من الحلي فلا يجوز إبداؤه، أما الاستثناء فهو مما لا يمكن إخفاؤه كالرداء الذي يجلل الثياب وما يبدو من أسفلها، واختلف في الوجه والكفين فقد جاء فيهما أحاديث على فرض صحتها، لا يسمح في هذا الزمن الفاسد وأيِّ زمن مثله أن يكشف عن الوجه خشية الفتنة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فيسترن الرؤوس والأعناق والنحور بالمقانع ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي لأزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها وكذلك أصولهم وفروعهم والعم والخال، وكذلك يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، ولا يجوز لهؤلاء النظر إلى مفاتن المرأة إلا للزوج فحسب ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات ويدخل في ذلك الإماء ويخرج نساء الكفار من أهل الذمة وغيرهم سوى القوابل منهن للضرورة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي من نساء المشركين أو العبيد الصغار السن ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ كالأجراء والخدم الذين ليسوا أكفاء ولا يشتهون النساء ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي في سن دون سن المراهقة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي حرَّم على المؤمنات أن يضربن أرجلهن ليسمع الرجال رنين خلاخيلهنَّ، وكذلك التطيب عند الخروج إلى الشوارع كما في الحديث: «كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرَّت بالمجلس فهي كذا وكذا» [٥٩٩]. يعني زانية ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي توبوا إلى الله تعالى مما سلف أيها الذين آمنتم -رجالًا ونساءً- بالله ورسوله تنجحوا وتفلحوا وتدخلوا الجنة كما وعدكم ربكم.

(١) إسناده ضعيف.

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا
تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا
مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ
نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

٣٥٤

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ الأيامى جمع أيم. وهي من ليس لها زوج بكرًا كانت أو ثيبًا، ومن ليس له زوج، وهذا في الأحرار والحرائر، فقد رغب الله تعالى في التزويج. والصالحين من عبادكم(1) وإمائكم أي المؤمنين منهم وفيه دليل على أن المرأة لا تزوج نفسها والمملوك لا يزوج نفسه(2) ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة أو أحدهما فيغنيهم الله سبحانه ويتفضل عليهم، فالذي يريد العفاف يهيئ الله له الزواج، وفي الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله» [٦٠٠] ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.س

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وفي الحديث: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» أخرجاه [٦٠١]. ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي والذين يريدون المكاتبة من فتيانكم، وهي: الاتفاق بين السيد وفتاه على مال يؤديه على دفعات لسيده، حتى إذا انتهى من أدائه صار العبد حرًا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي قدرةً ماليةً على أداء ما اتفقتم عليه من المال، وهذا شرط في قبول المكاتبة، فإن توفر الشرط وجبت وجوبًا، وقيل: الخير الصلاح والدين مما يتوسم به الوفاء ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أي وساعدوهم بإعفائهم بشيء مما اتفقتم عليه، ويصح إعطاؤهم من مال الزكاة لأن إعطاءهم من مال الزكاة؛ هو من حقهم وهو أحد مصارف الزكاة كما قال تعالى ﴿...وَفِي الرِّقَابِ...﴾ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ نزلت في منع إرسال الإماء يزنين ليكسب سيدها من زناها!! وكان عبد الله ابن أبي ابن سلول يفعل هذا!!! والتحصن إرادة العفاف والزواج، ومعلوم لدى أهل العلم أن هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له. ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن هذا العرض أي المكسب الحرام هو الذي كانوا يبغونه من وراء إكراه فتياتهم على الزنى ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لهن رحيم بهن؛ لأنهن مكرهات رغم أنوفهن على ذلك، وفي الحديث: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» [٦٠٢].

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي وفيه مثال لما كان فيمن قبلكم من الأمم صالحين كانوا أو طالحين، وما جرى لهم أو عليهم؛ لتعتبروا بمن فعل مثل أفعالهم أن تجازوا مثلهم خيرًا كان أو شرًا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لمن اتقى الله وخافه واتعظ به(3).

(٣٥) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هادي أهلها ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي مثل نور هداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي كوةٍ لا منفذ لها لتكون أجمع للضوء الذي فيها فيكون باهرًا ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي في هذه الكوة مصباح مضيء وهَّاج ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي زجاجة صافية مشرقة وهو نظير قلب المؤمن ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إنها كذلك من صفائها وبهائها ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أي يوقد هذا المصباح من زيت شجرة مباركة كثيرة النفع ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي يأتيها ضوء الشمس من جميع الجهات لا يحجبه حاجب عنها ليكون أصفى لزيتها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد زيتها يضيء من نفسه دون أن يشتعل بنار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ كل هذا مثل لنور الإيمان في قلب المؤمن، أي نور إيمانه ونور عمله الذي يسَّره الله له ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي من يختار من عباده ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ لتقريب مراده لعباده ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية.

(٣٦) ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي هذه القلوب المؤمنة التي هي كالمصابيح توقد في بيوتٍ لله تعالى ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ دائمًا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي يصلى له فيها دائمًا من الصباح حتى المساء.

(١) أي من عبيدكم وعباد من جموع (عبد).
(٢) فالمرأة يزوجها وليها والعبد يزوجه سيده.
(٣) أي بوعيده.

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ
وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾

٢٥٥

الكفار القدوة أعمالهم كسراب، والمقلدة ضالون لا يدرون أين هم ذاهبون

(٣٧) ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ﴾ أي لا تشغلهم التجارة والبيع عن ذكر توحيده تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وإقامة الصلاة في مواقيتها من غير تأخير وإقامة أركانها وخشوعها وإيتاء الزكاة لمستحقيها، هؤلاء الرجال يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أي يوم القيامة تهلع فيه القلوب وتدور الأبصار من شدة الفزع وعظمة الأهوال.

(٣٨) ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويزيدهم من فضله بما لا يستحقون بأعمالهم إنما هو الإكرام والفضل ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي من غير أن يحاسبه على ما أعطاه؛ فإن عطاءه سبحانه لا نهاية له، ولا ينقص من ماله شيء مهما أعطى.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله تعالى ولقائه وكذبوا رسله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أي مهما عملوا فإن أعمالهم كسراب في أرض مستوية يظنه المحتاج إلى الماء ماءً، فإذا به لا شيء، وهكذا كانوا يظنون أنهم على شيء فيما يعتقدون ويعملون، ولهذا قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد يوم القيامة ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أي جزاء عمله الذي كان يعمله في الدنيا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(٤٠) ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ وهذا مثل آخر للكافر ونهايته: كأنه في ظلمات في بحر عميق يغطيه موج، ومن فوق الموج موج آخر يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ﴿مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي من فوق الموج الثاني سحاب مظلم هكذا يكون الكافر في تحيُّره ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ من شدة تراكم الظلمات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ لأنه ظلم نفسه ببعده عن الإيمان لما عرض عليه، فطبع الله على قلبه جزاءً وفاقًا وعلم الله منه كفره فقدَّره عليه وكتبه.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أي علمًا يقينيًّا شبيهًا بالمشاهدة، والخطاب لكل من له أهلية النظر: أن الله يعبده جميع من في السماوات من ملائكة ومن في الأرض من إنسٍ وجان وحيوان حتى الجماد يسبحه تعالى ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ في حال طيرانها تسبح ربها ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي كلٌّ قد أرشده الله إلى طريقته في عبادة الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي عالم بأفعال الجميع لا يخفى عليه من ذلك شيء.

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو الحاكم المتصرف في جميع خلقه ولهذا فقد لزم أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إن المآل والمصير إليه تعالى يوم القيامة، فيجزي كلًّا بعمله إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر وله الحمد دائمًا.

(٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي يسوقه بقدرته فيكون السحاب ضعيفًا ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي يجمعه إلى بعضه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي متراكمًا بعضه فوق بعض كالجبال العظيمة، ومن ركب الطائرة في يوم غائم يرى هذا التراكم وكأنه الجبال يركب بعضها فوق بعض، فسبحان الخلاق العظيم لا إله غيره ولا رب سواه. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي ترى المطر ينزل من بينه تارة كأفواه القرب وتارة رذاذًا متفرِّقًا ليحصل به الانتفاع، فتمتلئ به الغدران ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب المرتفع ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ أي يكون في السحاب تارة مطرًا وتارة بردًا أي ماء متجمدًا بإذن الله ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي ينزل قطعًا متفرقة فتارة يكون بحجم الرمان، وتارة بحجم البيض، وتارة أخرى بحجم البندق أو الحمص أو أصغر، فيصيب به من يشاء إصابة عذاب وانتقام فيهدم البيوت ويكسر الأشجار والزروع ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ أي عمَّن يشاء صرفه عنه رحمةً به ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ أي ضوء برقه الشديد ونوره الباهر ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي يخطفها فلا ترى هذه الأبصار من شدة النور وانبهاره شيئًا.

(٤٤) ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي يتصرف فيهما من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيرًا ويقصر الذي كان طويلًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لدليلًا واضحًا لكل من له بصر يبصر به هذه الآيات البينات وعقل يدرك به وحدانيته.

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ أي من نطفة وهي المنيُّ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات وما شاكلها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ أي كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٖ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من المخلوقات التي لا حصر لها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾.

(٤٦) ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ أي أنزل في هذا القرآن آياتٍ يحكم بهن المؤمنون فيما بينهم، ومنهن حكمٌ وأمثال معينة على بيان المراد للذي يرغب الاطلاع على مراد الله من آياته، ومنهن العبر والعظات فيعتبر ويتعظ بهن ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ أي وإنه يرشد سبحانه إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والأبصار، والبصائر الثاقبة.

(٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المنافقون الذين يظهرون غير ما يبطنون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ وهذا قول بألسنتهم لا من قلوبهم؛ بدليل: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد أن قالوا آمنا وأطعنا ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليسوا صادقين في أقوالهم ولا في قلوبهم.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم الرسول بينهم بحكم الله ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي معرضون عن حكم الله مستكبرين في أنفسهم، هذا إذا كان الحق عليهم ويعرفون نتيجة الحكم.

(٤٩) ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي طائعين مسرعين مقرِّين، ثم قسم الأمر في إعراضهم عن حكومة الله ورسوله إلى ثلاثة أنواع؛ فقال جل وعلا:

(٥٠) ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي نفاق؟ أي كان الإعراض بسببه؟ ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ أم عرض لهم شكٌّ في الدين ونبوَّته ﷺ أو بعدله في الحكم بما يوافقهم؟ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي يخشون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم؟ وأيًا كان السبب على تنوعه فهو كفر محض ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ولا شك أنهم هم الظالمون أنفسهم، والله ورسوله مبرآن مما يظنون، وفي هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم؛ ففي الحديث: «من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حقَّ له»(١) [٦٠٣].

(٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أما المؤمنون بالله ورسوله إذا دعوا للتحاكم بحكم الله ورسوله ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي لا يتأخرون عن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

الجزء الثامن عشر — سورة النور

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٖ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ
وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٞ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل
لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

٣٥٦

بل يهرعون إلى الإجابة ويقولون: سمعنا وأطعنا لحكم الله ورسوله وينفذونه، ولهذا وصفهم الله بالفلاح فقال عزَّ من قائل: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، ثم أثنى الله عليهم ثناءً آخر فقال:

(٥٢) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في جميع ما أنزل في كتابه العزيز ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في جميع ما بلغ من الكتاب والسنة ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي أن يلقاه مذنبًا عاصيًا ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ أي يتق الله فيما أمر وما نهى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك المؤمنون المتَّصفون بهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بكل خير وأمنوا من كل شرٍّ في الدنيا والآخرة، والفلاح والفوز هما شعاران من اتصف بهما دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب ولا عقاب، فقد شملته الرحمة وعمَّه الرضوان.

(٥٣) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي يحلفون لك بأغلظ الأيمان ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ في المستقبل معك إلى الغزو ﴿قُل﴾ يا محمد لهم: ﴿لَّا تُقْسِمُواْ﴾ أي لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة والجهاد ﴿طَاعَةٞ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي طاعتكم معروفة أنها طاعة نفاقية، ولا فعل معها بل هي قول مجرَّد، وحلفكم بالله هو كذب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، وإنَّ النفاق لا يروج عليه.

كل مخلوق يسبح الله، أخلصوا في الطاعة لله ولرسوله فإن النفاق لا يروّج على الله

(١) إسناده ضعيف.

قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى
شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ
وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

٣٥٧

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي اتبعوا أحكام الكتاب والسنة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي حمل إبلاغ الرسالة وقد حملها وقام بها خير قيام ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي مطلوب منكم أن تحملوا قبولها وتنفيذها والدعوة إليها ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ وكيف لا؛ وإنه يدعو إلى صراط مستقيم؟ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي وما عليه من واجب ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي البلاغ الظاهر الواضح.

(٥٥) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي حقَّ الإيمان ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي عملوا بما علموا من الكتاب والسنة ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ليجعلنَّهم فيها خلفاء يتصرفون بها تصرف الملوك في رعيتهم، ويجعلهم ولاةً على الناس، فتصلح بهم البلاد، وتدين لهم العباد ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل من استخلفه الله في الماضي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو دين الإسلام أي يثبته ويقرُّه ويظهره على جميع الأديان ويفتح أهلُه الأمصار والبلدان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي يذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله، وفي الحديث: يا رسول الله: أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة» فأنزل الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [٦٠٤]، وفي الحديث الآخر: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب» [٦٠٥]. ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ أي يفردونني وحدي بالعبادة كلها من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد ودعاء، واستعانة واستغاثة وتوكل ونذر وذبح وحلف، ويتبعون ما أنزلتُ فإن فعلوا فإن لهم ما وعدتهم به من العزِّ والتمكين ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وكفى بذلك ذنبًا عظيمًا أُنقصه من عزه ومجده وتمكينه بقدر ما يُنقص من طاعتي.

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لله وحده في أوقاتها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لله عند استحقاقها ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ لأن طاعته من طاعة الله في كل شأن من شؤون الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي فمن أراد أن يرحم فما من طريق إلى الرحمة إلا عن طريق رسول الله ودينه.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي خالفوك يا محمد وكذبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يعجزون الله في الأرض، بل الله قادر عليهم ومعذبهم أشد العذاب ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيرهم.

(٥٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين وتدخل المؤمنات تغليبًا كما في غيره من الخطابات، والاستئذان كان واجبًا حيث كانوا لا أبواب لهم، ولو عاد الحال لعاد الوجوب، وعلى المماليك أن يستأذنوا بالدخول عليكم، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي من الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي ثلاثة أوقات وهي: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ ففي هذه الأوقات الثلاثة لا يمكِّن المماليك والأولاد الصغار من الدخول عليكم إلا بإذن فقد يستعمل النائم ثيابًا خاصة للنوم تكون شفافة وغير ساترة ويكون مع أهله في فراش واحد. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ﴾ أي إثم ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي المماليك والأطفال الأحرار هم طوافون عليكم وخدمكم فلا بأس ألا يستأذنوا ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على حكمة شرعه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعباده ﴿حَكِيمٌ﴾ بما أمرهم.

وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾

٣٥٨

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ أي إذا بلغ أطفالكم الأحرار مبلغ الرجال ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي وجب عليهم الاستئذان في كل الأحوال في الأوقات الثلاثة وفي غيرها مثلما كان الأطفال قبلهم أي قبل أن يبلغوا الحلم فليستأذن الذين بلغوا الحلم دائمًا أحرارًا كانوا أو عبيدًا ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ التي أنزلها عليكم وبين لكم الحلال والحرام وحدَّ لكم فيها حدوده ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٞ﴾ في شرعه وقدره.

(٦٠) ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ أي بلغن من الكبر سنًّا لم يبق لهنَّ معهـا أملٌ بالزواج ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي إثم ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ أي يضعن جلابيبهن وليس عليهن من التمسك بالتستر ما على غيرهن من النساء لكبر سنِّهنَّ على أن لا يتبرجن بإظهار زينتهن ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾ أي: وإن بقاءهن متسترات هو الخير لهن والأفضل والأكمل ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي بليغ السمع ﴿عَلِيمٞ﴾ كثير العلم.

(٦١) ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ قيل في أسباب نزول هذه الآية أقوال متعددة، أرجحها: هو أنه كان الناس يتحرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره. فكرهوا أن يؤاكلوهم، لئلا يظلموهم؛ فنزلت هذه الآية رافعة لما تقدم من الحرج. وإن هذه الآية وإن كانت نزلت بهذا الخصوص إنما حكمها عام من حيث رفع الحرج عن أهل هذه الأعذار في كل شيء تحول أعذارهم دونه؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي إنما ذكر هذا -وهو معلوم- ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساوي به ما بعده في الحكم. وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم. وبهذا استدل من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه وفي الحديث: «أنت ومالك لأبيك» [٦٠٦] فإذا أكل الأب من بيت ابنه فكأنما أكل من بيته تمامًا ﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وهم خادم الرجل من عبد أو وكيل فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾ أي لا جناح من الأكل من بيوت أصدقائكم إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهونه. ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ فهذه رخصة منه تعالى في أن يأكل الرجل وحده أو مع الجماعة، وإن كان مع الجماعة أبرك ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ وهذا شروع في بيان أدب آخر أدَّب به عباده تعالى: أي إذا دخلتم بيوتًا لكم أو لغيركم فسلِّموا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، وقيل: هذا عام في البيوت والمساجد. قال قتادة: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقيل: إن الملائكة ترد عليه. وفي الحديث: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال: «يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت -يعني بيتك- فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك. يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة»(١) [٦٠٧]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي تتدبرون.

---

(١) حديث منكر.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الفُرْقَانِ (٢٥) آياتها ٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٣٥٩

الله نزّل القرآن ولم يتخذ ولدًا قط، ولا شريك له في الملك

(٦٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يستقر الإيمان في القلب بالله ورسوله ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي على أمر طاعة يجتمعون عليها كالجمعة والنحر والفطر والجهاد ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ وهذا أيضًا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول إلى مصالحهم، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي بعض حاجاتهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أي يأذن لمن شاء منهم ويمنع من شاء حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد أرشد تعالى رسوله ﷺ أن يستغفر لهم لخروجهم من الجماعة فالله كثير المغفرة والرحمة.

(٦٣) ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي أمرهم أن ينادوه: يا رسول الله يا نبي الله، لا أن يقولوا: يا محمد يا أبا القاسم، أي أمرهم أن يعظموه ويشرفوه بلقب الرسالة في لين وخفض صوت، وهذا أيضًا أدب يؤدب به الله المؤمنين في مخاطبة نبيهم ﷺ والكلام معه وعنده ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ (قد) هنا للتحقيق لأن كل(قد) تدخل على المضارع وتتعلق بذات الله تعالى فهي للتحقيق قطعًا، بخلاف ما إذا كانت تتعلق بالمخلوقين فهي للتقليل كما هو معلوم، والمعنى: أن الله تعالى يعلم يقينًا أولئك المنافقين الذين تثقُل عليهم الخطبة يوم الجمعة، فيلوذون ببعض أصحاب النبي ﷺ حتى يخرجوا من المسجد متستِّرين متسلِّلين بدون استئذان، لا كما يفعل المؤمنون الذين لا يخرجون حتى يستأذنوه ﷺ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فليخش الله الذين يخالفون أمر رسوله ﷺ أن تحلَّ بهم فتنة، ولقد جعلها نكرة ليتوقعوا أي فتنة كبيرة لأنها واردة في مقام التهديد والوعيد، أو يحل بهم في الدنيا قبل الآخرة عذاب أليم لا قبل لهم به البتة.

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هما بتصرفه وقهره ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي يعلم حقًا ويقينًا ما أنتم فاعلوه ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي بكل ما عملوا من خير أو شر ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي لا تخفى عليه في ملكه خافية بل هو عليم بكل شيء.

آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنّة(١)

(٢٥) سُورَةُ الفُرْقَانِ

مكية إلا الآيات ٦٨، ٦٩، ٧٠ فمدنية، وآياتها ٧٧، نزلت بعد يس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إن لفظة تبارك لا تستعمل إلا لله تعالى، ومعناها: زاد عطاؤه وكثر ودام وثبت جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه وأنَّ الله تعالى يحمد نفسه الجليلة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم ليكون نذيرًا للناس كافة إنسهم وجنهم، وفي الحديث: «وإني أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي -فذكر منهن- كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» [٦٠٨]. وقوله تعالى:

(٢) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو مالك السماوات والأرض المتصرف فيهما كما يشاء ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي وهو منزَّه عن أن يتخذ ولدًا وكيف يتخذ ولدًا والسماوات والأرض ومن فيهن عبيده وخلقه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي لا أحد شاركه في الخلق ولا في الملك بل هو وحده الخلاق العظيم ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي كل شيء، سواهُ مخلوق ومربوب، وهو خالق كل شيء، وربه ومليكه وإلهه.

---

(١) كتب الشيخ عندها: (٤/ ١١/ ١٣٩٥).

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ
افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ
لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣٦٠

(٣) ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهذا يدل على جهل المشركين، كيف يعبدون مخلوقاتٍ مع الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، هذه المعبودات لن تستطيع أن تخلق جناح بعوضة بل هي مخلوقات لله تعالى ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي إن الذي لا يستطيع أن يؤخر عن نفسه ضررًا ولا يقدم نفعًا فكيف يملك ذلك للناس؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي ليس لهم من ذلك من شيء بل مرجعه جميعًا إلى الله سبحانه الذي هو يحيي ويميت وهو الذي يعيد الخلائق من بعد أن يكونوا ترابًا متفرقين كل ذرة في جهة، فيجمعها متى شاء ويبعثهم ليوم الحساب.

(٤) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ﴾ أي هذا القرآن ما هو ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كذب ﴿افْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه محمد ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي وأعانه على الاختلاق والتزييف جماعة من أهل الكتاب!!! فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وهم يعلمون أنهم لكاذبون.

(٥) ﴿وَقَالُوٓا﴾ أي الأفاكـون الكاذبـون ﴿أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديث الغابرين ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ أي استنسخها ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي تقرأ عليه صباحًا ومساء، وهذا قول متهافت؛ لأنهم يعلمون أن رسول الله ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب ولا يكذب، وكانوا ينادونه بالأمين فلما دعاهم إلى الحق رموه بهذه الأكاذيب.

(٦) ﴿قُلْ﴾ يا محمد وأجبهم: ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ليس هذا القرآن مما يفترى ويختلق بمعونة أحد وكتابة آخرين؛ فقد أنزله الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذه دعوة منه سبحانه إلى التوبة والإنابة؛ فإن مغفرته يعمُّ بها التائبين ورحمته تشمل المنيبين.

(٧) ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نـأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ متكسبًا كما نفعل ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي هلا أرسل معه ملك ليكون له شاهدًا على صدقه فيما يزعم ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ويدعو معه الناس.

(٨) ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفق منه فيستغني به عن طلب الرزق ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي من أثمارها تسير معه حيث سار، وهذا ولا شك هيِّنٌ على الله ويسير وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، ولكن له الحكمة والحجة البالغة في ترك ذلك ﴿وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ﴾ أي حملهم على هذه المطالب ظلمهم، وتعنتهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ وهذا باطل ومخالف لما يعلمون ويتأكدون من سيرته؛ ولكنه الهوى.!!!

(٩) ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ ليتوصلوا بها إلى تكذيبك ﴿فَضَلُّوا﴾ عن طريق الهدى والصواب ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي إنهم كذبوا عليك ولم يجدوا على أقوالهم حجة، فلا يستطيعون حيلةً ولا سبيلًا إلى ردِّك عن مرادك.

(١٠) ﴿تَبَارَكَ الَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي خيرًا من ذلك الذي يقترحون عليك أن يكون لك ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ وفي الحديث: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيًا من قبلك، ولا نعطي أحدًا من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله؛ فقال: «اجمعوها لي في الآخرة»، فأنزل الله عز وجل هذه الآية [٦٠٩].

(١١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، وأنها لم تصدر منهم طلبًا للبرهان حتى إذا اتضح اتبعوا الحق، إنما صدرت منهم تعنتًا وعنادًا وظلمًا وتكذيبًا للحق فأظهر سبحانه ما في قلوبهم من ذلك؛ فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي إن مرادهم التكذيب بيوم القيامة فحسب، ولقد هيَّأنا لمن يكذب بها نارًا هائلة مخيفة مرعبة مفزعة مزمجرة.

يعلمون أنه خالق السموات والأرض ويتخذون من غير قاته آلهة...؟

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا
أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي
هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي جهنم التي تنتظرهم ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قيل: من مسيرة خمسمئة عام وذلك في مقام المحشر ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ حنقًا عليهم وتغيظًا منهم، ولغليانها وفورانها دمدمة كهزيم الرعد، وزفيرها يسمع من جوفها تقول: أفعل هذا في الله ولله أي غضبًا له تعالى.

(١٣) ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ أي مكتَّفين وفي الحديث: «... والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط» [٦١٠]. ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي طلبوا في ذلك المكان الضيق الموت والهلاك ويتمنون ذلك ليستريحوا مِمَّا يعانون من العذاب الذي لا يطاق ولا يحتمل، ولكن هذه أمنية يتمنّونها وما كل أمنية بمستجابة، وتجيبهم الملائكة ردًا عليهم:

(١٤) ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ أي لا تنادوا هلاكًا ودمارًا واحدًا ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي أمامكم ما تدعون ثبورًا وويلات لا تحصى ولا تعدّ.

(١٥) ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي إن السعير والثبور خير ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ أي أيُّ المصيرين خير لكم جزاءً وأحسن مآلًا ومصيرًا أهذه أم تلك؟.

(١٦) ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي في جنة الخلد ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾ أي ما يشتهون من الملاذِّ المنوعة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بلا انقطاع ولا امتناع ﴿خَالِدِينَ﴾ أي دائمين فيها أبد الآبدين ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أي وعدًا أحقّه على نفسه أن يدخل المتقين جنته الخالدة.

(١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي يحشر عباد الأصنام يوم القيامة هم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي وما كانوا يعبدونهم مع الله آلهة أخرى ﴿فَيَقُولُ﴾ أي يقول الله للمعبودين: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ أي أنتم دعوتم هؤلاء من دوني، وهذا يدل على أن هذه الأصنام المعبودة لم تكن معبودة لذاتها أو لأحجارها أو خشبها المصنوعة منه إنما كان الجاهليون يعبدون أصحابها المنحوتة على صورهم، لأنه تعالى يخاطب من عبدوا الذين كانوا عبادًا صالحين وتغالى فيهم الناس من بعدهم حتى عبدوهم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي ضلوا طريق الهدى.

(١٨) ﴿قَالُوا﴾ أي قال العباد الصالحون الذين عُبِدوا من دون الله ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ما صح ولا استقام أن نعتقد أنه يعبد غيرك فكيف ندعوهم إلى عبادتنا مع كوننا لا نعبد غيرك ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ وهذا يدل على أنهم هم ضلوا السبيل، فأهلكوا أنفسهم وأردوها نارًا لا يطاق سعيرها ولا يحتمل.

(١٩) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي إن هؤلاء المعبودين آلهة تبرأوا من أعمالكم وعباداتكم لهم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي لا تستطيعون دفعًا للعذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي يشرك بالله والشرك هو أعظم الظلم للنفس ﴿نُذِقْهُ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي عظيمًا مؤبدًا.

(٢٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وهذا ردٌّ على المشركين الذين استبعدوا أن يكون المرسلون بشرًا، فأخبر تعالى أن جميع الأنبياء والمرسلين من قبلك كانوا بشرًا، مثلك يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق للتكسب والمعاش، فمنهم من كان راعيًا، ومنهم من كان نجارًا، ومنهم كان حدادًا، وهكذا، فهذا لا يضير في مقامهم ولا يمنع أن يبتعثهم الله أنبياء ومرسلين؛ فقد رزقهم الله من الصفات الكاملة والأعمال الفاضلة والخوارق والمعجزات ما يستدلُّ به كلُّ ذي عقل سليم على صدق دعوتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ الخطاب للمؤمنين الذين يختبرهم الله بصبرهم على أذى المتكبرين عليهم بالغنى والعروبة والحرية ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بالمتكبرين وبالصابرين عليهم.

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا
﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ
هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ
يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

٣٦٢

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي هم الكافرون باليوم الآخر: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي هلا أنزلوا علينا فيخبرونا أن محمدًا صادق أو هلا أنزلوا علينا رسلًا يرسلهم الله ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عيانًا فيخبرنا بأن محمدًا رسوله؛ فردَّ الله عليهم: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ليس مرادهم الاستيقان من رسالة محمد ﷺ ولكنهم استكبروا في أنفسهم عن الإيمان به وبرسالته ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي طغوا طغيانًا وصل عندهم أقصى غاياته.

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي لا يرون الملائكة إلا يوم مماتهم ويوم معادهم، فيوم مماتهم تبشرهم الملائكة بالنار وغضب الجبار، ويوم القيامة بالخيبة والخسران، أما بالجنة فلا بشرى بها يومئذ للمجرمين الكافرين، وتقول الملائكة لهم: الجنة عليكم محرمة وممنوعة.

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي وعمدنا إلى أعمالهم التي ظنوها أعمالًا خيرة ولكن الله لم يقبلها؛ لأنها مبنية على الشرك فجعل أعمالهم غير مقبولة ولا مرضية وكأنها الهباء المنثور.

(٢٤) ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي إن الله سبحانه بعد أن ذكر حال الكفار ونهايتهم المرذولة عقب بذكر أهل السعادة، وقارن بينهم وبين أصحاب النار؛ فقال: إن أصحاب الجنة يومئذ أي يوم القيامة خير مستقرًا من أهل النار، والفارق معلوم بين المستقرين وأحسن مقيلًا أي استراحةً من المكانين؛ كيف لا، وأولياء الله على الأَسِرَّة مع الحور العين وأعداء الله مع الشياطين مقرّنين.

(٢٥) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي يوم القيامة تنشق وتنفرج بالغمام وهو ظُلل النور الذي يبهر الأبصار، وتنزل الملائكة يومئذ وتحيط بالخلائق في المحشر.

(٢٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي لا يملك حينذاك أحد، إنما الملك وقتئذ له سبحانه وحده لا شريك له، وفي الحديث: «إن الله تعالى يطوي السماوات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده(١) الأخرى ثم يقول: أنا الملك أنا الديان، أين ملوك الأرض أين الجبارون، أين المتكبرون؟» [٦١١] أي لا أحد منهم يومئذ ولم يبق إلا وجه الله تعالى ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي شديدًا وصعبًا.

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من الندم وهو عقبة بن أبي معيط الذي أسلم ثم ارتد ومن كان على شاكلته، فلا ينفعه ندمه شيئًا ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي ياليتني سلكت طريق محمد ﷺ وآمنت بالله وبه ونصرته حتى أنجو وأفلح.

(٢٨) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ هذا الذي صرفني عن الهدى وزين لي طرق الضلال، وهو خليله أُبيّ بن خلف.

(٢٩) ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي عن القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي بعد أن بلغني عن محمد ﷺ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي يخذله ويغويه ويستعمله في الباطل ويصرفه عن الحق.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي هؤلاء قومي الذين أرسلتني إليهم بهذا القرآن، أكثروا اللغط فيه وهجروه وتركوه ولا آمنوا به، ولم يحاولوا أن يتدبروه ويعقلوه ويهتدوا به.

(٣١) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ، أي لا تجزع يا محمد فقد قدّرنا أن يكون لكل نبي أو رسول أرسله إلى قوم أن يكون من بينهم جماعة أعداء لرسولهم وأنت كذلك، فلك أسوةٌ بهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي إن الله يكفيك فهو النصير والهاد.

(٣٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومه ﷺ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي هلا أنزل هذا القرآن دفعةً واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة؛ فرد الله تعالى عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي نزلناه كذلك منجمًا في ثلاث وعشرين سنة، بحسب الوقائع من أجل أن نثبت قلبك به وقلوب المؤمنين بتنزيله، وجعلناه مرتلًا ترتيلًا أي ينزل آيةً بعد آية، وبيناه تبيينًا وفصَّلناه تفصيلًا.

(١) وكلتاهما يمين، واليد صفة حقيقية له تعالى، معلومة الحقيقة، مجهولة الكيفية.

أهل الجنة يقيلون مع الحور العين، وأهل النار مع الشياطين مقرّنين!

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا
وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ
كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ
مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٦٢

(٣٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي لا يأتيك المشركون بشبهة إلا وجئناك في مقابلة شبهتهم بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاءوا به من الشبه فيدفعها، ويدفع مقالتهم بما هو أبين وأفصح وأحسن تفسيرًا وبيانًا مما جاءوا به واقترحوه.

(٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ وهذا بيان حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وكيف أنه يحشرهم في أسوأ حال يسحبون على وجوههم بسبب أنَّ كفار مكة قالوا: إن محمدًا وأصحابه شرُّ خلق الله فنزلت هذه الآية ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي منزلًا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا.

(٣٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ثم شرع الله تعالى يتوعَّد المشركين ويعدد لهم ما فعل بالأمم التي خالفت رسلها فيما مضى من عقابه وأليم عذابه فبدأ بذكر موسى عليه السلام فقد أنزل عليه التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ أي يحمل معه أعباء الرسالة ويقوم بالدعوة نبيًا ورسولًا يؤازره.

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بالآيات التسع، ووصفوا بالتكذيب عند الحكاية لنبينا محمد بيانًا لعلة استحقاقهم للتعذيب: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناهم إهلاكًا تامًا بكفرهم ولم نبقِ لهم باقية.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ لأن تكذيبهم لنوح بمثابة تكذيب الرسل بعده إذ لا فرق بين رسول ورسول ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي وجعلنا قصة إغراقهم آيةً للناس يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وادخرنا لهم عذابًا يوم القيامة لا يطاق ولا يخفف.

(٣٨) ﴿وَعَادًا﴾ أي قوم هود عليه السلام ﴿وَثَمُودَا﴾ وهم قوم صالح عليه السلام ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ وهم بفلج من قرى اليمامة بنجد، والرس بئر رسوا فيها نبيهم ودفنوه فيها ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي وأممًا متخللة بين الأمم المذكورة كثيرة جدًا، وأضعافًا لمن ذكرنا.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي وكل قوم ممن ذكرنا أقمنا عليه الحجج ووضحنا لهم الأدلة بواسطة أنبيائنا ورسلنا ﴿وَكُلًّا﴾ من الأقوام السالفة الذكر ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكناهم إهلاكًا مستأصلًا، وهذا كله تسلية لرسوله ﷺ وتأسيةٌ بالرسل قبله ﷺ وإنذارًا وتهديدًا لمشركي العرب أن يحلَّ بهم من الدمار ما حلَّ بتلك الأمم.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي سدوم التي قلبها جبريل بأمر الله وأمطرها بحجارة من سجيل، أي ألم يأت مشركو مكة هذه القرية ألم يعرفوها ويعرفوا أخبارها ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في أسفارهم إلى الشام ويتعظوا بما حلَّ فيها وفي أهلها من الدمار ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي كيف يتعظون برؤيتها وهم لا يؤمنون بلقاء الله ولا بالبعث ولا النشور.

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ويقولون مستهزئين: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي يتنقصونه ويستخِفُّون به.

(٤٢) ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي قارب محمد بما أوتي من سحر الكلام أن يصرفنا عن آلهتنا وعبادتها ويثنينا عما كان عليه آباؤنا من تعظيمها وتقديسها، قارب أن يفعل محمد بنا ذلك ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لولا أن بقينا مستمرين على عبادتها وصبرنا على تسفيهها من قبل محمد وأصحابه وآلينا على أنفسنا أن لا نتركها، فرد الله عليهم مهددًا متوعدًا بقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي وإنهم سوف يعلمون جيدًا حين يرون العذاب حائقًا بهم ويتأكدون من خاتمتهم المرذولة عندها يعلمون من أبعد طريقًا عن الحق أهم؟ أم محمد وأصحابه؟.

(٤٣) ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي انظر إليه يا محمد وتعجب كيف اتخذ كل شيء رَغِبَه و هوته نفسه إلهًا!! أي يطيع هوى نفسه فلا يهوى شيئًا إلا اتبعه!!! ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي لست تقدر يا محمد على ذلك لأنك لست عليه وكيلًا ولا حفيظًا، وإنما عليك البلاغ.

(٤٤) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي أتظن أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم أو يعقلون معاني ذلك حتى تعتني بشأنهم وتطمع بإيمانهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي كالبهائم الصم البكم الذين لا يعقلون ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من البهائم التي تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأصحابها.

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي ألم تبصر إلى صنع ربك كيف أنه مدَّ الظلَّ من طلوع الشمس إلى مغربها، ويقال: إن الظل ما نسخته الشمس، والفيء ما نسخ الشمس، ولو شاء الله سكونه لجعله ساكنًا ثابتًا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي لولاها ما عرف الظل.

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى على الأرض ظلٌّ بعد غياب الشمس حتى يذهب بالكلية، وفي ذلك دليل على قدرته تعالى وعظمته وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام وذو الطول والإنعام.

(٤٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه بالظلام ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي قاطعًا للحركة لراحة الأبدان فيحصل النوم المريح للروح والبدن ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي زمن بعثٍ من ذلك السُّبات، فشبَّه اليقظة بالحياة كما شبَّه النوم بالسبات الشبيه بالممات حتى يتذكر الإنسان أن نومه شبيه بالموت ويقظته شبيهة بالبعث والنشور، فلا ينسى أن يستعد في حياته الدنيا لما ينجيه في الآخرة، فيحوز على رضاه سبحانه في الدنيا والآخرة، وفسَّر النشور بانتشار الناس فيه لمعايشهم.

(٤٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي أرسل الرياح مبشراتٍ بمجيء السحاب ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي يتطهر به الناس من الحدثين والأوساخ والأدران.

(٤٩) ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ فتختلف فيه بإذن الله أصناف النَّوابت والأشجار والأزاهير ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسيّ محتاجين إليه لشربهم وزروعهم وثمارهم من أجل سقايتها.

(٥٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ليتفكروا ويعتبروا ويعلموا أنَّ هذا المثل من إحياء الأرض الميتة: أنه سبحانه قادر على إحياء الأموات والعظام والرفات، أو أن منع المطر إنما كان بذنب أصابه الناس فيقلعون عن ذنوبهم حتى يرفع البلاء عنهم ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي الذين يقولون مطرنا بالنَّوء.

(٥١) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي رسولًا ينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، ولكنَّا أرسلناك للناس كافةً فقابل ذلك بشكر النعمة لله عز وجل ليعظم عنده أجرُك.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ
مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۩ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

٣٦٤

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يهوون ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي جاهد الكفار بالقرآن ولا تبق من مجهودك في نصرة الحق وقمع الباطل إلا بذلته ولو لاقيت ما لاقيت فلا تيأس.

(٥٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي وإن الله تعالى هو الذي خلق الماءَين ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي حلو كالأنهار والعيون ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مالح مرٌّ لا يستساغ كالبحار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ يبسًا من الأرض ﴿بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي حاجزًا ومانعًا يمنع وصول أحدهما إلى الآخر.

(٥٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي من النطفة خلق إنسانًا ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي جعل منه المحارم التي لا يحل التناكح بينهم، وجعل بينهم أيضًا ما يجوز التناكح معه وهو الصهر وكل ذلك من ماء مهين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي يخلق ما يشاء وهو وحده القادر على ذلك.

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وإن المشركين بعد علمهم بأن الله هو الخالق وحده، ثم يعبدون ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن عبدوه أو تركوه. ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي عونًا للشيطان على حزب الله!!! وحزب الله لا شك ولا ريب هم الغالبون وحزب الشيطان هم المقهورون.

واتخذ بالجهاد بالقرآن حجة ودليلا، ولا تيأس فالله ناصرك

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟
لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

٣٦٥

(٥٦) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين من النار، وما بُشِّر المؤمن إلا لإيمانه وما أُنذِر الكافر إلا لكفره.

(٥٧) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي بإبلاغ هذا القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تؤدونه لي، لا، إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا يتصل برضاه سبحانه وذلك بإنفاق ماله في مرضاته تعالى فلا أمنعه من ذلك بل أحضُّه.

(٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأن الحي هو الذي يوثق به في المصالح، والدوام والبقاء لله تعالى دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي اقرن بين تسبيحه وحمده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» [٦١٢]، أي أخلص له العبادة والتوكل ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ وكفى بالله ربًا هو أعلم من كل أحدٍ بذنوب عباده وكفى به خبيرًا لا تخفى عليه منها خافية فما على عباده إلا أن يوحدوه ويتوبوا إليه.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي وما بينهما من مخاليق لا يعلمها إلا هو سبحانه ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الاستواء: صفةٌ لله تعالى، ومعنى استوى على العرش: أي علا عليه علوًا مطلقًا لا يشبه علوَّ المخلوقين ولا استواء المخلوقين في شيء، وليس معناه استولى كما يقول المؤوِّلة. فلا يقال استولى على الشيء إلا إذا كان له ندٌّ فإذا غلب أحدهما الآخر قيل له: استولى وحاشا الله من ذلك ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ والمراد بالخبير هو الله تعالى، لأنه لا يعلم بذلك إلا هو، ولا يسأل الخبير إلا على جهة التوكيد.

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي لله تعالى، ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي لا نعرف الرحمن ولا نُقِرُّ به ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي لمجرد قولك؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفورًا عن الإيمان.

(٦١) ﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم وتمجد وتقدس ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وهي الكواكب العظام ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ أي شمسًا ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أي مضيئًا ينير الأرض إذا طلع.

(٦٢) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يخلف كلٌّ واحدٍ منهما الآخر يتعاقبان ولا يفتران ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي أن يتعظ ويعتبر باختلاف الليل والنهار على أنه لا بد لانتقالهما من حالٍ إلى حال من ناقل ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي لعبادة الله ومعرفة أوقات العبادة فيها.

(٦٣) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي بتواضع ووقار يدل بهما على أخلاقه المتواضعة الوقورة لا تجبرًا ولا استكبارًا بل بسكينة من غير تصنع أو رياء ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي وإذا سفه عليهم الجهال ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي لم يقابلوهم بالسَّيء من القول.

(٦٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ أي في طاعته وعبادته قيامًا على أقدامهم وسجدًا على وجوههم.

(٦٥) ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي هم مع طاعاتهم خائفون من عذابه ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي إحراقها أشد إحراق.

(٦٦) ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي بئس المنزل منظرًا وبئس المقيل مقامًا يهوي في النار فيسقى من سمِّ الأساود والعقارب فيتميز الجلد عن الشعر والعصب والعروق.

(٦٧) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ أي ليسوا مبذرين ومتلفين ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ وليسوا أشحاء ولا بخلاء ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي على العدل والاستقامة لا مبذرين ولا بخلاء إنما في حال بينهما، وفي الحديث: «ما أحسن القصد في الغنى وما أحسن القصد في الفقر وما أحسن القصد في العبادة»(١) [٦١٣]، وهؤلاء هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله جلَّ وعلا.

(١) إسناده ضعيف جدًا.

استوى على العرش حقيقة بلا تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي
لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٣٦٦

(٦٨) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا يعبدون مع الله معبودًا غير الله تعالى وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، قال عبد الله -وهو ابن مسعود- وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ...﴾ الآية. أخرجاه [٦١٤] ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بما يحق أن نقتل به النفوس من كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس. وفي الحديث: إن أناسًا قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ ...﴾ ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ...﴾ [الزمر: ٥٣]. [٦١٥]، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي لا يفعلون فعل الزنى وفي الحديث: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفةٍ وضعها رجل في رحمٍ لا يحلُّ له»[(١)] [٦١٦]، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ الأثام: أودية في جهنم يعذب فيها الزناة. وفي الحديث: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره...» [٦١٧] وهذا يشمل ما تقدم من الكبائر أي من تجرأ على الشرك والقتل والزنى على أن مَنْ يشرك فهو خالد مخلد في النار أما غيره من الآثام فلا يخلد فاعله.

(٦٩) ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي يضاعف أضعافًا ويزداد ويغلظ ويخلد في العذاب حقيرًا ذليلًا، والخلود هنا عبارة عن طول المكث لا الخلود المؤبد لأنه ما بلغ إثم الشرك.

(٧٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي إذا تاب من الشرك وآمن بالله ووحده وتاب من جرم القتل والزنى توبةً نصوحًا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إن السيئات تنقلب بالتوبة النصوح حسناتٍ بفضل هذه التوبة، لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعةً وكل سيئةٍ حسنةً في صفحته وفي الحديث: عن أبي فروة أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلًا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجةً ولا داجة فهل له من توبة؟ فقال: «أسلمت؟» فقال: نعم، قال: «فافعل الخيرات واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها»، قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: «نعم»، فما زال يكبر حتى توارى. [٦١٨].

(٧١) ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي تاب حق التوبة. وهي التوبة النصوح وإن الله تعالى يقبلها منه.

(٧٢) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يشهدون الشهادة الكاذبة ولا يحضرون مجالس الزور: أي الشرك والكذب والفسق والغناء والخمر والخنا وأعياد المشركين ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي لا يحضرون مجالس الزور وإذا اتفق ومروا بها مروا ولم يتدنسوا بها.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لا يخر عليها أصم أعمى بدون فهم وتدبر، فلا ينبغي للمؤمن المسلم أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح.

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي أولادًا صالحين ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي قدوةً يقتدى بنا في الخير. وفي الآية دلالة، على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب ويرغب فيها.

(٧٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ وهي الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي تبتدرهم الملائكة بالتحية والسلام.

(٧٦) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي حسنت منزلًا وطابت مقرًّا وإقامة.

(٧٧) ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ أي ما يكترث بكم ربي ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي لولا عبادتكم لأنه خلقكم من أجلها ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يا أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي سيكون عذابكم لزامًا عليكم في الدارين بما كذبتم الرسول وما أتى به من الرسالة، فما دمتم التزمتم تكذيب ما أنزل إليكم من الحق فقد ألزمت نفسي بتعذيبكم أبد الآبدين ودهر الداهرين.

آخر تفسير سورة الفرقان ولله الحمد والمنّة والفضل[(٢)]

(١) إسناده ضعيف.

(٢) كتب الشيخ: (١٠/ ١١/ ١٣٩٦).

أعظم الذنوب الشرك ثم قتل الولد ثم الزنى بحليلة الجار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ
كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

٣٦٧

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكية إلا آية ١٩٧ ومن آية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية، وآياتها ٢٢٧، نزلت بعد الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ أما الكلام على الأحرف المقطعة في أوائل السورة، فقد تكلمنا عليه في أول سورة البقرة فليرجع إليها من شاء.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي البين، الفاصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي مهلكها من شدة ما تحرص وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ألا يكون قومك مؤمنين بما أنزل إليك من الحق.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي لو نشاء لأنزلنا معجزة تضطرهم إلى الإيمان، ولكن لا نريد إلا الإيمان الاختياري لا الإجباري ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي إذا ذلت رقابهم ذلوا فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، ولما وضعت الأعناق بصفات العقلاء، وصفت بما يوصفون به.

(٥) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء من كتب الله المنزلة، محدث التنزيل أولي النوع أي من حيث أنه كلام الله فهو أوليّ بأولية الذات لأن الصفة تابعة للموصوف ومن حيث أنه نزل في زمن محدثٍ بعد غيره صار من هذا القبيل محدث التنزيل أي ذكر محدث التنزيل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي إلا وأعرضوا عما جاء فيه من الحق والهدى.

(٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي كذبوا بهذا الحق ثم انتقلوا إلى الاستهزاء فسيعلمون ما سيحيق بهم من النكال.

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي لو انتبه هؤلاء المستهزئون إلى قدرته تعالى في إنبات الأرض بأنواع الأشجار والثمار والأزاهير لما استهزؤا وكذبوا المرسلين.

(٨) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ إن في تأملهم في خلق الله لعبرةً وعظةً تدعوهم إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ومع هذا ما آمن أكثرهم.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي لا غالب له ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأنصاره وأوليائه.

(١٠) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ناداه من جانب الطور الأيمن وأمره بأن يذهب إلى القوم الظالمين.

(١١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي ألا يخافون عقاب الله تعالى.

(١٢) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ في الرسالة ويرموني بالافتراء.

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ لتكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ في تأدية الرسالة للعقدة التي فيه، فأطلق لساني من هذه العقدة ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي إلى أخي هارون فهو أفصح لسانًا مني.

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ وهو أنني قتلت القبطي لما استغاثني[1] عليه الإسرائيلي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي أن يقتلوني بالقبطي.

(١٥) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ لا تخف ولا يقعدك عن تنفيذ أمري هذه الأعذار فسنحل عقدة لسانك وسنرسل معك أخاك هارون ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بمعجزاتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ ليست مجازًا وإنما هي معية حقيقية بلا كيف كسائر صفاته تعالى لأن في تأويل الحقيقة إلى مجاز تعطيلًا لمعنى صفة المعية.

(١٦) ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ أي اذهبا إليه ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك ولقومك لنخبرك بأن الرب هو الله لا أنت، وأنه هو المعبود وحده لا أنت.

(١٧) ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلقهم من إسارك وتعذيبك فإنهم عباد الله المؤمنون. والمعلوم أن إسرائيل وبنيه استوطنوا مصر في زمن يوسف.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ أي فرعون ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ أي يوم التقطناك من اليمّ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه من النبوة أنت وأخوك؟

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ أي يوم قتلت القبطي أحد أتباعنا ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ثم أنت الآن بعد نعمنا عليك من الكافرين بألوهيتنا!!

(١) هذه استغاثة مخلوق بمخلوق يستطيع إغاثته، فلا مانع منها لأنها استغاثة عادة، ولا حجة بها لمن يجيزون الاستغاثة بميت أو غائب في أمر لا يستطيع إغاثته به أحد إلا الله تعالى كالنصر على الأعداء مثلًا فهذه استغاثة عبادة، فمن صرفها لغير الله ومات عليها فهو مشرك مخلد في النار.

سورة الشعراء

الله هو الرب وحده لا أنت يا فرعون وأنه المعبود وحده لا أنت

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

٣٦٨

(٢٠) ﴿قَالَ﴾ موسى لفرعون ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي أنا الذي فعلت قتل القبطي حينما كنت من الجاهلين وقبل أن يمنَّ الله علي بالهداية والرسالة.

(٢١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي فررت خوف العقاب منكم ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي نبوة وعلمًا وفهمًا ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي أرسلني الله إليك.

(٢٢) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ أي تمن علي بتربيتي؟!!! ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي تمن علي بأن ربيتني وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم!؟

(٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي يستنكر أن يكون رب للعالمين غيره ومَنْ هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ قالها كفرًا وتمردًا وطغيانًا.

(٢٤) ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي هو وحده خالق السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما من المخاليق التي لا يعلمها ولا يحصيها إلا هو تبارك وتعالى وتقدس لا شريك له فإن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فاليقين بالله أولى من كل شيء.

(٢٥) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من رعيته وحُجَّابه ووزرائه ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي ألا تعجبون من هذا الذي يزعم أن لكم إلهًا غيري!!!؟ ألا تستمعون إلى قوله الذي يقوله منكرًا ألوهيتي!

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقد أراد فرعون اللعين أن يغالط موسى فأورد موسى عليه حجة أخرى هي مندرجة تحت الحجة الأولى وهي قوله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لينفي عن فرعون الربوبية بل ليظهره أمام رعيته أنه مربوب هو ورعيته وآباؤهم أجمعين لرب السماوات والأرض الذي خلقهم لا فرعون، والذي يرزقهم هو لا فرعون، وجب أن يعبدوا الله وحده لا فرعون لأن من خلق ورزق هو الذي يستحق أن يعبد.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ فرعون لهم ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ليتهكَّم من موسى ويغالطه ولإيقاع رعيته بالحيرة، ولكن موسى كان له بالمرصاد فلم يقع في فخِّ المغالطة الذي نصبه له.

(٢٨) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإن كان فرعون ربًا كما يدعي فليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا إن استطاع، ولما بهت فرعون وسقطت حجته عدل إلى استعمال القوة والسلطان كما يفعل الجبارون بالمصلحين، واعتقد أن القوة والسلطان تنفعه.

(٢٩) ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ فلما لم يعد في جعبته أية حجة حتى ولا مغالطة هدَّده بالسجن.

(٣٠) ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ من المعجزات؟

(٣١) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي هات هذا الشيء من معجزاتك إن كنت صادقًا في دعواك.

(٣٢) ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي ثعبان ظاهر في غاية الظهور والوضوح أمام جميع الحاضرين.

(٣٣) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي ضمَّها موسى إلى جناحه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي فإذا هي تتلألأ من ضيائها كأنها قطعة من القمر فأصرَّ فرعون على كفره وعتوه وعناده وتكذيبه منكرًا ما رأى من الحق والحجة.

(٣٤) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي لم يعترف بنبوة موسى بل عزا ذلك إلى السحر والبراعة فيه، لا إلى أنه معجزة ظاهرة.

(٣٥) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ وهذا نوع آخر من تأليب رعيته على موسى فزعم أن موسى يريد أن يسلب أرضكم ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ هذا ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي ما تصنعون؟

(٣٦) ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي قوم فرعون ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أجلهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي لحين أن تستنفر السحرة من كل البلاد وتحشرهم هنا.

(٣٧) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يأتون بأعظم مما أتى به موسى.

(٣٨) ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي ليوم عينه وسماه فرعون لاجتماع السحرة.

(٣٩) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي لرعية فرعون من القبط الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ في الموعد؟

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

٣٦٩

كفر السحرة بفرعون، وآمنوا وسجدوا لربِّ العالمين

(٤٠) ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ والمراد باتباع السحرة في دينهم هو البقاء على ما كانوا عليه من الكفر، ولم يقولوا نتبع الحق أيًا كان.

(٤١) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ إلى مجلس فرعون من الأمصار ﴿قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي هل لنا أجرٌ منك إذا نحن تغلبنا على موسى.

(٤٢) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن لكم لأجرًا عظيمًا مني وليس هذا فحسب ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي وأجعلكم من الخواص المقربين عندي وجلسائي

(٤٣) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي هيا وابتدئوا بإلقاء ما لديكم من السحر ولكن اتقوا الله ولا تكذبوا عليه وعلى الناس.

(٤٤) ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ المزأبقة والمموَّهة بالدجل ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فاستعانوا بعزة عبد ضعيف وأقسموا أنهم الغالبون.

(٤٥) ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي فإذا هي ثعبان عظيم هائل مخيف تبتلع كل هذه الترهات والمخرقات من العصي والحبال ولم تذر منها شيئًا.

(٤٦) ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ فلما رأى السحرة فعل عصا موسى التي انقلبت إلى ذلك الثعبان علموا أن هذا الأمر ليس سحرًا ولا مخرقةً إنما هو الحق الأبلج فخروا سجدًا مؤمنين برب العالمين.

(٤٧) ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي برب كل موجود في السماوات والأرض وما بينهما مما يرى وما لا يرى، لا إله إلا هو ولا ربَّ سواه.

(٤٨) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أضافوه سبحانه إلى موسى وهارون لأنهما القائمان بالدعوة إليه تعالى ولا يخفى ما في كلامهم من التبكيت بفرعون وأنه ليس برب، وأن الرب هو الله رب العالمين.

(٤٩) ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي كان عليكم أن تستأذنوني فيما فعلتم حتى إذا أذنت لكم بالإيمان آمنتم!!! ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي هو كبيركم في السحر وهو الذي علمكم مع أنهم قبل برهة كانوا يقسمون بعزة فرعون فكيف علمهم السحر، ولكن اللعين قد طاش فبدأ يتكلم بما لا يعقل ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي اليد اليمين والرجل اليسار ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ حتى تموتوا.

(٥٠) ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ أي لا نبالي بما ستفعل بنا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي عائدون إليه سبحانه الذي يجزي العاملين.

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي نؤمل منه تعالى أن يغفر لنا ما أخطأناه من مطاوعتك بعمل السحر الذي أكرهتنا عليه ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بسبب ما آمنا بك وكنا أول المؤمنين من القبط قومنا، وفي هذا توسل مشروع بالإيمان الذي هو أعلى الأعمال الصالحة هذا التوسل الذي سها عنه كثير من المسلمين.

(٥٢) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ المؤمنين ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي سوف يلحق بكم، فخرج موسى ببني إسرائيل ليلًا.

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أسرع بحشر الجند ونادى:

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي طائفة قليلة من المنبوذين.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي رغم قلتهم يغيظوننا في أعمالهم ومستديمون في فعلهم هذا كأننا في أنظارهم لسنا قادرين عليهم وسوف يعلمون.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي نحذر من غائلتهم أن يباغتونا يومًا ويستولوا على الحكم ويخرجونا من ديارنا ولا نستطيع عندها أن نفعل شيئًا.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي فأخرجهم الله ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي مما كانوا فيه من الحدائق والبساتين والينابيع والمنازل العالية والملك والجاه.

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي خرجوا جميعًا وتركوا أملاكهم من مساكن طيبة وأموال من ذهب وفضة وكنوز لا تنفد خارجين في إثْر موسى وقومه.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي جعلنـــاها ملكًا لهم يتمتعون بها بعد أن عاشوا أذلاء مهانين لفرعون، فقهر الله فرعون إلى أبد الآبدين.

(٦٠) ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي لحق فرعون وجنوده بني إسرائيل عند شروق الشمس في جيش كبير من الجند والوزراء والكبراء وأولي الشأن والحلِّ والعقد.

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب
بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ
نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ
نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ
تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

(٦١) ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي جمع بني إسرائيل وجمع فرعون وجنوده ورأى كلٌّ منهما الآخر ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ أي سيدركنا فرعون.

(٦٢) ﴿قَالَ﴾ موسى لهم ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ وهذه ثقة لا حدَّ لها من موسى بربه الذي هو أمره أن يسري بهم فلن يضيعهم.

(٦٣) ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فصار اثني عشر فلقًا بعدد الأسباط وارتفع الماء عن الطرفين كالجبل.

(٦٤) ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه فأسرع فرعون وجنوده ليدركوا موسى وقومه حتى سلكوا مسالكهم في البحر.

(٦٥) ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ أي أنجى الله موسى عليه السلام وقومه وخرجوا جميعًا إلى الضفة الشرقية من بحر القلزم وفرعون كاد أن يدركهم.

(٦٦) ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ لأن فرعون وجنده كان يمشي في قاع البحر لاحقًا بموسى وقومه وما كاد يخرج آخر واحد من أصحاب موسى حتى انطمَّ البحر عليهم وعاد بحرًا متصلًا كما كان وبقي في جوفه فرعون وجنوده لم ينج منهم أحد.

(٦٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي لمعجزة ذات عبرة وعظة لمن يتعظ ويعتبر ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي ما كان مع فرعون في الأصل أحد من المؤمنين إلا حزقيل وابنته وآسية امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون والعجوز التي دلَّت على قبر يوسف الذي أخذ منه تابوته ونجا مع بني إسرائيل، ومن عجب أن يرى المسلم بعض الفرق المبتدعة يقولون بنجاة فرعون وإيمانه ولا يزال هؤلاء بين ظهراني الأمة يقولون بهذه المقالة الشنعاء ندعو الله أن يهديهم وإلا فندعوه أن يحشرهم مع فرعون أينما كان!!!

(٦٨) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه والرحيم بأوليائه.

(٦٩) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عبد الله ورسوله وصفيه وخليله.

(٧٠) ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر ولا شك، خلافًا لمن يقول إنَّ آزر ليس أباه إنما هو عمه، وهؤلاء الذين يقولون هذا القول هم المتنطعون، وغاية أمرهم أنهم لا يطيقون أنْ يقال إنَّ أحدًا من الأنبياء كافر الأب، كأن الأمر آل إليهم وهم الذين يصنفون الناس هذا كافر وهذا مؤمن ﴿وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي قال: ما هذه التي تعبدونها من دون الله؟

(٧١) ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي نعبدها.

(٧٢) ﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ أي هل يسمعونكم حينما تدعونهم وتضرعون إليهم وتنادونهم في الملمات؟ أم أنهم لا يسمعونكم وأنهم عن دعائكم غافلون!!!

(٧٣) ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ أي هل بوسعهم نفعكم أو ضركم؟

(٧٤) ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي أنهم أقروا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تعي ولا تسمع فلما سقطت حجتهم تذرعوا بما وجدوا آباءهم عليه من عبادتها فهم يعبدونها تقليدًا لهم.

(٧٥) ﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ من الأصنام.

(٧٦) ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ من دون علم أو حقٍّ أو هدى.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإنني عدو للأصنام ولا أبالي بها.

(٧٨) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ أي إن الذي خلقني من العدم هو الذي وحده يهديني إلى خير سبيل يوصلني إليه، وأقرب طريق.

(٧٩) ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ أي هو الذي يرزقني رزقًا هو قدَّره، وإن طعامي وشرابي هما رزق منه وقد وصلا إلي بقدره.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ أي وإذا قدَّر مرضي فهو الذي يقدِّر شفائي، وليس من أحد يستطيع أن يمرضني أو يشفيني إلا هو.

(٨١) ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ أي وهو الذي إذا انتهى أجلي الذي حدده يميتني بلا تقديم أو تأخير، وهو الذي يبعثني ليوم الحساب.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أي وهو الذي أرجوه أن يغفر لي ذنبي وخطاياي يوم القيامة يوم الجزاء والعقاب.

(٨٣) ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي اللهم هب لي العلم والفهم واجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: «اللهم في الرفيق الأعلى» [٦١٩].

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ
إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
الحزب ٣٨ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

(٨٤) ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي واجعل لي ذكرًا جميلًا وثناءً حسنًا من بعدي إلى يوم القيامة أذكر به ويقتدى بي في الخير دائمًا.

(٨٥) ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي أنعم علي في الآخرة بالجنة واجعلني ممن يرثونها، وقد جعلها مما يورث تشبيهًا بغنيمة الدنيا.

(٨٦) ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذا قد رجع عنه إبراهيم عليه السلام فيما بعد، بعد أن تأكد أنَّ أباه عدوٌّ لله عندها تبرأ منه.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بمعاتبتي على بعض الذنوب والعقوبة عليها، بل أسعدني يومئذٍ.

(٨٨) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي إن يوم القيامة لا تنفع فيه الأموال فليس هناك فداء، ولا ينفع البنون أن يفتدوا أباهم من العذاب.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي لا ينفع يوم القيامة إلا من أقبل على الله وقلبه مليء بالتوحيد والإيمان، سليم من الشرك والشكِّ والكفر.

(٩٠) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي أدنيت وقربت من المتقين.

(٩١) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي بدا عنقها وزفرت زفرة تغيُّظ، بلغت منها القلوب لدى الحناجر، وقيل لأهلها تقريعًا:

(٩٢) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي لم لا نراهم معكم!!!؟ فلعلكم تستغيثونهم كما كنتم تستغيثونهم أمس في الدنيا؟

(٩٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي دعوتموهم واستغثتموهم من دوني فهيا ادعوهم اليوم ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم؟

(٩٤) ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ أي في جهنم ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي ألقوا فيها على رؤوسهم، العابدون والمعبودون برضاهم.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من الجن والإنس ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أي كلهم.

(٩٦) ﴿قَالُوا۟﴾ أي العابدون والمعبودون ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي يتخاصمون في جهنم ويتلاومون!!

(٩٧) ﴿تَٱللَّهِ﴾ أي قسمًا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي لقد كنا حين سولتم لنا طاعتكم كافرين كفرًا ظاهرًا.

(٩٨) ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي نطيعكم كما يُطاع أمرُ ربِّ العالمين فعبدناكم معه، وسويناكم به وجعلناكم مثله.

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الذين اقتدينا بهم.

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يشفعون بنا؛ لأننا أشركنا بربنا.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي قريب كثير المودة يشفع لنا عنده.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنهم لكاذبون فلو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن فيما تقدم لدليلًا وعبرةً ودافعًا لإيمان قريش ومن دان دينها.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القاهر لأعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه أبلغهم بأنه سيأتي من بعده مرسلون يدعون الناس كما يدعوهم فكذبوه.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله تعالى فتوحدونه وتفردونه في جميع أنواع العبادة وتطيعونه في أوامره ونواهيه.

(١٠٧) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي على ما أبلغكم به من الحق الذي أمرني به الله تعالى، فلا أخون أمانة ربي في زيادة أو نقصان.

(١٠٨) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي كونوا في خشية من الله تعالى واتقوا الله في أوامره ونواهيه وأطيعوني فيما أبلغكم من الحق عنه.

(١٠٩) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغي إياكم دعوة الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ منكم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أدخر أجري عنده.

(١١٠) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فقد وضح لكم صدقي ونصحي وأمانتي فأطيعوني فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك والمشركين.

(١١١) ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي أنؤمن برسالتك ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي المستضعفون، استبعدْهم فإنهم لا يساوونا في المكانة.

سورة الشعراء

لا يجوز الاستغفار لمن مات مشركًا • لا شفاعة لمشرك

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
(١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن
مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
(١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ
عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣)
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)

٣٧٢

(١١٢) ﴿قَالَ﴾ نوح لهم ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباعهم لي مهما كان شأنهم إنما عليَّ أن أقبل إيمانهم، والله يتولى سرائرهم.

(١١٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي وإن الله هو الذي سيحاسبهم على ما يكتمون من خير أو شر، لو كنتم تفهمون أو تشعرون.

(١١٤) ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس لي أن أطرد المؤمنين، وكيف أطردهم! وقد آمنوا بالله ووحَّدوه ولا يمنعني من قبول أحد منهم كونه وضيعًا.

(١١٥) ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما أنا إلا نذير موضح لما أمرني الله به أن أبلغه إليكم، وقد فعلت ما أمرت به وما عليَّ غير ذلك من شيء.

(١١٦) ﴿قَالُوا﴾ أي قوم نوح ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ عن دعوتنا لترك أصنامنا وعبادة إلهك وحده ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي لنقتلنك رجمًا بالحجارة.

(١١٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ولما فرغ صبره ولم يبق له أمل بإيمانهم رغم دعوته لهم ما يقارب ألف سنةٍ شكا أمره إلى الله من تكذيبهم ودعا عليهم.

(١١٨) ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي احكم بيني وبينهم حكمًا بعذاب لا يغادر أحدًا منهم ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من عذابك.

(١١٩) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، وأنجينا نوحًا ومن اتبعه جميعًا، وما آمن معه إلا قليل منهم.

(١٢٠) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ أي ممن كفر به وخالف أمره أجمعين.

(١٢١) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه وإغراق الكافرين أجمعين لعبرةً وعظةً ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي كان المؤمنون منهم أقل بكثير من الكافرين الذين أغرقهم الله.

(١٢٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لأعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهؤلاء قوم هود عليه السلام أرسله إليهم نبيًا رسولًا، يدعوهم لنبذ الأصنام وإفراد العبادة لله تعالى فكذَّبوه. وكانوا يسكنون الأحقاف جنوب الجزيرة العربية قريبًا من حضرموت.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخشون الله فتفردونه بالعبادة وتتركون عبادة الأصنام التي لا تفيدكم شيئًا!!!؟

(١٢٥) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي رسول ناصح لكم، أمين على مصلحتكم.

(١٢٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي اتقوا الله بعبادته واتقوه بطاعتي.

(١٢٧) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ منكم لقاء نصحي لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ولا أرجو من غيره أن يثيبني على القيام بالرسالة.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أي كانوا يبنون على كل محلٍّ مرتفع بنيانًا هائلًا عبثًا دون احتياج إليه ولمجرد التفاخر.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي أبنية مشيدة لحفظ الماء ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي تظنون أنكم خالدون، فلا سبيل إلى الخلود لأحد.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي قتلًا وضربًا وأخذ أموال، وما دام الله قد أعطاهم قوة عظيمة، كان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله تعالى، ولكنهم استكبروا وتجبروا فخرًا وتيهًا.

(١٣١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي أطيعوني فيما آمركم به من التقوى لله والخشية منه، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

(١٣٢) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أمدكم بالذي تعرفونه من النعم التي لا تعدُّ ولا تُحصى فلزم أن تتقوه ولا تعبدوا غيره لأنه المتفضل وحده.

(١٣٣) ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ أي إنه سبحانه أمدكم بالإبل والبقر والغنم ورزقكم البنين والأولاد عامة مما يوجب عليكم شكر النعمة له.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي وحدائق وبساتين وأنهار وآبار وعيون كلها سخرها لكم لتعلموا أنه هو الذي أعطاكموها.

(١٣٥) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي يقول هود عليه السلام هذه المقالة لقومه فينذرهم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب يوم القيامة الذي لا يطاق.

(١٣٦) ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي صار عندنا وعظك لنا أو عدمه سواءً، فلا تتعب نفسك فإننا لن نصغي إليك.

كذب قوم نوح نوحًا فأغرقهم الله، كذبت عاد هودًا برغم نعمة الله التي غمرتهم

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إن دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوّلين من الآباء والأجداد، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا:

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي ليس هناك عذاب ولا جزاء ولا عقاب ولسنا بمعذبين على ما نفعل من البطش والظلم بالناس.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوا هودًا عليه السلام ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي بالريح الصرصر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي لعبرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو العزيز المنتقم القاهر لأعدائه، والشديد الرحمة بأوليائه وأحبائه.

(١٤١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وكذلك فقد أرسل الله صالحًا عليه السلام وبعثه نبيًا رسولًا في قومه ثمود يسكنون مدينة الحجر بين وادي القرى وبلاد الشام.

(١٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي دعاهم إلى تقوى الله وتوحيده وإفراد العبادة له سبحانه وحده لا شريك له وترك عبادة الأصنام.

(١٤٣) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي على رسالة ربي ثم على مصالحكم وإنني ناصح لكم أدلكم على خير الأعمال.

(١٤٤) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكم به عن الله تعالى من أوامر ونواهٍ هي في مصلحتكم ومن أجل خيركم وفلاحكم في الدنيا والآخرة، وإلا فإن الله غني عنكم وعن العالمين.

(١٤٥) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغي لكم الدعوة ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ منكم ولا ينبغي لي هذا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لا أطلب أجرًا إلا ما أعده لي يوم القيامة من الأجر العظيم.

(١٤٦) ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أي يذكرهم بنعمته تعالى وما رزقهم من الخيرات وجعلهم في أمن دائم في أوطانهم ينعمون.

(١٤٧) ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في حدائق وبساتين تسرّ الناظرين وتجري من تحتها الينابيع والعيون تجعلها دائمة الخضرة.

(١٤٨) ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي ثمرها يانعٌ ليّن نضيجٌ مركب بعضه فوق بعض، لذيذ الطعم حلو المذاق.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي كانوا ينحتون من الجبال بيوتهم، ولما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم في المدر، عمدوا إلى الجبال فنحتوا فيها بيوتهم بحذق وإتقان وجملوها بنقوش يشاهدها من مرَّ بمنازلهم وعليها أثر البطر والأشر.

(١٥٠) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فإن الله يأمركم أن تتقوه، بقبول الدعوة التي أمرني أن أبلغكموها وهي عبادته وحده لا شريك له، وأن تطيعوني لأنني رسوله الأمين وإن طاعتي هي من طاعته.

(١٥١) ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي الذين أسرفوا في كفرهم وفسقهم.

(١٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وهم الذين عقروا الناقة فهم الذين يفسدون في الأرض بكفرهم ولا يصلحونها البتة.

(١٥٣) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي المسحورين لا عقل لك أي الذين أصيبوا بالسحر، وقيل معناه: تأكل وتشرب وتتسحر أي أنت مثلنا.

(١٥٤) ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فكيف أوحي إليك دوننا ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ أي معجزة بأن يخرج لهم ناقة من الصخرة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فدعا الله بذلك.

(١٥٥) ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي فاستجاب الله دعاءه وأخرج الناقة من الصخر على أن تشرب ماءكم يومًا وتشربونه يومًا ولا تمسُّوها بسوء.

(١٥٦) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء وتأكل المرعى وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم.

(١٥٧) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي ذبحوها ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ على ما فعلوا بها فخالفوا أمر الله الذي قال لهم: لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم، وقد حلَّ بهم.

(١٥٨) ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي جاءتهم صيحة من السماء اقتلعت قلوبهم من محالها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي لعبرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ما آمن إلا قليل.

(١٥٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ذو الانتقام من أعدائه الذين يخالفون أوامره ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ذو الرحمة البالغة التي يرحم بها أولياءه المطيعين.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

٣٧٤

(١٦٠) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فقد أرسل الله لوطًا إلى أهل سدوم على ساحل بحيرة لوط وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال بيت المقدس.

(١٦١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله بعبادته وحده لا شريك له، وتتركون إتيان الذكران، دون الإناث وتتبعون أوامر الله.

(١٦٢) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنني الله على رسالته إليكم كما أنني أيضًا أمين على مصالحكم فلا آمركم إلا بخير يعود عليكم أو شر أنهاكم عنه.

(١٦٣) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي اتقوا الله بتنفيذ أوامره إليكم وأطيعوني فيما آمركم به بإذن الله، فإنَّ طاعتي من طاعة الله تعالى.

(١٦٤) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغكم رسالة الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ لي ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أدخره عنده يوم القيامة.

(١٦٥) ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من بني آدم، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء، فكانوا مع شركهم يأتون الرجال دون النساء.

(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أي تأتون الرجال وتتركون أزواجكم اللائي خلقهن الله لأجل استمتاعكم بهن كما أمر ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي مجاوزون للحد في جميع المعاصي.

(١٦٧) ﴿قَالُوا۟﴾ أي قومه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عما تمنعنا عنه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي ننفيك من بين أظهرنا ونخرجك.

(١٦٨) ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي من المبغضين.

(١٦٩) ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى﴾ أي وجميع من آمن معي؛ لأن أهل النبي هم الذين على دينه وإن لم يكونوا من عشيرته ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من السوء والفحشاء أي من عذاب السوء والفحشاء.

(١٧٠) ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي نجيناه هو ومن معه من أهله المؤمنين، فإذا لم يكونوا مؤمنين فإنهم ليسوا من أهله.

(١٧١) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وهي امرأته مع أن امرأته من أهله أي من أقربائه باعتبارها زوجته، فأُخْرِجَت من أهله لأنها ليست مؤمنة به وكانت عجوز سوءٍ فهلكت مع الكافرين.

(١٧٢) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم بعذابٍ أليم موجع.

(١٧٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي مطرًا من حجارة من سجيل، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي أهلكهم جميعًا عن آخرهم.

(١٧٤) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي حصل معهم ﴿لَءَايَةً﴾ أي لعبرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ما آمن منهم إلا قليل.

(١٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي شديد الرحمة بعباده وأوليائه المخلصين.

(١٧٦) ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم -على الصحيح- أهل مدين وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، والأيكة هي: شجرة ملتفة كانوا يعبدونها فأمرهم شعيب بترك عبادتها وعبادة الواحد الأحد.

(١٧٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي كيف تعبدون هذه الأيكة والله هو الذي خلقكم وخلقها ألا تتقونه فتوحدونه.

(١٧٨) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي أرسلني إليكم رسولًا أمينًا على رسالته حتى أبلغكم ما يحب ويرضى من التوحيد والعمل الصالح والنصح لكم.

(١٧٩) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاتقوا الله تعالى فيما أمركم ونهاكم وأطيعوني فيما أبلغكم عنه تعالى؛ لأن طاعتي من طاعة الله.

(١٨٠) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إنني أحتسبه عند الله تعالى وأدخره عنده في موازيني وصحائفي يوم القيامة.

(١٨١) ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ كانوا يخسرون الكيل بالإضافة إلى كفرهم وشركهم، ويخسرون الميزان أي لا يزنون بالحق.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ القسطاس وهو الميزان أو العدل، أي عندما تزنون أعطوهم حقهم كاملًا ولا تخسروا منه شيئًا.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم ما يستحقون ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تقطعوا الطريق على الآمنين.

قوم لوط يأتون الذكور، وقوم شعيب يخسرون الميزان وكلٌّ مشركون

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ
مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ
عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ
فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

(١٨٤) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي اخشوا من الله الذي صوركم وخلقكم أنتم وآباءكم الأولين الذين هلكوا بكفرهم خشية أن تهلكوا مثلهم.

(١٨٥) ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي المسحورين الذين يقع عليهم السحر فتهذي هذيانهم وتتكلم كلامهم الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

(١٨٦) ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي ليس لك فضل علينا فأنت بشر مثلنا وعلى هيئتنا فمن أين تأتيك النبوة ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ولست مرسلًا.

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فإن كنت حقًا نبيًا مرسلًا نتحداك أن تسقط علينا قطعًا من السماء تستأصلنا بها.

(١٨٨) ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن الشيء الذي طلبتموه من إسقاط العذاب عليكم ليس هو إليَّ إنما هو لله تعالى.

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أيضًا ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ فإن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها بردًا وراحة، فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعًا فاستظلوا تحتها فأججت عليهم نارًا، فذلك يوم الظلة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يفتر عنهم ساعة ولا هم ينظرون.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي لعبرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ رغم ما وقع بهم ما آمن بشعيب إلا قليل من قومه.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكافرين ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي شديد الرحمة بأوليائه المتقين.

(١٩٢) ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي هذا القرآن الكريم ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي نزل حقًا وصدقًا على محمد ﷺ من ربِّ العالمين.

(١٩٣) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ إن للروح معاني عدة ولكنه هنا هو جبريل عليه السلام الذي نزل به على رسول الله ﷺ.

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي تلاه على قلبك لأنه أول مدرك من الحواس الباطنة من أجل أن تنذر به.

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وهو أفضل الألسنة بلغة من بعث إليهم وباشر دعوتهم وهو اللسان البين الواضح الفصيح.

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي القرآن، أو هو الرسول ﷺ مبشر به في كتب الأولين من التوراة والزبور والإنجيل.

(١٩٧) ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ألم يكفهم دلالة من علماء بني إسرائيل على وجود ذكر القرآن ومحمد عليه السلام في كتبهم التي يدرسونها.

(١٩٨) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي الأعاجم ممن لا يدري لغة العرب وأنزل عليه هذا الكتاب ببلاغته وفصاحته.

(١٩٩) ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وقرأه على قريش ومشركي العرب قراءة صحيحة ما كانوا ليؤمنوا به كفرًا وعنادًا.

(٢٠٠) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي أدخلناه في قلوبهم حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته وإعجازه وبلاغته ثم كذبوه.

(٢٠١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي لا يصدقون به قبل أن ينزل بهم العذاب الذي لا قبل لهم به ولا يؤخر أجله عنهم إذا جاء.

(٢٠٢) ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي يأتيهم بصورة مفاجئة مباغتة وهم لا يتوقعونه، فلا يشعرون به إلا وقد داهمهم.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي هل يؤجلنا ربنا أي يؤجل عذابه فنؤمن لأن كل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد العقوبة طلب التأجيل.

(٢٠٤) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهذا إنكار عليهم وتهديد لهم فقد كانوا يكذبون بوقوعه، ويستبعدون حلوله بهم لأنهم كانوا كافرين به.

(٢٠٥) ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ ولأمته ولمن يصلح له، أي أخبرني لو أن هؤلاء طوَّلنا لهم أعمارهم وأجلناهم.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ما يجديهم طول أعمارهم وتمتعهم في الدنيا وهم على ما هم عليه من الكفر؟ إذا جاءهم ما يوعدون.

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ
عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣)
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)

سُورَةُ النَّمْلِ — ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ أي لا يغني عنهم شيئًا ما كانوا يمتعون به من القوة والحياة والنعيم، كل هذا لم يكن دائمًا لهم ولم يغن شيئًا.

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ وهذا عدل الله تعالى فإنه لا يهلك قرية وأهلها بعذاب قبل أن يرسل إليهم أنبياء يبلغونهم دعوة الحق.

(٢٠٩) ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي لا يمكن أن يكون تعالى ظالمًا؛ لأنه حرم الظلم على نفسه فيرسل التذكرة لعباده بينة مع الرسل لتقوم الحجة عليهم.

(٢١٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ هذه دعوى الكفار بمكة، ولكن الله تعالى كذبهم فأخبر أن جبريل نزل بالقرآن بأمره تعالى على رسوله محمد ﷺ.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أي بين الشياطين وبين القرآن منافاة فلا يجوز لهم أن يتنزلوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حمله لأنهم يبغون الفساد لا الإصلاح.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ كيلا يشتبه الأمر، وهذا رحمة من الله تعالى بعباده وحفظه لشرعه وتأييده لكتابه ورسوله.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ هذا وإن كان خطابًا للنبي إنما المقصود به أمته، وهو حثٌّ على التوحيد ونهي عن الشرك؛ لأن النبي معصوم من الشرك والكفر.

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ بأنه لا يخلص أحدًا منهم إلا إيمانه بربِّه عزَّ وجلَّ وتوحيده خالصًا من كل شائبة.

(٢١٥) ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وألن جانبك لمن آمن بك واتبعك، وتواضع لهم، ولا تغلظ لهم القول.

(٢١٦) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي خالفوا أمرك ولم يطيعوك ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي بريءٌ من عملكم، وهذا يدل على أن المؤمنين المقصودين هم المؤمنون حديثًا أي المصدقون باللسان.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والتوكل عليه تعالى نوع من أنواع العبادة فلا يجوز التوكل على غيره سبحانه أي: توكل عليه في جميع أمورك؛ فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومعلي كلمتك.

(٢١٨) ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاة في النهار والليل.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي ويراك أيضًا وأنت تصلي مع المصلين في الجماعة، والمعنى: أنه يراك وحدك وفي الجماعة كما يرى تصرفك في ذهابك ومجيئك مع أصحابك المؤمنين.

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده فلا يخفى عليه من أقوالهم شيء، والعليم بكل حركاتهم وسكناتهم، وما يعملون من عمل مهما أخفوه إلا ويعلمه لا يخفى منه شيء.

(٢٢١) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وهذا رد على من زعم من المشركين أن هذا القرآن افتعله رسول الله ﷺ من تلقاء نفسه أو أتاه به أحد الجن، فنزه الله تعالى رسوله الكريم عن هذا الافتراء فقال له: قل يا محمد هل أخبركم على من تتنزل الشياطين وتوحي إليهم أكاذيبها وافتراءاتها؟ فهاكم خبر من تتنزل عليه الشياطين:

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي من كان كاهنًا يدعي علم الغيب فهؤلاء الكهنة كثيرو الإفك وكثيرو الآثام يتلقَّون ما يسترق الشياطين من السمع.

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي ما يستمعه الشياطين من الملأ الأعلى على أوليائهم الكهان فيزيدون معها مئة كذبة فيصدقهم الناس ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾.

(٢٢٤) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي الضلال من الإنس والجن.

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ من اللغو والشتم والمدح والذم بالباطل.

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي يتبجَّحون بما لم يفعلوا.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذا دليل على أنَّ الوصف السابق للشعراء الكفار ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في أشعارهم ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي كمن يهجو من هجا الإسلام والمسلمين ونصر أهل السنة على أهل البدعة ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي هذا تهديد للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وظلموا غيرهم بصدِّهم عن الإيمان من الشعراء وغيرهم.

آخر تفسير سورة الشعراء ولله الحمد والمنَّة[1]

(١) كتب الشيخ: (٢٥/ ١١/ ١٣٩٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ
وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن
لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ
سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ
مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

٣٧٧

(٢٧) سُورَةُ النَّمْلِ

مكية وآياتها ٩٣، نزلت بعد الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ إن الأحرف المقطعة لا شك أن لها معاني، ولكن استأثر الله بعلمها كما قلنا في أول سورة البقرة. ومعنى تلك آيات القرآن أي هذه آيات القرآن وآيات كتاب مبين أي هذا القرآن هو كتاب واضح يبين عما فيه من الأحكام الإلهية.

(٢) ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هذا الكتاب هو هداية وبشرى لهم بأن من يتبعه كما يحب الله ويرضى لهم بشرى مؤكدة بالجنة.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يصلونها في أوقاتها ويقيمون أركانها كما كان يصلي رسول الله ﷺ بخشوع وخضوع لله وخشية منه ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي زكاة أموالهم إذا بلغت النصاب كلما حال الحول يدفعون زكاتها من أوسط أموالهم ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي وبلغ التصديق بالآخرة حد اليقين عندهم ولم يشكُّوا بها.

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي بسبب عدم إيمانهم وكفرهم وعنادهم حسنًا في أنظارهم أعمالهم التي يعملونها ومددناهم في غيهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتيهون.

(٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي أشده وآلمه ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي أشد الناس خسرانًا وعذابًا.

(٦) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي إنك يا محمد لتأخذ القرآن ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي من عند حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق وحكمه هو العدل.

(٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي لزوجته حين سار بها من مدين إلى مصر فأضلَّ الطريق في الليل حتى وصل إلى قرب جبل الطور ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي مخبر يدلني على الطريق أو أهتدي أنا إليه ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة من نار ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها من البرد الشديد الذي ألمّ بنا.

(٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي وصل موسى إلى النار ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي بورك على من هو قريب من النار وهو موسى عليه السلام كما يقول العرب: باركك الله، وهذه تحية من الله لموسى، أما النداء فقد سمعه موسى من النار لا أن الله في النار فالله تعالى وتقدس عن أن يحل في شيء فالله سبحانه فوق عرشه عليّ عليه، وأسمع موسى نداءه من النار. ولذا قال جل وعلا: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تنزه رب العالمين عن أن يكون حالًا في شيءٍ من خلقه لا في النار ولا في غيرها من مخلوقاته.

(٩) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي أعلمه أن الذي يخاطبه هو الله تعالى العزيز الذي قهر كل شيء والحكيم في أقواله وأفعاله.

(١٠) ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي أمره أن يلقي عصاه فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي ثعبان يتحرك بخفة وفي غاية الضخامة ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع ولم يلتفت فقال الله ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي من الحية وضررها ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا يخاف المرسلون من شيء أثناء مخاطبتي.

(١١) ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه بذنب ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾ ثم تاب وعمل صالحًا ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي بعد عمل الذنوب ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وعمل صالحًا.

(١٢) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي تحت إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ أي كأنها قمر منير ولها لمعان خاطف ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير مرض كالبرص ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي هاتان معجزتان من تسع معجزات أؤيدك بهن ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن عبادة الله إلى عبادة غيره.

(١٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ التسعة ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي ظاهرة واضحة وهي: العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون والغرق ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر.

سمع موسى نداء الله من النار لا أنه تعالى حل في النار سبحانه

وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

٣٧٨

(١٤) ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ ظاهرًا ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي علموا أنها حق وصدق من عنده تعالى لكنهم جحدوها ظلمًا واستكبارًا وعنادًا ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي تفكّر في ذلك فإنَّ في هذا الجحود لفسادًا ولكن تأمل فيما حصل لهم من العاقبة بالغرق الذي استأصلهم.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ أي بالقضاء وبكلام الطير والدواب وتسبيح الجبال ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالنبوة والكتاب وإلانة الحديد وتسخير الشياطين والجن والإنس، وقيل: إن داوود كان أشد تعبدًا من سليمان الذي كان أعظم ملكًا منه وأفطن.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي في الملك والنبوة لا في المال. وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة» [٦٢٠] ﴿وَقَالَ﴾ أي سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي يخاطبهم تحدثًا بنعم الله عليه التي خصَّه الله بها، وقدَّم منطق الطير لأنه نعمة لا يشاركه فيها أحد غيره ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي من كل شيء تدعو إليه الحاجة من النبوة والعلم والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح وغير ذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الظاهر البيِّن.

(١٧) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ أي وجمع لسليمان كل هؤلاء وركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي لكل طائفة عرفاء يردون كلًّا إلى موقعه.

(١٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي حتى إذا مرَّ سليمان وجنوده على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أي لما رأت النملة أن جيش سليمان متوجه إلى واديها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يسحقنكم جنود سليمان بأرجلهم وهم لا يشعرون بفعلهم.

(١٩) ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ أي ضحك متعجبًا من قولها وفهمها وحذرها على جماعتها ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ والشكر شكران: لساني وعملي وهما المقصودان هنا، أي: أن يشكره باللسان على نعمته، والشكر العملي هو الطاعة فيما أمر وعما ينهى، فإن فعل الاثنين يكن قد شكر الله، فسليمان يدعو الله هنا أن يجعله شاكرًا بقلبه ولسانه وجوارحه، ودليل الشكر العملي قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ وهنا قيده بالرضا أي برضاء الله عن عمله، وإلا فقد يعمل العبد صالحًا ولكن لا يرضاه الله تعالى؛ إذ قد يكون عمله صالحًا في ذاته ولكنه مبنيٌّ على شرك والعياذ بالله كأن يدعو غير الله ويستعين بغيره ويدعو الأموات وما يشبه، أو قد يعمل عملًا صالحًا في حدِّ ذاته لكنه يرائي الناس فكل هذا مما لا يرضاه ولا يتقبله. وشرط العمل المقبول: أن يكون لوجه الله تعالى وأن يكون مطابقًا لما شرع ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ﴾ أي يتوسل إلى الله برحمته أن يدخله ﴿فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في عداد عباده الصالحين.

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي تفقد من حضر منها مجلسه ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ يعني أأخطأه بصره، أم غاب ولم يحضر؟! إذ كان عليه أن يستأذن سليمان من أجل غيابه؛ ولذا قال سليمان:

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: بنتف ريشه كله وتشميسه ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أي لأعدمنه حياته ذبحًا ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بعذر واضح.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ﴾ أي الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي كان غياب الهدهد زمنًا قصيرًا من تفقد سليمان عليه السلام له، ثم حضر بين يديه ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي أحطت بعلم لم تحط به أنت ولا جنودك، وهذا اعتذار من الهدهد على مغيبه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ وسبأ اسم رجل صار اسمه اسمًا لقبيلته، وهي من حمير ملوك اليمن ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي بنبأ خطير صحيح مؤكَّد، فقال سليمان: وما هو؟ قال الهدهد:

لا يقبل الله عملًا إلا إذا رضيه، ولا يرضاه إلا خالصًا له وعلى ما شرع

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ
أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

(٢٣) ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وكانت بأرض يقال لها: مأرب، على ثلاثة أميال من صنعاء. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل ما يحتاجه الملك المتمكِّن ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي هائل مزخرف بالذهب والجواهر واللآلئ.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يعبدون الشمس ويتركون خالقها!! ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي حَسَّنها في أنظارهم فرأوها حسنة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي حال بينهم وبين الطريق الحقة ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ سبيلًا إلى الحق.

(٢٥) ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله تعالى الذي يخرج ما هو مخبوء ومخفي فيهما كالقطر في السماء والنبات في الأرض، أي يعلم غيب السماوات والأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم سبحانه سرَّكم وجهركم في أقوالكم وأعمالكم.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي الذي ليس في المخلوقات مخلوق أعظم من العرش والله ربه ورب كل شيء، ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتله كما في الحديث: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع دواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرد» [٦٢١] والصُّرد: طائر ضخم الرأس أبيض البطن، أخضر الظهر يصطاد صغار الطير.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ أي سليمان عليه السلام: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي ستتحقق صدقك من كذبك.

(٢٨) ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي وبعد أن تحقق سليمان من صدق الهدهد رأى لزامًا عليه أن يدعو أولئك الكفرة عبَّاد الشمس إلى الإسلام، فقال للهدهد: هذا كتاب استلمه واذهب به فألقه إلى بلقيس وقومها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ثم تنحَّ عنهم أدبًا إلى مكان تسمع منهم حديثهم حتى تخبر سليمان به، ففعل.

(٢٩) ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ أي قالت بلقيس: يا أيها الناس لقد ألقي إليَّ كتاب من سليمان وعليه ختمه ولذا نعتته بالكريم تعظيمًا لمرسِله، وفحواه:

(٣٠) ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ أي إن هذا الكتاب مرسل من سليمان ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي مفتتح بالتسمية، ثم بعدها:

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ﴾ أي لا تتكبروا ولا تتجبروا عليَّ ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي منقادين لدين الإسلام جميعًا.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي﴾ أي أشيروا عليَّ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي ما كنت مقرِّرة شيئًا من الأمور ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي تحضروني وتشيروا عليَّ.

(٣٣) ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نحن عندنا من القوة والبأس ما نردُّ به مَنْ يعتدي علينا ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي ومع ذلك فنحن لا نفعل شيئًا إلا ما تأمريننا به؛ فتأملي ماذا تأمريننا به؛ فنحن سامعون لأمرك مطيعون له.

(٣٤) ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ أي مدينة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي بالخراب والدمار ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي أهانوهم قتلًا وأسرًا وحطُّوا مراتبهم وأذلُّوهم ليتمَّ لهم الملك وتقرر لهم المهابة في القلوب ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي قال الله تعالى تحقيقًا لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي إن الملوك يفعلون بمن يغلبونهم كما وصفت بلقيس.

(٣٥) ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ أي إلى سليمان ﴿بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي إن كان ملكًا صرفناه بالهدية، وإن كان نبيًّا اتبعناه.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم
بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي
عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ
لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا
نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن
سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي فلما جاء رسول بلقيس بالهدايا، لم ينظر سليمان إليها، ولا اعتنى بها وأعرض عنها ﴿قَالَ﴾ منكرًا: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ أي أتصانعونني بمال لأتركَكم على شرككم وملككم؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي إن ما رزقني الله من النبوة والملك والمال خير مما عندكم ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ أي بالهدايا والتحف فأنا لا أقصد إلا إسلامكم وإن أبيتم فالسيف بيني وبينكم فخذوا هداياكم وبلِّغوا من وراءكم.

(٣٧) ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ يخاطب رئيس الوفد: عد أدراجك إلى من أتيتَ من عندهم ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا يطيقون لقاءهم ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي لنغلبنهم ونخرجهم من عاصمتهم وهم مهانون مدحورون، ولما بلغ بلقيس ذلك سارت إليه مطيعة.

(٣٨) ﴿قَالَ﴾ سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي فـكَّـر أن يأخذ العرش بعد إسلامهم لأنه يحرم ذلك.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ أي أستطيع أن آتيك قبل أن تقوم من مجلسك هذا أي من أول النهار إلى زوال الشمس، وإنني قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قيـل: إنه آصـف كاتب سـليمان، وقيل: إنه جبريل أو ملك آخر، وقيل: إنه سليمان نفسه هو الذي قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ وقد استبعد بعض المفسرين أن يكون (آصف) عنده علم من الكتاب وسليمان عليه السلام يجهل هذا العلم! لا سيما وهو نبيٌّ ورسول وملك قد استجاب الله دعوته: ﴿...وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] فكيف يكون لكاتبه (آصف) قوة أقوى بكثير منه..!؟ على أنني وإن كنت لهذا القول أميل إنما لا أستطيع أن أجزم بصحته؛ لأن لفظ (قيل) من صيغ التضعيف؛ ثم ليس هناك من دليل قاطع، على تعيين اسم ذلك الذي عنده علم من الكتاب، فما سكت عنه الشارع الحكيم نسكت عنه ونكل العلم فيه إلى العليم الخبير جلَّ جلاله. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي فلما رأى سليمان عليه السلام عرش بلقيس مستقرًا لديه، وهو الذي أخبأته بلقيس داخل سبع غرف، كل غرفة ضمن غرفة في عاصمتها باليمن ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ أي ليختبرني -وهو أعلم بي من نفسي- على أن شكر الله ليس مقتصرًا على الشكر اللساني، بل يكون أوضح حقيقةً إذا كان بمعنى دوام الطاعة له جل وعلا ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ لأنه استحق بالشكر زيادة النعم ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ أي هو غنيٌّ عن العباد وعبادتهم كريم في نفسه وإن لم يعبدوه، فإنه جلَّ جلاله ليس مفتقرًا إلى أحد من خلقه؛ حتى وإنه كريم على من يكفره بالإنعام والتفضل عليه.

(٤١) ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ أي حرفوا فيه وزيدوا عليه ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ فزادوا فيه وأنقصوا كما أمرهم سليمان عليه السلام.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ بلقيس ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾ فأجابت إجابةً غير مقطوع بها ﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أي يشبهه فكأنه هو ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ أي علمنا الله علمًا من الكتاب، فقدرنا بقدرةٍ منه تعالى، فأتينا بعرشها قبل مجيئها ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ أي مستسلمين لله.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن الإسلام ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ أي كانت هي وإياهم يعبدون الشمس والعياذ بالله.

(٤٤) ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾ من الماء ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾ لتخوض الماء ﴿قَالَ﴾ لها سليمان عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ﴾ أي مملَّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي زجاج، ثم دعاها إلى الإسلام فأسلمت ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بعبادة غيرك ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟
تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

٣٨١

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي أرسلنا صالحًا نبيًا رسولًا إلى قوم ثمود فدعاهم قائلًا: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به أحدًا ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ فإذا قوم ثمود ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي انشقوا فريقين، فريق آمن بصالح وما جاء به من الحق، وفريق كفر، وجدَّ الخصام بينهم.

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب وتقدمون الكفر الذي يجلب العقوبة؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ هلا تستغفرون الله من شرككم وتوحِّدونه وتؤمنون برسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رجاء أن ترحموا فلا يعذِّبكم.

(٤٧) ﴿قَالُوا۟﴾ أي ثمود ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بك وبمن آمن معك فكان لا يصيب أحدهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه، وكان العرب أكثر الناس طيرةً وأشقاهم بها، وكانوا إذا أرادوا سفرًا أو أمرًا من الأمور، نفَّروا طائرًا إن طار يمينًا فعلوا أو يسارًا تركوا ﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إن ما تصابون به ليس من الطير بل بما يقدره الله تعالى لكم أو عليكم، وشؤمكم هذا بسبب كفركم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال والشرك والكفر.

(٤٨) ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة نفر، وهم طغاة ثمود ورؤوسهم الذين يدعونهم إلى الشرك وتكذيب صالح ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وهم الذين عقروا الناقة، وصفاتهم الإفساد بكل طريقة يقدرون عليها، وكان رئيسهم هو أشقاهم الذي عقر الناقة بيده، وهو الذي جاء ذكره في القرآن: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢].

(٤٩) ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي لنقتلن صالحًا وأهله ليلًا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي ثم ينكرون عند أوليائه أنهم: ما فعلوا ذلك ولا رأوا من فعَلَ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما نقوله ونشهد به.

(٥٠) ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ بتآمرهم على قتل صالح عليه السلام وأصحابه ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ ولا شكَّ أن مكر الله لا يشبه مكر المخلوقين في شيء، وليس دائمًا يشتق من كل صفة من صفات الله اسم له، فلا يجوز إذا كان لله مكرٌ أن يسمى الله ماكرًا تعالى الله عن ذلك، وإنما نقول: والله خير الماكرين؛ لأن مكرهم شرٌّ نووا أن يلحقوه بصالح وأصحابه، ولكن مكر الله كان خيرًا وإن كان فيه إهلاكهم؛ لأن إهلاكهم كان جزاءً وفاقًا وعقوبة على عملهم الشرير ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إلا وداهمهم العذاب الذي لا قِبَلَ لهم بردِّه.

(٥١) ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد وتأمل ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الذي مكروه ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قبل أن يفوزوا بمكرهم بقتل صالح والذين آمنوا معه، كيف لا؛ وإن الله مطلع على مكرهم ولكنهم لم يكونوا على علم بمكر الله بهم حتى يتجنبوه، فوقع بهم وهم لا يشعرون.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ أي خالية ما سكنها أحد من بعدهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي بسبب ما ظلموا أنفسهم بالشرك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(٥٣) ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أنجينا صالحًا والذين آمنوا معه من قومه ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون الله تعالى ويخافون عذابه وعقابه.

(٥٤) ﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطًا نبيًا رسولًا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي كانوا يأتي بعضهم بعضًا ولا يستترون بل يفعلون الفاحشة الشنيعة بعضهم أمام بعض وهم يعلمون أن هذه فاحشة منكرة محرمة، ورغم هذا يفعلونها تمردًا وعنادًا.

(٥٥) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هنَّ محلُّ ذلك فكيف تستطيبون فعلكم الشنيع هذا؟ وتتركون النساء اللاتي هنَّ محل البذر والتناسل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ما يصيبكم في الدنيا من الفناء وفي الآخرة يرقبكم العذاب الأليم.

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

يا من تقرون لله بخلق السموات والأرض كيف تعبدون غيره؟!!

(٥٦) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي من مدينتكم، وهذا شأن أهل الباطل في كل زمن عندما يعجزون عن مجابهة أهل الحق ولا يثبتون أمام حججهم الدامغة بل يلجأون إلى العنف والقتل والنفي وهكذا فعل قوم لوط ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتطهرون من أفعالنا فأخرجوهم من قريتنا، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم، وإن وصف قوم لوط للوط ومن آمن معه بالطهارة إنما هو استهزاء منهم بهم.

(٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي أنجينا لوطًا ومن آمن معه؛ لأن الأهل حقيقة هم الذين آمنوا به ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي من الهالكين مع قومها ولم ينفعها أنها زوجة نبي لأنها كافرة به، لا أنها كانت تفعل الفواحش فقد صانها الله من الفاحشة تكرمةً لنبيه لوط لا كرامة لها، لأن الأنبياء معصومون من كل دنية ولما كان الزنى هو أدنى الدنيات الخُلقية فهم معصومون منه من باب أولى؛ فلزم أن يكنَّ نساؤهم معصومات منه بعصمتهم.

(٥٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرٗا﴾ أي حجارة من سجيل منضود مسومة وما هي من الظالمين ببعيد ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي الذين أُنذروا ولم يقبلوا الإنذار وخالفوا فعاقبهم الله واستأصلهم.

(٥٩) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على نعمه التي لا تعدُّ ولا تُحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى. ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ منهم أنبياؤه ورسله ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، أي آلله خير أم ما أشركوا به من الأصنام؟ وهذا من باب التهكم بهم؛ إذ لا خير فيهم أصلًا.

(٦٠) ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي آآلهتكم خير أم مَنْ خلق السماوات والأرض من العدم ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٖ﴾ أي منظر بهي حسن ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ يا أيها المشركون ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي لولا لطف الله ورحمته وقدرته ما كنتم تستطيعون أن تنبتوا ولا شجرةً واحدةً ولكن الله بفضله وكرمه هو الذي أنبت لكم هذه الأشجار والحدائق، وإنكم تعلمون أنه سبحانه هو الخالق الموجد لكل هذه النعم والفضائل ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي معبود يعبد مع الله الـذي أنـعم وأفـضل وأعـطى؟ لا، لا إله إلا الله ولا معبود بحقٍّ غيره، ولا رب سواه، ولكن المشركين لا يعطون الله حقَّه ومستحقه من إفراده وحده بالعبادة ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٞ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون لله سبحانه نظراء وأمثالًا مما لا يسمع ولا يبصر ولا يقدر على شيء من هذه المعبودات الباطلة التي عبدوها مع الله.

(٦١) ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارٗا﴾ أي لا تميد ولا تتحرَّك بأهلها حتى يطيب لهم عليها معاشهم ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي شق في الأرض أنهارًا عذبة، وخلق في الأرض رواسي أي جبالًا تثبتها حتى لا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي بين المياه العذبة والمالحة مانعًا من الاختلاط، فلا يختلط الحلو من الأنهار بالبحار المالحة فيفسد النبات والثمار، وجعل البحار مالحةً لئلا يفسد الهواء بريحها ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يعبد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٦٢) ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي من يفعل هذا أأصنامكم أم الله وحده لا شريك له؟ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يخلف قرنٌ قرنًا، وخلفٌ سلفًا ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي هل يعبد أحد مع الله الذي أوجد كل هذه النعم؟ ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما أقل تذكركم!؟

(٦٣) ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي من يهديكم في هذه الظلمات آلله أم أصنامكم؟ ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي ومن يرسل الرياح بالمطر ويزجي السحاب فيغيث به البلاد والعباد آلله أم أصنامكم ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يعبد!؟ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس.

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤)
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ
فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا
هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨)
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ
(٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦)

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي من هذا الذي يبدأ خلق الخلق ثم يبعثهم بعد الموت، وبعثهم أهون عليه، أهو الله أم ما تدعون من دونه!؟ ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بما ينزل من المطر وما ينبت من الزرع والشجر فيكون رزقًا حلالًا طيبًا لكم، من ذا الذي يفعل هذا أهو الله أم آلهتكم؟! فإذا كنتم تقرُّون أن الله تعالى هو الفاعل ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي أيعبد غير الله معه؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي دليلكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بدعواكم أن ما تعبدون من دونه من الأنداد والأصنام لها شرك مع الله في العبادة؟ أو تستحق شيئًا منها؟ بل إن الذي خلق ورزق هو الذي يستحقها وحده.

(٦٥) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي أخبرهم يا محمد وأعلمهم أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله وحده لا شريك له، فإنه المنفرد بذلك ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يشعر أحد من الخلائق متى يموت ومتى يبعث. وفي الحديث عن عائشة: «من زعم أنه يعلم -تعني النبي ﷺ- ما يكون في غدٍ، فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾» [٦٢٢]. والاستثناء هنا منقطع.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي عجز علمهم عن معرفة وقتها، إنما يدركون ذلك عند وقوعها يوم لا ينفع ذلك ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي من وقوعها وذلك في الدنيا، والمراد الكافرون الذين ما كانوا يؤمنون بالآخرة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي فلا يدركون شيئًا من دلائلها؛ لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك وهكذا تعمى القلوب.

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وقالوا أيضًا: أنخرج من قبورنا بعد أن نستحيل إلى تراب ونرجع أحياءً نحن وآباؤنا!؟ أي استبعدوا وقوع ذلك واستنكروه، ثم أكدوا ذلك بقولهم:

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي لقد وعدنا بأخبار البعث كما وعد آباؤنا أيضًا من قبلنا ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي نوعد به ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا حكايا ... يحكيها الأولون ولا أساس لها، فما رأينا أحدًا عاد من الآخرة، وهذا الذي نوعد به إنما هو ما يسمر به الناس من الخرافات.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ردَّ الله عليهم بأن يسيروا في ديار المعذبين من الأمم السالفة وينظروا كيف أحلَّ الله بهم الدمار والخراب.

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لاتأس يا محمد على المكذبين لما سيحيق بهم من العذاب ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ أي ولا يضيق صدرك ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لأن مكرهم ستعود عاقبته عليهم.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ به أي يستعجلونه، وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم؛ لأن وقته قد أجَّله الله لأجل وقدَّره بقدر، ولكن مع هذا حذَّرهم الله بقوله:

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي قرب العذاب منكم وأوشك أن يقع ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي فعسى أن يكون وشيكًا.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم وكفرهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي اشتغلوا بالنعم عن المنعم.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي يعلم سبحانه ما يبطنون في أنفسهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يظهرون ما فيها؛ فكلا الحالين سواء عنده.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما من شيء يغيب عن الخلق في السماء والأرض ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ لا تخفى عليه من خافية.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي لو أنهم اتبعوا ما جاء فيه من الحق لسلموا وزالت خلافاتهم.

بسط الله نعمه على عباده جميعًا ولا يشكره عليها إلا القليل

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن
تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ۞ وَإِذَا
وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو
قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
(٨٤) وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

٣٨٤

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن هذا القرآن لهو الهدى للمؤمنين والرحمة لهم لأنهم آمنوا به وأقبلوا على معانيه يتدبرونها.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي بين الذين كفروا بالقرآن يوم القيامة ويفصل بين المختصمين بحكمه العـدل وقضائه القسط ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه، وقد أذعن الخلائق لقهره وسلطانه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعال وأقوال عباده لا يخفى عليه من أحوالهم خافية.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوِّض أمرك واعتمد عليه في جميع أمورك وبلِّغ رسالة ربِّك ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي الحق الظاهر الأبلج لا شك ولا ريب، ولا يهمك مخالفة المشركين لك فإنهم لا يؤمنون بك ولو جاءتهم من عند الله كل آية!؟

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لأن حال المشركين والكافرين في عدم سماع الحق، يشبه حال الموتى الذين تعطلت أسماعهم بالموت ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي أن الأصم لا يسمع بطبيعته؛ فكيف إذا ولَّى مدبرًا ثم ناديته؟ فيكون عدم إسماعه وهو مدبر أبلغ، وهكذا حال الكافرين فإنَّ مثلهم مثل الصم المدبرين لا يسمعون الحق الذي تدعوهم إليه يا محمد.

(٨١) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي وما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشادًا يوصله إلى الإيمان وليس في وسعك ذلك، ومثل هذه الهداية هي لله حصرًا؛ لأنها تحويل القلوب من الكفر إلى الإيمان، والقلوب كما في الحديث: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» [٦٢٣]. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي إنما يستجيب لك من ينفعه سمعه الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل الكرام فهو منقاد ومخلص مستسلم لأوامره واجتناب نواهيه.

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي حقَّ عليهم أنهم لا يؤمنون ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله وتكلم الناس بـ ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ لأن خروجها من الآيات العشر التي أخبر عنها رسول الله ﷺ وفي الحديث: «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا» [٦٢٤]. وعن ابن الزبير أنها تخبر الناس: يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار [٦٢٥] والله أعلم.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يساقون إلى الموقف العظيم.

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ أي الموقف ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي كيف كذبتم بآياتي التي أنزلتها على رسلي من غير علم ومعرفة بها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يسألهم عن علمهم وعملهم.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بعدم الإيمان فاستمروا على ظلمهـم فقـامت عليهـم الحجـة ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي ليستريحوا من التعب في نهارهم ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي جعل النهار منيرًا مشرقًا، ليتصرفوا فيه في المعايش والأسفار والتجارات، وفيما تقدم من السكن في الليل والعمل في النهار لدلالات للمؤمن بالله تعالى على قدرته.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك حين قيام الساعة ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: هم الشهداء تُثبَّت قلوبهم(١) ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي صاغرين.

(٨٨) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي واقفة ﴿وَهِيَ﴾ في الحقيقة ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حين تسوقه الريح ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من الخير والشر، وسيجازيهم عليه بما يستحقون.

(١) من المؤمنين.

الكفار كالموتى وكالصم لا يسمعون الحق سماع منتفع به

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ
إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي
لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣

سُورَةُ القَصَصِ — ترتيبها ٢٨ — آياتها ٨٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥

٣٨٥

(٨٩) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ والحسنة مطلق حسنة فمن جاء بها وعملها يضاعف له أجرها أضعافًا مضاعفة، وأعلى الحسنات إطلاقًا: لا إله إلا الله ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ﴾ أي خوف ﴿يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ أي هم في مأمن من أهوال يوم القيامة التي يشيب منها الولدان.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي من لقي الله بسيئة الشرك ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي ألقوا على وجوههم في نار جهنم وطرحوا فيها. ويقول لهم خزنة الجحيم: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك والمعاصي؟ أي ما تجزون إلا بقدر أعمالكم.

(٩١) ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي أخبرهم يا محمد وقل لهم: إنما أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة وأفرده بها لا شريك له، وإضافة الربوبية إلى البلدة وهي مكة، على سبيل التشريف لها وهو الذي جعلها حرامًا شرعًا وقدرًا كما في الصحيحين: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوكه ولا يُنَفَّرُ صيدُه ولا يُلتَقطُ لُقَطتُه إلا من عرفها ولا يختلى خلاه» [٦٢٦]. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أي رب كل شيء ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي المستسلمين الموحدين المطيعين.

(٩٢) ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ على الناس أبلغهم إياه ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي يعود نفعه على نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الحق والهدى ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي من جملة الرسل الذين سبقوني، وليس بيدي من هداية القلوب شيء.

(٩٣) ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه كلها ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا﴾ أي حججه وبراهينه ما تستنيرون بها طرق الحق من الضلال؛ ليهلك من هلك عن بينةٍ ويحيا من حيَّ عن بينة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بل مطلع على أعمالكم وأفعالكم وأحوالكم، وسيحكم بالحق، وله الحجة البالغة.

آخر تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنّة والفضل

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ

مكية إلا من آية ٥٢ إلى آية ٥٥ فمدنية، وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة، وآياتها ٨٨، نزلت بعد النمل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ قد تقدم الكلام على الأحرف المقطّعة في أول البقرة.

(٢) ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي هذه آيات الكتاب الواضح الجلي الكاشف عن الحقائق، والفارق بين الحلال والحرام.

(٣) ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي نوحي إليك من خبرهما كأنك تشاهده ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ وخصَّ المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن.

(٤) ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي تكبَّر وتجبَّر في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ أي فرق أهلها فرقًا وأصنافًا في خدمته، ويتصرف فيم بشهوته، وينفذ فيهم ما يريد من قهره وسطوته ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ أي من بني إسرائيل، فاستعملهم في أخس الأعمال، وكانوا وقتئذٍ خيار أهل زمانهم، فكان فرعون ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ أي يقتل ذكور المولودين من بني إسرائيل خشية أن يأتي منهم من يكون هلاك فرعون على يده ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ أي يستبقيهن أحياءً لخدمته وخدمة شعبه الأقباط ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بتكبره وتجبره وظلمه وعتوِّه وبدعواه الربوبية والألوهية، ولا شكَّ أنَّ القتل من الإفساد في الأرض فكان مفسدًا من كل وجه.

(٥) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهم بنو إسرائيل بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم وأذلَّهم ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ في الدين ودعاة إليه وقادة للخير، ولا يحصل ذلك مع الاستضعاف ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لأرض مصر وتكون لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ
أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

أمر الله أم موسى أن ترضعه ثم تقذفه باليم ثم رده إليها ترضعه وتأخذ أجره

(٦) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي نجعلهم قادرين عليها وعلى أهلها مسلَّطين على ذلك يتصرفون كيف شاءوا ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي يحذرون مما كانوا يجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد المولود من بني إسرائيل، فما نفع فرعون حذرُه مع قدرة الله تعالى، فأهلك الله جل جلاله فرعون وهامان وجنودهما؛ لأنه هو القاهر الغالب القوي العزيز.

(٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي لما وضعت أمُّ موسى موسى عليه السلام، وضاقت به ذرعًا وخافت عليه، أمرها الله تعالى بواسطة الإلهام: أن أرضعيه فإذا خفت عليه من عيون وأرصاد فرعون فارميه في الشاطئ ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ على فراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي قدَّرنا أسباب رجوعه إليك ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي الأنبياء المرسلين الذين نصطفيهم لهداية الناس بإذننا.

(٨) ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أي بعد أن توكَّلت أمُّ موسى على الله وألقت موسى في اليمِّ كما أمرها سبحانه تقاذفه الموج إلى أن أوصله إلى شاطئ قصر فرعون، وكانت قد وضعته في صندوق قبل أن ترميه في اليمِّ، فالتقطه آل فرعون أي جواريه فاحتملْنَه إلى امرأة فرعون التي فرحت به كثيرًا ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ليكون بتقدير الله عدوًّا لفرعون وقومه ويكون حزنًا لهم بسبب ما سيرفضون دعوته لتوحيد الله وطاعته ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي عاصين آثمين بكفرهم فعوقبوا على يديه.

(٩) ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ أي لما رأى فرعون موسى في حجر امرأته غضب وهمَّ بقتله خشية أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتحببه إلى فرعون فقالت: قرة عين لي ولك ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ لأنه لم يكن لهما ولد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة.

(١٠) ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أي لما علمت بالتقاطه أصبح فؤادها فارغًا من القلق على حياته واطمأنت بأنه لن يغرق، وكان هكذا حال قلبها قبل ذلك أي حين طمأنها الله عليه بقوله: لا تخافي ولا تحزني عليه لا من الغرق ولا من أي شيء آخر، ولكن لما رأت وعد الله قد تحقق ونجا وليدها أصبح قلبها فارغا من القلق حتى على موسى اطمئنانًا منها لوعد الله الحق الذي قد تحقق ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي لتظهر أنه ابنها من جزعها عليه لما ألقته في اليم ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين بوعد الله لها، فكانت...

(١١) ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي تتبعي أثره وابحثي عنه فطفقت تبحث ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ أي جعلت تنظر إليه، وكأنها لا تريده، وهذا من تمام الحزم والحذر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي اختلست النظر إليه وآل فرعون لا يشعرون بها.

(١٢) ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي منعناه أن يرضع من المرضعات من قبل أن تقص أخته أثره أو قبل أن ترده لأمه ﴿فَقَالَتْ﴾ أي أخته ولا يعلم آل فرعون أنها أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي محبون صالحون.

(١٣) ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فقد أخذتهم أخته إلى أمِّه وهم لا يعلمون أنها أمُّه، فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحت امرأة فرعون وأجرت عليها الجرايات ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعدها ﴿حَقٌّ﴾ لا مرية فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي حكم الله وأفعاله وعواقبها المحمودة، فربما يقع الأمر كريهًا إلى النفوس وعواقبه محمودة في نفس الأمر.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

(١٤) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ إن هذه المرحلة من عمر الإنسان -أي اجتماع بلوغ الأشد والاستواء- تتراوح بين الثمانية عشرة والثلاثين وقيل إلى الأربعين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: النبوّة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم وصدَّقوا بوعد الله كما فعلت أم موسى.

(١٥) ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهي: منفيس عاصمة مصر إذ ذاك، وقيل: لما عرف موسى ماهو عليه من الحق في دينه عاب ماعليه قوم فرعون، وفشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم فكان لايدخل المدينة إلا مستخفيًا ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي من الأقباط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي فضربه بجمعه فقتله. وهنا لا بد لنا أن نقف قليلًا عند قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ...﴾ فكثيرًا ما يحتج به بعض الجهلاء على جواز الاستغاثة بغير الله والعياذ بالله، دون أن يلاحظوا الفارق بين الاستغاثتين فاستغاثة الإسرائيلي بموسى، هي استغاثة مخلوق بمخلوق في أمر يقدر عليه فهذا لا بأس به، أما أن يستغيث مخلوق بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله كتفريج الكرب وغفران الذنب وما أشبه؛ فهذا لا يجوز طلبه إلا من الله تعالى وحده لا شريك له، وبهذا تسقط حجة من يحتج باستغاثة الإسرائيلي بموسى على جواز فعل الاستغاثة بغير الله في أمور لا يقدر عليها إلا الله تعالى ﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿هَٰذَا﴾ أي قتله القبطي ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة والإضلال والإغواء، والله أمر عباده المؤمنين أن يحذروه.

(١٦) ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا توسل مشروع؛ فقد توسل موسى عليه السلام باعترافه بذنبه وظلم نفسه ثم طلب المغفرة من الله تعالى فغفر الله له ذنبه.

(١٧) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي بسبب ما أنعمت عليَّ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي معينًا للكافرين بك، والمخالفين لأمرك.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي يتلفت خائفًا من فعلته وهي قتل القبطي وما يكون منها ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي يستغيثه مرة ثانية ويقاتل قبطيًا آخر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي بالقبطي الآخر ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلي -وقد ظن من جبنه أن سيقتله- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ أي كما قتلت القبطي بالأمس؟ ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فلما سمع القبطي ذلك لقفها من فمه، ثم ذهب إلى باب فرعون وألقاها عنده فاشتد فرعون حنقًا على موسى وعزم على قتله، فطلبوه، وبعثوا وراءه ليحضروه. وقيل: إن القبطي هو الذي قال: تريد أن تقتلني.

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي يتشاورون بذلك ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أي من هذه المدينة إلى غيرها لا يكون لفرعون عليها سلطة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي من المشفقين عليك والمحبِّين المخلصين لك.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي من المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي يتلفَّت خشية أن يراه أحد ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى﴾ أي أنقذني ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين.

سورة القصص | الجزء العشرون

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن
تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

٣٨٨

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي أخذ طريقًا سالكًا إليها ولم تكن مدينة مدين داخلة تحت سلطان فرعون، فرح بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي يرشدني نحو الطريق المستوية إلى (مدين) فاستجاب دعوته، ووصلها آمنًا مطمئنًا ونجاه الله من فرعون وقومه الكافرين.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي وهو الماء الذي يستقون منه، وجد على الماء جماعةً كثيرة من الناس يسقون مواشيهم. ومدين اسم القبيلة التي كانت تسكن البلدة التي سميت باسمها ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي وجد امرأتين، منتحيتين ناحيةً عن الجماعة تكفَّان غنمهما عن الماء ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنكما لا تسقيان غنمكما؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي لا نستطيع أن نسقي غنمنا حتى يفرغ الرعاة من سقي مواشيهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر أن يسقي.

(٢٤) ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ وروى ابن أبي شيبة إلى عمر بن الخطاب ﷺ بسند صحيح قال (فلما فرغوا، أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال!! فأتى موسى الصخرة فرفعها وحده، ثم استقى، فلم يستق إلا دلوًا واحدًا حتى رويت الغنم) ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ﴾ مسترزقًا ربه تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ. فسمعت المرأتان ما يقول، ولما رجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما، فسألها فأخبرتاه فقال لإحداهما: انطلقي فادعيه إلينا لنجزيه.

(٢٥) ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي واضعةً كُمَّ درعها على وجهها حياءً منه ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي لا لِـمَنٍّ عليك، بل لإحسانك لنا ومكافأة عليه، فأجاب موسى دعوة أبيها ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي ما حصل له ابتداء من هربه إلى وصوله إليه. ﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾ مسكِّنًا روعه جابرًا قلبه ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خرجت من أرضهم وحكمهم وظلمهم. وليس عليك منهم سلطان، وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل، من هو؟ والمشهور أنه شعيب عليه السلام فعن سلمة بن سعد الغزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له: «مرحبًا بقوم شعيب وأَختانِ موسى هُديت»[1] [٦٢٧]، فدلَّ على أنه شعيب.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي اجعله أجيرًا عندك يرعى الغنم ويسقيها فإنه جمع القوة والأمانة، وإنما قالت ذلك لأنها شاهدت قوته عند رفع حجر البئر، وأمانته من قوله لها حين أجاب دعوة أبيها: كوني من ورائي فإذا اختلف الطريق عليَّ فاحذفي لي بحصاة أهتدي بها إلى الطريق.

(٢٧) ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ الكبرى أو الصغرى ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أن تؤجرني نفسك ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أي ثماني سنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي إن أتممتها عشرًا فتبرع منك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإتمام العشر إلا أن تطيب نفسك بذلك ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أن أعاملك كما يعامل الرجال الصالحون أجراءهم.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكرتَهُ عقدٌ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي ثماني سنين أو عشرًا ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية أعوام ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد وحافظ يراقبنا ويعلم ما تعاقدنا عليه. وقد قضى موسى أبرَّ الأجلين وأتمَّها وأوفاهما وهو العشر حجج.

(١) إسناده ضعيف.

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم
مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ
(٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ
ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ
مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ (٣١) ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ
غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ
بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ
أَن يَقۡتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا
فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ (٣٥)

٣٨٩

(٢٩) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ أي أتمه وهو العشر ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ قِبَلَ مصر، وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، فسلك الطريق في ليلة مظلمة باردة، فنزل منزلًا فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئًا!!! فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾ أي أبصر نارًا تضيء على بعد ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي انتظروني حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن الطريق، وكان قد أخطأها ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾ أي شعلة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها من البرد.

(٣٠) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي وصل إلى النار ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي من جانب الوادي الذي يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وجد النار تضطرم في شجرة خضراء، فوقف باهتًا في أمرها فناداه ربُّه ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي إنَّ الذي يخاطبك إنما هو رب العالمين، لا ربَّ سواه تعالى وتقدس عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأفعاله.

(٣١) ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ أي التي في يدك ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ أي تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أي في سرعة حركتها وعظم خلقتها، فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أي انهزم منها ولم يلتفت فقال الله تعالى له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ فرجع ووقف في مقامه الأول.

(٣٢) ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ﴾ أي أدخلها ﴿فِي جَيۡبِكَ﴾ والجيب، فتحة الثوب مما يلي العنق ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ أي تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان وبريق ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي من غير برص، فتحقق أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ أي عضدك من الخوف والفرق، ليذهب عنك ما خفت منه من العصا واليد ففعل ذلك، فذهب ما يجده من الخوف. وقد نزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام من الخوف من فرعون، وجعله في قلب فرعون إذا رأى موسى ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي معجزتان وفيهما الحجة البالغة بصدق رسالتك من ربك ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي قومه من الرؤساء والكبراء، والأتباع ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله أبلغ خروج ومخالفين لأمره ودينه.

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾ وهي: القبطي الذي مرَّ ذكره آنفًا ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ كما قتلت ذلك القبطي فإذا رأوني قبضوا علي وقتلوني به.

(٣٤) ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ فقد كان في لسان موسى لثغةٌ بسبب تناوله الجمرة، فحصل في لسانه شدةٌ في التعبير ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ أي معينًا ومساعدًا ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

(٣٥) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي سنقوِّيك به، ونعينك بأخيك هارون، وأجبنا سؤلك بأن جعلناه نبيًا ورسولًا معك إلى فرعون وقومه ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ أي تسلطًا وتمكنًا من الدعوة بالحجة والهيبة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ بالأذى ولا يقدرون عليكما بالحجة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي نجعل لكم سلطانًا بها ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ وهذه بشرى بالغلبة عليه يقينًا، وفيها التقوية البالغة والجرأة على عدو الله، فلم يَعُدْ في نظرهما شيئًا مذكورًا.

شد الله أزر موسى بمعجزتي العصا واليد وجعل أخاه نبيا معه بإذن الله

فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ
لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ
لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ
إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي
الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

٣٩٠

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي فلما أرى موسى فرعون ما آتاه الله من المعجزات الباهرات، والدلالات البالغات على صدقه فيما يبلغ هو وأخوه هارون عن الله تعالى ﴿قَالُوا﴾ أي فرعون وملأه ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي جاء به ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وذلك عنادًا واستكبارًا عن الحق بعد أن أيقنوا أنه هو الحق بعينه، لكنهم بغوا وكابروا وقالوا: ما سمعنا ولا آباؤنا بعبادة الله وحده لا شريك له، وما هذا الذي جاء به موسى إلا سحر مفتعل مصنوع!!!

(٣٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾ أي الله أعلم بمن هو المحقُّ منا ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة من النصر والظفر والتأييد من الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المشركون بالله تعالى لا في دنياهم ولا أخراهم.

(٣٨) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وهكذا بدأ فرعون يغالط قومه ويوهمهم بكمال اقتداره فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي أن يصنع له آجرًا ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أي وابن لي بناءً عاليًا ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي أصعد إليه وأشرف عليه بينما هو متأكد من وجود الله ولكن ليظهر لرعيَّته أن موسى كاذبٌ فيما يدعيه، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

(٣٩) ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ﴾ أي فرعون عن الإيمان بالله والتسـليم لرسالة موسى ﴿وَجُنُودُهُ﴾ أي كذلك لم يؤمنوا واستكبروا ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بعدما تبين لهم أنه الحق الذي هو أحق أن يتبع ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي وأنكروا البعث واليوم الآخر.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي فطرحناهم في البحر وأغرقناهم جزاء كفرهم وظلمهم ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ إنها كانت شرَّ عاقبة وأرذل خاتمة في الدنيا والآخرة.

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي صيَّرناهم رؤساء متبوعين مطاعين في الكافرين، فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادي والاستمرار فيه، يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتدوا وسلكوا طريقتهم تقليدًا لهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدارين.

(٤٢) ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي جعل الله فرعون وقومه ملعونين على ألسنة المؤمنين في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي المبعدين عن كل خير فلا يرون إلا شرًا لهم في قرار الجحيم، وهذا مما يدل دلالة قاطعة على خلود فرعون وجنوده في النار، لا كما يقول البعض: إن فرعون ناجٍ ويصرون على ذلك!!! بعد كل ما تقدم في هذه الآيات وغيرها في سور أخرى بكفر فرعون وقومه، ولا ندري ما هو الداعي لهذه الشفقة على فرعون رغم قوله: أنا ربكم الأعلى، أما قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فهذا لا ينفعه؛ لأن الله تعالى رد بقوله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]. كقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥] ولكن «القوم» هم هم ومصرون على اعتقادهم بنجاة فرعون والله تعالى يقول ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(٤٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التـوراة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ أي الذي كان خاتمتهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده، وفي هذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي من الغي ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيعودون إلى الحق والخير والهدى.

فرعون خالد في النار أبداً برغم محبّيه والمشفقين عليه...!!!

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ وهذا برهان على نبوة محمد ﷺ؛ لأنه يخبر بغيوب الأخبار الخالية، يصفها كأنه كان شاهدًا لهذه الواقعة ووقائع غيرها من سيرة من سبقه من الأنبياء والرسل وما حدث بينهم وبين أقوامهم، كل ذلك براهين تؤيِّد رسالته ونبوته عليه الصلاة والسلام هذه الأخبار ما كان يعلمها لولا أن أخبره الله بها لذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ حين أرسلناه إلى فرعون ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لذلك، إنما هو وحي أوحيناه إليك من لدنا.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بين عهدك وعهد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي تطاول العهد والأمد ونسوا حجج الله عليهم فتغيرت الشرائع والأحكام ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي وما كنت أيضًا مقيمًا في أهل مدين تتلو آياتنا عليهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك إلى أهل مكة، ولولا إيحاؤنا لما علمته.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي نادينا موسى إلى الميقات ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي ما كنت شاهدًا لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي من عهد إبراهيم وإسماعيل إلى عهد محمد ﷺ لم يأتهم نبي ولذلك فإنهم مكلفون بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا سيما وإن العرب جميعًا كانوا على ذلك إلى زمن عمرو بن لحي؛ فهو أول من بدل دين إبراهيم وأدخل الشرك والأوثان إلى جزيرة العرب. ولم يكن بين ابن لحي وبين رسول الله سوى أربعمئة سنة كان يتخللها من الناس من يذكِّر العرب بدين إبراهيم إلى زمن رسول الله ﷺ، وكان لا يخلو سوق من أسواق العرب ولا موسم من مواسمهم إلا ويقوم هؤلاء وهم الذين يسمَّون بالحنفاء يذكرون العرب بدين إبراهيم الذي غيروه وبدلوه، فالحجة قائمة على العرب في ذلك الزمن، ولا سيما بمبعث رسول الله ﷺ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يهتدون.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي من شركٍ في توحيد الله تعالى وتصيبهم بسببه مصيبة أي عذاب الله ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فأرسلناك إليهم لتنقطع حجتُهم، ويثبت عذرهم إذا جاءهم عذاب الله جزاء عدم إيمانهم بك وتصديقهم لرسالتك.

﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي على لسان رسول الله ﷺ ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي فلما جاء أهل مكة هذا الحق أي القرآن قالوا تعنتًا منهم: هلا أوتي هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات؟ فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل بعثة محمد ﷺ، فإنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ يعنون التوراة والقرآن أنهما سحران تعاونا ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي بموسى ومحمد وبالتوراة والقرآن.

﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ وهذا من قبيل التحدي من جهة، والتنازل مع الخصم من جهة أخرى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم إنهما سحران.

﴿٥٠﴾ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ ولن يستجيبوا ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أضلُّ منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم وأردوها باختيارهم في نار جهنم وبئس المصير.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن
نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

(٥١) ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أخبرنا قريشًا بمن مضى من القرون، وكيف حلَّ بمن لم يؤمن من الهلاك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون.

(٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي علماء أهل الكتاب ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون بالقرآن لأن خبر القرآن وخبر النبي الذي سينزل عليه موجود عندهم في التوراة والإنجيل فالعلماء والأولياء منهم يؤمنون بمحمد والقرآن.

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا يتلى عليهم القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي صدقنا به وبمن نزل عليه ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي الحق الذي نعرفه من كتبنا المنزلة من ربنا ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي من قبل هذا القرآن كنا مسلمين موحدين لله مستجيبين له، وهؤلاء أمثال عبد الله بن سلام وأصحابه ووفد النجاشي من القسيسين الذين قرأ رسول الله ﷺ عليهم سورة يس كلها فبكوا وأسلموا.

(٥٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، كما جاء في الحديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمةٌ فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» أخرجاه [٦٢٨]. ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتابين والرسولين ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون ما يلاقونه من الأذى بالكلام الطيب وتشمل من يدفع بالطاعة المعصية والذنوب بالاستغفار والتوبة، والشرك بالتوحيد ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي الزكاة المفروضة والصدقة المستحبة التي يجبرون فيها كسر قلوب الفقراء ويطيِّبون خواطرهم.

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وذكروا أنه لما جاء وفد النجاشي إلى رسول الله ﷺ وأسلموا، قاموا من مجلس الرسول فاعترضهم أبو جهل ونفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم حتى فارقتم دينكم وصدقتموه!!!؟ فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيرًا.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ نزلت في حق أبي طالب بعد أن رفض أن يقول لا إله إلا الله رغم ما عالجه عليها رسول الله ﷺ، وقال: هو على ملة عبد المطلب ولفظ روحه. والمعنى: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت هدايته. فالهداية ليست لك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

(٥٧) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي المشركون ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي نخشى أحياء العرب أن يحاربونا ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي ألم نجعل حرمًا ذا أمن، ثم وصف هذا الحرم بقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تجمع إليه الثمرات على اختلافها من البلاد المختلفة وتحمل إليه؟ ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

(٥٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي طغت وكفرت نعمة الله ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زمنًا قليلًا بعدهم؛ لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لأنهم استؤصلوا فلم يبق منهم واحد يرثهم فرجعت خرابًا يبابًا ليس فيها أحد.

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي البلاد ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي في عاصمتها ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ مبشرة ومنذرة ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي لا يهلك مدينة إلا ويكون أهلها قد استمروا بكفرهم معاندين ظالمين لأنفسهم.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

• ينادي الله يوم القيامة للمشركين: أين شركائي... ما زعمتم معكم؟!!!

(٦٠) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ يخاطب الله أهل مكة: أن ما أعطيتم من البهرج الزائف في الدنيا فهو حقير جدًا بالنسبة لما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم المقيم وفي الحديث: «والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليمِّ، فلينظر ماذا يرجع إليه» [٦٢٩]. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من ذلك الزائف الزائل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتقدمون الآخرة على الدنيا.

(٦١) ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي وعدناه بالجنة وما فيها من النعيم الذي ملاقيه لا محالة، فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فأعطي منها بعض ما أراد مع سرعة زواله وتنغيصه ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي من المعذبين.

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها!!؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون؟

(٦٣) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم رؤساء الضلال كالشيطان والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي كلنا قد اشترك في الغواية فشهدوا أنهم أغووهم، فاتبعوهم ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي إن رؤساء الضلال تبرأوا ممن أطاعوهم وصاروا أعداء، وما كانوا يعبدوننا، إنما كانوا يعبدون أهواءهم واستحسنوا ذلك.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي حتى ينقذوكم كما كنتم تدعونهم في الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي دعا الكفار آلهتهم التي كانوا يدعونها، ولكن لم يلبُّوا نداءهم ودعاءهم ولا نفعوهم بشيء من وجوه النفع ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي التابع والمتبوع، وأيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ أي تمنوا حين عاينوا العذاب لو أنهم مهتدون في الدنيا؛ إذًا لما وقعوا فيما وقعوا فيه من النكال.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الرب سبحانه ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ماذا كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين الذين بلغوا رسالاتي، لأن الله لا يسأل عن متابعة غير الرسل بل يسأل عن متابعة الرسل تمامًا دونما زيادة أو نقصان، وفي الحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» [٦٣٠]، وفي الحديث الآخر: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ» [٦٣١] أي مردود لا يجوز العمل به لأنه غير مطابق لما جاء به ﷺ.

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون، وسميت حججهم أنباءً وأخبارًا لأنها لم تكن من الحجة في شيء وإنما هي أقاصيص وحكايات ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فيما بينهم عن الحجة ولا يدرون بماذا يجيبون لأنه لا عذر لهم ولا حجة في عدم إجابتهم الرسل.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي من تاب من شركه ووحد الله حق توحيده وآمن بكل ما جاء عن الله ورسوله وعمل صالحًا طبق ما شرع الله ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي فعسى من جمع هذه الخصال أن يكون من المفلحين الناجين والناجحين، و(عسى) من الله موجبة لا محالة.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي هو المنفرد بالخلق والاختيار ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي وليست لأحد من خلقه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به غيره.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفي صدور المشركين من الشرك به والعداوة لرسوله ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وما يبدونه من ذلك

(٧٠) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى وتقدس ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي هو المحمود في الدنيا والآخرة على ماله سبحانه من صفات الجلال والكمال وعلى جميل إنعامه على خلقه ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازي كلًّا بحسب ما يستحق.

الجزء العشرون | سورة القصص

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ
عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ
أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ
﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

٣٩٤

(٧١) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لو أن الله جعل الليل دائمًا وصرتم في ظلام مستمر إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: أيُّ إله من آلهتكم التي تعبدونها يأتيكم بالنهار ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا الكلام سماع فهمٍ وقبول وتدبر وتفكر.

(٧٢) ﴿قُلْ﴾ وكذلك قل لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي دائمًا مستمرًا لأضرَّكم وتعبتم من الحركة والعمل وبقي كذلك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يأتي الليل حتى تستريحوا فيه من عناء الأعمال ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ فأي إله من آلهتكم التي تعبدونها يأتيكم بليل تستريحون فيه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا تبصرون مواقع العبر، ومواضع الآيات فتستنير بصائركم وتسلكوا الصراط المستقيم؛ وهكذا فإن سلطان السمع في الليل أبلغ لذا قال: (أفلا تسمعون) في معرض الليل. ولما كان سلطان البصر في النهار أبلغ قال: (أفلا تبصرون) في معرض النهار.

(٧٣) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي خلقهما لكم ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بأن تعبدوا مُسْدِيها حق عبادته ولا تشركوا معه أحدًا من خلقه.

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي في الدنيا فأين هم اليوم؟!!! وتزعمون أنهم شفعاؤكم يوم القيامة فكنتم تعبدونهم من دوني وقد كرَّر النداء جلَّ وعلا لاختلاف الحالتين، لأنهم ينادَوْن مرة فيدعون الأصنام، وينادَوْن أخرى فيسكتون وفي هذا التكرار أيضًا تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ.

(٧٥) ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي من كل أمة رسولها الذي يشهد عليها بالتبليغ للرسالات التي نزلت عليهم بأنَّ الله هو المستحق وحده للعبادة ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حجتكم على ما كنتم تعبدون من دوني ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي عند ذلك علموا أنه لا إله إلا هو ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل ما كانوا يختلقونه ويفترونه من الكذب في الدنيا بأنَّ لله تعالى شركاء يستحقون العبادة.

(٧٦) ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ويقال إنه ابن عم موسى وإنه لم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة، فنافق كما نافق السامري وخرج عن طاعة موسى وهو معنى قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي جاوز الحد في التجبر والتكبر، وبغيه عليهم هو استخفافه بهم لكثرة ماله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي الأموال العظيمة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي مفاتيح خزائن كنوزه لا تنهض بها إلا العصبة الأقوياء من الرجال أي الجماعة التي تتكاتف متآزرة ويتراوح عددها الأربعين ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تبطر ولا تأشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي البطرين الأشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم من فضله والمراد من قومه هم موسى والمؤمنون من بني إسرائيل.

(٧٧) ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي وليكن مرادك مما وهبك الله تعالى من الأموال، ورغبتك الدار الآخرة فابذل منها في طاعة الله ما تستطيع من البذل ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك ولا يضر بآخرتك ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأحسن إلى عباد الله تعالى مثلما أحسن الله إليك وأعطاك من تلك الأموال، إنما أنت عليها وكيل فأنفق منها كما أمرك سيدك لا أن تستأثر بها لنفسك وتنفقها على ملذَّاتك وشهواتك وعلى المعاصي والاشتغال بالنعم عن المنعم ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالإساءة إلى خلق الله بالبخل والتكبر والتجبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بل يعاقبهم على ذلك.

من غير الله يقلب الليل والنهار؟ قارون أسوأ مثل للأغنياء المفسدين

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ
مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ
وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ
فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا
مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّمَنۡ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا
بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ
مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ
وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾

(٧٨) ﴿قَالَ﴾ أي قارون مجيبًا الذين نصحوه وأرشدوه ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أي إنما أعطيته لعِلْم الله فيَّ أني أهلٌ له وأنني أستحقه، ولمحبته لي أعطاني إياه، فرد الله عليه بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًا﴾ أي ألم يعلم من كتاب الله التوراة أنه أهلك من كان قبله من الأمم الخالية، لتجبرهم واستكبارهم وكانوا أقوى منه وأغنى، ولو كان المال أو القوة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب، بل سؤال حساب وعقاب.

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ أي خرج قارون عليهم ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ الباهرة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي يحبونها ويغترُّون بزيفها الباطل الزائل: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ أي من المال والجاه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي قارون ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي وافر أي يتمنون أن يكون لهم ما لقارون من زينة الحياة الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي العالمون العاملون المتقون: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ أي الجنة وما أعد الله فيها للمؤمنين من النعيم الخالد ﴿خَيۡرٌ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي خير لمن آمن بالله تعالى وكان عمله صالحًا طبق الشريعة وخالصًا لله ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي ولا يلقى الجنة ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على طاعة الله تعالى، والمصبرون أنفسهم عن الشهوات.

(٨١) ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي بسبب اختيال قارون وفخره وتكبره وتجبره، وقيل: إنه أي قارون أغرى بغيًا بأن تدعي أن موسى عليه السلام قد فجر بها ففعلت فناشدها موسى عليه السلام بالله تعالى أن تقول الحق فقالت: إن قارون هو الذي حملها على أن تقول ذلك على موسى، فأوحى الله إليه: أني أمرت الأرض أن تطيعك في قارون فقال موسى: خذيه يا أرض، فابتلعته الأرض بداره. وفي الحديث: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» [٦٣٢]. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ينقذونه ويدفعون عنه أمر الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ أي وما كان هو منتصرًا لنفسه مما نزل به من الخسف وبداره.

(٨٢) ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي الذين بهرتهم زينته وتمنوا لأنفسهم مثلها ﴿يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾ أي تندَّموا على ما فرط منهم من تمنٍّ لمثل ما كان لقارون وعلموا أن المال ليس بدالٍ على رضا الله عن صاحبه. كما في الحديث: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب» [٦٣٣]. ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بفضله ورحمته ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي لابتلعتنا الأرض كما ابتلعت قارون ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي ألم تر أنه لا يفلح الكافرون أمثاله.

(٨٣) ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ أي الجنة ﴿نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي نعطي الجنة للذين لا يريدون تجبرًا ولا تكبرًا ولا استعلاءً على عباد الله تعالى ولا فسادًا فيهم أي ولا عملًا بالمعاصي. وفي الحديث: «إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» [٦٣٤]. ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون حرمات الله ويجتنبون معاصيه.

(٨٤) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي عمل بها في الدنيا وجاء بها يوم القيامة ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ أي أضعافًا مضاعفة فضلًا منه تعالى ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي ومن عمل سيئة في الدنيا وجاء بها يوم القيامة ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي طبق ما كانوا يعملون عدلًا منه.

إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ
أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ ٱلۡعَنكَبُوتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا
يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ
لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن
جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

(٨٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ أي إلى يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، وأداء تبليغ ما أنزل إليه إلى الناس كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو النبي ﷺ ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي هم المشركون الذين قالوا له: إنك ضال.

(٨٦) ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي ما كنت تعلم من قبل أنه سينزل عليك القرآن وما كنت متوقعًا لذلك ولا متصديًا ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكن تنزيل القرآن عليك ما كان إلا رحمة بك وبالعالمين بسببك، فإذا منحك هذه النعمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا﴾ أي معينًا ولا مداريًا ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ وذلك أنه دعوه إلى دينهم فأمره بالاحتراز منهم، والخطاب وإن كان له، إنما المراد لأمته لئلا يظاهروهم.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَ﴾ أي لا يمنعنك أذى المشركين، أن تتوقف عن الدعوة إلى الله بل ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى توحيده واتباع أحكامه، والصبر على أذى المشركين ومعاداتهم ومقاطعاتهم لك ولمن معك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهذا أيضًا لأمته لأنه ﷺ لا يكون من المشركين بحال من الأحوال.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي إنَّ الأمر موجهٌ لـه وللأمة وإن كان هو معصومًا منه ولكن المراد كما سبق هو أمته كيلا تقع بالشرك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا هو ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أي إلا هو ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي التصرف والملك ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر.

آخر تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنّة

(٢٩) سُورَةُ ٱلۡعَنكَبُوتِ

مكية إلا من آية ١ إلى آية ١١ فمدنية،

وآياتها ٦٩، نزلت بعد الروم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓ﴾ كما جاء في أول سورة البقرة فليرجع إليها.

(٢) ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ أي لا يحسب الناس أن يتركوا هكذا بلا امتحان، وتبقى دعواهم بالإيمان مجردة بلا دليل، بل إن الله تعالى لا يتركهم بلا امتحان حتى يختبر ضمائرهم ويظهر حقيقتها لهم، وإلا فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ولكن من أجل أن يعلموا أن الله لا تخفى عليه منهم خافية فيمتحنهم بالسراء والضراء والعسر واليسر والمنشط والمكره والغنى والفقر ونحو ذلك من الفتن، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

(٣) ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم الماضية ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي علم مشاهدة بصدق دعوى الإيمان، ويظهر الحقيقة والله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ بادعائهم أنهم مؤمنون ويظهر ذلك لهم.

(٤) ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾ أي أم ظن المسيئون بسيئاتهم أن سيفلتوا من أيدينا قبل أن نحاسبهم ونؤاخذهم بما يعملون ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي بئس ما يظنون، وبئس ما يحكمون من حكم تضمن إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لهم قدرة يمتنعون بها من الله!!!

(٥) ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ فليعمل للقاء ذلك اليوم فإنه لا محالة واقع وسيحقق الله رجاءه، ويوفيه عمله كاملًا تامًا وأما من كان مكذبًا بهذا اللقاء ويخفي ما في نفسه فإن الله يظهره ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأصوات و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بالنيات.

(٦) ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ الكفار وجاهد نفسه عن المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ أي يعود لها النفع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي لا ينفعه جهادكم بل ينفعكم وهو غني عن الجميع، ولكن ليكتبه في صحائفكم ويكافئكم عليه بالجنة.

ما كان يعلم عليه السلام سابقًا بأن الوحي سينزل عليه، لن يفلت المسيء من قبضة الله

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ
﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ
﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ
﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ
شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ
﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

٣٩٧

(٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بأركان الإيمان جميعها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي عملوها خالصة لوجهه تعالى وكانت مطابقة لما شرع الله بلا زيادة ولا نقصان ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي مع أن الله غني عن العالمين إنما يجزي العاملين المخلصين ويكفر عنهم أسوأ ما عملوا من السيئات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم يزيدهم من فضله فلا يكفر سيئاتهم فحسب إنما يجزيهم على أعمالهم المخلصة بأحسن ما قدموا من عمل صالح مقبول.

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ والله تعالى لا يوصي إلا بخير ﴿بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي يحسن إلى والديه إحسانًا كثيرًا ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي إذا طلبا منك وألزماك بأن تعبد معي إلهًا آخر ليس لك به علم لأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه فكيف بما علم بطلانه؟ فإن ألزماك بذلك فلا تطعهما إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك ووالديك كلًّا بما يستحق من العمل الذي عمله في دار الدنيا.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنوا وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح المقبول ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي فإن الله وعدهم أن يدخلهم الجنة في جماعة عباد الله الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وكلٌّ بحسب درجته عند الله.

(١٠) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي وهناك قسم من الناس يقولون آمنا، وهو ادعاء كاذب يقولونه بألسنتهم، وقلوبهم خالية من الإيمان ﴿فَإِذَا أُوذِيَ﴾ أي أحدهم ﴿فِي اللَّهِ﴾ أي في سبيله تعالى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي إذا أصابته مصيبة أو أنه عذب من قبل المشركين رجع إلى الشرك فجعل فتنة الناس يخاف منها كما كان في الإيمان يخاف من عذاب الله وذلك هو الضلال البعيد ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي يريدون أن يشتركوا في المغانم، ويقولون لكم: نحن إخوانكم في الدين لتقاسموهم مغانمكم ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أي يعلم ما تكنه صدور الخلق أجمعين، فكيف بهؤلاء المنافقين!!!؟

(١١) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليبتلينهم بالسراء والضراء وليظهر حال المؤمنين وما فيهم من خير ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي ليظهر أيضًا حالهم وما فيهم من شر ليتميز هؤلاء من هؤلاء، ويبدو الخبيث من الطيب كما وقع في غزوة أُحُد.

(١٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي اتبعوا ديننا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي إن كان سبيلنا خطأ فنحن نحمل عنكم خطاياكم وذنوبكم، فنحاسب عنكم ونعذب بالنيابة عنكم ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإنه لا يحمل أحد وزر أحد.

(١٣) ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي ذنوبهم وخطاياهم ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي مثل ذنوب الذين أضلوهم كذلك يحملونها فوق ذنوبهم وخطاياهم دون أن ينقص من ذنوب الذين أضلوهم شيء وفي الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا» [٦٣٥]. ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون ويختلقون البهتان.

(١٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم طيلة هذه المدة إلى توحيد الله تعالى فكذَّبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسهم. فلا تأسف يا محمد على من كفر من قومك، فسينصرك الله عليهم نصرًا عزيزًا.

ويل لمن يعبد الله على حرف • المضلون يحملون أوزارهم وأوزار من أضلوهم

(١٥) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي أنجينا نوحًا ومن كان معه في السفينة من أولاده وأتباعه ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إما عينها فقد قيل: إنها بقيت على الجودي إلى أول الإسلام، أو نوعها بأن جعله الله تذكرة لنعمة الله على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان.

(١٦) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي أفردوه وحده في العبادة وخافوا عقابه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي هذا خير لكم وهو توحيده عزَّ وجلَّ؛ لأن التوحيد هو الوسيلة الوحيدة لعدم الخلود في النار إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم، مما هو شرٌّ لكم في الدنيا والآخرة.

(١٧) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي أصنامًا ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي زورًا وكذبًا أسماء لها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، وسميتموها آلهة وعبدتموها من دون الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي لا يقدرون على رزقكم ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي اطلبوه منه وحده لا من غيره الذي لا يملك لنفسه رزقًا حتى يملك لغيره ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي وحِّدُوه في العبادة واشكروه على ما رزقكم وأنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تبعثون بعد الموت، فيحاسبكم على أعمالكم ويجازي عليها كلًّا بما يستحق.

(١٨) ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ وإن تكذبوا يا أهل مكة محمدًا فلستم أول من كذب رسوله؛ فقد كذبت قبلكم أممٌ رسلَهم فحاق بهم الهلاك ولستم علي أعز منهم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إنما على الرسول أن يبلغكم أوامر الله تعالى وهو الهادي لمن يشاء، والمضل لمن يشاء فاحرصوا أن تكونوا من المهتدين.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ أي ألم يشاهدوا كيف يخلقه من العدم، ثم هو قادر على إعادته من طريق الأولى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إعادته من شيء، أيسر عليه من خلقه من لا شيء فكيف يقر المشركون بالخلق من العدم، ويستبعدون إعادته من وجود!!!؟

(٢٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يا أيها المشركون ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على كثرتهم، واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ثم انظروا إلى آثار الأمم الماضية ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي يوم القيامة ويبعث مَنْ في القبور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه الخلق ولا يعجزه الإعادة بل هو عليهما وعلى كل شيء قدير، يقول للشيء كن فيكون.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

٣٩٨

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ولا يشاء إلا العدل أي لا يعذب إلا من يستحق العذاب ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي لا يرحم إلا من هو مستحق الرحمة، وهو الحكيم العليم ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي ترجعون يوم القيامة فيعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي إلى أين المفر فالكل ملكه، والأرض والسماء في قبضته، وإنكم يا أيها المكذبون لن تفلتوا من عذابه سبحانه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لكم من يواليكم غير الله تعالى، ولا من ينصركم من دونه أحد فمن هذا الذي يمنعكم منه، ومن هذا الذي ينصركم عليه؟ أي لا أحد، فلا ملجأ منه إلا إليه، ولا معتصم منه إلا به.

(٢٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي التنزيلية من الكتب المنزلة على الرسل أو التكوينية وهي المعجزات التي تدل على خالقها ومنشئها وبارئها ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي كفروا بلقائه يوم القيامة وبالحساب والجنة والنار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون: ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي لن يفوزوا بها، ولا نصيب لهم فيها لأنهم كفروا بالله ولقائه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي موجع لا يطاق ولا يحتمل، خالد لا يخفف عنهم ولا يستريحون منه لحظة.

عجيب لمن آمن بخلق الخلق من علم كيف يكفر ببعثهم من وجود؟!

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾
وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ
إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ
أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي قوم إبراهيم عليه السلام. وهذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض بما تقدم من خطاب محمد ﷺ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وذلك لتوجه الحجة عليهم، فعدلوا عنها إلى استعمالهم قوة الملك، فحشدوا أحطابًا عظيمة وأوقدوها، ثم قذفوا إبراهيم عليه السلام فيها ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي جعلها عليه بردًا وسلامًا فلم تحرقه ولا أثَّرت فيه أثرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه، أما مَن عداهم فهم عن ذلك غافلون؛ لأنهم لم يستعملوا عقولهم لفهم العظة.

(٢٥) ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي إنما اتخذتموها لتتصل المودة بينكم واللقاء والاجتماع عندها، وأنتم تعلمون أنها لا تضرُّ ولا تنفع ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، ويتبادلون اللعنات فيما بينهم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وإن النار ستكون منازلكم التي تأوون إليها، وليس لكم من ناصر ينصركم أو ينقذكم من عذابها.

(٢٦) ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ويقال إنه ابن أخي إبراهيم، ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل ﴿وَقَالَ﴾ أي إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي لما رأى أن دعوته لقومه لا تفيدهم شيئًا، هجر العراق إلى الشام بأمر الله تعالى ابتغاء إظهار الدين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به وله الحكمة في أقواله، وأفعاله، وأحكامه القدرية والشرعية.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي بعد إسماعيل ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي لم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل والقرآن لأن الألف واللام للجنس الشامل للكتب ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي أعطي في الدنيا الأولاد، والعمل الصالح، والزوجة الحسنة الصالحة، والقيام بتمام الطاعة لربه ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى، الكاملين في الصلاح المستحقِّين لوافر الأجر فجمع له سعادة الدنيا والآخرة.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه عليه السلام أنكر على قومه إتيانهم الذكران من دون النساء، فلم يسبقهم إلى ذلك الفعل أحدٌ قبلهم من الناس جميعًا على اختلافهم.

(٢٩) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي شهوةً من دون النساء ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي وكانوا بالإضافة إلى شركهم، وإلى فعلتهم الشنيعة يقطعون الطريق ويسلبون الناس أموالهم ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي يتسافدون علنًا، ويتضارطون ويتضاحكون، وعن أم هانئ رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «يحذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه»[1] [٦٣٦]. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فما أجابوا بشيء، إلا بالرجوع إلى التكذيب والعناد والتهديد بإخراج لوط ومن آمن معه من بلدتهم، ثم قالوا أخيرًا متحدِّين لوطًا أن يأتيهم بعذاب الله الذي أوعدهم به إن كان حقًا من الصادقين في إيعاده، وهذا من شديد كفرهم وعظيم عنادهم، شأنهم في ذلك شأن الكافرين قبلهم، فلما رأى لوط عليه السلام ذلك منهم، وتأكد أنهم لن يرجعوا عن فسادهم.

(٣٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي أنزل عذابك بمن كفر بك، وهتك حرماتك، وهزأ بآياتك، فاستجاب الله لنبيه ونصره عليهم.

(١) إسناده ضعيف.

جعل الله النبوة في ذرية إبراهيم، فما من نبي بعده إلا من سلالته

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ
أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ
أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ
وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ
كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ
﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ
﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ
﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي
دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾

(٣١) ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي ملائكتنا بالبشارة بالولد وهو إسحاق، وبولد الولد وهو يعقوب عليهم السلام. وكانت سارة حاضرةً فتعجبت من ذلك كما تقدم في سورتي هود آية (٧١) والحجر (٥٣-٥٤) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي هذه المدينة وهي سدوم التي كان فيها قوم لوط، وإن علة إهلاكهم ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي أهلكناهم بهذا السبب وهو كفرهم ثم فعلهم الشنيع ومعاصي أخرى.

(٣٢) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾ أي قال إبراهيم عليه السلام إن فيها لوطًا من الصالحين ﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ أي نحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ أي الذين آمنوا معه ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ فقد أخرجت من أهله لأنها كافرة وتمالي الكفار على زوجها لوط عليه الصلاة والسلام ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي الهالكين فتعذب معهم. ثم مضوا إلى لوط في صورة شبَّان حسان.

(٣٣) ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ أي وصلوا إليه ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي فساءه مجيئهم لأنه ظنهم من البشر فخاف عليهم من قومه لكونهم في أجمل صورة ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي عجز عن تدبيرهم ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ أي أخبروه بأنهم رسل الله ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ أي الذين آمنوا بك ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي ما عدا زوجتك فهي من الهالكين؛ لأنها على دين الكفرة.

(٣٤) ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي الظالم أهلها ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم وكفرهم وفجورهم ومعاصيهم. وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع مدينتهم وقراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأمطرهم الله بحجارة من السماء من سجيل منضودة مسومة عند ربك، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة معروفة إلى زمننا باسم «بحيرة لوط» الواقعة بين الأردن وفلسطين.

(٣٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾ أي آثارًا ظاهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي يتعظون بالعبر وتعيها قلوبهم، فينتفعون بها، وينظرون إليها في أثناء مرورهم عليها.

(٣٦) ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ عليه السلام فقد أمر قومه بعبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي أفردوه بالعبادة ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي واخشوا عذاب الله في الآخرة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ والعثو أشد الفساد أي لا تفسدوا في الأرض، ولا تبغوا على أهلها بإنقاص الكيل والميزان وقطع الطريق، وأشد من هذا كله الكفر الذي كانوا عليه.

(٣٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوا شعيبًا في كل ما دعاهم إليه من الخير ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي صيحة جبريل وهي سبب الرجفة المروعة التي زلزلت بلادهم، وأخرجت قلوبهم من حناجرها ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي ميتين على الركب في منازلهم ودورهم نكالًا لهم وعذابًا في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر.

(٣٨) ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ أما عاد فهم قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف بالقرب من حضرموت. وأما ثمود فهم قوم صالح عليه السلام، كانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ أي أن العرب كانوا يعرفون مساكنهم ويرونها في أسفارهم إلى اليمن رأي العين ما حلَّ في ديار عاد، وما أصابها من الدمار، وكذلك في أسفارهم إلى الشام يمرون على ديار ثمود، فينظرون بأمِّ أعينهم إلى ما حل بديارهم أيضًا من الهلاك ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي حسَّنها في قلوبهم ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ أي ذوي بصائر وأبصار ولكن لم يستعملوها فوقعوا بالغفلة وعدم التبصر في العواقب.

أيها المشركون: انظروا ما حلَّ بديار لوط وشعيب وعاد وثمود واتعظوا بمصيرهم

وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ
﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا
وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ
ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ
لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ
وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(٣٩) ﴿وَقَٰرُونَ﴾ وهو صاحب الكنوز الجزيلة ﴿وَفِرۡعَوۡنَ﴾ وهو ملك مصر في زمن موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو وزير فرعون وهما قبطيان كافران ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي قبل هلاكهم ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عن عبادة الله جل وعز ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي فائتين عذاب الله وكيف!!؟ وإن له ملك السماوات والأرض فأين يفلتون مما أعد لهم من العقاب؟

(٤٠) ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي فكل واحد من هؤلاء ومن الأمم المكذبة بالرسل قبلهم عاقبناه بكفره بما يستحقه: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ كقوم عادٍ الذي أتتهم ريح بالحصباء فرجمتهم بها وحملتهم إلى عنان السماء وضربت بهم الأرض، وقوم لوط الذين اقتلع جبريل أرضهم بأمر الله إلى موازاة السماء الأولى ثم نكسهم إلى الأرض وأمطرهم حجارةً من سجيل حتى أهلكتهم ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كثمود وهم قوم صالح وأهل مدين قوم شعيب ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ ككفرة قوم نوح وقوم فرعون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي يظلمون أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي.

(٤١) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي إن المشركين الذين يتخذون آلهة ينصرونهم بزعمهم؛ مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ وهي دابة ضعيفة ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ ليقيها من الحر والبرد والآفات ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ أي وإنه لأضعف البيوت وأوهاها، وكذلك المشركون ما ازدادوا باتخاذهم المخلوقين أولياء من دون الله إلا ضعفًا وذلاً ومهانة ولم يحصلوا منهم على طائل لأنهم لا يملكون شيئًا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي إن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتًا واهيًا واهنًا.

(٤٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ أي إن الله يعلم ما هم عليه من الشرك وما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم بما يستحقون ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي هو العزيز الذي له القوة جميعًا التي قهر بها الخلق طرًا، والحكيم الذي يضع الأشياء محالها وينزلها مواضعها.

(٤٣) ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي تقريبًا إلى أذهانهم وأفهامهم ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي ما يفهمها ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله إلا العالمون بالله الراسخون في العلم، المتضلعون منه.

(٤٤) ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ما خلقها إلا من أجل أن يعبد وحده ولا يعبد معه أحد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في معرفة أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وحده ﴿لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لدلالةً واضحةً على قدرته العظيمة، التي تفوق كل القدرات وذلك دافع بعد هذه المعرفة إلى إفراده تعالى بالعبادة، والعلم بأن من خلقهما وحده هو المستحق للعبادة وحده؛ فلا يُشرَكُ به ملكٌ مقرب ولا نبيٌّ مرسلٌ، ولا وليٌّ مفضل، ولا أي مخلوق في الأرض ولا في السماء، وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك، لإدراكهم الحقيقة.

(٤٥) ﴿ٱتۡلُ﴾ أي يا محمد اقرأ على قومك ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي بلغ للناس ما أنزل إليك من هذا القرآن ليتدبروا معانيه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام لفضل الصلاة وشرفها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ يفسرها الحديث: إن فلانًا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق. قال: «سينهاه ما تقول» [٦٣٧]. أي قيامه لصلاة الليل ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ أي وذكر الله إياكم بالثناء عليكم أعظم من ذكركم إياه في عبادتكم وصلواتكم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ من الأعمال فيجازيكم عليها بما تستحقون خيرًا أو شرًا فيكافئكم على الخير بأضعاف مضاعفة ويعاقبكم على الشر بما تستحقون.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ
إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ
وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ
ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ
يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾

٤٠٢

(٤٦) ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقال آخرون: بل هي باقية محكمة، ولكن لمن أراد الفهم والاستبصار في الدين فيجادَل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي يتبين أنهم يجادلون بالباطل، وعلى وجه المغالبة والمشاغبة والتعالي، فلا ينفع معهم الجدل بالتي هي أحسن فيؤمرون بالجزية، وإلا فقد صاروا أهل حرب ﴿وَقُولُوٓاْ﴾ أي أثناء المجادلة بالتي هي أحسن ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي التوراة والإنجيل ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ أي معبودنا ومعبودكم الذي أمرنا جميعًا أن نفرده بالعبادة واحد وهو الله تعالى ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي مستسلمون وفي الحديث: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [٦٣٨] أي قد تكذبون بحق، أو تصدقون بباطل، ولن يهدوكم وقد ضلوا.

(٤٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي هذا القرآن كما أنزلنا على من قبلك الكتب أيضًا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي من اليهود كأمثال عبد الله بن سلام ومن النصارى أمثال سلمان الفارسي وصهيب وما أشبه يؤمنون بالكتاب الذي نزل عليك وهو هذا القرآن ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مشيرًا إلى العرب من قريش وغيرهم ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن وهم الذين أسلموا منهم ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي ما يكذب بها إلا الذين دأبهم الجحود بالحق وستره بالباطل!؟

(٤٨) ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾ سواه ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ أي ما كنت تكتبه، والمراد أنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة، وهذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا بقي رسول الله أميًا لا يقرأ ولا يكتب حتى قبضه الله إليه، وقوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي لقالوا: تعلمه من الكتب السابقة ولما كنت أميًا انقطعت حجتهم، وقامت حجة الله عليهم، وأفحموا وكبتوا.

(٤٩) ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ أي إن هذا القرآن آيات واضحة في الدلالة على الحق أمرًا ونهيًا ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي الذين أعلى الله منزلتهم بالعلم ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي المعتدون الذين كابروا وحادوا عن الحق والصواب والهدى.

(٥٠) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما أتى صالح بناقته، وكآيات موسى ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي منه سبحانه ينزلها متى يشاء ولا قدرة لأحد من عباده على ذلك ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي أنذركم وأبلغكم ما نزل عليه من الرسالة فحسب.

(٥١) ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي هذا القرآن بما فيه من المعجزة الكبرى، فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي تقرأه عليهم وفي الحديث: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» [٦٣٩]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي إن في هذا القرآن لرحمة في الدنيا والآخرة وعظة لمن يؤمن به.

(٥٢) ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهم ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا﴾ بأنني رسوله حقًا وبما تقابلونني به من التكذيب ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فبدهي أن يعلم ما بيننا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي خسروا الإيمان الذي سيقودهم للنعيم المقيم لو أنهم آمنوا وصدقوا بما أنزل الله وبلغ رسوله ﷺ.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

٤٠٣

(٥٣) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي استهزاءً وتكذيبًا منهم بذلك ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي ولولا ما قدر الله من تأخير العذاب ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي بسبب تعجيزهم وتحديهم ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أي لا بد أن يفاجئهم العذاب بغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إلا وقد نزل بهم.

(٥٤) ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة ولا مناص.

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي تغطيهم النار وتشملهم من جميع جهاتهم من فوق ومن تحت وعن أيمانهم وشمائلهم وأمامهم وخلفهم ﴿وَيَقُولُ﴾ أي ويقول لهم ربهم على لسان ملائكته: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وبال أعمالكم.

(٥٦) ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ نزلت لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا إلى الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم ونصرهم، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة المطهرة المنورة ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ فإذا تعذرت العبادة في أرض عليكم فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، فأماكن العبادة واسعة والمعبود واحد، لا معبود إلا هو ولا ربَّ سواه.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي ما من نفس إلا وستموت لأن الموت لا بد منه ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى الله المعاد فيجازي كل نفس بما سعت في الدنيا.

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها أنهار من الخمر والعسل واللبن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين التي كانت خالصةً لله، والموافقة لشريعة الله.

(٥٩) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي صبروا على دينهم وهاجروا إلى الله وصبروا على مشاق التكاليف ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يفوضون أمورهم إلى الله في كل شيء.

(٦٠) ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء ويرزقكم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده والعليم بحركاتهم وسكناتهم ويعلم مستقرهم ومستودعهم.

(٦١) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي للمشركين الذين يعبدون مع الله غيره ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي إذا سألت كفار مكة من الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي يعترفون بذلك تمامًا ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي ما داموا معترفين بتوحيد الربوبية يلزمهم الاعتراف بتوحيد العبادة له سبحانه، فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته.

(٦٢) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي ويقتر عليه[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي بما فيه صلاح عباده وفسادهم.

(٦٣) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي يعترفون أيضًا بذلك ولا يجدون إلى إنكاره سبيلًا وهذا يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم لا يعملون بما اعترفوا به.

---

(١) الأولى التعبير: بالتضييق. (المعتني)

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ
لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي
الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ (٣٠) آياتها (٦٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

٤٠٤

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ في حقيقتها ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ فهي إذًا زائلة فانية وعيشها منغَّص بالموت والزوال ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي هي الحياة الحقة لأنها دار بقاء وخلود ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان الكفار يعلمون لما آثروا الدار الفانية على الدار الباقية.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ أي السفن في البحر، وهاج بهم البحر وماج، وأشرفوا على الغرق ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي لما علموا أنه لا ينقذهم إلا الله وحده، لهذا دعوه وحده مخلصين له الدعاء، ونسوا آلهتهم التي كانوا يدعونها في الرخاء، وهكذا ترى يا أخي المسلم أن المشركين إذ ذاك كانوا مشركين في الرخاء فقط، أما في الشدة فكانوا موحدين توحيد الألوهية بشكل تام كامل، على عكس مشركي زماننا فإنهم يشركون في الرخاء والشدة!!! واستمع يا أخي لمنشدهم في حلقات رقصهم التي يسمونها (الذكر)! يقول: «عند الضيق ناد عبد القادر هو شيخي وسيدي» وعبد القادر رحمه الله بريء مما يشركون، وهكذا يشركون ولا يستغفرون ويموتون على ذلك، يحسبون أنهم يحسنون صنعًا!

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم الوافرة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بها قليلًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما سيحل بهم من العذاب الدائم الخالد.

(٦٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي كفار مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي لهم ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ وهو الكعبة بيت الله يأمنون فيه أمنًا تامًا ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي ألا يرون الأعراب حولهم ينهب بعضهم بعضًا؟ ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بما عليهم من الشرك يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي قابلوا شكر النعمة بالكفر بها وبموليها تعالى.

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي ادعى بأنه أوحي إليه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي كذب بالقرآن لما نزل على رسول الله ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أليس يستحقون الاستقرار فيها.

(٦٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي في طلب مرضاتنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي الطريق إلينا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد.

آخر تفسير سورة العنكبوت ولله الحمد والمنّة

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ

مكية إلا آية ١٧ فمدنية، وآياتها ٦٠، نزلت بعد الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الم﴾ الأحرف المقطعة كما ذكر آنفًا في أول سورة البقرة.

(٢) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وأقاصي بلاد الروم، فاضطر ملك الروم إلى اللجوء إلى القسطنطينية، ففرح كفار مكة بذلك لأن سابور وثني مثلهم غلب كتابيين مثل المسلمين واستبشروا.

(٣) ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة التقى فيها الجيشان ﴿وَهُم﴾ أي الروم ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ أي: من بعد أنْ غلب الروم أمام جيوش فارس، سيقدر الله غلبة الروم على فارس وينصرهم عليهم، فيما بعد.

(٤) ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ هو ما بين الثلاثة إلى التسع أو العشر فلم تمض تلك المدة حتى ربط الروم خيولهم في المدائن، وكان ذلك بعد الحديبية وقد نذر قيصر إن نصره الله على فارس أن ليمشين من حمص إلى بيت المقدس شكرًا لله ففعل، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية بن خليفة ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أي من قبل الغلب ومن بعد ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم غلبة الروم فارس ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بذلك لكون الروم كتابيين وفارس وثنيين.

(٥) ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ الذي منحه للروم ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ أن ينصره ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي القاهر للكافرين، الرحيم بالمؤمنين.

مشركو الجاهلية يشركون في الرخاء ومشركو زماننا يشركون في الرخاء والشدة!!!

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ
(٦) يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
(٧) أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ (٨) أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ
وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ
أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ (١٠) ٱللَّهُ
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (١١) وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (١٢) وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ
شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوۡمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ (١٥)

٤٠٥

(٦) ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ أي وعده تعالى بظهور الروم على فارس، ووعد الله صدق وحق لا يخلفه ولا بد من وقوعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون بأن وعد الله حق وهم الكفار عامة، وقيل: كفار مكة على الخصوص؛ لأن الآية نزلت بحقهم.

(٧) ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي ليس لهم علم إلا بالدنيا وشؤونها وزخارفها وملاذها ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي غافلون عن أمور الدين، ولا يلتفتون إليها ولا إلى ما يقرِّب إليها من قول أو عمل، حتى كأن أحدهم لا ذهن له ولا فكرة.

(٨) ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ فإن في أنفسهم لآيات، كيف تنقلوا من نطفة إلى علقة إلى مضغة وإلى خلقهم الدقيق الصنع وإلى الروح كيف تقوم بالجسد، ثم إلى خلق السماوات والأرض وما ومن فيهما وما بينهما. إنهم لو تفكروا لعلموا أنه الحق ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالحق والعدل والحكمة، ولأجل أن يُعبد وحده لا شريك له ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي إن هذه المخلوقات مؤجلة إلى يوم القيامة ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي كافرون بالبعث بعد الموت ولهذا نبههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الكافرين فقال:

(٩) ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار، والمعنى أنهم ساروا وشاهدوا ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي من الأمم الذين سبقوهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي أقوى من العرب الذين بعث فيهم الرسول محمد ﷺ فقد حرثوا الأرض ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي عمرت الأمم الماضية الأرض أكثر مما عمرها العرب ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات والأحكام الشرعية فكذبوا بها فأخذهم الله بعذابه الشديد ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لأن الله لا يظلم وقد حرَّم الظلم على نفسه ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وذنوبهم، فجازاهم الله بما يستحقونه.

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ وهذا الذي يستحقونه والجزاء من جنس العمل ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي كذبوا رسله بما نزل عليهم من الكتب والصحائف، وصاروا يستهزئون بها وبما فيها من الحق.

(١١) ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي خلقهم ابتداءً من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت خلقًا كما كان وهو أهون عليه ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للحساب ويحمل كل ما قدم من عمل.

(١٢) ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي تتقطع حجتهم وييأسون لأنهم واجهوا عيانًا ما كانوا يوعدون.

(١٣) ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي أسقط بأيديهم فالذين كانوا يظنون أنهم سيشفعون لهم وينقذونهم مما يستقبلهم من العذاب قد تخلَّوا عنهم، ولم يشفعوا لهم أو ينقذوهم ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ الذين عبدوهم في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ ولكن فات الأوان.

(١٤) ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي يرتفع الذين عبدوهم بدون رضاهم إلى عليين، وينخفض المشركون بهم إلى أسفل سافلين، فتلك الفرقة التي لا اجتماع بعدها إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين..؟! ثم بين الله تعالى كيفية تفرقهم فقال عزَّ من قائل:

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي تكون خالصة لوجهه تعالى وموافقة لما جاء في كتابه وسنة نبيه ﷺ ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ من رياض الجنة ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ أي ينعمون ويخلدون.

الأنداد يوم القيامة يتخلون عن عابديهم ويتبرأون منهم

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ
فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

٤٠٦

(١٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن ذكر الله حال المؤمنين في الجنة جزاء ما أسلفوا من الطاعات والأعمال الصالحة ذكر سبحانه حال الكفار الذين كذبوا بآيات هذا القرآن العظيم ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي وكذبوا بالبعث والجنة والنار ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي مجموعون كلهم في الدرك الأسفل من النار، دائمٌ عذابهم، ولا تفتر نارهم ولا تفنى، خالدين فيها أبدًا.

(١٧) ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ التسبيح هنا الصلاة ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي صلاة الصبح!

(١٨) ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مسوقة للإرشاد والحمد، والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وقوله ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي صلاة الظهر. وهذه هي الصلوات الخمس المفروضة.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي إخراج النبات من الحب، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والمؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي كالبيض من الدجاج، والنطفة من الإنسان، والكافر من المؤمن ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يحييها بالنبات بعد يبسها وهو شبيه بإخراج الحي من الميت ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وكل ما تقدم في هذه الآية تمهيد لذكر البعث بعد الموت أي كما أحيا الأرض بعد موتها كذلك يبعثكم من القبور.

(٢٠) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي آدم عليه السلام لأنه أصل البشر ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي وهذا من دلائل قدرته تعالى وعظمته. وفي الحديث: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك» [٦٤٠] وهذا يدل على كمال قدرته سبحانه.

(٢١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي من جنسكم إناثًا أزواجًا ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي لتألفوها وتميلوا إليها إذ لو كان من غير جنسهم لحصلت النفرة، فمن رحمته أن جعلهم جميعًا من جنس واحد ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعل بين الزوجين الذكر والأنثى مودة ورحمة ورأفة لتبقى أسباب الترابط قائمة ويبقى التناسل مستمرًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما تقدم من الآيات والعظات ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعقلون ويستدلون على عظمة الخالق وقدرته لكون التفكر والتعقل مادة إمداد للاستدلال.

(٢٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ومن آياته أيضًا على قدرته العظيمة كونه أوجد السماوات والأرض من العدم. وكذلك ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي اختلافها بالنطق فهذا ينطق بالعربية، وهذا بالأعجمية ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ فهذا أبيض وهذا أسود وهذا أحمر وما بين ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ أي أولي العلم.

(٢٣) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي جعل النوم راحة بالليل وانتشارًا بالنهار ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي تبتغون فضله وإنعامه في النهار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون المواعظ سماع متفكر متدبر فيستدلون بذلك على البعث.

(٢٤) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي تارةً تخافون صواعقه، وتارة ترجون مطره ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يحييها بالمطر فتنبت بعد انقطاعه عنها ويبسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المثل ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيتعظون.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى
مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

٤٠٧

أتحبون أن يقاسمكم عبيدكم أموالكم؟ إن تنزيه الله عن ذلك أولى

(٢٥) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي قيامها واستمساكها بإرادته وقدرته، فبأمره تدومان قائمتين ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي يدعوكم سبحانه إليه من الأجداث فيأمر إسرافيل أن ينفخ في الصور النفخة الآخرة، فيخرجوا من القبور بسرعة من غير تلكؤ ولا توقف، ينسلون إلى ربهم أحياء كما كانوا قبل الموت ملبين دعوته للحساب.

(٢٦) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كل مخلوق في السماوات والأرض ملك له وعبيده ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي خاضعون.

(٢٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي بدأ خلقهم من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي هو قادر على إعادة الخلق أي بعد فنائهم ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي إعادة الخلق من شيء أهون عليه من لا شيء فكل عليه هيِّن، وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» [٦٤١]. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يقهر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي في أقواله وأفعاله شرعًا وقدرًا.

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي منتزعًا ومأخوذًا من أنفسكم فإنها أقرب شيء منكم فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر في الدلالة، وأعظم في الوضوح، ثم بين المثل، فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكًا له في ماله فهو والعبد سواء؟ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي من أن يقاسموكم الأموال وإن أحدكم ليأنف أن يكون مملوكه شريكًا له، فكيف تجعلون لله شركاء ممن خلق أترضون لله ما تكرهونه لأنفسكم!!!؟ هذا من أعجب الأشياء، وأغلظ الكفر ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يدركون أن الله أحرى وأولى بالتنزيه.

(٢٩) ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أنفسهم بكفرهم ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي اتبعوا أهواءهم الشيطانية في شركهم وعبادتهم الأنداد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دلَّهم عليه ولا برهان قادهم إليه ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي لا أحد يهدي من أضله الله جزاء من اختار الشرك به على توحيده ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ومن يستطيع أن ينصر من عاداه الله..؟

(٣٠) ﴿فَأَقِمْ﴾ يا محمد ﴿وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي استمر على دينك ملة إبراهيم الحنيفية التي هداك الله إليها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي الزم فطرتك ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي فطر الخلق عليها وفي الحديث: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» [٦٤٢]. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي للحق الذي فطر الناس عليه ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي إن التمسك بالفطرة السليمة هو الدين المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعرفونه، فيفعلوا مقتضاه وإن عرفوه لم يسلكوه!!

(٣١) ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي خافوه ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين لا يصلون.

(٣٢) ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ فرقًا عديدة مع أنه دين واحد!!! ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي أحزابًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي بما أضلهم الشيطان به.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا
ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(٣٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي قحط وشدة وخوف من هلاك ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي تائبين إليه مقبلين عليه لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي رفع عنهم الضر الذي يشكون منه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم حين كان الضر مستوليًا عليهم؛ فإذا رفعه عنهم وإذ بهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ وهم يعلمون بأنه ما نجاهم من الضر إلا هو!

(٣٤) ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام هنا لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، أي ليكفروا بالنعم التي أوليناهموها ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تمتعوا بنعمكم الزائلة فسوف تعلمون عاقبة تمتعكم الزائل ما سيصيبكم من العذاب الأليم، والعقاب المقيم في قرار الجحيم.

(٣٥) ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة وكتابًا من السماء ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي يأمرهم بالشرك! أي ليس الأمر كذلك.

(٣٦) ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي خصبًا وسعةً ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ فرح بطر وأشر لا فرح شكر وابتهاج ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي وإن تصبهم شدة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب فعلهم وكفرهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي ييأسون من الرحمة، وفي الحديث: «عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» [٦٤٣].

(٣٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي هو المتصرف الفاعل المطلق لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على قوم آخرين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلون بها على الحق لدلالتها على كمال قدرته تعالى وبديع صنعه.

(٣٨) ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ، والمراد هو وأمته لأنه هو أسوة لها أي أعط ذوي قرابتك حقوقهم من الصدقات، فأهل القرابة الفقراء أولى بالبر والصلة، وآتِ أيضًا حق المسكين الذي لا مال له ينفق منه، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المحتاج إلى نفقة سفره ولو كان في بلده لكان من الأغنياء، ولكنه صار فقيرًا في هذا البلد ونفدت نفقته فيعطى من مال الزكاة والصدقات ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا العمل هو ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي يعملون لوجه الله دون أيٍّ من الناس ويريدون جزاء منه تعالى على ذلك رؤية وجه الله في الجنة وهو أعلى درجات النعيم فيها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصدقون لوجه الله ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الذين أفلحوا بدخول الجنة، ونجحوا بالأجر والثواب منه تعالى.

(٣٩) ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي من أعطى عطاءً لأحد وقصده أن يأخذ عليه أكثر مما أعطي له ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقد نهى الله عنه في قوله تعالى ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ﴾ فيها ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي يضاعف ثوابهم.

(٤٠) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ هذه الصفات لله تعالى ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الذين تدعونهم من دون الله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي هل فيهم من يخلق ويرزق ويميت ويحيي!؟ الجواب: لا أحد ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس عن أن يماثله أحد من خلقه الذين يشركونهم به، فهو وحده الذي يخلق ويرزق ويميت ويحيي وله وحده ترفع العبادة، لا إله غيره ولا رب سواه.

(٤١) ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي عمَّ وكثر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي ليعاقبهم على بعض ما اقترفوا من الآثام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي هذه المصائب والنوازل التي ينزلها الله بهم عقابًا فيها لفت نظر للعودة إليه بالتوبة النصوح.

الله يخلق ويرزق ويحيي ويميت، فهل من شركائهم مع الله من يفعل ذلك؟!

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ (٤٥) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
(٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ
(٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

كما أن الله يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الله الموتى وهو القادر على كل شيء

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد للمشركين أن يسيروا في الأرض في ذهابهم وإيابهم من أسفارهم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي فلينظروا إلى آثار من كفر قبلهم كيف آلت عاقبتهم إلى الدمار والخراب ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ مكذبين للرسل.

(٤٣) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أي إذا ظهر الفساد من الكفر والمعاصي فاتبع يا محمد الصراط المستقيم ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا يمكن إلا أن يقع وهو يوم القيامة الذي لا يستطيع أحد أن يردّه ويدفعه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرقون، والمراد بتفرقهم أي فريق في الجنة وفريق في جهنم، كل جوزي بما قدمت يداه من خير أو شر، ولقي عند ربه ما يستحق.

(٤٤) ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي عليه نتائج كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ مقبولًا ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ فرش الجنة ونمارقها.

(٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ بأكثر مما يستحقون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ به.

(٤٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر تثير السحاب وتجمعه ركامًا فتستبشر النفوس بما فيه من خير السماء ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ مطرًا تحيا به البلاد والعباد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ بسبب الرياح ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي بالتجارات التي تحملها الفلك في البحر عند هبوب الرياح تدفعها من بلد إلى بلد لتبادل البضاعات والمآكل بيعًا وشراءً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون الله بإطاعة أوامره وترك نواهيه على نعمه الظاهرة والباطنة وتفردونه بالعبادة.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي كما أرسلناك إلى قومك أرسلنا من قبلك إلى أقوامهم رسلًا أيضًا، فأثبتوا لهم صدق رسالتهم بالآيات الدالة على ذلك، فلم يؤمنوا ولم يتركوا باطلهم إلى الحق الذي نزل عليهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي من الذين كذبوا رسلهم، إن هذه تسلية لرسول الله ﷺ بأنه وإن كذَّبه قومه فقد كُذِّب المرسلون قبله مع ما معهم من الدلائل الظاهرة البينة فانتقم الله من المكذبين وأنجى المؤمنين برسله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو حقٌّ أحقه الله على نفسه الجليلة.

(٤٨) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي إن الله تعالى يرسل الرياح ليسوق به السحاب المتبخر من الأرض من جميع ما فيها من مياه وتصعد به إلى طبقات الجو فيبسطه فيها كما يشاء سبحانه ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ أي سحابًا ثخينًا متراكمًا بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي ترى المطر يخرج من بينه نقطًا صغارًا متفرقة لا دفعة واحدة ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي إذا أصاب هذا المطر من يشاء الله من عباده في أراضيهم وبلادهم إذا هم يستبشرون به بما سيحصل بسببه من الرزق والخير.

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ﴾ أي الذين استبشروا بنزول المطر كانوا قبل نزوله ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي كانوا قانطين ويائسين من نزوله.

(٥٠) ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أي انظر يا محمد نظر اعتبار إلى هذه الرحمة الناشئة عن إنزال المطر الذي قدر الله فيه الخصب ورخاء العيش ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد يبسها وجدبها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي إن الذي فعل ذلك أي أحيا الأرض بعد موتها لقادر على إحياء الموتى، وها هنا القصد من نظر الاعتبار ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجز على قدرته شيء كيف لا وهو الذي يقول للشيء كن فيكون؟

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ
﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ
كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ
وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

٤١٠

(٥١) ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ريحًا يابسة على الزرع الذي زرعوه فرأوه مصفرًا من البرد أو الحر الناشئين من الريح التي أرسلها الله ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي ينكرون ويجحدون نعمه تعالى عليهم. وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر!

(٥٢) ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي إن هؤلاء الكفار كالموتى والصم، فلا يسمعون منك الموعظة سماع انتفاع، وإن هذه الآية تدل على أن الموتى لا يسمعون وأنهم والصم سواء. ولو أن الموتى يسمعون لما صح التشبيه بهم، إذًا فهم لا يسمعون، وكما أنك لا تستطيع أن تسمع الموتى، ولا تبلغ كلامك الصم، كذلك لا تقدر أن تسمع هؤلاء المشركين؛ لأن حالهم يشبه حال الموتى والصم وخاصة ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فيكون عدم سماعهم محققًا من باب أولى، أي لا سيما إذا كان هؤلاء في حالة إدبار وبعد عنك فأحرى ألا يسمعوك.

(٥٣) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ لفقدهم الانتفاع بالأبصار كما ينبغي أو لفقدهم للبصائر ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي لا تسمع إلا من يصدق بآيات الله تعالى وهم خاضعون لها، ومستجيبون ومطيعون لأحكامها، فأولئك هم الذين يسمعون الحق وينقادون له.

(٥٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي أصله من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة، ثم يصير عظامًا ثم يكسى لحمًا، ثم ينفخ فيه الروح ثم يخرج من بطن أمه وهو واهن القوى وهذا معنى قوله تعالى ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ثم يشبُّ قليلًا حتى يكون صغيرًا ثم حدثًا ثم مراهقًا ثم شابًا، وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ فيهرم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وهكذا يتنقل الإنسان في أطوار خلقه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي من جميع خلقه ومنها الضعف والقوة في بني آدم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بتدبير خلقه بحكمته البالغة ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ أي على خلق ما يريد.

(٥٥) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي يوم القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي يحلف المشركون أنهم ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي ما بقوا في الدنيا أكثر من ساعة أي كذبوا ففي الدنيا أشركوا به تعالى وفي الآخرة كذبوا عليه ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كما أنهم صرفوا في الدنيا عن الإيمان والحق، كذلك صرفوا عن الصدق في الآخرة.

(٥٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي مكثتم في الدنيا وفي البرزخ ما قدره الله عليكم في كتاب قضائه وقدره إلى يوم البعث ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم به تكذبون، وتستبعدون حلوله ووقوعه ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنه حق، بل كنتم تستعجلونه تكذيبًا واستهزاءً.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي يوم البعث لا ينفعهم اعتذارهم عما فرطوا في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم التوبة.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي معجزة ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي قالوا لمتبعي الحق: إنهم على الباطل. وذلك من فرط كفرهم وجرأتهم على الله تعالى وجهلهم المطبق على عقولهم.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا جزاءً وفاقًا لأنهم استكبروا عن قبولهم الحق فطبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون.

(٦٠) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد أنت ومن معك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالنصر عليهم ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ ألا يحملنك على الخفة والقلق والجزع ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بيوم البعث والقيام لرب العالمين بالبعث في اليوم الآخر.

آخر تفسير سورة الروم ولله الحمد والمنّة

الموتى لا يسمعون ولو كانوا يسمعون لما صحّ التشبيه ٥٣

سُورَةُ لُقۡمَانَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ
لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا
كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ
بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾

٤١١

(٣١) سُورَةُ لُقۡمَانَ

مكية إلا الآيات ٢٧، ٢٨، ٢٩ فمدنية، وآياتها ٣٤، نزلت بعد الصافات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓ﴾ هذه الأحرف المقطعة التي افتتح الله بها بعض سور القرآن، وسبق أن بينا قولنا فيها في أول سورة البقرة.

(٢) ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن ذي الحكمة، التي صدرت عن الحكيم الخبير، وحفظها الله من التبديل والتغيير.

(٣) ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي كله هدىً يهدي للتي هي أقوم، ورحمة يرحم الله به عباده المحسنين ويهديهم صراطه المستقيم.

(٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ وهذه هي صفات المحسنين فأول صفة لهم إقامة الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ونوافلها وأركانها، وكذلك فإنهم يؤتون زكاة أموالهم إلى مستحقيها من ذوي الأرحام والقرابة وغيرهم من المستحقين، ويوقنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب فرغبوا إلى الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي أولئك المحسنون هم على هدى وطريق مستقيم من ربهم الذي رباهم بنعمه الوافرة فحق عليهم أن يفردوه بالعبادة ولا يشركوا به أحدًا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي الذين أفلحوا وفازوا بالجنة لسلوكهم الطريق المؤدية إليها على بصيرة وبينة.

(٦) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي كل كلام يصدُّ عن آيات الله، واتباع سبيله سبحانه وتعالى ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق وإذا أضل غيره فقد ضل في نفسه فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث وهو غير عالم بحال ما يشتريه، واستبدل الخير بما هو شر محض بغير علم ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي ويتخذ سبيل الله هزوًا ونزلت في النضر بن الحارث الذي كان يشتري أخبار الأعاجم فيحدث بها قريشًا فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن، ويستهزئون به وبأهله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي عذاب شديد يهين من وقع عليه.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ أي وإذا قرئ عليه القرآن ولى مدبرًا إدبار مستكبر عنها كأنه لم يسمعها ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ أي تصامم، وما به من صمم ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يوم القيامة جزاء وفاقًا.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ، لا يبغون عنها حولًا.

(٩) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في جنات النعيم فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ أي لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يبدل ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي كامل العزة الذي قهر كل شيء وغلبه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في جميع أقواله وأفعاله.

(١٠) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ أي خلقها من غير استناد أي إلى عمد مرئية أو غير مرئية ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي الجبال العظيمة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي لئلا تضطرب بأهلها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ من الحيوانات التي لا تعد ولا تحصى ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي مطرًا ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ أي من كل زوج من النبات حسن المنظر نافع مبارك، بهيج، عظيم.

(١١) ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي ماذا خلق شركاؤكم ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي في جهل وعمى ظاهرين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

(١٢) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يقال إن لقمان كان عبدًا حبشيًا نجارًا أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة أي أعطاه الفهم والعلم والتعبير والفقه في الإسلام ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه من فضله من الحكمة وفضله على أهل زمانه ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفع ذلك عائد لها، والشكر لله لا يتحقق إلا بطاعته سبحانه فيما أمر ونهى. ولذلك قال لما سئل عن أسباب ما وصل إليه قال: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة طعمتي، وحفظي فرجي، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي مالا يعنيني. فذاك الذي صيرني إلى ما ترى. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي من جعل كفر النعم مكان شكرها فإن الله غني عن شكره وغني عن خلقه، حميد في فعله.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد وتصده عن الشرك، وإن الشرك لأظلم الظلم فلا أبشع ولا أفظع ممن سوّى المخلوق من تراب بالخالق مالك الرقاب، ولا أظلم لنفسه ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخسّ المراتب، جعلها عابدةً لمن لا يسوي شيئًا فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا!

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي وصية سنسأله عنها وعن القيام بها، وهي الإحسان لهما وليس أدل على عظيم شأن الوالدين عند الله تعالى من الوصية بهما بعد توحيده ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضعفًا على ضعف ومشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق حتى تلد ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، ومن هنا يتبين أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال الله في الآية الأخرى ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥] وإن تفسير الوصية بوالديه كائن في قول الله عز وجل: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ الشكر لله تعالى على أنعمه وأجلها نعمة الإيمان، والشكر للوالدين على حبهما وتضحيتهما وتربيتهما، ونصحهما. وقد قرن الله تعالى شكر الوالدين بشكره ليشعرنا بمزيد الاهتمام والعناية بهما ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذا تعليل لوجوب امتثال الأمر بالرجوع إلى الله تعالى لا إلى غيره وإنه سيجزيك على ذلك.

(١٥) ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي إن حاولا أن يجبراك على الشرك بالله فلا تطعهما، وفي الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [٦٤٤]. ولكن ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وابق على برّك لهما والإحسان إليهما ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي من رجع إليّ تائبًا وكان من عبادي الصالحين ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مآلكم إليّ يوم القيامة ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر فأجازي كلًّا بعمله.

(١٦) ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ وهنا شرع الله سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان لابنه: إن المظلمة أو الخطيئة ولو كانت مثقال خردلة مخفية في صخرة ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يحضرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي لطيف العلم خبير بكل شيء.

(١٧) ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بفروضها وأركانها وأوقاتها ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بحسب استطاعتك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ في الدعوة إليه تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي الصبر من عزائم الأمور.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تكبرًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي خيلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي معجب بنفسه فخور على غيره.

(١٩) ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي لا بطيئًا ولا مسرعًا ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي لا يكون مرتفعًا أكثر من الحاجة فيؤذي السامع ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فلا يتشبه في علو صوته بصوتها القبيح البغيض.

لقمان كان عبدًا صالحًا حكيمًا ولم يكن نبيًا، لا طاعة في معصية

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ
ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

٤١٣

كلمات الله لا تنفد، ما خلق الكائنات ولا بعثها إلا كخلق وبعث نفس واحدة

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي من الشمس والقمر والنجوم، لتنتفعوا بها ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الثمار والأنهار والماء والدواب ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي وأفاض عليكم النعم الظاهرة في الدنيا كالزرع والشجر والثمر والحيوانات والهواء والماء. والباطنة الأخروية كرضاء الله تعالى والجنة وما فيها من نعم وقرة أعين لمن آمن به تعالى وصدق رسله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يجادل في شأن الله وتوحيده وصفاته مكابرًا بغير علم من عقل أو نقل، رغم ثبوت الأدلة ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي ولا حجة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله تعالى، بل لمجرد التعنت والمكابرة والعناد فلا معقول ولا منقول، ولا اقتداء بالمهتدين!؟

(٢١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي على رسوله من الشريعة المطهرة ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من عبادة الأنداد فلا نترك دين آبائنا لأحدٍ كائنًا من كان؛ فرد الله عليهم بقوله جلّ وعلا: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يسول لهم هذه العبادة الضالة ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ بوسوسته هذه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي عذاب النار، أفتتبعونه؟

(٢٢) ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي يخلص له العبادة ويفوض الأمر إليه وهو محسن في أعماله على ما يحب الله ويرضى ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي اعتصم بأوثق عهد، وهو عهد الله بأن يدخله الجنة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي منتهاها ومآلها إليه تعالى، فيحكم بين عباده بما يستحقون.

(٢٣) ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ وهذه تسليةٌ لرسوله ﷺ لأنه أدى ما عليه من البلاغ فلا تحزن على كفرهم. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي نخبرهم بأعمالهم التي عملوها ونعاقبهم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بخفايا ما يبطنون، وما يعلنون، ولا تخفى عليه خافية.

(٢٤) ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ليزدادوا إثمًا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي نلجئهم إلى عذاب النار الذي بلغ الغاية في العظم والألم والغلظة.

(٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي ولئن سألت المشركين يا محمد عمن خلق السماوات والأرض وأوجدهما من العدم ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي ليقرون بأن خالقهما هو الله وحده ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا ينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة وأن ينفرد بها وحده.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ملكًا وخلقًا فلا يستحق العبادة غيره في جميع أنواعها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن غيره ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي المستحق للحمد ومن كان غنيًا عن غيره، كيف يعبدون غيره!؟

(٢٧) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يكتب بها ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مدادًا يستمد به لتكسرت تلك الأقلام ولفني ذلك المداد و ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الدالة على عظمته وصفاته وجلاله وكماله، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيز قد عزَّ كلَّ شيء، وقهره وغلبه، حكيمٌ في جميع شؤونه ونزلت هذه الآية لما قال المشركون: إنما هذا الكلام يوشك أن ينفد.

(٢٨) ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي ما خلقُ جميعِ الناس على كثرتهم وما بعثُهم من جديدٍ بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه إلا كخلق وبعث نفس واحدة وهذا شيء يحيِّر العقول فلا وجه إذًا لاستبعاد البعث والنشور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال خلقه ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالهم فيؤتي كل ذي حقٍ حقه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ
كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ
عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ السَّجْدَةِ — ترتيبها ٣٢ — آياتها ٣٠

٤١٤

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي يأخذ منه إلى النهار فيطول ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي يأخذ من النهار ويضيفه إلى الليل فيطول الليل ويقصر النهار وهذا في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى غاية محدودة كما في الصحيحين: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت» [٦٤٥]. ومعنى تسخير الشمس والقمر أي ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديرًا للآجال وتتميمًا للمنافع ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي يعلم كل أعمال خلقه وهو خبير بهم وبها لا تخفى عليه خافية منهم جميعًا.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي في ذاته وأسمائه وصفاته وهو المستحق وحده للعبادة وإليه يصمد الدعاء وحده ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي فإذا كان باطلًا في ذاته وأسمائه وصفاته كانت عبادته أبطل وأبطل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته فوق جميع المخلوقات علوًا حقيقيًا مجهول الكيفية معلوم الحقيقة جلت صفاته تعالى أن تقاس بها صفات المخلوقين ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في قلوب أهل السماء والأرض.

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي ألم تر من آثار قدرة الله ورحمته بعباده أن سخر البحر تجري فيه السفن بأمره تعالى القدري وذلك من أعظم نعمه؛ لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي فيها الانتفاع والاعتبار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي إن فيما ذكر ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي صبور في الضراء شكورٌ في السراء، يصبر عن المعاصي ويشكر على النعم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ وإذا غشي المشركين عندما يركبون في البحر موج كالظلل أي كالجبال ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي دعوه وحده لا يشركون في دعائه أحدًا ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ أي فلما استجاب دعاءهم ونجاهم إلى البر سالمين انقسموا فريقين: ﴿فَمِنْهُم﴾ فريق ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ أي كافر جاحد ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي ما يكفر بها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي كل غدار تام الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ أي جحود النعم لا يشكرها بل ينساها ولا يذكرها.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي يأمر تعالى الناس بتقواه وامتثال أوامره وترك زواجره ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي ويأمرهم أن يخشوا يومًا يلتقون فيه معه سبحانه، وهو يوم لا يهتم فيه الإنسان إلا بنفسه، فلا ينفع فيه الوالد الولد ولا الولد الوالد ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه فما وعد به من الخير، وأوعد به من الشر فهو كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم يوم القيامة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد سواه متى ينزل ليلًا أو نهارًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي فلا يعلم أحدٌ غيره ما يستقر فيها ذكرًا أو أنثى(١) ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ خيرًا أم شرًا ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه في الأرض وفي الحديث: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة» [٦٤٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ أي عليم بكل شيء، وخبير بباطنه كظاهره.

آخر تفسير سورة لقمان ولله الحمد والشكر والمنّة والفضل

---

(١) أي في تلك اللحظة السريعة الخاطفة من قذف الرجل منيه في رحم زوجته لا يعلم أحد في السماوات والأرض إلا الله ما استقر في الرحم من ذكر أو أنثى، وله الحمد.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
(٢) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (٣) ٱللَّهُ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ
ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ
إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ
عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ
كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ (٧) ثُمَّ جَعَلَ
نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا
مَّا تَشۡكُرُونَ (٩) وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي
خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ (١٠) ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم
مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ (١١)

٤١٥

(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكية إلا من آية ١٦ إلى آية ٢٠ فمدنية، وآياتها ٣٠، نزلت بعد المؤمنون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓ﴾ كما قلنا سابقًا في أول سورة البقرة فليرجع إليها من شاء.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي إن تنزيل هذا القرآن لا ريب فيه ولا شك أنه من رب العالمين وحده وفي الحديث: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر من يوم الجمعة ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ...﴾ السجدة و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾» [٦٤٧]. أي: كان يقرأهما في كل فجر جمعة.

(٣) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي بل يقول المشركون اختلقه محمد من عند نفسه ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي لأنهم كانوا ملزمين ومكلفين بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من بدل في دين إسماعيل وحول العرب -وكان إذ ذاك ملكًا عليهم- إلى عبادة الأصنام لعنه الله تعالى فكانوا على علم بدين إبراهيم وإسماعيل وهم الذين بدلوا وغيروا فيه، فهم والحالة هذه ليسوا من أهل الفترة بل هم أهل دين غيروه ولم يكونوا مكلفين بدين عيسى عليه السلام، إذ هو نبي لبني إسرائيل لا للعرب وإلا لما وصفهم الله بأنهم ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ بهذا القرآن الذي أنزل عليك لبلاغهم.

(٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي علا علوًا معلوم الحقيقة مجهول الكيفية ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ما لكم من نصير سواه ولا من شفيع غيره ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أن لهذا الإله تصرف جميع أنواع العبادة؟

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يدبر الأمر جميعًا القدري والشرعي من أعلى السماوات إلى أسفل تخوم الأرض السابعة[1] ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ أي يصعد إليه تعالى وفي هذا دليل على علوِّه على خلقه ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ولكن يصله في لحظةٍ مع أن المسافة فيها يعدها الناس ألف سنة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم، ولا يخفى ما فيه من تهديد لأنه إذا علم بما يغيب ويحضر، فهو إذًا سيجازي كل عامل بما عمل من خير أو شر، ويدبر الأمر بحكمته وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده.

(٧) ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أحسن وأتقن وأحكم كل شيء ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ أي ثم خلق أبا البشر من طين.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ أي جعل ذريته يتناسلون كذلك من نطفةٍ من بين صلب الرجل وترائب المرأة.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي بأمره بكلمة (كن) ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ أي خلقها ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أي باستعمال هذه النعم في طاعته.

(١٠) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي تفرقت أجسادنا في الأرض ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ أي نعود بعد حالنا تلك؟ ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

(١١) ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ أي الذي وُكِّل بنزع أرواحكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ إليه تعالى لحسابكم وجزائكم.

(١) وفيه دليل على فوقيته تعالى على خلقه.

(١٢) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المراد بالمجرمين، هم القائلون (أإذا ضللنا) لما عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل حقيرين ذليلين مطرقي رؤوسهم حياءً وخجلًا يقولون ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي ربنا أبصرنا ما كنا نكذب به في الدنيا، وسمعنا ما كنا ننكره فارجعنا يا رب إلى الدنيا نعمل ما يرضيك من الأعمال الصالحة إنا بما كنا نكذب به مصدقون، وبلغ تصديقنا به حد اليقين، ولكن هذا الكلام مردود ولا ينفع قائليه بشيء بعد أن رأوا بأعينهم ما كانوا به يكذبون أنه حق؛ لأن الذي رأوه مشاهدة يوم القيامة كان يجب عليهم أن يؤمنوا به غيبًا في الدنيا ولو رُدُّوا إليها لعصوا.

(١٣) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي لو أردنا لأجبرنا كل نفس على أن تهتدي بأمرنا إلى الخير ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي إننا قادرون على هذا الإجبار، ولكن حق مني القول أن تختار النفوس طريقها إلى الخير أو إلى الشر، اختيارًا منهم، لأنه سبق أن علموا مني ما هي خاتمة المطيعين لأوامري وما هي خاتمة العاصين من الجن والإنس، وهؤلاء العصاة لأملأن جهنم منهم أجمعين، أما الذين أطاعوا واتبعوا سبل السلام فلأجعلنهم في دار السلام، والنعيم المقيم أجمعين.

(١٤) ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أي حرَّ جهنم وسعيرها ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي بأسباب ترككم الأوامر والنواهي وكأنكم غير قادمين على الله تعالى وغير ملاقيه ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي تركناكم بالعذاب، فعاملناكم معاملة الناسي من باب المقابلة. وهذا جزاء من جنس العمل فكما نَسِيتم تُركتم ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فذوقوا العذاب الخالد الدائم المستمر بأسباب ما كنتم تعملون من الكفر.

(١٥) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي يصدقها وينتفع بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي وعظوا بها وأطاعوها قولًا وعملًا ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيمًا لآيات الله وخوفًا من سطوته تعالى وعذابه الذي لا يطاق ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي نزَّهوه وقالوا في سجودهم: سبحان ربي الأعلى وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعها والانقياد إليها نصًا وتطبيقًا.

(١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي ترتفع وتنبو عن فرشهم وهم المتهجِّدُون في الليل ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي يعبدون الله في الليل والناس نيام خوفًا من ناره وطمعًا في جنته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي يتصدقون.

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ
(١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ
مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)
فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ
وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُۥنَ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ
جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟
فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ
لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

٤١٦

(١٧) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي ما أخفي لهم في الجنات من النعيم الخالد ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات المقبولة.

(١٨) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ أي بالله ورسوله وعاملًا بالأوامر ومجتنبًا للزواجر ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي خارجًا عن الطاعات ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي لا مساواة بينهم.

(١٩) ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وصدقوا الإيمان بالعمل الصالح الخالص لوجه الله، المطابق لشريعته ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا﴾ أي مُعَدَّة يأوون إليها ضيافةً من الله ومأوى خلود دائم لهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا.

(٢٠) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أي خرجوا عن الطاعات ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ موثقة أيديهم وأرجلهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ﴾ أي من شدة العذاب ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ أي جذبتهم إلى أسفلها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

يتمنى الكافر العودة إلى الدنيا ليعمل صالحًا!! ولكن هيهات هيهات...

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ ٱلْأَحْزَابِ

٤١٧

(٢١) ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي عذابًا في الدنيا خلافًا لمن يقول إنه عذاب القبر ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أي عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عمّا هم فيه من الشرك والمعاصي. وهذا يدل على أن العذاب الأدنى هو عذاب الدنيا، فإذا كان هو عذاب القبر فكيف يرجعون ليعملوا بما يرضي الله فينتهوا عن الشرك والمعاصي وهل يرجع الله أهل القبور إلى الدنيا؟!! ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي لا أحد أظلم منه؛ لأنه ذُكِّر بها ثم تناساها وأعرض عنها كأنه لا يعرفها ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي إن الله تعالى سينتقم من هؤلاء المجرمين الذي أعرضوا عن آياته وتناسوها انتقامًا هائلًا.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي لا تكن في شكٍّ من لقاء التوراة مع القرآن في مواضع ... وَمنها ذكر رسالتك يا محمد ووجوب اتباعك، وذكر القرآن لكثير من أخبار موسى وقومه؛ فتطابق حقهما وثبت برهانهما ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي كتاب موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون بما جاء فيه من الحق فلم يبق للشك والريبة محل، وأما هذا القرآن فقد جعله الله هداية للناس كافة.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامره تعالى وزواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم، جعل الله منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمره ويدعون إلى الخير ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقونها ويعلمون أنها حق من عند الله.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يحكم بينهم بالعدل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي من الاعتقادات والأعمال، وقيل: يقضي بين الأنبياء وأممهم.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي أو لم يبين لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي الأمم السابقة كعاد وثمود ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي إن المشركين المخاطبين يمشون في مساكن المشركين الهالكين سابقًا أفلا يعتبرون بما أحل الله بهم الهلاك والدمار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ﴾ أي مواعظ وعبرًا ودلائل متناظرة بين حَالَيْ من آمن ومن كفر ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أخبار المكذبين المتقدمين.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي الأرض التي لا نبات فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ أي دوابهم ومواشيهم ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي الحبوب والثمار يأكلونها هم ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذه النعم ويشكرون المنعم المتفضل ويذكرون بأن المنعم المتفضل خليق بأن يعبد وحده.

(٢٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن يوم الفتح هنا يوم القيامة يوم يفصل الله بين عباده ويقضي بحكمه فيما بينهم. والمعنى: متى تنتصر علينا يا محمد كما تزعم!!؟ إن كنت حقًّا من الصادقين؟ ولكن ما نراك وصحبك إلا مختفين أذلاء.

(٢٩) ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي قل لهم يا محمد إن يوم الفتح ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ هو يوم القيامة والفصل والحكم لا يوم فتح مكة لأن فيه قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، ولو كان هو المقصود لما قبل الرسول إسلامهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن سفههم وتكذيبهم واستمرَّ على إبلاغك ما أنزل إليك من ربك من الحق ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ أي تمهل قليلًا فسينجز الله ما وعدك، وسينصرك على مخالفيك إنه لا يخلف الميعاد ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بكم الهلاك، ولكن الله سيهلكهم أجمعين.

آخر تفسير سورة السجدة ولله الحمد

سترى ما أعد الله لك من النعم وسيرون ما أعدّ لهم من النقم

(٣٣) سُورَةُ الأَحْزَابِ

مدنية وآياتها ٧٣، نزلت بعد آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي
جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ
يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم
بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ
وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم
مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى أي إذا كان رسول الله مأمورًا بالتقوى، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو أحق أن تتبع أوامره لأنه عليم بالعواقب حكيم في كل شأنه.

(٢) ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اتبع القـرآن في كل أمورك ولا تتبع شيئًا مما عداه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ والأمر لرسول الله ﷺ هو أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه ولهذا جاء بخطابه وخطابهم في قوله تعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وحده لأن التوكل عبادة فلا يجوز التوكل على غيره سبحانه وتعالى، فاعتمد عليه وفوض الأمر إليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي توكل إليه الأمور فيقوم بها بما هو أصلح لعبده المتوكِّلِ عليه، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وكفى بالله تعالى وكيلًا أمينًا لمن توكل عليه.

(٤) ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وهـذا ردٌّ منـه تعالى على من قال من الجاهليِّين: (إن لي قلبين في جوفي، أعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد) فكذبه الله [٦٤٨]. ثم وطَّأ الله بعد ذلك لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي كما أنه لا يكون لرجل قلبان في جوفه، كذلك لا تصير زوجته التي يُظاهر منها بقوله: (أنت علي كظهر أمي) أمًّا له حتى يكون له أمّان وكذلك ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والأدعياء جمع دعيّ وهو الذي يدعى ابنًا لغير أبيه كما كان يقال لزيد بن حارثة: زيد بن محمد لأنه ﷺ كان قد تبناه قبل النبوة، فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني تبنِّيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًا، بل هو مجرد قول بالفم ولا تأثير له، فلا تصير المرأة به أمًّا، ولا ابن الغير لها ابنًا ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي العدل والصدق ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي يدل على الطريق الذي يهدي إلى الحق والصراط المستقيم.

(٥) ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعدل، وهذا ما يجب على العباد من دعاء الأبناء للآباء ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي إخوتكم في الإسلام ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي فقولوا: أخي ومولاي أي وليّي في الدين ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي لا إثم عليكم فيما أخطأتم سابقًا من دعاء الابن لغير أبيه ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي يؤاخذكم الله فيما تتعمدون من نسبتهم لغير آبائهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لما سلف من ذلك.

(٦) ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي إذا دعاهم لشيء، ودعتهم أنفسهم لشيء آخر، وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويتركوا ما دعتهم أنفسهم إليه، وأن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم وفي الحديث: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالًا فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه» [٦٤٩]. ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ في حرمة التزوج بهن من بعده ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ بوصية لهم، فجائز ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ أي نسخ الإرث بالإيمان والهجرة بإرث الأرحام ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي في اللوح المحفوظ مكتوبًا.

كما لا يكون للرجل قلبان، لا يكون لأحد أمّان ولا أبوان

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾
لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا
﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ
جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ
مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ
زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ
مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ
مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ
لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ
ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾

(٧) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ أي حين أخرجوا من صلب آدم كالذرة وهي أصغر من النمل وخص بالذكر الرسل الخمسة وهم أولو العزم وبدأ بخاتمهم لشرفه عليهم صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليمًا كثيرًا أخذ عليهم جميعًا العهد والميثاق أن يعبدوا الله وأن يصدِّق بعضهم بعضًا، وأن ينصحوا لأقوامهم ويدعوهم لعبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ أي يمينًا بالله تعالى بعد إرسالهم إلى أقوامهم بشأن الوفاء بما حمِّلوا وما أخذه الله عليهم من الميثاق الغليظ المشدد.

(٨) ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ أي لكي يسأل الصادقين النبيين عن صدقهم في تبليغ الرسالة إلى أممهم، وعما أجابوهم ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين بُلِّغوا الرسالات ولم يؤمنوا بها عنادًا واستكبارًا ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي موجعًا لا قبل لهم به.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ من قريش وغطفان ومن تابعهما في عشرة آلاف مقاتل بتحريض من اليهود فلما سمع رسول الله ﷺ بمقدمهم لمحاربته أمر بحفر الخندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه فحفروه ونقل الرسول ﷺ معهم التراب وحفر ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أي أرسل الله على الأحزاب ريحًا صرصرًا قلبت قدورهم، ونزعت فساطيطهم -والمراد بالجنود التي لم يروها هم الملائكة- قلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وجالت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب وكثر تكبير الملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي بالمسلمين حين ترتيب الحرب وحفر الخندق، ودعائهم الله بالنصر وتوكلهم عليه تعالى في إحراز الظفر على أعداء الله.

(١٠) ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي من أعلى الوادي وأسفله من المشرق والمغرب ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ من شدة الخوف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي ظن المؤمنون كل ظن وظهر النفاق، وظن المنافقون أن المسلمين سَيُسْتَأْصَلُون.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي اختبروا لتبيين المخلص من غيره ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ أي اضطربوا اضطرابًا مختلفًا في أنفسهم وفي دينهم وحُرِّكوا وقلقلوا، ولكن لم يوجدوا إلا صابرين.

(١٢) ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي الذين في قلوبهم الشك والريب ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي من النصر والظفر ﴿إِلَّا غُرُورٗا﴾ أي إلا باطلًا من القول.

(١٣) ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾ أي لا مقام لكم في المرابطة مع رسول الله ﷺ فارجعوا إلى بيوتكم ومنازلكم بالمدينة ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ أي ليس دونها ما يحجبها عن العدو ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ أي هربًا من الزحف.

(١٤) ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ﴾ أي بيوتهم ﴿عَلَيۡهِم﴾ من قبل العدو ﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ أي من جميع جوانبها واستبيحت ديارهم ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي الرجعة إلى الكفر والشرك ﴿لَأٓتَوۡهَا﴾ أي لأعطوها وأجابوا الأعداء إلى الكفر ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ أي وما احتبسوا عن فتنة الشرك ﴿إِلَّا يَسِيرٗا﴾ أي إلا قليلًا بل هم مسرعون إليها، راغبون فيها، لا يقفون عنها إلا مجرد وقوع السؤال لهم، ولا يتعلَّلون عن الإجابة والتورط في الفتنة.

(١٥) ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ أي من قبل غزوة الخندق، ومن بعد بدر وقالوا: لئن أشهدنا الله قتالًا لنقاتلن ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ أي وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد ولا بد؛ لأن العهد مطلوب من صاحبه الوفاء به ومجازى على ترك الوفاء به.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ
لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً
عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ
ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ
لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ
فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم
مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

٤٢٠

(١٦) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم لائمًا على فرارهم وأخبرهم أنه ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أي إن فرارهم لا يؤخر آجالهم ولا يقدمها، بل ربما كان سببًا في تعجيل أخذهم غِرَّةً ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زمنًا قليلًا بعد فراركم إلى أن تنقضي آجالكم.

(١٧) ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي قل لهم يا محمد: من يمنعكم من الله إن أراد بكم شرًا؟ أي لا أحد يستطيع ذلك مطلقًا وكذلك من يمنعه إذا أراد سبحانه أن يرحمكم برحمته التي وسعت كل شيء؟ أي لا أحد يستطيع أن يحول دون مراده تعالى ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ليس لهم من غيره سبحانه من يواليهم ولا من دونه من نصير ينصرهم ولا مجير ولا مغيث إلا هو.

(١٨) ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ إن «قَدْ» هنا لتحقيق العلم، أي إنه تعالى يعلم الذين يصرفون الناس عن القتال في سبيل الله ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي لا تحاربوا وتعالوا إلينا إلى الظلال والثمار يريدون أن يعيقوا المؤمنين عن الجهاد ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يحضرون الحرب إلا رياءً وسمعةً من غير احتساب الأجر عند الله سبحانه وتعالى.

(١٩) ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي لا يجودون بأبدانهم عند القتال ولا بأموالهم عند النفقة فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي تدور أعينهم من خوف الموت يمينًا وشمالًا، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه ويخشاه ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وصاروا آمنين مطمئنين ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي آذوكم بكلام شديد ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة، أما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي هم منافقون، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاء ما نافقوا في دينهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي إحباط عملهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي هينًا، وإنه لجزاء من جنس العمل وكان جزاءً وفاقًا.

(٢٠) ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ أي يظنون أن الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي قريبون منهم باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم وذلك لما نزل بهم من الفشل ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي مرة أخرى ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي يتمنون أنهم في بادية الأعراب لما حل بهم من الرهبة ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال من فرط جبنهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ أي معكم في القتال ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي رياءً من غير احتساب الأجر عند الله، وخوفًا من العار.

(٢١) ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي في حضوره الحرب بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب وهو الشريف الكامل والبطل الباسل فتأسوا به في هذا الأمر وغيره، والأسوة نوعان: حسنة فإن المتأسي به عليه الصلاة والسلام سالك الطريق القويم، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السيئة، وإنه لا يوفق إلى الأسوة الحسنة إلا من كان يرجو وجه الله تعالى ويرجو الفلاح في الآخرة ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي ولمن ذكر الله في جميع أحواله.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ لما جاءوا بجيوشهم وأحاطوا بالمدينة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي استبشارًا بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه الجنود، وإنه يتعقب مجيئَهم إليهم نزولُ النصر والظفر من عند الله ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ظهر صدق خبر الله ورسوله ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانًا بالله وانقيادًا لأوامره.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ
اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ
لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي وفوا به وأتموه واستمروا على العهد صادقين مخلصين بعكس المنافقين الذين نقضوا العهد وولوا الأدبار، لكن المؤمنين يشهد الله في هذه الآية أنهم صدقوا الله وعده ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي أجله في سبيل الله على الصدق والوفاء وفي الحديث عن موسى بن طلحة قال: دخلت على معاوية رضي الله عنه فلما خرجت دعاني فقال: ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ أشهد لسمعت رسول الله يقول: «طلحة ممن قضى نحبه» [٦٥٠]. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي ينتظر الموت في سبيل الله على الشهادة لأنهم كانوا يعدون الموت في الجهاد فوزًا عظيمًا ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي ما غيروا بل استمروا على عهدهم ووعدهم لله جلّ وعلا.

(٢٤) ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي يختبر عباده بالخوف والزلزال، ليميز الخبيث من الطيب، ولا شك أنه يعلم الشيء قبل كونه ولكن لا يعذب الله الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه منهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم نقضوا عهد الله فاستحقوا العقاب منه تعالى، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب منهم وأقلع عن النفاق.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ أي ردَّ الأحزاب بالريح والجنود الإلهية ففرق شملهم وحرق الغيظُ أكبادَهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أي لم يظفروا بالمسلمين على ما كانوا يؤملون ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم بما أرسل الله من الريح والملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي غالبًا قاهرًا لأعدائه، وفي الحديث: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده» أخرجاه [٦٥١]. وفي الحديث أيضًا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم» [٦٥٢] وفي الحديث: «والآن نغزوهم ولا يغزونا» [٦٥٣].

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي أنزل الله بني قريظة الذين خانوا العهد، وأعانوا المشركين على المسلمين من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ بقتلهم ونفَّذه فيهم رسول الله ﷺ ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فقتل مقاتلتهم، وسبى أولادهم ونساءهم، وقسم أموالهم.

(٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي آلت إليكم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قيل هي خيبر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وهذا تخيير لنساء النبي ﷺ بين أن يفارقهن إن كنَّ يردن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من نعيم زائل، وزينةٍ لا يريدها إلا أهل الدنيا، وكان عددهن تسع زوجات سألنه الزيادة في النفقة.

(٢٩) ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وإذا فضَّلتُنَّ على زينة الدنيا وبهرجها الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله تعالى يجزيكن على ذلك الأجر العظيم الذي لا يمكن وصفه، ولا يقدر قدره، وذلك بسبب إحسانهن.

(٣٠) ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي ظاهرة الفحش وهذا شرط والشرط لا يقتضي الوقوع، فقد عصمهن الله من ذلك وبرأهن وطهرهن ولا يمكن قط أن تقع منهن الفاحشة لأنهن معصوماتٌ منها. وإلا لجاز أن يكون النبي والأنبياء أزواجًا لبغايا وزوانٍ وإنهم ولا شك معصومون منه قطعًا ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ لعلو منزلتهن إن وقع ذلك منهن. وما كان ليقع ولن يقع ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي لا يصعب عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فهل يشركُ؟ كلا، لن يشرك، ولكن على فرض وقوع المستحيل فيكون ذلك جزاؤه.

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

٤٢٢

(٣١) ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي من يطع الله ورسوله منكن ويكون عملها صالحًا خالصًا لله وطبق الشريعة يؤتها الله أجرها مضاعفًا عن سائر زوجات المؤمنين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ والرزق الكريم هو نعيم الجنة، ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء، بقوله:

(٣٢) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي إنكن أعلى نساء المؤمنين مقامًا فلا تبلغ أيٌّ منهن منزلتكنّ، وذلك لكونكن زوجاته ﷺ ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي حتى تكنَّ من التُّقى على جانب عظيم فلا تلنَّ لأحد بالقول من ترقيق الكلام إذا خاطبتن الرجال الأجانب فيجد به المنافق أو الفاجر سبيلًا إلى الطمع. وفي قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ دليل على تنقية الله تعالى لنساء الأنبياء من الطمع الخبيث، وذلك واضح من النص الكريم الذي جعل نساء النبي طرفًا، وعامة الناس طرفًا آخر ولما ذكر صفتي الطمع ومرض القلب في الطرف الآخر دون الطرف الأول، دلَّ ذلك على براءة الطرف الأول وعصمته من هاتين الصفتين الخبيثتين، وإن البراءة والعصمة أصل فيه، ولذا نسب الطمع إلى الذي في قلبه مرض ولم ينسبه إلى قلوبهن رضي الله عنهن ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قولًا حسنًا معروفًا ليس فيه ترخيم.

(٣٣) ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي لا تخرجن منها لغير حاجة شرعية ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي لا تخرجن متزيناتٍ بزينة الجاهلية التي كانت من قبلُ ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامة صحيحة بجميع شروطها وأركانها والاطمئنان فيها ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عن المال الذي بلغ النصاب ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما شرع الله وبلغه رسوله ﷺ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي إنما أوصاكن الله بما أوصاكن به من التقوى وعدم الخضوع بالقول وقول المعروف والسكون في البيوت وعدم التبرج وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرًا أي يطهركم من الأرجاس والأدران تطهيرًا كاملًا وفي هذه الآية دليل على عصمة نساء الأنبياء من الزنى، وكذلك هي نص في كون أزواج النبي ﷺ داخلات في أهل البيت، والخطاب لهن مباشرة؛ لأنهن سبب نزول هذه الآيات.

(٣٤) ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي اذكرن يا نساء النبي نعم الله عليكن إذ جعل بيوتكنَّ مهابط الوحي وتفكَّرنَ في هذه الآيات وتدبَّرنها لتتعظْن بمواعظ الله تعالى. وكذلك اذكرنها للناس لتحصل العظة لهم، ولتحفظنها وأكثرن من تلاوة هذه الآيات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي ذا لطف بكنّ إذ جعلكنّ في بيوت الوحي التي تتلى فيها آيات الله والسنة المطهرة، وخبيرًا بكنَّ إذ اختاركن لرسول الله ﷺ أزواجًا وأنه تعالى كما علم من يتخذ رسلًا وأنبياء، كذلك علم من يختار لهم أزواجًا يلقن بهم.

(٣٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ في هذا نص على أن الإسلام غير الإيمان ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ أي في الأقوال والأفعال ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ أي على المصائب وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أي لله تعالى والحامل عليه خوفه تعالى وفي الحديث: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [٦٥٤]. ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي المحسنين إلى الناس والمحسنات ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ والصوم زكاة البدن ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي عن الحرام ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الجنة. اللهم اغفر لنا وأدخلنا جنتك.

يطمع الذي في قلبه مرض، إنّ قلبها معصوم من «المرض...»

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا
﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ كان رسول الله ﷺ، قد تبنى فتاه وَحِبَّهُ زيدَ بن حارثة بعد أن أعتقه، وصار الناس يدعونه بزيد بن محمد، وكان الرجل منهم وقتئذٍ لا يتزوج امرأة مُتَبنَّاه ويتحرج من ذلك، فأراد الله تعالى إبطال هذه العادة لما فيها من الحرج فأوحى إلى نبيه ﷺ أن يزوج زينب بنت جحش الأسدية (بنت عمته) أميمة بنت عبد المطلب بزيد بن حارثة، كما أعلم الله نبيه ﷺ بأن سيزوجه زينب بعد أن يطلقها زيد؛ كما ورد في الخبر الذي سيأتي بعد قليل عن علي بن الحسين رضي الله عنهما، عند تفسير قوله تعالى ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. فذهب رسول الله ﷺ يخطب زينب على زيد كما في الحديث: إن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحته! فقال رسول الله ﷺ: «بلى فانكحيه»، قالت: يا رسول الله أأؤمر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ قالت: قد رضيتَه يا رسول الله منكحًا؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قالت: إذًا لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي [٦٥٥]. وهذه الآية عامة في جميع الأمور فليس لأحدٍ مهما كان، أن يكون مختارًا في تنفيذ أمر الله ورسوله بل إنه ملزم إلزامًا قطعيًا بما أمر به الله ورسوله.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق من الرِّق، وهو زيد بن حارثة ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وذلك لما شكا إليه زيد بن حارثة زوجته زينب وما هي عليه من التطاول والتفاخر بنسبها وشرفها عليه، فاستشاره في طلاقها فكان يقول له ﷺ: (أمسك عليك زوجك واتق الله) فكان يستحي أن يأمرَ بطلاقها وهو يعلم من الله تعالى أنه سيزوِّجه إياها بعد طلاق زيد لها ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه قال: (... ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها - أي زينب - ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد بن حارثة ليشكوها إليه قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك فقال قد أخبرتك أني مزوجكها: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾) [٦٥٦] والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه، ولذلك قال له الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي تخشى أن يقول الناس: تزوج محمد امرأة ابنه والله هو أحق بالخشية من الناس. وتقول عائشة رضي الله عنها: (لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾) [٦٥٧] عندها أذن رسول الله ﷺ لزيد في طلاق زينب، وبعد انقضاء عدة طلاق زينب من زوجها زيد؛ قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي من زينب ﴿وَطَرًا﴾ أي حاجته منها ثم فارقها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وكان وليها في زواجها هو الله تعالى وتقدس، بمعنى أنه سبحانه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر؛ وكل هذا ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أي أبحنا لك وللمؤمنين عامةً التزوج من مطلقات الأدعياء ليرتفع عنهم الحرج من ذلك ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي حاجتهم منهن ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاءً ماضيًا مفعولًا ولا محالة واقع[1].

(٣٨) ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي فيما أحل الله له، وقدره وقضاه، وأمر به من تزوج رسول الله بزينب رضي الله عنها، التي طلقها دعيُّه (زيد بن حارثة) رضي الله عنه. وقد رفع الله تعالى بذلك الحرج عن المؤمنين في زواج مطلقات أدعيائهم الذي كان من قبل غير جائز عندهم!!! فقدر الله تعالى أن يكون رسول الله القدوة في تنفيذ هذا الحكم، وقد أبطل الشارع الحكيم الحقوق المقررة للتبني والادعاء، فهذه الآية والآيات المتقدمة كانت السبب في عدم خشية الناس، إذ خشية الناس ليست شيئًا إلى جانب خشية الله بتنفيذ أوامره تعالى، هذه الأوامر والأحكام التي ترفع المعتَق إلى مكانة الحرِّ الشريف، والتي تبطل حقوق الأدعياء وتقضي عليها قضاءً مبرمًا، بصورة عملية لا محل لِلَّبس ولا للتأويل بعدها، لكن اليهود الذين لا يهدأ كيدهم للإسلام، ولا تنطفئ جمرة حقدهم على المسلمين ونبي المسلمين دسُّوا منذ قديم الزمن الدسائس المتنوعة، ومنها استغلالهم لقصة زواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها.

(١) ملاحظة: هذه الصفحة والتي تليها صفحة واحدة إنما أحببنا أن نعطي قصة زيد وزينب رضي الله عنهما حقَّها من التفصيل؛ لا سيما زواج رسول الله من زينب بعد أن طلقها زيد. ونردّ على المستشرقين ومن وراءهم من اليهود الذين كذبوا بما شاء لهم حقدهم أن يكذبوا على رسول الله وندافع عنه مما وصمه به المستشرقون الذين تبنوا أكاذيب اليهود وهو المطهّر المبرأ المعصوم عليه أزكى الصلوات وأتم التسليمات، وأنمى وأعطر التحيات.

وإن لما يستغرب منه!!! أن بعض المفسرين رحمهم الله وغفر لهم، دخلت عليهم بعض هذه الدسائس!!! ومنها هذه القصة فقد سايروا ما أذاعه اليهود عليهم لعنات الله المتتابعة، ظانين عن حسن نية بصدق الرواية، ومن غير قصد، فدخلت إلى خلدهم وظنوا أنها حقيقة، فسجلوها في تفاسيرهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التحقيق، فنقلوا ما زعم اليهود من أن النبي ﷺ، دخل على زينب وهي بعد في عصمة زيد!! فوقعت في قلبه، وقال: (سبحان مقلب القلوب). وإن من يقرأ ما كتبناه آنفًا يقتنع بأنها أقوال اليهود وأنها من دسائسهم ولا صحة لها ألبتة.

إن هذه الدسائس اليهودية، استغلها كثير من المستشرقين، أمثال: موير، وإرفنج، وسبرنجرز، وفَيْل، ولامانس ودرمنجهم وغيرهم ممن تكلموا عن حياة محمد ﷺ، واختلقوا من قصة زينب قصة غرام ووله. وهو الرسول المطهر المبرأ المعصوم من مثل هذه الدنايا القبيحة، التي لا تليق بأناس عاديين فضلًا عن رسل وأنبياء معصومين فأين هذا الكذب الصراح من الحقيقة المستندة إلى آيات العلي القدير؟!

إنما القصة في الواقع كما ذكرناها قبل قليل بأنَّ أمْرَ الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من زينب بعد زيد ليبطل عادةً طالما سار عليها الناس منذ أزمان في جاهليتهم، وهي ليست شرعية، لأن تعريف الأبناء هم الذين يكونون من أصلاب آبائهم، لا بمجرد التبني والادعاء ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، فقد أحلَّ لهم التوسعة في الزواج، مثل داود وسليمان وغيرهما عليهم جميعًا وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

(٣٩) ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ إلى خلقه وهم الأنبياء ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي لا يخافون أحدًا إلا هو في تأدية الرسالات، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغها ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي ناصرًا ومعينًا، وإن سيد الرسل أدى رسالته للناس ولم يخش أحدًا إلا الله تعالى، عليه أزكى الصلوات، وأتم التحيات، وأعطر التسليمات، وأنمى البركات.

(٤٠) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وهذا ردٌّ على المنـافقين الذين قالوا: إن محمدًا تزوج حليلة ابنه، فقد نهى الله أن يقال: زيد بن محمد، لأن زيدًا هو ابن حارثة، لا ابن محمد ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي إنما هو رسول الله، وختمت به النبوات والرسالات وهذا نص في أن لا نبي بعد محمد ﷺ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي لا يخفى على علمه شيء.

(٤١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي من أجل نعمه الجزيلة ومننه العظيمة وفي الحديث: «أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه» [٦٥٨].

(٤٢) ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي صلوا له بكرةً أي صـلاة الفجر، وأصيلًا أي الصلوات الأخرى. وقيل: أي التسبيح اللساني.

(٤٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ والصلاة من الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى أي الملائكة. وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الاستغفار؛ من أجل أن يخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي في الدنيا والآخرة لمحبته لهم ورحمته بهم.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

٤٢٤

(٤٤) ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي تحيـة المؤمنين من ربهم جلَّ وعلا عند دخولهم الجنة ﴿سَلَامٌ﴾ يحيِّيهم بالسلام ويبشرهم بسلامتهم من النار ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي هيَّأ لهم في الجنة ضيافة من الرزق الحسن، مما تشتهيه أنفسهم وتلذُّ أعينهم، فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٤٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ للنـاس كـافة ﴿شَاهِدًا﴾ لله بالوحدانية وعلى أمته بأنه بلغهم، وعلى سائر الأمم تبليغ أنبيائهم إليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين به بجزيل الثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين والمنافقين والعصاة بالنار، وفي الحديث: «لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقد كان أمر عليًا ومعاذ بن جبل رضي الله عنهـما أن يسـيرا إلى اليمن فقـال: انطلقـا فبشِّـرا ولا تنفرا ويسِّرا ولا تعسِّرا، إنه قد أنزل عليّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾» [٦٥٩].

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي يستضاء به في ظلم الضلالة ويُبدِّدُها كما يستضاء بنور الشمس الذي يُبدِّد حلك الليالي الداجية المدلهمة.

(٤٧) ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به وبما نـــزل عليه من الحق الأبلج ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ أي مجدًا في الدنيا وجنة في الآخرة.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ
وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ
ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا
(٥٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن
يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا
يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن
وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن
تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾

عدة المتوفى عنها زوجها ولو قبل الدخول أربعة أشهر وعشر، والمطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، ولها نصف المهر
آية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ منسوخة بآية: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ...﴾

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي فيما يشيرون عليك، والخطاب تعريض لغيره من أمته وإلا فهو معصوم من إطاعة الكافرين والمنافقين بالإجماع ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي اترك مقابلتهم بالمثل، وهذه الآية منسوخة بآية السيف بالاتفاق ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي هو حسبك وكافيك شرورهم. فإليه لا إلى غيره توكل الأمور وتفوَّض إلى جلاله جميع الشؤون.

(٤٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: عقدتم عليهن، وأطلق هنا النكاح على العقد وحده كما تستوي المؤمنة بالكتابية بالاتفاق إذ خرج مخرج الغالب ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تدخلوا بهن، وفي هذا النص إباحة الطلاق قبل الدخول، وأنه لا طلاق بلا نكاح كما في الحديث: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك» [٦٦٠]، وكما في الحديث أيضًا: «لا طلاق قبل النكاح» [٦٦١]. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي لا عدة على المرأة إذا طلقت قبل الدخول، فلها أن تتزوج فور الطلاق إن شاءت، إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد أربعة أشهر وعشرًا وإن لم يكن قد دخل بها بالإجماع. أما مجرد الخلوة ففي حديثها ابن لهيعة، وأخرجه أبو داود في المراسيل. أما الروايتان الموقوفتان على عمر وعلي فمنقطعتان. وهكذا يبقى حكم المطلقة قبل الدخول على ظاهر الآية: لها نصف المهر ولا عدة عليها. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فالمطلقة قبل الدخول تُمتَّع أي تعطى مالًا، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن فرض لها مهر فإنه إذا طلق قبل الدخول، تنصف المهر وكفى عن المتعة. وينبغي لمن فارق قبل الدخول أو بعده. أن يكون الفراق جميلًا يحمد فيه كلٌّ منهما الآخر.

(٥٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ بالسبي كصفية وجويرية رضي الله عنهما ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي إلى المدينة ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي هبة بغير مهر ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تحل الموهوبة لأحد بعدك إلا بمهر ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ بألا يزيدوا على أربع حرائر، وبولي وشهود ومهر ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق في النكاح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي غفورًا للذنوبكم، رحيمًا بكم.

(٥١) ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي إن الواهبات أنفسهن له ﷺ وأزواجه اللاتي عنده، مخيرٌ فيهن، إن شاء قسم، وإن شاء لم يقسم أي في المبيت عندهن، ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي ومن طلبت أن تؤويها ممن قد عزلت من القسمة فلا بأس عليك، فأنت بالخيار، وهذا من توسعة الله لرسوله ورحمته به أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب. وإنه إن فعل وقسم فهو تبرع منه لهن، ولكن رسول الله ﷺ كان يجتهد في القسم بينهن في كل شيء ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [٦٦٢]. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي إذا علمن أن الله تعالى قد وضع عنك الحرج في القسم فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، ثم مع ذلك أنت تقسم لهن اختيارًا منك فرحن بذلك واستبشرن به واعترفن بجميلك ومنّتك عليهن في إنصافك لهن وعدلك فيهن. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالضمائر والسرائر ﴿حَلِيمًا﴾ يحلم ويغفر، وهذه الآية ناسخةٌ لما بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم.

(٥٢) ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي لا يحل لك أن تتزوج بالإضافة إلى ما عندك من النساء وهن رضي الله عنهن: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرية. ولا تبدل منهن واحدة بأخرى بتطليق بعضهن وإحلال غيرهن مكانهن وإن أعجبك جمالهن وحسنهن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي باستثناء الإماء والسراري فلا حرج عليك فيهن في ذلك، ونسخ حكم هذه الآية بالآية التي قبلها كما تقدم، وفي حديث أم سلمة: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم» [٦٦٣]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي مراقبًا وحافظًا وأمينًا.

(٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي نهى الله المؤمنين عن دخول منازل الرسول ﷺ بلا استئذان متطفِّلين ومتحيِّنين وقت نضوج الطعام ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ أي مستأذنين ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ أي انتهيتم من الطعام ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾ في الأرض ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي ولا تظلوا جالسين تتسامرون بأحاديثكم، تشقون على رسول الله ﷺ من بقائكم جالسين في بيته ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ فقد كان عليه الصلاة والسلام شديد الحياء ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ولهذا أنهاكم عن المكث وأزجركم ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾

أي من وراء ستر بينكم وبينهن ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي ما شرعه الله من الحجاب أطهر وأطيب ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بدخولكم منازله بلا استئذان وتكليمكم أزواجه من دون حجاب، وفي الحديث: «قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله الحجاب» [٦٦٤]. وذلك صبيحة زواجه من زينب ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ أي حرم الله زوجات رسوله على المؤمنين أن يتزوجوهن من بعده وتوعَّد عليه ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي ذنبًا عظيمًا هائلًا جسيمًا عند الله؛ لأنهن أمهاتهم.

(٥٤) ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي إن الله يعلم أي شيء ظاهرًا كان أو باطنًا، ولا تخفى عليه منكم خافية.

(٥٥) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي لا إثم على نساء النبي ﷺ، ولا على سائر النساء ﴿فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أي أن لا يحتجبن من هؤلاء الأقارب المحارم، وكذلك العم والخال داخلان في عدم الاحتجاب منهما لأنهما محرمان بدليل ما جاء في سورة النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣] فتبين أن بنات الأخ محرمات على الرجل لكونه عمهن، وكذلك بنات الأخت محرمات عليه لكونه خالهن، ومن كنَّ محرمات عليه لا يحتجبن منه. ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات لا يحتجبن منهن ففهم أن النساء غير المؤمنات تحتجب منهن النساء المؤمنات، لأن الكافرات غير مأمونات على العورات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء على اختلاف بين المفسرين والأئمة، ولكن الأحوط أن يكون المراد به الإماء دون العبيد إلا أن يكونوا دون سنِّ البلوغ كالتابعين غير أولي الإربة ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي اتقين الله في كل الأمور في الخلوة والعلانية فإنه تعالى شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية فيجازي كلًا بحسبه.

(٥٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ صلاة الله تعالى: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، وصلاة الملائكة: الدعاء والمعنى أن الله والملائكة يصلون على النبي أي يثني الله عليه في الملأ الأعلى والملائكة يدعون له ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي أمر الله تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والسلام عليه ليجتمع الثناء عليه من العالمين العلوي والسفلي جميعًا. وفي الحديث: قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه -أي هو الذي في التشهد الأول- فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» [٦٦٥]. وفي الحديث أيضًا: «من صلى عليَّ مرةً صلى الله عليه بها عشرًا» [٦٦٦].

(٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أما أذية الله فصِفَتُهُ بالولد، فقد قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، ووصف رسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا بالكذب والسحر والجنون، وأما أذية رسوله فهي بكل ما يؤذيه بالأقوال والأفعال بحقه أو حق أزواجه ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ
إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا
(٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ
عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ ۖ
أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

ومعنى اللعنة: الطرد والإبعاد من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي ذا إهانة ومذلة

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه وما لم يعملوه ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي قد حملوا البهتان وهو أشد الكذب، وحملوا أيضًا الإثم الظاهر البيِّن، وإنَّ الله تعالى سيعاقبهم أعظم العقاب.

(٥٩) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بلغهن جميعًا ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي الملاءات اللاتي يشتملن بها النساء أي ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي لا يتعرض إليهن فاسق بأذى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما سلف.

(٦٠) ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم وكذبهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم الزناة ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي أهل الإشاعات الكاذبة، أي لئن لم ينتهوا عمَّا هم فيه ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ أي مطرودين مبعدين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أي أينما وجدوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ أي يقبض عليهم وتبتر منهم أعناقهم ورقابهم.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي من الأمم الكافرة أمثالهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي وسنة الله قهر المنافقين لا تبدل ولا تغير.

لا حجاب من المحارم، صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا
فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ
وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

علم الساعة عند الله، من يتق الله يُصلح عمله ويغفر ذنبه، الأمانة هي التكاليف الشرعية

(٦٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يوم القيامة ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل لأولئك المرجفين المنافقين إنما علم يوم القيامة عند الله ولا يعلم أحد من مخلوقاته موعدها ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي وما يعلمك بها، أنت لا تعلمها، فلعلها تكون قريبة الموعد.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أبعدهم وطردهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: وهيَّأ وادخر لهم نارًا لا تهدأ ولا تفنى، جزاء كفرهم.

(٦٥) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها مكوثًا مستمرًا لا ينتهي ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يرون في النار من ينصرهم، ويتولى الدفاع عنهم حتى ولا أولئك الذين كانوا يشركونهم بالله ويدعونهم من دونه، ويؤملون بهم في الدنيا ليشفعوا لهم في الآخرة؛ إذا هم يتبرأون منهم.

(٦٦) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي تارة لظهر وتارة لبطن ويسحبون عليها في النار يصيحون ويستغيثون و﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي يتمنَّون لو كانوا في الدنيا ممن يطيعون الله تعالى فيما أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من القرآن العظيم ويعملون بهداه ويطيعون رسول الله ﷺ فيما بلغه من الهدى والحق والخير ولكن لن ينفعهم هذا التمنِّي وهيهات هيهات ما داموا قد ماتوا وهم كفارٌ.

(٦٧) ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ والمراد بالسادة والكبراء أولئك الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم ويمتثلون أمرهم في الدنيا؛ وفي هذا زجر عن التقليد بلا علم ولا فهم، وكم حذَّر الكتاب العزيز ونفَّر من التسليم لغير الله ورسوله. وإن التعصب لغير المعصومين هو الذي يوقع صاحبه في المهالك التي لا منجى منها، ولذلك قالوا ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي أضلونا عن الحق الذي بلغنا إياه المرسلون.

(٦٨) ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي عذبهم مرتين مضاعفتين في الشدة من عذاب جهنم؛ لأنهم أغوونا وكفرونا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي واطردهم من رحمتك طردًا شديد الوقع، كبيرًا ثقيلًا كثيرًا، فيجيبهم الله: لكل ضعف لاشتراككم في الكفر.

(٦٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ ففي الحديث: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسمًا فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فقلت -أي ابن مسعود-: يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فاحمرَّ وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» أخرجاه [٦٦٧]. ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ أي برأ الله موسى مما اتهمه بنو إسرائيل من أنه آدر لشدة ما كان يتستر في اغتساله، فبرأه الله بأن طار الحجر بثيابه فلحقه عريانًا قائلًا: ثوبي حجر، فظهر أمام بني إسرائيل مبرأً من كل عيب ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي كان ذا وجاهة عنده.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي مستقيمًا صحيحًا في كل شأن من شؤونكم فإن فعلتم التقوى والقول السديد...

(٧١) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي يوفقكم للعمل المقبول ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الماضية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ظفر بخيري الدنيا والآخرة.

(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ أي التكاليف الشرعية ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ فقالت: وما فيها؟ فقال لها الله: إن أحسنت آجرتك وإن أسأت عذبتك ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي فلم يطقن شرطها وخفن منها ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي آدم لما عرضت عليه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إلا من وفقه الله -وهو المستعان- من بني آدم وقام بها كما أمره الله.

(٧٣) ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي ليعذبهم بما خانوا من الأمانة ونقضوا الميثاق الذي أقروا به حين أخرجوا من ظهر آدم ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي بما أدوا من الأمانة فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعباده المتقين.

آخر تفسير سورة الأحزاب ولله الحمد والمنّة والفضل

(٣٤) سُورَةُ سَبَإٍ

مكية إلا آية ٦ فمدنية، وآياتها ٥٤، نزلت بعد لقمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له الحمد كله، وإن جميع ما في السماوات والأرض هو ملكه تعالى وتحت تصرفه وقهره لا شريك له ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بعد أن بين الحمد الدنيوي كله له من عباده الحامدين الصالحين يحمدونه ويعظمونه على آلائه، كذلك بين أن له الحمد كله في الآخرة من عباده في الجنة وهو المالك المعبود في الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بهم لا تخفى عليه منهم خافية.

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما يدخل فيها من كنوز دفينة وحبوب وبذور ومعادن جمة ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من زرع وشجر وثمر وحيوان كم هو عدده وصفاته وكيفياته ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق وسواها ومن ذلك ما ينزل من الملائكة والكتب ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي ما يصعد إليها من عمل صالح ومن الملائكة الكرام ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ عن ذنوب التائبين إليه تعالى المتوكلين عليه.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ وهم الكفار عامة وكفار مكة خاصة قالوا: لا تأتينا الساعة بحال! منكرين لوجودها فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي الساعة، والقسم لتأكيد الإتيان ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي هو الذي يعلم غيب السماوات والأرض وحده ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يغيب عن علمه ولا وزن ذرة وهو نهاية في الدقة والصغر ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي لا أصغر من المثقال ولا أكبر إلا وهو يعلمه وهو موجود في اللوح المحفوظ.

(٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي بما عملوا من الخير العميم المنبثق عن إيمانهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين عملوا الصالحات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم جميعًا ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة التي أعدت لأمثالهم من المتقين والمحسنين.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي صدوا الناس عن آيات الله وكذبوا الرسل وثبطوا عن الإيمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين سعوا بذلك

سُورَةُ سَبَإٍ — آياتها ٥٤ — ترتيبها ٣٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ (٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ
قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ
وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)

٤٢٨

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أي من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ أي آلمه وجعًا، وأسوأه نكالًا.

(٦) ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم الصحابة أي يرون ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هذا القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الذي هو أحق أن تتبع أحكامه، وتنفذ شرائعه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي ويدل الدلالة الحقة، إلى أقرب طريق وأقوم سبيل، وهو الطريق المؤدي إلى رحاب الله سبحانه فيفوز السالك فيه برضوان الله تعالى وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

(٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي قال الكفار من أهل مكة بعضهم لبعض هل نخبركم بأمر عجيب جدًا؟ هو أن رجلًا وهو محمد ﷺ يقول: إنه إذا مزقتم أي تفتَّت ذرات أجسادكم بعد الموت فإنكم بعد هذه الحال قال إنكم ستعودون خلقًا جديدًا وتبعثون وتحاسبون؟! كأنهم يستبعدون ذلك ويعجبون كل العجب. إنهم ترددوا بين أمرين لا ثالث لهما فقالوا:

لله الحمد وحده، يعجبون من البعث وخلق السموات والأرض أعجب...!!

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ
ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

(٨) ﴿أفترى على الله كذبا أم به جنة﴾ أي إما أن يكون قد كذب على الله فادعى أنه أوحي إليه، وإما أن يكون به جنون. فرد الله عليهم فقال عزَّ من قائل ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما زعموا فإنَّ محمدًا ﷺ ليس كاذبًا ولا مجنونًا ولكنه النبي الأمين الصادق العقيل الراشد، بل هم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق، فكفروا بالآخرة ولم يؤمنوا بما جاءهم به فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة وهم اليوم في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

(٩) ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ أي ألا يرون قدرة الله تعالى بإيجاد هذه المخلوقات العظيمة في السماء والأرض؟ ألا يقدر الذي خلق كل ذلك من عدم أن يعيد خلقه من جديد؟ بلى وإنه تعالى لقادر على تعجيل العقوبة لهم بسبب كفرهم هذا، فقال: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض﴾ فتبتلعهم ﴿أو نسقط عليهم كسفا من السماء﴾ أي قطعًا نرجمهم بها ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ أي إن في هذه القدرة العظيمة -بعد الحلم لعلهم يتعظون- لَدلالةً ظاهرة تدفع بالعبد إلى الرجوع عن الباطل فيعود العبد إلى ربه بالتوبة والإنابة.

(١٠) ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا﴾ أي جمعنا له النبوة والملك وكذلك أعطاه الله من الصوت الرخيم ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ أي قلنا يا جبال سبحي مع داود ويا طير رجعي تسبيحه. وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل فوقف واستمع ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود» [٦٦٨]. ﴿وألنا له الحديد﴾ أي صار بين يديه كالطين أو كالعجين يعمله من غير نار! وكان يفتله كالخيوط ويصنع منه دروعًا ويعمل في اليوم أكثر من درع.

(١١) ﴿أن اعمل سابغات﴾ وهي الدروع الواسعة ﴿وقدر في السرد﴾ أي اجعلها محكمة متينة لا صغيرة ولا كبيرة الحلقات ﴿واعملوا صالحا﴾ الخطاب لداود عليه السلام ولأهله ﴿إني بما تعملون بصير﴾ أي يبصر أعمالكم وأقوالكم لا يخفى عليه منها شيء.

(١٢) ﴿ولسليمان الريح﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح ﴿غدوها شهر ورواحها شهر﴾ أي تحمل بساطه، وتسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين ذهابًا وإيابًا ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أي عين النحاس كذلك بلا نار كما ألَنَّا الحديد لأبيه داود بلا نار، يستعملها في أي شأن يريده من الأواني وغيرها ويقال: إن هذه العين كانت باليمن، والله تعالى أعلم. ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي وسخر الله لسليمان عليه السلام الجن، يعملون له بإذن الله ما يريد ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ بطاعة سليمان ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ أي ومن يتوقف عن العمل منهم يعاقب، قيل: كان مع سليمان ملكٌ له سوط من نار يضرب به الجن إذا زاغوا عن الأمر.

(١٣) ﴿يعملون له﴾ أي الجن ﴿ما يشاء من محاريب﴾ أي مساجد، وليس المحراب تلك الفجوة في جدار القبلة من مساجد المسلمين اليوم، إنما هو المسجد كله، أما هذه الفجوة فهي بدعة تسربت إلينا من كنائس النصارى يسمونها المذبح. وفي الحديث: «اتقوا هذه المذابح»(١) [٦٦٩]. ﴿وتماثيل﴾ وقد كانت إذ ذاك مباحات وحرمها شرعنا ﴿وجفان﴾ أي قصاع للأكل ﴿كالجواب﴾ أي كالأحواض ﴿وقدور راسيات﴾ أي للطبخ لا تتحرك لعظمها ﴿اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور﴾ أي اشكروا الله، وشكره تعالى: طاعته فيما أمر وما أقلهم في عباد الله سبحانه. أما الاكتفاء بالشكر اللساني دون العمل بطاعته فهذا لا يجدي عند الله شيئًا.

(١٤) ﴿فلما قضينا عليه الموت﴾ أي لما مات مكث قائمًا سنة على عصاه ﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾ أي عصاه ﴿فلما خر﴾ بسبب انكسار العصا من أثر دابة الأرض ﴿تبينت الجن﴾ أي ظهرت حقيقتهم للناس ﴿أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ أي في الأعمال الشاقة المضنية المستديمة.

---

(١) صحيح موقوفًا.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (١٨)
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)

(١٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وسبأ قبيلة حكمت اليمن ردحًا من الزمن سميت باسم جدها سبأ، واسمه عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وسمي سبأ لأنه أول من سبأ أي خبت لله ورجع عن وثنيته إلى عبادة الله وحده كما هو ظاهر من شعره:

وَيملك بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٌّ ... نَقِيٌّ مخبت خير الأنام
يسمى أحمدَ يَا لَيتَ أنّي ... أُعَمَّرُ بَعْد مَبْعَثه بعام
فأعضُده وأَحْبُوه بنَصْري ... بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظْهَرْ فكُونُوا نَاصريه ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغه سَلامي

ونسل منه عشرة قبائل ترجع إليهم أصول العرب في اليمن. وكان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه سيول الأمطار والأودية فعمد ملوكهم إلى بناء السد العظيم الذي يسمى (سد مأرب) فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار على أحسن شكل لهذا قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ وهذه الآية هي: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي عن يمين وشمال الجبلين، والبلدة بين ذلك ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي أطيعوه جزاء ما رزقكم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ دنيا ودين ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي غفور لكم إن بقيتم هكذا على التوحيد والطاعة لأوامر الله تعالى.

(١٦) ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي تركوا الطاعة والتوحيد إلى العصيان والشرك فأرسل إليهم الأنبياء، فظلوا على إشراكهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ جزاء ما عبدوا الشمس من دون الله وقد دفع ماء السيول السد فسقط، فتفجر الماء من خلفه فدمر البلاد والأشجار وذهب الماء ونضب عن الأشجار التي كانت في الجنتين فيبست ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المثمرتين العظيمتين ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ هو الأراك ﴿وَأَثْلٍ﴾ وهو الطرفاء ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ذي الشوك الكثير والثمر القليل.

(١٧) ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي بسبب كفرهم وشركهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي وهل يستحق عذابنا إلا الكفور.

(١٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي قرى الشام التي بارك الله فيها بالماء والشجر والثمر ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي متقاربة ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بشكل لا يحتاج المسافر إلى مزيد من الأمن والزاد ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ وهذا من جملة حكاية ما كانوا عليه إذ يسيرون ليالي وأيامًا آمنين على أنفسهم وأموالهم.

(١٩) ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لكن لما طغتهم النعمة جحدوها وطلبوا البعد في أسفارهم بدل تلك القرى المتقاربة فكأنهم ملوا الراحة وطلبوا الكد والتعب ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بما حلَّ بهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي وفرقناهم بالبلاد على أثر السيل العرم وذهبوا مثلًا كما قيل (تفرقوا أيدي سبأ) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي صبَّار على الطاعات شكور لله على أنعمه.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي هم سبأ وسائر المطيعين لإبليس ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الذين لم يطيعوا إبليس.

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ إلا غرورًا وأماني دعاهم إليها فأجابوه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنظهر لهم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي ليظهر لهم أمر من هو مؤمن بالآخرة ممن هو في شكٍّ منها ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي حافظ ورقيب وشهيد.

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ والخطاب هنا لكفار قريش أو للكفار على الإطلاق: ادعوا الذين تزعمون أنهم آلهة تعبدونها من دون الله فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكيف تعبدونهم وتذرون مالك السماوات والأرض ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ وما لآلهتكم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي لا يملكون شيئًا معه في السماوات والأرض ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي ولا يساعده منهم أحد.

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ
﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ الحزب ٤٤
وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل
لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ
﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا
بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

(٢٣) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لا يجرؤ أحد على أن يشفع لأحد عند الله إلا من بعد أن يأذن تعالى له بالشفاعة. وهذا مقام رفيع في العظمة، وهو إنه إذا تكلم جل جلاله بالوحي المؤذن بالشفاعة فسمع أهل السماوات كلامه أُرعِدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي سُرِّيَ عنهم وزال الخوف عن قلوبهم ﴿قَالُوا۟﴾ أي سأل بعضهم بعضًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي بشأن الشفاعة ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: أذن بمنه وكرمه بالشفاعة. وفي الصحيحين: «فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن ثم يقال لي: ارفع رأسك، وقل تُسمع، واشفع تشفع...» [٦٧٠]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي هو العلي على خلقه علوًا معلوم الحقيقة مجهول الكيفية، البائن عن خلقه. والكبير أي الأكبر من كل كبير في السماء والأرض في ذاته العظمى، وصفاته العلى سبحانه وتعالى.

(٢٤) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا محمد: من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التي تتمتعون بها، وإنهم لن يجيبوك بالحقيقة التي يعرفونها حتى لا تقوم عليهم الحجة ولكن تولَّ الإجابة عنهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي هو الذي يرزق من السماء بالمطر وغيره ومن الأرض بالنبات والزروع والثمار ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي نحن أو إياكم لأحد فريقين إما أن نكون على هدى، وأنتم على ضلال، أو بالعكس. وهذا غاية في التَّلطُّف والتنازل مع الخصم وغاية في الإنصاف.

(٢٥) ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا أيضًا في غاية الإنصاف فقد أمر النبي أن يسند الإجرام له وللمسلمين ويسند مطلق العمل إلى المشركين أملًا بميل القلوب وانجذابها نحو الحق الواضح. والمعنى: لستم منَّا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراده بالعبادة. فإن أجبتم فأنتم منَّا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منَّا.

(٢٦) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ثم يحكم بيننا بالعدل فيجزي كل عامل بما يستحق ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ أي القاضي بالحق والحاكم بالعدل ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقائق أمور عباده وما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح.

(٢٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي أين الآلهة التي جعلتموها لله أندادًا؟ وساويتموها به؟ ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله.

(٢٨) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ كما في الحديث: «... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس عامة» [٦٧١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي مبشرًا بالجنة ومنذرًا من النار.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي بالجنة أو النار؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به من دخول الجنة أو دخول النار، قالوا هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله ﷺ وبمن معه من المسلمين.

(٣٠) ﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي بل سيكون حتمًا في اليوم المعلوم عند الله سبحانه.

(٣١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يقول الكفار والمشركون ما نحن بمؤمنين بهذا القرآن ولا بما تقدَّمه من الكتب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لو تراهم يا محمد محبوسين في موقف الحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي يقول الأتباع للمتبوعين من المشركين الذين أمروهم بالكفر والشرك وباتباعهم على ذلك: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ إذ اتضح للجميع أنهم كانوا ضلالًا فيقول المستضعفون لسادتهم: لولا صَدُّكم إيانا لكنا مؤمنين بالقرآن وبمن نزل عليه. ولكن هل ينفع التلاوم إذ ذاك!؟ هيهات هيهات.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ
عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ
تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ
هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا
زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ
بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ
إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ
أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

٤٣٢

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ وهم قادتهم وسادتهم وكبراؤهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ وهم الأتباع المستضعفون ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾ منكرين صدهم لهم أي نحن ما صددناكم، بل أنتم الصادون عن الحق لما جاءكم ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ أي مختارين للإجرام ولستم مقهورين عليه.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي كنتم تغرونا وتمنّونا وتمكرون بنا ليلًا ونهارًا ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ أي آلهة معه وشركاء ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي كل من الفريقين أضمر الندامة في نفسه عن الآخر، وذلك ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ محيطًا بالجميع ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي محيطةً بأيديهم وأعناقهم والمراد بالذين كفروا هم المتلاومون ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي إنما يجازي الله سبحانه كلًا بعمله بقدر ما عمل في الدنيا من الكفر والفسوق والعصيان، وهذا يدل على أن الجهل ليس عذرًا ولا يقي من العذاب.

﴿٣٤﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي من نبي رسـول ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أي رؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر فيها: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي لا نؤمن به، ولا نتبعه.

﴿٣٥﴾ ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي إن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد وإنه رضي بما نحن عليه من الدين، وهذا يدل على أنه لن يعذبنا في الآخرة، من بعد إنعامه علينا في الدنيا. وقد أمر الله رسوله أن يرد على ما ظنوا:

﴿٣٦﴾ ﴿قُلۡ﴾ لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب فيبسط رزقه لمن يريد، ويقتر على من يشاء بحسـب حكمتـه التـامة البالغـة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحكمة من ذلك ثم أكد سبحانه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ أي ما كان الله ليقربكم إليه بأسباب ما عندكم من الأموال والأولاد، وليس ذلك دليلًا على محبته لكم. وفي الحديث: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [٦٧٢]. ولهذا قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي إنما الذي تتقربون به إليه تعالى، هو الإيمان به وبرسوله والعمل الصالح الذي يرضى عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين يتقربون إلى الله بالإيمان وصالح العمل ﴿لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي يتفضل الله عليهم بمضاعفة الجزاء لهم وتصاعد الحسنات إلى عشرة أمثالها وإلى أضعاف مضاعفة بسبب ما عملوا من الصالحات لوجهه خالصةً مقترنةً بالمطابقة لما شرع سبحانه ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي في غرفات الجنان يسكنون أعلى منازلها وهم في مأمن من كل خوف، وهل يخافون في دار السلام؟

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي يصدون الناس عن الإيمان بآياته جل وعلا واتباع ما جاء بها من الهدى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المعاجزون المعاندون الصادون عن سبيل الله ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي في عذاب جهنم تحضرهم الزبانية، لينالوا جزاء كفرهم وشركهم.

﴿٣٩﴾ ﴿قُلۡ﴾ لهـم يا محمد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ فقد كرر الله سبحانه ما تقدم في شأن بسط الرزق أو تقتيره تأكيدًا للحجة ودفعًا لما قاله المشركون آنفًا بأنهم أكثر أموالًا وأولادًا فأكد سبحانه بأن بسط الرزق أو تقتيره ليس دليلًا على محبته أو كراهيته فهو يبسط ويقدر بحسب حكمته عزَّ وجلّ التي لا يدركها إلا هو سبحانه وتعالى، وليس في ذلك دليلٌ على سعادة أو شقاوة وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنَّعه الله بما آتاه» [٦٧٣]. ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي مما أمر الله أن ينفق في سبيله ومما أباح لعباده المؤمنين ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ أي يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالثواب ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأن المخلوق يعطي لحاجة له ولكن الله يرزق بلا حاجة ولا مقابل.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟
يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟
يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن
تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم
مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

٤٣٣

(٤٠) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي يوم يحشر الله المشركين، المستكبرين المترفين منهم والمستضعفين جميعًا ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي ثم يسأل الله الملائكة الذين كان المشركون ينحتون أصنامهم على صورهم ويعبدونها ويقول الله للملائكة: أأنتم أمرتم هؤلاء أن يعبدوكم؟ ويدعوكم من دوني!؟ كما يأتي الله يوم القيامة بكل من عُبد من دونه، ويسألهم أيضًا كما يسأل الملائكة.

(٤١) ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزهت وتعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله يعبد ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي نبرأ إليك منهم، ما اتخذناهم عابدين لنا وما أمرناهم بذلك، ولا توليناهم من دونك بل أنت وليُّنا من دونهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الشياطين الذين زينوا لهم عبادة الأصنام، وكان الشياطين يدخلون أجواف الأصنام ويكلمونهم منها ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ والأكثر يفيد معنى الكل.

(٤٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي إنكم في هذا اليوم -وهو يوم القيامة- لا ينفعكم من كنتم ترجون نفعه، وادخرتموهم لمثل هذا اليوم ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي ظلموا أنفسهم وأهلكوها وأوردوها حتفها بعبادة غير الله تعالى ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ذوقوا عذاب هذه النار التي كنتم بها تكذبون في الدنيا.

(٤٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي واضحات الدلالة ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ أي محمد ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي يريد أن تعدلوا عن دين آبائكم إلى دينه ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي ثانيًا ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي كذب مختلق ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ثالثًا ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي لهذا القرآن الذي أنزله الله تعالى وبلغهم إياه محمد ﷺ ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر واضح.

(٤٤) ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي ما أنزل الله على العرب بعد إبراهيم صحفًا إلا القرآن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي ولم يرسل الله للعرب بعد إسماعيل رسولًا نبيًا إلا أنت يا محمد، إنما هم الذين غيروا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

(٤٥) ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي ما بلغ العرب معشار ما بلغت تلك الأمم من القوة في الدنيا وكثرة المال وطول العمر ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فجحدوا بآيات الله وكفروا برسله فانظروا كيف أنكرت عليهم عملهم وكيف كان انتقامي منهم؟ فزلزلتُ بلادهم ودمرتُ مبانيهم واستأصلتُهم فهل منعهم مني أحد؟

(٤٦) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي أنذركم وأوصيكم ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي تقوموا بإخلاص بطلب الحق ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ مجتمعين ومنفردين في أمر محمد ﷺ هل هو مجنون؟ فإن أخلصتم تتأكدوا تمامًا أن ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي ليس مجنونًا ولا كذابًا ولا ساحرًا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ أي نبيٌّ رسولٌ ينذركم ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي ما ستلقون أمامكم من العذاب العظيم.

(٤٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي أنني لا أسألكم أجرًا على تبليغكم رسالة الله إليكم وكل ما أسألكم فهو لكم ولا أريده ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إن أجري لا أطلبه إلا من الله تعالى الذي أرسلني إليكم بهذه الرسالة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي مراقب وعالم وناظر ومشاهد لسرِّكم وعلانيتكم.

(٤٨) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يبين حجة هذه الرسالة للناس على ألسنة رسله بأنها الرسالة الحقة، التي تدفع بحقها كل باطل، وإنه سبحانه وتعالى ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء إلا ويعلمها ويعلم مستقرَّها.

الملائكة يتبرأون من عابديهم • لو أنصف المشركون ما اتهموا محمدًا بالجنون

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن
مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ فَاطِرٍ — ترتيبها ٣٥ — آياتها ٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٤٣٤

(٤٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي جاء القرآن وهو الحق محتويًا على التوحيد والأحكام والعبر، وإذا جاء الحق زهق الباطل ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لم يبق له أثر.

(٥٠) ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وقد كان المشركون يقولون له ﷺ لقد ضللت سبيل آبائك وأجدادك فأمره الله تعالى أن يقول: إن كنت ضللت طريق الحق فإنما إثم هذا الضلال يقع عليَّ ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ أي سالكًا الطريق الصحيح ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ أي فبسبب ما أوحاه إليَّ ربي من الحق الذي ما بعد هذا الحقّ إلا الضلال الذي أنتم عليه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿قَرِيبٌ﴾ بإجابة الدعاء.

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ وهو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي لا مفر ولا ملجأ لهم يوم ذاك ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي أخذوا من أول وهلة حين خرجوا من قبورهم يوم القيامة إلى الحساب ليجزوا بما عملوا في دنياهم ولا يظلم ربك أحدًا من خلقه.

(٥٢) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمنا بالله وبرسوله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ لا سبيل إلى حصول تناول شيء ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي وكيف ينفع الإيمان بعد أن فات أوانه بعد الموت!!!؟

(٥٣) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي كفروا قبل يوم القيامة وماتوا وهم كفار وكذبوا الرسل ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي يرمون بالظن فيقولون لا بعث ولا نشور رجمًا بالغيب، إلى أن رأوا ما كانوا يكفرون به حقيقةً فآمنوا؛ ولكن هيهات.

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان أي لم يقبل الله إيمانهم ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ كما جرى لأمثالهم من الكفار من قبل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ أي في الدنيا في شك وفي الآخرة في شك فأنى تقبل توبتهم بعد الموت!!؟

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ

مكية وآياتها ٤٥، نزلت بعد الفرقان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالق السماوات والأرض من العدم، وله الحمد كله ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل عليه الصلاة والسلام الذي كان رسول الله إلى محمد ﷺ وسفيرًا إليه بالوحي وإلى جميع أنبياء الله تعالى ليؤدُّوا رسالات ربهم إلى أممهم المرسلين إليهم ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ أي خلق الملائكة أصحاب أجنحةٍ يطيرون فيها ما بين السماوات والأرض ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي منهم من له جناحان أو ثلاثة أو أربعة أجنحة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة ﴿مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمئة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب. [٦٧٤] ولا شك أن الله قادر على خلق كل شيء.

(٢) ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وهو سبحانه المعطي والمانع، لا يعطي ولا يمنع أحد سواه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يقهر والحكيم في أفعاله وأقواله.

(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فهو الذي خلقكم في أحسن تقويم وخلق لكم كل شيء وهو الرزاق ذو القوة المتين ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي هل تعلمون خالقًا من دونه تعالى ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالإنبات وسخر لكم كل شيء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي فما دام هو الخلاق والرزاق لزم أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون العبادة لغيره؟! وهو المستحق لها وحده؟!!!.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا
إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ
يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ
﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ
وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

٤٣٥

(٤) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي وإن كذبك أو خالفك هؤلاء المشركون، فيما نزل عليك من الحق فقد كانت الأمم السابقة كذلك يكذبون رسلهم وأنبياءهم فيما جاؤوا به من الحق فلا تحزن على ما يفعل بك قومك فلك أسوة بالأنبياء قبلك وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي ترفع إليه وسوف يجازي كلًا بما يستحق من الجزاء، ثم قال سبحانه وتعالى:

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده حق بالبعث والحساب والعقاب والثواب ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تطمئنوا إلى زخرفها ونعيمها فإنها زائلة بكل ما فيها ولا ينفع فيها إلا العمل الصالح فلا يمنّيكم بها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي ولا يفتنكم عن طاعة الله الشيطان الغرور.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي نصب الشيطان لكم أفخاخ عداواته لإيقاعكم فيها ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي عادوه بطاعة الله وخالفوه فيما يغرّكم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ أي يدعو أشياعه وأهل طاعته إلى ما لا يرضي الله تعالى ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي إنه يعمل جاهدًا ليجعلكم من حزبه حتى تدخلوا معه عذاب جهنم، ندعوه تعالى أن يجعلنا من حزبه لا من حزب الشيطان، متبعين أوامره سبحانه ومجتنبين نواهيه.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر وماتوا على كفرهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يطاق ولا يحتمل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي صدّقوا بما نزل إليهم من الحق ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ طِبْق ما أمرهم الله به بلا ابتداع ولا زيادة ولا نقصان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ جزاء أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا.

(٨) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي هل الذي حسّن له الشيطان ما كان يعمل من السيئات فما زال به حتى أقنعه أن هذه السيئات هي حسنات وليست سيئات فأضلّه وأخزاه، كمن هداه الله إلى خير الأعمال وأصلحها!!!؟ لا يستويان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وليس معنى هذا أن الله يضلُّ الطائع ويهدي العاصي الممعن في عصيانه، دون رجعة منه إلى الهدى، لا، ولكنه سبحانه يشاء الله له الثبات على خطوته الأولى نحو الهداية ثم يزيده هدى من فضله ولن يرجعه إلى الضلال إن ظل مستقيم السير واثق الخطى. ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ أي تميت ﴿نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي على الكفار إذا لم يؤمنوا بك فلا تغتمّ ولا تحزن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي لا تخفى عليه منهم خافية ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والسيئات، وإنه سبحانه سيجازيهم بما يستحقُّونه من العذاب الأبد المخلَّد.

(٩) ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي فكما أنه بالمطر يحيي الله الأرض بعد موتها أي بعد جدبها؛ كذلك الله سبحانه يحيي المخاليق يوم القيامة بعد موتهم. وفي الحديث: «كلُّ ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، فمنه خلق ومنه يركّب» [٦٧٥].

(١٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي من كان يريد العزة في الدنيا والآخرة فليتعزّز بطاعة الله تعالى يحصل له مطلوبه وليدعُ إلى طاعة من له العزة ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ وهذا يدل على أن الله عليٌّ على خلقه فيصعد إليه الكلم الطيب والعمل الصالح وهذا العلو معلوم الحقيقة مجهول الكيفية ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وهم المراؤون بأعمالهم، فإن الله مطلع على مكرهم فلا يخفى عليه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي ينكشف فيبطل ويضمحل.

(١١) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك ابتداء خلق آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من ماء مهين ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي من ذكر وأنثى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلا وهو عالم بذلك ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي لا يطول من عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ عنده سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيِّن سهل ولا يعسر عليه شيء.

الله يضل من علم منه اختيار طريق الضلال على الهدى • وحاشاه أن يضل من اختار الهدى

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا
مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ
﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

٤٣٦

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ وهو الأنهار السارحة العذبة ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مرٌّ من شدة ملوحته وهو ماء البحار الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي الأنهار والبحار ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي تمخر عباب البحر ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قُطر لآخر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرونه على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى وتكثرون من الطاعات له. ومهما قدمتم من الأعمال الصالحة خالصة لوجهه الكريم لا ترفعون إليه حقَّ شكره.

(١٣) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهذا من قـدرته التامة في تسخيره الليل بظلامه، والنهار بضيائه ويطول كل منهما ويقصر بحسب الفصول ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي جعل الله فيهما مصالح للناس في الضياء والنور والحركة والسكون وانتشار العباد في طلب الرزق ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي كل من الشمس والقمر، يجري لأجل معلوم عنده تعالى ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي خالق كل ما سبق ذكره من المخلوقات هو الله ربكم الذي له الملك كله لا شريك له فيه من أحد غيره ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي أما الذين تدعونهم من الأصنام والأوثان من دون الله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي لا يملكون في السماوات والأرض ولا بمقدار القطمير وهو اللفافة الرقيقة التي تكون على نواة التمرة؛ فكيف تتركون دعاء المالك العظيم وتدعون الذين لا يملكون من قطمير!!!؟ ومع ذلك...

(١٤) ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أي هذه الآلهة التي اتخذتموها من دون الله لا تسمع دعاءكم، لأنهم ميتون، وتماثيلهم كذلك جماد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي وعلى افتراض المستحيل أنه وقع وسمعوا فإنهم لا يستطيعون الإجابة، لأنهم عاجزون ولا يملكون شيئًا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يجحدون ويتبرأون من شرككم وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا أحد ينبئك أصدقُ من الله العليم الخبير.

(١٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي أنتم جميعًا المحتاجون إليه تعالى ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي هو الغني غير محتاج إلى غيره والمستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم.

(١٦) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي يفنيكم عن آخركم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يطيعونه ولا يعصونـه ويعبدونـه لا يشـركون به أحـدًا من خلقـه، وما ذلك عليه صعب أو ممتنع ولذلك قال:

(١٧) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي إذهاب وإفناء العاصين والمشركين والإتيان بخلق مطيعين موحِّدين ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ليس بممتنع ولا معجز له، بل هو على كل شيء قدير.

(١٨) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئًا من الوزر والإثم يوم القيامة ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي إن تدع مثقلة من الذنوب لتساعد على حمل ولو بعض شيء منه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ليست حال الآخرة كحال الدنيا يساعد الحميم حميمه والصديق صديقه، بل يتمنى العبد يوم القيامة أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي هؤلاء هم الذين يقبلون النذر وينتفعون بها لأنهم يخشون الله في السر والعلانية ويقيمون الصلاة حق إقامتها بشروطها وأركانها لأن الخشية من الله تستدعي من العبد الانتباه والعمل كيلا يقع بمخالفة من يخشى منه ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن نقّى نفسه من العيوب كالرياء والكبر والكذب والغش والمكر إنما ينقذها هي ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المآب والحساب.

يوم القيامة لا يحمل أحد وزر أحد ولو كان أقرب الأقربين

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ
أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ
أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

(١٩) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وهذا مثل للمؤمن والكافر فشبه الكافر بالأعمى أي المسلوب حاسة البصر والمؤمن بالبصير الذي يمتلكها.

(٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي ولا تستوي الظلمات المدلهمّة ولا النور الباهر، فشبه الباطل بالظلمات، وشبه الحق بالنور.

(٢١) ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ أي لا يستوي الظل الذي لا حر فيه ولا أذى، والحر الذي يؤذي؛ فشبّه الثواب بالظل والعقاب بالحر.

(٢٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فشبه المؤمنين بالأحياء والكافرين بالأموات، وهذه كلها أمثال؛ أي كما لا تستوي الأشياء المختلفة المتباينة كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد إليها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي بما أن الكفار هم في صمم عن دعوة الرسول ﷺ إلى الله تعالى؛ شبّه الله حالهم بحال أهل القبور الذين انقطع سمعهم وإحساسهم بشكل عام بسبب الموت. ومن هنا يعلم أن الأموات لا يسمعون، وهذا نص في عدم سماعهم، ولو أنهم يسمعون كما يقول (البعض!!) لما صح التشبيه بهم، والله أصدق القائلين، وهو أعلم بواقع حالهم لأنه خالقهم.

(٢٣) ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي إنما أنت نذير للنـاس كافـة وما عليك إلا البلاغ المبين وأن تؤدي الرسالة حقها.

(٢٤) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي ما من أمةٍ من الأمم الخالية إلا وبعث الله لهم الرسل وأزاح عنهم العلل فأقاموا الحجة وبينوا المحجة.

(٢٥) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذه تسلية من الله تعالى إلى رسوله ﷺ وتعزية، أي إن يكذبك قومك فليس هذا عملًا جديدًا فقد كذب قبلهم الأمم السابقة رسلهم، فقد ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ﴾ أي بالمعجزات وبالكتب والصحف المنزلة من السماء ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبات، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كان شديدًا جدًّا فَنَكَّلْتُ التَّنْكِيلَ المريع بهم، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم، والخزي الوخيم.

(٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أي ألم تر يا محمد -والخطاب له ولكل من يصلح له- كيف ينزل الله من السماء ماءً واحدًا على أرض واحدة ولكن تخرج ثمرات مختلفات الألوان والطعم والرائحة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي وفي بعضها جددٌ أي طرق ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ بالشدة والضعف ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي هي الجبال الطوال السود الشديدة السواد.

(٢٨) ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ أي هذه المخلوقات خلقت كذلك مختلفة الألوان كالثمرات والجبال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي قد عين الله أهل الخشية من عباده عامة وهم العلماء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ لأنه معاقبٌ على المعصية غفور لمن تاب من عباده.

(٢٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يتلـونه ويعملـون بما فيه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إقامة كما يحبُّ الله ويرضى ﴿وَأَنفَقُوا﴾ من المال الحلال ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وذلك ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لوجهه تعالى وعلى مراده فيما أنزل من شريعته ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي مضمونة الربح عنده تعالى.

(٣٠) ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي ليعطيهم ثواب عملهم الذي عملوه ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي ويضاعف لهم أجورها بزيادة لا تخطر لهم على بال ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب مهما عظمت وكثرت إلا الشرك به قبل الموت ﴿شَكُورٌ﴾ على أعمالهم، فيجـزيهم عليها بأضعـاف ما يستحقون.

وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ
ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم
مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ
نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ
عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ
فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ
أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ
فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ
غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

٤٣٨

(٣١) ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، إنه ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب التي نزلت قبل القرآن من صحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل والزبور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي بجميع أحوال عباده في الأرض والسماء خبير بهم بصير بما ظهر وبطن من أعمالهم، كيف لا!!! وهو الذي خلقهم وخلق أعمالهم!!!؟

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي هذا القرآن ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي هذه الأمة، فقد أورثها هذا القرآن من بعد نبيها لتعطيه حقه من الفهم والعلم والدعوة إليه في الآفاق، وخاصة العلماء ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو المفرط يفعل بعض الواجبات ويرتكب بعض المحرمات ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وفي الحديث: «كلهم من هذه الأمة، وكلهم في الجنة» [٦٧٦]. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي الذي لا يُقادر قدره.

(٣٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي الأصناف الثلاثة يدخلونها يوم القدوم على الله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كما في الحديث: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» [٦٧٧]. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وفي الحديث: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» [٦٧٨].

(٣٤) ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أي حمدوا الله تعالى على النعيم الذي أنزلهم فيه وأذهب عنهم أحزان الدنيا وما فيها من خوف وهمٍّ وحزن فقد أذهب الله عنهم في الجنة هذا الحزن والهم والغم، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي يغفر للعاصي ويشكر للمطيع.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي جعلنا نحلُّ دار الجنة نقيم فيها أبدًا بأكثر مما نستحق، بل إنه عاملنا بالفضل والإحسان والرحمة والمنة كما ثبت في الصحيح: «لن يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل» [٦٧٩]. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء لا على أبدانهم ولا على أرواحهم وصاروا في راحة دائمة.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي جزاؤهم نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ وفي الحديث: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون» [٦٨٠]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أي لا إلى ذلك من سبيل ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل من هو مبالغ في الكفر معاند مكذب بالحق الذي نزل من الله سبحانه.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يجأرون وينادون في النار ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا متحسِّرين على ما فرَّطوا فيها فأجابهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي ألم نطل عمركم عمرًا يتمكن من أراد التذكر فيه أن يتذكر؟ وقيل: هو ستون سنة ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي محمد ﷺ، وقيل: الشيب: ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي من ينقذكم ويدفع العذاب عنكم، لأنكم لم تعتبروا حين أنذركم الأنبياء ونصحوا لكم فرميتم كلامهم وراءكم ظهريًا فذوقوا العذاب بما عملتم.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي غيب ما فيهما، وما تخفي السرائر ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي ما تخفي وما تعلن، ولا يخفى على الله من شيء.

فليسع المسلم جاهداً حتى يكون سابقاً للخيرات

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا
يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ
أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ
إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ
جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ
وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا
﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ
فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٤٣٩

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعل الأمم يخلف بعضها بعضًا خلفًا بعد خلف وقرنًا بعد قرن، ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: فمن كفر نعمة الله عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب والدعوة إلى الحق فعليه وبال كفره لا يتعدَّاه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي إن الكافر ممقوت عند ربه وكلما ازداد كفرًا ازداد مقتًا وبغضًا من ربه ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا يزيدهم إلا نقصًا وهلاكًا.

﴿٤٠﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أخبروني عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله الذي خلق كل شيء ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أروني أيَّ خلق خلقوه من الأرض حتى تعبدوهم؟ علمًا بأنهم مملوكون مربوبون لا يملكون شيئًا حتى ولا القطمير ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ﴾ أي أم لهم شركة مع الله في خلقها أو ملكها أو التصرف بها حتى يكون لهم حق في الشركة في العبادة. أم أنزل عليهم كتابًا من السماء فيه حجة من الله على صحة عبادة الشركاء؟ ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي إن الحقيقة التي هم عليها: أن الظالمين المشركين يعد بعضهم بعضًا تسويلًا وتزيينًا من قبل شياطين الإنس والجن ليروهم الحق باطلًا والباطل حقًا.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي لئلا يعتريها الاضطراب والزوال ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي بإمهال المذنبين فوسعهم حلمه ومغفرته وكرمه تعالى أملًا بالرجوع إلى الحق الأبلج.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي اجتهدوا فيه بالأيمان المغلظة ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي نبي رسول ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ وهؤلاء المقسمون هم قريش والعرب أي أهدى من اليهود والنصارى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي فلما جاءهم النذير محمد صلوات الله وسلامه عليه لم يؤمنوا به وإنهم ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ منه ومما جاءهم به من الحق فما كانوا كما تمنَّوا أهدى من أهل الكتاب، ونقضوا أيمانهم.

﴿٤٣﴾ ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي علوًّا فيها وتكبرًا عن اتباع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ خداعًا وصدُّوا الناس عن سبيل الله بمكرهم وخداعهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي ولا يحيط هذا المكر ولا عاقبة السوء إلا بأهله المسيئين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي قريش والعرب ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني هل ينتظرون إلا سنة الله في خلقه الذين يحيدون عن الصراط المستقيم من الأمم السالفة فينزل بهم مثلما نزل بأولئك الذين كفروا قبلهم ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي أجراها في الأمم قبلهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي بأن يحول ما يستحقون من العذاب إلى غيرهم، أي لا تبديل ولا تحويل لسنة الله تعالى، بل سينزل بهم ما نزل بالمكذبين قبلهم لتشابههم في الجريمة.

﴿٤٤﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا حضٌّ من الله تعالى على السير في مختلف بقاع الأرض بقلوب واعية متعظة ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ممن كذبوا الرسل ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في إعمار الأرض وأكثر منهم أموالًا وأولادًا أي من كفار العرب إذ ذاك ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إن الله تعالى رغم ما كان عند تلك الأمم السابقة من القوة التي تفوق بأضعاف قوة المشركين من قريش وعرب الجزيرة عامة؛ ومع ذلك ما كانت تلك الأمم الخالية لتعجز الله، بل دمرها واستأصلها لأنها كفرت بالله ورسله. والذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض لن يعجزه أن يفعل بقريش ما فعل بتلك الأمم الكافرة السابقة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي كان عليمًا بكل الكائنات وقادرًا عليها جميعًا فلتخش إذًا قريش أن يبطش بها إن كفرت به وبما أنزل على رسوله ﷺ.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي لو أنه سبحانه وتعالى حاسب الناس على جميع ذنوبهم وخطاياهم وعاقبهم عليها ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي على ظهر الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي لاستوعبت العقوبة أهل الأرض جميعًا وما فيها من الدواب والحيوانات ولما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب فيها ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي حان ذلك الموعد المسمى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي بما عملوا في دنياهم من خير أو شر فيثيب أو يعاقب كلًّا بما يستحق، ولكن يمهلهم ولا يهملهم لعلهم يعودون إلى الحق ويؤوبون إلى الصواب ويسيرون في الطريق المؤدية إلى رضا الله سبحانه وتعالى.

آخر تفسير سورة فاطر ولله الحمد والمنّة والفضل
وهو الموفق وعليه التكلان

(٣٦) سُورَةُ يس

مكية إلا آية ٤٥ فمدنية، وآياتها ٨٣، نزلت بعد الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿يس﴾ قد تقدم الكلام على الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة فليرجع إليها من شاء، وعلى كل فإن ﴿يس﴾ ليس اسمًا من أسماء رسول الله ﷺ وما علينا من المتنطعين.

﴿٢﴾ ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ أي يقسم الله تعالى بكلامه العظيم الحكيم المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بلا شكٍ ولا ريب وهذا رد من الله تعالى على من أنكر رسالة محمد ﷺ من الكفار بقولهم ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

﴿٤﴾ ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على منهج قويم ودين سليم وشرع مستقيم.

﴿٥﴾ ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي أنزله الله العزيز الذي حماه بعزته عن التبديل والتغيير، والرحيم الذي رحم به عباده وأنقذهم من الضلال إلى الهدى.

﴿٦﴾ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي إنهم كانوا على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى عهد عمرو بن لحي الخزاعي الذي أجبر العرب على الشرك وعبادة الأصنام ولم يكن من فاصل بينه وبين رسالة محمد ﷺ أكثر من (٤٠٠) سنة كان يتخللها من يرشدهم إلى دين إبراهيم الذي غيَّروه وبدَّلوه أمثال زيد بن عمرو بن نفيل، وقس ابن ساعدة الإيادي، وورقة بن نوفل وسواهم كثيرون وكان يقال لهم الحنفاء، يحفظون دين إبراهيم ويلفتون أنظار العرب إلى العودة إلى دينه القويم ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي عن الحق الذي كانوا عليه زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا
أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ
عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٤٠

﴿٧﴾ ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي علم الله تعالى أنهم ستعرض عليهم الدعوة إلى الله وسيختارون الكفر على الإيمان فكتبه عليهم وقدره.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ أي لما علمنا ماذا سيختارون فجعلنا حالهم كحال من جعلت الأغلال في أعناقهم ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ مشدودو الرؤوس.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي غطينا أبصارهم عن الحق جزاء إعراضهم عنه ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي أبلغتهم رسالة الله أم لم تبلغهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يمكن أن يؤمنوا ولا يفيدهم الإنذار، جزاءً وفاقًا.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي اتبع القرآن وأعمل عقله ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي من حيث لا يراه أحد إلا الله ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ جزاء عمله.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي نبعثهم يوم الحساب ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ أي في الدنيا من الأعمال خيرًا كانت أو شرًا ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ
الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن
لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن
يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

٤٤١

(١٣) ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ قيل إنها بلدة أنطاكية ولم يثبت ذلك ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين أرسل إليها المرسلون.

(١٤) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي ابتدروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي برسول ثالث وشددنا أزرهما به ﴿فَقَالُوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي إن الله تعالى أرسلنا إليكم لكي نعلمكم التوحيد فتعبدوه وحده لا شريك له من خلقه.

(١٥) ﴿قَالُوا﴾ أي أهل القرية ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي فأي مزية لكم علينا تختصون بها دوننا فتكونون بها أنبياء ورسلًا؟! وهذه شبهة أكثر المكذبين فقد استعجبوا جدًا أن يكون الأنبياء بشرًا ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ من عنده ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ على الله.

(١٦) ﴿قَالُوا﴾ أي الرسل الثلاثة: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي إن الذي أرسلنا تكفينا شهادته بأننا لمرسلون إليكم بالحق.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي ما يجب علينا من قبل ربنا إلا أن نقوم بما أمرنا به من إبلاغكم رسالته واضحةً بينةً.

(١٨) ﴿قَالُوا﴾ أي أهل القرية ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا منكم فإن أصابنا شرٌّ فمن شؤمكم ونحسكم!!! ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن دعوتكم هذه إلينا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يا سبحان الله الرسل يدعونهم إلى الخير كل الخير وهم أبوا إلا أن يُردوا أنفسهم في قرار الجحيم. والعذاب الأليم: التعذيب والشتم والسب والقتل.

(١٩) ﴿قَالُوا﴾ أي الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم معكم بكفركم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ من أجل أن ذكَّرناكم بالحق ودعوناكم إليه تقابلوننا بالتهديد والوعيد؟ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي في كفركم ومعاصيكم ولا تريدون أن تحيدوا عنها وليس تشاؤمكم منا هو الباعث على إنكاركم وجحودكم الحق ومجاوزتكم الحدّ في مخالفته!!!

(٢٠) ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وكان هذا الرجل قد آمن بالرسل وكان منزله في طرف المدينة التي يسكنها هؤلاء، وجاء منتصرًا للرسل وينصح قومه ليؤمنوا بهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ فإنهم يدعون إلى الحق فلا تكذبوهم.

(٢١) ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي اتبعوا من لا يسألونكم على تبليغ رسالة الله أجرًا، إنهم لا يريدون الأجر إلا من الله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي إلى ما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له؛ فكأنهم قالوا له: لعلك آمنت بهم وصدقتهم واتبعتهم على دينهم قال:

(٢٢) ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي وما يمنعني من الإيمان بهم؟ ولماذا لا أعبد الذي خلقني وخلقكم وخلق كل شيء؟ فأي شيء يحول بيني وبين الإيمان به؟ بل وما يمنعكم أنتم من الإيمان به؟ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي سوف تحشرون إليه بعد موتكم ويحاسبكم على كفركم به وبأنبيائه ورسله وعلى رفض دعوة الحق التي يدعونكم إليها الرسل.

(٢٣) ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي معبودين سواه ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ ما ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا تنفعني بشيء ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي من عذاب الله.

(٢٤) ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي لئن اتخذت من دونه آلهة فإني إذًا أكون قد ضللت طريق الحق والصواب ضلالًا ظاهرًا بينًا.

(٢٥) ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وربي وربُّ كلِّ شيء وصدقتُ الرسل ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا جوابي وكلامي أعلنه لكم، فقتلوه لأنه آمن!!!

(٢٦) ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي كافأه الله على إيمانه بالجنة ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ أي نصح قومه في حياته بقوله ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته...

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي وبعد مماته تمنى أن يعلم قومه خاتمة من يؤمن بالله، وما يكرمه تعالى به من المغفرة حتى يؤمنوا فيغفر الله لهم.

۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ
﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي
خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

٤٤٢

(٢٨) ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي لما وقع بين صاحب يس وقومه الذين قتلوه لإيمانه بالرسل ثأر الله له لا بإرسال جند من السماء لقتالهم لأن قضاءه وقدره سبق بإهلاكهم بالصيحة ولا ينبغي إرسال جند من السماء لأن شأنهم دون ذلك.

(٢٩) ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي أرسل الله عليهم جبريل عليه السلام فصاح بهم صيحةً أخمدتهم ولم تبق منهم أحدًا.

(٣٠) ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي ما أعظم ندامتهم يوم القيامة ويا حسرتهم على أنفسهم إذ ذاك ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي إلا كانوا يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق. وإنهم لم يعتبروا بما حدث للأمم السالفة ولم يتعظوا بما آل إليه حالهم.

(٣١) ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي من الأمم الخالية والقرون الماضية المكذبة لرسلها ماذا فعلنا بها من الهلاك والدمار ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بعد أن ماتوا، وهذا تكذيب من الله للذين يقولون بالرجعة، وعودتهم إلى الدنيا ثانية، فذكرهم بمن خلا من قبلهم من تلك الأمم الهالكة، هل عاد أحدٌ منهم؟

(٣٢) ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي وإن كل الخلائق إلا سيحضرون جميعًا للحساب بين يدي الله ويجازيهم بما يستحقون.

(٣٣) ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالنبات بعد أن كانت ميتة بالجدب ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي وأخرجنا الحبوب التي كانت مبذورة، بواسطة إنزال الماء من السماء فصارت غذاءً أساسيًا يأكلون منه.

(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ وهذا من نعمه وفضله تعالى أن جعل بواسطة الأمطار بساتين من نخيل وأعناب وتفجرت العيون من الأرض من الأمطار التي نزلت من السماء لمّا وجدت منفذًا لها، وذلك بقدرة الله تعالى الذي خلق كل شيء وقدّره تقديرًا.

(٣٥) ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي من أجل أن يأكلوا من ثمرات هذه البساتين ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما غرسته وزرعته أيديهم ولكن ليس هم الذين أخرجوا هذه الثمار والزروع إنما الله هو الذي أخرجها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي أفلا يشكرون الله على ما أنعم عليهم من النعم التي لا تعدُّ ولا تحصى، وما الشكر إلا بالإيمان والطاعة له فيما أمر والانتهاء عما نهى.

(٣٦) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي تقدس وتنزه عن الشريك فهو وحده خلق أنواع الفواكه والحبوب ﴿وَ﴾ كذلك خلق: ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ذكرًا وأنثى فتوالدوا ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي من أصناف أخرى في البر والبحر والسماء والأرض لا يعلمونها بل نحن نعلمها.

(٣٧) ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ أي دلالة لهم أخرى على وجود الصانع وقدرته ووجوب العبادة له سبحانه ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي أخرجنا الليل من النهار فذهب النهار وأقبل الليل فإذا الظلام يخيّم على الأرض التي انسلخ النهار عنها فإذا أهلها مظلمون.

(٣٨) ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وهذا دليل قاطع بأن الشمس ليست ثابتة بل إنها تجري ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي لمستقرها المكاني: وهو تحت العرش ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجريان والاستقرار ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي بتقدير العزيز الذي لا يغلبه غالب والعليم الذي لا يخفى عليه شيء في ملكه.

(٣٩) ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أي من حيث مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ ثمانية وعشرين منزلًا ثم يستتر ليلة أو ليلتين ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ في أول الشهر ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وهو عذق التمر إذا يبس وانحنى متقوسًا.

(٤٠) ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي لكل من الشمس والقمر مدارٌ واحد لا يتعداه ولا يقصر عنه ولا يجتمعان في الليل ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي لا فترة بين الليل والنهار بل كل منها يعقب الآخر ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر والكواكب له فلك خاص يسير فيه أي سابحًا في هذا الفضاء العظيم.

لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت، دلائل قطعية على وجوده تعالى ووحدانيته

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا
لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
(٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
(٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
(٥١) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

(٤١) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي ودلالة لهم على قدرته تسخيره تعالى البحر ليحمل السفن، والذرية تقع على الآباء والأبناء، وأوَّل سفينة سفينة نوح عليه السلام التي حمل الله فيها آباءهم الذين تحدَّروا من أصلابهم فكانوا سببًا لوجودهم امتنانًا منه تعالى عليهم.

(٤٢) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونها كالإبل في البر مثل السفن في البحر أو السيارات والطائرات.

(٤٣) ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ وهذا من تمام الآية التي امتنَّ الله بها عليهم أي أنه لم يغرقهم مع قدرته على ذلك، ولو يشاء لأغرقهم ولا يجدون لهم مغيثًا ينقذهم من الغرق؛ لأنه لا صريخ ولا مغيث ولا منقذ إلا هو سبحانه وله المنة والفضل والحمد.

(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي إلا برحمة من الله جل وعلا ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي تمتعًا في هذه الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

(٤٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي من الذنوب المكفرة فيجازيكم عليها في الدنيا بالنوازل والمصائب ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي من عذاب الآخرة المؤبد في قرار الجحيم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي يرحمكم إذا اتقيتم فيغفر ذنوبكم ويبدل سيئاتكم حسنات ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار

(٤٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: آية آية من آيات الله المنزلة على رسله عندما يرونها أو تتلى عليهم يعرضون عنها منكرين إياها مهما كانت آية تنزيلية، أو آية تكوينية، تدل على صدقه ﷺ وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد والدين الخالص.

(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قال لهم المؤمنون: تقربوا إلى الله بشيء مما رزقكم من الأموال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي لو يشاء الله رزقه وأطعمه، فقد كانوا يسمعون من المسلمين قولهم: إن الرزاق هو الله تعالى، فقال الكفار: نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله، مع أن الله قد أمر الغني أن يطعم الفقير فلم لا يطيعون أمر الله؟ ويحتجون بمشيئة الله التي منها أن يجعل طعام الفقير من مال الغني فلم لا يوافقون مشيئته من هذه الناحية؟ ثم يقولون للمؤمنين ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنكم في سؤالنا المال للفقراء في ضلال ظاهر واضح.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي متى يتحقق وعدكم لنا بحلول يوم القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي فيما تزعمون من حلول يوم القيامة.

(٤٩) ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ أي ما ينتظرون إلا نفخة من نفخات إسرافيل في الصور تأخذهم بالفزع ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي وهم يختصمون في معايشهم وأسواقهم على عادتهم.

(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي لا يستطيع أن يوصي أحد أحدًا بشيء لمفاجأتهم بيوم القيامة ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى منازلهم.

(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي فإذا هم يقومون من قبورهم يسرعون إلى ربهم للحساب.

(٥٢) ﴿قَالُواْ﴾ أي الكفار منكرو البعث ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي من بعثنا من قبورنا بعد موتنا متعجبين، وقيل: إن العذاب يرتفع بين النفخة الأولى والثانية فيرون أنفسهم كأنهم راقدون، فتجيبهم الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي هذا ما وعدكم الله به ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ببلاغهم.

(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي النفخة الثالثة في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي فإذا جميع الخلائق حاضرون أمامنا لمحاسبتهم.

(٥٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي يحاسبها الله بالحق والعدل، فإذا كانت النفوس مؤمنة أعطاها الله ما تستحق وزيادة في جنات النعيم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإن كانت كافرة لا يزاد عليهم من العذاب أكثر مما يستحقون؛ ولذا قال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهكذا عدل الله الذي لا يماثله فيه أحد.

المؤمنون ينعمون بما يستحقون وزيادة، والكفار يعذبون بما يستحقون فقط

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ
فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ
أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا
تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ
أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ
﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

٤٤٤

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ بما هم فيه من اللذات وفي شغل عن غيرهم بما أنعم الله عليهم من النعيم المقيم والفوز العظيم.

(٥٦) ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ أي أزواجهم في الدنيا ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ أي في ظلال الجنة من أشجارها وأكنان قصورها ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ والأرائك جمع أريكة والمراد بها السرر في الحجال، والحجال: جمع حجلة وهي موضع يزين بالثياب والستور للعروس، والأريكة لا تكون إلا سريرًا في قبة.

(٥٧) ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفاكهة ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي فيها كل ما يطلبون من جميع الملاذ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]» متفق عليه [٦٨١]. وقيل في معنى ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي كل ما يتمنونه فهو لهم.

(٥٨) ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي لهم كل ما يتمنون من سلام الله عليهم وهذا مُنى أهل الجنة، يقول لهم: سلام عليكم هو في معنى التحية وهو كذلك في معنى السلامة وهذا السلام من ربٍّ رحيم بعباده الذين حباهم بهذه الخاتمة الطيبة الحسنة. اللهم أحسن خاتمتنا وتولَّنا بفضلك العميم يا رب العالمين.

(٥٩) ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي انخذلوا أيها الكافرون عن المؤمنين وافترقوا عنهم فإن لكلٍ طريقًا يسير إليه، فيتفرقون عنهم ويقذفون في النار ثم يوبخهم الله ويقرعهم:

(٦٠) ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي ألـم أوصـكم وأحـذركم ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي لا تطيعوه فيما يأمركم به، والطاعة في غير أمر الله عبادة لمن أطيع، والطاعة لله تعالى عبادة له سبحانه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إنه عدو لكم عداوةً ظاهرة جلية بينة وإنكم تعلمونها جيدًا!!!!

(٦١) ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ وحـدي وأخـلصوا لي الدين وأطيعوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي إن طاعتي والإخلاص لي هو الصراط المستقيم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي خلقًا كثيرًا وشاهدتم إضلاله لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلم يَقُدْكم العقل إلى أن تتعظوا بمن أضلهم فلا تسلموا قيادكم له وتطيعوه بما يأمركم به.

(٦٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي طالما أطعتموه وكنت قد حذرتكم بأني سأدخلكم النار إن أطعتموه فهذه جهنم فادخلوها.

(٦٤) ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي قاسوا حرها اليوم بسبب ما كنتم تكفرون بالله ورسله في الدنيا فذوقوا عذاب الآخرة.

(٦٥) ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يكون هذا يوم القيامة بعد أن أنكروا أنهم كانوا كافرين أو مشركين في الدنيا فيختم الله على أفواههم فلا تتكلم ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي يعملون.

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي لتركناهم عميًا لا يبصرون طريق الهدى ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي بادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد أعميناهم.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لأهلكناهم في منـازلهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أي تـقـدمـًا ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا تأخرًا.

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي من نطل عمره نغير خلقه إلى العجز بعد النشاط ونبدل شبابه هرمًا ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا يلمسونه بعقولهم.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أي ما علَّمنا النبيَّ الشِّعر ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي لا يليق به ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي وما الذي يتلوه عليكم إلا موعظة وكتاب من الله عظيم واضح.

(٧٠) ﴿لِّيُنذِرَ﴾ هذا القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ وهذا نصٌّ بأنه ليس للأموات ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على المصرِّين على الكفر.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
(٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)
فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

(٧١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ أي ألم ير الكفار الجاحدون أنا صنعنا لهم مما أبدعت أيدينا أنعامًا، واليد لله صفة له تعالى معلومة الحقيقة، مجهولة الكيفية، ولا نقول: يده قدرته، ولا يده نعمته، بل نقول: يده صفة له لا تشبه أيدي المخلوقين، يد تليق بجلاله وعظمته ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي الملك في الأصل هو لله تعالى، ولكن ملكية الخلق لها إنما هي ملكية مؤقتة بمعنى أنها ذليلة لهم ولا تمتنع منهم.

(٧٢) ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي جعلناها طائعة لهم في كل ما يستخدمونها ويسخرونها في جميع أغراضهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي فمنها مركوبهم الذي يركبون في الأسفار وما يحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات، ومنها ما يأكلون هم وعيالهم وأضيافهم.

(٧٣) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لهم منافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، ولهم ما يشربون من ألبانها أفلا تدعوهم هذه النعم الجمة إلى شكر الله بطاعته واتباع ما أنزل من التوحيد والأحكام والعبر.

(٧٤) ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي ومع كل هذه النعم الجزيلة الوفيرة التي غمرهم بها كفروه وما شكروه واتخذوا من دونه تعالى آلهة يعبدونها ويستنصرونها ويؤملون بها ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لعلهم ينتصرون بها وتقربهم إلى الله.

(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي إن الله سبحانه يبين بطلان ما أمّلوه من استطاعة نصرهم، فلا تقدر هذه الآلهة المزيفة على نصر عابديها بل ولا على نصر نفسها إن أراد بها أحد سوءًا ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي وإن هذه الآلهة التي زعم عابدوها أنها لهم جند للدفاع عنهم إذا بهم وأصنامهم محضرون في النار معهم فلا استطاعت نصرهم ولا نصرت أنفسها.

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله تعالى ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي نحن نعلم جميع ما يبطنون وما يفعلونه علانية وإن علمه هذا يستلزم مجازاتهم بما يستحقون من العذاب الأبدي الذي لا ينتهي.

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من مني مهين ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي شديد الخصومة لله تعالى لأنه أنكر البعث فياله من معاند!!! أولم يستدل ببدء الخلق على الإعادة.

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي ونسي أول ما خلقه الله من مني ثم ضرب مثلًا، وهو أُبيّ بن خلف؛ الذي جاء رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتّه ويذروه في الهواء ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وفي الحديث أنه قال له: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» [٦٨٢].

(٧٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد له: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هذه العظام الرفاتُ التي تعجب من إحيائها مرة ثانية يحييها الذي تقر أنت بأنه خلقها أول مرة من العدم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم كل ذرة أين مستقرها.

(٨٠) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي وهو الذي بدأ خلق الشجر من ماء حتى صار أخضر ذا ثمر يانع إلى أن صار حطبًا يابسًا توقد به النار.

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي ذكر الله ما هو أعظم من خلق الإنسان وهو خلق السماوات والأرض؛ فالذي خلقها ألا يستطيع بعثَ الإنسان؟ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي نعم يستطيع بعثهم كيف لا؟؟ وهو خلاق كل شيء.

(٨٢) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ تعالى ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي أراد خلق شيء من الأشياء ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يمتنع عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي يملك كل شيء من المخلوقات جميعًا، ويده صفة له حقيقية بلا كيف ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بعد الموت كما كنتم ويسوق الكافرين بقدرته إلى النار.

آخر تفسير سورة يس والحمد لله والمنّة

(٣٧) سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية وآياتها ١٨٢، نزلت بعد الأنعام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾
إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ
ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا
مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ
ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا
أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ
وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ
﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ
﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا
يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾
۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾

٤٤٦

(١) ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ هي الملائكة. وفي الحديث: «ألا تصفُّون كما تصُفُّ الملائكة عند ربهم»؟ قلنا: وكيف تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال: «يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف» [٦٨٣].

(٢) ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ أي هي الملائكة تسوق السحاب سوقًا إلى حيث يأمر الله.

(٣) ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أي هي الملائكة تنزل بالوحي على من يشاء الله من عباده من الأنبياء والمرسلين وتتلوه عليهم. وقسم الله بمخلوقاته يدل على تعظيمها.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ أي يقسم الله بملائكته المكرمين ليؤكد لعباده أن الإله الذي يجب أن يعبدوه وحده هو الله وحده لا شريك له

(٥) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ أي رب مشرق كل كوكب ومغربه واكتفى سبحانه بذكر المشارق؛ لدلالتها على المغارب وهو رب الجميع.

(٦) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ أي: جعلناه مزينة بما خلقنا في فضائها من الكواكب التي هي زينة للناظرين.

(٧) ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ أي وحفظناها حفظًا من كل شيطان متمرد عنيد جبار محاولًا استراق السمع.

(٨) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ لئلّا يتسمعوا إلى كلام الملأ الأعلى أي الملائكة ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ بالشهب المحرقة من كل جهة إن حاولوا استراق السمع.

(٩) ﴿دُحُورٗا﴾ أي يقذفونهم بكل ما يدحرهم عن السماء ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ أي لهم عذاب شديد دائم في الآخرة.

(١٠) ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ أي اختلسها بسرعة ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ أي نافذ إلى مقاتله يحرقه ويخمد أنفاسه.

(١١) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أي فاسألهم ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أي أعظم خلقةً، وأمتن بنية ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ أي من السماوات والأرض وما بينهما؟ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ أي من طين لزج، والمعنى: أن من خلقنا قبلكم كانوا أقوى منكم ومع ذلك فقد أهلكناهم لما تكبروا، فاجتنبوا نهاية من هم أقوى منكم.

(١٢) ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ أي ودع يا محمد ما مضى من الكلام فإنك عجبت من الكفار إذ لم يؤمنوا، وكفروا بالبعث، ويسخرون مما أنزل إليك وما أرسلت به، وهو الحق الذي ما بعده إلا الضلال.

(١٣) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ﴾ أي لا يتعظون بما يذكرهم به من الحق.

(١٤) ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ﴾ أي حجة أقيمت عليهم ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ أي يستهزئون بتلك الحجة الدامغة ويسخرون منها!!

(١٥) ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ وقالوا في الحجة إنها سحر ظاهر بين يريد بها أن يرجعنا عما نحن عليه من دين آبائنا!

(١٦) ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ من قبورنا!؟

(١٧) ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أي وآباؤنا سيبعثون أيضًا!؟

(١٨) ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهم ﴿نَعَمۡ﴾ أي ستبعثون حتمًا ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ أي أذلاء.

(١٩) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي دعوة واحدة ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي إلى أهوال يوم القيامة وإلى ما كانوا به يكذبون.

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي فصاروا يلومون أنفسهم لما رأوا يوم القيامة حقًا.

(٢١) ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي فصل القضاء بين العباد إما للجنة أو للنار ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي في الدنيا؛ فقاسُوا عذاب يوم الآخرة.

(٢٢) ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي أشباههم وأمثالهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدونهم ويسوُّونهم برب العالمين.

(٢٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ما كانوا يعبدونهم من دون الله برضاهم ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق الجحيم الخالدة.

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ أي احبسوهم إنهم محاسبون عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا، هم والذين دعوهم لعبادتهم.

كل داعٍ سيوقف يوم القيامة مع من استجابوا إليه...

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ
﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

(٢٥) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي لم لا ينصر بعضكم بعضًا كما كنتم في الدنيا؟ وهذا توبيخٌ لهم وتقريعٌ وتهكُّم، ثم أضرب سبحانه عما تقدم إلى حالهم في الآخرة.

(٢٦) ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون لأمر الله، خاضعون له لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، بل استسلموا لعذاب النار فلم ينطقوا.

(٢٧) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبل المستضعفون على الكبراء يتلاومون ويتخاصمون في قرار السعير ودركات الجحيم.

(٢٨) ﴿قَالُوا﴾ أي المستضعفون لكبرائهم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي كنتم تأتوننا بطريق القوة والإجبار في تحبيذ الكفر على الإيمان.

(٢٩) ﴿قَالُوا﴾ أي الكبراء والرؤساء للمستضعفين ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قط حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر بل كنتم من الأصل على الكفر.

(٣٠) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي من تسلط بقهر وغلبة وحجة ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي عن الحق فتركتموه إلى الباطل واستجبتم لنا.

(٣١) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أي علينا وعليكم ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ أي كقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥]، أي إنا جميعًا لذائقو العذاب الذي ورد به هذا الوعيد، أي المضلّ والضال في النار.

(٣٢) ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي دعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي كما كانوا مشتركين في الغواية فهم مشتركون يوم القيامة في العذاب أي جميعهم في النار كلٌّ بحسبه.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي هكذا نفعل بالمشركين أي نجعلهم في النار جميعًا ليذوقوا وبال ما كانوا يعملون في الدنيا.

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي إذا قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قولها والقبول بها؛ ولهذا عُذِّبوا.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المشركون ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أي أنترك عبادة آلهتنا من أجل دعوة محمد الشاعر المجنون! وحاشا الرسول العظيم من ذلك؛ ولكن الله ردَّ عليهم تكذيبًا لهم:

(٣٧) ﴿بَلْ جَاءَ﴾ محمد رسولنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي ما بعده إلا الضلال ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي جاء بتصديق المرسلين الذين سبقوه.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا أيها المشركون المكذِّبون ﴿لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بسبب تكذيبكم رسولي وما جاء به من الحق من عند ربه.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فهؤلاء مستثنون من العذاب.

(٤١) ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ في الجنة ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ يأتيهم بكرة وعشيًا.

(٤٢) ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي وخصص الفواكه بالذكر لأنها من أتباع سائر الأطعمة فذكرها يغني عن ذكر غيرها، ولهم من الله عز وجل إكرام لا يقادر قدره، من الرؤية إلى رفع الدرجة والرفاه والنعيم الذي لا يحول ولا يزول.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي كل هذا الإكرام يكون في دار النعيم.

(٤٤) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي مقابلة من لا يرى بعضهم أقفية بعض.

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي يتردد الولدان عليهم بكؤوس الخمرة التي تخالف خمرة الدنيا، تجري كما تجري العيون على وجه الأرض.

(٤٦) ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي ذات لون أبيض وطعم لذيذ جدًا أشد بياضًا من اللبن وأحلى مذاقًا من العسل لذة جدًا للشاربين.

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا سكر فيها كخمرة الدنيا تغتال العقل وتفقده صوابه ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي لا يسكرون فيخلطون ولا هم عنها يصرفون.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ أي عفيفات نقيات حسان.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي المصون أي أنهنّ عذارى لم يمْسَسْهُنَّ أحد.

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبل أهل الجنة بعضهم على بعض يتساءلون – حال شربهم – عما كانوا يعانون في الدنيا في سبيل الله.

(٥١) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي صاحب ملازم في الدنيا، كافر بالبعث منكر له؛ يحاول أن يطغيني في ديني، ويردّني عنه.

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٤٤٨

تحاور مؤمن في الجنة وكافر في النار، ما آمن مع نوح إلا قليل برغم طول المدة

(٥٢) ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي هل تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء!!؟ وذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد!!!

(٥٣) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مجزيُّون بأعمالنا خيرًا أو شرًّا ومحاسبون بها بعد أن نصبح ترابًا وعظامًا!!!؟

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ أي المؤمن لجلسائه في الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي هل أنتم مشرفون عليه في جهنم وهل تنظرونه كيف حاله؟

(٥٥) ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ أي المؤمن إلى جهنم من كوى في الجنة يرى منها أهل النار ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي رأى قرينه الكافر في وسط جهنم.

(٥٦) ﴿قَالَ﴾ المؤمن لقرينه الكافر وهو في النار ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي لتهلكني بالإغواء، فانزل منزلتك التي أنت فيها في النار.

(٥٧) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ أي ولولا فضل الله علي ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي لكنت محضرًا معك في العذاب، ولكنه تعالى تفضَّل فهداني.

(٥٨) ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وهذا كلام المؤمن مغتبطًا بما أعطاه الله من الخلد في الجنة، أي يقول: نحن مخلدون بلا موت.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي التي كانت في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي وتفضل علينا الله فأنقذنا من عذاب النار.

(٦٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي الذي لا يقادر قدره.

(٦١) ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ وهذا من كلام الله تعالى، أي يقول سبحانه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز العظيم فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إلى هذا الفوز بالجنة في الآخرة.

(٦٢) ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي إشارة إلى ما في نعيم الجنة أهو خير أم شجرة الزقوم في جهنم يتزقمونها؟

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي افتتن بها المشركون فقالوا: كيف تنبت في جهنم شجرة إنما هي التمر والزبد نتزقَّمه!

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي في قرار النار وأغصانها ترفع إلى دركاتها وهي أخبث شجرة.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي ثمرها وما تحمله كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره كرؤوس الشياطين.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي المشركون ﴿لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي لا طعام لهم في جهنم إلا ثمرة شجرة الزقوم.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي يمزجون لهم الزقوم بالحميم ليكون لهم أشدَّ عذابًا، وأفظع غصةً.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل إن الزقوم والحميم ضيافة تقدم لهم قبل ورودهم على النار، ثم يردون إلى ظلمات الجحيم.

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي إنما جازاهم الله بما تقدم؛ لأنهم اتبعوا ملة آبائهم بلا دليل ولا حجة.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي إنهم على آثار ما عمل آباؤهم يسرعون في تقليدهم ولا يقبلون دينًا غيره.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قد ضلَّ قبل مشركي العرب أكثر الذين سبقوهم من الأمم الماضية في تكذيب الأنبياء وما نزل عليهم.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي وإن الأمم السابقة أرسلنا إليهم أنبياء ورسلًا فدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى كل خير.

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي ما آلوا إليه من العذاب في الدنيا فانظر إلى ديارهم كيف دمَّرها الله عليهم ولهم كذلك عذاب الآخرة.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي من المخلصين من تلك الأمم، فأنجيناهم من العذاب الذي وقع بالمكذبين لإخلاصهم العبادة لله وحده لا شريك له.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي نادانا مستغيثًا بنا مما فعله قومه من الكفر والشرك ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ نحن لدعاء الداعين المخلصين وسماع تضرعهم.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي نجينا نوحًا وجميع من آمن معه من قومه من الكرب العظيم، وهو الغرق، وأغرق جميع الكافرين على الأرض، والأهل هم الذين آمنوا به من الأقرباء أو البعداء.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِنْ
شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ
﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا
بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ
فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾

٤٤٩

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أي لم تبق إلا ذريته عليه السلام وهم سام وحام ويافث وزوجاتهم وزوجة ابنه الرابع (يام) أو: (كنعان) الذي كفر فكان من المغرقين.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي في الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأنبياء وسائر الأمم يذكرونه بخير وبثناء حسن ولسان صدق، أي يقولون:

(٧٩) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي يسلّمون عليه من جميع الأمم في العالمين، وقد حماه الله من أن يذكر بسوء منهم، فكلهم ألسنة حمد له.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء الذي جزيناه نوحًا نجزي أيضًا كلَّ محسن من عبادنا بالذكر الحسن بحسب مرتبته في ذلك.

(٨١) ﴿إِنَّهُ﴾ أي نوح عليه السلام ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حق الإيمان ومخلصًا حق الإخلاص لله سبحانه وفي أعلى مقامات المحسنين.

(٨٢) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي الذين لم يؤمنوا بنوح عليه السلام فأغرقناهم جميعًا بالطوفان الذي عمَّ الأرض بأجمعها بما ومن فيها.

(٨٣) ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي وممن تابعه في أصل الدين إبراهيم عليه السلام رغم طول الزمان بينهما وقيل: ٢٦٤٠ سنة.

(٨٤) ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي سليم من الشرك.

(٨٥) ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام، والأنداد من دون الله.

(٨٦) ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تريدون أن تعبدوا مع الله آلهة من دونه وتعتقدون ألوهيتها كذبًا وإفكًا.

(٨٧) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن سيفعل بكم وقد عبدتم غيره.

(٨٨) ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي رفع رأسه إلى السماء مفكرًا بإجابتهم ومعتذرًا عن مرافقتهم في يوم عيدهم فلم يهتد إلا لما هداه الله إليه.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي لا أستطيع الخروج معكم لأني مريض.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي انصرفوا عنه وكأنهم اقتنعوا بعذره وكان مصممًا على أن يحطم أصنامهم في حال غيبتهم في عيدهم.

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي فذهب إلى أصنامهم ووجد عندها طعامًا وضعه لها قومه ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مستهزئًا متهكمًا.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ وهو يعلم أنهم لا يأكلون ولا ينطقون، وهذا في غاية الاستهزاء والتهكم بقومه الذين وضعوا لهم الطعام.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي أخذ فأسًا وحطمها جميعًا.

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي يسرعون، ولما أنكروا عليه...

(٩٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي ما تصنعونه بأيديكم!!!؟

(٩٦) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن الله خلقكم وما تصنعون، وفي الحديث: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته» [٦٨٤].

(٩٧) ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ أي حائطًا من حجارة ويركمون وراءه الحطب ويشبون فيه النار ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي في هذه النار، وهذا شأن كل من يعجز عن قرع الحجة بالحجة فيلجأ إلى العنف.

(٩٨) ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي فلما أرادوا به مكرًا ليحرقوه خذلناهم وأنقذناه وجعلنا نارهم بردًا وسلامًا عليه.

(٩٩) ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي لما يئس من قومه ولم تنفعهم المعجزات الباهرات عزم على الهجرة من ديار قومه بأمر ربه إلى فلسطين.

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي دعا ربه أن يرزقه ولدًا يكون من الصالحين يستعين به على طاعة الله سبحانه وتعالى.

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به بعد دعائه بطلب الولد، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب بـ ١٣ سنة.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي هو سعي الشباب والعقل الراشد بعد الاحتلام لا سيما عند الأنبياء ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي قال إبراهيم لإسماعيل ذلك. ورؤيا الأنبياء حق ﴿فَانْظُرْ﴾ يا إسماعيل ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي ما رأيك؟ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي[1] أطع ربك فيما أمرك ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل فلا تلكأ إبراهيم ولا تلكأ إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

(١) أي قال بلا تلكؤ.

إبراهيم يدعو أباه وقومه إلى الله، إبلاؤه بالأمر بذبح وحيده إسماعيل

فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ
صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ
﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ
ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا
عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ
عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾
إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ
ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

٤٥٠

فاز إبراهيم وإسماعيل بالاختبار وحظيا من الله بالرضا والفداء

(١٠٣) ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي استسلما لأمر الله وأطاعاه وانقادا له وفوَّضا أمرهما إلى الله وأضجع إبراهيمُ إسماعيل على جبينه.

(١٠٤) ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أي بعد أن أضجع ولده وعزم عزمًا أكيدًا على ذبح إسماعيل، وفي هذه الساعة المليئة بالصدق ناداه الله: يا إبراهيم.

(١٠٥) ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أي نفذت الأمر الذي جاءك في الرؤيا أي الحلم وصدقت مع ربك وأخلصت النية وأحسنت في القصد والعمل ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي المحسنين في عبادتنا وإطاعة أمرنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم المخلصين غاية الإخلاص.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي لهو الاختبار العظيم والامتحان الواضح الذي تبين فيه صفاء إبراهيم وكمال محبته لربه رغم أنه كان مولعًا بابنه إسماعيل ومحبًا له حبًا شديدًا، ولما كان إبراهيم خليل الرحمن وجب أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالخليل المحبوب، فأراد الله أن يصفي ودَّه له ويختبر خلَّته وهو أعلم بها؛ فأمره بذبح من زاحم حبُّه حبَّ ربِّه، فآثر حبَّ ربِّه على حبِّه.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ أي فلما حصل الصدق مع ربه، فدى الله ولده إسماعيل بكبش أبيض أقرن أعين من كباش الجنة.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي ثناءً حسنًا من جميع الأمم التي ستأتي بعده إلى يوم القيامة.

(١٠٩) ﴿سَلَٰمٌ﴾ منا أي من الله ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ومن كل مؤمن في كل صلاة في كل يوم تحية من الله مباركة إلى يوم الدين.

(١١٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما جزيناه ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لأنفسهم بحب ربهم وطاعته.

(١١١) ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حق الإيمان وفي أعلى مقاماته.

(١١٢) ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي بشـرنا إبراهيم بإسحق يولد له ويصير نبيًا من الصالحين أي حصلت هذه البشرى بعد قصة الذبح وعودته إلى بلاد كنعان بفلسطين من مكة.

(١١٣) ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بتكثير ذريتـه ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ ولده بجعلنا أكثر الأنبياء من نسله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ أي محسن لنفسه في عمله بالإيمان والتوحيد، وظالم لها بالكفر والمعاصي، وكلٌّ يؤول إلى ما يستحق.

(١١٤) ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بالنبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وإساءته لهم بقتل أبنائهم.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ والمراد بقومهما: المؤمنون منهم، والكرب العظيم: هو ما كان بنو إسرائيل فيه من المهانة والاسترقاق لفرعون.

(١١٦) ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ على فرعون وقومه ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾.

(١١٧) ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ أي البليغ البيان فيما أتى به من الحدود والأحكام وغير ذلك وهو التوراة المكرمة.

(١١٨) ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام؛ فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب.

(١١٩) ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي أبقينا بعدهما الذكر الجميل.

(١٢٠) ﴿سَلَٰمٌ﴾ من الله تعالى ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عليهما السلام.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي كما أننا جزيناهما على إخلاصهما وإيمانهما وصبرهما على الدعوة كذلك نجزي كل محسن بحسب عمله.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حق الإيمان الصادق في أعمالهم وأقوالهم وفي أعلى مقامات الصدق والإحسان.

(١٢٣) ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي إن إليـاس عليـه الصلاة والسلام نبي رسول، يقال: إنه أرسل إلى الفينيقيِّين بمدينة بعلبك.

(١٢٤) ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ أهل لبنان ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره سبحانه وتعالى وهو الذي خلقكم.

(١٢٥) ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ أي تعبدون بعلًا ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أي وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين.

(١٢٦) ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له خالقكم وخالق مَنْ قبلكم مِن آبائكم الأولين وخالق كل شيء.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم
مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
الحزب ٤٦ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي فكذبه قومه ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي سيحضرهم الله يوم القيامة للحساب والعذاب الشديد جزاء تكذيبهم إياه.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي ويستثني من العذاب من آمن منهم بالله وأخلصوا عبادتهم له، فهؤلاء لهم البشرى بما أعدَّ لهم من النعيم المقيم.

(١٢٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي تركنا لإلياس من بعده الذكر الطيب والثناء الحسن، من الأمم التي تلته، فكلهم ألسنة حمد له.

(١٣٠) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي السلام من الله تعالى على نبيه ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام. وإن قراءة (آل ياسين) صحيحة، وهي قراءة (نافع)، إنما القصد منها آل إلياس أو إلياس نفسه عليه السلام. وأما تفسيرها بآل محمد!! فهذا مِمَّا لم يثبت به قول صحيح، بل هو باطل كما بينه القرطبي في تفسيره في سورة الصافات إنما هي من بعض أوائل السور من القرآن مثل: طه، والم، وكهيعص، والر وما شابه.

(١٣١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ومثل ما جزينا نبينا إلياس كذلك نجزي كلَّ من كان محسنًا مثله في عمله؛ كلٌّ بحسب مرتبته.

(١٣٢) ﴿إِنَّهُ﴾ أي إلياس عليه السلام ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قولًا وفعلًا.

(١٣٣) ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي أرسلناه إلى مدينة سدوم وما حولها من القرى الذين كانوا يأتون الفاحشة بالرجال.

(١٣٤) ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي هو وكل من آمن به منهم.

(١٣٥) ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأته كانت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ أي من الكافرين، وقد هلكت مع الهالكين من قومها، وخرجت من أهله لكونها كافرة.

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أهلكنا ما تبقى من قومه الكافرين.

(١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ أي يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾.

(١٣٨) ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ أي تمرون عليهم في أسفاركم صباحًا ومساءً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أسباب تدميرهم فتتعظون بما نزل بهم من العذاب.

(١٣٩) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي إلى القوم الأشوريين بمدينة نينوى أي بلدة الموصل.

(١٤٠) ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي هرب من قومه الذين لم يؤمنوا بعد إنذارهم بالعذاب ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المليء بالناس.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فلما سارت السفينة وقفت في عرض البحر من ثقلها فاقترعوا على من يلقي نفسه في البحر تخفيفًا عن السفينة فوقعت القرعة على يونس فألقى نفسه.

(١٤٢) ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي مستحق للوم على تركه قومه بدون إذن ربه، فأمر الله الحوت أن يلتقمه على أن لا يكسر له عظمًا.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي فلولا قوله في بطن الحوت: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي لبقي فيه إلى يوم البعث.

(١٤٥) ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي ألقيناه إلى البر عاريًا سقيمًا.

(١٤٦) ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ أي ظلَّلناه بورقها الكثيف.

(١٤٧) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي أعيد إلى قومه رسولًا كما كان، وكانوا يعدُّون مائة ألف نسمة ويزيدون عشرين ألف نسمة.

(١٤٨) ﴿فَآمَنُوا﴾ أي عند معاينتهم العذاب الموعودين به ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ بالحياة إلى حلول آجالهم بعد أن كشفنا عنهم العذاب بعد إيمانهم أجمعين.

(١٤٩) ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي فاسأل أهل مكة منكرًا عليهم: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾ أي جعلوهن لله ﴿وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أي واختصوا بأعلى النصيبين!!؟

(١٥٠) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي هل كانوا حاضرين لما خلقتُ الملائكة إناثًا بزعمهم!! فمن أين علموا أن الملائكة إناث!؟

(١٥١) ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ أي إنهم من شدة كذبهم وافترائهم على الله ليقولون قولًا تكاد السماوات والأرض يتفطرن من قولهم:

(١٥٢) ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي إن الله ولد ولدًا وإنه الافتراء المحض بلا دليل ولا برهان ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وأشدُّ الكذب ما كان على الله.

(١٥٣) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ وهذا إنكار الله عليهم، إذ لا شيء يحمله على اختيار البنات على البنين، إنما هو الكذب والإفك والافتراء.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ
﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ
نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا
لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ
﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ
جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ
صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سورة ص

ترتيبها ٣٨ — آياتها ٨٨

٤٥٢

(١٥٤) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي كيف تحكمون لله بالبنات وهو النصيب الأدنى، ولكم بالبنين وهو النصيب الأعلى، أين ذهبتم بعقولكم!؟

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فتميزون هذا القول الباطل الجائر فإنكم لو تذكرتم لم تقولوا هذا القول الذي ليس لكم فيه حجة ولا دليل!!؟

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أي هل لكم حجة فيما تزعمون، وهل لكم دليل ظاهر بأن لله ولدًا وأن له البنات، ولكم أنتم البنون؟!

(١٥٧) ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إذا كان لكم مستند إلى كتاب منزل من قبل الله بما تقولون فهاتوه إن كنتم صادقين بدعواكم.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي قالوا إن الملائكة بنات الله وإن أمهاتهم سروات الجن ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي الذين نسب المشركون إليهم أنهم أمهات الملائكة إنهم عباد أذلاء لله، وعلموا أن هؤلاء الكفار سيحضرون إلى النار، ويعذبون فيها لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل.

(١٥٩) ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتعالى عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون والملحدون علوًا كبيرًا.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي استثنى سبحانه من الناس المخلصين الذين هم متبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل.

(١٦١) ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أنتم والذين تعبدونهم من دون الله.

(١٦٢) ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ أي لا تقدرون أن تضلوا أحدًا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم فلا تطمعوا بإضلال المخلصين.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي إلا من علم الله منه أنه سيختار الكفر فقدَّر ذلك عليه، وقدَّر أنه سيصلى النار جزاء له. ثم تبرأ الملائكة مما قيل فيهم من أنهم بنات الله كفرًا وكذبًا.

(١٦٤) ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أي قال الملائكة: ما من أحد منا إلا له موضع مخصوص في السماوات يعبد الله فيه لا يتعداه.

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ في طاعة الله وتعظيمه وعبادته.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي منزهوه تعالى عما لا يليق به من القول.

(١٦٧) ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ وهذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين أي كانوا يقولون قبل المبعث المحمدي إذا عُيِّروا بالجهل قالوا:

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي كتابًا منزلًا من كتبهم.

(١٦٩) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي نتبع ذلك الكتاب بإخلاص.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ العذاب حين يقع بهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي هي قوله:

(١٧٢) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وهذا تفسير الكلمة.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أي اصبر على أذاهم لك إلى وقت مؤجل فسننصرك عليهم وقد حصل هذا في بدر.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي وارتقب ماذا يحلُّ بهم.

(١٧٦) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي كانوا يقولون: متى هذا العذاب!؟

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي في فناء دارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي بئس ذلك الصباح صباحهم إذ فيه تأتي النقمة.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أي اصبر يا محمد فسوف يحكم الله سيفك وسيوف المؤمنين في رقابهم، وذلك إلى أجل قريب.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي من يحل به النكال والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة فإنه لا شك سيحلّ بهم حتمًا.

(١٨٠) ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله ذو العزة التي لا ترام عما يصفه المشركون وتعالى علوًا كبيرًا.

(١٨١) ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وسلام من الله على أنبيائه ورسله الذين أرسلهم إلى عباده فبلغوا رسالته حق التبليغ.

(١٨٢) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة كما ينبغي لجلاله على ما أنعم به على خلقه أجمعين.

آخر تفسير سورة الصافات ولله الحمد والمنّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ
﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم
مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

٤٥٣

(٣٨) سُورَةُ صٓ

مكية وآياتها ٨٨، نزلت بعد القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿صٓ﴾ هي من الأحرف المقطعة التي افتتح الله بها أوائل بعض السور، وقد سبق الكلام عنها في سورة البقرة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي إن الله يقسم بالقرآن المشتمل على الذكر الذي فيه بيان كل شيء، والإقسام بالقرآن تعظيم له وتنبيه على شرف قدره، وعلوِّ محله، وكلامه صفة له بلا كيف.

(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي لم يكن عدم قبول المشركين لريبٍ فيه، بل هم في عزة أي تكبر وتجبر وشقاق، أي امتناع عن قبول الحق، وهذا جواب القسم أي يقسم الله بالقرآن أن الذين كفروا في تكبر وامتناع عن قبول الحق ليس إلا، لذلك هددهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار الذين كانوا أشد منهم قوة وبأسًا؛ فقال تعالى:

(٣) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي من أمة مكذبة سالفة ﴿فَنَادَوا۟﴾ أي حين جاءهم العذاب واستغاثوا بلا جدوى ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ونادوا بالتوبة حين لا تنفع توبة.

(٤) ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي عجب الكفار المستكبرون عن اتباع القرآن حين جاءهم رسول منهم ينذرهم به بأس الله ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ بعد ما شاهدوا معجزاته ﷺ.

(٥) ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي زعم أن المعبود واحد أحد لا شريك له!!! إنه لقول عجيب.

(٦) ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي أشرافهم من مجلسهم يقولون ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي امضوا وثابروا على عبادتها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي يريد به محمد أن يستعلي عليكم ويتزعَّمكم.

(٧) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا قط بهذا الذي يدعونا إليه محمد من توحيد الآلهة في إله واحد ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي يدعونا إليه ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي من عنده.

(٨) ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي هذا القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي من دوننا مستبعدين تخصيصه به ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي عاملوا محمدًا ﷺ معاملة الشاك برسالته لإهمالهم الأدلة والمعجزات عنادًا ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي السبب أنهم اغتروا باستمهال العذاب فانصرفوا عن الحق.

(٩) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أي هل هم الذين يوزعون رحمة الله ونعمته بالنبوة حتى يعطوها من شاءوا؟! ويمنعوها عمن يشاءون، أم هذا كله لله ذي العزة والوهب؟

(١٠) ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي إن كانوا كذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ إلى العرش فيحكموا ويتملكوا.

(١١) ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي هؤلاء ما هم إلا جند مهزومون من جملة من انهزم فلا تبال بهم ولا يهمُّك أمرهم فهم مخذولون.

(١٢) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي وسيحل بكم ما حل بهم من النكال والنقم إن أصررتم على تكذيبكم.

(١٣) ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي وقوم شعيب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي كل أولئك ما أغنت عنهم كثرتهم ولا وَقَتْهُمُ العذاب.

(١٤) ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي إن كل من ذكروا كذبوا رسلهم فحق عليهم عقابي، فجعل الله علة عقابهم تكذيبهم بالرسل.

(١٥) ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي ما ينتظر مشركو العرب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي من رجوع وهي نفخة إسرافيل

(١٦) ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي نصيبنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي يستعجلون عذابهم الدنيوي قبل العذاب الأخروي.

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟
ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ
﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

٤٥٤

(١٧) ﴿ٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي من تكذيبهم لك واستهزائهم بك ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة في العبادة ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كان كثير الرجوع إلى الله تعالى والاستغفار والبكاء من خشية الله مع كثرة عبادته لله وجلده عليها وفي الحديث: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى عدوًا » [٦٨٥] وإنه كان أوابًا، أي رجاعًا إلى الحق سبحانه وتعالى في جميع أموره وسائر شؤونه ﷺ.

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي تُقدِّس الجبالُ الشامخاتُ اللهَ تعالى وينزِّهْنَهُ وتسبح تبعًا له مساءً وصباحًا.

(١٩) ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي والطير سخرناها أيضًا ويجمعها الله كي تسبح معه، فكلٌّ من داود والجبال والطير بتسبيحه رجاع إلى الله تعالى.

(٢٠) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي قويناه بالحرس والجنود، وثبتناه بالنصر على أعدائه وإلقاء الرعب في قلوبهم منه. والمراد بالحكمة: النبوة، والمعرفة بما يحكم به. وفصل الخطاب أي بالقضاء والفصل فيه بالأيمان والشهود، لأنهما بهما تنقطع الخصومة إما بالشهود أو الأيمان.

(٢١) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ والمحـراب هو تـلك الفجوة التي يسكن فيها وهي أشرف مكان في داره، وليس المحراب هو تلك الفجوة المصنوعة في جدار القبلة من كلٍّ من مساجد المسلمين فهذه بدعة دخلت عليهم من كنائس النصارى وهي ما يسمونها بالمذبح وقد نهى عنها رسول الله بقوله: «اتقوا هذه المذابح» [٦٨٦]، كما سبق بيانه أكثر من مرة، والمقصود ها هنا غرفته العالية.

(٢٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ أي دخل عليه الذين جاءوا يحتكمون إليه ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لدخولهم ليلًا عليه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي لا تجر في حكمك، وأرشدنا إلى الحق واحملنا عليه. قال أحدهما:

(٢٣) ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي تنازل لي عنها ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي غلبني في خطابه وقهرني على أن ينال مني ما يريد!!!

(٢٤) ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي الشريك المخالط بالمال ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يعتدي ويظلم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وقليل هؤلاء المؤمنون الصالحـون ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ لتسرعه بحكمه قبل سؤاله الخصم الثاني، ونذكر هنا قصة متحلة نلخصها بأن داود أراد أن يضم زوجة قائده (أوريا) إلى زوجاته فأرسله إلى الحرب ليقتل فيضمها بعد وفاته إلى زوجاته، وهذا ما لا يفعله نبيٌّ معصوم عن الدنايا وحاشاه ﷺ من ذلك مع رد العلم بالحقيقة إلى الله تعالى.

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الخطأ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي قربة وكرامة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي حسن المرجع وهو الجنة.

(٢٦) ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خليفةً لمن قبلك من الأنبياء لتحكم في قومك بما أنزل الله إليك ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل الذي يرضاه الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي فتميل مع أحدٍ لقرابة أو محبة أو بغض للآخر ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يخرجك عن الصراط المستقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يَضلون بأنفسهم ويُضلون غيرهم عن الصراط السوي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوي غليظ لا يحتمل وبخاصة للمتعمِّدين منهم ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي أنساهم ضلالهم لقاء الله وحسابه.

لا عبرة بالأمر إلا بالبيانات إذا لم تؤيد بكتاب أو سنة

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

٤٥٥

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ بل من أجل أن يفردوه بالعبادة، لا أنه خلق خلقه بلا حكمة ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن الذين يقولون إنه خلق الخلق بلا حكمة إنما هو قول الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي من عذاب النار التي تنتظرهم.

(٢٨) ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي كالذين يفسدون في الأرض بكفرهم ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي كلَّا لا يستوون.

(٢٩) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي وهذا كتاب مبارك وهو القرآن أنزلناه إليك يا محمد، وفي ذلك إشارة إلى علو الله تعالى على خلقه بذاته حقيقة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ليفقهوها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ليتعظ أهل العقول بما فيه من الحق ويطبقوه، لا لِتُقْرَأَ أحرُفُه، وتُضيَّعَ حُدودُه.

(٣٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي ابنًا نبيًّا ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وهذا مديح لسليمان من ربه، وقوله تعالى: إنه أواب، تعليل لما قبلها من المدح لأنه رجاع إليه تعالى.

(٣١) ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾ أي قبيل العصر إبان ملكه ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي الخيول السريعة، وقيل: كانت عشرين فرسًا مجنّحة.

(٣٢) ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي آثرت حب الخيل فسمى الخيل خيرًا وفي الحديث: «الخيل معقود بنواصيها الخير» [٦٨٧]، فكأنما سميت خيرًا لهذا أو لما فيها من المنافع ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي اشتغل بها فنسي أن يصلي صلاة العصر ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾.

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي قال سليمان: أعيدوا عرضها عليَّ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي صار يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًا لها، بخلاف من قال: إنه ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف، ولا ذنب لها.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي اختبرناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[1] أي تاب. وفي الحديث: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأةٍ -أو تسع وتسعين- كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله؛ فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون» [٦٨٨]. ولعل سليمان نسي أن يقولها، وإلا فإن الأنبياء أئمة المتوكلين.

(٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ أي اغفر لي ما فرطت في تفويت صلاة العصر ومن عدم قولي إن شاء الله ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي لا يكون لأحد من بعدي من البشر ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ أي إنك كثير الهبات، عظيم الموهوبات.

(٣٦) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي ذللنا الريح له وجعلناها تجري حيثما أمرها لينةً أو عاصفةً ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي أراد.

(٣٧) ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين يبنون له الصروح العظيمة ويستخرجون له من البحر اللآلئ والجواهر.

(٣٨) ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ أي من مردة الجن ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي موثوقين في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع عن العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه فلم يتقن عمله واعتدى.

(٣٩) ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الذي أعطيناكه من الملك العظيم ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي فأعط من شئت واحرم من شئت بلا حساب.

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي إن لسليمان عند الله تعالى لقربة في الآخرة، وحسن مرجع وهو الجنات العاليات.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أي عبدنا ونبينا أيوب عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي وذلك أن الشيطان كان يوسوس إليه ويعظم في عينيه ما نزل من الابتلاء بفقد صحته وماله وأهله ويغريه على الجزع فالتجأ إلى ربه.

(٤٢) ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي أجيبت دعوتك فاضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت عين ماء ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ أي هذا ماء تغتسل به ﴿وَشَرَابٌ﴾ ترتوي منه.

---

(١) راجع تعليقنا على كتابنا: «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير بن كثير» (ص٣٢)، الآية: ٣٨، من الجزء الرابع ففيه قول لابن كثير فاطلع عليه.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ
نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى
ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ
إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ
﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾
۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ
لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

٤٥٦

(٤٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي وبعد أن اغتسل من الماء الذي نبع وشرب منه أذْهَبَ عنه ما فيه من المرض فجزاه الله تعالى على صبره بأن وهب له أهله الذين فقدهم بموت أو ضياع، وعوَّضه غيرهم ثم زاده مثلهم معهم فصاروا مِثْلَيْ ما كانوا ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بأيوب ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ليتذكر أهل العقول والاتعاظ بعده، فيصبروا على ما ينزل بهم من الشدائد كما صبر أيوب عليه السلام تأسيًا به واقتداءً بصبره الذي ضرب به المثل بين الناس.

(٤٤) ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ الضغث هو ما يملأ الكَفَّ من قضبان. وكان قد حلف أن يجلد امرأته مائة جلدة لذنب ظنَّ أنها اقترفته ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي فاضرب زوجتك بهذا الضغث كي تفي بيمينك ولا تحنث به. ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي فيما ابتليناه به من الضر ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجَّاع إلى ربه.

(٤٥) ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي أولي القوة وأهل العمل الصالح والإحسان والبصيرة النافذة.

(٤٦) ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي قد اصطفيناهم وجعلناهم خالصين لنا بأن يَذْكُروا التأهب للآخرة والزهد في الدنيا، ويُذَكِّروا الناس بالعمل للآخرة فكان جزاؤهم الجنة.

(٤٧) ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي المخبتين المختارين.

(٤٨) ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ﴾ أي: وكل واحد منهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي من الأنبياء والرسل المنتقين.

(٤٩) ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي ثناء عليهم ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وإن للذين يتقون الله تعالى لمرجعًا حسنًا في جنة عرضها السماوات والأرض.

(٥٠) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها فرحين آمنين.

(٥١) ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ على الأرائك ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي يطلبون فيها فاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي ويطلبون شرابًا هنيئًا مريئًا حلوًا عذبًا ختامه مسك.

(٥٢) ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي هنَّ الحور العين أي مقتصرات في النظر إلى أزواجهن، وهن متساويات في العمر.

(٥٣) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي به يا أيها المتقون من النعيم المقيم، وما جاء وصفه أجلُه ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي هو كائن ومؤجل إلى يوم القيامة حيث يعطى كل ذي حقٍّ حقَّه.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الذي وصف لكم من نعيم الجنة الذي لا ينفد ﴿لَرِزْقُنَا﴾ أي هو رزقنا من عندنا نؤتيه من كان يتقي الله في الدنيا، وهذا الرزق ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي من انتهاء.

(٥٥) ﴿هَٰذَا﴾ أي ما تقدم ذكره هو للمؤمنين ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ أي للكفار الخارجين عن الطاعة ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي لشرِّ منقلب.

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يحترقون فيها وهي تفسير لقوله تعالى: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي ما مَهَّدوا لأنفسهم من الفراش.

(٥٧) ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا الذي يلقونه في جهنم هو حميم أي حار وقد بلغ أشد درجات الحرارة ومنتهاها، وأما الغسَّاق فهو البارد الذي لا يستطاع من شدة البرد فليذوقوه جزاء كفرهم.

(٥٨) ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي وأنواع متنوعة من العذاب الذي لا يحتمل سيذوقونها كالزمهرير والحميم وأكل الزقوم، والصَّعود والهُوِيّ.

(٥٩) ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي تقول لهم الملائكة: وهذا فوج آخر منكم يدخل النار ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ وهذا قول قادة الكفر لأتباعهم الذين دخلوا النار معهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي محترقون بها كما نحن محترقون بها.

(٦٠) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الأتباع للرؤساء ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي بل أنتم لا كرامة لكم ولا مرحباء لأنكم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي أنتم الذين أوصلتمونا إلى هذا العذاب الذي نستقر فيه ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ المستقر.

(٦١) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي يا ربنا من أغرانا على الكفر ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ أي عذابًا مضاعفًا فيها.

يا هناءة أهل الجنة بالنعيم المقيم ويا شقاوة أهل النار بالعذاب المستديم

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ٦٢ أَتَّخَذْنَاهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ ٦٤ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٦٥
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ٦٦ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا
عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٦٩ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٧٠ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٧٤ قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ الْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ
٧٦ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ
الدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٨٣

(٦٢) ﴿وَقَالُوا﴾ أي الفريقان من أهل النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ أي يعنون المؤمنين الذين كانوا يعذبونهم من أجل إيمانهم؛ أي لماذا لا نرى معنا في النار الذين كنا نذيقهم الظلم، ومن فرط جهلنا وكفرنا كنا نظنهم أنهم من الأشرار؛ لأنهم تركوا دين آبائهم.

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ أي في الدنيا ﴿سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ أي كنا نهزأ بهم ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ أمفقودون هم أم زاغت أبصارنا عنهم؟

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي إن هذا الذي أحطناك خبرًا به يا محمد من تخاصم أهل النار وتلاعنهم، لحقٌّ لا مرية فيه.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أي مخوِّف لكم من عذاب النار ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي معبود بحق ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لا شريك له.

(٦٦) ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالقها ومالكها والمتصرف فيها وحده لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته.

(٦٧) ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ أي الذي أنذرتكم به من العقاب العظيم، وما بينته لكم من الدين وخاصة توحيده تعالى هو نبأ عظيم.

(٦٨) ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي إنكم عن الاتعاظ به وقبول التوحيد ناؤون.

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملائكة بشأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجّته ربّه.

(٧٠) ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنني أنا نذير أبين لكم من هذا الدين، حلاله وحرامه وفرائضه.

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ أي أعلمهم قبل أن يخلق آدم بأنه سيخلقه من صلصال من حمإٍ مسنون.

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي بأمري له بـ (كنْ) فيكون ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي فاهْوُوا له ساجدين سجود تحية.

(٧٣) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(٧٤) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ أي ترفَّع واستطال بكبره ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الذين كفروا بأمر الله ولا يستجيبون له عتوًّا واستكبارًا.

(٧٥) ﴿قَالَ﴾ الله ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي ما صرفك عن تنفيذ أمري إليك بأن تسجد لمن تولَّيتُ خلقه بيديَّ؟ واليدان لله تعالى صفة حقيقية له سبحانه، وليستا قدرته ولا نعمته إنما هما يدان حقيقيتان مجهولتا الكيفية، وكلتاهما يمين ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي استكبرت أنفةً واستعلاءً وترفعًا أم إنك من المخلوقين المتسامين على غيرهم.

(٧٦) ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي أفضل ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ زاعمًا أن عنصر النار أشرف ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ مع أن عنصر الطين أشرف لأن النار لا توجد إلا بعنصر من عناصر الأرض كما أن الطين يطفئ النار.

(٧٧) ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم بالكواكب، ومطرود من كل خير فلا يكون منه إلا السوء.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي طردي لك من الرحمة، وإبعادي لك منها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي لعنة متتابعة متواصلة إلى يوم القيامة.

(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أي أمهلني ولا تعاجلني بالموت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي اجعلني حيًا إلى يوم بعث ونشور آدم وذريته.

(٨٠) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى وتقدس: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أي قد استجبت لطلبك بالتأجيل، فإنك من المؤجلين بقبض الروح.

(٨١) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي إلى الوقت الذي يعلم اسمه الناس جميعًا وهو يوم القيامة أي أَجَّلَ الله موت إبليس إلى يوم القيامة.

(٨٢) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أقسم إبليس لعنه الله أن يغوي بني آدم جميعًا، انتقامًا من أبيهم آدم الذي طرده الله من أجله من الجنة.

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الذين أخلصتهم بطاعتك وعصمتهم من إغوائي كالأنبياء والمرسلين والذين اهتدوا بهديهم.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
(٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

سُورَةُ الزُّمَرِ — ترتيبها ٣٩ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا
لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)

٤٥٨

(٨٤) ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي فأنا الحق وأقول الحق، وإذا قلت فلا رادَّ لقولي ولا مانع لإرادتي التي لا تُغالب ولا تُمانع.

(٨٥) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي منه ومن جنس الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ومن تبعه من الجن والإنس جميعًا.

(٨٦) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أطلب منكم أجرةً على تبليغي الرسالة لكم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي ما أزيد على ما أرسلني الله به، بل ما أُمرت به أدَّيته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة.

(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هـذا القرآن الذي أدعوكـم إليه، إلا ذكر من الله عز وجل وموعظة منه إلى الجِنَّة والناس أجمعين.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي لتعلمن يا أيها الكفار خبر ذلك الذكر، وصدقه الذي لا شك فيه ولا ريب ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي يوم الحساب.

آخر تفسير سورة (ص) ولله الحمد

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ

مكية إلا الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤ فمدنية،
وآياتها ٧٥، نزلت بعد سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ يخبر تعالى أنَّ تنزيل الكتاب أي القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى، وفيه دليل على علو الله تعالى بذاته حقيقةً بلا كيف على خلقه، بائن عنهم وهو العزيز الجناب الحكيم في أقواله وأفعاله.

(٢) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي يؤكد الله تنزيل قرآنه الكريم من عنده جلَّ وعلا، فهو فوق خلقه عليٌّ عليهم، لا أنه في كل مكان كما يزعم «الآخرون!!» تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وإنه أنزل الكتاب بالحق أي إن كل ما فيه حق من إثبات التوحيد، والنبوة، والمعاد، وأنواع التكاليف ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي أفرده سبحانه في كل العبادات ولا تدع معه أحدًا من خلقه مهما علا مقامه.

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي الخالص من الشرك ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني آلهة يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي ما ندعوهم ولا نصرف لهم أنواع العبادة ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ إلا لنتوسَّل بهم ونتقرب إلى الله ونستشفع بهم عنده!!! مع أن الله سبحانه لا يقبل وسيلة إليه إلا بأسمائه وصفاته وذاته العلية وبأعمال المتوسِّل الصالحة وبدعاء المؤمن لأخيه[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كلَّ عامل بعمله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يهديهم لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان.

(٤) ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي مع استحالة وقوعه وجل الله عن الولد والشريك ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لاختار من خلقه ما يشاء أن يختار وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه سبحانه عن مثل ذلك ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي هو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. ولن يكـون لـه ولـد؛ لأن الـولـد يلزم أن يحمل صفة أبيه، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وتعالى الله عما يصفون.

(٥) ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي لم يخلقها باطلًا بدون سبب بل من أجل عبادته وحده ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي يجريان متعاقبين لا يفتران كما يلف الشيء على الشيء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي محدود ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي مع عزته غفار لمن عصاه إذا استغفره وتاب إليه.

(١) راجع كتابنا «التوصل إلى حقيقة التوسل».

الله سبحانه عليٌّ على خلقه بائن عنهم وليس كمثله شيء...

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ
خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾
۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ
نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا
لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ
ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

﴿٦﴾ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي من آدم أبي البشر عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها السلام ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي خلقها بقدر نازل منه رحمة بكم وهي: من الضأن اثنين والمعز اثنين والإبل اثنين والبقر اثنين أي كل اثنين ذكر وأنثى لتكون طعامًا لكم رحمة منه تعالى ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ أي هو الذي يقدر خلقكم في بطون أمهاتكم، نطفةً فعلقةً فمضغةً في ظلمة الرحم والمشيمة والبطن ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي هذا الذي وصف لكم بكامل القدرة في جميع صفاته هو الله ربكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي المتصرف فيه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي إلى أي شيء تصرف عقولكم عنه، فتعبدون من دونه مالا ينفعكم ولا يقدر على ضركم، وتعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق وأنعم وحده فلزم أن تعبدوه وحده.

﴿٧﴾ ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ بل هو غنيٌّ عن العالمين فمن باب أولى أن يكون غنيًا عنكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي لا يحبه ولا يرضى به، وفي الحديث: «... يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا» [٦٨٩]. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ أي بأن تؤمنوا به وتطيعوه الطاعة التامة ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يقبله منكم ويجزكم عليه من فضله أكثر مما تستحقون ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئًا، بل كلٌّ مطالبٌ بنفسه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي التجأ إلى ربه تائبًا إليه راجعًا عن ذنبه سائلًا أن يرفع الضر عنه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي وإذا أغناه أو شفاه من مرضه نسي أن يشكر الله الذي أنعم عليه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي آلهة مثله وصار يدعوهم ويشرك بالله ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي ليَضلَّ هو ويُضلَّ غيره عن سبيله تعالى ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي قل يا محمد لهذا المشرك، والمقصود المشركون عامة: تمتع بكفرك زمانًا قليلًا في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي إنك خالد في جهنم لا يخفَّف عنك العذاب، ولا يؤجَّل عنك ما أنت فيه جزاء ما كنت تنسى من أنعم عليك ورفع عنك الضر إذ مسَّك.

﴿٩﴾ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي هل يستوي من كان خاشعًا قائمًا يصلي في جوف الليل مطيعًا له ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي حال عبادته خائف وراج كمن سبق وصفه من الكفر والشرك المتلبسَيْن به؟ كلا لا يستويان ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي قل يا محمد: هل هناك مساواة بين الذين يعلمون وهم القائمون الساجدون الخاشعون الخائفون ربهم والراجون عفوه ورحمته مع الذين لا يعلمون فجعلوا لله أندادًا، وعبدوا سواه وأمروا غيرهم بالشرك والكفر!!؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لبٌّ وهو العقل.

﴿١٠﴾ ﴿ قُلْ﴾ أي يا محمد: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي استمروا على طاعته وتقواه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص لله سبحانه ﴿حَسَنَةٌ﴾ عظيمة لا تُقدَّر وهي الجنة ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ ثم لما يرى بعض المؤمنين في ديار الكفر يتعذَّر عليه فعل الطاعات والإحسان فقد أرشده الله تعالى إلى الهجرة فقال: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي فليهاجر إلى بلد آخر يمكنه طاعة الله والعمل بما أمر به؛ أي فليهاجر إلى أرض الإسلام ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يوفيهم أجرهم في مقابلة صبرهم على الطاعات بما لا يصفه واصف، ولا يحصره حاصر.

(١١) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي قل يا محمد للمشركين: إن ربي أمرني أن أخلص في عبادته أي أفرده في جميع أنواع العبادة.

(١٢) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من أمته ﷺ في تنفيذ كل طاعة لله سبحانه وتعالى وتنبيه كل فرد من أفراد أمته لأن يتأسَّى به في هذه الأوَّلية بشكل يحاول كلٌّ التسابق لأن يكون أول الجميع ائتمارًا وانتهاء، وبذلك ينشأ المجتمع الإسلامي الصالح.

(١٣) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: وأنا رسول الله أخاف منه تعالى إن عصيته أن يعذبني يوم القيامة، فكيف بمن دونه؟ وفي هذا التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى لأنه ﷺ قد عصمه الله تعالى من المعصية فلا يعصيه، إنما هذا تعريض بأفراد أمته.

(١٤) ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ أي قل يا محمد للمشركين: إنني أعبد الله مخلصًا له العبادة لا أعبد أحدًا سواه، ولا أشرك بربي شيئًا.

(١٥) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ فإنه سوف يعذبكم عذابًا أليمًا خالدًا في أسفل سافلين وإني بريء منكم ومما تعبدون من دونه ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ ليسوا إلا ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم أشركوا مع خالقهم والمنعم عليهم غيره، وأوردوا أنفسهم وأهليهم النار ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر الواضح

(١٦) ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي لهم من فوقهم أطباق النار تلتهب عليهم ومن تحتهم كذلك أطباق من النار، وسمي ما تحتهم ظللًا لأنها تظل من تحتها من أهل النار ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي يقص خبر ما سيقع لا محالة ليزدجروا عن المحارم والمآثم ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي خافوا بأسي وعذابي.

(١٧) ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ أي هم الذين آمنوا بالله، واجتنبوا عبادة الأوثان ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي تابوا ورجعوا إلى عبادته تعالى ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ أي جزاءً لهم وحُقَّ لهم أن يبشَّروا في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والعناية من الله، كما لهم البشرى في الآخرة عند الموت بالجنة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أي فبشر عبادي بما أعددت لهم من سعادة الدنيا والآخرة.

(١٨) ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي يشـــمل كل قول، فهم يستمعون القول أيًا كان ولكنهم لا يتبعون إلا أحسن ما سمعوا، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فيحلُّون الحلال، ويحرِّمون الحرام ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي إلى خير القول والعمل الصالح ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول السليمة المستقيمة.

(١٩) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي أفمن كان مستمرًا في غيِّه وضلاله فحقت عليه كلمة العذاب بما قدمته يداه من المعاصي وأعظمها الشرك

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا
ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ
وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾
وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾
لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

٤٦٠

﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي أنت لا تستطيع أن تنقذه مما فيه من العذاب، وكذلك من كان ضالًا لا تستطيع هداه.

(٢٠) ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ أي اجتنبوا منهياته ونفذوا أوامره ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ أي فكما أن للمشركين ظللًا من النار من فوقهم ومن تحتهم كذلك؛ فإن للموحِّدين المؤمنين غرفًا في الجنة وفوقها غرف مثلها مبنية من الدر ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت تلك الغرف، وفي ذلك كمال لبهجتها وزيادة لرونقها ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ أي هذا وعد الله وعده لعباده المؤمنين ولا يخلف الله وعده.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ألم تر أن الله أنزل من السحاب مطرًا فأدخله في مسالك تحت الأرض وجعله يختزن فيها ينابيع ينضح منها الناس الماء، ويسقون به مزروعاتهم ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي يخرج الله بالماء زرعًا مختلف الألوان والطعوم ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتم جفافه ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أي متفتتًا متكسرًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي يتذكرون فيتعظون.

الخاسرون هم الذين أشركوا فخسروا أنفسهم يوم القيامة

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ
جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

٤٦١

(٢٢) ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ أي هل يستوي الذي منّ الله عليه فشرح له صدره بالإسلام فإذا به على نور وحق وهدى من ربه ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي لهم الويل فلا يستوي من شرح صدره للهدى، ومن قلوبهم قاسية لا تلين لذكر الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إن أولئك القاسية قلوبهم عن ذكر ربهم في زيغ عن الحق، وفي ضلال مبين ظاهر واضح. والويل لهم.

(٢٣) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي هو القرآن، وسماه حديثًا لأن النبي ﷺ كان يحدِّث به قومه، وفيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقًا هو القرآن الذي نزل من عند الله، ويفيد معنى النزول عُلُوَّه سبحانه على خلقه حقيقةً بلا كيف، وقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإحكام وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة ﴿مَّثَانِىَ﴾ أي يذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين والكافرين، والجنة والنار وليس هذا من المتشابه الذي ذكره الله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ...﴾ [آل عمران: ٧] وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ إذا ذكرت آيات الرحمة، وهذا وصف لأولياء الله فتفيض أعينهم بالدمع من خشية الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في (أهل البدع) وهو من الشيطان ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ أي من عباده، أي ذلك الكتاب هدى الله يهدي به من يشاء أن يهديه ويوفقه لصالح العمل ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يجعل قلبه قاسيًا ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ليس من هاد يهديه إلى الحق غير الله سبحانه.

(٢٤) ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ أي أفمن يواجه يوم القيامة أعظم العذاب، كمن يكون آمنًا منه؟ ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي يقال للمشركين تقريعًا لهم: ﴿ذُوقُوا۟﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من عمل طالح.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم السابقة ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا يحتسبون وهم في بحبوحة من أمنهم وغفلتهم عن عذاب الله فجاءهم بغتةً وقضاءً مبرمًا.

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي بما أوقع فيهم من النكال، وَتَشفِّي المؤمنين منهم، فليحذر الكفار من تكذيب رسول الله ﷺ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي إن عذابها أشد وأغلظ من عذاب الدنيا.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي نَوّع الأمثلة لعباده ليتعظوا بما في هذه الأمثلة من العظات والعبر وليتَّقوا حرماته ويطيعوه.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي قرآنًا عربيًا غير أعجمي ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يفهمونه ويحلون حلاله ويحرمون حرامه خشية من الله تعالى، وطمعًا في رحمته ونعيمه المقيم.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي مختلفون فيه متعاسرون وهذا مثل من أشرك بالله وعبد آلهة كثيرة ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي خالصًا في ملكيته له ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ أي لا يستويان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق وأصروا على جهلهم رغم تبليغهم.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي إنك يا محمد ميت ومفارق هذه الحياة الدنيا الفانية إلى حياة خالدة ناعمة، وكل أحد من الخلق أجمعين سوف يموت أيضًا ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام. وفي هذه الآية قد نُعيت إلى الرسول نفسُه، ونعيت إليهم أنفسُهم.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي ثم تبعثون يوم القيامة حتى تتحاكموا إلى الله وتختصموا فيتخاصم الصادق والكاذب والمظلوم والظالم، والمهتدي والضال، والضعيف والمستكبر، وإنك يا محمد ستخاصمهم وتحتج عليهم بأنك قد بلَّغتهم وأنذرتهم.

رجل يملكه شركاء مختلفون فيه، ورجل واحد هل يستويان؟!

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

٤٦٢

(٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وجعلوا الملائكة بنات الله وجعلوا له ولدًا سبحانه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ وهو ما جاء به رسول الله ﷺ وما جاءت به الرسل جميعًا، أجل لا أحد أظلم لنفسه من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، فكذب على الله، وكذَّب رسول الله ﷺ ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مأوى لهم في جهنم.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي الرسول ﷺ هو الذي جاء بالصدق أي القرآن من الله جل وعلا وبلغه قومه والناس أجمعين، ﴿وَ﴾ الذي ﴿صَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هم الذين آمنوا به من الإنس والجن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي هم الذين اتقوا النار بالتوحيد والإيمان.

(٣٤) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأنه وقاهم النار بإيمانهم وأعطاهم من جنته النعيم المقيم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا لأنفسهم وذراريهم بما اختاروا من الإيمان والتوحيد على الكفر والشرك وفازوا بالحسنيين: الإيمان في الدنيا، والنعيم في الآخرة.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي ليزيدهم أيضًا من فضله فيغفر لهم سبحانه أسوأ ما عملوا سابقًا من سيئات ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا الكرم الذي لا يفوقه كرم والفضل الذي لا يفضله فضل، فقد كفَّر عنهم أسوأ أعمالهم وكافأهم بأحسن ما عملوا، وهذا جزاء من يصدق مع الله ويصدق بآياته.

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ والمراد بـ (عبده) هو الرسول ﷺ أو عباده ويدخل رسول الله ﷺ دخولًا أوليًا لأنه أكمل الخلق عبودية لربه الذي سيكفيه في أمر دينه ودنياه ويدفع عنه من ناوأه بسوء، وفي الحديث: «أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا، وقنع به» [٦٩٠] ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي يخوف المشركون رسول الله ﷺ بأصنامهم!!! ويهددونه بآلهتهم!!! التي يعبدونها جهلًا وضلالًا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي فإن من اختار الضلالة على الهدى فإنما يزيده الله ضلالًا على ضلاله، ومن يُضْلِلْهُ الله فليس له من يهديه إلى الصواب.

(٣٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ ومن يختار الهدى على الضلالة فإن الله سبحانه هو الذي يثبته على الهدى ويزيده منه ما يشاء، ولا يستطيع أحد أن يضل من هداه الله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ فاحذروا موجبات نقمته.

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي ولو سألت هؤلاء الذين يخوِّفونك بآلهتهم: مَن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما؟ لَيَعْتَرِفُنَّ بأن خالقهما هو الله عز وجل ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني عن آلهتكم ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي هل تقدر أن تكشف عني الضرر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي هل تستطيع أن تمنع عني رحمته؟ قالوا لا ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فأمر الله رسوله أن يقول: حسبي الله أي يكفيني وحده في رد الضراء وجلب الخير ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي عليه لا على غيره يعتمد المعتمدون.

(٣٩) ﴿قُلْ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على حالكم التي أنتم عليها من الشرك ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سأبقى على حالي التي أنا عليها من الإيمان والتوحيد لله والتوكل عليه والاكتفاء به عما سواه، فسوف تعلمون جيدًا ما سيحل بكم... وفي الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يده»(١) [٦٩١].

(٤٠) ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون من يأتيه في الدنيا عذاب يهينه ويذله ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي عذاب دائم في الآخرة.

(١) إسناده ضعيف.

أليس الله هو الذي يكفي عبده ويقيه، فكيف تخوفونني بمن لا يكفي ولا يقي

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى
لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ
قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾
قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

٤٦٣

(٤١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أنزل الله على رسوله ﷺ القرآن مشتملًا على الحق كله إلى الثقلين الجن والإنس، و(التنزيل) فيه دليل على علوّ ذاته تعالى على خلقه حقيقة، لأن التنزيل إنما يكون من أعلى إلى أسفل فهو علي على خلقه بائن منهم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي إلى آيات هذا الكتاب ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن هدى القرآن ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي على نفسه ويرجع الوبال عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لست مُحَوِّلًا قلوبهم من الضلال إلى الهدى، إنما هذا لله وحده.

(٤٢) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي إنه تعالى هو المنفرد بالتصرف بالعباد في يقظتهم ونومهم وحياتهم ومماتهم وهنا يدل المعنى على أنه تعالى يقبض الأنفس عند حضور أجلها، ولا ينافي أن يأمر بذلك ملك الموت وأعوانه ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي ويتوفى أيضًا التي لم تمت في منامها أي التي لم يحضرها أجلها في منامها وفي الحديث: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خَلَفَه عليه ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» [٦٩٢]. فما دام يتوفى الأنفس جميعًا يقظة ومنامًا ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أي التي قد ماتت وهي نفس من قضي عليه بالموت ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى استكمال أجلها ورزقها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي ما تقدم من التوفي والإمساك والإرسال ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي لدلائل وموعظات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون فتنفعهم العظة، ويتذكرون فتنفعهم الذكرى.

(٤٣) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أي بل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ أي أولئك الآلهة المزيفة ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يملكون سمعًا ولا بصرًا ولا عقلًا، أي وإن كانوا بهذه الصفات الناقصة ويتخذونهم آلهة وشفعاء بلا دليل، ولا برهان؟ ثم أمر رسوله أن يخبرهم أن الشفاعة لله.

(٤٤) ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي إن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه تعالى ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع ما فيهما ملك له يتصرف بهما كيف يشاء، فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها وهو الله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يحكم يوم القيامة بينكم ويجزي كلًّا بعمله.

(٤٥) ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وإذا أفرد الله بالذكر والعبادة والعمل وإخلاص الدين له تعالى وترك ما يعبدون من دونه يشمئزون وينفرون ويكرهون ذلك أشد الكراهة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي وإذا ذكرت أصنامهم التي نحتوها على صور الصالحين ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون وتسرُّ قلوبهم.

(٤٦) ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهم: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي في السر والعلانية ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي أنت وحدك الذي تحكم يوم القيامة بين عبادك المؤمنين الموحدين، والكفار والمشركين فيما اختلفوا فيه من الحق بإذنك.

(٤٧) ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي لو كان للمشركين ملك الأرض جميعًا ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وملك آخر يعادل ملك الأرض أيضًا ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾ أي لدفعوه جميعًا فداءً لأنفسهم ﴿مِن سُوٓءِ﴾ ما سيلقونه من ﴿ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولكن أنّى لهم ذلك فلا فداء ذلك اليوم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ظهر لهم من عقوبات الله ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ما لم يكونوا متوقعين نزوله بهم.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن
رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ
عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

٤٦٤

(٤٨) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي وظهر نتائج ما اقترفوا من الشرك والمعاصي، التي كانوا يظنونها حسنات فإذا هي سيئات ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي أحاط بهم العذاب من جميع جوانبهم، هذا العذاب الذي إذا ذكر لهم وهددوا به كانوا يستهزئون به ويسخرون منه في الدار الدنيا.

(٤٩) ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي تضرع إلينا بالدعاء، لنصرف عنه الضر الذي أنزلناه به ولم يدع آلهته التي كان يعبـدها من دون الله ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي إذا أعطيناه نعمةً من عندنا طغى وبغى و ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على معرفة مني بوجوه المكاسب أو على علم من الله باستحقاقي لذلك ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليست معرفة ولا استحقاقًا إنما هي محنة واختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج وفتنة.

(٥٠) ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كثير ممن كـان من سالف الأمم كقارون وغيره ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أيْ أيُّ شيء أغنى عنهم ذلك؟ أيُّ لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئًا.

(٥١) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي أصابهم جزاء ما اقترفوا من السيئات في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي من هؤلاء المشركين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب من قبلهم، وقد أصابهم بالفعل من القحط والقتل والأسر والقهر ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا يستطيعون أن يفلتوا من العذاب بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما يشاء من العقوبة، فقحطوا سبع سنين كسنيِّ يوسف.

(٥٢) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسعه على قوم، ويضيقه على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في بسط الرزق وقبضه ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لدلالات عظيمة لقوم يؤمنون بالله تعالى، وخص المؤمنين لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكِّرون فيها أما الكافرون فليس لهم قلوب تفقه.

(٥٣) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بالكفر والمعاصي إذا أرادوا الإيمان فلا يمنعهم ما سلف من شركهم ومعاصيهم ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيـأسوا من رحمته تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بعد التوبة والإنابة والعزم على عدم العودة إلى الذنب ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لعباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه بقلوبكم ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ بجوارحكم بإخـلاص وحسـن نيةٍ ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة عليكم ونزول بـأس الله بكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي لا يستطيع أحد أن ينصركم من دون الله. وفي الحديث: «الندم توبةٌ» [٦٩٣] أي الندامة على فعل المعصية توبة منها.

(٥٥) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي مما أمركم به من الأعمال الباطنة كمحبة الله وخشيته وخوفه ورجائه والنصح لعباده ومحبة الخير لهم، وترك خلاف ما ذكر، ومن الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والحج والصدقة وأنواع الإحسان، ونحو ذلك مما أمر الله به. والإنزال فيه دليـل على علـو الله بذاته حقيقة بلا كيف ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي مفاجأة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به، وهذا كما يبدو عذاب في الدنيا، بالقتل والأسر والخوف والقهر والجدب، والقحط.

(٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي حذرًا من أن يقول أحد منكم: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي بحقه وطاعته ﴿وَإِن كُنتُ﴾ في الحياة الدنيا ﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي ما كنت إلا من المستهزئين بدين الله، وبعذابه حتى رأيناه ماثلًا حقًّا.

لو يملك الكافر ملء الدنيا ومثله لافتدى به نفسه من العذاب ولكن هيهات

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ
خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا
ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ
فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ
وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

٤٦٥

(٥٧) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ممن يتقون الشرك والمعاصي، وهذا هو ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة كقولهم: لو شاء الله ما أشركنا، وفي الحديث: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فتكون عليه حسرة. قال وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني قال: فيكون له الشكر» [٦٩٤].

(٥٨) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي تقول حين تعاين عذاب الله: لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحدين لله المؤمنين به، متحسرًا على عدم تصديق آياته واتباع رسله الذين جاءوا بالهدى والحق والخير؛ فردَّ الله سبحانه:

(٥٩) ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ أي كذَّبت آياتي واستكبرت عن اتباع رسلي ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي بي وبرسلي.

(٦٠) ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فادَّعوا أن له شريكًا وولدًا ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ كما سودوا وجه الحقيقة بكذبهم وافترائهم ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي أليست جهنم كافية مأوى ومقرًا للذين تكبروا على الحق فلم يتبعوه وأبوا الانقياد للحق، وفي الحديث: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صورة الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار حتى يدخلوا سجنًا من النار في دار يقال له بولس من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال» [٦٩٥]. وهذا جزاء المتكبرين عن اتباع الحق ومن نزل عليه.

(٦١) ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز والظفر بالخير والنجاة من الشر ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي تبقى وجوههم مبيضَّة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يصل الحزن إلى قلوبهم لأنهم رضوا بالثواب وأمنوا العقاب.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي ما من مخلوق إلا والله خالقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها وتدبيرها وحده لا شريك له.

(٦٣) ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن أزِمَّة الأمور بيده كلها وله الملك والحمد وهو على كل شيء قدير ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بالقرآن وبالمعجزات الخارقة الدالة على توحيده سبحانه وتعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الذين خسروا الدنيا والآخرة وصاروا بكفرهم هذا إلى نار جهنم خالدين فيها أبدًا.

(٦٤) ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد لهؤلاء الجاهلين الذين دعوك إلى عبادة غير الله: أتريدون منِّي أن أعبد غير الذي أدعوكم لعبادته؟ ما أجهلكم وما أسخف عقولكم!!!؟ كيف أخالف ما أدعوكم إليه؟

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي من الأنبياء ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهذا من قبيل افتراض المستحيل والمراد من ذلك: إيراده على وجه التحذير والإنذار للعباد من الشرك لئلا يحبط عملهم فإذا كان هذا الخطاب للأنبياء فَمَنْ دونهم أولى ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دنيا وآخرة.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ وهذا رد على المشركين الذين طلبوا إليه عبادة أصنامهم ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لأنعمه عليك بما هداك، واختارك لرسالته.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي لأنهم أشركوا به وأمروك بالشرك فكيف يكون ذلك ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولا تكون القبضة إلا باليد وإن لله يدين حقيقيتين بلا كيف وهما صفةٌ له، وكلتاهما يمين ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ وفي الحديث: «يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه[1]، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» [٦٩٦]. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى وتنزه عن أن يشركوا به مَنْ دونه في جميع صفاته.

(١) وكلتا يديه يمين، ويداه صفة له معلومة الحقيقة مجهولة الكيفية.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ
﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ
بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ
﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

٤٦٦

(٦٨) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي وهي النفخة الثانية، وهي نفخة الصعق التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا ما شاء الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ وآخر من يموت ملك الموت ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وهذه النفخة الثالثة: نفخة البعث، فيقوم الناس والجن أجمعون أحياءً بعدما كانوا عظامًا نخرة ورفاتًا هنا وهناك ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وماذا سيفعل بهم.

(٦٩) ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي كتاب الأعمال فمن الناس من هو آخذ كتابه بيمينه ومن هو آخذه بشماله ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ أي يجاء بهم ليشهدوا على أممهم بأنهم بلغوهم رسالات ربهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي هم الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد ﷺ بأن رسلهم قد بلغتهم رسالات الله تعالى، وقيل: الملائكة الحفظة، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل والصدق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من ثوابهم ولا يزاد على ما يستحقون من عقابهم.

(٧٠) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي وهو سبحانه أعلم بأعمال عباده فهو لا يحتاج إلى من يخبره بأعمالهم فهو أعلم بها، ولكن ذكر كل ما تقدم من كتاب الأعمال وشهادة النبيين والشهداء كل ذلك من أجل إقامة الحجة لهم أو عليهم، وقطع المعذرة.

(٧١) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي جماعات متفرقة، بعضها يتلو بعضًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي بمجرد وصولهم إليها، فتحت أبوابها سريعًا لتعجل لهم العقوبة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي زبانيتها الغلاظ الشداد على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من أنفسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي يخوفونكم لقاء الله في هذا اليوم وما سيوقع بكم فيه من العذاب ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي نعم أنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي بسبب كفرهم وجبت عليهم من الله كلمة العذاب التي قدَّرها الله عليهم وعلم أنهم سيختارون الكفر على الإيمان فكتب ذلك عليهم وقدره.

(٧٢) ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئس المقر والمهاد والمستقر في النار لتكبرهم عن الحق لما جاءهم.

(٧٣) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وهذا حال السعداء المؤمنين يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة جماعة إثر جماعة كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء والصديقون والشهداء والعلماء كل صنف مع صنفهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي وصلوا إلى أبوابها بعد اجتياز الصراط ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ لهم بإمامة سيد الخلق محمد ﷺ، وفي الحديث: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول محمد، قال: فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» [٦٩٧]. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي من كل شر وضير ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طابت قلوبكم وطاب سعيكم وجزاؤكم ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي ادخلوا الجنة خالدين فيها أبدًا ليس لكم عنها حِوَلٌ ولا بَدَلٌ، وفي الحديث: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءةً» [٦٩٨].

(٧٤) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي صدق الله وعده بالبعث والثواب بالجنة ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ وفي الحديث: «أُدخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذ ترابها المسك» [٦٩٩].

أول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ وأول من يدخلها هو وأمته

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ
ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ
لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

(٧٥) ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي محيطين محدقين بالعرش المجيد خاضعين لجلال الله تعالى وتقدس معترفين بكماله جل وعلا ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله العظيم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي قضى الله بين الخلائق بالعدل فحكم على بعضهم إلى الجنة، وعلى الآخرين بالنار، بما كسبت أيديهم من خير أو شر ثم قال ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي نطق الكون أجمعه: ناطقه، وبهيمه، بالحمد لله رب العالمين على حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدلَّ على أن جميع المخلوقات شهدت لله تعالى وتقدس بالحمد، وقيل: هم المؤمنون حمدوا الله على قضائه بينهم وبين أهل النار، بالعدل والحق.

آخر تفسير سورة الزمر ولله الحمد والمنّة وبه التوفيق وله الشكر والفضل وعليه التكلان

(٤٠) سُورَةُ غَافِرٍ

مكية إلا آيتي ٥٦، ٥٧ فمدنيتان، وآياتها ٨٥، نزلت بعد الزمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿حمٓ﴾ سبق أن تكلمنا عن الأحرف المقطعة.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي نزله الله من لدنه، ففيه دليل على علو الله على خلقه بذاته حقيقة؛ لأن التنزيل إنما يكون من أعلى إلى أسفل، والأصل الحقيقة حتى يثبت صرفها إلى المجاز ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي ذو العزة التي لا ترام ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذي العلم لا يخفى عليه الذر، بل لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض سبحانه وتعالى وتقدس.

(٣) ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ لعباده المؤمنين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي هو الذي يقبل توبة التائبين ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي لمن تمرد وطغى، فكما أنه تعالى غافر الذنب فكذلك هو شديد العقاب ولهذا يجب أن يكون العبد راجيًا خائفًا ﴿ذِي ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي الإنعام والتفضل على عباده الذين لا يستطيعون القيام بتمام شكره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق في الأرض ولا في السماء إلا هو ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المعاد فيجازي كلًّا بعمله.

(٤) ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ما يجادل بالباطل فيما نزل من الله من الآيات البينات إلا الجاحدون الذين يكذبون بالحق إذ جاءهم ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي لا تغتر بما تراهم فيه من الأموال والنعم والحظوظ إنما هي فتنة لهم ومآلهم إلى النار لأنهم كفروا بعد أن قامت الحجة عليهم.

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي لا تيأس يا محمد من تكذيب قومك فإن لك أسوة بأول رسول وهو نوح عليه السلام فقد كذبه قومه كما كذبك قومك ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من كل أمة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي ليقتلوه ومنهم من قتلوا أنبياءهم ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليردوه ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي كان شديدًا مؤلمًا.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي وكما أن الكافرين السابقين حقت عليهم كلمة العذاب فكذلك كفار العرب حق عليهم العذاب.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ وهم الملائكة منهم من يحملون العرش ومنهم حافون حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي ينزهونه ومتلبسون بحمده أي يقولون: سبحان الله وبحمده خاشعين لجلاله، أذلاء لعظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي يتوسلون إلى الله برحمته وعلمه أن يغفر للذين آمنوا وتابوا ويقيهم العذاب. وهذا توسل بالصفات وهو من أعلى أنواع التوسل المشروع[1].

(١) انظر: «التوصل إلى حقيقة التوسل» للمفسر (ص٢٥).

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ
مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ
ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ
ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أي التي وعدت بها المتقين ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي أجمع بينهم وبينهم لتقرَّ أعينهم بالاجتماع معهم في منازل متجاورات في الجنة، لأن الجنة ليست منازل إلا للصالحين المؤمنين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمانع ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

(٩) ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي واحفظهم من فعلها ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي ومن تحفظه من عقوبة السيئات يوم القيامة فقد لطفت به ونجَّيته من سخطك ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي وقايتهم السيئات وإدخالهم الجنة هو الظفر الذي لا يشبهه ظفر، والنجاة التي لا تماثلها نجاة؛ ولذلك قال تعالى ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وهكذا فإن الملائكة تدعو للمؤمنين وفي الحديث: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثله» [٧٠٠].

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي عندما لقوا النار مقتوا أنفسهم وأبغضوها بسبب ما أسلفوا من أعمال كانت سببًا لدخولهم النار ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي تناديهم الملائكة ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم في الدنيا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ إذ عاينتم النار الآن إنما كنتم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي كنتم في الدنيا حين يدعوكم الرسل إلى أن تؤمنوا بالله وتوحدوه تصدون عن الدعوة وتكفرون بها.

(١١) ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي إنهم كانوا نطفًا لا حياة لهم في أصلاب آبائهم، فهذه ميتة، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياءً في الدنيا، فهذه ميتة أخرى فصارتا ميتتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي أنه تعالى أحياهم الحياة الأولى في الدنيا ثم أحياهم عند البعث فصارتا إحياءتين ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرسل والإشراك بالله ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ لنا من النار ورجوع إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ أي من إمكانية لذلك حتى نعمل صالحًا كما تحب وترضى؟

(١٢) ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي إن هذا العذاب الذي أنتم فيه هو بسبب أنكم لما دعيتم إلى توحيد الله كفرتم بهذه الدعوة ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي تصدقوا الشرك وترتحْ قلوبكم إليه ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي هو الحكم العدل، العلي على خلقه بذاته حقيقةً والبائن منهم، والكبير الذي هو أكبر من جميع خلقه في ذاته وأعظمهم في أسمائه وصفاته.

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي الدالة على كمال الخالق ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به العشب والخضار والثمار والزروع على اختلافها ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي يستدل بهذه الآيات على عظمة الخالق، وأنه أهل بأن يعبد وحده لأنه المنعم وحده ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي يتفكر تفكيرًا صحيحًا، فيرجع إلى ربه طائعًا تائبًا.

(١٤) ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي إذا كان الله مولي تلك النعم وحده لا شريك له، لزم أن ترفع العبادة إليه وحده خالصة لوجهه الكريم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي برغم كراهيتهم لذلك.

(١٥) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عالي الذات والصفات ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي هو خالق العرش المستوي عليه أي العالي عليه استواء يليق بجلاله لا يشبه استواء سواه، وخالق كل شيء ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي يلقي الوحي بواسطة جبريل عليه السلام بأمر منه سبحانه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي ليكونوا أنبياءه ورسله ﴿لِيُنذِرَ﴾ الله بهم ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي أهوال يوم القيامة الذي يلتقي فيه عباده مع ربهم فيجازي المحسن بالفضل، والمسيء بالعدل ولا يظلم أحدًا.

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ أي لا من ذواتهم ولا أعمالهم التي عملوها في الدنيا وينادي الحق سبحانه وتعالى بعد هلاك الخلق: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد بل هو يجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ تعالى وتقدس؛ أي الذي قهر كل شيء وغلبه وحده لا شريك له.

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ
لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ
بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ
فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟
نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

٤٦٦

(١٧) ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي بما عملت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا خوف على أحد من العباد بنقص من ثوابه أو بزيادة في عقابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي يحاسب الخلائق أجمعين، كما يحاسب نفسًا واحدةً كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] لإحاطة علمه بكل شيء.

(١٨) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها، والمعنى أنذر يا محمد الناس باقتراب يوم القيامة ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾ أي حين تكون القلوب قد قفزت إلى الحناجر من الهول والخوف ساكتين لا يتكلم أحد من الخلائق إلا بإذنه ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي قريب ينفعهم، ولا شفيع لهم أصلًا تقبل شفاعته، لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وماتوا وهم مشركون بربهم.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من نوايا ليحذر الناس علمه تعالى فيهم فيستحيوا من الله ويتقوه ويراقبوه.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي يجازي كلًّا بما يستحق من خير أو شرٍّ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدون من دون الله أندادًا ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ أي لا يملكون شيئًا ولا يحكمون بشيء فكيف يتركون عبادة الذي يقضي بالحق ويعبدون ما لا يحكم ولا يملك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ سميع لأقوال خلقه بصير بهم، ولا يخفى عليه من جميع ما يعملون ويقولون خافية.

(٢١) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ألم يسر الكفار في الأرض فيروا آثار من كان قبلهم ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيشاهدوا دُورهم كيف هي خاوية خربة ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يعتبرون بما فعل الله بمن كانوا أقوى منهم وأشد، وأكثر منهم قصورًا ومصانع وحصونًا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي استأصلهم بسبب ذنوبهم التي اقترفوها ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي لم يكن لهم من يحميهم من عذاب الله ثم بين سبحانه وتعالى تفصيلات عن ذنوبهم وآثامهم فقال:

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي كان كل ما أوقع الله بهم من العذاب والدمار بسبب أنهم كانت أنبياؤهم تأتيهم بآيات التنزيل وبالمعجزات الباهرات ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بها جميعًا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أخذًا شديدًا كيف لا و﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ في أخذه وإهلاكه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي لا يرحم الكفار بل يُنزل فيهم أشدَّ العذاب.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مثل من أمثلة الأمم التي كذبت نبيها يُسَلِّي الله بها نبيه ورسوله محمدًا ﷺ فيقول جلّ وعلا: وإننا قد أرسلنا رسولنا موسى بالمعجزات الباهرات والحجج الدامغات البينات التي تدمغُ الباطل.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ أي إلى فرعون ملك القبط بمصر وإلى هامان وزيره وقارون أغنى أهل زمانه ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي لما أتاهم بمعجزاته العديدة، رموه بالسحر والشعوذة ورموه أيضًا بالكذب فيما يدعوهم إليه من الحق بأمر ربه.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي إن تلك المعجزات المدهشة، والحجج القوية الظاهرة، لم تكن من عند موسى بل هي من عند الله تعالى وهو الذي أيّده بها أمام عدوه ليسلم بأن موسى لا يدعوه لشيء من قِبَل نفسه إنما بدليل قاطع بأنه مرسل من قِبَلِ الله تعالى ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وهذا أمر ثان بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فللاحتراز من وجود موسى ولتقليل عدد بني إسرائيل وأما الثاني فللتشاؤم بموسى عليه السلام ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ أي واتركوا نساءهم للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي وما مكرهم إلا مكر ذاهب هالك. وقد عمم الله تعالى بقوله وما مكر الكافرين إلا في ضلال ليكون الحكم عامًّا على الكافرين من كل أمة لا على كفار فرعون وقومه فحسب.

إن في الآية... مكر يبيت الكفار عامة بالمؤمنين يظهره الله ويبطله...

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

٤٧٠

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي إنما قال هذا لأنه كان في خاصة قومه مَن يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي فليمنعه ربُّه مني إن استطاع وهذا في غاية الكفر والتجرهم والعياذ بالله تعالى، أي منكر أن يكون لموسى ربٌّ، بل إنه يدعي الربوبية لنفسه لعنه الله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي صار فرعون مذكرًا وواعظًا!!! يشفق على الناس من موسى أن يبدل دينهم الذي هم عليه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي يوقع بين الناس الخلاف والفتنة، وليس الفساد إلا ما عليه فرعون وقومه من الكفر.

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أي إني ألتجئ بربي وربكم الذي هو الله تعالى لا ربَّ لنا سواه ليبين أن فرعون ليس ربهم وما ربهم إلا الله تعالى ورب العالمين أجمعين ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ مثل فرعون الذي تكبر عن الإيمان بالله ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي ولا يصدق بيوم القيامة ولا بحساب الله ولا عقابه بل يقول: أنا ربكم الأعلى!!!

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ وهو قبطي من آل فرعون، وقيل: هو ابن عمه وهو الوحيد الذي آمن من آل فرعون وكذلك زوجة فرعون آمنت أيضًا وهو الذي قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] وقد كان يكتم إيمانه عن قومه فلم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل كما في الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حقٍ عند سلطان جائر» [٧٠١]. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون أي كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول ربي الله ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بالمعجزات الواضحات والدلالات الظاهرات على نبوته وصحة رسالته، ثم تلطف لهم في الدفع عنه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي ضرر كذبه مختص به وليس عليكم منه شيء ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي وإن كان صادقًا وقد آذيتموه يصبكم الذي يهددكم به من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي مشرك ولا مفترٍ مبطل.

(٢٩) ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لكم الملك والتصرف فيه والكلمة النافذة فقابلوا نعمه بشكره وتصديق رسوله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي من يمنعنا من عذابه ويحول بيننا وبينه عند مجيئه؟ فلما سمع فرعون نصح هذا الرجل المؤمن وخشي من افتتان الناس بقوله أخذ يراوغ موهمًا قومه أنه ينفعهم وينصحهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أرى لنفسي وقد كذب لعنه الله لأنه كان متحققًا صدق موسى ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وقد كذب أيضًا وغشَّ قومه ولم ينصحهم.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ أي هو القبطي المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي كيوم عذاب الأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم.

(٣١) ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي لا يعذبهم بغير ذنب، ونفي الإرادة للظلم يستلزم نفي الظلم بفحوى الخطاب، ثم زاد مؤمن آل فرعون في الوعظ والتذكير:

(٣٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أي يوم القيامة ينادي فيه أهل النار أهل الجنة وأهل الجنة أهل النار.

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ إلى النار بعد الحساب ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ما لكم من يعصمكم ويمنع عنكم من عـذاب الله شيئًا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي إن الله لا يضل من اختار طريق الهداية ولكنه يضل من اختار طريق الضلال، ومن يضلله الله فلا يهديه أحد.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ
مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ
مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ
السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي
آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ
دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءكم من قبل يوسف بن يعقوب عليهما السلام بالمعجزات والآيات الواضحات إلى أهل مصر ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ أي فلم تؤمنوا به ولا أطعتموه ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ أي مات ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي زعمتم أنه لن يأتيكم الله برسول من بعده ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في كفره وشركه ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في دين الله شاكٌّ في وحدانيته ووعده ووعيده.

(٣٥) ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي إن الذين يسرفون ويرتابون هم الذين يجادلون بالباطل من غير حجة أو دليل ﴿كَبُرَ﴾ أي كبر جدالهم ﴿مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ أي بغضًا عنده تعالى ﴿وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي عند المؤمنين أيضًا ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي كما طبع على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يطبع أي يختم على كل قلب من قلوب المتكبرين عن الحق المتجبِّرين على عباد الله.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ وهذا عتوٌّ وتكبر وتجبر من فرعون إذ يقول لوزيره هامان ويأمره أن يبني له صرحًا أي قصرًا شاهقًا عاليًا ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ أي أبلغ الطرق التي تؤدي إلى ما أصبو إليه من مطلب.

(٣٧) ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي وما مطلبي إلا أن أبلغ طرق السماوات وأرقى فيها حتى أبلغ الرب الذي يعبده موسى، وهذا يُشعر بأنَّ موسى أخبر فرعون بأن ربه الذي في السماء هو الذي أرسله وأن فرعون فهم ذلك منه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي يكذب بادعائه أن إلهه في السماء، ويُكذِّب أيضًا بادعائه أنه مرسل من قبل هذا الإله؛ وهكذا فمن آمن بعلو الله على خلقه وبينونته منهم فهو من أتباع موسى ومن أنكر أن الله في السماء فهو من أتباع فرعون ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي زين له الشيطان سوء ما عمل من الشرك والتكذيب ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي وصده الشيطان عن الطريق القويم، وهو بدوره صد الناس عن الصراط المستقيم ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي كيده خاسر، ورجع كيده في نحره.

(٣٨) ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي قال مؤمن آل فرعون: اتبعوا ما أقوله لكم أدلكم بذلك على أهدى طريق، وأرشد سبيل إلى الحق.

(٣٩) ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي يا بني قومي إنني أنصح لكم بأن هذه الحياة الدنيا إنما تتمتعون فيها إلى أجل ولا بد أن ينقضي الأجل وتنتهي هذه الحياة ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ﴾ أي حياة ما بعد الحياة الدنيا إنما في الحقيقة ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي هي الدار التي يستقر فيها المؤمن ولا انتهاء لها فهي خالدة بلا موت، وباقية بلا فناء، فينبغي لكم أن تؤثروها وتعملوا لها عملًا يسعدكم فيها لا أن تستمروا على كفركم وعنادكم.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فلا تكتب عليه إلا سيئة واحدة ولا يعاقب عليها إلا بعقاب سيئة واحدة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي أما العمل الصالح فيضاعف ثوابه أضعافًا مضاعفة، إن كان فاعله ذكرًا أو أنثى فالثواب مضاعف بشرط الإيمان أي إن كان العامل للخير مؤمنًا، وإن كان العامل غير مؤمن فليس له أي ثواب لأنه مشروط بالإيمان فإن توفر هذا الشرط ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون بالإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي إن ثواب أعمالهم الصالحة جنةٌ خالدة لهم فيها رزق كثير دائم بدون حساب ولا نفاد.

۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ
لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ
مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ
يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ
ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي
ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ
﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ
قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ
جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾

٤٧٢

(٤١) ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يقول المؤمن من آل فرعون لقومه: ما بالي أدعوكم إلى النجاة من النار إلى الجنة أي آمركم بعبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه إليكم وتدعونني لأكفر بالله فأدخل النار الخالدة المؤبّدة، ثم فسر الدعوتين:

(٤٢) ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ ما بالكم تدعونني لأجحد آيات الله وأكذب برسوله موسى عليه السلام وأشرك بالله بدون حجة ولا دليل ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ أي وأنا أحضُّكم على الإيمان بالله العزيز في انتقامه الغفار لذنوب من آمن به.

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى فرعون وعبادته ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي ليس له دعوة توجب الألوهية له في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي نحن والذي تدعونني إليه مردُّنا ومآلنا إلى الله، فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي وإن المشركين بالله حقًّا هم أصحاب النار.

(٤٤) ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ أي من النصيحة وسترون مغبّة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي ألجأ إليه وأعتصم به وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم، إنه قال هذا حين أرادوا الإيقاع به وهرب إلى الجبل فلم يقدروا عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم ويعلم حالي وضعفي، فيمنعني منكم ويكفيني شرّكم، وإن سلطكم عليَّ فبحكمته.

(٤٥) ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ أي حفظه الله من كيدهم ومكرهم به ووقى ذلك الرجل المؤمن من كيد فرعون وقومه من إرادة إهلاكه ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي الغرق ثم الانتقال إلى الجحيم، ثم أجمل الله سوء عذابهم بقوله:

(٤٦) ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ أي يعذبون في قبورهم بالنار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة عندها ينتقلون من عذاب القبر إلى عذاب جهنم ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي وعندما يقوم يوم القيامة ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي يصلون النار ويقول الله للملائكة: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب أي أقوى عذاب في النار وأقساه، ويستدل من هذه الآية على عذاب القبر وفي الحديث: أن يهودية دخلت على عائشة فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر [٧٠٢]، والأحاديث في ذلك كثيرة جدًا ومتواترة.

(٤٧) ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي فرعون وقومه وسائر أهل النار ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ أي للرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أي أطعناكم في الكفر ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي هل تتحملون عنا نصيبًا من هذا العذاب الذي لا يحتمل ولا يطاق؟ ما دمتم أمرتمونا في الدنيا أن نطيعكم.

(٤٨) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم القادة والرؤساء والأكابر ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ أي إنما نحن وأنتم في جهنم جميعًا فكيف نغني عنكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ أي وجعل لكلٍّ قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه ولا يغير ما حكم به الحكيم.

(٤٩) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي قال من في النار من الأمم الكافرة مستكبرهم وضعيفهم لخزنة جهنم أي للملائكة القوامين على تعذيب أهل النار ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ لعلنا نأخذ بعض الراحة أي يتوسلون بالخزنة إلى الله لتخفيف العذاب.

عذاب القبر حق وكان رسول الله ﷺ يتعوذ ويأمر بالتعوذ منه في كل صلاة

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ
بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ
﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ
وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى
وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ
وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ
خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

اصبر يا محمد إن وعد الله حق وسينصرك كما نصر الرسل من قبلك

(٥٠) ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي أجابهم خزنة جهنم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي التي تبينتم بها الحق وما يقرب من الله وما يبعد عنه ﴿قَالُواْ﴾ أي الكفار المجادلون في جهنم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاؤونا بالبينات وقامت علينا الحجة بعد ما وضحت لنا ﴿قَالُواْ﴾ أي الخزنة لأهل النار متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ أنتم ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي إن دعاء الكافرين وخاصة بعد أن حق العذاب عليهم باطل لا استجابة له.

(٥١) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ أي ننصر من نرسلهم من عبادنا لهداية الناس وننصر من آمنوا معهم في الحياة الدنيا على أعدائهم بالقتل والسلب والأسر والقهر وكذلك ننصرهم أيضًا يوم القيامة بدخولهم الجنة دارًا للنعيم ونخذل أعداءهم بإدخالهم النار.

(٥٢) ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ أي لا تنفع المعذرة للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وذلك اليوم هو يوم القيامة لأنه يوم جزاء ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ أي الطرد من الرحمة ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي لهم النار أسوأ دار وأشأم قرار فلم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة، وفعلة داحضة، وشبهة زائفة.

(٥٣) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي التوراة والمعجزات ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة أورثها الله لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وأورثناهم كذلك بلاد فرعون وأمواله لقاء ما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى عليه السلام.

(٥٤) ﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي إن التوراة هدى يهتدى بها كما هي ذكرى يتذكر بها أولو العقول السليمة.

(٥٥) ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أي فاصبر يا محمد كما صبر من قبلك من الأنبياء والرسل على أذى المشركين وإن وعد الله تعالى لرسله بالنصر هو حق لا مرية فيه ولا ريب ولا شك فسينصرك عليهم وستقر عينك وأعين المؤمنين بالنصر على الشرك وأهله ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا أمر لرسوله وهو من باب أولى لأمته وحض على الاستغفار من الذنوب ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ﴾ في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ وهي أوائل النهار وهما صلاتان ركعتان غدوة وركعتان عشية وذلك قبل أن تفرض على المسلمين الصلوات الخمس.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي بغير حجة ظاهرة جاءتهم من الله سبحانه ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبُّر عن الحق يحملهم على تكذيبه وتكذيبك ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي ما هم ببالغي إرادتهم فيه، ثم أمر الله تعالى نبيه قائلًا ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي فالتجئ إليه تعالى من شرهم وبغيهم عليك إنه هو السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم.

(٥٧) ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي أعظم وأكبر من إعادة خلق الناس يوم البعث والنشور ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون بعظيم قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يرى شيئًا بعينيه من هذا الوجود مع البصير الذي يرى كل شيء فيه، كذلك لا يستوي من آمن بالله حقًّا واستقر إيمانه في قلبه وعمل الصالحات المطابقة للشريعة والمخلصة لوجه الله تعالى ومن كان مستكبرًا على الحق فلا آمن بالله ولا عبده مخلصًا له الدين ولا عمل عملًا صالحًا بل بقي غائصًا في معاصيه ساعيًا في مساخط الله والعياذ بالله فكيف تستوي الحالان؟ كلا لا تستويان ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكركم قليل، ولو تذكرتم جيدًا الفرق بين الخير والشر لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ
﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ
بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ
إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي إن يوم القيامة لا بد واقع بلا ريب ولا شك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بذلك ولا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها لقصور أفهامهم، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة، والمراد بأكثر الناس: الكفار الذين ينكرون البعث.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ أي اعبدوني وفي الحديث: «إن الدعاء هو العبادة» [٧٠٣]، ولا شك أن الدعاء فيه معنى السؤال، وسؤال الله هو عبادة له أيضًا ولذلك فالدعاء والسؤال كادا أن يكونا بمعنى واحد، فلولا أن يكون الداعي موقنًا بأن الله مجيب للدعاء والسؤال ما دعاه ولا سأله وكيف لا يدعوه، وقد طلب سبحانه من عباده أن يدعوه وحده حتى يستجيب لهم وقد أردف سبحانه بقوله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ وهذا دليل على أن الدعاء عبادة ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ لأنهم لم يدعوه بل دعوا غيره ولهذا سيدخلهم جهنم أذلاء صاغرين وهكذا فكل من دعا غير الله فهو مشرك الشرك الأكبر لأنه نقض لـ «لا إله إلا الله» فلا ينفعه ترديدها على لسانه بغير مراعاة لحقوقها، ولا فهم لمقتضياتها، ولا تطبيق لمفاهيمها.

(٦١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي لتهدأوا فيه وتستريحوا من عناء عمل النهار لأن الليل جعله مظلمًا باردًا يناسبه الراحة والسكون والنوم، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أي مضيئًا لينصرفوا فيه إلى العمل والأسفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي يتفضل عليهم سبحانه بنعمه التي لا تحصى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ إما لكفرهم وجحودهم أو لإهمالهم واجب الشكر للنعم والمنعم، جهلًا منهم وعدم اكتراث.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي إن هذا الذي فعل وخلق ما تقدم هو الله خالقكم وخالق كل شيء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو فكيف تعبدون من لا يخلق شيئًا، بل هي مخلوقة منحوتة عن صورٍ لصالحيهم من قبل؟؟

(٦٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي مثل إفك هؤلاء، إفكُ الذين من قبلهم كانوا يجحدون وينكرون توحيد الله سبحانه ويشركون به فعوقبوا بصرفهم عن الحق والإخلاص جزاءً وفاقًا لأن الله تعالى لا يصرف عن الحق إلا من أباه.

(٦٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ أي مستقرًا تعيشون على ظهرها ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ أي سقفًا قائمًا ثابتًا ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾ في أرحام أمهاتكم ﴿فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أي ليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم ولما خصهم الله بالمعرفة والعقل والإيمان والأخلاق الحسنة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وهذا شامل لكل طيب من مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك من الطيبات التي يسَّر لهم أسبابها ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المنعوت بهذه النعوت الجليلة هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس.

(٦٥) ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو الباقي الذي لا يموت المتفرد بالعبادة لا شريك له ولا معبود بحق سواه ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي جاعلين العبادة له وحده وخالصة لوجهه ولا تدعوا معه أحدًا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي جميع الحمد لله أولًا وآخرًا.

(٦٦) ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهم: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي نهاني ربي سبحانه وتعالى ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أن أعبد الذين تعبدونهم من دون الله، فهم لا يستحقون عبادةً لأنهم لا يتصفون بصفات الربوبية فلا يخلقون ولا يرزقون ولا يتفضلون بأية نعمة على الناس بل هم مخلوقون ومربوبون لله تعالى فكيف أترك بارئ السماوات والأرض وما بينهما وأعبد مَن هو دونه في كل شيء!!!؟ لا سيما ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أي لما جاءني القرآن المحتوي على الآيات الواضحات ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بقلبي وجوارحي.

سورة غافر

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا
شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا
قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

٤٧٥

(٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلق آدم أباكم الأول «وخلقه من تراب» ويستلزم خلق ذريته منه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي جعل ذريته يتناسلون من نطفة أي من مني ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي تتحول من مني إلى علقة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي من هذه الأطوار الخلقية في الرحم يخرجكم بولادة أمهاتكم لكم طفلًا ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي تبلغوا مبلغ الرجال فتكونوا شبابًا ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي مسنين ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي يفارق الحياة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن يوجد، أي من قبل أن يخرج إلى عالم الأحياء يسقط سقطًا أو يُتوفَّى شابًا وكهلًا ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي معلومًا عند الله لا يعلمه أحد من الخلق ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الأسباب التي خلقتم من أجلها وهي توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

(٦٨) ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو المنفرد بذلك وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي جليلًا أو حقيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ من غير توقف لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة، وما لم يشأ لم يكن.

(٦٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله المنزلة ويجادلون بالباطل، فانظر ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي كيف يصرفون عقولهم عن الهدى.

(٧٠) ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي بالقرآن ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي من الكتب التي أنزلناها من قبل وأرسلنا بها رسلنا إلى أقوامهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد من الله لهؤلاء المكذبين، أي سوف يعلمون ماذا سيحل بهم من العذاب.

(٧١) ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي يوم توضع القيود في رقابهم ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ أي نوع آخر من الأغلال ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي وفي السلاسل يسحبون سحبًا على وجوههم.

(٧٢) ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ أي المتناهي في الحر ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي تارة في الحميم وتارة في الجحيم يحرقون.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي أين الأنداد التي كنتم تعبدونها، لماذا لا ينصرونكم ولا ينقذونكم مما أنتم فيه؟

(٧٤) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي التي كنتم تعبدونها من دون الله ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي فقدناهم فلا نراهم اليوم ثم أضربوا عن هذا إلى الإنكار، فقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي جحدوا عبادتهم لأي شيء مضى لما تبين لهم أنهم كانوا في الضلالة والجهالة وأنهم كانوا يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع. وهذا في الحقيقة اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت ضلالة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي يثبتهم الله في الكفر والضلالة بعد أن دُعوا إلى الإيمان فأبوا، وهذا جزاء إبائهم للإيمان.

(٧٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي ذلك الإضلال ﴿بِمَا﴾ أي بسبب الذي ﴿كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بما كنتم تظهرون من المعاصي في الدنيا، وتفرحون بها، وتسرُّ قلوبكم بما كنتم تخالفون وتكذبون بالكتب ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي تبطرون وتختالون وتأشرون.

(٧٦) ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا جهنم وامكثوا فيها خالدين أبدًا في عذابها لا يخفف عنكم لحظةً ولا يؤجل، بل هو عذاب دائم محرق لا يفتَّر ولا ينقضي، ذلك بما كفرتم بالله ورسله وكتبه وكذبتم بالساعة حتى داهمتكم، وبما تكبرتم على المؤمنين واستهزأتم بهم وبدينهم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس المنزل وبئس المقيل في قرار الجحيم الذي فيه الهوان والعذاب لمن استكبر عن آياته تعالى.

(٧٧) ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على تكذيب قومك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إنه وعدك بالنصر والظفر عليهم ولن يخلف الله وعده وسينجزه لك ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي من العذاب في الدنيا وتراهم بعينك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنعذبهم في الآخرة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ
اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم
مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

٤٧٦

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وما لقوه من أقوامهم من الأذى ومنهم مَنْ لم نقصُص عليك أخبارهم وهؤلاء أكثر ممن ذكرنا بأضعاف أضعاف ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تعالى، أي وما كان لأي رسول ممن قصصنا وممَّن لم نقصص أن يأتي بأية آية إلاّ بإذن الله تعالى، إذ لا يستطيع الرسول أن يأتي بآية من عنده والآية هنا المعجزة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي الوقت المعين لعذابهم في الدنيا أو في الآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فيا بينهم فننجّي المؤمنين ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي أنصار الباطل الكافرون والمشركون.

(٧٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ وهذا امتنان من الله تعالى على عباده بأن خلق لهم من الأنعام ما يركبونها كالخيل والإبل، والحمير والبغال، وكذلك تحمل أثقالهم وأمتعتهم إلى بلاد بعيدة ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالغنم والماعز والبقر والإبل فتأكلون من لحومها وتدخرونها.

(٨٠) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كملابس من وبرها وصوفها وشعورها كما يتخذون منها الفرش والبسط والخيام ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ كسفر وتجارة وما يشبه ذلك ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي على الإبل في البر وعلى السفن والبواخر في البحر، ويدخل في ذلك فُلك الجوّ كالطائرات وغيرها.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي دلالاته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي فإنها كلها من الظهور بحيث لا ينكرها منكر، ولا يجحدها جاحد.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم التي عصت الله وكذبت رسلها، فإن ما يراه السائر في الأرض من آثار الدمار الذي أنزله الله مبلغ السخط والعقوبة التي أنزلها الله على أولئك المكذبين وما صاروا إليه من سوء العاقبة ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي كانت الأمم السابقة أكثر نفرًا وأعظم قوة وأظهر آثارًا ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي لم تغن كثرتهم ولا قوتهم ولا آثارهم شيئًا ولا منعهم ذلك من أن ينزل بهم بأس الله. أما أنتم، فإنكم أقل منهم نفرًا، وقوة، وآثارًا، أفلا تخشون أن يصيبكم ما أصابهم، ويحل بكم ما حل بهم. ثم شرع الله يقص على كفار العرب كيف جاءتهم الرسل أول الأمر:

(٨٣) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي لما جاءت الأممَ السابقةَ رسلُهم بالآيات والمعجزات ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي استغنوا بما عندهم من هذا الذي يسمونه علمًا بزعمهم وأظهروا الفرح به وقالوا نحن أعلم من هؤلاء الرسل فلن نعذَّب ولن نبعث ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه بسبب تكذيبهم.

(٨٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي فلما تأكدوا نزول العذاب بهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي إنهم كانوا يكذبون بالعذاب ويسخرون من الرسل الذين كانوا يعدونهم به وإذا رأوه نازلًا بهم عندها قالوا: آمنا بالله وحده لا شريك له ولم نعد نؤمن بالأصنام ولا بالشركاء الذين كُنّا نتخذهم معبوداتٍ من دون الله، ومرادهم بهذا الإيمان أن يرفع الله عنهم العذاب.

(٨٥) ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي لا ينفعهم إيمانهم بعد مشاهدة العذاب الذي كانوا يكذبون به من قبل وهو ينزل بهم الآن، أي آمنوا بعد فوات الأوان وحيث لا تقبل المعذرة إنما ينفع الإيمان الاختياري، لا الإيمان الاضطراري ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي سنّ الله في عباده سنّةً أنه لا ينفعهم الإيمان بعد معاينة العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ لما تبيّن لهم الحق ماثلًا أمامهم.

آخر تفسير سورة غافر «المؤمن»
ولله الحمد والمنّة والفضل وحده

لا يقبل إيمان عبد بعد معاينة ما كان يكذب به...

سُورَةُ فُصِّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ
ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ
هُمْ كَٰفِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ
الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ (٩)
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ
أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١)

٤٧٧

(٤١) سُورَةُ فُصِّلَتْ

مكية وآياتها ٥٤، نزلت بعد غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿حمٓ﴾ سبق أن بينا أن الأحرف المقطعة التي افتتح الله بها بعض السور قد استأثر الله بعلمه بها كما سبق أن بينا ذلك في أول سورة البقرة.

(٢) ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي نزل من عند الله رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، وفي هذا دليل على أن الله في العلو المطلق الذي لا حدَّ له.

(٣) ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي هذا التنزيل هو كتاب الله الذي فصلت وبينت وأحكمت أحكامه فظهر حلاله من حرامه وطاعته من معصيته ووعده من وعيده ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي بينًا واضحًا عربيًا فصيحًا والفاظه واضحة غير مشكلة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لأنهم عرب ونزل بلسانهم[1].

(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي يبشر الذين يؤمنون به وينفذون أحكامه على أنفسهم ومَن يعولون بالجنة. وينذر من يكفر به بالنار ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر العرب عنه ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن من أعـرض لا يسمـع، ومن لم يسمـع لا يعي ولا يفهم ما يقال له.

(١) إن صفت قلوبهم ففيها ينابيع ثرة من الفهم والعلم والعمل.

(٥) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي مغلفـة لا تفقه ما تقول لها ولا يصل إليها قولك ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي في آذاننا صممٌ ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي حاجز فلا يصل إلينا شيء من كلامك ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي اعمل ما بدا لك على إهلاكنا، إننا سنعمل على إهلاكك أو تُمسِك عن دعوتك.

(٦) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي لا أختلف عنكم في خلقي البشري إنما الفارق بيني وبينكم أنني ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي إنما أمتاز عنكم بأنه ينزل عليَّ الوحي من الله تعالى ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي يأمرني ربي أن أبلغكم بأن لا تعبدوا إلا إلهًا واحدًا وهو الله تعالى وتقدس ﴿فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ﴾ أي أقيموا على توحيده وعبادته وحده لا شريك له حتى المات ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي اطلبوا المغفرة منه وحده فهو الذي يغفـر الذنب ولا تسألوا غيره فإن فعلتم تكونوا أشركتم به ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ من عذاب خالد لا يقادر قدرُه ولا يعرف مداه.

(٧) ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ أي بالإضافة إلى شركهم فإنهم يمنعونها عن الفقراء ﴿وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي ومنكرون أيضًا للآخـرة لا يصدقون بحلولها ويجحدون بها.

(٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي لما وصف الله المشركين وأعمالهم عطف بذكر المؤمنين الذين صدقوا[2] بما أنزل الله على رسوله وعملوا بما علموا من الصالحات ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير منقطع أبدًا فهو متواصل في رحاب الجنة لا مقطوع ولا ممنوع.

(٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمـد للمشـركين: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي ليس المراد والله أعلم هذه الأرض التي نحن عليها فحسب، بل المراد هي وكافة الأفلاك السبعة التي فيها من الكواكب ما الله به أعلم، في هذا القول نظر! وكانت مدة الخلق في يومين أي انظروا يا أيها المشركون مَنْ هذا الإله العظيم القدير الذي تكفرون به!!!؟ والعياذ بالله ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي أمثالًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي تكفرون به هو ﴿رَبُّ الْعَٰلَمِينَ﴾ وإلههم.

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جبالًا ثوابت فوقها ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي جعلها كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع الكثيرة للعباد ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها وأرزاقها ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي تتمة أربعة أيام باليومين المتقدِّمين.

(١١) ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي قصد إلى خلق السماء وهي دخان بخار الماء المتصاعد حين خلقت الأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين وليس لنا إرادة تخالف إرادتك. وهنا نقول: خلق الله الأرض في يومين وقدر أقواتها في يومين ثم خلق السماء في يومين.

(٢) أي صفت قلوبهم فصدقوا.

القرآن نذير للكافرين لإعراضهم عنه وبشير للمؤمنين لإخلاصهم به

فقضىٰهن سبع سموات في يومين وأوحىٰ في كل سماء أمرها
وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز
العليم ﴿١٢﴾ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة
عاد وثمود ﴿١٣﴾ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن
خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة
فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴿١٤﴾ فأما عاد فاستكبروا في
الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله
الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون
﴿١٥﴾ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم
عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم
لا ينصرون ﴿١٦﴾ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمىٰ على
الهدىٰ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون
﴿١٧﴾ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿١٨﴾ ويوم يحشر
أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴿١٩﴾ حتىٰ إذا ما جاءوها شهد
عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿٢٠﴾

٤٧٨

(١٢) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي في يومين آخرين بعد خلق الأرض في يومين ومعنى قضاهن أي خلقهن وأحكمهن وفرغ منهن ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي ما تحتاج إليه من مخلوقات كالملائكة وغيرهم ممن لا يعلمهم إلا هو سبحانه ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ﴿وَحِفْظًا﴾ أي حفظناها حفظًا وحرسًا من الشياطين أن تستمع من الملأ الأعلى ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي عزَّ كلَّ شيء فغلبه وقهره، والعليم بحركات مخلوقاته وسكناتهم جميعًا سبحانه وتعالى وتبارك وله الحمد دائمًا.

(١٣) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عما جئتهم به ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي أنذركم بعذاب لا قبل لكم به كعذاب عادٍ وثمود.

(١٤) ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي جاءتهم من جميع جوانبهم والقرى المجاورة لهم داعيةً إلى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي يأمرونهم بإخلاص العبادة لله وحده، وينهونهم عن الشرك فأبوا الاستجابة لهم وكذبوهم و﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي إنكم بشر مثلنا فلا تستحقون أن ترسلوا إلينا، ولهذا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذه شبهة ما تزال متوارثةً بين كفار الأمم المكذبين للرسل وهي أوهى الشبه إذ ليس الشرط أن يكون الرسول ملكًا إنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فلما لم يستطيعوا ردَّ الآيات القاطعة لجأوا إلى هذه الشبهة الواهية!

(١٥) ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي استكبروا على ما جاءهم من الحق وبغوا ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي يمتنعون بقوتهم من بأس الله!! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي إن الذي خلقهم وخلق قوتهم فيهم أليس أشدَّ قوة منهم؟ ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي بمعجزات الرسل التي أيدهم الله بها يجحدون ويكذبون ويكفرون، وعصوا رسل الله فلهذا قال:

(١٦) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي ريحًا شديدة الصوت عاصفة مدمرة باردة تحرق كما تحرق النار في أيام ذات نحس مشؤومات باردات متتابعات في سبع ليال وثمانية أيام ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي نذيقهم الذل والهوان في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي أشد خزيًا وذلًا وهوانًا ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ ومن يقيهم من عذاب الله ونكاله؟

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي أرسلنا إليهم من يهديهم إلى الحق ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي فآثروا الكفر على الإيمان!! ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب كفرهم وعدوانهم وعنادهم وإصرارهم على الضلال جزاءً وفاقًا لأعمالهم.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من قوم ثمود ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون محارم الله ويخشون ربهم بالغيب ويعملون بما يؤمرون، وهكذا فإن الله سبحانه ينجي حزبه الذي آمن به ولجأ إليه.

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي هذا الوصف لهم بأنهم أعداء الله مبالغة في ذمهم. والمعنى أي يوم يحشر الله أعداء الله ويسوقهم إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: تحبس الزبانيةُ أولهم إلى آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، ويساقون إليها سوقًا عنيفًا لا يستطيعون امتناعًا ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون، لأنهم أعلنوا العداوة لله سبحانه بكفرهم وشركهم في الدنيا فاستحقوا العذاب الخالد.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي جاؤوا موقف الحساب ووقفوا على النار أي قبل أن يدخلوها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي يشهد عليهم سمعهم بما نطقوا من الكفر، وتشهد عليهم أبصارهم بما كانوا يصنعون من تعذيب المؤمنين، وتشهد جلودهم عليهم أيضًا بما كانوا يعملون من البغي والفساد والمعاصي؛ لأن هذه الشهادة شهادة صدق وعيان، وقيل: كل عضوٍ يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا.

يمتنعون بقوتهم من بأس الله... والله خالقهم هو وقوتهم أفلا يعقلون؟!

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ
أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم
مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن
يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ
قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ
أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

٤٧٩

(٢١) ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم وفي الحديث: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ: «ألا تسألوني مِن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول: أي رب أليس وعدتني ألا تظلمني، قال: بلى، فيقول: إني لا أقبل عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، فيقول تبارك وتعالى: أوليس كفى بي شهيدًا وبالملائكة الكرام الكاتبين، قال: فيردد هذا الكلام مرارًا قال: فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل فيقول: بعدًا لكُنّ وسحقًا، عنكن كنت أجادل» [٧٠٤]. ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي من قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداءً، قدر على إعادتكم إليه.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي ما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ولا تحاذرون من ذلك ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي فلذلك صدر منكم ما صدر.

(٢٣) ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ أي إن هذا الظن السيء بربكم ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي لأنفسكم وأهليكم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم فحقَّت عليكم كلمة العقاب. وفي الحديث: «لا يموتن أحدٌ منكم إلا وهو يحسن بالله الظن فإن قومًا قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾» [٧٠٥]. أي خسرتم أنفسكم.

(٢٤) ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا فإنهم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي وإن يسألوا الرجعة إلى الدنيا ليستأنفوا العمل ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ فلا جواب لهم؛ لأنه ذهب وقته مع أنَّ استعتابهم كذبٌ منهم، فلو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه.

(٢٥) ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي هيأنا لهم قرناء من شياطين الإنس والجن فحسنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين فيما يعملون في الدنيا وكذلك زينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة من أنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجب عليهم العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ أي كما حقَّ على من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي استووا وإياهم في الخسار والدمار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ بسبب كفرهم.

(٢٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي عند قراءته من قبل النبي ﷺ ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي صفقوا وصفروا وصيحوا وتكلموا بما لا فائدة فيه حتى تمنعوا القرآن من أن يصل إلى الأسماع ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي بمنع وصول القرآن إلى الأسماع.

(٢٧) ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي في مقابلة ما فعلوه عند سماع القرآن ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة على ما اقترفوه من الكفر والحيلولة دون وصول الحق إلى الأسماع بعقاب أكبر ذنبٍ اقترفوه، وبشَرِّ أعمالهم.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي تقدم هو عداوة لله و ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ جزاءً وفاقًا ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الإقامة الأبدية في النار ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي هذه النار الأبدية كانت جزاءً بسبب ما كانوا يكذبون بآيات الله ويلغون فيها لصرف الآخرين عنها.

(٢٩) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي من شياطينهما ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي ندوسهما تشفيًا ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ عذابًا.

يا أيها الغافل: لا تنسى أن أعضاءك شهود عليك!!!

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ
ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ
وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾
وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ
إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ
ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ
وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ
ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ
وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ
إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي قالوا بألسنتهم واستقرت في قلوبهم هذه الكلمة الطيبة: ربنا الله أي وحَّدوه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ على هذا مخلصين لله الدين وطبق ما شرع قولًا وعملًا حتى لقوه وهم على ذلك ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من الله تعالى أي عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ أي على ما تركتموه وراءكم من أمر الدنيا ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي الجنة التي وعدكموها الله ورسله.

(٣١) ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهذا قول الملائكة أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا، وأولياؤكم في الآخرة ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ أي في الجنة كل ما تتوق إليها نفوسكم وتلذُّ أعينكم ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما تختارون وطبق ما تشتهون من أنواع المشتهيات، وفي الحديث: «قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية أي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾. قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها» [٧٠٦]. وفي الحديث أيضًا: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجي إلى روْح وريحان وربٍّ غير غضبان» [٧٠٧]، إن كل هذه الحفاوة والمبالغة في الإكرام هي للذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا عليها حتى الموت.

(٣٢) ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ أي ضيافةً وتكرمةً، فبمغفرته أزال عنهم المحذور وبرحمته أنالهم المطلوب.

(٣٣) ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾ أي لا أحدَ أحسن كلامًا وطريقةً ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى لا إله إلا الله محمد رسول الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي يجب على الداعية أن يتحقق فيما يدعو إليه الناس ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دينًا وعبادةً وتعاملًا وإن هذه الآية وإن كانت نزلت في المؤذنين ولكنها عامة في كل من يدعو إلى الله تعالى، ولا شك أن الأذان دعوة إلى الله، وفي الحديث: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة» [٧٠٨]، وفي الحديث أيضًا: «اللهم اغفر للمؤذنين ثلاثًا» [٧٠٩].

(٣٤) ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي هناك فارق عظيم بينهما ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالحسنة أي أحسن لمن أساء إليك ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي كأنه أقرب قريب إليك فيصافيك ويخلص الودَّ لك ويصير من أنصارك وأتباعك ومحبيك.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي هذه السجايا الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الأذى في سبيل الله ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ أي نصيب وافر من السعادة ودخول الجنة؛ لأنه صبر على الأذية في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

(٣٦) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ تعالى، أي إذا صرفك الشيطان عما شرع الله لك فالتجئ إليه سبحانه منه فإنه لا يكفُّه عنك إلا هو ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بجميع أعمالك، وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» [٧١٠].

(٣٧) ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ أي خلقهما متعاقبين لا يفتران ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ أي ليعرف بهما حساب الشهور والأعوام وأوقات العبادات وحلول الحقوق بين الناس ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ وقد كان ناس يسجدون للشمس والقمر ويشركونهما مع الله تعالى، فنهاهم سبحانه عن ذلك ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ﴾ حقًا ﴿إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي إن كنتم تقصدون وجه الله في عبادتكم وتخلصون حقيقة له تعالى.

(٣٨) ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي عن عبادة الله وحده ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي لا يملُّون.

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر فالذي خلقهما أحق بذلك...

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن
يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ
وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي إذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وازدانت بخروج جميع الألوان من الزروع والثمار ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ من الموت إلى الحياة هو الله تعالى وتقدس، وإنه ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ أي من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء في الكون.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يكذبون بالقرآن ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ وهذا لا يخفى ما فيه من تهديد ووعيد لهؤلاء الذين يكذبون بآياته تعالى أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه بما يستحق وكما يكون الإلحاد في الآيات بالتكذيب بها ومعارضتها بالشُّبه، فكذلك يكون الإلحاد بتحريفها وتفسيرها على غير ما قصد منها كما فعل الجهمية! ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يستوي من عمل في الدنيا للنار ومن عمل فيها للجنة؟ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أي خير الله الجميع بالعمل خيرًا كان أو شرًا، وهذا تهديد آخر إنما يجزي في الآخرة كلًّا بما عمل ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بما عملتم في الدنيا ﴿بَصِيرٌ﴾ بكل ما تقترفون من آثام فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم ولا أقوالكم جميعًا.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي إن الذين كفروا وكذبوا بالقرآن حين نزل سيجازون بكفرهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجانب وعزيز عن أن يعارَض أو يأتي أحد بمثله، أو يطعن فيه الطاعنون، خالص من كل عيب.

(٤٢) ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل ولا يستطيع الشيطان أن يزيد فيه أو ينقص منه، وإن الكتب التي قبله مؤيدة له ولا كتاب بعده ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله ومحمود في أمره، وفيه دليل على علو الله تعالى ذاتًا ومقامًا على خلقه بائن منهم.

(٤٣) ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ يا محمد من قبل قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي كل قوم قبلك كذب أكثرهم الرسل كما يكذبك قومك فاصبر على أذيتهم كما صبر الرسل من قبلك على أذية أقوامهم لهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لمن تاب وآمن منهم ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لمن استمر في طغيانه وظل على كفره وعناده.

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة أعجمية ﴿لَّقَالُوا۟﴾ أي الكفار العرب ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي هلا بينت بلغة عربية لنفهمه ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي أكتاب بلغة أعجمية ينزل على رجل عربي!!!؟ أي يستنكرون هذا، فأمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ يهديهم من الضلال إلى الرشاد ﴿وَشِفَآءٌ﴾ أي شفاء من كل شك وشبهة في صدورهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي صمم فلا يفهمون ما يقول ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي أولئك الذين لا يؤمنون والموصوفون قبل قليل لا يسمعون نداء الحق وكأنهم ينادون من مكان ناءٍ باعتبار عدم فهمهم وانصياعهم للقرآن.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي كُذّب موسى وأوذي كما أوذيت يا محمد فاصبر ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب الذي يستحقونه، إلى موعد معلوم عند الله ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لنزل بهم العذاب ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي من ذلك اليوم لفي مرية وتكذيب.

(٤٦) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما يعود مردود صلاحه إلى نفسه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ إلى نفسه بعمل طالح ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي على نفسه وحده يكون الوبال والنكال ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كما في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» [٧١١].

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾
لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ
قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ
رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ
أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ
﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم
بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ
آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

٤٨٢

إذا أصاب الإنسان ضرٌّ دعانا... فلما كشفنا عنه بطر وكفر

﴿٤٧﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله عز وجل وحده ﴿يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي لا يعلم أحد متى الساعة إلا هو جل وعلا وتقدس ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي وكذلك يعلم ما تخرج كل ثمرة على اختلافها من أوعيتها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي يعلم بحمل كل أنثى من خلقه متى حملت ويعلم متى ستضع حملها وأي نوع هذا الحمل أذكر أم أنثى. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الذين عبدوا معه غيره ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي أين الذين اتخذتموهم شركائي فعبدتموهم من دوني ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يشهد بأن لك شريكًا.

﴿٤٨﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي زال وذهب وتخلى عنهم الذين اتخذوهم في الدنيا آلهة فلم ينفعوهم في الآخرة ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي أيقنوا أنهم ما لهم من مهرب من العذاب الخالد المؤبد الذي ينتظرهم، وهذا جزاء من يترك عبادة الحي القيوم ويعبد الميت الفاني.

﴿٤٩﴾ ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي لا يمل الإنسان من دعاء الخير له، كالمال والصحة والسلطان والرفعة، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة أو في غيره، وإن حملها على العموم أولى ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ والشر: كالمصائب والبلاء والفقر والمرض فإن مسَّه شيء من هذا إذا به يائس قانط من رحمة الله بكشف ما به من ضر.

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي إذا أصابته رحمة من الله بتوسيع رزقه، أو شفائه من مرضه وما يشبه ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي هذا ما أستحقه ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي كفر بيوم القيامة وبأن الله يبعث من في القبور ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي على تقدير أن هناك رجعةً إليه!!! ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي فسيحسن إليَّ الله في الآخرة كما أحسن إليَّ في الدنيا، فيتمنى على الله الأماني مع إساءته العمل وعدم التصديق بما أنزله الله على عبده، فرد الله عليه بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي سوف نخبرهم بجميع ما عملوا من أعمال طالحةٍ مكفرة ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي شديد موجع خالد بسبب كفرهم وذنوبهم التي اقترفوها في الدنيا ويظنون أن لا آخرة.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي أعرض عما أمره به ربه، وترفع عن الانقياد للحق وبعد عنه وتكبر عليه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي تضرع إلى الله ولاذ به.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ أي لم تصدقوا به أنه من عنده ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي لا أحد أضل منه لأنه في كفر وعناد ومشاقةٍ للحق، ومسلك بعيد من الهدى. ثم قال سبحانه:

﴿٥٣﴾ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي في الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي ما الإنسان مركب منه وما في بدنه من بديع صنع الله من روح ولحم ودم وعروقٍ وأعصاب، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي أن القرآن حق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي ألم تكفهم شهادة الله على أن القرآن حق، وأنَّ من جاء به صادق، وأنه تعالى شاهد على كل شيء.

﴿٥٤﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي في شكٍّ وريب من البعث والحساب، والثواب والعقاب ومن لقائهم الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي أحاط علمه بجميع المخلوقات وهي تحت قهره وفي قبضته والمتصرف فيها جميعًا بحكمته وحكمه.

آخر تفسير سورة فصّلت ولله الحمد والمنّة، والشكر والفضل

سُورَةُ الشُّورَىٰ (آياتها ٥٣) (٤٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ
ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ
ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ
﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ
حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي
ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ
مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾
أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

٤٨٣

(٤٢) سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكية إلا الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧ فمدنية، وآياتها ٥٣، نزلت بعد فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿عٓسٓقٓ﴾ لقد سبق أن تكلمنا عن الأحرف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور، في أول سورة البقرة فليرجع إليها من شاء.

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ أي هذا القرآن ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي من الرسل الذين سبقوك وأوحى إليهم التوراة والإنجيل والصحف التي من قبل، فإن الموحي إليهم جميعًا والذي أوحى إليك هذا القرآن هو ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يغالَب ولا يقهر، والحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

(٤) ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي هو وحده سبحانه خالقهما والمتصرف فيهما ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي هو العلي بذاته على خلقه البائن عنهم، العظيم الذي لا يدانيه في عظمته أحد من خلقه لا في ذاته العلية ولا صفاته المثلى، ومن عظمته:

(٥) ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي يتشققن من عظمة الله تعالى أي تنشق كل واحدة فوق التي تليها. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي ينزهونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي للذين آمنوا منهم، عما يبدو منهم من ذنوب ومعاصي ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لأوليائه، أما الكفار فشديد العذاب بحقِّهم.

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي أصنامًا يعبدونها من دون الله سبحانه ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي يحصي عليهم أعمالهم، ويعدها عدًا وسيجازيهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي إنما عليك البلاغ فحسب.

(٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي بلسان قومك، كما أرسلنا كلَّ رسول بلسان قومه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي مكة ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي من سائر البلاد وسميت أم القرى لأنها أشرف البلاد قاطبة وفي الحديث: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» [٧١٢]. ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه مطلقًا ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي من مؤمني الثقلين من الإنس والجن ﴿وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وفريق من الإنس والجن الكافرين في النار.

(٨) ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي أهل دين واحد إما على هدى، أو على ضلالة ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي ممن علم منهم في سابق علمه أنَّهم سيختارون الهدى فقدَّره وكتبه عليهم ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي والذين علم منهم أنهم سيختارون الضلالة فقدَّرها وكتبها عليهم وليس لهم منقذٌ منه.

(٩) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء يعبدونهم ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ أي الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا لوجهه الكريم ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي هل يستطيع ذلك غيره؟ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يغلبه أحد.

(١٠) ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي أيّ اختلاف تختلفون فيه من أمور الدين والدنيا ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى كتابه الذي أنزله فلا يجوز أبدًا أن تحتكموا إلى غير ما أنزله الله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي هذا الذي هذه صفاته هو ربي ويجب أن يحتكم إليه ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ فلا أتوكل إلا عليه، ولا أرجع في كل أموري إلا إليه، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

لو شاء الله لجعلهم مهتدين جميعًا ولم يفعل لأنه خيّرهم بما كلفهم به

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ
يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ
وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٨٤

(١١) ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما وهو الله تعالى وتقدس ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي خلق لكم من جنسكم وشكلكم تفضلًا منه سبحانه ذكرًا وأنثى ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام آية ١٤٣ و١٤٤ ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يخلقكم ويكثركم ويجعلكم أزواجًا لأن ذلك سبب النسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ أي يرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى القوت في الأجسام والماء في الأغصان، وفي هذه الآية ردٌّ على جميع أهل الأهواء من المؤولة والمشبهة والمعطلة ودليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الصفات(١) ونفي مماثلته تعالى للمخلوقات.

(١٢) ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن بيده أزمة التصرف في السماوات والأرض وأهلهما ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء من خلقه بالرزق ويضيق على من يشاء منهم في أرزاقهم، له الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي لا تخفى عليه خافية في ملكه الواسع.

(١٣) ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي إن الذي شرع لكم من دينكم هو نفسه الذي أوصى به أولي العزم من الرسل أي لا خلاف في شرائع الله التي أنزلها على الرسل وما أمرهم جميعًا إلا بأمر واحد: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أي وحدوا الله وأقيموا أحكامه بينكم ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي لا تختلفوا في فهمه وإن حصل شيء من هذا فارجعوا إلى ما أنزل الله ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد، وإصلاح النفوس وتهذيبها وجعلها في مرضاته تعالى فقد كبر على نفوسهم أن تدعوهم إلى الحق وترفَّعوا عن الإيمان بك وبما أنزل عليك ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ أي يختار ﴿إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي من يرجع إليه.

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي من بعد أن جاء بالحق محمد ﷺ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي بغيًا منهم على الرسول ﷺ، ومشاقة له ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أن سبق في علم الله أنه سيؤجل عذابهم إلى أجل مسمى عنده ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل لهم العذاب في الدنيا سريعًا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من اليهود والنصارى، أي الجيل الذي صار خلفًا لهم ممَّن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، إنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وفي شكٍّ من محمد ﷺ ومن القرآن، وذلك بغيًا وعنادًا، وشكًّا وارتيابًا.

(١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي فللذي أوحينا إليك مما وصينا به قبلك من المرسلين فادع الناس إليه ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي واستقم بنفسك استقامة موافقة لأمر الله تعالى، لا إفراط ولا تفريط، بل امتثالًا لأوامره، واجتنابًا لنواهيه. ومن المعلوم أن الأمر للرسول أمرٌ لأمته إذا لم يرد تخصيص له ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي أهواء المشركين فيما افتروه من عبادة الأصنام ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي آمنت بجميع الكتب المنزلة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ بالحكم بما أنزل الله إذا ترافعتم إليَّ ولا أحيف بل أعدل ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي خالقنا جميعًا فيجب أن يكون معبودنا جميعًا ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي ثواب كل عملٍ أو عقابه مختصٌّ بصاحبه ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع، وذلك قبل نزول آية السيف.

---

(١) كما وردت بلا كيف.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ
دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ
﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ
﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن
نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ
مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ
وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

٤٨٥

(١٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي يتوعد الله الذين يحاجون ويخاصمون في دين الله من بعدما استجاب له الناس ودخلوا فيه، ويصدون عنه من آمن به ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي باطلة مدحورة ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ من الله ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ أي يوم القيامة، وهؤلاء قيل: هم المشركون، وقيل: إنهم اليهود والنصارى لقولهم: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة.

(١٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ المراد بالكتاب يشمل الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي بالعدل والإنصاف والقسط ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ أي وما تدري لعل مجيء الساعة قريب الموعد، ولا يخفى ما في هذا الكلام من ترهيب وترغيب فيها.

(١٨) ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ أي استعجال استهزاء وتكذيب بها وكفرٍ ويقولون: متى هذا الوعد؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ أي خائفون من وقوعها لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ومجزيون ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ أي لا ريب في وقوعها ولا شك، ويتهيأون لها بالعمل الصالح ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يجادلون في حدوثها ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ أي في جهل ظاهر بيّن لأن الذي قدر أن يخلق السماوات والأرض من العدم ألا يقدر على إحياء الموتى من وجود بطريق الأولى.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يلطف بعباده بارين كانوا أم فاجرين ولا ينسى أحدًا من رزقه ويستوي في ذلك البر والفاجر ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ أي عظيم القُوى لا يعجزه شيءٌ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا شيء يغلبه.

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي يعمل عملها الموصل إلى نعيمها ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ أي يضاعف له الثواب عشرة أضعافه إلى سبعمئة ضعف ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ أي ومن يريد الدنيا وخصها بسعيه فقط نعطه منها ما قضت به مشيئتنا ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه لم يعمل للآخرة، وفي الحديث: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض فَمَن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب» [٧١٣].

(٢١) ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي بل لهم شياطين من الإنس والجن ابتدعوا لهم دينًا لم يأذن به الله تعالى ولا أنزله من عنده وحرموا فيه الحلال وأحلوا فيه الحرام. وفي الحديث: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجرّ قُصْبَهُ في النار» [٧١٤]. وكان أحد ملوك خزاعة وهو الذي حمل قريشًا على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ وهي تقدير تأخير عذابهم حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الدنيا فعوجلوا بالعقوبة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي هم المشركون المكذبون ومن زينوا لهم شركهم وابتدعوا لهم بدعهم واتخذوها شرعًا سيعذبهم الله عذابًا شديدًا موجعًا.

(٢٢) ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم المشركون الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وابتداع شريعة تضاهي شريعة الله فحكموا فيما بينهم تاركين ما أنزل الله خلف ظهورهم ويحكمون بغير ما أنزل الله من الحق والعدل، تراهم يا محمد ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي مما اقترفت أيديهم من الآثام التي ستؤدي بهم إلى عذاب خالد مؤبَّدٍ في قرار الجحيم ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ أي لا محالة أن العذاب واقع بهم هذا حال الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وترك ما أنزل الله. أما المؤمنون الموحدون فقد أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يشوبوا إيمانهم بكفرٍ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي مخلصين نواياهم لوجه الله في أعمالهم التي هي أيضًا طبق الشريعة المنزلة منه تعالى ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من النعم التي لا تعد ولا تحصى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي لا يوصف ولا تتصوره العقول.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾
وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ
وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ
لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟
وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

٤٨٦

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي هذه الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين، العاملين لوجهه تعالى الصالحات على ما يحب ويرضى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي قل يا محمد للمشركين من كفار قريش: لا أسألكم على دعوتي إليكم إلى الحق والهدى أجرًا ما، فإن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، إذ لم يكن بطن من قريش إلا وكان له فيهم قرابة، أي كأنه يسألهم الله بالرحم الذي بينه وبينهم أن يكفوا عنه الأذى الذي لحقه منهم ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يعمل حسنةً نزد له فيها حسنًا أي أجرًا وثوابًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للسيئات ﴿شَكُورٌ﴾ للحسنات.

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي بل يقولون اختلق الكذب على ربه بدعوى النبوة ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي لو افتريت على الله كذبًا كما يزعم هؤلاء الحمقى الجاهلون لطبع على قلبك قبل أن تفتري، ولسلبك ما كان آتاك من القرآن، والشرط لا يقتضي الوقوع كما هو معلوم ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي ولو كان ما أتى به النبي ﷺ باطلًا لمحاه الله تعالى كما جرت به عادته مع المفترين ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يحققه ويثبته ويوضحه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي شديد العلم بما في قلوب العباد.

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي إذا تابوا ورجعوا إليه وأنابوا ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي السيئات التي مضت من قبل إذا ندم العبد على فعلها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي هو سبحانه عالم بجميع ما تفعلونه من خير أو شر؛ لأنه معكم بعلمه وسائر صفاته.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يستجيب دعاءهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يشفعون لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفًا في الدنيا ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي والذين كفروا وماتوا وهم كفار أعدَّ الله لهم عذابًا شديدًا أليمًا.

(٢٧) ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولو وسَّع الله الرزق على عباده، لعصوا فيها وبطروا وتكبروا وطلبوا ما ليس لهم طلبه ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي على حسب مشيئته وما تقتضيه حكمته البالغة ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ﴾ بجميع أحوالهم ما ظهر منها وما بطن ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه حتى لا يبغوا في الأرض.

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي إن الله هو الذي ينزل المطر من بعد أن يئس عباده من نزوله ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي على الوجود ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي الولي لعباده الصالحين بالإحسان إليهم ودفع الضر عنهم والمحمود في جميع أفعاله وأقواله والمستحق الحمد على نعمائه وعلى السراء والضراء.

(٢٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي وما ذرأ فيهما من دابة، هذا يشمل كلَّ ذي روح على اختلاف أجناسهم وأنواعهم في أقطار السماوات والأرض ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي على حشرهم جميعًا ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ والظرف هنا متعلق بجمعهم لا بقدير فهو على كل شيء قدير.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي وما المصائب التي تنزل بالناس إلا بسبب سيئات اقترفوها وبما عملت أيديهم من ذنوب ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أي عن كثير من السيئات التي عملها الناس وذلك رحمةً منه تعالى بعباده، وإلا لكانت الذنوب سببًا لاستئصالهم.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض لا تستطيعون أن تمتنعوا من إنفاذ أمره فيكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم أو يمنع عنكم ما قضاه الله عليكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ينصركم من عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ
الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٤٨٧

اجتناب الكبائر والعفو وإقام الصلاة والزكاة والتشاور ونصر الحق من صفات المؤمنين

(٣٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره كأنها الجبال أو القصور.

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أي يوقفها عن الحركة، ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ أي سواكن ثوابت على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الذي ذكرناه من أمر السفن ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي لدلالات عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي لكل شديد الصبر إبان الشدة ﴿شَكُورٍ﴾ أي شديد الشكر في الرخاء.

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي يغرق تلك السفن بأهلها بما اقترفوا من المعاصي والآثام ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلكهم جميعًا.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قرأ الجمهور بنصب (يعلم) وقيل النصب على العطف على تعليل محذوف، والتقدير: لينتقم منهم ويعلم، واعترض على هذا التعليل والتقدير أنه: ترتُّبَ على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن تقدير (لينتقم منهم)، وقرأ البعض برفعِ (يعلم) على الاستئناف وحسن الشوكاني في تفسيره قراءة الرفعِ وقال: وهي قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ، وعلى كلٍّ نتبنى نحن قراءة الجمهور بنصب (يعلم) على حسب تقديرهم والمعنى: ويعلم الذين لا يؤمنون بآياتنا ومعجزاتنا، والذين لا صبر عندهم في الشدة ولا شكر عندهم في الرخاء ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي ما لهم من فرار منَّا ولا مهرب.

(٣٦) ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي مما لديكم من أموال وجاه وحياة ناعمة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي الزائلة الفانية إلى تباب وانتهاء ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أمرهم به من الإيمان والعمل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يوكلون أمورهم جميعًا إليه تعالى، فلا تقدموا الفاني الزائل على الباقي الدائم.

(٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وهذا معطوف على صفات المؤمنين أي يمتنعون عن الكبائر التي حرمها الله فلا يأتونها خوفًا منه تعالى وابتغاء مرضاته ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم ويحلمون، وفي الحديث: «إن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله» [٧١٥] وكان المؤمنون إذا قدروا عفوا.

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوه لما دعاهم إليه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في أوقاتها وشروطها وأركانها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي في الدين والدنيا فلا يستبدُّ أحد برأيه في أمر من الأمور ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب فالأقرب.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي إذا بغى عليهم أعداؤهم فهم ينتصرون لدين الله ويتفانون في ذلك حتى ينصر الله دينه.

(٤٠) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أي إذا أصيب المؤمن بسيئة من أحد فله أن يردها بسيئة مثلها ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إذا عفا عمن أساء إليه، وأصلح الودَّ بينه وبين المعفو عنه فقد حق له الأجر عند الله فهو يجزيه به ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن الله لا يحب من ينتقم بأكثر مما أسيء إليه به، وفي الحديث: «وما زاد الله تعالى عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا» [٧١٦].

(٤١) ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي وإن من ينتصر ممن ظلمه بقدر ما ظلمه دونما زيادة ﴿فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي فليس عليهم جناح في ذلك.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي يبدأون الناس بالظلم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على من ظلمه ﴿وَغَفَرَ﴾ أي وعفا عنه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي لمن حق الأمور التي يثيب الله تعالى عليها.

(٤٤) ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي ومن يختار الضلالة على الهدى فيجازيه الله تعالى بإضلاله جزاءً وفاقًا ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي ما له من يتولاه ويهديه غيره ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي يوم القيامة وما فيه من العذاب ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي تمنَّوا الرجعة إلى الدنيا وهيهات.

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ
مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟
لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم
مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟
فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ
أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ
وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(٤٥) ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي يعرضون على النار خاضعين أذلاء صاغرين لما لحقهم من الخوف ما تحققوا به هلاكهم ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يسارقون النظر من شدة الخوف، كالمصبور ينظر إلى السيف ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ويقول المؤمنون يوم القيامة: إن الخاسرين تمام الخسران، هم الذين أوردوا أنفسهم موارد الخسران، بما كسبت أيديهم من الأعمال التي أفضت بهم إلى خلودهم في النار، وخسروا أهليهم لأنهم: إن كانوا معهم في النار فلا ينتفعون بهم، وإن كان أهلوهم في الجنة، فقد حيل بينهم وبينهم ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي خالد سرمدي.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ليس لهم نصراء ينقذونهم مما هم فيه من عذاب الله ونكاله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي ومن يضله الله جزاء ما اختار الضلال له طريقًا ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ ولعله جواب سؤالهم آنفًا: (هل إلى مردٍّ من سبيل)؟ كلا بل إنه لقي الله مشركًا يوم القيامة وسيخلد في النار.

(٤٧) ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوا الله إلى ما دعاكم إليه واستعدوا للقائه بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ليس باستطاعة أحد ردُّه ودفعُه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي تلجأون إليه من الله ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي ما يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عنه، بل هو سبحانه محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه.

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي عما تدعوهم إليه ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي لست بمصيطر تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي لست مكلفًا بشيء سوى إبلاغهم الدعوة إلى الله تعالى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي رخاء ونعمة. وفي ذلك إثبات صفة الرحمة صفةً لله تعالى قائمة بذاته إذ النعمة أثر من آثارها ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي بطر بهذه النعمة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي وإذا أصابتهم مصيبة ونقمة وشدة بسبب ما اقترفت أيديهم من آثام ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي يكفر ويجحد النعمة السالفة التي كان يفرح بها إلا المؤمن الذي هداه الله إلى الإيمان والعمل الصالح. كما في الحديث: «... إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحدٍ إلا المؤمن» [٧١٧].

(٤٩) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هما ملك خالص له هو خالقها ومالكها والمتصرف بها وحده لا يشاركه في ذلك أحد ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي له المشيئة وحده في خلقه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي يهب البنين لمن يشاء، ويهب البنات لمن يشاء، له في ذلك المشيئة وحده وله الحكمة وحده في ذلك كله وما لعبيده إلا الامتثال.

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ التزويج هنا: الجمع بين البنين والبنات أي أن تلد المرأة غلامًا ثم تلد جارية ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي لا ولد له، يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم، والعقم أصله القطع. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي عليم بمن يستحق ذكورًا أو إناثًا وقدير على ذلك.

(٥١) ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي تارة يقذف في روعه كلامًا لا يشك فيه أبدًا أنه كلام الله تعالى فيعي النبي ما قيل له ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي وتارة أخرى يكلم رسوله من وراء حجاب كما كلم رسوله محمدًا ﷺ ليلة المعراج ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ الله للنبي ﴿رَسُولًا﴾ أي ملكًا كجبريل عليه السلام بصورة رجل ﴿فَيُوحِىَ﴾ إليه الملك ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله تعالى ﴿مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ على خلقه بذاته ﴿حَكِيمٌ﴾ بأقواله وأفعاله.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ
وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الزُّخْرُفِ — ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا
لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

٤٨٩

(٥٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ أي وكالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك، أوحينا إليك أمرًا من عندنا وهو القرآن ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي الذي أوحيناه إليك ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي ما كنت تدري من قبل أن يوحى إليك ما الكتاب أي القرآن أي شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي نهدي بالقرآن من اتخذه نورًا وآمن به. عندها نثبت قلبه بمشيئتنا التي شئناها له لما اختار الهدى طريقًا ومسلكًا، ولا نشاء له ذلك إلا إذا أعمل عقله وفكره وفهم الحق واتبعه ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي لتدل إلى الإسلام الحق بالدعوة إليه. ولا شك أنه يجب أن نقف قليلًا لنفرق بين هداية الله تعالى في قوله ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هدايتان، ولكل منها معنى خاص. فهداية الله هي هداية القلب وتحويله من وضع إلى آخر، فهذه الهداية لله تعالى وحده لا شريك له، وفي الحديث: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» [٧١٨]، والهداية الثانية في قوله تعالى هنا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هداية دلالة فقط.

(٥٣) ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أي شرعه الذي أمر به سبحانه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مالكهما والمتصرف فيهما ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي ترجع إليه ويحكم فيها.

آخر تفسير سورة الشورى ولله الحمد والمنّة والفضل

هداية الله صفة من صفاته وهداية المخلوق معناها الدلالة

(٤٣) سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مكية إلا آية ٥٤ فمدنية، وآياتها ٨٩، نزلت بعد الشورى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿حمٓ﴾ لقد سبق الكلام على الأحرف المقطعة بما أغنى عن إعادته.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أقسم بالكتاب المبين الجلي المعاني والألفاظ.

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي أنزلناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي باللسان العربي الذي هو أفصح الألسن ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهمونه وتحكمون به.

(٤) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ أي في اللوح المحفوظ عندنا ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي عليّ على الكتب قبله حكيم أي محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف ولا لبس ولا زيغ.

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي أنصفح عن عذابكم إذا صددتم عن القرآن إذ دعوناكم إليه لتهتدوا.

(٦) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة الخالية.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي كاستهزاء قومك بك وهذه تسلية له ﷺ.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي من هؤلاء قوة، ورغم بطشهم وقوتهم أهلكناهم بسبب تكذيبهم لأنبيائهم واستهزائهم بهم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وسلف أن ذكروا في جملة من ذكروا من الأمم.

(٩) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي وإذا سألت كفار قريش يا محمد: من خلق السماوات والأرض؟ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي ليعترفون أن الله العزيز الذي لا يغالب والعليم الذي لا يخفى عليه شيء هو الذي خلق السماوات والأرض من العدم؛ ومع هذا يعبدون غيره!؟ وهكذا فإنهم كانوا موحدين توحيد الربوبية ومعترفين بذلك ولكنهم كانوا كافرين بتوحيد العبادة وإفراده تعالى بها ومن أجل هذا كانت رسالات الأنبياء.

(١٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وهذا قوله تعالى جعله مبتدأ غير متصل بما قبله ممتنًّا به على عباده أي جعل الأرض مهدًا أي قرارًا ثابتة وأرساها بالجبال ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طرقًا بين الجبال والأودية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلدٍ ومن قُطْرٍ إلى قُطْرٍ.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا
كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا
لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ
لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم
بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي
الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ
شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم
مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ
كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

٤٩٠

(١١) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بقدر معلوم عنده تعالى لا يزيد ولا ينقص بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم، وشربكم لكم ولأنعامكم ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أي أحيينا بذلك الماء بلدة لا نبات فيها ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي كما أحيا الأرض يحييكم ويبعثكم من قبوركم.

(١٢) ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي الأصناف كلها من النبات والحيوان من ذكر وأنثى ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي خلق لكم بتعليم صنعة السفن لبعض عباده، يمخرون بها عباب البحار، تحملكم وأمتعتكم وتجاراتكم، وخلق لكم من الحيوانات ما تركبونها في البر.

(١٣) ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ لتعتلوا متمكنين ظهورَ الفلك والحيوانات ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ فيما سخَّر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي ما سخر لنا من الفلك والأنعام، ويدخل في ذلك كلُّ مركوب من سيارات وطائرات ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي ما كنا له مطيقين وضابطين له.

(١٤) ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون إليه. وهذا ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة أو الطيارة وما شابه ذلك، وهذا تنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة. وفي الحديث: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا ثم قال: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا السفر واطو لنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا»، وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون» [٧١٩].

(١٥) ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار أي جعلوا له من عباده شيئًا من الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي إن الإنسان الكافر ظاهرٌ كفره مبالغٌ فيه، ويجحد نعم الله جحودًا بينًا.

(١٦) ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ أي وإن الكفار قالوا: اتخذ الله له من عباده بنات فردَّ الله عليهم مقرِّعًا وموبِّخًا: أتخذ الله لنفسه البنات وخصكم بالبنين أي أجعل له المفضول من الصنفين ولكم الفاضل!؟

(١٧) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي بشر بأن ولد له أنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي من كراهيته، وبغضه للأنثى ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلئ غمًّا وهمًّا فكيف ينسب البنات إليه تعالى فيجعلون له ما يكرهون، ويأنفون؟

(١٨) ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي هي الأنثى تُربَّى في الزينة لنقص فيها فتكمله بلبس الحلي منذ طفولتها ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي وعند الخصام عاجزة عن الدفاع حتى عن نفسها فكيف ينسبونها إلى الله تعالى؟

(١٩) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أي قالوا إن الملائكة بنات الله ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي هل كانوا شاهدين حين خلقهم الله إناثًا!!!؟ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أي شهادتهم الكاذبة عليهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها يوم القيامة

(٢٠) ﴿وَقَالُوا﴾ أي عابدوها: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي إذا كانت عبادتنا لها غير صحيحة ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي هذا كلام بلا علم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يتمحَّلون تمحُّلًا باطلًا.

(٢١) ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي قبل القرآن ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ فلهم فيه دلالة على دعواهم.

(٢٢) ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي ليس لديهم من ذلك شيء إلا تقليدهم تقليدًا أعمى لفعل آبائهم.

يحتجون على كفرهم بمشيئته تعالى، والله ما أمرهم إلا بتوحيده والإيمان به

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾
۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ
إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ
إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ
مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ
لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ
يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم
بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٤٩١

(٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي إن الذين أرسلناهم من قبلك من رسل في أية أمة مضت ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أي أغنياؤها والمتكبرون فيها وأهل النعمة: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ أي علـى طريقـة ومـذهب معين لا يحيدون عنه، ودين لا يتركونه ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ أي مقتدون بما ترك لهم آباؤهم من مذهب ودين.

(٢٤) ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ أي إلا وقال ذلك الرسول أيضًا لهم: وإن جئتكم بأهدى منه؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي أقوامهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي ظلوا على ما هم عليه من العناد والكفر، شأنهم في ذلك، شأن المقلدة في زماننا وإذا أراد الداعي إلى الحق والهدى أن يردهم إلى ما أمر الله ورسوله من التقيد بالكتاب والسنة، نفروا من هذا القول وتمسكوا بما هم عليه من البدعة، ووجدوا في صدورهم الحرج من الدعوة إلى الدين الخالص.

(٢٥) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أي ذلك الانتقام الذي أوقعه الله بقوم نوح وعاد وثمود ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي ممن سبقوا أمتك ولينظر قومك إلى آثارهم من بعدهم كيف أصبحت خرابًا يبابًا.

(٢٦) ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ أي إن إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء تبرأ من أبيه وقومه لما تأكد أنهم غير تاركي معبوداتهم إلى ما يدعوهم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

(٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ أي استثنى ربه تعالى وتقدس من تلك البراءة لأنه هو المعبود الحق وإنه وحده الذي سيهديه إلى الطريق الأمثل المستقيم.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ﴾ أي كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله ﴿بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذريته عليه الصلاة والسلام ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي يرجع إلى كلمة التوحيد من يشرك منهم، ويخلع الشرك نهائيًا، ويكفر بما يخالفها من الأديان.

(٢٩) ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي مشركي العرب ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ بأنواع النعم ولم يعاجلهم بالعقوبة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي حتى جاءهم القرآن ﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ وهو محمد ﷺ.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي القرآن الكريم بما حواه من الحق ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ أي إن محمدًا سحر به الناس ليتبعوه عليه ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي لا نؤمن به ولا نصدق من جاء به.

(٣١) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقًّا فهلَّا نزل على مثل الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود.

(٣٢) ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ وهذا ردٌّ بليغ من الله عليهم؛ فقال سبحانه: هل هؤلاء هم الذين يعطون ويمنعون؟ كلا بل هذا له سبحانه وحده، يعطي النبوة من يشاء ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي فليس لأحد التحكم في ذلك ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ في كل شيء ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ أي ليُسخِّر بعضهم بعضًا في الأعمال ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ﴾ أي الجنة ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ من المال.

(٣٣) ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾ أي ولولا رحمته بعباده فيما لو أنه وسَّع عليهم رزقهم وسائر نعم الدنيا أن يتسارعوا في الكفر والمعاصي لجعل سقفهم من فضة وسلالمهم التي يصعدون عليها كذلك من فضة وذهب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي لولا أن يعتقد أكثر الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿لَّجَعَلۡنَا ...﴾.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا
فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ
بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ
إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

٤٩٢

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم أغلاقًا من فضة ويتكئون على أسرة من فضة أيضًا.

(٣٥) ﴿وَزُخْرُفًا﴾ قيل ذهبًا، وقيل: الزينة وهي أعم من أن تكون ذهبًا، وهو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأثاث ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وكل ما تقدم من تلك الزخارف إنما هي متاع الحياة الدنيا الزائل الفاني ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي أما ثواب الآخرة فهو مدَّخر عند الله تعالى للذين اتقوا الله وأخلصوا العمل. وفي الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء» [٧٢٠].

(٣٦) ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ومن تعامت بصيرته عن القرآن وما فيه من الحكمة والهدى إلى أباطيل المضلِّين ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي نُسلط عليه شيطانًا لا يفارقه، فيزيِّن له سوء عمله فلا يهتدي جزاءً وفاقًا، لأنه آثر الباطل على الحق، والضلال على الهدى.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وإن الشياطين الذين سلطهم الله على من تعاموا عن الحق، ليحولون بينهم وبين سبيل الله ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي من شدة تزيين الشياطين لهم سوء أعمالهم فيظنُّون أنهم على الهدى.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي يوم القيامة ومعه قرينه الذي لم يفارقه ﴿قَالَ﴾ أي متبع الشيطان للشيطان: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي يا ليتني ما اتبعتك وكان بيني وبينك بعد كبعد المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي أنت أيها الشيطان يا قرين السوء.

(٣٩) ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يا أيها المتعامون عن الحق لن ينفعكم هذا التبرؤ من الشياطين في الآخرة بعد أن تبعتموهم في الدنيا ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أنفسكم باتباعهم ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي لن يفيدكم أو يسليكم أنكم مشتركون في العذاب مع قرنائكم الشياطين، فإن في الآخرة للكافرين من العذاب ما لا يرتاح منه أحد ولا طرفة عين.

(٤٠) ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي كما أنك لا تستطيع إسماع الصم الكلام ولا إهداء العمي طريقهم، كذلك لن تستطيع أن تسمع القرآن للمشركين ولا أن تهدي قلوبهم إليه لأنهم هم الصم العمي الذين هم في ضلالهم غارقون.

(٤١) ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي إما أن ننتقم منهم بعد وفاتك انتقامًا عظيمًا لا يقادر قدره.

(٤٢) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي وإما نعذبهم قبل وفاتك فنرينَّك كيف نوقع فيهم العذاب الأليم الذي وعدناهم به فنحن قادرون على هذا وهذا ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي ولا يمكن أن يفلتوا منا.

(٤٣) ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي بهذا القرآن ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنك على طريق واضح ونهج قويم مستقيم.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي لشرف لك ولقومك ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي عن هذا القرآن وعن العمل به والحكم بآياته.

(٤٥) ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي واسأل من أمم الرسل من قبلك ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي هل أذنَّا بذلك.

(٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بمعجزاتنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي إلى فرعون وقومه ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إليكم لعبادة الله وحده.

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي فلما دعاهم بالمعجزات إلى عبادة الله وترك عبادة فرعون ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي من معجزاتنا يضحكون ويستهزئون.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن
تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

٤٩٣

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي من معجزة لاحقة ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي من المعجزة السابقة، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أما العذاب فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ...﴾ الآية [الأعراف: ١٣٠]. وأسباب أخذهم بالعذاب هو من أجل رجوعهم إلى الحق واتباعهم إلى ما يدعوهم إليه موسى عليه السلام ورغم هذه الأدلة، ظنوها سحرًا منه!

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي إنهم يعنون موسى عليه السلام وكانوا يسمون العلماء سحرة ويوقرونهم ولم يكن السحر صفة ذمٍّ عندهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي إذا آمنا كشف عنا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إذا كشف عنّا هذا العذاب.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي ينقضون عهودهم التي قطعوها بأن يؤمنوا بموسى إذا كشف عنهم العذاب.

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي ألا تنظرون إلى ما أنا فيه من الأبّهة والعظمة والملك في مصر، فمن موسى وقومه إلى جانب ما أنا فيه من الملك؟

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي بل أنا خير من هذا الحقير ويعني موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يبين في الكلام لما في لسانه من العقدة؛ على أن فرعون عليه لعائن الله المتتابعة هو المهين في الحقيقة وموسى عليه أفضل الصلاة والسلام هو الشريف البارُّ الراشد ولكن ليموِّه فرعونُ على قومه ليصدَّهم عن التأثر به.

(٥٣) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي هلَّا حلي بأساور الذهب وكان الرجل فيهم إذا أمَّروه سوَّروه بسوارٍ من ذهب ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي يخدمونه ويصدقونه ويشهدون له بالنبوة إيهامًا لقومه بأن الرسل لا بد أن يجيء معهم الملائكة شاهدين له.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي استخف منهم ومن عقولهم واستفزهم ليصدقوه فيما يقول فأطاعوه بذلك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله.

(٥٥) ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي فلما أسخطونا بتكذيبهم الآيات وعدم إيمانهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي في البحر، ولا يغتر من يعطيه الله وهو على المعصية، إنما هو استدراج من الله تعالى وسوف ننتقم منهم.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي سلفًا لمن عمل بعملهم ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أي عبرة وموعظةً لمن بعدهم.

(٥٧) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقال المشركون: رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى لأنه عُبدَ من دون الله، وأعجبوا بذلك وصاروا يضحكون فرحًا بذلك.

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي عيسى فنرضى أن تكون آلهتنا معه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي شديدو الخصومة، ثم بين سبحانه أن عيسى ليس بربٍّ.

(٥٩) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي آية وعبرة لهم يعرفون به قدرة الله سبحانه فإنه كان من غير أب وكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص وكل مريض بإذن الله تعالى.

(٦٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلفونكم فيها ولأسكنَّا الملائكة في الأرض يخلف بعضهم بعضًا.

استخف فرعون قومه فأطاعوه، وهكذا كل طاغية متأله على جماعته

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ
﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿٦١﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي إنَّ عيسى عليه السلام سيخرج قبل يوم القيامة، وخروجه هذا من أمارات الساعة أي يوم القيامة. ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي لا تكونوا في شكٍّ منها ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي ما آمركم به هو الطريق القويم.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي لا يصرفنكم الشيطان عن دين الله تعالى لأن عداوته لكم ظاهرة ولا يتحاشى عنها.

﴿٦٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاء لبني إسرائيل بالمعجزات العظيمة والشرائع المستقيمة ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي من أحكام التوراة ولأبين الحق لكم فيما تختلفون فيه من الأمور الدينية لا الدنيوية ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي اتقوا معاصي الله فلا تقترفوها وأطيعوني فيما آمركم به من التوحيد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أي خالقي وخالقكم ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي أدوا العبادة خالصة له وحده ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي ما أدعوكم إليه هو الصراط المستقيم أي هو الطريق القويم الوحيد الذي يؤدي إلى رضاه تعالى.

﴿٦٥﴾ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ وهم أهل الكتاب اليهود والنصارى في أمر عيسى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي منهم من يقول مُقِرًّا بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ابن الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ بسبب ما أشركوا بالله وكفروا به.

﴿٦٦﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي هل ينتظرون إلا أن تفاجئهم الساعة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي على حين غرة فلا يشعرون إلا ويوم القيامة قد حلَّ.

﴿٦٧﴾ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي الأصدقاء في الدنيا المتحابون فيها، يكونون يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يصبحون أعداء ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة. وفي الحديث: «لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي أحببته فيَّ» [٧٢١].

﴿٦٨﴾ ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي من النار، وهم المتقون المتحابون فيه تعالى ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على الدنيا وما فيها من نعيم فانٍ.

﴿٦٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ واسم الموصول بدل من عبادي أي: يا عبادي الذين آمنوا بما نزل من الله وكانوا مستسلمين لأحكامه هؤلاء يقول لهم تعالى:

﴿٧٠﴾ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي تفرحون؛ جزاء ما أسلفتم من الطاعات أنتم وأزواجكم المؤمنات.

﴿٧١﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يطوف الولدان والحور على المؤمنين بصحاف الطعام وأكواب الشراب من ذهب ﴿وَفِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي ما تشتهيه أهل الجنة من كل شيء ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمًا أبدًا.

﴿٧٢﴾ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم يوم القيامة: صارت إليكم الجنة كما يصير الميراث إلى الوارث بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة، وذلك فضل الله ورحمته وإلا فلا يدخل أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمة منه وفضل.

﴿٧٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ وهي الثمار كلها أي لهم في الجنة ما عدا الطعام والشراب ما يتفكَّهون به بعد ذلك من هذه الفواكه الكثيرة الأنواع ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي من سائر أصنافها مما تختارون منها إتمامًا للنعمة، ثم عقب بذكر الكافرين.

كل محبة في غير الله تعالى تنقلب يوم القيامة إلى عداوة...

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا
فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ
وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ
ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ
إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن
شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٧٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي إن الكافرين الذين أجرموا على أنفسهم باختيارهم الكفر لهم سبيلًا برغم ما بلغوا به من وجوب التزامهم بما أنزل الله من الأحكام في العقائد وأن يخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له؛ هؤلاء في عذاب جهنم خالدون جزاء كفرهم وشركهم.

(٧٥) ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم عذاب جهنم ولا يبرد جحيمها ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب الخالد ﴿مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من الخروج منه.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ما أدخلناهم النار بلا سبب موجب لعذابهم بل بما أشركوا وكفروا بالحق لما جاءهم وبذلك كانوا هم الظالمين؛ لأنهم بلغوا بلزوم اتباع الحق، ولكنهم أبوا إلا أن يتبعوا الباطل وأهله فظلموا أنفسهم وأوردوها هلاكها!

(٧٧) ﴿وَنَادَوْا۟﴾ أي الكافرون: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي بالموت، وهذا توسل منهم بمالك إلى الله سبحانه ليقضي عليهم بالموت ليستريحوا من العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي أجابهم مالك: إنكم ماكثون أي لا خروج لكم من النار، وليس لكم محيد عنها.

(٧٨) ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ على لسان الرسول فبيّنه لكم ووضّحه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي كنتم تكرهون سماع الحق واتباعه، وتنقادون للباطل تبعًا لرؤسائكم.

(٧٩) ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي بل أحكموا كيدًا للنبي ﷺ فإنا محكمون كيدًا في إهلاكهم.

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي هل يظنون أنا غير مطلعين على إسرارهم ولا على إعلانهم، ويحسبون أننا لا نسمع ما يدبرون ويكيدون ويمكرون؟ ﴿بَلَىٰ﴾ أي نحن نعلم ما يخفون من الكيد والمكر ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي الملائكة الحفظة يسجّلون عليهم جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل، لا يتركون شيئًا إلا وسجّلوه.

(٨١) ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي لو فرض وجود الولد لله، ما استنكفتُ عن عبادته ولكن هذا ممتنع مستحيل في حقه تعالى؛ ثم إن هذا شرط والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز، وما كان للرحمن أن يكون له ولد، ولذا قال الله تعالى:

(٨٢) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتقدس الله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم عما يصفه به الظالمون وتعالى علوًّا كبيرًا.

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ كما يشاءون ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم لقائهم معه يوم القيامة.

(٨٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو المعبود من أهل السماء والمعبود من أهل الأرض(١) ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الحكيم بتدبير خلقه والعليم بخفاياهم.

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تعاظم وتعالى وكثر خيره، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وبيده ملكوت كل شيء ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يعلم وحده متى يحلّ أجلها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تحشرون من قبوركم وتحاسبون.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي كل من دُعِي من دون الله لا يملك الشفاعة ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بكلمة التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

(٨٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي يعترفون بتوحيد الربوبية(٢) ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف يصرفون عن إفراد العبادة لله تعالى.

(٨٨) ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي شكا محمد ﷺ إلى ربه أن قومه الذين كذّبوه قوم لا يؤمنون.

(٨٩) ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي عن المشركين ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي اصفح عنهم قولًا وفعلًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما سيحل بهم من العذاب والنكال.

آخر تفسير سورة الزخرف ولله الحمد والمنّة والفضل

(١) لا كما يقول المؤولة والمعطلة بأنه في كل مكان.
(٢) وهذا لم يدخلهم في الإسلام لأنهم ما عبدوه وحده.

الشرط لا يقتضي الوقوع ولا الجواز، ليست الشفاعة إلا للمؤمنين

(٤٤) سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية وآياتها ٥٩، نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿حمٓ﴾ هذه الأحرف المقطعة وسائر مثيلاتها التي افتتح الله بعض سور القرآن بها سبق أن ذكرنا القول فيها في سورة البقرة.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن؛ فأقسم به تعظيمًا لشأنه ووصفه بأنه مبين لكل ما يحتاج إليه في الدنيا والآخرة. والقسم يتناول كذلك أنه أنزله في ليلة مباركة، فقال تعالى:

(٣) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر التي أخبر عنها الله تعالى أنها إحدى ليالي رمضان، والتي حددها رسول الله ﷺ أنها في ليلة السابع والعشرين من رمضان فلم يبق قول لقائل إنها في ليلة الخامس عشر من شعبان ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي مخوفين الناس من مخالفة أحكامه.

(٤) ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في هذه الليلة التي هي ليلة القدر يفصل في كل سنة كل أمر محكم من الأرزاق والآجال وغيرهما إلى مثلها؛ خلافًا لمن يقول إن هذا الفرق في ليلة ١٥ شعبان كما ورد في دعائها المبتدع.

(٥) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي رسلًا، محمدًا ومن قبله.

(٦) ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أرسل الرسل وأنزل الكتب رحمة بعباده ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم والعليم بأفعالهم.

(٧) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على غير مثال سابق ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي متحققين من ذلك.

(٨) ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود في الأرض ولا في السماء بحقٍّ إلا هو ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو الذي وحده يحيي ويميت وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم من العدم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خالقهم جميعًا.

(٩) ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي كفار مكة في شكٍّ من ذلك ويلعبون ويستهزئون بالقرآن وبمن أنزل عليه.

(١٠) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وذلك يوم القيامة وهو من الآيات المنتظرة، ومبين ظاهر.

(١١) ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي يعمهم ويقولون: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٢) ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي يقولها الكفار عند معاينة العذاب، فرد الله تعالى عليهم قائلًا:

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ
مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾
أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ
﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ
إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾
ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ
إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ
كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

(١٣) ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي كيف يتذكرون ويتعظون ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي بيَّن لهم كلَّ شيء يحتاجون إليه دنيا وآخرة.

(١٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي أعرضوا عنه وعن أقواله، ولم يكتفوا بذلك بل: ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي يعلمه آخرون وكذلك هو مجنون أيضًا.

(١٥) ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ أي ولو كشفنا عنكم العذاب وأرجعناكم إلى الدنيا، لعدتم إلى كفركم وتكذيبكم وهزئكم.

(١٦) ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي البطشة الكبرى وهي يوم القيامة، وإنا سننتقم من الذين كذبوا رسلنا وآياتنا.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي وقد اختبرنا قبل أهل مكة قوم فرعون ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي هو موسى عليه السلام.

(١٨) ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي قال موسى لفرعون وقومه: أرسلوا معي بني إسرائيل ولا تعذِّبوهم بأسركم، وأدُّوا إليَّ الطاعة والإيمان بالله، وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي مأمون على ما أنذركم به، وأدعوكم إليه.

الدخان أحد علامات يوم القيامة العشر، والبطشة الكبرى يوم القيامة لا يوم بدر

وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ
بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ
كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ
﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

(١٩) ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي بالاستعلاء والاستكبار عن عبادته، ولا العلو على عباد الله، وعلى اتباع آياته والانقياد لها ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجةٍ واضحة لا سبيل لإنكارها، وهي المعجزات الباهرات، فكذبوه وهموا بقتله، فلجأ إلى الله من شرهم فقال:

(٢٠) ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي لجأت إلى ربي وربكم وهو الله تعالى من شركم من أن تقتلوني رجمًا بالحجارة، وهكذا فإن أهل التوحيد لا يستعيذون إلا بالله وحده من شرِّ ما خلق الله؛ لأن الاستعاذة عبادة ولا تجوز العبادة إلا بإفرادها لله جل وعلا.

(٢١) ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى﴾ أي وإن لم تصدقوا رسالتي إليكم ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي سالموني إلى أن يقضي الله بيننا، ولكن لم يزالوا متمردين عاتين.

(٢٢) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي فدعا موسى عليه السلام ربه جل وعلا بأنهم اقترفوا جرم الكفر والعناد والاستكبار والسخرية.

(٢٣) ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ أي فأمره الله تعالى أن يسير ليلًا ببني إسرائيل، ويَخرجون من مصر إلى جهة البحر ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي سيتبعك أنت وقومَك فرعونُ وجنودُهُ.

(٢٤) ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي اتركه على حاله ولا تضرب البحر بعصاك ليصير حائلًا بينك وبين فرعون وهكذا أراد موسى أن يفعل، فأمره تعالى أن يتركه رهوًا أي على حاله ساكنًا، ولا تأمر البحر أن يرجع كما كان، بل اتركه يبسًا حتى يدخل فيه آخر جندي من جنود فرعون. أبشر يا موسى ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك بعد أن يدخل اليبس فرعونُ وجنودُهُ ثم أمر البحر أن يعود كما كان فيكونوا جميعًا من المغرقين جزاء كفرهم وعنادهم، وهكذا كان فغرقوا بأجمعهم والحمد لله رب العالمين.

(٢٥) ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين وأنهارًا.

(٢٦) ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي ومزروعات خصبة ومساكن طيبة

(٢٧) ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي من مآكل ومشارب وملابس وجاه وحكم فسُلبوا هذه النِّعم مرة واحدة.

(٢٨) ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي هم بنو إسرائيل، فإن الله ملَّكهم أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين، كما يصل الميراث إلى الوارث.

(٢٩) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ أي لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تَبْكِ السماء ولا الأرض عليهم لكفرهم وعتوِّهم وعنادهم.

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي كانوا فيه.

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي عاليـًا في التكبر والتجبر، ومن المسرفين في الكفر بالله، وادعائه الربوبية.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وقد اصطفيناهم على علم منا على عالم زمانهم لا على أهل كل زمن.

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي من الحجج والبراهين والمعجزات ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ أي ما فيه اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ أي هؤلاء المشركون من كفار مكة ليقولون:

(٣٥) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي ينكرون البعث والنشور والقيام لرب العالمين.

(٣٦) ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي هذا تمام كلام المشركين وهو حجة باطلة فإنما المعاد يوم القيامة لا في هذه الدنيا الزائلة الفانية.

(٣٧) ﴿أَهُمْ﴾ أي أهل مكة ﴿خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من عرب اليمن ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ ما عدا أسعد بن كريب فقد أسلم وقومه.

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي لعبًا ولهوًا وعبثًا وحاشاه سبحانه وتنزه عن ذلك وتعالى علوًا كبيرًا.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي من أجل أن يكونا دلالة على قدرته وعظمته جل وعلا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك وهم المشركون.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ
﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الجَاثِيَةِ — ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يوم الفصل بين الناس وهو يوم القيامة ﴿مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي موعد الفصل بين الكفار والمسلمين.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ أي لا ينفع قريب قريبًا ولا صديق صديقًا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا ينصر بعضهم بعضًا وكلهم يقول: نفسي!!!

(٤٢) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ أي إلا من شملته رحمة الله، والله لا يرحم في الآخرة إلا المؤمنين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي يرحم عن قدرة.

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي إنها شجرة لو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت معايش أهلها، ونغَّصت عليهم حياتهم.

(٤٤) ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي الكافر إطلاقًا، وإن كانت نزلت في أبي جهل لعنه الله، فإنه كان أشد الكفار على النبي ﷺ وطأةً وعداوة.

(٤٥) ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ قيل: إن المهل كعكر الزيت يغلي في البطون، غليانًا لا يُقادَرُ قدره والعياذ بالله تعالى.

(٤٦) ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي غليانه كغليان ذوب الحديد.

(٤٧) ﴿خُذُوهُ﴾ أي ينادَى ملائكة الجحيم: خذوا هذا الكافر ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي يؤخذ بتلابيبه سحبًا ويدفع من ظهره دفعًا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي يرمى في وسط النار وفي كبد الجحيم.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي صبُّوا على أمِّ رأسه من أشد العذاب، عذاب الحميم الشديد الحرارة.

(٤٩) ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ وفي الحديث: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾» [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ولقد علمتَ أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله في بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾(1) [٧٢٢]، أي يقول له الزبانية في جهنم ذلك على وجه التهكم والتقريع والعياذ بالله.

(٥٠) ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ أي العذاب هو ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكُّون فيه حين كنتم في الدنيا وتكذبون بوقوعه.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ لما ذكر الله حال الأشقياء عطف بذكر السعداء؛ ولهذا سمي القرآن مثاني فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لله في الدنيا هم ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ في الآخرة وهو الجنة فقد أمنوا فيها من الخروج والموت.

(٥٢) ﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم، يقابلها أن المؤمنين في جنات وعيون.

(٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ هو رفيع الحرير ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ الإستبرق ما غلظ من الديباج، فالمؤمنون في الجنة يلبسون هذه الملابس، يجلسون متقابلين مسرورين.

(٥٤) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي وعلى هذا الحال ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي نساء جميلات، يحار الطرف من حسنهن، وينبهر العقل من جمالهن، وينخلب اللبُّ لكمالهن واسعات الأعين حسانها.

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الفاكهة أحضر، وهم في مأمن من انقطاعها ومأمن من الأسقام.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي التي فارقوا فيها الدنيا ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فصارت الفرحة فرحتين والحمد لله.

(٥٧) ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي كل هذا النعيم فضل منه تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هذا الذي ذكر من النعيم هو الفوز المتناهي في العظم.

(٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ﴾ أي يسرنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ العربي المبين ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي لعل قومك العرب يفهمونه ويعملون به، و﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ فضل الله عليهم فيؤمنون.

(٥٩) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي انتظر يا محمد تباشير النصر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة وعلوّ الكلمة في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة الدخان ولله الحمد والمنّة
والفضل والثناء الحسن

(١) الحديث مرسل.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ
ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا
وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا
هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

٤٩٩

(٤٥) سُورَةُ الجَاثِيَة

مكية إلا الآية ١٤ فمدنية، وآياتها ٣٧، نزلت بعد الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾ سبق أن قلنا: إن هذه الأحرف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور استأثر الله بعلمه فيها؛ كما ذكرناه في أول سورة البقرة.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وفي هذا دليل على علو ذات الله حقيقة على خلقه، والعلو معلوم والكيف مجهول، ولا يشبه علوُّه تعالى علوَّ المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] العزيز في ملكه وسلطانه، والحكيم في أقواله وأفعاله.

(٣) ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما وَمَنْ فيهما من المخلوقات ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ واضحاتٍ على قدرة مَنْ خلقهنَّ، وما يفقه هذا إلا المؤمنون.

(٤) ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وكذلك لكم في خلقكم وخلق الحيوانات المختلفة أيضًا آيات باهرات ودلالات واضحات لقوم يوقنون به تمام اليقين.

(٥) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي وفي تعاقبهما ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من السحاب من الأمطار ﴿مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد أن كانت قاحلة مجدبةً ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي المتنوعة لسوق المطر وتلقيح الثمار، وغذاء الأرواح، ومن هذه الرياح ما يكون عقيمًا لا ينتج كلَّ ذلك ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم فيستدلون بها على وجود الله ووحدانيته، فيعبدونه وحده، لا يشركون به شيئًا، وتمتلئ قلوبهم بالإسلام والإيمان والإحسان.

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي ما بعده إلا الضلال ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فبأي شيء يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وبكتابه وما أنزل فيه من الآيات البينات على صدق رسوله ورسالته.

(٧) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يروى أنها نزلت في النضر بن الحارث. والويل هو وادٍ في جهنم أعد لكل كذاب شديد الكذب كثير الإثم، كذاب في قوله، أثيم في فعله وقلبه.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي يصر على كفره ويتمادى فيه ويستكبر على الانقياد للحق، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنها لم تمسَّ سمعه ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي موجع خالد مؤبد جزاء كفره وعناده.

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي سخرية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بسبب كفرهم وعنادهم واستكبارهم.

(١٠) ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ سيصلونها دائمًا وأبدًا ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي وكذلك لا يغني عنهم ما عبدوهم من دون الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي بما أسلفوا في دنياهم من الشرك.

(١١) ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا الذي جاء من عند الله وهو القرآن هدى يهدي للتي هي أقوم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي بما أنزل من الآيات البينات لينقذهم من الضلال إلى الهدى، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز هو أشد العذاب الأليم الموجع.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي ذلَّـلَهُ لكم ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإذنه وتقديره لكم ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والسفر من بلد لآخر، وتارة بالغوص للحصول على اللؤلؤ، وللصيد وغير ذلك، كل هذه النعم منه تعالى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي نعمه بطاعته فيما أمركم.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي رحمة منه لعباده ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلون على وجوده وتوحيده فيعبدونه وحده لا شريك له.

في الكون آيات تدل على وحدانيته تعالى، وويل لمن يسمع آياته تتلى عليه ثم يصر على كفره

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ
قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ
فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ
وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

٥٠٠

(١٤) ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي وأن يصفحوا عن أهل الكتاب والمشركين، ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام تألُّفًا لقلوبهم، وأيام الله هي وقائعه بأعدائه أي لا يتوقعونها ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم الله على إيمانكم وصفحكم وصبركم ثوابًا جزيلًا، وأما الكفار إن استمروا على كفرهم فسيجازيهم الله بما يستحقون من العذاب والنكال.

(١٥) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي يعود ثواب عمله الصالح لنفسه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ أي كفر أو عصى ﴿فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي تعودون.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي إنزال الكتب كالتوراة والزبور والإنجيل ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي الملك ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي بعث الأنبياء منهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي من المآكل والمشارب والملابس والمساكن ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عالم زمانهم.

(١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي شرائع واضحات في الحلال والحرام، والعلم بمبعث النبي ﷺ ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي فما وقع الاختلاف بينهم في الحلال والحرام ومبعثه ﷺ إلا بعد مجيء العلم بذلك كله، وبيانه بيانًا شافيًا وذلك بغيًا وحسدًا فيما بينهم لإنعام الله سبحانه على العرب ببعثة محمد ﷺ منهم، وكانوا أي بنو إسرائيل يستفتحون على العرب بمبعث رسول نبي في آخر الزمان يؤيدونه وينتصرون به على العرب ولكن لما بعثه الله كفروا به وقالوا ليس هذا هو النبي المنتظر! لأنه بعث من غير بني إسرائيل!!!؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل، ويجازي المحسن والمسيء كلًّا بما يستحق من فضله أو عدله.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير وتنهى عن كل شر وهي من أمرنا الذي أمرنا به مَن قبلك من رسلنا فاتبعها أي اتبع تلك الشريعة التي شرعناها لك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله الذين لا يعرفون الحق من الباطل، فتعمل به فتهلك.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لا يدفعون عنك شيئًا مما أراده الله بك، إن اتبعت أهواءهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي وما تغني عنهم وِلايتُهم لبعضهم بعضًا، لأنهم لا يزيدونهم إلا خسارًا وهلاكًا ودمارًا ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصرهم ومؤيدهم على أعدائهم.

(٢٠) ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا القرآن الكريم ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي تحصل به البصيرة للناس في جميع شؤونهم، وينتفع بها المؤمنون ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي رشد وطريق يؤدي إلى الجنة، ورحمة من الله في الآخرة لقوم يوقنون أي لا يشكُّون ولا يتزلزلون بالشبه.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي اقترفوا الذنوب الكثيرة، والمقصرون في حقوق ربهم عليهم؛ أحسبوا ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ لا، شتان شتان، لن يكونوا سواءً في محياهم ومماتهم، هؤلاء حيوا مؤمنين وماتوا مؤمنين، وأولئك حيوا مشركين وماتوا مشركين، فليس سواء حالهم ومآلهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي المشركون الذين قالوا للمؤمنين: إن مآلنا واحد.

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلق الله السماوات والأرض إلا من أجل الحق الذي هو لا إله إلا الله، أي ليتخذه عباده إلههم الحق فلا يعبدوا إلا إياه ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي بما عملت من موافقة أمر الله أو مخالفته ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لأن الله حرم الظلم على نفسه، فلا يظلم أحدًا.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم
مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

٥٠١

من اتخذ إلهه هواه ختم على حواسه، من سبّ الدهر لمصيبة أصابته فقد سبّ الله الذي فعلها

(٢٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي كذّب بما أنزل الله وبمن أرسله رحمة للعالمين فضرب بكل ذلك بعد تبليغه وإقامة الحجة عليه ثم عبد من دون الله كل ما تهواه نفسه من الآلهة المفتراة وهو: الحارث بن قيس السهمي، وإن هذه الآية وإن كانت نزلت بحقه ولكنها عامة في كل من فعل ذلك ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي علم أنه على باطل فيما يفعل، فإن الله تعالى يمدُّه ويضلُّه ويركسه، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي جعله لا يسمع سماع متعظ ومنتفع، وختم على قلبه فلم يعد يعقل ولا يفهم، وجعل على بصره وبصيرته غشاوة فلم يعد يرى الحق. كل ذلك جزاء ما اختار الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان فكان الجزاء من جنس العمل ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تعتبرون؟

(٢٤) ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي المشركون ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي ليست هناك من حياة سواها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعض ويحيا بعض ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي ينكرون البعث والنشور وينسبون الموت إلى الدهر مع أن الله هو الذي أمات وهو الذي أحيا ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون. وفي الحديث: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر بيدي[1] الأمر أقلب ليله ونهاره» [٧٢٣] وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر» [٧٢٤] وليس معنى هذا أن الدهر من أسماء الله تعالى كما زعم الظاهرية!!! لا، إنما كان العرب ينسبون الفعل للدهر ويسبونه فيقولون: يا خيبة الدهر فعل كذا وكذا، بينما فاعل ذلك كله هو الله تعالى، فإذا سبوا الدهر لهذا فكأنما سبوا الله تعالى، لأنه فاعل كل الذي يشكون منه.

(٢٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن على المشركين تبين لهم قدرة الله على إعادتهم بعد موتهم ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ التي يحتجون بها ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أحيوا آباءنا إن كان ما تقولونه حقًا. فما كان لهم حجة إلا هذا القول الباطل.

(٢٦) ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فمن قدر على ابتداء الخلق من عدم، قادرٌ على إعادته من وجود ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم أغلقوا أفهامهم عن العلم وإلا فإن الله أعلمهم بكتابه والرسول بلغهم ذلك، ولكن صمُّوا آذانهم عن سماع الحق، فصاروا كأنهم لا يعلمون.

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي جميعها في تصرفه وهو وحده الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي على الركب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي كتاب أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذا يوم القيامة يوم الجزاء بما كنتم تفعلونه في الدنيا خيرًا كان أو شرًا.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الذي تكتبه الملائكة ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي كنا نأمر ملائكتنا أن تكتب أعمالكم.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في الجنة التي هي من رحمته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي البيِّن الواضح.

(٣١) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن اتباعها والعمل بها؟ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بكفركم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي بالبعث والحساب والجزاء ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي إنها قائمة ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أيّ شيء هي؟ أي ما لنا اعتقادٌ بذلك ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي نتوهم وقوعها توهمًا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي متحققين من وقوعها.

---

(١) يده تعالى صفة له حقيقة بلا كيف.

(٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي تحققوا أن عقوبة السيئات التي فعلوها ماثلة أمامهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم العذاب الذي كان يعدهم به الله ورسله، ولكنهم كانوا يستهزئون ويستبعدون وقوع ما يوعدون به.

(٣٤) ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي ويقال لهم: اليوم نعاملكم معاملة الناسي لكم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فلم تعملوا له ولم تصدقوا به. وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني» [٧٢٥] ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي النار مأواكم ومصيركم وليس لكم من ينصركم من عذاب الله، ويدفع عنكم عقابه.

(٣٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي هذا الذي تعانونه اليوم ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ أي السبب أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي سخرية ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي واغتررتم بنعيم الحياة الدنيا الزائل ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي من النار أبدًا ولا يخفف عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا تقبل منهم معذرة.

(٣٦) ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ أي مستوجبه ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أي خالقها ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي رب الجميع.

(٣٧) ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له العظمة والمجد، والعبادة مبنية على ركنين عظيمين هما: محبة الله والذل له تعالى وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله تعالى، وجلاله وكبريائه، تقدست أسماؤه وصفاته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي القاهر الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

آخر تفسير سورة الجاثية ولله الحمد والمنّة والفضل

(٤٦) سُورَةُ الْأَحْقَافِ

مكية إلا الآيات ١٠، ١٥، ٣٥ فمدنية، وآياتها ٣٥، نزلت بعد الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿حم﴾ راجع أول سورة البقرة.

(٢) ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ فيه دليل على علو ذات الله حقيقةً على جميع خلقه علوًا لا يشبه علو أحدٍ من خلقه، والعلو معلوم والكيف مجهول ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿الْحَكِيمِ﴾ في جميع أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره تعالى.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾
وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا
لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ
ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن
لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

٥٠٢

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات جميعًا ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي الذي تقتضيه المشيئة الإلهية. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي خلقها وبقاؤهما مقدر إلى ساعةٍ معينة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي لاهون ساهون.

(٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما تعبدون من دونه من الأنداد؟ ﴿أَرُونِي﴾ أي أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أيّ شيءٍ خلقوه في الأرض ومنها؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي هل خلقوا مع الله شيئًا من الأجرام السماوية؟ ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من علم الأولين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم التي تدعونها بأن لله شريكًا ولن تأتوا بأي دليل، فوضح بطلان قولكم ذلك.

(٥) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا أحد أضل ممن يدعو من لا يستجيب له في شيء ولو بقي يدعوه إلى يوم القيامة ﴿وَهُمْ﴾ أي الأنداد الشركاء ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾ أي عن دعاء من أشركوهم مع الله ﴿غَافِلُونَ﴾ أي لا يعلمون بهم ولا يدرون ما يفعلون.

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ
وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٥٠٣

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي العابدون للأصنام التي هي تماثيل لرجال كانوا صالحين ثم عبدوا من دون الله ولم يكونوا راضين عن عبادتهم كالملائكة والمسيح والعزير ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي كانوا لعابديهم أعداء ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي يتبرأون منهم ويكفرون بشركهم.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي واضحات من آي القرآن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي وصفوا القرآن لما سمعوه ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي هذا القرآن بما فيه من آيات إنما هو سحر سحَر به محمد قلوب الناس وأنفسهم وقالوا: وما من شك في أنه سحر ظاهر.

(٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي يقولون بل افتراه محمد وادعى أنه نزل عليه ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي إن كنت افتريته على ربي لا يقدر أحد قط أن يجيرني من عقابه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي هو أعلم بما تخوضون فيه من الكذب ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ جل جلاله ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي يشهد لي بأنني بلغته إليكم ويشهد أنكم كذبتم به، وفي هذا وعيد شديد لهم ليعودوا إلى التوبة والاستغفار ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي فتوبوا إليه وأقلعوا عما تفترون يغفر لكم ويرحمكم.

(٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي لست بأول رسول بعث إلى الأرض حتى تستغربوا رسالتي، فقد سبقني الرسل والأنبياء، وكلهم دعوا بأمر الله إلى ما دعوت إليه بأمره ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ قيل هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي لست بآتي الشيء من عندي ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما أنا إلا مبلغ عن ربي من النذارة الواضحة لكل ذي عقل ولبٍّ وفهم.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي إن كان هذا القرآن من عند الله ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي وكذبتم به فما ظنكم أن الله صانع بكم؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي شهد عبد الله بن سلام رضي الله عنه أي على مثل ما في التوراة بصدق القرآن لمعرفته بحقيقته من التوراة ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بمحمد والقرآن فكفرتم بعملكم هذا بنبيكم وبكتابكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وأوردوها هلاكها، لأن الاستكبار عن الحق أظلم الظلم.

(١١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي قال المشركون للمسلمين: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ أي لو كان في القرآن خيرٌ ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ كعمار وبلال وصهيب وخباب من المستضعفين. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أي ولما لم يهتدوا بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كذب مأثور عن الأقدمين.

(١٢) ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي أنزلناه قدوة ورحمةً لبني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ أي للكتب السابقة ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي الكفار ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ويبشر المؤمنين الذين اجتازوا درجات الإسلام والإيمان والإحسان.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي آمنوا بالله ووحدوه توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على هذا التوحيد ولم يشركوا به شيئًا حتى الممات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من النار يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

(١٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموحدون المستقيمون هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم الخالد ﴿جَزَآءًۢ﴾ من الله تعالى وفضلًا منه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة والمقبولة.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى
ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ
لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن
قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ
مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ
فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ
بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

٥٠٤

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي من نعم الله تعالى على عباده ولطفه ورحمته بهم أن أوصى الأولاد بالإحسان إلى والديهم فما من ولد إلا وسيكون أبًا أو أمًّا على الغالب، فقد أوصى بعباده بعضهم ببعض، ليرعاهم جميعًا برحمته إلى أن يرث الله السماوات والأرض، ثم بين الأسباب الموجبة لذلك فجعل الإحسان مسبقًا من الوالدين إلى أولادهم، ليكون الإحسان من الأولاد إلى آبائهم من قبيل الوفاء للحق فينزل منزلة الوجوب للآباء على الأبناء، فقال تعالى ذاكرًا إحسان الأبوين أولًا: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي بمشقةٍ وتعب من وحم وغثيان وثقل وكرب ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي بمشقة وآلام شديدة، ثم مشقة الرضاعة وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدةً يسيرة: ساعة أو ساعتين بل قال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ بمدةٍ طويلةٍ قدرها ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي الحمل تسعة أشهر والباقي للرضاع هذا الغالب. ويستدل بهذه الآية مع قوله تعالى ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع هي سنتان إذا سقطت من الثلاثين شهرًا بقي ستة أشهر مدة الحمل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهو كمال قوته وعقله ورأيه ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أي ألهمني ذلك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ ولا يرضى الله عملًا إلا إذا كان خالصًا لوجهه، وطبق شريعته ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي أولادي فيكونوا مؤمنين ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي تبت إليك من ذنوبي ورجعت إلى طاعتك.

(١٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي نجازيهم على أعمالهم بحساب أحسنها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي نغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي يدخلون في جملة من يدخلون الجنة ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي الوعد الصادق، ومن أصدق من الله وعدًا وعهدًا وفي الحديث: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة» [٧٢٦] وهذا الفضل منه تعالى.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ والعياذ بالله تعالى ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي أن أبعث من قبري ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي وقد مضت الأمم ولم يرجع منهم أحد ﴿وَهُمَا﴾ أي والداه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي يدعوان الله له ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي آمن بالبعث فإن وعد الله حق لا يخلف به ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(١٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين قالوا تلك المقالات هم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجب عليهم العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي في جملة أمم مضت من قبلهم من الجن والإنس، كان عمل هؤلاء كعمل أولئك.

(١٩) ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي ولكل من المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي يوفي كلًّا من الطرفين جزاء أعمالهم التي عملوها خيرًا كانت أو شرًّا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فإن كان المؤمنون يعاملون بفضله، فالكفار يعاملون بعدله.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء ويرون النار ويعرضون على العذاب يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي استمتعتم بالطيبات أي الشهوات واللذات في معاصي الله ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي عذاب الخزي والذل والإحراق الدائم الخالد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب استكباركم عن الإيمان ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي تعملون بالمعاصي.

أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأكثر مدة الرضاع عامان

وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ
مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ
عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾
فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ
بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ
شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ
وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ
وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ
أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ
بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾

(٢١) ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك قصة هود عليه السلام ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ وهي بلاد الجبال من الرمل من بلاد حضرموت مشرفة على البحر ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي وقد مضى المرسلون من قبله ومن بعده ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي أفردوا العبادة له سبحانه، ودعوا ما دونه من الأنداد ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي أخشى عليكم من عذاب يفاجئكم به الله تعالى فيستأصلكم عن آخركم، فلم يكونوا ليتعظوا بقوله ونصحه، ولم تفد فيهم دعوته.

(٢٢) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي تصدنا وتصرفنا عن آلهتنا ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي استعجلوا العذاب.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إنما العلم بوقت مجيئه عند الله تعالى ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون، لأنكم بقيتم مصرِّين على كفركم.

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي لما رأوا السحاب الذي فيه العذاب يستقبلهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ أي هذا السحاب سيمطرنا، قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي ريح فيها العذاب الأليم الذي كذبتم به.

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ أي تخرب كل شيء من بلادهم بإذنه تعالى ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ هالكين ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ أي لا ترى إلا مساكنهم خاوية من أهلها الذين هلكوا ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا، وكفر بنعمتنا ولم يشكرها بطاعتنا. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت -أي: عائشة- وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها فسألته فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾» [٧٢٧].

(٢٦) ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ أي ولقد مكنا عادًا في الأرض يتمتعون منها وبشهواتها وكانوا أقوياء عليها وأطلنا لهم أعمارهم فيها، فيما لم نمكنكم فيه، أي كانوا أقوى منكم وأشد ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ كاملة تامة لا نقص فيها ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي فما أفادهم ذلك من شيء ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يعرضون عن الحق ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يكذبون.

(٢٧) ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ كعادٍ وثمود وقوم لوط وسبأ ومدين، وإنكم لترونهم أي ترون ديارهم وما حلَّ بها أثناء مروركم في غدواتكم وروحاتكم ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي أوضحناها لهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي يستعملون ما مكنّاهم فيه من القوة والسمع والبصر والعقل، فيرجعون عن كفرهم إلى الحق، فلم يفعلوا فدمرناهم، فلا تكونوا مثلهم حتى لا يحلَّ بكم ما حلَّ بهم.

(٢٨) ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ أي هلا نصرهم الذين عبدوهم واتخذوهم آلهة هلَّا أنقذوهم من بأسنا لما أوقعناه بهم فأين كانت آلهتهم إذ ذاك!!!؟ ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ أي بل ذهبوا عنهم في الوقت الذي هم أشد ما يكونون حاجةً إليهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الكذب، فاحذروا عاقبة تحلُّ بكم كعاقبتهم تلك.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
(٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
(٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٣٥)

سُورَةُ مُحَمَّدٍ — ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

٥٠٦

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي وجهناهم وبعثناهم إليك ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي يقصدون استماع القرآن منك ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي عند قراءتك له ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ وهذا أدب منهم أي اسكتوا حتى يفرغ من قراءته ويتدبروه ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي القرآن وفرغت من قراءته ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي انصرفوا إلى قومهم ينذرونهم عن مخالفة القرآن ويحذرونهم مغبّة ذلك.

(٣٠) ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ أي القرآن ممن نزل عليه وهو رسول الله ﷺ ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي نزل بعد التوراة كتابِ موسى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما قبله من الكتب المنزلة، ولم يذكر الإنجيل لأن التوراة أصل له ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي إلى الدين الصحيح الذي لا يأتيه الباطل ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الطريق الوحيد الموصل إلى الله سبحانه وتعالى.

(٣١) ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أي أجيبوا محمدًا ﷺ فهو الذي يدعو إلى الله على بصيرة وهدى وحق فإن أجبتموه نجوتم وسعدتم ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي صدقوا بما جاء به من ربه ﴿يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعضها لأن مظالم الناس لا تغفر إلا من أصحابها ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لأنكم أجبتم الداعي الذي اجتباه للدعوة إليه واختاره بشيرًا ونذيرًا.

(٣٢) ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أي لم يجب رسوله ومصطفاه ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يستطيع أن يخرج من ملكوت الله فإنه سبحانه لا يفوته هارب ولا يغالبه غالب ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي لا أحد ينصرهم ويجيرهم منه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي وهذا مقام تهديد وترغيب فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ولهذا نجع هذا التهديد في كثير من الجن فجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفودًا وفودًا. وإن أول ما جاء الجن إلى رسول الله ﷺ بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه الفجر، فلما سمعوا منه القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم وأنذروهم ولم يكن يعلم رسول الله ﷺ بأمرهم إنما أخبره الله تعالى بذلك، وبعدها أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله وفي الحديث: «... إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن». قال فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. ولما سألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم، قال: فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم الجن» [٧٢٨].

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي وما أعجزه ذلك ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي يقدر على ذلك من باب أولى لأن خلق السماوات والأرض أعظم ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي أليس هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به ألا ترونه اليوم حقيقة؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي هو حق بلا شكّ ولا ريب ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب ما كنتم تكذبون به في الدنيا!؟

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على تكذيب قومك ﴿كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي أولو الثبات والحزم والعزم على أقوامهم فإنك منهم فاصبر كما صبروا ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي حلول العقوبة بهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا القرآن بلاغ لكم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون على أمر ربهم.

آخر تفسير سورة الأحقاف ولله الحمد والمنّة
والفضل وعليه التكلان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ
إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

٥٠٧

(٤٧) سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية إلا الآية ١٣ فنزلت في الطريق أثناء الهجرة، وآياتها ٣٨، نزلت بعد الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم كل مشرك وكافر جحدوا بآيات الله وصدوا الناس عن دينه، ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي يجازيهم بأن لا يقبل منهم عملًا صالحًا ويبطله لأنه غير مرتكز على التوحيد والإيمان به تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام.

(٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خالصةً لوجه الله تعالى وطبق ما شرع ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي القرآن والسنة الصحيحة. ونص على الإيمان به للدلالة على أنه شرط في صحة الإيمان. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي نزل من عند الله تعالى والناسخ لما قبله من الكتب ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي غفرها لهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي أصلح أمرهم وعصم من المعاصي أعمالهم وأرشدهم.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي اختاروا الإيمان على الكفر ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي إيضاحًا لحالهم وما سيصيرون إليه في معادهم.

(٤) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي قطعها وهو كناية عن القتل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي قتلًا وتجريحًا وكسرتم شوكتهم ورأيتم الأسر أولى ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي فأسروهم وأحكموا الرباط ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي إما إطلاقًا بغير عوض وإما فداءً بالمال. والإمام مخيرٌ بين العفو والفداء أو القتل أو الاسترقاق ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي حتى تنتهي ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم من الكافرين بعقوبة من عنده ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي ليختبركم ويعذب الكفار بأيديكم ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لا يضيعها لهم بل يضاعف أجورهم.

(٥) ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي سيهديهم طريق الجنة.

(٦) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي عرفوها بما وصفها لهم في الدنيا فعرفوها حتى إذا دخلوا الجنة تفرقوا إلى منازلهم بلا دلالة.

(٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي إن تنصروا الله بإقامة دينه ينصركم على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ فلا يدعكم تنهزمون منهم.

(٨) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي فيخذلهم ويهزمهم ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي جعلها حابطة ضائعة كأن لم تكن من أجل كفرهم.

(٩) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي في القرآن من حضِّهم على الإيمان فأبوا وكرهوا الانقياد لأحكام القرآن ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها.

(١٠) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم السابقة ما أحلَّ الله بهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي دمر الله عليهم ديارهم واستأصل شأفتهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي ولهؤلاء الكافرين المشركين أمثال ما فعلنا بالأمم الكافرة قبلهم.

(١١) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ناصرهم على أعدائهم ويتولاهم بفضله ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي لا نصير لهم يمنعهم من الله تعالى.

من آمن بمحمد ﷺ وما أنزل عليه غفرت سيئاته وأصلح باله...

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ
وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ
ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ
ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ
يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ
وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ
وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ
ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا
ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ
ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

٥٠٨

(١٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وكان إيمانهم حقًا وأعمالهم خالصة لوجهه تعالى ومطابقة لما شرع جل وعلا ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت منازلهم تسقي الأشجار المثمرة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي لما ذكرهم الله أنهم لا مولى لهم وُكِلُوا لأنفسهم فصار همهم التمتع بلذائذ الدنيا كالحيوانات وفي الحديث: «المؤمن يأكل في مِعىً واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء» [٧٢٩] كناية عن كثرة أكله ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ثم يكونون في الآخرة في النار خالدين فيها أبدًا.

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ أي وكم من قرية من قرى المكذبين سابقًا هي أشد وأقوى من أهل قريتك أي بلدتك ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ وهي مكة التي أخرجك أهلها منها ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي رغم قوتهم وشدتهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ينصرهم من بطشنا فكيف أهل قريتك مكة!!!؟ وهم أضعف!! فماذا ينتظرون؟

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على علم من معرفته سبحانه بذاته العلية، وأسمائه الحسنى، وصفاته المثلى وبصيرة من أمر دينه فاتبع ما أمره، وانتهى عما نهاه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي حسنه الشيطان له ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي وانهمكوا في بدعهم وضلالتهم أي: ليس سواءً من كان على هدى الله وَمن كان على دين إبليس.

(١٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي التي وعد الله بها المتقين سخطه والمتبعين رضوانه ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي غير متغير الرائحة ولا كدر فيه ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي بحموضة، بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي ليست كخمر الدنيا كريهة المذاق، تصدع الرأس وتغول العقل ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من الشمع والأوساخ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من مختلف ثمار الجنة مما لا نظير له في الدنيا، ومع كل ذلك النعيم الجسدي ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي كفَّر عنهم جميع سيئاتهم، وأبدلها لهم حسناتٍ فهل من يكون في هذه النعم الخالدة الوفيرة اللذيذة ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي التي اشتد حرها وتضاعف عذابها ﴿وَسُقُوا۟﴾ في النار ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾ أي حارًا جدًا لا يستطاع ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ فسبحان من فاوت بين الدارين.

(١٦) ﴿وَمِنْهُم﴾ أي المنافقون ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي إلى ما تقول لا استماع قبول إنما قلوبهم معرضة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي علماء الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي ماذا قال قبل قليل!؟ وهذا كناية عن عدم تفهمهم أقواله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ختم على قلوبهم وسَدَّ عنها أبواب الخير فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح بسبب اتباعهم أهواءهم المجردة التي لا يهوون فيها إلا الباطل.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ وهذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي ويزيدهم على إيمانهم بالتقوى.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي فهل ينتظر الكافرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي حتى تقوم القيامة، فعندها يؤمنون!!!؟ ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وفي الحديث: «بعثت أنا والساعة كهاتين» [٧٣٠]. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي أنى لهم التذكر حينئذٍ؟

(١٩) ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي يجب التلفظ بهذه الكلمة الطيبة ونحن عالمون بمعناها وحقوقها ونواقضها ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي أكثر من الاستغفار من ذنوبك الأخرى ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي وكذلك استغفر لذنوبهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي حركاتكم ومستقركم.

يجب التلفظ بلا إله إلا الله عن علم بمعناها وحقوقها ونواقضها ومستلزماتها

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ
مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ
﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ
أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم
مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ
اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ
﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ
وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾

٥٠٩

النهي وقطيعة الرحم بعجلان عقوبة الدنيا مع ادخار عقوبة الآخرة

(٢٠) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي استعجالًا ومبادرةً للأوامر الشاقة فهلا نزلت سورة تأمرنا بقتال الكفار ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي تلزم العمل بها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ وهو أشق شيء على النفوس ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم: المنافقون من المخاطبين بالمؤمنين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي نظر الشاخص ببصره عند الموت لجبنهم عن القتال. وكثيرًا ما يخاطب الله المؤمنين ويأمرهم وينهاهم ويكون من بينهم منافقون ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي فكان الأولى بهم.

(٢١) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جدَّ الحال وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي أخلصوا له النية في إظهار الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي من المعصية والمخالفة.

(٢٢) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء كما كنتم في الجاهلية وتقطعوا أرحامكم بينكم فتقطعوا ما أمر الله به أن يوصل.

(٢٣) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المنافقون المخاطبون بما تقدم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وطردهم عنها ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا كالشرك وسفك الدماء وإنكار البعث وقطع الأرحام وقد ركز القرآن على قطيعة الرحم ونهى عنها نهيًا شديدًا وأوصى بصلتها وهو الإحسان إلى الأقارب في الأقوال والأفعال وبذل الأموال. وفي الحديث: «خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي[1] الرحمن عز وجل فقال: مه. فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾» [٧٣١].

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي أفلا يتفهمونه ويعلمون ما فيه وينفذونه ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي بل مقفلة.

(٢٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي هؤلاء المذكورون آنفًا الذين ارتدوا عن الإسلام وعادوا كفارًا بعد ما تبين لهم الحق ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم سوء عملهم ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي أمدهم وغرّهم.

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي قال المنافقون للمشركين: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي نطيعكم في عداوة رسول الله ﷺ، ومالؤوهم وناصروهم في الباطن على الباطل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي ما يبطنون من الأمر.

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي كيف يصنعون إذا حضرتهم الملائكة لنزع أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ليخرجوا أرواحهم.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ أي عملوا ما أغضبه سبحانه ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي وكرهوا ما يرضيه وما يقرب عبده إليه من التوحيد والطاعة فيما أمر ونهى ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها وأذهبها وجعلها هباءً منثورًا.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي وهم المنافقون الذين تقدم ذكرهم في الآيات الآنفة الذكر ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي هل ظن المنافقون أن الله لا يعلم أضغانهم التي في نفوسهم فلا يفضحهم؟ كلا بل إنه يعلم السر وأخفى.

---

(١) حَقْوي الرحمن: صفة له تعالى حقيقة بلا كيف.

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ
وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ
تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن
تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

٥١٠

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي لأعلمناكهم وعرَّفناكهم بأعيانهم، ولكن الله لم يفعل ذلك في جميع المنافقين حملاً للأمور على ظاهر السلامة، وردًّا للسَّرائر إلى عالمها تعالى وتقدَّس. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، ومغازي ما يرمون إليه من الاستهانة بشأن الرسول والمسلمين، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة، إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لا تخفى عليه منها خافية، فيجازيكم بها. وفي الحديث: خطبنا رسول الله ﷺ خطبةً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سميت فليقم. ثم قال: قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلًا ثم قال: إن فيكم -أو منكم- منافقين فاتقوا الله»، قال فمرَّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه فقال: مالك!؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال: بعدًا لك سائر اليوم [٧٣٢].

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي ولنختبرنكم ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي لنعاملنكم معاملة المختبر وإلا فإن الله يعلم أسرار كل مخلوق بدون اختبار وذلك بأن نأمركم بالجهاد فنخرج من يمتثل الأمر بالجهاد ويصبر على دينه ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي نظهرها ليعلم الطائع من العاصي.

(٣٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي كفروا وصدوا الناس عن الإيمان وعصوا الرسول من بعد ما قامت الحجة عليهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي ما ضروا إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي يبطلها الله ولا يقبلها لأنهم كفروا ومن كفر فقد حبط عمله.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي لا تعصوا الله ولا تعصوا رسوله لأن طاعتهما هي عُدَّة المؤمن في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لا تبطلوا أعمالكم الصالحة بالشرك والردة عن دين الله تعالى فإنهما يبطلان العمل ويحبطانه مهما كان كثيرًا.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بالله وبرسوله وبكل شيء معروف من الدين بالضرورة ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي حالوا بين الناس وبين اتباعهم الإسلام ونهوهم عنه ﴿ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ظلوا على الكفر حتى ماتوا عليه ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لا يمكن أبدًا أن يغفر الله لأحد مات مشركًا.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي إلى الصلح ابتداءً منكم بل حاربوا أعداء الله حتى يسلموا ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي الغالبون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي هو ناصركم ولا يحبط أعمالكم.

(٣٦) ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الاشتغال فيها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الله ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ كاملة ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ إلا الزكاة.

(٣٧) ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي يبالغ في طلبها ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ﴾ البخل ﴿أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي تمتنعوا ويلجئكم البخل إلى إبداء أحقادكم.

(٣٨) ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ يا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ما فرض عليكم وهو القليل فإذا كان منكم من يبخل بالقليل فكيف لا يبخل بالكثير إذا طلب منه؟ ولذا قال تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي أضاع عليها الأجر وأعاد الوبال عليها ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عما سواه وفقير إليه ما عداه ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي إليه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عن طاعته ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ بل خير منكم.

آخر تفسير سورة محمد ﷺ ولله الحمد والمنّة والفضل ومنه التوفيق

سورة محمد

الله لا يسألكم أموالكم إلا مواساة لفقرائكم ويعود ثوابها إليكم

سُورَةُ الفَتْحِ — ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ
بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

٥١١

(٤٨) سُورَةُ الفَتْحِ

مدنية نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية، وآياتها ٢٩، نزلت بعد الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ هذا الفتح هو صلح الحديبية الذي وقع في ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة. وقد حصل بسببه خير كثير، آمن الناس، واجتمع بعضهم إلى بعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان، وعن مجمع بن حارثة قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها إذ الناس ينفرون الأباعر فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند (كراع الغميم) فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله أو فتح هو؟ قال ﷺ: «إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح» [٧٣٣].

﴿٢﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وهذا من خصائصه ﷺ وفي الحديث: «لقد نزلت عليَّ الليلة آية أحب إلي مما على الأرض» فقرأها عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [٧٣٤]، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي في الدارين ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي يثبتك على دينك بما شرعه لك من الحق.

﴿٣﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل، ويرفعك الله وينصرك على أعدائك.

﴿٤﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي هو الذي جعل الطمأنينة والسكون والثبات عند نزول المحن في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا على إيمان ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لو شاء لأبادوا الكفار ولكن شرع الله الجهاد ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بخلقه وما يصلح لهم لما في ذلك من الحكمة البالغة.

﴿٥﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ليُدْخِلَ بالجهاد في سبيل الله المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي يغفرها لهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي دخول الجنة والمغفرة ﴿عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وهل من فوز أعظم من المغفرة ودخول الجنة؟

﴿٦﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي أنه لا ينصر دينه وأن أهل الباطل سيغلبون أهل الحق ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي بل هم المغلوبون وعليهم الغضب واللعنة والنار.

﴿٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي إن الملائكة في السماء جنوده، والمؤمنون في الأرض جنوده وهو العزيز الحكيم.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿شَاهِدًا﴾ على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالنار.

﴿٩﴾ ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لتزدادوا إيمانًا بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموا رسول الله ﷺ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي وتجلوه وتحترموه وتقوموا بحقوقه، هذا عائد لرسول الله ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا خاص بالله سبحانه لا شريك له أي تنزهوه عن النقائص، وتفردوه بالعبادة حتى يأتيكم اليقين وأنتم على ذلك.

الحديبية في ٦/ ذي القعدة، وفيه غفر الله لمحمد ﷺ من ذنبه ما تقدم وما تأخر

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ
ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ
أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟
كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ وهذه بيعة الرضوان بالحديبية التي بايع فيها الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ تحت الشجرة على قتال قريش الذين وصل الخبر عنهم أنهم قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أرسله رسول الله ﷺ وقتئذٍ إلى قريش ليقنعها بدخوله ﷺ مع المسلمين مكة معتمرين لا محاربين، أجل إنهم بايعوه ﷺ على الموت بأن لا يفروا ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها؛ فإن هؤلاء الذين يبايعونك على ذلك ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي إنهم في الحقيقة كأنما يبايعون الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، وحتى من شدة تأكيده تعالى أنه قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي وفي هذه الآية دليل على إثبات صفة اليد لله حقيقةً بلا كيف، على ما يليق به تعالى لا تشبه أيدي المخلوقين، لكنها يده لا نعمته ولا قدرته كما يقول النفاة بل هي يده المعلومة الحقيقة والمجهولة الكيفية. ولا كما يقول أهل وحدة الوجود ويفسرونها بقولهم: (لقد أخبر تعالى أن نبيه محمدًا ﷺ هو الله تعالى وتقدس!!! وإن بيعته هي بيعة الله وأن اليد التي مدت للبيعة هي يد الله!!!) نعوذ بالله من الكفر! وهذا الكلام أنقله بالحرف الواحد من رسالة لعبد الغني النابلسي[1] ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي لم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي وبال ذلك راجع عليه وعقوبته واصلة إليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ومن وفى ببيعة الله فليس له جزاء إلا الجنة، وفي الحديث: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فقال لنا رسول الله: «أنتم خير أهل الأرض» [٧٣٥].

﴿١١﴾ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ حول المدينة أي المتخلفون عن الحديبية ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي منعتنا من الخروج معك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي اطلب لنا المغفرة منه تعالى وما كان طلبهم عن اعتقادٍ من قلوبهم؛ فقد فضحهم الله بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخالف قالهم حالهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي لا أحد يملك لكم مناعة من الله ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي: كان الله بما تكتمونه من العمل خبيرًا به وعليمًا.

﴿١٢﴾ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي إنهم سيقتلون ويستأصلون ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي حسّنه الشيطان لكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي توهمتم أنهم لن يعودوا إلا وهم هلكى جميعًا، فكنتم بهذا الظن أنتم الهلكى في الحقيقة.

﴿١٣﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي من يكفر بهما ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي نارًا خالدة مؤبدة مؤلمة لا تنطفئ.

﴿١٤﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مالكهما والمتصرف فيهما ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بموجب الفضل والعدل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بالمؤمنين.

﴿١٥﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي إلى مغانم خيبر لتستحوذوا عليها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي نحارب معكم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يبدلوا مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي نهى الله رسوله أن يأذن للمخلفين أن يشاركوهم في الجهاد والمغنم ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معنا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي المتخلفون يقولون: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ لئلا نشاركم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا فهم لهم.

(١) راجع كتاب «شطحات الصوفية» تأليف عبدالرحمن البدوي تر في آخر الكتاب رسالة عبد الغني النابلسي وفيها ما ذكرناه.

يد الله صفة له معلومة الحقيقة مجهولة الكيفية لا تشبه أيدي المخلوقين

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ
ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

٥١٣

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ المخلفون من الأعراب هم المذكورون سابقًا. وقد اختلف المفسرون في تعيين أولي البأس الشديد من هم، وقد لا يكون هذا التعيين ذا شأن، فليكونوا من كانوا فإن أمر الله تعالى تجب فيه الطاعة والامتثال، وما دام المسلمون على الحق يجاهدون في سبيل الله من أجل الحق فإن الله معهم وسيجعلهم أشد من كل أولي بأس شديد، وقد كانوا كذلك، فغلبوا أشد الأمم بأسًا وأقواهم وأعظمهم. وامتد ملكهم متتابعًا من المحيط الأطلسي إلى المحيط الكبير ولما ضعف فيهم حس الخوف من الله تعالى وتضاءلت طاعاتهم له انكفؤوا إلى الوراء وتقسموا إلى دويلات ذليلة خاضعة لحكم الكفر والكافرين، حتى أضاعوا فلسطينهم ومسجدهم الأقصى. هذا من حيث المعنى العام، أما المعنى الخاص المراد من هذه الآية فإن الخطاب للأعراب المخلفين فهؤلاء هم الذين سيدعون إلى قتال أقوام أولي بأس شديد في عصرهم، كهوازن وثقيف، وبني حنيفة وغيرهم من القبائل الأشداء ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي تجعلونهم أمام أمرين السيف أو الإسلام وهذا حكم غير الكتابيين أي الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي فإن قاتلتم هؤلاء الذين ستدعون إلى قتالهم واستجبتم للجهاد فسيضاعف الله لكم الأجر ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في نار جهنم التي لا تطاق.

(١٧) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي الحرج الدائم كالأعمى والأعرج والحرج المؤقت كالمرض ثم يزول فيلتحق المريض إلى الجبهة فهؤلاء لا حرج عليهم في ترك الجهاد كل بحسبه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بتنفيذ الأمر ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي عن طاعة الله ورسوله ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يعذبه الله عذابًا لا يطاق.

(١٨) ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وهي بأرض الحديبية. ورضاء الله صفة له تعالى على الحقيقة خلافًا للجهمية، فيُثيبُ كل من رضي عنه بما يشاء ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي علم ما في قلوبهم من الإخلاص له والمحبة فأنزل عليها الطمأنينة ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجراه الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير المستمر حتى فتح خيبر ومكة وسواهما.

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ من أعدائهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي لا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أقواله وأفعاله.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ أي إلى يوم القيامة إن واصلتم الجهاد في سبيله وأطعتموه ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ من جراء الصلح ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كرامة منه لهم فنصرهم مع قلة عددهم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي يسدد خطاكم ويلهمكم الصواب في الأمور بسبب طاعتكم لله ومتابعتكم لرسوله ﷺ.

(٢١) ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي الفتوح التي وقعت بعد ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي أعدَّها وحبسها لكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٢) ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ وهذه بشرى للمؤمنين بانكسار المشركين أمامهم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لأنهم محاربون لله ولحزبه.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي هذه عادته التي يعامل بها حزبه من قبلكم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي إنَّ جنده هم الغالبون.

سورة الفتح

وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ
مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ
لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ
لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ
وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٢٦)
لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ
ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)

٥١٤

(٢٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، فكفَّ أيدي المشركين عن المؤمنين، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، وأوجد فيه صلحًا فيه خير للمؤمنين، وعاقبة في الدارين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء، وفي الصحيح: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا، قال عفان: فعفا عنهم ونزلت هذه الآية. [٧٣٦].

(٢٥) ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي منعوكم من أن تعتمروا وتطوفوا بالبيت ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي محبوسًا عن ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي وصدوا الهدي إلى حيث يحل نحره من الحرم، وكان سبعين ناقة وقد رخص لهم أن يجعلوا الحديبية منحرًا لتلك الواقعة فقط ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ وهم المستضعفون بمكة ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي لم تعلموا بإيمانهم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تقتلوهم فيها لو دخلتم بمكة عنوة بالسيف، فلا تميزوا المؤمنين من الكفار فيها ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي إثم وعار وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بهم ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي رحم الله المشركين من القتل ليخلص المؤمنون من بينهم والمؤمنات، وليدخل كثيرٌ منهم في الإسلام ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو تخلص المؤمنون من الكفار، ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لسلطناكم عليهم وعذبناهم بأيديكم عذابًا موجعًا.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله ﷺ ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وعلى أصحابه فلم يدخلهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لا إله إلا الله وما ينبغي لها من الحقوق في نفوسهم من الهدوء والسكينة، فكانوا على مستوى التقيد بها ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ لأن الله تعالى أهَّلَهُم لدينه وصحبة رسوله ﷺ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي كان ولم يزل عليمًا بكل شيء وبمن يستحق النعيم فينعمه، ممن يستحق العذاب فيعذبه، وبما في قلوب المؤمنين من الخير وما في قلوب المشركين من الشر.

(٢٧) ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي الرؤيا التي رآها أنه دخل المسجد وطاف بالبيت ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس من الاستثناء في شيء ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال دخولكم ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ فكان منهم من حلق ومنهم من قصَّر ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أبدًا ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي من المصلحة في صرفكم عن مكة، ودخولكم إليها عامكم ذلك ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي من قبل دخولكم المسجد الحرام الذي وعدكم إياه ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي هو صلح الحديبية.

(٢٨) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي لينصره على جميع الأديان ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بأنه رسوله حقًا وأن الله ناصره لا محالة.

قدر الله عدم دخول مكة حفاظًا على حياة مؤمنين مكتومين فيها

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ
تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ
فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الحُجُرَات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ
فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٥١٥

(٢٩) ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي هو رسول الله حقًا بلا شك ولا ريب ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي أصحابه رضي الله عنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي متحابون متراحمون ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي راكعين ساجدين وهذا كناية عن كثرة الصلاة التي من أجلّ أركانها الركوع والسجود ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي بتلك العبادة ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي ثوابًا من الله ورضى منه تعالى ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي أثرت العبادة في وجوههم فاستنارت وظهرت علامات على الجباه من كثرة السجود، ونور يعرفون به يوم القيامة، وقيل: لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الوصف المتقدم ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكور في التوراة هكذا ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي أما وصفهم الذي وصفهم به في الإنجيل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي أخرج أفراخه وكسبه من نباته ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي ساواه مثل الأم فشب وطال ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي علا الزرع على سوقه واستقام على أعواده، ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي تقر فيه أعين زارعيه لقوته وحسن منظره، وهذا مثل ضربه الله لأصحاب رسول الله ﷺ الذين آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ويكبتهم، قال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي مغفرة لذنوبهم وثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا، ووعد الله لا يخلف.

آخر تفسير سورة الفتح ولله المنّة والفضل

(٤٩) سُورَةُ الحُجُرَات

مدنية وآياتها ١٨، نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي وهذا أدب يؤدب الله به المؤمنين في معاملتهم رسول الله ﷺ، والمعنى: لا تسرعوا فتقطعوا أمرًا دون الله ورسوله ولا تقولوا شيئًا خلاف الكتاب والسنة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتكم. وفيه تحذير للمؤمنين من الابتداع في الدين.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ أي لا يرفع مخاطب رسول الله ﷺ صوته فوق صوت رسول الله ﷺ وهذا أدب ثانٍ أدب الله تعالى به المؤمنين، والمراد تعظيمه وتوقيره ﷺ واحترامه ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي لا ترفعوا أصواتكم عنده كما ترفعونها فيما بينكم، وكذلك يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ، كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأن الرفع بالصوت عنده ميتًا كرفع الصوت عنده حيًّا سواء بسواء ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لأن رفع الصوت عنده يخشى أن يؤدي إلى حبوط العمل، وصاحبه لا يدري ما يجني على نفسه.

(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يرفعونها فوق صوته ويطيعون الله فيما أمرهم من غضها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي طَهَّرها من كل خبيث، وأخلصها ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ وجعلها لها أهلًا ومحلًا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من ذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وثواب جزيل.

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ أي ينادونه عليه الصلاة والسلام: يا محمد يا محمد!!! قيل: وفد بني تميم، وقيل: آخرون، والحجـرات هي حجـرات أزواجـه رضي الله عنهن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لجهلهم، ولغلبة الجفاء على طباعهم، لأن من العقل استعمال الأدب.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا
أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾
فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

٥١٦

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي ولو انتظروا خروجك، ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب، وذُكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وهذا أيضًا من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها، والعمل بموجبها. ولهذا فإن الله يأمر بالتثبت من خبر الفاسق والحيطة، لئلا يحكم بقوله. فإن خبر الفاسق متوقِّفٌ فيه لنتيجة التحقق من الخبر، وقد نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، فخاف الوليد منهم فلم يطالبهم ورجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره أنهم منعوا الزكاة وطردوه والواقع خلاف ذلك كما تحققه رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [٧٣٧] أي تبينوا الحق كيلا تتورطوا بعمل عن جهل ثم يظهر لكم أن الأمر بخلافه فتندموا من حيث لا ينفع الندم.

(٧) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: إن كذبتموه أخبره الله فافتضحتم، ثم قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو يطيعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى العنت وهو الحرج، والضرر والفساد والإثم، والهلاك، وذلك أن المسلمين لما سمعوا أن القوم منعوا الزكاة قالوا: ابعث إليهم يا رسول الله واغزهم واقتلهم، ثم خاطب الله المؤمنين فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي جعله محبوبًا إلى قلوبكم وحسَّنه فيها. وفي الحديث: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»(١) [٧٣٨]، ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول: «التقوى ها هنا التقوى ها هنا» [٧٣٩]. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي وبغض إلى قلوبكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار، والعصيان وهو جميع المعاصي ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الذين زين الله الإيمان في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي المتبعون الهدى والرشاد والحق والخير.

(٨) ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي ذلك منه تعالى وحده فضلًا ونعمة وتوفيقًا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمستحق الهداية أو الغواية بمحض حكمته.

(٩) ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ هذا دليل على أن المقتتلين من المؤمنين لا ينفى الإيمان عنهم لأنه سمى المقتتلين مؤمنين وما نفى عنهم الإيمان، وأمر الفريق الذي لم يدخل بالقتال بأن يصلح بينهم، وهذا دليل على أن المعصية لا تخرج من الإيمان ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي حتى تعود إلى أمره وطاعته ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ أي فإن رجعت عن البغي فاسعوا في الصلح بينهما بالعدل والقسط ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين، والمحبة صفة لله حقيقة بلا كيف.

(١٠) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي أخويكم المقتتلين وفيه دليل على بقاء الأخوة الإيمانية بينهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب تقواكم.

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ هذا نهي عن السخرية بالناس واحتقارهم فقد يكون المحتقَر أرفع قدرًا عند الله تعالى ولهذا قال: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وفي الحديث: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» [٧٤٠]، أي استصغارهم وهذا حرام ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ وكذلك نهى عن سخرية النساء بالنساء للسبب ذاته ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا يعِبْ بعضكم على بعض ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي لا تلقبوا بعضكم بألقاب قبيحة ولا تنادوا أحدًا بالفسق بعد إيمانه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي أنفسهم.

(١) إسناده ضعيف.

قاتلوا الطائفة الباغية، لا تحقروا فلعل المحتقَر أقرب إلى الله من المحتقِر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ الظن هنا مجرد التهمة، التي لا سبب لها، كمن يتهم غيره بالفواحش، وكذلك تَخَوُّنُ الأهل والأقارب والناس في غير محلِّه ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فلكَيْ لا يقع المؤمن في الإثم، عليه أن يحتاط فلا يظن الظن السيء، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا وفي الحديث: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث...» [٧٤١] ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ والتجسس: البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم، والتجسس غالبًا يطلق في الشر، ويطلق التحسس غالبًا على الخير، وقد يستعمل كلاهما في الشر المنهي عنه، وكذلك نهى الله تعالى عن الغيبة وهي كما جاء تعريفها في الحديث الصحيح: قيل يا رسول ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه» [٧٤٢]، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي وهذا تحريم شديد للغيبة؛ ولهذا شبَّهها بأكل اللحم من الإنسان الميت أي كما تكرهون أكل لحم الإنسان ميتًا؛ فاكرهوا أن تستغيبوه إلا ما كان في الجرح والتعديل، والنصيحة. أما خلاف ذلك فحرام جدًا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي اتقوا الله فيما أمركم ونهاكم فإنه تواب على من تاب إليه، رحيم به إذا رجع إليه وأناب.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي إن الله قد خلق الناس جميعًا من آدم وحواء فجميعهم من طينة واحدة ومتساوون في الخليقة، ولكن جعلهم شعوبًا وقبائل من أجل التعارف بالانتساب كلٌّ إلى شعبه وقبيلته ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي ليست الكرامة بالانتساب إلى شعب معين أو قبيلة معينة لأن الله سبحانه حدد الكرامة والفضل بالتقوى لا بالانتماء إلى الأمم والشعوب والقبائل فمن كان أتقى فهو أكرم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بجميع خلقه قربًا وبعدًا، وفي الحديث: قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم [٧٤٣].

(١٤) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ أي صدقنا بقلوبنا ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي انقدنا ظاهرًا ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقته ولكنه متوقَّعٌ منكم ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم منها شيئًا ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي غفور للتائبين رحيم بهم.

(١٥) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي لم يشكُّوا ولم يتزلزلوا بل ثبتوا على إيمانهم ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وبذلوا أرواحهم وأموالهم مخلصين لله تعالى بنياتهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي الذين صدقوا الله في إيمانهم ولم يرتابوا.

(١٦) ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي أتشعرونه بما أنتم عليه في قلوبكم بقولكم آمنا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا تخفى قلوبكم عليه.

(١٧) ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي بغير قتال بخلاف من أسلم بعد قتال ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ فنفع ذلك يعود عليكم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن لله المنة وحده ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعائكم بأنكم مؤمنون واحمدوا الله الذي هداكم لذلك.

(١٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي يبصركم وأعمالكم وهو مستوٍ على عرشه لا يخفى عليه شيء منكم ولا من أعمالكم.

آخر تفسير سورة الحجرات ولله الحمد والمنّة والفضل (١)

(١) كتب الشيخ رحمه الله: (١/ ٣/ ١٣٩٨).

(٥٠) سُورَةُ قٓ

مكية إلا الآية ٣٨ فمدنية، وآياتها ٤٥، نزلت بعد المرسلات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ قٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ
فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ
رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ
﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾
رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ
لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ
﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

٥١٨

(١) ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ق حرف من الأحرف المقطعة التي افتتح الله فيها أوائل بعض السور ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قسم بالقرآن الكريم على سائر الكتب وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم يتلقى لفظًا، فهذا كثير في أقسام القرآن.

(٢) ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي تعجبوا من أن يكون رسول منهم من البشر ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي مستغرب مستبعد.

(٣) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي استحالت أجسامنا إلى تراب اختلط بتراب الأرض ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي مستحيل. فرد الله سبحانه عليهم:

(٤) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي لم يغب عن علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي وهو أم الكتاب، ضابط لكل شيء كان وسيكون.

(٥) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي كذبوا برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله وهو القرآن الكريم ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مختلط، تارة يقولون: ساحر، وأخرى مجنون.

(٦) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي خلقناها ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب الزاهرة ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي شقوق تعيبها.

(٧) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالًا ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات ما هو حسن المنظر والصنع.

(٨) ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي أدلة مشهودة تذكر بالله وبديع صنعه كل عبد رجاع بالتوبة إليه سبحانه.

(٩) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي مطرًا نافعًا ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي أنبتنا الحدائق والزروع التي تحصدونها.

(١٠) ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ أي شاهقات ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي من الثمر المتراكب بعضه فوق بعض شهي الأكل.

(١١) ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي رزقًا يرتزقون منه تجارةً وأكلًا ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء المبارك النافع ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي لا نبت فيها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي من القبور أي كذلك البعث منها.

(١٢) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي إن كانت قريش كذبتك فقد كذبت أنبياءَها أممٌ قبل قريش كقوم نوح ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وهي بئر بنجد كانوا يقيمون عليها ﴿وَثَمُودُ﴾ أي قوم صالح.

(١٣) ﴿وَعَادٌ﴾ وهم قوم هود كانوا في الأحقاف ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ بمصر ورسولهم موسى ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ وكانوا في سدوم.

(١٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وكانوا بمدين ورسولهم شعيب عليهم الصلاة والسلام جميعًا ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وتُبَّعٌ لقب لكل ملك باليمن، وكان من هؤلاء التبابعة: أسعد بن كريب وكان على دين موسى الصحيح وامتد ملكه حتى سمرقند ودمشق ووصل مكة، وعظم الكعبة وطاف بها وكساها، وقد آمن قومه بما آمن به ثم ارتدوا من بعده، ولما مرَّ بيثرب أخبره اليهود أن هذه البلدة مهاجر نبي آخر الزمان واسمه أحمد، فآمن به وقال فيه شعرًا وهو:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النَّسَمْ
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيرًا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجت عن صدره كلَّ غَمّ

وكانوا يروونه خلفًا عن سلف ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي كل من ذكر من الأقوام كذبت رسلها كما كذبك قومك يا محمد، فنفذت فيهم عذابي الذي أوعدتهم به.

(١٥) ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي هل أعجزنا ابتداء الخلق الأول حتى شكوا في الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي شكٌّ واختلاط.

الذي قدر على ابتداء الخلق يعيده من باب أولى، تُبّع اليمن آمن بمحمد قبل بعثه وقال فيه شعرًا

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ
مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ
﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ
ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ
يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ
كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ
إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾
يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ وَأُزۡلِفَتِ
ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ
﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا
بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾

للإنسان قرين ملكي يأمره بالخير، وقرين جني يأمره بالشر • المزيد: رؤية الله

(١٦) ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ أي ما يُكِنُّ وما يُخفي فيها، فهو سبحانه فوق سبع سمواته على عرشه، وعلمه محيط بجميع مخلوقاته، يعلم اختلاج الضمائر وأحاديث النفوس. وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» [٧٤٤]، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ وهما وريدان عن يمين وشمال عنق الإنسان وإن الله أقرب إليه منهما بعلمه وسائر صفاته، وذاته العلية فوق العرش، فلا يمكن للعبد أن يعمل أو يقول شيئًا مستترًا عن ربه.

(١٧) ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي الملكان يتلقيان أعمال العبد كلها ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي ملك يكتب الحسنات ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ أي ملك يكتب السيئات وكلاهما قعيد مترصد يرصدان الأعمال كلها خيرها وشرَّها، صغيرها وكبيرها فليتذكر العبدُ ربَّه عند كلِّ قولٍ أو عملٍ.

(١٨) ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ أي ما يتلفظ بكلمة، ولا يتحرك حركة إلا والملكان كل منهما يرقب ويتهيأ للتسجيل.

(١٩) ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ التي لا مردَّ لها ولا مناص منها ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يتضح الحق لديه ويرى ما كان ينكره ويكفر به سابقًا ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أي ذلك الموت الذي كنت تفرُّ منه.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ عبر عن النفخ بالماضي لتحقق وقوعه. ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أي اليوم الذي توعد به الكفار جميعًا.

(٢١) ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ يسوقها إلى الله ﴿وَشَهِيدٞ﴾ يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير ومن شر.

(٢٢) ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي من لقاء يومك هذا الذي تواجه به ربك ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي الذي كان يحجب عنك رؤية الآخرة ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي حادٌّ قوي ترى فيه ما كنت تنكره في الدنيا ولا تصدق بوجوده.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي مَلَكُهُ الذي كان يكتب عمله السيء ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا الذي كان يعمله، حاضرًا مهيأً.

(٢٤) ﴿أَلۡقِيَا﴾ خطاب إلى السائق والشهيد ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾ فأمرهما الله أن يقذفا في جهنم كل شديد الكفر والعناد.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ أي يمنع الخير عنه وعن غيره ﴿مُعۡتَدٖ﴾ فيما يفعله ومتجاوز بالسيئات ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي شاك في أمره مرتاب.

(٢٦) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبده من دون الله ﴿فَأَلۡقِيَاهُ﴾ أي يأمر الملكين بإلقائه ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

(٢٧) ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي هو الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ أي ما أضللته ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ في نفسه ﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ للإنسي الكافر والجني الغاوي أي لا ينفع الخصام اليوم ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ أي أنذرتكم بإرسال رسلي وإنزال كتبي وقامت عليكم الحجة البالغة في الدنيا.

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ أي لا خلاف لوعدي ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي لا أعذبهم ظلمًا بغير جرم اقترفوه، ولا ذنب أذنبوه.

(٣٠) ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ وهو أعلم بها ولكن أراها الله تصديق قوله ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي طلبت أن يوسع فيها لتضايق أهلها.

(٣١) ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ ثم عقب الله بحال المتقين فأدنى الجنة وقربها لهم بيوم غير بعيد فإنه واقع لا محالة وكل آت قريب.

(٣٢) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي هذا ما وعدتكم به يا عبادي المتقين ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ﴾ أي لكل رجَّاعٍ تائبٍ حافظٍ لعهده مع ربه تعالى.

(٣٣) ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ كما في الحديث: «... اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [٧٤٥]، ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ رجاع إلى الله، سليم من الشرك.

(٣٤) ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾ أي ادخلوا الجنة بسلام من النار وبتسليم الملائكة عليكم ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ أي لا موت ولا ارتحال ولا تحويل ولا تبديل.

(٣٥) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ كما في الحديث: «إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له: تمن، ويتمنى فيقول له: هل تمنيت؟ فيقول: نعم. فيقول له: فإن لك ما تمنيت ومثله معه» رواه مسلم [٧٤٦]. ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ وهو النظر إلى وجه الله الكريم، سبحانه وتعالى وتبارك وتقدّس، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿٣٦﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي قبل قريش ومن كان على سيرتهم من المكذبين ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي من أمة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي كانوا أكثر عددًا وقوةً ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي طافوها منقبين عن الأرزاق أكثر منكم ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي هل من مفرٍّ لهم من قضاء الله وقدره فأنتم أيضًا لا مفرَّ لكم ولا محيص.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي اعتبار وتذكر ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي لب وعقل يعي به ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع وهو شاهد بقلب حاضر.

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فقالت اليهود: ثم استراح، فرد تعالى عليهم: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي من تعب ولا إعياء.

﴿٣٩﴾ ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقوله المكذِّبون واهجرهم هجرًا جيلًا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صلِّ له تعالى ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ وهي صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي صلاة العصر وفي الحديث: «... فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» [٧٤٧]، أي كانت الصلاة ثنتين ثم صارت خمسًا ليلة الإسراء والمعراج.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي قم وصلِّ بعضًا من الليل ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أي وَصَلِّ نوافلَ دُبُرَ المكتوبات ما عدا الفجر والعصر.

﴿٤١﴾ ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع يا محمد حين ينادي الملك إسرافيل عليه السلام بأمره تعالى: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء[1]. والمكان القريب، الله أعلم بموقعه.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي نفخة الصور الأخيرة بالحق الذي كانوا فيه يكذبون ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي من القبور.

﴿٤٣﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي وإليه مصير الخلائق جميعًا، فيجازي كلًّا بما يستحق من الجزاء.

﴿٤٤﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي يخرجون من القبور مسرعين منفذين أمر الله إلى الموقف ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي كلمح البصر.

﴿٤٥﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي بمصيطر حتى يؤمنوا ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي بآياته ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي من يخاف الله ووعيده بالنار، ويرجو وعده بالجنة.

آخر تفسير سورة ق ولله الحمد والمنّة

(١) عن قتادة عن كعب الأحبار والله أعلم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

(٥١) سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية وآياتها ٦٠، نزلت بعد الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ أي هي الرياح إذا فرقت التراب.

﴿٢﴾ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي الحاملات السحاب النافع للعباد.

﴿٣﴾ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ أي السفن الجارية في البحر جريًا سهلًا.

﴿٤﴾ ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ أي هي الملائكة التي تقسم الأمور بأمر مختلف بإذن الله تعالى، فكل من الملائكة جعل الله له تدبيرًا؛ فجبريل بالسفارة إلى الرسل والأنبياء، وميكائيل بإنزال الأمطار بإذن الله تعالى، وإسرافيل للنفخ بالصور، وملك الموت لقبض أرواح العباد وكل ذلك بأمره وإذنه تعالى، وكل هذه الأقسام من الله تعالى إنما أقسم بها، لما فيها من الدلالة على صنعه وعظيم قدرته جل وعلا، على وقوع المعاد، ولهذا قال سبحانه وتعالى:

﴿٥﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي إنما توعدون من قيام القيامة، والبعث من القبور، والحساب على الأعمال، والثواب للطائعين والعقاب للكافرين والعاصين لهو خبر صادق وكائن لا محالة، فلا تكونوا به من الممترين المكذبين وهذا جواب القسم.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أي إن يوم الدين وهو يوم الجزاء، لواقع بأمر الله تعالى بلا شك ولا ريب، فآمنوا به قبل وقوعه تكفر عنكم سيئاتكم ويبدلها حسنات. وإلا فإن النار مثوى الكافرين خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير.

كانت الصلاة ركعتين

بقسم الله بأن اليوم الآخر واقع لا محالة

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ
فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ
وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ
﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ
لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾
إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ
أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ
﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ
﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أي إن الله يقسم بالسماء المحبوكة الصنع، المحكمة الخلق، في أحسن بهاء وجمال وحسن.

(٨) ﴿إِنَّكُمۡ﴾ يا أيها المشركون ﴿لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ أي لفي قول مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع؛ فتارة تقولون: محمد ساحر، وطورًا: محمد مجنون.

(٩) ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ أي إن ذلك القول المختلف يروج على من هو ضال في نفسه لأنه إفك وكذب وزور وبهتان.

(١٠) ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ أي قاتل الله الذين يكذبون على الله ما لا يعلمون ويقولون في محمد وما نزل عليه ظنًا ورجمًا بالغيب.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم في غفلة وعمى جهالة عن الآخرة وأهوالها، وفي لجج الكفر والضلال غامرون.

(١٢) ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يقولون: متى يوم الجزاء والحساب؟ يقولون هذا على وجه التكذيب، كفرًا وعنادًا وشكًا واستبعادًا.

(١٣) ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ أي يحرقون واليوم الذي يكذبون هو ذات اليوم الذي فيه يعرضون على النار ويحرقون فيها، ومن ذلك يقال للحجارة السود التي كأنها المحروقة: (الفتين).

(١٤) ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ أي ذوقوا حريقكم وعذابكم، ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا الحريق ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ أي هذا ما كنتم في الدنيا تطلبون تعجيله استهزاء منكم به.

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين كانت التقوى شعارًا لهم، وكانوا في الدنيا يخشون الله، هم اليوم في الآخرة فيها لا نظير له وعيون يفجرونها تفجيرًا.

(١٦) ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي من النعيم المقيم والكرامة الخالدة، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ أي في الدنيا ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ أي عاملين بما أمرهم ربهم يعبدونه كأنهم يرونه فطوبى لهم.

(١٧) ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ أي بين الله تعالى إحسانهم فكانوا قليلًا ما ينامون، فيصلون ويتهجدون.

(١٨) ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ وفي الحديث: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله حتى يطلع الفجر» [٧٤٨][1]، ونزوله تعالى نزول حقيقي معلوم الحقيقة مجهول الكيفية.

(١٩) ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أي للسائل وهو معروف، والمحروم أي الذي حرم من المال ولا يسأل الناس إلحافًا.

(٢٠) ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أي دلالات على وحدانيته تعالى.

(٢١) ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي انظروا إلى مراحل تطوركم في الرحم وفي كمال خلقكم ودقته، أفلا تبصرون عظمة الله؟

(٢٢) ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عند من في السماء وهو الله تعالى ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾ أي المطر ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي ما توعدون به من الثواب والعقاب.

(٢٣) ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يقسم الله بنفسه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي وعده ﴿لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أي كما أنكم لا تشكون في وجودكم ونطقكم حين تنطقون، كذلك إن وعد الله حق لا مرية فيه فلا تشكوا فيه أبدًا.

(٢٤) ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل الذين كرمهم الله على سائر الملائكة وأضافهم إبراهيم.

(٢٥) ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي لم يكن يعرفهم.

(٢٦) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أي ذبحه إكرامًا لهم.

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي قدمه إليهم مشويًا ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي لما قدمه إليهم لم يأكلوا منه، فوقع في نفسه أنهم ملائكة، فخافهم.

(٢٨) ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ أي لا خوف منّا عليك ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي بشروه بولادة إسحق عليه السلام.

(٢٩) ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ أي امرأته سارة ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ أي في صيحة ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ تعجبًا كما تفعل النساء ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ فكيف ألد؟

(٣٠) ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي ليست هذه البشرى من عندنا إنما هو منه تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله عليم بكل شيء.

---

(١) وفيه دليل على علوّ ذات الله حقيقة ونزوله تعالى حقيقة بلا كيف.

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ
ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ
وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ
فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

٥٢٢

(٣١) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي فيم جئتم؟ وما شأنكم أيها المرسلون من الله، وما الذي أرسلتم به سوى هذه البشارة؟

(٣٢) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي أرسلنا إلى قوم لوط الذين أجرموا بإشراكهم بالله وتكذيبهم لرسولهم وإتيانهم الفاحشة بالرجال.

(٣٣) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي من آجر مطبوخ بالنار لنرجمهم فيها، جزاء ما اقترفوا من الشرك والكفر وفاحشة ما سبقوا إليها.

(٣٤) ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي معلمة وعلامة كل حجر منها مكتتب من عند الله باسم صاحبه الذي سيهلك به.

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هذا كلام من جهة الله تعالى. أي لما أردنا إهلاك قوم لوط، أخرجنا من كان فيها أي في قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ...﴾ [هود: ٨١]، وأهل النبي هم الذين آمنوا به.

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هو لـــوط وابنتاه، وصفهم الله عز وجل بالإيمان والإسلام لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم أما امرأته فهي كافرة ليست من أهله.

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي تركنا هناك علامة، تدل عليهم وجعلناها عبرة لأن بلادهم التي كانوا فيها اقتلعها جبريل ورجم بهم الأرض وجعلها بحيرة منتنة خبيثة ففي ذلك عبرة دائمة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي تنفعهم العبرة فيتعظون بما حلَّ في غيرهم فلا يفعلون مثلهم.

(٣٨) ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي وجعلنا قصة موسى آية حين أرسلناه إلى فرعون بآيات ظاهرة بينة وهي العصا وما معها من الآيات.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي فرعون أعرض عن الإيمان بموسى رسولًا إليه وإلى قومه، ونأى بجانبه عنه ﴿وَقَالَ﴾ أي فرعون عن موسى: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي لا يخلو من أحد هذين الوصفين.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أي فأخذناهم أخذ عـزيز مقتدر ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي وطرحناهم في البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي ملوم بما أسرف في عناده وكفره وفجوره وجحوده.

(٤١) ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي وقوم عاد لما كفروا ولم يستجيبوا إلى هود عاقبناهم بريح لا خير فيها.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي لا تمرُّ على أحد منهم إلا صيَّرته رميمًا!!! رغم قوتهم وشدة بطشهم!!!

(٤٣) ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي تمتعوا ثلاثة أيام في دياركم فسوف يأتيكم العذاب قريبًا.

(٤٤) ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي تكبروا عن الامتثال بما أمرهم به ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ وهي الموت من صيحة جبريل عليه السلام ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ ذلك بأعينهم، ولكن لا يقدرون على الإفلات منه.

(٤٥) ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ أي عجزوا عن النهوض فضلًا عن الهرب ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ بل مخذولين مقهورين هالكين جميعًا.

(٤٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي قبل عـــاد وثمـود وفـرعون ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي إنهم جميعًا كانوا قومًا خارجين عن طاعة الله.

(٤٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي بقوةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي قادرون على ذلك لا يعجزنا شيء، ولا يمتنع علينا شيء.

(٤٨) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي بسطناها وجعلناها فراشًا لكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي نحن، ومهدت الشيء بسطته.

(٤٩) ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ كالـذكـر والأنـثى، والسماء والأرض والشمس والقمر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي بأن الخالق واحد لا شريك له.

(٥٠) ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي لما بين الله لكـم أنـه على كل شيء قدير فلزم أن تفروا وتلتجئوا إليه وتؤمنوا بأنه واحد ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

(٥١) ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ولا تعبدوا معه أحدًا فيحل بكم ما حلَّ بالأمم المذكورة ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من عذابه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي واضح الإنذار بالعذاب الشديد.

خلق الله من كل زوجين اثنين، فهل يستحق العبادة أحدٌ غيره؟!

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ
٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ
بِمَلُومٍ ٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٥٥ وَمَا
خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ
وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ
٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ
٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ٦٠

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣ وَٱلْبَيْتِ
ٱلْمَعْمُورِ ٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ
عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ
مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ
جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤

٥٢٣

(٥٢) ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أي هذه الصفات اتفق عليها الكافرون من قبل كفار قريش والعرب، فكل رسول جاء الأمم السابقة يكفرون به ويجحدون رسالته بحجة داحضة حتى عند أنفسهم، فلا يدعوهم إلى الهدى ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ وهم يعلمون أنهم لكاذبون.

(٥٣) ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ أي كأنهم أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب بالرسل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي أول الكافرين وآخرهم هم الطغاة الفجرة.

(٥٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم، وكفَّ عن جدالهم ولا تبال بهم يا محمد، فقد فعلتَ ما أمرتك من دعوتهم إلى الحق وبلغتَ رسالتي ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أي ما أنت بموضع الملامة عندي بعد أن أديت بصدق كل ما أمرتك أن تبلغه للناس، ففعلت، وهذا منسوخ بآية السيف.

(٥٥) ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لأن إيمانهم وخشيتهم واتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع الموعظة موقعها.

(٥٦) ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه علة الخلق ومن أجل عبادته تعالى وحده لا شريك له خلقهم، والعبادة هي كمال المحبة وكمال الذل له سبحانه، والمحبة الطاعة، والذل الانقياد.

(٥٧) ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي ما أريد أن يرزقوا أحدًا ولا أنفسهم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ فهو الغني عما سواه، ومحتاج إليه كل ما عداه.

(٥٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أي وحده يرزق خلقه جميعًا ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي الذي له القوة والقدرة كلها، وفي الحديث: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسدَّ فقرك، إلا تفعل ملأت صدرك شغلًا ولم أسدَّ فقرك» حديث قدسي، [٧٤٩].

(٥٩) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ أي نصيبًا من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي الذين سبقوهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ عذابي.

(٦٠) ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي سابقًا ولاحقًا ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي يكذبون به.

آخر تفسير سورة الذاريات ولله الحمد والمنّة

(٥٢) سُورَةُ الطُّورِ

مكية وآياتها ٤٩، نزلت بعد السجدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلطُّورِ﴾ هو الجبل الذي يكون فيه الشجر، وهو الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى عليهما السلام والمراد هو جبل الطور نفسه، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في صلاة المغرب.

(٢) ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وهو الكتب المنزلة جميعًا، وقيل: اللوح المحفوظ.

(٣) ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الرق وهو ما يكتب فيه ﴿مَّنشُورٍ﴾ المبسوط.

(٤) ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ وهو في السماء السابعة كما في الصحيحين.

(٥) ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ وهو العرش سقف لجميع المخلوقات.

(٦) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي يوقد يوم القيامة نارًا تتأجج، وهذه أقسام.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ وهذا هو المقسَم عليه، والمعنى واقع لا محالة.

(٨) ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ أي وليس له غير الله من دافع يدفعه عن الكافرين.

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ أي تدور وتضطرب، وتدوم حركتها.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تزول عن أماكنها فتصير هباءً منبثًا.

(١١) ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الكافرين.

(١٢) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي هم الذين كانوا يخوضون في كل حديث ينبثق منه الكفر، ويتخذون الإسلام هزأ ولعبًا.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي تدفعهم الملائكة في نار جهنم دفعًا هائلًا بشدة دونما رحمة ولا شفقة.

(١٤) ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ها هي النار التي كنتم توعدون بها من قبل أنبيائكم، ويخوفونكم منها وينذرونكم العذاب الشديد بها والتي كنتم تسمعون منهم هذه الإنذارات، ولكن كنتم تكذبون بوجودها وحقيقتها فهذه هي التي تدفعون فيها دفعًا.

العبادة سبب الخلق، كان يقرأ ﷺ في صلاة المغرب بالطور

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟
أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ
فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ
لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

٥٢٤

يحمد أهل الجنة الله أن أدخلهم الجنة ووقاهم نار الجحيم

(١٥) ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي هذا الذي تشاهدونه أسحر هو؟! كما كنتم تقولون لرسلكم وللكتب التي نزلت عليهم. ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أنتم عمي عن هذه الحقيقة التي كنتم تكفرون بها كما كنتم عميًا عن الحق والهدى في الدنيا، أجل إنها الحقيقة الواقعة التي لا مناص منها.

(١٦) ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي النـــار التي كانت لكم جزاءً وفاقًا ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ أي ادخلوها إن صبرتم أو جزعتم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي افعلوا ما شئتم فليس لكم محيدٌ عنها ولا خلاصٌ منها ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا ينزل بكم من العذاب اليوم إلا الذي تستحقونه.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الله وخافوه بالغيب في الدنيا هم اليوم في رحاب الجنات الخالدة، والنعيم المقيم.

(١٨) ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي طيبة نفوسهم بما أفاء الله عليهم من أفضاله ونعمه ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي صارت لذتين، لذة التنعم في جنات الخلد، ولذة وقايتهم العذاب الذي لا يحتمل.

(١٩) ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذا بذاك تفضلًا منه تعالى وإحسانًا لعباده الذين اتقوه فأعطاهم بما عملوا.

(٢٠) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي وجوههم متقابلة فيها وهم في راحة وهناءة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وقرَنّاهم بهنَّ ويكاد جمالهن يسلب العقول وحسنهن يأخذ بالألباب، وهن نساء الجنة اللاتي ينتظرن أزواجهن في ظلالها.

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي إن ذرية المؤمنين الذين اتبعوا آباءهم على الإيمان والعمل الصالح ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي ألحقناهم بمقامات آبائهم في الجنة وإن كان الأبناء أقل عملًا من الآباء لتقر أعين الآباء بأبنائهم ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وما أنقصنا الآباء من أعمالهم شيئًا بإلحاق ذريتهم بهم ﴿كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي مرتهن بعمله فلا يحمل على أحد ذنب أحد.

(٢٢) ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وزدناهم فاكهة متنوعة لا مثيل لها، ولحمًا من أشهى ما يستطيبونه.

(٢٣) ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي تدور عليهم كؤوس الخمر التي ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي لا تسبب لهم اللغو ولا السب ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي ولا تفحيش؛ لأنها ليست كخمر الدنيا، وهي خالية من الغول المسكر.

(٢٤) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي يطوف عليهم بالكأس والفواكه والطعام خدم الجنة الخاصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وهذا زيادة في النعيم.

(٢٥) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم في الجنة عن حاله وهذا كما يتحادث أهل الشراب في الدنيا؛ فإن أهل الجنة يتحادثون عن أعمالهم في الدنيا التي أوصلتهم إلى نعيم الآخرة وما كانوا فيه من خوف العاقبة.

(٢٦) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي وجلين من عذاب الله تعالى، فيحمدون الله تعالى الذي أحسن خاتمتهم، فجعلهم فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم.

(٢٧) ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالجنة والمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا من حر جهنم وعذابها الأليم.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أي في حياتنا الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي نوحده ولا نشرك به شيئًا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي كثير الإحسان واسع الرحمة.

(٢٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد أي بلغ رسالة ربك إلى عباده ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ لست بذي رئي من الجن يأتيه بخبر الغيب ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي فاقد العقل.

(٣٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي بل يقولون أن ما أنزل عليه إنما هو شعر ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي ولعله يموت فنستريح منه نهائيًا.

(٣١) ﴿قُلْ﴾ يـا محمـد لهـم ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ أي انتظروا وفاتي ﴿فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي فإنني منتظر معكم، وستعلمون لمن العاقبة.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ
بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا
مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سُورَةُ النَّجْمِ

(٣٢) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ أي أم تأمرهم عقولهم بما يقولون من الكذب والزور ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي بل هم قوم معاندون ضلال.

(٣٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي افترى هذا القرآن ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليس هذا ولا ذاك، بل هم قوم كافرون، وكفرهم دعاهم لما يقولون، فتارة يقولون: كاهن وشاعر، وهذان يلزم أن يكونا على غاية من العقل، وتارة أخرى يقولون: مجنون فكيف يستقيم هذا الكلام؟!

(٣٤) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم أن محمدًا افترى القرآن من عند نفسه.

(٣٥) ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي خلقوا على هذه الكيفية البديعة من غير خالق!!؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي هم الذين أوجدوا أنفسهم بأنفسهم؟ والمعنى: أي لا هذا ولا هذا بل الله تعالى هو الخالق لجميع المخلوقات.

(٣٦) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، فلزمتهم الحجة ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على الشرك.

(٣٧) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي أعندهم خزائن الرحمة فيعطون من يشاؤون، ويمنعون رحمتهم عمن يشاؤون ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي المتسلطون على الكون!!!؟

(٣٨) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي مصعد إلى السماء يستمعون فيه إلى الملأ الأعلى فيوحى لهم أنهم على الحق ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ أي الذي استمع من السماء ذلك ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بدليل قاطع على ما يدعي من القول.

(٣٩) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ أي أم تقولون لله البنات ولكم الذكور فأعطيتم الله أخس النصيبين وجعلتم لأنفسكم أعلاهما!!!؟ فهل بعد هذا التنقص لله من شيء؟

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي أجرةً على إبلاغك إياهم رسالة الله ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي فهم من هذه الأجرة يتثاقلون مع أنك يا محمد لا تأخذ منهم أجرًا.

(٤١) ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي متى علموا أنك ستموت قبلهم، وهم يتربصون موتك قبلهم حتى يستريحوا منك؟

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ بك؟ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي سيرجع الكيد في نحورهم وعلى أنفسهم.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أي هل لهم معبود غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم!!!؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله تعالى وتقدس عن أن يكون له شريك أو يكون له مثيل، وجلَّ سبحانه عن هذه المقالات الشنعاء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

(٤٤) ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي قطعًا كبارًا من العذاب ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي عنادًا، ولا يرجعوا عن كفرهم.

(٤٥) ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي فيه يموتون ثم يعاقبون بما يستحقون.

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ أي مكرهم الذي يمكرون به محمدًا والمؤمنين، لا ينفعهم ﴿شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لن يمنع أحدٌ عنهم العذاب.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي في الدنيا قبل يوم القيامة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون بما سيقع عليهم من القتل ببدر.

(٤٨) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي على أذى المشركين ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي نرى ما يقع عليك من أذى قومك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

(٤٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي حين تقوم من الليل من فراشك لصلاة الليل: ففيه الأمر له بصلاتها ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي صلاة ركعتي الفجر.

آخر تفسير سورة الطور ولله الحمد والمنّة
وبه العصمة وعليه التكلان

إن كان القرآن مفترى فهاتوا سورة مثله، الله خالق الكل، وتعبدون سواه؟!

(٥٣) سُورَةُ النَّجْمِ

مكية إلا الآية ٣٢ فمدنية، وآياتها ٦٢، نزلت بعد الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أي يقسم الله تعالى بالنجم إذا هوى يرمي الشياطين كيلا تسترق السمع. وللخالق أن يقسم بما شاء من مخلوقاته والمخلوق ليس له أن يقسم إلا بالخالق.

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ الخطاب لقريش، وصاحبهم محمد ﷺ وإن الله سبحانه يقسم بأنه رسوله حقًا ما ضلَّ عن الهدى ولا انحرف عن الرشاد.

(٣) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي ما ينطق عن هوى في نفسه، بالقرآن ولا بغيره مما بعث به ولا لغرض شخصي يسعى للحصول عليه، بل عصمه الله من ذلك.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي لا ينطق في أي شأن من الشؤون الدينية، إلا بما يتلقاه عن ربه وحيًا يبلغه للناس كما نزل بلا زيادة ولا نقصان، وعن ابن عمرو مرفوعًا: «... اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق» [٧٥٠].

(٥) ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ بالقرآن، وجبريل هو القوي الأمين على إيصاله.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو قوة هائلة خارقة ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي جبريل عليه السلام استوى عاليًا في السماء على أعظم صورة.

(٧) ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي رأى رسول الله جبريل في أعلى السماء، على صورته الملكية العظمى له ستمائة جناح.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ثم هبط جبريل من كبد السماء شيئًا فشيئًا حتى قرب من محمد ﷺ الذي رآه على صورته لأول مرة.

(٩) ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي قرب جبريل من رسول الله مثل قرب الوتر من كبد القوس، وكان هذا أول البعثة.

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ أي فأوحى الله بواسطة جبريل إلى عبده محمد ﷺ سورة الضحى التي فيها ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣].

(١١) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ أي لم يكذِّب فؤادُه بصرَه الذي رأى فيه جبريل على صورته الملكية العظمى وما أوحاه إليه بما يطمئن به.

(١٢) ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي أفتجادلونه لتكذبوه فيما رآه.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة أخرى وهي في السماء السابعة.

(١٤) ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ وكان ذلك حتمًا ليلة المعراج.

(١٥) ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي الجنة التي يأوي إليها المؤمنون.

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي يأتيها طوائف من الملائكة.

(١٧) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ وفيه دليل قاطع على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والبدن لأن البصر من البدن، ولا بصر بلا بدن وروح.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ أي الجنة والنار والمنتهى وجبريل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ
الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ
اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ
وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾

(١٩) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ صنم لثقيف ﴿وَالْعُزَّىٰ﴾ شجرة كانت تعظمها قريش.

(٢٠) ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وهي صنم بالمشلَّل عند قديد بين مكة والمدينة، كانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها في الجاهلية!!

(٢١) ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ أي أخذتم لأنفسكم أنفس النصيبين، وخصصتم الله تعالى بأخسهما!!!؟ وجل الله تعالى وتقدس وتنزه عن الولد.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي قسمة جائرة.

(٢٣) ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي هذه الأصنام ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ آلهة ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي بلا حجة ولا برهان من الله تعالى ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ بلا مستند إلا هوى الأنفس ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أي تركوا هدى الله الذي جاءهم واتبعوا أهواءهم.

(٢٤) ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: لا فقد يظن الشر خيرًا.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ أي إن الأمر كله لله، وهو المتصرف فيه وحده.

(٢٦) ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا تنفع ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ أي لا يشفع أحد من الملائكة إلا بإذنه فإذا كان هذا حال الملائكة فكيف ترجون شفاعة هذه الأصنام!!؟

الذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى هو جبريل عليه السلام

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾
وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ
ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟
بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ
إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ
﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ
مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ
﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ
يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ
﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي إن المشركين يسمون الملائكة بنات الله تعالى الله عن الولد علوًا كبيرًا.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي إنهم غير عالمين، بل هو الزور والافتراء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي لا يقوم مقامه.

(٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي اترك الذين أعرضوا عن القرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي اقتصر على شهوات الدنيا وملذاتها.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي هذا منتهى علمهم وغايته ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي يعلم الضال ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كلًا بما يستحق.

(٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف فيهما ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ أي الضال بالنار والمهتدي بالجنة.

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي لا يقترفونها ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي وقد يفعلون صغار الذنوب ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي مغفرته تسع الذنوب ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي حين أنشأ أباكم آدم منها ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ أي هو أعلم بكم حينذاك ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تمدحوها وتشكروها ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي إن التقوى محلها القلب وهو أعلم به.

(٣٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن الإيمان وتولى عن الخير.

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي آمن واتبع الحق ثم نكل عنه.

(٣٥) ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي أعند هذا المرتد وهو الوليد بن المغيرة، علم ما غاب عنه من عذاب جهنم فهو يعلم ذلك.

(٣٦) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أي ألم يخبر بما في التوراة.

(٣٧) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي ألم يخبر بما في صحف إبراهيم الذي قام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي، فاستحق أن يكون للناس إمامًا.

(٣٨) ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي إن ما في صحف إبراهيم وموسى هو: كل نفس عملت ذنوبًا لا يحمل من هذه الذنوب على الغير.

(٣٩) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي وهذا أيضًا مما في صحف إبراهيم وموسى أي ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله ولا ينفع أحد عمل أحد وفي الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به» [٧٥١]، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكدِّه وعمله. وفي الحديث أيضًا: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإنَّ ولده من كسبه» [٧٥٢]، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه.

(٤٠) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي في الآخرة إذ يعرض على العبد ويكشف له يوم القيامة فيظهر طيب العمل من سيئه. ويجزي الله عليه أتم الجزاء خيرًا كان أم شرًا، ولذا قال:

(٤١) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى أي الجنة، والسيء الخالص بالسوء أي النار، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله الخليقة وتحمد الله عليه.

(٤٢) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي إليه تنتهي الأمور وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإليه تعالى المنتهى في كل حال.

(٤٣) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وفي الحديث: مرَّ رسول الله ﷺ بقوم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية فرجع إليهم فقال: «ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال: إئت هؤلاء فقل لهم: إن الله يقول ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾» [٧٥٣] وفي هذا تنبيه على أن جميع الأعمال بقضاء الله وقدره حتى الضحك والبكاء.

(٤٤) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي قضى أسباب الموت والحياة، ولا يقدر على ذلك غيره فهو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم سيعيدهم بعد موتهم ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا، وسيميت الموت ويخلد الحياة على أهل الجنة والنار.

(٤٥) ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ أي أنه تعالى خلق النوعين من جميع الحيوانات ناطقها وبهيمها ما عدا آدم وحواء فإنهما لم يخلقا من النطفة.

(٤٦) ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ إذ تصب في الرحم وتدفق فيه، فيقدر فيه الولد، وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرة الخالق جلَّ وعلا.

(٤٧) ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي كما خلق البداءة، فإنه قادر على الإعادة، فيعيد العباد من الأجداث ويجمعهم ليوم الميقات المعلوم.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي ليس أحد سواه يغني عباده بتيسير إعالتهم في معاشهم، وأقناهم وجعلهم مالكين للتجارات والعمارات.

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ أي إن الشعرى نجم كانوا يعبدونه فأفادهم الله بأن هذا الذي تعبدونه أنا الذي خلقته فاعبدوني أنا.

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود الذين كانوا أشد قوة من قريش والعرب، فأهلكهم لما كفروا فهو قادر على إهلاك غيرهم ممن يعبدون سواه.

(٥١) ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ وكذلك ثمود أهلكهم لما أمعنوا في الكفر.

(٥٢) ﴿وَقَوۡمَ نُوحٍ مِّن قَبۡلُ﴾ أغرقهم ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ أي كفرًا وعنادًا فاستأصلهم جميعًا إلا المؤمنين منهم.

(٥٣) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ أي قوم لوط رفعهم ثم رجم بهم الأرض.

(٥٤) ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي من الحجارة التي أمطرهم بها من سجيل.

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ فلا تكذب بنعم ربك أيها الإنسان.

(٥٦) ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمدًا عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أي مثلهم.

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ أي اقتربت القريبة أي القيامة.

(٥٨) ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي لا يعلمها من دونه أحد.

(٥٩) ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿تَعۡجَبُونَ﴾ وتعرضون.

(٦٠) ﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ﴾ أي خشيةً من الله تعالى.

(٦١) ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ أي غافلون ومعرضون لاهون.

(٦٢) ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾ فسجد النبي والمسلمون والمشركون والجن والإنس.

آخر تفسير سورة النجم والله الموفق

(٥٤) سُورَةُ القَمَرِ

مكية إلا الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٦ فمدنية، وآياتها ٥٥، نزلت بعد الطارق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ وقد انشق القمر في عهده ﷺ وهذا من علامات قيام القيامة، وفي الحديث: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» متفق عليه [٧٥٤].

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ
عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ
ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾
وَقَوۡمَ نُوحٍ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ
أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾
هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن
دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ
وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾

سُورَةُ القَمَرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ
وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ
وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ
مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ
﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

٥٢٨

(٢) ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً﴾ أي معجزة وحجة ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ أي لا ينقادون إليها ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾ أي هذا سحر سحرنا به محمد. وفي الحديث: «إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما» [٧٥٥].

(٣) ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ﴾ أي كذبوا برسول الله ﷺ وبمعجزته الخارقة، واتبعوا ما تهوى نفوسهم وما يزينه الشيطان لهم من عدم الإيمان ﴿وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر سيستقر يومًا ما.

(٤) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أي الأخبار التي وصلتهم عن الأمم السابقة وما حلَّ بهم نتيجة كفرهم ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: فيه ما يجعلهم يعتبرون فيؤمنون.

(٥) ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي وما تنفع هذه الآيات عن قوم علم منهم الله تعالى أنهم سيختارون الكفر على الإيمان، فلا تغني الإنذارات فيهم ما داموا قد اختاروا الكفر بمحض إرادتهم، وعلم الله ذلك منهم وقدره عليهم قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام.

(٦) ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٍ نُّكُرٍ﴾ أي أعرض عنهم يا محمد فلن يستجيبوا لك مهما دعوتهم، وهذا منسوخ بآية السيف؛ فإن موعدهم يوم القيامة من القبور يوم يدعوهم الله تعالى من أجداثهم إلى عذابٍ منكرٍ فظيعٍ لا يُتصوَّر ولا يُحتمل جزاء ما كانوا يكفرون.

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ
﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ
ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

(٧) ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي إن أبصارهم مهدَّلة الجفون ذليلة ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي من قبورهم ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ سائرون إلى موقف الحساب.

(٨) ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي مسرعين لإجابة من دعاهم إلى حسابهم ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي شديد الهول عبوس قمطرير.

(٩) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحًا ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ أي هذا رجل مجنون ولقد نهرناه عما يدعو إليه من جنونه.

(١٠) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي يا رب إن قومي لم يستجيبوا لي برغم الزمن الذي دعوتهم فيه؛ اللهم فقد غلبوني بعنادهم، فانتصر لدينك.

(١١) ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي فاستجبنا لعبدنا الذي يدعو بإخلاص إلى عبادتنا، وفتحنا أبواب السماء فانهمر المطر بأقصى ما يكون من الشدة.

(١٢) ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي وأمر العيون في الأرض أن تتفجر ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي ماء المطر وماء الينابيع ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي مقدر بأمر الله.

(١٣) ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي حملنا نوحًا والذين آمنوا معه ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي على ذات ألواح من الخشب ومسامير تجمعها، وهي السفينة.

(١٤) ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تجري بمرأى منَّا والعين صفة لله تعالى لا كأعين المخلوقين وهي صفة معلومة الحقيقة، مجهولة الكيفية، صفة تليق بجلاله وعظمته وقهره ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي نوح الذي كفر به قومه وبما جاء به من توحيده تعالى وهجر الأصنام.

(١٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أي لمن بعدهم ليصنعوا على غرارها السفن، ويتذكروا أنها مثل سفينة نوح، وكيف نصره الله على قومه الكافرين وأغرقهم فيتعظوا ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من يتذكر ذلك ويتعظ؟

(١٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي كيف كان عذابي بمن كفر بنذري.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي هونًا قراءته وفهمه ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن ومتبع له أمرًا ونهيًا.

(١٨) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي بهود عليه السلام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فهل من متعظ بما أصابهم من العذاب الذي أرسلناه إليهم.

(١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي شديدة البرودة ولها صوت تنخلع له القلوب ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي مشؤوم دائم مستمر.

(٢٠) ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي تقلعهم وتقلع الأرض من تحتهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي ساقط على الأرض وقلعت الريح رؤوسهم.

(٢١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي فانظر كيف كان تنكيلي بمن يكفر بي؛ فهل من متَّعِظٍ أو معتبر بما حلَّ بالسابقين.

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي جعلناه هين الفهم لتحصل فيه العظة والاعتبار ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ ومعتبر؟

(٢٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي كذبوا نبيهم صالحًا وبما جاء معه من الدين القويم عن ربه وكذبوا بالمعجزات.

(٢٤) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أي ننقاد إليه ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي في خطأ وذهول وجنون.

(٢٥) ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي كيف خُصَّ من دوننا بالوحي والنبوة وفينا من هو أحق منه بذلك، ثم أضربوا عن الاستنكار وانتقلوا إلى الجزم فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي يكذب علينا زورًا وبطرًا وهذا شأن الكافرين في كل زمان يستنكرون أن يكون نبي من البشر، ويرمونه بالكذب والزور والأشر والبطر ويجحدون رسالته.

(٢٦) ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وهذا غاية في التهديد والوعيد فإنه سبحانه يتوعَّدهم بالعذاب الذي لا قبل لهم به، وذلك يوم القيامة عندما يتضح الأمر لهم جليًا ويعلمون بلا لبس ولا غموض أنهم هم الكذابون الأشرون، ولكن في وقت لا ينفع فيه الندم.

(٢٧) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ وقد كانوا تحدَّوا صالحًا عليه السلام إذا كان يستطيع أن يخرج لهم من هذه الصخرة الصماء ناقةً ومعها ابنها لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به، فأخرجها الله لهم كما اقترحوا ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ وانظر ماذا سيحلُّ بهم.

الله يثأر لأنبيائه عن كفر بهم وكذبهم كأقوام نوح وهود وصالح صلى الله عليهم وسلم

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ
وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

يحذر الله كفار العرب وقريشاً خاصة أن يحل بهم ما حل بالأمم الكافرة السابقة

(٢٨) ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي إذا غابت الناقة حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا لبنها.

(٢٩) ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ أي عاقر الناقة، وقيل: اسمه قدار بن سالف أشقى قومه ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي كمن لها ورماها بسهم ﴿فَعَقَرَ﴾ أي عقرها وذبحها.

(٣٠) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي عاقبتهم عقابًا شديدًا؛ فكيف كان عقابي لهم على كفرهم وتكذيبهم رسولي؟ أي كان عظيمًا هائلًا.

(٣١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي بادوا عن آخرهم، ونجى الله صالحًا ومن معه من المؤمنين.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي إن هذا القرآن يسر الله ما فيه من التذكر والعبر ليعتبر أهل القرآن بمن مضى ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي متعظ ومعتبر؟

(٣٣) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي إنهم كذبوا رسولهم لوطًا عليه السلام واقترفوا فاحشة لم يسبقهم إليها من أحد من العالمين، وكانوا يأتون الرجال شهوةً دون النساء.

(٣٤) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وذلك عقب اقتلاع جبريل بلادهم بجناحه وحملها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، ثم أرسل عليهم حاصبًا أي حجارة من السماء ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي ما عدا لوط ومن آمن معه، خرجوا آخر الليل من مدينتهم فنجوا من العذاب.

(٣٥) ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي أسبغنا عليهم نعمة النجاة لإيمانهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ أي من أطاع ربَّه، وانتهى عن معصيته.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ﴿بَطْشَتَنَا﴾ قبل نزول النقمة بهم ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي شكُّوا في صدق لوط بما أنذرهم به من العذاب.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ أي راودوا لوطًا أن يخلي بين قومه وبين أضيافه ليفحشوا بهم ولم يدروا أنهم ملائكة ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أمر الله جبريل عليه السلام أن يخرج عليهم، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست وصيَّرها الله تعالى ممسوحةً لا يرى لها شقٌّ ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كم هو موجع مؤلم، وسأوقع بكم عذابًا قريبًا أشد وأدهى وأمرّ يكون عبرة لمن يعتبر.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي ولقد باغتهم عذابٌ لا ينفكُّ عنهم إلى أن استأصلهم كما تقدم تفصيله قبل قليل.

(٣٩) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا العذاب الذي كذبتم به.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ولعل تكرير تيسير القرآن للذكر من أجل الإشعار بأنه منّةٌ عظيمةٌ يجب شكرها.

(٤١) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ أي أرسل إليهم موسى وهارون عليهما السلام وأيَّدهما بالمعجزات الباهرات العديدة.

(٤٢) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي أخذناهم أخذ غالب في انتقامه، قادر على إهلاكهم لا يعجزه شيء.

(٤٣) ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أيها المشركون من قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ أي أشد قوة ممن ذكرناهم من الأمم السابقة ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي أعطاكم الله عهدًا في الكتب السابقة؟

(٤٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي نحن جميعًا يد واحدة ننتصر على أعدائنا وأمرنا دائمًا أمر مجتمع لا نغلب ولا نقهر!!!؟

(٤٥) ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وهذه بشارة من الله لرسول الله ﷺ ولمن معه بالنصر والقهر والغلبة على المشركين، وقد انهزموا وولّوا الدبر.

(٤٦) ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي سيعذبون في يوم القيامة عذابًا نكرًا ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي وعذاب الآخرة أفظع وأشدُّ مرارةً.

(٤٧) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي إن أصحاب الجرائم العظيمة في ضلال: عن العلم والعمل في الدنيا، ونار تستعر عليهم حميًا في الآخرة.

(٤٨) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يوم تسحبهم الملائكة في جوف النار على وجوههم ويقولون لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي قاسوا حرَّها.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي من المخلوقات جميعًا ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي لا خالق لها سواه، وخلقها بقدر مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وجودها الكوني.

وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ
وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ
﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ
وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ
مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

(٥٠) ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي وما أمرنا لشيء نريد وقوعه وإيجاده ﴿إِلَّا﴾ أن نقول قولةً ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ أي كن فيكون حالًا بلا أي تأخر ولا نحتاج إلى تأكيد بقولة ثانية حتى يكون، إنما يكون ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي في سرعته والمراد هنا يتعلق بالساعة وقيامها كلمح البصر.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي ولقد أهلكنا أشباهكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي مَنْ يتذكر أو يتعظ، ويعلم أن ذلك حق، وأن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، فقد أخزى أولئك وهو قادر على إهلاككم فهل من متعظ؟

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في الكتب التي في أيدي الكتبة من الملائكة عليهم السلام، يحصون على العباد أعمالهم وسيحاسبون بموجبها

(٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي وكل صغير من الأعمال أو كبير منها مسطَّر ومكتوب في صحائفهم ومحصيّ لهم أو عليهم. وفي الحديث: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا» [٧٥٦].

(٥٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي إن الذين يخافون ربهم فلا يهتكون حرماته، إنهم في جنات النعيم تجري من تحتها الأنهار.

(٥٥) ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي إنهم في مجالس من الجنات سالمة من اللغو والتأثيم ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي عند المليك القدير الأعظم، وفي الحديث: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا» [٧٥٧]، ويد الله صفة له، حقيقة بلا كيف.

آخر تفسير سورة القمر ولله الحمد والمنّة وعليه التكلان

(٥٥) سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

مدنية وآياتها ٧٨، نزلت بعد الرعد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى ولا يجوز أن يسمى به مخلوق، وهذه السورة قرأها رسول الله ﷺ على وفد الجن المؤمن.

(٢) ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي يسَّر تعليمه وذلك نعمة من الله، وقيل جوابًا لقولهم: وما الرحمن؟

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ من العدم وجعله في أحسن تقويم وميَّزه بالعقل.

(٤) ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ الذي يكون به التفاهم ويشمل البيان النطقي والبيان الخطي، وهذا البيان من النعم الجليلة التي خصَّ الله بها الإنسان.

(٥) ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي خلقهما الله وجعلهما يجريان بحساب دقيق مقنن ليعلموا بجريانهما عدد السنين والحساب.

(٦) ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي النجم الذي ليس له ساق من نبات الأرض، والشجر ما له ساق؛ فكلاهما يسجدان لله تعالى.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي جعلها عالية ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي العدل.

(٨) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ فإذا لم يطغوا في الميزان أقيم العدل.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي أعطوا الناس حقوقهم كاملة في كل شيء، حتى في وزنهم فلا تنقصوه واعدلوا.

(١٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ لمعاش أهلها من الإنس والجن، ولما له روح وحياة، ولينتفع أهلها بما في ظاهرها وباطنها من المنافع.

(١١) ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي ما يتفكه به ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وهي أوعية الطلع.

(١٢) ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ أي ورق الزرع ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ وهو ما يشمُّ.

(١٣) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أي بأي نعم من نعمه ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أي يا معشر الجن والإنس؟ ولـذلك قال الجـن المؤمنون: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(١٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ وفي الحديث: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» [٧٥٨].

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي وخلق أبا الجن من اللهب الصافي من النار بلا دخان، كما خلق الله آدم أبا الإنس من طين أي تراب وماء.

(١٦) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم ربكما يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ ونحن نقول كما قال مؤمنو الجن: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

ونحن نقول كما قال الجن المؤمنون: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ
﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ
وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ
أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ
إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

(١٧) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي مشرق الشمس والقمر في الصيف والشتاء ومغربهما كذلك.

(١٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيرها.

(١٩) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ خلق الله تعالى في قلب البحر المالح أنهارًا عذبة يلتقيان ولا يختلطان، وهذا معروف ومشاهد في البحار المحيطات.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ وهذه الأنهار البحرية يسمونها التيارات لا يبغي ماء البحر عليها، وبينهما بقدرة الله تعالى حاجز يمنع اختلاطهما!

(٢١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الجن والإنس!!

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها فما وقع فيها من قطر السماء يتكون فيها اللؤلؤ بإذن الله تعالى. والمرجان نبات حيواني ينبت في قاع البحر، وله عقد أحمر، يقطعه الغواصون فيسيل منه الدم.

(٢٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان بها يا معشر الجن والإنس؟ ونحن نقول كما قال الجن المؤمنون: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

(٢٤) ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي السفن تجري بأمره فهو مالكها والمتصرف بها، تجري في البحر كأنها الجبال في ضخامتها مما فيها من مصالح نقل التجارات من قطر إلى قطر؛ ومما فيه صلاح الناس.

(٢٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان من الإنس والجن.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي كل من على الأرض وكل من في السماوات إلا من شاء الله هالك، وهذا ما سيكون يوم القيامة.

(٢٧) ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي لا يبقى إلا الله وحده لا شريك له، فهو الحي الباقي الذي لا يموت، والوجه صفة لله تعالى معلومة الحقيقة مجهولة الكيفية، لا يشبه وجه أحد من المخاليق، وقيل ذات الله تعالى ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾ أي العظمة ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي الذي يكرم عن مماثلة الخلق، وهو أيضًا يكرم من شاء بما شاء، وذو الجلال والإكرام صفتان له سبحانه، تجلان عن صفات المخلوقين.

(٢٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان من الإنس والجن.

(٢٩) ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الجميع بحاجة إلى سؤاله المغفرة والرزق، وهو الغني عن العالمين ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ وفي الحديث: «... من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا ويضع آخرين»[1] [٧٥٩].

(٣٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فهذه نعم لا يمكن جحدها أو يتيسّر تكذيبها.

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هذا وعيد للإنس والجن، ولا يشغل الله شأن عن شأن. يقال: لأتفرغن لك وما به من شغل.

(٣٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان من الجن والإنس.

(٣٣) ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ وهذا في مقام الحشر والملائكة محدقةٌ بالخلائق جميعًا، وهذا تحدٍّ للإنس والجن أن ينفذوا هاربين من العذاب ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ ولا سلطان لكم اليوم فكل شيء لله.

(٣٤) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومن نعمة هذا التهديد أن يرتدع المسيء عن إساءته.

(٣٥) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي لو ذهبتم هاربين يوم القيامة، لردتكم الملائكة والزبانية، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم؛ فلا يمنعكم أحد من عذاب الله.

(٣٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وإن هذا الوعيد لنعمة من نعم الله تعالى على الثقلين الإنس والجان، ليكون به الانزجار عن الشر والرغبة في الخير.

(٣٧) ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي تصير السماء في حمرة الورد وتذوب كالدهن حتى تصير حمراء من حرارة جهنم.

(٣٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي إن هذا الوعيد الذي لا مزيد عليه يتعظ به السعيد فلا يسلك درب الشقاوة، وينزجر العاصي فيرتدع.

(٣٩) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بهم ماذا عملوا بل يلقون رأسًا في النار.

(٤٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي إنها نعم عظيمة هذه الإنذارات، والإخبار عما يكون غدًا من العذاب، والخير للثقلين إن وُعظا أن يتّعظا.

(١) ضعفه الهيثمي.

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ
وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ
ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

﴿٤١﴾ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلاماتٍ تظهر عليهم وبسواد وجوههم ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي تجعل الأقدام مضمومةً إلى النواصي ويلقون في جهنم.

﴿٤٢﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان من الإنس والجن، إن من جملة هذه النعم زجر الرب لعباده سبحانه الذي ترجف له القلوب هولًا وفزعًا.

﴿٤٣﴾ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه جهنم ماثلةٌ أمامكم، وكنتم يا أيها المشركون المجرمون تكذبون بها فها هي حقيقة واقعة.

﴿٤٤﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي في مضايق جهنم فيلقون من العذاب مالا تطيقه الجبال ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي ويسقون من ذوب النحاس فيقطع أمعاءهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فوالله إن لمن نعم ربنا التي لا تعدُّ ولا تحصى أن يخوفنا بالعذاب الذي لا يطاق حتى نتوب إليه من ذنوبنا كَيْلَا نذوقه.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أي نهى نفسه عن هواها، وفي الحديث: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» [٧٦٠]، التي أعدت للمتقين.

﴿٤٧﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي التي من جملتها هذه النعمة العظيمة، وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين، موصوفتين بأعظم وصف.

﴿٤٨﴾ ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي أغصان في كل غصن أنواع منوَّعة من الفاكهة، يحمل كل ثمرةٍ نضيجة فائقة في اللذة والطعم الطيب.

﴿٤٩﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

﴿٥٠﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ بالسلسبيل وأخرى بالتسنيم.

﴿٥١﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

﴿٥٢﴾ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ مما يعلمون وخير مما يعلمون.

﴿٥٣﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

﴿٥٤﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي ما غلظ من الديباج والمزين بالذهب، فهذه هي البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاؤوا تناولوه.

﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان من الإنس والجن؟

﴿٥٦﴾ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لم يفض بكارتهنَّ قبل أزواجهن إنس ولا جان، فيه دليل على دخول الجن الجنة.

﴿٥٧﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان من الإنس والجن.

﴿٥٨﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وذلك لصفائهن وبهائهن

﴿٥٩﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ اللهم لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد. وهذا القول قاله وفد الجن لما قرأ الرسول ﷺ عليهم هذه السورة.

﴿٦٠﴾ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ لأنفسكم بعبادة الله وحده وطاعة أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ لكم من الله برضاه والجنة.

﴿٦١﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان والجواب: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

﴿٦٢﴾ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وهاتان جنتان غير الجنتين الأوليين ولكن دونهما فضيلة فالأوليان للمقرَّبين، والأخريان لأصحاب اليمين.

﴿٦٣﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يا أيها الثقلان من الإنس والجن، هذه نعم الله عليكم تُعدَّدُ فهل تكذبون بشيء منها؟ لا يا رب لا نكذب.

﴿٦٤﴾ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي هاتان الجنتان الأخريان سوداوان من شدة الاخضرار والريّ من الماء، هاتان الجنتان هما للذين كانوا من أصحاب اليمين.

﴿٦٥﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أجل لا يمكن لأحد أن ينكر أو يكذب بالنعم الوفيرة، كيف يكذَّب بها والله تعالى يعدِّدها نعمةً نعمةً كأننا نراها.

﴿٦٦﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي في هاتين الجنتين عينان فياضتان بالماء التي تكون سببًا في نمو الفواكه وكثرتها وتجويد نوعها لتكون لذيذة الطعم.

﴿٦٧﴾ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذه أيضًا نعم من نعم الله تعالى العظيمة. وإن وجه تكرار هذه الآية أنَّها تُعْنَى بدفع النفوس إلى طاعة ربها خوفًا وطمعًا.

فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ
مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ
﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾
فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ
﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

٥٣٤

(٦٨) ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ أي في تلك الجنتين الأخريين فاكهة عديدة، خصّ منها النخل والرمان، لأن النخل فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء.

(٦٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي بأية نعمة من نعم ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان؟ اللهم لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

(٧٠) ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ أي في الجنات الأربع نساء مخلوقات لهن، خيرات الأخلاق، حسان الوجوه، مشرقات المحيًّا، منوَّرات الثنايا.

(٧١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن هذه الآلاء والنعم التي لا تعدُّ ولا تحصى، لا تقبل التكذيب. فاللهم لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٧٢) ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ الحور جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين والشديدة سوادها، موقوفات في الخيام ينتظرن أزواجهن.

(٧٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الإنس والجن إنها نعم لا تنكر وآلاء لا تجحد، وإنها ظاهرة لكل ذي بصر وبصيرة ولا يجحدها إلا الكافرون.

(٧٤) ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أي لما كن مخدَّرات في خيامهن لم يفض بكارتهن أحد من إنس ولا جان، إنما ينتظرن أزواجهن المؤمنين الذين قضوا حياتهم الدنيا في طاعة ربهم.

(٧٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنها كلها نعم والحمد لموليها.

(٧٦) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ أي متكئين على وسائد من رياض الجنة وثيرة وفيرة ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ أي طنافس موشّاة بالذهب، وكل شيء نفيس عند العرب يسمى عبقريًا. وشاهده: قول النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه: «فلم أر عبقريًا يفري فَرِيَه» [٧٦١].

(٧٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا أيها الثقلان؟

(٧٨) ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي هو: أن يُجلَّ فلا يُعصى، وأن يكرم فيُعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يُذكر فلا يُنسى. وفي الحديث: «ألظُّوا بياذا الجلال والإكرام» [٧٦٢]، والإلظاظ هو: المداومة والإلحاح واللزوم.

آخر تفسير سورة الرحمن ولله الحمد والمنّة والفضل

(٥٦) سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية إلا آيتي ٨١، ٨٢ فمدنيتان، وآياتها ٩٦، نزلت بعد طه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ الواقعة اسم من أسماء يوم القيامة؛ لأنها كائنة لا محالة، وهي النفخة الآخرة في الصور.

(٢) ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي ليس لوقوعها صارف أو دافع.

(٣) ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ أي تخفض الكفرة إلى السعير وترفع المؤمنين إلى النعيم.

(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ أي تتزلزل فينهدم كلُّ ما عليها.

(٥) ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ أي فُـتِّـتَتِ الجبال تفتيتًا تفتيتًا.

(٦) ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ أي لم يبق على ظهرها شيء وصارت قاعًا صفصفًا.

(٧) ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ أي كان الناس عامة أنواعًا ثلاثةً.

(٨) ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي هم قوم عن يمين العرش، ويؤتون كتبهم بأيمانهم وهم جمهور أصحاب الجنة.

(٩) ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ هم أهل السيئات وهم الذين عن يسار العرش ويؤتَوْن كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار. اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك.

(١٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أي هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة.

(١١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي إلى كنف الله، ودنت درجاتهم وأعليت مراتبهم.

(١٢) ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إلى جزيل ثوابه تعالى وعظيم إنعامه.

(١٣) ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي صدر هذه الأمة المحمدية؛ لأنها خير الأمم، وفي الحديث: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» [٧٦٣].

(١٤) ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي وقليل ممن جاء بعدهم يقاربهم في منازلهم.

(١٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾ أي مضفورة بالذهب واللؤلؤ والدُّر والياقوت والجواهر، وعليهم من الحلي والجواهر والزينة ما لا يوصف.

(١٦) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي متكئين على السرر الموضونة، ووجوههم بعضها إلى بعض متقابلين، وليس أحد وراء أحد.

الله يُجَلُّ فلا يُعصى، ويكرم فيُعبد، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ
الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ
الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

٥٣٥

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي يدور حولهم غلمان في الجنة للخدمة، على صفة واحدة لا يكبرون ولا يشيبون في غاية من الحسن والبهاء.

(١٨) ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ الأكواب التي لا عرى لها، والأباريق التي لها عرى ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي فيها خمر من عيون سارحة، لا تنضب ولا تغور.

(١٩) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا يلحقهم الصداع مثل خمر الدنيا ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي ولا يسكرون فتذهب عقولهم.

(٢٠) ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي ويطوف الولدان عليهم بالفاكهة اللذيذة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ وهذا دليل على أكل الفاكهة على صفة الانتقاء.

(٢١) ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ما يتمنَّونه وتشتهيه أنفسهم، وفي الحديث: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويًّا»(١) [٧٦٤].

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي لهم حور عين يتزوجون بهن. والحوراء: التي في عينها شدة البياض وشدة السواد، والحور ضخام العيون حسانهن.

(٢٣) ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي لم تمسّه الأيدي صافيًا نقيًا.

(٢٤) ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بما أسلفوا من الطاعات والمبرَّات الكثيرة.

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي ليس هناك عبث ولا إثم.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي لا يسمعون إلا تحيتهم لبعض وكلامًا مع بعض، هذا كله للسابقين المقربين، وفيهم الأنبياء والصديقون والشهداء.

(٢٧) ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي أما أصحاب اليمين ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ وشرع يصفهم.

(٢٨) ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ وهو شجر النبق في الجنة كثير الثمر والمقطوع الشوك.

(٢٩) ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: الموز، والمنضود: المتراكب بعضه فوق بعض.

(٣٠) ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي دائم باق ليس هناك من شمس تنسخه.

(٣١) ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي جارٍ متدفق يجري في غير أخدود.

(٣٢) ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي كثيرة الأعداد، ومتنوعة الألوان.

(٣٣) ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي لا تنقطع أبدًا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا محظورة وفي الحديث: «إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» [٧٦٥].

(٣٤) ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي مرفوعة على الأسرة، وقيل: كناية عن النساء اللواتي في الجنة، مرتفعات على الأرائك، رائعات في الحسن والجمال.

(٣٥) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ أي خلقناهن خلقًا جديدًا لا تولُّدًا.

(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي لم يفض بكارتهن إنس قبلهم ولا جان.

(٣٧) ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ العرب: متعشقات محببات والأتراب أي في عمر واحد.

(٣٨) ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي إن الموصوفات تلك هنَّ مخلوقات لأصحاب اليمين.

(٣٩) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي جماعة من الأولين من هذه الأمة.

(٤٠) ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي كما في الحديث: «هما جميعًا من أمتي» [٧٦٦].

(٤١) ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ أي أي شيء هم فيه؟

(٤٢) ﴿فِي سَمُومٍ﴾ أي في حرِّ جهنم ﴿وَحَمِيمٍ﴾ الماء المغلي بنار الجحيم.

(٤٣) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي لهب النار المختلط بالدخان الأسود.

(٤٤) ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي لا بارد المدخل، ولا كريم المنظر.

(٤٥) ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي المشركون الكافرون ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي في كل شيء، مقبلين على أشنع ما في الشرك من عقائد، ومقبلين على لذائذ أنفسهم ومنعمين بما لا يحل لهم.

(٤٦) ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ هو الشرك والكفر. وقيل: هو يمين الغموس أي أن تحلف بالله كاذبًا وتعلم أنك تكذب فيما تَحلِفُ عليه.

(٤٧) ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي كانوا ينكرون البعث من القبور، ويستبعدون وقوعه.

(٤٨) ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي أو كذلك آباؤنا وأجدادنا الأولون منذ آدم ... مبعوثون أيضًا من قبورهم!؟ هذا مستحيل!!!

(٤٩) ﴿قُلْ﴾ أي بلغهم يا محمد: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ أي منذ الخليقة الأولى من عهد آدم إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه.

(٥٠) ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ أي يبعثهم الله من أجداثهم أحياء ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو الأجل الموقوت، أي يوم القيامة الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

في الجنة: سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود

(١) ضعيف.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ
﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ
أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ
نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي عن الطريق المستقيم، وما فتنتم عنه وآثرتم الضلال على الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ برسولي وما أنزلت عليه من الحق المبين.

(٥٢) ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ أي لآكلون في الآخرة من شجر كريه المنظر، كريه الطعم، وهو أقبح الأشجار وأخسُّها وأنتنها.

(٥٣) ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي تملأون بطونكم يوم القيامة من شجر الزقوم الذي لا يستساغ، ذلك لما تشعرون وتجتئ من شدة الجوع.

(٥٤) ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي ولما كان الزقوم طعامًا ذا غصة فيشربون عليه ماءً مغليًا على حرِّ جهنم فيقطِّع أمعاءهم.

(٥٥) ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي شرب الإبل العطاش. والهيم: داء يأخذ الإبل فلا تروى أبدًا حتى تموت؛ فكذلك أهل جهنم.

(٥٦) ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا الذي ذكر من أكل الزقوم والشرب من الحميم ﴿نُزُلُهُمْ﴾ أي ضيافتهم عند ربهم ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم القيامة.

(٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي من عدم، فالذي خلقكم من عدم أليس قادرًا على أن يعيدكم من وجود ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ !!؟

(٥٨) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقذفون مع المني من الحيوانات المنوية.

(٥٩) ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ بقدرتكم ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي أم نحن الذين خلقناه وخلقناكم منه وأقررناه في الأرحام بأمرنا.

(٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي كتبناه عليكم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي بمغلوبين ولا عاجزين بل قادرين.

(٦١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي نأتي بخلقٍ غيركم ولا يفوتنا ذلك ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي في أي خلق نشاؤه نحن.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي خلق آدم من تراب ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا قستم النشأة الأخرى على النشأة الأولى؟

(٦٣) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي شق الأرض والبذر فيها.

(٦٤) ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ بل نحن الذين أنبتناه، وفي الحديث: «لا تقولنَّ زرعتُ، ولكن قل: حرثتُ» [٧٦٧].

(٦٥) ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي لأيبسناه قبل استوائه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تعجبون مما نزل بكم في زرعكم.

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي تقولون: نحن لا يثبت لنا مال ولا ربح.

(٦٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي لا حظَّ لنا في مزروعاتنا.

(٦٨) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي فتدفعون فيه العطش عن نفوسكم وعن زروعكم ومواشيكم.

(٦٩) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ أي وحدنا دون غيرنا، فإذا عرفتم ذلك لم لا تقرُّون بتوحيدنا في العبادة، وتصدقون بأني أبعث من في القبور.

(٧٠) ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي زعاقًا مرًّا من شدة الملوحة لا يصلح لا لشرب ولا لزرع ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي فهلا تشكرون الله على إنزاله عليكم عذبًا زلالًا.

(٧١) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي تشعلون، فتصطلون بها، وتستخرجونها من الشجر الأخضر الذي ينبت في أراضيكم.

(٧٢) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ أي أأنتم خلقتموها ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي أم نحن الخالقون لها، ولكل شيء في الوجود.

(٧٣) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي جعلنا هذه النار تذكِّركم بنار جهنم التي لا تطاق ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي منفعة للمستمتعين بها من الناس.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي سبحه شاكرًا أنعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، فإنه هو الخالق لكل هذه الأشياء والمنعم بها وحده.

(٧٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: لا، ليس الأمر كما زعمتم أيها المشركون بأن القرآن سحر، أقسم بمواقع النجوم وهي مواقع نزول القرآن منجمًا بمدة ثلاث وعشرين سنة.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي إن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسمٌ عظيم، ولو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه[1].

---

(١) ملاحظة: مواقع النجوم: منازل النجوم: مساقطها ومغاربها في السماء. موقع: من الوقوع بمعنى السقوط والغروب.

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ
إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ
﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ
﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ
﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سُورَةُ الحَدِيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

(٧٧) ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ نزل من لدنًا نحن جبار السماوات والأرض على رسولنا وعبدنا محمد صلواتنا وسلامنا عليه، لا كما زعمتم أيها المشركون أنه سحر وكهانة.

(٧٨) ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي إن القرآن نزل من لدنا وكان في كتابٍ مصون وهو اللوح المحفوظ، لا يرقى إليه أحد من الخلق إلا من شاء الله.

(٧٩) ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي الملائكة فلا يطلع أحد من الخلق على هذا الكتاب المكنون ولا يمسُّه إلا المطهرون الملائكة، على أنه لا يجوز مسُّ المصحف للجنب لا لهذه الآية، إنما لما جاء في الكتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر» [٧٦٨].

(٨٠) ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هذا القرآن الذي قال عنه المشركون: سحر وشعر وكهانة أو تنزلت به الشياطين. كلا بل منزل من رب العالمين.

(٨١) ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ المدهن هو الذي لا يعقل حق الله عليه ويدفعه بالعلل ويظهر الموافقة له ويبطن الكفر به، والخطاب والله أعلم للمنافقين.

(٨٢) ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تجعلون حظَّكم من هذا الكتاب أنكم تكذبون به وتمالئون الكفار فيه وتركنون إليهم.

(٨٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي فهلا إذا بلغت الروح الحلق.

(٨٤) ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي إلى الذي ينازع الروح ويحتضر.

(٨٥) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ قريب إليه بعلمه وهو فوق العرش سبحانه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي لا تدركون قرب الله، ولا تبصرون ملائكة الموت.

(٨٦) ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ فهلا كنتم غير مربوبين لله تعالى ولا مملوكين له، كما تزعمون، ولستم مؤمنين ببعث الأجساد.

(٨٧) ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي ترجعون النفس إلى الجسد ولا تدعونها تفارقه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنكم لستم مبعوثين ولا محاسبين.

(٨٨) ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المحتضر ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى الله بما أحسنوا.

(٨٩) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك.

(٩٠) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المحتضر ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الذين سبق ذكر وصفهم.

(٩١) ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ عند لقائك بهم.

(٩٢) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن طريق الهدى.

(٩٣) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي فضيافة من حميم يصهر به ما في بطونهم.

(٩٤) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي يحرق في جهنم من جميع جهاته.

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي العذاب ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي لا مرية فيه.

(٩٦) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي نـزِّهه عما لا يليق به، وفي الحديث: لما نزلت عليه ﷺ قال: «اجعلوها في ركوعكم» [٧٦٩].

آخر تفسير سورة الواقعة ولله الحمد والمنّة والفضل

(٥٧) سُورَةُ الحَدِيد

مدنية وآياتها ٢٩، نزلت بعد الزلزلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كل مخلوق فيهما من العقلاء وغير العقلاء والعجماوات والجمادات والنباتات كافة، كل هؤلاء يسبح الله بلسان المقال لا بلسان الحال، ولكن أخبرنا الله أنَّ تسبيح غير العقلاء لا نفقه تسبيحهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

(٢) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يتصرف بملكه كيف يشاء ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي يحييهم بالخلق ثم يميتهم ثم يحييهم للبعث والحساب ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء.

(٣) ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي ليس قبلــه شيء ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ أي ليس بعــده شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ أي ليس فوقه شيء ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي ليس دونه شيء، ويعلم داخلة كل مخلوق، فلا يجوز أن يسمى أو يوصف باسم أو صفة لم يسمِّ ولم يصف نفسه بها أو لم يسمِّه أو يصفْه باسم أو بصفة ما سمَّاه ولا وصفه رسوله ﷺ بها، فلا يجوز إذًا أن نسمي الله بالقديم أو نصفه بالقدم، ولا بالأزلي، ولا الأزل، ولا بالأبدي ولا الأبد، فهذه أسماءٌ وصفات مخلوقة، وأسماء وصفات الله غير مخلوقة، كما أن هذه الألفاظ لم ترد في الكتاب ولا في السنة، فلا يجوز تسميــة ووصــف الله بها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم السرَّ وأخفى.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

٥٣٨

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: إنها أيام كأيام الدنيا، وأرجح: أنها أيام كأيام الآخرة والله تعالى أعلم ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا عليه،ومعنى الاستواء معلوم أي العلو علوًا يليق بجلاله. والكيف مجهول: أي لم يعلمنا الله به، فهو أمر غيبي نؤمن به إيمانًا حقيقيًا ولا نسأل عن الكيف، ولا نقول كما يقول المؤولة: بأنه استولى، فنكون بهذا التأويل قد عطلنا صفة الاستواء إلى صفة أخرى ما وصف الله بها نفسه، وإننا نقول لهؤلاء المؤولة والمعطلة ونسألهم: هل الذات معلومة الكيف؟ سيقولون: لا، فنقول لهم: إن الصفات تابعة لذات الموصوف، وهذا متفق عليه، وهذا منطقنا في الصفات كلها فهي معلومة الحقيقة مجهولة الكيفية، صفاتٌ لا تشبه أي صفةٍ لمخلوق، صفاتٌ تليق بجلاله وعلى مراده سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من حب وقطر وما أشبه ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وزرع وثمار ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من الأمطار والثلوج والبرد والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد. يعلم كل ما تقدم وهو مستوٍ بذاته العلية على عرشه، عليٌّ على خلقه بائن عنهم ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي هو فوق عرشه، وهو معكم بعلمه وسائر صفاته، ولا يلزم من الآية معية الذات قطعًا، فهو منزَّه عن الحلول والاتحاد والوحدة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تخفى عليه منكم خافية، وبصره لا كالأبصار.

(٥) ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ملكه وحده لا شريك له في الملك ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه ترجع أمور خلقه وحده.

(٦) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي هو الذي يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء من طول وقصر واعتدال، ويقلب الفصول الأربعة ويحصل بذلك من المصالح لعباده ما يحصل ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي لا يخفى عليه منها شيء.

(٧) ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي وهذا موجَّه للمشركين ومخاطب به الجميع، والمراد بالاستمرار عليه للمسلمين والاستزادة منه، وللمشركين الابتداء به والاستقرار عليه ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي من أموالكم التي بين أيديكم ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ أي من أموالهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي يضاعفها لهم في الدنيا والآخرة.

(٨) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي ما بالكم؟ وهذا توبيخ لهم ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ أي محمد ﷺ ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ فأي شيء يحول بينكم وبين الإيمان بالله، والرسول بينكم يدعوكم إليه ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ يعني بذلك: الرسول ﷺ يدعوكم، وأخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي بما أخذ عليكم من الميثاق.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بإنزال الكتب، وإرسال الرسل.

(١٠) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وما الذي يحول بينكم وبين الإنفاق في سبيل الله والدعوة إليه بالنفس والمال ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هذا الذي تنفقون في سبيله يعوضكم أضعافًا مضاعفة كيف لا وعنده ميراث السماوات والأرض ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ والفتح ها هنا: فتح مكة ﴿وَقَٰتَلَ﴾ في سبيل الله، وإن الحال كان قبل الفتح شديدًا فلم يكن يؤمن إلا الصديقون وأما بعد الفتح فقد ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا ودخل الناس في دين الله أفواجًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ أي إن السابقين أعظم درجة عند الله من الذين دخلوا بعد الفتح، وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف» [٧٧٠]. ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

(١١) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ نزلت في أبي الدحداح الذي أقرض الله بستانه فيه ستمائة نخلة فبشره الرسول بستمائة نخلة في الجنة ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فيها، وفي الحديث: «كم من عِذْقٍ رداح في الجنة لأبي الدحداح» [٧٧١].

الاستواء هو العلو المطلق وليس الاستيلاء، واستوى الله على العرش حقيقة بلا كيف

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم
بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ
آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ
أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾
اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

النار أولى بالمنافقين من كل منزل • نهى الله المؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب

(١٢) ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ أي وذلك على الصراط المستقيم يوم القيامة، ويكون النور على قدر أعمالهم قوةً وضعفًا، وبأيمانهم كتبهم التي أعطوها ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي إن الملائكة تبشر المؤمنين والمؤمنات بأن سيكون لهم ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي لا يبغون عنها حولًا ولا بدلًا خالدين مخلَّدين فيها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كيف لا وقد حصلوا على كل خير، ونجوا من كل شرٍّ.

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي انتظرونا نتنوَّر من نوركم هذا فإنَّا كنَّا معكم في الدنيا ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي إلى ما كنتم فيه من الظلمة ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي هناك التمسوا النور تهكمًا بهم وزجرًا لهم ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ أي ضرب الله بين المؤمنين والمنافقين بسور عظيم، له باب فدخل المؤمنون منه إلى الجنة حتى إذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، هذا الباب ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي جهنم وما فيها.

(١٤) ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي المنافقون ينادون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي أما كنا مشاركين لكم في العمل، والمنافق كان يصلي مع المؤمنين ويصوم معهم ويدفع الزكاة ولكن وهم كارهون، إن ظاهرهم مع المؤمنين وفي باطنهم كفار يريدون الوقيعة بهم ﴿قَالُوا﴾ أي أجابهم المؤمنون: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي كنتم تنافقون ففتنتم أنفسكم بالنفاق وتربَّصتم بنا الدوائر وارتبتم بالرسالة والرسول وغرَّتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي ما زلتم كذلك إلى أن فاجأكم الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي والشيطان يغركم ويسول لكم الكفر والنفاق.

(١٥) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أي يا أيها المنافقون لو أردتم أن تفدوا أنفسكم فلا تقبل منكم الفدية ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي أنتم المنافقون وكذلك الكافرون نهايتكم في النار هي مأواكم ومنازلكم ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي تصيرون إليه.

(١٦) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي ينبغي للمؤمنين أن يورثهم الذكر خشوعًا ورِقَّة، والذكر هنا معناه القرآن ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ أي لا يكونوا كاليهود والنصارى من قبلهم ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي طال العهد بينهم وبين أنبيائه ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي صارت قاسيةً من تمادي التَّرك لكتاب الله تعالى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي أَرَثَ الهجرُ لكتاب الله في النفوس الخروجَ عن طاعة المولى عز وجل فلا تكونوا يا أمة محمد مثلهم، وهذه معاتبة من الله للمؤمنين كيلا يهجروا القرآن.

(١٧) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي إن الأرض تيبس لا يحييها إلا المطر الذي يكون سببًا بإذن الله لنبات الزرع وحياة الأشجار ونماء الأثمار؛ فكما أن المطر يحيي بإذن الله الأرض بعد موتها، كذلك القرآن بقراءته وفهمه وتدبُّره وتنفيذه يحيي القلوب فتخشع وترق ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي وضحنا لكم هذه الآيات البينات من ضرب الأمثال فيها مما يساعدكم على فهم مراد الله من حضِّكم على قراءة القرآن وأن تكون قلوبًا واعية خاشعة لا كأهل الكتاب.

(١٨) ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، فأعطوا المحتاجين وأنفقوا في سبيل الله أموالهم ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي أنفقوا على عياله وفي سبيله عزَّ وجلَّ ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أي أجرهم وثوابهم لأنهم أخلصوا النية لوجهه الكريم فيضاعفها لهم في الدنيا إلى سبعمائة ضعف ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي في الآخرة وهذا الأجر الكريم هو الجنة التي تنتظرهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

٥٤٠

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ أي المبالغون في التصديق. وفي الحديث: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»، قال: أي أبو سعيد الخدري: يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» متفق عليه [٧٧٢]، ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي وإن الشهداء في جنات النعيم. وفي الحديث: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت...» [٧٧٣]، ولا شك أن هناك فرقًا ما بين الصديقين والشهداء، والصديقون أعلى مقامًا، ولا شك أنَّ لهم أجرهم العظيم عند الله ونورهم يسعى بين أيديهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي التي أنزلناها على رسلنا وكفروا بمن نزلت عليهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي يعذبون بها ولا أجر لهم ولا نور لهم، بل عذاب مقيم خالد لا ينتهي ولا يؤجل، وظلمة دائمة لا تحول عنهم ولا تزول.

(٢٠) ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ اللعب: هو الباطل، واللهو: ما ألهى عن الآخرة ﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ والزينة: التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة، والتفاخر بالخلقة والقوة والأنساب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي يتفاخرون بكثرة أموالهم وعدد أولادهم ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي مثل المطر ينزله الله بعد قنوط الناس يعجب الزراع، فكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفارَ، لأنهم أحرص ما يكونون على الدنيا وما فيها من نعيم زائل ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ وهذا مثل الحياة الدنيا تكون شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء ثم تموت، فهي إذًا زائلة لا محالة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لأعداء الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لأوليائه وأهل طاعته ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي لمن اغترَّ بها ولم يعمل لآخرته؛ فإنها تغر من ركن إليها، حتى يعتقد أنها: لا دار له سواها!!! وفي الحديث: «موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها» [٧٧٤].

(٢١) ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي تسابقوا في عمل الخير وكل ما يرضيه تعالى، فإن فعلتم تكونوا قد سابقتم إلى مغفرة من الله ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وإلى ما يؤدي إلى دخول الجنة. والجنة مخلوقة مستقلة عن السماء والأرض إنما خلقها الله كسعة السماوات والأرض معًا ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي هيئت للمؤمنين بالله وبرسله جميعًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الذي وعد الله به من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي طبق حكمته تعالى فلا يعطي إلا مَنْ يستحق تفضُّلًا منه بأكثر مما يستحق، وحكمته تقضي أن لا يعطيه لغير مستحقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي على عباده، ويكرم من يشاء بما شاء.

(٢٢) ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي هذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خيرٍ أو شرٍّ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ وفيه ردٌّ على القدرية نفاة العلم السابق، وفي الحديث: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» [٧٧٥]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيِّن عليه تعالى وتقدَّس.

(٢٣) ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي إن ما يأتيكم سيذهب كما أتى بتقدير الله تعالى فلا تتعالوا به على الناس إنما هو قدر قدَّره الله إليكم فاحمدوه على ذلك ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي كل متكبر على الناس ومتعال عليهم.

(٢٤) ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ من المال الذي أعطاهموه الله تعالى بما يجب فيه من الزكاة ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي لا يكتفون ببخلهم، بل يحضُّون الناس على البخل ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عن النفقة من مال أو علم ويمنع الناس من ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي المستغني المحمود.

إن الله علم الأشياء وقدرها جميعًا قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ
نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ
أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٥٤١

(٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات، والحجج القاطعة ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو يشمل كافة الكتب المنزلة منه تعالى ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ العدل وهو الحق، أي أمرناهم بالعدل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالقسط والعدل ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعًا، لمن أبى الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، والبأس الشديد يعني السلاح من سيوف وبنادق وقنابل، وصواريخ ومدافع وبوارج وطائرات للدفاع عن دين الإسلام وعن حوزة المسلمين ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ من أنواع الصناعات السلمية كآلات الزراعة والنجارة والعمارة، وآلات الحياكة والطبخ والخبز وكل ما ينفع الناس في سلمهم وحربهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي إن الله عَلِمَ الأشياء وقدر مقاديرها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ولكن ليمتحن، وليقيم الحجة على عباده من أنفسهم، فيما إذا قاموا بما أمروا به من نصرة الله ورسله أو لم يقوموا، ومعنى الغيب هنا: تصميم النية في حمل السلاح على نصرة الله ورسوله والإخلاص في ذلك، ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ولما كان الله مطلعًا على خبايا النفوس، وعلى النوايا المخلصة فإنه ينصر من كانت نيته نصر الله تعالى فهو القوي العزيز، من غير احتياج للناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض، ولينتفعوا به إذا امتثلوا، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي لم يرسل الله رسولًا إلى الأرض إلا من سلالتهما فكان عيسى عليه السلام آخر الأنبياء من نسل إسحق بن إبراهيم، وكان محمدٌ آخر الأنبياء والرسل من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من ذريتهما ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى ما أمر الله به وهم القليلون ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون على أوامره وطاعته.

(٢٧) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أي ثم أتبعنا على آثار نوح وإبراهيم وذريتهما ﴿بِرُسُلِنَا﴾ مثل موسى وإلياس وداود وسليمان وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي وأتبعنا من بعد رسلنا ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ وقد خص عيسى عليه السلام بالذكر لأنَّ النصارى يزعمون اتباعه واتباع الإنجيل الذي أنزله الله عليه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي رقة وخشية ورحمة بالناس ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي بعد عيسى بن مريم كان منهم فرقة أخيرة بعد الفرقتين اللتين دعتا إلى دين عيسى بإخلاص فقتلوا وحرّقوا، ثم خافت هذه الفرقة الأخيرة ولاذت بالجبال، فتعبدت وتَرَهَّبَتْ وغلت في العبادة وابتدعوا رهبانية ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما شرعناها لهم فتعلقوا بالكهوف والصوامع وتركوا طيبات الطعام والشراب وتبتّلوا فلم يتزوَّجوا، وكان قصدهم من هذا الابتداع وجه الله ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بل كفروا بدين عيسى ودخلوا في دين الملوك وغيَّروا وبدَّلوا ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الذين بقوا على حقيقة دين عيسى، آتيناهم أجرهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهذه نتائج الابتداع الذي أدّى بهم إلى الكفر، ألا فليتَّعظ المبتدعون.

(٢٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بموسى وعيسى عليهما السلام ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي ضعفين لأنهم آمنوا برسولهم ثم آمنوا بمحمد عليهم الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ على الصراط المستقيم يوم القيامة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ما سلف ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم.

(٢٩) ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي لكي يعلم اليهود والنصارى ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي إنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، أي جعل الأجرين لمن يؤمن برسوله محمد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر له ولا نصيب من فضل الله، لأن من كفر بمحمد كفر بجميع الأنبياء قبله فكيف يأجر الله الكافرين ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ ويد الله صفة له حقيقة بلا كيف ﴿يُؤْتِيهِ﴾ أي يعطيه ﴿مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يماثل.

آخر تفسير سورة الحديد ولله الحمد والمنّة والفضل
وبه العصمة وعليه التكلان

العمل المقبول ما شرعه الله لا ما ابتدعه الناس، أمة محمد ﷺ خير الأمم

(٥٨) سُورَةُ المُجَادِلَة

مدنية وآياتها ٢٢، نزلت بعد المنافقون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله
والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ١ الذين يظاهرون
منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي
ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن
الله لعفو غفور ٢ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون
لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون
به والله بما تعملون خبير ٣ فمن لم يجد فصيام شهرين
متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين
مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله
وللكافرين عذاب أليم ٤ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا
كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين
عذاب مهين ٥ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما
عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ٦

٥٤٢

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي إن الله تعالى سمع خولة بنت ثعلبة بن خويلد حينما كانت تجادل النبي ﷺ في زوجها أوس بن الصامت، وكان أوّل من ظاهر في الإسلام. ولما ظاهر من امرأته خولة قال: ما أراكِ إلا قد حرمتِ عليَّ، فانطلقي إلى النبي ﷺ، فانطلقت إليه فأخبرته وهي تقول: يا رسول الله: أكل مالي، وأفنى شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. [٧٧٦]، وكان الظهار طلاقًا في الجاهلية. وكان ﷺ: كلما قال لها: «حرمتِ عليه»، تقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، وإن لي صبيةً صغارًا إن ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك [٧٧٧]. ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي تراجعكما في الكلام. وفي الحديث: عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...﴾. [٧٧٨]. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي إن الله يسمع تحاوركما، ويبصر حالكما، وإننا نثبت لله السمع والبصر حقيقةً ولا يشبهان سمع وبصر المخلوق في شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وهذا ميزان التوحيد.

(٢) ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾ أي كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي فرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيها كفارةً، ولم يجعله طلاقًا كما كان في الجاهلية ﴿مَّا هُنَّ﴾ أي زوجاتهم ﴿أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم إلا من ولدنهم فلا يصرنَ بمجرد الظهار أمهاتهم ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي المظاهرون ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي قولًا ينكره الشرع، وزورًا أي كذبًا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي بليغ العفو والمغفرة.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي إذا أراد جماعها ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي لا يجوز له وطؤها قبل تحرير رقبة أي عتق رقبة ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي تزجرون به، للإقلاع عن الظهار ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وتجزئ الرقبة المؤمنة وغير المؤمنة.

(٤) ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي رقبة يحررها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي على هذا الترتيب: رقبة أو صيام أو إطعام، وكل ذلك من قبل أن يتماسَّا ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي تطيعوا الله ورسوله في الأوامر والنواهي ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فلا تجاوزوا حدَّه ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لكفرهم به وتعدِّيهم حدوده.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كُبِتُوا﴾ أي أُهينوا ولُعنوا وأُخزوا ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من أهل الشرك الذين سبقوهم بالقتل والأسر والقهر ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ظاهرات ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يهينهم ويذلُّهم.

(٦) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي في الدنيا من الأعمال الخيرة والشريرة ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ وهم نسوا ما كانوا عملوه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي لا يغيب ولا يخفى عليه شيء.

الظهار لا تحل له زوجته إلا بعد الكفارة وهي عتق أو صيام أو إطعام قبل المساس

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ
وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا
تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟
بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ
مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم بعلمه ما هو كائن خفيًا كان أو ظاهرًا في جميع أقطار السماوات والأرض لا تخفى على علمه خافية مهما دقَّت ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ والجملة مستأنفة لتقرير شمول علمه تعالى وإحاطة هذا العلم بكل المعلومات فأخبر أنه ما يوجد من تناجي ثلاثة أو خمسة أو أقل أو أكثر إلا وهو معهم بعلمه وهو في نفس الوقت عليٌّ على خلقه، مستوٍ على عرشه، بائن عنهم ووسع علمه كل شيء أينما كانت هذه الأشياء يحصي عليهم كل ما يعملونه ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ من خير أو شر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فافتتح الآية بالعلم واختتمها به.

(٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ النجوى هي المسارَّة بين اثنين فأكثر بحيث يتوهم من لا يشترك فيها أنهم يريدون به سوءًا، والمعنى: كما جاء في الحديث: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا، وعادوا إليها فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[(1)] [٧٧٩]. ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ والإثم: ما هو إثم في نفسه كالكذب والظلم، والعدوان: ما فيه عدوان على المؤمنين، ومعصية الرسول: مخالفته، والإصرار عليها والتواصي بها مما يدل على أنهم لم ينتهوا عن النجوى ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي إذا جاءه اليهود حيَّوْه بقولهم: السَّام عليك يا أبا القاسم، يريدون بذلك السلام ظاهرًا، وهم يعنون الموت باطنًا فيجيبهم رسول الله ﷺ: «وعليكم» [٧٨٠]. ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ لو كان هذا أي محمد - نبيًا لعذبنا الله بما نقول باطنًا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي تكفيهم عذابًا جزاء ما يقولون ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلون نارها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي يا أيها المؤمنون سبق أن علمتم ماذا أعددتُ للكافرين اليهود من التناجي بالإثم والعدوان من العذاب، فلا تكونوا مثلهم حتى لا يكون مصيركم بئس المصير، بل ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي بطاعة الله ورسوله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي ستعودون فيجزيكم بأعمالكم خيرًا كانت أو شرًا.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي هي تسويله للمتناجين ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ليسوء المؤمنين فيوقعهم بالحزن مما يتوقعون من المكيدة بهم ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن أحسَّ من ذلك شيئًا فليستعذ بالله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فلا يضرهم شيء بإذن الله. وفي الحديث: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه» [٧٨١]. وهكذا فإن الله تعالى من رحمته بعباده المؤمنين، يؤدبهم بالآداب الطيبة الخيرة حتى يكون سائدًا فيما بينهم الولاء والصفاء.

(١١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذه أيضًا آداب يؤدبنا بها الله جل وعز فيأمرنا بحسن الأدب مع بعضنا بعضًا بالتوسعة في المجالس مجالس العلم، وفي الحديث: «رحم الله رجلًا يفسح لأخيه»[(2)] [٧٨٢]. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا، وقيل: معناه: وإذا أمرتم بالانصراف فانصرفوا ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي مطلع على سرِّ وجهر ما تعملون.

---

(١) مرسل.
(٢) مرسل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ
صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا
وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ
شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ
اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ
﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

٥٤٤

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ أي يأمر الله تعالى صحابة نبيه عليه الصلاة والسلام، إذا أراد أحد منهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يسارّه في أمر بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تؤهله لأن يصلح لهذا المقام ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي هذا الامتثال لأمر الله خير لكم بدون امتثال وأطهر لنفوسكم ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ أي الصدقة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم.

(١٣) ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أي أخِفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول؟ وفي الحديث عن علي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما ترى؛ دينار»؟ قال: لا يطيقون. قال: «نصف دينار»؟ قال: لا يطيقون. قال: «ما ترى»؟ قال: شعيرة فقال له النبي ﷺ: «إنك لزهيد» قال فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ قال علي: فبي خفف الله عن هذه الأمة[1] [٧٨٣]. ويقول علي رضي الله عنه: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت وما كانت إلا ساعة [٧٨٤]. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم بالترك ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء.

(١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهم المنافقون الذي يوالون الكفار باطنًا، وفي الحقيقة لا معهم ولا مع المؤمنين ولهذا قال: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ويحلفون أنهم مسلمون، ويعلمون إنهم لكاذبون!!

(١٥) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بسبب تولِّيهم الكفار والحلف كذبًا ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نصحهم للكفار، وغشِّهم للمؤمنين.

(١٦) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي توقيًا من قتلهم من قبل المسلمين على نفاقهم وكفرهم ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة فاغتر بهم من لا يعرف حقيقة نفاقهم فصدقهم فحصل بهذا صدٌّ عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على فعل ذلك.

(١٧) ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأسًا عظيمًا من الله إذا جاءهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك المتقدم ذكرهم من المنافقين هم أهل النار الخالدون المؤبَّدون فيها.

(١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أي يحلفون أمام الله يمينًا كاذبة ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يظنون أن الكذب ينطلي على الله كما كان ينطلي على الناس ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ينقذهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

(١٩) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي غلب عليهم واستعلى واستولى وأحاط بهم ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي أوامره والعمل بطاعته فلم يذكروا شيئًا من ذلك ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي أتباعه وجنده ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي دنياهم وآخرتهم.

(٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يضعون أنفسهم في حدٍّ، والشرع في حدٍّ آخر أي مجانبون للحق، ومشاقون له ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي هم المذكورون بأوصافهم العديدة ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي أولئك المحادون هم الذين أذلهم الله في الدنيا والآخرة.

(٢١) ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي قدَّر الله وكتب في اللوح المحفوظ ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي ما تواقف أهل الحق وأهل الباطل إلا وكان النصر المؤزَّر لأهل الحق؛ لأنهم أهل الله تعالى وتقدس فكل رسول أو من كان على قدم الرسول مخلصًا وجهه لله تعالى إلا وسينصره الله على أعدائه ويغلبهم حتى يكونوا في الأذلين ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ أي على نصر أوليائه ﴿عَزِيزٌ﴾ أي لا يغلبه أحد.

(١) سناده ضعيف.

سورة المجادلة — الجزء الثامن والعشرون

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ
لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

٥٤٥

(٢٢) ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقَّهما، ولا يمكن وجود الإيمان في قلب من يحاد الله ورسوله ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي هؤلاء إن كانوا يحادون الله ورسوله أفرادًا أو جماعات فلا يجوز أن نحبهم أو نواليهم. لأن الحب يجب أن يكون في الله والكره كذلك ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وثبّته فيها ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي بقوة منه، فينصرهم على أعدائهم في الدنيا، ويجعل كلمتهم هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي وفي الآخرة يدخلهم الجنة، بل جنات تجري الأنهار من تحتها بدون أخدود، أي من تحت قصورها الشامخة فيها لا عين رأت من النعيم، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي هذا النعيم في الجنات خالد لا يحول ولا يزول ولا ينتهي ولا ينفد، وهم كذلك خالدون فيها خلودًا بلا موت؛ بل هم في نعيم مقيم وأعظم نعيم في الجنة أن ينظروا فيها إلى وجه الله الكريم ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أطاعوه وأطاعوا رسوله باتباع سنته الزهراء فلم يحرفوها ولم يبتدعوا ولم يستحسنوا سنةً غيرها ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من عزّ الدنيا ونعيم الآخرة الخالد الآبد ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالعلم والعمل الصالح، المرضي عنهم وعن أعمالهم، هؤلاء هم حزب الله وجنده وأولياؤه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا بالسؤدد والمجد والعزة والمنعة، وفي الآخرة بالرضا والجنة والنعيم المقيم الخالد.

آخر تفسير سورة المجادلة والحمد لله على توفيقه

(٥٩) سُورَةُ الْحَشْرِ

مدنية وآياتها ٢٤، نزلت بعد البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزه الله وعبده ووحده جميعُ ما خلق من مخلوقات في السماوات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يُقهر ذو العزة التي لا ترام ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قدره وشرعه.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بنو النضير، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة فرارًا من فتن بني إسرائيل، وانتظارًا لمبعث محمد ﷺ المكتوب عندهم في التوراة، فلما بعث من مكة وهاجر إلى المدينة كفروا به، وغدروا، وتآمروا على قتله بأن حاول أحدهم أن يلقي عليه حجرًا كبيرًا فأخبره الله فحاصرهم وأخرجهم ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ التي كانوا فيها ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي كان حشرهم أول حشر الناس إلى الشام ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ يا أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ أي من حصونهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي فاجأهم الله بما لم يخطر لهم على بال ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي ملأها خوفًا وفرقًا كما في الحديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» [٧٨٥]. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فكان الرجل يهدم بيته من الداخل لئلا ينتفع بها المسلمون ويسكنوها بعدهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي اتعظوا بما نزل بهم؛ فقد جلا قسم منهم إلى خيبر وقسم آخر إلى الشام، وانظروا في هذه المقدَّرات يا أهل البصائر النافذة واعتبروا، لتتنور بصائركم ويزداد إيمانكم.

(٣) ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي أن يجلوا جميعًا بأهليهم وأولادهم ويفارقوا أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي بقتلهم وسبي ذراريهم ونسائهم بأيدي المؤمنين، ولكن جعل الجلاء جزاءً لهم وإضافة إلى الجلاء ما أخبرهم تعالى به: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ جزاء ما كانوا يعملون.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً
عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ
دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾
لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ أُولَٰئِكَ
هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

مصارف الفيء لله ولرسوله وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والفقراء والمهاجرين والأنصار

(٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ذلك الذي جازاهم الله به من الجلاء عن أوطانهم، بسبب معاداتهم لرسول الله ﷺ بعدم الطاعة وممالأة الكفار عليه، ونقض العهد، والتآمر عليه ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ أي ومن يعاديه فإنه يعادي أيضًا رسوله ﷺ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي عظيمه على من ينتهك حرمات الله كالكفر بكتابه ورسوله. وقد دلت هذه الآية على جواز مصالحة العدو على جلائه عند عدم القدرة على قتاله من غير سبيٍ ولا استرقاق ولا جزية، ولا دخول في ذمة، وهذا حكم منسوخ إذا كان للمسلمين قوة على قتالهم.

(٥) ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي إن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أمر بقطع نخيل بني النضير عندما حاصرهم، إهانة لهم وإرهابًا لقلوبهم ليستنزلوهم من حصونهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا، فلنسأل رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ...﴾ أي: أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم، فبإذن الله تعالى أي بأمره لرسول الله ﷺ بذلك ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي ليذل الخارجين عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

(٦) ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي ما ردَّه عليه من أموال بني النضير ما أجلبتم ولا حشدتم ولا تعبتم في تحصيلها لا بأنفسكم ولا ركبتم خيلًا ولا إبلًا ولا لقيتم بها حربًا ولا مشقة، بل قذف الله الرعب في قلوبهم فأتتكم صفوًا عفوًا، وفي الحديث: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل [٧٨٦]. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء.

(٧) ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ وهذه الآية ملحقةٌ بالتي قبلها لأنها مال صلح وحكمه واحد، فكل بلد فتح صلحًا بلا قتال، حكمه حكم فيء بني النضير. وإنما وقع التكرير في الآية الثانية -أي هذه- لقصد التقرير والتأكيد لبيان مصارف أموال الفيء ووجوهه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي من هذه الأموال ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ وما منعكم منه فامتنعوا. والآية هذه وإن كانت واردة في مال الفيء ولكنها عامةٌ في كل أمر منه ﷺ أو نهي، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٨) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ أي تركوا خلفهم بمكة كل شيء مهاجرين إلى الله ورسوله ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي أن يتقبَّل الله هجرتهم خالصة لوجهه الكريم ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بجهاد الكفار بالنفس والنفيس ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي في أقوالهم وأعمالهم ونواياهم.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي الأنصار الذي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين، وآمنوا قبل كثير منهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يواسونهم بالمال لكرمهم الأصيل وعلوِّ همتهم وشرف نفوسهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي ولا يجدون للمهاجرين في أنفسهم حسدًا، فيما فضلهم الله به عليهم من المنزلة والرتبة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يقدمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ولو كان فيهم حاجة وفقر ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ أي ومن وقاه الله من البخل والحرص وطهَّر نفسه من ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هؤلاء هم الفائزون الظافرون بالجنة، وفي الحديث: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» [٧٨٧].

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا
وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا
غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ
ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ
أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ
﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ
وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾
لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ
لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى
مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ
جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾
كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ
قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هؤلاء القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم: المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي يدعون الله لهم بالمغفرة سرًا وعلانية ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي لا تُحمِّل قلوبنا غشًا ولا ضغينة ولا حسدًا إنك يا ربنا كثير الرأفة والرحمة بليغهما، لمن يستحق ذلك من عبادك. وإن من وجد في قلبه غلًّا لأحد من أصحاب الرسول ﷺ فهو نزغ الشيطان فإن جاوز ما يجده إلى شتم أحدهم فقد انقاد للشيطان واشترى الضلالة بالهدى، فكيف بمن يشتمون أصحاب رسول الله الذين بشرهم الله بالجنة!!! وهم يعلمون ذلك؟

(١١) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ أي الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والذين نافقوا هم: عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه وقد جعل الله المنافقين إخوانًا لبني النضير؛ لأن الكفر جامع لهم، يقولون لهم: لئن أخرجكم محمد من دياركم سنرافقكم في هذا الخروج ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا﴾ يريد أن يمنعنا من الخروج معكم ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ أي على عدوكم فكذبهم الله تعالى فقال ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنه عالم بما في ضمائرهم من الكذب والبهتان.

(١٢) ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لئن طُرد بنو النضير لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قاتل المسلمون بني النضير لا يقوم المنافقون بنصرتهم، ولئن نصروهم أي قاتلوا معهم فلا يستطيعون الصمود أمام المسلمين فينهزمون ولا أحد ينصرهم.

(١٣) ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يخافونكم أكثر مما يخافون الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي خوفهم هذا ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي لأنهم لا يعرفون الله تمام المعرفة، ولو عرفوه لعلموا أن الله هو الذي سلطكم عليهم فهو أحق بالرهبة منه دونكم.

(١٤) ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا﴾ أي بسبب جبنهم وهلعهم لا يقدرون على جيش الإسلام مقابلة ﴿إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ﴾ أي قتالهم هو قتال حصار للدفع عنهم ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾ أي فيما وراء الحصون شديد، وإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله ولهذا قال تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ أي وهم مختلفون أشد الاختلاف ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ أي ولو عقلوا الحق لاتبعوه، ولَوَفَّرُوا على أنفسهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

(١٥) ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي من كفار المشركين ﴿قَرِيبٗا﴾ أي ما بينهم وبينهم إلا زمن قريب ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي في بدر ذاقوا سوء عاقبة كفرهم فخذلهم الله وقهرهم أمام جيش المسلمين بين قتيل وجريح وأسير وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بزمن قريب ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي في الآخرة.

(١٦) ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ﴾ أي مثل اليهود والمنافقين في تخاذلهم كمثل الشيطان حين قال للإنسان: اكفر، أي أغراه بالكفر وزيّنه في قلبه وحمله عليه ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ وطاوع الشيطان فيما أمره به، وقبل منه تزيينه الكفر ﴿قَالَ﴾ أي الشيطان ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ وهذا يكون منه يوم القيامة. أي تبرأ منه فكان مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالمنافقين الذين وعدوهم النصر، فلما جدَّ الجدُّ تخلَّوْا عنهم، وأسلموهم للمهلكة والإجلاء عن أوطانهم؛ كمثل الشيطان الذي غرّر بالإنسان حتى كفر، فلما كفر تبرأ منه الشيطان، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي تعليلًا لبراءته من الإنسان بعد كفره، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، وليس قول الشيطان: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ على حقيقته إنما هو على وجه التبري منه بعد أن طاوعه.

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ
نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ
هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ — ترتيبها ٦٠ — آياتها ١٣

٥٤٨

(١٧) ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي عاقبة الشيطان وعاقبة من سوّل له الشيطان الكفر ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي دائمًا المكوث فيها بسبب كفرهما بالله تعالى، ولا شكَّ أن الكفر والشرك هما ظلم للنفس، وليس أظلم ممن يردي نفسه موارد الهلاك، ومن البدهي أن يخلد الكافرون في النار ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لأن الإيمان يورث التقوى التي هي الامتناع عن محارم الله تعالى ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي فلتحاسب النفوس المؤمنة أنفسها ماذا عملت من المعروف وما أنكرت من المنكر وماذا أعدت إلى لقاء الله من الصالحات ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوه، وكرر الأمر بالتقوى للتأكيد بالحض على التقوى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا حض أيضًا على عمل ما يرضي الله تعالى، أي إنه لا تخفى عليه منكم خافية فهو على عملكم شهيد ورقيب جلَّ جلاله، وعزّت أسماؤه، وتقدّست صفاته

(١٩) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أي ألهتهم معاصيهم وشهواتهم، فنسوا أن الله يبصرهم ويشاهدهم ويعلم ما يعملون فجازاهم جزاءً من جنس العمل ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ عن أن تعمل لما ينقذهم من نقمته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخارجون نهائيًا عن طاعته.

(٢٠) ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي من المستحيل أن يكون أصحاب النار مساوين لأصحاب الجنة في المنزلة والرتبة، وكيف يكون ذلك، وأصحاب النار هم الذين أغضبوا الله بالذي اقترفوه من الكفر والشرك والمعاصي فكانت النار نزلًا لهم جزاءً وفاقًا إلى أبد الآبدين، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها إلى ما لا نهاية، وبين أهل الجنة الذين كانوا في دنياهم بتوفيق الله على أتم ما يكون العبد الصالح طاعةً لمولاه من توحيده والإيمان به، بذاته وأسمائه وصفاته، وما أشركوا به طرفة عين ثم ماتوا على ذلك، أو أنهم رجعوا عن الباطل إلى الحق وحَسُنَ عَمَلُهُمْ عقيدةً وعبادةً ومعاملةً وماتوا على ما يرضيه تعالى من العمل الصالح المقبول، فوهبهم الله من فضله وكرامته ورحمته الجنة وما فيها من الحياة الخالدة فكان ثوابهم جزاءً وفاقًا لما قاموا به من عمل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الظافرون بكل مطلوب.

(٢١) ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي من الجبال العظيمة، ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي إن الجبل رغم صلابته وقسوته وغلظته، لو سمع وفهم هذا القرآن فتدبر بما فيه لخشع وتصدع من خوف الله وخشيته، أما أنتم يا أيها المشركون، سمعتم وتدبرتم آياته، فكيف لا تلين قلوبكم لما فيه من العظمة والحق والخير كأنها أقسى من الحجر وأثقل من الجبال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتعظون ويعملون، وإن حديث الجذع المتواتر يثبت حنينه إلى رسول الله ﷺ [٧٨٨].

(٢٢) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو وحده المعبود بجميع أنواع العبادة لا شريك له ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي لا تخفى عليه خافية. ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي الرحمن لجميع الخلق، والرحيم خاصة للمؤمنين. وفي الحديث: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» [٧٨٩].

(٢٣) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الذي لا معبود بحقٍّ إلا هو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي المقدس الطاهر عما لا يليق به ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي السالم من كلِّ عيبٍ ونقصٍ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ المصدق لرسله بالآيات والمعجزات ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ المسيطر على خلقه أجمع ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال جنابه ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ أي ذو السلطان والجبروت ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي تكبر عن كل سوء ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه عما يشرك به المشركون.

(٢٤) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ أي الذي خلق الأشياء كلها من العدم ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ أي المنشئ ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي المشكِّل صور خلقه على هيئات مختلفة ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وإن أسماءه كلها حسنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تسبيحًا حقيقيًا ولكننا لا نفهم تسبيح غير العقلاء ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

آخر تفسير سورة الحشر والحمد لله

تصدع الجبال خشية من الله ولا تصدع قلوب المشركين من شركهم به

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي
وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ
يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ
بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

٥٤٩

(٦٠) سُورَةُ الْمُمْتَحَنَة

مدنية وآياتها ١٣، نزلت بعد الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يا أيها الذين آمنوا يا من هداكم الله إلى الإيمان لا يليق بكم وقد آمنتم أن تتخذوا المشركين أعداءَ الله وأعداءَكم نصراءَ وأحبَّاء ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي تواصلون بينكم وبينهم المودة والولاء ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي كفروا بالقرآن رسالة الله ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي وما ذاك الإخراج إلا بسبب أن آمنتم بربكم ورب كل شيء ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي كيف تجمعون بين جهادكم في سبيلي لإعلاء كلمتي، وبغية مرضاتي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي ثم تفشون إليهم أسرار رسول الله ﷺ وتوادونهم؛ فكيف يمكن الجمع بين النقيضين أي بين محبة الله ورسوله ومحبة أعداء الله ورسوله ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي وأنا مطَّلع عليكم بل وإنني أشاهدكم في سرِّكم وإعلانكم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وكان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي كان من المهاجرين ومن أهل بدر وكان له بمكة أولاد ومال، كما كان حليفًا لعثمان؛ فلما عزم عليه الصلاة والسلام على فتح مكة ونهض لغزو أهلها لما نقضوا العهد، وقال: «اللهم عَمِّ عليهم خبرنا»[1] [٧٩٠]، فكتب حاطب كتابًا وأرسله مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بغزو رسول الله ﷺ لهم ليتخذ يدًا عندهم، فأطلع الله رسوله ﷺ استجابةً لدعائه، فأرسل عليًا والزبير والمقداد، فأدركوا المرأة وأخذوا منها الكتاب ورجعوا به إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى صدر هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ...﴾[٧٩١].

(٢) ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي إن يلقوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب وألسنتهم بالشتم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تمنوا ارتدادكم ورجوعكم إلى الكفر.

(٣) ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ أي إن هؤلاء أي الأرحام والأولاد لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم كما وقع في حاطب بن أبي بلتعة، بل الذي ينفعكم هو القيام بما أمر الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفرق بينكم فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه منهم قولٌ أو عملٌ.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي اقتداء في إبراهيم وفي الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي نحن بريئون منكم ومما تعبدون من الآلهة من دون الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم الباطل ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ أي ظهرت العداوة بيننا ما دمتم على كفركم فنحن نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي توحدوه ولا تشركوا معه شيئًا ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي إن لكم في إبراهيم أسوة ما عدا وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما أغني عنك، ولا أدفع عنك من عذاب الله شيئًا ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي لا نتوكل إلا عليك ولا نتوب إلا إليك ومرجعنا إليك.

(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تنصرهم علينا فيفتتنوا فيظنوا أنهم على حق ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

---

(١) حديث ضعيف.

(٦) ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ﴾ أي في إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه الذين مرَّ ذكرهم آنفًا ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي في جميع أقوالهم وأفعالهم إلا استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر المشرك قبل أن يتبين أنه عدو الله، ولكن لما تبين له عداوته لله تعالى تبرأ منه، فلا يجوز للمؤمن مطلقًا أن يستغفر لأيِّ مشركٍ مات على الشرك قطعًا. وفي الحديث: إن رجلًا قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «في النار»، فلما قفى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار» [٧٩٢]. وإن القدوة بإبراهيم لا تكون إلا ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي يرجو الله أن يفوز بالآخرة بالنعيم المقيم ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عن التأسي به عليه السلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أي هو المستغني عن العالمين ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المحمود من ملائكته وأوليائه.

(٧) ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم﴾ أي المشركين ﴿مَّوَدَّةً﴾ أي بسبب ما يوفقهم الله إلى الإسلام والدخول فيه، وإلا فلا مودَّة بين المؤمنين والمشركين ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن استغفر وتاب إليه ووحَّده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمن يتوب ويستغفر.

(٨) ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي إذا كان بينكم وبينهم عهد بعدم القتال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي الذين يعاملون الناس بالعدل والقسط.

(٩) ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي نهيًا باتًّا ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي كراهة لدينكم ﴿وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي أجبروكم بمعاملتهم السيئة أن تهاجروا من مكة إلى غيرها من البلدان ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ أي عاونوا أعداءكم على إخراجكم، وإخراجكم من دياركم ﴿أَن تَوَلَّوۡهُمۡ﴾ أي ينهاكم الله عن اتخاذهم لكم نصراء بل يأمركم أن تعادوهم وتحاربوهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ﴾ أي يتخذهم أولياء ونصراء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم؛ لأنهم والوا من عادى الله تعالى وكفر به وأشرك.

(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإيمان ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ أي اختبروا صدقهن في إيمانهن ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي بحقيقته، وفي الحديث: «كان يمتحنهن: بالله ما خرجتِ من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًا لله ولرسوله؟» [٧٩٣]. هكذا كان رسول الله ﷺ يمتحنهن ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٍ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ أي خشية أن يفتنوهن عن دينهن ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي

الجزء الثامن والعشرون — سورة الممتحنة

لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم
مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ
﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم
مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ
مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ
فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم
مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ
وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ
ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ
شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ
أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾

٥٥٠

فلا المؤمنات حلال للكفار ولا الكفار يحلُّون للمؤمنات ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي ردُّوا على أزواجهن الكفار مهورهن ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي لأنهن أصبحن من دينكم فلا حرج من الزواج بهن بعد انقضاء عدتهن ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ أي ولا تبقوا المشركات زوجات عندكم، فقد كان جائزًا قبل هذا أن يتزوج المؤمن مشركة، فقد نسخت هذه الآية جواز ذلك ما عدا الكافرات من أهل الكتاب ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي كلٌّ يسترد ما أنفق من مهر ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الحكم حكم الله ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بمصالح الحكم ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما يصدر عنه من قول وفعل.

(١١) ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ أي بأن ارتدَّت المسلمة عن دينها ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ أي أصبتم المشركين في قتال بعقوبة حتى غنمتم منهم غنيمةً ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم﴾ إلى الكفار ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي أعطوهم من رأس الغنيمة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي إن الإيمان يلازم التقوى. فاتقوه إن كنتم مؤمنين حقًا، واخشوا عقابه وعذابه.

على المؤمنين أن يتبرأوا من المشركين حتى ولو كانوا آباءهم...

الجزء الثامن والعشرون — سورة الصف

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ
بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ
فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

سُورَةُ الصَّفِّ — ٦١ — آياتها ١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا
زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)

٥٥١

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي يبايعنك على الإسلام فلا يشركن بالله أحدًا ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أي لا يئدن بناتهن ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، وفي الحديث: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله الجنة...» [٧٩٤]. ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي في طاعة الله تعالى وفي أي أمرٍ أو نهيٍ فلا يخمشن وجهًا، ولا ينشرن شعرًا، ولا يشققن جيبًا، ولا يدعين ويلًا، وفي الصحيحين: «ليس منا من ضرب الخدود وشقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» [٧٩٥]. ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي إذا قبلن هذه الشروط فاقبل بيعتهنَّ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ أي اطلب لهن المغفرة من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي بليغ المغفرة لعباده التائبين.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تتخذوا المشركين واليهود والنصارى أولياء لكم، وكيف توالونهم وقد غضب الله عليهم ولعنهم ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي إنهم لا يوقنون بالآخرة وينكرون وقوعها بسبب كفرهم ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي إنهم قد غدوا إلى الآخرة ورأوا ما كانوا ينكرونه حقًا ماثلًا أمام أعينهم فرأوا الجنة ومقاعدهم فيها لو كانوا مؤمنين، ورأوا مقاعدهم في النار التي تنتظرهم لتكون لهم دارًا أبدًا، فيئسوا من دخول الجنة وأيقنوا بالهلاك، وهكذا المشركون واليهود والنصارى والكفار أجمعون قد يئسوا من الآخرة، فلا نصيب لهم فيها.

آخر تفسير سورة الممتحنة وله الحمد والمنّة والفضل

(٦١) سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية وآياتها ١٤، نزلت بعد التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي كل مخلوق في السماوات والأرض يسبح الله تعالى حتى الجمادات ولكن لا نفقه تسبيحهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي في شرعه وقدره.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا من آمنتم: إن الإيمان يفرض على صاحبه أن يكون محافظًا على عهده ووعده ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي لماذا يخالف قولكم فِعْلُكم؟ فقد كان جماعة من المؤمنين يتمنَّون أن يكتب الجهاد عليهم حتى يقاتلوا في سبيل الله، فلما فرضه الله عليهم كرهوا وشقَّ عليهم ذلك!!!؟

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي ليس أشد مقتًا وبغضًا عند الله من أناس يقولون قولًا ثم يرجعون عنه، وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان» [٧٩٦] وهذا خلق لا يتفق مع الإيمان.

(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي يخبر الله تعالى: أن من أحبِّ الأعمال إليه: أن يرى عباده المؤمنين يبذلون أرواحهم في سبيله لإعلاء كلمته، وأن يكون صفهم متراصًّا في الحرب ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ أي يكون صفهم كأحجار البنيان المتراصة لا تختلف واحدة عن الأخرى.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي وحين قال موسى لقومه بني إسرائيل: لم تؤذونني بمخالفة ما آمركم به من الشرائع المفروضة عليكم، وتعلمون جيدًا أني رسول الله المرسل إليكم منه ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي لما أصروا على الزيغ والضلال ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرفها عن الحق جزاءً وفاقًا من جنس العمل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يهدي كل من اختار الفسق سبيلًا له.

النهي عن موالاة الكفار، أمقت شيء عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ
عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

٥٥٢

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ بالإنجيل حقًا وصدقًا ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي لما جاء فيها من ذكر رسالتي إليكم ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾ بما بشرت به التوراة أيضًا ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ فهاتان بشارتان بي وبأحمد موجودتان في التوراة، وإن راجعتموها لوجدتموهما فيها، فلِمَ إذًا تكذبونني وتخالفون عن أمري ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي عيسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الآيات والمعجزات ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي واضح ظاهر.

(٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لا أحد أشدُّ ظلمًا منه لنفسه إلا من يفتري على الله الكذب فيجعل له أندادًا وشركاء ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي يدعى إلى توحيد الله تعالى والإخلاص لعبادته والاستسلام لأوامره ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن الذين اختاروا الضلال لن يهديهم الله تعالى.

(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريدون أن يردُّوا الحق بالباطل ويطفئوا نوره، ومثلهم في ذلك كمن يحاول إطفاء نور الشمس بفيه، فكما أنّ هذا مستحيل فذلك مستحيل أيضًا ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي إن الله تعالى لن يمكّن المشركين من إطفاء نور الحق، ولكن سيُتِمُّ نوره ويعلو الإسلام والقرآن رغم أنوف الكافرين؛ فإن الإسلام كائن لا محالة، ومنصور ولا بدّ.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي إن الله تعالى أرسل رسوله محمدًا ﷺ ليهدي الناس كافة إلى دين الإسلام و﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي لينصره على كل دين في الأرض ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي رغم أنوف المشركين، وإنَّ ما نراه اليوم من تفوق قوى الشر على المسلمين، فهذا عقاب من الله لهم، حتى يرجعوا إلى دينهم الحق ويحكموا فيهم أحكام الله.

(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يا مؤمنون: هل أدلكم على أحبِّ الأعمال إلى الله عز وجل، وعلى تجارة رابحة تنجيكم يوم القيامة من عذاب شديد لا قبل لكم به، وتهيئكم لمرضاة الله وإكرامه لكم والفوز بمحبته؟

(١١) ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إن أول هذه التجارة الرابحة هو الإيمان بالله ورسوله والتصديق والعمل بكتابه ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي وتبذلون في سبيل الله أموالكم وأرواحكم وترخصونها جميعًا في الجهاد في سبيله؛ لأن الأموال والأنفس إنما هي رخيصة الثمن مقابل الفوز بالرضا ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي هذا الذي تقدَّم ذكره خير لكم من أيِّ عمل آخر إن كنتم من أهل العلم والمعرفة وتعرفون ذلك.

(١٢) ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي إن جاهدتم بالنفس والنفيس يغفر كلَّ ذنوبكم ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي في جنات خالدة لا زوال لها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أجل، إنه فوز ولا أعظم منه فوز.

(١٣) ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي ونعمة أخرى أسديها لكم: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لكم ما تقدم من أجر على الجهاد في سبيل الله من مغفرة الذنوب والجنات الخالدات للذين يستشهدون في سبيله تعالى، وسيمنحكم شيئًا آخر تحبونه وهو: النصر على المشركين، وفتح قريب لمكة. ولا شك أنها ثمرات الجهاد التي ينعم بها من بقي من المجاهدين.

(١٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي أولياءه ونصراءه حالًا ومالًا ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي استجيبوا لله ولرسوله كما استجاب أصحابه له حين قال لهم: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والحواريون هم صحابة عيسى عليه السلام قالوا: نحن أنصار الله وأنصارك على ما أرسلك به ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ به منهم وبقي الأمر على ذلك إلى هجرة محمد ﷺ ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي الذين لم يؤمنوا به منهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين ومنتصرين عليهم، والحمد لله.

آخر تفسير سورة الصف

ما أنزل الله دين الإسلام إلا لينصره على الأديان كلها ويختصها به

سُورَةُ الجُمُعَة — ترتيبها ٦٢ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا
مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾
قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن
دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ
أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ
الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

٥٥٣

اليهود الذين حُمّلوا أمانة التوراة ثم لم يطبقوها كالحمار الذي ما يدري الأسفار أيحمل أم زبالة

سُورَةُ الجُمُعَة (٦٢)

مدنية وآياتها ١١، نزلت بعد الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إن كل مخلوق في السماوات والأرض يسبح الله تعالى تسبيح مقال. ﴿الْمَلِكِ﴾ أي مالك الملك في السماوات والأرض وما بينهما والمتصرف فيهما بقوته وحكمته وفضله وعدله ﴿الْقُدُّوسِ﴾ أي المنزّه والمترفع عن كل نقص وعيب ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سبق تفسيرهما أكثر من مرة.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ والمراد بالأميين هم العرب وإنَّ الله تعالى امتنّ عليهم بأن بعث فيهم رسولًا منهم أي عربيًا مثلهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ مع كونه أمّيًا ولا مانع من كونه رسولًا من العرب وإليهم أن يكون رسولًا للناس كافة، كما جاءت بذلك الآيات الدالة على عموم بعثته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من دنس الكفر والشرك والذنوب ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل بعثته ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فقد كانوا متمسكين بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم طرأ التبديل والتغيير منذ عهد عمرو بن لحي الخزاعي الذي أدخل الأصنام على جزيرة العرب، فبدلوا دين إبراهيم وإسماعيل القائم على التوحيد، بدلوه بالشرك وعبادة الأصنام وغيروه وقلبوه، وابتدعوا أشياء لم يأذن الله تعالى بها، مثلما فعل أهل الكتاب، فأنقذهم الله بمحمد ﷺ وأخرجهم من الظلمات إلى النور.

(٣) ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي ويزكّي آخرين منهم، والمراد بالآخرين منهم: هم من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي لم يلحقوا بهم بعد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي ذو العزة والحكمة شرعًا وقدرًا.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي هو الإسلام يعطيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يقرب منه فضل.

(٥) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي اليهـــود فقد كلفوا بحملها أي بحفظ أحكامها واتباعها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي ما أطاعوا أوامرها، بل غيروا وبدلوا بها ولم يعملوا بما أنزل الله عليهم ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي كمثل الحمار الذي ما يدري ما يحمل على ظهره أأسفارًا أم زبالة، وهكذا مثل اليهود حملوا التوراة ثم لم يحملوها، أي لم يقوموا بإقامة حدودها فكانوا كالحمار يحمل أسفارًا ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بئس مثلًا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الظالمين أنفسهم بتجرئهم على تكذيب كتاب الله تعالى وتكذيب رسوله.

(٦) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾ أي إنهم ادَّعوا الفضيلة على الناس؛ لأنهم يزعمون أنهم أحباء الله من دون الناس ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فادعوا بالموت على الضالِّ من الفئتين إن كان زعمكم صادقًا لتصيروا إلى ما تودُّون من الكرامة بزعمكم.

(٧) ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي وفي الحقيقة إنهم لا يتمنون الموت أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من كفرٍ وظلمٍ وفجورٍ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من ظلمهم، وفي الحديث: «... ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا» [٧٩٧]. وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة عند تفسير الآية رقم (٩٤ و٩٥)، ومباهلة النصارى في سورة آل عمران راجع الآية (٦١) منها، ومباهلة المشركين في سورة مريم عند تفسير الآية (٧٥) فراجعها هداك الله.

(٨) ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ أي إن الفرار من الموت لا ينجيكم منه وإنه نازل بكم لا محالة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ثم تعرضون على الله عالم الغيب والشهادة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيخبركم بما عملتم، فيجازيكم عليه بما تستحقون.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ
فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ
﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ
مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾
ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ
وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ
صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾

٥٥٤

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ وهو يوم قد هدى الله إليه المسلمين، وأمرهم أن يجتمعوا فيه لعبادته بالمساجد الكبار الجامعة، والسعي هو المشي إليها مشيًا طبيعيًا لا سرعة فيه. وفي الحديث: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتمّوا» [٧٩٨]، ويأمر الله تعالى بترك البيع عند سماع النداء. لذلك يحرم البيع والشراء ولا يصحان بعد النداء، وغسل الجمعة متأرجح بين الوجوب والاستحباب وأنا أرجح الوجوب؛ للحديث: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم» [٧٩٩]، والأمر يفيد الوجوب إلا إذا أتى صارف يصرفه نحو الاستحباب وليس من صارف فيما أعلم -والله أعلم- يصرفه عن الوجوب ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي السعي إلى الجمعة وترك البيع والإقبال على الصلاة، خير لكم ولا يخفى هذا إذا كنتم من أهل العلم.

(١٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا فيه دليل على عدم صلاة الظهر بعدها، ولنا رسالة في هذا الموضوع ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي بيعًا وشراءً وما أشبه ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي بالحمد والشكر على ما هداكم ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ في الدارين.

(١١) ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾ أي عندما جاءت عير من الشام ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ أي قاموا ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ على المنبر، ولم يبق مع رسول الله إلا اثنا عشر رجلًا فقط، وفي الآية دليل على جواز صلاة الجمعة في أقل من أربعين ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب والجنة ﴿خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي لمن أطاعه وتوكّل عليه.

آخر تفسير سورة الجمعة ولله الحمد والمنّة والتوفيق

(٦٣) سُورَةُ المُنَافِقُونَ

مدنية وآياتها ١١، نزلت بعد الحج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي يشهد المنافقون أن محمدًا ﷺ لرسول الله، وذلك بأفواههم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ حقًا وصدقًا ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ بشهادتهم لك.

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أي اتخذوا أيمانهم الكاذبة بأنك لرسول الله وقاية وسترةً تقيهم منكم القتل ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يشككون الناس بالإسلام ويقدحون بالرسالة فيصرفون الناس عن الدخول بالإسلام ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي من النفاق والصدّ إذ ليس من سوءٍ أسوأ ولا أقبح مما كانوا يفعلون.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي ارتدوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي جزاء ما ارتدوا إلى الكفر ختم عليها بسبب كفرهم جزاءً وفاقًا فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها أيُّ خير، فهم لا يفهمون ما فيه صلاحهم ورشادهم وهداهم، وزين لهم سوء عملهم فرأوه حسنًا وأمعنوا فيه، فلا يزايل قلوبهم ولا أفئدتهم ولا عقولهم؛ لأنهم هم الذين اختاروا الضلالة على الهدى والكفر على الإيمان.

(٤) ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ﴾ أي لروائها ونضارتها ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ أي لفصاحة ألسنتهم وبلاغة أقوالهم فيصغي السامع إليها، والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ثم لكل من يصلح له ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾ أي لخلوِّهم من الفهم فلا منفعة فيها ولا ينال منها إلا الضرر المحض، وهم في نفس الوقت في غاية من الجبن والهلع ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي كلما سمعوا صوتًا يظنون أنه عليهم أو هناك مصيبة نازلة بهم ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي هم الأعداء حقيقة فلا تأمنهم في شيء؛ قاتلهم الله كيف يكفرون بعد البرهان؟!

لا ظهر بعد الجمعة، حرمة ترك الخطيب، تصح الجمعة بأقل من أربعين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ
خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ
مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي
إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّغَابُنِ

٥٥٥

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي عطفوا رؤوسهم رغبةً عن الاستغفار واستكبارًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي معرضون بأنفةٍ وكبرياء عما كلفوا به من المجيء إلى رسول الله ﷺ ليستغفر الله لهم فجازاهم الله بقوله:

(٦) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي سواء عليهم الاستغفار أو عدمه فإنه لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي ما داموا على النفاق سائرين وماتوا على ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين على أمره وطاعته، وقد ذكر غير واحد من السلف: أن هذا السياق كله، نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله.

(٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي لا تنفقوا أموالكم على من عند رسول الله من المهاجرين الفقراء ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ أي حتى يتفرقوا عنه ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطي من شاء ما شاء ويمنع من شاء ما شاء ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الله له خزائن السماوات والأرض، بل يقولون أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم؛ لذلك قالوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى يتفرقوا عنه.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ هذا قول عبد الله بن أبي ابن سلول: ليخرجن الأعز يعني نفسه لعنه الله، ويعني بالأذلّ رسول الله ﷺ؛ فردَّ الله تعالى عليه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن القوة والغلبة لله وحده وهو الذي يهب العزة لرسوله وللذين معه من المؤمنين فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم الكفار هم الأذلاء ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي بما فيه النفع فيفعلونه، وبما فيه من الضر فيجتنبونه.

(٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي لا تشغلكم الأموال ولا الأولاد عن ذكره تعالى. ولفظ ذكر الله يشمل جميع أنواعه: فالأذان والصلاة وحلقات الدروس، والدعوة إلى الله، وتذكره سبحانه دائمًا بأنه يسمع ويرى خلقه ما هم فاعلون، والذكر اللساني كما شرع الله كل ذلك ذكر، وأما ما يسمونه ذكرًا في حلقات التمايل والتكسر، وسماع الأغاني من المردان الذي يرافقه الشبابة والصنج، والطبل والتلفظ بالاستغاثات بغير الله وما شابه تلك الحلقات التي يسمونها حلقات الذكر، فهذا ليس من ذكر الله تعالى في شيء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين يتلهون بالدنيا عن الدين ويفضلون لهوهم وأموالهم وأولادهم على ذكر الله.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من الأموال التي رزقكموها ربُّ العالمين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي أنفقوا قبل أن يداهمكم الموت ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي حينما يداهمه الموت وهو على ما هو عليه من الغفلة يقول: يا رب أخِّرني ولا تقبضني الآن ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أنفق في سبيلك كما تحب وترضى وأكون من عبادك الصالحين الموفقين للخيرات، وهذا لا يخرج عن كونه تمنيًا وفي هذه اللحظة لا تنفع الأماني ولا الطلبات الفارغة، فلا يجديه إلا العمل الصالح من بعد العقيدة الصحيحة الطيبة وهي عقيدة التوحيد في ذات الله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

(١١) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي إذا حلَّ موعد وفاتها لن تؤجل أو تؤخر، ولا يجدي صاحبها التمني على الله بالبقاء ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن الله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، فهو الخبير العليم بما يفعله عباده من خير أو شر فيجازي كلًّا بما يستحق.

آخر تفسير سورة المنافقون ولله الحمد والمنّة والفضل وعليه التكلان

(٦٤) سُورَةُ التَّغَابُنِ

مدنية وآياتها ١٨، نزلت بعد التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسبحه حالًا ومقالًا جميع المخلوقات حتى الجمادات ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي جميع الكون في تصرُّفه وحده لا شريك له ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي هو مستوجب الحمد كله على نعمائه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى ولا تُستوفَى ولا تُستقصَى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل ما هو كائن وما سيكون.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي أوجدكم سبحانه من العدم ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي علم جل وعلا في سابق علمه الذي لا يخفى عليه شيء: مَن منكم سيختار الكفر فكتبه عليه وقدره، ومن منكم سيختار الإيمان فكتبه عليه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي يراكم وأعمالكم ويسجلها عليكم في كتاب ستقرأونه يوم القيامة لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالحكمة البالغة والعدل التام لإظهار الحق وهو أن يعبد وحده فيجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي جعل صوركم أحسن صور جميع الحيوانات وميَّزكم عنها بالعقل وجعلكم في أحسن تقويم ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه وحده في الدار الآخرة، فلنتَّقِ الله في هذا المصير.

(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يعلم كلَّ كبيرة وكلَّ صغيرة في السماوات والأرض، ولا تخفى عليه خافية فيهما ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أي ما تخفونه ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي تظهرونه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما فيها من النوايا والمقاصد.

(٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي خبر الذين من قبلكم كيف كفروا بالله وبما أنزل من البينات ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي وخيم عاقبة تكذيبهم وكفرهم وما حلَّ بهم من العقوبة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يطاق في الآخرة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي إن ذلك العقاب في الدنيا والآخرة الذي حلَّ بهم بسبب أنه كانت رسلهم تأتيهم بالآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي ما الذي فضَّلهم علينا حتى يهدونا، أي استبعدوا أن تكون النبوة في البشر وأن يهديهم بشر مثلهم ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ أي كفروا بما جاءت به الرسل وأعرضوا عنهم ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي مستغن عن عبادتهم وله عباد في السماوات والأرض يعبدونه ويحمدونه قالًا وحالًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ
وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ
فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى
اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

٥٥٦

(٧) ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ أي من قبورهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي أمرَهُ أن يقسم به سبحانه بأنهم ليبعثن من قبورهم ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي وليُخبَرُنَّ بكل ما عملوا ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي يسير عليه حشرهم وحسابهم وعقابهم.

(٨) ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ أي أسرعوا للإيمان بالله بأنه الواحد الأحد وبرسوله محمد ﷺ وبكتابه القرآن ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وإن الله تعالى يعلم حقيقة ما أنتم فاعلون، من الإيمان به وبرسوله وبكتابه فهو بكل ذلك عليم خبير.

(٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ وهو تفاعل من الغبن أي فوت الحظ، أي عندما يرتفع العباد الصالحون إلى أعلى عليين ويرى الكافر منزله وهو في أسفل سافلين، فيكون محزونًا مغبونًا لما فرَّط في الدنيا ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ أي يغفرها الله له ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ولا من فوزٍ أعظم من ذلك الفوز.

التغابن: تفاعل من الغبن، يوم يرى الكافر فيه نفسه مغبونًا لتفريطه

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ — ترتيبها ٦٥ — آياتها ١٢

(١٠) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي كفروا بالله وكفروا برسوله وجحدوا آيات الله المنزلة ومعجزاته الباهرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي هم الذين يكونون أصحابها وأهلها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إلى أبد الآبدين ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس المصير مصيرهم فهم فيه إلى الأبد.

(١١) ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بقدره وإرادته وأمره وحكمته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي ومن يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له يهد قلبه للصبر والرضا بما قدَّر الله، فيسلم ويسترجع ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي كامل العلم ولا يخفى على علمه شيء.

(١٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي أمر الله بطاعته فيما أمر وبطاعة رسوله ﷺ فيما بلَّغ عن ربِّه تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن أمر الله ورسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليس على الرسول إلا أن يبلغكم، وقد فعل ذلك.

(١٣) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن الله تعالى لا معبود بحق إلا هو، فوحِّدوه وأخلصوا العبادة لجلاله العظيم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يليق بالمؤمن إلا أن يتوكل على من آمن به أنه إلهه الحق الذي لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

(١٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ وسبب نزولها: أن رجالًا من مكة أسلموا فأرادوا أن يهاجروا إلى رسول الله ﷺ فلم تدعهم أزواجهم وأولادهم فأمر الله تعالى ألا يطيعوهم في التخلف، وتفيد الآية أن من الأزواج والأولاد -لا كلهم- عدو وإنه تعالى أمر بالتجاوز عنهم بقوله: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ أي لما حضر أولئك المسلمون من مكة إلى المدينة ورأوا الناس قد فقهوا في الدين فهمُّوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم جزاء ما حالوا بينهم وبين الهجرة فنزلت ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ أي عنهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم.

(١٥) ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء واختبار ومحنة ليعلم - والله أعلم - بمن يطيعه ممن يعصيه ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر طاعة الله وترك معصيته في محبة أهله وماله وولده، وفي الحديث: «ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزًا لك، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن الذي لعله عدو لك، وولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدو لك، هو مالك الذي ملكت يمينك»[1] [٨٠٠]، وقوله تعالى:

(١٦) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي طاقتكم وجهدكم، وقيل: إنها ناسخة لقوله سبحانه ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أي انقادوا لأمر الله ورسوله ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي وابذلوا على الأقارب والفقراء والمحتاجين وأحسنوا للجميع ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي ومن وقاه الله شرَّ البخل والحرص ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون الظافرون بالجنة.

(١٧) ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي يجعل الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وفي الحديث: «يقول الله: استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني، وشتمني عبدي وهو لا يدري يقول: وادهراه وادهراه، وأنا الدهر» [٨٠١]، وفي الحديث القدسي أيضًا: «إن الله تعالى يقول: من يُقرض غير ظلوم ولا عديم» [٨٠٢]، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران الذنوب ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يجزي على القليل أضعافًا مضاعفة، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يحلم عليه فضلًا وكرمًا.

(١٨) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي إنه سبحانه يعلم كل ما لا يراه عبيده من عالمي الدنيا والآخرة، وليس عليه أي شيء غيب، ويعلم أيضًا ما يشاهده مخلوقاته ولا يخفى عليه شيء مما يُرى وما لا يُرى ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة.

آخر تفسير سورة التغابن ولله الحمد والمنّة والفضل
وبه العصمة وعليه التكلان

(١) إسناده ضعيف.

التسخط على الدهر شتم لله • من استسلم لقضاء الله هدى قلبه وعوَّضه

(٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنية وآياتها ١٢، نزلت بعد الإنسان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقد جاء في الحديث: إن عبد الله بن عمر طلَّق امرأةً له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ، ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها طاهرًا قبل أن يمسَّها؛ فتلك العدة التي أمر بها رسول الله ﷺ اللهُ عز وجل» [٨٠٣]، ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ أي بأولها وبانتهائها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ في إحصاء العدة ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ أي لا يجوز لزوجها إخراجها من البيت ولا هي تخرج منه ما دامت معتدَّة، لأنها معتقلةٌ لحق زوجها ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ والفاحشة تشمل الزنى، والنشوز، والبذاءة في الكلام ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي التي حدَّها فلا تعتدُوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي تجاوزها ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أي عرَّضها للعقوبة ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي ندامةً من قِبَلِهما وتصح منهما الرغبة إلى المراجعة، وهذا من بركة أمر الله بعدم خروجها.

(٢) ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي شارفن على انتهاء العدة ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ أي في كلا الحالتين يجب معاملتها بالإحسان والرفق وبلا مضارة ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي على الرجعة أو المفارقة، لا على الطلاق فإنه قد فُرِغَ منه(١) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي يشهد الشهود بها رأوا تقربًا إلى الله تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي الذي ذكرناه لكم من الحدود والأحكام عظة لمن كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر؛ لأن المؤمن تنفعه العظة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالعمل بما أمره الله ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ من ضيقه.

(٣) ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ أي يهيء له فرجًا ورزقًا من حيث لا يخطر له على بال ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ أي كافيه عن كلِّ ما عداه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ أي يقضي بما يريد ولا رادَّ له ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ أي أجلًا للشدة والرخاء.

(٤) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ أي بلغن سنَّ اليأس وهي التي انقطع حيضها لكبرها ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي إن جهلتم كيف عدَّتهن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ
ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ
ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ
ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا (١) فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ
بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ
وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا (٢) وَيَرۡزُقۡهُ
مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا (٣) وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ
مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ
وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ
وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا (٤) ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ
إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا (٥)

٥٥٨

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ أي الصغار لم يبلغن سن الحيض، كذلك عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ أي الحبالى ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ أي إلى أن يلدن ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ أي إن من يطع أوامر الله فيما تقدم منها، وفي كل شيء فإن الله سبحانه يجعل أموره على اختلافها ميسَّرةً على ما يحب ويرضى. ولا يحب ولا يرضى لعباده المتمسكين بحبله المتين إلا بما يعود عليهم بالخير العميم حكَّامًا كانوا أو محكومين، ويا ليتنا نعتبر.

(٥) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي تقدم وكل ما يصدر عنه هو ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الذي يجب أن يطاع وتنفذ أحكامه بلا أيِّ تردد ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي من أجل أن تحكموا به، وإن اختلفتم أن تحتكموا إليه لا لغيره من الأحكام الوضعية التي وضعها البشر الناقصون؛ فلا بد أن يكون حكمهم ناقصًا غير تام لأن الناقص لا يأتي إلا بكل ناقص، أما التام الكامل في صفاته جميعًا لا بدَّ وأن يكون كلُّ ما يصدر عنه تامًّا كاملًا، وعلى هذا تكون أحكام الله كاملة تامة فلا تستبدلوا الكامل بالناقص ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي يغفرها ويتجاوز عنها ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ أي وإن أجوره التي يستحقها يضاعفها له أضعافًا مضاعفة ويدخرها له عنده.

(١) راجع تعليقنا على كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» عند الآية: ٢، من سورة الطلاق فهو تعليق مهم.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟
عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن
تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ
وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ
قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ
لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ
وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

(٦) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي إذا طلَّق أحدكم امرأته طلاقًا رجعيًا فعليه أن يسكنها في المنزل الذي يسكنه، وكان قد تقدم آنفًا الأمر بعدم إخراجها من البيت مدة العدة، وهنا الأمر جاء بالإسكان حيث يسكن الزوج، مِنْ وُجْدِهِ أي من سعته ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أي بالقول والفعل ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ أي بأن يَمْلَلْنَ من المضايقة فيخرجن من البيت قبل العدة فيكون إثم ذلك عليكم؛ لأنكم أنتم الذين أخرجتموهن فأخرجتُموهنّ ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي حاملات ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي عليكم أن تنفقوا عليهنَّ حتى يلدن؛ لأن الحمل قد تطول مدته كي لا يتوهم أنه ينفق على المطلقة الرجعية الحامل إلى نهاية عدتها، لا بل إلى أن تضع حملها؛ لأن عدة الحامل إلى أن تضع، بخلاف الحائل فعدتها ثلاثة قروء، وإذا وضعن حملهن وهن طوالق فإذا لم يرجعهن قبل الولادة فقد بِنّ بانقضاء عدتهن وهي لمدة الوضع. ولها حينئذ أن ترضع الولد أو تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللّباء الذي لا قوام للمولود غالبًا إلا به ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي أولادكم ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أجور إرضاعهن ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليتراض الأب والأم على أجر مسمى بمعروف، أي يوفر للأم أجرها وأن لا تطلب هي ما يتعذر على الزوج إعطاؤه ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي إذا لم تتفقا على الأجر فترضعه أجنبية، والأم أولى إن رضيت بسعر الأجنبية.

(٧) ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي ينفق بما يستطيع كُـلٌّ بحسبه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي إن كان فقيرًا فمما يستطيع ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي بقدر ما رزقه ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي غنى.

(٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي كفرت وتمردت عن طاعة أوامر ربها وأوامر رسله ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي في الآخرة وهذا تهديد لمن يعصي أوامر الله أن يحلَّ به ما حلَّ بالسابقين من العذاب المنكر الفظيع الذي لا يخطر لهم على بال تذكيرًا واتعاظًا.

(٩) ﴿فَذَاقَتْ﴾ تلك القرى ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي جزاء ذنبها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي كانت خاتمتها هلكةً دنيا وأخرى.

(١٠) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهذا التكرار تأكيد لمن بعدهم بعذاب الكافرين ولتأكيد العظة والاعتبار بهم وبما نابهم؛ ولهذا قال عزَّ من قائل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي فتجنبوا مساخطه ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي قرآنًا يهديكم سواء السبيل وتفصلون بآياته ما بين الحق والباطل.

(١١) ﴿رَّسُولًا﴾ وأرسل إليكم رسوله محمدًا ﷺ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي موضحاتٍ لكم الحلال من الحرام والخير من الشر ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بإذن الله وأمره ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي من ظلمات الكفر والشرك ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي إلى نور الإيمان والتوحيد ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي ومن يؤمن بالله إيمانًا صادقًا ويقوم بالأعمال الصالحة المرضية لله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي جزاء ما قدم من إيمان وعمل صالح يدخله جنته، خالدًا فيها أبدًا لا يحول عنها ولا يزول أبدًا ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي وسَّع الله رزقه في الجنة.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي سبعًا أيضًا، فكما أن السماء سبعٌ طِباقٌ كذلك الأرضون مثلهن؛ لأن الأرضين والسماوات كانتا رتقًا ففتقهما الله ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي ما يدبر الله من إنزال المطر وعيش البريـة ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لتـوقنـوا أن الله لا يعجزه شيء وهو قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ أي أحاط بكل مخلوقاته علمًا لا تخفى عليه منهم خافية تبارك وتعالى.

آخر تفسير سورة الطلاق ولله الحمد والمنّة والفضل
وبه العصمة وعليه التكلان

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية وآياتها ١٢، نزلت بعد الحجرات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ
وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا
فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ
فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ
٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ
فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا
خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ
ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ
نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ
لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧

٥٦٠

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ هذا عتاب يعاتب الله به نبيه محمدًا ﷺ حين حرم على نفسه مارية القبطية أم ولده إبراهيم عليهما الرضوان، أي يا أيها النبي لم تحرم مارية عليك وقد أحللتُها لك ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ أي تبتغي رضاهن؟ وفي الحديث: «إن رسول الله ﷺ كانت له أمَةٌ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله هذه الآية» [٨٠٤]، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لما فرط منك من تحريم ما أحلَّ الله لك.

(٢) ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي شرع ذلك لكم جميعًا كما ورد في سورة المائدة الآية رقم (٨٩)، فأمر الله نبيه ﷺ أن يعتبر التحريم يمينًا، ويراجع مارية ويكفِّر، لأن تحريم ما أحلَّ الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه، فالتحليل والتحريم هو إلى الله وحده، فكفَّر النبي ﷺ برقبةٍ أي حرَّرها ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي متوليكم وناصركم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما فيه صلاحكم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله وفي أي شأن من شؤونه تعالى، وقد اتفق العلماء على وجوب الكفارة على من حرم زوجته أو جاريته واختلفوا في وجوبها على من حرم أكلًا أو شربًا أو لبسًا.

(٣) ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ أي إلى حفصة رضي الله عنها بتحريم مارية وأوصاها أن تكتمه عن أي أحد ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أي أفشته لعائشة ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي أطلعه على إفشاء حفصة سرَّ التحريم إلى عائشة رضي الله عنهما ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ أي عرف حفصة بعض ما أخبرت به ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ أي لم يعرفها إياه كراهة أن ينتشر بين الناس ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي أخبرها بما أفشت من الحديث ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي من أخبرك ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي العليم والخبير في كل شيء.

(٤) ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت إلى التوبة مما انحرفت عما ينبغي لهن من الورع والأدب معه ﷺ ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي نصيره ووليه ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي أبو بكر وعمر ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي وكذلك الملائكة من أنصاره أيضًا، فمن كان هؤلاء أنصاره فهو المنصور.

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ أي علم الله أنه لا يطلقهن، وهن أحرص على طاعة الله ورسوله من غيرهن ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ السائحة أي الصائمة وفي الحديث: «سياحة هذه الأمة الصيام» [٨٠٥]، ﴿ثَيِّبَٰتٖ﴾ أي المتزوجة ثم تكون غير ذات زوج ﴿وَأَبۡكَارٗا﴾ أي على حالهن كما خلقن.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي مُرُوا أنفسكم وأهليكم بطاعة الله تعالى في جميع ما يجب عليهم فإن فعلتم تكونوا قد وقيتم أنفسكم وأهليكم نارًا ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي الكافرون منهم والمشركون ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي معبوداتهم المصنوعة من الأحجار التي كانوا يعبدونها ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ أي نزع الله من قلوبهم الرحمة على الكافرين والعاصين ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي جبلوا على طاعة الله فلا يعصون له أمرًا، ويقومون بكل ما يأمرهم به، ومن شدتهم يقال: إنَّ أحدهم إذا ضرب الرجل في النار جعله طحنًا من قرنه إلى قدمه.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بهذا يخاطب الذين كفروا وهم في النار ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فعذركم غير مقبول ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر والشرك.

التحريم ليس طلاقًا إلا بنية الطلاق، وكفارة التحريم كفارة يمين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ
عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

٥٦١

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتكفُّ صاحبها عمَّا كان يتعاطاه من الدناءات. وفي الحديث: «هي الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبدًا» [٨٠٦]، وعلى المؤمن أن يكون دائمًا بين الرجاء والخـوف، لا أن يكـون قانـطًا ولا عابثًا، وفيما أعلم أن التوبة تجبّ ما قبلها مع عزم صاحبها على ألا يعود. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي إن تبتم التوبة النصوح فإنَّ الله يكفر عنكم سيئاتكم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جـزاء توبتكم التي أخلصتم فيها إلى الله تعالى، وإن (عَسَى) من الله موجبة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهذا يوم القيامة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي على قدر أعمالهم يمرون على الصراط: منهم مَنْ نوره كالجبل، ومنهم كالنخلة، ومنهم كالرجل القائم، وأدناهم من نوره في إبهامه يتقد مرة وينطفئ أخرى، ويتناولون كتبهم بأيمانهم يوم القيامة، وفي الحديث: «اللهم لا تخزني يوم القيامة» [٨٠٧]، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا دعاء المؤمنين يدعون به يوم القيامة حين أطفأ الله نور المنافقين.

(٩) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي جاهدهم بالسيف والحجة، أما المنافقون فبإقامة الحدود عليهم، واشدد عليهم جدًا ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي إن لهم في الدنيا قتالًا مريرًا، وفي الآخرة جهنم مأوى لهم خالدين فيها وبئس المصير مصيرهم.

(١٠) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ ولعل ضرب هذا المثل في هذه السورة فيه إلفات نظر للسيدتين الجليلتين عائشة وحفصة يحذرهما به وسائر زوجات النبي ﷺ من الوقوع بمعصيةٍ ما له ﷺ فلا يغني عنهن كونهن زوجاته من الله شيئًا. فهاتان زوجتا نوح ولوط النَّبيَّيْن الرسوليـن الكريميـن ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كونهما زوجتين لهما؛ لأنهما خانتاهما في دينهما ولم تخوناهما في الفراش بل خانتاهما في الدين، أي كانتا كافرتين ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ فما نفعهما قربهما من نوح ولوط، بل جازاهما الله على كفرهما نارًا خالدة، وفي الحديث: «ما بغت امرأة نبي قط» [٨٠٨]، تحقيقًا لكون نساء الأنبياء معصومات من الزنى ولو كنَّ كافرات، ليبقى بيت النبوات والرسالات محميًا من الله تعالى من أن يدخل إليه الخبث. ولنا تحت الطبع كتاب يعالج هذا الموضوع اسمه «بلوغ المنى في إثبات عصمة نساء الأنبياء من الزنى» نرجوه تعالى أن يوفقنا إلى طبعه.

(١١) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسية بنت مزاحم، وكانت مؤمنة بالله ورسوله موسى عليه السلام ولكنها تحت أكفر كافر في الأرض إذ ذاك فما ضرَّها ذلك شيئًا، ولما أحس فرعون بإيمانها قال: انظروا أعظم صخرة فألقوها عليها، فرفعت بصرها إلى السماء ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ ومضت على إيمانها فانتُزِعَتْ روحُها وأُلقيت الصخرةُ على جسدٍ بلا روح، فاختـارت الجـار قبـل الدار ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي من ذاته وما يصدر عنه من أفعال الكفر والشرك ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فنجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة رضي الله عنها.

(١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي حفظته وصانته عن الفاحشة لكمال دينها وعفَّتها ونزاهتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي بواسطة جبريل الذي تمثَّل لها بأمر الله بشرًا سويًا وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، وهذه العملية كلها ناشئة من قوله تعالى (كن) وليس عيسى هو كلمة كن، بل إنه كان بكلمة (كن) بإذن الله ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي شرائعه التي شرعها ﴿وَكُتُبِهِ﴾ أي الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أي المطيعين لربهم وقيل: إنها وآسية زوجتا رسول الله في الجنة. والله تعالى أعلم.

آخر تفسير سورة التحريم ولله الحمد والمنّة والفضل
وبه العصمة وعليه التكلان

(٦٧) سُورَةُ المُلْكِ

مكية وآياتها ٣٠، نزلت بعد الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي تقدَّس وتعاظم عن صفات المخلوقين وهو الله تعالى الذي في قبضة يده الملك يتصرف فيه كيف يشاء، ويده سبحانه صفة له كباقي الصفات، لا نقول كما يقول المؤولة: يده أي نعمته أو قدرته، بل هي يده حقيقة بلا كيف، فاليد معلومة، وكيفيتها مجهولة، والسؤال عنها بدعة، والإيمان بها واجب، على هذا مضى السلف الصالح محمد ﷺ وصحبه ومن والاهم إلى يوم الدين في الأسماء والصفات، ونحن على آثارهم مهتدون. وعلى هذا فإن كل تأويل لصفات الله هو تعطيل لها والعياذ بالله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء في ملكه.

(٢) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ فيه دليل على أن الموت والحياة شيئان وجوديان لأنهما مخلوقان، والمعنى أنه تعالى خلق الخلق من العدم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي العبرة بحسن العمل لا بكثرته فيجازي كلًّا بما يستحق ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي هو مع عزته ومنعته غفور لمن استغفره سبحانه.

(٣) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي ومن قدرته وعظمته أنه خلق سبع سموات طبقة بعد طبقة منفصلات بينهن فضاء ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ يا أيها الناظر ﴿فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي من تناقض أو خلل، وإذا لم تتأكد من عدم التفاوت ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي ثم أمعن النظر مرة ثانية ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي هل ترى من شقوق أو خلل أو اضطراب أو اختلاف.

(٤) ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي مرةً بعد مرة محاولًا رؤية أي خلل فيها فإنك مهما حاولت ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي يرجع بصرك مخذولًا محسورًا لا يلوي على شيء من الخلل والعيب.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي الكواكب الثوابت والسيارة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وجعلنا من نوعها أي من جنسها وهي الشهب رجومًا للشياطين تخرُّ عليهم وتحرقهم دفعًا لهم من استراق السمع ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ للشياطين زيادة على هذا في الدنيا ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ يوم القيامة. وإن هذه المصابيح ليست في السماء الدنيا إنما هي في فضائها، وجعلت زينةً لها.

(٦) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وأعتــدنا أيضًا لكل كافر بربِّه من الجن والإنس عذابًا لا يطاق.

(٧) ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أي كفار الجن والإنس ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ أي لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ أي صياحًا منكرًا ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي تغلي متموِّجة.

سُورَةُ المُلْكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾
ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾
قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

٥٦٢

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي تكاد تتقطع تغيظًا منهم وينفصل بعضها عن بعض تهجُّمًا عليهم لتخطفهم إلى أعماقها ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي خزنة جهنم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يرسل الله إليكم رسولًا بشيرًا ونذيرًا يأمركم وينهاكم؟

(٩) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الكفار: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي لم نصدقه ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي مما تدعي به ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

(١٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي كنا معرضين لا نسمع ولا نعقل ما يقوله لنا النذير من الخير، ولو كنا مقبلين على ما يقوله لنا ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ما كنا محشورين في جملتهم في هذه النار المؤبدة، وفي الحديث: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة» [٨٠٩].

(١١) ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ وهذا اعتراف لا ينفعهم ولو كان هذا الاعتراف في الدنيا لكان عملًا صالحًا ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي بعدًا بعدًا.

(١٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يعبدون ربهم ويخشونه بعيدين عن أعين الناس ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي يغفر ذنوبهم ويأجرهم أجورًا عظيمة.

يد الله صفة له تعالى، لا هي نعمته ولا قدرته بل هي يده حقيقة بلا كيف...

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ
﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى
هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ
﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ
فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

(١٣) ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ هذا جواب من الله تعالى للمشركين الذين كانوا يذكرون محمدًا ﷺ بسوء فقالوا: أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ أي سواء إن أسررتم قولكم أو جهرتم به ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تكنُّه الصدور وما يخطر في قلوب عباده.

(١٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي الذي خلقكم وخلق سرَّكم وجهركم ألا يعلم ما تتكلمون بحق رسوله سرًّا كان أو جهرًا؟ بلى يعلم ويسمع ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

(١٥) ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي ذلَّلها لكم وسخرها لحوائجكم منها من غرس، وحرث وبناء وطرق فأخرجتم معادنها وكنوزها، ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي على ظهرها سهولًا وجبالًا وأودية ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي كلوا مما رزقكم حلالًا طيبًا ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي المعاد والرجوع.

(١٦) ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ﴾ وهو الله تعالى وتقدس وهو فوق السماء عالٍ عليها وعلى العرش علوًا مطلقًا بائن من خلقه وهو معهم بعلمه وجميع صفاته وليست (في) الواردة في قوله ﴿مَّن فِى السَّمَآءِ﴾ هي (في) الظرفية؛ لا يا أخي، إنما (في) هنا بمعنى (على) كقوله تعالى حكاية عن فرعون الذي قال لمؤمني السحرة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي في أعلى شجر النخل لا في داخلها، فاستعمل (في) هنا بمعنى (على) والمعنى: هل أمنتم جانب الذي فوق السماوات وهو الله تعالى وتقدس ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي فتضطرب وتتزلزل.

(١٧) ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ﴾ وهو الله تعالى وتقدس، وهذا تكرار من الله تعالى بأنه في السماء، ذلك لإعلام خلقه والتأكيد عليهم بأنه فوق السماوات وفوق كل كائن، وفي نفس الوقت هو مع خلقه بصفاته العلى أينما كانوا لا تخفى عليه منهم خافية، وقوله تعالى: ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي ألا تخشون أن يرسل عليكم حجارة من السماء ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي كيف يكون عقابي.

(١٨) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف أنكرت عليهم ذلك ويا ليتكم تعلمون كيف فعلتُ بهم من العذاب والنكال.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ أي ألم ينظروا إليها كيف هي ﴿فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي تارة يفتحن أجنحتهن وتارة يضممْنها وهنَّ في السماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ أي لا يستطيع ذلك إلا هو سبحانه ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي يرى مخلوقاته من فوق سبع سمواته.

(٢٠) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ أي من حزبكم هذا الذي ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي لا أحد ﴿إِنِ الْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

(٢١) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أي من هو الذي يرزقكم ويعطيكم ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ الله ﴿رِزْقَهُۥ﴾ أي من يستطيع أن يرزقكم من دونه إذا قبض الله رزقه عنكم ﴿بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي تمادوا في عنادهم وتمردهم وشرودهم عن الحق الذي يعرفونه حقًا.

(٢٢) ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أي بدلًا من رجليه، وفي الحديث: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟! فقال: «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادرًا على أن يمشيهم على وجوههم» [٨١٠]، ﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي ويوصله إلى الجنة مهوى الأفئدة، ولا شك في أنه من يمشي سويًا على هدى وبصيرةٍ أهدى سبيلًا ممن يمشي على غير هدى وفي ظلام مستمر فلا يأمن العثور ولا الشرور.

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي من العدم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتنتفعوا بها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلما تستعملونها في طاعته.

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ﴾ أي أمر رسوله الكريم أن يخبر المشركين بالله أن الله هو الذي نشرهم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره.

(٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي يستهزئون منكرين الحشر، ويقولون: متى موعد هذا الحشر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به

(٢٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ أي علم يوم المحشر وموعده ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ولم يعلمني به ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنا لست إلا بشيرًا ونذيرًا ومبلِّغًا.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ القَلَمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ
حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

٥٦٤

(٢٧) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي لما رأى الكفار عذاب يوم القيامة قريبًا، وماثلًا أمامهم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي اسودَّت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة وقبح المنظر ﴿وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ بأن لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار، فرأوا الكل حاضرًا.

(٢٨) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي أن الكفار كانوا يتمنون أن يهلك محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين، فالمعنى أنه لو أهلكنا الله جميعًا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فلا مناص من عذابه إن ظللتم كفارًا فآمنوا به وتوبوا إليه.

(٢٩) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ الذي رحمنا برحمته الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمنا به ولم نشرك به شيئًا ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي فوَّضنا الأمر إليه ولا شكَّ أن التوكل عبادة فمن توكل على الله فقد عبد الله بتوكله عليه فهو يكفيه همه وغمه. ولا يجوز أن نتوكل على غيره إلا أن نقول مثلًا: أتوكل على الله ثم عليك، فتكون قد جعلت التوكل على الخالق عبادة له ثم التوكل بعده على المخلوق، أي من قبيل الأخذ بالسبب ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي ستتيقنون يوم القيامة مَنْ مِنَّا هو في ضلال عظيم واضح.

(٣٠) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي أخبروني إن غار ماؤكم في الأرض فلا يبقى في الآبار ولا الأنهار منه قطرة، وصار غائرًا بحيث لا تناله الدِّلاء ولا المضخات ونضب نهائيًا ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾ من دون الله ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي ماءٍ نابع سائح عذب فرات سائغ للشاربين؟

آخر تفسير سورة الملك ولله الحمد والمنّة والفضل

(٦٨) سُورَةُ القَلَمِ

مكية إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣ ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ فمدنية، وآياتها ٥٢، نزلت بعد العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿نٓ﴾ راجع أول سورة البقرة ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ قسم من الله بالقلم أي جنس القلم الذي يخط الناس به الكتابة. أقسم به الله تشريفًا له وتشريفًا للكتابة لقوله ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وقيل: القلم الذي هو أول الخلق كما في الحديث: «أول ما خلق الله القلم...» [٨١١]، ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي ما تكتب الملائكة من أعمال العباد.

(٢) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وهذا هو المقسوم عليه وهو ردٌّ على الكفار الذين اتهموا محمدًا ﷺ بالجنون والله ينفي ذلك.

(٣) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غير منقطع بل دائم متصل.

(٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي خلقه القرآن كما قالت عائشة.

(٥) ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ يا محمد إذا حصحص الحق يوم القيامة.

(٦) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي وستعلم ويعلمون من المفتون منكم.

(٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن الله سبحانه يعلم أي الفريقين أهدى ومن أضل سبيلًا.

(٨) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهم الكفار الذين رغبوا إلى رسول الله ﷺ أن يعبدوا ربَّه يومًا ويعبد ربَّهم يومًا، فنهاه الله عن ذلك ومن ورائه الأمة.

(٩) ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي إذا صانعتهم بأن تعبد آلهتهم يومًا تكون قد أشركت، وهذا الذي يريدونه منك تصانعهم يومًا فيصانعونك.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ أي لا تصدق الكذابين الذين يتقون غضبك عليهم بأيمانهم الكاذبة، فلا تصدقهم فيما يحلفون فإنهم الكذَّابون.

(١١) ﴿هَمَّازٍ﴾ وهو المغتاب للناس ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي يمشي بين الناس بالنميمة ويفسد بينهم، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة نمَّام» [٨١٢].

(١٢) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي يحول بين الناس وبين الخير ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي ظالم كثير الإثم.

(١٣) ﴿عُتُلٍّ﴾ أي الشرس ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي اللصيق بالقوم وليس منهم.

(١٤) ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي هذه الأوصاف المتقدمة تعود على الحلَّاف المهين الذي قابل نعم الله بالمال والبنين، بالكفر والظلم والشراسة والسوء.

(١٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا﴾ البينات من القرآن ﴿قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قال هذا خرافات الأولين وكذَّب أن تكون منزلةً من الله تعالى.

سيصلى جهنم كل نمام معتد أثيم عتل زنيم مكذب مناع للخير

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾
أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ
رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

٥٦٥

ساق الله صفة له حقيقة بلا كيف، كاليد والوجه والنزول والمجيء

(١٦) ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي سنسمه بالكي على أنفه وبالسواد على وجهه علامة أهل النار. وقد وسم على أنفه في بدر بالسيف وسيوسم بالنار في الآخرة.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي اختبرنا كفار مكة ببعثة رسول الله ﷺ فيهم، وما أعظمها من نعمة، وقد قابلوها بالتكذيب والكفر ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ أي كما اختبرنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي أصحاب البستان ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي ليقطفنها حرمانًا للفقراء.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي لم يقولوا: إن شاء الله؛ فأحنثهم الله في أيمانهم أي أنساهم قولة (إن شاء الله) حتى يجازيهم على مؤامرتهم على الفقراء.

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي جاست خلال جنتهم نارٌ أحرقتها ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي حال نومهم، وهذا جزاء مانعي الزكاة والصدقة لو يعلمون.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي كالليل الأسود ليس فيها شجرة خضراء وفي الحديث: «إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم رزقًا كان هيئ له»[1] [٨١٣].

(٢١) ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ أي لما أصبحوا نادى بعضهم بعضًا إلى البستان.

(٢٢) ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي على بساتينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي هيًا لنقطف الثمار من البستان إذا أردتم القطف.

(٢٣) ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي يتكلمون سرًا وهم سائرون.

(٢٤) ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي يتكلمون سرًا متمنِّين ألا يدخل عليهم في هذا الوقت المبكِّر مسكينٌ يطلب صدقةً.

(٢٥) ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي ومشوا وهم على أشدِّ ما يكونون قوة واستعدادًا وقدرة على قطف الثمار.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ وهي محترقة ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي تائهون، فلعلنا ضللنا الطريق، هذا بستان محترق وبستاننا غير ذلك.

(٢٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي لما تأكدوا أنها جنتهم قالوا: لقد حرمنا الله منها جزاء ما تحالفنا عليه من حرمان المساكين منها.

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أحسنهم عملًا وأفضلهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي وكأنه أمرهم بالاستثناء أي أن يقولوا: إن شاء الله، فلم يطيعوه فندموا على ذلك.

(٢٩) ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي أقروا بظلمهم للفقراء المساكين، ولقد أصرُّوا على عدم الزكاة على ثمارهم.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ وهكذا فقد اجتمعوا، أي يلوم بعضهم البعض على ما فرَّطوا من جانب الفقراء معترفين بظلمهم أولئك المساكين، وتوسلوا إلى الله بالاعتراف بالذنب والتوبة منه.

(٣١) ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي معتدين باغين.

(٣٢) ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ أي من جنَّتنا الأولى الهالكة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي طالبون منه الخير راجون عفوه.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه ومنع حق المسكين، هذا في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وفي الحديث: نهى عن الجِدَاد في الليل والحصاد في الليل. [٨١٤].

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي لا تبيد ولا يشوبها كدر.

(٣٥) ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا يمكن أن نجعل الذين آمنوا كالذين كفروا.

(٣٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ويلكم كيف تظنون إننا نساوي بينهم في الحكم.

(٣٧) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي ترجعون إليه في هذا الحكم؟

(٣٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ ثم تختارون منه ما تشتهي أنفسكم من الأحكام.

(٣٩) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أم لكم علينا مواثيق؛ ولقد استوثقتم بأن سيحصل لكم ما تريدون وما تشتهون.

(٤٠) ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي من هو الكفيل بهذا؟

(٤١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي شركاء لهم في قولهم إننا نجعل المسلمين كالمجرمين ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ ولينزلوهم منازل المسلمين.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ والساق كاليد صفة له حقيقةٌ بلا كيف، وفي الصحيحين: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا» [٨١٥]، ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لعجزهم.

(١) إسناده ضعيف.

خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ
(٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَٱصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا
أَن تَدَٰرَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٥٢)

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ
وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا
عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨)

(٤٣) ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي في الآخرة جزاء تعاليهم على الحق وتكبرهم في الدنيا، فكان الجزاء من جنس العمل ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي في الدنيا، وهم سالمون من العلل يدعون بندائهم إلى الصلاة بحي على الفلاح إلى الجماعات فلا يلبون الأذان ولا الإقامة.

(٤٤) ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي هذا القرآن، ولا شكَّ أنه تهديد ووعيد يقصهان الظهور ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يحتسبون.

(٤٥) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم ولا أهملهم، وأرزقهم، ويظنون هذا من محبتي لهم، وهم يعلمون ما يعملون ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي قويٌّ لا يقاوم.

(٤٦) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي كأنـك تسألهم أجرًا منهم على هدايتك لهم ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي ويثقل عليهم كثرة ما تفرضه عليهم من الأجر فهم يعرضون عنك لذلك!!؟ وهذا غاية في التهكم بهم؛ فأظهرهم -لبخلهم- أن سبب إعراضهم عن الحق لفداحة الأجر عليهم مع أن رسول الله ﷺ لا يسألهم أجرًا.

(٤٧) ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي وكأنهم مطلعون على اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يعارضونك به ويستغنون به عنك؟!

(٤٨) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي عليك بالصبر فلا بدَّ بـالغٌ من الله ما تـؤمل ولا بدَّ ناصرك ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي النبي يـونس عليه السـلام ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي ممتلئ غيظًا على قومه فلا تكن مثله.

(٤٩) ﴿لَّوْلَا أَن تَدَٰرَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي توفيقه للتوبة من غيظه وهو في بطن الحوت، والاستغفار من حنقه ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لألقي من بطن الحوت على أرض خالية من النبات وهو ملوم بالذنب.

(٥٠) ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُ﴾ أي اصطفاه لقوله وهو في بطن الحوت: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فرضي عنه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي كاملًا في الصلاح والعصمة.

(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي كادوا أن يغتالوك بأعينهم حسدًا وعداوة.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا تذكير للناس كافة.

آخر تفسير سورة القلم ولله الحمد والمنّة والفضل

(٦٩) سُورَةُ الحَاقَّةِ

مكية وآياتها ٥٢، نزلت بعد الملك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ هي القيامة؛ لأنَّ فيها يتحقق وعد الله ووعيده ثوابًا وعقابًا.

(٢) ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ استفهام معناه التفخيم لشأنها تهويلًا وتعظيمًا.

(٣) ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ أي لن تدركها إلا إذا عاينت أهوالها.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي جعل القارعـة التي هي اسـم من أسماء القيامة تقوم مقام ضمير الحاقة إعظامًا لهولها وفظاعتها؛ أي يقرع الله أعداءه بالعذاب فيها، هذه القارعة كذبت بها قبيلة ثمود وقبيلة عاد!!

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي صيحةٌ من السماء زلزلتهم زلزالًا مروِّعًا وأسكتتهم وأخمدت أنفاسهم!!! وهذه من طلائع أهوال القارعة التي كذبوا بها، وجحدوها معصيةً لله ولرسوله إليهم صالح عليه الصلاة والسلام.

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي وأهلكت عاد بريح شديدة، قوية، لهبوبها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف نقبت أفئدتهم.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ أي ظلَّت تعصف بهم على هذه الحال سبع ليال ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي كاملات متتابعات، وهي أيام شديدة البرد يسميها الناس إلى الآن (الأعجاز) في آخر الشتاء ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي يشبه حال القوم وقتئذٍ بحال النخلات الهالكة التي فنيت جذورها وخوت جذوعها وهوت إلى الأرض باليةً مهترئة. هكذا كان حال عاد التي عصت رسولها هودًا عليه السلام.

(٨) ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ أي هـل تحس منهم من أحد من بقاياهم؟ لا؛ فإنهم بادوا وانقرضوا ولهذا سموا بالعرب البائدة، ولعل العرب أهل مكة يمرُّون في أسفارهم إلى اليمن وإلى الشام وسائر الناس من بعدهم رأوا آثارهم وديارهم خالية خاوية لعلهم يتعظون.

ديار ثمود وعاد خالية إلى الآن، فهل من متعظ مذكر

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ
﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ
﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ
ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ
﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

٥٦٧

(٩) ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي وجاء فرعون بادعائه الألوهية وكذلك من قبله من الأمم الكافرة التي كفرت بالله تعالى. أما المؤتفكات فهي قرى قوم لوط عليه السلام الذين جاءوا بالأعمال الخاطئة من الكفر وإتيان الرجال شهوة دون النساء.

(١٠) ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي كل أمةٍ من الأمم المشار إليها عصت رسول ربها ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله جميعًا ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي بالغةً.

(١١) ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي يوم الطوفان في عهد نوح عليه السلام وطغى الماء فوق الجبال ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي حملناكم وأنتم بعد في ظهور آبائكم وأجدادكم، فالناس كلهم من سلالة نوح عليه السلام وذريته التي كانت محمولة معه في السفينة.

(١٢) ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي وأبقينا لكم من جنسها سفنًا تذكركم بسفينة نوح لما تركبون فيها ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ تسمع فتعي الذكرى.

(١٣) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي هي النفخة الأخيرة؛ لأن أمر الله لا يحتاج إلى تكرار وهي نفخة القيام لرب العالمين، فتدخل كل روح في جسدها فإذا الناس قيام.

(١٤) ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي رفعت من أماكنها وقلعت عن مقارِّها بالقدرة الإلهية وضربت ببعضها ضربة واحدة، فصارت كثيبًا مهيلًا وهباءً منبثًا.

(١٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي عندها تكون قد قامت القيامة.

(١٦) ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي تمور وتنشقُّ وتنزل منها الملائكة، وتكون عندها ضعيفة مسترخية.

(١٧) ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي على أطراف السماء مستكينين خاضعين لربهم ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، وفي الحديث: «أُذِن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، بُعْدُ ما بين شحمة أُذُنه وعنُقه مخفق الطير سبعمائة عام» [٨١٦]، ونقف في تحديد نوعية العرش عند ظاهر كلام الله.

(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي يعرض العباد على ربهم للمحاسبة ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا من ظواهركم ولا من خفاياكم، وفي الحديث: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان: فجدال ومعاذير. وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[1] [٨١٧].

(١٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ اي أعطيه بيمينه ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ﴾ أي هاكم ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي لعلمه بما فيه من حسنات.

(٢٠) ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي كنت متيقنًا في الدنيا ومؤمنًا بالقيامة والحساب والعقوبة والثواب.

(٢١) ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ لأنه عمل لها في الدنيا فأعطيها في الآخرة.

(٢٢) ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي رفيعة القصور فيها حسان الحور.

(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة ممن يتناولها.

(٢٤) ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال.

(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾.

(٢٦) ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾.

(٢٧) ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ يا ليتني كنت أموت موتة لا حياة بعدها لا أدري فيها ما الكتاب ولا الحساب.

(٢٨) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ أي لم يدفع عنِّي الحساب ولا العذاب.

(٢٩) ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ في الدنيا، ولا حجة لي في الآخرة.

(٣٠) ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي يأمر الله تعالى بابتداء عذابه بأن يقيِّدوه.

(٣١) ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي اشووه في نار جهنم فتغمره نارها.

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ أي تدخل في استه ثم تخرج من فيه؛ ثم ينظمون وأمثاله كما ينظم الجراد في العود حتى يشوى.

(٣٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يبين الله علة عذابه بأنه ما كان مؤمنًا بالله العظيم الذي خلقه، لا في ذاته ولا أسمائه ولا صفاته.

(٣٤) ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فما دام أنه لا يؤمن بالله فحريٌّ أن لا يطيع أوامره في واجب الإحسان إلى الفقراء والمساكين والمعوزين.

---

(١) إسناده ضعيف.

﴿٣٥﴾ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي إن هذا الذي أعطي كتابه بشماله ليس له ها هنا أي في النار صديق حميم يردُّ عنه عذاب النار.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي وليس له طعام في جهنم إلا من غسلين أي من الصديد الذي تسيل منه حروق المعذَّبين والعياذ بالله.

﴿٣٧﴾ ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أي المذنبون الذين أخطأوا الصراط المستقيم واتبعوا السبل التي أضلَّتهم عن سبيل الله القويم وهذا جزاؤهم.

﴿٣٨﴾ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أقسم بمخلوقاتي التي ترونها.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ وبمخلوقاتي التي لا تبصرونها كالملائكة والجنَّة والنار والجنَّة.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي إنه لتلاوة رسول كريم يتلوها من الوحي الذي أنزلته عليه، ليبلغكموه وتعملوا به وتحتكموا إليه.

﴿٤١﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ فما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ أي ولو آمنتم قليلًا لتأكدتم أنه ليس قول شاعر.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ أي وليس هذا القرآن قول كاهن ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لو تذكرتم لأدركتم أنه ليس بقول كاهن.

﴿٤٣﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فليس إذًا هو إلا من رب العالمين.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ كما يتهمه المشركون.

﴿٤٥﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي لأخذه الله باليمين، وكلتا يديه يمين.

﴿٤٦﴾ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ والوتين هو العرق المعلق بالقلب.

﴿٤٧﴾ ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ لا يستطيع أحد حجزه عنَّا[1].

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعرفون بها دينهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن مع وفرة بيانه الواضح.

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إذ يتمنَّون أن يكونوا به مؤمنين.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي ليس من يقين أحق منه من يقين

﴿٥٢﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي قل: سبحان ربي العظيم.

آخر تفسير سورة الحاقة ولله الحمد والمنّة والفضل

(٧٠) سُورَةُ الْمَعَارِجِ

مكية وآياتها ٤٤، نزلت بعد الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي استعجل سائل بعذاب مؤكد.

﴿٢﴾ ﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي يقع عليهم وقوعًا لا دافع له.

﴿٣﴾ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ لا يستطيع أحد أن يدفعه عنهم من الله ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي ذي العلوِّ والدرجات، وفيه دليل على علو ذات الله على خلقه علوًّا حقيقيًا بلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل.

---

(١) ولكنه ﷺ النبي الصادق البار الراشد، والرسول الأمين المؤتمن على وحي ربه، وتبليغه للناس كما نزل عليه ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ المؤيد من ربه بالآيات البينات والمعجزات الباهرات.

الجزء التاسع والعشرون | سورة الحاقة

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ
إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ
تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الْمَعَارِجِ (٧٠ – ٤٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ
اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ
﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

٥٦٨

﴿٤﴾ ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي جبريل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي ما يعادل ثمانية عشر مليونًا وربعًا من أيامنا.

﴿٥﴾ ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي فاصبر يا محمد صبرًا جميلًا على قومك لا جزع فيه ولا شكوى إلا إلى الله وحده.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي إن الكفار المشركين من قومك يستبعدون وقوع يوم القيامة، الذي سيكون فيه موعد عذابهم ويستحيل في نظرهم وقوعه ولكنه واقع بهم لا محالة.

﴿٧﴾ ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ أي إن الله تعالى يراه قريبًا لأنه حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وإنَّ كلَّ ما هو آتٍ فهو قريب.

﴿٨﴾ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ أي ذلك اليوم تكون فيه السماوات كالمهل أي متشققة مسترخية، ذلك اليوم موعد عذابهم.

﴿٩﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي تكون الجبال كالصوف المنفوش المصبوغ، فإذا بُسَّت وطُيِّرت في الهواء أشبهت العهن.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل قريب قريبًا عن حاله ولا صديق صديقًا عن مآله، بل كل إنسان يسأل عن نفسه وتشغله حاله التي هو فيها عن حال غيره، ويفرُّ بعضهم من بعض، وكلهم يعلم ما بأخيه من الضنك والشدَّة.

ذو المعارج هو الله تعالى، وفيه دليل على علو ذاته على خلقه حقيقة بلا كيف

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟
مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا
﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا
ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ
أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ
﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ
﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ
أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

٥٦٩

(١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يبصر الواحدُ الآخرَ منهما ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي يفتدي نفسه ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ذلك اليوم العصيب ﴿بِبَنِيهِ﴾ !!

(١٢) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ أي يود ذلك الكافر وقتئذٍ لا أن يسعف حميمه بل لينقذ نفسه فقط ولو بأبنائه وزوجته وأخيه وأحبِّ الخلق إليه.

(١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي وبعشيرته الأقربين الذين عند الشدائد يأوي إليهم، هؤلاء أيضًا يودُّ لو يفتدي نفسه بهم من الهول!

(١٤) ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي وحتى لو أمكنه أن يفتدي نفسه بجميع أهل الأرض ثم ينجيه الافتداء مما يعانيه لَفعَلَ، ولكن!!؟

(١٥) ﴿كَلَّآ﴾ أي لا لا لن يقبل منهم فداء ولا أي فداء، بل ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي إنها النار تأكل بعضها بعضًا وتنتظر الذين كفروا بربهم.

(١٦) ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ والشوى جمع شواة، وهي جلدة الرأس فتنزعها وما دون العظم من اللحم ومكارم الوجه وتبري اللحم والجلد والعظم. اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك.

(١٧) ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الله ورسله وأعرض عن الحق الذي دعوه إليه، وتولى عاملًا لجهنم كلَّ ما بوسعه، إن هذه النار تدعوهم، وتلتقطهم من بين الناس كما يلتقط الطير الحبَّ.

(١٨) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي جمع المال من كلِّ حدب وصوب، ومنع حق الله منه في الزكاة، وما حق الله إلا حق عياله الفقراء والمساكين، وفي الحديث: «... لا توعي فيوعيَ الله عليكِ» [٨١٨]، أي يغلق عليك.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي مفطورًا على الخوف والرعب.

(٢٠) ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وهذا تفسير ما قبلها أي إذا أصابه شرٌّ مُلئَ قلبُه رعبًا مما يخاف من الشر وآيس من الخير.

(٢١) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ أي جاءه المال صار ﴿مَنُوعًا﴾ أي بخل به ومنعه مستحقِّيه وفي الحديث: «شر ما في رجل شحٌّ هالعٌ وجبنٌ خالعٌ» [٨١٩]، ثم قال تعالى:

(٢٢) ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي الذين يؤدون حق الله في الصلاة.

(٢٣) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي لا تفوتهم ولا صلاة يحافظون على أوقاتها وعلى أركانها والطمأنينة فيها.

(٢٤) ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي نصيب مقرَّر معلوم.

(٢٥) ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ السائل هو الذي يبتدئ بالسؤال، وفي الحديث: «للسائل حق ولو جاء على فرس»[(١)] [٨٢٠]. والمحروم: هو الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس.

(٢٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ويعملون ما يرضي ربهم فيه.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفون وجلون.

(٢٨) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لا يأمنه إلا الطائعون.

(٢٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ أي يكفُّونها عن الحرام.

(٣٠) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي باستثناء أزواجهم وإمائهم فإنه لا لوم عليهم بذلك.

(٣١) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي وراء ما أحلَّ الله له ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي على ما حرم الله.

(٣٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي يوفون بالعهد والوعد.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي يشهدون بالحق ولو على أنفسهم وآبائهم.

(٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي على أوقاتها وأركانها وشروطها.

(٣٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي بكل أنواع المكارم الربانية، ومستثنون من العذاب الموصوف آنفًا.

(٣٦) ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي نافرين!!!؟

(٣٧) ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي معرضين نافرين عنك يمنة ويسرة متفرقين حلقًا حلقًا، يقولون: ما قال هذا الرجل؟

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي وهم على حالهم من الشرك والكفر والتفرق عن سماع كلمة الحق، أيطمعون بعدها بالجنة!!!؟

(٣٩) ﴿كَلَّآ﴾ أي لا لا، بل مأواهم جهنم ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من ماءٍ مهين مستقذر حتى إذا سوَّيناهم منه بشرًا إذا هم يستكبرون ويكفرون!!!؟

(١) إسناده ضعيف.

خلق الله الإنسان من ماء مستقذر حتى إذا سوَّاه بشرًا... كفر به واستكبر!!!

فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ (٤١) فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ (٤٤)

سُورَةُ نُوحٍ — ترتيبها ٧١ — آياتها ٢٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١) قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا (٥) فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا (٩) فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا (١٠)

(٤٠) ﴿فَلَآ﴾ أي نفى جلَّ وعلا مزاعم المشركين القائلة: بأن لا بعث ولا نشور نفيًا قاطعًا ثم أقسم، وهكذا شأن كل قسم في القرآن مسبوق (بلا)، لا كما يقول بعض المفسرين بأن ﴿لَآ﴾ زائدة!!! وكثيرًا ما قالوا ذلك، في بعض الأحرف في القرآن، مع العلم أن القرآن كامل ليس فيه زائد ولا ناقص، ولا تأويل ولا تعطيل، إنما هو كلام الله تعالى الكامل التام ويكفي بأن السلف الصالح رضي الله عنهم لم يتكلموا مثل هذا الكلام، وهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم رضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم، وهكذا، فقد أقسم الله تعالى بعد ما نفى مزاعم المشركين فقال: ﴿أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ وهو الله تعالى وتقدس وهو ربُّ مشارق النجوم والكواكب ومغاربها وخالقها جميعًا ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ وهو جلَّ وعزَّ وتعالى القادر المقتدر وهو على كل شيء قدير.

(٤١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي نخلق أمثل منهم وأطوع ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي بعاجزين ولا يفوتنا أمرٌ إذا أردناه.

(٤٢) ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ أي دعهم يا محمد في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وإنه قريب.

(٤٣) ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ أي من قبورهم ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسرعون إلى أنصابهم في الدنيا.

(٤٤) ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أي خاضعة ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ أي في مقابلة استكبارهم عن الطاعة ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المعارج ولله الحمد والمنّة والفضل

(٧١) سُورَةُ نُوحٍ

مكية وآياتها ٢٨، نزلت بعد النحل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ يخبر الله تعالى أنه اصطفى عبده نوحًا رسولًا إلى قومه يدعوهم إلى توحيده وينذرهم أن يؤمنوا ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي موجع.

(٢) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي صدع بأمر ربه ثم قام يدعو قومه إلى الله تعالى أن يعبدوه وحده ويتقوه قبل أن ينزل بهم الطوفان في الدنيا ويُرَدُّون إلى عذاب الحريق في الآخرة.

(٣) ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي أطيعوني فيما آمركم به عن الله ربي وربكم، فإن أنتم أجبتموني.

(٤) ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي معه كلها ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ﴾ أي ويؤخر عذابكم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ أي إلى منتهى أعماركم ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ﴾ أي حان ﴿لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون شيئًا من العلم لسارعتم إلى الأخذ بما أمرتكم به.

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ أي يا رب أمرتني أن أدعو قومي إليك فدعوتهم إلى الإيمان بك وتوحيدك وإفرادك بالعبادة، ولم أترك جهدًا لي في ليل أو نهار إلا وبذلته في دعوتهم.

(٦) ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾ إلا بعدًا عن الحق ونفورًا منه، وكم نوَّعت لهم طرق وأساليب الدعوة ترغيبًا وترهيبًا فلم يُجْدِهِم شيئًا.

(٧) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ كرهًا لسماع الحق ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ﴾ على عنادهم ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾ أي كنت لا أترك مجتمعًا لهم إلا وأسرعت لدعوتهم فيه إليك وأعلمتهم أنك وحدك المستحق للعبادة.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ ولما رأيت الدعوة علانية لم تنفع فيهم أسررتُ لكل رجل على حدة وانفردت به عسى أن يقتنع.

(١٠) ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ مما أشركتم به وأفردوه وحده في جميع أنواع العبادة، يغفر لكم ما تقدم من ذنوبكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ للذنوب.

كل حرف (لا) في القرآن يسبق قسمًا فهو لنفي مزاعم المشركين ثم يأتي القسم بعده

يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل
لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾
وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ
طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾
وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ
إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا
سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ
مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ
لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴿٢٤﴾
مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا
كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ
مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾

(١١) ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي يرسل ماء السماء عليكم وعلى أراضيكم إرسالًا مدرارًا، وفيه دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر.

(١٢) ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ أي ويرسل لكم مددًا من الرزق فتكثر أموالكم ومددًا آخر بأن يقدِّر في أولادكم البنين فتكثر فيكم العشيرة والولد ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ أي من كثرة ما يرحمكم بالأمطار تربوا بساتينكم ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ أي تكثر وتفيض من كثرة المطر.

(١٣) ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ أي مـالكم لا تخافون الله ولا تعظمونه بإفراده بالعبادة وتتركون هذه الأصنام فهل ترزقكم الأصنام كما يرزقكم؟

(١٤) ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي هو الذي شملتكم رحمته وأنتم أجنة، فنقلكم في بطون أمهاتكم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى تمام الخلق تحت رحمته.

(١٥) ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ أي طبقة فوق طبقة، وهذا يدل على قدرته العظيمة وأحقيته للتعظيم والعبادة دون الأصنام.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ أي منورًا لوجه الأرض ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ أي كالمصباح ليبصروا معايشهم ويؤمِّنوها لهم.

(١٧) ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ أي خلق أباكم من أديم الأرض ثم أنشأكم بتقدير منه فإن أساسكم من الأرض وكأنه أنبتكم منها نباتًا، ثم تعهَّدكم بالتربية والرعاية طورًا فطورًا.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ أي عندما تموتون تدفنون فيها ثم تعودون إلى ما كنتم عليه ترابًا ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ أي ثم تبعثون من أجداثكم إلى يوم القيامة؛ فإما إلى جنة وإما إلى نار.

(١٩) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ أي جعلها لكم كأنها بساط ممهدة تمهيدًا وأثقلها بالجبال لئلا تميد بكم.

(٢٠) ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ أي لتستقرُّوا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم طرقًا واسعة عريضة. كل هذا كلام نوح عليه الصلاة والسلام يذكر نعم الله عليهم التي لا تعدُّ ولا تحصى ليلفت أنظارهم إلى أن هذا الإله العظيم الموصوف بهذه الأوصاف الكاملة أحقُّ أن يعبدوه من تلك الحجارة الصماء البكماء التي لا تأتي لهم بخير ولا تغنيهم من الله شيئًا.

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ أي فيما أمرتهم به ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ أي تركوا طاعتي فيما آمرهم به إلى طاعة وأمر أغنيائهم وكبرائهم الذين لم يزدهم غناهم ولا أولادهم إلا خسرانًا وضلالًا في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

(٢٢) ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ أي مكرًا عظيمًا لأنهم سوَّلوا لهم أنهم على الحق والهدى، وأن نوحًا على الباطل ونحن معكم عليه.

(٢٣) ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي لا تتركوا عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ أي كان هؤلاء رجالًا صالحين فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، ونسخ العلم عُبدَت [٨٢١]، وهذا خطر صناعة التماثيل والصور.

(٢٤) ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ يعني الأصنـام التي اتخذوها ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ وهذا دعاء منه على قومه لتمردهم وبقائهم على الكفر.

(٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ أي بسبب كفـرهم وإصرارهم على الشرك أغرقوا في الدنيا ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ في الآخرة ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾.

(٢٦) ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ فاستجاب الله دعاءه فأهلك جميع من على الأرض حتى ولد نوح الذي كان كافرًا مثلهم.

(٢٧) ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ﴾ أي إن تتـركهم أحيـاءً ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ عـن عبادتك ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ أي ولا ينسل منهم إلا مثلهم.

(٢٨) ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ وفي الحديث: «لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي» [٨٢٢]، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ أي هلاكًا ودمارًا.

آخر تفسير سورة نوح عليه السلام ولله الحمد والمنّة والفضل وعليه التكلان

التماثيل والصور أسباب الشرك الذي دخل على الناس، فيا ليتنا نرعوي!!

(٧٢) سُورَةُ الجِنّ

مكية وآياتها ٢٨، نزلت بعد الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي قل يا محمد لقومك: أوحي إليَّ بأنَّ نفرًا من الجن استمعوا إلى هذا القرآن وأنا أتلوه ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي بليغًا يعجب منه لبلاغته، وكان أول استماع الجن إليه ﷺ دون أن يعلم، كان من قبل جن نصيبين وذلك في صلاته الصبح بأصحابه ببطن نخلة عامدًا سوق عكاظ، فاستمعوا إلى القرآن ثم ولوا عنه إلى قومهم منذرين إياهم أن يؤمنوا بالله وبالقرآن وبمن نزل عليه ويحذرونهم مخالفة ذلك. ثم أوحى الله إلى رسوله ﷺ يخبره بها بقوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ ...﴾ وقد نجح وفد الجن الأول تهديدًا وترغيبًا بقومهم حتى تقاطروا وفودًا وفودًا إلى رسول الله ﷺ وبايعوه على الإيمان بالله. ومن شاء الاستزادة فليراجع الآية ٢٩-٣٢ من سورة الأحقاف[1].

(٢) ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي لن نشرك بعد اليوم بربنا أحدًا، وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنت الجن بسماع آيات يسيرة من القرآن، ولم ينتفع كفار العرب بسماعه مرات عديدة.

(٣) ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ ومعنى جدّ الله: آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي تنزه وتعالى وتقدس عن أن يكون له زوجة أو يكون له ولد.

(٤) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي إبليس لعنه الله ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي غلوًا وكفرًا، وجورًا وكذبًا وافتراءً.

(٥) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي ما خطر ببالنا أن الإنس والجن تكذب على الله بأن له زوجة وولدًا حتى سمعنا هذا القرآن يثبت كذبهم على الله تعالى.

(٦) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي يلتجئون من دون الله بسيد هذا الحي من الجن إذا مرُّوا بواديه ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي زاد الجن من التجأ إليهم خوفًا وفرقًا.

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أي يا أيها الناس ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي لن يبعث الله أحدًا من قبره، أي لا بعث ولا نشور.

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي أتيناها ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي حرسًا من الملائكة تحول دون استراقنا السمع وشهبًا يرجم بها من يقترب من مقاعد السمع.

---

(١) من هذا التفسير، والمجلد الرابع من كتابنا «تيسير العلي القدير» سورة الأحقاف الآيات (٢٠-٣٢) ترى الأحاديث الواردة وخلاصتنا عليها.

سُورَةُ الجِنّ — ترتيبها ٧٢ — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ
وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ
اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ
آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

(٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ ليسترق أحدنا الأخبار من السماء ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ﴾ أي بعد بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي أُرصد له ليُرمى به، فيحترق.

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس بسبب هذه الحراسة للسماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي أراد بهم صلاحًا وخيرًا

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ أي من الجن مؤمنون ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي مشركون أو مبتدعون ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي فرقًا مختلفة وأصحاب أهواء متفرقة، وويل للأمة التي تتفرق وتتحزب لغير الحق الذي يجب أن تجتمع عليه، وهكذا المسلمون اليوم تتقاذفهم الأهواء.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي علمنا وتيقنًا أن لن نعجز الله أينـ كنَّا ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي أين المفر؟ لا نهرب من ملكه إلا إلى ملكه.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ أي القرآن ممن نزل عليه ﷺ ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي صدقناه ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي لا نقصًا ولا ظلمًا.

أرسل إبليس سبعة من الجن ليكشفوا له خبر إغلاق السماء فرجعوا مؤمنين بمحمد ﷺ

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ
بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى
لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ
مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ
يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟
رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

٥٧٣

إن العبادة لله وحده فلا تدعوا معه غيره • الله يحفظ رسله بملائكته ليؤدوا رسالاته •

(١٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي الجائرون الذين حادوا عن الحق. يقال: قسط إذا جار وأقسط إذا عدل. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي إن من اختار الإسلام دينًا عن علم ومعرفة فقد توخَّوْا لأنفسهم الرشاد والنجاة والفلاح.

(١٥) ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي الكافرون الذين ظلموا أنفسهم ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقودًا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس. إلى هنا ينتهي كلام الجن.

(١٦) ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والمعنى المقدَّر: وأوحي إليَّ: لو استقام الجن والإنس على طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي ماءً كثيرًا من السماء، بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين، والمعنى: لو آمنوا جميعًا لوسَّعنا عليهم في الدنيا

(١٧) ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم -ونحن أعلم بهم- من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي عن اتباع ما في القرآن من أحكام وأوامر، فينساها ويسلك طريقًا غيرها ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي عذابًا يتصاعد ويتضاعف أبدًا.

(١٨) ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي وأوحي إليَّ أن المساجد مختصة بالله في جميع بقاع الأرض، وفي الحديث: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام» [٨٢٣]، فلا تدعوا مع الله أحدًا كائنًا من كان، وفي الحديث أيضًا: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» [٨٢٤]، وفيه دليل على أن الدعاء كله لله، فلا يجوز لأحد أن يدعو غير الله لأنه عبادة، والعبادة لا تصرف إلا لمستحقها وهو الله تعالى.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي لما قام محمد عبد الله ورسوله بالدعوة إلى الله تعالى تلبَّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه، وهذا هو الأظهر.

(٢٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي لما آذوه ﷺ وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليثنوه عما يدعو إليه قال: إنما أدعو ربي أي أعبده وحده ولا أعبد معه أحدًا.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ إنما أنا مبلغ فحسب، وليس لديَّ ما أضركم به ولا أنفعكم به، وليس لي من الأمر شيء.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ لو عصيته ولا ينقذني ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي نصيرًا ولا موئلًا ولا عاصمًا.

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي لا أملك إلا إبلاغي الرسالة التي بعثني بها رسولًا للناس كافة ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ومن لم يتبع التوحيد الذي أمرت أن آمركم به ويعص ما أنزل الله في قرآنه ويمت على ذلك فإنه يدخل جهنم ولا يخرج منها أبدًا جزاء كفره وشركه وتمرُّده.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ به من النار المؤبدة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي هم أضعف ناصرًا أم المؤمنون الموحِّدون الذين عبدوه وحده ونصروا رسوله الكريم.

(٢٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ به من العذاب الخالد ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي مدة طويلة الأجل!!!

(٢٦) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو الله تعالى وتقدس ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ لأن الغيب محفوظ لديه في كتاب، وليس لأحد أن يظهر على غيبه.

(٢٧) ﴿إِلَّا﴾ أي إلا باستثناء ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فيطلعه على ما يشاء تأييدًا له ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي يخصه بمزيد المعقبات من الملائكة يحفظونه من الشياطين لما أظهر عليه من الغيب أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرسًا كي لا يلقى إلى الكهنة.

(٢٨) ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ رسول الله ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي الرسل قبله ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كما بلَّغها هو ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي بما لدى رسله من الوحي ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

آخر تفسير سورة الجن ولله الحمد والمنّة والفضل
وبه العصمة، وعليه التكلان

(٧٣) سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مكية إلا الآيات ١٠، ١١، ٢٠ فمدنية، وآياتها ٢٠،
نزلت بعد القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي يا أيها المتلفِّف بثيابه للنوم. وهذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يحمله إليه جبريل عليه الصلاة والسلام.

(٢) ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قم فصل الليل إلا قليلًا منه، وهذا من قبل أن يكتب الله تعالى على عباده الصلوات الخمس، فامتثل النبي الأمر.

(٣) ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ أي قم نصف الليل ﴿أَوِ﴾ شئت ﴿ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ أي إن شئت أقل من النصف بشيء قليل. فإنك مختار بين الكل أو النصف، أو أقل من النصف كما تحب، وبحسب ما تنشط إليه.

(٤) ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أو شئت زد الصلاة على نصف الليل، ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ ولكن على كل الأحوال تمهَّل في قراءتك، وكان الرسول ﷺ يصلي الليل ومعه طائفة من المؤمنين، وكانت صلاة الليل وقتئذٍ فريضةً، وكانوا يصلون حتى تنفخت أقدامهم طيلة عام ثم خفف الله عنهم ونسخ فرضيتها.

(٥) ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي شديد الوطأة، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته، وضعت جرانها -أي رقبتها- فما تستطيع أن تحرك حتى يُسَرَّى عنه. وقالت: -أي عائشة- ﴿سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1] [٨٢٥].

(٦) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ساعاته، ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي هي أشد موافقة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي فراغًا للنوم والحاجات.

(٨) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي كن دائم الذكر لله تعالى وادْعُهُ بأسمائه الحسنى ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي وإذا فرغت من عملك فانقطع لعبادته، لتكون فارغ البال في طاعته.

(٩) ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي ربُّ نجوم المشرق والمغرب وخالق إشراقها وغروبها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي فمن كان رب المشرق المغرب فلا يستحق أن يكون معبودًا لهذه المخلوقات إلا هو ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي فتوكل عليه.

(١٠) ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقوله قومك من تكذيبك ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي لا تتعرضهم بسوء ولا تجزع منهم.

(١١) ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي اترك هؤلاء المترفين المتجبِّرين لي ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي سأستدرجهم ثم أنتقم منهم انتقامًا.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي قيودًا لا تحلُّ ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي نارًا لا تنطفئ.

---

(١) ضعيف. وثبت عن عائشة رضي الله عنها قولها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقًا» رواه البخاري.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا
﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا
ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى
ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾
رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ
أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾
إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي هو الزقوم ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لا يطاق ولا يدرك مداه ولا يقادر قدره.

(١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي ذلك يوم القيامة ترجف الأرض وتتزلزل الجبال ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي كالرمال المنهالة.

(١٥) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بأعمالكم، والخطاب لكفار العرب ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يدله على الحق كما دلكم محمد على الحق والهدى.

(١٦) ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي موسى عليه السلام كما عصيتم أنتم محمدًا ﷺ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ أي أخذنا فرعون ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ وسنأخذكم مثله.

(١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ بمحمد ﷺ ﴿يَوْمًا﴾ أي يوم القيامة من كثرة أهواله وزلازله ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ فكيف تأمنون شر ذلك اليوم.

(١٨) ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي السماوات السبع تتشقق يومئذٍ من عظيم الهول والرهب فكيف أنتم ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي إن وعد الله بوقوعه لا محالة واقع.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن هذه السورة تذكرة لأولي العقول المستنيرة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي شقوا إلى الله طريقًا سويًا.

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ المُدَّثِّر (٧٤) — آياتها ٥٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

٥٧٥

(٢٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن الله لا يخفى عليه ما تقوم من صلاة الليل تارة تقوم ثلثي الليل وتارة أدنى منه وطورًا نصفه وطورًا آخر ثلثه أنت وجماعة من أصحابك ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي طولًا وقصرًا واعتدالًا ﴿عَلِمَ﴾ الله ﴿أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تحصوا الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فعفا عن عدم طاقتكم ذلك ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرآنًا؛ كقوله ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي صلاة الفجر، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي بقراءتك ﴿عَلِمَ﴾ الله ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي منحرفي الصحة ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مسافرون ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يجاهدون الأعداء في سبيل الله ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي فصلُّوا قيام الليل ما تيسَّر لكم منه، وقد لا يتيسر لهم القيام من التعب والجهد فرفع عنهم، وعن جميع الأمة فرضيته ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أمروا بإقامتها إقامة صحيحة على أنفسكم وعلى من تعولون ﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كذلك آتوها أنتم وأمروا بها من تعولون ﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في سبيل الله في سائر طرق الخير ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يضيع، فإنَّ كل خير تنفقونه لوجه الله تعالى تجدونه يوم القيامة ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي مما تؤخرونه بعد الموت ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ أي اطلبوا مغفرته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن يطلب مغفرته ورحمته لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

آخر تفسير سورة المزمل ولله الحمد والمنّة والفضل

(٧٤) سُورَةُ المُدَّثِّر

مكية وآياتها ٥٦، نزلت بعد المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أي يا أيها المتدثر بثيابه وقطيفته.

(٢) ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي خوِّف أهل مكة من النار إذا لم يؤمنوا.

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي هو أكبر من أن يكون له شريك أو ندٌّ.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهر قلبك من الأدران والثياب من النجاسة.

(٥) ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي داوم على هجر الأوثان والمآثم.

(٦) ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربِّك تعالى.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ الناقور هو الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل، وفي الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ...» [٨٢٦]، أي يكاد يوم القيامة أن يحين.

(٩) ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي شديد وعسير على من كانوا يكفرون به.

(١٠) ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيد لعسره عليهم وأنه لن يكون يسيرًا عليهم.

(١١) ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وهو الوليد بن المغيرة المخزومي أي خلقته منفردًا لا مال له ولا أهل ولا ولد.

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي كثيرًا.

(١٣) ﴿وَبَنِينَ﴾ أي ذكورًا ﴿شُهُودًا﴾ أي حاضرين عنده.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي بسطت له العيش وطول العمر والرياسة.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي أزيد له بنيه وماله لكثرة حرصه.

(١٦) ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي معاندًا وهو الكفر بعد العلم بما نزل من الحق على محمد ﷺ فلن أعطيه ما يسرّه.

(١٧) ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه مشقة من العذاب وسيكلف أن يصعد جبلًا من النار، وفي الحديث: «ويل: وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره. الصعود: جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفًا ثم يهوي به كذلك فيه أبدًا»[1] [٨٢٧].

(١) إسناده ضعيف.

(١٨) ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي فكَّر في شأن النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، ولما سمعه قال لقريش: فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا جنون فقالت قريش: والله لئن صبأ الوليد، لتصبو قريش، فذهب إليه أبو جهل وقال: يتحدث أنك إنما دخلت بيت أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فوالله لا أقرب ابن أبي قحــافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله:

(١٩) ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ !! [٨٢٨]

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي بعـد أن فكَّر وقدَّر أنَّ القــرآن ليس بشعر ولا بسحر ولا جنون؛ ارتدَّ وقال: إنه سحر يؤثر فقاتله الله كيف يقرر النقيضين!؟

(٢١) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي بأي شيء يدفع القرآن ويقدح فيه بعد أن مدحه.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي قبض بين عينيه وقطّب.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي صُرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبرًا عن الانقياد للقرآن، وهذا تصوير دقيق ووصف واقعي لحاله التي كان يتقلب فيها من موقف إلى موقف إلى أن استقرَّ رأيه بعد فكر وتقدير ونظر واستكبار.

(٢٤) ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي وما هذا الكلام الذي يتلوه محمد زاعمًا أنه من عند ربِّه ما هو إلا سحر منقول عن غيره من أساطير الأولين، وليس هذا كما يزعم محمد أنه من ربه.

(٢٥) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي ليس بكلام من الله.

(٢٦) ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأغمره في نار الجحيم.

(٢٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ أي وما أعلمك ما هي سقر؟ وهذا تهويل لأمرها ثم فسر حالها بقوله:

(٢٨) ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي لهم لحمًا، ولا تذر عظمًا.

(٢٩) ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي مغيّرة ومسوّدة للجلد تدعه أسود كالليل.

(٣٠) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملكًا من الزبانية عظيم خَلْقهم غليظ خُلُقهم.

(٣١) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي زبــانيتها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يتقالونهم!!! ويظنون أن قوتهم تفوق قوة الزبانية التسعة عشر ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بأن محمدًا حقٌّ ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ به ﴿إِيمَٰنًا﴾ إلى إيمانهم ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ كتبهم الثلاثة متوافقة على عدة الزبانية ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي ما الحكمة من ذكر عدد الزبانية هنا؟ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وله الحكمة البالغة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لئلا يتوهم أنهم تسعـة عشر فقط ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما النار وما ذكر من عدد زبانيتها إلا تذكرة وموعظة للعالم أجمع.

(٣٢) ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ أي ردٌّ لزعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده من الأقسام.

(٣٣) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ثم أقسم بالليل إذا تولى ذاهبًا وطلع الفجر.

إنه فكر وقدر ﴿١٨﴾ فقتل كيف قدر ﴿١٩﴾ ثم قتل كيف قدر ﴿٢٠﴾ ثم نظر
﴿٢١﴾ ثم عبس وبسر ﴿٢٢﴾ ثم أدبر واستكبر ﴿٢٣﴾ فقال إن هذا إلا سحر
يؤثر ﴿٢٤﴾ إن هذا إلا قول البشر ﴿٢٥﴾ سأصليه سقر ﴿٢٦﴾ وما أدراك
ما سقر ﴿٢٧﴾ لا تبقي ولا تذر ﴿٢٨﴾ لواحة للبشر ﴿٢٩﴾ عليها تسعة عشر
﴿٣٠﴾ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة
للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا
ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض
والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي
من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ﴿٣١﴾ كلا
والقمر ﴿٣٢﴾ والليل إذ أدبر ﴿٣٣﴾ والصبح إذا أسفر ﴿٣٤﴾ إنها لإحدى
الكبر ﴿٣٥﴾ نذيرا للبشر ﴿٣٦﴾ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴿٣٧﴾ كل
نفس بما كسبت رهينة ﴿٣٨﴾ إلا أصحاب اليمين ﴿٣٩﴾ في جنات يتساءلون
﴿٤٠﴾ عن المجرمين ﴿٤١﴾ ما سلككم في سقر ﴿٤٢﴾ قالوا لم نك من
المصلين ﴿٤٣﴾ ولم نك نطعم المسكين ﴿٤٤﴾ وكنا نخوض مع
الخائضين ﴿٤٥﴾ وكنا نكذب بيوم الدين ﴿٤٦﴾ حتى أتانا اليقين ﴿٤٧﴾

٥٧٦

(٣٤) ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي أضاء وتبين وأشرق.

(٣٥) ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ وهذا جواب القسم أي إن النار لهي إحدى الدواهي والبلايا الكبيرة.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ ويدخل الجنُّ بهذه النذارة لأنهم مكلفون.

(٣٧) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ للطاعة ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنها إلى المعصية.

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي مأخوذة بعملها.

(٣٩) ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنهم غير مرتهنين بل تفكُّهم أعمالهم الصالحة.

(٤٠) ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضًا.

(٤١) ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وعن مصيرهم فرأوهم في دركات النار.

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ أي ما أوصلكم إلى جهنم.

(٤٣) ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي لم نكن من المؤمنين الذين كانوا يصلُّون في الدنيا.

(٤٤) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي ولم نصرف زكاة أموالنا على المساكين، وفيه دليل على أن الكافرين سيحاسبون أيضًا على التكاليف الشرعية.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي كنا نفعل مثلهم.

(٤٦) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي بالبعث والنشور.

(٤٧) ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي الموت ولم نتب[1].

(١) اليقين: هو الموت كما في حديث النبي ﷺ لا كما يزعم أهل وحدة الوجود بأن اليقين هو جلاء الحقيقة للإنسان بأن يعلم أنه هو الله فتسقط عنه التكاليف والعياذ بالله.

كاد أن يؤمن الوليد بن المغيرة لولا أن ردّه أبو جهل لعنهما الله

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ
كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ ٱلْقِيَٰمَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ
ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ
يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ
﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ
أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ
يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ
مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ
وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

(٤٨) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي لا تنفع الشفاعة لمثل هؤلاء الواردة أوصافهم على هذا النمط فهؤلاء لا شكَّ أنهم في جهنم خالدون.

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي أيُّ شيء يجعلهم عن التذكرة بالقرآن معرضين بعد أن قامت الحجة عليهم ولا شيء يمنعهم من الإقبال عليها.

(٥٠) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي شبه إعراضهم عن الاتعاظ والادِّكار كأنهم الحمير التي من طبعها النفور، وإن الحمر الوحشية أشدها نفورًا وشرودًا.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ أي وخاصة إذا هذه الحمر الوحشية رأت أسدًا يريد صيدها فيكون نفورها مضاعفًا وهكذا نفور المشركين من الموعظة.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ كأن تذكرة القرآن لا تكفيهم بل يريد كل منهم أن يرى تحت رأسه صحفًا تأمره باتباع محمد والقرآن.

(٥٣) ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي كــلا إنها لن تنزل عليهم، ولكنهم لو خافوا الآخرة وعذابها لما طلبوا مثل هذه الطلبات والاقتراحات.

(٥٤) ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي كلا ليس الأمر كما يريدون فإن القرآن تذكير وموعظة يتذكَّر به، ويتَّعظ بمواعظه.

(٥٥) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمـن أراد أن يكـتـفي بموعظته وما فيه من الأوامر والنواهي كفته وما عليه إلا أن يستغني بها.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما يتعظون به إلا أن يقدر الله لهم الهدى ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وفي الحديث: «... قال ربكم: أنا أهل أن أُتـقَّى فلا يجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهًا كان أهلًا أن أغفر له»[1] [٨٢٩].

آخر تفسير سورة المدثر ولله الحمد والمنّة والفضل

(٧٥) سُورَةُ ٱلْقِيَٰمَةِ

مكية وآياتها ٤٠، نزلت بعد القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ليس الأمـر كما ظننتم أن لا بـعث ولا نشور، بل أقسم بيوم القيامة أن بعثكم من القبور واقع لا محالة ولا بد.

(٢) ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي (لا) كما ذكرنا آنفًا، والنفس اللوامة هي التي توبخ صاحبها المؤمن على ما يفرط به من الذنوب وتأمره بالتوبة.

(٣) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، لأجمعنّ العظام وأبعثها كما كانت.

(٤) ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي بلى نجمعها ونحن قادرون عليها.

(٥) ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي يريد الكافر أن يبقى مذنبًا مدى عمره.

(٦) ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي سؤال إنكار وسخرية واستبعاد.

(٧) ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي إذا فزع ودهش بصره من الرُّعب والهول.

(٨) ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوؤه ولا يعود كما في الدنيا.

(٩) ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي كُوِّرا وانطفأ ضوؤهما كليًا.

(١٠) ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي هل من ملجإ أو موئل.

(١١) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي لا ملجأ ولا معتصم ولا مفرَّ من الله إلا إليه.

(١٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي هو المرجع والمصير يومئذ.

(١٣) ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي ينبؤ بجميع أعماله خيرًا كانت أو شرًا.

(١٤) ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي هو عالم بما عملت.

(١٥) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي ولو جادل عن نفسه واعتذر، فهو بصير بها وبما عملت، واعتذاره هذا لا يقدم ولا يؤخر من عقابه.

(١٦) ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لا تردد يا محمد من القرآن ما يقرأه عليك جبريل حرصًا على ألا يفوتك خشية أن تنساه.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي إن جمعه في صدرك بعد تلاوته عليك، هذا علينا، ومعنى قرآنه: أي علينا إثبات قراءته في لسانك.

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي إذا تلاه الملك عن الله ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فاستمع له أولًا ثم اقرأه عليه للتثبيت والحفظ.

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي بعد أن تستمع ثم تقرأه على جبريل؛ فإن علينا أن نبينه لك ونفصله حتى يعينك هذا على اتباعه.

---

(١) إسناده ضعيف.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ
ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الإِنسَان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾
إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٥٧٨

(٢٠) ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي تحبون الدنيا التي حالت بينكم وبين الإيمان بالآخرة.

(٢١) ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي وتذرون الإيمان بها والعمل لأجلها.

(٢٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي وجوه المؤمنين يومئذٍ مشرقة مسرورة.

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى وجهه تعالى كما في الحديث: «إنكم سترون ربكم عيانًا» [٨٣٠].

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي ووجوه الكافرين يومئذٍ كالحة عابسة.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي توقن أن تكسّر فقار الظهر وترمى في قرار الجحيم.

(٢٦) ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أي إذا انتزعت الروح وبلغت الترقوة.

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي هل من يرقي علة الموت أو طبيب يعين عليه!!

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي وتحقق أنه ميت لا محالة طالما بلغت التراقي.

(٢٩) ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي هما ساقاه إذا التفتا في الكفن.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي إلى الله سيكون السوق والمصير والإياب.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي ما آمن بالله ورسوله ولا صلى لله تعالى.

(٣٢) ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكنه كذب بالحق وأعرض عنه.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ أي يتبختر خيلاء ويتثاقل عن الحق.

(٣٤) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي أولاك الله ما تكرهه، وفيه تهديد شديد.

(٣٥) ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي قال رسول الله هذا لأبي جهل.

(٣٦) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب ولا يحشر ولا يبعث ولا ينشر؛ كلا.

(٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي قطرة من مني يصب في الرحم.

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي فصار علقة ثم مضغةً ثم شكل ونفخ فيه الروح فعدله وكمل نشأته فصار خلقًا سويًا.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي النوعين أي جعل منه ذكرًا وجعل أنثى أي الرجل والمرأة.

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ أليس هذا الرب الجليل ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الذي خلق الموجودات من عدم ألا يستطيع أن يعيدهم من وجود؟ بلى يا رب أنت القادر وحدك لا شريك لك.

آخر تفسير سورة القيامة ولله الحمد والشكر

(٧٦) سُورَةُ الإِنسَان

مدنية وآياتها ٣١، نزلت بعد الرحمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ هل معناها هنا قد، والمعنى: قد أتى على الإنسان وهو آدم عليه السلام مدة من الزمن قبل نفخ الروح فيه كان جسدًا مصورًا ترابًا وطينًا لا يذكر، وبعد النفخ صار مذكورًا، وبشرًا سويًا في أحسن تقويم.

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي إنا خلقنا الإنسان من ماء ممزوج من ماءي الرجل والمرأة ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي نختبره بالخير والشر وبالتكاليف ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي جعلنا له سمعًا وبصرًا يساعدانه على طاعة الله أو معصيته.

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي دللناه الطريق أي طريق الخير وطريق الشر ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي وخيَّرناه فإما أن يختار الخير بملء إرادته أو يختار الشر بملء إرادته وهذا في التكاليف فقط. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه إما شاكرًا وإما كفورًا» [٨٣١].

(٤) ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي إن الذين اختاروا طريق الشر بعد أن أخبرناهم به ودللناهم عليه اختاروه عن علم بأنه شر وكفر؛ فلذا لزم أن يجازوا جزاء وفاقًا عادلًا ولذلك هيأنا لهم قيودًا لا تُحل وأغلالًا لا تُفل ونارًا لا تنطفئ ولا يهدأ سعيرها.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ لما ذكر حال الذين اختاروا الشر بمحض إرادتهم ونالوا عليه ما نالوا من العقاب ذكر سبحانه في مقابلهم المؤمنين الأبرار الذين اختاروا الإيمان بمحض إرادتهم وتيسير الله لهم، أخبر أنهم في الجنة يشربون أشربة الجنة ممزوجة بالكافور.

يحق لوجوه المؤمنين أن تنضر بالنظر إلى وجه ربها، وتكون وجوه الكفار باسرة...

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

(٦) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا المزيج من الخمر والكافور عينًا منها يشرب المؤمنون الأبرار ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ممدودة إلى دورهم وقصورهم في الجنة.

(٧) ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي يتعبدون الله بالنذر لوجهه الكريم وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» [٨٣٢]، وفيه دليل على أن النذر عبادة فلا يجوز النذر لغيره كالأنبياء والأولياء والصالحين، فإذا نذر لغيره فقد أشرك بالله لأنه قدم عبادة لغير الله تعالى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ وهو يوم القيامة، وإن شرّ يوم القيامة هو شر عظيم مستطير منتشر تنشق فيه السماوات وتندك الأرض وتغور المياه.

(٨) ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي وهم يحبونه ويشتهونه ﴿مِسْكِينًا﴾ كما في الحديث: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنًى يغنيه ولا يُفْطَن له فيُتصدق عليه» [٨٣٣]، ﴿وَيَتِيمًا﴾ وهو الذي مات أبوه صغيرًا ولا قدرة له على الكسب ﴿وَأَسِيرًا﴾ هو أسير الحرب الذي يُستَرَقّ وفي الحديث: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» [٨٣٤]، أي أوصيكم بالصلاة وبالأرقاء.

(٩) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي لا نريد مكافأتكم ولا شكركم.

(١٠) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي نخاف يوم القيامة ذلك اليوم الضيق الطويل وهو أشد الأيام.

(١١) ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي حماهم من شره ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي حيوية الشباب في وجوههم وسرورًا في قلوبهم، ولا شكَّ أنَّ سرور القلب علامته نضارة الوجه.

(١٢) ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي بسبب صبرهم في الدنيا على الأذى في سبيله: منزلًا رحبًا وعيشًا رغدًا ولباسًا حسنًا.

(١٣) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي متكئين في الجنة على السُّرر والمراتب والمساند الحريرية ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي ليس فيها حرٌّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي طقس معتدل واحد.

(١٤) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ أي شجرها قريب منهم ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي يتناولونها قيامًا وقعودًا واضطجاعًا.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي بصحون من فضة برّاقة ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي من زجاج ليس له مثيل في الدنيا.

(١٦) ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي صفاؤها صفاء الزجاج ولونها لون الفضة ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ بقدر ما يحتاج لريِّه.

(١٧) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ من الخمر الحلال ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي ممزوجًا بالزنجبيل لطيب رائحته مرة به ومرة بالكافور.

(١٨) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي سميت بذلك لسلاستها في الحلق.

(١٩) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي نضرون ولا يهرمون ولا يتغيرون ولا يموتون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحسنهم وجمالهم.

(٢٠) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ أي هناك في الجنة ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي أدنى ملك في الجنة مسيرة ألفي سنة.

(٢١) ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي يعلو الأبرار ثياب الديباج الأخضر الرقيق والديباج الغليظ ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغلّ والأذى وسائر الأخلاق الدنيئة ويتعرقون بعرق مثل ريح المسك.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي بما أسلفتم من العمل الذي وفقكم الله في الدنيا برحمته ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي أعطاكم على القليل بالكثير.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي من أجل وعد المؤمنين بالجنة وإيعاد الكافرين بالنار والقيام بأوامره وترك نواهيه.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي فاصبر لحكم ربك الذي شاء فأخَّر نصرك ولا تصغ لأحد منهم آثمًا كان أو كفورًا.

(٢٥) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي داوم على ذكر الله تلاوةً وصلاةً وتذكرًا وقراءة قرآن ﴿بُكْرَةً﴾ أي أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ أي آخره.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ
خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا
﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

ترتيبها ٧٧ — آياتها ٥٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ
﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ
﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ
﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

٥٨٠

(٢٦) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ أي وأكثر له فيه من السجود ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وأكثر من قيام الليل تهجدًا، وتطوعًا لله سبحانه.

(٢٧) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي إن كفار مكة ومن هو موافق لهم إلى يوم القيامة، يحبون الحياة الدنيا حبًا جمًا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي ألهتهم الحياة الدنيا بزينتها وبهرجها وتركوا وراءهم يومًا يحملون فيه أوزارهم الثقيلة مما اقترفوا من السيئات واجترحوا من المنكرات، فلا شكَّ أنهم سوف يرون أمامهم يومًا ثقيلًا بعذابه وانتقام الله فيه.

(٢٨) ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ أي نحن الذين خلقناهم وأوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي جعلناهم في أحسن تقويم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي ولو شئنا لأهلكناهم، وخلقنا خلقًا جديدًا يكونون أطوع لله من هؤلاء.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن هذه السورة تذكير وموعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي فمن شاء أن يتعظ بهذه السورة وبغيرها من القرآن فيكون قد اتخذ وشق الطريق إلى رضاء الله تعالى وإلى عفوه وغفرانه.

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إن مشيئتكم إذا لم يوفقكم الله إليها لن تصلوا إلى ما تبتغون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي عليمًا بمن يستحق الهداية فيهديه ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع شؤونه الشرعية والقدرية.

(٣١) ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في جنته وهم المؤمنون ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي موجعًا.

آخر تفسير سورة الإنسان ولله الحمد والشكر

(٧٧) سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

مكية إلا الآية ٤٨ فمدنية، وآياتها ٥٠، نزلت بعد الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ أي هي الملائكة يرسلها الله بتتابع لتنفيذ أوامره تعالى.

(٢) ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ أي تنفذ أمر ربها مسرعة كالريح العاصفة.

(٣) ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ أي تنشر أجنحتها العظيمة في السماء غدوًا ورواحًا.

(٤) ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أي تنزل الكتب من الله التي بها يفرق بين الحق والباطل ويقوم الأنبياء والرسل بتبليغها للناس على أكمل وجه.

(٥) ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أي تلقي الوحي على من يشاء الله من عباده.

(٦) ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي هذا الوحي الملقى إلى الرسل فيه الإعذار إلى الناس من الله بأنه قد أنذرهم قبل إيقاع العذاب إذا لم يتبعوا، وهكذا فإن الله يقسم بالملائكة ذات الصفات العظيمة المتقدمة.

(٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي إن الذي توعدونه من حلول الساعة وحلول البعث من القبور شيء واقع لا محالة ولا مناص، وهذا هو المقسَم عليه، أي إن الله قد أقسم بملائكته أن البعث كائن.

(٨) ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي محي نورها وانطمس ضوؤها.

(٩) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي انشقت ووهت أطرافها وفتحت أبوابًا أبوابًا.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي اقتلعت من جذورها ونسفها الله نسفًا.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي جمع الرسل للوقت المعلوم ليحكم بينها وبين أممها.

(١٢) ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي ما أعظم ذلك اليوم الذي أُجلت فيه.

(١٣) ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي أجلت ليوم الفصل بين الناس بالعدل، وإنه ليوم عظيم.

(١٤) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي وأيُّ يوم هو!!! لهوله وعظمته وكبير شأنه!!!

(١٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي ما أعظم ويل ذلك اليوم على المكذبين به في الدنيا.

(١٦) ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي من زمن آدم إلى زمن محمد لما كذبوا رسلنا؟

(١٧) ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي نعذب الآخرين وهم كفار مكة كما عذَّبنا الأولين.

(١٨) ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا الإهلاك نفعل بالكافرين المكذِّبين.

(١٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الويل من عذاب الله للذين كذبوا بيوم البعث فإنهم سيرون جزاء ذلك التكذيب جزاءً عسيرًا دائمًا خالدًا لا ينتهي.

إن سورة الإنسان تذكرة لمن شاء أن يسلك طريق الحق

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ
كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ
لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

٥٨١

(٢٠) ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي من مني الذكر والأنثى وهو ضعيف حقير.

(٢١) ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي في رحم المرأة المعدِّ لذلك في مستودع حريز.

(٢٢) ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي ستة أو تسعة أشهر راجع الآية (١٥) من الأحقاف.

(٢٣) ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي فقدرنا على ذلك فنعم القادرون نحن.

(٢٤) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي يا ويل المكذبين في ذلك اليوم من العذاب الذي ينتظرهم، وسيلقى كلُّ مكذب يومئذٍ عذاب الهول والهون.

(٢٥) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أي جعلها الله ظهرًا للأحياء وبطنًا للأموات.

(٢٦) ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ أي ضم فيها الأحياء والأموات.

(٢٧) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ أيّ وخلقنا على سطح الأرض جبالًا شامخات عاليات توطِّد الأرض من أن تميد بكم وتشرفون بها على مواقع أعدائكم فلا تُبغَتون بهجومهم عليكم ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي ماءً حلوًا لشربكم ولشرب أنعامكم وزروعكم وأشجاركم. كل هذه النعم وهذه الإشارات الآنفة على قدرة الله تعالى تثبت أن كل ما خلق وقدر هو أعظم بكثير من بعث الناس من قبورهم وإعادة خلقهم؛ فإن الذي خلق الخلق من عدم إنه والله لقادر على أن يعيد خلقهم من وجود متى شاء.

(٢٨) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي لمن يستمر مكذبًا بعد هذا البيان.

(٢٩) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم: هيا، هيا انطلقوا وانظروا إلى العذاب الذي كنتم به تكذبون أهو واقع بكم أم لا؟! أرأيتم ما وعدكم ربكم من العذاب حقًا؟

(٣٠) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي إلى ظل من دخان جهنم قد سطع، ثم افترق إلى ثلاث فرق فيقال لهم: كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله في ظل عرشه، أو حيث شاء من الظل، ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقرِّه، وكلٌّ يرى أمامه ما قدم من عمل في الدنيا.

(٣١) ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي ليس فيه برد الظل ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ﴾ حر ﴿ٱللَّهَبِ﴾.

(٣٢) ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي كل شرارة بحجم القصر العظيم.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي ثم شبه باعتبار لونه الأسود المشرب بصفرة النار كالإبل السوداء المشربة بالصفرة كما هي إبل العرب.

(٣٤) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي يا ويلهم من عذاب كانوا يكذبونه.

(٣٥) ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي لا يقدرون فيه على الكلام.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي عما فرط منهم من التكذيب.

(٣٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه.

(٣٨) ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يوم الحكم بالفصل بين أهل الحق وأهل الباطل. ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي جميع المكذبين أولًا وآخرًا.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ لهم كما هو تهكُّم بهم، أي لا تدخروا كيدًا تستطيعونه بل تقدموا به.

(٤٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ اي إن الويل ملاقيكم لا محالة.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ لما ذكر الله عقوبة المكذبين شرع بذكر مثوبة المتقين، فبين أنهم في ظلال ظليلة في الجنة وعيون معينة فيها.

(٤٢) ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي من سائر أنواع الفواكه التي يشتهونها.

(٤٣) ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي من الطاعات تفضلًا وإحسانًا منه.

(٤٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هذا ثوابنا لمن أطاع وأحسن العمل.

(٤٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي ويا هول ما سيراه المكذبون من الويل.

(٤٦) ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي يا أيها المكذبون لرسالاتي تمتعوا قليلًا في هذه الدنيا، وسوف تساقون إلى أشد العذاب الخالد.

(٤٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي الويل ثم الويل لهم من ذلك اليوم.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ لأنهم لم يكونوا من المصلين في الدنيا.

(٤٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنهم سيظلون طيلة حياتهم مكذبين.

(٥٠) ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فبأي حديث بعد هذا القرآن يصدقون؟ آمنا بالله وبما أنزل.

آخر تفسير سورة المرسلات ولله الحمد والمنّة
والفضل وبه العصمة وعليه وحده التكلان

(٧٨) سُورَةُ النَّبَإِ

مكية وآياتها ٤٠، نزلت بعد المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي عن أي شيء يسأل بعضُ المشركين بعضًا: بم جاء به محمد وما الذي أتى به؟ فأنزل الله تعالى هذه السورة.

(٢) ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو القرآن العظيم لأنه ينبئ عن التوحيد وتصديق الرسل، ووقوع البعث والنشور، وأكثر المفسرين قالوا ذلك.

(٣) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي المؤمنون والكفار، فأما المؤمنون فيزدادون يقينًا، وأما الكفار فيستهزئون ويسخرون منه.

(٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا ردع للكفار أي سيعلم هؤلاء الكافرون أنهم على باطل في عدم إيمانهم به أي بالقرآن الذي نزل.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ولكن علمهم هذا لن يكون إلا عند مقابلتهم العذاب يوم لا ينفع الندم، ثم شرع الله سبحانه بتعداد نعمه تعالى على عباده التي تقتضي أن يشكروها بالإيمان به تعالى، فقال عزَّ من قائل:

(٦) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي جعلناها ممهَّدةً ساكنةً.

(٧) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي أرسينا بها الأرض فلم تضطرب.

(٨) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي من ذكر وأنثى فتناسلتم وتكاثرتم.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لكم من السعي في الدنيا.

(١٠) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي تغشاكم ظلمته كأنها لباس لكم.

(١١) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي جعلناه نيرًا لتسعوا في معايشكم.

(١٢) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي سبع سموات شديدة الخلق.

(١٣) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي الشمس ينبعث منها الحرارة والنور.

(١٤) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي وأنزلنا من السحاب المليء بالمطر ماءً متتابعًا سخيًّا رخيًّا منصبًّا كثيرًا.

(١٥) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي لنخرج بسبب الماء حبًّا يؤكل ويدخر لكم ولأنعامكم ونباتًا مختلفًا من الخضروات والفواكه.

(١٦) ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أي وبساتين مثمرة ذات الأشجار الملتفة.

(١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ أي إن يوم القيامة له أجل معلوم لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ويفصل فيه بين عباده.

(١٨) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي ينفخ إسرافيل في الصور ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي تأتي كل أمة ومعها رسولها ليشهد لها أو عليها.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي فتحت لنزول الملائكة.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي نسفت أصولها وصارت كلا شيء؛ كالسراب الذي يظنه الناظر ماءً وهو في الحقيقة لا شيء.

سُورَةُ النَّبَإِ — ترتيبها ٧٨ — آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ
أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ
مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

٥٨٢

(٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي يرصد خزنتها الكفار وينتظرونهم.

(٢٢) ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ أي مرجعًا ومقرًّا ومستقرًّا يستقرون فيها.

(٢٣) ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أي كناية عن الخلود فيها لأن الكافر لا يخرج من النار.

(٢٤) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي ما يبرِّد جلودهم ولا ما يدفع ظمأهم.

(٢٥) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ أي ماءً حارًا بلغ منتهى حرِّه، والغساق: ما اجتمع من صديد أهل النار.

(٢٦) ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أي عقابًا يوافق كفرهم ويكافئ شركهم.

(٢٧) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي كافرين بيوم الحساب.

(٢٨) ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أي ولم يصدقوا بما أنزل الله من الآيات والمعجزات.

(٢٩) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي ليس من عملٍ من أعمال العباد خيرًا كانت أو شرًا إلا وهو مكتوبٌ في كتاب عند الله جلَّ وعلا، وسيجزيهم عليه بما يستحقون، وليس الذي في هذا الكتاب مجبرًا للعباد على فعل الخيرات أو غير ذلك، إنما هو ما علم الله من عباده ماذا سيكون منهم قبل أن يبرأ الخلق، فليس علمه إذًا مجبرًا لهم.

(٣٠) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي ذوقوا العذاب الذي كذبتم به في الدنيا، ومهما رجوتم تخفيف العذاب عنكم فلن نجيبكم على ذلك إلا بزيادة العذاب.

المتفرد بالنعم وحده على عباده هو المستحق أن يُعبد وحده

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ — ترتيبها ٧٩ — آياتها ٤٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا
﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ
﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا
خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا
عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ
وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾

٥٨٣

(٣١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي فازوا بالجنات وظفروا بها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهم في متنزه دائم لا يحول عنهم ولا يزول.

(٣٢) ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ أي بساتين من الفواكه وكرومًا من العنب يفوز بها المؤمنون الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وصدقوا الرسل والكتب.

(٣٣) ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي إن للمؤمنين في الجنات نساءً كواعب حورًا نواهد أبكارًا عربًا أترابًا في سن واحدة صارت نهودهن كالكُعَب.

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي كؤوسًا من خمر الجنة التي لا غول فيها، مترعة متتابعة صافية صرفة عذبة لذة للشاربين.

(٣٥) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ أي كلامًا جزافًا لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي ولا إثم كذب فلا يكذب بعضهم بعضًا.

(٣٦) ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي مكـافأة من الله تعالى لعباده، عطاءً كافيًا جزاء ما قاموا به من الطاعات والمبرَّات.

(٣٧) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقها ومبدعها على غير مثال سابق ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي أن معطي هذه العطيات هو الرحمن جلّ جلاله ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي مخاطبته إلا بعد الإذن.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي حقًا وصدقًا.

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي إن ذلك اليوم المتكلّم عنه آنفًا هو يوم القيامة الحق ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي فليتقدم من شاء من عباد الله تعالى فيتخذ له من العمل الصالح مرجعًا حسنًا إليه.

(٤٠) ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ في الآخرة، وكل آتٍ قريب ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من العمل صالحًا كان أو طالحًا ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ حين يرى الحيوانات صارت ترابًا بعد القضاء فيتمنى لو كان مثلهم.

آخر تفسير سورة النبأ ولله الحمد والمنّة والفضل

(٧٩) سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية وآياتها ٤٦، نزلت بعد النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ أي هي الملائكة تنزع أرواح الكفار من الجن والإنس وتغرقها في النار جزاء ما كفرت بالله واليوم الآخر.

(٢) ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ أي تنزع أرواح المؤمنين برفق.

(٣) ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ أي تسبح الملائكة في الأبدان لإخراج الروح.

(٤) ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ أي إنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

(٥) ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ أي تدبر ما أمرها الله سبحانه أن تدبِّره.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وكل ما وصف من أوصاف الملائكة هي إقسام من الله تعالى بها على أنَّ يوم ترجف الراجفة وهي نفخة الصور الأولى.

(٧) ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي فتتبعها النفخة الثانية في الصور.

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي خائفة من هول ذلك اليوم الرهيب.

(٩) ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ خافضة ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ وهذا قول المشركين، أي أنرد إلى أول حالنا فنصير أحياء بعد موتنا.

(١١) ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي بالية.

(١٢) ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرنّ، أي استبعدوا أن يعيدهم الله بعد أن كانوا عظامًا نخرة، فكيف يجمعها الله، ويجعل منها أصحابها أحياء بعد أن صاروا ترابًا وتفتتوا وضلُّوا في الأرض؟!

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي يقول الله تعالى: بل هي نفخة يأمر بها الله إسرافيل فينفخ، فإذا كل روح دخلت في جسد صاحبها بلمح البصر.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي على وجه الأرض قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم بما يستحقون.

(١٥) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي هـل أتـاك خبره وجـاءك وبلغـك؟ أنا أخبرك به وسيكون فيه تسلية لرسول الله ﷺ.

إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾
فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ
ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ
فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ
﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا
﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾
وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾
وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ
ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ
هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ
﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا
﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ
مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

سُورَةُ عَبَسَ — مكية 80 — آياتها 42

(١٦) ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي حين نادى الله تعالى موسى عليه السلام في الوادي المقدس طوى في جبل الطور.

(١٧) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي سِرْ إلى فرعون ملك مصر الطاغية المشرك، فانهه عن شركه وطغيانه، والرجوع عن ادعائه الألوهية.

(١٨) ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر نفسك من الشرك، ومن منازعتك الله في الألوهية، وتعود إلى عبوديَّتك فتسلّم وتطيع.

(١٩) ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي أرشدك إلى عبادة الله الحقة، وتوحيده الخالص، فتدخل إلى قلبك الخشية منه سبحانه وتعالى.

(٢٠) ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي دعاه إلى الحق، وأراه معجزة العصا كيف تنقلب ثعبانًا فاغرًا فاه يريد أن يلتقمه، ففرَّ فرعون منه.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي فكذب فرعون موسى بما أتى به من الحق في الدعوة، وفيما أتى به من معجزة العصا واليد.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي تولى ساعيًا في معارضة موسى.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي فحشر السحرة مناديًا فيهم وفي قومه.

(٢٤) ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي إنه لا ربَّ لكم فوقي.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي أخذه في الدنيا بالغرق، وفي قرار النار في الآخرة.

(٢٦) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي إن في هذا الأخذ الأليم لعظةً وتذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي يخشى الله ويتقيه ويخافه.

(٢٧) ﴿ءَأَنتُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾ أي بل السماء أشد خلقًا ﴿بَنَىٰهَا﴾ فسرها قوله تعالى:

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي جعلها عالية لا تفاوت فيها.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلمًا ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أضاء نهارها، وعبر عنه بالضحى.

(٣٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ وفسر تعالى الدَّحْي بقوله:

(٣١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي أخرج الماء والكلأ(١).

(٣٢) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي أثبتها في أماكنها. وفي الحديث: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرّت»(٢) [٨٣٥].

(٣٣) ﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ أي طعامًا لكم، وطعامًا لمواشيكم.

(٣٤) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي القيامة بأهوالها وعظائمها.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي ما عمل من خير أو شرٍّ في دنياه.

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي صارت غير خافيةٍ على أحد.

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي مات على طغيانه وكفره وشركه.

(٣٨) ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وكان مفضِّلًا دنياه على آخرته.

(٣٩) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي تكون النار مأواه ومثواه.

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي القيام بين يدي ربه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي حال بينها وبين مشتهياتها من المعاصي.

(٤١) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي مثواه.

(٤٢) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى يحين زمنها ووقتها.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي ليست معلومة الحين عندك.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي لا يعلم متى قيامها إلا الله وحده.

(٤٥) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد إلا ﴿مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ ليس لك من الأمر سوى أنك منذر للناس؛ فمن اتبعك نجا ومن عصاك خاب.

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي كأنَّ الناس إذا قاموا من قبورهم ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي ما فيها من الأهوال والعظائم، وحين ينسلون إلى ربهم يظنون أن حياتهم الدنيا من أولها إلى آخرها ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أي في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي يوم أو ضحى من يوم.

آخر تفسير سورة النازعات ولله الحمد والمنّة
والفضل وبه العصمة وعليه التكلان

ادعى فرعون الربوبية والألوهية، فأغرق ولعن في الدنيا والآخرة

(١) راجع سورة (حم السجدة) تر أن الأرض خلقت قبل السماء، إنما دحيت بعد خلق السماء ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٣٠-٣١].
(٢) إسناده ضعيف.

بسم الله الرحمن الرحيم

عبس وتولى ﴿١﴾ أن جاءه الأعمى ﴿٢﴾ وما يدريك لعله يزكى ﴿٣﴾ أو
يذكر فتنفعه الذكرى ﴿٤﴾ أما من استغنى ﴿٥﴾ فأنت له تصدى ﴿٦﴾
وما عليك ألا يزكى ﴿٧﴾ وأما من جاءك يسعى ﴿٨﴾ وهو يخشى ﴿٩﴾ فأنت
عنه تلهى ﴿١٠﴾ كلا إنها تذكرة ﴿١١﴾ فمن شاء ذكره ﴿١٢﴾ في صحف مكرمة
﴿١٣﴾ مرفوعة مطهرة ﴿١٤﴾ بأيدي سفرة ﴿١٥﴾ كرام بررة ﴿١٦﴾ قتل الإنسان
ما أكفره ﴿١٧﴾ من أي شيء خلقه ﴿١٨﴾ من نطفة خلقه فقدره ﴿١٩﴾ ثم
السبيل يسره ﴿٢٠﴾ ثم أماته فأقبره ﴿٢١﴾ ثم إذا شاء أنشره ﴿٢٢﴾ كلا لما
يقض ما أمره ﴿٢٣﴾ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴿٢٤﴾ أنا صببنا الماء صبا
﴿٢٥﴾ ثم شققنا الأرض شقا ﴿٢٦﴾ فأنبتنا فيها حبا ﴿٢٧﴾ وعنبا وقضبا ﴿٢٨﴾
وزيتونا ونخلا ﴿٢٩﴾ وحدائق غلبا ﴿٣٠﴾ وفاكهة وأبا ﴿٣١﴾ متاعا لكم
ولأنعامكم ﴿٣٢﴾ فإذا جاءت الصاخة ﴿٣٣﴾ يوم يفر المرء من أخيه ﴿٣٤﴾
وأمه وأبيه ﴿٣٥﴾ وصاحبته وبنيه ﴿٣٦﴾ لكل امرئ منهم يومئذ شأن
يغنيه ﴿٣٧﴾ وجوه يومئذ مسفرة ﴿٣٨﴾ ضاحكة مستبشرة ﴿٣٩﴾ ووجوه
يومئذ عليها غبرة ﴿٤٠﴾ ترهقها قترة ﴿٤١﴾ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴿٤٢﴾

٥٨٥

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ

مكية وآياتها ٤٢، نزلت بعد النجم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أهلًا بمن عاتبني به ربي، المساواة بين الجميع في تبليغ الدعوة للناس

(١) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي كلح بوجهه وأعرض!؟

(٢) ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أي حين جاءه ابن أم مكتوم، فقطعه عما هو فيه من إقناع أشراف قريش بالإسلام. ولم يدر الأعمى أن الرسول مشغول بذلك، فانصرف النبي إلى بيته فعاتبه الله. وكان يقول النبي للأعمى: «أهلًا بمن عاتبني به ربي» [٨٣٦].

(٣) ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي فلعله جاءك ليتطهر من الذنوب بما يسمع منك.

(٤) ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ بما يحصل عليه من الاتعاظ والزجر.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي أما الذي استغنى عنك وعن دعوتك.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي تتعرض له مؤملًا إيمانه.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي لست مُطالبًا إذا كفر.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ إليك ليتعلم ويهتدي لدينه.

(٩) ﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي تدفعه خشيته للتفقُّه.

(١٠) ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تتشاغل بجماعة لا خير فيهم.

(١١) ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي أعظك بأن لا تفضل جماعة على آخرين بالهداية.

(١٢) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن رغب في الاتعاظ بالتذكرة اتَّعظ بها.

(١٣) ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾ أي وهذه العظة في هذه السورة وكافة سور القرآن مكرمة عند الله تعالى فيها العلم والحكمة والعظات والعبر.

(١٤) ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي عليَّة منزَّهة، لا يمسُّها إلا المطهرون.

(١٥) ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ أي بأيدي الملائكة السفراء بين الله وأنبيائه.

(١٦) ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ أي مكرمين عند الله، وأتقياء، مطيعون لربهم.

(١٧) ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ أي لعن الكافر من بني الإنسان ما أشد كفره.

(١٨) ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي هل يتذكر هذا الكافر أنه خلق من منيٍّ يمنى.

(١٩) ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي ماء مهين حقير سوَّاه.

(٢٠) ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي الخروج من بطن أمه، ويسَّر له معرفة الخير والشر.

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي علمه كيف يوارى في قبره فلا تأكله الوحوش.

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي بعثه حيًّا من قبره ليؤدِّي الحساب، وفي الحديث: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب» [٨٣٧].

(٢٣) ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي لم يعمل بما أمره الله من الطاعة.

(٢٤) ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي فلينظر كيف هيَّأ له طعامه.

(٢٥) ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ أي أنزلنا من المزن ماءً كثيرًا غدقًا.

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ أي جعلنا النبات يشقها من باطنها.

(٢٧) ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾ أي أنبتنا بالمطر الحبَّ المبذور في باطنها.

(٢٨) ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾ العنب معروف والقضب هو الفصفصة.

(٢٩) ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾ وهو ما يستخرج منه الزيت ﴿وَنَخۡلٗا﴾ أي التمر.

(٣٠) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار الملتفة الكثيفة.

(٣١) ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ أي وفاكهة متنوعة، والأب طعام للدواب كالتبن.

(٣٢) ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ أي طعامًا لكم وعلفًا لمواشيكم.

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي يوم القيامة بهوله وشدته وعظائمه.

(٣٤) ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾ أي يفر منه بنفسه منقذًا لها من الهول العظيم.

(٣٥) ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ أي وأيضًا من أمه وأبيه ولو استغاثا به لفرَّ منهما ناجيًا بنفسه.

(٣٦) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ وكذلك يفر من زوجته وأولاده.

(٣٧) ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ أي شأن يغنيه عن شؤون الآخرين. وفي الحديث: «تحشرون حفاةً عراة مشاةً غرلًا» قال فقالت زوجته: يا رسول الله ينظر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ أو قال: ما أشغله عن النظر» [٨٣٨].

(٣٨) ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ أما المؤمنون فوجوههم مستنيرة.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ أي مسرورة تستبشر بالجنة ولقياها.

(٤٠) ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ﴾ أي مقطبة شاحبة.

(٤١) ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي مسودة كاسفة ذليلة.

(٤٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ أي أصحاب هذه الوجوه هم الكفرة الفجرة.

آخر تفسير سورة عبس ولله الحمد والشكر والفضل

(٨١) سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكية وآياتها ٢٩، نزلت بعد المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي لُفَّت وأُسقطت، فذلك يوم القيامة.

(٢) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي طُمِس نورُها، وتساقطت وانتثرت.

(٣) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي زالت من أماكنها وسُيِّرت في الهواء.

(٤) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي إذا الإبل أهملت بلا راعٍ لما أهمَّ أهلها من الفزع.

(٥) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي يحشر كلُّ شيء حتى الذباب.

(٦) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي أوقدت فصارت نارًا تضطرم.

(٧) ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي أنَّ الأرواح تزوج بالأبدان.

(٨) ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ أي التي دفنت حية: لماذا فُعِل بكِ؟

(٩) ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ أي أيّ ذنب فعلت حتى قتلت!!

(١٠) ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي صحائف الأعمال نشرت ليوم الحساب.

(١١) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي قلعت عن شدة التزاق.

(١٢) ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أوقدت وأحميت مرةً بعد مرة.

(١٣) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي قربت من المتقين وأدنيت.

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ أي لهذا أجري الحديث، فإذا وقعت هذه الأمور المتقدم ذكرها قامت القيامة، حينئذ تعلم كل نفس ما عملت من خير أو شر من الإنس والجن كلٌّ من صفحته.

(١٥) ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي لا ليس الأمر كما زعمتم بالقرآن، أي: من نكرانه فأقسم ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ أي الكواكب المختفية بالنهار فلا تظهر.

(١٦) ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ أي النجوم التي تظهر بالليل.

(١٧) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا اشتدَّ ظلامه.

(١٨) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا انصدع نوره.

(١٩) ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن الذي تنكرونـــه منزل من عند الله تعالى ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي نطق به جبريل بأمر ربه على محمد مبلغًا إياه من الله تعالى.

(٢٠) ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي شديد القوى في القيام بما يكلف به ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي رفعةٍ ومكانةٍ.

(٢١) ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي مطاع في الملأ الأعلى ومؤتمن على الوحي.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أي ليس محمدٌ الرسول الذي أرسلته إليكم بمجنون كما افتريتم عليه يا أهل مكة المشركين.

الجزء الثلاثون — سورة التكوير

سُورَةُ التَّكْوِيرِ — ترتيبها ٨١ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ
سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ
(٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا
الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ
(١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥)
الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ
ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ
(٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥)
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن
يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

سُورَةُ الانفِطَارِ — ترتيبها ٨٢ — آياتها ١٩

٥٨٦

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الملكية العظمى بمكة بالأفق، وهي الرؤية الأولى.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ قرئ بضنين أي ما ضنَّ بالقرآن على الناس بل بلغه جميعًا. وقرئ: بظنين أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بمتهم.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أي لا يستطيع الشيطان حمله.

(٢٦) ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي كيف تذهبون في هذاالقرآن مذاهب شتى: فتارةً تقولون: سحر، وتارة تقولون: شعر أو قول شيطان.

(٢٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن إلا موعظة للناس كافة وتذكرة لهم إنسهم وجنِّهم فمن أطاعه نجا ومن عصاه هلك.

(٢٨) ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فإذا شئتم أن يستقيم أمركم وتكونوا خير أمة أخرجت للناس فاتخذوه قائدًا ورائدًا.

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وإن مشيئتكم ما نفذت في الدنيا إلا بعد أن شاء الله. فمنذ أن قدر مقادير الخلق علم الله ماذا ستختارون وتشاؤون فقدَّره وكتبه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام.

آخر تفسير سورة التكوير ولله الحمد والشكر والثناء الحسن

من قرأ سورة التكوير والانفطار والانشقاق، كأنه يرى القيامة...

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ
فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ
﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ
﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

سُورَةُ ٱلْمُطَفِّفِينَ ٨٣ ‏ ٣٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم
مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

٥٨٧

(٨٢) سُورَةُ الانفِطَار

مكية وآياتها ١٩، نزلت بعد النازعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي انشقت وانفطرت لهيبة الله تعالى.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي تساقطت وانفجرت.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي ذهب ماؤها ويبست.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي قلب ترابها وأخرج موتاها.

(٥) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي إذا وقعت هذه الأمور المتقدمة الذكر، علمت كلُّ نفس ما عملت، خيرًا كان أو شرًّا.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي ما ينبغي أن تقابل نعم الله ومكرماته، بالأعمال القبيحة، والأفعال الفاجرة، وقد نزلت في رجل ضرب النبي ﷺ.

(٧) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي ما الذي غرك يا أيها الكافر بالذي خلقك مِن العدم ثم سوَّاك بشرًا في أحسن تقويم.

(٨) ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي أنه جعلك بشرًا سويًّا، فلو أنه خلقك على صورة أي حيوان شاء لفعل، ولكن فضله كان عليك عظيمًا.

(٩) ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي تجحدونه، وتكذبون من بعثه الله به.

(١٠) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي ملائكة.

(١١) ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أعمالكم.

(١٢) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ويسجلون عليكم جميع أعمالكم وحركاتكم.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي في الجنة، وفي الحديث: «إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء»[1] [٨٣٩].

(١٤) ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي في النار جزاء وفاقًا لفجورهم.

(١٥) ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يحترقون بها يوم القيامة.

(١٦) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي لا يفارقونها ولا يخرجون منها.

(١٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي عظيم مهول فوق الإدراك والتصور.

(١٨) ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وتكرار السؤال هنا يزيد في استهواله.

(١٩) ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي لا يملك أحد لأحد ضرًّا ولا نفعًا ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي هو المتفرد سبحانه بالأمر دنيا وآخرة.

آخر تفسير سورة الانفطار ولله الحمد والمنّة والفضل

(٨٣) سُورَةُ المُطَفِّفِين

مكية وآياتها ٣٦، نزلت بعد العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الويل هو الخسار والهلاك والعذاب الأشد، وهو للمطففين الذين يبخسون الكيل والميزان في بيعهم وشرائهم.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يأخذون حقهم كاملًا.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ولكن إذا باعوا الناس بضاعة كيلًا أو ميزانًا، فإنهم يخسرونهم ويعطونهم أقلَّ مما يستحقون.

(٤) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي كأنهم ليسوا على تحقق من صدق البعث وأن الله سيحاسبهم يوم القيامة حسابًا عسيرًا.

(٥) ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي يوم هائل مخيف مرعب مروِّع تشيب من هوله الولدان، وذلك هو يوم القيامة الذي يكذبون به.

(٦) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إن ذلك اليوم، هو اليوم الذي يقوم فيه الموتى من أجداثهم حفاة عراة غرلًا. وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة. [٨٤٠]، والعياذ بالله تعالى، نسأله نجاتنا من أهواله والمؤمنين عامة بفضله ومنِّه وكرمه.

---

(١) إسناده ضعيف.

إنما يحملهم على مقابلة الكريم بالمعاصي: تكذيب قلوبهم بالمعاد والحساب

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ
مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١)
وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ
عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ
هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ
(١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ
(٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥)
خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ
مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٣١)
وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ
حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)

المؤمنون يضحكون من الكفار في الآخرة مقابل ما ضحكوا منهم في الدنيا

(٧) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي إن كتاب الفجار الذين سقطوا في غضب الله والذين منهم المطففون إذا لم يتوبوا لله تعالى، فكتابهم الذي فيه أعمالهم لفي سجين يدوِّن فيه الملائكة الكرام الكاتبون أعمالهم لا يغادرون فيه صغيرة ولا كبيرة.

(٨) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي هو سجن في جهنم مظلم رهيب يجمع بين الضيق والعمق العميق، فما أرهبه من سجن وما أشدَّ هوله.

(٩) ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه ولا ينقص منه، وهذا الكتاب فيه ما كتب لهم من المصير إلى سجّين.

(١٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ من العذاب الشديد الذي سينالونه.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي بوقوعه وحلوله.

(١٢) ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي معتدٍ على حرمات الله، آثم جائر فاجر إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر.

(١٣) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سمع كلام الله يتلى عليه قال: هذا من خرافات وأباطيل الأولين أي مجموعٌ من كتب الأوائل وأسفارهم.

(١٤) ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الواقع كما زعم هذا المعتدي الأثيم المكذب ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ وهو كثرة الذنوب وأثرها في القلوب حتى جعلتها قطعة سوداء، فلم تعد تعقل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي يزدادون من الذنوب فيذنبون ولا يستغفرون.

(١٥) ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ عن رؤيته تعالى.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي لذائقون أشدَّ حرِّ جهنم.

(١٧) ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي صار ماثلًا أمامكم.

(١٨) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ أي في علوٍّ في الجنة لا غاية له.

(١٩) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي شيء فوق علمك وتصورك.

(٢٠) ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ وهو ما كتب لهم في القدر أنهم في عليين.

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي الملائكة الأبرار الكرام المقرَّبون.

(٢٢) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي إن أهل الأعمال الصالحة في الجنة.

(٢٣) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي ينعمون بالنظر إلى وجه ربهم.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي عليهم سيماء أفخم درجات النعيم.

(٢٥) ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ وهو خمر الجنة لا تمسُّه إلا يد صاحبه.

(٢٦) ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي مختوم، أي: يجد في آخر شرابه ريح المسك ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي إليه فليستبق المستبقون.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي مزيج بأشرف شراب في الجنة.

(٢٨) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي عين تجري من تحت العرش يشربها المقربون بلا مزج.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي كفروا ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أي استهزاءً واستخفافًا بالمؤمنين.

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي بأعينهم سخرية بالمؤمنين الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي يتندّرون مسرورين بسخريتهم منهم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي إن المؤمنين لضالون باتباعهم محمدًا ﷺ.

(٣٣) ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي وما كان الكفار وكلاء على المؤمنين.

(٣٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي ففي هذا اليوم من أيام الجنة الخالدة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الدنيا وعملوا الصالحات دخلوا الجنة بسبب أعمالهم ورحمة منه تعالى، هم الآن ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي يضحكون من الكفار حين يعذبون في النار بينما المؤمنون يتنعمون بالجنة الخالدة يحمدون الله ويشكرونه على ما أنعم عليهم وهداهم للحق الذي ما بعده إلا الضلال.

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الانشِقَاق
(ترتيبها ٨٤ — آياتها ٢٥)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ
﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ
إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ
يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ
﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

٥٨٩

(٣٥) ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي على أرائك الجنة يستندون، وإلى وجه ربهم ذي الجلال والإكرام بالنظر إليه يتمتعون.

(٣٦) ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي هل نالوا جزاءهم وفاقًا على ما كانوا يفعلونه بالمؤمنين في الدنيا من التّنقص منهم والاستهزاء والسخرية بهم والتندُّر عليهم أم لا؟ بلى إنهم جوزوا على ذلك وعلى كفرهم بأوفر العذاب وأتمه وأكمله.

آخر تفسير سورة المطففين ولله الحمد والشكر

(٨٤) سُورَةُ الانشِقَاق

مكية وآياتها ٢٥، نزلت بعد الانفطار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ أي انفطرت وتمايز بعضها من بعض وانتثرت نجومها وخسفت شمسها وقمرها فقد قامت القيامة.

(٢) ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ أي استمعت لأمر ربها، وحق لها ذلك.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ أي دكت جبالها وصارت ممتدة.

(٤) ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ أي ما في بطنها من الأموات وتخلّت.

(٥) ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ أي وحق لها أن تطيع فيما أمرت به.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المؤمن والكافر ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ أي ساع إلى ربك سعيًا ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي سوف تلقاه، وسيجازيك على عملك خيرًا كان أو شرًا، وفي الحديث: «قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه» [٨٤١].

(٧) ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ فقد أفلح ونجا.

(٨) ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ أي لا مناقشة فيه.

(٩) ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ وفي الحديث: «من نوقش الحساب عُذِّب» [٨٤٢].

(١٠) ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ أي أوتي كتاب معاصيه.

(١١) ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ أي إذا قرأ كتاب معاصيه فسوف يقول: واثبوراه.

(١٢) ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي جحيمًا لا يوصف حرُّها ولا يطاق ألمها.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ أي كان في دنياه مسرورًا بمعاصيه.

(١٤) ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي ظنَّ أن لا رجعة ولا بعث ولا نشور.

(١٥) ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ أي بلى ليرجعنَّ إلى ربِّه ويبعثنَّ، إن ربه كان بصيرًا به وبأعماله من فوق سبع سماواته وعالمًا بكل أعماله.

(١٦) ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ أي يقسم الله بالشفق وهو حمرة الأفق إلى وقت العشاء، وفي الحديث: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق» [٨٤٣].

(١٧) ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وأقسم بالليل الذي يسوق كل ذي روح إلى مأواه.

(١٨) ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ وأقسم بالقمر إذا اكتمل نوره وصار بدرًا.

(١٩) ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ روى البخاري عن ابن عباس: «حالًا بعد حال...» [٨٤٤]، من شدائد يوم القيامة وهذه الآية جواب القسم.

(٢٠) ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي ماذا الذي يمنعهم من الإيمان.

(٢١) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾ لله إعظامًا له وإجلالًا وحرمةً.

(٢٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بمحمد والقرآن لأن التكذيب من سجاياهم.

(٢٣) ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بما يكتمون في صدورهم من التكذيب.

(٢٤) ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم بما يدخر الله لهم من العذاب.

(٢٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الخالصة لوجه الله تعالى والموافقة لشرعه سبحانه حتى تكون مقبولة لديه؛ فهؤلاء ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ أي غير منقطع ولا ممتنع، فهو جارٍ دائمًا وأبدًا.

آخر تفسير سورة الانشقاق ولله الحمد والشكر

من أوتي كتابه بيمينه فله الجنة الخالدة، ومن أوتيه بشماله فله الجحيم الأبدية

(٨٥) سُورَةُ البُرُوجِ

مكية وآياتها ٢٢، نزلت بعد الشمس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ يقسم الله تعالى بالسماء وبروجها، وهي النجوم العظام التي لا تقع عدَّتها تحت حصر ولا يعلم عددها إلا الله تعالى.

(٢) ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ أي يوم القيامة، وفي الحديث: «اليوم الموعود يوم القيامة» [٨٤٥]، وهو الموصوف بالهول والخوف والذعر.

(٣) ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ويروى في الحديث: «الشاهد يوم الجمعة وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة» [٨٤٦].

(٤) ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أي لعنوا وهم قوم ذي نُواس اليهودي الكفرة.

(٥) ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أي النار العظيمة ذات الوقود من الحطب وغيره.

(٦) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي جلس الكفار قريبًا من النار ينظرون وقودها.

(٧) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي يشهدون احتراقهم.

(٨) ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي وما كانت نقمتهم عليهم، وليس لهم من ذنب سوى أنهم آمنوا بالله تعالى، وكانوا على دين عيسى عليه السلام قبل أن يبدله القسس والرهبان.

(٩) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي المالك المتصرف بهما وموجدهما من العدم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عليه من خلقه شيء.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ اي أحرقوهم بالنار بعد أن أبوا الرجوع عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ إلى الله من فعلتهم المنكرة ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي سيجازون لكفرهم بعذاب جهنم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ لأنهم أحرقوا أولياءه المؤمنين.

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم نصارى نجران الذين أحرقهم ذو نواس ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ باتباعهم دين الحق وقتئذٍ وثبتوا وصبروا على الحق ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جزاء أعمالهم وثباتهم وصبرهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي فازوا بالجنة فوزًا عظيمًا[١].

(١٢) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي ولا بطش أشدُّ من بطشه فمن أطاعه فله منه الرحمة والرضوان، ومن عصاه أنزل به بطشه ونقمته وغضبه؛ فما حجة من يقول: وإن بطشي لأشد؟[٢].

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي كما بدأ الخلق وعاشوا في الدنيا، يعيدهم بعد الموت كما كانوا للحساب والجزاء بلا ممانع ولا معارض ولا مدافع.

الجزء الثلاثون — سورة البروج

سُورَةُ البُرُوجِ — ترتيبها ٨٥ — آياتها ٢٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
(٣) قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا۟
مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ
فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ
رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤)
ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ
(١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ (١٩) وَٱللَّهُ مِن
وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ (٢٢)

سُورَةُ الطَّارِقِ — ترتيبها ٨٦ — آياتها ١٧

٥٩٠

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ أي هو وحده الذي يغفر الذنوب بعد التوبة منها، ولو كانت كعدد الرمال فهو سبحانه واسع المغفرة بالغ المحبة لعباده التائبين.

(١٥) ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ أي صاحبه ومالكه والمستوي عليه حقيقة بلا كيف استواء يليق بجلاله وعظمته وقهره، عليٌّ بذاته على خلقه أجمعين، بائن منهم وهو مع خلقه بصفاته العلى.

(١٦) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يريد طبق حكمته بلا ممانع، ولا يفعل إلا خيرًا، وفي الحديث: «الخير كله بيديك والشر ليس إليك» [٨٤٧].

(١٧) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ أي هل وصلك خبر الجنود الكفرة الذين تمردوا على أنبيائهم الذين دعوهم إلى عبادة الله وحده.

(١٨) ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي هؤلاء هم قوم فرعون بمصر وقوم ثمود بين الشام والحجاز.

(١٩) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي يكذبون بما أنزل الله.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي قد أحاط بهم علمًا وقدرة وبطشًا.

(٢١) ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي عظيم متناهٍ في الشرف والرفعة، معجز بليغ لا يستطيعه أحد.

(٢٢) ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ اللوح المحفوظ هو أم الكتاب، محفوظ من التحريف والنقص والزيادة.

---

(١) راجع الآية: ١-١٠ من هذه السورة في كتابنا «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» تر تفاصيل هذه القصة الرائعة – المجلد الرابع –.

(٢) هذا القول منسوب إلى أحد أهل وحدة الوجود، أبي يزيد البسطامي، الذي يخاطب ربه في قوله:

أنا أنت بلا شك   فسبحانك سبحاني

والعياذ بالله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ
نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ
دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ
يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

ترتيبها ٨٧ — سُورَةُ الأَعْلَى — آياتها ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ
﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ
لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾
وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾

٥٩١

كيد الله يغلب كيد الكافرين، طوبى لمن آثر ما يبقى على ما يفنى

(٨٦) سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وآياتها ١٧، نزلت بعد البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ يقسم الله تعالى بالسماء وبالطارق، يعني الكواكب تطرق بالليل وتختفي بالنهار.

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ أي وما يدريك ما هو هذا الطارق.

(٣) ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي الطارق هو النجم الثاقب المضيء.

(٤) ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وهذا هو المقسَم عليه بأن كل نفس عليها حافظ من حفظة الملائكة يكتبون أعمال العباد.

(٥) ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ وهذا إلفات نظر من الله للإنسان على ضعف الأصل الذي خلق منه وتنبيه على قدرته على إعادته.

(٦) ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي منيُّ الرجل ينصبُّ في رحم المرأة.

(٧) ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أي ماء الرجل ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ أي من بين ثديي المرأة.

(٨) ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي الذي خلقه من العدم لقادر أن يعيده من وجود.

(٩) ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي تختبر الصدور ويصير السر علانية.

(١٠) ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ يمنعانه من عذاب الله وبطشه.

(١١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ وهذا قسم ثانٍ بالسماء التي ترجع بالمطر.

(١٢) ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي تنصدع بالنبات رزقًا للعباد.

(١٣) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ وهذا هو المقسَم عليه بأن القرآن لهو قول يفصل ويحكم بالحق والعدل وليس بعد حكمه حكم لقوم يؤمنون.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي كله جدٌّ ليس في أحكامه هزل ولا لعب ولا عبث. وهو كلام الله صفةٌ له بلا كيف منه بدأ وإليه يعود.

(١٥) ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي إن الكفار يكيدون للنبي والقرآن.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي أستدرجهم بمدِّهم بالطغيان من حيث لا يعلمون.

(١٧) ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي أخرهم ولا تعجل بإهلاكهم، سأريك ماذا أحل بهم من العذاب والنكال.

آخر تفسير سورة الطارق ولله الحمد والمنّة والشكر والثناء الحسن

(٨٧) سُورَةُ الأَعْلَى

مكية وآياتها ١٩، نزلت بعد التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي قل: سبحان ربي الأعلى، وفي الحديث: «اجعلوها في سجودكم» [٨٤٨] والمعنى: نزه اسم ربك الأعلى من كل عال، فهو عليٌّ على خلقه بذاته حقيقةً، بائن منهم، علوًا يليق بجلاله معلوم الحقيقة، مجهول الكيفية لا يشبه علو المخلوقين سبحانه وتعالى وجل جلاله.

(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي أوجد المخلوقات فأحسن تسويتها.

(٣) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي قدَّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام وهداهم إلى مصالحهم الدنيوية والأخروية.

(٤) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أي أنزل من السماء ماءً فأنبت النبات للناس وللأنعام

(٥) ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ أي هشيمًا بين الأصفر والأسود

(٦) ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ أي سنقرئك قراءة لا تنساها

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا إذا شاء الله أن ينسيكها ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي ونوفقك للطريقة التي هي أسهل.

(٩) ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أي فذكر ما دامت الذكرى تنفع، والذكرى لا ينقطع نفعها.

(١٠) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي لا ينتفع من الذكرى إلا من يخشى الله

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ أي ولا يتجنب الموعظة إلا أشقى الناس.

(١٢) ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ أي نار جهنم العظيمة الفظيعة اللاهبة

(١٣) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا ينتفع من حياته.

(١٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي أدى الصلاة في أوقاتها وحافظ عليها دائمًا.

(١٦) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة:

(١٧) ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي الآخرة خير من الدنيا لأن الآخرة باقية والدنيا فانية.

(١٨) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي مضمون هذه السورة ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي هي:

(١٩) ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ أي صحف إبراهيم وفي التوراة التي نزلت على موسى عليهما السلام.

آخر تفسير سورة الأعلى ولله الحمد والمنّة والفضل والشكر

(٨٨) سُورَةُ الغَاشِيَةِ

مكية وآياتها ٢٦، نزلت بعد الذاريات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الغاشية من أسماء يوم القيامة، وفي الحديث: كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة [٨٤٩].

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلة تخشع ولا ينفعها خشوعها.

(٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي عاملة في جر السلاسل في النار، وتعبة من العذاب الأليم.

(٤) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تحترق في نار وصلت إلى منتهاها في الحرارة.

(٥) ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي يسقون من عين بالغة الحرارة.

(٦) ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو شوك يابس ينبت في جهنم.

(٧) ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ أي لا يغذّي ﴿وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أي لا يدفع ألمه الموجع.

(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي في الجنة جزاء طاعتهم لله ولرسوله.

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي رأوا من الجزاء على أعمالهم من ربِّهم ما أرضاهم.

(١٠) ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي رفيعة بهية آمنين في غرفاتها الفسيحة.

(١١) ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ أي من لغوٍ لا معنى له، ولا يسمعون من الملائكة إلا سلامًا سلامًا.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي بأنواع الأشربة المستلذّة الطيبة الهنية.

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية، ناعمة الفرش لينة الموطئ عليها الحور العين.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ هي الأقداح الموضوعة على حافّات العيون.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي الوسائد الوثيرة بعضها إلى جانب بعض.

(١٦) ﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ أي السجاد الفاخر مبثوث في كل مكان

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فإنها خلق عجيب، وهي في غاية القوة وتلين للحمل وتنقاد، وتؤكل ويشرب لبنها.

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾
لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

٥٩٢

(١٨) ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي رفعًا هائلًا بلا عمد أو مستند، على وجهٍ فوق أن ينال بالفهم أو يدرك بالعقل.

(١٩) ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي بهيئةٍ باهرة حصل بها الاستقرار للأرض، لا تميد ولا تميل، وفي جوفها المعادن والمياه.

(٢٠) ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي بسطت ومُدَّت مدًا واسعًا لاستقرار العباد عليها وحرثها والبنيان عليها وسلوك طرقها.

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد بالقرآن ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ فحسب، وإنما عليك البلاغ، فذكر الناس بما أرسلت به إليهم، وعلينا الحساب.

(٢٢) ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لم تبعث عليهم متسلطًا ولا مصيطرًا ولست أنت الذي تخلق الإيمان في قلوبهم.

(٢٣) ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي تولّى عن الإيمان وعن العمل بأركانه وكفر بالحق بجنانه ولسانه وأعرض عن الموعظة.

(٢٤) ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ أي لا يكون عذاب أكبر من عذابه، وفي الحديث: «كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله» [٨٥٠].

(٢٥) ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم فأين المفرّ؟ لا مفرَّ منا إلا إلينا فليتعظوا وليسارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله.

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي ليس من أحد عليه حساب أحد، إنما كل حساب لأي مخلوق فعلى الله وحده، وكذلك ثوابه وعقابه.

آخر تفسير سورة الغاشية ولله الحمد والشكر والثناء الحسن

سُورَةُ الفَجْرِ (٨٩) (آياتها ٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ
﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ
﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾
الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا
الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾
كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ
بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

٥٩٣

(٨٩) سُورَةُ الفَجْرِ

مكية وآياتها ٣٠، نزلت بعد الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أما الفجر فمعروف والمراد به فجرُ يوم النحر خاصة.

(٢) ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي العشر الأوائل من شهر ذي الحجة من كل عام.

(٣) ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أما الشفع فيوم النحر لكونه العاشر، والوتر يوم عرفة، وفي الحديث: «إن العشر عشر ذي الحجة، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر» [٨٥١]، لكونه العاشر، وأحب العمل إلى الله في عشر ذي الحجة.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد.

(٥) ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي هذه المذكورات المُقْسَم بها ﴿قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي لذي عقل فليعلم كل ذي عقل أن هذه المقسَم بها حق أن يقسم بها.

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ أي قوم عاد الذين بعث فيهم هود عليه السلام بالأحقاف فكذبوه فأنجاه الله والمؤمنين به وأهلك الكفار.

(٧) ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إرم عاصمة مملكة عاد، وذات العماد قيل: أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم، وقيل: كانوا طوالًا كالأعمدة قوة وشدة. وهذا قول فيه نظر.

(٨) ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ بعمرانها وشدة أهلها وبطشهم.

(٩) ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي كانوا يقطعون الصخر وينحتونها، ومنازلهم في وادي القرى المعروفة بديار ثمود.

(١٠) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي صاحب الجنود الأشداء الذين يشدون له الملك، وقيل: لأنه ضرب لامرأته آسية المؤمنة أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت رحمها الله.

(١١) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ أي هم الذين طغوا وكفروا وظلموا.

(١٢) ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي أفشوا الفساد والظلم والكفر بين الناس والأذية لهم، وهم: عاد وثمود وقوم فرعون.

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي رجزًا من السماء.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي إن الله تعالى لا يغفل عن ظلم عباده بعضهم لبعض، إنما يجازيهم بعذاب أليم موجع.

(١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي اختبره وهو أعلم به ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فيقول: لولا كنت مستحقًا ما أكرمني ربي.

(١٦) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي إذا اختبره بالفقر يظن أنه أهانه.

(١٧) ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما ظن؛ إذ ليس عطاء الله أو تضييقه على الإنسان مقياس محبة أو كراهية له، إنما المدار في الحالين على الطاعة لله ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ أي بل لكم أفعال قبيحة وهي أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله وتمنعونه أموالكم، وفي الحديث: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»، وقرن بين أصبعيه [٨٥٢].

(١٨) ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي لا تحثون على إطعامه وكسوته.

(١٩) ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي تأكلون الميراث حلالًا كان أم حرامًا.

(٢٠) ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي حبًا كثيرًا زائدًا.

(٢١) ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي زُلزلت بكل ما عليها ومن عليها وفوجئوا بالقيامة.

(٢٢) ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي جاء حقيقةً بلا كيف؛ ومجيئه تعالى صفةٌ له ولا يجوز مطلقًا تأويل مجيئه تعالى إلى مجيء أمره كيلا تتعطل صفة المجيء فقد خاف المؤولون من التجسيم -ولا تجسيم- فوقعوا في التعطيل ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي مستوين صفًا خلف صف.

(٢٣) ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي يجاء يوم القيامة بجهنم الهائلة ولها شهيق وزفير، لها سبعون زمامًا تجرها الملائكة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ ما عمله في الدنيا من الكفر والشرك والمعاصي ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي كيف تنفع الذكرى لا سيما وقد انقطع العمل!!!؟

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ
إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

سُورَةُ البَلَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ
﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ
أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ
﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ
ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾
فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشَّمْسِ

٥٩٤

(٢٤) ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي ليتني آمنت بالله ورسوله، وعملت عملًا صالحًا أقدِّمه بين يديْ حياتي الآخرة ينقذني مما أنا فيه.

(٢٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ما من أحد أشد عذابًا منه ذلك اليوم.

(٢٦) ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي وليس أحد أشد قبضًا ووثاقًا من الزبانية لمن كفروا بربهم ولم يقوموا بواجبات العمل نحوه سبحانه.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي المطمئنة بتوحيد الله سبحانه وعمل الطاعات فهي لذلك مطمئنة في معادها إلى النجاة.

(٢٨) ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي عودي إلى رحابه راضيةً بما أعدَّ لك من الخير ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ أي من قبل الله تعالى.

(٢٩) ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي في جملة عبادي الراضين المرضيين.

(٣٠) ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ وهذا ما يقال للنفس المطمئنة عند الاحتضار بشارة من الملائكة لهذه النفس التي جوزيت بالجنة.

آخر تفسير سورة الفجر ولله الحمد والشكر والثناء الحسن

(٩٠) سُورَةُ البَلَدِ

مكية وآياتها ٢٠، نزلت بعد ق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي لا، ليس الأمر كما ظننتم وحسبتم، أقسم بهذا البلد الحرام مكة، وهذا دليل على عظم قدرها.

(٢) ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي الذي أنت حلٌّ فيه، وقد أحل الله للنبي ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وفي الحديث: «... إنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» [٨٥٣].

(٣) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي يقسم الله بآدم وما نسل منه من ولد، لأنهم أعجب ما خلق الله في الأرض لما فيهم من الأنبياء والعلماء والصالحين.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ وهذا جواب القسم أي أقسم إننا خلقنا الإنسان في مكابدة الدنيا حتى يموت.

(٥) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فيطغى أو يفتخر ويتمادى.

(٦) ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي كثيرًا جدًا في المعاصي والشهوات.

(٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي أيظن أن الله لا يراه، ولن يحاسبه؟

(٨) ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ أي أفلا يشكر الله على نعمة البصر بالطاعة له.

(٩) ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ أي يعينانه على التلفظ والكلام فيحمد الله ويشكره.

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي دللناه على طريق الخير والشر وخيَّرناه فيهما.

(١١) ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ والعقبة: عائق صعب وهنا تأتي بمعنى العوائق دون الأعمال الصالحة، وقد أمرنا الله باقتحام هذه العوائق والعقبات، فقال:

(١٢) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ أي ما أعلمك بها؟ ثم أعلمه بها؛ فقال:

(١٣) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي اقتحم العقبة بفكِّ رقبة المملوك من الرق، وفي الحديث: «من أعتق رقبةً مؤمنةً أعتق الله بكل إرب -عضو- منها إربًا منه من النار» [٨٥٤].

(١٤) ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي مجاعة.

(١٥) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قرابة، وفي الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة» [٨٥٥].

(١٦) ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي فقير لا مأوى له إلا التراب.

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي كان مؤمنًا يتصدق على مؤمنين ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي الذين ينصحون بالصبر على الأذى في سبيل الله وعلى الرحمة بين الناس.

(١٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب اليمين، وفي الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» [٨٥٦]، وفيه دليل على أن الله في السماء، أي فوقها.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي أما الذين كفروا وماتوا وهم كفار فإنهم من أصحاب الشمال.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي مطبقة ومغلقة عليهم دائمًا خالدين فيها أبدًا.

آخر تفسير سورة البلد ولله الحمد والشكر وعليه التكلان

أحل الله مكة لنبيه محمد ﷺ يوم الفتح ساعة من نهار ثم حرمها إلى يوم القيامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣
وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا
٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ
أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ
بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ
نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ
عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥

سُورَةُ ٱللَّيۡلِ (٩٢) (٢١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣
إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦
فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ
٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا
لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤

(٩١) سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية وآياتها ١٥، نزلت بعد القدر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أقسم الله سبحانه بالشمس وضحاها أي بنهارها، وفي الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيها بالشمس وضحاها، والضحى. [٨٥٧].

(٢) ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ وأقسم الله أيضًا بالقمر إذا تلا الشمس فتغرب في الغرب ويطلع من الشرق.

(٣) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي إذا أظهرها بجلاء ووضوح.

(٤) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ أي فيذهب ضوؤها وتظلم الآفاق.

(٥) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي (ما) بمعنى (من) أي والسماء والذي بناها.

(٦) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي وبسطها، والطحو: البسط.

(٧) ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي خلقها وأنشأها من العدم.

(٨) ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ أي دلها على الفجور لاجتنابه وعلى التقوى لعملها، ثم خيرها بعد ذلك تمام الخيار أن تفعل ما تشاء منها، والثواب والعقاب على ذلك وليس الإلهام فيه بمعنى الإجبار بدليل ما جاء بعدها من الآيتين:

(٩) ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وهذا جواب القسم أي نجح وأفلح من طهرها بعمل الخير والطاعة.

(١٠) ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي خسر من أضلها وأغواها.

(١١) ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ أي كذبت بنبيها صالح طغيانًا وكفرًا.

(١٢) ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ وهو عاقر الناقة أشقى رجل في ثمود.

(١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي صالح عليه الصلاة والسلام ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي اتركوا ناقة الله وشربها ولا تمسوها بسوء.

(١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوا رسالته ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي ذبحوا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ أي ضاعف عذابهم وعم جميع الكافرين.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ أي إن الله تعالى لا يخاف عاقبة ما يفعل فإنه لا حسيب له ولا ضد له ولا يجور ولا يظلم أحدًا.

آخر تفسير سورة الشمس ولله الحمد والمنّة والفضل

(٩٢) سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية وآياتها ٢١، نزلت بعد الأعلى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي إذا عم الناس بظلامه، وهذا قسم من الله بالليل وفي الحديث: «... فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى» [٨٥٨].

(٢) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ وأقسم الله بالنهار إذا وضح نوره وضياؤه.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أي والذي خلق الذكر والأنثى وهو الله تعالى.

(٤) ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ وهذا هو المُقسم عليه، أي إن سعي الناس لمختلف: فمنه ما يؤدي بصاحبه إلى الجنة، ومنه ما يؤدي بصاحبه إلى النار.

(٥) ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي من دفع زكاة ماله واتقى الله في جميع شؤونه.

(٦) ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي بالإثابة بالجنة، وفي الحديث: «الحسنى الجنة» [٨٥٩].

(٧) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي نفتح له بابًا آخر إلى العمل الصالح فيؤجر.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي بخل بزكاة أمواله فلم يخرجها واستغنى عن ربه.

(٩) ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بالثواب بالجنة والعقاب يوم القيامة.

(١٠) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ أي فنيسر له أبواب الشر فيدخلها فيجازيه الله بالنار.

(١١) ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي وما يغنيه وينفعه ماله إذا سقط يوم القيامة هاويًا إلى قاع جهنم جزاء كفره؟

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ أي علينا أن نبين طريق الهدى من الضلال.

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ أي إن الآخرة لنا والدنيا جميعًا؛ فمن عمل للدنيا أعطيناه ومن أراد الآخرة أثبناه.

(١٤) ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ أي فحذرتكم نارًا تتوهج وتتوقد أُعدت لمن كفر وأشرك.

لا يجير الله عبده على فعل الخير ولا فعل الشر بل يخيره فيهما ثم يحاسبه على ما فعل

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن
نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾

سُورَةُ الضُّحَى (٩٣) آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سُورَةُ الشَّرْحِ (٩٤) آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي
أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

٥٩٦

(١٥) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي لا يحرق بنارها إلّا الذي آثر الكفر على الإيمان.

(١٦) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب بقلبه وأعرض بجوارحه، وفي الحديث: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى»!!!؟ قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» [٨٦٠].

(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أي كل تقي نقي سيباعَد بينه وبينها.

(١٨) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أي يخرج زكاة ماله للمستحقين فيطهر بها نفسه وماله من حقِّ الغير فيه.

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أي ليس عطاؤه في مقابلة عطاء سابق من أحد أسداه إليه.

(٢٠) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أي ما كان يعطي إلا خالصًا لله، وقوله (الأعلى) فيه دلالة على علُوِّه تعالى على خلقه علوًا بلا كيف.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أي سيرضى بما سيعطيه ربه يوم القيامة حتى يرضى عن عطاء ربه.

آخر تفسير سورة الليل ولله الحمد والشكر والنعمة والفضل

(٩٣) سُورَةُ الضُّحَى

مكية وآياتها ١١، نزلت بعد الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالضُّحَى﴾ يقسم الله بالضحى أي أول النهار حين تعلو الشمس، وفي الحديث: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلةً أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله عزَّ وجل ﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [٨٦١].

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي إذا عمَّ الظلام فيه وسكن الناس عن الحركة.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ أي ما جفاك، بل أنت رسوله حقًا وصدقًا، وفي الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيها: بالشمس وضحاها، وبالضحى [٨٦٢].

(٤) ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي وإن الدار الآخرة الباقية خير لك من الدنيا الفانية.

(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وفي الحديث: «... اللهم أمتي أمتي وبكى. فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك» [٨٦٣].

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ أي ألم يجدك، بلا أب فآواك.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أي لم تكن تدري ما القرآن ولا الشرائع فهديناك كذلك لأنك تحب الهداية وتسعى لها سعيها وتحب الحق والخير.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أي ألم تكن فقيرًا ذا عيال فأغنيناك عن سوانا؟ فجمعنا لك بين مقامي ثواب الصبر والشكر فكنت راضيًا مرضيًا.

(٩) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي فلا تذلّه ولا تنهره فقد كنت يتيمًا مثله

(١٠) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تنهر بالسائل فقد كنت فقيرًا يتيمًا.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي فتحدث بما أنعمنا عليك، وفي الحديث: «... واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا» [٨٦٤]، وفي الحديث أيضًا: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [٨٦٥].

آخر تفسير سورة الضحى ولله الحمد والمنّة والفضل

(٩٤) سُورَةُ الشَّرْحِ

مكية وآياتها ٨، نزلت بعد الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي نوّرناه وجعلناه رحيبًا واسعًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق حتى يقوم بأعباء الدعوة وحفظ الوحي والصبر على الأذى.

(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي غفرنا لك كل ذنبك.

(٣) ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثقلك حمله فحططناه عنك وأرضيناك.

(٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي وجعلنا ذكرك رفيعًا خالدًا فلا أذكر إلا وتذكر معي في التشهد.

(٥) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وهذه بشارة له ﷺ باليسر بعد العسر، وفي الحديث: «وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرًا» [٨٦٦].

(٦) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وفي الحديث: «لن يغلب عسرٌ يسرين»(١) [٨٦٧].

(٧) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي فإذا فرغت من أشغال الدنيا فقم إلى العبادة وانصب إليها.

(٨) ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ أي أخلص إلى ربك الرغبة دائمًا في كل طاعة.

آخر تفسير سورة الانشراح ولله الفضل والنعمة والثناء الحسن

---

(١) إسناده ضعيف.

... فقال الله يا جبريل: اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك ...

سورة التين (آياتها ٨) (٩٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سورة العلق (آياتها ١٩) (٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ
الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ
الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ
بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن
لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ
﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

٥٩٧

(٩٥) سورة التين

مكية وآياتها ٨، نزلت بعد البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ المقصود منها مكان والله أعلم، وهو بيت المقدس مبعث عيسى عليه السلام، وليس المراد شجرهما ولا ثمرهما؛ لأن القسم جاء على أمكنة بعث منها أنبياء.

(٢) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ وهو جبل الطور من شبه جزيرة طور سيناء الذي كلم الله منه موسى عليه السلام تكليمًا. وبعثه منه نبيًا رسولًا إلى بني إسرائيل.

(٣) ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهو مكة المكرمة التي كرَّمها الله ببيته العتيق. ومنها بعث سيد الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله ﷺ.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهذا هو المُقسَم عليه بأنه خلق الإنسان في أحسن خلقة وهيئة، ووهبه عقلًا، وتكليفًا، وتشريفًا.

(٥) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي جعله في أحسن تقويم ليقوم بأشرف تكليف، فإذا لم يقم به ردَّه الله إلى النار وجعله أسفل سافلين جزاءً وفاقًا.

(٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا في قلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي حققوا الإيمان بالعمل والطاعات صلاةً وزكاة وصيامًا وحجًا وجهادًا في سبيل الله ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي أجور في الجنة غير منقطعة.

(٧) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي فما يحملك على التكذيب بالمعاد.

(٨) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ أي وسيحكم الله يوم القيامة بين خلقه فيثيب المحسن ويعذب المسيء وهو أحكم الحاكمين عدلًا وفضلًا.

آخر تفسير سورة التين ولله الحمد والشكر والمنّة

(٩٦) سورة العلق

مكية وآياتها ١٩، وهي أول ما نزل من القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أمر الله نبيه أن يقرأ ما يوحى إليه مبتدئًا باسم الرب الذي خلق الخلق جميعًا، وهي أول سورة نزلت من القرآن.

(٢) ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي خلق بني آدم من علقة كانت نطفة.

(٣) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي ردِّد القراءة وإن كنت أميًا فإنه يعلمك.

(٤) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي علم الإنسان الكتابة بالخط بالقلم، وفي الحديث: «قيِّدوا العلم بالكتابة» [٨٦٨]، وهذا شرف لها وللقراءة.

(٥) ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي علم الله الإنسان الذي لم يكن يعلمه، وفي الحديث: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» [٨٦٩].

(٦) ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ أي حقًا إن الإنسان الكافر يتكبر.

(٧) ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ أي إذا كثر ماله طغى واستكبر على ربه.

(٨) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أي إليه تعالى المآل والمآب والمصير.

(٩) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ أي هو أبو جهل لعنه الله دنيا وأخرى.

(١٠) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ أي توعد النبي ﷺ إذا رآه صلى.

(١١) ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي فما ظنك يا أبا جهل إن كان محمد على الحق.

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ وأمر أيضًا بتقوى الله ثم أنت يا أبا جهل تتوعَّده وتزجره.

(١٣) ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذب أبو جهل بما جاء به محمد ﷺ.

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي أعماله الخبيثة ويسمع أقواله التهديديَّة.

(١٥) ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي عن عناده وتمرده ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنجذبنه من ناصيته إلى النار.

(١٦) ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذب في مقاله، خاطئ في أفعاله.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي فليستنجد بكل جماعته.

(١٨) ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وهم ملائكة العذاب، وفي الحديث: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأنَّ على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة» [٨٧٠]، وفي حديث آخر: ... فما فجأهم منه إلا وهو ينكفئ على عقبيه، ويتقي بيده؛ فقيل له: مالك؟ قال: إن بيني وبينه خندقًا من نار. [٨٧١].

(١٩) ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي يا محمد لا تطع أبا جهل فيما يهدِّدك به، بل ﴿وَاسْجُدْ﴾ أي صلِّ ﴿وَاقْتَرِب﴾ منَّا بطاعتك وسجودك فإننا نحميك.

أبو جهل لعنه الله أضعف وأحقر من أن يمس رسول الله بسوء والله حاميه وناصره

(٩٧) سُورَةُ القَدْرِ

مكية وآياتها ٥، نزلت بعد عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن في ليلة مباركة هي ليلة القدر من ليالي شهر رمضان، ليلة السابع والعشرين، لا أنها في ليلة النصف من شعبان، وفي قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ فيه دليل أنه نزل من أعلى إلى أسفل ولما كان نزوله من عند الله دلَّ على علوِّ ذات الله علوًّا حقيقيًّا بلا كيف.

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ هذا تعظيم لشأن هذه الليلة، وسميت ليلة القدر لأنه تعالى يقدر فيها ما شاء من أمره السنة القابلة.

(٣) ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي إن العبادة فيها خير من ألف شهر ليس في لياليه ليلة القدر، كيف لا وقد اختصَّها الله بإنزال القرآن العظيم فيها.

(٤) ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ أي تهبط الملائكة بقيادة الروح وهو جبريل عليه السلام بكثرة عظيمة وبالبركة والرحمة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة من الآجال والأقدار.

(٥) ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي سالمة لا يستـطيع الشـيطان أن يعمل فيها سوءًا ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي تبقى البركات والرحمات في تنزلٍ على المؤمنين حتى الفجر، والدعاء فيها مستجاب، وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان، وفي الحديث: «إنها ليلة سبع وعشرين» [٨٧٢]، وأمارتها أنها صافية بلجة، وصبيحتها تخرج الشمس ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر. ويغفر لمن يقومها ما تقدم من ذنبه [٨٧٣]، وكلمة (هي) منها هي الكلمة السابعة والعشرون، وهذا استنتاج لطيف.

آخر تفسير سورة القدر ولله الحمد والشكر والثناء الحسن

(٩٨) سُورَةُ البَيِّنَةِ

مدنية وآياتها ٨، نزلت بعد الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كان أهل الكتاب والمشركون يقولون: إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود. فلما بعث تفرقوا كما حكاه الله عنهم في هذه السورة، و﴿الْبَيِّنَةُ﴾ هو محمد ﷺ والقرآن، لا ينفكّان.

(٢) ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وهذا تفسـير للبينة أي هي رسول الله يتلو صحفًا مطهرة من الباطل.

الجزء الثلاثون — سورة القدر

سُورَةُ القَدْرِ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢)
لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

سُورَةُ البَيِّنَةِ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ
حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢)
فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ
الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)

٥٩٨

(٣) ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي فيها آيات وأحكام مستقيمة غير معوجَّة.

(٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي ما تفرقوا فصار منهم مؤمن بالبينة وكافر بها إلا بعد محمد ﷺ الذي أبان الهدى بعد الضلال، والإيمان بعد الكفر.

(٥) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا﴾ أي أهل الكتاب من قبل، ومن بعدهم جميعًا ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أي وما أمرهم الله إلا أن يفردوه بالعبادة وحده ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي عليهم وعلى من يعولون ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي عن أموالهم ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي وهذا الذي سبق ذكره هو الدين القويم والصراط المستقيم.

(٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من قريش وسائر العرب، أي كفروا بالله ورسوله وبالقرآن ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أبدًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي اليهود والنصارى والمشركون ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي شر الخليقة أجمعين.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بالله ورسوله وبالقرآن ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي قاموا بالأعمال المفروضة والنوافل بأبدانهم وأموالهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي خير مَنْ في الخليقة أجمعين؛ فكما أن الكفار هم شرُّ البرية كان المؤمنون في مقابلهم خير البرية، حتى وعلى الملائكة؛ لأنهم من البرية.

ليلة القدر في ٢٧ رمضان لا في ١٥ شعبان، أمر المكلفين جميعًا بإفراد العبادة لله

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

ترتيبها ٩٩ - آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

ترتيبها ١٠٠ - آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا
﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ
ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾

(٨) ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي مكافأة المؤمنين عند ربهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات خلود ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت قصورها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أطاعوه بتنفيذ شرائعه ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعد لهم في الجنات من الخير ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي هذه الجنات والرضوان لمن يخشى الله.

آخر تفسير سورة البينة ولله الحمد والمنّة والشكر والفضل وعليه التكلان

(٩٩) سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مدنية وآياتها ٨، نزلت بعد النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا تحركت حركة شديدة من أسفلها، وذلك عند قيام الساعة وهي النفخة الأولى.

(٢) ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي حينها تتزلزل وتتفجر تخرج كلَّ ما في باطنها من الأموات والدفائن والمعادن إلى ظاهرها في النفخة الثانية.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي يقول الإنسان الكافر: لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها، أي استنكر أمرها واضطرابها.

(٤) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ وفي الحديث: «... أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّ أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا فهذه أخبارها»(١) [٨٧٤].

(٥) ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أنْ تخبرَ بذلك، أمرها أن تنشق فانشقت وأن تقول فقالت، وليس لها أن تعصي أمره.

(٦) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي يخرجون من قبورهم فرقًا وأنواعًا وأصنافًا بين شقي وسعيد ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي كتاب أعمالهم من خيرٍ أو شرٍّ.

(٧) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ أي ومن كان عاملًا في دنياه وزن ذرة من خير فسوف يجازى عليه، وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة ولو بكلمة طيبة» [٨٧٥].

(٨) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أي ومن كان عاملًا في دنياه وزن ذرة من شرٍّ فسوف يخبر به، ويجازى عليه، وفي الحديث: «إياكم ومحقَّرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» [٨٧٦].

آخر تفسير سورة الزلزلة ولله الحمد والمنّة وعليه التكلان

(١٠٠) سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

مكية وآياتها ١١، نزلت بعد العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ يقسم الله تعالى بالخيل التي تعدو في الغزو إذا عدت مسرعة نحو العدو. والضبح صوت أنفاس الخيل.

(٢) ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي المشعلات من سنابكها نارًا من اصطكاكها بالصخر.

(٣) ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويستمع الأذان فإن سمع أذانًا وإلا أغار. [٨٧٧]، وهذا من هديه.

(٤) ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي فأثرن بعدوِّهن وغاراتهن الغبار.

(٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي توسطن براكبيهن صباحًا جموع الأعداء.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي كفور لنعم الله تعالى، وهذا هو المُقسَم عليه، والمقصود به الإنسان الكافر، أما المؤمن فهو شاكر نعمته تعالى في كل حال.

(٧) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان الكافر الذي عمي عن نعم الله عليه. هذه النعم التي يحسُّها ويعيشها لم يشكرها بالإيمان بموليها ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي بلسان حاله.

(٨) ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإن محبته للمال والحرص على جمعه لمحبة شديدة، وأنه لمولع بكنزه فلا يعطى منه حق المستحق الفقير ويبخل به.

(٩) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي هلا يعلم هذا المغتر بهذه الدنيا الزائلة، إذا أخرج الله ما في القبور من الأموات يوم القيامة.

(١) إسناده ضعيف.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ القَارِعَةِ

ترتيبها ١٠١ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ
﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا
مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ
﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ
﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

ترتيبها ١٠٢ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

٦٠٠

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي أعلن الله ما كان فيها مستترًا من الخير والشر، والإيمان والكفر، وأبرز كلَّ ما كان خافيًا.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي خبير بتلك المكنونات والمعلنات. وإنه تعالى سيجازي كلًّا بما يستحق من الجزاء. وهو العدل الذي لا يجور.

آخر تفسير سورة العاديات ولله الحمد والمنّة والفضل وله الشكر وبه العصمة وعليه التكلان

(١٠١) سُورَةُ القَارِعَةِ

مكية وآياتها ١١، نزلت بعد قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة فهي عند قيامها تقرع الأنفس والأفئدة بالرهبة من زعازعها، ولهذا أعظم الله أمرها فقال:

(٢) ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ أي وهذا الاستفهام لتعظيم أمرها وتفخيم شأنها؛ كما سبق قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣].

(٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ وهذا تأكيد لشدة هولها وعظيم فزعها ومزيد فظاعتها حتى كأنها فوق ما يتوقعها المتوقِّعون.

(٤) ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي عندما يقومون من قبورهم إلى ربهم ينسلون كأنهم الفراش المنتشر يجيبون الداعي.

(٥) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ أي كالصوف المندوف.

(٦) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالأعمال الصالحة المتقبَّلة التي ما قامت إلا خالصة لوجهه الكريم، وعلى طبق شريعته الغرّاء.

(٧) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي في الجنان العالية قطوفها دانية.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ فلم يكن له فيها أعمال مخلصة، فكانت رياءً ونفاقًا لغير الله تعالى وأعمالًا مبتدعة ويعلم بها.

(٩) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي فهو يهوي على أمِّ رأسه في نار جهنم ومسكنه في قعرها، هذا إذا مات كافرًا ولم يتب.

(١٠) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ أي إنها فوق ما تتصوره العقول.

(١١) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي بلغت منتهاها في الحرارة والشدة.

آخر تفسير سورة القارعة ولله الحمد والمنّة والشكر

(١٠٢) سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكية وآياتها ٨، نزلت بعد الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي بالمال والأولاد عن طاعة الله والإيمان به.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي بقيتم هكذا حتى فاجأكم الموت وأنتم كذلك.

(٣) ﴿كَلَّا﴾ أي ارتدعوا عمّا أنتم فيه و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ماذا سيكون من أمركم، وأنتم لا عمل لكم تقدمونه بين يدي ربكم.

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا ردع آخر لغفلتهم وتأكيد لما سيلقونه يوم القيامة، مع العلم أن التكاثر مع الطاعة والعمل الصالح محمود.

(٥) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو تيقنتم ماذا سيفعل بكم في نار جهنم.

(٦) ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي قسمًا لترونَّها وتحرقون بنارها جزاءً وفاقًا.

(٧) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي تأكيد أكيد ستصلون النار ولا تجدون عنها مصرفًا؛ فإن الله لا يظلم ولا يجور، وحاشاه جلَّ جلاله من ذلك.

(٨) ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي إن هذه النعم العظيمة التي تتصرفون بها في الدنيا سيسألكم الله تعالى عنها من أين جمعتموها وأين صرفتموها إن كانت أموالًا أو كانت صحة وعافية أو كانت أي نوع من أنواع نعم الله؛ فكل ذلك مسؤول عنه الإنسان يوم القيامة. وفي الحديث: «يقول العبد: مالي مالي، وإن له من ماله ثلاثًا: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» [٨٧٨].

آخر تفسير سورة التكاثر ولله الحمد والمنّة

ستوزن الأعمال يوم القيامة، الدنيا شغلت الكفار عن الآخرة حتى فاجأهم الموت

سُورَةُ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

سُورَةُ الفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

٦٠١

(١٠٣) سُورَةُ العَصْرِ

مكية وآياتها ٣، نزلت بعد الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم الله بالعصر. والعصر كلمة لها معنيان: الأول: الدهر، والثاني: صلاة العصر. وكلا المعنيين صحيحان، فإقسام الله بالدهر لما فيه من العبر، من جهة مرور الليل والنهار وتعاقبهما، ونأخذ من حوادثه وما يجري بين طياته عبرةً من تاريخ الأمم وإن الله هو المقدر لكل ذلك وهو الخالق للدهر ولكل شيء فتخبت القلوب له، وتنقاد بالتوحيد لذاته وصفاته وأفعاله جل جلاله. أو إذا كان المقصود بالقسم صلاة العصر فهي الصلاة الوسطى التي أمر الله تعالى بالمحافظة عليها خاصة والمحافظة على بقية الصلوات عامة؛ كما في الحديث: «من فاتته صلاة العصر حبط عمله» [٨٧٩]، مما يدل على شأنها العظيم عند الله تعالى. فلذلك أقسم بها معظمًا لها بالمحافظة على الصلوات مطلقًا وبخاصة صلاة العصر المشهودة من الملائكة هي وصلاة الفجر.

(٢) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي إن النوع الإنساني خاصة لفي خسران. وهذا جواب القسم أي يقسم الله بالعصر؛ أن الإنسان خاسر في مساعيه.

(٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا استثناء من الخسران للذين آمنوا به وبرسله وما أنزل عليهم من الكتب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي دللوا على إيمانهم بالعمل الصالح الموافق للشريعة والخالص لوجهه الكريم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي أمروا الناس بالأخذ بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح المقبول ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بالدعوة إلى الله على بصيرة وترك الأنداد. وبالصبر على أذى المخالفين الكافرين وما يلقون منهم من الظلم والاضطهاد في سبيل الدعوة حتى ينصرها الله أو يهلكوا دونها؛ فإن الله معهم ولا بد أنه ناصرهم على أعدائهم في الدنيا بالعزِّ والمجد وفي الآخرة بالجنة.

آخر تفسير سورة والعصر، ولله الحمد والمنّة والشكر

(١٠٤) سُورَةُ الهُمَزَةِ

مكية وآياتها ٩، نزلت بعد القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي العذاب في وادي الويل في جهنم للمغتابين العيَّابين. نزلت في من كان يغتاب النبي والمؤمنين كأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وغيرهما من قريش.

(٢) ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي جمعه وأحصى عدده وجعله عدة له.

(٣) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أيظن أن جمعه المال في الدنيا يخلده.

(٤) ﴿كَلَّا﴾ أي ليس كما ظنَّ ﴿لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي سوف يموت ثم يبعث ويعاقب بقذفه في نار الحطمة التي تحطمه هو وماله.

(٥) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ أي إنَّ هولها فوق ما تدركه العقول.

(٦) ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي الحطمة هي نار الله التي لا تنطفئ، وإنما أضيفت إلى اسم الجلالة؛ لأنها هي ناره التي يحطم بها الكافرين.

(٧) ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أي تخترقها وتلهبها بنار لا تحتمل.

(٨) ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي مغلقة عليهم حتى يتضاعف إحراقها.

(٩) ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي مديدة الطول والعمق تغلق عليهم إلى الأبد.

آخر تفسير سورة الهمزة ولله تعالى الحمد والشكر

(١٠٥) سُورَةُ الفِيلِ

مكية وآياتها ٥، نزلت بعد الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي علمت يا محمد وعلم الناس جميعًا ما فعل الله بجيش أبرهة الحبشي الذي تعمد هدم الكعبة بيت الله فثار الله لبيته العظيم فأبادهم عن آخرهم، وفي هذا العام ولد الرسول ﷺ.

(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي جعـل الله كيد الأحباش الكفرة في ضياع ولم يستطيعوا أن ينالوا مما تعمدوا من هدم البيت.

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ فقد أنشأ الله هذه الطيور إنشاءً خاصًا لأجل هذه المعركة، فأرسلها الله لإبادة جيش أبرهة الحبشي.

(٤) ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تحمل هذه الطيور الكثيرة حجارة من جهنم، وحلقت فوق جيش أبرهة وبدأت ترميهم بها حتى أبادتهم جميعًا.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي جعلتهم كورق الزرع إذا راثته الدواب، وقد أهلكهم الله جميعًا إلا أبرهة؛ فما مات حتى وصل قومه وأخبرهم بما جرى.

آخر تفسير سورة الفيل ولله تعالى الحمد والشكر
وله الفضل والمنّة وعليه التكلان

(١٠٦) سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية وآياتها ٤، نزلت بعد التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أي أهلك الله أصحاب الفيل لأجل تآلف قريش على نعمة الله حتى يشكروها ولا ينسوها، وما الشكر إلا بالطاعة والعمل بالأوامر.

﴿٢﴾ ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ وقد امتن الله عليهم بأن أبقى لهم عاداتهم في رحلتي الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام آمنين على أنفسهم وأموالهم.

﴿٣﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ أي فليعبدوا الله ربهم ورب هذا البيت الذي حماه الله من كيد أبرهة وجنوده الذين أخسأهم ورجعوا عن البيت خاسرين هالكين، وهذه نعم خصَّ الله بها قريشًا حتى تعلم فضل الله عليها ولا تنساه مدى الحياة إذ جعلهم أهل بيته وسدنة كعبته، فليشكروه ولا يكفروه.

﴿٤﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي لما دعا عليهم النبي ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون؛ فدعا فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط. [٨٨٠]، ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي أمن قريشًا من الغارات عليهم لمكانهم من الحرم، وكذلك آمنهم سبحانه من الحبشة يوم غارتهم على بيت الله.

آخر تفسير سورة قريش ولله الحمد والمنّة والشكر والفضل

(١٠٧) سُورَةُ الْمَاعُونِ

مكية ثلاث الآيات الأول مدنية الباقي، وآياتها ٧، نزلت بعد التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي أرأيت يا محمد الذي يكّذب بالدين هل هو على صواب أم هو على خطأ؟ والمقصود التعجب من موقف هذا المكذب بالدين، قيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل: العاص بن وائل السهمي، والخطاب موجّه للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿٢﴾ ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي يدفع اليتيم دفعًا عنه وعن حقه.

﴿٣﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي لا يطعم المسكين الذي لا شيء عنده يقوم بأوده ولا يحضّ الناس على إطعامه ومعونته.

﴿٤﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي فالويل وهو واد في جهنم للمصلين:

﴿٥﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي الذين يؤخرون صلاتهم عن وقتها؛ كما في الحديث: سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»(١)(٢) [٨٨١]. فليتب الذين يؤخرونها عن وقتها.

﴿٦﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ في صلاتهم وأقوالهم وأعمالهم، وفي الحديث: «من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه، وحقّره وصغّره» [٨٨٢]، ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: كنت أصلي فدخل عليّ رجل فأعجبني ذلك، فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «كتب لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية»(٣) [٨٨٣].

﴿٧﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي يمنعون العارية كالحجر والحديد وأشباه ذلك.

(١٠٨) سُورَةُ الْكَوْثَرِ

مكية وآياتها ٣، نزلت بعد العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ كما في الحديث: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله» [٨٨٤]، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل أي لا يصح كل تفسير يخالف ما فسّره رسول الله ﷺ

﴿٢﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي المراد أن يصلي رسول الله ﷺ صلاة العيد يوم الأضحى، ثم ينحر ضحيته بعد الصلاة، وهذا عام لجميع المسلمين.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي قال المشركون لما مات أبناء النبي ﷺ قالوا: بُتر محمد؛ فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [٨٨٥] فقد أبقى الله ذكر محمد أبدًا لا يخبو ولا ينطفئ، وشرعه باستمرار على دوام الآباد، ويكفي أن يكون اسمه مقرونًا دائمًا باسم الله تعالى كلما نادى المؤذن: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله).

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

٦٠٢

الويل لمن أخّر الصلاة عن وقتها، الكوثر نهر في الجنة أعطاه الله محمداً ﷺ

---

(١) لنا رسالة في موضوع الصلاة الفائتة اسمها «نصوص الشريعة الثابتة في قضاء الصلوات الفائتة» تحت الطبع.

(٢) ضعيف. ويدل لمعناه قول النبي ﷺ: «تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلًا». رواه مسلم.

(٣) إسناده ضعيف.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا
كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ
حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

٦٠٣

(١٠٩) سُورَةُ الكَافِرُونَ

مكية وآياتها ٦، نزلت بعد الماعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد وبلغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي يا أيها الذين كفروا بالله ورسوله وبما أنزل عليه من القرآن ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نزلت هذه السورة الكريمة فور ما سأل المشركون محمدًا ﷺ قائلين: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فأمره الله أن يجيبهم قائلًا:

(٢) ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا أعبد أصنامكم التي جعلتموها أندادًا لله تعالى والتي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا ترزق ثم أخالف ما أدعوكم إليه.

(٣) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم عابدون الله الذي أعبد، لا الآن ولا في المستقبل لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله تعالى وتقدس.

(٤) ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي ولا أنا بعابد عبادتكم التي تعبدون بها غير الله وتشركون به ما هو باطل لا أساس له.

(٥) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم عابدون عبادتي التي تخالف عبادتكم لأصنامكم؛ فإنني أفرد الله بعبادتي وأنتم تنددون أي تجعلون لله أندادًا وأمثالًا تحبونهم كحب الله فكيف تطلبون مني أن أعبد آلهتكم سنة وتعبدون إلهي سنة؟ والعبادة لا تصح إلا لله الذي خلق، فأروني ماذا خلقت آلهتكم؟ وهكذا فقد تبرأ رسول الله ﷺ من جميع ما هم عليه.

(٦) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم دينكم الذي هو الشرك ولي ديني الذي هو دين التوحيد الخالص. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف.

آخر تفسير سورة الكافرون ولله الحمد والمنّة والشكر

(١١٠) سُورَةُ النَّصْرِ

نزلت بمنى في حجة الوداع فتعد مدنية وهي آخر ما نزل من السور وآياتها ٣، نزلت بعد التوبة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ أي إذا أظهرك الله على المشركين وفتح الله عليك مكة وعدت إليها ظافرًا منصورًا على الشرك وأهله.

(٢) ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ثم رأيت العرب من سائر أنحاء الجزيرة يأتونك فوجًا بعد فوج مؤمنين.

(٣) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أي عندما تحصل هذه الإشارات المتقدمة فأكثر من التسبيح والاستغفار، ولا شكّ أنه قابل التوب وغافر الذنب سبحانه وتعالى، وفي الحديث: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نعيت إليّ نفسي»، فإنه مقبوض في تلك السنة [٨٨٦]. فكان عليه الصلاة والسلام بعد ذلك أشد ما يكون اجتهادًا في أمر الآخرة، ويكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» [٨٨٧].

آخر تفسير سورة النصر ولله الحمد

(١١١) سُورَةُ المَسَدِ

مكية وآياتها ٥، نزلت بعد الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أبو لهب كان أحد أعمام رسول الله ﷺ، ولكنه كان أشد الناس عليه وعلى دعوته وأعداهم له، ولما دعا قريشًا فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي»؟ قالوا: نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب لعنه الله: ألهذا جمعتنا؟ تبًا لك. فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [٨٨٨] أي خسرت وخابت وتحققت خسارته وهلاكه.

(٢) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ وكان أبو لهب يقول: إن كان ما يقوله ابن أخي حقًا فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي فأنزل الله ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

(٣) ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذات اشتعال وتوقُّد ولهب وشرر وإحراقٍ شديد جزاء ما كان منه من الأذى الشديد لرسول الله ﷺ.

(٤) ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ هي أروى بنت حرب أخت أبي سفيان رضي الله عنه وكانت شديدة الأذية لرسول الله ﷺ وعونًا لزوجها أبي لهب في كفره وعناده.

(٥) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ وقد كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمد، فسيعوضها الله قلادةً من نار على عنقها في جهنم.

(١١٢) سُورَةُ الإِخْلَاصِ

مكية وآياتها ٤، نزلت بعد الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إن سبب نزول هذه السورة الكريمة هو أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك. أي ما هو نسبه؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [٨٨٩]، وفي الحديث: «لكل شيء نسبة ونسبة الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ والصمد ليس بأجوف» [٨٩٠]، فهو واحد أحد الذي لا شبيه له ولا مثيل له ولا ندَّ له فهذا نسب الله تعالى.

(٢) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي هو الذي تصمد له الحوائج لا لغيره من مخلوقاته، وهو الذي لا جوف له، وهو الدائم الباقي الكامل في صفاته.

(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي لم يلد منه أحد ولم يولد هو من أحد حتى ينتسب إليه فليس له والد وليس له ولد.

(٤) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ليس له مثيل ولا عدل ولا ندّ ولا شريك ولا يكافئه أحد في صفاته وأفعاله ولهذا انتفت النسبة منه وإليه وفي الحديث: «من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن» [٨٩١].

آخر تفسير سورة الإخلاص ولله الحمد والشكر والفضل

(١١٣) سُورَةُ الفَلَقِ

مكية وآياتها ٥، نزلت بعد الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي ألتجئ وأحتمي بربِّ فلق الصبح، فهو فالق الإصباح فلا ملجأ ولا حماية إلا به، سبحانه وتعالى.

(٢) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شرّ كلّ ذي شرٍّ من مخلوقاته فلا يلتجأ ولا يعتصم من شرها إلا بخالقها وحده لا شريك له، ولا سواه من معتصم.

(٣) ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي من شر ظلام الليل إذا اقترب وادلهمّ ففيه يكون انتشار أهل الشر من الخلق إنسًا وجنًا وحيوانات.

(٤) ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي ونعتصم بالله وحده من شرّ السواحر اللاتي يستعنَّ على سحرهنَّ بالنفث في العقد التي يعقدنها على السحر. وفي الحديث: «حدُّ السَّاحر ضربة بالسيف» [٨٩٢]، وقيل: إن الساحر لا يستتاب فيقتل فورًا.

(٥) ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي ونستعيذ ونحتمي بالله من شر الحاسد الذي يريد زوال النعمة عن المحسود. ويدخل في الحاسد العائنُ الذي يؤذي الناس بنظره، وفي الحديث: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجن وأعين الإنس [٨٩٣].

آخر تفسير سورة الفلق ولله الحمد والمنّة والفضل

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦

٦٠٤

(١١٤) سُورَةُ النَّاسِ

مكية وآياتها ٦، نزلت بعد الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي قل يا محمد: أعوذ وألتجئ مما أخاف وأحاذر برب الناس أي بخالقهم الذي ربَّاهم بنعمه.

(٢) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي مالكهم ومالك أمورهم وأحوالهم ومصلح شؤونهم، وهو الذي رعاهم برعايته الربانية لا ملك ولا مالك لهم سواه.

(٣) ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ أي معبودهم الذي تألهه قلوبهم وتتوجه إليه وحده بالعبادة في سائر أنواعها، فيلزم لزومًا ألا يشركوا به أحدًا من خلقه.

(٤) ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس، أي تصاغر حتى يصبح كالذبابة.

(٥) ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أي في صدور الناس وفي صدور الجن تغليبًا؛ لأن من الجن مؤمنين يوسوس الشيطان فعل الشر لهم، وفي الصحيحين: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم...» [٨٩٤].

(٦) ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي الذين يوسوسون في الصدور هم شياطين الجن، وشياطين الإنس، وفي الحديث: ... يا رسول الله وللإنس شياطين..!؟ قال: «نعم» [٨٩٥].

آخر تفسير سورة الناس ولله الحمد والمنّة والفضل

نسبة الله: قل هو الله أحد لا يستعاذ من شر أحد من الخلق إلا بالله

وبها يتم هذا التفسير المبارك

وذلك في صباح يوم الثلاثاء

في السادس عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٩٨

والحمد لله الذي تتمّ بنعِمه الصّالحات

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

ملحق تخريج الأحاديث

١- أخرجه: أحمد (٨٦٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.

٢- أخرجه الترمذي (٢٨٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

٣- أخرجه ابن خزيمة (٤٩٠)، وابن حبان (١٧٨٩، ١٧٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ونحوه عند مسلم (٣٩٥).

٤- أخرجه أحمد (١٤٦٤٣)، وابن ماجه (٨٥٠)، والبيهقي (٢٨٩٨)، من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه اختلاف، وحسّنه الألباني في إرواء الغليل (٥٠٠).

٥- أخرجه البخاري (٣٧٨، ٦٨٩)، ومسلم (٤١١) من حديث أنس رضي الله عنه.

٦- أخرجه أبو داود (٧٨٨)، والحاكم (٨٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وصحّحه الألباني.

٧- أخرجه مسلم (٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وزيادة: (وإذا قرأ فأنصتوا) في تصحيحها خلاف بين المحدثين؛ فتكلم فيها أبو داود والدارقطني، وصحّحها الإمام أحمد ومسلم وابن تيمية والألباني.

٨- أخرجه أحمد (٢٠٥٩١)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠١).

٩- أخرجه أحمد (٢٣٣٥٥)، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٦٨٥٠).

١٠- أخرجه أحمد (٨٤٤٣)، ومسلم (٧٨٠)، والترمذي (٢٨٧٧)، والنسائي في الكبرى (٧٩٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١١- أخرجه أحمد (٢٢١٩٣)، ومسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

١٢- أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.

١٣- أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٤- أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٥- أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

١٦- أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

١٧- أخرجه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.

١٨- أخرجه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

١٩- أخرجه أحمد (٣٨٦٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وجوّد الألباني إسناده في الصحيحة (٢٨١).

٢٠- أخرجه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١) من حديث جابر رضي الله عنه.

٢١- أخرجه ابن جرير (٢/ ٢٠٦) عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: ذكر لنا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ. وعن ابن جريج مرسلًا.

٢٢- أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه -كما في الدر المنثور (١/ ١٨٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ وقال الألباني في الضعيفة (٥٥٥٥): منكر.

٢٣- أخرجه أحمد (١٦١٩٦)، والطيالسي (١١٨٥) من حديث أبي رزين رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف.

٢٤- روى أوله ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد (٢/ ٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الألباني في الضعيفة (١٠٩٨): موضوع. وروي تمامه من كلام الحسن البصري رواه ابن أبي الدنيا في الوجل (٢).

٢٥- أخرجه البخاري (٣١٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٦- أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٢٧- أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والبزار (٢٩١٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وأبو نعيم (١٠/ ٢٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦).

٢٨- أخرجه أحمد (٢١٦٩٤)، وأبو داود (٥١٣٢)، وضعّفه الألباني.

٢٩- أخرجه أحمد (٢٢٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٦).

٣٠- أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٦٥٠٨)، ومسلم (٢٦٨٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٣١- أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٢- أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.

٣٣- أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٤- أخرجه الترمذي (١٤٦٠) من حديث جندب رضي الله عنه، وضعّفه الألباني، وصحّ موقوفًا.

٣٥- أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٣) من حديث عمر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.

٣٦- أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٩١) عن مجاهد مرسلًا.

٣٧- أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

٣٨- أخرج الطبري (٢/ ٤٩٩) نحوه. وفيه راوٍ مجهول.

٣٩- أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها واللفظ له.

٤٠- أخرجه البخاري (٤٩٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤١- أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

٤٢- أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٣- أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٤- أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.
٤٥- أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٦- الحديث السابق نفسه.
٤٧- أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٨- أخرجه البخاري (٤٤٨٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
٤٩- أخرجه أحمد (١١٥٥٨)، وابن ماجه (٤٢٧٤)، وصحّحه الألباني.
٥٠- أخرجه الترمذي (٢٩٦٤)، وأبو داود (٤٦٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٥١- أخرجه الطبراني (٢٥/ ٤٣)، وقال الألباني في الضعيفة (٥٦٥٥): موضوع.
٥٢- أخرجه أحمد (٨٦٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٥٤١).
٥٣- أخرجه الترمذي (٢٨١٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال الألباني: حسن صحيح.
٥٤- سبق برقم (١٧).
٥٥- أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٥٦- أخرجه أحمد (٢٧٣٦٧)، وابن خزيمة (٢٧٦٤) من حديث حبيبة بنت أبي تجراة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني في الإرواء (١٠٧٢).
٥٧- أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٥٨- أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.
٥٩- أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٠- أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي رضي الله عنه.
٦١- أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٢- أخرجه الترمذي (٦٥٨)، وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٣- أخرجه أبو داود (٢٧٥١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٦٤- أخرجه البيهقي (١٦٠٤٥) من حديث الحسن مرسلًا.
٦٥- أخرجه أبو داود (٢٨٧٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٦- أخرجه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
٦٧- أخرجه البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (١٠٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٨- أخرجه الطبراني في الدعاء (١٣١٣)، والبيهقي في الدعوات (٦٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو صحيح.
٦٩- أخرجه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٧٠- أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
٧١- أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.
٧٢- أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٧٣- أخرجه البخاري (١٥٦٦)، ومسلم (١٢٢٩) من حديث حفصة رضي الله عنها.
٧٤- أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.
٧٥- أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.
٧٦- اللفظ هكذا ورد في حديثين: فأخرج البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ». وأخرج البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عَبْد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».
٧٧- أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٧٨- تفسير مقاتل (١/ ١٠٨ - ١٠٩)، وهو مرسل.
٧٩- أخرجه الحارث (٦٧٩- بغية)، وأبو نعيم (١/ ١٥١)، عن سعيد بن المسيب مرسلًا.
٨٠- أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٨١- أخرجه أحمد (٧١٠٥) من حديث أبي رمثة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الإرواء (٣/ ٣٢٢).
٨٢- أخرجه مسلم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٣- أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٤- أخرجه البخاري (٥٣٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٥- أخرجه ابن جرير (٤/ ٣٦٧)، من حديث جابر رضي الله عنه، ثم قال: «فهذا الخبر - وإن كان في إسناده ما فيه - فالقول به، لإجماع الجميع على صحة القول به أولى ...».
٨٦- أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤٤٠١)، والطبراني (١٢٩٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الطحاوي (٤٣٩٢) من حديث جابر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الإرواء (٧/ ٦٢).
٨٧- أخرجه أحمد (٩٧٣٣)، وأبو داود (٢١٦٢)، وصحّحه الألباني.
٨٨- أخرجه مسلم (١٦٥١) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
٨٩- أخرجه البخاري (٤٦١٣) عن عائشة موقوفًا.
٩٠- أخرجه أبو داود (٣٢٧٢) من حديث عمر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٩١- أخرجه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٩٢- أخرجه الترمذي (١١٥٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٩٣- أخرجه البخاري (١٢٨١)، ومسلم (١٤٨٦) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

٩٤- أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧) من حديث علي رضي الله عنه.
٩٥- أخرجه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.
٩٦- أخرجه مسلم (٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٩٧- أخرجه أحمد (٧٩٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٣٩٧٥).
٩٨- أخرجه البخاري (٣٩٥٧)، من حديث البراء رضي الله عنه.
٩٩- أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ».
١٠٠- أخرجه ابن حبان (٣٦١)، وصحّحه الألباني.
١٠١- أخرجه أحمد (٢٢٣٥٧)، ومسلم (١٨٩٢)، والنسائي (٣١٨٧) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.
١٠٢- أخرجه أحمد (٢١٤٨١)، ومسلم (١٠٦) من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه.
١٠٣- أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٠٤- أخرجه مسلم (٢٨١٣) من حديث جابر رضي الله عنه.
١٠٥- أخرجه مسلم (٢٨١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.
١٠٦- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٠٦٦).
١٠٧- أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦) من حديث اين مسعود رضي الله عنه.
١٠٨- أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٠٩- أخرجه أحمد (١٧٣٦٨)، وأبو داود (١٣٣٣) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
١١٠- أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وحسّن إسناده الألباني في الضعيفة (٦/ ٦٢٩).
١١١- أخرجه البخاري (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١١٢- أخرجه البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.
١١٣- أخرجه مسلم (١٥٩٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
١١٤- أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١١٥- أخرجه أحمد (٢٣٠٤٦)، والحاكم (٢٢٢٥) من حديث بريدة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٨٦).
١١٦- أخرجه البخاري (٢٢٤٠)، ومسلم (١٦٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
١١٧- أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
١١٨- أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
١١٩- أخرجه الترمذي (١٢٦٦)، وأبو داود (٣٥٦١)، وابن ماجه (٢٤٠٠)، وضعّفه الألباني.
١٢٠- أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
١٢١- أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
١٢٢- أخرجه أحمد (٢٦٦٧٩)، والترمذي (٣٥٢٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
١٢٣- أخرجه أبو داود (٣٠٠١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني.
١٢٤- أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦٩٨)، والطبراني (١٠٢٦٩).
١٢٥- أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.
١٢٦- أخرجه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
١٢٧- أخرجه أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (١٤٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني.
١٢٨- أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٢٩- أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
١٣٠- سبق برقم (٣٩).
١٣١- أخرجه البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٣٢- أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.
١٣٣- أخرجه الطبراني (١٤٤٣٣)، والبيهقي (٤٣٠٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٢٠).
١٣٤- أخرجه ابن أبي شيبة (٤٧٠٠)، وصحّحه الألباني في الضعيفة (١/ ٦٤٢).
١٣٥- أخرجه البخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠) من حديث علي رضي الله عنه.
١٣٦- أخرجه البخاري (٢٨٤٧)، ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
١٣٧- أخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البراء رضي الله عنه.
١٣٨- أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٧٩). وبعضها عند أبي داود (٣٠٤١).
١٣٩- أخرجه أحمد (٣٨٠٠)، والترمذي (٢٩٩٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
١٤٠- أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٢)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٨٤) من حديث سعيد بن جبير، وهو مرسل.
١٤١- أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني (٢١٨) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
١٤٢- أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وحسّنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).
١٤٣- سبق برقم (٣٩).
١٤٤- أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣) من حدي ابن عمر رضي الله عنهما، وحسّنه الألباني.
١٤٥- أخرجه مسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
١٤٦- أخرجه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١٤٧- أخرجه البخاري (٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
١٤٨- أخرجه ابن أبي شيبة (١٥٧١٤) عن الحسن مرسلًا.
١٤٩- أخرجه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٥٠- أخرجه أحمد (١٦٩٧٦)، والدارمي (٢٧٨٦) من حديث أبي جمعة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الضعيفة (٢/ ١٠٥).
١٥١- أخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٥٢- أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
١٥٣- أخرجه البخاري (٤٥٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا.
١٥٤- أصل القصة عند البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وأما الأمر بنضح الخيل فذكره ابن هشام (٢/ ٦٥).
١٥٥- أخرجه أحمد (٥٦٧٤)، والترمذي (٣٠٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
١٥٦- أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٥٧- أخرجه أحمد (٢١٣٤٨)، وأبو داود (٤٧٨٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
١٥٨- أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بدون ذكر القسم.
١٥٩- أخرجه أحمد (١١٧٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٠٤).
١٦٠- أخرجه أحمد (١٥٥٨٧) من حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٣٨٦٢).
١٦١- أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.
١٦٢- أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.
١٦٣- أخرجه الطبري (٧/ ٤٠٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٥) عن ابن عباس موقوفًا عليه، بسند ضعيف.
١٦٤- أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٠١) عن قتادة مرسلا.
١٦٥- أخرجه مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٦٦- أخرجه ابن ماجه (٣٧٤٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
١٦٧- أخرجه أحمد (٢٢٣٦٠)، والدارمي (٢٤٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
١٦٨- أخرجه أحمد (٢٠٣)، ومسلم (١١٤) من حديث عمر رضي الله عنه.
١٦٩- أخرجه مسلم (١٨٧٧) من حديث أنس رضي الله عنه.
١٧٠- أخرجه البخاري (١٤٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٧١- أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد رضي الله عنه.
١٧٢- أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.
١٧٣- أخرجه البخاري (١٣٦٣) مختصرًا، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.
١٧٤- أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠) من حديث أسماء رضي الله عنها.
١٧٥- أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.
١٧٦- أخرجه الترمذي (٣٠٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
١٧٧- أخرجه مسلم (١٨٨٥)، والترمذي (١٧١٢)، والنسائي (٣١٥٧) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.
١٧٨- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني.
١٧٩- أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
١٨٠- أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٨١- أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٨٢- أخرجه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
١٨٣- أخرجه أحمد (٥٥٥٨)، وابن ماجه (١٩٥٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
١٨٤- أخرجه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
١٨٥- أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
١٨٦- أخرجه الدارقطني (٤٢٩٣)، والبيهقي (١٢٥٨٦).
١٨٧- أخرجه الترمذي (٢١٢٠)، وأبو داود (٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢٧١٣) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
١٨٨- أخرجه أحمد (٢٢٧٣٤)، ومسلم (١٦٩٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
١٨٩- أخرجه أحمد (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسّنه الألباني.
١٩٠- سبق برقم (١٥٩).
١٩١- أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.
١٩٢- أخرجه أحمد (١٨٥٧٩)، والترمذي (١٣٦٢) من حديث البراء رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
١٩٣- أخرجه مسلم (١٤٥١) من حديث أم الفضل رضي الله عنها.
١٩٤- أخرجه مسلم (١٤٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
١٩٥- سبق برقم (٩٢).
١٩٦- سبق برقم (١٨٢).
١٩٧- أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
١٩٨- أخرجه أبو داود (٢٢٤٣)، وابن ماجه (١٩٥١) من حديث فيروز الديلمي رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
١٩٩- أخرجه أحمد (١١٦٩١) واللفظ له، ومسلم (١٤٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢٠٠- أخرجه ابن جرير (٨/ ٢٢١) عن ميمون بن مهران مرسلًا.
٢٠١- أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.
٢٠٢- أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٠٣- أخرجه أبو داود الطيالسي (٢٤٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وذكره الألباني في الصحيحة (١٨٣٨).
٢٠٤- أخرجه أحمد (١٦٢٢٧)، والترمذي (٦٥٨)، وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٠٥- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٨٢)، وأبو داود (٤٠٨٤) من حديث جابر بن سليم رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٠٦- أخرجه أحمد (٦٤٨٧)، وأبو داود (١٦٩٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٢٠٧- سبق برقم (١٤٥).
٢٠٨- سبق برقم (٩٧).
٢٠٩- أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٢١٠- أخرجه البخاري (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.
٢١١- أخرجه أحمد (١٨٣١٩) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٦٩٤).
٢١٢- أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
٢١٣- أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٥١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو ضعيف.
٢١٤- أخرجه البخاري (٣٢٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بدون زيادة (شجرة الخلد)، والزيادة عند أحمد (٩٨٧٠).
٢١٥- السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٤١٣).
٢١٦- أخرجه أحمد (١٠٩٥) من حديث علي رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٥١٩).
٢١٧- أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
٢١٨- أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١١٣٩) عن الحسن مرسلًا.
٢١٩- أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٩٥) عن شريح بن عبيد مرسلًا.
٢٢٠- أخرجه البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٢١- أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٢٢- أخرجه النسائي (٣٠٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحح الألباني إسناده.
٢٢٣- أخرجه البخاري (٢٨٩٢)، ومسلم (١٨٨١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
٢٢٤- أخرجه مسلم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
٢٢٥- أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (ص ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٢٦- أخرجه أبو داود (٤٩٧٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٢٧- أخرجه مسلم (١٤٧٩) من حديث عمر رضي الله عنه.
٢٢٨- أخرجه البخاري (٤٥٨٩)، ومسلم (١٣٨٤) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.
٢٢٩- أخرجه ابن جرير (٩/ ٣٣) عن السدي مرسلًا.
٢٣٠- أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٢٣١- أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.
٢٣٢- أخرجه البخاري (٢٨٣١)، ومسلم (١٨٩٨) من حديث البراء رضي الله عنه.
٢٣٣- أخرجه البخاري (٢٨٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه.
٢٣٤- أخرجه البخاري (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٣٥- أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه.
٢٣٦- أخرجه البخاري (١٠٨٣) من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه.
٢٣٧- أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنه.
٢٣٨- أخرجه أحمد (٢٥٧)، وابن ماجه (١٠٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٣٩- أخرجه البخاري (٤١٣٦)، من حديث جابر رضي الله عنه.
٢٤٠- أخرجه ابن جرير (٩/ ١٣٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه موقوفًا.
٢٤١- أخرجه الترمذي (٣٠٣٦) من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٢٤٢- أخرجه البخاري (٧١٦٨)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
٢٤٣- أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها، وضعّفه الألباني.
٢٤٤- أخرجه الترمذي (١٩٧٠) من حديث جابر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٤٥- أخرجه أحمد (٢٧٥٠٨)، والترمذي (٢٥٠٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٤٦- أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه.
٢٤٧- أخرجه أحمد (٦٨) من حديث أبي بكر رضي الله عنه، وحسّنه الألباني في التعليقات الحسان (٢٨٩٩).
٢٤٨- أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رضي الله عنه.
٢٤٩- أخرجه البخاري (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٢٥٠- أخرجه أحمد (٢٤٧٦٥)، وأبو داود (٢١٣٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٢٥١- أخرجه مسلم (١٧١٩) من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.
٢٥٢- أخرجه أحمد (٢١١٧٨)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٢٧٠).
٢٥٣- أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٥٤- أخرجه مسلم (٢٧٨٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٢٥٥- أخرجه البخاري (٢٨٩٦)، والنسائي (٣١٧٨) واللفظ له من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
٢٥٦- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٥٧- أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٥٨- أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.
٢٥٩- أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٢٦٠- أخرجه أبو داود (٢٨٢٧)، والترمذي (١٤٧٦)، وابن ماجه (٣١٩٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٦١- أخرجه أحمد (٥٧٢٣)، وابن ماجه (٣٣١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٢٦٢- أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢١٠٤)، وتمام في الفوائد (١٤٤٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢١٦١).
٢٦٣- أخرجه ابن ماجه (٤٤٣) من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي (٣٧)، وابن ماجه (٤٤٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٦٤- أخرجه البخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥) من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.
٢٦٥- أخرجه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٢٦٦- أخرجه البيهقي (٣٣٨) من حديث علي رضي الله عنه موقوفًا عليه.
٢٦٧- سبق برقم (٢١١).
٢٦٨- أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.
٢٦٩- أخرجه البخاري (٢٩١٣)، ومسلم (٨٤٠) من حديث جابر رضي الله عنه.
٢٧٠- أخرجه الحاكم (٤٣٢٢).
٢٧١- أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٧٢- أخرجه أحمد (١٢٠٢٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني. وأصله عند مسلم (١٧٧٩).
٢٧٣- أخرجه البخاري (٤١٩٢)، ومسلم (١٦٧١) من حديث أنس رضي الله عنه.
٢٧٤- أخرجه البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه.
٢٧٥- أخرجه البخاري (٦٧٩٥)، ومسلم (١٦٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٢٧٦- أخرجه البخاري (٦٧٩٠)، ومسلم (١٦٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٢٧٧- أخرجه أحمد (٦٦٥٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وسنده ضعيف، وأصل القصة في الصحيحين بدون ذكر النزول.
٢٧٨- أخرجه البخاري (١١١)، ومسلم (١٩٧٨) من حديث علي رضي الله عنه.
٢٧٩- أخرجه أبو يعلى (٦٨٦٩)، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٩/ ٤٦٣).
٢٨٠- أخرجه مسلم (٢٦٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٢٨١- أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٨٢- أخرجه البخاري (٤٦١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٢٨٣- أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٢٨٤- أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.
٢٨٥- أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٤٠٠٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٢٨٦- أخرجه ابن الأعرابي في المعجم (٢٣٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٤٤٣٩).
٢٨٧- أخرجه البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٨٨- أخرجه الطبراني (١٢٤٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسنده ضعيف.
٢٨٩- أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.
٢٩٠- أخرجه الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٩١- أخرجه أحمد (٤٢٦٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٧٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٩٢- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٧٢)، وأبو داود (٤٩٣٨)، وابن ماجه (٣٧٦٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٢٩٣- سبق برقم (٢٦١).
٢٩٤- أخرجه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، وابن ماجه (٣٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٢٩٥- أخرجه أحمد (٢١٧٢١)، وابن حبان (٣٣٢٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤٤٣).
٢٩٦- أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢٩٧- أخرجه أحمد (٥٣) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤/ ٨٨).
٢٩٨- أخرجه البخاري (٢٧٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٢٩٩- أخرجه الترمذي (٣٠٦١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني.
٣٠٠- أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٠١- سبق برقم (٢٨٩).
٣٠٢- أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٣٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ضعيف.

٣٠٣- أخرجه الترمذي (٣٠٦٤) من حديث علي رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٣٠٤- أخرجه ابن جرير (١١/ ٣٣٣) عن السدي مرسلًا.
٣٠٥- أخرجه البخاري (٤٦٩٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٣٠٦- أخرجه مسلم (٢٨٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
٣٠٧- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٣٠٨- أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٣٠٩- أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
٣١٠- أخرجه أحمد (١١٦٩٦)، والترمذي (٢٤٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٣١١- أخرجه البخاري (٦٩٣٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٣١٢- أخرجه الطبراني (٦٦١٣)، من حديث سخبرة رضي الله عنه، وهو ضعيف جدًّا.
٣١٣- سبق برقم (١٦٢).
٣١٤- أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
٣١٥- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٨٣)، والترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
٣١٦- أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه.
٣١٧- أخرجه مسلم (٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.
٣١٨- أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣١٥)، والحاكم (٧٨٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وهو ضعيف.
٣١٩- أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٥٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٤٩٧٧).
٣٢٠- أخرجه أحمد (٦٦٩٥)، وابن ماجه (٣٦٠٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسّنه الألباني.
٣٢١- أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، والطبراني في الأوسط (١١٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وضعّف الألباني إسناده.
٣٢٢- أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٩٢٠)، والضياء في المختارة (٣٥١)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٥٩٩١).
٣٢٣- أخرجه أحمد (١٥٢٧٧)، وابن ماجه (١١) من حديث جابر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٣٢٤- أخرجه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٢٥- أخرجه أحمد (٢١١٤٤) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٨٩).
٣٢٦- أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
٣٢٧- أخرجه البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٣٢٨- أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.
٣٢٩- أخرجه أحمد (١٨٥٣٤) من حديث البراء رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).
٣٣٠- أخرجه أحمد (١٥٦٣٢)، والترمذي (٣٤٥٨)، وأبو داود (٤٠٢٣) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وحسّنه الألباني بدون زيادة (وما تأخر).
٣٣١- أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.
٣٣٢- أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.
٣٣٣- سبق برقم (٣٢٩).
٣٣٤- أخرجه البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
٣٣٥- أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٣٦- أخرجه ابن جرير (١٢/ ٤٧٠) من حديث حذيفة رضي الله عنه بهذا السياق.
٣٣٧- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الألباني في الضعيفة (٥١٣٨): موضوع.
٣٣٨- أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٣٣٩- أخرجه أحمد (٢٧٣٢)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٣٤٠- أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.
٣٤١- أخرجه البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١٩٥٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.
٣٤٢- أخرجه الترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقدٍ الليثي رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٣٤٣- سبق برقم (٢٨).
٣٤٤- أخرجه ابن حبان (٦٢١٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٣٤٥- أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٤٦- أخرجه أحمد (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤).
٣٤٧- أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
٣٤٨- سبق برقم (١٦٢).
٣٤٩- أخرجه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.
٣٥٠- أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٥١- أخرجه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.
٣٥٢- أخرجه أحمد (٦٩٩٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه الترمذي (١٢٩٧)، وابن ماجه (٢١٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.

٣٥٣- أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٥٤- أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.
٣٥٥- أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٣٥٦- أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٥٧- سبق برقم (١٨١).
٣٥٨- أخرجه أحمد (٢٢٧٤٧)، والحاكم (٢٦٠٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وقال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسْلم ولم يخرِّجَاه، ووافقه الذهبي.
٣٥٩- أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
٣٦٠- أخرجه البخاري (٢٩١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٧٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه.
٣٦١- أخرجه البخاري (٣٩٩٢) من حديث رفاعة الزرقي رضي الله عنه.
٣٦٢- سبق برقم (٣٣).
٣٦٣- أخرجه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.
٣٦٤- سبق برقم (٣١٥).
٣٦٥- أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
٣٦٦- أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٣٦٧- أخرجه مسلم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.
٣٦٨- أخرجه البخاري (٤٥١٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٣٦٩- سبق برقم (٧٢).
٣٧٠- أخرجه البخاري (٨٧)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٣٧١- سبق برقم (١٦١).
٣٧٢- أخرجه الترمذي (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٣٧٣- أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
٣٧٤- أخرجه مسلم (١٩١٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.
٣٧٥- أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.
٣٧٦- أخرجه مسلم (١٩٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.
٣٧٧- أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه.
٣٧٨- سبق برقم (١٦٢).
٣٧٩- أخرجه أبو داود (٢٦٩١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني.
٣٨٠- أخرجه أحمد (٣٣١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٣٨١- أخرجه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.
٣٨٢- أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٣٨٣- أخرجه الترمذي (٨٧١) من حديث علي رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٣٨٤- أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٣٨٥- عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٥٨) إلى ابن المنذر عن الحسن مرسلًا.
٣٨٦- أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس رضي الله عنه.
٣٨٧- أخرجه أحمد (١٧٧٦) من حديث العباس رضي الله عنه.
٣٨٨- هذا سياق القصة عند ابن كثير، وهو مجموع من عدة أحاديث.
٣٨٩- أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه، والحديث في قصة بدر.
٣٩٠- أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
٣٩١- أخرجه مسلم (٢١٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٩٢- أخرجه أحمد (١٦٩٥٧)، والحاكم (٨٣٢٦) من حديث تميم الداري رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣).
٣٩٣- أخرجه أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (٣٢٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني.
٣٩٤- أخرجه مسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣٩٥- سبق برقم (١٧١).
٣٩٦- أخرجه الحاكم (٢٥٥٢)، والبيهقي (١٧٩٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني في الصحيحة (٦/ ١٢٩).
٣٩٧- أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.
٣٩٨- أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
٣٩٩- سبق برقم (٢٢٠).
٤٠٠- سبق برقم (١٧٢).
٤٠١- أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢٨٧) من حديث ابن عباس مرفوعًا، ومن حديث مجاهد مرسلًا وقوّاه الألباني في الصحيحة (٦/ ١٢٢٨).
٤٠٢- أخرجه الحاكم (٤٩٦٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
٤٠٣- أخرجه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٤٠٤- أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وساق المصنف رحمه الله هذا الحديث والذي قبله سياقًا واحدًا، والصواب أنهما حديثان.
٤٠٥- أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.
٤٠٦- أخرجه أبو داود (١٦٣٠) من حديث زياد بن الحارث رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٤٠٧- أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٨) عن قتادة مرسلًا.
٤٠٨- أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
٤٠٩- أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٤١٠- أخرجه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.
٤١١- أخرجه البخاري (١٣٦٦) من حديث عمر رضي الله عنه، ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٤١٢- من ألفاظ الحديث السابق؛ أخرجه البخاري (٤٦٧٠).
٤١٣- أخرجه أبو يعلى (٤١٣٤)، والبغوي في شرح السنة (٤٤١٨) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعّفه الألباني بهذا التمام في الضعيفة (٦٨٨٩)، وصحّح منه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم». أخرجه الحاكم (٨٧٩١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. الصحيحة (١٦٧٩).
٤١٤- أخرجه البخاري (٤٤٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه، ومسلم (١٩١١) من حديث جابر رضي الله عنه.
٤١٥- أخرجه أحمد (٣٣٦٢)، وأبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٤١٦- أخرجه البخاري (٤١٦٦)، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.
٤١٧- أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي: «وَفِيهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَنْقَزِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ».
٤١٨- أخرجه أحمد (٢٣٣٩٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وفيه ابن حذيفة: مقبول، ولم يتابع؛ فهو ضعيف.
٤١٩- أخرجه البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٢٠- أخرجه ابن إِسْحَق وَابْن مرْدويه عَن أبي رهم كُلْثُوم الْغِفَارِيّ رضي الله عنه كما في الدر المنثور (٤/ ٢٨٦).
٤٢١- أخرجه الترمذي (٣٢٤)، وابن ماجه (١٤١١) من حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٤٢٢- أخرجه البخاري (١١٩١)، ومسلم (١٣٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٤٢٣- أخرجه أبو داود (٢٤٨٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٤٢٤- أخرجه ابن جرير (١٤/ ٥١٣) عن قتادة مرسلًا.
٤٢٥- أخرجه ابن أبي حاتم (١٢/ ٥٢٢) عن قتادة مرسلًا.
٤٢٦- أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٤٢٧- لم أجده مسندًا.
٤٢٨- أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٢٨) من حديث علي رضي الله عنه، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٢٥).
٤٢٩- سبق برقم (٣٤٦).
٤٣٠- أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٢٧٨) من قول سفيان الثوري موقوفًا.
٤٣١- أخرجه مسلم (٢٨٣٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
٤٣٢- أخرجه مسلم (٣٠٠٩) من حديث جابر رضي الله عنه.
٤٣٣- أخرجه البخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.
٤٣٤- أخرجه أحمد (٣٨٦٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٨١) بلفظ: «أشد الناس عذابا يوم القيامة».
٤٣٥- أخرجه الدارقطني في الرؤية (٤٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وله طرق كثيرة، وهو صحيح.
٤٣٦- أخرجه أحمد (١٨٩٣٦) واللفظ له، ومسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.
٤٣٧- سبق برقم (١٣).
٤٣٨- سبق برقم (٣٧٣).
٤٣٩- سبق برقم (١٨١).
٤٤٠- سبق برقم (٤٥).
٤٤١- أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٤٤٢- أخرجه عبد الرزاق (١٠٢١١) من حديث قتادة مرسلًا.
٤٤٣- أخرجه الطبراني (٧٢٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٨٩٠).
٤٤٤- أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٤٤٥- أخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.
٤٤٦- سبق برقم (٤٣).
٤٤٧- أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
٤٤٨- أخرجه اللالكائي (٢٧٧٠) من قول الشعبي. وذكره ابن كثير عن ابن عباس وبعض السلف.
٤٤٩- سبق برقم (٣٣٩).
٤٥٠- سبق برقم (٣٧٣).
٤٥١- سبق برقم (٢٨٩).
٤٥٢- سبق برقم (٣٩).
٤٥٣- أخرجه أحمد (٢١٩٨٨) من حديث معاذ رضي الله عنه، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).
٤٥٤- أخرجه أبو يعلى (١٤٩)، وابن حبان (٦٢٠٩)، والحاكم (٣٣١٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وصحّحه الألباني. وأخرجه ابن جرير (١٥/ ٥٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
٤٥٥- أخرجه البخاري (٧٠٤٤)، ومسلم (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.
٤٥٦- أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٤٥٥) من حديث معاذ رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٤٥٣)، وله شواهد.
٤٥٧- أخرجه الحاكم (٤١٦١)، وقال الألباني في الضعيفة (٨٨٠): باطل بهذا اللفظ.
٤٥٨- أخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.
٤٥٩- سبق برقم (١٠٨).
٤٦٠- أخرجه أحمد (١٦١٨٢)، والترمذي (٢٢٧٨)، وأبو داود (٥٠٢٠)، وابن ماجه (٣٩١٤) من حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.

٤٦١- أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٦٢- أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣) من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٤٦٣- سبق برقم (٥٧).
٤٦٤- أخرجه أحمد (٢٤١٩٥)، وابن ماجه (١٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٤٦٥- أخرجه مالك (٢٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٣)، وصحّحه الألباني.
٤٦٦- أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٦٧- أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٤٦٨- أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٦٩- أخرجه الترمذي (٢٨٣٣)، وأبو داود (٤٩٤٩)، وابن ماجه (٣٧٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٤٧٠- أخرجه البخاري (٧٤٨)، ومسلم (٩٠٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٤٧١- أخرجه أحمد (٢١٤١٠) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣٥٦١).
٤٧٢- سبق برقم (٣٤٠).
٤٧٣- أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٤٧٤- أخرجه مسلم (٢٠٠٢) من حديث جابر رضي الله عنه.
٤٧٥- أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
٤٧٦- أخرجه البخاري (٧٢)، ومسلم (٢٨١١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٤٧٧- أخرجه ابن الجعد في مسنده (١١٠٧) من قول أنس رضي الله عنه.
٤٧٨- أخرجه الترمذي (٣١١٩) من حديث أنس مرفوعًا، وضعّفه الألباني مرفوعًا.
٤٧٩- أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) من حديث البراء رضي الله عنه.
٤٨٠- أخرجه البخاري (٥٤٥٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.
٤٨١- أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
٤٨٢- أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.
٤٨٣- أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٤٨٤- أخرجه مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.
٤٨٥- سبق برقم (٣٣٨).
٤٨٦- أخرجه الترمذي (٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٤٨٧- أخرجه أبو داود (٣٧٨٩) من حديث جابر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٤٨٨- أخرجه البخاري (٥٥١٠)، ومسلم (١٩٤٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.
٤٨٩- أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٤٩٠- أخرجه البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٤٩١- أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
٤٩٢- أخرجه ابن حبان (١٨٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٦٢٢).
٤٩٣- أخرجه البخاري (٤٧٠٧)، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
٤٩٤- أخرجه أحمد (١٧١٧٤) من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في كتاب الحديث حجة بنفسه (ص ٣٠).
٤٩٥- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩)، وأبو داود (٤٩٠٢) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٤٩٦- أخرجه مسلم (٢٥٣٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.
٤٩٧- أخرجه مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٤٩٨- أخرجه الحاكم (٣٣٦٢)، والبيهقي (١٦٨٩٦) من حديث محمد بن عمار مرسلًا.
٤٩٩- أخرجه البخاري (٢٩٣٢)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٠٠- أخرجه مسلم (٨٥٦) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.
٥٠١- سبق برقم (٤٣٢).
٥٠٢- سبق برقم (٣٥٩).
٥٠٣- أخرجه أحمد (٣٨٦٩)، وأبو داود (١٦٤٥) من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٠٤- أخرجه أحمد (١٧١٨٧)، وابن ماجه (٣٦٦١) من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٠٥- أخرجه الخطيب (٦/ ٥٠٣ - ط. بشار) من حديث عمر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (١٧٧٤).
٥٠٦- سبق برقم (٥٧).
٥٠٧- سبق برقم (٢٣٠).
٥٠٨- أخرجه الطبراني (١٢٩٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٥٣٨).
٥٠٩- أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥١٠- أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٤٢) من حديث عبد الرحمن بن قرط رضي الله عنه، وقال الهيثمي: وَفِيهِ مِسْكِينُ بْنُ مَيْمُونٍ، ذَكَرَ لَهُ الذَّهَبِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ، وَقَالَ: إِنَّهُ مُنْكَرٌ.
٥١١- أخرجه أحمد (٢١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٨٨).

٥١٢- أخرجه البخاري (٣٨٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٥١٣ - أخرجه البخاري (٣٢٧١)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٥١٤- أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥١٥- أخرجه البخاري (٤٧١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٥١٦- أخرجه البخاري (٦١٤) من حديث جابر رضي الله عنهما.
٥١٧- أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٥١٨- أخرجه البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥) من حديث البراء رضي الله عنه.
٥١٩- أخرجه أحمد (٢٧٥١٦)، ومسلم (٨٠٩)، والترمذي (٢٨٨٦)، والنسائي في الكبرى (٧٩٧١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.
٥٢٠- أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٥٢١- أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما.
٥٢٢- أخرجه مسلم (٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
٥٢٣- أخرجه أبو داود (٣٦٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٥٢٤- سبق برقم (٤٨٣).
٥٢٥- أخرجه أحمد (١١٧١٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٦٤٩٠).
٥٢٦- أخرجه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥) من حديث علي رضي الله عنه.
٥٢٧- أخرجه أحمد (٢١١٢٦)، والنسائي في الكبرى (١١٢٤٨) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٣٨٠) بنحوه، وأصل الحديث في الصحيحين.
٥٢٨- أخرجه أحمد (١٢٩٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٨٥).
٥٢٩- أخرجه مسلم (٢١٨) بنحوه من حديث جابر رضي الله عنه.
٥٣٠- أخرجه أحمد (٣٠٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وله شواهد، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٠٧٩).
٥٣١- أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.
٥٣٢- أخرجه أحمد (١١٠٦٦) واللفظ له، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
٥٣٣- أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.
٥٣٤- أخرجه أبو داود (١٤٥١) وابن ماجه (١٣٣٥) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٥٣٥- سبق برقم (٤٥٨).
٥٣٦- أخرجه البخاري (٣٢١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٥٣٧- سبق برقم (٤٠).
٥٣٨- أخرجه أحمد (١٤٥٢٠) من حديث جابر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١٥٦).
٥٣٩- أخرجه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٤٠- أخرجه أحمد (٢١٠٧٥)، والبخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥) من حديث خباب رضي الله عنه.
٥٤١- أخرجه أحمد (٩٣٥٢)، والبخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٤٢- أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
٥٤٣- لم أجده بهذا اللفظ، ذكره ابن كثير في تفسيره، وضعف الألباني نحوه في الضعيفة (٤٥٠٠).
٥٤٤- أخرج نحوه الإمام أحمد (٢٢١٨٧)، والبيهقي (٦٧٢٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥٣).
٥٤٥- أخرجه ابن أبي حاتم -كما في الدر المنثور (٥/ ٥٨٦)-، وابن بشران في أماليه (٨٥٧) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.
٥٤٦- أخرجه مسلم (١٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
٥٤٧- ذكره مقاتل في تفسيره (٣/ ١٣٩).
٥٤٨- أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٥٤٩- أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.
٥٥٠- أخرجه أبو يعلى (٦٦٤٤)، ولبزار (٩٤٠٧)، وابن حبان (٣١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٥٥١- أخرجه مسلم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٥٥٢- أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.
٥٥٣- أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
٥٥٤- أخرجه أحمد (٧٩٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني (١٣٢٤).
٥٥٥- أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٥٦- أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
٥٥٧- أخرجه أحمد (٢٧٠٧٩) من حديث فاطمة بنت اليمان رضي الله عنها، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٤٥).
٥٥٨- أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٥٩- أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٥٦٠- أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٥٦١- أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٦٢- سبق برقم (٢٣).
٥٦٣- أخرجه أحمد (١٥٦٢٩) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني دون زيادة: «فربّ مركوبة ...» في الصحيحة (٢١).
٥٦٤- أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه.
٥٦٥- أخرجه مسلم (٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٦٦- أخرجه أحمد (٨٨٦٤)، والترمذي (٢٥٨٢)، والحاكم (٣٤٥٨) وصحّحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٥٦٧- أخرجه البخاري (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.
٥٦٨- أخرجه أحمد (٥٤٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو صحيح.
٥٦٩- أخرجه مطولا أحمد (١٨٥٥٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٥٦).
٥٧٠- أخرجه أبو داود (٢٨٠٦)، والترمذي (١٤٩٨) من حديث علي رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٥٧١- أخرجه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (٥١٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
٥٧٢- عزاه الحافظ في العجاب (٢/ ٩١٨) إلى مقاتل.
٥٧٣- أخرجه الترمذي (٢١٥٥)، وأبو داود (٤٧٠٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٧٤- أخرجه مسلم (٦٨٤٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٥٧٥- أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٥٥٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٧٦- أخرجه الترمذي (٥٧٨) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٥٧٧- أخرجه أحمد (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤).
٥٧٨- أخرجه أبو داود (٤٩٨٦) من حديث رجل من الأنصار رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٧٩- أخرجه النسائي (٣٩٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٨٠- أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٨١- أخرجه الترمذي (١٥٨١) من حديث عمر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٨٢- أخرجه البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدام رضي الله عنه.
٥٨٣- أخرجه البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٥٨٤- أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٥٨٥- أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٥٨٦- أخرجه الترمذي (٣٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٥٨٧- أخرجه الترمذي (٢٤٢)، وأبو داود (٧٧٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٨٨- أخرجه أبو داود (١٥٥٢) من حديث أبي اليسر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٥٨٩- أخرجه مسلم (١٦٩٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
٥٩٠- أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٥٩١- أخرجه إسحاق بن راهويه (١٦٩٨) من حديث بعض الأنصار.
٥٩٢- أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٧٠٣) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٣١٨٥).
٥٩٣- أخرجه الطبري (١٥/ ٣٤٣)، موقوفًا على ابن عباس، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٥٦٨٧).
٥٩٤- أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
٥٩٥- أخرجه أحمد (١٢٤٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٤٢٤٩).
٥٩٦- أخرجه مسلم (٢١٥٩) من حديث جرير رضي الله عنه.
٥٩٧- أخرجه الترمذي (٢٧٦٩)، وأبو داود (٤٠١٧) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٥٩٨- أخرجه أبو داود (٤١١٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وضعّفه الألباني.
٥٩٩- أخرجه الترمذي (٢٧٨٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٦٠٠- أخرجه الترمذي (١٦٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٦٠١- أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٦٠٢- أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٦٠٣- أخرجه الطبراني (٦٩٣٩) من حديث سمرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٥٦٧٤).
٦٠٤- أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١١/ ٩٧).
٦٠٥- أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٥).
٦٠٦- أخرجه أبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٠٧- أخرجه البزار (٤١٨٣)، والطبراني في الأوسط (٢٨٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعّفه الألباني جدا في الضعيفة (٥٨٤٦).
٦٠٨- سبق برقم (١٦٢).
٦٠٩- أخرجه الطبري (١٩/ ٢٤٣)، وهو ضعيف.
٦١٠- أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١١/ ١٤٣).
٦١١- أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه.

٦١٢- أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٦١٣- أخرجه البزار (٢٩٤٦) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني جدا في الضعيفة (٢١٦٤).
٦١٤- أخرجه البخاري (٦٠٠١)، ومسلم (٢٣١٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٦١٥- أخرجه البخاري (٤٨١٠)، ومسلم (١٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٦١٦- أخرجه ابن الجوزي في ذم الهوى (ص ١٩٠) من حديث الهيثم بن مالك الطائي، قال الألباني: مرسل ضعيف. الضعيفة (١٥٨٠).
٦١٧- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٣) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦١٨- أخرجه الطبراني (٧٢٣٥) من حديث أبي طويل رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٩١).
٦١٩- أخرجه البخاري (٤٤٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٦٢٠- أخرجه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.
٦٢١- أخرجه أحمد (٣٠٦٦)، وأبو داود (٥٢٦٧)، وابن ماجه (٣٢٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٦٢٢- أخرجه مسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٦٢٣- أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٦٢٤- أخرجه مسلم (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٦٢٥- ذكره ابن كثير (٦/ ٢١٤).
٦٢٦- أخرجه البخاري (٣١٨٩)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٦٢٧- أخرجه الطبراني (٦٣٦٤) من حديث سلمة بن سعد رضي الله عنه، وقال الألباني في الضعيفة (٦٢٢٩): منكر. قلت: وليس فيه كلمة هديت، وقد ذكرها ابن كثير.
٦٢٨- أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
٦٢٩- أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه.
٦٣٠- أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٦٣١- أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٦٣٢- أخرجه البخاري (٣٤٨٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٦٣٣- أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحّحه الألباني موقوفًا، وله حكم الرفع.
٦٣٤- أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عيض بن حمار رضي الله عنهما.
٦٣٥- أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٣٦- أخرجه أحمد (٢٧٣٨٣)، والترمذي (٣١٩٠) من حديث أم هانئ رضي الله عنها، وضعّفه الألباني.
٦٣٧- أخرجه أحمد (٩٧٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣٤٨٢).
٦٣٨- أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والآية عنده: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾.
٦٣٩- أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٤٠- أخرجه أحمد (١٩٥٨٢)، وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٤١- سبق برقم (٤٠).
٦٤٢- سبق برقم (٥٨).
٦٤٣- سبق برقم (٣٤٠).
٦٤٤- سبق برقم (٢١٦).
٦٤٥- أخرجه أحمد (٢١٣٥٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٢٦).
٦٤٦- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٠) من حديث أبي عزة الهذلي رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٤٧- أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٤٨- أخرجه الْفِرْيَابِيّ وَابْن أبي شيبَة وَابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن مُجَاهِد مرسلًا. كما في الدر المنثور (٦/ ٥٦١).
٦٤٩- أخرجه البخاري (٢٣٩٩)، ومسلم (١٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٥٠- أخرجه الترمذي (٣٢٠٢)، وابن ماجه (١٢٧) من حديث معاوية رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٥١- أخرجه البخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وليس فيه: «لا شيء قبله ولا شيء بعده».
٦٥٢- عزاه ابن كثير لابن إسحاق بلاغًا.
٦٥٣- أخرجه البخاري (٤١٠٩) من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.
٦٥٤- أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٠٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٣٧).
٦٥٥- أخرجه الطبري (١٩/ ١١٢ ط. التركي).
٦٥٦- أخرجه الْحَكِيم التِّرْمِذِيّ وَابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم وَالْبَيْهَقِيّ فِي الدَّلَائِل عَن عَليّ بن زيد بن جدعَان، عن علي بن الحسين كما في الدر المنثور (٦/ ٦١٤). وهو ضعيف.
٦٥٧- أخرجه أحمد (٢٦٠٤١)، والترمذي (٣٢٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وضعّفه الألباني.
٦٥٨- أخرجه أحمد (١٠٩٦٨)، وابن ماجه (٣٧٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٥٩- أخرجه البخاري (٤٣٤٤)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، بدون: «إنه قد أنزل عليّ ...». والقصة لمعاذ وأبي موسى، وليست لعلي.
٦٦٠- أخرجه أحمد (٦٧٨٠)، وابن ماجه (٢٠٤٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٦٦١- أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٩) من حديث علي رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.

٦٦٢- أخرجه أبو داود (٢١٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وضعّفه الألباني.
٦٦٣- أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير كما عند ابن كثير من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وحسن الألباني إسناده في الصحيحة (٧/ ٦٧٨).
٦٦٤- أخرجه البخاري (٤٤٨٣) من حديث عمر رضي الله عنه.
٦٦٥- أخرجه البخاري (٤٧٩٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.
٦٦٦- أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٦٦٧- أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٦٦٨- سبق برقم (٥٥٦).
٦٦٩- سبق برقم (١٣٣).
٦٧٠- أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
٦٧١- سبق برقم (١٦٢).
٦٧٢- أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٧٣- أخرجه مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٦٧٤- أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٦٧٥- أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٧٦- أخرجه أحمد (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٧٧- أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٧٨- أخرجه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
٦٧٩- أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٨٠- سبق برقم (٥٤٦).
٦٨١- أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٨٢- أخرجه البيهقي في البعث والنشور (١٧) من حديث مقاتل مرسلًا.
٦٨٣- أخرجه مسلم (٤٣٠) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.
٦٨٤- أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٥٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٦٣٧).
٦٨٥- أخرجه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٦٨٦- سبق برقم (١٣٣).
٦٨٧- أخرجه البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧٣) من حديث عروة البارقي رضي الله عنه.
٦٨٨- أخرجه البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٨٩- سبق برقم (٣٧٣).
٦٩٠- أخرجه أحمد (٢٣٩٤٤)، والترمذي (٢٣٤٩) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٩١- أخرجه عبد بن حميد (٦٧٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٤٦٠٢).
٦٩٢- أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٩٣- أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٦٩٤- أخرجه أحمد (١٠٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني في الصحيحة (٢٠٣٤).
٦٩٥- أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسّنه الألباني.
٦٩٦- أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٩٧- أخرجه مسلم (١٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه.
٦٩٨- أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦٩٩- أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث ابن عباس وأبي حبة الأنصاري رضي الله عنهما.
٧٠٠- أخرجه مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.
٧٠١- أخرجه أحمد (١١١٤٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٠).
٧٠٢- أخرجه البخاري (١٣٧٢)، ومسلم (٥٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٧٠٣- أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٧٠٤- أخرجه مسلم (٢٩٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه.
٧٠٥- أخرجه أحمد (١٥١٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال الألباني في الضعيفة (٥٨٣١): منكر بهذا السياق.
٧٠٦- أخرجه أبو يعلى (٣٤٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وإسناده ضعيف.
٧٠٧- أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، والنسائي (١٨٣٣)، والحاكم (١٣٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٧٠٨- أخرجه مسلم (٣٨٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.
٧٠٩- أخرجه ابن خزيمة (١٥٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٧١٠- أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٧١١- سبق برقم (٣٧٣).
٧١٢- أخرجه أحمد (١٨٧١٥)، والترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٧١٣- سبق برقم (٦٠٥).

٧١٤- أخرجه مسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧١٥- أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٧١٦- سبق برقم (١٥٨).
٧١٧- سبق برقم (٣٤٠).
٧١٨- سبق برقم (٦٢٣).
٧١٩- أخرجه مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٧٢٠- أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٢٤) من حديث رجل من بني سالم، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣).
٧٢١- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٦٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٠٨).
٧٢٢- أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور (٧/ ٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وعزاه ابن كثير في التفسير (٧/ ٢٦٠) إلى الأموي في مغازيه وساق سنده من قول عكرمة، وهو ضعيف.
٧٢٣- أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٢٤- أخرجه مسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٢٥- أخرجه مسلم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٢٦- أخرجه الحاكم (٧٦٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسنده ضعيف.
٧٢٧- أخرجه البخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٧٢٨- أخرجه مسلم (٤٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٧٢٩- أخرجه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٧٣٠- أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
٧٣١- أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٣٢- أخرجه أحمد (٢٢٣٤٨) من حديث أبي مسعودٍ رضي الله عنه.
٧٣٣- أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦) من حديث مجمع بن جارية رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٧٣٤- أخرجه البخاري (٤١٧٢)، ومسلم (١٧٨٦) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
٧٣٥- أخرجه البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦) من حديث جابرٍ رضي الله عنه.
٧٣٦- أخرجه مسلم (١٨٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
٧٣٧- أخرجه إسحاق بن راهويه (١٨٨٦)، والطبراني (٢٣/ ٤٠١) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني بشواهده في الصحيحة (٣٠٨٨).
٧٣٨- أخرجه أحمد (١٢٣٨١)، وأبو يعلى (٢٩٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الألباني في الضعيفة (٦٩٠٦): منكر.
٧٣٩- أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٤٠- أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

٧٤١- أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٤٢- أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
٧٤٣- أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٤٤- أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٤٥- سبق برقم (٦٥٤).
٧٤٦- أخرجه مسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٤٧- أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جريرٍ رضي الله عنه.
٧٤٨- أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٤٩- أخرجه أحمد (٨٦٩٦)، والترمذي (٢٤٦٦)، وابن ماجه (٤١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٧٥٠- أخرجه أحمد (٦٥١٠)، والدارمي (٥٠١)، وأبو داود (٣٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٧٥١- أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٥٢- أخرجه أحمد (٢٤٠٣٢)، وأبو داود (٣٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٧٥٣- أخرجه الثعلبي في التفسير (٢٥/ ١٦٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسنده ضعيف.
٧٥٤- أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.
٧٥٥- أخرجه البخاري (٣٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
٧٥٦- أخرجه أحمد (٢٤٤١٥)، والدارمي (٢٧٦٨)، وابن ماجه (٤٢٤٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٧٥٧- أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٧٥٨- أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٧٥٩- أخرجه ابن ماجه (٢٠٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٧٦٠- أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
٧٦١- أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٣٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٧٦٢- أخرجه أحمد (١٧٥٩٦)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٩) من حديث ربيعة بن عامرٍ رضي الله عنه، والترمذي (٣٥٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٧٦٣- أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.
٧٦٤- أخرجه البزار (٢٠٣٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٦٧٨٤).
٧٦٥- أخرجه البخاري (٧٤٨)، ومسلم (٩٠٧) من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

٧٦٦- أخرجه الطبري (٢٧/ ١٩)، والبغوي في تفسيره (٨/ ١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال السيوطي في الدر المنثور (٨/ ١٩): بسندٍ ضعيف.
٧٦٧- أخرجه أبو يعلى في معجمه (٢٩٢)، وابن حبان (٥٧٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٠١).
٧٦٨- أخرجه مالك (١)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والدارقطني (٢٧٢٣) من حديث عمرو بن حزم رضي الله عنه، وصحّحه الألباني بشواهده في إرواء الغليل (١٢٢).
٧٦٩- أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٧٧٠- أخرجه أحمد (٨٩٢٩)، والنسائي (٢٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٧٧١- أخرجه مسلم (٩٦٥) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.
٧٧٢- أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.
٧٧٣- أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.
٧٧٤- أخرجه البخاري (٢٨٩٢)، ومسلم (١٨٨١) من حديث سهل بن سعدٍ رضي الله عنه.
٧٧٥- أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٧٧٦- أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٣)، والحاكم (٣٧٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٧٧٧- أخرجه الطبري (٢٣/ ٢٢٣) من حديث محمد بن كعب القرظي مرسلًا.
٧٧٨- أخرجه أحمد (٢٤١٩٥)، وابن ماجه (١٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٧٧٩- أخرجه ابن أبي حاتم -كما في الدر المنثور (٨/ ٨٠)- عن مقاتل مرسلًا.
٧٨٠- أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٧٨١- أخرجه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلم (٢١٨٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٧٨٢- ذكره ابن كثير (٨/ ٤٦) عن مقاتل مرسلًا.
٧٨٣- أخرجه الترمذي (٣٣٠٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٧٨٤- أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم -كما في الدر المنثور (٨/ ٨٣)- بسند فيه انقطاع.
٧٨٥- سبق برقم (١٦٢).
٧٨٦- أخرجه البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر رضي الله عنه.
٧٨٧- أخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابرٍ رضي الله عنه.
٧٨٨- أخرجه البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٧٨٩- أخرجه الطبراني (٢٠/ ١٥٤) من حديث معاذ رضي الله عنه، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢١).
٧٩٠- أخرجه الطبراني (٢٣/ ٤٣٣) من حديث ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.
٧٩١- أخرجه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث عليٍّ رضي الله عنه.
٧٩٢- أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
٧٩٣- أخرجه الترمذي (٣٥٣٩)، والطبراني (١٢٦٦٨) من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٧٩٤- أخرجه أبو داود (٢٢٦٣)، وابن حبان (٤١٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٧٩٥- أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.
٧٩٦- أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٩٧- أخرجه أبو يعلى (٢٦٠٤) من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنه. وقال الألباني في الصحيحة (٧/ ٨٧٢): إسناد صحيح على شرط الشيخين.
٧٩٨- أخرجه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٧٩٩- أخرجه البخاري (٨٥٨)، ومسلم (٨٤٦) من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.
٨٠٠- أخرجه الطبراني (٣٤٤٥) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٤٣٧٥).
٨٠١- أخرجه أحمد (٧٩٨٨)، وأبو يعلى (٦٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٣٤٧٧).
٨٠٢- أخرجه البخاري (١١٤٥) مختصرًا، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٠٣- أخرجه البخاري (٤٩٠٨)، ومسلم (١٤٧١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
٨٠٤- أخرجه النسائي (٣٩٥٩) من حديث أنسٍ رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٨٠٥- أخرجه البغوي في شرح السنة (٤٨٤) من حديث عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وضعّفه الألباني في تخريج المشكاة (٧٢٤).
٨٠٦- أخرجه ابن أبي حاتم -كما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٩)- من حديث أُبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه، وقال الألباني في الضعيفة (٢٢٥٠): موضوع.
٨٠٧- أخرجه أحمد (١٨٠٥٦) من حديث رجل من بني كنانة رضي الله عنه، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٠٩): ورجاله ثقات.
٨٠٨- سبق برقم (٥٩٣).
٨٠٩- ذكره ابن كثير (٨/ ١٧٨)، ولم أجده بهذا اللفظ.
٨١٠- أخرجه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
٨١١- أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.

٨١٢- أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.
٨١٣- أخرجه أحمد (٢٢٣٨٦)، وابن ماجه (٤٠٢٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه بنحو هذا اللفظ، وضعّفه الألباني.
٨١٤- أخرجه البيهقي (٧٥١١) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٣٩٣).
٨١٥- أخرجه البخاري (٤٩١٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
٨١٦- أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والطبراني في الأوسط (١٧٠٩) من حديث جابر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٨١٧- أخرجه أحمد (١٩٧١٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨١٨- أخرجه البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.
٨١٩- أخرجه أحمد (٨٠١٠)، وأبو داود (٢٥١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٨٢٠- أخرجه أحمد (١٧٣٠)، وأبو داود (١٦٦٥) من حديث حسين بن علي رضي الله عنهما، وضعّفه الألباني.
٨٢١- أخرجه البخاري (٤٩٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٢٢- أخرجه أحمد (١١٣٣٧)، والدارمي (٢١٠١)، وابن حبان (٥٥٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٨٢٣- أخرجه أحمد (١١٧٨٨)، والدارمي (١٤٣٠)، وابن ماجه (٧٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٨٢٤- سبق برقم (١٦٢).
٨٢٥- أخرجه أحمد (٢٤٨٦٨)، والحاكم (٣٨٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه ووافقه الذهبي.
٨٢٦- سبق برقم (٣١٠).
٨٢٧- أخرجه أحمد (١١٧١٢)، والترمذي (٢٥٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٢٨- أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٢٩- أخرجه أحمد (١٢٤٤٢)، والترمذي (٣٣٢٨)، وابن ماجه (٤٢٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٣٠- أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.
٨٣١- أخرجه أحمد (١٤٨٠٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه، وسنده ضعيف.
٨٣٢- أخرجه البخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٨٣٣- أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٣٤- أخرجه ابن ماجه (١٦٢٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٨٣٥- أخرجه أحمد (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٣٦- لم أجده، وقد ذكر الألباني في الضعيفة (٣/ ٦٣٥): «ولا أعلم لهذا الحديث أصلا يمكن الاعتماد عليه».
٨٣٧- أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٣٨- أخرجه ابن أبي حاتم -كما ذكره ابن كثير (٨/ ٣٢٦)-، والترمذي (٣٣٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج نحوه أحمد (٢٤٥٨٨)، والنسائي (٢٠٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٨٣٩- أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٢) من قول ابن عمر رضي الله عنهما، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤١٥) إلى ابن مردويه مرفوعًا عن ابن عمر، ثم قال السيوطي: والأول أصح؛ يعني الموقوف.
٨٤٠- أخرجه أبو داود (٧٦٦)، والنسائي (١٦١٧)، وابن ماجه (١٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألباني.
٨٤١- أخرجه أبو داود الطيالسي (١٨٦٢) من حديث جابر رضي الله عنه، والطبراني في الأوسط (٤٢٧٨)، والحاكم (٧٩٢١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٨٣١).
٨٤٢- أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٨٤٣- أخرجه مسلم (٦١٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٨٤٤- أخرجه البخاري (٤٩٤٠) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٤٥- أخرجه الترمذي (٣٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٨٤٦- الحديث السابق نفسه.
٨٤٧- سبق برقم (١٢٩).
٨٤٨- أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٤٩- أخرجه مسلم (٨٧٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.
٨٥٠- أخرجه أحمد (٢٢٢٢٦)، والطبراني (٧٧٣٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٣).
٨٥١- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٠) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٥٢- أخرجه البخاري (٥٣٠٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
٨٥٣- أخرجه البخاري (٦٨٨٠)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٥٤- أخرجه البخاري (٦٧١٥)، ومسلم (١٥٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٥٥- أخرجه أحمد (١٦٢٣٣)، والنسائي (١٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٨٥٦- أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٨٥٧- أخرجه البيهقي في السنن الصغرى (٨٢٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وحكم عليه الألباني في الضعيفة (٣٧٧٤) بالوضع.

٨٥٨- أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
٨٥٩- أخرجه إسحاق بن راهويه (١٤٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٧٣)، والدارقطني في الرؤية (١٩٤) من قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
٨٦٠- أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٦١- أخرجه البخاري (٤٩٥٠)، ومسلم (١٧٩٧) من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.
٨٦٢- سبق برقم (٨٥٧).
٨٦٣- أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٨٦٤- أخرجه أبو داود (٩٦٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٦٥- أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٨٦٦- أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصحّحه الألباني.
٨٦٧- أخرجه الحاكم (٣٩٥٠) عن الحسن مرسلًا.
٨٦٨- أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٣٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٢٦).
٨٦٩- أخرجه الترمذي (٢٦٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٧٠- أخرجه البخاري (٤٩٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٧١- أخرجه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٧٢- أخرجه مسلم (٧٦٢) من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه.
٨٧٣- أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٧٤- أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والترمذي (٢٤٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٧٥- أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
٨٧٦- سبق برقم (٧٥٦).
٨٧٧- أخرجه البخاري (٦١٠)، ومسلم (٣٨٢) من حديث أنس رضي الله عنه.
٨٧٨- أخرجه مسلم (٢٩٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨٧٩- أخرجه البخاري (٥٩٤) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه.
٨٨٠- أخرجه مسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
٨٨١- أخرجه البيهقي (٣١٦٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعًا، وأبو يعلى (٧٠٤) موقوفًا، وحسن الألباني إسناد الموقوف في صحيح الترغيب والترهيب (٥٧٦).
٨٨٢- أخرجه أحمد (٦٥٠٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٨٣- أخرجه الترمذي (٢٣٨٤)، وابن ماجه (٤٢٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني.
٨٨٤- أخرجه البخاري (٦٥٨١)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.
٨٨٥- أخرجه ابن أبي شيبة (٣١٧٩٦) من حديث عكرمة مرسلًا.
٨٨٦- أخرجه أحمد (١٨٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وحسّنه الألباني في تخريج المشكاة (٥٩٦٩).
٨٨٧- أخرجه مسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٨٨٨- أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
٨٨٩- أخرجه أحمد (٢١٢١٩)، والترمذي (٣٣٦٤) من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٨٩٠- أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعّفه الألباني جدا في الضعيفة (٣١٩٢).
٨٩١- أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وحسّنه الألباني.
٨٩٢- سبق برقم (٣٤).
٨٩٣- أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، والنسائي (٥٤٩٤)، وابن ماجه (٣٥١١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحّحه الألباني.
٨٩٤- أخرجه البخاري (٢٠٣٩)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية رضي الله عنها.
٨٩٥- أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، والنسائي (٥٥٠٧) من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه، وضعف الألباني إسناده.

فهـرس الأحـاديـث

٨٧٤ أتـدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ٥٩٩
٨٧٥ اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة ولو بكلمة طيبة ٥٩٩
١٣٤ اتقوا هذه المحاريب ٥٥
١٣٣ اتقوا هذه المذابح ٥٥
٦٦٩ اتقوا هذه المذابح ٤٢٩
٦٨٦ اتقوا هذه المذابح ٤٥٤
٥٧١ أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ٣٣٦
٦٩٧ آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ٤٦٦
٤٠٦ أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة........ ١٩٦
٢٥٣ أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ١٠١
٣١٧ الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع الناس عليه ١٤٣
٣٣ اجتنبوا السبع الموبقات ١٦
٣٦٢ اجتنبوا السبع الموبقات ١٧٨
٧٦٩ اجعلوها في ركوعكم ٥٣٧
٨٤٨ اجعلوها في سجودكم ٥٩١
٦٨٥ أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود........ ٤٥٤
٥٩٧ احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ٣٥٣
٢٦١ أُحل لكم ميتتان ودمان ١٠٧
٢٩٣ أُحلت لنا ميتتان ودمان ١٢٤
١٨٣ اخْتَر منهن أربعًا ٧٧
٤٩٨ أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا........ ٢٧٩
٢٥٦ أخرج متاعك فضعه على الطريق ١٠٢
٦٩٩ أدخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذ ترابها المسك ٤٦٦
٥٤٥ إذا أخذتم الساحر فاقتلوه........ ٣١٦
٤٩٢ إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب العذاب مَنْ كان فيهم ثم بعثوا على نيَّاتهم ٢٧٣
٦٤٦ إذا أراد الله قبضَ عبد بأرض جعل له إليها حاجة ٤١٤
٥٩٤ إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف........ ٣٥٢
١٦٦ إذا استشار أحدكم أخاه فليشرْ عليه ٧١
٥٣٤ إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصلّيا ركعتين........ ٣٠٩
٦٩٢ إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفضه بداخلة إزاره........ ٤٦٣
٣٨٤ إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر ١٩٠
٨٨ إذا حلف أحدكم على يمين ثم رأى خيرًا منها ٣٥
٣٣٤ إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ١٥٥
٤٣٦ إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ، وأهل النار النار، نادى منادٍ ٢١٢
٦٧ إذا دخل رمضان فُتِّحت أبواب السماء وغلقت أبوابُ جهنم ٢٨
٧٠٠ إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثله ٤٦٨
٤٥٥ إذا رأى أحدكم ما يحب: فليحدِّث به........ ٢٣٦
١٥٥ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: اللهم العَنْ فلانًا وفلانًا ٦٦
٥٨٠ إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ٣٤٢
٧٩٨ إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا ٥٥٤
١٥٧ إذا غَضِب أحدُكم وهو قائم فليجلس ٦٧

٤٣٠ إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم ٢٠٩
٥٦٥ إذا قرأ ابن آدم السجدة، اعتزل الشيطان يبكي ٣٣٤
٧٨١ إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه ٥٤٣
٧٥١ إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث ٥٢٧
٨١٦ أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش ٥٦٧
٢٦٣ الأذنان من الرأس ١٠٨
٦١٨ أرأيت رجلًا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجةً ولا داجة فهل له من توبة؟ ٣٦٦
٨٨٨ أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي؟ ٦٠٣
٨٢٣ الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام ٥٧٣
٢٦٥ أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار ١٠٨
٤٢ استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يؤذن لي ١٨
٤٥٦ استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كلَّ ذي نعمة محسود ٢٣٦
٣٩٦ استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا عنه ١٩٣
٥٦ اسعوا فإن الله قد كتب عليكم السعي ٢٤
٧٣٨ الإسلام علانية والإيمان في القلب ٥١٦
٣٦٧ الإسلام يجُبُّ ما قبله، والتوبة تَجُبُّ ما كان قبلها ١٨١
٨٦١ اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلةً أو ليلتين ٥٩٦
٥٥٧ أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ٣٢٩
١٩ أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة: رجل قتله نبيٌّ ٩
٢٠ أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة: رجل قتله نبيٌّ ١٠
٣٢٥ أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ١٥٠
٥٧٢ اصبروا فإني لم أؤمَرْ بالقتال ٣٣٧
١٩٩ أصبنا سبيًا من سبي أوطاس، ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ٨٢
١٨٦ الإضرار في الوصية من الكبائر ٧٩
٥٠٠ أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا ٢٨١
٤٤٣ اطلبوا الخير دهركم كله وتعرَّضوا لنفحات ربكم ٢٢١
٢٢٧ أطلقتَ نساءَك؟ فقال: لا ٩١
٧٤٥ اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ٥١٩
٦٥٤ اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ٤٢٢
١٨١ اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ٧٧
٤٣٤ أعتى الناس على الله رجل قتل نبيًا أو قتله نبي ٢١٠
١٦٢ أُعطيت خمسًا لم يُعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي ٦٩
٣١٣ أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من قبلي ١٣٩
٥٨٧ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه ٣٤٨
٤٩٣ أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر ٢٧٤
٧١ اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ٢٩
٢٦٦ اغسلوا القدَمين إلى الكعبين كما أُمِرْتُم ١٠٨
٧٠١ أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ٤٧٠
٦١ أفضل الصدقة، أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح ٢٧
٦٩٠ أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا، وقنع به ٤٦٢
٢٠٩ اقرأ عليَّ، فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ ٨٥
٥١٨ اقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن ٢٩٣
١١ اقرأوا البقرة، فإن أخذها بركة ٢
٧٥٠ اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق ٥٢٦
٢٤٥ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ٩٧

٣٧٤ ألا إن القوة الرمي ١٨٤
٢٤٢ ألا إنّما أنا بشر وإنما أقضي بنحو ما أسمع ٩٦
٧٠ ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ٢٩
٦٨٣ ألا تصفُّون كما تصُفّ الملائكة عند ربهم ٤٤٦
٢٥٩ ألحِقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر ١٠٦
٧٦٢ ألظُّوا بياذا الجلال والإكرام ٥٣٤
١٦٤ إليَّ عباد الله ٦٩
٤٥١ أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء ٢٣٤
٥٤٦ أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ٣١٦
٦٨٠ أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ٤٣٨
٢٣ أما مررت بوادٍ مُمحل ثمّ مررت به خضرًا؟ ١١
٥٦٢ أما مررت بوادٍ ممحلًا؟ ٣٣٣
٨٧٣ أمارتها أنها صافية بلجة، وصبيحتها تخرج الشمس ليس لها شعاع ٥٩٨
٧٢ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ٣٠
٣٦٩ أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله ١٨١
٥٧٠ أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ٣٣٦
٨٥٧ أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما ٥٩٥
٨٦٢ أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما ٥٩٦
٦٥٦ أمسك عليك زوجك واتق الله ٤٢٣
٨١ أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك ٣٣
١٦٣ إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفًا، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب ٦٩
٧٧ إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ٣٢
١٠٤ إنّ إبليس يضع عَرشه على الماء، ثم يبعثُ سراياه ٤٥
٤٦٩ إن أحبَّ الأسماء إلى الله عبدالله وعبدالرحمن ٢٥٣
٧٤٦ إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له: تمن، ويتمنى ٥١٩
٧٧٣ إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت ٥٤٠
٥٥ إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ٢٤
٣١٠ إن إسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر، فينفخ ١٣٦
٧١٧ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ٤٨٨
٢٤٦ إن أصدق الحديث كلام الله ٩٨
٧٥٢ إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإنَّ ولده من كسبه ٥٢٧
٣٧ إن أعظم المسلمين جرمًا، من سأل عن شيء ولم يحرم، فحرّم من أجل مسألته ١٧
٥٦٦ إن الحميم لينصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ٣٣٤
٧٠٣ إن الدعاء هو العبادة ٤٧٤
٢٨٥ إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيرًا ١٢١
١٠٥ إنّ الشيطانَ قد أيسَ أن يعبده المصلّون ولكن في التحريش بينهم ٤٥
٨٩١ إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ٦٠٤
١٢ إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكتت في قلبه نكتةٌ سوداء ٣
٨٥١ إن العشر عشر ذي الحجة، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر ٥٩٣
٥٦٩ إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء ٣٣٦
٥٢٥ إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة ٢٩٩
٢٤٨ إن الله اتّخذني خليلًا كما اتّخذ إبراهيم خليلا ٩٨
٥٤١ إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبّه ٣١٢
٥٣٣ إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ٣٠٩
٧٤٤ إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل ٥١٩

٧٢٢ إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: أول لك فأولى ٤٩٨
٧٤٣ إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ٥١٧
٦٧٢ إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ٤٣٢
٦٨٤ إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته ٤٤٩
٦١١ إن الله تعالى يطوي السماوات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ٣٦٢
٧٢٥ إن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ٥٠٢
٨٠٢ إن الله تعالى يقول: من يُقرض غير ظلوم ولا عديم ٥٥٧
٣٧٣ إن الله تعالى يقـول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ١٨٣
٧٤٨ إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ٥٢١
٦٤٠ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ٤٠٦
٥٥٥ إنَّ الله عزَّ وجلَّ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ٣٢٦
١٤٩ إن الله فرض عليكم الحج فحجُّوا ٦٢
١٨٧ إن الله قد أعطى كل ذي حق حقّه فلا وصية لوارث ٧٩
٦٥ إن الله قد أعطى كل ذي حق حقَّه، فلا وصية لوارث ٢٧
٥٧٤ إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ٣٤٠
٣٥٥ إن الله قدَّر مقادير الخلق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ١٧٤
٦٣٣ إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ٣٩٥
٤٠٣ إن الله لا يمل حتى تملّوا ١٩٥
٣٩٣ إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم ١٩٢
٢٨٠ إنَّ الله لم يهلك قومًا أو قال: لم يمسخ قومًا فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا ١١٨
٣٠٠ أن الله لما خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي ١٢٩
٤٩١ إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته ٢٧٢
٤٤٧ إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه، لم يفلته ٢٢٤
٢٠٨ إن الله يجزي بالحسنة ألفَيْ ألف حسنة ٨٥
١٥١ إن الله يرضى لكم ثلاثًا ٦٣
٩٧ إن الله يضاعف الحسنة ألفَي ألفِ حسنة ٣٩
٥٥٩ أن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه ٣٣١
٤١٩ إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره ٢٠٣
١٨٩ إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ٨٠
١٤٤ إن الله يقبـل تـوبة العبـد ما لم يُغرْغِر ٦١
٥٠٤ إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم ٢٨٤
٦٩٥ إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صورة الناس ٤٦٥
١٨٠ إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ٧٧
١١٢ إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها، كانت له صدقة ٤٦
٥٠ أن المسلمين قالوا: يا رسول الله أرأيت إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ ٢٢
٨٨٩ أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك. أي ما هو نسبه؟ ٦٠٤
٧٠٧ إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ٤٨٠
٢٩٧ إنّ الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيّرونه يُوشك الله عز وجل أن يعمَّهم بعقابه ١٢٥
٥١٥ إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاءً، كل أمة تتبع نبيَّها ٢٩٠
٥٩٥ إن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: السلام عليكم ورحمة الله ٣٥٣
٧١٩ إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا ٤٩٠
٢٦٩ أنّ النبيّ ﷺ نزل منزلًا وتفرّق الناس في العضاه ١٠٩
٤٧٢ إنَّ أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له ٢٥٥
٦١٥ إن أناسًا قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمدًا ﷺ ٣٦٦
٧٧٢ إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ٥٤٠

٤٣١ إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس ٢٠٩
٥٠٢ إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء ٢٨٤
٣٥٩ إن أهل علِّيِّين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء ١٧٧
٧٥٥ إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما ٥٢٨
٦٢٤ إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها ٣٨٤
٢٣٣ إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ، إلَّا وهم معكم فيه ٩٤
٤١٤ إنَّ بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا، ولا سِرْتُم سيرًا إلا وهم معكم ٢٠١
٦١٤ أن تجعل لله ندًا وهو خلقك ٣٦٦
٣٨ أن حُيَيَّ بن أخطب وأبا ياسر كانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ١٧
٥٨٢ إن داود كان يأكل من كسب يده ٣٤٥
٤٢٥ أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبيَّ الله، إنَّ مِن آبائنا مَنْ كان يحسن الجوار ٢٠٥
٤١ أن رجـلًا قال يا رسول الله، أين أبي؟ فقال: في النار ١٨
٧٩٢ إن رجـلًا قـال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: في النار ٥٥٠
١٧٧ أن رجلًا قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر ٧٦
٥٤ أن رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى ٢٣
٦٥٥ إن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ٤٢٣
١١٨ أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي ٤٩
٣٧٩ أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمئة ١٨٥
٥٤٤ إن رسول الله ﷺ حضر جنازةً فلما دفن الميت أخَذ قبضةً من التراب فألقاها في القبر ٣١٥
٢٢٨ أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه ٩٢
٣٧٥ أن رسول الله ﷺ خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين ١٨٥
٣٣٣ إن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء ١٥٥
٦٧٤ إن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمئة جناح ٤٣٤
٢٥ أن رسول الله ﷺ سأل اليهود بعد فتح خيبر في جملة ما سألهم: ١٢
٢٧٥ أنّ رسول الله ﷺ قطع في مجنٍ ثمنه ثلاثة دراهم ١١٤
٨٢٥ أن رسول الله ﷺ كان إذا أُوحيَ إليه وهو على ناقته، وضعت جرانها ٥٧٤
٨٠ أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ٣٣
٦ أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى تنزل .... و
٨٤٠ إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة ٥٨٧
٤٢٢ أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا ٢٠٤
٨٠٤ إن رسول الله ﷺ كانت له أمَةٌ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها ٥٦٠
٥١٠ أن رسول الله ﷺ لما رجع ليلة أُسري به، قال: سمعت تسبيحًا في السماوات العلى ٢٨٦
٧١٥ إن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله ٤٨٧
١٢٣ أن رسول الله ﷺ وآله، لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهـود ٥١
٤٤ أن رسول الله ﷺ، رمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعًا ١٩
٢٧ إن روح القدس نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ١٣
٣٢٨ إن سورتي البقرة وآل عمران، يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان ١٥١
٤١٨ أن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجلَ وولدَه وولدَ ولدِه ٢٠٣
٧٨ أن صهيبًا قال للمشـركين: أنا شيخ كبيـر، لا يضركم إن كنت معكم أو عليكم ٣٢
٨٠٣ إن عبد الله بن عمر طلّق امرأةً له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ ٥٥٨
٥٥١ إنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ٣٢١
١٤٢ إنّ عمر بن الخطاب أتى النَّبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ٦٠
٢١٤ إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد ٨٧
٢٣٤ إنّ في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ٩٤
٣٦ أن قريشًا سألت النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ١٧

٢١٢ إن كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة، فليقل أحسبه كذا ٨٦
٧٦٨ أن لا يمس القرآن إلا طاهر ٥٣٧
٣٥٦ إن لله تسعةً وتسعين اسمًا مئة إلا واحدًا ١٧٤
٣٤٥ إن لله مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها ١٧٠
٦٤٨ إن لي قلبين في جوفي، أعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد؛ فكذبه الله ٤١٨
٤٦٢ إن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ٢٤٧
١١٧ إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق ٤٨
٥٠٥ إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدتُ عليه دينه ٢٨٥
٢٢٣ إنّ موضع سَوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ٩٠
١٢٧ إن نظر إليها سرّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله ٥١
٢٧٣ إن نفرًا من عكل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ١١٣
٦٢٦ إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ٣٨٥
٢٨١ إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار ١١٨
٧٠٢ أن يهودية دخلت على عائشة فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر ٤٧٢
٣٠١ أنا أخشاكم لله وأخوفكم منه ١٢٩
٤٢٧ أنا الضحوك القتّال ٢٠٧
٣٩٠ أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب ١٩٠
٢٧١ أنا أولى الناس بابن مريم؛ لأنّه ليس بيني وبينه نبيّ ١١١
٣٨٢ أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين ١٨٦
٤٢٠ إنّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله ٢٠٤
٣٠٣ إنا لا نكذبك، ولكن نكذبُ ما جئت به ١٣١
٦٥٨ أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه ٤٢٤
٨٥٢ أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وقرن بين أصبعيه ٥٩٣
٦٠٦ أنت ومالك لأبيك ٣٥٨
٢٥٢ انتسب رجلان على عهد رسول الله ﷺ ١٠٠
٧٥٤ انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه ٥٢٨
٦٥٩ انطلقا فبشِّرا ولا تنفرا ويسِّرا ولا تعسِّرا ٤٢٤
١٥٤ انفحوا الخيل عنا ولا نؤتينَّ من قبلكم، والزموا مكانكم ٦٥
٧٦٤ إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويًّا ٥٣٥
٨٣٠ إنكم سترون ربكم عيانًا ٥٧٨
٥٥٢ إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته ٣٢١
٨٥٣ إنما أحلت لي ساعة من نهار ٥٩٤
٢٣٥ إنما الأعمال بالنيات ٩٤
٣٠٨ إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني ١٣٥
٥ إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كَبّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا .... و
٨٣٩ إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ٥٨٧
١٧٨ إنما سمُّوا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ٧٦
٢١٠ إنما كان يكفيك، وضرب النبي ﷺ بيده الأرض ٨٥
٢٥٥ إنما ينصرُ الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم ١٠١
٧٥ إنه ﷺ وقف به يذكر الله ويدعو حتى أسفر جدًا ٣١
٧٢٨ إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ٥٠٦
٦٣٤ إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد ٣٩٥
٥٤٧ إنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ٣١٩
٦٩ إنه كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان ٢٩
١١٠ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلّا على أهل الإسلام ٤٦

٦٢٥ أنها تخبر الناس: يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار ٣٨٤
٨٧٢ إنها ليلة سبع وعشرين ٥٩٨
٢٢٢ إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوهم ٩٠
٤٧٠ إني رأيت الجنة -أو أريت الجنة- فتناولت منها عنقودًا ٢٥٤
٧٦٥ إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ٥٣٥
٧٣ إني لبَّدتُ رأسي وقلَّدتُ هديي فلا أحل حتى أنحر ٣٠
٥٦١ إني لم أبعث لعّانًا وإنما بعثت رحمة ٣٣١
٥٣٢ أهل الدنيا في غفلة الدنيا ٣٠٨
٨٣٦ أهلًا بمن عاتبني به ربي ٥٨٥
٤٩٤ أوتيت القرآن ومثله معه ٢٧٧
٦٠٧ أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال: يا أنس أسبغ الوضوء ٣٥٨
٥٩٨ أوعمياوان أنتما؟ ٣٥٣
٥٢٠ أوفدت قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وفدًا يسألونهم عن محمد ٢٩٤
٦٩٨ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ٤٦٦
٨١١ أول ما خلق الله القلم ٥٦٤
٥٧٣ أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ ٣٤٠
٥١ أولئك قوم يؤمنون بالغيب ٢٢
٢٦ أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها ١٢
٢٠٥ إياك وإسبال الإزار ٨٤
٢٠٦ إياكم والشح، فإنّه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ٨٤
٥٤٨ إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ٣١٩
٧٨٧ إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ٥٤٦
٧٤١ إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ٥١٧
٨١٣ إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم رزقًا ٥٦٥
٨٧٦ إياكم ومحقَّرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ٥٩٩
٢٩١ إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان، اللتان تزجر زجرًا فإنهما ميسر العجم ١٢٣
٧٦ آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر ٣٢
٤٦٦ آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان ٢٥٢
٧٩٦ آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان ٥٥١
٤٠١ ائذن لي بالتخلّف ولا تفتنّي بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم ١٩٥
٧٩٤ أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ٥٥١
٢٣١ أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: رسول الله ﷺ. قال: أعتقها فإنها مؤمنة ٩٣
٥٩ أيها النّاس إنّ الله طيِّبٌ، لا يقبلُ إلَّا طيبًا ٢٦
٢٨٤ أيها الناس إنكم لمسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ ١١٩
٦٠٥ بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض ٣٥٧
٧١٣ بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ٤٨٥
٣٤٧ بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا ١٧٠
٧٣٠ بعثت أنا والساعة كهاتين ٥٠٨
٣٤٦ بعثت بالحنيفية السمحة ١٧٠
٤٢٩ بعثت بالحنيفية السمحة ٢٠٧
٥٧٧ بعثت بالحنيفية السمحة ٣٤١
٣٨٣ بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع ١٨٧
١٤١ بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم ٦٠
٢٢٤ بئس الخطيبُ أنت، قل: ومن يعصِ الله ورسوله ٩١
٢٢٦ بئس مطيةُ الرجل زعموا ٩١

٢٠٠ البيع عن تراض، والخيار بعد الصفقة ٨٣
٢٠١ البيعان بالخيار ما لم يتفرَّقا ٨٣
٦٣٢ بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ٣٩٥
٦٧٧ تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء ٤٣٨
١٤ تحاجَّت الجنة والنار ٤
٨٣٨ تحشرون حفاةً عراة مشاةً غرلا ٥٨٥
١٥٠ تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ٦٣
٢٧٦ تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا ١١٤
٧٣٩ التقوى هاهنا التقوى هاهنا ٥١٦
٣٩٩ تكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنة ١٩٤
١٥٨ ثلاث أقسم عليهنَّ: ما نقص مال من صدقة ٦٧
٩١ ثلاثٌ جدهنَّ جد، وهزلهن جد ٣٧
٦٨ ثلاث دعوات مستجاباتٌ: دعوةُ الصَّائم ٢٨
٣٦٥ ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ١٨٠
٦٠٠ ثلاثة حق على الله عونهم ٣٥٤
١٠٢ ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ٤٤
٦٢٨ ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ٣٩٢
١٧٩ ثلاثة يؤتَوْن أجرهم مرتين ٧٦
١٨٤ الثلث، والثلث كثير ٧٨
٥٣٥ ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل ٣٠٩
٢٦٤ ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر ١٠٨
٣٦١ جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم ١٧٨
٧٧٨ جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ٥٤٢
١٠٩ الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرُّ بالقرآن كالـمُسِرِّ بالصدقة ٤٦
٨٢٤ جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ٥٧٣
٤٠٩ جنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ١٩٨
٧٦٠ جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ٥٣٣
٨٤٤ حالًا بعد حال ٥٨٩
٥٧٩ حبب إليَّ الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة ٣٤٢
١٤٦ حبّس الأصل وسبّل الثمرة ٦٢
٢٨ حبك الشيء يعمي ويصم ١٤
٣٤٣ حبك الشيء يعمي ويصم ١٦٨
٣٤ حد الساحر ضربهُ بالسيف ١٦
٧٨٨ حديث الجذع ٥٤٨
٨٥٩ الحسنى الجنة ٥٩٥
٤٣٥ الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل ٢١٢
١٦٥ حق المسلم على المسلم ستٌّ ٧١
١٣٧ الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا ٥٧
٥٨٩ خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا ٣٥٠
١٨٨ خذوا عني قد جعل الله لهنَّ سبيلا ٨٠
٢٩٨ خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري، وعديّ بن بداء ١٢٥
٤٢٨ خرجت من نكاح ٢٠٧
٣٢٣ خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا ١٤٩
٧٣٢ خطبنا رسول الله ﷺ خطبةً، فحمد الله وأثنى عليه ٥١٠
٧٣١ خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت ٥٠٩

٥٢٤ خلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار........................ ٢٩٩
٧٥٨ خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار........................ ٥٣١
٤٨٣ خُلقت الملائكة من نور، وخُلقت الجان من مارج من نار........................ ٢٦٣
٢٥١ خيرُ الشهداء الذي يأتي الشهادة قبل أن يُسألَهَا........................ ١٠٠
٨٤ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى........................ ٣٤
٧٦٣ خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم........................ ٥٣٤
٢٠٣ خير النساء امرأة إذا نظرتَ إليها سرّتْك........................ ٨٤
١٢٩ الخير كله بيديك والشر ليس إليك........................ ٥٣
٥٦٤ الخير كله بيديك والشر ليس إليك........................ ٣٣٤
٨٤٧ الخير كله بيديك والشر ليس إليك........................ ٥٩٠
١٣٥ خير نسائها مريم بنت عمران........................ ٥٥
٦٨٧ الخيل معقود بنواصيها الخير........................ ٤٥٥
٨٨٤ دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافّتاه خيام اللؤلؤ........................ ٦٠٢
٧٤ دخلت العمرة في الحج........................ ٣٠
٥٥٨ دعوة ذي النون........................ ٣٢٩
١٢٦ الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة........................ ٥١
٤٨٧ ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ........................ ٢٦٨
٢٩٦ ذروني ما تركتكم........................ ١٢٤
٤٠٧ ذكر أن رجلًا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا........................ ١٩٧
٧٤٢ ذكرك أخاك بما يكره........................ ٥١٧
٨٥٦ الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء........................ ٥٩٤
١٠٦ رأس الحكمة مخافة الله........................ ٤٥
٧١٤ رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجرّ قُصُبَهُ في النار........................ ٤٨٥
٧٩ ربح البيع أبا يحيى........................ ٣٢
٢٤١ رجل سرق درعًا واتُّهم بها بريئًا، وحلف أنه ما سرقها........................ ٩٥
٧٨٢ رحم الله رجلًا يفسح لأخيه........................ ٥٤٣
٥٢٧ رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب........................ ٣٠٢
٤٦٠ الرؤيا على رِجل طائر ما لم تعبّر فإذا عبرت وقعت........................ ٢٤٠
٢٤٠ سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: ركعتان تمام غير قصر........................ ٩٥
٥٩٦ سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري........................ ٣٥٣
٣٠٦ سألت ربي ثلاثًا........................ ١٣٥
٣٥٨ سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت........................ ١٧٧
٧٨٠ السَّام عليك يا أبا القاسم فيجيبهم رسول الله ﷺ وعليكم........................ ٥٤٣
٤٦٤ سبحان الذي وسع سمعه الأصوات........................ ٢٥٠
٦١٢ سبحانك اللهم ربنا وبحمدك........................ ٣٦٥
٤٥٩ سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله........................ ٢٣٩
٧٧٠ سبق درهم مائة ألف........................ ٥٣٨
٤٢٣ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله........................ ٢٠٥
٨٠٥ سياحة هذه الأمة الصيام........................ ٥٦٠
١٤٨ سئل رسول الله ﷺ عن معنى السبيل، فأجاب: الزاد والراحلة........................ ٦٢
٦٣٧ سينهاه ما تقول........................ ٤٠١
٥٨٥ شأن الله أعظم من ذلك، إن عرشه على سمواته هكذا........................ ٣٤٧
٣٦٣ شاهت الوجوه........................ ١٧٩
٨٤٦ الشاهد يوم الجمعة........................ ٥٩٠
٨١٩ شر ما في رجل شحٌّ هالعٌ وجبنٌ خالعٌ........................ ٥٦٩

٩٤ شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ٣٩
٧٣٣ شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها إذ الناس ينفرون الأباعر ٥١١
٣٥ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ١٧
٦٢ الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة ٢٧
٨٥٥ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة ٥٩٤
٢٠٤ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة ٨٤
١٧٥ صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنبك ٧٥
٢٣٨ صلاة السفر ركعتان ٩٤
٤٢١ صلاة في مسجد قباء كعمرة ٢٠٤
٨٣٤ الصلاة وما ملكت أيمانكم ٥٧٩
٢٣٦ صلّى بنا رسول الله ﷺ آمنَ ما كان بمنى ركعتين ٩٤
٧٠٤ ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم ٤٧٩
٤٧٧ ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة؛ قال: هي النخـلة ٢٥٩
٢١١ ضربة للوجه والكفين ٨٥
٢٦٧ ضربة للوجه والكفين ١٠٨
٣٥١ الطاعون رجز، عذاب عُذِّب به من كان قبلكم ١٧١
٦٥٠ طلحة ممن قضى نحبه ٤٢١
١٩٨ طلِّق أيَّهما شئت ٨١
٦٤٣ عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيرًا له ٤٠٨
٣٤٠ عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيرًا له ١٦٢
١٦٠ عرف الحق لأهله ٦٧
١١٩ على اليد ما أخذت حتى تؤدِّيه ٤٩
٤٢٦ عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ٢٠٦
٣٤١ غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد ١٦٦
٧٩٩ غسل الجمعة واجب على كل محتلم ٥٥٤
١٣٢ فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ٥٤
١٢١ فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم ٥٠
٤٥٨ فإذا هو قد أُعطيَ شطر الحُسْن ٢٣٩
٦٧٠ فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني ٤٣١
٤٦ فالأنبياء إخوة بنو علَّات أمهاتهم شتى ٢٠
٧٤٧ فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ٥٢٠
٤٣٩ فإن لم تكن تراه فإنه يراك ٢١٥
٣٨٨ فجعل المسلمون يقولون: يا لبيك، يا لبيك ١٩٠
٩٦ فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضَر أربعًا ٣٩
٢٣٧ فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ٩٤
٥٧٦ فضلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما ٣٤١
٢٧٧ فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: نعم ١١٤
٧٩١ فكتب حاطب كتابًا وأرسله مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ٥٤٩
٧٦١ فلم أر عبقريًا يفري فَرْيَه ٥٣٤
٨٧١ فما فجأهم منه إلا وهو ينكفئ على عقبيه، ويتقي بيده ٥٩٧
٣١٨ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ١٤٤
٨٥٨ فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى ٥٩٥
٨٢٨ فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا جنون ٥٧٦
٤٦٨ في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلِّها مائة سنة اقرأوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ٢٥٣
٣٣٦ فيأتوني فأضرب بيدي على صدري ثم أقول: أنا لها ١٥٦

٣٢٩ فيأتي المؤمن شابٌ حسن اللون، طيب الريح ١٥١
٤٩ فيدعى محمد وأمته فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ ٢٢
٣٥٢ قاتَلَ الله اليهود، إنّ الله لما حرَّم عليهم شحومَها جَملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنَهُ ١٧١
١٥٩ قال إبليس: يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم........ ٦٧
١٩٠ قال إبليس: يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ٨٠
٦٨١ قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت........ ٤٤٤
٤٠ قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك........ ١٨
٥٧٥ قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ٣٤١
٣٥٠ قال الله لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدا ١٧١
١٢٠ قال الله: قد فعلت........ ٤٩
٨٤١ قال جبريل: يا محمد عِش ما شئت فإنك ميت ٥٨٩
٨٢٩ قال ربكم: أنا أهل أن أُتَّقى فلا يجعل معي إله........ ٥٧٧
٦٨٨ قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة ٤٥٥
٧ قال عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل........ و
٤٣٣ قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ ٢١٠
٥١١ قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك ٢٨٨
٨٨٥ قالوا: بُتر محمد؛ فأنزل الله: إن شانئك هو الأبتر........ ٦٠٢
٤٥٤ قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا ٢٣٥
٤١٧ قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: اخرج يا فلان ٢٠٣
٤٩٧ قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنَّعه الله بما آتاه ٢٧٨
٦٧٣ قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنَّعه الله بما آتاه ٤٣٢
٤٢٤ قد أوحى الله إليّ كلمات فدخلن في أذني، وَوَقَرْنَ في قلبي........ ٢٠٥
٣٦٨ قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا........ ١٨١
٧٧٥ قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ٥٤٠
٤٤١ قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء ٢١٩
٥٩٢ قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة ٣٥٢
٢١٣ قرأ رجل عند عمر هذه الآية، فقال عمر: أعدها عليّ، فأعادها........ ٨٧
٧٠٦ قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية أي ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾........ ٤٨٠
٦٦٧ قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسمًا ٤٢٧
٣٩٧ قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه، لأبصرنا تحت قدميه ١٩٣
٥٥٤ قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ٣٢٤
٥٦٧ قلت: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ ٣٣٥
٦٢٣ قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ٣٨٤
٣٦٤ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ١٧٩
٧١٨ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ٤٨٩
٥٧٨ قم يا بلال فأرحنا بالصلاة ٣٤٢
٣٧٦ قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض........ ١٨٥
٨٦٨ قيّدوا العلم بالكتابة........ ٥٩٧
٦٠٩ قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ٣٦٠
٦٦٥ قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه ٤٢٦
٧٧٧ كان ﷺ كلما قال لها: حرمتِ عليه، تقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ٥٤٢
٩٥ كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة ٣٩
٤٤٥ كان الله ولم يكن شيء معه........ ٢٢٢
١٧٢ كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ٧٤
٦٤٧ كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر من يوم الجمعة بالسجدة ٤١٥

١٣٨ كان أهل نجران أول من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ ٥٨
٤٠٢ كان بنو سلمة ملّوا سيادة الجد بن قيس عليهم لبخله فسوّد رسول الله ﷺ بشر بن البراء ١٩٥
٧٧٩ كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة ٥٤٣
١٧ كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ٧
٧٢٧ كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها ٥٠٥
٧١٠ كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: أعوذ بالله السميع العليم ٤٨٠
١٢٢ كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يدعو: يا مقلّب القلوب ثبتْ قلبي على دينك ٥٠
٢٥٠ كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم مِن مَكثه عندنا ٩٩
٨٧٧ كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويستمع الأذان فإن سمع أذانًا وإلا أغار ٥٩٩
٤٦٥ كان عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما إذا سَمعَ الرَّعدَ تركَ الحديث ٢٥٠
٨٨٧ كان عليه الصلاة والسلام بعد ذلك أشد ما يكون اجتهادًا في أمر الآخرة ٦٠٣
٣٨٥ كان عليه الصلاة والسلام ينادي: إليّ عباد الله، إليّ أنا رسول الله ١٩٠
١٩٤ كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن ٨١
٨٢١ كان هؤلاء رجالًا صالحين فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم ٥٧١
٨٤٩ كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة ٥٩٢
٧٩٣ كان يمتحنهن: بالله ما خرجتِ من بغض زوج ٥٥٠
٧٨٦ كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ٥٤٦
٧٤٠ الكبر بطر الحق وغمط الناس ٥١٦
١٤٠ كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ ٥٩
٥٣٧ كذبني ابن آدم، ولم يكن له أن يكذبني ٣١٠
٢٢٥ كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع ٩١
٦٧٥ كلُّ ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، فمنه خلق ومنه يركَّب ٤٣٥
٨٣٧ كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب ٥٨٥
٣٣١ كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها ١٥٣
٨٦٠ كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى ٥٩٦
٦٩٤ كل أهل النار يرى مقعده من الجنة ٤٦٥
٥٩٩ كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرّت بالمجلس فهي كذا وكذا ٣٥٣
٢٤٤ كل معروف صدقة ٩٧
٣٥٣ كل مولود يولد على الفطرة ١٧٣
٨٣١ كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه إما شاكرًا وإما كفورًا ٥٧٨
٢٤٣ كلام ابن آدم كله عليه لا لهُ، إلا ذكر الله عز وجل ٩٧
٣٢٧ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ١٥١
٨٥٠ كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله ٥٩٢
٦٧٦ كلهم من هذه الأمة، وكلهم في الجنة ٤٣٨
٥٨١ كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة ٣٤٣
٣٢٠ كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة ١٤٦
٢٦٠ كلوه إن شئتم فإنّ ذكاته، ذكاةُ أمّه ١٠٦
٧٧١ كم من عِذْقٍ رداح في الجنة لأبي الدحداح ٥٣٨
٣٤٩ الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ١٧١
١٨ الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين ٨
٤٧٦ كنا عند رسول الله ﷺ فأتي بجُمَّار فقال: مِنَ الشجر شجرة مثلُها مثل الرجل المسلم ٢٥٨
٥٢٢ كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ٢٩٧
٩٨ كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمئة وبضعة عشر ٤١
٧٣٥ كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فقال لنا رسول الله: أنتم خير أهل الأرض ٥١٢
٨٨٣ كنت أصلي فدخل عليَّ رجلٌ فأعجبني ذلك ٦٠٢

٥٤٠ كنتُ رجلًا قينًا وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه منه ٣١١
٥٣٠ كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ٣٠٤
٨٢٦ كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر ٥٧٥
٤٤٢ لا أشـك ولا أسأل ٢١٩
٦٤ لا أعافي رجلًا قتل بعد أخذ الدية ٢٧
٦٥١ لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر ٤٢١
١٤٥ لا إنه لم يقل يومًا من الدهر: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ٦١
٣٩١ لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ١٩١
١٦١ لا تتمنَّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ٦٨
٣ لا تجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن .... و
١٠ لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ٢
١٩٣ لا تحرّم الرضعة أو الرضعتان ٨١
٤٨٥ لا تدخلوا بيوت القوم المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين ٢٦٦
٣٣٨ لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ١٦٠
٥٠١ لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ٢٨٣
٤٣٢ لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم ٢٠٩
٤٨٦ لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن أربع ٢٦٧
٧٢٤ لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر ٥٠١
٣٢٢ لا تشركوا بالله شيئًا وإن قطِّعتم أو صُلبتم أو حُرقتم ١٤٨
٨٢٢ لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي ٥٧١
٦٣٨ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ٤٠٢
٤٧ لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم ٢١
٢٥٨ لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارى عيسى ابن مريم ١٠٥
٩٩ لا تفضِّلوني على الأنبياء ٤٢
٨ لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم .... و
٧٦٧ لا تقولنَّ زرعتُ، ولكن قل: حرثتُ ٥٣٦
٨١٨ لا توعي فيوعيَ الله عليكِ ٥٦٩
١٠٧ لا حسد إلا في اثنتين ٤٥
٤٩٦ لا حلف في الإسلام ٢٧٧
١٩٦ لا رضاع بعد فصال ولا يُتم بعد احتلام ٨١
٢١٦ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٨٧
٦٤٤ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٤١٢
٦٦١ لا طلاق قبل النكاح ٤٢٥
٦٦٠ لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك ٤٢٥
٨٣ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيّة ٣٤
٥٨٤ لا يا بنت أبي بكر ٣٤٦
٥٣٨ لا يبـقى بـرّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردًا ٣١٠
٥٢٩ لا يبقى ممّن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته عينٌ تطرف ٣٠٢
٩٢ لا يُحرِّمُ مِنَ الرضاعة إلّا ما فتقَ الأمعاء في الثّدي ٣٧
١٩٥ لا يُحرِّمُ مِنَ الرَّضاعة إلّا ما فتقَ الأمعاء في الثّدي ٨١
٥٠٧ لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث ٢٨٥
٢٣٠ لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث ٩٣
٩٣ لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ٣٨
٨٠٩ لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة ٥٦٢
١٥ لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر ٦

٨١٢ لا يدخل الجنة نمَّام ٥٦٤
٣٨١ لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم ١٨٦
٨٦٥ لا يشكر الله من لا يشكر الناس ٥٩٦
٢٧٨ لا يقتل مسلم بكافر ١١٥
٥٢٨ لا يقضي الله لمؤمن قضاءً إلَّا كان خيرًا له ٣٠٢
٥٣٩ لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة أولاد فتمسّه النار إلَّا تحلة القسم ٣١٠
٧٠٥ لا يموتن أحدٌ منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ٤٧٩
٩٠ لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الرب عز وجل، ولا في قطيعة رحم ٣٦
٢١٧ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده، والناس أجمعين ٨٨
٢٠٧ لا، إنه لم يقل يومًا من الدهر: ربِّ اغفر لي خطيئتي يومَ الدين ٨٥
٤١٢ لأزيدنَّ على السبعين ٢٠٠
٦١٧ لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره ٣٦٦
١٠١ لتَأْتِيَنَّ يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة ٤٤
٥٩٠ لَحَدٌّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا ٣٥٠
٢٨٨ لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم ١٢٢
١١٣ لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه ٤٧
٥٢١ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ٢٩٦
٦٠ لعن الله من ذبح لغير الله ٢٦
٢٩٠ لعنت الخمرة على عشرة أوجه ١٢٣
٨٩ اللغو في اليمين، هو كلام الرجل في بيته: كلَّا والله، وبلى والله ٣٦
٣٤٨ لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحدٌ من قبلي ١٧٠
٦٦٨ لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود ٤٢٩
١٢٤ لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ ٥١
٧٣٤ لقد نزلت عليَّ الليلة آية أحب إلي مما على الأرض ٥١١
٨٩٠ لكل شيء نسبة ٦٠٤
١٣٦ لكل نبيّ حواري وحواريَّ الزبير ٥٦
١٣٩ لكل نبي ولاة من النبيين ٥٨
٢١٨ للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي ٨٩
٨٢٠ للسائل حق ولو جاء على فرس ٥٦٩
٤٧١ لم يبعث الله عز وجل نبيًّا إلا بلغة قومه ٢٥٥
٦٦٣ لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء ٤٢٥
٨٣٥ لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرَّت ٥٨٤
٧٣٦ لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا ٥١٤
١٦٨ لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد ٧١
٢٤٩ لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة ٩٩
٢٨٧ لما مات النجاشي صلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب ١٢١
٤١٠ لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ١٩٩
٢٣٢ لما نزلت: لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٩٤
٣١١ لما نزلت: ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شقَّ ذلك على الناس ١٣٨
٦٥٢ لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم ٤٢١
٦٧٩ لن يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنة ٤٣٨
٨٦٧ لن يغلب عسرٌ يسرين ٥٩٦
٢٦٢ لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائرًا ١٠٧
٣٨٠ الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول، فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا ١٨٦
٨٨٠ اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ٦٠٢

٤٩٩ اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف ٢٨٠
٧٠٩ اللهم اغفر للمؤذنين ثلاثًا ٤٨٠
٨٦٣ اللهم أمتي أمتي وبكى ٥٩٦
٢٢١ اللهم أَنْجِ الوليدَ بن الوليد، وسلمة بن هشام ٩٠
٣٨٩ اللهم أنجز لي ما وعدتني ١٩٠
٥٨٨ اللهم إني أعوذ بك من الهرم ومن الغرق ٣٤٨
٥٤٩ اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ٣٢٠
٤١٦ اللهم صلِّ على آل أبي أوفى ٢٠٢
٧٩٠ اللهم عَمِّ عليهم خبرنا ٥٤٩
٦١٩ اللهم في الرفيق الأعلى ٣٧٠
٨٠٧ اللهم لا تخزني يوم القيامة ٥٦١
٤٨٠ اللهم لك الحمد غير مكفيّ ولا مودَّع ٢٦٠
٩ اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله ١
٣٣٧ اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله ١٥٧
٦٦٢ اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ٤٢٥
٣١٥ اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ١٤١
٤١١ لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت ٢٠٠
٥١٣ لو أنَّ أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان ٢٨٨
٧٢٠ لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء ٤٩٢
٢١٩ لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل ٨٩
٢٩ لو أن اليهود تمنوا الموت، لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ١٥
٧٢١ لو أن رجلين تحابا في الله ٤٩٤
٢١ لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد ١١
٧٥٣ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا ٥٢٧
٢٢ لو ذبحوا أي بقرة كانت لأجزأتهم ١١
٦٥٧ لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه ٤٢٣
٤٦١ لو لبثت ما لبث يوسف ثم جاءني الداعي لأجبته ٢٤١
٣٩٢ ليبلُغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلَّا أدخله هذا الدين ١٩٢
٢٤ ليس الإيمان بالتمنّي ولكن ما وقر في النفس، وصدقه العمل ١٢
١٥٦ ليس الشديد بالصُرعَة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ٦٧
٨٣٣ ليس المسكين بهذا الطواف الذي تردّه التمرة والتمرتان ٥٧٩
١١١ ليس المسكين بهذا الطوّاف، الذي ترده التمرة والتمرتان ٤٦
٨٠٠ ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزًا لك ٥٥٧
٧٩٥ ليس منا من ضرب الخدود ٥٥١
٣٠٧ ليكوننَّ في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ ١٣٥
٨٧٠ لئن فعل لأخذته الملائكة ٥٩٧
٦١٣ ما أحسن القصد في الغنى وما أحسن القصد في الفقر ٣٦٥
٧٧٦ ما أراكِ إلا قد حرمتِ عليَّ، فانطلقي إلى النبي ﷺ ٥٤٢
٣٩٥ ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليمّ ١٩٣
٣٥٧ ما المسؤول أعلم بها من السائل ١٧٤
٢٨٩ ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ١٢٢
٥٩٣ ما بغت امرأة نبي قط ٣٥٢
٨٠٨ ما بغت امرأة نبي قط ٥٦١
١٢٥ ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء ٥١
٧٨٣ ما ترى؛ دينار؟ قال: لا يطيقون. قال: نصف دينار؟ ٥٤٤

٣١٦ ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ١٤٢
٥١٧ ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيك ٢٩١
٢٨٦ ما خلا يهودي بمسلم إلَّا هم بقتله ١٢١
٤٤٨ ما زنت امرأة نبيّ قط ٢٢٧
٧٨٤ ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت وما كانت إلا ساعة ٥٤٤
٢٩٥ ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ١٢٤
٣٣٢ ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه ١٥٤
٥٠٨ ما من آدمي إلّا في رأسه حَكَمَةٌ بيدِ مَلَك ٢٨٥
٦٣٩ ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ٤٠٢
٥٦٨ ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر ٣٣٥
٤٩٥ ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا ٢٧٧
٦١٦ ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحلُّ له ٣٦٦
٣٩٤ ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله، إلّا جعل له يوم القيامة صفائح من نارٍ ١٩٢
١٣١ ما من مولود يولد إلا مسّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مسّه ٥٤
٦٤٩ ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ٤١٨
٥٨٣ ما من نبي إلا رعى الغنم ٣٤٥
١٣ ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ٤
٤٣٧ ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ٢١٣
١٦٩ ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرُّها أن ترجعَ إلى الدنيا إلّا الشهيد ٧٢
١٧٤ المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبَي زور ٧٥
٥٤٣ مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها ٣١٤
٢٥٤ مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغَنَمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تدري أيّهما تتبع ١٠١
٤٠٨ مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم ١٩٨
٥٥٦ مرَّ ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل ٣٢٨
١٩٢ مرَّ بي عمي الحارث بن عمير، ومعه لواء قد عقده له النبيّ ﷺ ٨١
٦٢٧ مرحبًا بقوم شعيب وَأَخْتَانِ موسى هُديت ٣٨٨
١٦٧ المستشار مؤتمن ٧١
٤٧٩ المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ٢٥٩
٦٣ المسلمون تتكافأ دماؤهم ٢٧
٣٠٥ مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ١٣٤
٨٦ مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج ٣٥
٧٥٧ المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ٥٣١
٨٧ ملعون من أتى امـرأتـه في دُبـرها ٣٥
٣١٤ ملعون من سبّ والدَيه ١٤١
٦٩١ من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى ٤٦٢
٣٠ من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ١٥
٤٥٢ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ٢٣٤
٦٣٠ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ ٣٩٣
٣٦٦ من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ١٨١
١٧٣ من ادعى دعوى كاذبةً ليتكثّر بها لم يزدْهُ الله إلّا قلةً ٧٥
٣٢١ من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه ١٤٨
١١٦ من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم ٤٨
٥٠٣ من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسدَّ فاقته ٢٨٤
٨٥٤ من أعتق رقبةً مؤمنةً أعتق الله بكل إرب منها إربًا منه من النار ٥٩٤
٣١٢ من أعطي فشكرَ، ومُنع فصبرَ ١٣٨

١١٥ من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثله صدقة ٤٧
٥٣ من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه ٢٣
٣٠٢ من بلغه القرآن فكأنما شافهته به ١٣٠
٢٧٩ من تصدّق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت ١١٥
١١٤ من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب ٤٧
٢٨٣ من حدثك أن محمدًا كتم شيئًا من ما أنزل الله عليه فقد كذب ١١٩
٨٦٩ من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع ٥٩٧
٤٨٩ من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعه ٢٦٩
٦٣٥ من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ٣٩٧
٦٠٣ من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حقَّ له ٣٥٦
٥٢ من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ٢٣
١٥٢ من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ٦٣
٦٢٢ من زعم أنه يعلم ما يكون في غدٍ، فقد أعظم على الله الفرية ٣٨٣
٤١٥ من سكن البادية جفا ٢٠٢
٨٨٢ من سمَّع الناس بعمله سمَّع الله به سامع خلقه، وحقَّره وصغَّره ٦٠٢
٧٥٩ من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا ويضع آخرين ٥٣٢
١٠٣ من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه ٤٥
٦٦٦ من صلى عليَّ مرةً صلى الله عليه بها عشرًا ٤٢٦
٣١ من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب ١٥
٣٩ من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد ١٧
١٤٣ من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌ ٦١
١٣٠ من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ ٥٤
٦٣١ من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ ٣٩٣
٣٢٤ من غشّنا ليس منّا ١٥٠
٨٧٩ من فاتته صلاة العصر حبط عمله ٦٠١
٣٩٨ من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ١٩٣
٥١٦ من قال حين يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة ٢٩٠
٢٠٢ من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده ٨٣
٥١٩ من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، عصم من الدجّال ٢٩٣
٤ من كان له إمام، فقراءة الإمام له قراءة .... و
٣٢ مَنْ كنتُ خصمَه خصمتُهُ ١٥
٦٧٨ من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ٤٣٨
٢٩٢ من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله ١٢٣
٨٢ من مات ولم يغزُ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية ٣٤
٥٤٢ من نام عن صلاة أو نسيها فكفّارتها أن يصليها إذا ذكرها ٣١٣
٨٣٢ من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه ٥٧٩
٣٠٩ من نسي صلاةً أو نام عنها فليصلّها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك ١٣٦
٨٤٢ من نوقش الحساب عُذِّبَ ٥٨٩
٣٣٩ من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ١٦١
٤٤٩ من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ٢٣١
٤٠٥ من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدّين، وإنما أنا قاسمٌ، والله يعطي ١٩٦
٢٧٠ من يمنعك مني؟ ١٠٩
٧٠٨ المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة ٤٨٠
٧٧٤ موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها ٥٤٠
٧٢٩ المؤمن يأكل في معىً واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء ٥٠٨

٤٨٢ النائحة إذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار وسرابيلها من قطران وتغشى وجهها النارُ ٢٦١
٨٥ نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا........ ٣٥
٤٨٨ نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة ٢٦٨
٢٦٨ نحلني أبي نحلًا فقالت أمي عمرةُ بنتُ رواحة: لا أرضى حتى تُشهِدَ رسول الله ﷺ........ ١٠٨
٤٥ نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد ٢٠
٤٤٠ نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد........ ٢١٧
٥٣١ نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ٣٠٥
٦٢٠ نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة ٣٧٨
٦٩٣ الندم توبةٌ ٤٦٤
٢٩٩ نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ١٢٧
٥٢٣ نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الآية، فخرج يلتمسهم ٢٩٧
٧٣٧ نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بن أبي معيط........ ٥١٦
٧٨٥ نصرت بالرعب مسيرة شهر ٥٤٥
٦٨٢ نعم يميتك ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار........ ٤٤٥
٨٨٦ نعيت إليَّ نفسي ٦٠٣
٥٦٣ نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ٣٣٤
٦٢١ نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع دواب........ ٣٧٩
٨١٤ نهى عن الجِدَاد في الليل والحصاد في الليل........ ٥٦٥
٢١٥ هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر ٨٧
٥٩١ هذا إفك مبين، أكنت يا أم أيوب فاعلته؟. قالت: معاذ الله! ٣٥١
٤٠٠ هذا أمر قد توجَّه ١٩٥
٨٨١ هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها........ ٦٠٢
٧٦٦ هما جميعًا من أمتي........ ٥٣٥
٢٩٤ هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته........ ١٢٤
٨٠٦ هي الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله ٥٦١
٥١٢ هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ٢٨٨
٨٦٤ واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا ٥٩٦
٣٧٨ وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ من قبلي ١٨٥
٥٨٦ وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون........ ٣٤٨
٤٦٧ وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر........ ٢٥٢
١٩١ واستوصوا بالنساء خيرًا ٨١
٣٣٥ واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة........ ١٥٥
١٨٥ وأكل مال اليتيم ٧٨
٦٥٣ والآن نغزوهم ولا يغزونا........ ٤٢١
١ والذي نفسي بيده إنها السبع المثاني .... و
٦١٠ والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار........ ٣٦١
٤٤٦ والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ٢٢٣
٤٣ والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ١٩
١٠٠ والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي........ ٤٢
٧١٢ والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ٤٨٣
٦٢٩ والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليمِّ........ ٣٩٣
١٧١ والله ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم........ ٧٤
٣٧٠ وآمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع ١٨٢
٨٦٦ وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرًا........ ٥٩٦
٤٠٤ وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ١٩٥

٤٧٤ وإنّ عندَ الله عهدًا لِمَن يشـرب المسكرَ أن يسقيهُ من طينة الخَبال ٢٥٧
٢ وإنَّها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته ١
٦٠٨ وإني أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ٣٥٩
٢٢٠ وتكفّل الله للمجاهد في سبيله إن توفَّاه أن يدخله الجنة ٨٩
٤٥٧ وتكلم أربعة وهم صغار، فذكر فيهم شاهد يوسف ٢٣٨
٣٢٦ وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين ١٥٠
١٠٨ ورجل تصدّق بصدقـة فأخفـاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ٤٦
٦٠٢ وضـع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ٣٥٤
٨٤٣ وقت المغرب ما لم يغب الشفق ٥٨٩
٢٣٩ وقد فعل ﷺ كذلك ببطن نخل ٩٥
٣٦٠ وقف النبي ﷺ يدعو يوم بدر: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ١٧٨
٥٢٦ وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلا ٣٠٠
٦٧١ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس عامةً ٤٣١
٣٧٧ وكان أمر الرسول ﷺ بفداءٍ أو ضربة عنق ١٨٥
٢٢٩ وكان عياش مسلمًا، ويعذبه على الإسلام أبو جهل والحارث بن يزيد الغامدي ٩٣
١٨٢ ولا يُتْمَ بعد احتلام ٧٧
٧٩٧ ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالا ٥٥٣
٥٠٩ وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله ٢٨٥
٧١٦ وما زاد الله تعالى عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا ٤٨٧
٥٣٦ وما يمنعك أن تـزورنا أكثر مما تزورنا ٣٠٩
٤٧٨ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هـي: الحنظلـة ٢٥٩
١٧٠ ومن آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثّل له شجاعًا أقرع ٧٣
٣٣٠ ومَن لَبِسَ ثوبًا جديدًا، فقال: الحمدُ لله الذي كساني هذا ١٥٣
٤٧٥ ويا أهلَ النار خلود بلا موت ٢٥٧
٨٢٧ ويل: وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا ٥٧٥
٣٠٤ يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ ١٣١
٦٤٥ يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس ٤١٤
٧٤٩ يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسدَّ فقرك ٥٢٣
٣٨٦ يا أصحاب الشجرة ١٩٠
٣٨٧ يا أصحاب سورة البقرة ١٩٠
٤١٣ يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ٢٠٠
٣٧١ يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية ١٨٢
٣١٩ يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ١٤٥
٧٨٩ يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ٥٤٨
٣٤٢ يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط ١٦٧
٦٦ يا رسول الله إنّ لي مالًا ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: لا ٢٨
٤٦٣ يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ٢٤٧
٨١٠ يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟! ٥٦٣
١٧٦ يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ٧٦
٦٦٤ يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ٤٢٦
٦٠٤ يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ ٣٥٧
٥٠٦ يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ فقال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ٢٨٥
٥٧ يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ٢٥
١٤٧ يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام ٦٢
٢٤٧ يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية ٩٨

٢٧٢ يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ١١٢
٧٥٦ يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا ٥٣١
٧١١ يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ٤٨١
٤٣٨ يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ٢١٤
٤٥٠ يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ٢٣٣
٦٨٩ يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم ٤٥٩
٤٥٣ يا معاذ: أتبع السيئة الحسنة تمحها ٢٣٤
٦٠١ يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ٣٥٤
٤٤٤ يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تصبحكم ألستم مصدقيّ ٢٢١
٥١٤ يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ٢٩٠
١٦ يجاءُ بالرجُلِ يَوْمَ القيامَةِ فيُلْقَى في النارِ، فتَنْدَلِقُ أقتابُهُ ٧
٦٣٦ يحذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم ٣٩٩
١٩٧ يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ٨١
٥٦٠ يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا كما خلقوا ٣٣١
٤٨١ يُحشرُ الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء، كقرصةِ النَّقي ٢٦١
٤٧٣ يخرج عنق من النار يوم القيامة ٢٥٧
٤٨ يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ ٢٢
٣٤٤ يرحم الله موسى ليس المعاين كالمُخبر ١٦٩
٥٥٠ يسلط الله عليه فيه تسعًا وتسعين حيةً ٣٢٠
٨١٧ يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ٥٦٧
٤٨٤ يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحّوا فلا تمرضوا أبدًا ٢٦٤
٦٩٦ يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه ٤٦٥
٨٧٨ يقول العبد: مالي مالي، وإن له من ماله ثلاثًا ٦٠٠
٣٧٢ يقول الله تعالى: إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه ١٨٢
٥٨ يقول الله تعالى: إن كل مالٍ منحته عبادي، فهو لهم حلال ٢٥
٦٤٢ يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم ٤٠٧
٦٤١ يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ٤٠٧
١٥٣ يقول الله تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس؛ قال: خير النّاس للنّاس ٦٤
٥٥٣ يقول الله تعالى: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك وسعديك ٣٢١
٧٢٣ يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر بيدي ٥٠١
٨٠١ يقول الله: استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني ٥٥٧
٣٥٤ يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم ١٧٣
٨١٥ يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ٥٦٥
١٢٨ ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا ٥٢
٤٩٠ ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته ٢٧٠
٢٧٤ يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقال له: يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك؟ ١١٤
٧٢٦ يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض ٥٠٤
٢٥٧ يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، يقتلُ الدَّجال ١٠٣
٨٤٥ اليوم الموعود يوم القيامة ٥٩٠

فهرس الموضوعات

* تقديم فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان -حفظه الله- .... ج
* مقدمة المعتني .... خ
* ترجمة الشيخ العلامة محمد نسيب الرفاعي -رحمه الله- (بقلم تلميذه الشيخ عصام بن موسى هادي) .... ذ
* نماذج من التفسير بخط المؤلف الشيخ العلامة محمد نسيب الرفاعي -رحمه الله- .... ز
* مقدمة المؤلف .... م
* التعريف بسورة الفاتحة - تفسير الاستعاذة وأحكامها - تفسير البسملة وأحكامها وفضلها .... و
* سورة الفاتحة ١
* سورة البقرة ٢
* سورة آل عمران ٥٠
* سورة النساء ٧٧
* سورة المائدة ١٠٦
* سورة الأنعام ١٢٨
* سورة الأعراف ١٥١
* سورة الأنفال ١٧٧
* سورة التوبة ١٨٧
* سورة يونس ٢٠٨
* سورة هود ٢٢١
* سورة يوسف ٢٣٥
* سورة الرعد ٢٤٩
* سورة إبراهيم ٢٥٥
* سورة الحجر ٢٦٣
* سورة النحل ٢٦٧
* سورة الإسراء ٢٨٢
* سورة الكهف ٢٩٤
* سورة مريم ٣٠٥
* سورة طه ٣١٢
* سورة الأنبياء ٣٢٢
* سورة الحج ٣٣٢
* سورة المؤمنون ٣٤٢
* سورة النور ٣٥٠
* سورة الفرقان ٣٥٩
* سورة الشعراء ٣٦٧
* سورة النمل ٣٧٧
* سورة القصص ٣٨٥
* سورة العنكبوت ٣٩٦
* سورة الروم ٤٠٤
* سورة لقمان ٤١١
* سورة السجدة ٤١٥
* سورة الأحزاب ٤١٨
* سورة سبأ ٤٢٨
* سورة فاطر ٤٣٤
* سورة يس ٤٤٠
* سورة الصافات ٤٤٦
* سورة ص ٤٥٣
* سورة الزمر ٤٥٨
* سورة غافر ٤٦٧
* سورة فصلت ٤٧٧
* سورة الشورى ٤٨٣
* سورة الزخرف ٤٨٩
* سورة الدخان ٤٩٦
* سورة الجاثية ٤٩٩
* سورة الأحقاف ٥٠٢
* سورة محمد ٥٠٧
* سورة الفتح ٥١١
* سورة الحجرات ٥١٥
* سورة ق ٥١٨
* سورة الذاريات ٥٢٠
* سورة الطور ٥٢٣

❁ سورة النجم ٥٢٦
❁ سورة القمر ٥٢٨
❁ سورة الرحمن ٥٣١
❁ سورة الواقعة ٥٣٤
❁ سورة الحديد ٥٣٧
❁ سورة المجادلة ٥٤٢
❁ سورة الحشر ٥٤٥
❁ سورة الممتحنة ٥٤٩
❁ سورة الصف ٥٥١
❁ سورة الجمعة ٥٥٣
❁ سورة المنافقون ٥٥٤
❁ سورة التغابن ٥٥٦
❁ سورة الطلاق ٥٥٨
❁ سورة التحريم ٥٦٠
❁ سورة المُلك ٥٦٢
❁ سورة القلم ٥٦٤
❁ سورة الحاقة ٥٦٦
❁ سورة المعارج ٥٦٨
❁ سورة نوح ٥٧٠
❁ سورة الجن ٥٧٢
❁ سورة المزمل ٥٧٤
❁ سورة المدثر ٥٧٥
❁ سورة القيامة ٥٧٧
❁ سورة الإنسان ٥٧٨
❁ سورة المرسلات ٥٨٠
❁ سورة النبأ ٥٨٢
❁ سورة النازعات ٥٨٣
❁ سورة عبس ٥٨٥
❁ سورة التكوير ٥٨٦
❁ سورة الانفطار ٥٨٧
❁ سورة المطففين ٥٨٧
❁ سورة الانشقاق ٥٨٩
❁ سورة البروج ٥٩٠
❁ سورة الطارق ٥٩١
❁ سورة الأعلى ٥٩١
❁ سورة الغاشية ٥٩٢
❁ سورة الفجر ٥٩٣
❁ سورة البلد ٥٩٤
❁ سورة الشمس ٥٩٥
❁ سورة الليل ٥٩٥
❁ سورة الضحى ٥٩٦
❁ سورة الشرح ٥٦٩
❁ سورة الزلزلة ٥٩٩
❁ سورة العاديات ٥٩٩
❁ سورة القارعة ٥٦٠
❁ سورة التكاثر ٥٦٠
❁ سورة العصر ٦٠١
❁ سورة الهمزة ٦٠١
❁ سورة الفيل ٦٠١
❁ سورة قريش ٦٠٢
❁ سورة الماعون ٦٠٢
❁ سورة الكوثر ٦٠٢
❁ سورة الكافرون ٦٠٣
❁ سورة النصر ٦٠٣
❁ سورة المسد ٦٠٣
❁ سورة الإخلاص ٦٠٤
❁ سورة الفلق ٦٠٤
❁ سورة الناس ٦٠٤
❁ ملحق تخريج الأحاديث ٦٠٦
❁ فهرس الأحاديث ٦٢٤
❁ فهرس الموضوعات ٦٤٤